صَوتُ مَن لا صَوتَ لهُم

سلسلة النوابغ
٣

صَوتُ مَن لا صَوتَ لهُم

الأب پيير

أديب مصلح

منشورات المكتبة البولسية

طبعة أولى

١٩٩٧

جميع الحقوق محفوظة

©

منشورات المكتبة البولسية

إهداء

إلى جميع أبناء الكنيسة الأبرار
الذين بإنجازاتهم الرائعة، بدافع الحبّ،
أبرزوا وجه يسوع الحقّ
المتمثّل في الفقراء والمعذّبين

إلى حفيدي الغالي هنري بير
عسى أن تكون سيرة سميّك
هنري غرويس - الأب بير
نبراساً لمسيرة حياتك،
فتصبح، على غراره، عوناً لكل
إنسان على كلّ خير

أديب

فهرس

مقدمة ٧

الجزء الأول

نحو اكتشاف الله

آل غرويس ١٣

تأثير الوالدَيْن ١٩

سأُصبح بحّارًا... أَو مرسَلاً... أَو لصًّا ٢٥

تساؤلٌ وبحث ٢٧

جوعٌ إلى الصداقة ٢٩

نورٌ من أَسّيزي ٣١

سُحُبٌ، وعثراتٌ ونضوجٌ ٣٤

الوداع ٣٧

الكبّوشيّ المبتدئ ٣٩

الرّاهب ٤٣

امتحان الألم ٥١

المقاوِم ٥٥

الآنسة لوسي كوتاز: أَمينةُ سرٍّ وشريكةُ نضال........................ ٦٣
الكاهن النَّائب........................ ٦٦
عمّاوس ٧٩
الرفيق الأَول: جورج ٨٥
"الروّاد" ٨٩
كنتُ مُشَرَّدًا فآويتموني ٩٥
مآسي السَّكَن ١٠٠
"الحقل المزهر"........................ ١٠٥
صوتُ من لا صوت لهم........................ ١١٣
المتسوّل ١١٧
جامعو النفايات........................ ١٢٢
حبّة الخردل تنمو ١٢٥
الحياة في عمّاوس ١٣٩
إِرهاق وعزاء........................ ١٤٩
شهرةٌ وعنايةٌ إِلهيّةٌ........................ ١٥٦
حربٌ على البؤس ١٦١
شباط ١٩٥٤: انتفاضة العطف ١٧١
ابتكارات الحبّ ٢٠١

شهرةٌ وسخاءٌ ٢١١

الأُسطورة ٢١٦

خـــداعٌ وتحـــدٍّ.. ٢٢٣

استمرار التحدّي ٢٢٨

الاستشفاء الأوّل: خريف ١٩٥٤ .... ٢٣٧

النَّبيُّ في أَميركا ٢٤٦

ازدهارٌ شاقٌّ، وتمزّقاتٌ داخليّةٌ.. ٢٥١

اختراقٌ عالميٌّ: إِيرام ٢٧٣

عبور الصحراء: ١٩٥٨ .... ٢٧٦

قيـــــامة ٢٩٠

في موطن غاندي.. ٢٩٩

عمّاوس في بلاد الأَرز.. ٣٠٧

"مُدُن البؤس" في أَميركا الجنوبيّة ٣١٢

عمّاوس في الأَرجنتين ٣١٦

عمّاوس في الشيلي.. ٣٢٥

"عمّاوس الـــپـــيرو" ٣٣٥

"عمّاوس" في البرازيل.. ٣٤٠

الجوّالون ٣٤٧

عمّاوس في اليابان: "جيوكوكاي: نور الصباح" ٣٥٩
تلّة العذراء سيّدة الفقراء: عمّاوس في رواندا ٣٦٦
وفي كولومبيا ٣٧٢
رسالة من الغابون ٣٧٣
أَزَمَة نموّ ٣٧٤
غَضَبان مُقَدَّسان ٣٧٧
مساعي إصلاحٍ ووئامٍ ٣٨٣
خلوةٌ في الصحراء ٣٩٠
الغريق ٣٩٢
التنظيم ٤٠٢
بيان "عمّاوس العالميّ" ٤٠٨
وحدةٌ وتعدُّديَّة ٤١٥
تفرّغٌ ورُسُوخٌ ٤٢١
نداءٌ إلى الشباب ٤٢٦
صوفيّة عمّاوس ٤٣١
رحيل الآنسة كوتاز ٤٤٦
نصيرُ حُقوق الإِنسان ٤٤٩
انتفاضة عام ١٩٨٤ .... ٤٥٣

الأب پـــيير و"كولوش" ٤٥٨
رالي باريس – داكار........................ ٤٦٣
الشاهد ٤٦٤

الجُزءُ الثّاني

معالم على درب مسيرة

"ليست الحياة دربًا في الصحراء" ٤٨٣
قناعاتٌ وثَوابتُ ٤٨٦
مجنون حبّ الله ٥٠٠
"ســـرُّ الفَرَح"........................ ٥٠٧
الكاهن ٥١٠
ملامح ٥١٩
هل سيفلحون في تدمير الأَب پـــيير؟ ٥٣٠

الجُزءُ الثّالِث

مقتطفات من أقوال الأب پـــيير

تمهيد........................ ٥٣٥
أَحرارٌ لكي نحبّ........................ ٥٣٧

الإيمان "رغم كلّ شيءٍ" ٥٤٠
الفقر الطوعِيّ ٥٤٢
الرغبة في الحياة ٥٤٤
الصَّداقة ٥٤٥
المواجهة ٥٤٦
رسالة إلى الشباب ٥٤٧
معالجة آفات الشباب ٥٤٨
إلى الشباب ٥٤٩
كن طيِّبًا ٥٤٩
المدرسة تتجاوز المدرسة ٥٥١
بؤسٌ وحقارةٌ ٥٥٢
القضيّة الفلسطينيّة ٥٥٥
تكامل الأَجيال ٥٥٧
ذكريات عن البابا يوحنّا الثالث والعشرين ٥٥٨
ثقافة ٥٦٠
الحرّيّة ٥٦١
الحرب المثاليّة ٥٦٢
الرَّجاء ٥٦٣

الله، الإِيمان، الصلاة ٥٦٣
المحبّة ٥٧٢
الدعوة ٥٧٤
طريقة استعمال الحياة ٥٧٦
وجه الإِنسان ٥٨١
وَجْهُ الله ٥٨٢
من حصاد التَّجارب ٥٨٤
الفقر – المال – العطاء ٥٨٨
المشاركة والمساواة ٥٩٢
سرّ الأب پـيير ٥٩٤
عمّاوس ٥٩٥
الفهرس ٦٠١

مقدمة

"بورِكَ من وقى من اليأس قلبَ فتًى"
(جورج برنانوس)

في مُنْتَصَف الخمسينات، بُعَيْدَ "انتفاضة العطف"، الّتي أَذاعتْ شُهرتَه في أَرجاء المسكونة قاطبةً، مرَّ الأَبُ پيير بدمشق، وأَلقى مُحاضرةً في مدرسة "اللاييك"، أَمام جمهورٍ غفيرٍ، وحشدٍ من المسؤولين، تصدَّرهم رئيسُ الجمهوريَّة، آنذاك.

ومن موقعي في أَحد أَطراف القاعة، كنتُ أُنْصِتُ، في ذُهولٍ، إلى حديثٍ قلَّما استمعتُ لمثله، بحيثُ بدتْ لي أَلفاظُه وكأَنّها تنطقُ بمعانٍ بِكْرٍ، وبحيثُ خُيِّل لي أَنّني أَستمع، للمرَّة الأُولى، بعض مقاطعَ من الإنجيل.

يومَها، سمعتُ ذلك الكاهن النَّائب يُعلنُ أَنّ ما يجعل الإنسانَ أَخًا للإنسان، ليسَ العِرْق، والجنس، والوَطَن والدِّين، بل نوازع العَطْف، وصِدْق المحبَّة. هذا اليقينُ كان قد استمدَّه من تجربةٍ دامغةٍ خَبَرَها في أَثناءِ عَمله مُرشِدًا روحيًّا للجيش، حيثُ طالما شَهِد جُنديًّا يَقعُ مُصابًا، فيهرع أَخٌ له أَو قريبٌ، كي ينتزع من إِصبعه خاتمًا، أَو من مِعْصَمه ساعةً، أَو من جيبه محفظةً، في حين يُسارع آخَر، لا يجمعُه به أَيُّ رابطٍ سوى رابط الإنسانيّة، فيجثو أَمامه، ويأْخُذُه بين ذراعَيْه، ويحنو عليه، ويسكب في فمه قطرات الماء الثَّمينَة النّادرة، التي ما زال يحتفظُ بها لإرواء غليلٍ مُتَلظٍّ.

واستمعتُ، من فم مُؤَسِّس "عمّاوس"، إلى رِواية تلك المُغامرة المُذهلة الّتي مَكَّنتْ إِنسانًا وحيدًا يعيشُ الإِنجيل، بصِدْقٍ، في أَعماقه، من إِنقاذ أُلوف الأُسَر المُشرَّدة، وإِيوائها، ومن إِيقاظ ملايين الضَّمائر الغافية، واستنفار شَعْبٍ بكامله، استنفارًا كان يُؤَهِّلُهُ للقبض على مقاليد السُّلطة بين يدَيْه، لو هو شاء.

ولكنَّه لم يبتغِ، يومًا، سُلْطةً، ولم يرتحْ، قَطُّ، لشُهْرةٍ، وظلَّ يُكافح في صفوف "جامعي النِّفايات"، وباسمهم، من أجل خدمة الأَكثر تألُّمًا، في المقام الأول.

وباسم "جامعي النفايات" أَصبح "صوتَ من لا صوت لهم"، بل أَصبح نبيَّ عصرنا، وضميرَه.

وفي ما بعد، ترسَّختْ في ذهني صورةُ ذلك النَّبيِّ، كلّما شاهدتهُ أَو استمعتُ إِليه على شاشات التلفزيون، مُنذرًا بواجب المحبّة والعدل، ماضيًا في تأريق الضمائر المستكينة إلى سُبات الطمأنينة. ثمّ عكفتُ على استقراء أَخباره وشؤونه، فطالعتُ الكثير ممّا كَتَب، وممّا كُتِب عنه، فإِذا بي أَمام ظاهرةٍ نادرة المثال، غنيّةٍ بما يشحذ الفكر، ويهزُّ النفس، ويدعو إلى الاحتذاء؛ وقد زادني إليه انشدادًا أَنّه، منذ نشأته، انضوى تحت راية القدّيس فرنسيس الأسّيزي، الّذي من خلاله، اكتشف حبّ الله؛ وتأثَّر تأثُّرًا بليغًا ببطل اللاّ عنف المهاتما غاندي، وكلاهما أَثيرٌ على نفسي.

وفضلاً عن ذلك اكتشفتُ فيه كاهنًا حقًّا، فَقِهَ المعنى الأَعمق لرسالته، أَلا وهي التمثّل بالمسيح الذي كان قد تمثّل بكلِّ جائعٍ، وعطشان، وعريان، ومريضٍ، ومشرَّدٍ، وغريبٍ، وبالإِجمال كلّ من رَذَلَه المجتمعُ المطمَئنُّ لرفاهه، المنكفئُ على أَنانيّته، ولفظَه، وأَغفلَه. تلك الرّسالة هي من صُلب واجب الكنيسة، وإِن التهى، غالبًا، عنها، بعض المسؤولين الكنسيّين بمشاغلَ لم تكن لتشغل، في شيءٍ، معلّمهم يسوع.

غير أَنّ الكنيسة لم تفتقر، يومًا، إلى وُجوهٍ نيّرةٍ من أَبنائها، لم يُلهِهِمْ عن الإِنجيل شيءٌ، وكانوا، هم، وجه المسيحيّة الأَصيل المشرق، وممثّلي الكنيسة الحقّة، التي ما انفكّت، منذ أجيالٍ، تقرع نواقيس الإِنذار، وتتميّز عن مادّيّة اليمين ومادّيّة اليسار، اللتَيْن تتنافسان، شراسةً، على امتلاك العالم، بانتهاج درب خلاصٍ من نمطٍ آخر، مناديةً بتعليمٍ اجتماعيٍّ قائمٍ على العدل والمحبّة، كفيلٍ بنشر رجاءٍ جديدٍ مُشرقٍ، عمّقه، أَخيرًا، التيَّار المجمعيّ، ودفعه قُدُمًا في منحى "ثورة الحبّ".

لقد أَدركَت القدّيسةُ الملائكيَّةُ تيريز الطفل يسوع ذلك الواقع، عندما كتبت: "إِنّ أَصغر حركةٍ بدافع الحبّ الصِّرف، أَجلُّ فائدةً للكنيسة من جميع الأَعمال التي تتمّ بلا حبٍّ". كما لمَسَ ذلك الواقعَ أَبناءُ الكنيسة الآخرون العاملون بهديٍ من الإِنجيل، على نحو ما يتّضح من قول الأَخوَيْن جاكار: "عندما يتعيّن علينا العملَ في وَسَطٍ بشريٍّ

جريحٍ ومُدَمَّرٍ، إلى حدٍّ بعيدٍ، لا بدّ لنا من أَن نمضي إِليه على أَجنحة نفحة الحبّ، لكي نساعد الآخرين على اكتشاف أنَّ الله حبٌّ، فحَسْبُ".

على مثل هذه الأَجنحة انطلق الأَب پيير – وكذلك فعل إِخوةٌ وأَخوات له، في الكنيسة، أَمثال دون هيلدر كامارا، والأَخَوَيْن جاكار، والأُمّ تيريزا، والأخت إِيمّانويل وكثيرون سواهم – ساعيًا إلى شفاء آلام المسيح في كلّ محرومٍ، ومنبوذٍ، ومُهَمَّشٍ تنكّر له المجتمع ونَسِيَه؛ وبالمحبّة المعاشة في كلّ لحظةٍ، وبالثَّورة على كُلّ ظلمٍ كان يرى فيه جرحًا في جسد المسيح، خاض كفاحًا لم يعرف هوادةً، كانت أَشهى ثماره مغامرة "عمّاوس" الفذّة، الَّتي تميّزت عن كُلِّ ما عُهِد من مؤسَّساتٍ اجتماعيّةٍ وخيريّةٍ، بإِعادة الكرامة إلى كلِّ مُغَاثٍ، ومساعدته على الانتصاب على قَدَمَيْه، كي يُغيث من هم أكثر منه معاناةً، فيُنقذ نفسه بإِنقاذه الآخرين.

لقد كانت "عمّاوس" فَتْحًا في عالم المحبّة، وكانت إِنجازاتُها الرائعة التي سُرعان ما انتشرت في جميع أَرجاء المسكونة، المصداقَ البليغ، وعاملَ الإِقناع الدّامغ، اللذين مكّنا الأَب پيير من الجَهْر بآرائه، ومن التَّصدّي لكلّ محظيٍّ لا يُوظّف امتيازاته وطاقاته في خدمة ضحايا الظُّلم واللامبالاة، لكي يستقيم المجتمع، ويقيَ نفسه من الانحطاط والانهيار. فمضى يُقاوم التيَّار العارم الذي يضع مُقدّرات العالَم ومواردَه في خدمة الأَقوياء وأَصحاب الامتيازات، كي يزدادوا تسلُّطاً وبذْخًا وبَطَرًا، ويُغفل الصّغارَ والضعفاءَ، المحرومين والمنبوذين، الذين آثرَهم يسوع، واختارهم ليمثّلوه.

ومع رفاقه "جامعي النفايات"، أَقام للعالَم الدَّليلَ على إِنسانيَّةٍ حقّةٍ: فعندما ينهض مُحَطَّمون، ويستعيدون قواهم كي يُسعفوا رفاقًا لهم ما زالوا يرزحون تحت وقر الحَيْف والمهانة، وعندما يكدح محرومون فقراء، لا لكي يغتنوا ويمتلكوا، بل لكي يجودوا بثمار عرقهم وكدحهم المُضني على من هم أَبعد إِيغالاً في مستنقعات البؤس والحرمان، فبأيّ شحنةٍ من التحدّي يهزّون أَصحاب الامتيازات، الذين يهدرون الفائض، ولا يَمُنّون حتّى بفُتاتٍ منه على من يفتقرون إلى مُقوّمات العَيْش الأَساسيّة.

وبفضل هذا التحدّي، بات الأَب پيير عامل إِقلاقٍ وتحريضٍ، في عالَمٍ ينزع فيه كلّ مُقتدرٍ ومَحْظِيٍّ إلى الاستكانة لطمأنينةٍ أَنانيّةٍ، ويتطلّع فيه كلُّ طامعٍ في النجاح إلى بناء نجاحه على حقوق إِخوةٍ له، بل على جُثَثِهم، فأَنذرَ، وجأَرَ بإِنذارِه،

جاهرًا بالحقائق الخلاصيّة في كلّ وقتٍ وكلّ محفلٍ، غير هيَّابٍ، لأنَّه قبلَ أن يقولَ فَعَلَ، بدون توانٍ، لأنّ النضال في سبيل كرامة الإنسان الجريح، حيث تنعكس صورةُ معلّمه، قد أمسى، وحدَه، مبرّر وجودِه ونشاطِه.

لقد تحقَّقتْ، في حياة الأب پيير ونضاله، رغبةُ "موريس كلاڤيل" الذي قال: "لَسْنا بحاجةٍ إلى كاهنٍ، لأنَّنا بحاجةٍ إلى إنسانٍ إضافيٍّ، بل لأنّنا بحاجةٍ إلى من يكون شيئًا آخَر"، فقد كان إنسانًا من طرازٍ فذٍّ، وكاهنًا من نَمَطٍ غير معهودٍ، مُتَمرِّدٍ، نظيرَ مُعَلِّمه، على واقع كلِّ ظُلْمٍ وتعدٍّ، في كلّ مكانٍ، ولم يخشَ، يومًا، مَدَّ يده، وفتحَ صدْرِه وبيتِه لمن يعتبرُهم العالَمُ "نفاياتٍ"، أُولئك الذين يتألَّمون، ومن خلالهم يتألَّم يسوع، ويُضْرَبُ، ويُهانُ، ويُقذَف به على قارعات الطرق، مُحْتملاً، في هذا السَّبيل، ازدراءَ مجتَمعٍ يُقيم أعظمَ احترامٍ للكبرياء، والعُجْب، والتَّعالي.

وقد أثبتَ الأَب پيير، بنضاله، أنّ إنسانًا فَرْدًا يحمل في أَحشائه جوعًا مُقيمًا إلى الخدمة، وعطشاً متلظّيًا إلى العَدْل، وتتأجّج بين ضلوعه نارُ غضَبٍ مُقدَّسٍ على الظُّلم، وعلى امتهان كرامة الإنسان، وتدنيس قداسة الله فيه، ويحدوهُ عزمٌ صامدٌ على التَّصدّي لذلك الظُّلْم، ومكافحة ذَيْنِكَ الامتهان والتّدنيس، لقادرٌ على زلزلة الضّمائر، واستفزاز الهمَم، واستقطاب الأَتباع، وتطويع القوانين، وخلق تيّارٍ من الرّأي العامّ يُؤيّد أهدافَه ويُساندُها.

كما أَثبتَ أنّ الكهنوتَ خِدمةٌ، والإنجيلَ دعوةٌ إلى التآخي والمشاركة، وأَقنع حتّى المُلحدين أنّ الله حُبٌّ.

ولم تنحصر رسالتُهُ في مكانٍ، أو بَلَدٍ، أَو قارَّةٍ، إذ سُرعان ما سحَرَ مِثالُهُ في خدمة البائسين أَلبابَ العاملين في مكافحة البُؤْس، في كلّ بُقعةٍ من العالم، فقامت مؤسَّسات "عمَّاوس" في أكثر من ثلاثين بلدًا في القارّات الأَربع، وكان للأَب اليدُ الطّولى في توجيهها، ورعايتها، وفي بثّ روح نضاله وإيمانه في أَوصالها.

وقد وعى الأَب، بعمقٍ وخشيةٍ، ما بات يتّصفُ به البُؤْس من عالميّةٍ، وما يَقْتضيه واجبُ مكافحته من مشاركةٍ حقَّةٍ لا تعرف حدودًا، ومن تعاوُنٍ يستقطب جميعَ طاقات العالَم، فخطَر الدَّمار الذي قد ينجم عنه يُهدّد المتربّعين على قمّة السُّلطة والمال، وأُولئك المستكينين إلى أَمان اكتفائهم بذواتهم، بقدر ما هو يُهدّد المتسحِّبين في مستنقعات الفاقة والحرمان.

فمن خصائص عصرنا انتشار الإعلام فيه انتشارًا لم يسبق له مثيلٌ، بحيثُ غدا الذين يتألّمون ويُعانون، اليومَ، أكثر منهم في أيِّ عهدٍ سلَف، يُدركون مدى معاناتهم وألمهم، فهم، وإن افتقروا إلى الأساسيّ، حريصون على اقتناء الترانزستور، وغالبًا، أيضاً، على اقتناء التيليفزيون، والأطباق التي تمكّنهم من استقراء أحداث العالم، ساعةً فساعةً، عبرَ الأقمار الصناعيّة، فلا يفوتُهم شَيءٌ من أصداء المسكونة، وضجيج الثَّروات والازدهار الّذي يُضاعف شعورَهم بالظُّلْم. وفي هذا السِّياق قال أَحدُ كُتَّاب الـﭙـيرو: "إنَّ كلَّ هنديٍّ بركانٌ يجيش غضبًا. ذلك الأُمِّيُّ هو الَّذي سيُدوِّن فصول تاريخ البلاد القادمة، وذلك الأَخرس هو الذي ستُدوّي صيحتُه في كلّ أَرجاء أَميركا".

ملايينُ البراكين، على امتداد المسكونة، تُنذر بالانفجار، وقد أَثارتها فداحة الظُّلْم، واتّساع فجوات التبايُن واللامساواة؛ وبالتالي فإنَّ مستقبل العالَم مرهونٌ بمصير تلك الجماعات الكثيفة، فإمّا أَن تنشب ثورة عنفٍ مُدمِّرةٌ تُطيح بكلّ شيءٍ، أَو ثورة حبٍّ سلميَّةٌ تُعنى بمصير المحرومين، كتلك التي انتهجها دُعاةُ الحبّ والتضحية، كالأَب ﭙـيير وأَقرانه، فتجعل منهم عامل ازدهارٍ جزيل الجدوى.

إنّ نضال الأَب ﭙـيير لم يستهدفْ سوى إيقاظِ الإنسان بحيثُ يستعيدُ وجهَهُ الذي هو، على صورة وجه الله، نداءٌ إلى الحبّ، ومن ثمّ فهو لم يكفَّ عن الجهر كالأَنبياء: "استيقظ، فأَخوك في خطرٍ".

ولكنّ كثيرين منّا يأبون الإصغاء إليه، لأَنّه يُصارحنا بما نتهيَّب سماعَه، فيُقلقنا، ويُفقدُنا الأَمان الذي نَتَمَتْرَسُ في حماه، لأَنّه يُعلن لنا أَنّنا قد أَهمَلْنا الجوهريَّ، واكتفينا بتصنّع سعادةٍ زائفةٍ، تصنُّعًا يدعو للسُّخرية والأَسى، من جرّاء خوفنا من الحبّ الذي يحرق، ويلتهم، ويقلب رأساً على عقبٍ، وخوفنا من مغادرة غياهب العمى كي نمضي إلى النّور، أَحرارًا غير خجلين ولا نادمين.

وهو لا ينفكّ يذكّرنا بأَنّنا، ما دمنا متشبّثين بامتيازاتنا الاجتماعيّة، فما نحن، في معيار إنجيل الدم والحبّ، سوى ظلالٍ لا قوام لها، وأَنّه لا مفرّ للمرء من أَن يتخلّى عن ذاته، كي يظفر بالله، ويُتيح له أَن يَقتحمه، ويصلَ فيه ما انقطع.

إنّ دافع الحبّ، عند الأَب ﭙـيير، هو رغبةٌ في مشاركة جميع البشر، على هذا

الكوكب الصَّغير، الذي يُكوِّنُ كلاًّ، مثلما أَنّ الحبّ هو كلٌّ جمٌّ صامدٌ يقهر الموتَ، ويبعثُ الرُّعبَ في قوى الدَّمار، التي تستشفُّ، على نحوٍ مُبْهَمٍ، أَنّ، ثمَّةَ، ما يُنذِر بنَسْفِ أَمانها، ورفاهها، ومعتقداتها الأَنانيَّة، وبخلخلة حمايتها، وبفضحِ جُبْنها.

وممّا يحدو الأَب پيير على المُضيّ قُدُمًا في مغامرته، يقينُه بأَنّ التقنيات الحديثة، لو هي استُخدمت لصالح البشريَّة، حقًّا، لا لصالح أَفرادٍ وفئاتٍ، لكانت كفيلةً بإِيجاد الحلّ للكثير من مُشكلات البُؤْس، كما يُستدلُّ من قوله:

"ها نحن قد انتهينا إِلى عتَبة إِنجازاتٍ متناهية الرَّوعة، غير متوقّعةٍ، وفي آنٍ واحدٍ، إِلى مستوًى من القسوة لم يكن ممكنًا تخيُّله حتّى الأَمس،

"لقد باتت البشريّةُ، اليومَ، تعرفُ كلَّ شيءٍ، وتعرف أَنّ بوسعها أَن تدمّر ذاتها،

"فهي تشهَدُ تزامُنَ فائضِ الإِنتاج والمجاعةِ الفائقة، وترى البَشَر يَقْنطون لمُشاهَدتهم الوفرة".

وهو يختتم الكتابَ الذي أَسماه "وصيّة"، بهذا القول:

"إِن كان عليَّ إِبلاغ يقينٍ لمن يعتزمون الكفاحَ، لبَثِّ المزيد من الإِنسانيّةِ في كُلِّ شيءٍ، فمن المُؤكَّد أَنّني لن أَستطيعَ أَن أَقولَ سوى: "الحياةُ هي تعلُّم الحبّ".

ويقول في مكانٍ آخر:

"إِنّ كلَّ مثالٍ، ولو كان مُغْرقًا في الضآلة، إِن هو أَبرز اختيارَ ما ليس الأَسهل، ولا الأَكثر أَنانيّةً، وأَثبتَ أَنّ هذا الاختيار كان بدافع الحبّ، إِنّما هو مثالٌ يُشعّ عدواه".

فعسى أَن يُشعَّ مثالُ الأَب پيير عدوى الحبّ الشَّامل، والمشاركةِ السخيَّةِ الحقَّة، الكفيلَيْن بإِنقاذ العالَم من الانهيار.

والطوبى لمن عَمِل وعلَّم!

أديب مصلح

الجُزءُ الأَوّل

نحو اكتشاف الله

إنني أبحث عن الله حيث تتوفّر الفرصة الفضلى للعثور عليه: وسط الفقراء

"جورج برنانوس"

آل غروويس

"الأَب پيير" ليس اسمَه الحقيقيَّ، بل هو واحد من الأَلقابِ الكثيرةِ التي كان يَنْتَحِلُها، أَو تُطْلَق عليه، أَثناءَ انخراطِه في مُقاومة الاحتلال النازيّ، في مَطْلَع الأَربعينات من هذا القرن، ولكنّه أَشدُّ تلك الأَلقاب التصاقًا به، بحيثُ ما عادَ يُعرَف بسواه.

اِسمُه الحقيقيّ هو هنري غروويس، وقد وُلد في مدينة ليون الفرنسيّة، في الخامس من آب عام ١٩١٢، وهو خامس ثمانية إِخوةٍ وأَخواتٍ.

أُسرةُ "غروويس" ذاتُ مَحْتِدٍ تختلطُ فيه الجُذورُ الفرنسيَّةُ والإِيطاليَّة، نشأَتْ في القرن التَّاسعَ عشرَ على رُكْنٍ مُنْعزلٍ من جبال الأَلپ، حيث كان أفرادُها يعيشون على تربية المواشي والزّراعة، في مُجاوَرةٍ خاشعةٍ للقِمَمِ والسَّماء.

بعضُ أَفراد آل غروويس سئموا تلك الحياة القاسية، وخَلَبَ أَلبابَهم سرابُ الثَّروات السَّهْلة، فهاجروا، مع أَترابٍ لهم، إلى بلاد المكسيك النائية، التي تخيّلوها مناجمَ ذهبٍ يسيرةَ المنال.

غير أَنَّ منهم من ظلَّ نداءُ أَرضِ الوطن أَشدَّ أَسرًا على نفوسهم من بريق البلاد

القصيَّة. أحدُ هؤلاء كان جوزيف غرويس الَّذي سيستشِفُّ فيه حفيدُه – الأب بيير – خيرَ رمزٍ للأسرة كلِّها. فلقد أَيْقَنَ ذلك الرّاعي أَنّ حياته وقفٌ على زوجته الشَّابَّة، وطفلِه أَنطوان، فلا بُدَّ من وَأْد أَحلام السَّفَر المجنونة، ومُواصلة الاستيقاظ مع الفجر، كلَّ يومٍ، بلا انقطاعٍ، للكَدْح في الجبال الجَرْداء، أَيّةً كانت حالةُ الطَّقس؛ وفي الربيعِ، جزّ صوف الخراف والنعاج، وبثَمَنه ابتياع الطَّعام والكساء للعيلة الحبيبة. بيدَ أَنَّ مُثوله إلى المدينة، في كلّ ربيعٍ، بأحمال الصّوف، قد غذّى لديْه الرغبةَ في النزوح إليها، وتعاطي التجارة التي كان يُؤْنس أَنَّه مؤَهَّلٌ لها. وهكذا انقلب ذلك الرّاعي، ابنُ الرُّعاة، بائعَ أَقمشةٍ جوّالاً، وقَطَن في جوار مدينة ليون.

كان جوزف غرويس فكرًا طموحًا وقلبًا من نارٍ، وقد وَرَّث ذُرِّيتَه تلك الصفات؛ وكان يُخْضِع سلوكَه لوَصيَّتَيْن مقدَّسَتَيْن أَساسيَّتَيْن: العمل الدؤوب والصَّلاة. فقد كان عميقَ الإيمانِ، متشدّدًا فيه، يُنفق السّاعاتِ الطويلةَ من لياليه مُتَعبِّدًا للقلب الأقدس. وكان يطمح في أَن يُحصِّلَ ابنُه "أَنطوان" العلومَ الَّتي لم يَظْفَرْ هو بها، والكفيلة بجعْله شخصيَّةً مرموقةً، فأَوْدعه واحدًا من أَفضل المعاهد يُديره الآباء اليسوعيّون في مدينة ليون؛ وفي الآن عينه، كان يتطلّع إلى تأمين خير مُستَقْبَلٍ لطفلتَيْه الوليدتَيْن.

غير أَنّ بِساطةُ كان أَقصرَ من ساقَيْه، وطموحاتِه كانتْ تتخطّى بكثيرٍ مواردَه، ولا سيَّما أَنّ تجارتَه التي كان يَحلم أَنَّها مجلبةٌ للبحبوحة قد تعثَّرتْ، ولم تورثه سوى الديون المُرهقة، ومطاردةِ الدّائنين له، ومع ذلك استماتَ في محاولة الصُّمود، ولا سيَّما وقد تجلَّت لدى نجله "أَنطوان" مخايلُ ذكاءٍ ثاقبٍ كان يُتيح له التهامَ كلِّ ما يَقَعُ بين يدَيْه من مُؤَلَّفاتٍ.

بَيْدَ أَنّ أَنطوان قد قرّر، فجأةً، وهو في الخامسةَ عَشْرَةَ، التضحيةَ بطموحه العلميّ والاجتماعيّ كي يَمُدّ يدَ العَوْن إلى والده، بعد أَن تبيَّن عُسْرَه، علَّه يُساعده على تقويم وَضْعه الماليّ المُنْهار. فقد هالَه تخيُّلُ الكارثة التي قد تحُلّ بأُمِّه وشقيقتَيْه الصغيرتَيْن إذا ما هوى والده إلى الإفلاس.

لقد كان "أَنطوان"، منذُ طراوة عوده، ذا شعورٍ مُرْهَفٍ بالمسؤوليَّة يُحِلُّ الواجبَ فوقَ كلّ شيءٍ، ولم يتخلَّ، يومًا، عن شِعاره المقدّس: "افعل ما يتوجّب عليك، وليحدث ما يشاؤهُ الله".

ولكنَّ تضحيتَه لم تُؤتِ الثمارَ المرجوّة، وتكاتُفَه مع أَبيه في العمل لم يُسهم في تنشيط تجارتهما. وقد حَمَلَ حِرْصُ الوالد على تأمين مُستَقْبَلٍ مُشرِّفٍ لابنه على دفعه إلى التطوُّع في الجيش، لعلَّه يرتقي إلى رتبةٍ فيه رفيعةٍ، ويتبوّأُ في المجتمع مكانةً مرموقةً.

الفتى أَنطوان، في الزيِّ العسكريّ، كان أَصغَر أَترابه، و بِنْيتُه الهشَّة لم تكنْ تحتمل صرامةَ النّظام العسكريّ، ولكنّه كان يأبى الاستسلام، ويدأَبُ على التمرُّس بالتغلُّب على أَوهانه، وبالسَّيطرة على ذاته. كان كُتْلَةَ طيبٍ لا حدودَ له، مقترنٍ بعزيمةٍ صُلْبةٍ لا تلين، وله نظرةٌ مُلتهبةٌ تعرفُ كيف تنقلب عذوبةً صافيةً؛ وتحدوه رغبتُه العنيدة في أَن يكون موضعَ فخار ذويه إلى تجاوز ذاته باستمرارٍ.

ولكن سُرعان ما تحطَّمت أَحلامهُ مَرَّةً أُخرى، فقد اخترمت المنيَّةُ والدَه، فجأَةً، وإذا بالجنديّ الشابّ يُواجه، وحيدًا، سَيْلاً من الدُّيون، في حين أَنّ ما خلّفه الراحلُ العزيز لم يكن يكفي لإِطعام أُمِّه وشقيقتَيْه أكثرَ من أَشهرٍ معدوداتٍ.

وفي تلك الأَثناء جاءَه البريدُ، يومًا، برسالةٍ ظنَّها، لأَوّل وهْلةٍ، واحدةً من تلك الرسائل العديدةِ المشؤومةِ المُنْذرةِ بسَداد دَيْنٍ من دُيون والده؛ ولكن، خلافًا لكلِّ توقّعٍ، كان غلافُها يحملُ طابَع المكسيك، ومُوقّعها "فيليسيان غرويس" أَحد أَبناء أَعمامه، من هناك، يدعوه: "تعالَ، فقد وجدت لكَ عملاً".

ورأى أَنطوان في تلك الدَّعوة سانحةً لا يسوغ تفويتها، فأعلن لوالدته، وفي حَلْقه غصَّةٌ مريرةٌ: "أُمّاه، أَنا ماضٍ كي أُحقِّق ما حَلَمَ به أَبي، ولم يُكْتَبْ له أَن يحقِّقَه. سأبعثُ لك ولأُخْتَيَّ بما سأكسبُ، كي تعيشا في أَمانٍ. أُحبُّكُنَّ. صلّينَ لأَجلي".

* * *

ما كادَ ابنا العمِّ يفرغان من تقبيل أَحدهما الآخر، بلهفةٍ، حتّى صرَّح أَنطوان لابن عمّه: "إِنّني في حاجةٍ ماسَّة إلى المال "من أَجلهنّ". وفوجئَ بفيليسيان يُجيبه: "صحيحٌ أَنّني دعوتُك للمجيء. ولكنَّ ظروف العمل هنا كثيرةُ التقلُّب، وهي، الآن، غيرُ مؤاتيةٍ".

وتَسَكَّعَ أَنطوان أَشهُرًا، باحثًا في كلِّ مكانٍ عن عملٍ، حتّى كاد يقنَط، وأَخذَ يلومُ نفسَه على التسرّع في الجَرْي وراءَ حُلْمٍ خُلَّبٍ. ولشدَّةِ كَرْبه أَلَمَّ به المرضُ، ونشبتْ به الحُمّى الصَّفراءُ التي كانت، آنذاك، تقتُلُ، بلا رحمةٍ، إِذ ما من علاجٍ كان قادرًا

على درءِ مسيرتها المُدَمِّرة في الجسَد الذي تقتحمُه. وطوالَ أَسابيعَ، ظلّ الشابُّ المحمومُ يرتعد، ويُذَرِّفُ الدموعَ، ويهذي، لا طبيبَ له سوى الله، ولا علاجَ سوى تلاوة "أَبانا" المتواترة، بلا انقطاعٍ، ليلَ نهار، لا خشيةً على ذاته من الموت، بل خوفًا "عليهنّ" اللاّئي لا مُعيلَ لهنَّ ولا رجاء على الأَرض سواه. "من أَجلهنّ" كان يُطالب الله أَن يشفيَه، وظلَّ يُصلّي ويُطالبُ حتّى تقهقر الموتُ وزال المَرَضُ.

لقد أَبلَّ من المَرَض مُنهكًا، ولكنْ قويًّا بإِيمانٍ متجدِّدٍ راسخٍ لا يتزعزع: الإِيمانُ الحقُّ يجترحُ المُعجزات، ويدمِّرُ الحواجز، ويَظْهَرُ حتّى على الموت، عندما لا يكونُ تتويجًا لحياةٍ مليئة، بل تحطيمًا ظالمًا لحياة الآخرين. لقد خلَّف المرضُ شابًّا مُنبَعِثًا، بادرَ إِلى إِنفاذ رسالةٍ إِلى أُمِّه وأُختَيْه يُطمْئِنُهنَّ، ثمّ انطَلَق إِلى بلاد الله الواسعة، بحثًا عن عملٍ، "من أَجلهنّ".

وضَرَبَ شُهورًا في القفار لا يهاب لا الجوعَ، ولا التَّسوُّلَ، ولا الأَفاعي، ولا الضَّواري، ولا المُستنقعات، فكلُّ خوْف كان يتحطَّم على صخرة إِيمانه الصُّلبة.

وأَخيرًا التقى تاجرًا مكسيكيًّا استَشَفَّ في ذلك الفرنسيِّ العزيمةَ والأَمانة، فاستخدَمَهُ لقيادة قوافل بِغالِه المُحَمَّلة بِشَتّى أَصناف السِّلع. ووجد أَنطوان، في ذلك العَرْض، رغمَ ضآلة أَجْره، هديّةً من السَّماء. وإِذْ لم يكُنْ بدٌّ من توفير المال "من أَجلهنّ"، كان يَقْتصرُ على وجبةِ طعامٍ واحدةٍ يوميًّا، تتأَلّف، غالبًا، من الجُذور والأَعشاب. كان يرقدُ في العراء، ليلاً، إِلى جوارِ نارٍ مشبوبةٍ، تُبْعِدُ عنه الأَفاعي والحيواناتِ المفترسة، ويَذْرَع الطُّرقات نهارًا، يَلْفَحهُ الهجيرُ القائظ، وقلبُه يطفر فرحًا، لأَنّه يُوفّر بعضَ المال "لهنّ". ولكي يقوى على مواصلة الكفاح على هذا النحو، كان لا بدّ له من مَدَدٍ سماويٍّ، وجدَه في تناول القربان المقدّس باطّراد؛ وفي هذا السَّبيل، كان يستيقظ عند الفجر، ويسير ساعاتٍ، صائمًا، حتّى يبلغَ بلدةً فيها كاهنٌ يركَعُ أَمامه، فيعترف ويتناول.

"آكل الله"، هكذا بات يدعوه أَهالي القرى التي كان يُوافيها من بعيدٍ للتَّناول. والله، الذي كان يأكلُه، قد أَوْحى له أَنّ إِيمانَه لن يكتمل حتّى يُحِبَّ الجميعَ مثل حُبِّه لنفسه وذويه، ولا سيَّما المحتاجين والمتأَلِّمين. وسُرعان ما غدا الأَهالي يستنجدون به، ويستدعونه حيثُما وُجدَ عليلٌ لا طبيبَ له، أَو عجوزٌ تحتضر ولا كاهنَ يعودها.

بفضل ذلك الدَّأَب الجاهِد، وتلك التَّضحيات المُضنية، تمكّنَ أَنطوان من سداد

جميع ديون والده، في غضون سنتين. وفي تلك الأثناء كان ابنُ عمّه "فيليسيان" قد زار فرنسا، وعادَ منها وقد تزوَّج كبرى أختَيْه. ثمَّ ما عتَّم أن أزِف اليوم العظيم، يوم أَرْسَتْ في الميناء باخرةٌ انحدرتْ منها أمُّه، وأُخْتُهُ الصُّغرى.

كانت الوحدةُ قد هدَّتْ والدتَه فتجلَّتْ عليها أَماراتُ شيخوخةٍ مُبكِّرةٍ مُرهقَة؛ وقرَّرَ أَنطوان العُزوفَ عن التَّجوال كي يَستقرَّ، أَخيرًا، مع أسرته؛ ومُذّاك، بَذَلَ كلَّ مُستطاعٍ ليُنسي تلك الوالدةَ الحبيبةَ أيّام القسْوة والوحدة؛ فلم يُعنَ بإِعالتها فحَسْبُ، بل حَرِص على أن يُسبغ على أشعّة أيَّامها الأخيرة كلَّ ما يسعه من أَلَقٍ وبحبوحةٍ ورفاه. وكان ينتهز كلَّ لحظةٍ سانحةٍ بين عمله الدؤوب، وزياراتهِ للمَرْضى والفُقراء، كي يجلِسَ بجانبها، ويُداعبَ مُحيّاها الغالي، ويتملّى من حُضورها، مُتيحًا لها، هي أيضاً، أَن تَنْتَشِيَ بحضورِه الذي افتقَدَتْه طويلاً. وما عتَّمتْ تلك الوالدةُ أَن انطفأَت مُطمئنّةً، بعد أَن شهدَتْ قرانَ ابنتها الصُّغرى بقريبٍ لها، مهاجرٍ من فرنسا. حينئذ فقط أَيقن أَنطوان أَنّ مجيئَه إلى المكسيك لم يكن خَطَأً بأكمله، وأَنّه وفى بكلِّ دُيون أَبيه حقًّا.

لقد عادَ وحيدًا، ووحدتُه دفعْته إلى المزيد من البَذْل في سبيل الفُقَراء والعُمّال. كان قد بلغ الثامنة والثلاثين، وقد نالت الجهودُ المُضْنيةُ التي ما انفكَّ يبذُلُها منذُ قدومه إلى المكسيك، من صحَّته الهشَّة أَصلاً. واستبدّ به الحنينُ، من جديدٍ، إلى الوطن، إلى فرنسا التي رجع إليها في حزيران ١٩٠٤، خمسةَ عشرَ عامًا بعد أَن هجرها؛ إلاّ أَنّه، آنذاك، رجع لكيلا يغادرَها، من بعدُ، أَبدًا، ولا سيَّما أَنّه، سنةً تقريبًا، عقبَ عودته، عقَدَ قرانه على "أولالي"، ذاتِ الخمسةِ والعشرين عامًا، ابنةِ "ماريوس بيرا" التاجرِ الثريِّ، وعمدة بلْدة "سان لو آن بوجوليه"، وزوجته، "إليزابيت شاموسي"، ووريثةِ ثروةٍ عريضة.

وقد برهنت العروسُ الشّابَّةُ عن أَصالة مَعْدَنِها منذُ يوم زفافها، فلدى خروج العروسَيْن من الكنيسة، في تمّوز ١٩٠٥، كانت الباحةُ غاصّةً بأَهالي البلدة يُزَغردون، وفي الصفِّ الأَمامي جلستْ فتاةٌ معاقةٌ على كرسيٍّ مُتحرِّكٍ، وهي تُصفِّق لهما. فرنت العروسُ إلى زوجها، وكأَنَّها تستأذنُه، ثمَّ أَفلتتْ من ذراعِه، وجرتْ نحو الفتاة فقبَّلَتْها، وأَوْدعت على ذراعيْها طاقةَ الورود التقليديّة التي كانت في يدها.

أَقام أَنطوان غرويس في منزل حميه، وسْطَ جوٍّ حافلٍ بالمرَح والهناء؛ وما كادت تنقضي سنةٌ. حتّى أَهلّ ابنُه البكر، وفي السَّنة التالية انضمَّت إلى الأسرة طفلةٌ،

تلتها أُخرى؛ فأنطوان في الأَربعين، وعليه الإِسراعُ في الإِنجاب لكيلا يبدو لأَبنائه بمثابة جَدِّهم.

ومع كلِّ ما كان ينعمُ به من محبّةٍ واحترامٍ ورفاهٍ، ارتأى أنطوان أَنّ الواجبَ يقضي عليه الاستقلال بمنزلٍ له ولأسرته. وعندما رُزقَ رابع أَبنائه، وثاني ذكوره، عام ١٩١١، كانت الأسرة قد انتقلتْ إلى مدينة ليون. وفي السَّنةِ التَّالية، في الخامس من شهر آب ١٩١٢، رأى النورَ صبيٌّ ثالثٌ، خامسُ أَبناء غرويس، هو هنري الذي سيَنْبُهُ ذكرُه، في ما بعد، باسم "الأَب پيير".

كان أَنطوان غرويس قد خلّف في المكسيك مشروعًا تجاريًّا مزدهرًا، أَوْكَلَ إِدارتَه إلى ابن عمِّه وشريكِه "فيليسيان"، على أَن يتلقّى، باطّرادٍ، نصيبَه من الواردات، وشيئًا فشيئًا، حصَّتَه من الرَّأْسمال. بيد أَنّ ذلك المالَ الذي كان يترقَّبُه، آملاً أن يُنشئَ به مشروعَه التِّجاريَّ الخاصَّ، كان يتباطأُ في الوصول، وابنَ العمِّ الشَّريك كان يُجيب على الأَسئلة المتواترة بأَجوبةٍ مُبْهَمةٍ لا تُغني فتيلاً، على نحو ما يحدُث غالبًا في شركاتٍ أَحدُ أَطرافها غائبٌ.

غيرَ أَنَّ اتِّحادَ نسيج ليون قد عيَّن، عام ١٩١١، أَنطوان غرويس عضوًا في مجلس إِدارته، ممّا أَتاح له ولأسرته الاستقلالَ الماليَّ، ولو في شيءٍ من التَّقتير. ولكن، أَيَّةُ ثروةٍ من السَّعادة كان يَنْعَمُ بها مع زوجته وأَطفاله الخمسة!

صفاءُ تلك السَّعادة عكَّرها، عامَ ١٩١٤، نشوبُ الحرب، فقد هبَّ أَنطوان للتطوُّع، غير أَنَّ الأَطبّاءَ قرّروا عدم أَهليَّتِه الصحِّيَّة، فأثبتَ لهم أَهليَّته للخدمة، بانضمامه إلى حماته التي كانت قد تطوَّعت في ميدان التمريض، وأَحاطتْه علمًا بحاجتها الماسَّة إلى مُساعدين. وهكذا، سحابةَ سنَتَيْن، بَذَلَ أَنطوان ذاتَه بلا حساب، ليلَ نهار، في خِدْمة ثلاثةِ آلافٍ ممَّن أُصيبوا بالعمى من جرَّاءَ الحرب؛ وحلَّ الضّيّقُ بأُسرته التي انقطعت مواردُها. ولكن من كان يحفَلُ بالضّيّق المادِّيّ، والحربُ تحصُد أُلوفَ الأَرواح، وتُضخّم، كلَّ يومٍ، طوابيرَ المُشوَّهين والمشرَّدينَ والجياع!

أَنهكَ البذْلُ المتواصل، ليلَ نهار، جَسَدَ أَنطوان غرويس الَّذي انتابه سعالٌ لا ينقطع؛ وذاتَ مساءَ أُعيد إلى منزله، وهو يلتهب من الحمّى، وكلُّ أَعضائه ترتعد؛ وأَصدرَ الأَطبّاءُ حكمهَم: "احتقانٌ رئويٌّ. راحةٌ مطلقةٌ".

وتدخَّلت العنايةُ الإلهيَّةُ لنجدة ذلك الرَّجُل الشَّهم، والدِ الأطفال الخمسة، الذي ضحّى بكلِّ شيءٍ، حتّى بأوَدهم اليوميِّ، وبنفقاتِ دراستِهم، كي يُرضيَ مقتضياتِ وِجدانِه، فاخْتيرَ، على غير سعيٍ منه، ليُدير "معامل سباكة ليون والرون".

وهكذا، منذُ ذلك اليوم من عام ١٩١٦، بفَضْل الوظيفتَيْن اللّتَيْن كان يضطلع بهما، ما عاد لأُسرته عهدٌ بالفاقة، لا بل بات بوسعها استقبالُ المزيد من الأطفال، فانضمّ إليها دانيل عام ١٩١٦، وپيير عام ١٩١٨، وأَمسى عدد الأطفال سبعة، بكرهم في العاشرة، وأَصغرهم حديث الولادة؛ وفي ما بعد اكتمل العِقْدُ بفتاةٍ كانت ثامنة الأبناء، وثالثة الأَخوات.

وضاق بهم المنزل، وإذ لم يعُدْ بوسع الجدَّين، والدَي الأُمّ، أَن يمكثا وحيدَيْن في قريتهما، جاءا بدورهما، ليعيشا مع أُسرة ابنتهما، وانتقل الجميع إلى منزلٍ رحبٍ، وَسْط حيٍّ بورجوازيٍّ، في قلب ليون القديمة. وفي ذلك البيت الواسع، حيثُ يذكر الأَبُ پيير أَنّه كان لكلٍّ من الإخوة الثمانية غرفتُه الخاصّة، وأَنّه، وإخوته كانوا يتسابقون على الدرّاجات في ممرّاته، ترعْرَعَ أَبناءُ أنطوان غرويس يُحيق بهم حبُّ والدَيْهما المتفاني، ورعايتُهما السّاهرة، ودلالُ الجدَّين وحَدَبُهما. وكم لتعايش الأَجداد والأَحفاد من مغانمَ وبركاتٍ لهؤلاء وأُولئك على السَّواء!

تأثير الوالدَيْن

كان هنري طِفْلاً مُحيِّرًا يصعبُ فهمُه؛ فهو مزيجٌ من "عَفْرتَةٍ" وجدٍّ، تارةً خلاّقُ دعاباتٍ مُدهشةٍ، وطورًا مُتَجهِّمٌ، شرودٌ، صامتٌ، شديدُ الحساسيّة، توّاقٌ إلى العطف الذي يلتمسُه لدى أُختَيْه الكُبرَيَيْن، عندما لا تتّسعُ لوالدته فُسحةٌ لمداعبته، أَو يجدُه لدى جَدّه، أَثناءَ انشغال والده الذي لا يراه إلاّ في المساء.

بَيْدَ أَنَّه كان لمثال والدَيْه وإِرشادهما أَبلغُ الأَثَر في صَوْغ طباع هنري، وفي توجيه مستقبله، وحياتِه كلِّها.

من ذِكريات الطُّفولة التي انحفرتْ في ذاكرته أَنّه، في غمرة انتقال الأسرة إلى منزلها الجديد، وكان هنري في السَّادسة، حاول أَن يُقدِّم بعض العَوْن، فهَمَّ بحمل رزمةٍ، ولكنّ والدته نَهَتْه قائلةً:

– دعْ هذه، فإنّها للفقراء.

– وماذا يعني "الفقراء"؟

– هم الذين لا يملكون شيئًا.

وكانت تلك الإجابةُ بمثابة اكتشافِ عالَمٍ جديدٍ، ولكن كان على هنري أَن ينتظر سنواتٍ قبلَ أَن يَلِجَ في صميم واقع هذا العالَم.

وكان والدُه، رغم زحمة مشاغله ومتاعبها، يُكرّسُ كلَّ دقيقة فراغٍ تسنَح له لنشاطٍ اجتماعيٍّ كثيفٍ ومُضْنٍ؛ فقد كان عضوًا فاعلاً ومؤثِّرًا في عددٍ غفيرٍ من الجمعيّات والمؤسَّسات المَعْنيّة بالخدمة الاجتماعيّة، وكان يهتمّ، على نحوٍ خاصٍّ، بتوجيه الأَحداث الجانحين، وتأهيلهم، ودمجهم في مجتمعٍ سويٍّ، وكذلك بتأمين التبنّي للأَيتام والأَطفال المنبوذين. ويذكرُ الأبُ پيير، بهذا الشأن: "في تضاعيف ذكريات صِباي البعيدة، ثمَّةَ عبارتا "إِنقاذ الطّفولة" و"التبنّي"، اللّتان يترجّع لهما فيَّ أَبعدُ صدًى، لكثرة ما كان يتردَّدُ في منزلنا ذكرُ تَيْنِك المؤسَّستَيْن اللَّتَيْن كان والدي يقفُ عليهما الكثيرَ من وقته ومن قواه.

وفضلاً عن ذلك اكتشف هنري الصَّغيرُ مجالاً آخَر لخدمات والده الَّذي اصطحبه، وهو في الثانية عشْرة من عمره، مع أَخيه الأَكبر، ذاتَ يوم أَحدٍ، إلى مقرّ مؤسَّسَةٍ انفردت بها مدينةُ ليون تُدعى "المُؤاسون السَّاهرون"، كانت، في الأَصل تُعنى بمواكبة الموتى الفقراء، إِذ كان أَفرادٌ من تلك الجماعةِ يسهرون أَمام جثمان المَوْتى طوالَ اللّيل، ويُصلّون من أَجلهم، حتّى يحين موعد دفنهم. وعندما اندثر ذلك التَّقليد، عمدت الجماعةُ إلى نَمَط آخَر من الخدمة، فاتّخذتْ لها مقرًّا في إحدى حارات "ليون"، حيثُ كان يلتئم أَعضاؤُها، صباحَ كلّ يوم أَحدٍ، بعدَ القدّاس، مع المُتسوّلين وأَبناءِ السبيل القادمين من كلِّ صوبٍ. وفي ذلك اليوم، شاهد هنري والدَه، مع ثُلَّةٍ من رفاقه، وقد شمَّروا عن سواعدهم، وراحوا يخدُمون عشراتِ المُتَسوِّلين، فيَقصّون لهم شعورَهم، ويحلقون لهم ذقونَهم، وينظّفونهم، ويُطعمونهم، وإلى جانب ذلك، يسعون إلى معالجة وضع كلٍّ منهم، ليُمكّنوه من عيشٍ كريمٍ مُستقرٍّ.

وفي طريق العودة، اعترف الوالدُ، مستوحيًا قول القدّيس منصور دي پول: "ما أَصعبَ أَن يكون المرءُ مؤهَّلاً لكي يخدُمَ حقًّا أولئك الذين يُقاسون هذا القَدْر الجمّ من المعاناة!".

قبلَ ذلك، كان أَبناءُ "أَنطوان غرويس" يُلاحظون غيابَ والدهم عن البيت، صباحَ كلِّ يومِ أَحدٍ، عقبَ القدّاس، من غير أَن يُصرِّح عن وجهة قصده، ولم يخطُر لأَحدٍ منهم أَن يُحاول استجلاءَ ذلك السرّ، إلى أَن حَسَر عنه الوالدُ اللثامَ بنفسه، يومَ اصطحب "هنري" و"ليون".

ففي مدينة ليون، على نحو ما هو شائعٌ في كلِّ المُدُن الكبرى، كان يتجاورُ البَذْخُ والفاقةُ، عالَمان يَسيران جنبًا إلى جنبٍ، ويجهلُ أَحدُهما الآخر. وفي حين لم يكن هنري الفتى وأَمثالُه يعرفون عن الشَّقاء شيئًا، ولا يعهدون له وَجْهًا بشريًّا، كان هناك مئات المُتسوِّلين، وأُسرٌ بكاملها تتعفَّنُ في الإِهمال والبَرْد والجوعِ والجهل.

وفي ذلك اليوم، شاهدَ هنري والدَه، وثُلَّةً من زملائه، في ردهةٍ زريَّةٍ بضواحي المدينة، يُعْنَوْن بنحو أَربعين بائسًا، قَذرين، مُشَعَّثي الشَّعر، ساهمي الأَنظار أَو حانقين، هم أَشبهُ بحُطامٍ بَشَريٍّ تفوحُ منه روائحُ الخمرة والبَوْل والتَّعاسة.

لأَوّل وهلةٍ ظلَّ هنري مذهولاً يتساءَل عمّا يُورِّط فيه نفسَه والدُه المحترم، ذو المركز المرموق، بين أُولئك البُؤساء. ولكن سُرعان ما استرعتْ بصرَه بسمتُه المُفعمة عطفًا، الَّتي بادر بها إِنسانًا مُنَفِّرًا، عكف على غسله، وقصّ شعره، وحَلْقِ ذقْنه؛ ثمّ شاهده يُكلِّمُه برقَّةٍ، ويُلاطفه، وكأنّه أَخٌ، لا يُجيبُ ولا يبتسم، إِذ قد غاضت البسمة من وجهه منذ عهدٍ بعيد، وغدت نظراتهُ لا تعكس سوى الغيظ أَو التهكُّم. ولكنَّ "أَنطوان غرويس"، مع ذلك، ما انفكّ يبتسم له، ويُحدِّثُهُ، ويُعنى به، ويُطعِمُه، ويبحثُ عن وسيلةٍ تُوفِّر له العيشَ الكريم.

لم يستطِعْ "هنري"، آنذاك، إِدراكَ سِرِّ رفض الابتسام، وانحباسِ كلمة الشُّكر لدى الفقير الجريح، بَيْدَ أَنَّ حدْسه كان يُؤكِّد له أَنّ القريب الذي دعانا يسوع إلى حُبّه كان، في تلك السَّاعة، ماثلاً أَمام ناظريْه، فتعالى، من قرارة نفسه هتافٌ: "آه! ما أَطيب الطيبة!"

ذلك اليومُ وَسَمَه، وإِلى الأَبد، بطابعٍ لا يمَّحي؛ فقد اكتشفَ، في آنٍ واحدٍ، وجهَ الشقاء البَشريّ، ووجهَ الحبّ المتجسِّد في تضحياتٍ ورِقَّةٍ، في أَفعالٍ ونظراتٍ. فلفظة "الفقراء" التي كانت ما برحتْ لدَيْه فكرةً مُجرَّدةً مُبْهَمةً، انقلبت واقعًا ماثلاً، ومِثالُ والده لقّنه ما هو خيرٌ من درسٍ دينيٍّ، درساً في المحبَّة.

وقد أَفضت الحياةُ الحافلةُ بالدأَب والتضحيات والحدَب على الفُقراء التي عاشها "أنطوان غرويس" منذُ طراوة عوده إلى هَدِّ جسدِه الهَشّ في وقتٍ مُبَكِّرٍ. فمنذ عام ١٩١٩ نشب بمعدته مرضٌ عضالٌ، سبَّبَ له معاناةً طويلةً مُضنيةً، حوَّلتْ تسع عشرة سنةً من وجوده جلجلةً مُتَّصلةً. وأَثناءَ استفحال مرضه، كان يُضطَرُّ إلى ملازمة الفراش، فيتحلّق حولَه كبارُ بنيه وبناته، ليستمعوا إلى أَحاديثه عن المكسيك، وعن الواجب، وعن الله والفقراء. ولم يكن الشُّحوبُ والنحولُ اَللَّذَانِ يَطبعان محيَّاه كلَّ يومٍ أكثر فأكثر، بقادرَيْن على حجْب سِماتِ النُّبْل، وسُمُوِّ النّفس المتأَصِّلة فيه.

كان "أنطوان غرويس" مُدركًا لقيمة المثَل، ولكون انتباه أَولاده مشدودًا إلى كلِّ كلمةٍ ينطق بها، وإلى كلِّ عملٍ يؤدّيه، وكانوا هم يدركون أَنّ ذلك المريض الفَرِح، القريبَ منهم، المُتَّحِدَ بوالدتهم اتِّحادًا وثيقًا، لا يَحتفظُ لنفسه بدقيقةٍ واحدةٍ، بل ينتزع من أَوقات راحته ونَوْمه كلَّ ما يستطيع لوَقْفه على المشاريع الخَيْريَّة والإِنسانيّة المتعدّدة، ولا سيّما على الأَطفال الَّذين حُرموا الحبّ، والأَيتام، والصُّمِّ والبُكْم، والفقراء، أَبناءِ الله الأَثيرين. فكم من السَّاعات قضاها بصُحْبَتهم كي ينتزع من خِضمٍّ يأسهم فُتاتَ ابتساماتٍ، ونظراتِ تعاطُفٍ! هذه السَّاعاتُ الَّتي كان يسرقها من أُسرته جعلت أُسرتَه أَشدَّ إِعجابًا به ومحبّةً له.

وإلى جانبه كانت، أَبدًا، زوجتُه "أولالي"، لا تُشيح عنه نظراتِ الإِعجاب والقَلَق، وتَوَدُّ أن تهَبَهُ كلَّ ما بِوُسْعِهَا لأَنّها منه تستمدُّ كلَّ شيءٍ؛ وإِذ تشعر بعجزها عن توفير الشِّفاءِ له، تُسانده، بحبِّها، على التعايش السَّاجي مع الأَلَم. لقد قام بينهما انسجامٌ تامٌّ في الفكْر والعمل، بحيثُ ما كان أبناؤُهما يَروْنَهما إلاّ مندمجَيْن في صورةٍ واحدةٍ.

هذان الأبوان النادران كانا قد وضعا معًا صلاةً لقّناها لأَبنائهما، وفي كلِّ مساءٍ كان الأَبناء يتحلّقون حولَهما، ليتلوها جميعُهم معًا مردّدين:

"باركنا جميعَنا، يا ربّ
بارك، على نحوٍ خاصٍّ، أَبناءَنا هؤلاء
واحفظْ سلامةَ نفوسِهم وأَجسادِهم وأَذهانِهم،
وأَلْهِمْ جميعَ المسؤولين عنهم.
ساعِدْنا على توجيههم نحوَ أَفضل مصالحهم الزَّمنيَّة والرُّوحيَّة، وخصوصاً نحو مجدِك الأَعظم،

اِحمِنا من الضّلال، واجعلْ ألاّ يغيبَ أَحدٌ منّا، صغارًا أو كبارًا، عن الموعد الأَعظم والنهائيّ في ديارك؛

نحن نؤمن، يا ربّ، في كلامك الإِلهيّ،

فكُن لأَبنائنا هؤُلاء، ولنا جميعًا، حقًّا، السِّراطَ والحقَّ والحياة.

نحن نعرف، يا إِلهنا، أَنّنا لسنا بشيءٍ، ولا نعرف شيئًا، ولا نقدر على شيءٍ بأنفسنا،

ولكنَّنا نعرفُ، أَيضاً، أَنّك تعرفُ كلَّ شيءٍ، وتقوى على كلِّ شيءٍ، فتولَّ كلَّ شيءٍ، ونحن بك واثقون.

يا قلبَ يسوع الأَقدس، نحن نثقُ بك،

يا قلبَ يسوع الأَقدس، نحن نُؤْمن بحبِّك لنا،

يا قلبَ يسوع الأَقدس، إِنّنا نُكرِّس لك ذواتنا".

ولا جرَم أَنَّ منظر ذيْنك الأَبوَيْن الراكعَيْن معترفَيْن للخالق بعُرْيهما وتواضعهما، أَمام أَبنائهما، قد خلّف في هؤلاءِ أَثَرًا بعيدَ الغَوْر، على نحو ما يُستشَفّ من قول الأب پيير، وهو يتذكّر، في كهولتهِ، تلك الصَّلاةَ الجماعيّة: "إِنَّ عظمةَ هذا الركوع لن يستطيع إِدراكَها أَبدًا من لم يتأثَّر شعورُهم الطُّفوليُّ بنعمة مشاهدته".

وفي أَعقاب تلك الصَّلاة المسائيّة، عندما كان يأوي كلُّ ولَدٍ إلى غرفته، كان الوالدُ يمرُّ بكلٍّ منهم، فيقضي معه بضع دقائق، مستعلمًا عن قيامه بواجباته المدرسيَّة، مُستجليًا مشاكلَه وحاجاته، ومتبادلاً معه بعض العبارات الرَّقيقة، مُسبغًا على كلٍّ منهم فَيْضاً من عطفه وحنانه.

عدّةَ سنواتٍ بعدَ تلك الفترة، ساعةَ انتقلت الوالدةُ الأَرملة إلى جوار ربّها، كان هنري، الذي أَمسى الأبَ پيير، جاثيًا إلى جانبها، يُساعدها على ترديد كلماتِ تلك الصَّلاة، للمرَّة الأَخيرة.

غير أَنّ الحَدَث الذي دمغ هنري الفتى في الأَعماق، وكانَ له الدَّوْرُ الحاسمُ في تقرير منحى حياته، قد جرى يوم كان له من العمر نحوُ سبع سنواتٍ.

يومَها، كانت الأُسرةُ مدعوّةً إلى احتفالٍ في منزل أَقارب لهم يعيشون في فَيْضٍ من اليسر والبحبوحة، ويمتلك أَبناؤُهم من الدُّمى أَغلاها وأكثرها إدهاشًا وإِثارةً. وفي

صباح ذلك اليوم عينه، ارتكب هنري حماقةً بشعةً، إذ التهم كُلَّ طبق المربّى الذي كان قد أُعِدَّ على المائدة، قُبَيْل موعد الإفطار. ولمّا استفسرت الوالدةُ عن الفاعل، اعتَصَمَ هنري بالصَّمت مُنكرًا فعلتَه، ومُسبِّبًا اتّهام أَحدِ إخوته. ولكن سُرعانَ ما انجلت الحقيقة، فعاقب الوالدُ هنري بمنعه من الاشتراك في الاحتفال، فظلَّ في البيت وحيدًا يجترُّ حَنَقه وغيظَه؛ وعندما عاد إِخوتُه وأَخَواتُه مساءً، وقد أَخذتْ منهم الإثارةُ كلَّ مأخذٍ، بادروا يروون له فرحتَهم ودهشتَهم بكلِّ ما شَهِدوا وعَبثوا. غير أَنَّه، في لهجةٍ حافلةٍ باللامبالاة، أَجابَ أَحدَ إخوته قائلاً: "وما شأني أَنا بذلكَ، ما دمتُ لم أكن هناك؟"، ثُمَّ أَدار ظهرَه ومضى، مَزْهُوًّا بمَنْطِقِه المُحكم المُفحِم.

ولكن، بعد نصف ساعةٍ، استدعاه والدُه إلى مكتبه. لم يُؤَنِّبه، ولكنّه كان باديَ الحزن، وخاطبه قائلاً: "يا هنري، قد سمعتُ إجابتك لأَخيك، وإِنِّي لأَعْجَبُ كيف لا تشعُرُ بمدى بشَاعة قولك هذا. أَفلستَ سعيدًا إِذا سَعِدَ إِخوتُك؟ أَلا شأنَ لك إلاّ بنفسك؟ آه! ما أَسوأَ سلوكَك!"

كانت تلك من الكلمات التي تقرِّرُ مصيرًا بأكمله، على حدّ قول الأب پيير، سنواتٍ طويلةً بعدَ ذلك: "تلك لحظة يتعذّرُ نسيانها، فقد كانت مُفْعَمةً بأسى والدي. لم يُعاقبْني بقصاصٍ جديدٍ، ولم يؤنِّبني، ولكنَّه أَفضى لي بما كان يختلج في أعماقه. لقد كان حزينًا، لأَنّني كُنْتُ شرّيرًا، وانهار فيّ ذلك الشُّعورُ بالزَّهْو والرّضى عن ذاتي، في معزلٍ عن الآخرين... لقد أَشرعَتْ تلك الكلماتُ أَمامي نظامًا جديدًا. كنتُ أَتكلّم وفق منطقٍ لا غُبارَ عليه، وعملاً بنظام العقل، وإِذا بي، بغتةً، وبسبب حزن أَبي، أكتشف نظامَ الحُبّ.. والحبُّ هو أَن يَسْعَدَ المرءُ بسعادة الآخر إِن أَنا ابتغَيْتُ السَّعادة، فهناك وسيلةٌ وحيدةٌ لا تخيب، تتمثَّلُ في أَن أستمدَّ فرحي من فرحك، بحيثُ يُسْهِمُ فرحي بفرحك، وفرحُك بفرحي، وأَفراحُنا جميعًا في خدمة فرح الجميع".

الحزنُ الذي كان يترقْرَقُ من كلام أَبيه حَفرَ في نفسه جُرْحًا بليغًا ظلَّ يتحسَّس ندبتَه سحابةَ حياته. وفي ذلك اليوم تلقَّن قِيَمًا قشيبةً، وعِبْرةً قادت خطواتِ حياته كلَّها، إِذ لمس للوجود بُعْدًا جديدًا، وتعلَّم، إلى الأَبد، أَنَّ الفرح الحقَّ يكمن في نسيان الذَّات ومشاركة الآخرين سعادتَهم.

سبْعَةَ عقودٍ بعد ذلك الحادث كتَبَ الأَبُ پيير: "لكي يبقى كلُّ هذا القَدْرِ من

التّفاصيل الدَّقيقة عن ذلك الحَدَث الدَّاخليِّ محفورًا في ذاكرتي، بعدَ ما ينيفُ عن سبعين سنةً، لا مَفَرَّ من التَّسليم بأنّه لا يختلف، في شيءٍ، عن الأَحداث الحاسِمة التي، شيئًا فشيئًا، كوَّنت حياتي.

"كيف لي أَن أُعبِّرَ تعبيرًا وافيًا عن امتناني لوالدي؟ فكلماتُه كانت تصطبغ بإِحساسٍ من العُمْق بحيثُ أَشرعتْ نوافذ قلبي، وليس فقط عقلي البارد الخدّاع".

سأُصبح بحَّارًا... أَو مرسَلاً... أَو لصًّا

انتظم هنري وإخوتُه، فترةً، في مدرسةٍ داخليّةٍ، في ليون، غير بعيدةٍ عن منزل الأُسرة. ثَم دَرَسوا في معهدٍ لليسوعيّين كان خالٌ لهم، كاهنٌ، أَحدَ مُديريه.

وقد شرع هنري آنذاك يَحْلُم في أُمورٍ عظيمةٍ ورائعة: "وكان حسَّاساً، تِلْقائيًّا، مُضطرمًا، أَنوفًا، مندفعًا، واهمًا، متأهِّبًا لخيبات الأَمل الكبرى". بالإِجمال، كان قلبًا متأجِّجًا، أكثر منه عقلاً مُبْدِعًا.

لم يكن عبقريًّا مُتَفوِّقًا، ولكنَّه كان دؤوبًا على دراسته، حرصاً منه على الظَّفَر برضى والده، وعلى توفير بعض العَزاء والمَسرَّة لذلك الأَبِ الرَّائع الذي لا يني يبذُل نفسَه في سبيل أَبنائه، وجميع الآخرين.

لمّا كان هنري في الصَّفِّ الرّابع، جاءَ، يومًا، بدفتر علاماته وقد سُجّلتْ فيه هذه الملاحظة: "هذه أَسوأُ علاماتٍ في المدرسة كلِّها. لو لم يكن لهنري إِخوةٌ في مدرستنا لطَرَدْناه منها". ومع ذلك، بفضل جهده الدؤوب، أَنهى دراسته بنجاحٍ، وبفضل فترات العزلة المتكرِّرة التي كان يفرضُها المرضُ، وما يواكبها من تأَمُّلٍ ومطالعةٍ، وتثقيفٍ ذاتيٍّ، فاز في نهايةِ دراسته الثانويّة "بجائزة الحكمة"، الَّتي أَقَرَّها له رفاقه بالإِجماع.

كان كَلِفًا بالمطالعة، وغالبًا ما كان يتَّخذ من ساحة "بيلكور" الفسيحة، في مدينة ليون، موئِلاً، فيجلسُ في ظلال أَشجار كستنائها الوارفة، يلتهم الكُتُبَ، ويدبّج بعض المواضيع التي تعتلج في صدره، ويُطْلِقُ لخياله العنانَ كي يسرَحَ وراءَ الأَحلام المُتَوهِّجة، في الآفاق البعيدة.

في تلك الفترة، وفي أَعقاب سلسلةِ أَحداثٍ صغيرةٍ، أَفلتَ من عواقبها الَّتي كان يمكن أَن تكون وخيمةً، ترسَّخ لديه اليقينُ بأنّ الحظَّ سيُحالفه أَبدًا، طالما كان هدفُه

سليمًا، وطالما هو تحلّى بالجرأة والإقدام، مع أنّه كان واثقًا من أنّ جهودًا كثيرةً، في سبيل أهدافٍ سليمةٍ تُمنى بِالْفَشَلِ الذّريع غير المبرّر.

وكان هنري الصَّغير متواطئًا مع جَدِّه لأُمِّه الذي كان يُؤْثِرُه ويغمره بدلاله، وغالبًا ما يصطحبُه في نزهاتٍ يتجوّلان أثناءَها وحيدَيْن، فيدخّن الجَدُّ، في منأًى عن عيون زوجته وابنته، سيكارًا كان قد أوعز إليه الأطبّاءُ بالإقلاع عنه، ويبتاع لحفيده الأثير كلّ ما يشتهيه من حلوى كي يتكتَّم على السر.

وذاتَ يومٍ، رأى هنري ذلك الجَدَّ مُسَجّى، بلا حراكٍ، في جوٍّ مُشبعٍ بالخشوع، وقد ارتدت نساءُ الأُسرة ثياب الحداد، واستمع إلى الصَّلوات الَّتي كانت تُتلى حول الجثمان، فإذا بها تعبّر عن فرح لقاء الإنسان بربّه، فلم يُدرك للحزن سببًا، طالما غدا ذلك الجَدُّ الحبيبُ في مَوْطن النّورِ، حيثُ لا حُزْن ولا وَجَع ولا تنهُّد، بل سعادةٌ دائمةٌ. يومَها بدا له الموتُ سِرًّا غير مخيف.

وتوالت الاكتشافاتُ الجوهريّة التي كوَّنت ركيزةَ قناعاته الأَساسيّة، وبَلْوَرتْ، شيئًا فشيئًا، صورةَ مُستقبَله. وقد تحقّق أَحدُ أَخطر اكتشافاته، أَثناء زياراته المتعاقبة إلى ما كان يُدعى "مُتحف نشر الإِيمان"، القريبِ من منزل ذويه في ليون، وهو مركزٌ حافِلٌ بصُوَرٍ وذكرياتٍ تُمثِّلُ الشُّهَداء الَّذين ارتضوا الموتَ في سبيل مَثَلٍ سامٍ رائعٍ: الإِيمان بالله.

كان يقضي، ثمّة، السَّاعات، ولا سيَّما في أَيَّام العُطَل الماطرة، ويقف مشدوهًا، إعجابًا أَمام عظمة أُولئك الأَبطال؛ وبُتؤَدَةٍ، كانت تتوطّد في أَعماقه الرغبةُ في التمثُّل بهم. وقد دعَّم تلك الرغبةَ كِتابٌ عنوانه "معاهد رسوليّة" وقع بين يدَيْه، فطالعه، وأَعاد قراءته مرّاتٍ، في حين كانت تَخْطُرُ أَمام خياله صُوَرَ أُولئك الرّجال المتسربلين بالبياض، الَّذين شخصوا إلى البلاد النائية، غير هيّابين، وحقّقوا فيها إِنجازاتٍ رائعةً مُذْهلةً.

غير أَنّ تلك الرَّغبةَ ظلّت، طويلاً، سِرًّا مطويًّا، ضنَّ بالبَوْح به لأَحدٍ، باستثناء إِلماحه إليه، مرّةً، عَرَضاً، إِذ كان مُسافرًا مع أَحد إِخوته، فسأَلتهما سيِّدةٌ كانت تشاركهما حجرة القطار عن المُستقبل الَّذي يتطلّع إِليه كلٌّ منهما، فأَجاب هنري مازحًا: "سأُصبح بحّارًا... أَو مُرْسَلاً... أَو لصًّا..."

وعندما نضج مشروعُ الرِّسالة في ذهنه وقلبه، وَجَدَ نفسه مُنْدفعًا إلى مُكاشفة والده به؛ وإذ كان والده، إذَّاكَ، على سَفَرٍ، تركَ له، في مكتبه، رسالةً مُقْتَضبةً أعلن له فيها: "أَبي، لديَّ سِرٌّ خطيرٌ، أَودّ أَن أَبوح به لك".

ويومَ عادَ أَبوه مِن السَّفرِ، مَرَّ بغرفته، شأنَ ما كان يفعلُ كلَّ مساءٍ، ليُحادثه قليلاً ويقبِّله، متمنّيًا له ليلةً سعيدةً، فتجرّأ هنري وصارحَه:
– "أَبي، إنّني أُريد أَن أَصير مُرْسَلاً".

وإثر فترة صمتٍ، تناهى إليه ردُّ أَبيه، بلهجةٍ طَبَعَها التأَثُّر:
– "تعرف كم سيكون ذلك شاقًّا على والدتك وعليَّ... ولكنّنا سنكون بكَ فخورين جدًّا".

وتوقّف الأَمرُ عند ذلك التَّصريح، وهذا الردّ المؤَثِّر، بضعَ سنواتٍ، قبل انتقالــه إلى مرحلة التَّنفيذ.

تساؤلٌ وبحث

بين إعلانه لأَبيه عن اعتزامه انتهاج درب الرِّسالة، واندفاعه في هذا الــدَّرب، انقضت ثلاثُ سنواتٍ من الحيرة والرِّيبة والبَحْثِ الدَّائبِ عن الحقيقة.

ففي الثالثةَ عشْرةَ من عمره، أُجريتْ له عمليَّةُ استئصال الزّائدة الدّوديّــة، وقــد أَمضى، في أَعقابها، فترة نقاهةٍ طويلةً، استسلم أَثناءَها إلى التأمُّل، وأكَبَّ، بنَهَمٍ، على مُطالعة كلِّ ما يقع تحت يدَيْه من كُتُبٍ. فمنذُ صِغَره تجلّى لديه ميلٌ قويٌّ إلى التَّثقيف الذاتيّ، وعَدَم الاقتصار على العِلْم المدرسيّ. ولا عجَب في ذلك، فمن تلتهــب فــي داخله نارٌ مُضطرمةٌ، لا يستطيع الاكتفاءَ بالدُّروب المطروقة.

ومن الكُتُب التي وقع عليها، آنذاك، مؤلَّفاتُ الفيلسوف الفرنسيّ ديكــارت التــي أَسرتْه وقدَحَتْ في ذهنه شرارةَ التساؤل، ونشدانِ الحقيقة، انطلاقًا من الصِّفْر، وفــي منأًى عن كُلِّ تأثيرٍ فكريٍّ سابقٍ.

وبدافع هذا النَّهْج، جالت بخلَده هذه الخاطرة: "أَنت مسيحيٌّ بــالولادة، وتتأَهّــب لتكريس كلِّ حياتك لخدمة إيمانك. ولكن لو أَنت وُلدتَ في أسرةٍ تنتحل ديانةً أُخرى، ولم تبذل من الجهد أكثَرَ ممَّا بذلتَ حتّى الآن كي تتيقّن من صحّة إيمانك، فلربَّما كنتَ

دفعتَ حياتك في منحًى آخر. فأيُّ ضمانٍ لديك بأنّك على صوابٍ؟"

كان حريصاً على أن يخطوَ خطوته الحاسمةَ مُزَوَّدًا بقناعةٍ وطيدة الأركان، فراح ينشُد الحقيقةَ بصِدْقٍ ووضوحٍ؛ وإذ به، فجأةً، في قفرٍ إيمانيٍّ مُطْلَقٍ، وفي نُقْطَة الصِّفر في ما يتعلَّق بمعنى الحياة، وفي مواجهة مسؤوليّةٍ باهظةٍ إزاءَ نفسه.

لم يكن ذلك التساؤلُ خاطرةً عابرةً، بل كان شُعورًا ملازمًا، ظَلَّ يحتفظ به طويلاً سرًّا لا يبوحُ بهِ لأَحدٍ، فمضى وحيدًا في مسيرة بحثه الحثيثة المضطربة؛ وفي ما بعد، لم ينعتقْ قطُّ من نهج التساؤُل الداخليّ ذاك، الذي يدفعه إلى اكتشاف الحقيقة بنفسه، بعيدًا عن كلِّ ضَغْطٍ بشريٍّ.

خُيِّل إليه، بادئَ الأمر، أنّ الله عَقْلٌ، وأَنَّه بذلك الاكتشاف قد عثر على مفتاح السِّرِّ، وعلى الكيمياء التي تُحوِّل الرَّصاص ذهبًا.

بَيْدَ أَنَّ تلك القناعةَ الْعَقْلِيَّة لم تُفلح في النَّفاذ إلى أَعماقه، ولم توفِّر له سوى هُدنةٍ من السَّكينة مُؤَقَّتةٍ، سُرْعان ما قضى عليها مدُّ الحياة الجارف، فاستسلم، بعدَ سُكون العقل، إلى خِضَمِّ الهوى العارم؛ فقد اجتاحه شعورٌ حسِّيٌّ، انقلب يقينًا، بأَنَّه محبوبٌ، وبأَنّه وُجد كي يُحبَّ إلى أَقصى تخوم الحبّ؛ وتأكَّد له أَنّ البشريّةَ كلَّها، في بحثها عن معنى الحياة وهَدَفها، إنّما تنقسم إلى فئتين: فئةٍ تُؤمن بحلوليّةٍ مُبهمَةٍ، وإن هِيَ جاهرت بإِلحادها، وفئةٍ أُخرى تتجرّأُ فتُعلن: "أَبانا الذي في السَّماوات". وهو نفسُه خاض تجربة الحلوليّة، قبل أَن يهتف من أعماقه "أَبانا". ومن ثمَّ ترسَّخت في أَعماقه الرَّغبةُ في مساعدة الحلوليّين في بحثهم، وفي مؤازرتهم على بلوغ النبع الكفيل بإرواء عطشهم النفسيِّ الدَّفين، وعلى لقاء "المنتظَر" المجهول والمحبوب، الذي لا يُضلِّل، ولا يُخيِّب أَملاً، ولا يُغذّي أَوهامًا، الكائن الذي هو حبٌّ.

هذه الرَّغبةُ رافقت الأَبَ بيير سحابةَ حياته، وقد واكبها خوفٌ دائمٌ، ولّدته التجربةُ المُعاشةُ، خوفٌ من رفضِ الحبّ، والعودةِ إلى عبادة الذَّات اللّذَيْن قد يقع فيهما، في كلِّ آنٍ، على السَّواء حاملُ الرّسالة نفسُه، ومن تتوجَّه الرّسالةُ إليه، الَّذي قد يرفضها خشيةً مقتضياتها الشّاقّة.

بعدَ أَن ركبَ هنري الفتى موجةَ ذلك الهوى القُدْسيّ، غالبًا ما مضتْ به بعيدًا، فجاورَ الأَعماقَ وخَشِيَ الغَرَق. في تلك اللّحظاتِ الحَرِجة كان يستنجد "بالزعيم"، أَي

بيسوع الذي عانى مِن الآلام أَقساها، وفي كلّ يومٍ، كان يُدبّج في دفاتره، لذلك "الزعيم" الحبيب صفَحاتٍ مبلّلةً بالدُّموع، فقد كان يتّخذ منه نجيًّا يكاشِفُه بكوامن سريرته، ومُغيثًا يتشبَّث به بقوّةٍ، لكيلا تُطيحَ به اللّجَّةُ العارمة.

ومن خلال يوميّاته عن تلك الحقبة يمكن استجلاءُ ذلك التمزُّق بين الرَّجاء والخوف، على درب المعرفة الدَّاخليّة، واكتشاف اللاّمحدود، في نهاية مطافٍ موجعٍ.

جوعٌ إلى الصداقة

في نحو الخامسةَ عَشْرةَ من عمره، آنَسَ هنري حاجةً جامحةً إلى أَن يُحِبّ ويُحَبّ، إلى صديقٍ يُكاشِفُه بكوامن نفسه، ويتكاتفان معًا على التَّصعيد نحوَ هَدَفٍ عظيمٍ. واتَّفق أَن خَلَبَه، في قُدَّاس ليلة عيد الميلاد، صوتُ فتًى في مثل سِنِّه، كان يُرتِّل مع كورس الكنيسة. وقد طغى ذلك الصَّوْتُ السَّاحر على كلِّ صوتٍ آخَر، واستحوذ على كلِّ كيان هنري، فلم يعُدْ يسمعُ سواه، وشبَّت فيه رغبةٌ لا تُقاوَم في مصادقة صاحب ذلك الصَّوْت الرخيم. وحاول، في الأَيّام والأَسابيع التّالية، التقرُّب منه، مادًّا له يدَ الصَّداقة. ولكنَّ يدَه ظلَّت ممدودةً في الفراغ، إِذ تجاهلَه ذلك الفتى، ولم يأبهْ به، ولم يُبدِ أَيّ اهتمامٍ بمبادلته الصَّداقة.

لقد أَشرع ذلك الرَّفْضُ في أَعماق هنري جُرْحًا نازفًا، فانطوى على ذلك السرّ الدامي شهورًا، يتأَلَّم صامتًا، وحيدًا، ولا يبوح بلواعجه إلاّ لدفتر يوميّاته، حيثُ كان يجأر بحاجته المصدومة إلى تلك الصَّداقة التي ترفض الاستجابة، وقد دوّن فيه: "إِنّني مفرط الحساسيّة، أُفكّر، وأُحبّ، وأَتأَلَّم. إِنّني هادئٌ، ولكنَّ قلبي يحترق. أُصلِّي وأَبكي...".

ولكنَّ حُسنَ طالعِهِ وضع في طريقه صديقًا آخَر يفيض شبابًا وذكاءً، واندفاعًا وسِحْرًا. كان يكبرُه بسنتَيْن، ويقود فرقتَه الكشفيّة، واسمُه "فرانسوا كاربيت". وقد استشفّ فرانسوا ما كان يعتلج في صدر هنري من لواعجَ وهواجس، فمدَّ له يدًا حانيةً مُخْلصةً، وكان له، طيلةَ سنواتٍ، بمثابة الأَخ الأَكبر الذي يُرشد ويُشجّع، ويُقيل العثار، ويستجلي الطريق. وقد توثَّقت بينهما وشائجُ صداقةٍ متينةٍ وثمينةٍ؛ وحتّى بعد أَن فرَّقتهما المصائرُ، إِذ انتسب فرانسوا إلى الكلِّيَّة العسكريّة، ثمّ انخرط في الجيش،

وانتُدب لمهامّ في أَفريقيا، في حين واصل هنري، بتُؤَدةٍ، مسيرتَه نحو الكهنوت، ظلّتْ قائمةً بينهما صِلَةُ الرسائل، وبها كان يُفضي كلٌّ منهما بمكنونات نفسه، ويَهَبُ خيرَ ما لديه من عونٍ. ولم ينقطع تبادُلُ الرَّسائل ذاك إلاّ بمصرع فرانسوا المأساويّ، الذي بَتَرَ ثلاث عشرةَ سنةً من تواصُلٍ أَغنى الصديقَيْن معًا.

وقد أَدّى مصرعُ فرانسوا إلى ضياع رسائل هنري له، أَمّا رسائله هو فقد عبّر صديقُه هنري، وقد أَمسى الأَب پيير، عن مدى إِخلاصه، وصدق صداقته، بجمعها ونشرها في كتابٍ بعنوان "نحو الحبّ الأَعظم". وفي المقتطفات التالية نماذجُ منها:

"من المُحقّق أَنّ على الأَرض بشاعات. ولكنَّني لستُ أَدري كيف يجعلُك ذلك الواقعُ تجدُ الحياةَ رديئةً. يا صديقي، إِنَّ كلَّ امرئٍ يجعلُ من الحياة ما يشاء. وبعضُهم يمرّغونها في الحمأة، فهل هم، بذلك، يدنِّسون حياتنا؟ إِنّهم إِنّما يُبيِّنون لنا كيف تصبح الحياة مَهينةً. فلنعتبرْ ولنجعلها رائعةً".

* * *

"الحياة، يا عزيزي، مجبولةٌ بالحبّ، ومفعمةٌ به. ولكن لا نظنَّنَّ أَنَّها قائمةٌ على حبٍّ واحدٍ، بل هي تستوعب جميع أَصناف الحبّ: الصَّداقة، والحبّ البنويّ والأَبويّ، والزوجيّ، وحبّ المهنة... ولكنّها تتَجاوزها جميعها بلا قياسٍ. فلا يمكن لحبٍّ واحدٍ أَن يملأَها بأكملها، أَو بالأحرى، بلى: فحبُّ الله قادرٌ على ملئها".

"تتساءَل عمّا يبقى لك بعد أَن تكون قد فقدتَ حلْمَك؟ أَقول لك ستبقى الحياة، وهي أَرحب من جميع الأَحلام!

"الحياةُ هي الفرحُ الذي نُشيعه من حولنا؛ إِنّها الكفاح الدائم الَّذي نشنُّه على ذواتنا. الحياةُ، في الخامسةَ عشرةَ من العمر، هي كفاح الطُّهر الأكبر، الذي غالبًا ما نُهزَم فيه، ولكنّنا نَهُبُّ ناهضين. الحياةُ هي ما نُعِدّ لها".

من خلال هذه الرَّسائل يسعُنا تخمينَ رسائل هنري غروِيس، وهواجسَه وقَلَقَه واضطرابه، في تلك السِّنّ الحَرِجة، وتجعلُنا نُقدّر الصَّداقةَ الصَّادقة الصَّافيةَ التي حظيَ بها، إِذ قُيِّض له أَن يصادق رفيقًا، وإِن لم يكبرْه إِلاّ سنتَيْن، غيرَ أَنّه اتّصف

بالحزم والنُّضوج، والثّقة بالذات؛ فأفلح في طرد مخاوفه، وتسديد خطواته، على نحو ما نلمس في الرّسالة التالية:

"إِن توجَّبَ عليَّ أَن أُعلن لك عن رأيي بكلِّ صراحةٍ لقلتُ: إِنَّكَ لم تعانِ قطُّ من آلامٍ كبيرةٍ، ولذلك تجهدُ في اصطناع آلامٍ صغيرةٍ. كم من الفتيان في مثل سِنِّك قد تألَّموا حقًّا! كلُّ أُولئك التُّعساء، أَبناء الفقراء، الَّذين عليهم مواجهةُ قَسْوة الحياة! أُولئكَ الفتيانُ الصِّغارُ، الَّذين، في مثل سِنّك، يعملون في مصانع مسمومة الأَجواء! ومن حَوْلكَ كلُّ أُولئك الذين فَقَدوا والدَهم، وما أكثرهم! أَتدري أَيَّةَ قشعريرةٍ تسري في القلب لرؤية الأَب، للمرّة الأولى، مُسجًّى، مُشبَكَ اليدَيْن، بالغَ الشُّحوب؟ في مثل هذه الحالات، فقط، يسوغ للرَّجُل الحقّ، ولو كان فتًى، أَن يبكي"!

ولكي ينتزعه من أَوهامه ومن التخيُّلات الحزينة التي غالبًا ما تنتاب المراهقين، دفع فرانسوا بهنري كي يُصبح قائدَ فرقةٍ كشْفيّةٍ، وبيَّن له أَنّه، بصفته تلك، عليه أَن يكون دائمًا قُدْوةً. وقد أَخذ هنري بالنَّصيحة، وبات قائدًا كَشْفيًّا مثاليًّا. وكان، وهو يقود فريقَه، يسير بخطواتٍ واسعةٍ سريعةٍ، وقد غدت تلك المسيرةُ الحثيثةُ عادةً راسخةً احتفظ بها حتّى كهولته. وكان عليه، أَبدًا، أَمامَ فريقه، أَن يجهد في إخفاءِ اضطرابه، فتمرَّس بالصمود، والسَّيطرةِ على الذَّات.

نورٌ من أَسّيزي

الحَدَثُ الحاسِمُ الذي طَرَدَ بحُزْمةِ نورهِ السَّاطع ظِلالَ الشَّكّ التي كانت ما تزال تطوفُ بالفتى هنري، والذي قضى بسناهُ وزخمهِ على أَزَمات نفسه المراهِقة، وغمرَ بالضَّوء دربَ بحْثه عن المُطْلَق وطريقَ الرّسالة الَّتي كان يصبو إلى انتهاجها، هذا الحدَث قد تمثّل بلقاءاته العفويّة والخصبة بالقدّيس فرنسيس الأَسّيزي.

لقاؤُه الأَوّل به تمّ في ربيع عام ١٩٢٧، إِذ كانت مدرستُه قد نظَّمتْ، بمناسبة عطلة عيد الفصح، حجًّا إلى روما، حيثُ تعقَّبَ ورفاقهُ خُطى المسيحيّين الأَوائل في الدياميس، وبطولاتِ الشُّهداء في الكوليزيوم، وفي طريق العودة كانت لهم وقفةٌ في أَسّيزي، ولم يكن هنري، آنذاك، يعلمُ شيئًا عنها وعن قدّيسها. وفي تلك الليلةِ جفاه النوم فهبَّ مع الفَجْر وانطلق يتوقَّلُ الجبلَ الذي يَحْتَضِنُ المدينةَ. وبعد أَن سرَّح

الطّرف في السهل الفسيح الذي كان الربيع يسري في أوصاله، ويُوَشّيه بألف لونٍ ولَوْن، طَفِقَتْ نواقيس أَسّيزي والقُرى المجاورة تنشرُ، من كلّ صَوْبٍ، في الجوّ السَّاحر العذْب، نغماتها الفضيّة الجذلى، مؤلِّفةً موسيقى عذبةً ساحرةً، تترجّع أَصداؤُها في أَجواز السَّماء، حتّى لكأنّ الشّمسَ والقمرَ والنُّجومَ، والسَّواقي والطُّيور، قد ضمَّت أَناشيدَها في نغمةٍ واحدةٍ تقول: "اُنظروا ما أَبهى الحياة، لأنَّها مشيئةُ الله"!

لقد استحوذ عليه، من جرّاء كلّ ذلك انطباعٌ أَخّاذٌ يندّ عن الوصف، ما انفكّت أصداؤه تخفُق في حناياه، وترافقه حتّى شيخوخته؛ وقد حاول أَن يُعبّر عن شيءٍ ممّا فاض به صدره آنذاك، فدوّن في دفترٍ صغيرٍ:

"يا لأجراسِ الفصْح!
ما أَحلى الموتَ في صباح أَجراسٍ
في مثل هذا الصّباح، حيثُ الأرض كلُّها
تشدو بمعاني الحبّ".

تلك الدَّهشةُ أَمام الجمال الأَخَّاذ، في ذلك الفجر المُشرق، إنّما كانت مُقَدِّمةً ربَّانيّةً لصدمةٍ أُخرى تَعرَّضَ لها هنري، بعد ظُهر ذلك اليوم عينه، عندما زار ورفاقه "المحابس"، تلك المناسكَ الضَّنّكةَ المحفورةَ في قلْب الصَّخْر، حيثُ كان فرنسيس وإِخوانه يمكثون ساعاتٍ وأَيّامًا، مأخوذين بحضور الله المُهْيمن. وقد استمع هنري، في اهتمامٍ مشدودٍ إلى أَقوال الراهب الدّليل الذي أوجز مآثر فرنسيس والفرنسيسكانيّين الأَوائل.

وفي طريق العودة، ظلَّ ساهمًا مسحورًا، يُردِّد، بلا وعيٍ، كلمات الرَّاهب التي أَخذتْ بمجامع فؤاده، وأَشرعتْ نفسَه على أَحاسيسَ جديدةٍ كَلَّ الجِدَّة؛ ومن أَشدّ ما نفذَ إلى أَغوار نفسه صيحةُ فرنسيس: "**الحبُّ ليس محبوبًا**"، وامتزاجُه الأَخويُّ بمن يتأَلّمون لافتقارهم إلى من يُحبُّهم.

ذلك اللقاءُ الحاسمِ بالأَسّيزي، وَسَم هنري في الأَعماق، وغرسَ في أَحشائه البذرةَ التي منها نما، في ما بعد، الأَبُ بيير.

ومنذئذ، أَخذت تتلاشى من نفسه، كما يتلاشى الضَّبابُ أَمام جبروت الشَّمس المنتصرة، أَحلامُ المراهقة وأَحزانُها وخيباتُ آمالها، وآلامُ الصَّداقة التي اندفع إليها

فامتنعتْ عنه؛ واستقرَّ في قرارةِ خَلَده اليقينُ بأَنّ عليه التخلّي عن كل شيءٍ للظفر بالله، وقد صرَّح، في ما بعد: "**للمرَّة الأُولى أدركتُ أَنّ التوحُّدَ والتجرُّدَ، قد يكونان أكثر استيعابًا لما أَتطلّع إِليه من لقاءٍ بالكُلّيّ، من جميع الأَحاديث والدُّروس التي عَهِدْتُها حتَّئذٍ**".

في تلك الحقبةِ من حياته – وطوالَ أَيّامه اللاحقة – كان هنري غالبًا ما يتعرّض لوعكاتٍ صحيّةٍ لا تتّسم دائمًا بالخطورة، إلاّ أَنّها تضطرُّه إلى مُلازمة الفراش، وهو يعلّق على ذلك قائلاً: "**يبدو أنّني من أُولئك الَّذين كثيرًا ما تنتابهم العِلَل، غير أَنّهم، في نهاية المطاف، هم الَّذين يدفُنون الأَصحّاء**". وغالبًا ما أَنذره الأَطبّاء: "عليك الاستسلام للواقع، فلن تتمكّن، بعدَ الآن، من ممارسة أَيّ نشاطٍ ذي شأنٍ". ولكنّ جُذْوةَ الخدمة المضطرمة في أَعماقه كانت تساعده دائمًا على التعافي، وعلى ممارسة نشاطٍ أَوفر من ذي قبل. وكانت فتراتُ الرُّقاد تلك أَوقاتًا ثمينةً جدًّا؛ فبفضل العُزْلة والتأمّل، كان ينضجُ فيه كلُّ ما عاشه وتَعلَّمه، حتَّئذٍ، وبفضل همود نشاطه الجسديّ، كانت تتفتّق، من داخله، مشاعرُ وأَفكارٌ قشيبةٌ خَصبةٌ.

نحو ستّة أَشهرٍ، عقْبَ لقائه الأَوّل بالأَسّيزي، أَي في خريف عام ١٩٢٧ انتاب هنري مرضٌ شديدٌ فَرَض عليه العزلةَ والرُّقاد، ونَصَحَه الطبيبُ بهواء البحر المُنعش لرئَتَيْه، فقضى فترة نقاهةٍ لدى كاهنٍ قريبٍ له، في مدينة "كان"، حيث أكَبّ على المطالعة بنَهَمٍ. وقُيّض له، آنذاك، أَن يَقعَ على سيرةٍ مُسهبةٍ للقدّيس فرنسيس الأَسّيزي، بقلم الكاتب الدانمركيّ "جورجنسن". وقد جاءَتهُ تلك المطالعةُ بالجواب الذي كان ينشده على تساؤُلاتٍ لم يُوفّر له "ديكارت" وشتّى الفلاسفة والشُّعراء سوى أَجوبةٍ عليها هزيلةٍ لا تشفي غليلاً، فهتف من أَعماقه: "**يا للسموّ! أَجل، أُريد أَن أُصبح فرنسيسكانيًّا**".

لقد اكتشف هنري أَنّ فرنسيس، أكثرَ من أَيّ إِنسانٍ آخر، قد ولَجَ رحابَ المُشاركة الشاملة، بحبِّه ليسوع حُبًّا حَرِص على التشبُّه المُطلَق بتجرّد الفادي، فاكتشف فيه العلاقةَ التي لا تنفصمُ لها عُرًى بين الفقر الإِنجيليّ والحُبّ الذي لا يرتضي إِلاّ بالمُطلَق.

وعلاقتُه المتوثّقة بفرنسيس دفعت به إلى الإِنجيل الذي شرع يُطالعه على ضَوْء

تجربة الأَسّيزي؛ ومُذّاك، ما برح الإِنجيلُ رفيقَهُ الدَّائم ودليلَه، وبهَدْيه اكتشف الفقرَ السّامي الذي اختاره المخلِّصُ، الفقرَ النابعَ من غناه اللاّمحدود، والمناقضَ للفقر البشريّ الناجم عن الافتقار والحرمان. لقد اتّضح له أَنّ فقر الله هو فقر من لا يرضى الاكتفاء بذاته، ويتطلّب حبّ الآخرين، ولو كانوا خلائقَه؛ فقر الله هو رغبتُه في استجابة مخلوقاته لحُبِّه، بحرِّيَّةٍ.

صيحةُ فرنسيس: "**الحبّ غير محبوبٍ**" هي التي جَلَتْ له الحقيقةَ كاملةً، ودلّته إلى السّراط: أَن نحبَّ اللهَ لأَنّ الله يُحبّنا.

قد اكتمل هذا الاكتشاف بوقوف هنري، يومًا، على قول الربّ لموسى: "أَنا يهوه، أنا الكائن"، حيث تبيّن أَنّ اللامحدود الذي يتطلّع إلى الامتزاج به، عندما يقول "أَنا" إنّما يريد أَن يقول، أَيضاً، "أَنت". هذا الكائن اللامحدود هو تبادلٌ متَّصلٌ، هو حياةٌ، وهو كائنٌ حيٌّ مُحبٌّ.

هذا الاكتشافُ بدَّد شكوكَه، وانتهى بأبحاثه الفكريَّة إلى هَدَفها؛ فقد عثر على الحقّ، الكائن اللامحدود، الحيّ، الذي لا يتحوّل. وكانت سعادتُه الكبرى في اكتشافه أَنّ هذا الكائن هو كائنٌ محبٌّ، ويرغبُ في حُبِّنا، كما أَنّه زَرَعَ فينا جوعًا إلى حُبِّه بلا حدود.

لقد تأَكَّدت له العلاقةُ الوُثقى بين الله والفقر، بين الكائن المحبّ الَّذي يصرُخُ جوعُ حبّه فينا، والتجرُّد الَّذي لا بدّ أَن يتجذَّر في أَعماقنا لكي نلقى الله، ذلك التجرُّد الذي تأباه طبيعتنا بعنفٍ، ولكنّنا، في معزلٍ عنه، لن نقوى على لقاء الحبّ.

ذلك الاكتشاف، وهذه القناعة فجَّرا لديه "فعل حبٍّ"، ما لبث أن انقلب "فعل إيمانٍ". ومُذَّاك نَضَجَ قرارُه بتَرْك كلّ شيءٍ للسَّيْر على الدَّرْب الذي أَناره له فرنسيس الأَسّيزي، وارتضى أَن يُصبح فقيرًا في قرارة ذاته، كي يلتقي ذلك الفقيرَ الذي هو "الكلُّ"، "الأَبديّ"، الكائنَ الذي هو حبٌّ، والَّذي لا تبادلُه مخلوقاتُه حُبَّه، والَّذي يخونُه كلُّ إِنسانٍ على نحوٍ ما، ممّا يجعل العالم يئنّ تائهًا بجموعِه الحاشدة.

سُحُبٌ، وعثراتٌ ونضوجٌ

في السَّادسةَ عَشْرةَ من عمره، هنري شابٌّ وسيمُ الملامح؛ نظراتُه الوديعةُ الحالمةُ تزيد من سِحْره، ومحيّاه خالٍ من آثار التَّوتُّر الَّذي ما انفكَّ يعتمل في أَغوار نفسه.

قبل أَن ينضوي تحتَ لواء الفرنسيسكانيّة، ويُكرِّس لله ذاتَه، كان عليه إتمامُ دروسه الثانويَّة. وفي تلك الأثناء كانت الحياة في أُسرة غرويس ماضيةً في مسيرتها الطبيعيّة، حياةً بورجوازيَّةً، ولكن في بساطةٍ وكتمانٍ، بلا تظاهرٍ، ولا تباهٍ ولا خُيلاء، ممّا جعل الأَب پيير يقول: "في ما بعد فقط، أَدركتُ أَنّني كنتُ من المَحْظيِّين".

كانت الصَّلاةُ المسائيّةُ الجماعيَّة ما زالت تجمع الأُسرة حول أَبٍ يزداد كلَّ يومٍ شحوبًا ووهنًا؛ وذاتَ مساءٍ حدّق فيه هنري، وقال في ذاته: **"من هذا القدّيس الذي أُجِلُّ، والذي يُعاني آلامًا مُبرِّحةً، أستمدُّ روحي... لأَجله ينبغي أَن أَظفر بالبكالوريا... أَجَلْ، سأجتهد بكُلِّ طاقتي، وإكرامًا له سأنجح"**.

كان عليه أَن ينجح ليكون، أَيضاً، قُدوةً لفريقه الكَشْفيّ؛ فعلى القائد أَلاّ يكون مُقَصّرًا في شيء.

لقد كانت قيادةُ الفريق الكَشْفيّ تُنقذُه من رواسب مراهقته، ومن أَزمات الكآبة التي تجتاحه بين فَيْنةٍ وفَيْنَةٍ، وغالبًا لا يُدرك لها سببًا؛ في حين تعمل رسائل صديقه "فرانسوا" على طرد بقايا السُّحُب العابرة التي تُلقي على دربه بعض الظِّلال القاتمة. ذلك الصَّديقُ كان كُلَّما أَوْجَسَ من خلال رسائل هنري ميلاً وبيلاً إلى التَّواني أَو القنوط، يبادر إلى هزّه، ويساعدهُ على اجتياز النَّفَقِ إلى ملءِ النّور، الَّذي استشفَّه في الإنجيل، على ضَوْءِ قراءة الأَسّيزي له. ونجدُ في رسائل فرانسوا، في تلك الفترة، شحناتِ عزيمةٍ تتفجَّر من عباراتٍ مثل هذه: **"أَتُفكِّر بالموت وأَنت في السّادسةَ عشْرةَ! أَتفكّر بالموت وأَنت لم تُنجِزْ، بعدُ، شيئًا؟ على الإنسان أَن يستحقَّ موتَه"**. **"الأَحلام القديمةُ تفوح بروائح الجيَف، وتسجُن الأَحياء. ينبغي دفنُها في عمقٍ سحيقٍ"**. **"هنري، ليست الحياة للعَبَث أَو للنَّحيب، ولكنّها ذريعةٌ للعَمَل. فلا نُفْسِدَنّها! إنّها أَجملُ من جَلَبة العاصفة، وأَبهى من الثُّريّا، وأروع من ليالي الصَحراء"**!

ولكن، فيما خلا فتراتِ أَزماتٍ عابرةٍ، كان هنري يبدو وديعًا، لطيفًا، زعيمًا محبوبًا لفريقه الكشفيّ، ولثلّةٍ من شبّان حيّه، مَرِحًا يُحبّ الضّحك وينشره من حوله.

وكانت تشدُّه، آنذاك، هوايتان: المطالعةُ، والأَعمالُ اليدويَّة، ولا سيَّما في مجال البناء. والابتكارات الميكانيكيّة التي يُدهش بها أَشقّاءَه وشقيقاتِه وأَترابَه.

أَمّا في حقل المطالعة، فقد فقدت الكُتُب الأَدبيَّة، التي كانت تُثيره من قبلُ، أَسْرَها عليه، وغدا سريعًا ما يهجرُها كي يُعيد التَّبَحُّر في سيرتَي القدّيس فرنسيس الأَسّيزي والقدّيسة تريز الطّفل يسوع.

وأَخذ يُلهبه، أكثر فأكثر، اندفاعُ حميّةٍ مُقدَّسةٍ، فقد صرّح، في تلك الحقبة، لصديقه فرانسوا: "**أُريد أَن أُصبح قدّيسًا**". وفي ١٩٢٩/٦/١٦ أَوْدع دفترَ يوميَّاته هذه النوايا الجيَّاشة: "**النضالُ، الكفاحُ في عِقْر دار أَعدائك، يا يسوع، إِنزالُ ضرباتٍ مدوّيةٍ، تعليقُ الصَّليب على الصَّدْر، والكفاح ببسالةٍ... إِعلان اسمك عاليًا، وحفرُه في القلوب وعلى المباني**".

ومع ذلك، كان يُؤْنس، في قرارة ذاته، أَنّ وقتَ جهاده لم يَحِنْ بعدُ، وأَنّ عليه أَن يتأهّبَ له على نحوٍ أَفضل، ويُجيب على جميع التَّساؤُلات الَّتي ما انفكّت تُؤَرّقه. كان على يقينٍ مطلَقٍ بأَنّ الجوابَ الوحيد على تساؤُلاته هو الحبّ، ولكن ما هي أَبعاد هذا الحبّ؟ لا مَفرّ له من المُضيّ في البحث الدَّاخليّ حتّى آخر الشَّوط، عبرَ أَخطاءٍ وعَثَراتٍ، وفرحٍ وجراحٍ، وأَثناءَ كُلِّ ذلك، عليه أَن يُكرِّر، أُلوفَ المرّات، كلمةَ "الحبِّ"، حتّى ينتزع منها، كلَّ النُّور الكامنِ فيها، ويُضيءَ به دربه.

الأَسّيزي ما انفكّ أُسْوتَه ومثالَه، ولكنَّه، على غرار الأسّيزي، يتساءَل بحيرةٍ: "**المغارةُ أَو العالَم!**": عبادةُ الله في التوحُّد، أَو في اليد الممدودة إِلى المتأَلّمين، إِخوة يسوع الصّغار؟ أَوَلا يكونُ الحبُّ هو، في آنٍ واحدٍ، الصَّلاة والعمل؟ لقد شَرَعَ يعي أَنّ الجريمةَ الكُبرى، بَل الوحيدة، هي الحبُّ بقَدْرٍ غير كافٍ، وهي عدم تقدير مدى حُبِّ الله حقَّ قدره، والانحباس في صَغَارة الأنانيّات، وفي هُزال أَفراحٍ يهبها إِيمانٌ تافهٌ لا حرارةَ فيه، والاكتفاء بفُتات سعادةٍ وهميّةٍ.

لقد استقرَّ قرارُه على قَرْن المغارةِ والعمل في العالَم، على أَن تُمهِّد المغارةُ للعَمَل، فالعبادةُ هي مدرسةُ الحبّ.

وعندما احتفل والداه بيوبيل زواجهما الفضّيِّ، في مَطْلَع آذار من عام ١٩٣٠، أَفضى إِليهما بعزمِه على هجرِ العالَم، في العام المُقْبِل.

الوداع

تلك السَّنة التي ما زالتْ تَفْصلُه عن "المغارة"، قضاها هنري في إِكمال دروسه، باذلاً أَقصى طاقاتهِ كي يُوفِّر لوالده ما يُثلجُ صدرَه، وفي وداع مرابع صباه، وأَشقّائه، ورفاقِ حيّه، وعلى نحوٍ خاصٍّ، فريقه الكَشْفيّ.

وقد أَقام الدَّليل على الوفاء للكشّاف وتضامنه معهم، عندما قَرَّر مدير "أَخويّة السيّدة العذراء"، في معهد اليسوعيّين، أَن يطرد من تلك الأَخويَّة جميعَ الَّذين انضمّوا إلى الحركة الكشفيَّة، أَو حتّى أَبدوا رغبةً في الانتساب إِليها. وإِذ كان هنري قد انتُخِب بالإِجماع "عريفًا" لتلك الأَخويَّة، فقد استُثنيَ، وحدَه، من قرار الطرد. غير أَنّ ذلك الاستثناء، عوضاً عن أَن يوحي له بمشاعر الزَّهْو، قد أَثار أَعنف استنكاره، فبادر إلى تقديم استقالةٍ مُعلَّلة، ناريَّة اللّهجة، أَنفَذَ نُسَخًا منها إلى رئيس المعهدِ، وإلى جميع مسؤوليه، وأَثار من الجلَبة حولَ ذلك الموضوع، ما اضطَرَّ مديرَ الأَخويّة إلى النكوص عن قراره.

كانت تلك خيرَ هديَّةِ وداعٍ قدَّمها لرفاقه الكشفيّين، كما كانت ثورتَه الأُولى العَلَنيّةَ العمَليّةَ على الظُّلم، والبرهانَ علَى طبيعته المُتمرِّدة التي لا ترهب الجهرَ برفض التعسُّف، مضحّيةً بكلّ الامتيازات، إِرضاءً للضَّمير، ووفاءً للمبادئ.

وقد بادلَه رفاقُه هذا الوفاءَ، فأَجمعوا على تكريمه بجائزة "الحكمة"، مُعبّرين بذلك، في آنٍ واحدٍ، عن تقديرهم له، وعن أَسَفهم لغيابه الوشيك عنهم.

وقد حرص رفاقُه الكشّافُ على أَن يتركوا له أَجمل ذكرى وداع، فقلَّدوه أَسمى رتبةٍ كشفيّةٍ، في احتفالٍ ضمَّ فريقَه الكشفيّ، وذويه، وصبيانَ الحيّ. وكم افتقد هنري، آنذاك، صديقَه فرانسوا، الَّذي كان قد حَفَزَه على ممارسة النَّشاط الكشفيّ، والذي طالما أَنقذه من شتّى أَزماته النفسيّة، برسائله النَّابضةِ حَزْمًا وديناميكيّة. فقد حالت واجباتُ فرانسوا في الكُلِّيّة العسكريّة، دون مشاركته في تكريم صديقه ووداعِه.

وقد وُفِّق هنري في توفير بعض العزاء لوالده، إِذ ظفر، قُبَيْل هجره العالَم، بجائزةٍ كلّلت نجاحه في مسابقةٍ إِنشائيّةٍ فلسفيّةٍ، وقد شاء أَن تكون تلك الجائزةُ هَمْسةَ شكرٍ يعبّر له بها عن امتنانه لكلّ ما بذله في سبيله، ولكلِّ ما

وفَّره له من رفاهٍ مادّيٍّ، ومُثُلٍ مناقبيّةٍ سامية. وكان والده، رغمَ سروره باختيار ابنه هنري سبيلَ تكريس ذاته للربِّ، يُؤْثر أن يفعل ذلك بانضوائه إلى إحدى الجمعيَّتَيْن اليسوعيّة أو البينيدكتيّة اللتَيْن كان ينضمّ إليهما شبّانُ عُلّيّة القوم؛ وقد أَقلقه اختيار هنري النَّهجَ الفرنسيسكانيّ، وما يواكبه من فقرٍ وتقشّفٍ، وصرامةٍ كان يخشى ألاّ تصمد على احتمالها صحَّتهُ الهشَّة.

وربَّما حاول هنري إِقناع والده بسلامة خياره، وربَّما لم يتمالك نفسه، فعمد إلى دفتر يوميّاته حيثُ دوّن: "**لقد أمسكَ الربُّ بيدي، وقال لي: "اخترْ"، فاخترتُ. أَجَل، أَبتاه، إنّني أَعلم ما يجولُ في خاطرك: إِنّ الكبّوشيّ هو "أَمير المساكين"، ولكنّك، منذُ ما يربو عن عشر سنوات، ما انفككتَ تُنظِّفُ مساكين ليون، رَثّي الثّياب، أُولئك الذين يَزْوَرُّ عنهم الجميعُ لأَنَّهم مُقَمِّلون وقَذِرون. أَلا فاسعدْ، يا أَبتِ، فقد وقفتُ خيرَ ما بي، وكلَّ مالي، على خدمة جميع مُشرَّدي العالَم**".

أَمّا والدته فكانت أكثر تقبُّلاً لتطلّعه إلى النِّظام الأَكثر اقتضاءً وقسوةً، ولكن شقّ عليها، أكثر من الجميع، هجرُه الوشيكُ للمنزل الذي أَشرع في قلبها جُرحًا صامتًا نازفًا، فحرصتْ على أَن تتملّى، ما استطاعتْ، من حضوره الغالي، طيلةَ الوقت المفسوح قبل أَن تحجبه عنها أَسوارُ الدَّير، فباتت تمضي معه السَّاعات في نجوى حميمةٍ عابقةٍ بالحنان، وتفيض بين يديه بكلِّ ما يُثقل صدرَها من أَسرارٍ وهواجس، كما لم تفعل، قطُّ، مع أَيٍّ من أَبنائها؛ ولا عجَب، فذلك الابن الَّذي سيطويه قريبًا صمتُ الدَّيْر وعزلتُه، سيدفن كلَّ أَسرارها في جوف ذلك الصَّمت المُقدَّس، وسيودعها بين يدي الربّ.

ولقد قُيّض لهنري، قبل مباشرته الحياةَ الرّهبانيّة، سندُ كاهنَيْن كلٌّ منهما غنيٌّ بتجربةٍ فذّة. كان أَثرُهما فيه بليغًا: أَحدُهما اليسوعيّ "لاڤاريّ"، الذي وقف حياته على خدمة الأَكثر فقرًا، وعُريًا، وبؤسًا، في الضَّواحي النَّائية. أَمّا الآخر، فصاحبُ فكرٍ نيِّرٍ، ونفسٍ شفّافةٍ، وذكاءٍ متَّقدٍ، يقرن التألُّقَ بالبساطة، هو الأَب "دي لوباك"، الذي أَصبح، في ما بعد، كردينالاً.

الكبّوشيّ المبتدئ

مذ التقى هنري القدّيسَ فرنسيس الأَسّيزي، وطَّن العزم على التتلمذ في مدرسته؛ وعندما أَقدم على تكريس نفسِه وحياته للربّ حَرص على أَن يفعل ذلك في جوٍّ فرنسيسكانيٍّ؛ ومن الفرنسيسكانيّين اختار الكبّوشيّين، لأَنّه كان يراهم الأَكثر حيويّةً، وتنسُّكًا، وتمرُّساً بالتوحُّد والتأَمُّل.

لقد أُنْذِر أَنّ نظام الكَبُّوشيّين شديدُ الصَّرامة، بحيث قد لا تقوى على احتماله صِحَّتُه الهشَّة، غير أَنّه قد تعامل، أَبدًا، مع الأَلَم بازدراء.

بترهُّبه أَقام الدليلَ على رُسوخ يقينِه بأَنّ الفرح يكمن في التضحية بالرَّغبات والملذّات، وأَنّ السعادة لا تثوي في مُتعةٍ عابرةٍ، بل في انتصار الروح على الأَهواء، وفي وَأْد البهيمة الكامنة في أَعماق الذّات.

لقد آمن أَنّ الله حبٌّ، وابتغى اللهَ وحدَه، وكان قراره هذا صُلبًا ثابتًا؛ ولكن كان عليه، قبل بلوغ الله، أَن يقضي على كلّ رواسب الخوف فيه، ويتعلَّم السَّيطرةَ على ذاته وترويضَها؛ والديرُ كان خير مدرسةٍ لهذا العلم.

كان على نفسه المراهِقة الشَّديدةِ الحساسيّة أن تتمرَّس بالجهد، وتتحطّم قبل أَن تدرك الحبَّ الحقّ؛ كان عليها أَن تُدفَن قبل أَن تنبعث أَشدَّ صلابةً وصفاءً. وكان لا بُدَّ له من عيش الفقر الداخليّ الكُلِّيّ، والتجرُّدِ المُطْلَق، في سبيل الامتلاك الوحيد الجدير بالوجود: امتلاك الرّوح والنَّفس، امتلاك "الكلمة"، امتلاك الله.

على خُطى الأَسّيزي، اختار هنري التجرُّدَ لمواصلة السَّيْر "صوب الحبّ الأَعظم". وعلى نحو ما تجرّد القدّيسُ فرنسيس، ابنُ الأَغنياء، من كلِّ شيءٍ، وتخلّى عن نصيبه من ميراث أَبيه، كذلك فعل هنري غرويس، الَّذي تنازَل لدى الكاتب بالعدل عن نصيبه من إِرث والدَيْه، وقد عبّر عن فرحه بذلك، عندما دوّن في يوميّاته: "**لقد دفعني الربُّ إلى فِعْل فَقرٍ لم يكن لديَّ، حتَّئذٍ، الجرأةُ على القيام به. هذا الفعلُ قد أَنجزتُه... صرتُ فقيرًا، ونلتُ، من جرَّاءِ ذلك، العزاءَ**".

كان لهنري من العمر تسعةَ عشر عامًا وثلاثة أَشهرٍ عندما ارتدى الثَّوْب الكبّوشيّ، في ديرٍ وضيعٍ، تحت اسم "الأَخ فيليپ"، بحضور ذويه، وبعض رفاقه.

أحد رفاق فريقه الكَشْفيّ عَلِمَ بالحَدَث متأَخِّرًا، وهرع إلى الدير شبهِ الخالي، في أَعقاب الفراغ من الاحتفال، وطلب مقابلةَ رفيقه هنري. وما كان أَشدَّ دهشته لمّا رأى ذلك الشابَّ الذي عَهِدَه وسيمًا، أَنيقًا، في ثوبٍ بنّيٍّ خشنٍ، يشدُّه حبلٌ، حليقَ الرأس، حافيَ القَدَمَيْن، فانفجر مستنكرًا:

– "إِنَّك لمجنونٌ، مجنونٌ حقًّا، يا هنري. أَستحلفُكَ أَن تعود، فماذا جئتَ تفعل وَسْط هؤلاء الحمقى؟ إِنّ من أَراه أَمامي، ليس أَنتَ".

وابتسم هنري بصمتٍ

لقد ردّ هنري على صيحة القدّيس فرنسيس: "الحبّ ليس محبوبًا"، بالثَّوْب الخشن، والأَقدام الحافية، والرَّأس الحليق.

أَصبح كبّوشيًّا، أي إِنَّه أَصبح ابنَ الله بزُهْده في الثَّروة والجَسَد والقلب والعقل، وقد سجّل في دفتر يوميّاته: "**ليل الحواسّ، كي تأتي لمسة الحنان الحقَّة، اللمسةُ الأَكثر جنونًا، لمسةُ الله**".

وأَصبح ابنًا للقدّيس فرنسيس، أَي إِنّه بات سعيدًا بكبريائه المُحطَّمة، وبالمهانة اليوميَّة، وبالجَسَد الذي تنال منه أصنافُ الحرْمان، وبالطَّريق الطويلة، من جُرْحٍ إلى جُرْحٍ، "لكي يصبح قدّيساً". وقد أَودع دفتره هذه التأمُّلات: "**خطواتي بشعةٌ، ولكنْ جميلٌ هو الدَّرب الَّذي أَسير عليه وأَنا أَموت... لقد أَدركتُ أَنّني، في سبيل ذلك، أَحتاج إلى الله، والتمست، بتواضعٍ، أَزره الذي منّ به على تواضعي، وبقَدْر ما يزدادُ تواضعي، يكبر حبّي. بوِدّي أَن أَهتف، مع القدّيس فرنسيس: "يا إلهي، إِنّك تُحبُّني حتّى الجنون، تحبُّني حُبًّا مفرطاً...**".

في سبيل ذلك كان عليه أَن يكون فقيرًا، في كلّ ثانيةٍ، على غرار المسيح والقدّيس فرنسيس، أَلاّ يملك شيئًا كي يُعطى كُلَّ شيء، وأَن يزهد كي يتلقّى.

إِنّه سيجوع، بل سيتضوَّرُ جوعًا، وسيصوم، لكي يوافيه الحبُّ، في أَعقاب الأَلَم؛ وهو يقول في ذلك: "**لقد جعتُ حقًّا، مدَدْتُ يدي، وقلت: إِنّني جائعٌ، وقد أُعطيتُ خبزًا، وظفرتُ بخُبْزِ الحُبّ، وقد كان من طيبة المذاق بحيث أَقسمتُ أَن أعطيَ هذا الخبزَ جميعَ إِخوتي الجائعين، بقَدْر ما جعتُ أنا نفسي**".

كان على هنري – "الأخ فيليـــب" أن يقضي سنة ابتداءٍ وامتحانٍ، تمهيدًا لحيـــاة الرهبنة، في ديرٍ متواضعٍ شديد الفقر، وفي ظروفٍ مُفْرطةِ القَسْوة. وكان والدُه مـــا انفكّ قَلِقًا عليه، ليس فقط من جرَّاء شَظَف عيش الدَّير، بل خشيةً عليه من اندفاعـــه المُفْرط، في كُلِّ ما يُقدم عليه، فكتب له: "كن حَذِرًا، وعِـــشْ ببـــساطةٍ، تحـــت إدارة رُؤَسائك الأَبويّة، غيرَ ساعٍ إلى تجاوُز ما هو مطلوبٌ منك، فالمندفعون، أَمثالُنا، غالبًا ما يجنحون إلى "تخطّي الحدود".

سحابةَ ستَّةِ أَشهرٍ، شاركه الابتداءَ رفيقٌ واحدٌ، في الثَّلاثين من العمر، قادمٌ مـــن بيئةٍ عمّاليّةٍ، كان قد خَبرَ مصاعبَ الحياة، فلم تَرُقْ له الطريقةُ الرّومانسيّة التي كـــان يواجه بها رفيقُه، ابنُ التسعةَ عَشَر عامًا، الآتي من وســـطٍ بورجـــوازيٍّ، صُـــنوفَ الحرمان التي تقتضيها الحياةُ الرَّهبانيّة. فكانت العلاقاتُ بينهما متوتِّرةً أَبدًا.

وأَعقبت التوتُّرَ الوحدةُ، فرفيقهُ هذا، الذي كان قد باشرَ الابتداءَ ستَّةَ أَشهرٍ قبلَـــه، أَنهاه أَيضاً قبلَه، فكان على هنري أَن يُواصل الستّة أَشهرٍ المتبّقية وحيدًا.

ولكن لا الوحدةُ، ولا الجوعُ ولا البردُ، ولا الطَّاعة، ولا ليالي السُّهْاد، ولا أَسقام الجَسَد، وتمرُّدُه أَحيانًا، كانت قادرةً على النّيْل من عزيمته في المُضيِّ قُـــدُمًا علـــى الدَّرب الوحيد الذي اختاره نحو هدفه، دربِ الحبّ، عبرَ العبادة: "**أَنا لأجله، أَنا فيه، هو الكلّ. الله هو الكائن، وشعورنا بحيويّته الفائقة يحملنا على حبّه. إِنّ قـــوّة الله الفاعلة في أَعماق الذات، تُمكِّن من احتمال التضحية بحبٍّ**".

وربَّما تساءل هنري – الأَخ فيليـــب – عن جدوى التنسُّك والتوحُّد، ولا ريـــب أَنّه انتهى، في هذا المضمار، إلى قناعةٍ أَكَّدت له خطورة العبادة، له وللآخرين، وقد أَلمح إلى تلك القناعة التي صوّرها له عالمٌ جيولوجيٌّ شهيرٌ بقوله: "**أَيُّ شيء يبـــدو أَقلَّ فائدةً واستخدامًا، وأَكثر عُقْمًا من مساحات الجليد الفسيحة؟ ولكن لولاها، لولا وجودُها وعملُها الدائب، رغم جمودها الظاهر، لكانت الحياةُ اندثرت منذُ زمنٍ بعيدٍ من السُّهول والوديان؛ ففي حمّى نشاطات الجموع الكثيرة الحركة، يمتلـــئُ الجـــوُّ بأُلوف الإنتانات التي قد تغدو مميتةً، ويُصبحُ الهواء حارًّا. وحينئـــذٍ يعمـــل نظـــام الكون على الارتقاء بهذا الهواء الذي يزداد حرارةً وتسمُّمًا، والذي بملامسة الذُّرى**

المتجلّدة، يتجدّد ويتطهَّر، ثمّ يعود فينحدر، جديدًا منعشًا، لبعث الحياة. كـذلك هـي حياة التَّعبُّد، وَسْط الجماهير، فهي تقوم مقام كُتل الجليد في تنقية أَجواء الرّوح".

ولا ريب أَنّ مثل هذا التصوُّر كان يجول في خاطر والد هنري عندما كتب له، في ١٩٣٢/١/٤: "**إِنّ التفكيرَ بأَنّ كبّوشيَّنا الصَّغير يُصلّي لأَجلنا، هناك على الجَبَل، بينما نحن نكافح في السَّهْل، يوفِّرُ لي العزاءَ والطمأنينة**".

تلك القناعةُ لم تساعدْه على الصُّمود في مواجهة قَسْوة الابتداء فَحَسْبُ، بل مكَّنَتْه أَيضاً من شَدّ أَزر مُرشده الرُّوحيّ الذي كان يُمنى، بين فَيْنةٍ وفَيْنةٍ، بانهيارٍ عـصبيٍّ، فيهرع الراهبُ الفتى، الَّذي لم يَتَخَطَّ العقدَ الثّاني من العمر، للتَّربيـت علـى كتفـه، وتشجيعه، ومُؤاساته.

وأَوفتْ سنةُ الابتداء على نهايتها؛ وكانت الأَعرافُ تقضي على كلّ مبتدئٍ، فـي نهاية سنة ابتدائه، أَن يُدوِّن على صورةٍ تُعلَّق في المُصلَّى، خلاصةَ تأَمّلاتـه. وقـد كتب "الأَخ فيليـپ"، بيدٍ حازمة، مستوحيًا قول الربّ لموسى: "أَنا الكـائن": "**أَجـل، أَيُّها الكائن، كنْ**". وأَضاف: "**إِنّي أَقبل، بكامل حرّيّتي، وأُريدُ، بلوغَ الفقر المُطلَـق**". وقد برهن، منذئذٍ، على تَطلُّعه إلى الرّسالة إِذ سجَّل في دفتر يوميّاته: "**لقد اعتنقـتُ الفقر، كي أَستطيع تبشير الأَغنياء. فالفقراء، بوسع عظيمٍ وغنيٍّ أَن يَعِظَهم، ويؤَثِّر فيهم، أَمّا الأَغنياء فيلزمهم إِنسانٌ اعتنق الفقرَ طوْعًا**".

وبات عليه الانتقال إلى دَيْرٍ آخر، في بلدة "كرست"، كي يتمرّس بالحياة الرُّهبانيّة، ويتأَهّب للكهنوت. وانتهز سانحةَ هذا الانتقال كي يُعرِّج على ذويه فـي ليـون. وقـد حَرِص والدُه على مواكبته إلى القطار، وعندما قبَّلَه مُوَدِّعًا، باح له: "إِنّي، الآن، فخورٌ براهبي الكبّوشيّ... هناك، على القمَّة، استراحة بين الله والإِنسان؛ صلِّ لأَجلنا".

لقد كان هنري على علاقةٍ حميمةٍ بأَبيه، عبرَ المراسلة. وقد انعقد بينهما حـوارٌ مُتَّصلٌ، ومناجاةٌ متبادَلةٌ كانت تَسندُهما كلَيْهما، أَحدهما في تعبُّده، والآخر في عملـه. لقد كانا ينشُدان هدفًا واحدًا، كلٌّ بأُسلوبه: هنري الرَّاهب عبر الترهُّب، ووالده ببـذل ذاته في سبيل أُسرته، وشتّى الفقراء والمنبوذين، ومن حُرموا الحُبَّ والعطفَ، رغـم نوبات الأَلَم المُضني التي كانت تنتابه بوَتيرةٍ أَكثر تسارعًا، ولكنَّها لا تنالُ منه سوى الجسد، في حين تظلُّ روحُه صامدةً، قويّةً بالإِيمان.

الرَّاهب

في نهاية عام ١٩٣٢، استقرَّ "الأخ فيليـــپ" في دير "كريست" الكَبُّوشـــيّ الَّـــذي كان يرئسهُ راهبٌ شيخٌ، لم تنلْ شيخوختُه من صرامته وشدَّته، ولم يكـــن يُـــؤمن إلاّ بشعار الشَّظَفَ والتَّضحية، ولا يني يُهيب برهبانه إلى إماتة الــذّات بقـــسوةٍ، وإلـــى المزيد من التقشّف جسديًّا وفكريًّا.

في ذلك الدَّيْر، كان الراهبُ الكبّوشيّ يأْوي إلى فراشه في الثّامنة مساءً؛ وعنـــد مُنتصف الليل يوقظُه قرعُ النّاقوس، فيمثل إلى المُصلّى حيثُ يقضي ساعتَيْن، أُولاهما في تلاوة الأَدعية والمزامير، والثّانية في التأَمُّل والصَّلاة الصّامتة. ويعود إلى الرُّقاد في السَّاعة الثانية حتّى السَّادسة صباحًا؛ وخلال النَّهار كان عليه أَن يُمـــضي ســـتَّ ساعاتٍ في التعبُّد والتأَمّل.

في صَوْمعته التي لا تربو مساحتها عن ستَّة أَمتارٍ مربَّعة، ينامُ بثوبهِ الـــصُّوفيّ الخَشِن، المشدودِ بحبلٍ عند الحَقْوَيْن. وإذا ما ابتغى المطالعةَ أَو التحـــرُّك، اســـتعان بسراج. وعندما يشتدّ البردُ قرْساً، شتاءً، يُسمح للرُّهبان بإِشعال نِشارة خـــشبٍ، فـــي الممرّ، خارج صوامعهم، على نحو ما كان يجري "قبل التاريخ" حـــسب قـــول الأَب پـــيير، في ما بعد.

كثيرون هم الَّذين لا يقْوَوْن على احتمال هذا النَّمَط من العيش، فينْكُـــصون علـــى أَعقابهم من حيثُ أَتوا. أَمّا "الأَخ فيليـــپ"، فقد مضى في الاحتمال إلى أَقصى طاقاتـــه الجسديَّة، بل إلى أَبعد منها، وأَضاف إلى التقشُّفات مِسْحًا من وَبَرٍ على جسده. وعندما كانت تخور قواه، فيُضطرّ إلى ملازمة الفراش، ويُعفى من الصَّوم والسَّهر، يـــستعيض عنهما بالتوغُّل في التجهُّد، ويقف على الصَّلاة قِسطاً وافرًا من ساعات نومه وراحته.

على هذا المنوال أَمضى "الأَخ فيليـــپ" ستَّ سنواتٍ، طَبع، خلالَها الأَلمُ بصماتِه على جسده الهشّ، وهو صامدٌ، فَرِحٌ. وقد سجّل في دفتـــر يوميّاتـــه: "**القدّيـــسون لا يتذمَّرون أَبدًا، ولا يشتكون أَبدًا، ولا يعتذرون أَبدًا**".

وفي "نشرة القدّيس فرنسيس"، حيثُ كان الرُّهبان يُدوِّنون خواطرهم، كان يمهَرُ تأَمُّلاته وقصائده بتوقيع "الأَخ فرح". وقد ضاق أَحدُ رفاقه، يومًا، ذَرْعًا بهذا اللَّقـــب،

فصحّحه على هذا النحو: "الأخ فرح... الدُّموع". وقد ابتسم "الأَخ فيليپ" لتلك الدُّعابة، وعلّق عليها: "**إِنَّ أَخي لعلى حقٍّ، فتحت الدُّموع، ثمَّةَ فرَحٌ آخَر، هو فرح عَيْش ما لا يوصف**".

فرحُه كان فرح العبادة، والعبادةُ هي عرْيُ القلب، في صحبة الله وحده، ومُناخُ الدَّيْر الكبّوشيّ مُؤَاتٍ لها، فالدّراسة اللاهوتيّة فيه تقتصر على الجوهريّ، ولا تبتغي التعمُّقَ في العلم، بل تكتفي بأَقوالٍ قليلةٍ تساعدُ على العبادة؛ مكتبة الدَّيْر كانت زاخرةً بكنوزٍ من العلم ثمينةٍ، ولكنّها موصدةٌ بأَمر الرؤَساء؛ ولئن شكا الأَب پيير من ذلك، بعد سنواتٍ، إِلاّ أَنّ "الأَخ فيليپ"، في حينه، لم يتأَفَّف. أَفلم يُصرِّح القدّيس توما الأَكويني، الإِمامُ اللاّهوتيُّ العبقريُّ: "لقد تعلَّمتُ عند أَقدام الصَّليب، أكثرَ بما لا يُقاس ممّا لقَّنتني الكُتُب كلُّها"؟

مُناخ القَفْر هذا يَحْفزُ إلى نُشدان القداسة، و"الأَخ فيليپ" كان مشدودًا إلى القداسة، ولكنّه ربَّما سلَكَ إليها دربًا خاطئًا، كما يُستدلُّ من يوميَّاته حيثُ دوَّن: "**لقد آنستُ دائمًا قوًى غريبةً تشدُّني إلى امتلاك كمالٍ أَستطيعُ الاستراحة فيه. لقد كنتُ في حاجةٍ إلى امتلاك هذا الكمال امتلاكًا كاملاً، يرى كلَّ شيء، ويعلَمُ أَنّه يرى كلِّ شيء... امتلاكًا إلهيًّا... هذا المطلبُ الوبيل كان من شأنه أَن يُدمِّرني؛ ولكن بعد أَن عانيْت كثيرًا في هذا السَّبيل، أُعطيتُ نعمةً كُبرى، بسماعي قول الإِنجيل "وتُعطَوْن كلّ ذلك علاوةً". وهكذا استنارت نفسي**".

ومع ذلك ما انفكَّ يُحدِّقُ في الأُفُق القصيّ، ويصبو إلى أَن يكون "**الحجر المُنْتقى الذي يُكِبُّ عليه الصنَّاعُ الماهر، كي ينتزع منه جمالاً فريدًا يُزيِّن كاتدرائيَّته، الحجرَ الذي ينحتُه ويَحفِرُه كي يجعل منه تحفته**".

كان يعي وزنَ التعبُّد في خلاص العالم، وقد دوَّن في يوميّاته: "**الرَّاهبُ؟ إِنّه لشيءٌ مُفرطٌ في الصِّغَر، إِنّه ذلك العَدَم الصَّغير، الذي، في معزلٍ عنه، يبقى كلُّ شيءٍ بلا حياة**".

"**يسوع يتشرّد في ليالي الشّتاء، بلا مسكنٍ ولا دفْءٍ، تعلوه الأَقذارُ، ويسرَحُ عليه القملُ، يَقرعُ البابَ، ونحن نرفُض أَن نفتح له. الحبُّ يبحثُ عنّا، ونحن نسدُّ آذاننا.**

"عليَّ أَن أُحَوِّل أَلَم الجميع، لكي يُصبح كلُّ من يتأَلَّمون، ولا علاجَ لهم، كالطِّفل الذي يظفَر بالسَّلام، رغم أَلَمه، لأَنّه مُستسلمٌ استسلامًا تامًّا، ومطمئنًّا، بين ذراعَيْ والدَيْه".

ثلاثةٌ من معلّميه استثاروا إِعجابه، وأَفرغوا على قسوة حياة الدَّيْر شيئًا من العُذوبة التي تجعلها أَسهل احتمالاً، هم: مدير الدروس، الأَب إِرنست، المشعُّ إِنسانيّةً، والخبير بتحويل مقاطع من الكتاب المُقدَّس إلى جواهرَ روحيَّةٍ نادرةٍ، والَّذي استشفَّ حقيقةَ رسالة هنري غرويس، وآزره على بلوغها؛ والمعرِّفُ، الأَب أَلفونس، الأَصمُّ الذي كان يقرأُ كوامنَ القلوب، وينطق بكلماتٍ تُشيع السَّلامَ، وتستفزُّ العزيمة؛ والأَبُ صموئيل، الأَعمى ذو البصيرةِ النَيِّرة، والَّذي قال فيه الأَب پيير: "عبقريّةٌ فذّةٌ مقترنةٌ بنَفْسٍ كبيرة".

وفضلاً عن ذلك كان "الأَخ فيليپ" يُقيم، بالمراسلة، حوارًا حميمًا مع والده، كما أَسلفنا القول، ومع صديقه فرانسوا، الذي طالما انتشله من الغَرَق، والَّذي، بعد تخرُّجه من الكُلِّيَّة العسكريَّة، أَصبح قائد فرقةٍ في موريتانيا، وفَقَدَ الكثيرَ من إِيمانه واندفاعه؛ وقد بادر صديقُه الرَّاهب إلى مراسلته، فجاءَه هذا الردّ:

« بفضل تضحيتك الشاقَّة للرَّبّ بسنواتك العشرين، وبجميع آمالك، استأْهلتَ هذا السَّلام الذي لا بُدَّ أنَّه يشيع فيك، في ظلّ المُصلّى المُعْتِم... فَكِّر في من لم يتسنَّ لهم مثلُ جرأَتك، وصلِّ من أَجلهم. إِنّني لم أَحتجْ، قطُّ، إلى الصَّلاة، بقدر ما أَحتاج إليها الآن » (٥ شباط ١٩٣٤).

وفي ١٩٣٥/٨/٢١ كتب له: "لك، أَنت السَّائرَ على دَرْب النُّور، كلُّ شيءٍ نَيِّرٌ، وأَنت لا تتردَّد. أَمّا أَنا فقد مكثْتُ في طريقٍ يغشاه الضَّبابُ، وتَخْترقُه بعضُ أَشعّة شمسٍ رائعة".

وما عتّم فرانسوا، بفضل تشجيع صديقه هنري وصلواته، أَن استعاد جأْشَه، على حدّ ما جاء في إِحدى رسائله: "كلّ شيءٍ بات مُشرقًا... لقد استعدتُ الأَمل. إِنّ صحراءَنا مليئةٌ بالله. إِنّه هو من يمنحُنا هذا السُّكونَ المُضيءَ، الشبيهَ بذلك السُّكون الذي يشيع أَحيانًا تحت قناطر كنيسةٍ مُعْتِمة...

"ولكن إِيّاكَ أَن تُجَسِّم الأمور، فلم يكن، ثَمَّةَ، طريقُ دمشق، ولا فرحٌ عظيمٌ في

السَّماء، ولا ذَبْح عجلٍ مُسَمَّنٍ، بل ما هو أكثرُ بساطةً. فقد قال الأَب لابنه: "لقد غبتَ عنّي طويلاً، ولكن بفضل صلوات من يُحبّونك، احتفظنا لك بمكانك، فاحتلّه. وعلى أَطراف أصابع أَقدامه، استعاد الابنُ مكانه، متلفتًا حواليه، ومحاولاً الفهم".

وعندما ينتاب الإِحباطُ الرَّاهبَ الفتى، يحينُ دوْرُ صديقه فرانسوا ليشدّ من أزره: "إنّ الدَّيْرَ لم يروِ غليلك (فهذا العَطَشُ لا يمكن إرواؤُه على هذه الأَرض)، ولكنَّه أعاد لك الرَّجاء، هذا الرَّجاء الصَّغير الذي يقود أَخويْه الإِيمان والمحبّة من أَيْدِيهمَا، على حدّ قول بيغي" (٨ نيسان ١٩٣٧).

وقد رسم هنري واحدةً من نَوْبات الانحطاط التي كانت تستحوذُ عليه، بين حينٍ وحينٍ، في هذه اللَّوْحة:

« مساء يومٍ من آخِر أَيّام الشّتاء،
ديرٌ كبّوشيٌّ متواضعٌ. صمتٌ ووحدةٌ،
أَخٌ صغيرٌ يقيم هنا منذ سنوات،
وقد تَركَ كلَّ شيءٍ في سبيل المسيح يسوع.
يعيش في الخفاء
ويدرُسُ كي يُكمل تثقيفَه الطَّويل، قبل دروس الرِّسالة؛
ويعيشُ حياةً وئيدةً ومُثْقَلةً، يومًا فيومًا، في الحبّ الكبير.
غير أَنّ نفسه، في ذلك المساء، مُتعبةٌ، مُنْهدَّةٌ؛
تؤرّقه خواطرُ مريرةٌ، سوْداويَّة، بل كلُّ شيءٍ يُثير قَرَفَه.
يَشعُرُ بضحالته، يرى نفسَه بَشعًا، جبانًا، عديمَ الفائدة،
ويُجيل في خَلَده أَمواجَ الشَّرّ التي تُغْرِقُ النُّفوس،
وتهوي بها إلى الهاوية.
وتعودُ به الذَّاكرةُ إلى حلمه بأَن يكون مُنْقذًا لنفوس الخطأة،
فإذا به عاجزٌ، زريٌّ
تحرق الدُّموعُ مآقيه.
إنّه يومُ أَحَد، ولديه ساعةُ فراغ.
لكي يَهزَّ أَلمه، يمضي الأَخ الصَّغير إلى حديقة الدَّيْر
ويسير، ولكنّه يسير محاطاً بالقَلَق ».

ويستشفُّ صديقُه فرانسوا لديه تَعَبًا مخيفًا، فيكتب له: "إِنّك تخيفني. هذا القَدْر من التقشُّف يُرعبني، التقشّف الماديّ والفكريّ... هل يمكن السَّيْرُ هكذا، طويلاً، على مثل تلك القمم الشّاهقة"؟

ففي الواقع، فضلاً عن قسوة النّظام الرهبانيّ، كان "الأخ فيليب" يُعاني ضحالة الدّروس، والاحتكاك المستمرّ برفاقٍ يختلف عنهم في الطَّبع والتطلّعات؛ ومن جهةٍ أُخرى، كانت تتبلور لديه، يومًا فيومًا، على نحوٍ أَوضح، أَهداف الحياة الرَّسوليّة التي خُلق من أَجلها، والتي كان يخشى أَن تُحطِّمه حياةُ الرَّهْبنة قبل أَن يستطيع الاضطلاع بها.

لم يكن يُساوِرُهُ أَيُّ شكٍّ في رسالته الكهنوتيّة، ولا سيّما بعد أَن أَنضجه التعبُّدُ وطَهَّر روحانيّته. ولكنَّ تمزُّقه كان ناجمًا عن رغبته في مدّ يده للمتألّمين، والعيش بين ظهرانيهم؛ ودفترُ يوميّاته، في تلك الحقبة، حافلٌ بذكر جوع البؤساء المرضى، واليائسين والمرذولين الَّذين يَمدّون إِليه أَيديهم؛ ولكن إِن كان هو نفسُه مُحَطَّمًا فلن يستطيع أَن يمدَّ إِليهم سوى يدٍ مرتجفةٍ، باردة.

أَحدُ رؤَسائه، الأَبُ إِرنست، أَدرك كُنْهَ أَزمته، ووقف إِلى جانبه، موقنًا أَنَّه راغبٌ حقًّا في أَن يُصبح كاهنًا في مدرسة القدّيس فرنسيس الأَسّيزي، غير أَنّ مجاله الحيويّ هو الخدمةُ في العالَم الرَّحْب، خارجَ أَسوار الدَّيْر، فالتطلُّعاتُ الرَّسوليّةُ هي التي تشدُّه، وتعتمل في أَعماقه. لقد احترم ذلك الراهبُ المعلِّمُ الطريقَ الَّتي اختارها الربُّ لتلميذه هنري، ورغمَ افتقار دَيْره إِلى عناصرَ رهبانيّةٍ، ساعده على بلوغ الكهنوت، والانطلاق في ميدان الرّسالة.

وهكذا انقضت ستُّ سنواتٍ من التقشُّف والتوحُّد، والصَّلاة والتأَمُّل، وإِعمال الفكر في اختيار مجال العمل الرَّسوليّ، والتأَهُّب للكهنوت. وأَزِفَ الموعد العظيم الذي أَصبح فيه "الأَخ فيليب" مسيحًا آخر، عندما كُرِّم بسرِّ الكهنوت في ١٩٣٨/٨/٢٤.

كان والده آنذاك يُصارع سكرات الموت، ولكي يُتاح له عزاءُ حضور سيامة ابنه، تمَّت تلك السِّيامة في مدرسة "سانت هيلين" اليسوعيّة، المجاورة لمنزل آل غرويس في ليون.

عشيّة سيامته كان "الأخ فيليب" قد اعترف بين يدَيْ صديقه اللاّهوتيّ الأَب "دي لوباك"، الذي أَهداه نسخةً من كتابه الصّادر حديثًا "الكاثوليكيّة" ونصيحةً ثمينةً قال له فيها: "غدًا عندما ستكون منبطحًا على بلاط الكنيسة، لا تلتمس، في صلاتك إلى الرّوح القدس، سوى هذه النّعمة: أَن يَهَبكَ نُفورَ القدّيسين من التَّقاليد الإكليريكيَّة"، أَي رفض أَيّ امتيازٍ أو مغنمٍ، لقاءَ شتّى الخدمات التي يفرضها عليه كهنوتهُ. ولقد ترسّخَ لدى الأب پيير يقينٌ ما انفكّ يَجْهَرُ به، ومؤدّاه أَنّ الكاهن القدّيس هو الذي لا يمتلك، ساعةَ موته، فِلْساً واحدًا أكثر ممّا كان يمتلك عندما قرّر أَن يَهَبَ الله ذاتَه.

وعندما تمدَّد الرَّاهب الشابّ على بلاط الكنيسة، ويداه ممدودتان على شكل صليب، باتّجاه الهيكل، تمدَّد، إلى يمينه، كاهنٌ يسوعيٌّ شابٌّ آخر، نال معه سرَّ الكهنوت، هو "جان دانييلو" الذي أَصبح، في ما بعد، كردينالاً، وعضوًا في الأكاديميّة الفرنسيّة.

وجديرٌ بالتّنويه أَنّ بين الكاهنَيْن الشابَّيْن اللّذَيْن سيما معًا، قامت صداقةٌ توثَّقتْ وشائجُها أَثناءَ اشتراكهما في مقاومة الاحتلال النّازيّ، ولكنّها، فيما عدا ذلك، كانت فاترةً، حافلةً بمواطن الخلاف في الرَّأْي والتوجُّه. فيومَ انتُخب الكردينال دانييلو عضوًا في الأكاديميّة الفرنسيّة، نشر أحد أَصدقائه، إعلانًا في صحيفة "الفيغارو" الفرنسيّة، داعيًا إلى الاكتتاب من أَجل تقديم صليبٍ ذهبيٍّ له. فانتزع الأَب پيير الصليبَ الخشبيّ المُتَدلّي من الحبل الذي يقوم له مقَام حِزامٍ، حسب الزِّيّ الكبّوشيّ، وأَودعه علبةً جميلةً، وأَنفذه إلى الكردينال الأكاديميّ مُرفَقًا برسالةٍ موجزةٍ، عبّر فيها عن حزنه البالغ من جرّاء قَرْن اسم الكردينال بتقليدٍ وبيلٍ أَحمقٍ، يجعل من الصَّليب حِلْيةً ثمينةً، وبسبب جباية الأَموال في سبيل تقديم حِلْيةٍ فاخرةٍ لأَحد رُسُل الإِنجيل.

وجاءَه الردُّ سريعًا، أكَّد فيه الكردينال رفضَه التبرُّع بالصّليب الذَّهبيّ، وإيعازه بتَوزيع المال الذي تمّت جبايته، على المعاقين، وسعادتَه بصليب الأَب پيير الخشبيّ الَّذي سيبقيه ماثلاً نُصْبَ عينيْه.

في نهاية سنَة ابتدائه كان "الأَخ فيليب" قد كتب على الصُّورة التَّذكاريَّة: "أَجل، أَيُّها الكائن، كن". وقد نَمَتْ هذه الفكرةُ في نفسه، طيلةَ السَّنوات السِّت التي سبقت سيامته الكهنوتيّة، فرسم، بمناسبتها، صورةً تذكاريّةً تُمثِّل يدَيْن ترفعان كأس التكريس، نحو ذرى جبلٍ. وسماءٍ حافلةٍ بالنُّجوم، وقد دوَّن على ظهرها:

« لقد كذَبْنا.
لا، الكونُ ليسَ لنا،
لا، الثرواتُ ليست لنا،
لا، نحن أَنفسُنا، بأَجسادنا، وأَرواحنا، لسنا لذواتنا.
بل، أَيُّها الآب، أَيُّها الحبّ، كلّ شيءٍ لك،
فأنت، وحدَك، الكائن.
لذلك نتوسَّل إليك
أَن تقبل تقدمتنا، فهي، الآن، مُخلِصة،
وهي تبتغي التكفير،
إِنّها تقدمة كلِّ شيءٍ
يضعها بين يدَيْك،
في ذاته،
يسوعُ المسيح، ابنُك وسيّدنا،
بأَيدي كهنته المساكين ».

بعدَ سيامته، كان عليه أَن يُمضي، في منسك "كريست"، سنةً أَخيرة لإِتمام دراسته اللاّهوتيّة، غير أَنّ تلك السَّنة قد عكّرها اعتلالُه المتواتر؛ فقد كانت السَّنواتُ السَّبع السابقةُ قد هدَّت صِحَّتَه، فتفاقمَ هُزاله، وانحنى ظهره، وحفرت الأَخاديدُ وجهه الشَّاحب، فالتمس من رئيسه السَّماح بقضاء بضعةِ أَشهر نقاهةٍ، في أَحد الأَديرة، يُصيب فيها بعضَ الرَّاحة، ويُعمل الفكرَ في مستقبله الكهنوتيّ. وإِذ قوبل طلبُه بالرَّفض، نصحَه الأَبُ إِرنست، الذي كان يدَ العناية في توجيهه نحو رسالته، بالالتجاء إلى الكردينال "جيرليه" الَّذي كان قد سامه كاهنًا، كي يعفيه من حياة الرّهبنة، ويَسمح له بالانضمام إلى إِحدى الأَبرشيّات، بصفة كاهن رعيّةٍ.

وسارع أُسقف غرينوبل إلى إِلحاقه بأَبرشيّته، عقب محادثةٍ قصيرةٍ معه، وامتحانٍ لاهوتيٍّ موجز.

بيد أَنّ الأَبَ هنري غرويس، تعبيرًا منه عن شدَّةِ تعلُّقه بمُثُل القدّيس فرنسيس، قرّر البقاءَ فرنسيسكانيًّا في الرهبانيّة الثالثة. وقد أَنفذ رسالتَيْن، إِحداهما مستفيضةٌ إلى

الرئيس العامّ على الرهبنة الكبُّوشيّة، علَّلَ فيها، بصراحةٍ مُطْلَقةٍ، دوافعَه إلى هجــر الأَخويّة، وأُخرى إلى الأب إرنست، الذي كان له، طيلة سنواتٍ، خير نجيٍّ وعونٍ في السَّاعات العصيبة، قال له فيها:

« أَبتِ الجزيل الوقار،

... أَرجوك أَن تبَلِّغ إِخوتي أَنّني أُحبّهم جميعًا، ولن أكفّ عن حبّهم، وعن تقديم الذَّبيحة الإِلهيّة من أَجلهم؛ وأَنّني أَشكرُهم وأستغفرهم. أَرجــوهم أَلاّ يــدينوني، وأَن يُصلّوا من أَجلي ».

وقد ردّ الأَب إِرنست:

« يا بُنَيَّ، اعنَ بصحّتك. إِنّني أَعرفك بالقَدْر الكافي لكي أُحذِّرك من أَنّ قدراتك الجسديَّة غير متكافئة مع اندفاعك وتطلُّعاتك. لا تُرهِقْ ذاتك، وإلا اســتنفدْتَ ســريعًا طاقاتك، وبِتَّ عاجزًا عن كلِّ نشاطٍ. كنْ معتدلاً فــي رغباتــك، وإِلاّ فلــن تمــضي بعيدًا... القوّةُ الحقَّةُ يجب أَن تكون صبورًا ».

وربَّما حاول الأَب "هنري غرويس" التمرُّس بالصَّبر، ولكنّه لــم يــدارِ، قــطُّ، صحّته، فقد كان من تلك النّفوس الكبيرة، ذات التطلُّعات الطَّموح، التي تنوءُ بحملهــا الأَجسادُ.

ويُستَدلّ من مسيرته أَنّ العناية الإِلهيّة كانت أَبدًا ساهرةً على توجيه مصيره، فــي المنحى الذي اختارتْه له، وفي الوقت المناسب. فهو، إِثرَ هجره الحياةَ الرهبانيّــة، قــد انغمس في العمل الرَّسوليّ والاجتماعيّ بحيث لم يَعُدْ لديه متَّسعٌ لراحــةٍ ولا مُتــنفَّسٌ لتأَمُّل؛ غير أَنَّ بوتقةَ النُّسك التي صَهَرَتْه، طيلةَ ثماني سنواتٍ، كانت قد أَعدَّته، إِعدادًا فريدًا، لمثل ذلك العطاء الصَّاخب بلا حساب، ووَقَتْهُ من الضّياع، على نحو ما أَكَّد هو نفسه: "**كان الربّ عليمًا بما يفعل، فلو لم تُكْتَب لي حيــاةُ الــصَّحراء تلــك، ولــولا السَّنوات الثماني التي أنفقتها في التضحية المتواصلة المغمــورة بالحــبّ، وفــي التماس المعبود، لما استطعتُ اجتياز حياتي التالية من غير أَن أَتحطّم**".

وقد لخّص الأَبُ پــيير، في ما بعد، ذكرياتِه، وتقييمه لحياة الرهبنة، في حديثٍ له مع الدكتور كوشنير، فقال:

« في الدّيْر عشتُ سبعةَ أعوامٍ، أَتعبَّدُ كلَّ ليلةٍ. كنّا نتهجَّدُ منذُ منتصف اللَّيل حتّى الساعة الثانية صباحًا. أَثناءَ السَّاعة الأُولى كنّا نتلو المزاميرَ بالتناوُب، أَمّا السّاعة التَّالية، فكنّا نقضيها في العتمة، بلا ضوءٍ سوى الشُّعلة الحمراء الصغيرة الموقَدة أَمامَ القربان المقدَّس، وبلا أَيّ نوعٍ من أَنواع المطالعة، أي في عبادةٍ صافيةٍ عاريةٍ.

"هكذا عشتُ سبعَ سنواتٍ بعتاد فكريٍّ هزيلٍ، فقد كانت الدروسُ بدائيّةً، وكان ذلك يؤلمني. ولكنّني كنتُ أَقضي كلَّ يومٍ في عبادةٍ مُطلقةٍ، بين السَّاعة الواحدة والثانية صباحًا. وهذا ما يُفسِّر حياتي على ما هي عليه الآن.

"في ما بعد، كثيرًا ما سُئلتُ: كيف تقوى على الصُّمود والاستمرار؟ إنّ ذلك لمُعجزةٌ في نظر من يجهل الاستعداد اللاّمعقول الذي سبق. فمن اللامعقول التأهُّب لحياةٍ كانت تطوافًا حولَ البسيطة كلِّها، بجمود العبادة، كلَّ ليلةٍ، عوضاً عن دراسة الحقوق والتاريخ، والواقع السِّياسيّ والاجتماعيّ.

"لدى البعض الصلاةُ طَلَبٌ، أَمّا لي فهي عبادةٌ.

"ثمّة فتراتٌ أُونس فيها حاجةً إلى العزلة... إنّني أَحتاج إلى ثلاثة أَيّام عزلةٍ كلّ شهرٍ، هي لي بمثابة علاجٍ. إنّني أَشطُب ثلاثة أَيّامٍ من مُفكّرتي، وبإِيصادي البابَ، أَشعرُ أَنّني في منسكٍ ».

امتحان الألم

إِثر هَجْره الرهبنةَ، لم تفْسح الظُّروفُ للأَب هنري سوى أَشهرٍ أَربعةٍ للتدرُّب على مهنة كاهن الرعيّة. ففي نهاية عام ١٩٣٩ عُبِّئ مُرشدًا روحيًّا عسكريًّا في ستراسبورغ، حيثُ انحصرت مهمَّة الجيش في مراقبة الحدود الأَلمانيّة، وحيثُ كانت الأَيّامُ تتصرَّم في فراغٍ قاتلٍ.

هذا الفراغ، كان الأَب هنري يجهد في تزجيته بين قُدَّاسٍ وصلواتٍ، وإدارة نادٍ للجنود، باذلاً أَقصى طاقاته كي يبدو مَرِحًا، ويُشيعَ الفرحَ، ما أكسبه شعبيَّةً واسعةً، فبات الجميعُ يتكلّمون بإِعجابٍ عن "الأب غرويس الرائع". غير أَنّه، في قرارة نفسه، كان مِرْجَلاً يجيش سأَمًا.

وزاده سأمًا اضطرارُه إلى ملازمة الفراش، من جرّاء حمّى شديدةٍ، ظنّها رشحًا قاسيًا. وكان يُحاول قَتْلَ ذلك السَّأم بإقامة القدّاس بحضور عددٍ ضئيلٍ من الجند، غير أنّه غالبًا ما كان يترنّح إعياءً، أثناء محاولاته تلك. وسُرعانَ ما شخَّصَ الأَطبَّاءُ التهابًا رئويًّا حادًّا يقتضي إجلاءَهُ عن المُعسكر إلى المستشفى.

وأَمضى فترة نقاهةٍ في بلدة ڤيينّا الفرنسيّة، إلى جانب خوريٍّ شيخٍ، سرَّته الاستعانةُ بذلك الكاهن الشابّ، الّذي، رغم هُزاله ووَهَنه، لم يكن يعهد دَعَةً، ولا يستوطئُ راحةً؛ ومع أَنّ إعياءَه كان يضطرّه أَحيانًا إلى بَتْر قُدّاسه، إلاّ أَنّه كان في حركةٍ دائبةٍ، متنقِّلاً بين محتضرين وسكارى وعمَّالٍ، وفُقَراء أَوْسَعَتْهم الحربُ فاقةً وبؤْساً، وأَطفالٍ مُشرَّدين لم يعد لهم أَهلٌ ولا مُربُّون، ومصابي حَرْبٍ يجهد في بَثِّ السَّكينة في صدورهم، فهو يأبى لإخوانه القنوط.

في غروب عام ١٩٤٠، عِقْبَ الهدنة، عُيّن مرشدًا روحيًّا في مستشفى عسكريٍّ. في منطقةٍ جبليّةٍ كان من شأنها الإسهام في إنعاش صحّته الهشّة. بيد أَنّ مهمّة المرشد لم تكن كافيةً لاستنفاد طاقاته الجيَّاشة، فإذا به يقفز من المستشفى إلى المعاهد والمدارس، واتِّحادات العمّال المسيحيّين، ومناجم الفحم. فالحياة، في نظره، لا تُساوي شيئًا إن لم تكن كفاحًا متّصلاً.

وفي السَّنة التالية كُلِّف بالإرشاد الرّوحيّ في مركزٍ اجتماعيٍّ، على مقربةٍ من غرينوبل، يضمّ مَيْتمًا ومكتب إرشادٍ زراعيٍّ. بيد أَنّ ذلك المركز كان رمزًا للصِّراع بين الكنيسة والدولة، إذ إنّه شُيِّد، أَصلاً، ليكون إكليريكيّةً، ولكنّه صودِرَ، يومَ تدشينه، وحُوِّل مركزًا اجتماعيًّا بإدارة الدَّولة. ومذّاك اعتبره الأُسقف مكانًا ملعونًا، فحَظَرَ على المؤْمنين المثول إليه، ومنع إقامةَ أَيَّة خدمةٍ روحيّةٍ فيه؛ ومع ذلك، عندما عَرَضت الدولةُ، في محاولة مصالحةٍ مع الكنيسة، إلحاق مُرشدٍ روحيٍّ به، وافق الأُسقفُ على تكليف الأَب "هنري غرويس" بتلك المهمّة، علّه يُفلح في انتزاع المركز من الحكومة وإعادته للكنيسة. إلاّ أَنّه ما انفكّ مقيمًا على اعتباره مكانًا ملعونًا لا يجوز للمؤْمنين ارتيادُهُ، ولا يحقُّ للمرشد توفير أَيّة خدمةٍ كنسيّةٍ فيه، ما أَوْقع الأَبَ غرويس في حَرَجٍ ذريعٍ.

فهو ما لبث أن اكتشف أَنّ العلمانيّين ليسوا كلُّهم أَبالسةً، كما كانت تُصَوِّرُهم

السلطات الكنسيَّة، إذ سرعان ما عقد، في ذلك المركز صداقاتٍ حميمةً مع المسؤولين عنه. ونقاشاتٍ جادّةً معهم حول المصير، وسُرعان ما تحلّق حوله مئات الشبّان المتعطّشين إلى تعليمٍ دينيٍّ حقٍّ، غير أنّ الأُسقف كان يحظرُ عليه سماع اعترافاتهم، أَو منحهم سرَّ القربان في المركز، وإذا ما التمس أَحدهم ذلك، كان على الأب إرساله إلى الأَبرشيّة التي تبعد نحو كيلومترٍ عن المركز الاجتماعيّ؛ وقد احتجّ الأَب هنري بعنفٍ على ذلك التَعَنُّت اللاّمنطقيِّ. ومن جهةٍ أُخرى، كان وجودُ ذلك الكاهن الطَّيِّب في المركز يُشجِّع المزارعين المؤمنين على زيارته، التماساً للنَّصائح والمعونات الفنِّيَّة، رغم حَظْر الأسقف، الذي استشاط، من جرّاء كلِّ ذلك، غضبًا، فأعفى الأَبَ غرويس من مُهمَّته وأَمرَه بالعَوْدة إلى الأَبرشيّة.

لا غروَ أَنّ ذلك الأُسقف كان وَرِعًا، وموقنًا بأَنّ الواجب يقضي عليه محاربة العلمانيّة على ذلك النَّحو، غير أَنّ تعنُّتَه قد أَفضى إلى حرمان مئات الشُّبّان والموظَّفين والمزارعين من غذاءٍ روحيٍّ دسمٍ كان يوفّره لهم الأَبُ هنري.

وإنّه ليحزُّ في نفوسنا أَن نشهد، حتّى اليوم، أَمثلةً عن مثل هذا التعنُّت في أَبرشيّاتنا، كما نشهدُ، بحزنٍ، حزازاتٍ بين أَساقفةٍ وكهنةٍ تُؤَدّي إلى حرمان مئات الشُّبّان والمؤْمنين غذاءً روحيًّا أَساسيًّا.

وفضلاً عن ذلك، كان عام ١٩٤٢ بوتقةَ أَلَمٍ، انصهرت فيها نفس الأَب غرويس. ففي ربيع ذلك العام، فَقَدَ والدتَه الَّتي، مع ما كانت تقاسيه من آلامٍ مُضنيةٍ، من جرّاء اضطلاعها بتربية ثمانية أَولادٍ، مضتْ، على منوال زوجها، تزدري الأَلَم، بصمتٍ وبسالةٍ، وتُواصل، بلا هوادةٍ، تبديدَ ما تبقّى لها من ذُبالة عافيةٍ، ناشطةً في خدمةٍ مُستَعْمَرَةٍ للاَّجئين قَدِموا من منطقة اللّورين، واستقرّوا على مقربةٍ من مدينة ليون. وفي ساعاتها الأَخيرة كان ابنُها الكاهنُ جاثيًا إلى جانبها، يُساعدها على ترديد الصّلوات، ولا سيَّما تلك الصَّلاة الجماعيّة الَّتي أَلِفَت الأُسرة تلاوتها كلَّ مساءٍ؛ وهو الَّذي زوَّدها بالأَسرار، وأَطبق جفنَيْها؛ وقد صرَّح، في ما بعد: "**لقد كانت إحدى كبريات النِّعَم في حياتي أَن أَقف إلى جوار والدي ووالدتي في ساعاتهما الأَخيرة، فأُصلّي معهما، وأَشدّ من عضدهما، وأُطبق عيونهما؛ وقد شخصا إلى خالقهما، على نحو ما رأيناهما يعيشان: شفّافَيْن، جريئَيْن واثقَيْن في حبّه**".

وفي نفس الحقبة، تقريبًا، فُجِع الأَبُ هنري بَنَبأ مقتل رفيق عمره، فرانسوا غاربيت، الَّذي طالعه في الصُّحُف، ولم يَقِفْ على تفاصيله إلاّ بعد عدَّة أَشهرٍ، عندما أَطلعه شقيقُ فرانسوا على ظروف مصرعه، قربَ نهر الدّامور في لبنان، على يد جنودٍ فرنسيّين من أَتباع ڤيشي، فيما كان مُتَرجِّلاً، رافعًا علمًا أَبيض وقادمًا لمفاوضتهم. وقد شهد فيه الأَب "هيرلمان"، المُرشدُ الروحيُّ للجيش، الذي عرفه عن كَثَبٍ: "لم يكن جنديًّا كسائر الجنود، ولا مسيحيًّا كسائر المسيحيّين. كان حريصاً على أن يكون الأَفضل، ببساطةٍ، ومن غير تظاهرٍ. وغالبًا ما كان يُردِّد: "كم أُحبُّ الصحراء؛ هَبْني، يا الله، أَن أَموت، في جَهَر الشَّمس".

ولقد مات على سرير مشفى في دمشق؛ ودبَّج له صديقه، الأَب هنري، الرسالةَ الأَخيرة، مُوجَّهةً إلى السَّماء، كتب له فيها:

« فرانسوا،

"لا، إنّ طلقات البندقيَّةِ الرشَّاشة الّتي، في الثامن من حزيران ١٩٤١، طرحتْك على الحضيض، عند حدود فلسطين ولبنان، لم تقطَعْ وشائج صداقتنا التي وُلدت عام ١٩٢٦. سأُواصل تلك المناجاة، الَّتي، بها تعاضدتْ روحانا، في مراهقتنا، وفي سني نضوجنا، تعاضُدًا مُجديًا، على توجيه خطواتنا في الدُّروب المُصعِّدة، لخدمة النُّور الأَسمى، والحُبِّ الأَعظم. إنّني مدينٌ لك بالكثير، يا فرانسوا؛ لقد أَحببتُكَ أكثر ممّا أَحببتُ أَيًّا من أَشقّائي. لقد حملتَني على الإِيمان بالحياة، وبفَرَح الوجود والحبّ، فشكرًا لك.

"إنّني موقنٌ أَنّك انتهيت إلى فرح الوجود، وإلى الحبِّ المُطلَق الَّذي لا يحجبه قناعٌ، ولا تحدُّه نهايةٌ. فساعدني، باتّحاد نفسَيْنا، على مؤازرة مراهقين آخَرين، ورجالٍ آخَرين، على اكتشاف طريق الفرح. لقد كتبتَ لي عام ١٩٢٨: "يا صديقي، كلّ امرئٍ يعمل من الحياة ما يريد. بعضُهم يمرّغونها في الحمأة، ولكن هل هم، بذلك، يوسّخون حياتنا؟ لا، بل. إنّهم يبيّنون لنا كيف يمكن جعل الحياة قبيحةً. فلنعتبر، ولنجعل حياتنا رائعةً!"

"لقد هزَّني قولُك هذا، وقد عشتُ عليه.

"فلنواصل معًا، إذا شئت، حتّى نَفَسي الأَخير... لقد كنتَ تقول إنّ حبَّ الحياة يهبط علينا بغتةً، في يومٍ يكون فيه قلبُنا نقيًّا، ونفسُنا في سلامٍ. وداعًا ».

هاتان الفاجعتان، فضلاً عن مُجاورَته اليوميّة لآلام النّاس ومآسيهم، رسَّختا لدى الأَب هنري تعاطُفًا صميمًا مع جميع المتألّمين.

المقاوِم

عاد الأَب غرويس إلى أَبرشيَّة غرينوبل، حيثُ احتلَّ غُرفتَيْن ومطبخًا، في الطَّابق الأَوّل من بناء الأُسقُفيّة، جَعَلَ منهما مَقرًّا له، لم يستقرَّ فيه قطٌّ؛ فهو مُذْ هَجَرَ المنَسِك الرهبانيّ كُتب له أَلاّ يعرفَ دعةً ولا سكينةً.

أَسابيعُ قليلةٌ كانت قد انقضت منذُ عودته إلى الأَبرشيّة، عندما سَمِع، ليلاً، قرعًا على باب مكتبه، فإذا بالخارج رجلان ينتحبان. كانا يهوديَّيْن عائدَيْن مع ذويهما من سَهْرةٍ لدى أَصدقاء، عندما أَهاب بهم جيرانهم أَن ينجوا بأَنفسهم، إذ كانت الشُّرطة، قُبَيْل لحظاتٍ، قد اقتحمت بيوتهم، فلم تجدهم، ولكنَّها اعتقلت جيرانهم وأَقاربهم من أَبناء دينهم، ومضت بهم في ثلاث شاحناتٍ. وكان لا مفرَّ للأَب هنري من استضافتهم ريثما يجدُ لهم مخبأً أَمينًا؛ وإذ به، على غير قصدٍ منه، منخرطٌ في المُقاوَمة.

كان يعي خطورةَ المجازفة، ولكنَّ الخيار أَمامه كان بسيطاً واضحًا: فهناك مضطهدون ومضطهِدون، وهو، بلا تردُّد، يقف إلى جانب المضطهَدين. فالمطارَدون والمضطهَدون يحتاجون إلى مزيدٍ من الحبّ والعَوْن، وسواءٌ هم كانوا يهودًا أَو أَغرابًا أو مقاومين وطنيّين، بوسعهم الاعتماد عليه، لأَنّ مقاومته ليست سياسيّةً، بل تنبع من أَعماق قلبه، ومن حُبِّه الأَخويّ لكلّ إنسانٍ، الذي تشرَّبَه من الإنجيل.

وسُرعان ما شاع بين اليهود والمقاومين الوطنيّين نبأُ تعاوُن ذلك الكاهن معهم، فباتت أَسرابٌ منهم تقصدُ مكتبَه في الأَبرشيّة كلَّ ليلةٍ، بحيثُ كان يُضطَرُّ في بعض اللّيالي إلى استقبال العشرات منهم، ويمتطي درّاجته الناريّة ويروح يجوب المدينة، بحثًا عن مخابئ لهم. وقادته جولاته، ذاتَ ليلةٍ، إلى دَيْر راهبات صهيون لعلّهنّ يستطعنَ إيواء بعض ضيوفه، فإذا بديرهنّ يعجّ باليهود الفارّين. غير أَنّ الرَّاهبات زوّدْنه بوسائل تزوير بطاقات الهويّة، وجوازات السَّفَر الكفيلة بالمساعدة على

تهريبهم إلى بلادٍ آمنةٍ مثل سويسرا؛ ومنذئذٍ شرع يُخاطر بحياته من أَجل إِنقاذهم.

في حملة تهريبه الأولى، قادَ اثنَيْ عَشَر يهوديًّا مُوَثَّقين، معًا، بحبلٍ، وراءه، ومضى بهم، عبر الجبال، حتّى ارتفاع ٣٢٠٠ متر، وقد دَوَّنَ في يوميَّاته:

« على المرءِ أَن يعيش تلك المغامرةَ كي يُدْرِكَ ما تستطيع الحياةُ توفيرَهُ من فَرَحٍ عنيف. إِن اتَّفقَ لكَ أَن تذوَّقتَ تلك الإِثارةَ الرّائعةَ التي يُوفّرُها السَّعْيُ في الجبال نحو القمَم، عبرَ ركام الثَّلْج المُتجمِّد، وإِذا ما تذوَّقتَ إِثارةَ الطُّهر النابعةَ من الجُهْد الطَّويل، والتغلُّبِ على المهالك، وبلوغ الذُّرى، فتخيّلْ ما يكون عليه الأَمرُ عندما تكون مسؤولاً عن مصير اثنَيْ عَشَرَ من إِخوتكَ البَشر! وتأذن اللَّحظةُ، بعد مسيرة ثماني ساعات، منها ثلاثُ ساعاتٍ من السَّيْر فوقَ رُكام الجليد، حين يلتفتُ الدَّليلُ نحوَ أُولئك الرِّجال الذين يلفُّهم القَلَق، والَّذين، في ثقَةٍ يائسةٍ، أَوْكلوا إِليه أَنفسَهم، ويُباغتُهم بالقول: "لقد قُضِيَ الأَمرُ، لقد انتهَيْنا إِلى سويسرا، وقد نجوتم". إِنّ العناقَ الذي كُنّا نتبادَلُهُ، آنذاك، والمودَّةَ التي كانت تشدُّنا، بعضنا إِلى بعضٍ، شيءٌ يتعذَّرُ التَّعبيرُ عنه ».

وأَعاد الأَبُ هنري الكرَّةَ عَشَرَات المرّات، قائدًا عَشَرات قوافل الفارّين؛ فالإِنقاذُ بات هاجسَه ودَيْدَنَه، الإِنقاذُ بجميع الوسائل، وعلى جميع الطرقات، ولا سيَّما بعد أَن شَهد انتحارًا بدافع اليأس، انحفرَ منظرُه صَرخةً لا تني تُدوّي في أعماقه. فقد وافاه، يومًا، شابٌّ يهوديٌّ بولونيّ الأَصل، ساهمًا، مذعورًا، مُحطَّمَ الأَعصاب. وكان لا بُدَّ، في سبيل تهريبه، من تزوير وثائق هُويَّاتٍ، لثلاثةِ أَجيالٍ متعاقبة. ولكنّ الشابَّ كان نافدَ الصَّبر، مِلحاحًا، لا يكفّ يلجُّ، متشبِّثًا بأَهداب الكاهن، عند سُلَّم الأسقُفيَّة، متوسِّلاً إِليه، بصوتٍ مرتفعٍ، الإِسراع بتأمين الوثائق المُزوَّرة التي كان إعدادُها يستلزمُ لا أَقلَّ من ثلاثة أَيّامٍ. وريْثَما يتمُّ ذلك أَوْكل الكاهنُ الشابَّ المطارَدَ إِلى امرأةٍ مُسِنَّةٍ شجاعةٍ. وعندما وافاه، أَخيرًا، بالوثائق، وجدَه متدلّيًا من السَّقف، وقد شدَّت على عُنُقه عقدةُ حبلٍ شَنَق به نفسَه. فانفجر الأَبُ هنري بالبكاء.

ولكي يبرِّرَ الأَبُ غيابَه المُتواتِر، تواطأَ مع طبيبٍ كان يَصِفُ له باستمرارٍ المثولَ إلى المناطق الجبليّة لملءِ رِئتَيْه بالأُوكسيجين النقيِّ، ومع كاهنٍ، زميلٍ له، كان ينهض عنه بمهامّه الرعَويَّة.

ولكيلا ينفضحَ سِرُّ غيابه، عَمَدَ إلى تأليف "سلسلة حياة"، تضطلع عنه بتهريب المُطارَدين من بيتٍ إلى بيتٍ، ومن قريةٍ إلى قريةٍ، حتّى منفذ النجاة، على الجانب الآخر من الحدود. قِوامُ تلك السِّلسلة كان ثلاثةَ رجالٍ موثوقين: كاهنًا أَفلح في إِنقاذ مئات الرجال والنّساء، ودليلَ تسلُّق جبالٍ خبيرًا بتفادي شتّى الفِخاخ، وموظَّفًا جمركيًّا رفيع الرتبة، تُساعدُه شاراتُه على تخطّي مآزق شديدةِ الحَرَج.

وظلّ الأَبُ غرويس هو الحلقة الأُولى في تلك السِّلسلة، بعد أن انقلب مكتبُه مُختبرًا نشطًا مُتمرِّسًا بتزوير الوثائق الشخصيّة وجوازات السَّفَر، وشتّى الوثائق الرَّسميّة التي مكّنته، أَحيانًا، من الاستيلاء على الأَطعمة والألبسة والأَحذية من مستودعات جيش الاحتلال، لتوزيعها على المُقاوِمين.

حتّى كرسيُّ اعترافه أَمسى ملتقى المقاومين وطالبي الفرار، يغشونه للظَّفَر بموعدٍ للهرب، أَو بكلمة السِّرِّ الكفيلةِ بمساعدتهم على النَّجاةِ بأَنفسهم، ويقصدُه أَيضاً شبّانٌ يعانون مشاكلَ وجدانيّةً؛ فمنهم من يأبى الخضوع للأَوامر القاضية بإِرسالهم إلى أَلمانيا للعمل في مصانع سلاح النازيّين، وهؤُلاء لا يتحرّج الأَب غرويس من إِبلاغهم:

- "لكم حرّية القرار. وها أَنتم الآن تعلمون ما عليكم فعله". وغالبًا ما تقع هذه الكلماتُ في نفوسهم وقعَ الخلاص والتحرير، فيهتفون:

- "أَجل، لقد عقدنا قرارنا".

وآخرون يعترفون بأَنَّ ظُروفَهم العائليَّة لا تسمح لهم بتعريض ذويهم لتنكيل النَّازيّين وأَعوانهم، وأَنّهم ماضون إلى أَلمانيا، حيثُ سيدأَبون على التَّخريب في المصانع التي سيُقْسَرون على العمل فيها. هؤُلاء أَيضاً كان يباركهم الأَبُ غرويس.

وغدا هاجسَه أَيضاً لمُّ شَعْثِ المُقاومين، وبثُّ الأَمَل في صدورهم، ودعوتُهم إلى نبذ كلِّ فُرقةٍ وخلافٍ سخيفٍ؛ ولهذا الغرض، عمد إلى نَمَطٍ آخر من المقاومة، بإِصداره صحيفةً سرِّيَّةً، دعاها "الاتّحاد الوطنيّ المستقلّ"، وتولّى رئاسةَ تحريرها، منتحلاً اسم "جورج". وقد وصفها بأَنّها "دفاتر سرِّيَّةٌ من أَجل فرنسا حُرَّةٍ، عادلةٍ وقويّةٍ، فخورةٍ في مواجهة الأَجنبيّ، مستقلّةٍ إِزاءَ الأَحزاب، مُخلِصةٍ لماضيها العريق".

كان دافعُه إلى إِصدار تلك الصَّحيفةِ قناعته بأنَّه، مع كلِّ ما اعترى بلادَه من هُزالٍ، وغياب قيادةٍ، وقمعٍ للحُرِّيّات، إلاَّ أنّها كانت ما تزال تنطوي على بواعث أَملٍ لا بدّ من إِيقاظها، طالما بقيت لديها قدرةٌ على قول "لا" للظُّلم، وكرامةٌ تعبّر عنها الرَّغبةُ في التحرُّر. هذه المُثُل كان الأبُ هنري يجهد في نشرها، في معزلٍ عن تأثير أيِّ حزْب.

وحين نَشَطت دعاوةُ الاحتلال في تشويه صورة المقاومة، مُصَوِّرةً رجالها قَتَلةً ولصوصاً، انبرى الكاهنُ المقاومُ الصحافيُّ للتَّصدّي، ولدَحْض تلك التخرُّصات، في حين لم ينفكَّ يشدُّ أزْر المُقاومين، ويُحرِّضهم على التَّعاون والتَّضامن والتَّحابّ، ولا ينسى دوْرَه الرَّسوليَّ، فيُهيب بهم إلى التطلّع صوبَ الأَبعد والأَسمى، فيكتب:

« أَفيدوا من فترات الترقُّب، تناقشوا فيما بينكم، واغتنوا من خلافاتكم. عليكم أن تخرُجوا من المقاومة وأَنتم واعون للمغزى الَّذي ستُسبغونه على حياتكم. فما الجدوى من طرد العدوّ، إِن كنتم، غدًا، عاجزين عن تحويل حُرِّيَّتكم إلى حياةٍ حقَّة؟ إِجعلوا من فترة التَّرقُّب، وأَيديكم على الزّناد، فترةَ تأمُّلٍ في الصَّحراء، فترةَ صَوْمَعةٍ، وتأَهُّلٍ للحياة. فما من عظيمٍ، من غير توحُّدٍ وتعميقٍ للذَّات ».

لقد أصدر الأَب غرويس عدد صحيفته الأَوَّل، بمناسبة عيد فصح عام ١٩٤٣، وقد تلاه عددان آخران، إلى أَن أَرغمه المرضُ والوشايةُ على مغادرة مدينة غرينوبل. فقد اقتحم الفاشيّون الإيطاليّون، حلفاءُ النَّازيّين، تلك المدينة، وسُرعان ما شرعوا يُطاردون الكاهنَ المقاومِ، وأعلنوا عن جائزةٍ لمن يُرشدُ إليه أَو يُسلِّمُه، كما أَنَّهم عمدوا إلى تفتيش كاتدرائيّة المدينة ومقرِّ أُسقفيّتها، فاضطرَّ الأَبُ هنري إلى الفرار إلى مدينة ليون، حيث توارى، فترةً، في منزل شقيقته، ثمّ في جناح ديرٍ يسوعيٍّ كان النَّازيّون يحتلّون جناحه الآخر.

وفي تلك الفترة انتحل لقب "الأَب پيير" تضليلاً لمُطارديه. ولَسَوْف تفرض عليه الظروفُ المقاومة، في ما بعد، انتحالَ أَسماءٍ عديدةٍ أُخرى، غير أَنَّ لقب "الأَب پيير" هو الذي ظلَّ مُلتصقًا به حتّى الآن، وبه، دون سواه، بات يُعرَف.

بادئ الأَمر، لم يكن حتّى أُسقفُه على علمٍ بنشاطاته في المقاومة، إِذ كان معظمُ

الرؤساء الكنسيّين مُوالين لسُلْطة فـيشي، فيما خلا أَصواتاً قليلة كانَتْ تتعالى من هنا وهنالك مندّدةً بالبربريَّة، ومُستَنْهضةً فرنسا لإِنقاذ روحها، وقد دعا أَحدُ الكرادلة إِلى تشكيل "جبهة نفوسٍ لا تُرى ولا تُقهر".

ولكن ذَلك الواقع المرير لم يكن ليفتّ من عضد "الأَب پـيير"، فعلى حدّ قوله:

"إِذا ما رَصَدْنا وضْعَ الصَّليب لأَلفَيْنا يـسوعَ مُحاطـاً بجماعـةٍ ضـئيلةٍ مـن المُخْلصين الوحيدين وَسْط جموعٍ مُعاديةٍ. وليس في ذلك ما ينال من إِيماننا".

وأَثناءَ فراره من مخبأٍ إِلى مخبأٍ، كان "الأَب پـيير" يعود، بغتةً، بين فَيْنَةٍ وفَيْنة، إِلى أشداق مُطارديه؛ فقد احتفل، يومًا، بزواج أَصدقاء له، في مدينة غرينوبل، حيثُ كان مطلوبًا، وهناك التُمِس منه "تهريب" جاك ديغول، شقيق الجنرال، المصاب بشَلَلٍ تامٍّ، والذي كان المُحتلّون يسعون إِلى اعتقاله مع زوجته ورابع أَبنائه، بعد أَن التحق أبناؤُه الثلاثة الآخَرون بجيش عمّهم في الجزائر. كانت العمليّة تستلزم جرأةً تلامـس الجنون، ودِقَّةً في التَّنفيذ لا ثُغرةَ فيها، ومع ذلك اندفع الأبُ پـيير فـي تنفيـذها، بأَساليب أَساطير الأَفلام البولسيَّة، فيما كان النَّازيُّون يُطاردونه خطوةً خطوةً، إِلى أَن استطاع البلوغَ بالرَّجل، مع كُرسيِّه المتحرّك، وزوجته وابنه، فـي سـيّارة إِسـعاف مُستعارة، إِلى الجانب السويسريّ، عبرَ ثُغرةٍ أَحدثَها وأَعوانه في الشَّريط الشَّائك.

كان لجاك ديغول من الطُّول مئةٌ وتسعون سنتمترًا، وكان وزنه يربو عن المئـة كيلوغرامًا، ولكنَّ الشَلَل كان قد قضى على كلّ حواسّه، ومع ذلك، عندما أَجلسه الأَب پـيير ورفاقه في سيّارةٍ كانت بانتظارهم في الجانب السّويسريّ، وقبَّله قائلاً: "قد تمَّ الأَمرُ، ها قد نجوْت"، انفرجتْ شفتا المريض، بفضل جهدٍ مُضْنٍ، وفي مثل حشرجةٍ، عن كلمة "شكرًا".

تلك اللَّفظةُ المعبِّرةُ عن فَرَح الخلاص، وتلك النّظرةُ التي رافقتْها، قد انغرستا في ثنايا الأب پـيير ذكرى لا تمَّحي، وصرخةً تُذكِّره بأَنّ، ثمَّة، آخَرين كُثُرًا، ينتظرون دَوْرَ خلاصهم، فلا مجال للتَّواني.

كان الإِرهاقُ قد أَخذَ من الأب پـيير كُلَّ مأخذٍ، ولكنّه أَخفق في النَّفاذ إِلى منبع العطف الجيّاش في أَغوار نفسه، وقد عبَّرَ عن ذلك في رسالةٍ إِلى إِخوته وأَخواته قال فيها:

"هل تفهمون معنى الإِرهاق، وإلى أَيِّ مدًى قد يبلغ؟ إِنّه يستقرُّ ويتراكم، منذُ سنواتٍ، وعلى الأَخصّ، منذ ستّة أَشهرٍ... بحيث ضقتُ ذرعًا. هل تُدركون أَيَّ عذابٍ تنطوي عليه حياةُ الحُميّا والاندفاع، الخالية من ساعةِ هُدْنةٍ واحدة؟ أَظنُّ أَنَّ والدَنا يُدرك ذلك، وأَنّه بلغ القداسة الحقَّة. ما العمل؟ هل أُطفئ هذه الشُّعلةَ؟ إن فعلتُ ذلك، لأَطفأتُ كلَّ شيء دفعةً واحدةً، وغدوتُ بلا جدوى، أَشبه بحطبةٍ جامدة، إِذ لا يسعني أَن أُنْتِجَ وأَعملَ إِلاّ في هذه الحالة من الحُميّا والإِثارة والإِلهام... وإذن، فليكن الإِفراطُ، وليحدث الإِعياءُ".

لقد بات على هُزالٍ مخيفٍ، يسبح في جُبَّته الكهنوتيّة التي بدت ضافيةً جدًّا. وكان يتساءل، أَحيانًا، هل سيقوى على المقاومة إِذا ما أُلقيَ عليه القبضُ بغتةً! ولكنَّه لا يلبثُ أَن يستعيد جأْشَه، ويبكي فرَحًا عندما تتنامى إِليه أَنباءُ تدخُّل الحلَفاء، وإنزالهم المظلّيّين والأَسلحة، في أَدغال مقاومة "ڤيركور"، حيثُ معظم إِخوانه المقاومين.

وسُرعانَ ما أَصبح هَدَفًا للجيستابو في ليون، ففَزِعَ إلى باريس، حيثُ اتَّصل بجورج بيدو الَّذي خلَفَ "جان مولان" في زعامة المقاومة، وأَطْلَعَه على أَوضاع رفاقه في "ڤيركور".

في باريس تحوَّل اسمُه إلى "الأَب جورج هودان"، الطالب في معهد اللاّهوت؛ وهناك التقى الأَبَ "جان دانييلو"، رفيقَ رسامته الكهنوتيّة الّذي كان قد أَصبح بدوره، رئيسَ شبكة مُقاومة في السّوربون. ومعه استأنف نشاطه في تهريب المقاومين، ولكن، هذه المرّة، عبر إسبانيا، عوضاً عن سويسرا. إِلاّ أَن أَمره ما لبث أَن افتُضِحَ مجدَّدًا، فطورد واضطُرَّ إلى الهرب، هو أَيضاً، إلى إِسبانيا، "عبر لورد" حيثُ التمس عَوْنَ السيّدة العذراء.

عندما انتهى إلى قرية "ڤيرا" الحدوديّة، تاه طويلاً، تحت المطر والقرّ، قبل أَن يفتح له زوجان طيِّبان بابَهما، ويُدْفئاه، ويُطعماه لبنًا ساخنًا وخبزًا طازجًا من صنعهما؛ ثمّ أَعطياه ثيابًا جافّةً، ومضيا به إلى ديرٍ للإِخوة المريميّين وقد غَرُبَ عن بالهما أَنَّ أُولئك الإِخوةَ من أَنصار فرانكو، وأَنّهم لن يتورّعوا عن الوِشاية به؛ فاعتُقِل واقتيد بالأَغلال؛ ولكن، بفضل توسُّط أسقف ڤيكتوريا أُحيل إلى السُّلطَات الكنسيّة في مدريد، إِذ إِنّ صفته الكهنوتيّة كانت تخوِّله حماية الكنيسة.

وعندما توقَّف القطارُ في محطَّة مدريد، صباحَ السَّادس من حزيران ١٩٤٤، كان بائعو الصُّحف يهتفون: "إِنزال الحلفاء في النورماندي ". وكم تمنّى الأَبُ پيير، في تلك اللَّحظة، أَن يجأَر بفرحه، ولكنَّ حلقَهُ كان جافًّا من التأَثُّر، فاكتفى بسكب العَبَرات...

كان أَفرادُ الصَّليب الأَحمر الذين سُلِّم إِليهم الأَب پيير من الكنديّين، وكان لا يكفّ يُردِّدُ على مسامعهم:

- "أريدُ العودةَ إِلى فرنسا، حيثُ تدور معركةُ التحرير".

بيْدَ أَنَّ التَّعليمات الرَّسميّة كانت تقضي بإِرساله إِلى الجزائر، حيثُ كان جيش فرنسا الحرّة، بِقيادة الجنرال ديغول، يُعِدّ إِنزالاً آخَر في البحر المتوسّط.

وأُعطي الأَبُ پيير بطاقة هويَّةٍ جديدةً أَلصقت عليها صورته الَّتي تأَمّلها في دهشةٍ، إِذ رأى فيها، لأوّل مرّةٍ، مدى ما انتهى إِليه من هزالٍ، فعلّق قائلاً "**لكأنّني لعازر، خارجًا من القبر**". وازدادت دهشتُه عندما قرأَ الاسمَ المُدوَّن تحت صورته: "السِّير هارلي بارلو" وهو اسم طيّارٍ كنديٍّ كانت طائرته قد فُجِّرتْ في الجوّ، ولم يُعْثَر على جثمانه. وقيل له إِنّ السُّلطات الإسبانيّة قد وافقت على مقايضته بحنطة، وأَنّه وُجدَ يُساوي طُنَّين منها، فتلمّس عظامه البارزة تحت جبّته، وقال مازحًا: "**مع أَنّني أكَاد لا أَزن خمسين كيلوغرامًا**".

وأَقلَّته طائرةٌ أَميركيّةٌ إِلى الجزائر، غير أَنّ سُلطات الأَمن الأَميركيّة هناك، الَّتي حيَّرتها ملابسات ذلك الكاهن الناشط في المقاومة السِّرِّيَّة الفرنسيّة، والحامل بطاقة طيّارٍ كنديٍّ، والقادم بطائرةٍ أَميركيّةٍ، قد أَخضعته إِلى ستّ ساعاتٍ من الاستجواب المتواصِل، وهو واقفٌ، من غير طعامٍ ولا شرابٍ، إِلى أَن نَفَدَ صبرُه فصرخ: "إِن كنتم لا تُصدّقونني، فاتّصلوا بمكتب الجنرال ديغول". وعلى الطرف الآخر من الخطّ الهاتفيّ صرخت سكرتيرة الجنرال: "إِنّني قادمةٌ في الحال".

وأَخيرًا، عِقْبَ دوّامة شتّى المِحَن التي عصفتْ به، نَعِمَ الأَبُ پيير بأُسبوعٍ دافئٍ بكرم استقباله، وحرارة صداقته في منزل الجنرال "ڤانييه"، سفير كندا لدى أَركان المقاومة الفرنسيّة في الجزائر؛ وما إِن استعاد بعضَ قِواه حتّى تحفّز للانضمام إِلى

جيش التَّحرير، ولكنَّ الطبيب حالَ دونَ تلك الحماقة، فقد كان الإرهاق ما زال يهدُّ جسمَه. ولكن تسنّى له عزاءُ مخاطبة رفاقه المقاومين، عبر إذاعة فرنسا الحرّة، فقال لهم: "**رفاقي، كان بودّي الانضمام إليكم، بصحبة الجيش، ولكنَّ الجيشَ رفضَ تحقيق رغبتي. أَيُّها الأَصدقاء المستمعون، أَنا كاهن المقاومة، منذُ السَّاعة الأُولى، أُريد أَن أَهتف: إِنّكم عظماء، أَيُّها المقاومون، إِنّكم طاهرون وشرَفاء. قد تكونون أَقربَ إلى الفتْيان سنًّا، ولكنّكم تتمتَّعون بوَقار الرِّجال. لقد عشتُ معكم، وأَعرفكم، ويسعُني أَن أُعلن أَنّكم بذرةُ التَّجديد وخميرتُه. فيكم يكمنُ الرَّجاءُ، فقد حطَّمتم الرِّياءَ، وكسرتم طَوْقَ الخزْي، وظَهَرتُم على الشكّ، ووثَّقتم لحمةَ الوحدة، وبصُمودكم فرضتُم النَّصرَ**".

وفي الجزائر تحادث طويلاً مع الجنرال ديغول، وتناولا الغداء معًا، بمفردهما، فتسنّى له أَن يشهدَ عن كَثَب كلَّ ما كان يُمثِّله الجنرال من عظمة المُثُل، ومن الوحدة المريرة، في آنٍ واحدٍ.

وفي الثَّالث من آب ١٩٤٤، أَعلن الـﭬـاتيكان أَنَّ الكهنة الَّذين انخرطوا في المقاومة، والَّذين عدَّهم البعض خارجين على النِّظام، إِنّما تصرَّفوا بهَدْيِ ضميرهم القويم. صحيحٌ أَنّ الأَبَ پيير لم ينتظرْ ذلك الإِعلان ليعمل ما رآه واجبًا، ولكنَّه استمدّ منه بعضَ العزاء.

وعُيِّن الأَب پيير مُرشدًا روحيًّا للبحريَّة، ومن على ظهر البارجة "جان برت" كان يرصد، يومًا فيومًا، مسيرةَ التَّحرير في وطنه، ويشَهد، بفَرَحٍ، بزوغَ أُولى أَشعَّة السَّلام.

من تجربته في المقاومة اكتشف الأَب پيير أَنّه خُلِقَ ليكَون أَبدًا إِلى جانب الضُّعَفاء والمظلومين، كي يَدْرَأَ عنهم الحَيْف، ويَشُدَّ عضدهم، ويُبَلْسم جراحَهم، ويسعى إلى تحسين أَوضاعهم.

الإِخاءُ والمحبَّة لم يعودا لديه كلماتٍ جَوْفاءَ، أَو رغبةً وَرِعةً، أَو موضوعًا للوعظ، بل أَمسيا عملاً ملموساً يُلبّي حاجات الزَّمان والمكان.

وقد لقّنتْه الحربُ أَن يشنَّ حربًا على الحرب، وعلى كلّ ما ينتقص من قَدْر الإِنسان، ويحطُّ من إِنسانيّته.

الآنسة لوسي كوتاز: أَمينةُ سرٍّ وشريكةُ نضال

أَثناءَ انشغاله في المقاومة، أُصيبَ الأَبُ پيير بالإرهاق من جرّاء الحياة المُزْدوجة الّتي كان يُمارسها: فسحابةَ النَّهار كان عليه أَن يظلّ الكاهنَ الهادئ، الناهضَ بكلّ بساطةٍ ودأَبٍ بمُستلزمات المهامّ الرَّعويّة؛ ثمَّ كان يُمضي آناءَ اللَّيْل في تزوير الهويّات، وتهريب ضحايا النازيّة، ورأْب صدْع الخلافات الناشبة بين مختلف فئات المقاومة. وقد أَفضت به وتيرةُ العيش هذه، بلا هُدنةٍ ولا توانٍ، إلى الإعياء؛ ففزع إلى صديقه ومرشده الأب "دي لوباك"، مُلتمسًا النُّصح والعَوْن. وراعَ الأَب "دي لوباك"، ما وجدَ عليه الكاهنَ الشابَّ من هُزالٍ وإنهاكٍ يقارب الانهيار، فأَوعز إليه بالاستعانة بالآنسة كوتاز، قائلاً: "إنّها صاحبةُ كفاءةٍ، وقويَّة الشكيمة". وأَرشده إلى عنوانها في "غرينوبل".

كانت "لوسي كوتاز" قد شرعَتْ تعمل، منذ السَّادسة عشرةَ من عمرها، كي تُعين أسرتها الفقيرة؛ وكانت صُغْرى أَخواتها اللاّئي كنّ يُكلِّفنَها بأَقسى الأَعمال الَّتي لا ترغبُ أيّة منهنّ في الاضطلاع بها، وهي لا تأْنَفُ ولا تتأَفّف، لولا أَلَمُ ظهرها المُضني الذي كان يتفاقم، يومًا إثر يومٍ، وغالبًا ما يُعكّر نومَها، ويضطرّها إلى الجلوس، أينما تسنّى لها، في طريقها إلى العمل ومنه إلى المنزل. فقد كان يبلغ أَحيانًا من الحِدَّة ما لا تعودُ تقوى على احتماله؛ ولكنَّها تتكتَّم عليه، ولا تُطْلع أَحدًا على ما تعانيه، إلى أَن استشفّتْ أُختُها الكبرى، ذاتَ يومٍ، ما كانت تقاسيه في صَمْتٍ.

وأسفر الفحصُ الطبِّيُّ عن سِلٍّ في الفقرات لا شفاءَ منه ولا علاج سوى تثبيت ظهرها بالجصّ، والرُّقادِ على لوحٍ خشبيٍّ بلا حراك. وقد ظلّت، هكذا، راقدةً خمسَ سنواتٍ. وهي تشهدُ، في حزنٍ، شبابَها ينساب جزافًا مؤلمًا. وربَّما هي كانت هوتْ إلى القنوط لولا رسوخُ إيمانها، وقوَّة شكيمتها.

وذات يومٍ، أَوحتْ لها صديقاتٌ بالمثول إلى لورد، وتعاضَدْنَ معًا على جميع نَفَقات الرحلة، بالإضافة إلى بضعة فرنكاتٍ لنفقاتها الخاصَّة.

وفي لورد دأَبتْ لوسي على زيارة المغْطَس ومغارة الظُّهورات، كلَّ يومٍ، مع أَنّ العَربة التي كانت تُدفَع فيها، كانت، كلّما اصطدَمت بحصاةٍ، أَو اجتازتْ أُخدودًا، تُشيع في ظهرها آلامًا حادَّةً. غير أَنّ رجاءَها الصَّامد كان يُساعدها على الاحتمال بفرَح.

مساءَ يومها الثَّالث في لورد، إِذ كان أَحدُ المُمَرِّضين يعود بهـا مـن المغـارة، استحوَذَ عليها شعورٌ غامرٌ بالسَّعادة والرَّاحة؛ بيد أَنَّ الفحصَ الطبِّيّ آنذاك لم يُسفر عن أَيّ تبدُّلٍ في مرضها. وفي الغداة جلستْ مستقيمةً في عربتها، فترةً طويلة، ممّا لم تكن تقوى عليه قطّ، من قبلُ، ثُمَّ نهضت من المغطَس، وسارتْ سيرًا طبيعيًّا إلى عربتها، ممّا أَثار دهشةَ المُمَرِّض الَّذي كان يقود تلك العربة. وفي مغارة الظُّهورات غمرها، من جديدٍ، شعورٌ بسلامٍ لا حدَّ له، أَفعم نفسَها اطمئنانًا يتعذَّر وصفه.

ولكي تتأَكَّد من شفائها طلبت من صديقةٍ لها أَن تجتاز بها، وهي جالسةٌ في العربة، فوق حفرةٍ تحت القناطر كان يُسَبِّب لها اجتيازُها، من قبلُ، آلامًا مُبَرِّحةً. وطَفِقَتْ صديقتُها تجري بها جيئةً وذهابًا، فوق تلك الحفرة، عشرات المرَّات، وكان جسمُها يتأَرجح أَثناءَها من الأَمام إلى الوراء، ثمّ من الوراء إلى الأَمام، وهي في معزلٍ عن أَيّ شعورٍ بالأَلم. وأَخيرًا هبَّتْ ناهضةً، مُشْرِقَةً، هاتفةً بحبورٍ: "لقد زال أَلمي، لَقَد شُفيتُ".

حَدَثَ ذلك في ١١ أيلول ١٩٢١، ولكنّها لم تحفلْ بإِجراء المزيد من الفحوص الطبِّيَّة، فما كان يعنيها، في المقام الأَوّل، هو أَنّها قدمت معاقةً، محمولةً على مِحفَّةٍ، وآبتْ تطفُر فَرَحًا وعافيةً. ومنذئذٍ قرَّرت وَقْفَ حياتها على خدمة الله في الآخرين. تلك كانت وسيلتها كي تقول للربّ "شكرًا". وما انفكّت، يومًا إِثْرَ يومٍ، تتوغَّلُ في الإِحاطة بالمشاكل الاجتماعيّة، وتتعمّق في قضايا الدّين، وتنهضُ بمسؤوليَّاتٍ كفاحيَّةٍ ونقابيَّةٍ، وتمضي قُدُمًا في ميدان الخِدْمة.

وعندما وقف أَمامها الأَبُ پيير، في "مكتب المعلومات الاجتماعيّة" في "غرينوبل"، طالَعَهُ وجهُ امرأَةٍ ناضجةٍ، تكبره ثلاثةَ عشرَ عامًا، بسيطة الهندام، شَرَعَ الشَّيْبُ يَخطُّ شعرَها الأَشعث؛ كانت تحدجه، من خلال نظّارتَيْها، بنظرةٍ تنمّ عن جِدٍّ راسخٍ، وعزيمةٍ مُتَوقِّدة. حدَّثها عن نشاطاته السِّرِّيَّة والعلنيّة، وعن تورّطه في المُقاومة، وعن تطلُّعاته النِّضاليّة، وأَهاب بها أَن تنضمّ إِليه كي تساعده، وتضبط شؤون عمله؛ فاستمهلت حتّى المساء، كي تُعمِل في الأَمر رأْيَها؛ وعندما أَعلنت له "نعم"، في عشيَّة ذلك اليوم، كانت تربط، نهائيًّا، مصيرَها، وكلَّ ما تبقّى من أَيّامها، بمغامرات الأب پيير المتعاقبة، ارتباطاً استمرَّ أَربعين عامًا، ولم يبتُرْه سوى الموت.

باديءَ الأَمر غدا مكتبها في الأَبرشيَّة حصنًا للمقاومة، حيثُ تتوارد أَخطرُ الأَسرار والمعلومات المتشابكة، فتُصفّيها، وتصنّفُها، وتُقَيّمها، في كتمانٍ مُطلَقٍ، ورباطة جأْشٍ لا يهزّها أَيُّ خوفٍ من خَطَرٍ مُحدقٍ؛ وتنسّق تَحَرُّكَات المُقاومين، وتُسهم في تزوير وثائق من يتعيّن تهريبُهم، وتطبع صحيفة الأَب پيير السّرِّيَّة، وتُعِدّ منها مئات النسخ التي تشرف على توزيعها.

وفي ما بعد، كانت خير أَمينة سرٍّ للكاهن النَّائب، ثمّ شريكته في تأسيس حركة "عمّاوس" وإِنمائها، فقد قبضت على دفّةِ إدارتها بيدٍ حازمةٍ نزيهةٍ، وضبطت فوضاها، وقادت توسُّعها، وكانت الحارسةَ السَّاهرة الوفيَّةَ على روحها، وسلامة نهج رسالتها.

وقد شهد فيها الأَب پيير قائلاً: "لولاها لما وُجدتْ "عمّاوس"، فقد كانت شريكةً في تأسيس الحركة التي وُلدت عام ١٩٤٩. من عَرفَ طباعها، وميزات الرئيس التي كانت تتحلّى بها، يُدرك أَنَّه لَزِمَها بطولةٌ حقَّةٌ ويوميّةٌ كي تستطيع، طوالَ أَربعين عامًا، العمل بدأَبٍ في ظلّ شخصٍ آخر. يُمكن القول إنَّ كلَّ ما تمّ في "عمّاوس" قد تمّ خلافًا لإِرادتها، ولكن بمساعدتها. فقد كانت راسخة القدَمَيْن على الأرض. كلّما أَنا اندفعتُ في عملٍ، كانت تُردّد: "أَلا ترى أَنَّ هذا جنونٌ؟" وكانت مُحقّةً، غير أَنّني، مع ذلك، كنتُ أمضي قُدُمًا في ما حزمتُ عليه أَمري. حينئذٍ كانت تقول: "لن أَدَعَه وحيدًا".

وغالبًا ما أَكَّد الأَب پيير أَنّ لقاءَه بها لم يكُنْ وليدَ صدفةٍ أَو حظٍّ، بل عملَ إِصبع الربّ.

من جرّاء حزمها واستقامتها الَّتي لا تهاود، أَطلقوا عليها أَلقابًا مثل "المزعجة" أَو "المرعبة"، غير أَنّها كانت تتمتّع بصفات زعامةٍ فذَّة؛ وقد ارتضت البقاء إلى جانب الأَب في الظلّ، لكي تكون له حِصْنًا، ولكي تخدم "عمّاوس" على نحوٍ أَفضل.

خصالُها الأَساسيّة: الامّحاءُ، والكتمان، والجدوى، وجَلَدٌ لا يتزعزعُ ولا يكلُّ. كانت تقترح ولا تنصح، توحي ولا تدفعُ، تصمتُ احترامًا لصَمْت الأَب پيير؛ جاهزةً، في كلِّ لحظةٍ لجميع المهامّ الإِداريّة والمنزليّة على السَّواء، وبذلك كانت للأب خيرَ الأَزْر والسنَد؛ وخلالَ تفانيها في خدمته، في شتّى مراحل نشاطه، كم من الأَشواك

انتزعتْ من قدميْه، وكم من الهموم أَزاحت عن صدره! كانت تمتلك حكمـــة الحيَّـــات، وإِن هي بَرِئَتْ من سُمِّها، وكم اكتشفت محتالين، ساعدت الأَب پـــيير على تفاديهم!

وكانت، أَبدًا، تحاولُ التزام الظِّلّ، فتتوارى وتأبى المشاركة فـــي الاجتماعـــات، ولكنّها، شديدة الحرص على حماية الجوهريّ، ومُتأهِّبةٌ لاتّخاذ القرارات الـــضّروريّة والصائبة، في غياب الأَب.

ومثلما كانت ضنينةً بالكلام، كانت مقتصدةً في أَموال الآخرين؛ وقـــد أَمـــسكت مُحاسَبَةَ "عمّاوس"، ساعةً بساعةٍ، بدقّةٍ متناهيةٍ؛ ومع ذلـــك كانـــت تـــنهض بأَعبـــاء المطبخ، وفي اللَّيل تخيط رِقَعًا من الصُّوفٍ، حاكتها نساءٌ من شتّى أَرجـــاء فرنـــسا، بفضلاتٍ من الخيوط، جاعلةً منها أَغطيةً تشحن منها الأُلوف إلى محتـــاجي العـــالم الثَّالث. وفوق كلّ ذلك، كان عليها أَن تردّ على الهاتف الَّذي لا يني يرنُّ حاملاً نداآت الاستغاثة من كلّ صوبٍ.

وقد ظلّت عزباء، غير أَنّ مئات الأَشخاص كانوا يعدُّونها، في أَعماق قلوبهم، أُمًّا لهم. كانت محيطةً بمواطن ضعف كلِّ من يعمل معها، ولكنَّها لم تستخدم يومًا تلـــك المعرفة لتجرح، فقد كانت تحمل في صدرها قلبًا كبيرًا مُفْعَمًا عطفًا.

وكم من مسؤولي "عمّاوس" وجدوا عند عتبة غُرفَتها، في ساعات الإِحباط، الكلمةَ التي تُنعِش، شهورًا، والبسمةَ الشُّجاعة التي تعني أَنَّ المصاعب قد وُجِدَتْ لتُقْهر!

وقد وضعت الآنسة كوتاز، في غروب حياتها، كتابًا بعنوان "أَربعون عامًا مـــع الأَب پـــيير"، ضمَّنَتْه ذكرياتِ الكفاح والبُطولة، والأَيَّامِ العصيبة وحقبة ريادة ملحمة "عمّاوس"، بكلِّ ما انطوتْ عليه من بَذْلٍ وتضحيةٍ، وأحزانٍ وانتصاراتٍ. وقد أَرادت ذلك الكتاب شهادةً حيّةً عمّا عاشت، ونبراسًا للأَجيال اللاّحقة، عسى أَن تبقى جُـــذْوةُ البدايات المندفعة، متَّقدةً في صدر كلِّ من يودُّ مُواصلةَ المسيرة الَّتـــي كانـــت، هـــي والأَب پـــيير، رائدَيْها.

الكاهن النَّائب

في مَطْلَع عام ١٩٤٥، تسلَّمَ قائدُ البارجة "جان بارت" الراسية في المغرب برقيّةً تستدعي المرشدَ الروحيّ، "الأَب پـــيير" إلى باريس، بعد أَن قضى ستَّة أَشـــهر مـــع

ثماني مئةٍ من البحّارة، ووَثَّق معهم أَواصر صداقةٍ حميمةٍ صادقة، وكتب لهم مسرحيّةً عن المصالحة بين الله والبشر وعندما وقف يودّعهم، أَنشدوا، بصوتٍ واحدٍ، "سرّ الفرح" الَّذي تضمّنته تلك المسرحيّة، فبادره القبطان بصيحةٍ جافيةٍ:

– "هيّا انصرف، واكفِنا شرَّ حماقاتك"!

ومال الكاهن نحو بحَّارٍ واقفٍ يجانبه مستفسرًا عن سبب جفاء القبطان هذا، فقال له:

– "إِنَّه لن يغفر لك أَبدًا أَنّك جعلتَه يبكي أَمامَ رجاله"!

تلك الأَشهر السِّتَّةُ، في البَحْر، أَتاحتْ لرجُل المقاومة المُرْهَق أَن يظفر بما يستحقُّه ويحتاج إِليه من نقاهةٍ وراحةٍ، ومكَّنتْ رجلَ الله من تجديد طاقاته في التأمُّل والعبادة، بعد أن افتقدهما طويلاً.

في "غرينوبل" و"ليون" حيثُ كان قد عاشَ حُمَيّا المقاومة ومخاطرها وآمالَها، كان ينتظره، في آنٍ واحدٍ، فرحُ رؤية وطنه محَرَّرًا، وحزنُ اطّلاعه على أَسماء رفاقٍ وأَصدقاء حصدهم الموت؛ نشوةُ السِّلم الَّذي ما برح هشًّا مثل طفلٍ وليدٍ، وقافلةُ مآسي الدَّمار والتشريد والفقر التي جرَّتها الحربُ في إِثرها.

أُسقُفُه المُسنّ، في "غرينوبل"، استقبله بحرارةٍ قائلاً: "آه! **لو كان لديَّ المزيدُ من أمثالك!**" وكم كان قولُه هذا مختلفًا عمّا أَسلف قولَهُ له، لسنتَيْن خلتا: "**لو أَنّني علمتُ بما كنتَ ترتكبه من حماقاتٍ لكنتُ منعتُك**"!

الأَصدقاءُ الَّذين يلتقيهم، يروون له تفاصيلَ عن الأَحداث التي جرتْ في غيابه حيثُ تمتزج الأَمجادُ والأَحقادُ، دواعي الفخر ومواطنُ الخِزْي؛ ويصِفون له أَوضاع الفوضى السائدة الَّتي تستدعي إِعادة الإِعمار والتنظيم والمصالحة.

بجوار محطّة قطار "ليون" التقى الآنسة "لوسي كوتاز"، أَمينةَ سرِّه، الَّتي كانت تنتظر أَن يستقرّ به المقامُ قبلَ أَن تعود إلى تنظيم نشاطاته.

وفي باريس، راح يجسُّ نَبَض وطنه، ويُصغي باهتمامٍ إِلى الشائعات والأَصداء والصيحات المُتصاعدة من هنا وهنالك؛ وراعَهُ ما شَهِدَ من تأجُّج نار الثأْر، واتّساع رقعة الشقاق، في أَعقاب النَّصر، بين شتّى الفئات الَّتي كانت، بالأَمس، تكافح يَدًا بيدٍ، لإِجلاء المحتلّ، في حين لم يكن يختلج في أَعماقه، هو، سوى مُتطلَّبات شريعةٍ واحدةٍ:

إيقاظ الحبّ، والإِخاء، وأَسباب الحياة، وفي حين لم يكن سلوكهُ يخضع إلاّ لسلطةٍ واحدة: سُلطة الله التي تدفعه إلى التّضامن مع من يحدوهم الحبُّ وروحُ خدمة الضُّعَفاء والمتألِّمين، وإلى التعرُّض بحدَّةٍ لمن يستخدمون سُلطاتهم وامتيازاتهم لخدمة أَصحاب الحُظْوة، وسَحْق من لاحَوْلَ لهم ولا طَوْل.

ومرَّةً أُخرى استقبله الجنرال ديغول، وتحدّث معه على انفرادٍ، فدار كلُّ حديث الأَب پيير حول المجاعة وتأثيرها في الأَطفال الَّذين تعجز أُمّهاتهم عن إِرضاعهم، ولا تَجدْنَ لهم حليبًا، في حين كان كلُّ همّ الجنرال محصورًا في تحرير البلاد من كلّ آثار الاحتلال، وفي إِحلال الاستقرار. غير أَنَّ الجنرال لم يلبث أَن كتب له حول الشَّهادة التي وضعها الأَب پيير بعنوان: "٢٣ شهرًا من المقاومة" قائلاً: "لعلَّ الفرنسيّين يستطيعون الحفاظ على سرِّ تلك الأُخُوّة التي عرفوا اكتشافها في ساعات المحنة".

أَجل، الأُخُوَّة هي اللَّفظة السرِّيَّة التي كانت تُلهم كلَّ أَعمال الأَب پيير ونشاطاته، والتي، باسمها، يرفض أَيَّة علاقةٍ لا تنهض على الصَّراحة والصِّدق، والإِيثار، ونُكرانِ الذَّات.

لقد كُلِّف الأَب پيير بالإِرشاد الروحيّ في "بيت البحَّارة"، ومن ثمّ كان يُنفق مُعْظَم وقته في الاهتمام بثلاثة آلاف بحّارٍ، وتوفير الخدمات الروحيّة لهم، ومع ذلك، يجد فسحةً من الوقت للاتِّصال بشتّى المسؤولين من وُزَراء، ومُتَنفِّذين، وبالقاصد الرسوليّ، وبكردينال باريس، وبجميع الَّذين يستطيعون الإِسهام في رفع بعض الحَيْف الباهظ عن كواهل الضُّعفاء والفقراء.

في سبيل هذا النِّضال، رضيَ الأَبُ پيير أَن يُقَلَّد أَوسمةً عديدةً: صليب الحرب، ووسام الشرف، وميداليَّة المقاومة، آملاً أَن تتيح لصوته نفاذًا أَبعدَ إلى شتّى الآذَان والقلوب. فعلى تلك الأَوسمة الرامزة إلى الأُخوّة، التي تجلّت أَثناء المقاومة، كان يتَّكئُ لبناء أُخُوَّةٍ جديدةٍ، ومحوِ أَسباب الفُرْقة.

وباسم هذا النّضال، كان يُنفّذ مُهمّاتٍ يوكلها إِليه وزير الإِعلام "پيير هنري تيتجن"، فيجوب البلاد من شرقها إلى غربها، ومن شمالها إلى جنوبها، مُبَلْسمًا الجراح، مُكفكفًا العبرات، جامعًا القلوب، مبشّرًا الجميع، مردّدًا:

"الصَّداقةُ كانت هي ملح المُقاومة. كُنَّا مُتحابّين بصِفَتِنا إخوةً في الإنسانيّة، وبذلك امتَلكْنا سرَّ التحادُث من فوق جُدران الأَسوار والأَحقاد، فهل سنعجز عن المُضيِّ في هذا المضمار؟ العدلُ؟ له حقوقٌ، ولكن عليه، فوق الحقوق، واجباتٌ. وإن كان لا بُدَّ من مُمارسة العقاب، فبلا ضغينةٍ، ولا انتقامٍ. فالانتقام يعني القبول بأَن يُصبحَ القلبُ شرّيرًا. فلنحذرَنَّ، إذن، من أَن نُصبحَ ضحايا الشَّرّ، بعد أَن انتصرْنا عليه، ولنتعلَّم المسامحة".

كان الأَب پيير يُرهِقُ نفسَه في العمل، وكان على صحَّته أَن تعنو صاغرةً لإرادته، وأَن تسير في إِثرها مُذْعنةً؛ ومع ذلك، كانت طاقاته تعجز عن المهامّ الجبَّارة التي يتصدّى لها، كانت تتعذَّرُ عليه متابعةُ أكوام البريد المتدفّق عليه، والملفّات التي يسعى إلى معالجتها؛ وبات لا مفرَّ له من التماس مساعدة الآنسة كوتاز، مرَّةً أُخرى.

وعندما التقَتْهُ، من جديدٍ، وجدَتْ وجهَهُ أَشدَّ شُحوبًا، تحت اللِّحية الَّتي باتتْ تُغطّيه، وظهرَه أكثرَ انحناءً، وقُواهُ أكثر خَوَرًا وإعياءً؛ ومع ذلك ما زال كلامهُ قاطعَ النَّبرْة، صافيًا، حازمًا، مثلما كان، أَبدًا، في مواجهة أَعتى المخاطر. وعندما طَلَبَ منها العودة إلى تنظيم نشاطه، أَدركتْ، بجلاءٍ، كُلَّ ما كانت مُقدِمةً عليه من تضحيةٍ بالرّاحة والدّعة، وتصدٍّ للهموم المُضْنية، والمسؤوليّات المُرْهِقة. وبعد إعمال الفكر، طيلةَ أُسبوعٍ، أكّدت موافقتَها التي ستلْزمها التزامًا بلا هوادةٍ ولا فتورٍ، حتّى مماتها.

وذات يومٍ، إذ كان الأَب پيير يَذْرَع شوارعَ باريس، بخطًى حثيثةٍ، ورأْسُه مائلٌ قليلاً نحو اليمين، تجول فيه شتّى الخواطر والهواجس، اصطدم بأَحد المارَّة، وهمَّ بالاعتذار، فإذا به أَمام صديقه ميشيل حبيب، أَحد زُعَماء شبكة المقاومة في السّوربون، الَّذي لم يستطع كتم دهشته، إذ كان موقنًا أَنَّ الأَبَ پيير قد بات في عداد شهداء التَّحرير، وتمادى بينهما الحديثُ، وتواعدا، وتقابلا مرَّاتٍ ومرّاتٍ.

في أَعماق ميشيل حبيب، كان يتلظّى هوى السّياسة. لقد كان متفائلاً، مُندفعًا، مؤمنًا بضرورة تجديد الدُّستور، وجعله مُلَبِّيًا لمُتطلّبات البلاد وحاجات النَّاس؛ وإذ كان الأَبُ پيير يشاركه هذه الآراء، أَهاب به، بلجاجةٍ، أَن يدافع عنها تحت قبّة

البرلمان. واستعان بوزير الإِعلام، وبكردينال باريس، وبأَصدقاء الجنرال ديغول، لإِقناعه بترشيح نفسه للانتخابات التشريعيّة الَّتي كانت ستُجرى في شهر تشرين الأَوّل ١٩٤٥.

مع أَنّ والد الأَب پيير، الَّذي أَلِفَ مُحايدة السّياسةِ والتحدُّثِ في شؤونها، كان، أَبدًا، حريصاً على أَداء واجبه الانتخابيّ؛ وإِذا ما عجز عن السَّيْر إِلى مركز الاقتراع، من جرّاء المرض، كان يطلبُ أَن يُحمَل إِليه حملاً، غير أَنَّ ابنه هنري، من جرّاء وجوده في المنسك، سحابة فترة شبابه، لم يستطع الاشتراك في أَيِّ اقتراعٍ، وإِذ به يصبحُ مُرَشَّحًا في أَوّل انتخابٍ يستطيع الاقتراع فيه، وهو في الرَّابعة والثلاثين من العمر.

كانت "الحركة الجمهوريَّة الشعبيّة"، المؤلّفة حديثًا من تجمّع أَحزابٍ مسيحيَّةٍ قديمةٍ، تتمنّى ضمَّ الكاهن المقاوِم إِلى صفوفها، ولكنّه كان لا ينفكّ يُعلن أَنَّه لا يستطيع الجمع بين عضويّة حزبَيْن في آنٍ واحد، إِذ سبق له الانضمام إِلى حزب البائسين، فضلاً عن رفضه الالتزام بأَيّ ارتباطٍ يُقيِّدُ حُرِّيّة فكره، وكلامه، وإِخلاصه للحقيقة. غير أَنّه باسم الشُّهداء الذين سقطوا في ساحات المقاومة، وفي سبيل البائسين الذين كان يُناضل لرَفع الحَيْف عن كواهلهم، ومن أَجل الذَّوْد عن حقوق الله من اغتصاب قيصر، من أَجل جعل الضَّروريِّ ممكِنَ التحقيق، وإِسماع صوتِ من لا صوت لهم لمن يستطيعون ولا يعلمون، ارتضى أَن يُرشّح.

وبصفته كاهنًا، كان لا بُدَّ له من موافقة رؤَسائه الدِّينيّين، وقد أَجابه رئيسه المباشر، أُسقف "غرينوبل"، الَّذي كان، آنذاك، في التاسعة والثمانين من عمره: "آسفٌ أَلاّ أَستطيع، شخصيًّا، الاضطلاع بمثل هذه المسؤوليّة، ولكن، إِن شجَّعَكَ من هو أَرفعُ منّي مركزًا، وأَكثر درايةً، فلن أَعترض". وقد قام فعلاً كردينال باريس بتشجيعه على المُضيّ قُدُمًا في الترشيح، كما أَنَّ وزيرَ الإِعلام قد تنازل له عن مركز والده في دائرة نانسي، حيثُ طلب منه أَن يُرشّح نفسَه على رأس قائمةٍ تضمُّ خمسةً من أَعضاء "الحركة الجمهوريّة الشعبيّة". غير أَنّ الأب پيير قد حرص على أَن يذكر إِزاءَ اسمه عبارةَ "مرشّح مستقلّ".

وإذ كان لا بدَّ من حملةٍ انتخابيّةٍ، فقد خاض حملةً لا تُشبه أيًّا من حملات السِّياسيّين؛ كان يخاطب البُطونَ عن الخُبْز، والقلوبَ عن الأَمَل، والخوفَ عن الشجاعة، وروحَ الانتقام عن العَدْل والمسامحة؛ وفي كلّ مكانٍ كان يُحاول غرسَ الحقائق التي يؤمن بها، بقُوَّةِ الحُبّ والإيمان، محاولاً إحلال الرَّجاء محلَّ الاستسلام. كان يشهد، بحزنٍ وأَلَمٍ، دمارَ المنازل والمصَانع، وانتشار أكواخ البؤس، وملايينَ من لا مأوى لهم يعضّ أَحشاءَهم الجوعُ، ويرتعدون من القرِّ، ويُعلن بأعلى صوته أَنّ كلَّ ذلك إِهانةٌ تُلحَق بالرَّبّ.

كان لكلام الأَب پـيير صدى الصِّدق في قلوب مستمعيه، ولا سيَّما العُمّال والفقراء، ولكنّ بعضهم ظلّوا حائرين. فقد طالما خُدعوا بوعود السِّياسيّين الكاذبة، وهذا ما عبّر عنه أَحدهم، في أَعقاب اجتماعٍ انتخابيٍّ:

– « **ربَّما كانت أَقوالُك أكثر صِدْقًا ممّا أَلِفْنا سماعه، ولكن لا تعجب إِن نحن تلكَّأْنا في منحك ثقتنا، فطالما غُرِّر بنا وخُدِعنا** ».

أَثناءَ اجتماعٍ انتخابيٍّ آخر، في قاعةٍ مكتظّةٍ، احتلّ الصفوفَ الأُولى مشاغبون حاولوا منع الأَب پـيير من إِلقاء خطابه، ثمّ شرع أَحدهم يجأَر: "الخوري إلى السَّكرستيّا". وانتضى الأَب پـيير الميكروفون، باديَ الهدوء، في حين كان غَضَبٌ مُقَدَّسٌ يلتهب في عينَيْه اللَّتَيْن غرسهما في عيني الشابّ، الَّذي كان يُطلق تلك الصَّيْحة المعادية، وأَعلن بحزمٍ مؤثّرٍ:

– « **إِنّني أَسمع رفيقًا يهتف: "الخوري إلى السَّكرستيا"! أَلا فليسأَل هذا الرَّفيقُ أَصدقاءَه الَّذين، لأَيَّامٍ قليلةٍ مضتْ، كانوا مُطارَدين، يواجهون الموت، ولا مفرَّ أَمامهم سوى اجتياز الحدود كي ينجوا بأَنفسهم. أَلم يُسعدهم أَن يجدوا الخوري الَّذي تعنيه خارج السَّكرستيّا، كي يقودهم، عبرَ الجبال، نحو الخلاص؟** »

وتفجّر التَّصفيق مثل هزيم رعْدٍ، وانعقد الاجتماع في صمتٍ وَرِعٍ، وفي مُشاركةٍ حميمةٍ بين الخطيب والجمهور.

وفي مناسبةٍ أُخرى، شنَّ خَصْمٌ سياسيٌّ ينتمي إلى حزبٍ يمينيٍّ مُتَطرِّفٍ، هجومًا لاذعًا على الأَب پـيير، ورشَقَه بمُقْذِع الشَّتيمة، وعلا الصَّخَبُ بين مؤيِّدٍ ومُستنْكِرٍ،

وإذا برجلٍ شاحب اللون، يحمل أَمارات المرض، يتوجّه بمشقّة نحو المِنصَّة، متثاقلَ الخطى، مترنّحًا إعياءً، فيسود الصمت، ويُعلن الرجل: "أَنا لن أُصوِّتَ لصالح الأَب پيير، ولكنّني لم أَعُدْ أُطيق الصَّمت، بعد سماعي الشَّتيمة التي قُذفتَ بها، أَبتِ. مَن المُؤكَّد أَنَّك لا تذكرني، فقد ذبلتُ. أَلا تذكر الحاخام سام ج...؟ لسنتَيْن خلَتا، كنتُ مختبئًا في "غرينوبل"، وكنتُ آتيك بأَبناء ديني اليهود الَّذين كان يتحتّمُ "تهريبهم"، بلا تلكّؤ. وذاتَ ليلةٍ، في زاوية شارعٍ حيثُ ضُرِبَ موعدُ اللِّقاء مع أَحد الَّذين كان يتوجَّبُ ترحيلُهم، كاشفك هذا الأَخير عَن أَمر رجلٍ آخر كان يودّ مشاركته الفرار، ولكنَّه لم يكن يقوى على ذلك، من جرّاء افتقاره إلى أَحذيةٍ كفيلةٍ بتحمُّل مسيرةٍ عبر الجبال، وراءَ دليلٍ. وكان لا مناص من عملٍ فوريٍّ، فأَعطيتَه أَحذيتك، وعدت حافيًا إلى كنيستك. تباركَ الله، الَّذي أَتاح لي، هذه الليلةَ، أَن أَرُدَّ لك بعضَ جميلك".

بمثل هذا الماضي النِّضاليّ الناصع، وبمثل هذا الحبّ الصَّادق، استطاع الأَبُ پيير خوضَ معركةٍ انتخابيَّةٍ ضمنت له نجاحًا ساحقًا.

ولكن في حين دفع النجاحُ الحِزْبيِّين إلى الغُرور، وإلى التَّمادي في المُناورات الحزبيَّة الأَنانيّة الأَهداف، لم يكن الأَب پيير يتطلّع إلاّ إلى استخدام سلاح العَدْل لمكافحة البُؤس، وإلى الوفاء بوعوده للمساكين الَّذين منحوه أَصواتهم، من أَعماق قلوبهم. في سبيلهم كان لا يتحرّج من التدخّل لدى وزارات العدل، والعمل، والصحَّة، والشؤون الاجتماعيّة، ملحفًا في الملاحقة والمطالبة، في منأًى عن مساومات السِّياسيّين، مؤيِّدًا مطالبَه بملفّاتٍ مُحكَمة الإِعداد، مُعَلَّلةٍ، مُدَعَّمةٍ بالمعلومات والقوانين الدقيقة التي تجمعها له وتُنسِّقُها الآنسةُ كوتاز، بفضل خبرتها السَّابقة الوطيدة.

وفي نهاية كلِّ أسبوعٍ كان يمضي إلى مُنتَخبيه، ويلتقي بهم في قاعاتٍ مزدحمةٍ، فيُطلعهم على مساعيه من أَجلهم، وما أَفضت إليه من نجاحٍ أَو فشلٍ، من غير مواربةٍ، ولا نفاقٍ، ولا خداع.

كان يضطلع، في آنٍ واحدٍ، برسالة النَّائب ورسالة الكاهن، ويؤدّيهما كلتَيْهما بكلّ ما يختلج في صدره من هوًى واندفاعٍ وإيمانٍ.

ولكنّه، في قاعة البرلمان، كان يؤنس شيئًا من الغربة، وسْط خضمّ الحسابات الحزبيّة الضيّقة الأفق، والمناورات والتحالفات التي توحي بها مصالحُ آنيّةٌ، ويسأَم

دويّ الخطابات الفارغة، والمُهاترات المُخزية، فينتحي ركنًا منعزلاً، حيث يطالع البريد الضَّخْم الذي يَرِدُ إليه من جماعات الفقراء والمعوزين الكثيفة العدد، ويَرُدُّ على بعضها، جاهدًا في معالجة ما تنطوي عليه من مآسٍ واحتياجات. وحين يضيق ذرعًا من عُقْم النِّقاش داخلَ المجلس، لا يخشى مناشدة أَعضَائه بقوله: "**فكِّروا في قَلَق الجماهير، وهي تَشْهدُ تصارُع النُّواب والحكومة، في وقتٍ لم تَحْظَ فيه البلادُ بدستور**"؛ "**إذا ما حاول غدًا القابعون خارجَ هذا المجلس أَن يعرفوا القضايا الَّتي تناولتْها مناقشاتُ مندوبيهم، فكيف لا يدمغون بالتَّفاهة والخِزْي مستوى تلك المواضيع؟ لقد باتتْ فرنسا أَطلالاً، والبُؤَساء يتأَلّمون، ويأملون، ويتطلّعون إليكم. ففكّروا بهم، أولئك الَّذين، في خِزْيهم يختبئون**".

لقد كان البريد الَّذي يَردُ إليه أكثَفَ بريدٍ يرد إلى أَيِّ نائبٍ، إذ آمنت جماهيرُ المحتاجين والمرذولين والبائسين أَنّ ذلك الكاهنَ النائب هو الأَقدر على فهمهم، والأَكثر تعاطفًا معهم، والأَشدّ اندفاعًا في الذَّوْد عن قضاياهم.

في حزيران من عام ١٩٤٦ جرت انتخاباتٌ جديدةٌ للمجلس التأسيسيّ الثاني؛ وبضعةَ أَشهرٍ قبلَ ذلك الموعد، مورست الضغوطُ على الأَب پيير لكي ينضمّ إلى "الحركة الجمهوريّة الشعبيّة"، بصفة عضوٍ، لا حليفٍ فحَسْب. وكان هو، في تلك الأَثناء، قد تأكّد أَنَّ شخصاً بمفرده لا يستطيع استصدار القوانين الَّتي يُؤْمن بها، ما لم يُسانده حزبٌ قويٌّ، فاعلٌ، وفيرُ عدد الأَعضاء. وكان يلحظ الأَحزابَ المناوئة لجميع مبادئه تستنفر الأَزلامَ والمُوالين، في حين كانت "الحركة الجمهوريّة الشعبيّة" تستوحي مبادئها من المسيحيّة والمقاومة، وتعلن عن نفسها أَنّها "الحزب المناصر للضحايا". فامتثل لإلحاح رفاقه، وقَبِل الانضواءَ تحت راية تلك الحركة، مُؤَكِّدًا أَنّ إمامه الأَوحد هو ضميرُه، وأَنّ هدفه الأَوّل هو خدمة المحتاجين، وأَنّه لن يتردَّد عن هَجْر الحركة إن هي حادتْ عن تلك المُثل، موضحًا: "**يا أَصدقائي، أَصغوا إليَّ جيّدًا: إنّ انضمامي إلى حركتكم هو بمثابة عقدٍ، وأَنّني لا ألتزم تجاهكم إلاَّ بهذا الشرط: أَن يظفر الناسُ بحقوقهم، وأَلاّ تُلحَق، بعدَ الآن، الشتيمةُ باسم الله، من جرّاء الخداع، الواعي أَو غير الواعي، الذي يمارسه أُولئكَ الذين لا يفتقرون إلى شيءٍ، ولكنّهم يتعامون عن مآسي الجماهير التي يدَّعون تمثيلها**".

وفي دائرة نانسي، حيثُ ترشَّح، وضَعَ الأَبُ پـيير بنفسه قائمتَه، في معزلٍ عن أوامر "الحركة"، بحيث ضمَّت مُمَثِّلين عن العُمّال، والمُقاومة، وخبيرًا زراعيًّا، وامرأةً واحدةً تعمل في الزّراعة وتتمتّع بقوّة المراس. أمّا برنامجه فكان واضحًا لا لَبْس فيه: العمل من أجل الضُّعَفاء، في خدمة الضُّعفاء، للذّود عنهم، وتوفير ما يحتاجون إليه من حُرِّيَّةٍ وأَملٍ، وعدلٍ، وحياة.

غير أَنّه، داخلَ البرلمان، لم يكن يجد سوى حفنةٍ من الرِّجال الَّذين تحدوهم روح خدمةٍ، ولا يُحجمون عن التضحية بذواتهم وحياتهم في سبيلها، وبذلك يبلغون مراقي القداسة؛ وخيرُ من مثَّلَ تلك الفئة النادرة هو "روبير شومان". أَما سوادُ النُّوّاب فلا تحرّكهم سوى المصالح الشَّخصيَّة والحزبيّة والأَنانيَّة، الحسيرةِ النَّظر. ومع ذلك، أَحَبَّ معظمُ النوّاب زميلَهم، رجلَ الله، ومحاميَ الفقراء، ما خلا نوّاب اليمين المتطرّف الذين وصفوه بالمُغامر والمارق.

وقد جاء شتاءُ عام ١٩٤٧ شديدَ القَسْوة، فقضى الجليدُ على المحاصيل، وقفزتْ أَسعار الحنطة بحدّةٍ جعلتْ الخبزَ عسير المنال، ما حدا بالحكومة والكنيسة إلى التَّضافر على شنّ حملةٍ من أَجل القمح، كان الأَب پـيير من أَعتى مناضليها، فضلاً عن توزيعه كلّ ما يظفر به من تعويضاتٍ نيابيّةٍ على المحتاجين، غير محتفظٍ لنفسه بشيءٍ، عملاً بعادةٍ متأَصّلةٍ فيه لم يكن يقوى على مقاومتها.

وقد أَثارت المجاعةُ الإِضراباتِ والاضطرابات التي قادت إلى اصطدام المتظاهرين برجال الأَمن. وانقسم المجلسُ بين مُؤَيِّدٍ لهؤلاء أَوْ أُولئك. وهرع الأَب پـيير إلى المنصّة ليصرخ: "**إِن نحن لم نُقِم العدلَ في الحال، فستتجدَّدُ الإِضرابات باستمرارٍ، لأَنّ أَساسها ودافعها الأَوّل والمشروع هما الفاقة. إِنّ ثمّة فاقةً قصوى، وعلى معالجتها ينبغي أَن تنْصَبَّ جهودُنا، في المقام الأَوّل. وإِن أَنا انخرطتُ في المقاومة حيثُ جئْنا من كلّ أُفُقٍ، فلكي يتحقّق تحريرٌ كاملٌ وحقيقيٌّ للفئة العاملة. إِنّ هوى العدل هو الَّذي دفع بنا إلى الجهاد. نحن نريد أَلاّ يُقالَ أَبدًا، بعد الآن، أَنّ مُمثّلي الإِيمان الَّذي أَعتَنقُه، ويعتنقُه الكثيرون بيننا، ليسوا أَوّلَ المناضلين في حركة تحرير فئةٍ عريضةٍ ممّن يعيشون في وضعٍ لا يليق ببشر**".

وفي عام ١٩٤٧ أَيضاً، عاد الجنرال ديغول إلى تسلّم مقاليد السُّلطة في فرنسا، على

رأس حزبٍ يضمّ شتّى فئات الشَّعب؛ وفي نفس الوقت شرع الأَب پـيير يبتعـد شـيئًا فشيئًا عن مجلس النُّوّاب لانشغاله بمهامّ كانت أَعمق وقعًا على نفسه، إِذ نشأتْ، في تلك الفترة، حركةُ اتِّحادٍ عالميٍّ يتخطّى الحدود الوطنيَّة الضيِّقة، وينتظمُ جميع سُكَّان البسيطة في اتّحادٍ إِنسانيٍّ شاملٍ من غير تفرقة. مؤَسِّسُ ذلـك الاتّحـاد، اللـورد "بويـد أُورّ" البريطانيّ، والَّذي أَسّس لاحقًا، بعد مُنظَّمة الأَغذية والزّراعة الدَّوليَّة، أَوْكلَ نيابة رئاسة المجلس التَّنفيذيّ لذلك الاتِّحاد إلى الأَب پـيير الَّذي لم يسعَ قطُّ إِلى مثل ذلك المنْصب. وسُرعانَ ما منع المرضُ الرئيسَ التنفيذيّ من مزاولة مهمّته، فتولّى الأَبُ پـيير الرئاسة بالوكالة سحابةَ سنواتٍ عديدة؛ وجديرٌ بالذِّكر أَنّ بعض أعضاء الاتِّحاد اعترضوا علـى اضطلاع الأَب پـيير بمهامّ الرئاسة، بحجّة أَنّه لا يُجيد اللّغة الإِنكليزيَّة، وهي لغة معظم الأَعضاء، غير أَنّ اللورد "بيـڤـيريج" قد حَسَم النقاش بقوله: "**ولكنّه يتكلّم لُغَةً يمكـنُ أَن يفهمها الجنسُ البشريُّ بأسره**"!

وتَبَلْوَر حُلْمُ الأَب پـيير في كوكبٍ واحدٍ، تحكمُه شريعةٌ واحدةٌ، وتعيش علـى أَديمه بشريَّةٌ واحدةٌ، وقد استفَزّ تحقيقُ هذا الحلم كلَّ اندفاعه وهواه، وكـان، علـى الأَخصّ، يحلَمُ بشبيبةٍ ليست مجموعة الشبيبات الوطنيّة المختلفة، بل اتّحـادٌ رحـبٌ ووحيدٌ لجميع الشباب في العالم، بحيثُ لا يبقى خَلْفَ تعدُّد مظاهر برج بابل سـوى مرجعٍ أَوحد: هو الإِنسانُ القادرُ على أَسمى خيرٍ، أَو على أَقصى الشُّرور.

ومُذّاك انطلق يجوبُ البسيطةَ يشرح حُلْمَه، ويبثُّ هواه في نفوس شبيبة العـالَم مردّدًا مثل ما قاله في أَمستردام يومًا: "**ينبغي أَن يبقى نُصْبَ عيوننا اليقـينُ بأنّنـا عندما سنمثُل أَمام الله، سنسمع في الحال سؤاله التالي: كنتُ جائعًا وعطشان، فهل أَطعمتني، وهل سقيتني؟ كنت تعيسًا فهل أَسَوْتَني؟ "وسنقول له: "لـم نعرفـك، لـم نركَ، فلم نستطع إِطعامك، ولا مؤاساة آلامك". حينئذٍ سيُجيبنا: "كلّما التقيت إِنـسانًا بائسًا، كنتُ أَنا ذلك الإِنسان، وكان أَلمي جليًّا أَمامك، فماذا فعلت؟...". "يجبُ إِقنـاعُ العالم أَنَّه واحدٌ، وينبغي إِنقاذُه من الدَّمار، ومن مَوْت الأَجساد والنّفوس**".

لقد نهض الأَب پـيير بمهامّ الاتِّحاد العالميّ سحابةَ أَربع سنواتٍ، كان أَثناءَهـا، دائم التجوال، في حين غدا منزله ملتقَى المُفَكِّرين يتبادلون فيه الخـواطر والآمـال، وكان من المختلفين إِليه الكاهن الفيلسوف "تيلار دي شاردان".

وفي ما بعد، عندما انتقل إلى بيتٍ رحْبٍ في ضواحي باريس، حوَّله إلى "نــزلٍ للشبيبة العالميّة" يلتئمُ فيه، نهايةَ كلّ أُسبوعٍ، شبابٌ طلائعيّون، تحدوهم مُثُل الوحــدة الإنسانيّة. وأثناءَ العُطَل الصَّيفيّة كانت تؤُمُّه أعدادٌ غفيرةٌ من الشُّبّان القــادمين مــن شتّى أرجاء المسكونة، يعملون ويعيشون معًا في انسجامٍ رائع.

في تلك الأثناء، ما انفكّ الأب پــيير نائبًا يجهد في تحقيق القول بأنّ السِّياسةَ هي فنُّ "جعل الضروريِّ مُمكنًا"، وكان يُعلن، أبدًا، بلا هــوادةٍ ولا وَجَــلٍ، عمّــا هــو ضروريٌّ، ولكن أنّى له أن يجعله دائمًا ممكنًا، في ميدانٍ كلُّ شــيءٍ فيــه يتحــرّك بحساب المصالح والمغانم؟ بيدَ أنَّ عجزه عن جعل كلّ ضروريٍّ ممكنًــا، لــم يكــن يحول دون مواصلة جهره بما يراه ضروريًّا، ولا سيّما في المجال الَّذي كان يتورَّط فيه أكثر فأكثر، ألا وهو مجال الالتزام إلى جانب الأشدّ بؤْساً وفاقةً.

وكان يترسّخ لديه الشعورُ بأنّه لن يستطيع المُضيَّ بعيدًا في ميدان النِّيَابَــة، لأنّ النجاح فيه يقتضي رغبةً في السُّلطة كان يفتقر إليها، ولأنّه إنّما كان يُــؤثر الــشهادةَ ليسوع بين ظهرانَي الأكثر تواضعًا وحرمانًا، في حين لم يكن العملُ السِّياسيُّ يُتيح له ذلك بالوسائل التي يؤمن بها.

كان يُحبّ أعضاءَ الحزب الَّذي انضمَّ إليه، بصفتهم أفرادًا، ولكنَّ الحزبَ كمؤسَّسةٍ كان قوّةً تواجهُ باستمرارٍ خيارًا بين الوسائل والأساليب الكفيلة بتدعيم مركزهــا. وقــد يتَّفقُ الأعضاءُ على المبادئ الأساسيّة، ويُجْمعون على مُطْلَقٍ يؤمنــون بــه، غيــر أنّ اختيارَ الوسائل والأساليب قد يُصبح بُؤْرةَ خلافٍ، وتباينٍ في الآراء، بل إنّــه أصــبحَ، ذاتَ يومٍ، مبعثَ صدامٍ وشقاقٍ. فقد نشب إضرابٌ عُمَّاليٌّ، وامتدَّ طويلاً، ولكنَّه لم يُفلح في تليين تعنُّت أرباب العمل الَّذين ساندتهم الحكومة، آملةً أن يؤدّي الجــوعُ والعَــوَزُ اللذَان انتابا أُسَرَ العُمَّال المُضربين إلى نَسْف الإضراب، ممّا دفع العُمَّال إلــى القيــام بمظاهرةٍ صاخبةٍ حاشدة، قابلَها رجالُ الأمن بإطلاق الرَّصاص الذي أَوْدى بحياة العديد من العمّال. ونوقش الأمرُ في البرلمان، وكاد يصدر بيانٌ يدين بالإجماع تَعَنُّتَ أربــاب العمل، غير أنّ حزبًا راديكاليًّا، هبَّ مُعارضاً، ومهــدِّدًا بالانــسحاب مــن الائــتلاف الحكوميّ إن صدر مثلُ هذا البيان؛ فرضخت للتهديد أحــزابُ الأكْثَرِيَّــة، ممّــا أثــار اشمئزاز الأب پــيير، وانسحابَه من الحزب؛ وقد أصدر بيانًا علَّل انسحابَه بخيبة أملــه

في من غلَّبوا المصالحَ الحزبيَّة على واجب الوُقوف إلى جانب المظلومين، وأَخفقوا في استصدار القوانين الكفيلة بتحقيق خدمة الأَكثر معاناةً، في المقام الأَوّل، كي "**يؤمن الجميع أَنَّ اللهَ الأَزَليّ هو حبٌّ، وأَنّ المستقبل هو أكثر من المستقبل الزّمنيّ، وأَنّ الزَّمنَ هو وسيلةُ تعليم الحُبّ، لكي يتحقَّق اللقاءُ الأَسمى، الكفيلُ بإِرواء الجوعِ والعطش اللاَّمحدودين، الكامنَيْن في صُدور البشر أَجمعين**".

انسحابُه كان تعبيرًا عن نفاد صبره حيالَ واقعٍ لا يُطاق، هو إِهانةٌ لله ولجميع المتأَلِّمين، واقع التَّضامُن بين جماعة "المؤمنين" و"الوصوليّين"، سواءٌ كانوا من مستغلّي الضعفاء، أَو ممّن لا يبالون بمساوئ "نظامٍ اقتصاديٍّ جامدٍ"، يُؤدّي، مهما كانت حسناتُه، إلى سَحْق الضُّعَفاء.

وقد أَقرّ البرلمانُ الفرنسيُّ في دورته التأسيسيّة الثَّانية الَّتي كان فيها الأَبُ پيير نائبًا، نظامًا انتخابيًّا جديدًا، يمنعُ من الفوز بِالنِّيَابَةِ كُلَّ مُرشَّحٍ مُستَقلٍّ لا ينتمي إلى حزبٍ سياسيٍّ، مهما حصل عليه من أَصوات؛ ووطّن الأَبُ پيير عزمه على اعتزال السّياسة؛ غير أَنّ مُنظّماتٍ عمّاليّةً وافتْهُ من كلِّ صَوْبٍ، متوسّلةً إليه أن يُمثِّلها، وانضمّ إِليها نفرٌ من رفاقه الحزبيّين السّابقين، الَّذين خَيَّب موقفُ الحزب آمالهم، وقد حملوه، عُنْوةً، على ترشيح نفسه، بضع دقائق قبل انصرام مهلة الترشيح؛ فتقدَّمَ بطَلَب ترشيحه على رأس قائمةٍ نُظّمتْ على عَجَلٍ، ضمَّت ممثّلين عن المناضلين الَّذين انضووا تحت لوائه، وأَرفق بطلبه شيك التأمين القانونيّ، ولكنّه كان شيكًا بلا رصيدٍ، فاضطرّ أَن يُحيي ما تبقّى من اللَّيل بحثًا عن أَصدقاء يقرضونه قيمة الشيك كي يودعها المصرف في الصّباح الباكر.

وعندما أُعلنتْ نتائجُ الاقتراع، هتف عمدةُ المقاطعة مذهولاً: "**ولكن من أَين يأتي الأَب پيير بكلّ هذه الأَصوات**"؟

لم يكن الأَب پيير ممثّلَ حزبٍ، ولا هو انتُخِب بصفته رجل دينٍ، بل إِنّ معظم الَّذين منحوه أَصواتَهم فعلوا ذلك "رغم كونه كاهنًا". لقد كانت توحّدُ أَتباعَه ومريديه من شتّى الاتّجاهات، المتنابذة أَحيانًا، ثقةٌ بأَنّ لمن يُعانون ويتأَلَّمون، الَّذين هبَّ الأَبُ پيير للذَّوْد عنهم، صبغةً "قدسيّةً"، ونداءً إلى إِنجازٍ إِنسانيٍّ، وإِلى لقاءٍ لا يخدع أَحدًا، ولا يُخيِّب أَملاً.

ويعلّق الأَب پـيير على ذلك بقوله:

"إِنّ تصنيف البشريّة الجوهريّ ليس بين مَنْ يُدْعَوْن مؤمنين، وغير مـؤْمنين، بل بين "من يعبُدون ذواتهم" و"مشاركين". وإِنّ الشطر الأَعظم من غير المـؤمنين، ظاهريًّا، يتألَّف من مجرَّد أُناسٍ لم يجدوا في صـورة الله التـي تعكسُها جماعةُ المؤْمنين، سوى صورةٍ مُشوَّهةٍ... في حين أَنَّ الروح القُدُس، وما أَلمّوا بـه مـن معرفة الإِنجيل كانا يهتفان في أَعماقهم أَنّ خدمة الأَكثر معاناةً هـي الـسَّبيلُ إِلـى اكتشاف وجه الحُبِّ الأَبديّ الحقّ.

"لقد شَهدتُ، أَثناء انخراطي في المقاومة السِّرِّيَّة، رفاقًا يُقال عـنهم غيـر مؤمنين، يكافحون صلَف النازيّين وهمَجيَّتهم، ويرتضون العذابَ، بل المـوت، يـدًا بيدٍ، كي يتحقّق للآخرين العدلُ والحُرِّيَّة. أَوَلَم تكن قِيم العدل والمحبّة، المطلَقَة فـي نظرهم، التي أحبّوها بحيثُ بذَلوا، في سبيلها، حياتَهم، وجهًا من وجوه كيـان الله؟ أَجل، لقد كنتُ موقنًا، أكثَر من أيِّ وقتٍ مضى، أَنّ لقاءَ المؤمنين وغير المـؤمنين، ممكنٌ على صعيد السياسة، فهم، في أَعماقهم، مُتَّحدون".

وقد لحظ الأَبُ پـيير أَنَّ الفرنسيّين، رغم ادِّعاء قسمٍ كبيرٍ منهم مناهضةَ الـدّين ورجاله، كانوا يُحيطونه، في البرلمان وخارجه، بالاحترام والمودَّة، لأَنَّ في أَغوارهم البعيدة حاجةً إلى الإِيمان بأَنّ الحياة ليست دربًا يُفضي إلى جدارٍ مسدودٍ، وأَنّ هنـاك فجرًا سنيًّا يلوح في آفاق الحياة الأُخرى. لقد دمغتْ أَلفا سَنَةٍ مـن بـشارة الإِنجيـل الشعبَ في الصَّميم، بحيث غدا يشعر أَنّه يتيمٌ في معزلٍ عن "رجال الله".

لقد اعترف الأَبُ پـيير أَنّ حصاد نشاطه النّيابيّ كان هزيلاً، لأَنَّ العمل النِّيابيّ يقتضي كفاآتٍ لم يكن يمتلكها، ولا هو سعى إلى تحصيلها، ولأَنّ صَيْحاته كانت تَتُوه في سراديب المناورات الحزبيَّة، وصَغارات الحِسابات السِّياسيّة، ولأَنّ يدًا واحـدةً لا تقوى على التَّصفيق.

وقد علَّمتْه خبرتُه النّيابيَّة أَنّه لأَسهل على الأَشرار أَن يستخدموا سُلطاتهم للإِساءَة ممّا يسهل على ذوي المُثُل أَن يُحققوا الصَّالح العامّ.

ولكن، مهما يكن من أَمرٍ، فقد أَعدَّته مرحلةُ النّيابة للمهمّات الجسام التي ستنسج الباقي من عمره، وأَسبغتْ على تلك المهامّ هالةَ مهابةٍ، وصدى واسعًا، وتأثيرًا بليغًا.

وجديرٌ بالتَّنويه أَنَّ الرُّؤَساءَ الكَنَسيِّينَ لم يتدخَّلوا، قطُّ، في قرارات الأَب پـيير وخياراته السّياسيّة، ولا هم حاولوا التأثير فيها؛ غير أَنَّ الأَب پـيير حَظِـيَ بـدعمٍ معنويٍّ ثمينٍ من البابوات المتعاقبين، ولا سيّما بيوس الثاني عشر، وبولس السادس، وكان أقربهم إليه يوحنّا الثالث والعشرون، الذي، مُذْ كان قاصدًا رسوليًّا في فرنـسا، وثَّق مع الأَب پـيير وشائج صلاتٍ حميمةً، وكان من أَشدّ مشجّعيه في ميدان نشاطه الكهنوتيّ، وشهادته الإِنجيليَّة، وغالبًا ما كان يستدعيه قائلاً: "**أَنتَ جُـذْوتي المتَّقـدة، فتعالَ أَدفئني**".

عمّاوس

عندما انتُخِبَ نائبًا، بادَرَ الأَبُ پـيير إلى الاستقالة من وظيفة المُرشد الرُّوحـيِّ للبحَّارة، درءًا لكلِّ ازدواجيّةٍ أَو التباسٍ؛ ومن ثَمَّ كان عليه إِخلاءُ المقرِّ الَّـذي كـان يشغلُه في بيت البحّارة. لقد أَعاد لله ما هو لله، ولكنَّ قيصر عجَزَ عن توفير مَـسْكَنٍ لأَحد رجاله، فظلَّ الأَبُ مُشرّدًا، ردَحًا من الزّمن، وراحت أَمينـةُ سـرّه، "لوسـي كوتاز"، تنشر إِعلانًا إِثر إِعلانٍ، وتذْرَعُ شوارع باريس وحاراتها بحثًا عن مـأوى، إِلى أَن عثرت على منزلٍ كانت صاحبتُه فخورةً بتأجيره لمن هو، في آنٍ واحدٍ، نائبٌ يعاشر الوزراء، وكاهنٌ له ماضٍ مجيدٌ في المقاومة، وبطلٌ مرموقٌ تُـزيِّن صـدرَه الأَوسمة.

ولكنَّ كلَّ تلك الصفّات ما لبثت أَن بهتَ بريقُها، وفقَدتْ وقعَها على مالكة المنزل أَمام إِغراء دولارات الطُّلاّب الأَميركيّين الَّذين أَخذوا يتدفّقون على مدينـة النـور، والَّذين، في سبيل الظَّفَر بمساكن يستأجرونها، لم يكونوا يُحجمون عن أَداءَ ضُعْفِ ما كان يُؤَدّيه المُواطنون الفرنسيّون من بدَلات إِيجار.

ومَرَّةً أُخرى وَجَد الأَبُ پـيير نفسَه في الشَّارع مثل أُلوف المُشرَّدين، ولكنَّه كان أكثر حُظْوةً من معظم هؤلاء؛ فبصفته كاهنًا ونائبًا ومقاومًا يحملُ أَوْسـمةً رفيعـةً، وبفضل دأَب الآنسة كوتاز، لم يطُلْ أَمَدُ تشرُّده؛ فقد اتَّفق أَنَّ قاضيًا يمتلك بيتًا في حيٍّ راقٍ من أَحياء باريس، انتُدب للعمل في المغرب، وكان يخشى أَن يُـصادَر منزلـهُ الشّاغر أَثناءَ غيابه، كما كان رائجًا آنذاك، وقد وجد في الأَب پـيير ضمانًا من تلك

المُصادَرة، فأجَّره قسمًا من المنزل، واحتفظ لنفسه بغرفةٍ يستخدمها لدى عودته إلى باريس، أثناءَ العُطَل.

وكان الأَب پيير قد احتفظ من هوايات صباه بهواية العمل اليدويّ، فحوَّلَ قِسمًا من حمّام المنزل إلى ورشة نجارةٍ مزدحمةٍ بأَخشاب الصناديق التي كان يصطنع منها رفوفًا يصنِّف عليها كُتُبَه وملفّاته.

وفي الصَّيْف عادت زوجة القاضي لتمضية العطلة في باريس، فصُعِقَتْ لدى مشاهدتها الكاهن النائب، في الحمّام، أَمام أَكْوَام الخشب، بيده مطرقةٌ، والمساميرُ مغروسةٌ بين شفَتَيْه، فاستشاطتْ غيظاً، وصاحت:

– "**ولكن، أَبتِ، هل نسيتَ أَنّك كاهنٌ"؟**

فأجاب بعذوبةٍ تشوبُها السُّخرية:

– « **لا، قطعًا، سيّدتي، بل على النَّقيض من ذلك، إنّني أَذكُرُ دائمًا أَنّني، بصفتي كاهنًا، أَخدم من كان يتعاطى مهنة النجارة: يسوع ابن النجّار يوسف!...** ».

بيْدَ أَنّ ذلك الجواب لم يُفلح في تبديد استنكار زوجة القاضي لسلوكٍ اعتبرته غيرَ لائقٍ بكاهنٍ. ومن جديدٍ قُذِفَ بالأَب پيير وأَمينة سرِّه إلى الشّارع؛ وراحا يسعيان من مكتبٍ عقاريٍّ إلى آخَر فلا يعثران إلاّ على شقق يتجاوز بدل إيجارها مجموع تعويضات الأَب النيابيّة، إلى أَن عثرا على بيتٍ مستقلٍّ فسيح في ضاحية "نويّي پليزانس"، على بعد ١٢ كيلومترًا شرقيّ باريس، يتألّف من طابقين وجناحَيْن صغيرَيْن في الحديقة الرَّحبة التي تربو مساحتها على نصف هكتارٍ، كلّ ذلك لقاءَ بدَل إيجارٍ لا يتعدّى خمسين أَلف فرنك (قديم).

واتّفق للأَب پيير أَن تحادث، آنذاك، مع ثُلَّةٍ من زملائه الكهنة عن مشاكل السَّكن في باريس، وما يقاسيه المواطنون، في هذا المضمار، وأتى، عَرَضاً، على ذكر البيت الَّذي عُرِض عليه في الضَّاحية، فتمنّى أَحدُ الكهَنَة الحاضرين أَن يتمَّ للأَب پيير استئجاره، عسى أَن تُصبح حديقتُه مُتَنفَّساً، في نهايات الأَسابيع، للأُسر الفقيرة التي تعيش في شقَقٍ ضنكةٍ خانقة، في دوائر باريس المتطرِّفة البائسة.

وشحذ هذا التمنّي رغبةَ الأَب پيير في استئجار ذلك البيت، وهرع إلى تفحّصه برفقة أَمينة سرّه، الآنسة كوتاز، التي أَخذت تدوّن ملاحظاتها حوله، وسُرعان ما تبيَّنتْ

سبب الإيجار الزَّهيد المطلوب عن بيتٍ بهذا الاتِّساع: فقد اتَّضحَ، منذُ الوهْلة الأُولى، أَنَّهُ كان للمكان أَيّامُ عزٍّ سالفةٌ، غير أَنّه هُجر منذُ قبل الحرب، وتعرّض للنَّهب، وامتدَّت إليه أَيدي الدَّمار؛ وقد سجَّلت الآنسة كوتاز في دفترها: سقفٌ منهارٌ، نوافذُ بلا زجاجٍ، أَجهزةُ تدفئةٍ فجّرها الصَّقيع، ميازيب مُثقَّبةٌ، أَرضيَّةٌ خشبيّةٌ نَخِرةٌ، مراحيضُ مُقَزّزة، وأَدراجٌ متهدِّمةٌ، استُعيض عنها بسلالم متنقّلةٍ. ولكن في حين هي كانت تتفحّص المنزل بعينَيْ الإِداريّة الماليّة، كان الأَب پيير يتخيّل ما سيُمسي عليه بعد أَن تُبعَث فيه الحياة. وقد تجوّل فيه مُثَنّى وثلاثًا، والحُلْمُ يزداد ازدهاءً في قلبه وخياله؛ وفي الحديقة التي اقتحمتْها الأَشواكُ، وسدَّت مسالكها، ملأَ رئَتَيْه بالنَّسيم العليل المُعَطّر بشذى الأَزهار البرّيّة، وتناول من فوق العُشْب تُفَّاحةً فوّاحةَ الرائحة سقطت تلقائيًّا بعد أَن اكتملتْ نضوجًا ونكهةً وعذوبةً، وعضَّها بشهيّةٍ ومتعةٍ، وأَعلن للآنسة كوتاز:

– "**إِنّه لمن الحماقة تَرْكُ مثل هذا البيت ضحيّةً للدَّمار والانهيار، أكثر من ذلك**".

فردّت وهي تخشى، في كلّ لحظةٍ، أَن يبرز لها من بين الأَشواك حيوانٌ مفترسٌ:

– « **ولكن أَلا ترى أَنّه غابةٌ أكثر منه بيتًا!**"

– "**ولكنّني واثقٌ أَنّ الوسيلة المُثلى لإِراحة الذِّهْن من عناء جلسات البرلمان وتُرَّهاتها تتمثَّل في عملٍ يدويٍّ يجعل المرء يتَصبَّبُ عَرَقًا** ».

وفي الحال وقَّع الأَبُ پيير عقدَ إِيجار البيت الخَرِب حيثُ "خيّم" مساءَ ذلك اليوم عينه. وفي الغداة شرَع يُزوِّده بالأَساسيّ من الأَثاث الرَّخيص من حوانيت المُخَلَّفات المستعملة. ومنذ ذلك اليوم، بات الجيران يدهشون لمنْظرٍ لا يُصدّقونه: منظر كاهنٍ نائبٍ توشي صدرَه كوكبةٌ من الأوسمة، وتلوح جُبَّتُه في الهواء، فوق سطحٍ مُنهارٍ، تارةً يُمسك مكنسةً يُنظِّفُه بها من الأَقذار المتراكمة، وطورًا يُعمل فيه مطرقةً أو ملْيَسةً كي يُصلحه ويؤَهّله لإِيواء سكّانه الجدُد الَّذين كان يتوقّعهم كُثُرًا؛ فقد صرَّح لأَمينة سرّه: "حسبُنا، نحن غرفتان، أَمّا الباقي... فانظري إِلى الباب المُشرَع، إِنّه باب الله تعالى".

وبعد أَن أَصلح السَّقفَ، حرَّر الحديقة من أَشواكها كي يعبث فيها الأَطفال في

منأًى عن أَيّ خطرٍ أو ضررَ؛ ثمّ جهَّز في القبو مطبخًا ومائــدةً، وبفــضل حــواجز خشبيَّةٍ، قسّم الطابق الثاني إلى ستّ غرفٍ صغيرةٍ لاستقبال ضيوف نهايات الأَسابيع.

أَحد الجناحَيْن القائمَيْن في الحديقة كانت قد احتلَّته أُسرةٌ شابّةٌ، كانت تخــشى أَن يستخدم النائبُ نفوذَه لطردها، ولكنَّه أَكّد لها أَنّها ستبقى على الرَّحب والــسَّعة. وقــد أَفرغ الأَب غُرفتَي الجناح الآخر ممّا كانتا تزدحمان به من مُخلَّفاتٍ، وحوّل إِحداهما إلى قاعة اجتماعاتٍ، والأُخرى إلى مُصلّى كان يقيم فيه القُدّاس كلّ يومٍ، فوق منضدةٍ عتيقةٍ، ويشترك فيه من يرغب من الجيران والزّائرين.

وتنازل الأَب پــيير عن الطَّابق السُّفليّ من البناء لزميلٍ له، عضوٍ في مجلــس الشيوخ، كان، منذ سنتَيْن، يبحث عَبَثًا عن مسكنٍ يستطيعُ أَن يلمَّ فيه شملَ أُسرته، وقد تبرّع ذلك الزميلُ بإِصلاح جهاز تدفئة البناء بأكمله، مُسديًا بذلك خدمةً جُلّى.

وسُرعان ما دبّت الحياةُ في تلك الأَطلال المُنْبعثة، إذ شرعت ترتاد المكان، كلَّ يوم سبتٍ، أُسَرٌ فقيرةٌ من باريس تقضي فيه عطلة نهاية الأسبوع في مَرَحٍ وضــحِكٍ وغناءٍ. وطفق يغشى المكانَ أَيضاً شُبّانٌ يبحثون عن هواءٍ نقيٍّ لرئاتهم وأَرواحهــم، ومُثلاً نظيفةً، ومُبرراتٍ للعيش تجعله جديرًا بالتضحية والنضال؛ وينضمُّ إليهم، فــي العطل الكُبرى، شبّانٌ من كلّ أَرجاء العالم، كانت قد سحرتهم أَحاديثُ الأَب پــــيير بصفته مُمثِّلاً للاتِّحاد العالميّ، عن الإِخاء البشريّ، والكفاح في سبيل الأكثر معانــاةً. وهكذا غدت حديقة المنزل تزدحم، باطِّرادٍ، بعشرات الشُّبَّان من كُلِّ لــونٍ ولــسانٍ، يُخَيِّمون فوق أَعشابها، أَو يتراصّون في الغُرَف المفصولة بحواجز خشبيّةٍ، حيثُ كان الأَب پــيير يجهد في حشر ما استطاع من الأَسرَّة العتيقة التي قد يبلغ عددها ســبعةً في الغرفة الواحدة، وهو، في هذا السبيل، حصل على ترخيصٍ من السُّلطات البلديّــة باستضافة هَؤُلاءِ الشبّان، وبتحويل المكان إلى "اتّحادٍ للقاآت الثقافيّــة"، كمــا ظفــر بموافقة السُّلطات الكنسيَّة على إِدراج "نزله" في قائمة "الاتّحــاد الفرنــسيّ لأَنــزال الشباب". وقد سجَّل ذلك النزلُ نتائج مُدهشةً، إِذ استضاف عام ١٩٤٨ خمــسة آلاف نزيلٍ، وفي السَّنة التالية سبعة آلافٍ؛ وكان الأَب پــيير هو حلقة اتّصال "مهندســي إِخاء" المستقبل أُولئك، الَّذين كان تفكيرهُ فيهم وفي أَحاديثهم وتطلّعــاتهم وانــدفاعهم غالبًا ما يُزيحُ عن صدره السأَم من نقيق البرلمانيّين ومناوراتهم وصغاراتهم.

ذاك المكان الذي باتَ محجًّا وقبلةً لطالبي الرَّجاء في مُستقبلٍ مُشرقٍ، كان لا بدّ من إطلاق اسمٍ عليه، وكان تعلّق الأَب پيير بالفرنسيسكانيّة الّتي اعتبر نفسه، أبدًا، أَحدَ أَبنائها، قد زيَّنَ له، بادئ الأَمر، اسم "نزل القدّيس فرنسيس الأَسّيزي"، ولكنّه سُرعان ما آثر اسمًا آخر مستوحى من ذلك "النّزل"، في ضواحي أورشليم، حيثُ تلميذان حطّمتهما خيبةُ الأَمل ومرارتُها، "اقتسما" الخبز مع غريبٍ، فتكشَّف لهما الإلهُ الحيّ، وانبعثت في نفسيهما الحياة من جديدٍ؛ ومن ثَمَّ أَطلق على نزله اسم "عمّاوس"، فهو، أَيضاً، في ضاحية العاصمة، ومُعدٌّ ليكون موئلاً للاقتسام والمشاركة واكتشاف اللهِ الحقِّ الحيّ، والرَّجاءِ، بفضل التحرُّر من مرارة الأَوْهام وخيْبات الأَمل؛ وفي الحال، رسَم الأَب بفرشاةٍ، على لوحةٍ خشبيّةٍ، اسم "عمّاوس" بأحرفٍ كبيرةٍ، وأَثبتها على بوّابة المنزل؛ قد أَلِفَ أَن يروي لرفاقه تلك الواقعة من الإنجيل التي طالما غذّت تأَمُّلاته فيقول: "**كان يسوع قد صُلب لتوّه، باعثًا في نفوس تلاميذه خيبةً مريرةً. كانوا يأملون أَن يُحرِّرَ شعبَه من النّير الرّومانيّ، ويتبوّأ زعامةً لا تُقاوَم، فإذا به يستسلم لزمرةٍ من الحاقدين، بلا مقاومةٍ، ويُسام الهوان والعذاب، ويُثبَّت على خشبة العار كاللُّصوص. كان، في حياته، يبعث الموتى، ويأمر البحر فيُطيعه، ويُخضع لسُلطانه الكونَ كلّه، ولكنّه لم يفعل شيئًا ليُحرِّر نفسه من الصَّليب. وقد ماتَ ودُفن، وكأَنَّ كُلَّ خوارقه سَرابٌ وخِداعٌ. وخاب فيه ظنّ تلاميذه، فلم يبقَ لَهم سوى الهَرَب والتَّواري والخزي. وفيما كان اثنان منهم فارّيْن من أُورشليم، يسيران مُثْقلَين بالهواجس والمرارة، يقلّبان في خَلَدَيْهما التناقضات التي عجزا عن فهمها، والَّتي كانا لها شُهودًا، إذْ أَعقبَ ذلَّ الصَّلب مجدَ الدُّخول الظَّافر إلى أورشليم، لأَيَّامٍ قليلةٍ سبَقَتْ، انضمَّ إليهما غريبٌ، واستوضح عمّا يُقلقُهما ويُحزنهما، فعجبا من جهله لما حَدَث، وراحا يُلخِّصان له مأساتهما. فطَفِق يحدِّثهُما برقّةٍ، ويكشف لهما خفايا غابت عنهما؛ وخلَبهما حديثُه فالتمسا منه مشاركتهما الطَّعام في نزلٍ بقرية عمّاوس الَّتي كانوا قد انتهوا إليها؛ فأخذَ الخبزَ، وكسره، مثلما فعل أَثناءَ عشائه الأخير مع تلاميذه، وفي الحال انقشعت عنهما الغمامة، وأَدركا أَنّه هو المعلّم، وفَقِها سببَ تلك النار التي شبّتها كلماته في نفسَيْهما، فهتفا: "سيّدي"؛ ولكنّه كان قد اختفى. اختفى عن ناظرَيْهما، ولكنَّه استقرّ في قلبَيْهما إلى الأَبد؛ وهما، بعد**

اليوم، لن يهربا، ولن يخافا، فقد أَيقنا أَنّه حيٌّ وأَنّه معهما، ولن يترك أَبدًا أَصدقاءَه؛ وهرعا عائدَيْن إلى أورشليم ليشاركا إِخوتهما ذلك اليقين، وذلك الفرح، ويبلّغا النبأ المدهش: "إِنّه حيٌّ، وعلينا أَن ننشر الحبَّ والفرَحَ" لقد اضمحلَّ القنوطُ، وحلَّ محلَّه الاندفاع والأَمل".

إِنّ حادثة عمّاوس هي من الأَحداث التي انحفرت معانيها عميقًا في نفس الأَب پيير، الَّذي كان، لسنواتٍ خلت، قد أَطلق اسم "عمّاوس" على حركةٍ لشابّاتٍ من الكشّاف، ووضع لهنَّ هذه الصَّلاة، التي كُنَّ يختتمنَ بها كلّ اجتماعٍ يضمُّهنّ:

« أَيُّها الربُّ يسوع، اُذكرْ ذلك النُّزُل الصَّغيرَ، هناك في عمَّاوُس،
"والدَّربَ المُفضي إليه، متفرّعًا مِن الطَّريق العريض،
"واذكر ذيْنكَ اللَّذَيْن بادرتهما هناك،
"وقلبَيْهما المنكَسرَيْن،
"والكلمات التي بها أَضرمتَهما،
"اُذكر النار في الموقد الذي جلستَ معهما إلى جانبه،
"حيث نهضا، وقد تحوّلا جذريًّا، ومضيا ليُنْجزا بُطولات الحُبِّ
"اُنظرْ إلينا، فنحن جميعنا، حجّاج عمّاوس،
"جميعنا نكدُّ في عَتْمة المساء،
"وقد هَدَّنا النَّصَبُ في أعقاب نهارٍ عصيب.
"نحن، أَيضاً، جميعنا، قلوبٌ ترتعد جُبْنًا،
"فهيّا إلى دربنا،
"وأَضرمْ قلوبنا، نحن أَيضاً.
"اُدخل معنا، واجلس إلى جانب نارنا،
"فنتهلَّل بالفرَح المُنتَصِر،
"وننهض، نحن أَيضاً
"ونَطْفر طَفْرًا، مُعلنين الفرَح،
"لكلِّ إِنسانٍ في العالم،
"الفرَحَ في الحبّ، إلى الأَبد، وحتّى رَمَقنا الأَخير ».

"عمّاوس"، إذن، كانت تعني للأب پـيير مكان اللِّقاءِ مع الأَزليّ، والتحرُّر من الأَوهام وخَيْبات الأَمل، وفرحة الانبعاث على أَرضٍ صلبةٍ؛ المكان الَّذي يتحرَّر فيه الشبّان من اليأْس الَّذي خلَّفته في نفوسهم الحربُ ومواكبُ فظاعاتها، وينعتق فيه ضحايا المجتمع من المهانة والمرارة والنِّقمة، ويتطلّعون، برجاءٍ، إلى فجرٍ مُشرق.

ولكن، مع كلّ ما كانت "عمّاوس" تُمثِّلُ من معانٍ، ورُموزٍ صوفيّةٍ للأَب پـيير، ومع كلّ ما كانت تحتلُّ من مكانةٍ في ذهنه وقلبه، فهل هو كان يتوقَّع، وهو يُثبت لوحةً خشبيّةً تحمل اسم "عمّاوس" على بوّابة منزله في "نويّي پـليزانس" إلى أيّ مدى سيُصبح ذلك المنزلُ مَصْدَرَ انبعاثٍ ورجاءٍ، وتحرُّرٍ من القُنوط، مثلما كان، ذات مساءٍ، ذلك النزلُ المتواضعُ في قرية "عمّاوس"، القريبةِ من أُورشليم؟

الرفيق الأَول: جورج

كان الأَبُ عائدًا لتَوِّه من مُؤْتمرٍ للاتِّحاد العالَميّ منعقدٍ في ستوكهولم، عندما وافاه شابٌّ لاهثًا، مُضطربًا، وقال:

– "أَبتِ، ينبغي أَن تأتي في الحال، فثمّةَ رجلٌ حاول الانتحار، ولكنّه لم يمُتْ بعد، وينبغي إنقاذُه".

واندفع الأَبُ في إثْر الفتى. كان الرَّجُل، واسمه جورج، في الأَربعين من العمر، ولكن بدا عليه أنّه تجاوز السِّتّين من جرّاء عُمْق يأسه، وشدَّة قَسْوة الحياة عليه، بحيثُ حطَّمتْه. وبين يدي الكاهن، فجّر المسكينُ السُّدودَ أمام ذكرياته الكمينة الأَليمة، فتدفّق سيلُها العارم، بكلّ مرارةِ لُججِه المُتدفّقة.

كان، وهو فتًى، يُحبّ أُمَّه حتّى العبادة، ولكنّ أَباه كان سكّيرًا، ماجنًا، يُطارد الغانيات، ويُعاشر المومسات، ويوسع تلك الأُمَّ كلَّ يومٍ ضربًا ومهانةً؛ وكان الفتى يَشْهَدُ أُمَّه تفتح بين فَيْنةٍ وفينةٍ، درجًا تُداعب فيه مُسدَّساً، وتُتمتم، وهي ساهمةُ النَّظر، شاردةُ الذِّهن، قائلةً: "سأَنتقم يومًا". غير أَنّ مهمّة الانتقام آلت إليه، هو، ابنها.

في الثَّامنةَ عشرة عقد جورج خطبتَه على فتاةٍ كان شديد الهيام بها، ولكنّها هجرتْه، بغتةً، من غير أَن تعطي لهجرها أَيّ تفسيرٍ. فدفعه غيظهُ إلى الزواج من فتاةٍ أُخرى لم يكن يربطه بها أَيّ حبٍّ. ثمَّ أَخذت تنهال عليه رسائل مُغْفَلَةٌ تروي

أُمورًا مريعةً عن سلوك والده الَّذي ربَّما سبَّب هجر خطيبته له، وعن امـرأةٍ سـيّئة السُّمعة اتّخذها والدُه عشيقةً؛ وذات يَوْمٍ رأى تلك المرأةَ عينها في المنـزل الوالـديّ تَعبثُ في تَحدٍّ وقِحٍ، فأعمى الغيظُ بصيرتَه، وزمجرتْ في نفسه كلُّ رَغبات الانتقـام لوالدته ولخطيبته، وتناوَل مُسدّس أُمّه، وصَوَّبَهُ نحو المرأة الدخيلة، ولكنَّ والده هرع فغطّاها بجسمه حيثُ انغرست الرَّصاصةُ فيه فأردتْه قتيلاً.

وحُكِم على جورج بالأعمال الشاقَّة المؤبَّدة. غير أنّه أَبدى في السِّجْن سُـلوكًا لائقًا؛ وعندما شَبَّ، ثمَّةَ، حريقٌ، خاطر بنفسه لإِنقاذ أَحد رفاقه، فنَعِم بعفوٍ، وأُطلِـقَ سراحُه، بعد عشرين سنة سجن.

وسُرعان ما اتَّضَح لَه أَنّ حياة السِّجن كانت أَرفقَ به من حُرِّيّةٍ ظالمـةٍ. ففـي منزله، وجد زوجتَه تعيش مع رجُلٍ آخر أَنجبت منه، سفاحًا، ابنةً أَطلقت عليها كنيته هو؛ وكان أَملُه الأسمى الذي أنار سني سجنه، رؤية ابنته التي تركها رضـيعًا يـوم سجن، والَّتي ما انفكّت تواصله برسائلَ تتدفَّقُ شوقًا ومحبّةً؛ وكانت، هي أَيضاً، تحلم برؤْية الأَب المثاليّ المظلوم، ولكنّها صُدِمتْ برؤية حُطام إِنسانٍ دمَّرته الحيـاة قبـلَ الأَوان، وخلّف فيه السُّكرُ واليأس والأَشغال الشاقَّة آثار شيخوخةٍ مبكّـرةٍ، ومنظـرًا مُنَفِّراً، ففرَّتْ منه، وأَبتْ حتّى تحيّته؛ وإذ بالدُّنيا كلّها تنهار فجأَةً أَمامه، وإذ به يفقـد، دفعةً واحدةً، البيتَ والزَّوجة والولد والمال والمستقبل، ولا يبقـى لـه شـيءٌ علـى الإِطلاق سوى الموت، فهو الحلُّ الأَرحم.

كان فيضُ الدُّموع يُبلِّلُ رواية بؤْسه، والأَبُ پـيير يداعب وجهَه، ولكنَّه لا يجدُ السَّبيل إلى عباراتٍ كفيلةٍ بمواساة كلِّ ذلك البُؤْس السَّحيق. وبعـد لحظـات حَيْـرةٍ وصمت، أَلهمه الرُوحُ هذه الكلمات:

– « إِنّك بائسٌ، يا جورج، وأَنا لستُ أَملك ما أُعطيك؛ فقد تخلّيتُ، طَوْعًا، عن حصّتي من ثروة أسرتي، واليوم، أَنا لستُ فقيرًا بفضل تعويضاتي النّيابيّة، ولكنّني أُنفِقُها قبل أَن أَقبضها، وأَنا مُثْقَلٌ بالديون؛ فعليّ إصلاح المنزل الَّـذي اسـتأجرتُه، وتلبيةُ مُتَطلَّبات المحتاجين الكُثُر الَّذين يعتمدون عليّ؛ إِنّني أقيم غيرَ بعيدٍ عن هنا، ولكنّني نهبٌ بين مهامّي البرلمانيّة، ودائرتي الانتخابيَّة في "اللـورين"، ومعالجـة قضايا المحتاجين. إِنّني أَسعى، ليلَ نهار، وأَعجز عن الاضطلاع بكلّ ما هو مطلوبٌ

منّي. ولكنّك، أَنتَ، حرٌّ، ولا شيء يربطك، بدليل إِقدامك على الانتحار، فهلاّ فكَّرتَ بمدّ يد العون لي، علّنا، بتعاوننا، نفلح في تقديم المزيد من المساعدة لمن يفتقرون إِليها، واختصار المهلة اللاّزمة لإِيواء الأمّهات المنتحبات لأَنَّ أَزواجهنّ مُدمنون على السُّكر، وأَطفالهنّ مرضى، ولأَنهنّ يعشنَ في أَقبيةٍ موبوءة، حيثُ يتكدَّس معًا أكثرُ من أَربع أُسَرٍ في قبوٍ واحدٍ أَحيانًا. بتعاوننا قد نفلح في إِنقاذِ أكبر عددٍ ممكنٍ من الجحيم. تعالَ معي، وسنُحقّق إِنجازاتٍ رائعة... ».

تلك العباراتُ المُلهَمَة التي يتردَّدُ فيها صدى قول يسوع للسَّامريّة التي أراد إِنقاذها: "أعطيني ماءً لأَشرب"، وقوله لتلاميذه الأَوّلين "تعالوا لأجعل منكم صيَّادي بَشرٍ"، تدفَّقتْ تلقائيًّا من قلب الأَب پيير، وكانت فتْحًا في عالَم المساعدة الَّتي لم تعُدْ إِحسانًا يُلقى على أُناسٍ يظلّون يعانون من الشُّعور المُرْهِق بأَنّهم عالةٌ على الآخرين، ولا فائدةَ تُرجى منهم؛ وقد أَشرق وجهُ جورج لدى سماعها، إِذْ أَدرك أَنّه قد يُصبح ذا فائدةٍ للآخرين، وذا نفعٍ في المجتمع، وبذلك يُصبحُ لوُجوده ما يُبرِّره.

لم يقُل الأَبُ پيير لجورج البائس: "أَنتَ تعيسٌ ومحتاجٌ، فخذْ ما هو متيسِّرٌ لديَّ..." غير أَنّه بقوله: "لستُ أَملك ما أُعطيك، ولكنّك، أَنت، بوسعك أَن تساعدني، وهكذا سنستطيع كلانا أَن نَهَبَ الآخرين الكثيرَ"، أَشرع أَمامَه فرصةً ثمينةً كي يُصبح، هو المحتاج، السَّائل، القاتل، خرّيج السُّجون، مُحسنًا يُساعد الآخرين، ويأمل، ذات يومٍ، وهو سائرٌ في الطريق، أَن تحدجه أُمٌّ بنظرةِ امتنانٍ، وتهتف من أعماقها: "شُكرًا". ومنذ تلك اللَّحظة، نَبَذَ فكرةَ الموْت، وأَراد الحياة، وعندما غادر الدُّنيا، بعد نحو خمسةَ عشر عامًا، أكَّد للأَب پيير، وهو يحتضر: "**مهما كنتَ أَعطيتَني، آنذاك، لكانت راودتني، من جديدٍ، الرغبةُ في الانتحار. فما كنتُ أَفتقر إليه، في الواقع، لم يكن ما يُقيم أَوَدي، بل مُبَرِّرٌ للوجود، وهذا ما وفّرتَه أَنتَ لي...**".

وهكذا نشأَت جماعة "عمّاوس" الأُولى من لقاء كاهنٍ جعلتْه صُدَفُ الحرب نائبًا، وقاتلٍ بائسٍ أَخفق في محاولته الانتحار.

كانت الآنسة كوتاز قد أَلِفت، لدى الأَب پيير، أَنماطاً من السُّلوك غريبةً، قد توغل أَحيانًا في الغرابة حتّى الجنون؛ ولكنّها لم تتقبَّل بيُسرٍ أَن تقيم، تحت سقفٍ

واحدٍ، مع مُجْرِمٍ، خرِّيج مُعتَقَل، فاستأجرت له مأوى على مقربةٍ من "عمّاوس". بيد أنّ الأَب پيير، استغل فُرصةَ غيابها، في زيارةٍ لأُختها المريضة، فجاءَ به إلى "عمّاوس" حيثُ أَعدّ له غرفةً خاصّةً، وجعل منه رفيقَ نضال، وخادمًا لقُدَّاسه اليوميّ، خادمًا لم يكن دائمًا أَمينًا، ولا يتحرّج أَحيانًا من شرب النَّبيذ المُعَدّ للذَّبيحة، وملْء كأس التَّقديس بالماء القُراح!

وشاعت الأَقاويل في "نويّي پليزانس" وفي جوارها، عن ذلك الثُّنائيّ الغريب، ثُنائيّ الكاهن والمجرم، الذي كثيرًا ما شبّهه بعضهم بثنائيّ الأُسقف "ميريل" والمجرم "جان ڤالجان" في رواية "البؤساء" لـڤيكتور هوغو؛ وكانت تلك فرصةً لبعضهم كي يتخلَّصوا من المُتسوِّلين، فإذا ما سأَلهم أَحدُهم شيئًا قالوا: "هناك، في الجوار، كاهنٌ يحسن وِفادةَ أَمثالك، وستجد لديه زميلاً لك، مُجرمًا سابقًا، اسمه جورج".

وكثُر عددُ الَّذين باتوا يطرقون باب الأَب پيير، ويدخلون، ويظفرون بالطَّعام والمأوى، وفي الغد يرحلون؛ ولكنّ بعضهم كانوا يؤثرون المكوث، لأَنّهم، في حين كانوا يظنّون أَنفسهم نافلين، لا فائدة تُرجى منهم، استوقفهم واستبقاهم قول الأَب پيير لكلٍّ منهم: "**ليس لديّ ما أُعطيك سوى صداقتي، ودعوتي إلى مشاركتي جهودي كي ننقذ، معًا، آخَرين**".

وهكذا تجلّت "عمّاوس" منذُ تأسيسها واحةً إِنسانيّةً فذّةً، تتميَّز عن كُلِّ ما سواها من ملاجئ ومستوصفاتٍ ومؤسَّساتٍ خيريَّة؛ فهي، أكثر من المساعدة المادّيَّة، تَنفَخُ الجريح، اليائسَ، البائسَ، أَسبابَ الكرامة، ومبرّرًا للعيش يتمثّل في مساعدة الآخرين على الانعتاق من يأسهم. فيها يصبح البائسون جماعةَ عُمّالٍ أَحرارٍ مُتساوين، يتقاسمون مشاقَّهم، وكَدْحهم، ورجاءَهم، وحياتَهم؛ معًا يخلصون، ومعًا يكافحون لإِنقاذ آخَرين ما زالوا يُعانون مثلَ ما هم عانوا.

هنا لا يُسأَل أَحدٌ عن ماضيه الَّذي قد يكون مُخْزِيًا وموجعًا إِلى أَقصى دَرَكات الخِزْي والوجع، فالحاضر، وحدَه، ذو بال، وفيه يَنبغي نفثُ العزاء والأَمَل والعزيمة. هنا يتلاشى لدى المنبوذ الشُّعورُ بأَنّه نافلٌ وعديمُ الفائدة، إِذ ما من شيءٍ يُتيح لإِنسانٍ منهارٍ أَن يَهبَّ ناهضاً، مثلُ اليقين بأَنَّه ذو جدوى، وبأَنّ هناك من يحتاج إِليه.

لا أَحدَ هنا مدينٌ لسواه بشيءٍ، ولا أَحدَ يتقاضى أَجرًا عن خدمةٍ. وهنا جميعُ

الفروق العرقيَّة والدّينيّة، والخلافات السِّياسيّة والإيديولوجيّة تزولُ بمُجرَّد الانــضمام إلى الجماعة.

هنا لا تُدرس احتياجات الآخرين من خلال أوراقٍ وخرائط وتقارير، في ملفّاتٍ منضّدةٍ على مكاتب نظيفةٍ، بل تُقرأ في دموع الحداد والخِــزْي والثَّــورة واليــأس، وتعالَج بالحُبّ الصَّادق، والعطاء التِّلقائيّ.

الخطوةُ الأُولى هي فتحُ الذّراعَيْن والقلب والبَيْت، هي الاستقبال، ويليها الــسَّعيُ إلى سدّ الحاجات، ومعالجة المُشكلات، والحلُّ يأتي، أَبدًا، إلهيًّا أَوْ بشريًّا.

هنا، مثل ما كان يحدو القدّيس منصور دي پــول من جرأةٍ، واندفاعٍ، وعُنْــفٍ مُقَدَّسٍ. فوحدَهم من يضطرم فيهم إيمانٌ كبيرٌ قادرون على الغَوْص في بشاعة الواقع، من غير أَن يفقدوا جأشهم، واضعين ثقتَهم في عَوْنٍ فائق الطَّبيعة، منــه يــستمدّون مواردَ قُوَّةٍ، وفَرَحٍ، وحياةٍ، وطاقةٍ على اقتسام بُؤس الآخــرين، تمهيــدًا لمكافحتــه واجتثاثه.

"الروّاد"

يومًا فيومًا، كَانَتْ تَتَّسعُ حَلَقَةُ اليائسين الَّذين وجدوا في "عمّاوس" مرسىً، وموئلَ رجاءٍ، فاستقرّوا فيها.

فبعدَ جورج، جاء محامٍ برجلٍ يُدعى "جول"، وهو محــاربٌ قــديمٌ فــي الهنــد الصينيّة، فقد أَموالاً طائلةً، وتحطّم مستقبله، ومعه أُسرتُه، فتشرَّد وسُجن خمسةَ عشر يومًا بجنِحة التَّشرُّد؛ وقد أَوضح المحامي أَنّه ما لم يجد "جول" مكانًــا يــأوي فيــه، وأَصدقاءَ يستقبلونه، فلن يلبث أَن يعود إلى السِّجْن، إذ لا خيارَ له غير التشرُّد. وبعد أَن فتح له الأَب پــيير بيتَه وذراعيَه وقلبه، أَسرّ له: "**لو أَنني عرفتُك قبل الآن، أَبتِ، لما انتهيتُ إلى ما انتهيتُ إليه، ولتجنَّبتُ دمارَ أسرتي**".

ثُمّ وافى الفتى "شارلو" الَّذي كان قد سرَق درّاجةً ناريّةً، وأُودع إصــلاحيَّةً فــرّ منها، وفَزِع إلى "عمّاوس"، فاتَّصلَ الأَب پــيير بالقاضي المسؤول عن ملَفّه، مُؤَكّــدًا أَنَّه يأخذُه على عاتقه.

ثمّ جاء "ريني"، وهو أَيضاً من أَبطال حرب الهند الصينيّة، وقد خرج منها مُثقلاً

بالأَوسمة، ولكن فقيرًا فقرَ أَيّوب في أَوْج محنته، إِذ قيل له، عندما سُرِّح من الخدمة:

– "أَنتَ لستَ جريحًا ولا مريضاً، فتدبَّر أَمرك".

وعندما أَعيَتْه الحيلةُ، اتَّخذ من إِحدى ضفاف نهر السّين، في باريس، مرقدًا. وهناك أَرشده أَحد المتسوِّلين إِلى مكانٍ يُدعى "عمّاوس"، فيه كاهنٌ يستقبل المُشرَّدين.

لم يكن "ريني" قد مارس، في حياته، سوى الحرب والتَّدمير، ولم يكن يُؤمن إِلاّ بالقوّة، ولكنَّ الأَبَ بيير أَوضح له برفقٍ: "**القوّة، أَجل، ولكن لا للسَّيطرة والقَتْل، بل لحماية العَدْل والحقيقة، والدّفاع عنهما، خدمةً للجميع**". وسُرعان ما أَدرك ذلك المحاربُ أَنّه لو عمل الجميع بهذه الكلمات البسيطة السَّاطعة، لتلاشى الكثيرُ من بُؤْس العالَم، وقد صرّح في ما بعد: "**في السّابق، لم أَتعلّم سوى شيءٍ واحد: القتل، ففي الهند الصينيّة، كان علينا أَن نَقتُل أَو نُقتَل. أَمّا هنا فالأَمرُ على نقيض ذلك، فإِنّنا نقتُل ذواتِنا حُبًّا بالآخرين... وقد شرعتُ أَقول لنفسي إِنّني، أَنا أَيضاً، قادرٌ على الحبّ**".

وجاءَ، أَيضاً، رجلٌ هنغاريٌّ كان قد فرّ من بلاده قاصدًا باريس، حاملاً حقيبةً أَودعها كلّ ما يملك؛ ولكنّه سقط من قطار كان مُتَّكئًا على أَحد أَبوابه، وهو غير مُحكم الإِغلاق. فانكسرتْ ساقُه، وسُرِقَ مالُه، ووَجَدَ في "عمّاوس" ملجأً، حيثُ عمل ميكانيكيًّا وبُستانيًّا معًا.

أَمّا الملقّب "قنغر"، الَّذي تجاوز العقد الرّابع، فقد كان ملاكمًا، وقد علَّمتْه ممارسةُ الملاكمة استخدامَ يدَيْه أكثر من استخدام عقله، وباتت أَيّةُ كلمةٍ لا تروق له تستفزُّه للعراك، فكان له مع السِّجن لقاآتٌ متكرّرةٌ، ومع رجال الأَمن صداماتٌ أَليمةٌ؛ وفي "عمّاوس" كان يتولّى المهامّ الشاقّة؛ وكان كلّما هوى بفأسه على حطبةٍ ليكسرها، وجَّهَ إِهداءَ شتيمةٍ: فهذه لرجال الأَمن في الدائرة الخامسةَ عشرة، وهذه لحرَّاس السِّجن في... وهذه لرجال الشرطة. وقد لحظ، ذاتَ يومٍ، أَنَّ زميلاً كان يساعد في أَعمال بناء "عمّاوس"، كان يتجهَّم كلّما سمع مثل هذه الإِهداآت؛ وعندما استفسر الآنسة كوتاز عن السَّبب، أَعلمتْه أَنّ ذلك الزَّميلَ شُرطيٌّ يتبرَّع ببعض ساعات راحته وفراغه للمساعدة، وأَنه لمن الأَجدر بالقنغر أَلاّ يُذيع على الملأ إِهداآته اللاّذعة...

وكان هناك، أَيضاً، "روجيه" المبتلى بالإِدمان على الكحول، والملقّب "بعوضة"، و "قيصر" الملقّب "الساق الصوفيّة"، بسبب ساقه التي فقدها في الحرب ضدّ البولشـفيك، حيثُ كان متطوّعًا.

وإِلى جانب هؤُلاء كان شابّان من شمالي أَفريقيا، داكنا اللَّون، تنطق عيونهُما السَّوداء بيأسٍ وقورٍ، وبقدرةٍ مدهشةٍ على الصَّبر، واحتمالِ الحرْمان، وعرفان الجميل؛ وكانت إحدى مهمّاتهما مساعدة الرِّفاق الذين يعودون ليلاً متأَخِّرين، وقد تَعْتَعهم السُّكرُ، على الاستلقاء فوقَ أَسرَّتهم، من غير ضجيجٍ يُقلق راحةَ الرّفاق النائمين.

أَنماطٌ متعدّدةٌ من البُؤْس تجمَّعتْ في "عمّاوس"، ممثِّلةً شتّى ضروب الشَّقاء البَشَريّ، وتحلّقت حولَ الأَب پيير لتساعده على "خدمة الأَكثر تأَلُّمًا في المقام الأَوّل". كلُّهم لامسوا قعرَ الهاوية، إلاّ أَنَّهم بمؤازرة الأَب پيير كانوا يجهدون في النُّهوض والانبعاث من الأَعماق. كثيرًا ما كانوا يتعثّرون، ولكنّهم يتشبَّثون بالأَمل، ويلتمسون، في الخدمة، مُبرّرًا لحياةٍ جديدةٍ.

وبالإِضافة إِلى هؤُلاء، كان باب "عمّاوس" يُشرع، كلَّ ليلةٍ على وجوهٍ جديدةٍ من البؤس؛ وفي كلِّ مُحيّا ينبعثُ من العتمة، وتنطق ملامحه بكلِّ ما تراكمَ فيها من مِحَنٍ سحيقةٍ، كان الأَبُ پيير يستشفّ وجوهَ أُولئك البائسين الَّذين شَهِدَ والدَه، يومًا، يعكف على تنظيفهم وإِطعامهم والعناية بهم. كان يستقبلهم بعَطفٍ، ويوفّر لهم المأْوى والطَّعامَ والدفء. بعضُهم كانوا يمكثون ليلةً، وبعضُهم بضعَ ليالٍ، ويحاول الأَب استبقاءَهم، فيأبون، إِذ قد استقرَّ في أَعماقهم اليقينُ بأَنَّ الشَّقاءَ والتشرُّد هما قَدَرهم المحتوم، فيؤثرون الارتحال إلى حيثُ تدفعهم رياحُ ذلك القَدَر، مخلِّفين في حلق الأَب پيير غُصَصاً مريرةً.

أَمّا الَّذين قرّروا البقاء، فكانوا يَدْعُون عمّاوس "البيت"، بيتَهم، ولا بِدْعَ في ذلك، فقد غدت "عمّاوس" منزلَ من قسا عليهم الدَّهْر. وإِذ كان معظمهُم ممّن كان لهم في السِّجن مقامٌ سابقٌ، فقد أَلف الأَبُ پيير أَن يقول لهم: "**إِن كان المجتمع قد أَبقى رؤوسكم على أكتافكم، ففي ذلك دلالةٌ على أَنّ بعض الخَيْر ما زال قابعًا في أغوار كلٍّ منكم... هنا، في "عمّاوس"، أُسرةٌ واحدةٌ، حيثُ الجميع إِخوة**".

وإِلى أُولئك الإِخوة كان يطير فكره شاردًا من مناقشات البرلمان، العقيمة في

الغالب، مستعجلاً العودة إليهم، حيثُ غالبًا ما يُضطرّ إلى التدخُّل بحزمٍ لفضّ صداماتٍ كانت الآنسة كوتاز تجهدُ، ما استطاعتْ، لاحتوائها في غيابه، مستخدمةً كلّ طاقات جِدّها، وشدّة مراسها، بحيثُ بات الرفاق يدعونها "لولا المرعبة".

وكان الأب پيير يقسو، بخاصّة، على الّذين يتمادَوْن في السُّكْر، ويُنفقون أيَّ مبلغٍ يحصلون عليه كي يُسرفوا في الشَّراب. بادئَ الأمر، وخشيةً عليهم، إن هو طردهم، من أن يعودوا إلى الغَرَق في البؤس والجريمة، كان يأمرهم، إذا ما استبدّت بهم الرَّغبةُ في السُّكر، أن يغادروا "عمّاوس" إلى أيّ مكانٍ يشاؤون، فينفقوا حتّى آخر فرنك يملكونه، ويثملوا ما طاب لهم، على ألاّ يعودوا إلاّ وقد استعادوا كامل رُشدهم. إلاّ أنّه، شيئًا فشيئًا، غدا أشدَّ صرامةً، ومنع تعاطي أيّ نوعٍ من الخمور أو المشروبات الروحيّة في "عمّاوس"، حتّى المقادير القليلة البريئة من النّبيذ الّتي ألِف معظمُ الفرنسيّين ارتشافها مع الطَّعام. ولكي يكون، في ذلك، قُدوةً لا غبارَ عليها، استبدل خمرَ التقديس بعصير العنب، في قُدَّاسه اليوميّ.

وفيما خلا ذلك، كان يُدرك بوضوحٍ أنّ أُولئك المساكين الّذين لجؤوا إليه كانوا يحملون، بين ضلوعهم، قلوبًا ما برحتْ جريحةً، ونفوسًا لم تتحرَّر، بعدُ، نهائيًّا من عِلَلها؛ فكان لجميعهم، ولكلٍّ منهم، الطبيبَ المؤاسي، الّذي يرفق ويصبرُ ويُضمِّد ويتفهَّم.

وكانت همومُهم تنفي عنه النَّوْمَ في بعض اللّيالي، فيستمع، وهو مستلقٍ على سريره، إلى أَحاديثهم ومناقشاتهم، فيزداد بهم وبهواجسهم معرفةً. وذات ليلةٍ غمرتْه السَّعادةُ، وهو يستمع إلى عبارات فَرَحهم بالتغيُّر البليغ الّذي طرأ على حياتهم، ولا سيّما عندما صرّح أَحدهم، باندفاعٍ وحرارةٍ: "**كنتُ أَنفُقُ جوعًا على الرَّصيف، ونصحني أَحدُهم باللُّجُوءِ إلى الأب پيير، وصدِّقوني، هنا، فقط، وجدت حُبًّا صادقًا**".

هذا "الصِّدقُ"، الذي لَمَسه الرَّجُلُ المسكينُ، كان عبادةً صِرْفًا، كان الربَّ الأَزَليَّ الذي تجسّد حبًّا، كان الإِنجيلَ يُعاش واقعًا ماثلاً، والمسيحَ حاضرًا حيًّا.

وكان ذلك الاكتشاف يتجلّى حتّى من خلال مُهاترات الرِّفاق الفَظّة أَحيانًا، الّتي قد تُسفر عن جواهر مصقولةٍ، رائعةٍ، نادرةٍ، على حدّ ما حَدَث يوم ضايق بعض الرِّفاق زميلاً لهم لأَنّه خَدَم قدّاس الأَب، في مُصلّى "عمّاوس"، فأَجابهم ذلك الزميلُ، في براءةٍ تامّةٍ: "**أَوَتعتقدون أَنّه كان من شأْن الأَب فعلُ ما يفعلُه الآن، لو لم يكن الله موجودًا؟**"

حيالَ أُولئك الَّذين دمغتْهم الحياةُ بميسمِها الحارق، والَّذين هووا إِلى أَسحق الدركات، قرَّرَ الأَبُ پـيير أَلاّ يَعِظ، وأَن يكتفي بأَن يكون أكثر من كاهنٍ، أَن يكون إِنسانًا بين إِخوته البشر، على غرار "ابن الإنسان". لم يكن يَعِظُ عن الحُبّ بكلماتٍ مُزوَّقةٍ، بل كانت أفعالُه تعظ عنه؛ فكان يهرع إِلى نجدة كُلِّ بُؤْسٍ يلتقيه أَو يسمع عنه؛ وكان البائسون يُدركون بحَدْسهم الصَّائب أَنَّ حُبَّه لهم "صادقٌ"، فيجهدون في التعبير عن امتنانهم بالانضمام إِليه لمساعدته على مساعدة آخَرين، أَشدَّ بُؤْساً، وبذلك يَشفون أَنفسَهم.

طبيبٌ عسكريٌّ متقاعدٌ كان يفخر بإِلحاده المُطلَق استمع، يومًا، إِلى محاضرةٍ كان يلقيها الأَبُ پـيير في بروكسيل، وخرج وقد اهتزَّ كلُّ كيانه، واضطربت أَحشاؤه. وبعد تردُّدٍ طويلٍ كتب للأَب ما يلي: "**لقد تقدّمتُ في السِّنّ، أَبت، ولكنّني ما زلت أَمتلك كاملَ وعيي. وأَودّ أَن أَلتحق بك، إِن كان ذلك ممكنًا. أَنا لا أُومن، ولا أَعتقد بوجود فردوس؛ ولذلك قلتُ لذاتي: "إِن كان، ثمّة، خلاصٌ، وبما أَنّني لن أَظفر به بواسطة الإِيمان، فسأحاول أَن أَظفر به بواسطة الحبّ، كما تقول، أَبتِ، حبٍّ من يتأَلّمون**".

وقد ردَّ عليه الأَبُ قائلاً: "**إِنّ نَمَطَ إِلحادك لا يُقلقُني. تعالَ**". وقد جاءَ، وأَصبحَ طبيبَ "عمَّاوس" النَّاشئة.

وكذلك كان شأنُ ذلك المُتَسوِّل، الذي كان حُطامًا بَشَريًّا متداعيًا، وتعهَّده الأَب پـيير بعطفه ورعايته، فأسرَّ له ذاتَ يومٍ: "**أَنا المُستعطي بِتُّ أُعطي، وأَنا البهيمة قد استيقظت**". من خلال تلك العبارات العفويّة المُؤثّرة، كان الإِنجيلُ يَترقرقُ عاريًا، صِرْفًا، بكُلّ بساطته ورَوْعتِه.

وكم كان صادقًا ومُصيبًا جوابُ الأَب پـيير لمن سأَلَه، يومًا: "**هل تُفْلح في التحدُّث إِلى أُولئك البُؤَساء عن الله؟**" فأَجاب: "**أَنا قليلاً ما أفعل، ولكنّهم، هم، كثيرًا ما يتحدَّثون عنه**"! كيف لا، وقد رأَوْهُ ولمسوه حاضرًا فيما بينهم، فاعلاً في أعماقهم.

فقد جاءته، يومًا، امرأَةٌ كان الأَبُ قد أَشاد لأُسرتها منزلاً، جاءته خَجلةً، معترفةً بأَنَّ الرجلَ الذي تعيش معه ليس زوجها، وأَنّ لها منه ولَدَيْن، بالإِضافة إلى ولَدَيْها من زواجٍ سابقٍ، فأجابها:

– **« نحن مدَدْنا لكم يدَ المساعدة لأنّكم كنتم في حاجةٍ إليها، لا لكي تُحبّونا، أو لكي نُلزمَكم بالمجيء إلى الكنيسة. إنّما نرجو أن تُدركوا أَنَّ الله محبّةٌ »**

وكان الأَبُ پيير يرسّخُ ذلك الشُّعورَ، عفويًّا، في صدور رفاقه، فإذا ما سأَله أَحدُهم: "**ما هو الله؟**" أَجاب: "**تذكَّر ذلك اليومَ الذي كُنَّا فيه عائدين من مهمّة إيواء أُسرةٍ في مِحْنةٍ؛ ومع كُلِّ ما كان يبهظ كواهلَنا من إرهاقٍ، صرّحتَ لي أَنّك سعيدٌ بيومك ذاك، وبما أَنجزتَه فيه. تذكَّرْ جيّدًا ذلك الفَرَح الفريد، الَّذي لا يُشْبهُ أَيًّا من أَفراحنا المألوفة، والَّذي كنتَ تتذوّقُه في داخلك. في ذلك الطَّعم الرائع كنت تَتَذوَّقُ الله. لقد كنتَ، آنذاك تتلقّى نعمة "الحكمة"، أَي نعمة تَذَوُّق كم "الله الحبُّ طيّب"**.

لقد كان يُشركُ كلَّ أُولئك البائسين في جهوده لإنقاذ الآخرين، وبذلك كان يبثُّ فيهم اليقينَ بأَنّهم مُفيدون لمجتمعهم، وبأَنّ لهم رسالةً، ومن ثَمَّ، فقد كان أُولئك الَّذين قدموا إليه بائسين مُحطَّمين، يمكثون معه كي يمحوا اليأْسَ والبُؤْسَ من صدور الآخرين، ويشكِّلوا نواةَ مغامرة "عمّاوس" الكبرى.

كلُّ شيءٍ كان قد بدأَ لأَنّ البيتَ الّذي استأْجرَهُ الأَبُ پيير في ضاحية "نويّي پليزانس" بدا رَحْبًا جدًّا. ولكنَّه سُرعان ما ضاق بضُيوفه وسُكَّانه، وكان لا بُدَّ من توسيعه إلى أَقصى حَدٍّ مُمكنٍ، واستغلال حديقته، وكلِّ زاويةٍ فيه لاستقبال المزيد من الرِّفاق والنُّزلاء، وكان لكلٍّ من الرّفاق دورُه في تلك الأَعمال الإنشائيّة.

ولم يكن الأَبُ پيير يتقاعس عن أَيّة وسيلةٍ أَو حيلةٍ لتوفير الموادِّ والتَّمويل؛ فقد تنامى إليه، يومًا، أَنّ الدَّوْلةَ ستُقيم مزادًا لبيع مُعَسكَرٍ كان الأَلمان قد أَنشأوه في إحدى الثّكنات في باريس، وفي الحال هتف: "إنّه يلزمني". وفي الموعد المضروب ظلَّ يُزايد حتّى ظفِر به لقاء مبلغ مئتي أَلف فرنك، ولكنّه غَفَل عن أَنّ كُلَّ ما كان يملكه لا يتجاوز أَربعين أَلفًا، وأَنّ نظام المزايدة يقتضي الدفعَ نقدًا؛ غير أَنَّه لم يتراجع، بل أَبرز بطاقته النّيابيّة، والأَوسمة التي كانت تُزيِّنُ صدره، فمُنِح مهلة شهريْن لأَداء كامل المبلغ.

وفي الغداة نَشَطَ رفاقُه في تفكيك المُعسكَر ونقلِه إلى "عمّاوس"، حيثُ نهضوا، مع الأَب پيير وبقيادة معماريٍّ مُحترفٍ، بوَرْشة بناءٍ دائبةٍ، وإذا بالحديقة تتحوّل، بين

ليلةٍ وضحاها، إلى مبانٍ قشيبةٍ تتألَّف من ردهة نومٍ فسيحةٍ تتَّسع لمئة سريرٍ، ومطبخٍ، وقاعة طعامٍ، وثلاث قاعات اجتماعاتٍ، وأربع غرف نومٍ؛ وينساب في وسطها ممرٌّ، مُسيَّجٌ بعرائش تتدلّى منها الورود. وقد تصدَّر الحديقةَ مُصلّى من الآجُرّ العاري، مفرطُ البساطة، قُدّ هيكلُه من جذع شجرة السنط، واستُخدم الجزءُ الباقي من الجذع قاعدةً لتمثال العذراء "سيّدة عمّاوس" الَّذي احتلّ مكان الصَّدارة من الحديقة.

وإذ كان أَجَلُ وفاء دين المزاد يدنو يومًا فيومًا، خطر للأَب پيير أَن يُشرك في ثواب عمله إِخوانه البرلمانيّين وأَعضاء الحكومة، الَّذين التمس إسهام جميعهم بلا استثناءٍ، ولم ينْجُ من استعطائه لا رئيس الجمهوريّة ولا رئيس البرلمان. بعضُهم أُخذوا على حين غرّةٍ، فلم يستطيعوا رفض استعطاء كاهنٍ نائبٍ زميلٍ، بطلٍ من أَبطال المقاومة، وبعضُهم تعاطفوا باندفاعٍ وأَسهموا بسخاءٍ؛ ومن ثمّ غالبًا ما كان الأَب پيير يقول مازحًا: "**هناك، بين من تبرّعوا من أُمسكُ عن ذكر أسمائهم لئلاّ أُعرّضهم لمشاكل مع أَحزابهم**". وعندما كان يتسلّقُ سلُّمًا، أَمام المداميك المتصاعدة، وقد شمَّر عن ساعدَيْه، وأَمسك بمِلْيسة البناء، كان يُصرّح بفخرٍ: "**إِنّ ههنا آجُرّات ستُصَلّي من أَجلِ جميعِ أَحزابِ فرنسا**".

كنتُ مُشَرَّدًا فآويتموني

حتَّئذٍ كان الأَب پيير يستقبل المُشرَّدين فُرادى، وحلَّ يومٌ اضطُرّ فيه إلى استقبال أُسَرٍ بكاملها.

ففي جِوار "عمّاوس" كانت أُسرةٌ تُديرُ مقهى قرَّر صاحبُه، يومًا، تحديثه، واعتبر تلك الأسرة غير جديرةٍ بمواصلة إِدارته، فأَنذَرَها بإِخلاء المنزل التَّابع للمقهى الَّذي كانت تحتلّه. والتجأَت الأُسرة إلى الأَب پيير الَّذي، إِذ كان يفتقر إلى مكانٍ يُسكنها فيه لديه، راح يبحث لها، في كلّ مطرحٍ، عن منزلٍ لائقٍ ورخيص الأَجر، غير أَنّ كلّ مساعيه باءت بالفشل الذَّريع.

وانتهت مُهلةُ الإِنذار، وجاءَ موظَّفو التنفيذ فقذفوا، "باسم القانون"، بجميع أَفراد الأُسرة، وبكلّ أَمتعتها، في الشّارع؛ وقد تمَّ ذلك في أَواخر شهر كانون الأَوّل من عام ١٩٤٩، قُبَيْل عيد الميلاد.

حتّى ذلك اليوم، لم يكن الأَب پيير قد تخيَّل، قطُّ، أُسرةً مرميَّةً على قارعة الطَّريق، ولم يكن لدَيْه عن "الطَّرْد" سوى فكرةٍ نَظَرِيّةٍ مُبْهَمةٍ. فكان لقسوة الواقع عليه وقعٌ صاعقٌ: والدان وأَطفالهما الثَّلاثة، مع جَدِّهم، واقفون في العراء يُقاسون البردَ واليأسَ، وعند أَقدامهم قد تبعثرت أَمتعتهُم وأشياؤُهم الخاصَّة، في فوضى مأْساويّة، اختلطَ فيها مهدُ طفل، وثيابٌ، وأَوراقٌ، ودمًى، وأَوعيةُ مطبخٍ، فوقَ الوحْل والثَّلج المُتَّسخ الآخذ في الذَّوَبان، ممّا أَطار صوابَ الكاهن، واستدرّ منه دموعًا حارَّةً مدرارةً؛ فانطلق يقرع أَبواب مختلف الدَّوائر والمسؤولين، وكلُّهم كانوا يُردِّدون: "إِنّه لشيءٌ فظيعٌ، ولكنَّنا لا نملك في مواجهته حيلةً".

وحَلَّ المساءُ ببرده القارس، وعتمته ومخاوفه، ولم يكن بوسع الأَب پيير أَن يَدع أُولئكَ المساكين يُواجهون، وحيدين وعُزَّلاً، مصيرَهم الظَّالم القاسي، فعاد إِليهم قائلاً: "وإِن لم يكن لديّ مكانٌ، تعالوا معي". وبمساعدة رفاقه أَتى بهم وبأَمتعتهم وأَشيائهم إِلى "عمّاوس"، حيثُ لم يكن من مكانٍ شاغرٍ سوى المُصلّى، الَّذي لم يتردَّد الكاهن في إِخلائه من كلِّ محتوياته، حتّى من الهَيْكل والقربان، وكُتُبِ الصَّلاة الَّتي أَوْدعها سقيفةً، لكي يفسح للأُسرة مأوًى تستقرُّ فيه.

وعلى اعتراض بعض الرِّفاق على سلوكه هذا الَّذي عدُّوه تدنيسًا واستخفافًا بالمُقدَّسات، أَجاب: "**إِنَّ يسوع موجودٌ في الإفخارستيّا. هذه حقيقةٌ أُومن بها بكلِّ نفسي، وبكلِّ حياتي؛ ولكنَّني أومن، أَيضاً، أَنَّه، في هذا المساء يرتعد بردًا، لا في الإفخارستيّا، بل في أَجساد هؤُلاء الأطفال الَّذين قذَفَ بهم مُجْتمعٌ غيرُ مبالٍ إِلى قارعة الطريق. إِنّه يرتجف في أَيديهم وأَرجلهم؛ فإِن شئتم أَن تُحبُّوا يسوعَ بالحبّ الَّذي يُعلِّمه الإِنجيل، إِذن وَفِّروا مأوى لمن يرتجفون من القَرِّ، وهَبوا صداقتكم من تُرْهِقُهم الوحدةُ**".

وقد علَّق، في ما بعد، على ذلك الحَدَث بقوله: "**إِنَّ الربَّ كان أَوَّلَ من تنازل، في "عمّاوس"، عن مكانه ليُحِلَّ فيه أُسرةً لا مأْوى لها**". وكان موقنًا أَنّ هذا التنازُل هو الذي استمطَر جمًّا من النِّعَم على مساعي جماعة "عمّاوس" في خدمة الآخرين، ولا سيَّما من لا مأوى لهم.

وعندما هتفت الأُسرة المنكوبة، من القلب: "شكرًا" لرفاق الأَب پيير، أَدرك

هؤُلاء، أخيرًا، ما كادوا يُغفلونه، أَدركوا أَنَّهم بشرٌ، وازدهوا بكـرامتهم المُـستعادة، وباتوا يشعرون أَنَّ أُولئك الأَطفالَ الَّذين انتشلوهم من الوحل والتعاسة، هم، على نحوٍ ما، أطفالُهم. طالما كان الأَبُ قد كرَّرَ على مسامعهم أَنَّ عليهم أَن ينتـصبوا واقفـين لكي يساعدوا الآخرين، ولكنّهم لم يكونوا يفقهون أَقوالَه إلاّ بعد لأْيٍ، وفي تلك اللَّيلـة فقهوها حسّيًّا.

أَما الأَب، فلكي يستطيع فهمَ رِفاقه على نحوٍ أَفضل، ولكي يقوى علـى مـساعدة المتألّمين أكثرَ فأكثرَ، كان يستغرق في العبادة والصَّلاة، وتأمُّل "**الأزليّ الَّذي هو حـبٌّ**" وشكرِه لأَنّه أَتاح لرفاقه أَن يعرفوه ويلمسوه، بعد أَن نَسوا جراحَهم ليُعـالجوا جـراحَ الآخَرين، ولكي يجعلوا من تعاسة المُتأَلِّمين تعاستهم، ومن فَرَح الآخرين فرحَهم.

وانقضى الشّتاءُ، وحلَّ صيفُ عام ١٩٥٠، وطَفِقَ شُبَّانٌ من مختلف أَرجاء العالم يفدون إلى "عمّاوس"، فالأب پـيير كان لا يزال رئيس الاتِّحاد العـالميّ، ولا ينفـكّ يجوب العالم، حيثُ يسحَر بنار كلماته قلوبَ الشُّبَّان المُتعطّشةَ إلى المُثُـل والعطـاء. ولم يكن يتحرّجُ من إحلال هؤُلاء الشُّبَّان إلى جوار رفاقه ذوي الـسَّوابق، فهـؤُلاء يكتسبون من مجاورة الشباب المُندفع البريءَ رجاءً وعزاءً، والشُّبَّان يتمرَّسون مـن اختبار الشَّقاء البَشَريِّ، وأسلوب التعامل معه.

وفي تلك الأَثناء كان أَفراد الأُسرة التي انتشلها من محنتها ما زالوا يتكدّسون في المصلَّى الَّذي أَخلاه لهم، فقال لهم:

– « لا يُمكنكم البقاء جميعكم في هذه الغرفة الوحيدة الضَّنْكة، فما قولكم في بيتٍ خاصٍّ بكم"؟

– "سيكون ذلك رائعًا، يا أَبتاه »!

وبمبلغٍ زهيدٍ استَلَفَهُ على تعويضاته البرلمانيَّة، ابتاعَ، في الضَّاحية، قطعةَ أَرضٍ صغيرةً، وجهد حتّى ظَفِر بترخيص بناءٍ لم يكن من السَّهْل الحصولُ عليـه لافتقـار المكَان إلى المرافق الأَساسيّة من طُرُقٍ وماءٍ وكهرباء، ولكـنَّ منـصبه البرلمـانيّ وماضيه في المقاومة شَفَعا به فرُخِّص له ببناء ثلاث غُرَفٍ على مساحةٍ لا تتجـاوز ستَّة أمتارٍ طولاً بستّة أَمتارٍ عرضاً.

وبمُساعدة شُبَّانٍ من مختلف أَقطار العالَم، حيثُ تعاضد، جنبًا إلى جنبٍ، الدانمركيُّ والهنديُّ والبلجيكيُّ والبريطانيُّ والأُوسترالِيُّ والأَفريقيُّ والفرنسيُّ، تعاونوا جميعهم مع رفاق الأَب پيير ذوي السَّوابق الَّذين كانوا يُقاسمونَه حياته في "عمّاوس" وراتبَه البرلمانيّ، فُكِّكتْ مُعَسْكراتٌ قديمةٌ وأُضيفت إِليها مُعدّاتٌ أُخرى، بعضُها ابتيعَ، وبعضها تبرَّع به أُناسٌ طَيِّبون، ونهضت الغُرف الثلاث وفقًا للترخيص؛ ولكن، في تلك الأَثناء كان قد شاع أَنّ كاهنًا نائبًا يشيد مساكنَ للأُسر المنكوبة، فانهالت عليه الطَّلباتُ والتوسُّلات من كلّ صَوْبٍ، ومن قِبَل أُسرٍ قاست من المعاناة أَلوانًا؛ وبما أَنّه كان هناك المزيدُ من موادّ البناء المتوفّر، وكانت همّة البنّائين في قِمَّة اندفاعها، استمرَّ البناء الذي غطَّى اثنين وثلاثين مترًا طولاً بعرض ستّة أمتارٍ، وضمّ عشرين غرفةً مُجَهَّزةً بالماء والكهرباء والغاز والصَّرْف الصحيّ، وأَمكن إِسكانُ خمس أُسَرٍ فيها، قبلَ حلول عيد الميلاد.

وكان ذلك العمل يستَفزُّ، هنا وهنالك، سخاءَ أُناسٍ لم يخطُروا ببال الأَب پيير، الذي أُبلغ، يومًا، أَنّ متعهّد بناءٍ يرغب في تقديم بعض أحجار البناء والآجرّ، غير أَنّه مُلحدٌ، ويمقت الكَهَنة. وقرع الأَبُ بابَه، ففتحه ابنُ المتعهّد الَّذي صاح باتّجاه أَبيه:

– "إِنّه الأَب پيير، يا بابا".

وجاءَ صوتُ الرَّجُل من الدَّاخل:

– "**تفضّلْ بالدخول، أَيّها الأَب. إِنَّك أَوَّلُ كاهنٍ أَسمح له بدخول بيتي**". وجلس الكاهن في المطبخ إلى جوار المُتَعهّد الَّذي صَبَّ له كأسَ نبيذٍ، وشرع، بلا مُقدِّماتٍ، يهجو رجال الإِكليروس قائلاً:

– « لقد أَصبحَتْ ديانتُكم مهزلةً. فمنذ أَيَّامٍ شهدتُ جنازة رجُلٍ غنيٍّ لا يعرف الله، ولا يُقيم لأَحدٍ من عبيده وزنًا. كان يخدع امرأَته ويوسعها ضربًا، ويسيءُ معاملة عُمَّاله، ويَبْخَسُهُم أَجرهم، ومع ذلك أُقيمتْ له جنازةٌ طنَّانةٌ، رأسها الأُسقف، ورتَّل فيها عشرة كهنةٍ تكريمًا لنفسه القذِرَة، طيلةَ ساعتَيْن، وسْط السُّجَّاد وأكوام الزهور؛ وفي نفس اللّيلة، كان كاهنٌ وحيدٌ يُشيّع امرأَةً مسكينة تخلَّصت، أَخيرًا، من تعاسة حياتها، في صمتٍ، وببضع قَطَراتٍ من الماء المقدَّس رشَّها على جثمانها ».

كان الرَّجُلُ يتكلَّمُ بعنفٍ وحدَّةٍ، ويضربُ المنضدةَ أمامه بقبضة يــده، بانفعــالٍ. وفجأةً حَدَجَ الأَبَ پــيير بعينيْن مغرورقتَيْن بالدُّموع، وباح:

– "مع أنّني أَوَدُّ أَن أَعرف الله"!

ثم تماسك وقال:

– "هذه الحجارة لك، فخُذها وابنِ بها للفُقَراء، ولستُ أُريدُ لقاءَها أَيّ مالٍ".

وعندما همّا بالوداعِ، وضع المُتَعهِّدُ يدَيْه الخشنتَيْن الضَّخمتَيْن على كتفَي الكاهن، وغَرَسَ أَنظاره في عينَيْه، وقال:

– "**إِن كان الله موجودًا، فهو هذا العملُ الذي تضطلعُ به أَنتَ، يا أَبتِ**"!

وما كاد الأَب پــيير ورفاقه يفرغون من مشروع بنائهم الأَوَّل حتّــى تــواترتْ صداماتهم مع السُّلطات. ففي اليوم الأَوّل من عام ١٩٥١، قَدِم مفتّشٌ مــن البلديَّــة، وتفحّص البناء الذي أَسكن فيه الأبُ پــيير خمس أسَرٍ، وقال:

– « أَين رخصة البناء"؟

– "ها هي ذي مُثْبتةٌ على الجدار"

– ولكن هذا البناء غير قانونيّ، أَيّها الأَب، فقد تجاوزت بكثيرٍ ما هو مرخَّصٌ، ولا بدّ من هدمه »

وجاءَه الأَب بفأْسٍ وضعها بين يدَيْه، قائلاً:

– « **تفضّل فاهدم بنفسك... قم أَنت بواجبك، وأَنا أَضمن لــك أَن يُغــادر كــلُّ هؤُلاء القوم المكانَ بعد أَن تُوفّروا لهم سكَنًا يليق بالبَشَر، وتُنقذوهم من سكَنٍ تأباه حتّى البهائم، كان، حتّى الآن، نصيبَهم** ».

وجال المفتّش بأَنظاره على وجوه الأطفال والأَحداث الذين تحلَّقوا أَمام منــازلهم الجديدة، حول آبائهم الَّذين وَسَمَهم الشقاءُ وطولُ المعاناة، ثمّ أَلقى بالفــأس أَرضــاً، وأَدار ظهره ومضى، وهو يُحذِّر الأَبَ پــيير:

– "**كفاك تطاوُلاً على القانون، وأَوْقِفْ هذه التّجاوزات**"!

تلك النَّصيحة كان يهمسها، أَيضاً، في مسامعه، رفاقُه البرلمانيّون الَّذين تنامــتْ

إِليهم أخبار مُخالَفاته، فيجيبهم:

– **"أَنتم ربَّما تُؤْثِرون أَن يموت النَّاسُ وفقًا للقانون، على أَن يعيشوا وهم يخالفون أَنظمةَ البناء. أَمّا أنا فلا".**

ومنذُ ذلك اليوم بات سُكَّان منازل الأَب پيير الجديدة يمتلكون "ترخيصاً بالعيش".

وفي هذه الأَثناء، انضمّ إلى بنَّائي الأَب پيير أَبٌ وولداه، كانوا يقطنون في جوار "عمَّاوس"، غير أَنَّ قرارًا بطردهم من منزلهم المُستأجَر كان قد صدرَ منذُ فترةٍ، وكان الوالدُ يرشو الشُّرطةَ من أَجل إِرجاء التَّنفيذ، وقد قال له الأَب پيير: "جِدْ قطعةَ أَرضٍ، ونحن نتعهَّدُ ببناء منزلٍ لكم"، وما لبثَ أَن نهض المنزل واستقرّت فيه الأُسرة، سعيدةً.

وكذلك كان شأْنُ شابٍّ آخَر، كان قد ترك في الرّيف زوجتَه وطفلاً معاقًا، وكان بُعْدُه عنهما مأساةً لثلاثتهم؛ فابتاع لهم الأَبُ پيير قطعة أَرضٍ صغيرةً، وأَشادَ رفاقُه ومتطوِّعوه عليها بيتًا لمَّ شملَ الأسرة أَخيرًا.

وبعدَ أَن شاعَ أَنَّ هناك في ضواحي باريس كاهنًا نائبًا يبني منازلَ لمن لا منزلَ لهم، انهالتْ عليه طلباتُ الاستغاثة في كثافةٍ ولجاجةٍ لم يكن حتّى ليتخيَّلهما.

مآسي السَّكَن

في تلك الفترةِ التي عقبت الحربَ، بَلَغَتْ أَزمةُ السَّكَن في فرنسا، ولا سيَّما في العاصمة وضواحيها، ذُرْوَةً من المأْساويّة مُروِّعةً؛ فقد قُدِّر عددُ المعانينَ من أَزمات السَّكَن بسبعة ملايين شخصٍ؛ وفي الضَّاحية الباريسيَّةِ وحدَها كانتْ عشراتُ آلاف الأسَر، التي تضمُّ مئات الأُلوف من الأطفال، تتكدّسُ في أَقبيةٍ وأكواخٍ وبيلةٍ تفتقر إلى كُلِّ مستلزمات الصِّحَّة الأَساسيَّة. ففي غُرَفٍ لا تتجاوز مساحتُها اثنَيْ عَشَرَ مِتْرًا مربّعًا كان يزدحم، أَحيانًا، في اختلاط مُخْزٍ، أكثرُ من خمسةَ عَشرَ نفَرًا، بحيثُ يتدنّى نصيبُ الفرد عن الحدّ الأَدنى الَّذي يقتضيه القانون لمساحة قَبْر.

وكانت أُسرٌ كثيرةٌ تنفِقُ مُعْظَم دخلها لقاءَ إِيجار غرفةٍ مفروشةٍ، أَو غرفة فندقٍ حيث يُحظَر عليهم طهْوُ طعامهم، وغَسْل ثيابهم.

ضحايا ذلك الوضع المُريع لم يكونوا مُتَشرِّدين أَو مُتَسوِّلين كسالى، بل كان معظمهم من العُمَّال الشرَفاء الكادحين الَّذين لا يتجاوَزُ أَجرُ واحدهم عشرين أَلف فرنك (قديم) تكاد لا تكفي لتأمين الطَّعام الأَساسيّ الذي تحتاجه أُسرةٌ مُتوسِّطةُ العدد، في حين تلتهم نفقاتُ السَّكَن، وحدَها، ما لا يقلُّ عن ستَّةَ عشر أَلف فرنك.

أَمّا من رغب في قرضٍ من الدَّوْلة لبناء مَسكنٍ، فكان عليه، أَوّلاً، أَن يبتاع أَرضاً مستوفيةً لجميع شروط العمران، وأَن يملك، أَقلَّه، عشرةً بالمئة من تكاليف البناء، أَي ما لا يقلّ عن ثلاثمائة أَلف فرنك، وحينئذٍ فقط كانت الدَّولة تُسلِّفُه مبلغًا رمزيًّا.

أَلسنا نواجه اليوم، في بلادنا، مفارقةً مماثلةً، حيث دخلُ الموظّف أَو العامل بضعة أُلوفٍ من الليرات، في حين أَنّ ثمن المنزل بضعة ملايين منها؟

هَمُّ السُّلطات، آنذاك، كان ينحصر في إِخفاء ذلك الواقع المريع، بحيث لا تتجلّى مظاهره على الأَرصفة وحواشي المدن، ولا يؤذي منظرهُ البَشِعُ العيونَ المُرْهَفة. فإِذا ما قبعَ الشّقاء في العتمة، بعيدًا عن الأَنظار الأَنيقة، باتت الضمائرُ مُطمئنَّةً، وأَمكن للمسؤولين والمحظيّين أَن يُخلدوا إِلى نومٍ هادئٍ، ناعمٍ.

على هذه الأَوضاعِ المُخْزية ثارَ، بعنفٍ، الأَبُ پيير الذي صرَّح: "**لم أَشهد في حياتي مثل هذا البؤْس، ولم أكن لأَتخيَّله. قد يكون المرءُ طيِّب القلب، ومع ذلك أَعمى وأحمق. إِنّنا، جميعنا، مُراؤُون، أنا كالآخرين. فما إِن يستَتِرُ الشّقاءُ حتّى لا نعود نأبه له. حَسْبُه أَن يتخفّى عن الأَنظار، وأَن يتحلّى بحُسْن الذَّوْق، بحيثُ لا يُفسِدُ سعادتَنا ورفاهَنا، حتّى تطمئنَّ نفوسُنا**".

وتيقَّظ الكاهنُ، فيه، لواجبه حيالَ الشَّقاء، واجتاحتْه التَّساؤُلات: إِنَّه رجلُ الله، وابنُ الكنيسة، ولكن ماذا يعني الله لمن يَنفُقون جوعًا وبَرْدًا؟ وماذا تفعلُ الكنيسةُ لإِنقاذهم وإِغاثتهم؟ وتجلّتْ له الحقيقةُ موجعةً: "**إِنّنا لا نفتقر إِلى جماعات تقديسٍ، فثمَّةَ وفرةٌ من المُتبحِّرين في العلْم، والليتورجيا، والفنون المُقدَّسة، ولكن ليس، ثمَّة، شهودٌ، في صميم الجماهير، على إِشعاع نور الإِنجيل**".

ذلك الشُّعورُ بالمرارة، كانتْ ترسِّخُه في أَعماقه قوافلُ المآسي النَّكراء، الآخذةِ بعضُها برقاب بعضٍ، بلا انقطاعٍ، والتي كان يَقِفُ عليها شاهدًا جريحًا نازفَ القلب.

فهذا شابٌّ وسيمٌ، في مُقتبل العُمر، يرقُدُ كلُّ حُزْن العالَم في عينَيْه الصَّافيتَيْن، يدخلُ غرفتَه، وينتظر حتّى يخرج الجميعُ، ويبقى مع الكاهن وحيدًا؛ وحينئذٍ فقط يُطلق العنان لما يصطخب في صدره من أَسًى وإِحباطٍ، وينخرط في بُكاءٍ مريرٍ، تتخلّله هذه العبارات:

« إنّ زميلاً لي نصحني بالمجيء إليك، أَبتِ... هذا الصباحَ أَخذوا زوجتي إلى مصحَّةٍ عقليَّةٍ، فقد جُنَّتْ، أَجَلْ، جُنَّت! فمنذُ ثلاث سنواتٍ، نعيشُ، ثلاث أُسَرٍ، في غرفةٍ طولُها أَربعة أَمتارٍ وعرضها ثلاثةٌ؛ لم نكن نحظى بلحظة خلوةٍ، ولم نكن نستطيع حتّى الاغتسال. لدينا طفلان يرقُدان في صندوقٍ خشبيٍّ إلى جوار سريرنا، وزوجتي حامل. لقد صمَدَتْ طيلةَ هذه السَّنوات الثلاث؛ ولكنّها انتهت بفَقْد عقلها، وأَنا فقدتُ كلَّ شيءٍ... »

ويحاولُ الكاهنُ شَدَّ عزيمته، فيما الغَضَبُ المُقَدَّسُ يجيشُ في صدره، ويقول:

- "**بل لا يزال لديْكَ أطفالٌ غالون، وسنُعنى بكم**".

وهذه امرأَةٌ طَبَعَ الشَّقاءُ محيَّاها، بحيثُ بات يتعذَّرُ تخمين عُمْرها، ولم تعد قادرةً على البكاء، فقد جفّت مآقيها، تسرد حكايتها:

- « لقد حاول زوجي قتلنا جميعًا: هو، وأَنا والأَطفال، وفتح صُنبور الغاز ثلاثَ مرّاتٍ في اللَّيلة الماضية... لقد طُرِدْنا من منزلنا، وجاسَ رَجُلي الأَرضَ والسَّماء بحثًا عن منزلٍ بديلٍ، ولكن عبثًا، فآثر وضعَ نهايةٍ لكلِّ شيءٍ. أَنقذونا، أَبتِ، فليس من العدل أَن يَنفُق هؤُلاء الأطفال، لمُجرَّد أَنّنا لم نعُدْ نملك بيتًا يؤوينا، ولأَنّ أَباهم قد ضاق ذرعًا بكلّ شيءٍ! »

وهذه فتاةٌ في الثَّامنةَ عَشْرةَ من العمر، التُقِطَتْ من النَّهر، إِثْرَ محاولتها الانتحار. واستُدعي الأَبُ پيير الَّذي سأَلها:

- "أَينَ تسكُنين؟"

فحَدَجتْه بنظرةٍ تقطرُ أَلَمًا وقالت:

- "تعالَ معي".

وأَرتْه حُفرةً كانت قد أُعِدَّتْ لتكون أَساساً لبناءٍ لم يُنْشأ، وقد غطَّتْها بعضُ

أَخشابٍ وخُروقٍ. وأَزاح الأَب طَرَفًا منها، فإذا باثني عَشرَ شخْصاً يرقدُون تحتهـا، وقالت الفتاة:

– « منذُ أَربعة أَشهرٍ أُقيمُ في هذا الجُحْر، وقد ضِقْتُ ذرْعًا، فخرجتُ منه مؤثرةً أَن أَموت وحيدةً، في الهواء الطَّلْق... ورأيتُ النهر.. وأردتُ أَن أَضع فيه نهايةً للمعاناة ».

وراح الأَبُ يكرِّر الكلمةَ الوحيدةَ التي يُدركُها ويفتقر إِليها كلّ إِنسانٍ:

– "**لا عليك، فنحن نحبُّك**".

وتلك أُمٌّ تُريهِ أَصْغَرَ أَبنائها، وقد فَقَدَ نصفَ أُذُنه، وجزءًا من إِبْهَام رجله وتتمتم مُنتَحِبةً:

– « هذا من فعلِ الجرذان. فنحن، منذُ سنواتٍ، نعيشُ في كَهْفٍ، إِذ ليس لنا مأوى سواه، ودَخْلُنا يكاد لا يكفي لإِطعامنا ».

وتلك الأُمّ التي جاءَتْه باكيةً:

– « أَنا أُمُّ ذلك الشابّ الذي قَتَل أَباه، والَّذي نشرت الصُّحُفُ روايتَه. لم يكن المرحوم زَوْجًا سيِّئًا، ولكنَّا أَربعةَ عشر نَفَرًا نقيمُ في غُرفةٍ واحدةٍ. وعندما كان يعود من عمله مُنهكًا، لم يكن يجدُ كرسيًّا يجلس عليه، ففي كلِّ ليلةٍ علينا أَن نبسط، على الحضيض، الفُرشَ المكوَّمةَ في إِحدى زوايا الغرفة، ونطَّرح عليها، جميعُنا، لننام، في اختلاطٍ مُنكَرٍ، نحن الوالدَيْن، والشُّبَّان، والصَّبايا، والصِّغار، والطفل الرضيع. وفي ذلك المساء المشؤوم، عاد الرجلُ وقد أَخذ منه الإِرهاقُ كلَّ مأخذٍ، وتعْتَعَهُ السُّكرُ، فطَفِق يضربُ الجميعَ من حوله بلا تمييزٍ، وثارت ثائرةُ ابننا البكْرِ، ولا سيَّما عندما شاهد والده يضربُ إِخوته الصّغار، وفَقَدَ رُشدَه، فسال الدَّم، وكان ما كان... »

كانت الوالدةُ والزَّوْجةُ المفجوعة تلثمُ رُكبتَي الأَب پيير، وتُغرقهما بالدُّموع، مُتَوسِّلةً:

– "عِدْني، أَبتِ، أَن تزورَه في السِّجن، وأَن تأتي به ليمكث معك عندما سيُطلَق سراحُه".

وطأطأ الكاهن رأسَه قائلاً: "أَجل، أَجل، أَعِدُكِ"، في حين كان يجول في خَلَده: "**المجرمُ الحقيقيُّ ليس الأَب، ولا هو ابنه الشَّابّ، بل نحن، المجتمع اللاَّمبالي بشقاء الآخرين**".

وفيما كان الأَبُ راكعًا يُصلّي، راح ينسابُ في ذاكرته شريطُ مـآسٍ أُخـرى لا تُحصى. فثمَّةَ ذلك الوالد الشابّ، الَّذي لم يتخطّ العقد الثَّاني، والَّذي كان يبدو وكأَنَّـه مراهِقٌ، وقد اعترف له: "كنّا نؤمْنُ بالحبّ، ونتخيَّلُ الحياةَ جميلةً، وكانت لنـا مُثُـلٌ، فأَسَّسْنا أُسرةً، ولكن لم يكن لنا مأوًى، فتهْنا ذات اليَمين وذاتَ اليسار، وأَنفقْنا كُلَّ مـا نملك لسداد أجرةِ غرفةٍ في فندقٍ، وها نحن، اليومَ، في قعر الهاوية".

وتلك المرأةُ الشَّابّةُ الَّتي صدَرَ أَمرٌ بطردها وأُسرتها من المنـزل الَّـذي كـانوا يقطنونه، وقد جاءَهُ زوجُها منتحبًا، مُتَوَسِّلاً، مِلحاحًا، إِذ إِنّ زوجته كانت قد هـدّدت بالانتحار مع طفلتَيْها، ولمّا عاد من عمله وجد المنزل خاويًا، وخشي أَن تكـون قـد نفَّذتْ تهديدها، فراح، كالمجنون، يستنجد كلّ من يستطيع النجدة، فالتجـأ إِلـى الأب پـيير، وأَبلغ بالأمر رجال الشُّرطة؛ وكانت هواجسُه تتفـاقم مـع كَـرِّ الـسّاعات، وادلهمام الظلمة، عندما رنّ جرس الهاتف، وأَعلن رجال الأمن: "لقد وجدناهنّ". لقـد كانت تلك الأُمُّ اليائسة شاردةَ الذِّهن، ترتعد، وهي تحدج بنَظَراتٍ ساهمةٍ جامدةٍ ميـاهَ "المارن" المُتدفِّقة، التي كانت تعتزم أَن تدفن بين طيّاتها مأساتها، وعـذابَ طفلتَيْهـا اللَّتَيْن ضمّتهما بين ذراعَيْها، وهما لا تكفّان تُعْوِلان، ولا سيَّما أَنّهما لم تتذوَّقا طعامًا منذُ مساء البارحة.

وذلك الأَب الَّذي طافَ بأَطفاله شوارِعَ المدينة وأَزقّتها بحثًا عن مأوًى، وعنـدما أَعيتْه الحيلة جاء "غابة بولونيا" حيثُ حَفَر حفرةً واراهم فيها، علَّـهُ يَقـيهم غائلَـةَ البرد...

ولا تني تُؤَرِّق الأَبَ پـيير صيحةُ تلك المرأة اليائسة التي اعترفت: "لـم نَعُـدْ بشرًا، أَبتِ، بل أَصبحنا كالبهائم. إِنّ صُغرى بناتي، في الخامسةَ عشرة من عمرها، حامل، من جَرّاء تكدُّسنا في غرفة واحدة... والله أَعلم إِن كان الوالدَ أَحدُ إِخوتهـا أَو أَبوها!..."

حيالَ مآسٍ مثل هذه تُغْضِبُ الله، وتَدين مجتمعًا غير مبالٍ، وتثور لها الضَّمائرُ، عَقَدَ الأَبُ پـيير العزمَ على المبادرة إلى إِيواء من لا مأوى لهم، في الحـال، غيـر مبالٍ بالقوانين والأَنظمة.

"الحقل المزهر"

إزاءَ قوافل المآسي التي كانت تخطُر أَمامَه كلَّ يومٍ، صرَّح الأَبُ پيير: **"لقد أَفقدَنا الغضبُ رُشدَنا، أَو إِنّه، بالأَصحّ، أَعطانا قلبًا وذهنًا جديدَيْن كي نتبيَّن أَين تكمن الحكمةُ الحقّة"**.

وقد زادتْه تصميمًا مأساةٌ كان عليها شاهدَ عيان؛ فقد أَنبأَه، يومًا، خوري رعيَّةٍ مُجاورةٍ أَنَّ عاملاً وأُسرتَه يعيشون تحتَ خيمةٍ، في حقلٍ مهجورٍ. وصباحَ اليوم التّالي، راح الأَبُ يتحقّق من الأَمر، فوَجَد، تحت الخيمة، امرأةً شابّةً بائسةً تضمُّ صبيًّا ملتصقًا بها، جالسَيْن على الأَرض الرَّطْبة، في العتمة، وكان الوالدُ قد مضى لعمله منذُ انبلاج الفجر؛ وفيما كان الأَب پيير يُداعب الصبيَّ، عَلِمَ من المرأَة أَنّها وأُسرتها يقيمون في ذلك الجُحْر منذُ ثمانية أَشهرٍ، فهو المكانُ الوحيدُ الَّذي لا يَطرُدُهم منه أَحدٌ؛ وعندَما استَفْسَرها عن اسمها، مدَّت له البطاقة العائليّة التي ما كادَ يتصفَّحُها، حتّى اعتراه الشُّحوبُ والاضطرابُ، وسأل:

– « أَين الولدان الآخران، فالدفتر بحمل أَسماء ثلاثة أَبناء؟

– "لقد ماتا، أَبتِ، من البَرْد والجوعِ والمَرَض... ».

وكانت الأُمُّ المسكينةُ تنتظر طفلَها الرَّابع، تحت الخيمة، فوقَ الوحل... وتبيّن له أَنّها تعتزم الإِجهاض كي تُجنِّبَ الجنينَ حياةَ البُؤْس والمهانة. ولم يكن بوسع الكاهن أَن يلومَها، أَو أَن يُلقيَ عليها مواعظ، ويكلِّمَها عن الحلال والحرام، وَسْطَ كلِّ ما تعانيه؛ فاكتفى بالتأكيد لها أَنّه سيُعنى بأَمرها.

وفي "عمَّاوس" لَحَظ الرفاق عُمْقَ حزنه، وتجهُّمَه البالغ، فروى لهم ما شاهده، ما أَثار في صدورهم الاستنكارَ والحميّة، وهتف كبيرُهم جورج:

« لن نسمح بأَن ينفُقوا كالبهائم. لقد طالما أَكَّدتَ لنا، أَبتِ، أَنّنا لسنا أَقذارًا؛ وسنُثْبتُ ذلك؛ سنُكافح ونُنقذُهم، وسيستقبلُ الطِّفلَ، عند مولده، بيتٌ لائق ».

ما كان أَروعَهم، أُولئك الرِّفاق الَّذين حَفَرَ الشَّقاءُ في جباههم ووُجوههم غضونًا وأَخاديدَ قاسيةً! لقد كان مجموع سنوات السِّجن التي أَمضوها، جميعُهم، تتجاوز القرن. وكثيرًا ما كانوا يُخطئون، ويتصادمون، ويتشاجرون، ولكنّهم، حيالَ شقاء

الآخرين، كانوا يتضامنون، ويبذلون بسخاءٍ. وقد شدّ الأَب پــيير على أَيديهم قــائلاً: **"إِن كان لا بُدَّ من هَتْك حجاب الشَّقاء، وقذفه في وُجوه النَّاس المُترَفين اللامبالين، فلنفعل. وأَنتم، أكثر البائسين بؤساً، ستُلقِّنونهم أَنّه يُمكن تعلُّم الحبّ، وأَنّ ما نفعله ليس إِحسانًا، بل هو إِحقاقٌ للعدْل، والعدلُ يستأهل جميعَ التَّضحيات ».**

ولجأَ الأَبُ پــيير إلى صديقه، عُمْدةِ ضاحية "نويّي پــليزانس" الَّذي غالبًا ما قدَّمَ لجماعته المعونات، وتبرّع، مرَّةً، بمئة غطاءٍ صوفيٍّ دفعةً واحدةً، وقال له:

– « كثيرةٌ هي الأَسَر التي تستنجد بنا. ونحن الآن بحاجةٍ إلى أكثر من أَغطيــةٍ صوفيّةٍ؛ نحتاج إلى قطعة أَرضٍ؛ فهل تهدينا إلى واحدةٍ؟

– لديَّ حقلٌ، على مقربةٍ من هنا.

– وهل هو كبيرٌ؟

– نحو ٧٥٠٠ متر مربّع.

– إِنّني أَشتريه

– وكيف ستؤدّي ثمنَه؟

– لستُ أَدري. دينًا...

– ولكن لا مواردَ لديك تسمح بوفاء الأَقساط...

– وهل يعني ذلك أَن نَدَعَ الأَسَر المشرَّدة تنفق بردًا؟ »

وفي الحال مَثَل الأَب پــيير إلى الحقل فوجده مكسوًّا بالزُّهور البرِّيَّة، واستشفّ في ذلك فأْلاً حسنًا، فتمتم: "سنُسمّيه "الحقل المزهر". بدورهم حاول رفاقــهُ تعقيلَــه، مُبَيِّنين أَنّ المشروعَ أكبر من طاقتهم، وغير معقولٍ، فهو يَستلزم مالاً وفيرًا، في حين هم، بشقِّ النّفْس يتدبَّرون أَوَدَهم وطعامَهم. فردَّ عليهم:

– « **بل أَنتم الحمقى. فبما أَنّنا لا نملكُ أَيَّ مالٍ، ولن ندفع فلسًا، فــي الحــال، فعلامَ لا نبتاع أكبر قطعة أَرضٍ، وعند استحقاق الدَّيْن، على الله التدبير »!**

واستسلم مالك الأَرض لسِحْر الأَب پــيير، وباعه إِيّاها لقاءَ سندات دَيْنٍ مُقسَّطةٍ على مدى عشر سنواتٍ.

ويومَها، جفا النَّوْمُ الأَب پــيير الَّذي قضى الليلَ كلَّه يرسُم مخطّطــاتٍ لتــسعةَ

عشرَ بيتًا تُحيق بها تسعَ عشرةَ حديقةً، لتسعَ عَشْرَةَ أُسرةً، تُمثِّلُ أُولى قرى الطوارئ التي سيُشيدها.

طَلَبُ ترخيصٍ بالبناء لم يكن واردًا، فهو يقتضي وقتًا طويلاً، وحاجةُ الأُسَر إلى المنازل مُلحَّةٌ، فضلاً عن أَنّ السُّلطات سترفض التَّرخيص لافتقار المكان إلى مرافق البناء الأَساسيّة؛ والرفاقُ قد أَقسموا على العمل ليلَ نهار، كي تَضَعَ الأُمُّ، الَّتي كانت تُقيم فوق الوَحْل، تحت الخَيْمة، وليدَها، في بيتٍ حقيقيّ.

لكي يُحوِّل انتباهَ مراقبي العمران عن البناء غير المُرَخَّص، أَثبتَ الأَب پيير، عند مدخل الحقل، لافتةً كتب عليها: "اتّحاد المُخيّمين". وقد انتشرت، بالفعل، الخيام لإيواء المُتطوِّعين بأَعمال البناء، وبعضِ أُسَرٍ من لا مأوى لهم، ريثمَا يُفرَغ من إِشادة بيوتهم.

كان الأَب قد تعلَّم أَنَّ السُّلطات تستطيع هدمَ أَي بناءٍ غير مرخَّصٍ قبل أَن يوضَعَ له سقفٌ؛ ولكن بعد أَن يُسقف لن يُمكن هدمُه إِلاّ بأمرٍ قضائيّ، ممّا يفسح المجال للمساومة والمصالحة. ولذلك أَوعز إلى رفاقه بالاستعجال، بحيث يبنون ويسقفون بيتًا فبيتًا، فكانوا يعملون، باندفاعٍ، سحابةَ النهار، وبعض اللَّيل، مستعينين بمصابيح شاحنةٍ صغيرة.

وذات يومٍ كان الأَب منهمكًا بوضع سقف أَحد البيوت، عاملاً بيدَيْه، وقد أَنساه العمل أَنَّ عليه، في مساء ذلك اليوم عينه، أَن يُلقي خطابًا في جلسة الاتّحاد الفيديراليّ العالميّ في لندن؛ فإِذا بصوت أَمينة سرّه، الآنسة كوتاز، التي كان يدعوها "برج المراقبة" يقرعُ سمعَه بحَزْمٍ:

– « **ستُفوِّت موعد الطائرة، أَبت!**

– "**بوسع الطَّائرة أَن تنتظرني، أَمّا السَّقفُ فلا بُدَّ من وضعه، اليومَ، لمنع الشُّرطة من هدم البيت.**

– "**ولكنّك وعدت اللورد بيفردج بالحضور؛ فهيّا امضِ، وسنُتابع نحن العمل** ».

وقبل أَن يقفز إلى الشَّاحنة الَّتي مضت به إلى المطار، مدَّت له حقيبةً صغيرةً تحتوي رداءَه الكهنوتيّ الأَسود، وثيابًا نَظيفَة، وأَوصته بتنظيف يديه ووجهه جيّدًا.

وحدّق الأَب في مرآة السيّارة، وانفجر ضاحكًا، فقد غطّى السوادُ وجهَه وجبينَه، فبدا كالعبيد، وقال مبتسمًا: "لا بأْس سأغتسل وأُبدّل ثيابي في مرحاض الطائرة".

ولَحِقَ بالطَّائرة قُبَيْل إِقلاعها بثوانٍ. وفي لندن استهلّ خطابه بالقول: "**كدتُ أُفوّت موعدَ الطَّائرة، بسبب قانونٍ أَحمق، كأَنّه من عالَمٍ آخَر، فهو يعطي الفقراء حقَّ الموت شرعيًّا، ويحرمهم من العيش شرعيًّا**".

كان الأَب يستخدم موادَّ بناءٍ من مُخَلَّفات الجيش، رخيصة الثمن، أَو موادّ يتبرّع بها تُجّارٌ تعاطفوا معه. ومع ذلك كانت مواردُه شحيحةً لا تتيح المضيَّ بالمشروع حتّى نهايته.

وذات يومٍ، سمع رفاقه "قرقعةً" مُنكرَةً تقترب من الورشة، وإِذا بالأب پيير قادمٌ في شاحنةٍ صغيرةٍ هَرِمةٍ، ركم فيها معدّات بناءٍ متنوّعةٍ، وزيّن مقدّمتها بشارة المجلس النيابيّ.

وحيالَ استغرابهم أَحاطهم علمًا بأنّه قد باع سيّارته الخاصّة، وابتاع، بجزءٍ من ثَمنها، هذه الشّاحنة، فهي أجدى للعمل؛ وسيُنْفق المالَ المتبقّى على مشروع "الحقل المزهر".

وغدت تلك العربةُ الغريبةُ أُسطورةً، وموضعَ تندُّرٍ، إِذ كانت تنبئُ بوصول الأَب پيير إلى مجلس النوّاب، من بعيدٍ، بفضل ضجيجها المُميَّز، فيُطلّ النوّاب من النَّوافذ، ويتفرّجون على الشَّاحنة الخَلِقة، حيثُ تكدّست الأَسِرَّة والأَغطية والأَخشاب، وموادّ البناء، تأخذُ مكانَها بين سيّاراتهم الفارهة. وعند انصراف الأَب پيير كان بعض زملائه يواكبونه كي يساعدوا بوّابي البرلمان، ذوي القفّازات البيضاء، على دفعها، إِذ نادرًا ما كانت تنصاع لأَوامر سائقها، وتأبى الانطلاق إلاّ بالدَّفع.

وذاتَ يومٍ، كان الأَبُ پيير يعبر بتلك الشَّاحنة قلبَ العاصمة، في محلّة الأُوبرا، ساعةَ ازدحامٍ شديدٍ، وهي محمّلةٌ بمختلف موادّ البناء، وتوقّفتْ عند إِشارةٍ ضوئيَّةٍ. ولكن عندما أَوعزت الإِشارة بالانطلاق، وانطلقت السَّيّاراتُ المتوقِّفة أَمامها، أَبتْ هي الانطلاق، رغمَ كُلِّ محاولات سائقها، وامتدّ وراءَها طابورٌ متمادي الطُّول من السَّيَّارات، وقد امتعض سائقوها فأطلقوا زمّاراتها بعصبيّةٍ؛ وأَقبل شرطيٌّ غاضبًا، مستطلعًا، ولمّا عاين شارةَ مجلس النُّوّاب على الشّاحنة المُخَلْخَلة ظنّ في

الأَمر احتيالاً، فطلب أَوراقها، وكم كانت دهشتُه بالغةً عندما اكتشف أَنّ صاحبها هو الأَب پـيير، فشاع الحبور على محيّاه، وحيّا باحترامٍ الكاهنَ النائب، غير مبالٍ باستنكار عشرات السَّائقين المغتاظين النافدي الصبر؛ وفجأةً دار المحرِّك، وانطلقت السيَّارة العجيبة.

وكان لا مفَرَّ من صدِام الأَب پـيير مع رجال البلديّة، الَّذين جاؤوا ورشته يومًا لضبط المخالفات، ورآهم الأَب، من بعيدٍ قادمين، أَنيقين، في أَحسن هندامٍ، وجالت في خاطره كلُّ صوَر البُؤْس التي كانت تقضّ مضجَعَه، ولا سيَّما صورة الأُمّ الحامل، التي فقدت اثنين من أَطفالها، وهي تنتظر الرَّابع فوق الوحل، في عتمة الخيمة؛ وجاش الغَضَبُ في صدره عندما طلب منه مفتّش البلديَّة رخصة البناء؛ وشرع الأَبُ يردُّ عليه بهدوءٍ، غير أَنّ لهجة سخطه واستنكاره كانت تتصاعد لحظةً فلحظةً؛ ثمّ قال له مهدّدًا:

– « إِن عُدْتم مَرَّةً أُخرى تُطالبون برخصة البناء، عوَض أَن تسعَوْا إلى توفير شروطها لهذه الأُسَر الشريفة، أُسَر العمّال الكادحين، إِذن سننصب لوحةً في مدخل الورشة نلصق عليها شهادات ميلاد هؤُلاء الرّجال والنساء والأَطفال، وسنكتب فوقها: "**مطلوبٌ ترخيص بالعيش لهؤلاء**"، وسأستدعي الإِذاعة والتلفزيون للاطّلاع على ما يجري ».

وهدَّدَهُ أَحدُ المفتّشين بالملاحقات القضائيّة، فأجاب الأَب پـيير:

– « الدَّعوى القضائيَّة هي جُلُّ ما نرجوه، فهي ستتيح لنا أَن نكشف أَمام السُّلطات والرأي العامّ الواقعَ المخزي الَّذي يُحاول الجميعُ التَستُّر عليه، جُبْنًا ومُراعاة.

"سنُقِرُّ بمخالفتنا للقانون. ولكن أَيُّ قانونٍ هذا الذي يعتبر شرعيًّا أَن تعيش أُسرة عمّالٍ كادحين تحت خيمةٍ، فوق الوحل؟ وشرعيًّا أَن يموت اثنان من أَطفالها، قَرًّا وجوعًا ومَرَضاً، ويُدفنا حسب القانون؟ وشرعيًّا أَن تُبتلى الأُمّ بالسِّلّ، وتودَع مِصحَّةً تموت فيها، وفقًا للقانون، وشرعيًّا أَن يَدفَع اليأْسُ بالأَب إلى الارتماء تحت عجلات قطارٍ، كي يخلص من العذاب والهوان، فيرسل جثمانه إلى المشرحة وفقًا للقانون؟

"ولكن لا! إنّ ذلك الأَب يأبى أَن يظلّ أَبناؤه ينفُقون كالكلاب، بـل أَسـوأ، إِذ إِنّ هناك من يُعنى بالكلاب، ويُقيم لها الملاجئَ والمدافنَ اللاّئقة. وأَنتم تعُـدُّون رفـضَه العيش أَسوأَ من البهائم، جريمةً يُقاضى عنها. لو إنّه كان يمتلك ثلاث مئة أَلف فرنك نقدًا، وقطعة أَرضٍ مُنظَّمةً – في حين أَنَّ دخلَه الشهريَّ لا يتجاوز عشرين أَلف فرنك – لحقَّ له التطلّع إلى إنقاذ أَطفاله بموجب القانون. ولكن من أَين له ذلك، مـع أَنّـه يُهلك نفسه طيلة النهار، كادحًا في مـصنعٍ، ويقـضي قـسطاً مـن اللَّيـل يعـزف بالأَكورديون للظَّفَر ببضع وُرَيْقات نقديّةٍ إِضافيّة؟ ومع ذلك فهو في نظركم مجرمٌ.

"هل من المعقول والمقبول أَلاّ يُعَدّ جريمةً موتُ طفلَيْن، بسبب شـروط سـكنٍ سيئّةٍ، وتُعَدّ جريمةً محاولةُ بناء مساكن لمنع موت المزيد من الأَطفال، لأَنّ البنـاء غير مرخَّص؟

"إنّ قانونًا مثلَ هذا، نحن عازمون على مُخالفته، الآنَ وحتّى نهاية العالَم، إلى أَن يُصلَح ويُعدَّل؛ ونتعهّد بذلك، باسم الإِنجيل!

"إِن كان القانونُ لا يُتيحُ للعامل إِيواءَ ذويه، وإِن هو، مع ذلك، أَشادَ بناءً بـلا ترخيص، فليس بناؤُه غيرَ قانونيٍّ، بل إِنّ القانون غير شرعيٍّ، إِذ ليس مـن حـقّ القانون أَن يحكم الحياةَ عُنْوةً، بل من حقّ الحياة أَن تضغط على القانون كي تجعلَه خادمًا لحياة الجميع، فيحمي ويعضد، في المقام الأَوَّلِ، الأَقلَّ حُظوةً ».

وفي محاولةٍ لتسوية الأَمر مع السُّلطات، استجاب الأَب پـيير، يومًا، لاستدعاء موظَّفٍ رفيعٍ، راح يُقلِّب ملفًا كثيفًا عن مخالفات "الحقل المزهر"، ويُندِّد بمثـل تلـك الأَبنية الزريّة التي تُمثِّلُ عارًا لمدينة باريس، وقد تغدو سابقةً لتفشّي سرطانِ أَبنيَـةٍ عشوائيّةٍ، في حين تُعِدُّ الوزارةُ الخُطَط لإِنشاء أُلوف المـساكن الـشعبيَّة الحديثـة، المستوفية الشروطَ الصِّحِّيَّة.

وبعد أَن أَفاض الموظَّف في التَّنديد والتَّهديد، همّ الأَب پـيير بالانصراف، مـن غير أَن يتفوّهَ بكلمةٍ واحدةٍ، ولكنَّ الموظَّف رجاه بالتريُّـث، فقبـل الأَبُ شـرطَ أَن يعترف الموظَّفُ بالوقائع التالية:

– تلكّؤ الحكومة في توفير المساكن الشعبيَّة، التي ما زالت تُخَطِّطُ لها، في حين أَنَّ الحاجةَ إليها مُلحَّةٌ منذُ سنواتٍ عديدةٍ.

– الوضع المأساويّ لأُلوف الأسر التي لا مأوى لها، أَو الَّتي تضطرّ إلى السَّكنَ على نحوٍ مُخْزٍ يؤدّي إلى الجنون والجريمة واليأس والانتحار. وكان الأَب پيير يمتلك، للأسف، على ذلك الواقع، أَمثلةً صارخةً، كان لبعضها شاهدَ عيان.

– اضطرار رفاق "عمّاوس" إِلى بذل مساعداتٍ طارئةٍ، لنجدة حالاتٍ يائسةٍ، ممَّا حملها، أَحيانًا، على تجاوز القانون.

وقد أَوجز الأَب پيير دفاعه بالقول:

« نحن آسفون لاضطرارنا إلى مخالفة قانون البناء؛ فنحن نحترم القانون، ونعترف بضرورته، ولكن، في بعض الحالات الطَّارئة، تتقدَّم شريعةُ الضَّمير على الشَّريعة المكتوبة، وتتقدّم الحياةُ على القانون.

"أَنتم أَزَلْتُم أَبنيةً عشوائيّةً كانت تُشوِّهُ ضواحي المدينة، ولكنّكم لم تُزيلوا البؤس، بل حاولتم إِخفاءَه. غير أَنّ البؤْسَ ما زال موجودًا، وقد تسلّل إلى أَحياء باريس، وعشَّش في أَقبيتها وسقائفها المزدحمة، التي تأبى العجماوات السَّكَن فيها. في ضواحي باريس كان البؤْسُ السَّافرُ فضيحةً، أَمّا داخل المدينة فقد تبَعْثَرَ، وغَرِقَ، وتوارى عن الأَنظار غير المتفحّصة. وما تأْخذونه علينا هو انتزاعُنا البؤْسَ من التَّخفّي، وإِبرازُه للعيان من جديد.

"إِنني أُشاطركم الرَّأْيَ أَنّ مساكننا لا تُوَفِّرُ كُلَّ مستلزمات الرَّفاه للمساكين الّذين آويناهم، ولكنّنا حرّرناهم من براثن أَوضاعٍ لا تُطاق، ولا يرضى بها لا الله، ولا البشرُ الّذين فيهم بقيَّةُ وِجْدان ».

على كُلِّ أَقواله، كان الأَبُ پيير يمتَلِكُ شواهدَ مُدَعّمةً بالأَسماء والتَّواريخ والأَمكنة. كان بين يدَيْه، هو أَيضاً، ملفٌّ كثيفٌ يدين الحكومةَ والمُجتمع.

كان نارًا مضطرمةً، وحاملَ لواء "المثاليّة الفاعلة"، لا يهابُ هَتْكَ الأَقنعة، مهما كلَّفَ الأَمرُ، عن جميع صُنوف الظّلم والقسوة، التي يتستّر عليها المُجتَمعُ، ولا يستطيعُ التَّواني أَمام صيْحات استغاثة الشقاء البشريّ، في حين كان من يحاوِرُهم من كبار الموظّفين، مُترَفِّعين، متبلِّدي الشُّعور، حريصين، في المقام الأَوّل، على مراكزهم، مُقَيَّدين باللوائح الإِداريَّة، وتسلسل السُّلطات.

بينه وبينهم كان تصارُعُ الحَرْفِ والروح، القانونِ والمحبّة، التَحجُّر والحياة.

تلك الجرأة التي تُزري بالقانون، حيالَ احتياجاتٍ إنسانيّةٍ صارخة، كانت غالبًا ما تُحرِجُ السُّلطات؟ ولا بُدَّ من التَّنويه أنَّ فئةً من المسؤولين كانت تؤيِّد الأَبَ پيير، ضمنًا، وتُكبر عمله، لا بل إنّ بعض المسؤولين كانوا يسترشدونه ويلتمسون مؤازرتَه لمواجهة الحالات الطَّارئة المستعصية الَّتي كانت تتصدّى لهم. وقد اتّفق، يومًا، أن جاءَه البريدُ، في آنٍ واحدٍ، بكتابَيْن من دائرتَيْن مختلفتَيْن من دوائر المحافظة، أَحدُهما من الدائرة الفنّية تُنذِرُه بوجوب إيقاف أَعمال البناء غير المرخَّص، والآخر من دائرةٍ اجتماعيّةٍ تعرض حالاتِ أُسَرٍ مُشَرَّدةٍ، وتناشدُ الأَبَ پيير أَن يُساعد على حلّها، إذ لا أَحدَ سواه يقوى على ذلك.

فما كان من الأَب پيير سوى إرسال كتابِ كُلِّ دائرةٍ منهما إلى الدَّائرةِ الأُخرى!

وفي تلك الأَثناء التقى الأَب پيير، في البرلمان، وزير الإسكان الذي كان صديقًا له، وأَحد رفاقه في المقاومة، فبادره بالقول: "**إِذن، تُريدون منْعَنا من متابعة البناء. حَسَنٌ، سآتيك بالأُسَر المشرَّدة إلى الوزارة، وستتولّى أَنت إيواءَها حيثُما تشاء. فأَنت المسؤول عن الإسكان، لا أَنا. أَنت الوزير، وعليك إيجاد الحلول. إنّما هدفي الحؤول دون موتهم بموجب قانونكم، وسأُفلحُ في ذلك، ولو أَجبرتكم، في هذا السَّبيل، على تعديل نصوصكم ولوائحكم. إنَّ هؤلاء الفُقَراء الذين جعلتموهم هامشيِّين بسبب قوانينكم الخرقاء، سيُصبحون "شرعيين" أَخيرًا**".

وأَصدر الوزيرُ تعليماتٍ بالإغضاء عن مُخالفات الأَب پيير ورفاقه، وعدم الحؤول دون إتمام مَشْرُوع "الحقل المزهر". وفي غضون ستَّة أَشهرٍ، كان ذلك الحقلُ يزدهي بتسعةَ عَشَرَ بيتًا جميلاً، لكلٍّ منها حديقةٌ صغيرةٌ؛ وفي واحدٍ منها أَهلَّت الطفلة "آني" التي كانت والدتُها قد فكّرت في التخلُّص منها، وهي بعدُ جنينٌ، لئلاَّ تعرِّضَها لمثل مصير أَخوَيْها اللَّذَيْن ماتا بَرْدًا وجوعًا، ولئلاَّ تأتي بها للعَيْش في الظُّلمة فوقَ الوَحْل، تحتَ خيمةٍ، في حقلٍ مهجورٍ.

وكم كانت سعادةُ رفاق الأَب پيير غامرةً، وهم يداعبون تلك الطفلة التي أَهدوا إليها، بمناسبة ميلادها، بيتًا لائقًا يُظلِّلُ سريرَها.

ولَئِن افتقرتْ تلك المساكنُ إلى الكثير من عناصر الرَّفاه، إلاّ أَنّها كانت تبدو

لأَصحابها الجدُد فردَوْسًا، وانعتاقًا من جحيم السَّكن المهين والمُخْزي الَّــذي كــانوا يعانونه. هذا ما عبَّر عنه أَحدُ قاطني مساكن الأَب پــيير هذه، بلافتةٍ علّقها على باب مسكنه وكتب عليها: "**أَخيرًا، الْفَرْح بالوجود**".

كانت تعليمات وزير الإسكان تقضي بالسَّمَاح للأَب پــيير بإِنهاء ما شرع بـــه، نظرًا لماضيه، وخدماته الوطنيَّة، وبتزويد المشروع بالمرافق الصِّحِّيَّة الــضَّروريّة؛ غير أَنَّ التعليمات الوزاريّة أَضافت: "ولكن إِن ترامى إليكم أَنّ مخالفاتٍ مماثلةً تحدُث في مكانٍ آخَر، أَبلغوني...".

وقد شكرَ الأَبُ پــيير للوزير مُبادرتَه، ولكنَّه أَنذره بـــأَنّ "مخالفــاتٍ مماثلـــةً" ستحدُثُ فعلاً، فالأُسَر البائسةُ لا تنفكُّ تستغيث به، وهو لن يدَعَها تنفُق أَمامَ عينَيْـــه، وهو ساكن.

وفي الواقع، ابتاعَ الأَبُ پــيير قطعةَ أَرضٍ أُخرى على مقربةٍ من "الحقل المزهر"، في حقلٍ كانت تغشاه، صيفًا، شقائقُ النُّعمان، ممّا أوحى له بتسمية مــشروعه الجديــد "مدينة شقائق النّعمان"، حيثُ خطَّطَ لأَربعةَ عَشَر بيتًا، في حين كان يفتقرُ إِلى المرافـــق الصِّحِّيَّة، وترخيص البناء، ولا يملك، لتنفيذ المشروع، فرنكًا واحدًا.

صوتُ من لا صوت لهم

عندما يَفتَحُ المرءُ عينيْه وقلبَه على المُعوزين والمُتأَلِّمين، يجــد نفــسَه حيـــالَ احتياجاتٍ لا نهايةَ لها، ويُودِّع كلَّ عهدٍ له بالدَّعة والطمأنينة.

وقد أَشرع الأَبُ پــيير بابَ إغاثة المُشرَّدين، فتدفَّقتْ عليه قوافلُ بؤْسهم كثيفةً، هادرةً، ملتهمةً، بلا شَفَقة، وقتَه وموارِدَه، مستهلكةً طاقاته وقُواه. فعلى حدِّ قولـــه، تقـــاطرتْ عليـــه صَيْحاتُ اليأس من كلِّ صوبٍ، ومن جماهير مجهولةٍ باتت الحياةُ لها، من جرّاء ظـــروف سكنٍ مَهينةٍ، أَسوأَ من أَيّ أَنماط الموت؛ وفي منطق بُؤسها المُحْكَم المخيــف، كانـــت تلـــك الجماهير تقول: "لقد وفَّرتَ مأْوى لسوانا، فلمَ لا تؤوينا نحن أَيضاً، ووضعُنا يفـــوقُ وضـــعَ سوانا مأساويّةً؟!"

وكان رفاقُ الأَب، وجميع من عرفوه عن كَثَبٍ يدهشون كيف يستطيعُ إِنسان أَن يقوم بكلّ ما يقوم به؛ فهو يَبْحَثُ عن الأَرض، ويقترضُ المالَ لتمويل البناء، ويبتاعُ،

أو يستعطي، مُعدّاتِ البناء، وينقلُها بشاحنته، ولا يُحجم عن العمل بيدَيْه. وإليه يلجأ من وفَّر لهم سَكَنًا لتأْمين كُلِّ احتياجاتهم من أَسرَّةٍ، وفُرُشٍ، وأَغطية، وحطبٍ وماءٍ، وحُفرٍ للمياه القذرة، ووسائل الطَّهو. وكلّما اعترضت أَحَدَهم مشكلةٌ، أَو افتقر إِلَى شيءٍ، قال: "سأكلِّم في الأَمر الأَبَ پيير، سأَطلب منه، هو يعرف، هو يدبّر..."

ثقةُ الأَطفال هذه بأَبٍ قادرٍ على كلِّ شيءٍ، كانت تُرهِقُ عاتقَه، كلَّ يومٍ، بأَعباءَ جديدةٍ. ولكنّه، هو، أَبَدًا، هادئٌ، مبتسمٌ، يُدوِّن كلَّ مطلبٍ، ويُداعب الأَطفال، ثمّ يمضي مُسرعًا بشاحنته، ليعود، بعد ساعاتٍ، مُحَمّلاً إيّاها أَسرّةً وقدورًا وأَطباقًا، ومقاعدَ، ودُمًى، وغالبًا ما يعود، أَيضاً، بأُسْرَةٍ جديدةٍ مُشرَّدة...

كان يمتلك سرَّ استنباط الفَرح من صُلْب الجراح، واستمدادِ النُّور والبسمة والعطف من أَعماق إِعيائه، بفضل الحُبّ المُضطرِم، والإِرادة الحازمة، والصَّلاة التي تعود به إِلى الينابيع في صحراء العُزْلة والتأَمُّل، وتغذّيه بنَسْغ "قيامةٍ" مُتجدِّدةٍ باستمرارٍ، وتبقي جُذوتَه الدَّاخليّة متَّقدةً.

وإِلى جانب ذلك، كان عليه مواجهةُ مُضايقات السُّلطات، وما هو أَدهى منها، اتّهاماتٍ متضاربةٍ من شتّى الفئات السّياسيّة، فالشُّيوعيُّون ومشايعوهم يرَوْن في عمله امتصاصاً للنَّقمة التي يحاولون ترسيخها واستغلالها، ويأْخذون عليه مقاومة الثَّورة الشَّاملة التي يُنادون بها؛ أَما البورجوازيّون فيُندِّدون بفضحه قسوةَ قلوبهم، وانغلاقَهم على المآسي الجاثمة عند عتبات بيوتهم، ويتجاهلونها، فيتّهمونه بالشُّيوعيَّة وبالدَّعاوة لنفسه.

وقد جاءَته، يومًا، سيّدةٌ من علّيَّة القوم كانت تُقدِّم لجماعة "عمّاوس"، بين الفينة والفينة، معوناتٍ عينيّةً ونقديّةً، وبادرتْه بالقول:

- « أَلا تعلم، أَبتِ، أَنّنا جيرانٌ؛ فإِنّي أَمتلكُ على مقربةٍ من "الحقل المزهر" ڤيلا لستُ أُقيم فيها، إِذ إِنّني أُقيم في باريس »؟

وخُيّل، لحظةً، للأَب پيير أَن السيّدة جاءت لتضع دارتَها تحت تصرُّف الأَسَر المحتاجة؛ ولكنّها سرعان ما أَردفت:

- « أَلم يخطر ببالك أَنَّك، بإِشادة أَبنيتك الزَّرِيَّةِ، في هذه المنطقة، تُفقدُ الڤيلا كثيرًا من قيمتها، إِذا ما رغبتُ يومًا في بيعها؟ »

ثمّ هدَّدتْه بالملاحقة القضائيّة، فأَجاب:

– « إِنّ خيْرَ ما نرجوه أَن تُقام بحقّنا دعاوى قضائيّةٌ، لكي نستطيع الصرُّاخَ، ملءَ أَشداقنا، مُعلنين جهارًا على الملأ الحقائقَ البَشِعةَ التي تُحجَب عن الجماهير، وتتعمَّدُ السُّلطات تجاهلها ».

فانتفضت ومضَتْ غاضبةً، وهي تنعتُه بالشُّيوعيَّة والفوضويّة.

كان الأَب پيير، كلّما توغَّل في اختبار البُؤْس البشريّ، ازداد استنكارًا للامبالاة المسؤولين، ومن بِيَدِهم الحولُ والطَّوْل، ولكنَّهم لا يستخدمونهما إِلاّ في سبيل مصالحَ أَنانيّةٍ ضيِّقةِ الأُفُق، ممّا أَدّى إِلى الطَّلاق بينه وبين الحزب الَّذي كان قد انضمّ إِلى كتلتهِ البرلمانيّة. وقد عبَّر عن خلافه مع رفاقه الحزبيّين السابقين في كتابٍ مفتوحٍ جاء فيه: "عام ١٩٤٦ أَعلنتم: "**طالما بقينا مُزْعجين، كنّا أَوفياء لرسالتنا**". **ولكنّكم نكَصْتُم عن تَعهُّدكم، لأَنَّكم ما عدتم تُزعجون، ولأَنّكم خُنتم الإِنجيل**".

لقد خَيَّبت السِّياسةُ آمالَ ذلك المُتعطّش إِلى المُطلق، فغدا ديدنُه أَن يكون بعوضةً لا تني تئزُّ في آذان المسؤولين، موقظةً ضمائرهم، مُفَتّحةً بصائرهم على البؤس المحيقِ بهم، والَّذي تدرّعوا دونه باللاّمبالاة؛ ولم يكن يخشى أَيّةَ مغبَّةٍ لذلك الإِزعاج، فقد جَعَل من الحُبِّ مستقبلَه الوحيد، وهدفه الأَسمى.

وكان يؤنس انفراجًا كُلّما استطاعَ التحرُّرَ من عبءٍ يُثقل صدرَه، والجهرَ بالتَّنديد بكلّ ما يراه منافيًا لمبادئ المحبّة. كان يعيش، ساعةً فساعةً، انتفاضةً على الظُّلم، ولا يُفوِّتُ سانحةً للذَّوْد عمَّن أَصبحوا حِزْبَه الوحيدَ: الفُقَراء والمنبوذين، الَّذين انتظموا جيشاً جرّارًا يسير في إِثْره، بعد أَن نفثَ فيهم طَعْمَ الحياة الكريمة، بتأكيده أَنَّ الإِنسان لا تكتمل كرامتُه، إلاّ عندما يظفَرُ بعَمَلٍ شريفٍ، وبيتٍ يأوي إِليه، وبسعيهِ لتوفير كلَيْهما لكُلِّ من يستغيث به.

بفضل ذلك الجيش الَّذي بات له قائدًا، غدا بإِمكانه أَن يصرُخَ في وجْه المسؤولين غير هيَّابٍ، وأَن يقوم بدوْر النَّبيِّ الَّذي يُنَدِّدُ ويُزعج، ويهتك أَقنعة المظالم، والقَسْوة، وصَغارات المُجتَمع.

ولم يكن إِزعاجُه مقتصرًا على المسؤولين السّياسيّين، بل إِنّه امتدَّ إِلى كلّ من

يستطيع ولا يفعل، ولم ينجُ منه حتّى رؤساء دينيّون رفيعو المقام. فذاتَ يومٍ كتب إلى أُسقفٍ علّهُ يُؤازره على مواجهة مدِّ البُؤس الزّاحف نحوه، فدعاه الأُسقف إلى عشاءٍ ضمّ نخبةً من المسؤولين الدّينيّين والمدنيّين والمُتموِّلين، بحيثُ يُفسِح له فرصةً كي يعرض عليهم مشاريعَه واحتياجاته. وقد تألَّف العشاءُ من طائفةٍ غنيّةٍ من الأَطباق الفاخرة، الَّتي كانت ما برحتْ نادرةً في تلك الأيَّام العصيبة التي أَعقبت الحرب. وفيما كان المدعوّون يتمتّعون بتذوُّق تلك المأكولات المُرهفَة، كان الأَبُ پيير مُطرِقًا، ساهمًا، لا يمدُّ إلى الطَّعام يدًا، ولا يشارك في الأَحاديث المَرِحة بكلمة؛ وانعطف نحوه الأُسقفُ مُعاتبًا إيَّاه على إزرائه بآداب الضيافة، فأَجابَه بحَزْمٍ وبصوتٍ مرتفِعٍ سمعَه الجميع: "**إنَّ الأَطعمة الفاخرة الَّتي التهمتوها الآن، أَيُّها السَّادة، كافيةٌ لإطعام ثلاثين فقيرًا عندنا طيلةَ عدَّة أَيَّام!**"

وفي صباح اليوم التّالي وَرَدَتْهُ رسالةٌ من الأُسقف، فضَّها مُتَوجِّساً أَن يقرأَ فيها المزيدَ من اللَّوْم والعتاب، فإذا بها تحمل هذه العبارة، وقد دوَّنها الأسقف بيده: "**شُكرًا لما قُلتَه لنا أَمس، فقد كان كلامُكَ مُفيدًا لنا**". وقد أَرفَقَ برسالتهِ شيكًّا لمساعدة فُقَراء الأَب پيير.

وذاتَ يومٍ، جاءَه رَجُلٌ شيخٌ مرتعدًا، حاملاً رسالةً من مُرشِدٍ روحيٍّ لأَحَد مشافي باريس، أَفاض، على مدى ثلاث صفَحاتٍ، في الإشادة بنشاط الأَب پيير وإنجازاته الإنسانيَّة، وأَضاف، في ختام الرِّسالة، أَنَّ ذلك الرَّجُلَ المسكينَ، الخارجَ من المشفى لا يستطيع عملاً، ولا يملك ملجأً، ولذلك يُوكلهُ إليه. وكان لا مَفَرَّ للأَب پيير من استقبال ذلك الرَّفيق الجديد، ولكنّه، في تلك اللَّيلة، دبَّجَ لصديقه الكاهن المُرشد جوابًا ناشدَه فيه أَن يُوفّر، في المرَّة القادمة، ثلاثَ صفحاتِ ثناءٍ، ويُرسل لجماعة "عمَّاوس" ما يستطيعون اطّعامَه.

بمثل هذه المشاعر أَنهى الأَبُ پيير مَهامَّه البرلمانيّة في ١٧ حزيران ١٩٥١، كي يَقِفَ جُهودَه على الواقع الوحيد الثَّابت: واقع الأَلَم والظُّلم الَّذي لن يكفَّ، يومًا، عن مكافحته بكلِّ طاقاته، بلا تحفُّظٍ ولا هوادة.

وبهجره تمثيلاً محدودًا، ترسّخ لديه اليقينُ بأَنّه بات صوتَ مَن لا صوتَ لهم، الَّذين لا يُحصى لهم عددٌ. وهذا ما عبّر عنه، بُعَيْد قليلٍ، عندما خطب في مجلس

اتّحاد البرلمانات الفيديراليّ العالميّ في لندن، إذ استهلَّ خطابه بالقول: "**إنّ من يُخاطبُكم الآن لم يعُدْ مندوب برلمانيّين، بل مندوبَ جماعةٍ من البؤَساء. لم أَشعر قطّ، أنّني نائبٌ، مثلما شعرتُ بعد هجري البرلمان، إذ باتَ بوسعي أن أُشارك، أكثر من أيّ وقتٍ مضى، في حياة الوضيعين والضُّعَفاء، الَّذين لا صوتَ لهم، وبتُّ أُدرِكُ، أكثرَ من قبلُ، أنّني مسؤولٌ عنهم، ومُنْتَدَبٌ لتمثيلهم**".

وقد اعترى مُستمعيه الشُّعورُ بأنّ صفَتَه هذه، كناطقٍ باسم الشَّقاء البَشَريّ، تُسبغ عليه من النُّفوذ، أكثر ممّا كانت تَهَبُه صفتُه البرلمانيَّة.

المتسوّل

بعد أن هَجَرَ الأَبُ البرلمانَ سُرَّ الرفاقُ بقضائه وقتًا أَطول معهم وإلى جانبهم؛ ولكن ربَّما غرُب عن بالهم ما كان يُقلقُه ويقضّ مضجع أَمينة سرّه: تدبُّر المال اللاّزم لمعيشتهم، ولا سيَّما أنّ عددهم قد ارتقى إلى ثمانية عشر، وأيضاً لمواصلة بناء مساكن للمُشرَّدين الَّتي كانت الحاجةُ إليها تزدادُ لجاجةً كُلَّ يومٍ. أَيقول لرفاقه: ما عدتُ قادرًا على إطعامكم، فعودوا إلى التشرُّد، والسُّجون، واليأس؟ أم يُصرِّح للأُسر التي لا مأْوى لها، بعد أن أَنجز لأُسرٍ أُخرى اثنين وخمسين مسكنًا: "ما عاد بمُكنتي الاستمرارُ في بناء بيوتٍ لكم، فعودوا إلى حيثُ كنتم، وواجهوا بؤْسكم بمفردكم"؟!

لم يكنْ بوسعه حتّى أن يتخيَّل مثل تلك الاحتمالات؛ وبعد أن أَنفق كُلَّ تعويضاته النِّيابيَّة، وباعَ كُلَّ ما كان يمتلك من ذكرياتٍ، مثل سجَّادةٍ مَغْربيَّةٍ كان البَحَّارةُ قد أَهدوها لمُرشدهم، وتُحَفٍ من العاج قُدِّمتْ له في أَفريقيا، أَيَّام المقاومة، وحتّى نُسَخ الجريدة الرسميَّة التي تكدّست لديه منذ دخوله البرلمان؛ وبعد أن عملت أَمينة سِرِّه، نصفَ النهار، موظَّفةً في إحدى المؤسَّسات، كي ترفُدَ براتبها موارد "عمّاوس" الآخذة في النفاد، جاء يومٌ، في نهاية عام ١٩٥١، اضطُرَّت الآنسة كوتاز أن تُصَرِّحَ بأسًى: لم يعُدْ لدينا ما نبتاعُ به خبزًا، غدًا.

وكما أَلِف أن يفعل كُلَّما واجه مُشكلةً مُستعصيةً، جثا الأَب في المُصلّى، ساعاتٍ طويلةً، ورأسه بين يدَيْه، ثمّ أَعلن للآنسة كوتاز أَنَّه لن يعود إلاَّ في وقتٍ مُتأَخِّرٍ من اللَّيل.

كان قد وَطَّنَ العزمَ على التَّسَوُّل، على غرار مُعلِّمه القدِّيس فرنسيس الأَسّيزي،

ولكن ما أَبعد القرون الوسطى، حيثُ كان تَسَوُّل الرُهبان أَمرًا شائعًا تعترف به التَّقاليد، عن القرن العشرين حيثُ غدا التَّسوُّل عارًا ومهانةً!

ومع ذلك قرَّر الأَب پيير أَن يُسْبغَ على تَسَوُّله بُعدًا اجتماعيًّا يُصيب به هدفَيْن معًا: الاحتفاظ بالرِّفاق، ومواصلة البناء من جانبٍ، ومن الجانب الآخر إِيقاظ الأَذهان والضَّمائر على مآسي فئةٍ عريضةٍ من المجتمع: وفي هذا السَّبيل دبَّجَ منشورًا مُلتهبًا، رضيَ أَحدُ النَّاشرين أَن يطبع له منه بضعَ مئات النُّسَخ، دَيْنًا، وراح يُوزِّعُه في المقاهي والمطاعم والشوارع المتلألئة بالأضواء، وفي الدَّوائر الحكوميّة، وهو يستعطي، مادًّا يده، هو ابن الأَغنياء، من أَجل خُبْز إِخوته وسَكَنِهم، ثائرًا باسم يسوع المجروح في إِخوته المنبوذين.

لم يكن تسوُّله استعطاءً لبضع دُرَيْهماتٍ فحَسْبُ، بل كان، أَيضاً، هزًّا للضَّمائر الغافية، واقتحامًا للقلوب الموصَدة، فيَدُه، قبل أَن تمتدّ لتناوُل وُرَيْقاتٍ ماليّةٍ أَو قِطَعٍ نقديَّةٍ، كانت تدفَعُ بيانًا بُركانيًّا يقذف حِمَمًا حارقةً.

وقد استهلَّ جولَةَ تَسَوُّله من الأَماكن التي كان يرتادُها لأَشهرٍ قليلةٍ خَلَتْ، من البرلمان ومُحيطه. بعضُ من استعطاهم كانوا يَقْذِفون بمنشوره أَرضاً، ويقذفونه بالشَّتائم، وآخَرون كانوا يُلقون بين يديه ببضعة فرنكات، غير مكترثين، كما يفعلون مع مُتَسوِّلي الطرقات، ويرمُقونه بنظرة ازدراءٍ؛ البعض كانوا يجادلونه حولَ مُحتوى بيانه، وآخَرون كانوا يقرؤونه بتمعُّنٍ وتأَثُّرٍ وقناعةٍ، ويجودون بما تيسَّر لهم. وكانت، ثمَّة مبادراتُ سخاءٍ مدهشةٌ، فقد اتّفق، مثلاً، أَنَّ مُتَسوِّلاً مُتَسَكِّعًا التقط نسخةً من بيان الأَب پيير كان أَحدُ السَّابلة قد رماها على الرَّصيف، وبعد أَن قرأَها سعى راكضاً وراءَ الكاهن، الَّذي أَمسى له، في تلك الليلة، زميلاً، وقذف بين يدَيْه بكلِّ حصيلة تَسَوُّله في ذلك اليوم.

كم كان يوحي بالصِّدق والنُّبل ذلك المُتَسوِّلُ الغريب، في جبَّته الكهنوتيّة الخَلقة، المزدانة بأَوسمةٍ غالبًا ما تحميه من عدوان نظامٍ لا يكُفُّ، هو، يفضَحُ زيفَه ورياءَه وتقصيرَه، وبوجهه النَّحيل المكسوِّ بلحيةٍ دكناء، وبَسْمته التي يمتزج فيها العطفُ والحزنُ، الدماثةُ والثَّورةُ المُتأَجِّجة! من خلاله كان يتراءى طيفُ مُعلِّمه الَّذي عَبر كَوْنَنا عطوفًا على البُؤْس، شافيًا الأَسقام، صارخًا في وجه المُستغلّين، جالدًا الفرِّيسيِّين والمُرائين بلاذع كلامه، شامخًا، متواضعًا، وحيدًا.

وكم رانت الوحدةُ، في تلك اللَّيلة، على صَدْر الأَب پـيير، ولا سيَّما وهو يُجيل في خاطره أَنَّ التسوُّلَ قد يُقيم أَوَد رفاقه بضعةَ أَيَّامٍ، ولكن ماذا عن الأَيَّام التَّالية، وعن البائسين الكُثر الذين سيقف أَمام بُؤْسهم عاجزًا. قد تهزُّ صرختُهُ المُدوِّيةُ البعضَ، لحظات، ولكنَّ العالَم، في مجموعه، سيظلُّ ذلك المزيجَ المُتضارب من أَثَرةٍ وأَلَمٍ، من مُتعٍ ويأْسٍ، من بَطَرٍ وإِملاقٍ، من مالٍ فائضٍ يُهدَر على كلِّ مُخْزٍ، ومالٍ كالسَّراب لا يني يسعى في إِثْره من هم في أَشدِّ حاجةٍ إِليه فلا يُصيبونه، ويسبِّب لهم فقدانهُ أَوْجَع المآسي؛ هنا ضحكٌ وتهكُّمٌ ولا مبالاةٌ، وهنالك دموعٌ ويأْسٌ وموت!

كان يُدرك أَنَّ عمله قد لا يُؤتي سوى نتائجَ ضئيلةٍ، ومع ذلك عليه الإِقدام على ما يستطيع، والربُّ كفيلٌ بالنتائج، عليه أَن يوري ثقابًا في كثافة الظُّلمات، يُنير به خطواتِه، وقد يُنير خطوات آخَرين، علَّ مزيدًا من المشاعل توقَد من بعده.

وكم تجاذبتْه، تلك الليلةَ، من مشاعرَ عنيفةٍ ومُتضاربةٍ، اختلطَ فيها الإِقدامُ والمرارةُ، الثَّورةُ والمهانةُ، وعندما فاضتْ بكلِّ تلك المشاعر نفسه، انتحى زاويةً مظلمةً من الشَّارع، وأَطلق العنان لدموع صامتةٍ، حارقةٍ، غزيرةٍ، امتزج فيها الإِعياءُ والفَرَح، الخِزْيُ والاعتزازُ، وغمر نفسَه السَّلامُ والرِّضى، لأَنَّه تجاسَر على ما كان يخشاه، مُتحدِّيًا، في ذلك، ذاتَه، منتصرًا عليها.

وقد اعترف، لاحقًا، بأَنَّ تلك اللَّيلةَ كانت حَدَثًا من أَخطر أَحداث حياته، فالرَّاهب عندما يَنْذُرُ الفقرَ وهو محاطٌ بكُلِّ ضمانات الجمعيّة التي يعيش فيها، لا يُقدِمُ على مخاطرةٍ حقًّا. أَمّا التَّسوُّل، فكان له بمثابة وُلوج عالَمٍ جديدٍ، وبإِقدامه عليه اعتراه مثلُ شعور من يبلغُ قِمَّة جبلٍ، ويسيح في يَمِّ هوائها الْمُنْعِش، في أَعقاب مسيرةٍ طويلةٍ، اختفت، أَخيرًا، آفاقُ نهايتها.

وعندما عاد إِلى "عمّاوس" في أُولى ساعات الفجر، مُنهَكًا ولكن سعيدًا، أَيقظ الآنسة كوتاز، ووضع بين يدَيْها حصيلةَ استعطائِه التي ستُمكِّنُها من إِطعام الجماعة، ومواصلة مشاريع البناء. وحَدَجتْه أَمينةُ سرِّه بحُزنٍ، وقد أَدركتْ ما قام به، وعاتبَتْه برقَّةٍ:

– "أَلم يكنْ بوسعك اللُّجوءُ إِلى وسيلةٍ أُخرى"؟

فلم يُجِب، بل مضى إِلى سريره، لإِصابة بعض الرَّاحة، ثمَّ أَعاد الكرّة ثماني ليالٍ متعاقبة.

وغداة ليلة تَسوُّله الأُولى جاءَه البريد برسالةٍ احتوت ورقةً ماليّةً ضئيلةَ القيمة مربوطةً بنُسخةٍ من المنشور الذي كان يوزّعه أَثناء استعطائه، وقد دوّن المرسلُ عليه هذه الملاحظة: "**أَمسِ، في شارع سان جرمان، قابلتُ كاهنًا، وقد أَعادني هذا اللّقاءُ إلى إله طفولتي. شكرًا**". وقد سلَّم الأَبُ پيير الورَقة النَّقديّة إلى أَمينة سرّه، أَمّا البيان الحامل تلك الملاحظة فقد علّقه على جدارٍ مُقابلَ سريره، حيثُ احتفظ به سنواتٍ طويلةً، وقد أَلِف أَن يقول عنه لزائريه: "**ربَّما هذه هي بطاقتي، بأَجرٍ مُخفَّضٍ، إلى الفردَوْس**".

أمّا نصّ البيان الذي كان الأَب يُوزّعه في ليالي تسوُّله، فيقول:

« **ما جدوى حياتهم؟**

في غمرة القرن العشرين، في غمرة العلم،

في أَحضان بلادٍ يُقال إنَّها مسيحيَّة؟

هذه هي جدواها:

– **لا مأوى، لا ملجأ، لا مسكن.**

– **الأجرة...: عشرة آلاف فرنكٍ عن خمسة عشر يومًا** (فرنكات قديمة يساوي كلٌّ مئةٍ منها فرنكًا جديدًا حاليًّا).

– **لقد مات طفلٌ، هنا، على بُعد خطواتٍ منك، هذا المساء، لأَنّ ذويه لا يملكون منزلاً ولا مالاً.**

– **وما هو مستقبلهم؟ ربَّما الحربُ، أَو الفِتَن؟ ومن المؤكَّد: الرُّعبُ. أَجل، ما جدوى حياتهم. وهم أُلوفٌ، أمام باب منزلك؟ ولكن، في آنٍ واحد، هناك آخَرون ينعمون بعائدات الأَسهم، والعمل السَّهل، والرَّواتب الجزيلة، وجَلَسات السَّمر والضَّحك، والسهرات السَّخيفة بكلفة عشرة آلاف فرنك للفرد الواحد!**

– **وأَنتَ، وَسْط هذا الجنون، وذلك اليأْس؟ ما أَنت، وما فعلتَ؟**

– **هل أَنت أَحدُ المَحْظيّين الَّذين لا يَحْفَلون بما حولهم، ولا يعرفون الرأفة، وإِن هم أعطوا إِحسانًا، لا يُعطون إلاّ إِذا كان هناك من يراهم؟**

– **هل أَنت الجارُ، أوْ أَحدُ السَّابلة، اللاّمبالي، الغارقُ بأكمله في همومه الصَّغيرةِ الخاصّة، والَّذي لا يُلقي نظرةً على أَيِّ شيءٍ يتعدَّى ذاته؟**

– أَو هل أَنتَ ممَّن يُعانون ويكافحون مع المتألِّمين؟ ولكن هل تفعل كلَّ ما تستطيع، وكلّ ما يتوجّب فعله، إزاء كلّ تلك المعاناة؟

أنتم، يا جميع الَّذين يستطيعون، أَسأَلكم الرأفة والعدل! وإلاّ فخافوا، خافوا اللعنةَ والغضبَ، غَضَبَ البشرِ وغَضَب الله، فإِنّ الله، الحبَّ اللاّمحدود، يمقُتُ مَقْتًا أَبديًّا الظلم وقسْوةَ القلب.

أَنتم، يا جميع من يستطيعون...

لكي تزولَ كلُّ هذه الآلام، ناضلوا بكلِّ ما تملكون من وسائل، في مواجهة الأَغنياء، وفي مواجهة الدَّولة، وفي مواجهة السُّلطات الدَّوْليّة، في أَيّةٍ من المُنَظمات العالَميَّة المُضطَلِعة بمثل هذا النِّضال، الَّتي يقع عليها خيارُكم.

ناضلوا كي يستعيدَ اليائسون حقَّهم في الحياة.

ناضلوا كي يُحَبّ اللهُ، أَخيرًا، في كُلِّ أَخٍ بائس،

وأَعطوا، في الحال، اليومَ، وكلَّ يومٍ، كلَّ ما تستطيعون،

أَعطوا لأَنّ أطفالاً، في هذا المساء، يتضوَّرون جوعًا، ويرتعدون قرًّا، ويموتون افتقارًا إلى ما يُبقيهم أَحياء.

أَعطوا لأَنّ آباءً وأُمّهاتٍ، في هذا المساء يُجدِّفون، إِذ لا أَحدَ يُعيرهم خَشَبًا أَو صفائح معدنيّةً يستطيعون بها إِنشاء ملجأٍ يحمي أطفالهم السُّقَماء.

أَعطوا ممَّا يفيضُ عنكم.

واعلموا أَنَّ هناك من يُعطون، كلَّ يومٍ، كُلَّ شيءٍ،

في منطقة "تويّي پليزانس"، في قلب الضَّاحية، حيثُ "عمّاوس" وهي جماعةٌ من العمّال، تُؤوي من لا مأوى لهم،

تبني في الضَّواحي قُرًى للأسَر التي تفتقر إلى مَسْكنٍ،

تبني داراتٍ خَشبيّةً، وتُعِدُّ أَسِرَّةً، وقاعةَ طعامٍ،

ومُصلًّى متواضعًا

ومن كلِّ صوبٍ تتقاطر، كُلَّ يومٍ، كلُّ أَصناف البؤس.

علينا أَداءُ أكلاَف الأبنية،

علينا أَن نُطعمَ، ونُدفئ، ونَكْسِيَ القادمين الجدُد.

وأَن نملك وسائلَ تأمين عملٍ للجميع،
علينا إِقراضُ الأسَر التي تُبنى لها مساكن،
وإيجاد أَراضٍ جديدةٍ للإِعمار، وموادّ بناءٍ،
يلزمنا مال،
ولكن، فوق كلّ شيءٍ، يلزمنا رجالٌ عازمون على إِعطاء حياتهم لمثــل هــذه الحياة، لأَجَلٍ مُحَدَّد، أَو على الدَّوام.
فبادروا إلى نجْدة من يفتقرون إلى كُلِّ شيءٍ،
بادروا إلى نجدْةِ من يُناضلون ليتخلَّصوا من براثن التشرُّد؛
أَنجدوا الكبارَ والصّغارَ، الجائعين والمقرورين؛
ساعدونا كي نُساعدَ الآخرين،
هيّوا، أَعطوا، هَبُوا ذواتِكم بلا تردُّد،
شكرًا ».

وكان البيان موقَّعًا كالتالي:

« الأَب پـيير (مرشد سابق للمقاومة في ڤـيركور، مرشــدٌ روحــيٌّ فخــريٌّ للبحريّة، نائبٌ سابقٌ في المجالس التشريعيَّة والمجلس الوطنيّ، أَمين سرٍّ سابقٌ للجنة الدفاع الوطنيّ، رئيس المجلس التنفيذيّ للحركة الكونية للفيدير اليّة العالميّــة، نائــب رئيس اللجنة الدوليّة لاتحاد المنظمات من أَجل السَّلام، عــضو المجلــس التنفيــذيّ العالميّ لجمعيّة الشعوب التشريعيَّة، المسؤول عن جماعة "عمّاوس". »

جامعو النفايات

ثلاثةٌ من الرّفاق قرعوا باب الأَب پـيير، ودخلوا متجهِّمين، معاتبين:

– لقد أَخْبَرَتْنا إِحدى الجارات أَنّها، فيما كانت خارجةً مــن دارٍ للــسينما، ليلــةَ أَمس، رأتك تستعطي على قارعة الطريق. عندما نحن نفعل ذلك، تُؤَنّبنا، ولكنّك، أَنت لا تتحرّج... طالما قلتَ لنا أَنَّ التَّسوُّل لا يليق بإِنسانٍ؛ إِنّنا نأبى أَن تــستعطي مــن أَجلنا.

– "ولكن لم يكن لدينا ثمن الخبز!"

فردّ عليه المُلقَّب "بعوضة":

– « لمَ لمْ تُعْلمنا؟ أنا أَعرف وسيلةً للحصول على المال اللاّزم.

– "وهذا ما أَودى بك إلى السجن"! أَجابه الأب، مشيرًا إلى ماضيه في اللصوصيَّة.

– "صحيحٌ أَنّني كنتُ أُجيد السَّرقة، غير أَنّني أُجيد، أَيضاً، مهنةً أُخرى، كان من شأنها أَن تجعلني غنيًّا، لو لم أكن أُنفِقُ كُلَّ مكاسبي منها على الشَّراب. وهي كفيلةٌ بإِعالة الجماعة، ومتابعة البناء، إِن أَنت نظّمتَنا، وراقبتَنا، ومنعتَنا من إِنفاق ما نكسبه على الخمرة ».

وراح "البعوضة" يتبسَّطُ في شَرْح مهنة جمع النِّفايات من القمامة، وكان الأَب ما زال مُرتابًا فقال:

– « أَن تكسب ما تبتاع به كِسْرةَ خبز وليترًا من النَّبيذ شيءٌ، وإِعالةُ ثمانيةَ عَشَرَ نفرًا، وتمويل ورشة "شقائق النُّعمان" شيءٌ آخَر.

– صدّقني، أَبتِ، إِنَّ جمع النِّفايات، إِن هو تمَّ بإِشرافكم، سيُوفِّرُ لنا دخلاً سيُمكّننا من تحقيق جميع مشاريعنا. ودعني أُضِفْ أَمرًا آخَر: عندما جئتُك يائسًا واستقبلتَني، أَنقذتني. وأمسِ، رحْتَ تستعطي ثمن طعامنا، فأَعطني الفُرصة كي أَخدُم كما أَعرف أَن أَفعل.

– على بركات الله ».

هل خَطَرَ ببال الأَب پيير أَنَّ "عمّاوس"، بفضل هذا الحوار، كانت تندفع في مُنْعَطَفٍ مصيريٍّ، وتتَّجه في المنحى الَّذي سيُحدِّد مسيرتَها، ويُسبغ عليها طابعَها المُميَّز الذي به ستُعرَف في شتَّى بقاع المسكونة؟

وفي الغداة، انطلق "البعوضة" بكيسٍ على ظهره، وكلاّبٍ بيده، نابشًا من القُمامة ما يمكن الإِفادة منه وبيعه؛ ولمّا عاد، مساءً، بحصيلةٍ وافرةٍ صرَّح: "لا بدّ أَن يرافقني آخرون".

في اليوم التَّالي، انضمّ إليه رفيقٌ آخَر، وقد استعانا بعَرَبة أَطفالٍ خَلِقةٍ لنقل حصيلتهما؛ وسُرعان ما ارتقى عددُ جامعي النّفايات إلى عشرةٍ كانوا يستعينون بعربة نقلٍ كبيرةٍ، وما لبثوا أَن جمعوا مقدارًا كافيًا من المال لابتياع شاحنةٍ. ونظَّمت الجماعة، في هذا المضمار، نشاطَها، ثُمَّ انقسمتْ إلى فئتين: فئةٍ تجمع النّفايات،

وتُصنفِّها، وتبيعها بأَفضل الأَسعار، وفئةٍ تواصل بناء المساكن للأُسَر المُشرَّدة.

بيدَ أَنَّ فترةَ التفاؤُل تلك لم تدُمْ طويلاً، إِذ سُرعان ما تبيَّنَ لموظَّفي الحكومة المُكلَّفين بجمع القمامة، في المنطقة الَّتي كانت مسرحًا لنشاط رفاق "عمّاوس"، أَنَّ تلك القمامةَ كانت، يومًا إِثْرَ يومٍ، تفقد محتوياتها من الأَشياء القيِّمة الَّتي كانوا، من قبل، ينتقونها كي يرفدوا برَيْع بَيْعها، رواتبَهم الضئيلة؛ وما لَبثوا أَن اكتشفوا من كان يسبقُهم إِلى اصطياد تلك الغنائم، فنَشِبَ بينَهم وبين رفاق "عمَّاوس" صدامٌ كاد ينقلب مَجْزرةً، لولا أَنَّ أَحد الرفاق قال:

– « نحن لا نعمل لأنفسنا، بل لأَجل المُشرَّدين الذين يبني لهم الأَب پيير مساكنَ مجّانًا".

– "ونحن نعمل لأَجل الرُّوح القدس" قال جامع نفاياتٍ حكوميٌّ، متهكِّمًا. غير أَنّ زميلاً له كان قد التجأَ، قُبَيْل ذلك، إلى الأَب پيير الّذي وعدَه ببناء مَسْكنٍ له، فهدَّأَ روعَ زُملائه، وأَيّد أَقوال رفاقِ "عمّاوس"؛ فاحتكم الجميعُ إِلى الأَب پيير الَّذي أَبى أَن يُسلب الموظَّفون شيئًا من رِزْقِهم، وأَوْعزَ إِلى رفاقه بالكفِّ عن مُنافستهم ».

إِلاّ أَنّ أَحد الموظَّفين هدى الأَبَ إِلى وسيلة تمويلٍ أَجدى، عندما اقترح:

– « لِمَ لا تعكفون على تحرير الأَقبية والأَهراء ممَّا تكدَّس فيها من نفايات غالبًا ما يكون أَصحابُها قد ضاقوا بها ذَرْعًا، ممّا قد يوفّر لكم مالاً وفيرًا؟ »

وباتَ لرفاق "عمّاوس" اختصاصٌ جديدٌ. وقد ساعدهم جامعو النّفايات الحكوميّون، بادئَ الأَمر، إِذ أَخذوا، أَثناء جولاتهم اليوميَّة، يُوزِّعون، كلَّ يومٍ في حيٍّ، قُصاصاتِ وَرَق تقول: "غدًا سيمرّ جامعو نفايات "عمّاوس" لجمع ما أَنتم فِي غنًى عنه من أَسِرَّةٍ وفُرُشٍ، وأَغطيةٍ، وأَثاثٍ، وأَلبسةٍ قديمة، وأوراقٍ، ودُمى مستعملةٍ، افتحوا لهم أَبوابكم، وسيقول لكم فقراء كثيرون: "شكرًا".

وغدت الشَّاحنةُ القديمةُ تقوم، كلَّ يومٍ، بالعديد من الجَوْلات بين الأَقبية والأَهراء و"عمّاوس"، وتعود، في كلِّ جولْةٍ، مُثقلةً بحمولاتٍ حافلةٍ بكلِّ عتيقٍ يُفرَز، ويُصنَّف، ويُصلح، ويؤَهَّل للاستخدام من جديدٍ، في "عمّاوس"، ومن هناك يأْخُذُ طريقَه إلى سوق المَتاع القَديم، حيثُ يتحوّل إلى مالٍ يُطعِمُ رفاقَ الأَب پيير، ويُمكِّنهُم من مُواصلة جهودِهم في إِسكان المُشرَّدين.

ومع تزايد عدَدِ جامعي النِّفايات، واتّساع نشاطهم، أُضيفت شاحنةٌ أُخرى إلى الشَّاحنة القديمة، غير أَنَّ الشاحنتَيْن كلتَيْهما كانتا هَرِمتَيْن، مُنهكتَي القِوى، وكانتا تأْبيان الإِقلاع، ولا سيَّما في الأَيَّام الباردة، وكان لا بُدَّ من تجنيد عددٍ غفيرٍ من الرِّفاق لدفعهما. وعلى ذلك علَّق الأَب پيير ساخرًا: "**لو لم نكن نسكن في قمَّة شارعٍ مُنحدِرٍ، لما كُتِبَ لعمّاوس العَيْشُ. فلولا المُنْحَدَر لما انطلقت الشاحنات، ومن غير شاحناتٍ لكُنّا افتقرنا إلى سلَعٍ نبيعها، ولولا المبيعات لافتقرنا إلى الموارد الَّتي كانت توفِّر لنا أَوَدَ العيش، وإِمكانيَّةَ إِيواء الأُسَر المشرّدة**".

وهكذا أَفلحَ من كانوا نفاياتٍ بشريَّةً، بجمعهم نفايات الأَغنياء، في معالجة بُؤْس المنبوذين المقهورين، وكفكفة دموعهم، في حين وقَفَ الميسورون والقادرون، حيالَ بُؤْس الآخرين، غيرَ مبالين.

حبّة الخردل تنمو

كان العملُ، سواءٌ في جمع النِّفايات أَو في بناء مساكن الطَّوارئ، ماضيًا في الاتِّساع، وباتت "عمّاوس" قِبْلةَ كُلِّ طالب عملٍ وملجأٍ. وبعد إِذ كان عدَدُ الرّفاق الذين تسوَّل الأَب پيير لإِطعامهم ثمانية عشر، ارتقى، بعد شهرين إلى ثلاثين، فخمسين، وظلّ في تزايُدٍ مُطّرِد.

كلُّ طارق بابٍ يُؤَهَّل به، من غير أَن يُسأَل عن هويَّته وماضيه وآرائه وثقافته. حَسْبُه أَن يكون راغبًا في مساعدة من هم أَعمق منه إِيغالاً في دَرَكات البؤس، ومؤمنًا بمبادئ "عمّاوس" الأَساسيَّة: العمل، والمشاركة والعطاء. منذُ الوهلة الأولى يقال له: سنعمل معًا على إِيقاظ الضمائر، وهزِّ من لا يفتقرون إلى شيءٍ، وسنُصارحهم: اُنظروا إِلينا، نحن حُثالة البشر ونفاياته، واشهدوا ما نستطيع تحقيقه بفضل الحبّ الَّذي يحدونا. بفضل عملنا، نحن المهانين نتمكّن من الارتقاء إِلى ترَف أَن نكون محسنين. وعلى أَيّ حالٍ، نحن وأَنتم نعرف المهانة، أَنتم لأَنَّكم، وإِن كنتم لا تفتقرون إِلى شيءٍ، تعيشون في رَغَدٍ، بمعزلٍ عن الآخرين، ونحن لأَنّ مآسي الحياة حطَّمتنا، فبتْنا نشعرُ أَنَّا نافلون، لا جدوى منّاً. ولكنّنا خَبَرنا سعادةَ العطاء، وفَرَح تحدّي الضمائر، فنحن لا نحتفظ حتّى باليسير الَّذي نكسبه بكدحنا، بل نَهَبُه مَن هم

أَشدُّ منّا فاقةً. وبوسْعنا تخيُّل موقف الغنيّ الَّذي يشهَدُ أَحدَنا، في ليلة قارسةِ البَرْد، ينزع معطفه ليُلقي به على كتفَي من هو أكثر منه حاجةً وأَلَمًا، أَو يحرم نفسه الرَّغيف ليُطعمه إيَّاه. أَلا يتساءل الغنيّ، آنذاك: "هذا الَّذي لا يملكُ شيئًا يُعطي، وأَنا الّذي أَملك الفائض، ماذا فعلت؟" وكان الأَب پيير لا ينِي يردّد على مسامع رفاقه:

– "**إِنّ ما نفعلُه ليس بالشَّيء الجسيم، ولكنَّه كالصَّاعق الّذي لا بُدَّ منه لتفجير القنبلة!**"

في البدء، عمد الأَب إلى توزيع جزءٍ زهيدٍ من عائدات جمع النّفَايَات على كلٍّ من الرِّفاق، ولكن سرعان ما اتّضح أَنّ ذلك "الراتب" كان يُنفَق مُعظمُه يومَ العطلة، على السُّكر، ويُسبِّب النّزاعات والصّدامات، ويُورِّثُ الخِزْي والنَّدَم. وسُرعان ما جاءَ الرِّفاق قائلين:

– "نحن لا أُسرَ لنا، فما جدوى إعطائنا المال سوى دفعنا إلى السُّكر والشِّجار"؟

لقد أَدركوا أَنّ "عمّاوس" ليست مؤسَّسةَ إعانةٍ اجتماعيّةٍ، ولا هي مشروعٌ تجاريٌّ، بل هي جماعةٌ يتقاسم فيها الجميعُ نتاجَ عملهم، ويتساوى، في ذلك، الجبَّارُ الشَّديدُ العزْم، والخائرُ القوى الَّذي يكاد لا يَصلُحُ إلاّ لتقشير البطاطا. أَمَّا حساب الأَرباح والخسائر فيُقاس بعدَد البائسين الّذين تمَّ إِنقاذُهم، والأُسَر التي أَمكن إيواؤُها، بحيثُ يستعيد حُطامٌ بشريٌّ الكرامة، ويعرف أَطفالٌ، أَخيرًا، الأَمانَ تحت سقفٍ يخصُّهم. صحيحٌ أَنَّ إِيواء عشر أسَر، أَو خمسين أَو مئة أُسرة ليس أكثرَ من قطرةٍ في خِضَمِّ البُؤس الجمّ، بيد أَنّ كلّ أُسرةٍ يتوفّر لها مأوى، تكتشفُ، أَخيرًا، سعادةً تجلُّ عن الوصف، وتدرك للحياة وجهًا مُشرقًا، وفي آنٍ واحدٍ، ينهض عمل رفاق "عمّاوس" تحدِّيًا اجتماعيًّا، ذا أَبعاد سحيقة.

رفاقُ الأَب پيير الأَوائل حثالةٌ وذوو سوابق، ولكنَّ الأَبَ لم يسأَلْ أَحدَهم، يومًا، عن هويّته أَو ماضيه، ولم يرَ فيه إلاّ معاناته، فعكف على معالجتها، بحمله على مساعدة الآخرين كي يوقِظَ فيه شعورَه بكرامته وجدواه. لقد كان يرى، في رفاقه أُولئك، ضحايا للحرب، والظُّلم الاجتماعيّ، والمرض، والأسَر المفكّكة، وسوء التربية، والفقر، وبالإِجمال أُناسًا نَشِب بهم البُؤْس، ولكنَّهم ما برحوا جديرين بالثّقة. لَفَظهم المُجتمعُ تعسُّفًا، ففتح هو لهم ذراعَيْه وقلبه، فهو لا يؤمن بأَنَّ أَيَّ إِنسانٍ ميؤوسٌ منه، ويثِقُ بالنّفس

الخالدة الكامنة خلف قشرة المظاهر الخشنة البشعة. وبعد أَن استقبلهم، ورعاهم، وجَدَهم أَكثرَ تضحيةً وودًّا وسخاءً من مُعظَم الّذين يدَّعون الرُّقِيَّ والفضيلة.

ما كان يجمعُهم هو اليأْس الَّذي كان آخذًا بخناقهم، والَّذي قضى عليه لقاؤُهم بذلك الكاهن المُلتحي، الَّذي أَخذ يحدَوْدِب من الإِرهاق، بقُبَّعته الفرنسيّة، وسترته الجلديَّة فوق جُبَّته السَّوداء، ونَظَراته الثاقبة، وعينَيه السَّوْداوَيْن الملتهبتَيْن عطفًا، وتلك الأُلفة العفويّة التلقائيّة الَّتي توحي بالاطمئنان.

معظمُهم كانوا يتخيَّلون الدِّين تَرَفَ بورجوازيّين، وسلوى راهبات، ومن ثمّ لا يُدركون سلوكَ ذلك الكاهن، ابن أغنياء، وبطلٍ من أَبطال المقاومة، ونائبٍ له صلاتٌ وثيقةٌ بذوي السُّلطان، ومع ذلك يُعايش، بكلِّ بساطةٍ ومودَّةٍ، الوضيعين، عديمي الشَّأن الاجتماعيّ.

وما انفكَّ عددُ الرِّفاق ماضيًا في تضخُّمٍ مُطَّرِد. وممَّن انضمّوا إلى الرُّوّاد، في تلك الفترة، محاسبٌ مُسرَّحٌ، عاطلٌ عن العمل، مُطَلَّقٌ، ومنهارٌ عصبيًّا؛ وشابٌّ أَقطع؛ ومحاربان سابقان تطاردهما ذكرياتٌ داميةٌ، وأَسيرٌ سابقٌ لدى النازيّين كان بطلاً وأَمسى حُطامًا؛ كُلُّهم ضحايا البُؤْس، وجريحو النفوس.

وانضمّ إِليهم أَيضاً طبيبٌ سابقٌ، لم يكن، في شبابه، يُقيم كبيرَ وزنٍ لواجباته المهنيّة، فارتكب جمًّا من الحماقات، وزُجَّ في السِّجن اثنتي عشرة سنةً بتهمة إِجراء إِجهاضٍ غير شرْعيٍّ. وأَخيرًا أَرسى في "عمّاوس"، تائبًا، واستعاد العزيمةَ والإِشعاعَ، وتولّى مركز مسؤوليّةٍ، وغزا بعطفه قلوب الرِّفاق. ولمّا أَشفى على نهايته، راح يُوصي الأَب پيير بإِخوته الأَكثر هشاشةً، وكأَنَّه أُمٌّ توصي بأَطفالها. وكان قد دوَّن في الصفحة الأَخيرة من الدَّفتر الذي أَلِف أَن يُسجّل فيه ملاحظات العمل اليوميّ: **"كنتُ قد فقدتُ كلَّ شيء: الأُسرة، والثَّروة، والمِهنة، والإِيمان، وكُلّ شيءٍ... وفي "عمّاوس" استعدتُ كلَّ شيءٍ... قولوا للأَب: ينبغي أَن تَستَمِرّ "عمّاوس".**

وقد استمرَّت "عمّاوس"، بفضل رجالٍ أَشدّاء، قطعوا كُلَّ الوشائج مع ماضيهم، القاتم في مُعظم الحالات، وأَخذهم الحماسُ بمُثُل خدمة المُتأَلِّمين، التي أَقنعهم بها الأَب پيير، فاندفعوا في مضمارها مُحقِّقين إِنجازاتٍ رائعةً. ومن أَبرز هؤُلاء الَّذين تبوّأُوا مراكز مسؤوليّةٍ آنذاك:

پـــيلاّني، الملقَّب "لولو"، الذي انضمّ إلى "عمّاوس"، عام ١٩٥٢.

كان شديدَ المِراس، وصاعدًا من أَعماق الهوّة. إنّه ثمرةٌ زواجٍ فاشلٍ، أُودعَ، منذُ طفولته، دورًا للعناية، ولكنَّه لم يَعهَدْ رعايةَ الأَهل يومًا، ولم يعرفْ، قطٌّ، الإشـــراقَ، فنما هامشيًّا، يتنقَّلُ باطّرادٍ من مكانٍ إلى آخر، ولا يلقى في أيٍّ من تلك الأَماكن حُبًّا، ولا يظفر بأكثر من اللُّقمة التي تقيه من الموت جوعًا؛ وفي سبيل تلك اللُّقمـــة كـــان يُقسَر على العمل في المزارع، ولم يتلقّن، قطّ، مِهنةً تُقيم أَوَده.

كان يحسُد أَترابَه الَّذين لهم أمٌّ تحنو عليهم، وبيتٌ يلوذون به. وعندما تنامى إليه أَنَّ "عمّاوس" هي ملجأ من لا ملجأَ لهم، فَزِع إليها، فظفر بالبيت والأَب والإِخوة، وما عتَّم أَن أَصبح من أَوائل المسؤولين فيها، وقاد فريق جامعي نفاياتٍ، محقِّقًـــا نتـــائجَ باهرةً، وعَقَدَ مع رفاقه علاقاتِ أخوّةٍ حارّة.

رولان الَّذي، على نقيض الآخرين، كان يعيش حياةً مستقرَّة، ولم يعرف، قـــطُّ، خَيْبات الأَمَل، وكان ماضيه مُنَزَّهًا من السَّوابق المُشينة؛ بيد أَنّ أَحد رفاق دراســـته، واسمه "پـــوشنو"، كان قائد واحدةٍ من أَشهر جماعات "عمَّاوس" تدعى "المشتل"، وقد اشتُهر أَعضاؤها بقساوة رقابهم. وكان رولان يهبُّ، في نهايـــات الأَســـابيع، لنجـــدة صديقه "پـــوشنو" ولمساعدته على ضَبْط الرِّفاق الَّذين كان السُّكر يحوِّلُهم، في تلـــك المناسبات، إلى بهائم جامحةٍ. وقد استهوتْه، أَوَّلَ الأَمر، عمليَّةُ الترويض هـــذه، ثـــمّ، شيئًا فشيئًا، تعلَّقَ به الرِّفاق، وتعلَّق هو بهم. وقد لحظ أَنّهم يتبدَّلون جَـــذْريًّا بمُجـــرَّد تحدُّثهم عن الأَب پـــيير، ومع ذلك كان يُخيَّل إليه أَنَّ الأَبَ من زُمرة أُولئك الحالمين الذين يتوهّمون القُدْرةَ على تسيير العالَم في الاتِّجاه المعاكِس، إلـــى أَن قُـــيِّض لـــه الاستماعُ إلى محاضرةٍ كان يُلقيها في كنيسةٍ فقيرةٍ من كنائس الـــضَّاحية الباريـــسيَّة؛ وفي الحال داخَلَه الشُّعورُ أَنَّه أَمام إِنسانٍ مُتميِّزٍ، ولم يلبث أَن اعترف له أَنَّه يعـــيش وَسْط مُجتَمعٍ ثُلاثيِّ الزَّوايا: فثمّة "المؤمنون" الّذين يتوقَّعـــون مـــن الله كُـــلَّ شـــيءٍ، و"العلميّون" الَّذَين لا يؤمنون إلاّ بمعجزات العِلْم، و"الخراف" الّذين لا همَّ لهم ســـوى سيَّاراتهم، وبرّاداتهم، وأَجهزة مطبخهم المُتطوِّرة، وعُطَلهم، وشتّى الأَصنام التي من أَجلها يعيشون. وصرّح "رولان" أَنّه لا يستطيع الانتماء إلى أَيّةٍ مـــن تلـــك الفئـــات، وبالتّالي يطغى عليه الشُّعورُ بالعَيْش وَسْط عالَمٍ فقد روحَه وكرامتَـــه. بيْـــدَ أَنّ الأَب

پـــيير صوّب تشخيصه هذا بقوله:

- بل إنّ ما تعاني منه هو "فراغ كونك وحيدًا".

وكانت هذه الكلماتُ الثَّلاث كافيةً لحمله على هَجْر حياتـــه الهادئـــة، الراكـــدة، والانطلاقِ مع الأَب پـــيير في مغامرةٍ قد يصفها البعض بالجنون.

جول الَّذي يروي بنفسه قصَّتهُ:

« قبل مجيئي إلى "عمّاوس"، كنتُ قد ذَرَعْتُ فرنسا من طَرَفٍ إلى طرف، نحو ثماني مرّاتٍ، فأَنا لا أَقوى على الاستقرار. كنتُ شابًّا وسيمًا ومُرْهَفًا، وأَملك القليـــلَ من المال.

"وذاتَ يومٍ التقَيْتُ، في باريس، أَحد أَصدقائي، وعملتُ معه في جَمْع نفايات الحديد. ولكنَّ رئيسَ الوَرْشة التي كُنّا نعمل فيها طرد صديقي، فهجرتُ العمل، أَنا أَيضاً، تضامُنًا معه. وتساءَلنا إلى أَين نذهب؟ وقال صديقي: "هل سمعتَ عن الأَب پـــيير"؟

- "أَيَّ شيءٍ تعني؟

- "إِنّهم جماعةٌ من الرِّجال كانوا غارقين فـــي الـــضّياع، ولكـــنَّهم بـــاتوا الآن يعملون، معًا، بقيادة كاهنٍ، ليُساعدوا آخَرين".

فاستبدّت بي الرَّغبةُ في رُؤْية ما حدَّثني عنه. وركبنا حافلةً، ثمَّ اجتزْنـــا، ســـيرًا على الأَقدام، زهاءَ كيلومترين، إلى أَن سَئِم رفيقي، فأبى مواصلة السَّيْر، فقلتُ لـــه: "إِن كنتَ راغبًا في العودة إلى باريس، فهذا شأنك، أَمّا أَنا فلن أَعود".

وانتهيتُ إلى "نويّي پـــليزانس"، وهناك قال لي الدكتور "ريبوفا" البلجيكيّ المُلحِد الذي انضمَّ إلى جماعة عمّاوس:

- "الأَب غير موجودٍ، ارجعْ غدًا.

- لا لن أَعود إلى باريس.

- انتظر، إِذن".

وبعد ساعةٍ ونصف السَّاعة، جاء الأَبُ پـــيير وبادرني بالقول: "لقد وصلتَ فـــي الوقت المناسب، فنحن في حاجةٍ إلى من يـــساعد جماعـــة "المـــشتل"، فـــي محلّـــة "پـــونتوكومبو".

وركبنا معه في شاحنة، وكُنَّا ثلاثةً، فهبطَ الأَوّلُ في محلّة "بــوا لابــي"، وهــي مركز جمع نفايات، كان الأَب يُشغِّلُ فيه محكومين، تحت رعايته؛ ونزل الثاني فــي مركزٍ آخر، أَمَّا أنا فجاء بي إلى "پــونتوكومبو"، حيثُ قدَّموا لي شيئًا من الطَّعام، ثمَّ اقتادوني إلى خيمةٍ حيثُ فرشوا قشًّا بمثابة سريرٍ، وأَلقوا عليّ ثلاثة معاطف عتيقــةً بمثابة غطاءٍ، وتركوني أَنام.

عندما استيقظتُ، صباحَ اليوم التّالي، رأيتُ أَطفالاً يسرحون في كُلِّ مكانٍ، ونحو خمسين كلبًا شاردًا، وأكواخًا، وخيامًا. زهاء أَربعين أُسرةً كانت تعيش تحت الخيــام، أَو في عرباتٍ نقّالةٍ، أَو في أكواخ. وكان أَرباب تلك الأُسَر يمــضون للعمــل فــي باريس، منذُ الخامسة صباحًا، ولا يعودون إلاّ في السَّادسة مساءً.

وسأَلتُ أَحدهم: "ماذا تعملون هنا؟"، فقال:

- "إِنّنا نجمع النفايات من المزابل".

في اليوم الأَوّل، انتابني الضّيقُ. عملتُ في المزابل، حيث كنّا ننــبش الأَحذيــة العتيقة، والعظام، وجلود الأَرانب، والورقَ، والورقَ المُقوّى، وكلّ ما يمكن الإِفــادة منه. وكُنّا نعثرُ أَحيانًا على عُلَب مأكولاتٍ محفوظةٍ، وعلى أَطعمةٍ ما زالت صــالحةً للاستخدام.

كان عليّ أَن أَبقى ستَّة أَشهرٍ عاملاً على هذا النحو، كي أُصبح مــسؤولاً فــي "عمّاوس". وقد بقيتُ بعدما شاهدتُ تلك الأُسَرَ مع أَطفالها في الوحل، وكلَّ ما كــان الأَبُ پــيير يفعلُ من أَجلهم.

كان، ثمَّةَ، ستَّةُ مراكزَ لجمع النّفايات يعملُ ويعيش فيها نحو مئتي شخصٍ.

ولكنّ الحياةَ لم تكن هناك سهلةً، فكنّا نقاسي من البرْد شتاءً، وكان الصَّيْفُ أَسوأ، بسبب الذُّباب. وذاتَ يومٍ، ضِقْتُ ذرْعًا، فهجرتُ المكان، وعملتُ لدى بــائع نفايــات حديدٍ. ولكن سُرعانَ ما استبدَّ بي الحنين إلى "عمّاوس"، حيثُ كنتُ أَضــطلع بعمــلٍ مُجدٍ للآخرين، فعدتُ إِليها.

الأَجر الَّذي كنّا نظفر به لا يتجاوز خمسة فرنكات أُسبوعيًّا، ولكن غالبًا ما كانوا يُغفلون أَداءَه لنا.

كنّا نعمل نحو ستَّ عشرةَ ساعةً يوميًّا، وبالإضافة إلى جمع النّفايات، كُنّا نُساعدُ الأُسَرَ على إصلاح أكواخها، وحلِّ مشاكلها المعيشيّة، والعناية بالأطفال عندما يكون الآباء غائبين أَو فاقدي الوَعْي من السُّكْر، في نهايات الأَسابيع. في أَيَّام الشّتاء العاصفة كانت الخيامُ تتطاير، وكان علينا إعادة تثبيتها وفَرْشُ قشٍّ جديدٍ، وترتيب الأَسِرَّة... أُمورٌ لا تُصدَّق على بُعد بضعة كيلومترات من باريس. في تلك الفترة، كان على الأَب پيير أَن يُؤَمِّن مأوى لنحو ستِّ مئة أُسرةٍ تحت الخيام.

وربُّما هذا ما حداني على المكوث في "عمّاوس"، فهو قد دعانا إلى مساعدته على مساعدة الآخرين، فقبلنا العناءَ لكيلا يُعاني الآخرون أكثرَ ممّا هم كانوا يعانون؛ ولكنَّ الأَمرَ لم يكن سهلاً.

ولم يكن، آنذاك، أيُّ نظامٍ يضبُطُ الجماعة، بل كان الأَبُ پيير والآنسة كوتاز، وحفنةٌ من الرِّجال الطَّيِّبين يقومون بكُلِّ شيءٍ، ويحاولون ضَبْط كُلِّ شيءٍ ».

پول: أَحَدُ أَبرز وُجوه "عمّاوس".

إِنَّه سليلُ أُسرةٍ بورجوازيّةٍ كانت تتعاطى الأَعمالَ المصرفيَّة منذُ أَجيالٍ؛ تابع دراستَه عند اليسوعيّين، وأُولِعَ بالموسيقى والرَّسم، وأَمضى شبابًا سعيدًا مُنعزِلاً، وعَمِلَ، فترةً، في مصرف والده. ثمّ استبدّت به روحُ المغامرة، وقضى خدمته العسكريَّة في المغرب؛ وبعد فترة عملٍ أُخرى في مصرف الأُسرة، هاجر إلى المغرب من جديدٍ حيثُ عمل في مصنعٍ للسجّاد، وتزوّج، ثمّ تطوّع في الجيش؛ وفي أَعقاب وفاة والده غامر في مُضاربات ماليّةٍ فاشلةٍ، وسُجن سنتَيْن.

وفي يوم الأَربعاء من الأُسبوع المُقدَّس لعام ١٩٥٣، عندما قرَّر الاتِّصال بالأَب پيير، بُغْيةَ قضاء فترة رياضةٍ روحيّةٍ في "عمّاوس"، كان، على غير قصدٍ منه، يقطع كُلَّ علاقةٍ له بالماضي، وينهج حياةً جديدةً.

ولمَّا بلّغ إلى الأَب پيير، بالهاتف، رغبتَه، أَجابه:

– "لقد كانت الرّياضاتُ الرّوحيّةُ رائجةً عندما كانت "عمّاوس" نزلاً للشَّبيبة، أَمّا الآن، وقد غدتْ غاصّةً بالخروق والنّفايات من كُلِّ نوع..."

ولكن پول قاطعه ملحًّا:

– « إن أَنا فَوَّتُّ الفُرصَةَ الآنَ، فربَّما لن أَظفرَ بمثلها أَبدًا.

– تعالَ، إِذن، وسنفعلُ ما نستطيع ».

لم يكن في "عمّاوس" ما يجتذِبُ أَمثالَ پـول: بيتٌ زريٌّ المظهَر، استقبالٌ فاترٌ، انتظارٌ طويلٌ؛ وعندما انتهى، أَخيرًا، عبرَ أَكوام الرُّزَم، إلـى مكتـب الأَب پـيير المصنوع من أَلواحٍ خشبيّةٍ عتيقةٍ، وجدَه منتصبًا، بجُبَّته الخَلِقة. وقد أَصغى إِليه بجدٍّ وصمْتٍ، ثمَّ دعاه إِلى قضاء ليلته في "عمّاوس". وبعد أَن وافاه بطَبَقِ حساءٍ تناوله وحيدًا، صامتًا، كئيبًا، اقتاده إِلى النَّزْل الخشبيّ، القائم على جزءٍ من الحديقة، حيثُ تركه يرقدُ.

صباحَ يوم الخميس المُقدَّس، جاءَه الطبّاخُ بإِفطاره، وأَنبأَه أَنَّ الأَب سيتغيّب ذلك اليوم. ولمح "پـول"، في الجوار، كنيسةً فمثل إِليها، وتمَّم واجباته الفصحيّة. وقضى يومَي الخميس والجمعة ينتظر، سدًى، مقابلةً ثانيةً مع الأَب، ولكنّه لم يحظَ إِلا بمقابلة الآنسة كوتاز، التي أَكَّدت له استعدادها لكُلِّ خدمةٍ أو مساعدةٍ، ريثَما يعودُ الأَب. ومنذُ الوهلة الأُولى تبيّن له أَنّ الآنسة كوتاز تقرن الطِّيبةَ بالحزم، وأَنّها هي، حقًّا، "رجل" عمّاوس.

يومَ سبت النّور دُعيَ للاشتراك في "كورس" عمّاوس، في المُصلّى المتواضع، حيثُ لم يكن سوى خمسة مقاعد عتيقةٍ؛ وأَخيرًا، يوم عيد الفصح، تسنّى له مقابلة الأب پـيير، الَّذي، إِثر الاحتفال بالقدّاس، اعتذر منه لاضطراره إلى إِهماله طوال ثلاثة أَيَّامٍ، وبعد أَن تناولا الطَّعامَ معًا، اصطحبه لتفقُّد جماعات "عمّاوس". فانطلقا في الشَّاحنة العتيقة المُقرقعة، وزارا، على التّوالي، مواقعَ جمع النفايات في "بوالابّي"، ثمّ في "پـونتوكومبو"، حيثُ احتفل الأَبُ بالقُدّاس وَسْط حفنةٍ من نِسْوةٍ في أَسمالٍ زريّةٍ، وأَطفالٍ في ثيابٍ قَذِرةٍ، وكان المُصلّى قد أُقيم في مقطورة قطارٍ قديمةٍ. وفي حين مضى الأَب لزيارة الأُسَر المبثوثة هناك، دعا رفاقٌ "پـول" إِلى مشاركتهم الطَّعام في هيكل حافلةٍ مُهترئةٍ حُوِّل مكانُ مُحرّكها إِلى مطبخٍ، وقد ترأَّس المائدةَ قائدُ الجماعة "رينيه پـوشنو"، وزوجته البدينة الطيّبة؛ ثُمَّ اصطحبوه في زيارةٍ لبعض أُسَر الموقع المقيمين في خيامٍ وأكواخٍ، وثمَّة كان يُعرَّف "پـول" بأَنَّه "صديق الأَب".

إِثر ذلك، أَقرّ پــول للأَب پــيير:

– "كنتُ قد جئتُ إِليك لقضاء يومَيْن أَو ثلاثةٍ في خلوةٍ روحيَّة؛ ولكنّني لم أَتخيَّل، قطّ، أَنَّ هناك من يعيشون في مثل هذه الظُّروف القاسية المهينة. ولذلك أَرغب فــي مساعدتك".

فأجابه الأَب:

– "عُدْ، إِذن، ببعض هؤُلاء إلى "نويّي پــليزانس"، ولا تركب إلى جانب الــسّائق، بل اركب معهم في الخلف".

وكانت تلك العودةُ لــپــول بمثابة عِمادة البؤس، في تلك الشّاحنة المُقرقعــة، إذ انهالتْ عليه، طوالَ الرِّحلة، الشتائمُ، لكونه رأسماليًّا مصّاص دماءٍ، ومــسبّبًا، مــع نظرائه، لكلِّ مصائب قَوْمهم، كما انصبّ عليه قَيْءُ السّكارى منهم، ممّا أَوحى إِليــه بفكرة الفرار بمُجرَّد وصوله إلى "نويّي پــليزانس". غيــر أَنّ الأَب پــــيير غَــرَس نظره في عيْنَيْه، وقال له:

– **« أَنت الَّذي جاء في منتصف أُسبوع الآلام المُقدَّس، راغبًا في مــساعدتي، هل صدمكَ هؤُلاء الفقراء؟ أَولستَ، أَنتَ أَيضاً، مسؤولاً عن بؤســهم؟ أَيجرحــون أَنظارك المُرْهَفة، ويوسّخون ثيابَك الأَنيقة؟ ها إِنّك تتقيّأُ عليهم مثلما هــم يتقيّــأون عليك! »**

في لهجة الأَب پــيير الصَّريحةِ الحازمة، كان يخفُقُ حبٌّ صادقٌ، وقد أَضاف:

– **« أَتريدُ الوقوفَ على الحقيقة؟ إِنّك، أَنت من لا يستأهل الاهتمــام، لا هــم، فأمثالُك هم سببُ ما هؤُلاء القومُ فيه من بؤسٍ! »**

وفيما كان "پــول" يُجيل في خاطره وسيلةً للانسحاب خِلْسةً، فاجأَه الأَب بالقول، في رِقَّةٍ عَذْبةٍ، وكأنّ شيئًا لم يحدُثْ:

– **« إِن لم يكن لديكَ الآن مشاريعُ أُخرى، ارتدِ لبــاس العمــل الأَزرق هــذا، وامضِ مع فريق "أبراهام" إلى جماعة "نويّي سورمارن"، وعودا بعَرَبَتَيْن متنقّلتَــين لإِيواء أُسرتَيْن جزائريَّتَيْن، وابنوا حولهما مُلحقاتٍ لأَقاربهم »**.

وفي ذلك المساء عينه كانت العربتان قد احتلّتا مكانهما، ثمّ تحوّلتا، في غــضون

أُسبوعٍ، إلى منزلَيْن أنيقَيْن، باركهما الأَب، ودشّنهما في احتفالٍ بسيطٍ؛ وإذا بامرأةٍ بدينةٍ تَشُقُّ الجمعَ، وهي تصيح:

– "لقد آن دوري، فأَنا أنتظر منذُ زمنٍ طويلٍ مع أَطفالي".

فأَجاب الأَب پيير:

– "ليس الأَمرُ متعلّقًا بي، فإِن مكث صديقُنا "پول" معنا بضعةَ أَيَّامٍ أُخرى، فهو سيحلُّ لك مشكلتك"!

فما كان من المرأة البدينة إِلاّ أَن هتفت لپول: "شكرًا لك يا سيّد"، وإِذا بپول وكأَنّه عَلِق في شرْك.

وسُرعان ما أَصبح "پول" من أَساطين "عمّاوس"، وبات يوصَفُ بالمدير المساعد، مساعد الأَب پيير في مشاريعه الجنونيَّة، ومساعد الآنسة كوتاز في إِدارتها الحازمة، وغدا من مهمّاته تنظيمُ لوائح العَمل اليوميّ، وإِعدادُ مَهامّ كلّ جماعةٍ، وتسييرُ كلِّ شيءٍ بدقّةٍ متناهيةٍ.

وقد وطَّد علاقاتٍ وثيقةً مع قُدَماء "عمّاوس" وقادتها، من أَمثال "لولو پيلاّتي"، و"فيليپير"، و"رينيه مارك" الذي كان يُقيم في الطَّابق الأَرضيّ من مركز "عمّاوس" الرئيسيّ، حارساً الطَّابق الأَوّل حيثُ يعمل الأَب پيير والآنسة كوتاز، ومديرًا لمكتبهما؛ والأَب نوربير "الأسقف الراهب العامل"، الَّذي ارتضى أَن يكون مساعدًا للأَب پيير، ومُرشِدًا روحيًّا لأَفراد الجماعة، وباعثًا نَغْمة وَداعةٍ وطيبةٍ وتسامُحٍ، وَسْطَ جماعةٍ من المجرمين السَّابقين؛ فضلاً عن جان، "الراهب الطبّاخ"، و "دانيل" و "أَلفونس"، الإكليريكيّين اللّذَيْن كانا يستعدّان للكهنوت بخدمة المحرومين؛ و"پوريه"، الخبير في انتقاء النّفايات وفَرْزِها وتصنيفِها، والحصول على أَجزل الأسعار من بَيْعها؛ "وهنري كاموس"، رفيق السّاعات الأولى، الخبير في أُمور المُلكيَّة العقاريَّة، الَّذي وظّف خبرته في تنفيذ مشروع أَوّل بناءٍ إِسمنتيٍّ أَشادته "عمّاوس"، في موقع "پونتو"، والَّذي تلتْهُ مشاريعُ مماثلةٌ لا حصرَ لها.

جان ايف المهندسُ، والمعماريُّ الدؤوب، الذي كانت له اليد الطُّولى في إِنماء مشاريع البناء، والَّذي سيلعب دورًا هامًّا في الحفاظِ على ديناميكيَّة روح الأَب پيير، أَثناءَ مرضه، والذي انتدبه الأَب، منذ عام ١٩٦٣ لمواصلة المشاريع الإِنسانيَّة التي

أَنشأَها الكردينال "دون هيلدر كامارا"، في ريودي جانيرو بالبرازيل، قبل تولّيه رئاسة أسقفيّة ريسيف.

قُبَيْل مجيئه إلى "عمّاوس"، كان الأَب پـيير نافدَ الصَّبْر، وقد ضاق ذرعًا ببُطْء تقدُّم أَعمال البناء، ولا يني يُردِّد: "إِنَّ ما يلزمُني هو إِنسانٌ أَستطيع أَن أُوكل إليه، وأَنا مطمئنٌّ، عشرة أكياس من الإسمنت، ومئتين وخمسين آجرّةً، وله خبرةٌ بالبناء"؛ وإِذا بشابٍّ عريض المنكبَيْن، شديد المراس، يمثُل ذاتَ يومٍ من صيف عام ١٩٥٣، ويُبادر "پـول"، المساعدَ، مبتسمًا:

- "لقد جئت ملتمسًا مؤازرتكم".

ورحّب به "پـول"، وقدّم له الغداء والقهوة، وتركه يتمتّع بهما، ويطمئنّ إلى جوّ المكان، ثمّ عاد إليه باشًا، فبادره "جان إِيـڤ" بالاعتراف:

- « إِنّني خارجٌ من السِّجْن.
- وأَيّ عملٍ تُجيد؟
- إِنّني رئيس ورشة بناءٍ
- لا شأْنَ لنا بأَمر سجنك؛ حسبُنا أَنّك خبيرٌ بالبناء، وههنا إِنسانٌ سيفرح جدًّا بإِقامتك معنا ».

ما كاد "پـول" يفرغُ من النُّطق بهذه العبارة حتّى اندفع على السُّلَّم المؤَدّي إلى مكتب الأَب پـيير مجتازًا درجاته أَربعًا فأَربعًا، وهتف مبشّرًا:

- "إِنّه هنا، المعماريّ الَّذي تبحث عنه".

وبعد نحو ساعةٍ فقط، كان "جان إِيـڤ" يتولّى إِدارة ورشة "پـونتو" حيثُ حقّق المعجزات.

لقد تجلَّتْ عبقريَّة الأَب پـيير في عَدَم خشيته من تكوين جهازه القياديّ، وانتقاء معاونيه وقادةِ ورشاته من أَمثال أُولئك العُتاة، ذوي السَّوابق، الّذين كان المُتَزمِّتون يصفونهم باللُّصوص؛ فلولاهم لما أَفلحت "عمّاوس" في اجتياز تلك السَّنوات الرهيبة، حيثُ كانت الحاجة القصوى إلى الجرأة وشدّة المراس، والعبقريَّة العمليّة. وقد أَثبَتَ العديدُ من أولئك "اللصوص" أَنّهم رُسُلٌ حقًّا. وقد كتب الأَب پـيير، بهذا الشأن: "**عندما**

أَسَّس المسيح كنيسته، أَرادها عالميّةً، أَخَويّةً، قادرةً على الصُّمود حتّى منتهى الدهر. وكان عليها أن تستطيع الوفاء، في كلّ زمانٍ ومكانٍ، لرسالتها الأُولى المتمثّلة في "الحبّ رغم كلّ شيءٍ". وماذا فعل الربُّ لتحقيق هذا الهدف؟ نقيض ما من شأن أَيٍّ منّا أَن يفعله؛ فهو لو كان "ذكيًّا مثلنا"، لأَلّف جماعةً من الأَعيان، وأَصحابِ الكفاآت، من أَمثال نيقودمس، ونثنائيل، ويوسف الرامي، وزكّا؛ غير أَنَّه نَهَجَ على نقيض ذلك تمامًا، واختار جماعةً من الفُقراء الكادحين، الَّذين لا يمتلكون سوى الصّيد وسيلةً للعيش. لم يختر جماعةً من الأَغنياء منفتحةً على الفقراء، بل جماعةً من الفُقَراء منفتحةً على الأَغنياء. إِنَّ حكمة الله جنونٌ في نظر البشر"!

لم يكن رجالُ الأَب پيير ملائكةً دائمًا، وربَّما سَلَك بعضُهم، في سوْرات غضبٍ، سلوكَ الأَوْغاد، ولكنّهم ما كانوا يتردَّدون في منح قميصهم أَو فراشهم أَو أَغطيتهم لقادمين جُددٍ يرتعدون بَرْدًا. وعندما كان يتحتّمُ إِيواءُ أُسرةٍ مشرَّدةٍ، ما كانوا يتوانون عن العمل ثلاث أَو أَربع ليالٍ متعاقبةً، بلا هوادةٍ ولا راحة.

وإِلى جانب أُولئك العُتاة أَو "الملتوين"، كما كان يدعوهم المُتَزمّتون، أَسهم في عَمَل الأَب پيير عددٌ من الإِكليريكيّين والكَهَنة المُتطلّعين إِلى مُثل المحبَّة.

فذاتَ يومٍ، وَرَدَتْ إِلى الأَب رسالةٌ من إِكليريكيٍّ شابٍّ، يُدعى "أَلفونس"، يؤكّد فيها: "إِنّني أُونس حاجةً للالتزام إِلى جانب فقرائك". بفَرَحٍ جَمٍّ، تلقّى الأَبُ ذلك العَرْض، إِذ قد طالما ترقَّب مجيءَ دعواتٍ شابّةٍ عازمةٍ على هَجْر كُلِّ شيءٍ. ومع ذلك، أَنذر الشابّ: "لسنا بحاجةٍ إِلى اندفاعٍ عابرٍ. فالأَجدرُ بك نسيان دراستك اللاّتينيّة واليونانيّة، والاهتمام بآلامهم فَحَسْبُ".

وقضى "أَلفونس" سنةً مع جامعي النِّفايات، عاملاً معهم يدًا بيدٍ، منغمسًا بكُلِّيَّته في وَسْطهم، مُقاومًا النفورَ والاشمئزازَ والإِرهاق، جادًّا في مدرسة الشَّقاء البشريّ.

كان ينهض في الخامسةِ من صباح كُلِّ يومٍ، ويسيرُ نصْفَ ساعةٍ كي يشترك في الذَّبيحة الإِلهيَّة، ثُمَّ، في السَّادسة والنّصف، ينضمُّ إِلى رفاقه، عند المزابل.

بادئَ الأَمر، كان بعض الرِّفاق يسخرون من خَجَله ووَهَنه، وأَساليبه المُهذَّبة، في بيئةٍ موبوءَةٍ. ولكن سُرعان ما أَحبّوه وقدَّروا براءَته وصِدْقَه، وباتوا يحتكمون إِليه.

وعندما أزف موعدُ عودته إلى ديره، تضامن الرِّفاقُ، وأَسهم كلٌّ منهم بمبلغٍ زهيدٍ كي يبتاعوا له قَلَم حبرٍ، وعندما أَهدوه إِليه قالوا: "هذا، لكي تكتب لنا". ثمّ التفتوا إِلى الأَب پيير قائلين:

– "يجب أَن تتدبَّر أَمرَك، فهذا شأنك، لكي يكون معنا، دائمًا، أَشخاصٌ نظير أَلفونس".

وحاول الأَب أَن يفسّر لهم:

– "عليه أَن يصبح كاهنًا، وما زال أَمامه سنواتٌ طويلةٌ من الدِّراسة، فلا أَستطيع استبقاءه".

وبعد لحظات صمت، ردّ أَحدهم:

– "لسنا نُعارضُ في أَن يُصبحَ كاهنًا، ولكن ليْتَه، حينئذٍ، يعود إِلينا، وإِن اقتضى الأَمرُ سنُضاعفُ جهودَنا لكي نفيَ بنَفَقات دراسته".

أُولئك الَّذين كانت علاقتهم بالدِّين واهيةً إلى أَقصى حدٍّ، كانوا يُحسُّون بعُمقٍ حُضورَ الله الغامر، فيما بَيْنَهم، عبرَ "أَلفونس"، ومدى الفراغ الذي سيُخلِّفهُ غيابُه.

وبُعَيْد عودته إلى ديره، كتب "أَلفونس" للأَب پيير: "أَبتِ، قد يبدو الأَمرُ مُفارقةً، ولكنَّني عندما أُحاول تقييم الأَشهر التي أَمضيتُها وَسْطَ القذارة والرَّوائح الكريهة والعُنْف، حيثُ كانوا يستدعونني في مُنتَصَف اللّيل إِلى الحانةِ المُجاورة لتفريقهم، وقد أَشهروا المدى بعضهم في وجوه البعض، أَتبَيَّنُ أَنَّ النتيجةَ البارزة تتمثَّل في أَنّني، هنا، قد تعلَّمتُ الصَّلاة".

بعد "أَلفونس"، جاء "إِيف كوسو"، إِكليريكيٌّ شابٌّ آخَر، كان قد أَتى فترة ابتدائه في ديرٍ لليسوعيِّين، فأَوفَدَه أَخوه، وهو رئيسٌ على ديرٍ يسوعيٍّ، لقضاء فترة تدريبٍ عند الأَب پيير، فكان مجيئُه تلبيةً لأُمْنِيةٍ غاليةٍ تَعْتَلِجُ في صدر الأَب الَّذي صرَّح: "في تلك السَّنة كنتُ أَرجو رؤيةَ مجيءِ النِّعمة، أَي إِنسانٍ مؤهَّلٍ حقًّا لمؤازرتي، بفضل قدراته الإِنسانيَّة، وَوَاقِعيَّة تفكيره، وزُهْدِه الإِنجيليّ... وكان مجيءُ "إِيف" تحقيقًا أَمثلَ لأَعلى أُمنياتي تلك".

وسُرعانَ ما اندفع "إِيف" في تنفيذ مشاريع قُرى الطَّوارئ، ثمَّ أَصبح مُحرِّك معهد أَبحاثٍ وعملٍ لمكافحة البُؤْس في العالَم، والَّذي عُرِف باسم "إِيرام IRAM".

وأَقبَلَ إلى "عمّاوس"، أَيضاً، فريقٌ من "إِخوة يسوع الصِّغار"، التَّابعين لجمعيّة الأَب شارل دي فوكو، وأَمضوا، في أَحد المراكز، إلى جوار مَزْبلةٍ، فترة اختبارٍ طويلةً، وظفروا، من أُسقف المنطقة، بإِذن الاحتفاظ ببيتٍ للقربان، في الكوخ الَّذي كانوا يُقيمون فيه، وحيثُ كانوا يُكرِّسون، وفقًا لنظام جمعيَّتهم، ساعاتِ سجودٍ، قبلَ مُشاركتهم الآخرين عملَهم، وبعدَها.

ومن الكَهَنة الَّذين انضمُّوا إلى فريق الأَب پيير، وخلَّفوا أَثرًا واضحًا، الأب "برون"، ذلك الإِنسانُ المُدهشُ، الذَّكيُّ، المُتواضعُ، الفعَّال، النَّاشطُ في ميدان العمل الشَّعبيّ والاجتماعيّ، والّذي زوَّد "عمّاوس" بعنصرَيْن ثمينَيْن: "كاموس" الخبير بالمِلْكيَّة العقاريَّة الَّذي أَسلفنا ذكرَه، والأَب "دوڤاليه"، ذلك الوجه الرائع، والكاهن الخبير بإِحداثِ الصَّدمات، والَّذي مُذْ سيم كاهنًا، أَنشأَ مركزًا لاستقبال الأطفال والأَحداث الَّذين لا أُسرَ لهم، وسرعان ما ضمَّ جهودَه إلى جُهود الأَب پيير، فنشأ بينهما تعاوُنٌ مُثْمرٌ.

أَمّا الكاهن الذي خلّف أَعمق أَثر في "عمّاوس"، فهو "الرَّاهب العامل"، الأَب "نوربير" الّذي كان رئيسًا على دَيْر رهبانٍ، ولمّا تقاعَدَ عام ١٩٥٣، التحق بالأَب پيير، الَّذي كانت تربطُه به صداقةٌ حميمةٌ، وصرَّح: "سأَستقرُّ هنا، وسأكون نقطةَ الزَّيْت التي ستُليِّنُ المُسنَّنات". وحتّى مماته كان الأب "نوربير" معبودَ الرِّفاق، فهو "عندما يحضر، يهدأ كلُّ شيءٍ، ويُنصت الجميع إِليه". وقد كان لعذوبتِه ورقَّتِه وَقعٌ بليغٌ في تكوين روح "عمّاوس". للأَسف لم يكن، ثمَّةَ، سوى أَب "نوربير" واحد، في حين كانت الحاجة إلى الكثيرين من أمثاله، لاجّةً.

وكذلك كانت الحاجةُ ملحّةً إلى إِداريّين مؤَهَّلين ونزيهين. وكان يختلف إلى "عمّاوس" نماذجُ منهم، إِكليريكيّون وعلمانيّون، ولكنَّهم لا يمكُثون سوى أَيّامٍ أَو أَسابيع، ثُمَّ يُغادرون.

أَحدُ هؤُلاء كان ابنَ أَحدِ رفاق طفولة الأَب پيير، وقد وافى "عمّاوس" قائلاً: "ها إِنّني أَنهَيْتُ دروسي الجامعيَّة التي تؤَهّلني لتولّي إِدارة مؤسّسة والدي. وإِنّني مُلمٌّ بكلِّ ما له بمهنتي علاقةٌ، ولكنَّني أَجهل كُلَّ ما يتَّصلُ بالرِّجال الَّذين عليّ أَن أَعمل معهم، وبآلامهم، ومصاعب حياتهم، فإِذا ما قَبلتَني، مكثتُ الوقتَ الكافي كي أدرك كُلَّ ذلك".

وحذّره الأَب پـيير: "ينبغي أَن تُدرك أَنَّ تَطَوُّعَك لن يبدأَ حقًّا إِلاّ غداةَ تضيقُ ذرعًا بكلِّ شيءٍ، ومع ذلك تُقرِّر البقاء. حينئذٍ فقط ستَشْرَعُ تتعلَّم، وسيَقْبَلُ بك الرِّفاقُ صديقًا".

وكان لا مفرَّ من نُشوب صدامات عابرةٍ بين هؤُلاء الإِداريّين النَّاصعي الماضي، ورفاقِ الأَب پـيير ذوي السَّوابق، الممتازين بالعزيمة والعبقريَّة العمليّة، وكان الأَب هو، أَبدًا، عامل التَّوازُن والسِّلْم بين الفريقَيْن.

الحياة في عمّاوس

في عام ١٩٥٣ ارتقى عددُ رِفاق "عمّاوس" إلى نحو مئةٍ وثمانين نَفَرًا، وكانت وارداتُ الجماعة تُلامسُ الهاوية، ولا تكفي للنُّهوض بأَوَدهم جميعًا، ولمواصلة أَعمال البناء في آنٍ واحدٍ. وقد اضطرَّ الأَبُ پـيير إلى إنذارهم بأَنَّهم سيُضطَرُّون إلى التقشُّف والاقتصار على القليل من الخُبْز والجُبْن والحِساءِ الضَّحل، والماء القراحِ؛ فعلى من لا يقوى على مثل تلك الحياة أَن يبحث لنفسه عن مكانٍ آخَر للعَيْش. غير أَنَّ معظمهم آثروا البقاء، مهما كان العيْشُ شظِفًا وقاسيًا، على هَجْر "البيت"، بيتِهم الَّذي فيه وجدوا الأَمانَ، والكرامةَ، والدِّفءَ.

كان العِقابُ الأَقصى الذي يُنْزَل بمن يرتكبُ حماقاتٍ، هو طرده، ولو مؤَقَّتًا، من "عمّاوس". كثيرون ممَّن لجأوا إلى واحة الأَمان تلك، كانوا من قبلُ، وفي هُوَّةَ بُؤْسهم، يُحاولون إغراق همومهم وتعاستهم في الكحول، وتمكَّنتْ منهم تلك العادةُ بحيثُ لم يقوَوا على الانعتاق منها بيُسرٍ، فكانوا، أَيَّامَ العُطَل، يُسرفون في الشّراب الَّذي كان يَدْفعُ بهم إلى التَّعدّي على الرّفاقِ، وتحطيم ما تَقعُ عليه أَيديهم. وفي أَوَّل عهد "عمّاوس"، كانت أَيَّامُ العُطَل تملأُ قلبَي الأب پـيير والآنسة كوتاز بالهواجس، فيَظَلَّان ليلَتَي السَّبت والأَحَد يَذْرَعان ساحةَ المنزل، والشَّوارعَ المحيقةَ بها، ريثَما يعود الجميعُ، ويُخلدون إلى النَّوم.

وكان الأَبُ يمنح من يُسْرِفُ في الشَّراب فرصةً لإِصلاح ذاته؛ أَمّا إِن هو تمادى ونكَّد حَياة الآخرين، فكان يمضي به إلى سوق الهال في باريس، حيثُ من السَّهل عليه تَدَبُّر أمور معيشته، ويتركه هناك.

وذاتَ يومٍ اضطُرَّ إلى اصطحاب المُلقَّب "بعوضة" إلى سوق الهال، ومع كلّ ما كان "البعوضة" يُسبّبُ من متاعب لرفاقه، كان هؤُلاء، في ذلك المساء، ساهمين، كئيبين، لا يُطيقون كلامًا ولا طعامًا، وكأنَّهم معاقَبون جماعيًّا. وبغتةً شاع البشْر على وجوههم، عندما رأَوْه يفتح البابَ بِرِفْقٍ، ويتسحَّبُ عائدًا، نادمًا، إذ إنَّه لم يُطق العيشَ، خارجَ "البيت". وشفعوا به، فباركَ الأبُ توبتَه وعودتَه.

واتّفق لرفيقٍ آخَر أَن كان يُفرط في الشَّراب إلى حدٍّ مُريعٍ، ويفقُد آنذاك رُشْدَه، ويستسلم للعُنْف مُحَطِّمًا كَلَّ شيء. وذاتَ يومٍ، في سَوْرة سُكْرٍ، ضَرَبَ أَحدَ رفاقه، فجرحه جُرْحًا بليغًا؛ وأَبى الرِّفاقُ استدعاءَ رجال الأَمن، غير أَنّهم حَشَروا المُذْنبَ في خزانةٍ أَحكموا إِيصادها، وصرَّحوا للأَب: "إِن هو لم يغادر "عمّاوس"، غادرناها نحن. فرفيقنا الَّذي تعرَّض للاعتداء يرقدُ في المستشفى، ونحن هنا خائفون". وبعد أَن استعاد الجاني رُشْدَه، أُخرِجَ من الخزانة، فصارحه الأَب:

– « نحن، هنا، نُحبُّكَ حقًّا، فأَنت تعملُ من كلّ قلبك، وأَنت صديقٌ للجميع، ولكنّك ما عدْتَ تُطاق! إِليك عناوين بعض مراكزَ اجتماعيَّةٍ، فاخْتَرْ أَيَّها تشاء، وامضِ إِليه ».

فهوى الرَّجُلُ على رُكبتَيْه، مُنْتَحبًا مُتوسِّلاً:

– « أَبتِ، اُضربوني، ودَعُوني بلا طعامٍ، ولكنَّني أَتوسَّلُ إِليكم أَلاّ تقولوا لي، بعد الآن: غادِرْ هذا المكان! »

ورقّ الرفاقُ لحاله، فقالوا:

– « لا بأس، أَبانا، إِن هو بقي معنا؛ ولكن لا بدّ من معالجته وشفائه ».

ولكنّ المسكين كان قد انحدر إلى أَسفل دَرَكات الإِدمان. وقد أَفضى الطبيبُ للأَب پيير:

– « يستحيل أَلاَّ ينتكسَ من جديدٍ، وقد يتفاقم وضعُه من سيِّئٍ إلى أسوأ، حتّى يُفضي به الأَمرُ إلى الجنون، ما لم يُحَطْ بجماعةٍ لا تُستنشمّ فيها رائحة الخمرة، فتلك الرائحةُ لأَمثاله، أَشبه بعودِ ثقابٍ أَمام برميل بنزين ».

حينئذٍ هتَفَ الرّفاق بالإِجماع:

– "أَبتِ، إِنّه أكثرنا تعاسةً، ولا يَسعُنا أَن نطلب منه المغادرة؛ ولذلك، لن يكون، بعدُ، في "عمّاوس"، قطرةُ خَمْرة. »

مثلُ تلك الأَزَمات الطَّارئة كانتْ تَحسِر اللِّثامَ عن طاقات الصَّداقة والحُبِّ الجمَّة التي تحدو أولئك البائسين في مكافحتهم البؤس.

قليلون منهم كانوا يضيقون ذرعًا بالعيش الخشن الشَّظِف، والعمل القَذِر في النِّفايات، فيحلمون بعيشٍ آخَر؛ ولكن في تسع حالاتٍ من عشرٍ، كان الَّذين يُغادرون لا يلبثون أَن ينهاروا من جديدٍ، في غضون أَيّامٍ معدوداتٍ، فإِذا بهم، من جديدٍ، وراءَ القُضبان، جانحون، مُدمنو كحول، وضحايا اليأس. ولا بِدْعَ في ذلك، فهم يوم أَتوا إِلى "عمّاوس" ينشدون كسْرةَ خُبْزٍ تُقيم أَوَدهم، وزاويةً يرقدون فيها، وما به يغتسلون أو يَكْتَسون، عثَروا، فضلاً عن ذلك كلِّه، على ما لم يكونوا يبحثون عنه، وفقدوا الرَّجاءَ في الحُصول عليه، مع أَنّهم كانوا في أَشدّ الحاجةِ إِليه، إِذ عثروا، وَسْطَ جماعةٍ تعملُ لخدمة الأَكثر تأَلُّمًا، على مُبَرِّرٍ للوجود، أَزال، لا يأسَهم المادِّيَّ فحَسْبُ، بل يأسَهم الإنسانيَّ الأَعمق. ولكنّهم ما إِن أَعرضوا عن تلك المُثُل، وتعرّوا من دفءِ الصَّداقة، حتّى هووا، من جديدٍ، إِلى الجنوح، والإِدمان والقنوط.

وبالتَّالي، مثلما كان عقاب المُذْنب الأَقسى هو الإقصاء عن الجماعة، كان أَلَمُ الأَب الأَوجع، اضطراره إِلى إِلقاء أَيٍّ من الرِّفاق خارجَ دفيئة "عمّاوس"؛ ومن ثَمَّ، بعد أَن غدا لعمّاوس عدَّةُ مراكز، بات عقابُ المُذْنب يتمثَّل في نقله من مركز إِقامته إِلى مركزٍ آخَر، حيثُ يتعيّن عليه البدءُ من الصِّفْر، مثل أَيّ قادمٍ جديدٍ، أَيًّا كان تاريخ انتمائه إِلى "عمّاوس"، وإِثبات جدارته بالمسؤوليّة، بعد ستَّة أَشهرٍ من الحياة المُستقرَّة، والصَّداقة الصَّادقة، والعملِ الدؤوب، والسُّلوكِ الناصع.

وفيما خلا حالاتِ الانهيار والهروب النَّادرة، كانت "عمّاوس"، بالإِجمال، "جماعة الأَمل"، والأسرةَ البديلة، والملجأَ الوحيد لمن قسا عليهم الزّمن، وفقدوا كُلَّ شيْءٍ، فوجدوا، ثمَّةَ، الطُّمأْنينة، والأَمان، والكرامةَ، ومُبَرِّرًا للعَيْش، كما غدت، لمن صَبَتْ نفوسُهم إِلى مُثُل الخدمة، مدرسةً عليا في العطاء والتضحية، وإِغناء الرّوح.

في المساء، كانوا يجلسون معًا إِلى مائدةٍ واحدةٍ يُجاورُ فيها المُجرِمُ السَّابقُ

مهندسًا حديثَ التَّخَرُّج تطوَّعَ للعمل بضعة أَسابيعَ فمكَثَ سنةً أَو أكثر، ويُجاوِرُ المُتسوِّلُ السِّكّيرُ السَّابقُ إكليريكيًّا يعيش الإنجيلَ وَسْط حُطام المجتمع البائس.

لكُلٍّ مهنتُه واختصاصُه، والجميع دائبو النشاط؛ فقيصر هو سيِّدُ المطبخ، و"مارسيل" الميكانيكيّ المُشرف على آليّات الجماعة، و"أَندريه"، الحذَّاء، يُصْلِحُ أَحذيةَ الجميع، ويُؤَهِّل للبيع الأَحذيةَ العتيقةَ التي يأتي بها جامعو النِّفايات؛ وفي المستودعات يَفْرزُ "لويس" الأَثاث المُعَدَّ للبَيع، فيما "موريس" يطلي كُلَّ ما يحتاج إلى طلاءٍ يُعيدُ له جدَّةً وقشابةً، بينما رجالٌ مُسنّون، تحتَ خيمةٍ، يُصَنِّفون أكوامَ الأوراق الَّتي تتدفّق عليهم كلَّ يومٍ، وسفيرٌ سابقٌ يعكف على تقويم مسامير مُستعملَةٍ بيدَيْه المكسُوَّتين بقفّازَيْن أَبيضين، من أَجل توفير ثمن مسامير جديدةٍ.

وكلُّ عملٍ، مهما اتَّضَعَ، مشحونٌ بقَدْرٍ كبيرٍ من الحبّ، ومهما كان مُتعبًا إلاّ أَنه يُفرزُ قسطاً من الفَرح طاغيًا. فهؤُلاء الَّذين يقتاتون بالحساء الرَّديء، ويرتدون الأَسمالَ الزَّريَّة، ينامون هانئين مُطمئنّين، ليقينهم بأَنّهم استطاعوا توفير مأوى لأَطفالٍ كانوا مُشَرّدين، ولأسرٍ كانت تعيش في جحيم الافتقار إلى سقْفٍ يُظلِّلها.

عام ١٩٥٣ زارَ الصَّحفيّ "جيرار ماران " عمّاوس، وكتب في صحيفة "الفيغارو": "السّتْرةُ ذاتُ اللَّوْن الأَخضر العسكريّ، أَو الأَزرق الباهت، تُخفي، فضلاً عن الطبيب، أَو الأُسقف الَّذي أَصبح راهبًا عاملاً، معماريًّا أَو مهندسًا، أَو كاتبًا بالعدل، أَو شتّى المهنيّين، أَو جابيًا سابقًا! كالأَشباح، في الصَّباح الباكر، يمضي هؤُلاء الرّجالُ، منكبًا إلى منكبٍ، بصحبة لاجئين سياسيّين من مختلف البلدان، ومُتَشرِّدين، وسُجنَاء سابقين، ينقُبون القمامة والأَقبية والأَهراء والمزابل، منكبًا إلى منكبٍ، وقلبًا إلى قلبٍ. وكما أَنّ "أَنطونيو" المُهدَّد بالإعدام لو هو بقي في بلده إسبانيا، قد أَصبح خيرَ صديقٍ لـڤلاديمير الَّذي قد يُشنق إن هو عاد إلى بلده پولونيا، كذلك الأَرستقراطيّ "جان إيڤ"، الحاملُ ديپلومًا بالهندسة، بات يُشكِّلُ مع "لويس الصغير"، الخارج من المعتقل، زوجَ أصدقاء لا شيءَ يُفرّقهما. بأَيّة مُعجزةٍ حدث ذلك؟ هل هو مجرّد العَبَث بالنفايات؟ كلاّ... فما زالت تتردّد في مسامعي تلك الكلمةُ الرائعةُ التي قالَها كلٌّ من "تونيو"، الإسبانيُّ الشيوعيّ، "وڤلاديمير" الپولونيّ المناوئ للماركسيّة: "هنا، لا مجالَ للخطأ، فعندما تبني بيوتًا لأمّهاتٍ وأَطفالٍ لا مَسْكنَ لهم، نعمل ما لا يُمكن، معه، ارتكابُ الخطأ...".

« من أكياس القمامة، ومن المزابل استخرجوا، منذ سنتين، حَجَرًا فحجرًا، مئةً وعشرةَ مساكنَ، مُنقِذين مئةً وعشر أُسَرٍ ».

وإذا ما أَضفنا إلى هذا الوصف الخارجيّ وصفًا أكثرَ إحاطةً بدخيلة الحياة في "عمّاوس"، على نحو ما عبّر عنه أَحدُ أَفراد الجماعة، لمَثُلَتْ أَمامَنا صورةٌ أَوْفَرُ صدقًا واكتمالاً للحياة الَّتي تكوَّنتْ حول الأَب پيير، واستلهمت فلسفَتَه الاجتماعيّة وروحانيّته. فقد صرّح أَحد رفاق "عمَّاوس":

« يكفي أَن يتكلّم (الأَب) پيير، كي ينتظم كلُّ شيءٍ. إنّنا مُعْجَبون به، وليس إِعجابنا تقديسًا وعبادةً، وعاطفةً مُفرطةً، ولكنّنا نجدُه صادقًا ومُخلصاً، من غير مغالاةٍ في القداسة والتَّعالي. صحيحٌ أَنّه يغادرنا، بين فَيْنَةٍ وفَيْنَةٍ، ليُقابل العُظمَاء، من نوّابٍ ووزراء وأَساقفة، أَو ليرئس جلسات الفيديراليّة العالميّة، ولكنّه، وهو فيما بيننا، واحدٌ منّا. إنَّه أَبونا، لا لأَنّه كاهنٌ فحَسْبُ، بل لأَنّه يحمينا. إنّنا قومٌ من القُساة العتاة، خِرّيجي السُّجون، ومُطارَدي العدالة، ولكنَّه الرَّجُلُ الأَمين، الَّذي يوفّر لنا الملجأ ولا يخونُنا. إنّه صديقُ رجال الأَمن الَّذين لا يجرؤُون على الاقتراب منّا، فعمّاوس حصنٌ منيعٌ.

"أَحدُ زملائنا مُفَتّشٌ في شرطة "تويّي پليزانس"، ويأتي لمشاهدة التلفزيون معنا. فنحن، منذ ١٩٥٣، نمتلك تلفازًا، ممّا لا يتوفّر إلاّ للميسورين. هكذا شاء الأَبُ پيير مبرّرًا قراره بالقَوْل: "ليس لرفاقنا حياةٌ عائليّةٌ، ولا زوجاتٌ ولا أَولادٌ، ولا أَيّ نوعٍ من التسلية. ثمّ إنّ تلفازًا لخمسين شخصاً ليس تَرَفًا فادحًا". هكذا بات مُفتّش الشُّرطة يأتي مساءً لمشاهدة مُباريات الكرة في "تلفزيون جامعي النفايات"، ممّا يُسْهِمُ في توثيق العلاقات... وذات يومٍ، طُردَ، هو أَيضاً، من منزله، مع أَطفاله السِّتَّة، وشُرِّد، فآويناه، ومنذئذٍ هو يسدي لنا خدماتٍ جليلةً ».

لمّا عجزتْ وارداتُ جمع نفايات المنازل عن إطعام الرِّفاق المتزايدِ عددُهم باطّرادٍ، فضلاً عن متابعة أَعمال البناء، اقترح أَحدُهم إقامةَ مراكز عند مواقع إلقاء القمامة العامَّة واستخراج ما يُمكن الإفادةُ منه، من جوفها. وهكذا أُقيمت ثلاثةُ مراكزَ إلى جوار ثلاث دمنٍ مُخْتَلفةٍ. وكان الرِّفاقُ يُحرِّرون تلك القمامةَ، التي ستُصبح سماد

الفلاّحين، من كُلِّ ما لا يتعفّن فيها كالزُّجاج والكاوتشوك والمعادن؛ ينقبــون، وَسْــطَ الذُّباب والجُرْذان وروائح الإنتان، من غير تذمُّرٍ، وفي كثيرٍ من الحُبّ. وقد يُكافأُون، أَحيانًا، بالعثور على علَب كونسروةٍ ومأكولاتٍ ما زالت صالحةً للاســتهلاك، تــوفِّر لهم قِسْطاً من طعامهم.

في تلك المراكز كانوا يُخيِّمون، ويرقُدون، ويعملون سُعَداءَ، ولا يخشَوْن مَرَضاً ولا وباءً. وقد باتت المزابلُ قَصرْهم وحِصنَهم، إذ لا أَحد يدنو منها، فالرَّوائحُ الكريهةُ تَصُدُّ القادمَ من بعيدٍ. قليلاً ما يتكلّمون، ولكنَّهم ساكنون، فقد عثروا على السَّلام، الّذي طالمــا نشدوه، ويأبَوْن تعكيرَه. وفي ذلك العمل القاسي اكتشفوا علاجًا لأَنفسهم.

ويُعلِّق الأَب پــيير على ذلك بالقول: "**العمل في المزابل، هو العمل الذي يقوى على الاضطلاع به كلُّ من انحدر إلى الهاوية، سواءٌ كان جامعيًّا أَمْ أُمِّيًّا. وهو يتميَّزُ بكونه عملاً مُنْقذًا... بواسطة نفايات القمامة، نــستطيع بعــثَ أُنــاسٍ منهــارين، وإِيقافهم على أَقدامهم**".

وتغمُرُ الرِّفاقَ السعادةُ عندما يشهدون بيوتًا تنهض بفضل ثمار جهودهم، لإِيواء أسَرٍ كانت تفتقر إلى مَسْكنٍ، ويلمسون فَرَح تلك الأُسَر، بعد طول المعاناة. وهذا مــا عَبَّر عنه أَحدُهم، بعد أَن قرأَ على باب مَنزلٍ شيَّده الرِّفاقُ لأُسرة مُشَرَّدةٍ عبارة "فرح العيش" بقوله:

– « أَبتِ، إِنّ أُناسًا مثلي، قد لا يكون لهم أَيُّ شأْنٍ، ولهم ماضٍ قــاتمٌ. ولكنّنــا، اليوم، نحن الذين لا يَصْلُحون لشيءٍ، قد حقَّقنا لتلك الأُمّ السَّعيدة، ما لم يُفكّــر بفعلــه العديدون ممّن يَظنُّون أَنفسَهم أَصحابَ شأْنٍ... ».

وإذا ما حاول أَحدُهم التعبيرَ عن شكره للأَب پــيير الذي حوَّله من حُطامٍ هالكٍ إلى مُنقذٍ للآخرين، قال الأَب:

– « ما عليك أَنْ تشكرني. مع أَنّك، لولاي، لكنت تعيــسًا وجــديرًا بالرِّثــاء، ولربَّما أَلقيتَ بنفسك في نهر السّين أَو تحت عجلات المترو، أَو انتهيت إلى السِّجن؛ غير أَنّني، أَنا، لولاك، لما كنتُ أكثر من ثرثارٍ. قوّتنا لا تنبع منك، ولا تنبع منّــي، فكلانا بمفردنا، لا نقوى على شيءٍ، ولكنّها تنبع من تضامننا، وتعاضُدنا، وهي قوّةٌ لا تُقْهَر ».

وللّذين كانوا يَعْجَبون من قُدْرة الأَب پيير على العَيْش مع أُولئك الّذين سِجلاّتُهم حافلةٌ، كان يبيّن:

– **« ولكنَّهم تعلَّموا العطاء، وسواءٌ هم أَتوا من إِكليريكيّةٍ أَو من مُعْتَقَلٍ، لا شأن لنا بماضيهم، ولا قيمةَ إِلاّ لما هم عليه الآن ».**

وكان لا يني يُردِّدُ على مسامع المُثقَّفين من الرِّفاق:

– **« لا تتظاهروا بعلمكم، واستخدموا كلامًا بسيطاً، لكيلا يشعر الآخرون بالمهانة أَو بِالنَّقْصِ ».**

وجديرٌ بالتَّنويه أَنّه، بعد هَجرِه المجلسَ النِّيابيَّ، بات يُمضي وقتًا أَطولَ مع الرّفاق يُشاركهُم كَدْحَهم وهمومَهم، ينبش معهم القمامة، ويُحمِّلُ الشَّاحنات، ويبني البيوت، صادقًا في كُلِّ ما يفعل.

وفضلاً عن تلك المُعايشة اليوميَّة، والصِّلات الحميمة الصَّادقة، كان الأَبُ پيير يعقِدُ، كلَّ يوم أَحد، مع الرّفاق، اجتماعًا مُبكّرًا، قبلَ احتفاله بالذَّبيحة الإِلهيّة، لكيلا يضغط على أَحدٍ من أَجل المشاركة فيها، ولكي يتيح لمن يودّ قضاءَ عطلته خارجًا، المُضيَّ ساعةَ يشاء، وبعدَ ذلك يُقيم القدّاس، فيشتركُ فيه من الرِّفاق من كان راغبًا في ذلك حقًّا، وكان بعض الرِّفاق يحضرون القدّاس، محبَّةً بالأَب، ولو أَنّه لم يكن يعني لهم الكثير، ممّا كان يحدوه إِلى شرح معانيه لهم. وفي ما بعد، بات الأَبُ يحتفل بالقدّاس باكرًا جدًّا، صباح كلّ أَحد، قبل موعد الاجتماع الأُسبوعيّ، بحيثُ يشترك فيه من كانت تحدوه إِلى ذلك رغبةٌ حقيقيّةٌ.

وعلى هذا النَّحْو أَمسى تسَلْسُل الفضائل اللاّهوتيّة، في جماعات "عمّاوس"، معكوسًا، لا يبدأ بالإِيمان فالرَّجاء فالمحبّة، بل كان القادم الذي ضاق ذَرْعًا بالمعاناة يبدأ بتَعَلُّم محبّة الآخرين ومساعدتهم، ممّا يبعث فيه الرَّجاءَ في أَيّامٍ أَفضل لنفسه وللآخرين، ويفتحُ عينَيْه على حياةٍ قشيبةٍ ذاتِ معنًى، لها أَهداف غيرُ الرِّبح، ونواميسُ غير استغلال القويِّ للضَّعيف، وكلُّ هذه العوامل كانت مُقدِّماتٍ تُعِدُّ القلبَ لشرارة الإِيمان.

وقد تجلّى ذلك في حالة واحدٍ من الرِّفاق، كان يُعالَج في مستشفى من مرضٍ عضالٍ، وقبَيْل رحيله التمس العودة إِلى "البيت"، كي يموت فيه، فأَعدَّ له الرِّفاقُ أَجملَ

غرفة؛ وكان الأَب مسافرًا فأُبلِغَ بالأَمر، وعاد مُسرعًا، وبعد أَن تحدَّث مع المُحْتَضر، قال له هذا الأَخير:

– « أَبتِ، كنتُ قد احتفلتُ بمناولتي الأُولى منذ زمنٍ بعيدٍ. أَلا أَستطيع التناول مرَّةً أُخرى، قبل وفاتي؟ »

وهرع الأَب فوافاه بالعزاءِ الأَخير الَّذي كان يرجوه ويلتمسُه، وبعد أَن تناوله غَمَرَهُ سَلامٌ عميقٌ، فتمتم برقّةٍ: "أُقدّم حياتي لفرنسا ولعمّاوس".

ثمّ طلبَ أَن يُنصَبَ أَمامَه، في غرفته، تمثالٌ صغيرٌ للسَّيِّدة العذراء، وكان في "عمّاوس" عدّة تماثيل لها، وفيما كانوا يتساءلون عن أَيِّها يأتون به إليه، قُرع الباب، وجاء ساعي البريد برزمةٍ نُزِع، في الحال، غلافها، فإِذا بها تحتوي على تمثالٍ رائعٍ لسيِّدة لورد، وكأَنَّها حضرتْ تلبيةً لرغبة المحتضر، ومكافأةً لتقواه المنبعثة من جديدٍ.

وأَبى الرِّفاقُ أَن يُحشَر جثمانُ زميلهم في مدفنٍ جماعيٍّ، فابتاعوا له، بما وفّروه، مدفنًا خاصًّا، "**لكي يعلم الجميعُ أَنّ صداقَتَنا تتخطّى الموتَ، وهي أَبديّةٌ...**".

أَثناءَ اجتماعات الأَحَد الأُسبوعيّة كان الأَبُ يُحيط الرِّفاقَ علمًا بمختلف نداءات الاستغاثة الواردة إلى "عمّاوس"، وبأَوضاعٍ مأْساويَّةٍ تتخبَّطُ فيها أَسرٌ عديدةٌ، ويتناقش معهم في أَساليب غَوْثها وانتشالها من البُؤْس واليأس؛ ثُمَّ كان يستعرض معهم أَحداث الأُسبوع المنصرم، كي يستخلصوا منها العبرَ. ومن هذه النّقاشات كان يَبرُز روح "عمّاوس"، وتتبلور، شيئًا فشيئًا، أُسُس مبادئ العيش في جماعاتها، ومن أَبرز تلك المبادئ:

العمل: « لن نرضى أَبدًا، طالما كان لنا على ذلك طاقةٌ، أَن نعتمد، في معيشتنا، على غير عملنا. أَمّا ما يَرِدُنا من هباتٍ وقروضٍ ماليّةٍ، فلا يمكن استخدامه إلاّ في سبيل إِنماء جماعاتنا وقُرانا، وزيادةِ أَعدادها، أو لنَجَداتٍ عاجلةٍ يحتاج إِليها مُحيطُنا ».

الجماعة: « عمل الجميع في خدمةِ الجميع. ولن يكون لأَيٍّ منّا اعتبارٌ إلاّ بصفته إِنسانًا في الوقت الرَّاهن، أَيًّا كان منشأُه وماضيه، وأَيّةً كانت آراؤه؛ وأَيُّ تلميحٍ إلى ماضي أَيٍّ كان، يُعَدّ خطأً جسيمًا يتعيّن إِصلاحه في الحال ».

الخدمة: « هدفُ عملنا الجماعيّ نَجْدةُ كُلِّ من يُعاني من شدّةٍ أَو عَوزٍ، ولا

سيَّما من يفتقرون إلى مأوًى، وبذلك نخدم سَلامًا حقيقيًّا بتحريضنا الرأيَ العامَّ، والسُّلطات الرسميَّة على وعي مآسي مُجتمعنا.

"هكذا يُصبح شعار الجماعة: فلنكن أَحرارًا وعادلين، ولنخدم، أَوّلاً، الأَكثر معاناةً. هنا منبعُ كُلّ سلامٍ حقٍّ ».

وبوحيٍ من هذه المبادئ علَّقَ الأَبُ على باب مقرّ الجماعة الإعلان التالي:

– « أَنْتَ لستَ في ملجأ، فنحن رجالٌ واقفون على أَرجلهم، يكدَحون ليكسبوا خبزَهم، ويعملون، جماعيًّا، في خدمة من هم أَشدُّ منهم بُؤسًا.

"فإن شئتَ العيشَ وَسْط هذه الجماعة، أَقلعْ عن السُّكْر، وكن نظيفًا، شريفًا، نشيطاً ومُسالمًا. فما حاجتُنا إلى السَّكارى، والقَذِرين، واللّصوص، والكسالى والمشاغبين؟

"إنّ كلّ مالِ العالَم لا يصنعُ رجالاً، ولكنَّ رجالاً يحدوهم الحبُّ قادرون على صُنع كلّ شيءٍ حتّى المال الضّروريّ.

"كلّ مجتمعٍ يضمُّ أَقوياء، وضعَفاء، وجُبَناء،

"فللقويّ نقول: تعالَ ساعدْنا على نَجْدةِ الضُّعَفاء

"وللضَّعيف نقول: اِستَعِد الأَملَ، فمعًا سنقوى على حَلِّ مشاكلك.

"أَمَّا الجُبناء فليعلموا أَنّهم سيجدوننا، أَبدًا، صارمين في إقصائهم، بقدر ما نحن مُتَأَهِّبون للتَّرحيب بهم حالما يُقرِّرون أَن يسلكوا مَسْلَكَ الرِّجال ».

وفي رسالةٍ إلى جماعة "عمّاوس" الأولى، كتبَ الأَب پيير:

« غايتُنا أَن نستطيع القول:

– لكلّ من يَتأَلَّم: ادخُلْ، وكُلْ، ونَمْ، وارتدِ لباسًا لائقًا، وبعد ذلك، إن أَنت شئت، شاركْنا عَمَلنا.

– لكلّ أَبٍ أَو أُمٍّ يَئِسا من جرّاء افتقارهما إلى مأْوى: طِيبا خاطرًا، فمعًا سنُوفَّق في العُثور على مأوًى لكما.

– لكلِّ كائنٍ بَشَريٍّ، إلى أَيّ شَعْبٍ أَو جنْسٍ انتمى: تعلَّم معرفةَ إخوتك في البسيطةِ كلّها؛ تعلَّم الاتِّحادَ معهم لحمل هذه البسيطة على أَن تهب الجميع، في جوٍّ من السَّلام، كُلَّ الفَرَح الذي يسعُها منحه إيّاهم، جَسَدًا وروحًا ».

وكان الأَب لا يني يدعو رفاقَه إلى التَّذَرُّع بالصَّبْر والمثابرة، مردِّدًا أَقوالاً مثـــل هذه:

« لا يمكن تسريع نُمُوِّ القمح بالشَّدِّ على السَّنابل"، "المشاريع الحقيقيّة هي الَّتي نستخلصها من الأَحداث"؛ "حُرِّيَّتُنا تكمن في إِبقاء أَشرعة عزمنا على عمل الخيـــر مشدودةً، أَو أَن نجبن، فنُرخي تلك الأشرعة، ونتخلّى عن كُلّ شيءٍ. لسنا، نحـــن، من يَصْنَعُ الرِّيحَ. إِنّ العنايةَ الإِلهيَّةَ قد مكَّنتْنا، دائمًا، من العثور على كُلّ ما نحتاج إِليه، فالشّراع، إِذا ما ظلَّ مشدودًا، أَجبرَ الرِّيحَ على الهبوب ».

وبعد أَن قامتْ جماعةُ "عمّاوس" على هذه المبادئ، وتمرَّستْ بالعَمَل بها، باتـــتْ لا تخشى العواصف، لأَنَّ جذورَها راسخةٌ في أَعماق المعرفة، والمقاســـاة، والفَـــرَح الَّذي يندُّ عن الوَصْف، النَّاجم عن المُعاناة لكي تتوقّف معاناةُ الآخرين.

ولأَصدقاءِ "عمّاوس" الَّذين أَخذوا يلتَفُّون حول جماعاتهـــا، رَسَـــم الأَبُ پـــيير برنامجَ عيشٍ مُستَوْحًى من مبادئ "عمّاوس"، يتلخّص في النِّقاط التَّالية:

« إِنّ عالَمًا قائمًا على توفير مُتْعة السُّعداء، لا على إِنقاذ من يُعـــانون ظُلمًـــا، مصيرهُ الغَرَقُ في هُوَّة البغْضاء، لا مَحالةَ.

"فحيالَ كُلِّ أَلَمٍ بَشَريٍّ، اجهَدْ، بكُلِّ طاقتك، ليس فقط على تخفيف هذا الأَلَم، من غير تلكُّؤٍ، بل أَيضاً على تقويض أَسبابه.

"واجهد لا على تقويض أَسبابه فحَسْب، بل أَيضاً على تخفيـــف وطأتـــه، فـــي الحال.

"فما من إِنسانٍ طيِّبٍ، وعادلٍ، ومستقيمٍ حقًّا، إِن هو لم يعزم، وفقًا لوســـائله، على تكريس ذاته، عن طيب خاطرٍ، وبكُلِّ كيانه، لكلتَيْ هاتَيْن المُهمّتَيْن، إِن انفصلتْ إِحداهُما عن الأُخرى، أَبطلَتْها.

"إِنَّ أَساسَ الإِدراك الوحيد والثَّابت، لدى رَجُل العمل، يكْمُن في مقاسمته شدائد الّذين يتأَلّمون، ويُواجهون اليأس ».

وللجميع كان يُوضح:

« نحن، في "عمّاوس"، ننطلق من إِنسانيّةٍ كالهبـــاء المنثـــور، مـــن كائنـــاتٍ

مُحطَّمةٍ، من العَدَم الفرديّ، من إنسانيّةٍ مُعْدَمةٍ إعـداماً مُطلَقـاً، عليهـا، أَوّلاً، أَن تستعيد الحدَّ الأَدنى من التَّضامُن لكي يتحقّق خلاصُها".

هذه الإنسانيّةُ المُحَطَّمة تستقبلها "عمّاوس" من غير أَن تسأَلَها من أين تأتي، وما الَّذي فعلتْه حتّى انتهتْ إلى ما انتهت إليه. الماضي يُطوى، ولا يُدانُ أَيُّ إنسانٍ إلاّ على سلوكه وَسْطَ الجماعة.

« عمّاوس ليست ملجأً لأَنَّ أَعضاءَها يكسبون خبزَهم بعَرق جبينهم، وليست جمعيّةً خيريَّةً، أَي أُناساً مُحسنين من جانبٍ، وآخَرين يتلقّون الإحسان من جانبٍ آخر، إذ إنّ الكُلَّ يعيشون جماعيّاً. وليستْ مشروعاً تجاريّاً كأيّ مشروعٍ آخر. بالطَّبع نحن نتوخّى الحصولَ على نتائج، ونودُّ تحقيقَ أَعمالٍ جيّدةٍ، بطموحٍ يُعادلَ طموح أَيّة مؤسَّسةٍ أُخرى، ولكنّنا مؤسَّسةٌ من نَمَطٍ خاصٍّ، فعندما نحن نشرع في إجراء حساباتنا، ووضع بياناتنا وميزانيَّتنا، نُقَيِّمُ أَرباحَنا بعدَد الرّفاق الَّذين استطعنا إنقاذَهم. هذه هي أَرباحُنا، وهذه كبرياؤُنا، هذه ثروتُنا، وهذا فخرُنا... ».

إرهاق وعزاء

في صَيْف عام ١٩٥٣، ارتأى "پول"، مساعدُ الأَب پيير، إسكانَ الأُسَر التي يتمُّ انتشالُها في أَماكن بعيدةٍ عن مراكز "عمّاوس"، تفادياً لاختلاطٍ قد لا يكونُ دائماً سليماً، ولصداماتٍ بين أَرباب تلك الأُسَر وبعض رفاق "عمّاوس" الَّذين لم يكونوا كلّهم ملائكة.

وتمَّ شراءُ قطعة أَرضٍ في غابة "پومپون"، فدعيت "پومپونيت"، وعندما وصلتْ إليها عَربةٌ مُعَدَّةٌ لتكون مَسْكناً، تقطُرُها شاحنةٌ عسكريّةٌ قديمةٌ، لم يُمكن البلوغُ بها إلى مكانها، إلاّ بعدَ قطْع عددٍ من الأشجار الَّتي كانت تُشكّل حاجزاً كثيفاً، ولم يُمنَح الترخيصُ بقطعها إلاّ أن أَمسى الأَمرُ واقعاً ماثلاً. وسُرعانَ ما ضجَّ المكانُ بخمسَ عشرةَ أسرةً، ارتفع عددها، شيئاً فشيئاً، إلى ثلاثين، دأب "پول" ورفاقُه على إعداد مساكن مؤقّتةٍ لها، ريثمَا يفرغون من بناء مساكنها النّظاميَّة، مستعينين بأَبوابٍ ونوافذَ وعُمُدٍ، وأَغطيةٍ وفرشٍ وأَثاث، ممّا كانوا يظفرون به من تحرير الأَقبية والسَّقائف؛ وهكذا تجاوَرَتْ مساكنُ مؤقّتةٌ من آجرّ، وأُخرى من

أَخشابٍ قديمةٍ، وصفيحٍ، وخيامٌ ومقطوراتٌ وشاحناتٌ عتيقةٌ، ورنّت ضحكات أَطفالٍ يعبثون بحرِّيَّةٍ في الهواء الطَّلْق، بعد أَن حُشروا طويلاً، مع أُسَرٍ أُخرى في أَقبيةٍ وبيلةٍ، وحظائرَ، وأكوَاخٍ قَذِرة.

كان الوقتُ صَيْفًا، ولا ضَيْرَ من إقامة تلك الأُسَر في مساكنَ مؤقَّتةٍ؛ ولكن كان لا بُدَّ من مُضاعفة الجُهود لإيوائها إِيواءً لائقًا، في مأمنٍ من غَدْر الشِّتاء؛ ولا سيَّما عندما كانت حالاتٌ مأساويّةٌ طارئةٌ تفرض سُرعةً قصوى في الإِنجاز، نظير حالة تلك المرأَة، أُمٍّ لسبعة أَطفال، تحطَّمت أُسرتها من جرّاء بطالة زوجها التي دفعتْ به إلى السُّكر والعنف، وكانت تُقيم في كوخٍ زريٍّ إلى جوار مزبلةٍ؛ وقد دفع بها اليأْس إلى إِلقاء نفسها في نهرِ السين، مرَّةً أُولى، وانتُشلت، ولكن لم يخطُرْ ببال أَحدٍ، في الدَّوائر الاجتماعيَّة الحكوميَّة، تقصّي دوافع إقدامها على الانتحار، الَّذي اكتفوا بعَزْوِه إلى أَسبابٍ عاطفيّةٍ، فأَعادت الكرّة، بعد ثمانية أَيَّامٍ، مُلتَمسةً الخلاص بين طيَّات مياه السِّين، من جديدٍ. ولكن، في هذه المرَّة، انحنت مساعِدَةٌ اجتماعيَّةٌ على شقائها، وأَشارت عليها باللُّجوء إلى مركز "پومپونيت"؛ ووافى رفاقُ "عمّاوس" إلى كوخها، فصُعقوا لما وقعت عليه أَبصارُهم من بؤسٍ ومهانةٍ، وقال لها "پول"، وقد أَخذت به الحميّة: "في غضون ثمانية أَيَّامٍ، سيكونُ لكِ ولأَبنائك مسكنٌ لائقٌ، يا سيّدتي".

وقد أَيَّده الأَبُ پيير، وهنّأه على قراره، وحثَّه على تحقيقه فورًا، فعمل "پول"، بمساعدة نجّارٍ، طوالَ ثمانية أَيَّامٍ بلياليها، بحيثُ بات المسكنُ جاهزًا في الموعد المضروب، وسهرَت الآنسة كوتاز، هي أَيضاً، كي تخيط لنوافذه ستائر. وعندما جاؤوا يُنبؤُون الأُمَّ المسكينةَ أَنَّ مسكنَها قد غدا جاهزًا، لم تُصدِّقْ، فهي قد طالما عانتْ بحيثُ ترسَّخَ لديها اليقينُ بأَنَّ الشَّقاءَ قَدَرٌ عليها محتومٌ، وبحيثُ بدا لها الخلاصُ السَّريعُ الَّذي بشَّروها به حُلْمًا خُلَّبًا؛ ولكنّ "پول" أَخذ إِحدى بناتها من يدها، واصطحبها إلى مسكنهم الجديد، فعادتْ تبكي جَذَلاً وتأَثُّرًا، وهتفت:

- "ما أَجملَه، يا أمَّاه، وله ستائر أَيضًا"!

وبارك الأَبُ پيير المسكنَ، واحتفل الجميعُ ببساطةٍ، وبفرَحٍ غامر.

وعلى هذا النَّحْو كان يتمُّ إِسكان أُسَرٍ في كُلِّ مكانٍ، فهنا أُسرتان يُصادر لهما

بيتٌ خالٍ، وهناك خمسَ عشرةَ أُسرةً تؤمَّن لها مساكن في قلب الغابة، وفي مكانٍ آخَر ثلاثون أُسرةً.

ولم يكن الأَمرُ يقتصر على إسكان القوم فحَسْبُ، إذ كان لا بُدّ، أَيضاً، من توفير الكثير من احتياجاتهم، من أَعواد ثقابٍ، وماءٍ، وأَغطيةٍ، وفُرشٍ، فضلاً عن الكثير من الحبّ. وكان الأَب "دوڤاليه" يزورهم باطّرادٍ، بالتّناوُب مع الأَب پيير، فيبثّان فيهم الأَملَ، والسَّلامَ، والبسمةَ، والإيمانَ بالله وبالإنسان.

عمليَّاتُ الإنقاذِ هذه التي تُصالح مع الحياةِ والسَّعادةِ أُسرًا يائسةً لم تكن تروق للمُهندسين الحكوميّين الأَنيقين، الَّذين كانوا يَعُدُّون مساكن الطَّوارئ الَّتي يبنيها رفاق "عمّاوس" تشويهًا للبيئة، ولجمالِ الضَّاحية، في حين لم يكن الجمالُ هو همّ أولئك الرِّجال الأَوْلَويّ، وهم يهبّون لنجدة بائسين لم تكن الآفاق التي تقع عليها أَبصارهم سوى آفاق المشافي والسُّجون والمقابر.

ولم يكن الأَب پيير يتوانى عن التّأكيد بأَنّه إن كان ثمّة خَلَلٌ، فتَبِعَتُه تَقع على عاتق السُّلطات التي تقاعست عن بناء مساكن نظاميّةٍ لمن لا مسكن لهم. وعلى من كانوا يجأرون بضرورة إزالة المُعَسكرات العشوائيَّة من غابة "الپومپون"، كان الأَب يردُّ بأنّ تلك المُعَسكرات التي اضطرّ هو ورجاله إلى إقامتها، في سبيل إنقاذ من لم يكن لهم سقفٌ يُظلِّلهم، ستُخلى من ساكنيها فورَ الفراغ من تشييد المساكن النظاميّة الَّتي تُنشأ من أَجلهم، وسيكون ذلك الإخلاءُ يسيرًا، ولكنَّ المُشكلة تكمن في إلغاء الحاجة إلى مثل تلك المعسكرات، إذ سُرعانَ ما ستقتحمها أُسَرٌ أُخرى ستجد فيها الخلاص من أَوضاعٍ سكنيَّةٍ لا تُطاق. وبالتّالي فالمهمّة الجوهريَّة تتمثّل في القضاء على أَسباب وجود تلكَ المعسكرات بتوفير مساكن لائقة لجميع الّذين يفتقرون إليها، وما أكثرهم!

وقد ردَّ الأَبُ، يومًا، على مُفتّش صحّةٍ انتقد أَوضاع السَّكن في "پومپونيت"، لافتقاره إلى المرافق الصِّحِّيَّة الأَساسيّة: "**أَظُنُّ أَنّك أَنت المسؤولُ عن المرافق الصِّحِّيَّة، لا أَنا، وعليكَ أَن توفِّرها لهؤُلاء القَوْم. أَتجدُهم الآن يفتقرون إلى المرافق الصِّحِّيَّة؟ لمَ لمْ تُشاهدهم مُكَدَّسين، ستّين نفَرًا، في فناء بناءٍ في**

المدينة، يستخدمون، جميعهم، مرحاضاً واحدًا، في حين أَنَّ الغابة كلَّها تحتَ تصرُّفهم هنا؟ مئات أُلوف البشر، في المدينة، محرومون من مرافق الصِّحَّة الأساسيَّة، ولا أَحدَ يُبالي بهم. إنّ النور مُحَرَّمٌ على عيونهم، وفي الشّتاء يغوصون في الوحل، ويقيم كلّ خمسةَ عشَرَ نفَرًا منهم، في غرفةٍ ضنكةٍ، ومع ذلك لا يُقلقُكم حالُهم. أَمّا هنا، فعلى الأقلّ لكلّ أُسرةٍ زاويتُها، وهم ينعمون بالشَّمس والهواء، ولذلك يأبون العودةَ إلى حيثُ كانوا. ولكن إن كنتَ تستطيع توفيرَ مساكن أَكثر لياقةً، فنحن مُستعدّون لنقلهم إليها في غُضون ساعاتٍ معدودات. إنّ ما يزعجُكم، حقًّا، هو إبرازُنا شقاءَهم للعيان، في حين كنتم تُؤْثرون إبقاءَه خفيًّا، متواريًا... إنّكم، بحجّة الحرص على تجهيز جميع المساكن بالماء السَّاخن، والصَّرف الصِّحِّيّ، ووسائل الرَّفاه، تُماطلون، وتَدَعون آلافَ الأسَر محرومةً من أَيّ نوعٍ من السَّكن، سنواتٍ طويلةً، يُواجه أَفرادُها وحيدين، عُزّلاً، وضعًا لا إِنسانيًّا، ولامبالاة المسؤولين والمجتمع المُترَف".

وكان الأَب لا يني يُردِّد أَنّه لو مُنِحَ ولو قسطاً ضئيلاً من المساعدة، لبنى، مع رجاله، آلافَ المساكن النِّظاميّة، عوضاً عن بضع مئات المساكن التي يبنونها بما كانوا يجنونه من جمع النفايات!

ذلك التضارُب الموجع بين الاحتياجات المُلحّة، وضآلة الإِمكانيّات المتوفّرة كان يَقُضّ، كُلَّ يومٍ، أكثر فأكثر، مضجعَه؛ فحاجات رجاله تَتفاقم باطِّرادٍ بتضاعُف أَعدادهم، وصيحاتُ البُؤس تزداد دَويًّا في آذانه وأَعماقه، متصاعدةً من صدور المُشرَّدين المفتقرين إلى مأوى؛ وكلّما هو تَوغَّل في إنقاذهم رانت عليه، بمزيدٍ من الثِّقل، جسامةُ تلك المهمّة، وارتاع حيالَ سيْلها العارم؛ وقد عَبَّر عن ذلك بقوله: "**في السَّابق، عندما كُنّا نسعى إلى إنقاذ إنسانٍ بائسٍ، أَو أُسْرةٍ بلا مأوى، كُنّا نُفلح في إِصابة هدفنا، وسُرعان ما يُسوّى الأَمر، وننعم بالسَّعادة والطمأنينة. أَمّا اليوم، وقد أَبحرْنا في خِضَمِّ البؤس البَشريِّ، فإنّنا، في كلِّ ساعةٍ وكلِّ يومٍ، غارقون فوق طاقات استطاعتنا**".

كان شعورُه بالعجز يَسحقُه سَحْقًا، ويقضي، بلا رحمةٍ، على قواه وأَعصابه، فيجفوه النَّومُ عدّةَ لياليَ متواصلةٍ، يقضيها ساهرًا ساهدًا، أَوْ ينهار تحت وِقْر الحمل

فيظلُّ يومَيْن متعاقبَين مسمَّرًا بالفراش، لا يقوى على النُّهوض. وشرَع يبدو محدَوْدِبًا، هزيلاً، مُنْهَكًا، وفي بعض اللّيالي، وفي أَعقاب يومٍ مرهِقٍ، لا يتمالك نفسه، فينفجر بالبكاء، ويُلامس الهاوية. غير أنّه، مع ذلك، كانَ عازمًا على المُضيِّ في مهمّته الشَّائكة، حتّى نهاية الشَّوْط، مُتخطِّيًا تُخومَ طاقاته، إكرامًا لشريعة الحُبّ، ومستمدًّا العَوْنَ في سرِّ العبادة.

وقد زاره، في تلك الأَثناء، نائبٌ أُسقُفيٌّ، كان قد عرفه فتًى، وفخر برؤيته نائبًا في البرلمان، وبعد أَن زار "عمّاوس" واطَّلع على الأَبنية التي شيَّدها للمُشرَّدين، نَصَحَه قائلاً: "إِنَّ ما فعلتَه لرائعٌ، ولكنَّك قد فعلتَ ما عليك، والأَفضل لك، الآنَ، أَن تصرف هؤُلاء القوم، وإلاّ فلن تتخلّص منهم أَبدًا..." فانفجر الأَب ضاحكًا وغاضبًا، في آنٍ واحدٍ، واعترض: "**إِن كنت قد تورَّطتُ معهم، فإِنّني لم أَفعل ذلك لكي أتخلّص منهم في ما بعد**".

ومن تصدِّيه للبؤْس، أَخذتْ تتبلور لديه رؤيةٌ جديدةٌ له، ولّدت فيه صوفيّةً من نَمَطٍ قشيبٍ، على نحو ما يُستدلّ من قوله: "**مشكلة السَّكَن ليست مشكلة إِحسانٍ وعطف. إِنّها قَضيّةُ عَدْلٍ مقدَّسةٌ، وسنكون جبناء إِن نحن جعلنا منها قضيَّة إِحسان**".

وقد تمرَّد، في هذا المضمار، على كثيرٍ من المُسلّمات، كالقول بأَنَّ الأَقرباء أَوْلى بالمحبَّة والعَوْن، إِذ غدا أَهمّ أُسّ إِيمانه، ومنهاج نشاطه أَنَّ الأَوْلى بالمساعدة هو الأَكثرُ أَلمًا وحرمانًا، وأَنَّ مدى البُؤْس هو الذي يُحدِّد أَوْلويَّة الخدمة. وقد انطلق من تلك النَّظرة إلى قِمَمٍ صوفيَّةٍ سامقة، فقال: "**التضحية والتَّجرُّد اللَّذَان يقتضيهما الزُّهد، في سبيل السَّيطرة على الذّات، وإخضاع الجسد والرُّوح للمشيئة الإِلهيَّة، أَلا يمكن مُمارستهما على نحوٍ أَفضل، وأكثر توافقًا مع الإِنجيل، في جاهزيّةٍ دائمةٍ لخدمة الآخرين، وفي نسيانِ الذات، بل حتّى في إِغفال التماس الكمال الذَّاتي؟**" ويخلص من هذه الرُّؤْية إلى نتائج عمليَّةٍ فيقول: "**إِنّني أُدرك أَنَّ العامل لا يجد في الكنيسة ما يرتاح إِليه؛ فمثلما هو مُتَغَرِّبٌ في مُجتَمعٍ بورجوازيٍّ، محاطٌ بقَومٍ يعيشون غيرَ عيشته، كذلك هو يشعر بالضّيق أَمامَ الهيكل، مثلَ شعوره به في صالونات المجتمع الرَّاقي... إِنّني موقنٌ بالضَّرورةِ المُلحَّة إلى غرْس حُضور الله والمُثل المسيحيّة في صميم الجماعات العاملة. وهذا لا يعني اجتذاب العمَّال نحونا،**

بل مُضيِّنا نحن إليهم... الدين في حاجةٍ إلى رُوّاد: كهنةٍ عُمّالٍ، ورهبان عمّالٍ، يتصدَّوْن للواقع بكلِّ قلوبهم وبكلّ إيمانهم، وكلّ تجرُّدِهم". وجديرٌ بالتَّنويه أنّه كان، في توجُّهه هذا على وِفاقٍ مع مُمثِّلي الكنيسة، فالحبرُ الأعظمُ قد اطَّلع منه، باهتمامٍ، على دوافع عَمله وباركها، ورئيس أَساقفة باريس كان يختلف إلى "عمّاوس"، ويهتمُّ، عن كثَب، بمشاكل من لا مَسْكنَ لهم.

ذلك الإيمان كان يُرسِّخُه في صموده، ويرفدُه بمزيدٍ من الطَّاقة في كفاحه، لكيلا يستسلم أَمام "قَدَر" البُؤْس؛ فما انفكّ يسعى، مثلاً، كي ينتزعَ من إِدارة سكَّة الحديد مقطوراتٍ وعرَباتٍ وحافلاتٍ، سُحبتْ من الخدمة، ويتطلّع إلى استبدال الأكواخ والمُعسكرات، وكلِّ أَماكن الإِقامة المؤقَّتة بأبنيةٍ نظاميَّةٍ دائمةٍ.

وممّا كان يزيده إِصرارًا على نضاله، تعاونُ رفاقه معه تعاوُنًا مندفعًا مُخْلصاً، فهم لم يتبرَّموا، يومًا، من شَظَف العَيْش المُفرط الَّذي أُلجؤوا إليه، في تلك الفترة؛ ومع أَن عشاء ليلة الميلاد، مثلاً، قد تكوَّنَ من بضع شرائح سردين مفروشةٍ فوق أَوراق الخسّ، إلاّ أَنَّهم احتفلوا بتلك اللَّيلة، أَمام مغارة الميلاد الَّتي أُقيمت للمرَّة الأُولى في "عمّاوس"، في فَرَحٍ دفّاقٍ، وكأنّهم ينعمون بتَرَف مأْدُبةٍ فاخرة.

كان رفاقه يشعُرون، في الصَّميم، بوقْر العبء الَّذي يبهظ كاهلَه، فيتضامنون معه بحماسٍ وحُبٍّ، كما تدلّ على ذلك تصريحاتٌ مثل هذه:

– « **في تلك الأَيّام البُطوليّة، كنّا نسيرُ مثل رَجُلٍ واحدٍ، وراءَ الأَب، ونحتفظ بالباقي لأَنفسنا ولذكرياتنا. كُنّا نشعر بالاعتزاز، وكان ذلك حَسْبُنا".**

– **"نحن نجهد في أَلاّ نُحطِّم كلَّ شيءٍ، وأَلاّ نسرقَ الصُّندوق، وأَلاّ نرتكبَ حماقاتٍ، ولكن ما أَبعدنا عمّا يعيشه هو، وعن صوفيّته الَّتي يستمدُّها من الإفخارستيّا، الَّتي يحتفل بها، فجرَ كلّ يومٍ، وحيدًا مُعظَمَ الأَحيان، لأنَّه لا يحاولُ قَسْرَنا على أَيّة ممارسةٍ دينيّةٍ. إِنّه يضطلع بوحدته، ونحن نحترمها ».**

وقد بكى الأَب فرَحًا وعزاءً عندما سمع أَحد الرِّفاق يقول:

– **"لو لم أُصادف "عمّاوس" في طريقي، لكنتُ إِنسانًا فاشلاً تائهًا. أَمّا الآن فإِنّني إِنسانٌ سويٌّ كالآخرين".**

وكم كان تأثُّرُه بالغًا يومَ هرع نحوَه رفيقٌ مُسِنٌّ رآه يهمّ باستقلال سيّارته المُهلْهَلة الهَرِمة للمُضيّ في مُهمَّةٍ، وتوسَّل إِليه: **"أَبتِ، كنْ حَذِرًا، ولا تنسَ أَنّه ليس لدينا سواك"!**

وكان العزاءُ الأَعذب يغمر قلبَ الأَب پيير، عندما يُقاوم بعض الرِّفاق الرغبةَ في الفرار من قسوة حياة "عمّاوس"، ويقرِّرون المكوثَ معه ليُعاضدوه، تضامنًا معه، وحُبًّا به وبمُثُله؛ لنستمع إلى "پول" يروي ما حَدَث له في هذا الشأن:

« أَثناءَ تجاذُبنا أَطرافَ الحديث، كنتُ قد أَلمحت للأَب عن عزمي على مغادرة "عمّاوس". فكنتُ قد جئتُ لقضاء ثلاثة أَشهرٍ موقنًا أَنّها مهلةٌ كافيةٌ لأَداء مُهمَّةٍ، وأَنّني لن أَستطيع المكوثَ يومًا واحدًا أكثرَ من ذلك، إِذ لا بُدَّ أَن تتغلّب عليَّ نشأتي في بيتٍ غنيٍّ بورجوازيٍّ، فتلك النشأة قد وسَمَتْني بأَثَرٍ لَن أَقوى أَبدًا على الانعتاق منه. وكنتُ قد أَنجزتُ، حقًّا، عَمَلاً جيّدًا في "عمّاوس" حيثُ أَشعْتُ النَّظافةَ، ورسَّخت النظامَ، وبات الرِّفاقُ يستيقظونَ ويتناولون طعامَهم في المواعيد المحدَّدة، بدقَّةٍ، ويُعنَون بنظافتهم، فيغتسلون، ويحلقون ذقونهم، ويبدون في مظهرٍ لائقٍ؛ وها قد آن لي أَن أُغادر ».

غير أَنَّ رغبةً كمينةً أُخرى كانت تعتمل في نفس "پول"، الذي آنس أَنّ عليه الاضطلاع برسالةٍ ما زالت طبيعتُها مُبْهَمَةً، بصفته مُساعدًا لذلك الكاهن القادر، وحدَه، على إِعتاقه من شياطينه. فحدَّث نفسَه: "إِن أَنتَ غادرتَ غدًا، لناءَ الأَبُ والآنسة كوتاز وحدَهما بالحِمْل. فلمن سيبوح الرِّفاق بأَنَّ "لولو" قد أَفرط في السُّكر؟ أَلِپوريه الَّذي سيُبادر إِلى طرده، أَم للأَب "نوربير" الَّذي لا يعرف للخمرة رائحةً، في حين أَنا أَشتمُّها من بعيدٍ، عبرَ الأَبواب والجدران"؟

وجمع "پول" خمسةً من الرّفاق الجديرين بالثّقة وخاطبهم: "لا بُدَّ من أَن نوفّر للأَب تعهُّدًا بالثَّبات من قبل رفاقٍ ليسوا شديدي الاعوجاج، أَو هم أَقلُّ اعوجاجًا من الآخرين، ومُتأَهِّبين لتنفيذ أَوامره".

وفي الحال تأَلَّف فريقٌ متضامنٌ متلاحمٌ، مُهمَّتُه الحُؤُول دونَ انهيار الأَب پيير تحت وطأَة الإِرهاق. وعندما وافوا الأَب، وأَنبأوه بقرارهم حَمْلق في "پول" وسأله:

– « هل أَنت جادٌّ في قولك"؟

– "مؤكّدٌ؛ ولا أُخفي عنك أَنّ ذلك سيُتيح لي، في ما بعد، أَن أَنسحب.

– "إِنّ ما تُخبرني به، الآن، أَحلمُ به منذ زمنٍ، وكـدتُ لا أُصـدّق أَنّـه ممكـن الحدوث. وأَرجو أَلا تهجرنا ».

وهتف الرفاق بصوتٍ واحدٍ:

– "إِن أَنت مكثتَ معنا، سِرْنا سويّةً".

وتعاهدوا جميعُهم على التشاوُر يوميًّا لمنع حدوث أَيّ نوعٍ من الفَوْضـى فـي الجماعة، ولإِقرار نظامٍ مشترَك، وأَقسموا على الوفاء لذلك العهد، مُدَّة سـنةٍ علـى الأَقل؛ وقد تمَّ ذلك في مكتب الأَب پـيير، الَّذي كان منتصبًا فيما بينهم، والَّذي أَقبـلَ عليهم فقبَّلهم واحدًا واحدًا، وهو يبكي ويبكي فَرَحًا وتأَثُّرًا.

شهرةٌ وعنايةٌ إِلهيّةٌ

الصَّداقةُ الدافئةُ التي برهن عنها الرِّفاقُ للأَب پـيير حدَتْ به إِلى اقتحـام كُـلِّ مخاطرةٍ، وخَوْضِ كُلِّ مغامرةٍ في سبيل إِخوانه والمستغيثين به. وقد دفعت به الحاجة إِلى المال من أَجلهم إِلى مُقامرةٍ لم يكنْ من اليسير على مثله الإِقدامُ عليها، إِذ كـان رائجًا، آنذاك، برنامج مُسابقاتٍ شَعْبيٌّ إِذاعيٌّ، تَتضاعف فيه أَرْبَاح المُتسابِق مع كُـلِّ سُؤالٍ يردُّ عليه ردًّا صحيحًا، أَو هو يخسرُ كُلَّ ما ربحه إِن عجز فـي الـردّ علـى سؤالٍ واحدٍ، أَو ردّ عليه ردًّا خاطئًا. وقد حثّ الأَبَ پـيير أَصدقاء له قُدامى علـى الاشتراك في ذلك البرنامج، فاستشار في الأَمر رجلاً هنديًّا من تلاميذ غاندي، فأَشار عليه:

– "إِن هوى ابنُك إِلى مَوْحَلةٍ، أَلا تنغمس فيها لإِنقاذه"؟

وانغمس الأَب پـيير في مَوْحلة المسابقات وخرج منها بغنيمةٍ قيِّمةٍ حلَّت قِسْطاً من أَزمات "عمّاوس" الماليّة. كان المُذيع يُمطرهُ بأَسئلته فتتـدفّق أَجوبتـه سـريعةً، واضحةً، مُدَعّمةً بالأَرقام والبيانات الدَّقيقة. ووَسْط دويِّ التَّصفيق تسلّم جائزةً بلغـت مئتين وخمسةً وستّين أَلف فرنك. ولم يفوّت تلك السَّانحة الثمينةَ كي يُحرِّك الضَّمائر، ويُطلع الرأْي العامّ على البُؤس المتفشّي، وجهود "عمّاوس" من أَجل مكافحته، فخاطب

جماهيرَ الحاضرين في الملعب الفسيح حيثُ كانت تجري المسابقات، وأُلوفَ المستمعين، عبر الأثير، هاتفًا: "**الآن جاءَ دوري كي أَطرح عليكم السُّؤال التَّالي: كم سترسلون لي لكيلا يَنْفُقَ، بعدَ اليوم، أُلوف الفُقراء بَرْدًا وجوعًا؟ يسعدني أنّني استطعتُ تسليتكم، ولكنَّني، أَنا، لم آتِ إلى هنا بغيةَ التَّسلية**".

بفضل تلك المسابقة اكتسب الأَب پيير و"عمّاوس" شهرةً مفاجئةً واسعة النطاق، حدتْ بصحيفةٍ تهتمّ بالأَخبار المثيرة إلى إرسال أَحد محرّريها لالتقاط حديثٍ من الأَب، يعود منه بمقالٍ طريفٍ، يُوفِّر مادَّةً مُسَلِّيةً، لقرّاءٍ سطحيِّين. وكان ذلك المحرِّرُ قد أَلِفَ إِجراء المقابلات الصحفيَّة مع نُجومٍ وفنّانين يُحسنون وفادته، ويتملّقونه كي يبرزَ لهم صُوَرًا برّاقةً. ولكن، في "عمّاوس"، لم يحفَلْ أَحَدٌ باستقباله أَو بالتَّزلُّف له، بل تركوه يتجوّل ويُشاهد بنفسه، كي يشهدَ بما رأى. وقد أَلفى نفسه صغيرًا، حقيرًا، إزاءَ جامعي النِّفايات الَّذين يعيشون التَّضحيةَ بصدقٍ لإِنقاذ الآخرين، وتخفيفِ مُعاناتهم؛ وشاهَدَ عالَمًا مُشرقًا، رغم فقره، لم يكن، قطُّ، يحلم بمثله؛ وهزَّه ذلك المشهد في أَعماقه، فحاول أَن يكتب، بصدقٍ، عن تلك الحياة المتميِّزة بصدقها. وكان لمقاله أَصداءُ مُدوِّيةٌ، دفعت عددًا من الصُّحف الأُخرى، فضلاً عن محطّات إذاعةٍ وتلفزيونٍ، إلى الاهتمام بحركة "عمّاوس"، والتَّعريف بها، ممّا وفَّرَ لها رفدًا ثمينًا من التبرُّعات والمساعدات، فعُقِدت عشرات المقالات عن ذلك الرَّاهب الطَّائرِ في غير سِربه، وبرزت عناوين تصفه بنعوتٍ غريبةٍ مثل "الكاهن جامع النفايات"، "المسيح على المزابل"، و"راعي جماعة سيّدة من لا مسكن لهم"، وكُتِب الكثير عن رفاقه الَّذين أَغرقوا بُؤسَهم في السَّعي إلى التَّخفيف من بُؤس الآخرين.

وانهالت الطَّلبات على الأَب لإِلقاء المحاضرات، في شتّى الأَرجاء، فكان يُلبّيها باندفاعٍ، وكانت عباراته الشَّبيهة بعبارات الأَنبياء بصدقها وغضبها، تهزّ الضَّمائر، وتُحرِّكُ أَعماق النُّفوس، وتُؤتي حصادًا وفيرًا.

وفي نفس المنحى شنَّ الأَبُ پيير، عبرَ مقالاتٍ ومقابلاتٍ صحافيَّة، حملةً واسعةً لإِطلاع الرَّأي العامّ على تفاني رجاله في خدمة من لا مأوى لهم، مع كلّ العوائق التي يواجهونها، ومع افتقارهم الذَّريع إلى الوسائل المؤاتية، ومع ظروف العيش والعمل القاسية التي يتخبّطون فيها، مُردِّدًا: "**رجالنا توّاقون للعمل،**

وسيُنجزون منه، بقَدْر ما نوفِّر لهم من وسائل"، ومبيّنًا أَن الأُسَرَ المُشرّدة في حاجةٍ إلى المزيد من المساكن الثَّابتة النِّظاميّة، وما مئات المساكن التي أُنجزت حتَّئذٍ سوى قطرةٍ في خِضَمِّ الاحتياجات الدفّاق. كثيرةً كانت المشاريعُ الَّتي يُعِدُّ لها رفاق "عمّاوس"، لتلبية جزءٍ من تلك الاحتياجات، ولكنَّها تستلزم ملايين لا يملكون منها فلسًا واحدًا.

تلك الصَّيْحات كانت تُفْلحُ في استفزاز هِمَمٍ شمّاء، ونوايا طيّبةٍ، وجماعاتٍ من "أَصدقاء عمّاوس" تضمّ مُتموّلين وصناعيّين، ومهندسين مرموقين ورجال أَعمالٍ، وقد أَثبتت صداقتُهم جدواها.

وإِذْ كانت السُّلطات، بالإجمال، مازالتْ غيرَ مُباليةٍ بأَمر من لا مأوى لهم، وتُقاوم مشاريع "عمّاوس" الإنقاذيَّة، لم يكن الأَب پيير يخشى من رَدِّ تُهَمِ اللاّشرعيَّة التي توجَّه إِليه، مُؤكِّدًا: "**لا شيءَ ممّا هو قانونيٌّ في متناوَل يدنا**"، مُذَكِّرًا بشروط الحصول على قروضٍ في سبيل بناء مساكن، شروطٍ لا يقوى عليها العُمّال الَّذين يُمثِّلون السَّوادَ الأَعظم ممّن يُقاسون مشاكل السَّكَن، وموضحًا أَنّ ما قام به رفاقُه من أَبنيةٍ تتعارض والقوانين، لم يفعلوه عن طيب خاطرٍ، ولا بدافع المتعة أَو روح المقاومة، بل مُرغَمين، وبمثابة إِنقاذٍ كانت الحاجةُ إِليه لازبةً مُلحَّة.

ولم يكن الأَب يتحرّج من إِثارة تلك القضايا، أَثناء عظاته في الكنائس، هازًّا مستمعيه بأَقوالٍ مثل هذه:

« ليس بينكم من لم يرقُد، هذه اللَّيلة، في سريرٍ. ولكن أَين هم فقراءُ يسوع المسيح؟ أَنتم الحاضرين ههنا لن تقووا على استقبال أَحدَ هؤُلاء البُؤَساء في منازلكم، ولا هم سيرضون بالإقامة فيها حيثُ سيشعُرون بالغُرْبة. لقد جعلتم من بيت الله هَيْكَلاً لا مكانَ فيه لمحرومي الحياة. أَنتم تمتلكون مساكنَ مُريحةً، ولبعضكم منازلُ فخمةٌ، ولكن هل تساءَلتم عمّا حلَّ بمن لا مَسْكنٍ لهم؟... وإِن كنتم تزدرون السِّكِّير الَّذي يترنّح في الشَّارع، أو المومس المُتسكِّعةَ على الأَرصفة، فأَنتم مخطئون ».

وذات يومٍ، استمع إلى الأَب پيير، وهو يحاضر في ستراسبورغ، الكاتبُ "بوريس سيمون"، فأَثارته مغامرةُ "عمّاوس"، وشرع يختلف إلى مواقع أَبطالها، ويمكث فيها، أَحيانًا، فتراتٍ طويلةً، ويُحاور الرّفاق، ويُشاطرُهم حياتهم، حتّى بات

وكأنّه أَحدُهم، وكان ثمرةَ خبرته تلك، كتابٌ في قالبٍ روائيٍّ، صدر بمناسبة عيد ميلاد عام ١٩٥٣، تحت عنوان "جامعو نفايات عمّاوس"، لاقى رواجًا واسعًا، وأَسهم في تعريف "عمّاوس" في فرنسا، وفي العديد من أَقطار العالَم.

ونتيجةً لتلك الحملات الإِعلانيّة تبرّع صندوقُ توفير باريس لجماعات "عمّاوس" بِخَمْسَة عشرَ مليون فرنك، وسمحت السُّلطات لصناديق التّعويضات العائليَّة بمنح قروضٍ لتمويل مساكن للمحتاجين، ممّا أَتاح للأَب پيير شراءَ هكتارَيْن من الأَرض في منطقَة "پونتوكومبو"، حيث أَنشأ مشروع "المشتل" لبناء ثلاثةٍ وثلاثين مَسْكَنًا نظاميًّا من الإِسمنت المُسلَّح، مجهّزة بالماء والكهرباء والصَّرف الصحّيّ، وقد صرّح بهذه المناسبة: "**ترون أَنّنا لسنا فوْضويّين، وأَنّنا لا نتمتّع بمخالفة القوانين**".

لم يُطلب من الأُسَر الرَّاغبة في امتلاك أَحد تلك المساكن سوى الإِسهام بعشرة آلاف فرنك عوضاً عن أَربع مئة أَلف فرنك كانت تقتضيها السُّلطات ممّن يرغبون في قرضٍ سكنيٍّ، على أَن يُقسَّط باقي ثمن الكلفة على مدى خمسٍ وعشرين سنةً. وتلا "المشتلَ" مشروعان آخَران في "تورسي" و"بوكيه"، وفي ربيع عام ١٩٥٣، كان ثلاث مئة مسكنٍ قد أُنجزت أَوْ هي قيد الإِنجاز.

ولكن بقدر ما كان الأَبُ پيير ورفاقه يمضون في مشاريع البناء، كانت تنهمر عليهم نداآتُ استغاثةٍ بمزيدٍ من الكثافة والإِلحاح، فالطَّلب أَسرع من العرض، والموتُ برْدًا وهوانًا أَسرعُ من بناء مسكنٍ نظاميٍّ. لقد غُرست "عمّاوس" في تُربة البُؤْس وسرعان ما نمَتْ لها فروعٌ قويّةٌ وارفةُ الظّلال. ولا بدعَ في ذلك، فتربةُ البُؤْس خَصْبَةٌ ؛ ومن ثمّ ازداد شقاءُ النَّاس التصاقًا بالأَب پيير، وعادت قوافل البُؤْس تتهادى أَمام عينَيْه الدَّامعتَيْن.

وكان لا بُدّ من العودة، إلى "اللاّشرعيّة"، ومن اقتحام الحقول والغابات لإِقامة مساكن مؤَقّتةٍ تَجدُ فيها أُسَرٌ كثيرةٌ الخلاصَ من معاناة التَّشرُّد، ووبال الاختلاط المُخزي في الأَقبية والسَّقائف النتنة المُزدَحمة. ولم يكن مُجرَّد توفير السَّكن هو الذي يُسرّب الأَمان إلى قلوب تلك الأسَر، بل كان بالأَحرى الشُّعور بالعيْش في كنَف جماعةٍ تَهُبُّ لنَجْدتهم لدى كُلِّ طارئٍ، وتدافع عن حقّهم في الوجود.

وفي غَمْرة ذلك النَّشاطِ الدَّائب، وتلك الهموم المُتراكمة، أَشرف عقدُ إِيجار بيت "عمّاوس" في "نويّي پـليزانس" على نهايته مع نهاية عام ١٩٥٣، وأَبدى مالكوه الرَّغبةَ في بَيْعه، وخيَّروا الأَب بين إِخلائه أَو شرائه، وكلا الخيارَيْن وَعْرٌ؛ فإِخلاء ذلك البيت الَّذي غدا لعمّاوس مهدًا ورمزًا، والَّذي حفل بذكرياتٍ غاليةٍ، كان قاسيًا لا يُطاق، وشراؤُه شبه مستحيلٍ، فالأب ورفاقه لا يملكون من ثمنه فرنكًا واحدًا؛ ومع ذلك، وقّع الأَب عقد شرائه، متَّكلاً على تدبير العناية الإِلهيّة، وطوال أَسابيع احتفظ بذلك الشراء سرًّا.

ومع دُنُوِّ أَجَل سداد الثَّمن، أَخذ القَلَق يستبدُّ به؛ وإِذ كان، في تلك الأَثناء، هامًّا بسَفَرٍ، باح لمساعده "پـول" بما كان يقُضُّ مَضجَعَهُ؛ واتّصل "پـول" بالكاتب الشَّهير، "جيلبير سيسبرون"، وهو من أَشدّ أَنصار الأَب پـيير اندفاعًا، وفي آنٍ واحدٍ مستشارٌ لأَحد المصارف، فأَقنع مجلس إِدارته بإِقراض الأَب پـيير معظم المبلغ اللاّزم لشراء البيت.

وفي اليوم السَّابق لموعد السَّداد النِّهائيّ دوَّتْ في ساحة البيت طقطقات درّاجةٍ ناريَّةٍ، كان صاحبُها قد جاء من قبل، وترك رُزْمة نقودٍ، ومضى من غير أَن يُعلن عن اسمه؛ وإِذا به يعود، في ذلك اليوم أَيضاً، ويكرّر فعلته، ما جعل الأَب پـيير يُعلِّق بقوله: "**لقد بات الربُّ يُرسل الآن ملائكته على درّاجاتٍ ناريّةٍ**". لم يكن المبلغ الذي جاء به يفي بكامل المطلوب، غير أَنَّ المتبقّي بات ضئيلاً.

وفي تلك اللَّيلة عينها، رنَّ جرسُ الهاتف، وكان المتكلِّمُ أَميرًا روسيًّا سبق له أَن اختلف مرارًا إِلى مقرّ "عمّاوس"، حيثُ كان يَدَعُ سيَّارته الفارهة، ويشارك الرفاق في جمع النّفايات. وفي تلك اللَّيلة أَخبر الأَبَ أَنّه عائدٌ لتوّه من الولايات المتّحدة حيثُ وُفّق في حلّ قضايا ماليّةٍ، وأَنّه سيزوره قريبًا كي يُقدِّم لجماعته مُساعدةً. فسارع الأَبُ إِلى إِحاطته علمًا بما كانوا يتخبَّطون فيه، وأَنَّ عليه أداءَ ثمن البيت في صباح الغد، فأقبل الأَمير في الحال، ومعه الرَّصيد المطلوب.

ومرَّةً أُخرى تحقَّق ما كان الأَب پـيير لا يني يُردِّده على مسامع رفاقه:

« لقد أَعطتنا العنايةُ الإِلهيَّة دائمًا الضَّروريَّ اللازم... وهي أَحيانًا تتأَخَّر رُبع ساعةٍ عن الموعد، لكيلا نُصْبِحَ أَولادًا مُدَلَّلين ».

حربٌ على البؤس

إِنجازاتُ "عمّاوس" التي تحقَّقت في نهاية عام ١٩٥٣ لم تكن كافيةً لبعث الرِّضى في نفس الأَب پيير الَّذي كان يَجْرحُه في الصَّميم التَّناقض الصَّارخُ بين سَيْل البُؤْس العارم، واللاّمبالاة الشائعة، وقد أَخذت تتلظّى فيه الرَّغبةُ في فضح "خِزْي أُمَّةٍ مُدانةٍ بإِغفالها من غَدَتْ حياتُهم اليوميَّة تحاكي حياةَ سجُناء في معتقلٍ، أَوْ سوائم في إِسطَبْل".

ذلك الواقعُ المُريعُ حوَّلَ حياته وحياةَ "عمّاوس" حُلْمًا مُزعجًا عبَّر عنه بالقول: **"من المحقَّق أَنَّ في كلِّ أسرةٍ تظفر بمأوى مَصْدرَ فَرَجٍ لنا، وأَنّ في كلِّ إِنسانٍ كان، حتّى الأَمس، مُقْتَلَعًا من جذوره، يائسًا، والتقى أَخيرًا الصَّداقةَ والكرامةَ والرَّجاء، خيرًا لا يوصف؛ ومن المُؤكَّد أَنَّ كُلَّ طفلٍ تُكَفْكَف دموعُه، وتُصبح له الحياةُ مُستَحِقَّةً أَن تدعى حياةً، لأَمرٌ رائع..."**.

وبعد أَن يعترف الأَب بضآلة عدد من ينعمون بذلك الإِنقاذ، مقارنةً بخِضَمِّ الَّذين يلتمسون الغوثَ ولا يظفرون به، يُضيف:

"هذه "الروائع" التي تستثير إِعجابَ النّاس بنا، تثير غضَبَنا. فالأَمرُ أَسوأُ، بل أَلف مرَّةٍ أَسوأُ من ذي قبل، بالنّسبة إِلينا، إِذ إِنّ أَلَمَهُم يغمرُنا، وبالنسبة إِليهم، إِذ إِنّهم يضيقون ذرْعًا بالانتظار، ويظُنّون أَنّه كان يتحتّم علينا أَن نُنجز لهم، في يومٍ واحدٍ، مثل ما سبقَ وأَنجزناه لآخرين، وبالنِّسبة إِليكم، جميعكم، أَيُّها الأَصدقاء، وقد أَصبحتم، بعد الآن، عاجزين عن تجاهُل بشاعة كُلِّ تلك المآسي ومداها. إِنّ الأَمر أَسوأُ بالنِّسبة إِلى كُلِّ من حلَّ بهم البُؤس، وجميع من يحملون قلبًا يتعاطف مع البائسين".

ولا يني الواقعُ المرير يؤَرِّقه: **"ما أكثر الدُّموع، والبطونَ الخاوية، والظُّهورَ المرتعدة، والأَيدي المُصْفرة، وَسْطَ فيْض البطون المُتخَمة، والضَّحكات البهيميّة، وعَرَق فاقدي الإِحساس المُثْقلين بالثِّياب، وإِرهاف التَّافهين المتأَلِّقين"**!

وقد تفاقم ذلك الشُّعورُ المُضني، في غروب عام ١٩٥٣، إِذ هبطت درجةُ الحرارة ليلاً، في باريس، إِلى ما دونَ خمسَ عشْرةَ درجةً تحت الصِّفر، وانحدرتْ،

في بعض المُدن الفرنسيّة، إلى الثّلاثين تحت الصِّفر.

وفي إحدى تلك اللَّيالي، روى الأَبُ لرفاقه، والأَسى يهصرُ قلبَه، أَنّه شاهدَ، في بعض شوارع العاصمة، عناقيدَ بشريَّةً ترتعد بردًا، وتتراصُّ فوق منافذ المترو التماسًا لشيءٍ من الدِّفْءِ المَوْبوء المنبعث من قطارات الأنفاق؛ وقد اتَّضحَ أَنَّ معظمهم من العمّال أَوْ من المهاجرين الَّذين لا يملكون أُجْرةَ غرفةٍ أَو منزلٍ، فيُضطرّون، إثرَ ثماني ساعاتٍ من العمل المنهك، إلى قضاء لياليهم، يذْرَعون الأَرصفةَ بأَقدامٍ أَثقلها النَّصَب وجمَّدها البردُ، لكيلا يغتالَهم الصَّقيعُ، إلى أَن ينال منهم الإِعياءُ، فيفترشون الأَرصفةَ أَو حنايا الجسور، أَو زوايا الحوانيت كي يظفروا بقِسْطٍ من السُّباتِ الوجيع.

ومن ثمّ، أَهاب الأَبُ برفاقه إلى تحمُّل المزيد من العناء، وإلى الشُّروع بأَداء خدمةٍ ليليّةٍ إِضافيّةٍ. فباتوا، في أَعقاب يومٍ من العَمَل المُرهِق، يتناولون طعامهم على عَجَلٍ، ويُفرِغون شاحناتهم من محتوياتها المُتنوِّعة، لكي يملأوها بالحساء السَّاخن، وما يتيَسّر من الأَطعمة والأَغطية، ثمّ يهرعون إِلى نَجْدة الرّاقدين في العراء، فيُقدِّمون لهم ما يُغذّيهم ويُدفئهم.

واتَّفق أَن تعطَّلت شاحنتُهم، أَثناءَ واحدةٍ من جولاتهم اللّيليَّة، وكان لا بُدَّ من المُضيِّ بالمهمَّة حتّى نهاية شَوْطها، فأَوقف الأَبُ وزيرًا كان مارًّا بالمكان، و"صادرهُ" مع سيّارته، وبصحبته انطلق لإتمام جَوْلته. وما كادا يجتازان مسافةً قصيرةً، حتّى أَشار الأَب إلى كومةٍ مُبْهَمة وَسْطَ الرَّصيف، وقال للوزير: "أُنظرْ". فردَّ الوزير: "وما عساني أَنظر! إِنَّها مُجرَّد كومة قمامةٍ". ولكنَّ الأَب أَهاب برفيقه الرَّفيع الشأن أَن يتحقّق من الأَمر بنفسه، فانحدرا من السَّيّارة، ورفعا أَكياسًا عتيقةً، وخِرَقًا باليةً، وطَرَفَ بِساطٍ، فإِذا بها تُغطّي نحوَ ثلاثين رجُلاً وامرأَةً مُتقوقعين، منطوين على أَنفسهم، شبهَ متجمّدين. تلك كانت "كومة القمامة" التي احتلَّتْ، في آخرِ اللَّيل، رصيفًا كان، لبضع ساعاتٍ خلَتْ، يُرجِّعُ صدى وقع الأَحذية الفاخرة، ويشهد عرضاً لأَرقى الأَزياء الباريسيّة، ويفوحُ بأَذكى عطورها، في أَعقاب خروج عليَّة القوْم من المسارح والمقاهي والمطاعم.

وذاتَ ليلةٍ لَمَحَ رفاقٌ، وهم يعبرون بالشَّاحنة، عصاً بيضاء إِزاءَ جدارٍ، فعادوا

القهقرى، ودنوا من العصا، فإذا بزوجٍ من العميان، التصقا بالجدار، وتعانقا طمعًا بتبادل بعض الدِّفء، وأَخذ الثلج يغمرهما بحيثُ كاد يُصبح لهما كفَنًا.

تلك الجولاتُ كانت تمتدُّ حتّى ساعات الفجر الأُولى، وحينَها كان الرفاقُ يعودون لينالوا، بدورهم، قِسْطاً من الرَّاحة، وقد هدَّهم الإِنهاك، وشابَ فرحَهم بإِنقاذ الآخرين شعورٌ مُرْهِقٌ بالعجز عن استئصال البُؤس، ولنستمع، في هذا الشَّأْن، إلى نجوى حزينةٍ من الأَب پيير:

« **بعد أَن أَكون قد جَثَوْتُ بالقرب من رجُلٍ أَو امرأةٍ أَو فريقٍ من الناس، وأَلقَمتُهم شيئًا من الحساء السَّاخن، وتعيَّنَ عليَّ مغادرتهم إِلى آخَرين، كنت أكتشف أَنّني لا أَملك شيئًا أَقول لهم وأَنا أُودِّعهم.**

"**تلك الكلماتُ الرَّائجة البسيطة التي يتبادلها القومُ فيما بينهم عندما يفترقون، ولمُجرَّد أنّهم يتوادّون، كنتُ أكتشف أَنّها تتجمَّدُ على لساني.**

"**فحينما كانت درجاتُ الحرارة تهبط إلى ما دون العشرة تحت الصِّفر، هل كان ممكنًا أن أَقول لأُولئك المساكين: "ليلةً سعيدة"؟**

"**كنتُ، إِذن، أَنسلُّ كاللصّ، وأَمضي أُجَرْجِرُ الخِزْيَ والاشمئزازَ في أَعماقي، وأَقول لنفسي: "إِنَّك لجبانٌ! فكلُّ ما فعلتَه ليس بشيءٍ، ولم يَحلَّ أَيَّةَ مشكلةٍ. فغدًا سيواجه هؤلاءِ النَّاسُ أَنفسُهم البُؤْسَ عينه.**

"**وكان يجول في خاطري أَنّني، مع كُلّ الفقر الَّذي يسود في مقرِّنا، كنتُ سأَلقى، بعدَ لَحظاتٍ، سريرًا وغطاءً.**

"**ذلك الشّعورُ، باستمراره، غدا لا يُطاق** ».

بيد أَنَّ ذلك الشُّعورَ بالعَجْز لم يقْوَ على تثبيط عزيمة الأَب پيير الَّذي كان يُطلق لخياله العنان، فيمضي يحلم: "أَلا يُمكن الإِعدادُ لصدمةٍ تغيِّر ما في قلوب الناس؟... إِنّني أَرى، منذُ الآن، أَغنياءَ قادمين، يغمرُهم الخِزْيُ لأَنَّهم يشعرون بالسَّعادة في معزلٍ عن الآخرين... ويلتمسون التعاوُنَ مع الفقراء...".

وميزة الأَب پيير أَنَّه حالمٌ واقعيٌّ، لا يستمرئُ دعةً ولا هوادةً حتّى يُحوِّلَ حلْمَه واقعًا ماثلاً. ولذلك، ومن أَجل معالجة قضيَّة المُشرَّدين الَّذين كان يُحسُّ بمعاناتهم الرَّهيبة في جَسَده وأَعماق كيانه، أَعدَّ مع مختصّين في مضمار البناء، وبرلمانيّين،

مشروعَ قانونٍ لطرحه أَثناءَ مناقشة ميزانيّة إِعادة البناء الَّتي كانت ستُعقد في الثَّالث من كانون الثاني ١٩٥٤؛ وقد اتَّصف ذلك المشروعُ بالبساطة والتَّواضع، كي يضمن التأييد، فهو لم يُطالب بميزانيّةٍ إِضافيّةٍ عسيرة المنال، وإنّما اقتصر على المطالبة بتوظيفٍ فوريٍّ لمليار فرنك من أَصل تسعين مليارًا كانت قد أُقِرَّت وخُصِّصت للمساكن الشعبيّة، من أَجل إِنشاء "قرى طوارئ"، في الحال، وبصفةٍ مستعجلةٍ. وكان من شأْن ذلك المشروع، إِشادةُ أَلف مسكنٍ صغيرٍ، مساحةُ كلٍّ منها ٣٨ مترًا مربَّعًا، مبنيٍّ بالآجرّ أَو الإِسمنت، ومؤَلَّف من ردهةٍ، وغرفتين صغيرتين، ومطبخ وحمّامٍ ومرحاضٍ، ما يُمثِّل الحدَّ الأَدنى اللاَّئق بالأَسَر الناشئة والأَزواج المُسنّين.

وكان الأَبُ يأمل أَن تنهض تلك المساكنُ دليلاً على أَنَّها الحلُّ الأَوفر جدوى وسرعةً وملاءَمةً لأَزمة سكَنٍ خانقةٍ تتخبَّطُ فيها فئةٌ عريضةٌ من المحرومين، إِذ إِنّه يُمكن إِشادة العديد منها، بكلفةٍ زهيدةٍ، وفي مهْلَةٍ قصيرةٍ.

وكلّف الأَبُ صديقَه، عضوَ المجلس، "ليوهامون"، بتقديم المشروع إِلى البرلمان، حيثُ طُرِح للمناقشة، ليلةَ الثّالث إِلى الرَّابع من كانون الثاني ١٩٥٤، في ختام جلسةٍ مُنهِكةٍ، متمادية الطول، امتدَّ فيها التَّداوُل في شتّى بنود الميزانيّة على مدى اثنتين وسبعين ساعةً.

وقد سكب "ليوهامون" دُرَرَ بلاغته، مُحاولاً إِقناع زملائه بجدوى المشروع، وضرورته المُلحَّة، وبيَّن، منذ الوهلة الأَولى أَنَّ المليار فرنكًا المطلوب توظيفُها في الحال لبناء مساكن طوارئ، هو ما تَلْتَهِم مثلَه، في كلِّ يومٍ، الحربُ في الهند الصّينيّة، ثمّ أَردف: "هذا الوضعُ الَّذي نَقفُ عليه شهودًا، ينبغي أَلاّ يُنسينا الاعتيادُ عليه مأْساوِيَّتَهُ... إِنَّ أُمّةً ترضى بأَن تعاني مئاتُ أُلوف أُسَرِها مثل هذه المعاناة، هي أُمّةٌ في حال "خطيئةٍ دائمةٍ" حيالَ من يتوجَّبُ عليها أَن تُؤَمِّن لهم، على الأَقلّ، الحقَّ بمنزلٍ، والحقَّ بالسَّعادة". ثمَّ أَوْرد عبارةً للأَب پيير يقول فيها: "**مَنْ منّا، نحن الرّاضين عن أَنفسنا، وعن فضائلنا، لو إِنَّه كان يعيش في مثل ظروف هؤُلاء المحرومين، كان سيحتفظ بما احتفظ به الكثيرون من هؤُلاء البائسين من كرامةٍ، وحياةٍ وفضيلةٍ؟**" وأَعقبها بهذا القول الآخر للأَب پيير: "**إِلى جانب ترخيص البناء، يجب أَن يمتلك البشرُ ترخيصاً بالعَيْش**".

بيدَ أَنَّ كلّ تلك الحُجج الدّامغة، لم تجدْ طريقَها إلى وجدان الوزراء والنُّوَّاب الَّذين أَجمعوا على نفي صفة الاستعجال عن ذلك المشروع الَّذي قرّروا إِرجاءَ النَّظر فيه، ريثَما يتسنّى للِّجان المختصَّة إِشباعُه دراسةً، واستشارة الخبراء بشأنه، ولا سيَّما عقْبَ تصريح وزير الإِسكان بأَنَّه، في غُضون ثلاث سنواتٍ، سيكون، ثمَّةَ، فيضٌ من المساكن، وستنتشر على شُرفات منازلَ عديدةٍ لافتات "للإِيجار".

وبعد أَن أَتمّ الوزراءُ والنوّاب، هكذا، واجباتهم، مضوا كي يرتاحوا في أَسرَّتهم الوثيرة، وبيوتِهم الدَّافئة، في حين ظلَّ أُلوف الفُقَراء يفترشون الأَرصفة، في عراءٍ صقيعيٍّ.

وفي تلك اللَّيلةِ عينها، لم يقوَ الطِّفلُ "مارك"، البالغُ من العمر ثلاثةَ أَشهرٍ، على الانتظار ثلاثَ سنواتٍ، ريثمَا ينعم بسكَنٍ آمنٍ، وكان والداه، وهم من العمّال الَّذين لا يمكّنهم راتبُهم الضَّئيل من استئجار مسكنٍ، قد لجأا إلى هيكل حافلةٍ عتيقةٍ مهجورةٍ، اتّخذا منها مأوى مؤقَّتًا؛ وفيما كان النُّوَّابُ وأَعضاءُ الحكومة يُقرّرون إِرجاءَ النَّظر في مشروع مساكن الطَّوارئ، لم يصمد الطفلُ مارك أَمامَ غائلة الصَّقيع التي قصفت حياتَه.

وفيما كان الأَبُ، في الصَّباح الباكر، يهتف إلى صديقه "ليوهامون" مستفسرًا عن مصير المشروع، ويُصدَمُ بسماع قرار إِرجائه، شَقَّ بابَه والد الطِّفل مُنْتحبًا، وقال وسْطَ العبَرات: "أبتاه، لقد فارق الطِّفلُ الحياةَ، في هذه اللَّيلة"!

ذلك التَّزامنُ المأْساويّ بين لحظة إِرجاء مشروع مساكن الطَّوارئ، وموت الطّفل مارك، متجمِّدًا من الصَّقيع، قد أَحدثَ لدى الأَب پيير صدمةً لا قرارَ لغَوْرها، وفجّر لديه غَضَبًا عاصفًا، وحوّل موتَ طِفْلٍ ربَّما كان قد ظلّ، في ظروفٍ أُخرى، حادثًا حزينًا عاديًّا، سُرعان ما يهوي في طوايا النّسيان، زلزلةً لا نهايةَ لدويِّها.

وأَمضى الأَبُ النهارَ كلَّه يدقُّ أَبواب المسؤولين، مُحاولاً إِيقاظَ ضمائرهم، ساعيًا، في كلِّ صَوْب، إلى دَرْءَ سَيْل مآسي من لا مأوى لهم. ثُمَّ استغرق في صلاةٍ وجيعةٍ. وكان، لأَيّامٍ قليلةٍ خلتْ، قد أُهْديَ تمثالاً للسيّدة العذراء، يُمثّلها على نحو ما ظهرت لأَحداثٍ في بلجيكا أَعلنت لهم: "أَنا عذراء الفقراء، أَنا عذراء الأُمم...". أَمامَ ذلك التِّمثال، جثا الأَبُ مهيض القلب والجناح، وصلّى بحرارةٍ. وأَثناءَ دُعائه لَمَعتْ في ذهنه خاطرةٌ، فدبّج رسالةً مفتوحةً تتدفّق إِيمانًا وصِدْقًا، إِلى وزير الإِسكان، ووقع

خيارُه، من أَجل نشرها، على جريدة "الفيغارو" اليمينيّة الواسعة الانتشار، إذ كان موقنًا أَنّ "الَّذين ينبغي أَن تُعلَن لهم هذه الحقائقُ هم الَّذين يستيقظون، صباحًا، في منزلٍ دافئٍ، ويستطيعون تناول إفطارٍ شهيٍّ، ويُجالسون أَولادَهم، ويقبّلونهم فَرِحين قبلَ ذهابهم إلى مدارسهم. صحيحٌ أَنَّهم ليسوا أَقوامًا شرّيرين، ولكنّ الظروفَ الَّتي يعيشون في ظلالها، والامتيازات الَّتي ينعمون بها، تعزلهم عن آلام الآخرين. وسُرعان ما يذهل الناسُ عن الأَلَم الَّذي يُشاركون فيه".

في السَّاعة الخامسة صباحًا فرغَ الأَبُ من كتابة الرِّسالة، فأَنفذها إلى مكتب وزير الإِسكان، واستعان بصديقه الكاتب "جيلبير سيسبرون" على نشرها في جريدة "الفيغارو" حيثُ امتدَّت على ثلاثة أَعمدةٍ، وكان لها وقعٌ مدوٍّ، وقُيِّض لها أَن تنقذَ من الموت والبُؤْس عددًا غفيرًا من عاثري الحظّ؛ وذلكم هو نصُّها:

« نويّي پـليزانس في ٦ كانون الثاني ١٩٥٤

"سَيّدي الوزير

"لقد أَعلنتم في البرلمان: "في غضون ثلاث سنواتٍ سنرى، مُجدَّدًا، في باريس، لافتاتٍ تعلن عن "مساكن للإيجار".

"في هذه السَّنة بنت أَلمانيا ٨٩ مسكنًا لكلّ عشرة آلافٍ من مواطنيها، وبنتْ أَميركا سبعين منزلاً، وانكلترا ٤٨، في حين لم تنجز فرنسا سوى ٢٨ مسكنًا!

"وفي مثْل هذه الظروف، من شأن قولٍ كقولكم، القضاءُ على كُلِّ زَخْم

"إن كان الأَمرُ يتعلّق بالمساكن الفخمة، فمثل هذه اللاّفتات، سيّدي الوزير، لن تنتظر ثلاثَ سنواتٍ، بل بإمكانها أَن تُعلَّق منذُ اليوم، وبعددٍ كبير، على شرفات أَبنيةٍ فاخرة، تُفيد من "قروضٍ خاصّةٍ"، وتتكاثر على نحوٍ مُخْزٍ، ومثيرٍ للشُّكوك.

"أَمّا فيما يختصّ بالمساكن الشَّعبيَّة، فأَنتم تعلمون، سيّدي الوزير، أَنَّ قولكم لا يمكن أن يكون صحيحًا. أَلَم يتَّفقْ لكم، يومًا، أن اجتزتم عالَم الأَطلال، والأَقبية، والمساكن القابعة تحت سلالم الأبنية؟

"أَلم تُطالعوا، يومًا، تقاريركم القديمة؟ حيالَ ما تُبرزُه هذه التقارير من وقائع، يتعذَّر الادّعاء أَنّه خلالَ ثلاث سنواتٍ، سيحتارُ شعبُ باريس في ما سيختار من المنازل المتوفِّرة بغزارة.

"ولكنّكم قد أَسأْتم، فوقَ كُلِّ شيءٍ، بنَسْفكم، كما فعلتم، وببضع عباراتٍ سهلةٍ، الأَملَ الوليدَ في مساعدةٍ طارئةٍ تُسدى للأَكثر يأْسًا وبُؤْسًا، لمن قد يسأَلونكم: "وماذا عسانا نفعل، بانتظار سنواتكم الثّلاث؟ ما عسانا نفعل، نحن الأُسَر المُكَدَّسة بمعدَّل خمسةَ عَشَرَ شخصاً في غُرفتَيْن تحت السَّلالم وبمعدَّل سبعةَ عَشَرَ نفرًا في قبو، وبمعدَّل ستّين فردًا في فناء بناءٍ يستخدمون جميعُهم مرحاضاً واحدًا؟ ما عسانا نفعل، نحن أُلوفَ الأُسَر الَّتي تُطرَد من مساكنها، يومًا إِثْرَ يومٍ، نحن العائلات المُشرَّدة؟ بل ما عسانا نفعل نحن اللاَّجئين تحت الخيام والأَكواخ، حين نرى صغارًا يرتعدون بردًا؟ ما عسانا نفعل، نحن المصدورين، العائدين من المصحّة كي نقيم مع زوجةٍ وطفلَيْن في حافلةٍ نَخرةٍ! وما عسانا نفعل، نحن الصّبيانَ والبنات المراهقين السَّاكنين مع الأَهل وأَزواجٍ آخَرين إلى جوار أَطفالٍ لا يكفّون يبكون، على البلاط الرَّطب، تحت سقفٍ تحطّمتَ عُمُده؟

"لقد أَسأتمُ إِلى جميع من يسألونكم: "من أَجل ضحايا طوفانٍ في هولندا، قد حرّكتم، على نحوٍ مؤثِّرٍ، قلوبُ الفرنسيّين؛ ومن أَجل مهرجانٍ رياضيٍّ تُسهمون في بناء مُدُنٍ من شأنها إِيواء آلاف الأُسَر، طوالَ عشرين عامًا، ثمّ تدمّرونها بعد خمسةَ عشرَ يومًا؛ ومن أَجل مكاتب مؤتَمرٍ دَوْليٍّ، أَو من أَجل عسكريّي "فونتينيبلو" و"سان جرمان" تُحطِّمون جميع أَرقام السُّرعة القياسيَّة. ومن أَجلنا نحن، ماذا فعلتم؟

"من أَجلنا، نحن العمّال (فنحن لسنا مُتسوِّلين، بل نكسب خبزَنا بجُهْدنا، وسندفع إِيجار منازلنا)، من أَجلنا، حقّقوا فورًا "برنامج طوارئ"؛ حوّلوا مليارًا من مخصَّصات الأَبنية الشَّعبيَّة، لأَجل بناء ثلاثة آلاف "مسكن إِنقاذ"، لا مساكن مُؤَقَّتة، بل أَبنيةً متينةً، مقتصرةً على الضَّروريّ الأَساسيّ، ويمكن تحسينها مستقبلاً؛ اُحمونا، فورًا، لكيلا ننفق... ونحن ننتظر سنواتكم الثلاث".

"لكلّ هؤُلاء كان جوابكم: "لا".

"ولكن، في هذه اللَّيلة، سيّدي الوزير، هَبَطَ الصَّقيعُ بغتةً، وعلى بُعْد خُطوتَيْن من حيثُ أُقيم (وحيثُ ما زلتُ أُعَدُّ محظيًّا) نَفَقَ، بردًا، طفلٌ في الشَّهر الثالث من

عمره، داخلَ حافلة عتيقة، بين أَبيه وأُمّه، وهما ليسا من المتسكِّعين، بل من العمّال، وقد أَقاما في الحافلة، لأَنّهما، منذُ زواجهما، لسنتَيْن خلتا، لم يستطيعا العثورَ على مأْوى، ولم يكونا يملكان ما يؤدِّيان به أجرةَ غرفةٍ في فندقٍ، وكانا، وَسْط آلاف الآخرين، ينتظران موافقتكم كي نظفر، رفاقي وأَنا، بميزانيّةٍ تمكِّننا من أَن نُشيد لهما مأوى.

"فهل ترضَوْن بأن يقضي كثيرون آخَرون نَحْبَهم، طوالَ السَّنوات الثَّلاث التي فرضتموها، في تلك اللّيلة، بمجرَّدِ "لا" صادرٍ عمَّن لا يُعانون أَزْمَةَ سكن"؟ »

وختم الأَبُ رسالتَه بهذا النّداء التِّلقائيّ الصَّادق "من إِنسانٍ إلى إِنسان":

« سيّدي الوزير، إنَّ طِفْلَ "مدينة شقائق النُّعمان"، في نويّي پـليزانس، الّذي مات برْدًا، ليلة ٣ إلى ٤ كانون الثاني، أَثناءَ إِلقائكم الخطابَ الَّذي به أَعلنتم رفضكم لمشروع "قرى الطوارئ"، سيتمُّ دفنهُ في السَّاعة الرَّابعةَ عشْرةَ من يوم الخميس، السَّابع من كانون الثَّاني. فاذكروه، ومن المُستَحْسَن أَن تحضروا فيما بيننا، في تلك السَّاعة، فنحن لسنا أَشرارًا.

"صَدِّقوني، لن نُسيءَ استقبالكم. نحن نعلم أَنَّكم "لم تكونوا تريدون ذلك"، عندما أَرجأْتم، ثلاث سنوات، نَجْدةَ الَّذين ينامون تحت الجسور، لدى انتهاءِ عملهم في المعامل. نعلمُ يقينًا أَنَّكم لم تكونوا تدرون.

"سيُقال: "حالما سيدري، سيتحوَّلُ إِنسانًا آخر، وسيوظِّفُ عقلَه وسُلطتَه في البحث عن وسائل تحقيق هذا الحُلم؛ فلدى الإِدارة، إِن هي شاءَت، من الذَّرائع، ما يُمكِّنها من جعل المستحيل ممكنًا". وسيُقال أَيضاً: "على الأَقلّ، لن تكون هذه الفاجعةُ عقيمةً، إِنسانيًّا".

"وسنرافقكم كي تروا، بأُمِّ العين، موقع "پومپون"، وأَطفال العمّال الثمانين، في الغابة، والأَراضي التي نسعى إلى شرائها بفضل الكثير من المعاناة والجُهْد (وما زلنا في حاجةٍ إلى اثني عشر مليون فرنك، علينا اقتراضها قبل ٣١ كانون الثاني) من أَجل تحقيق حلمنا بأَوّل "قرية طوارئ".

"وسترون، أَيضاً، مساكننا الأُولى التي كلَّف كلٌّ منها ثلاث مئة ألف فرنك، ومع ذلك، هي تليق بفرنسيّين، ولا سيَّما بعد أَن تشاهدوا الأَكواخ الَّتي كانوا يقطنونها.

وربَّما، هكذا، سينتعش الأَملُ الَّذي تحطَّم يومَ الأَحد، على نحوٍ آخر، ولكنّــه، مــن المُحقّق، سينتعش، وسيكون ذلك عملاً جيّدًا. فلا تكونوا، مرّةً أُخرى، ذاك الَّذي قال لنا "لا".

"كم نؤْثرُ أَن نُحبَّكم على أَن نُضطَرّ إلى مقاومة النَّزعة إلى لَعْنكم!

"قاسيةٌ هي حياتنا، ممّا يجعلنا قُساةً، ولكن لا يجعلنا أَشرارًا. إنّما نحن توخَّيْنا، بنيَّةٍ صافيةٍ، أَن نُصارحكم بكلِّ ما نظنُّه حقًّا، وعادلاً، ومُمْكنًا. فلا تحملوا لنــا أَيّــةَ ضغينةٍ، مثلما أَنَّنا لا نُضمر لكم أَيَّ سوءٍ.

"وتقبّلوا، يا سيادة الوزير، تحيّاتنا الصَّادقة"

الأَب هنري أَنطوان غرويس »

وأُلحقتْ بالرِّسالة هذه الحاشيةُ الَّتي، بها، ارتقى بالقضيّة إلى مــستوى روحــيٍّ الكاهنُ والرَّسولُ الَّذي آلى على نفسه مقاسمةَ بُؤْس أكثر الناس تعاسةً:

« دعني أَقلْ لك أَنّني، من جهتي، أَدعو الله، بكلّ كياني، من أجلكم ومن أَجلنا، لكيلا نكون جميعُنا، ذاتَ يومٍ، في ما يجمعنا من جوعٍ وعطشٍ إلى العدل الَّذي شاءَهُ لنا، في ساعة ذبيحته القصوى، إلاّ قلبًا واحدًا، ونفْسًا وَاحدةً، مشتركين في الكفاح من أَجل إزالة كُلّ أَلَمٍ غيرِ مُسْتَحقٍّ ».

وفيما كان وَقْعُ الرِّسالة، في صباح السَّابع من كانون الثاني، يَتردَّدُ بعمقٍ وعُنْفٍ في كُلِّ أَرجاء باريس؛ كان الأَب پــيير منهمكًا في عمله، متنقِّلاً بين المزابل ومواقع البناء؛ وعاد قُبَيْل مَوْعد جنازة الطفل، ليتناول شيئًا من الطَّعام، وإذا بالهاتف يــرنّ، وبصوتٍ يقول: "إنّني غيرُ مرخَّصٍ بقول ما سأَقوله، ولكنَّني أَلفُتُ انتباهَكم إلــى أَنَّ السيّد الوزير قد أَلغى موعدًا هامًّا، وانتدب من يُمثِّله في حفلة تدشين بناءٍ جديدٍ، كــي يحضُر إلى قرية "شقائق النُّعمان"، ويشترك في جنازة الطّفل".

وقَفَزَ الأَب، في الحال، إلى سيّارته، وما لبث أَن وجد نفسَه، وجهًا لوجهٍ، أَمــام الوزير، هو في سيّارة جامعي النفايات، والوزير في سيّارته الرَّسميَّة؛ وإذ لــم يكــن بوسعه لا التقدُّم، ولا الرُّجوع القهقرى، رجا سائق الوزير أَن يرجع بــسيّارته إلــى الوراء حتّى المنعطف؛ وهناك، هبط من سيَّارته، ودموعُه تنهمر. لم ينطق الــوزيرُ

بكلمةٍ، ولكنّه كان باديَ التأثّر، وانطلقا معًا، ووقفا خاشعَيْن أمام جُثمان الطِّفل، ثمّ سارا معًا خلفَ النَّعش الَّذي أقلّته عربةٌ يجرُّها حصانان كانت حوافرهما المتردّدة تقرع، بعُنْفٍ، الأَرضَ التي جعلها الجليدُ صُلبةً، زَلقَةً. وعلى مدى كيلومترَيْن سار الوزيرُ حاسرَ الرَّأس، وَسْط مَوكبٍ قِوامُه عشرون سجينًا سابقًا، وقد بدا في معطفه الأَسود، أكثرهم حدادًا. لقد كان، بمجيئه، يُعبّر عن أَسَف فرنسا لجريمةٍ حمقاءَ اقترفها شعبٌ لا يُبالي بشقاء فئةٍ منه مُهْمَلةٍ. وكان عمله ذاك عظيمًا، ورائعًا، ومُشرِّفًا. وقد علَّق أَحدُهم بالقول: "لقد كانت جنازةً وطنيّةً، بل جنازةَ خِزْيٍ وطنيٍّ".

في أَعقاب الدَّفْن، شدَّ الوزير على يد الكاهن قائلاً:

– « كما ترى، قد جئتُ. لن أُجيب على رسالتك، لأَنّني لا أُريد حربًا كلاميَّةً. إِنّني إِنسانٌ مثل الآخرين، ومسيحيٌّ. صحيحٌ أَنّني لم أَشهدْ قَطّ مثلَ هذه المعاناة، ولكنّني لستُ عاجزًا عن الإِدراك ».

وأَجاب الأَب پيير:

– « **سيّدي الوزير، لقد كان لمجيئكم أَثرٌ عميق الغَوْر في نفوسنا، ولكن ليس هذا كلّ ما ننتظره، فالأَمرُ الجوهريُّ هو ما ستفعلونه** ».

ووَعدَ الوزيرُ الأَبَ بالاتّصال به لاحقًا، ووفى بوعده، فزار مواقع المزابل، حيثُ اتَّسخت ثيابه ويداه، وشاهد وَرَشات البناء، والأَبنيةَ التي أُنجزتْ، وتحادث مع سُكَّان المُخيّمات، والمساكن المؤقَّتة، واستمع إلى العديد من المآسي، واقتنع بأنَّ كُلّ أُولئك المُعذَّبين لم يكونوا مُتسكّعين، بل عُمَّالاً شُرَفاء، كلُّ حُلْمهم أَن يظفروا بسقْفٍ يحتمون تحتَه مع أُسَرهم وأَطفالهم؛ وقبل مغادرته شدَّ على يد الأَب مؤكّدًا:

– "أَعِدُك، أَبتِ، بتبنّي مشروعك الخاصّ بقُرى الطَّوارئ".

أَثناءَ جنازة الطِّفل كان جامعو النّفايات، رفاق "عمّاوس"، يتساءَلون: "من هو هذا الرَّجلُ البدين الأَنيق الَّذي ضرّج البَرْدُ خدَّيْه، ونشرَ التأَثُّر غشاوةً على عينَيْه، والَّذي خاطر بالسَّيْر الطَّويل على طرقاتهم المُحفَّرة، غير حافلٍ بالوحل الَّذي غطّى أَحذيته وانتشر على ثيابه، وزار هيكل الحافلة الَّتي قضى، بين جدرانها الحديديّة، الطفلُ "مارك" نحبَه، مُتَجمّدًا"؟

وعندما شاهدوا، أَمامَ الكنيسة، حَشْدَ المراسلين والصحافيّين، واطَّلعوا على هويَّة الرَّجُل الغريب الأَنيق، شعروا أَنَّ حضوره معهم يقوم بمثابة اعترافٍ بهم، وعـدُّوه حَدَثًا خطيرًا مؤَثِّرًا يُتيح لهم أَن يحلموا بتحوُّلاتٍ مثيرةٍ، فهم ليسوا، بعدُ، وحيدين في نضالهم، وبوسعهم توقُّع الكثير. وهذا ما عبَّر عنه أَحدهم تجرَّأ فقال للـوزير وهـو يُغادرهم:

– "**نحن، سيّدي الوزير، لا نثقُ بالوعود الكلاميَّـة، ولا نُـؤْمن إلاّ بالأَعمـال، فقوموا بواجبكم**".

ولم يُخامر الأَبَ پـيير أَيُّ وهمٍ، في إِثر زيارة الوزير، وهـو الخبيـر بـبطءِ الإِجراآت الحكوميّة، فواصل جهودَه ونضاله.

شباط ١٩٥٤: انتفاضة العطف

كانت درجاتُ الحرارة ماضيةً في الهُبوط، والجليدُ يزدادُ لَـسْعًا، والعواصـفُ الثلجيّةُ تنشرُ الكوارثَ؛ وتضافرت قَسْوةُ الإِنسان، باسم قانونٍ أَحمـق، مـع قَـسْوة الطَّبيعة، إِذ أَصدرَ وزيرُ الدَّاخليّة الفرنسيُّ تعليماتٍ إلى رجال الأَمن بالتشدُّد في تنفيذ أَحكام الإخلاء الصَّادرة عن المحاكم، من غير تلكُّؤٍ ولا تراخٍ، وفي مَعْزِلٍ عـن أَيِّ اعتبارٍ. وقد جاء في بلاغه: "ينبغي أَلاّ يُبرِّرَ أَيُّ اعتبارٍ أَمنيٍّ إِرجَاءَ تدخُّلكم، أكثر من مهلةٍ وجيزةٍ، كما ينبغي أَلاّ تُمثِّل استحالةُ إيجاد مأوى لمن طُردوا من المساكن الّتـي كانوا يشغلونها عاملاً مؤَثِّرًا على موقفكم".

وكانت مُعظَم أَحكام الطرد تلك تطال قومًا لا حولَ لهم ولا طَوْل، عمّالاً لا تكفي أُجورُهم الزَّهيدة لإِطعامهم، ومُسنِّين مُتقاعدين لا موردَ لهم؛ وبالتَّالي، غـدا لمدينـة النّور، في كُل صباحٍ، حَصادُها المخزي من الجُثَث المُتَجمِّدة.

وفي كُلِّ ليلةٍ كان الأَبُ يعود أَعمقَ حُزْنًا، وأَشدَّ إِرهاقًا، وغضَبًا، وثورةً، كمـا يدلُّ قوله: "**لقد أَدركتُ ما هو رجُلٌ يتقوقع ليموت، في أَحضان مجتمعنـا، مجتمـع المتحضّرين**".

"**فبقَدْر ما يبدو الرَّجلُ الواقف شيئًا جسيمًا، مُزعجًا، يسدُّ المدى، بنفس القَدْر، عندما هو يستلقي على الحضيض، ويتوارى لكي يتألَّم، وينامَ، يغـدو شـيئًا غيـر**

مرئيٍّ، تافهًا وزريًّا. ولكنَّ هذا الشَّيءَ الزريَّ ظاهريًّا، سينتصب، من جديدٍ، في يوم الرَّبِّ العظيم، ليُرهِقَنا ويَدينَنا".

كانت تطارده صُوَرُ أُولئك المرتعدين بردًا، المُتَشبّثين بشبكات الأَنفــاق، ومنافــذ المحلاّت الكُبرى، الَّتي تنبعث منها حرارةٌ مشوبةٌ بالأَبخرة الفاسدة، علَّهم يُصيبون بهــا بعضَ الدِّفء؛ وعندما يعود مُنْهكًا، ويجلس بين رفاقه كي يَطْعَم شيئًا من الحساء، يأْخذ يفكِّر، بصوتٍ مرتفعٍ، وصدرُهُ يجيش ثورةً وحَنقًا ومحبّةً: "أَلم يبقَ لهــؤُلاء المــساكين سوى الحقِّ بالعيش على قارعات الطرق؟ ينبغي إِنقاذُهم، يجب وضعُ حدٍّ للفضيحة!"

وكان يُريعه موقفُ السُّلُطات المُخزي؛ فذاتَ يومٍ استدعى رجُلَيْ أَمــنٍ مــارَّيْن، ودلَّهما على شخصَيْن مُسنَّيْن يكادان ينفُقان بَرْدًا، وأَهاب بهما أَن يُنقذاهما، فأَجابا بلا مبالاة تامّة: طالما لم يُفارقا الحياة، لا يمكننا أَن نفعل لهما شيئًا. تلك هي التَّعليمــات، فالسُّجونُ، والملاجئ والمخافرُ غاصَّةٌ، ولا يمكننا توقيف أَيَّ إِنسانٍ بتُهمة التَّــشرُّد؛ ولكن علينا إِقصاءُ المتشرِّدين عن الشَّوارع الرَّاقية، وإِخفاؤهم عن أَعــين الــسَّائحين وعليّة القَوْم، بدَحْرِهم إلى شوارعَ لا يكون وجودُهم فيها مَثارَ فضيحة".

وانتهز الأَب يومًا فُرْصةَ مقابلةٍ مع مراسلٍ تلفزيونيٍّ كان قد التقط صورًا خاطفةً لبعض المُشرَّدين، ولرفاق "عمّاوس" وهم يُطعمونهم، ثمّ التفــت إِلــى الأَب پــيير وطلب منه التعريف بعمّاوس. وبما أَنَّ البثَّ كان مُباشرًا، بعيدًا عن منــال الرَّقابــة، اقتنَصَ الأَبُ السَّانحةَ كي يُفرغَ جرابَه، ويصفع المسؤولين، وختم خطابــه بتوجيــه الكلام إلى رئيس مجلس بَلديّة باريس: **"لديكم ملاجئُ للكلاب الشّاردة، أَفلا تستطيعون توفير ملاجئَ للبشر المُعرَّضين للموت بَرْدًا على الأَرصفة"؟**

وفي اليوم التَّالي، بعد أَن تناول عشاءً هزيلا فــي مقهــى متواضــعٍ، بإِحــدى الضَّواحي، سأَله أَحدُ الخدم:

- "أَلستَ الأَب پــيير"؟

وعندما هزّ الأَبُ رأسه إِيجابًا، وضع الخادم بين يَدَيْه ظرفًا ممتلئًــا بــالأَوراق النَّقديّة، وقال:

- « هذا ردًّا على ما قلتَه أَمس في التّليفزيون. لقد أَطفأْنا الجهاز، بعد سماعك،

ونَظَرَ كلٌّ منّا في عينَي الآخر، وقلنا: "يجب أَن نفعل شيئًا". وقد طاف الظَّرفُ على الموائد، ووضع كلٌّ ما تيسَّر له من أَجل الَّذين ينفُقون في العراء. وكنّا مُـزمعين أَن نرسل لك حصيلة جبايتنا. ولكنَّ الربّ أَرسلك إِلينا ».

كان الأَبُ، كُلّما جئا أَمام إِنسانٍ متجمِّدٍ على الرَّصيف، أَو كُلّما اصطدم بأَحـدهم وهو يجري من هذا إلى ذاك، كي يُطعمهم، ويُلاطفهم، ويشدَّ من عضُدهم، رانَ عليه وِقْرُ العجز حيالَ "انتصار الموت"، وغَمَرهُ بالخِزْي، بالنِّيابة عمَّن هم بالخِزْي أَوْلى، وراح يتساءَل: "أَلستُ مُجَرَّد جبانٍ؟ ما فعلتُه حتّى الآن ليس بشيءٍ، ليس بشيءٍ إِطلاقًا. إِنّني لم أَحلَّ أَيّة مُشكلةٍ. إِنّي مشمئزٌّ من ذاتي...".

كان يتمنّى لو امتلك أَلفَ ذِراعٍ، ومئة شاحنةٍ، هو الوحيدُ مع حفْنةٍ مـن جـامعي النّفايات الَّذين، على غراره، كانوا يَبذلون قُصارى جُهْدهم. لا ريب أَنّ ما يقومون بـه لرائعٌ، ولكن ما أَهزل نتائجَه! ربَّما هم يُفْلِحون في إِرجاء الموت، وفي انتزاع مرارته بعطفهم. ولكن ما أَضأَل فُتاتَ العطْف في خِضَمّ الشَّقاء! وكان لا بدّ من حلٍّ آخر.

يوم الجمعة، في التَّاسع والعشرين من كانون الثاني، لم يستطع الأَبُ الاستيقاظَ باكرًا، إِذ كان قد أَخلد إلى النَّوم بُعَيْد الفجر، وقد شاع الأَلَمُ في كُلِّ جسمه، واستولى عليه الوَهَن. ثمَّ، عندما فرغ من إِقامة الذَّبيحة الإِلهيّة في نحو السَّاعة الحادية عَشْرةَ، ومضَتْ في ذهنه خاطرةٌ أَشاعت الإِشراقَ على مُحَيَّاه، والحميَّةَ في كُلِّ كيانه. فقد ذكَرَ رسالةً كانت قد وافتْه، لبضعة أَيّامٍ خلتْ، يُقدِّم له بها أَحدُهم قطعةَ أَرضٍ في حيٍّ باريسيٍّ راقٍ، يُدعى "شارع القدّيسة جينيـﭭـيـﭫ"، وقد بيَّن المرسل: "إِنّها أَرضٌ عاريةٌ، فالبيتُ الَّذي كان قائمًا فوقها قد أُزيل، وأَنا لستُ أَملك ما يُمكِّنُني من البناء، فإِن كانت تُفيدك في شيءٍ، أُقدِّمها لك عن طيب خاطر". يومَها لم يكن الأَب ﭘـيير أَفضلَ حالاً من صاحب الأَرض، إِذ لم يكن، هو أَيضاً، يملك فلسًا واحدًا. فأَوْدعَ الرِّسالةَ أَحدَ أَدراجه، حزينًا.

ولكنّه، في ذلك الصَّباح اندفع من المصلّى، وهو يطفرُ جَذَلاً، وهتف للرِّفاق الَّذين كانوا ما زالوا في البيت: "لقد راودتني فكرةٌ مدهشةٌ". فبفعل توارُد خواطر مُبْهَمٍ، اقترنتْ، في ذهنه، قطعةُ الأَرض في "جبل القدّيسة جينيـﭭـيـﭫ" ووجهُ بائع أَمتعةٍ عتيقةٍ يهوديٍّ، فهرع إلى الهاتف، وبادره بالقول:

– « اسمعني جيِّدًا أَيّها السيِّد منديلوفـــتش: أَنت يهوديٌّ، وأَنا كـــاهنٌ. وهنـــاك الأُلوف من إِخوةٍ لنا، نساءٍ ورجالٍ، ينفُقون بَرْدًا على الرَّصيف. أَنت تمتلك خيامًـــا، وأَنا لديَّ قطعةُ أَرضٍ، ورفاقٌ توَّاقون للعمل، فوافِني بمعدَّاتك، السَّاعةَ الخامسةَ مـــن مساء اليوم، في "جبل القدّيسة جينيـــڤـــييـــڤ"، وسننصب خيمةً جسيمةً فـــي قلـــب باريس. وفي هذه اللَّيلة لن نكتفي بإِطعام المُشرَّدين، بل سنوفِّر لهم مأوى. ســـتكون فعلتُنا هذه خطوةً أولى، نَخْزةَ إِبرةٍ، لكنَّها ستكون عملاً رائعًا ».

ومن غير أَيّ تردّد، أَجاب "منديلوفـــتش" على الطَّرف الآخر من الهاتف:

– "أَجل، مُؤكد".

وهتف الأَب في حُبور

– "هلليلويا".

وفي السَّاعة الخامسة من بعد ظهر ذلك اليوم صُدِم قاطنو الدائرة الخامسة في باريس بمشهدٍ غريبٍ؛ ففي قلب ذلك الشَّارع البورجوازيّ دأَب نحو عشرين عاملاً وجامع نفاياتٍ على نَصْب خيمةٍ خضراءَ جسيمةٍ من مُخلَّفات الجيش الأَميركيّ، ثمَّ فرشوا داخل المكان، فوقَ رُقع الثَّلج والجليد، نحو طُنٍّ من القشّ الناشف انتشرت فوقه أَغطيةٌ صوفيّةٌ خـــشنةٌ، فيما اتَّخذت المُولِّدات الكهربائيَّةُ والمدافئُ مكانَها في زوايا المكان، حيثُ أُعِـــدَّ مرحـــاضٌ ومغسلةٌ. وفي غضون خمس ساعاتٍ نهض "سقفٌ من القماش لفاقدي الأَمل"، من غيـــر ترخيصٍ، وفي تحدٍّ جريءٍ للسُّلطات. وعندما أَزفت السَّاعةُ العاشرةُ ليلاً، وشـــرع البـــردُ بحصاده المُميت، راح الأَبُ ورفاقُه ينتزعون من براثن الفَناء والأَلَم بعـــض ضـــحاياهما؛ وسُرعانَ ما احتشد تحت الخيمة ستّون شخصاً، في جوٍّ يُشعّ بالدفءِ والصَّداقة والأَمـــان، وفيما بينهم رقد الأَب پـــيير تلك اللّيلة. صحيحٌ أَنّ تلك الخيمة لم تكن المـــسكنَ المثـــاليّ، ولكن كم نعِم برفاهها من أَلِفوا الرُّقادَ على إِسفلتٍ يغشاه الصَّقيع.

لقد انتصبت تلك الخيمةُ رايةً للفَقْر والعَطْف والإِخاء، قلعةً هشَّةً تهزّها الرِّيـــاح ولا تقتلعها؛ مِرْآةً مُكبِّرةً تُجَسِّم أَمامَ العيون الحسْرى المآسي الخفيَّة، وكنوزَ المحبَّـــة الكمينة، جنونًا يُخيِّم تحت وطأَة بَرْدٍ يبلغ عشرين درجةً دون الصِّفر، جنونًا يُـــدعى تعاونًا ومحبّةً، ويعذِّب ضميرَ اللاّمبالين حتّى نهاية العمـــر، وتحـــدّيًا مُقْلقًـــا يُنـــادي ويُسائل، ويهزُّ ضميرَ الجيل المُتجمِّد.

وفي يوم الأَحد، الحادي والثلاثين من كانون الثَّاني، عندما لبّى الأَبُ دعوةَ مُؤْمني ضاحية "كوربــقــوا"، وانتصبَ بشَبَحه الأَسود، واعظاً في كنيستهم المُكرَّسة للرَّسُولَيْن بطرس وبولس، استمع هؤُلاء إلى عظةٍ لم يألفوا، قطُّ، سماعَ ما يُشبهها، فبفَمِه تكلَّمَ من لا صوتَ لهم، وأَطلقوا صيحاتِ استغاثتهم، الَّتي تردَّدت في الكنيسة المزدحمة، عبــر صَمْتٍ مُطبقٍ، شبهِ مُقدَّس؛ وقد عبَّر عنها الأَب بعباراتٍ لاهثــةٍ، متهدِّجــةٍ بــسيطةٍ، صريحةٍ، مباشرةٍ، عنيفةٍ أَحيانًا، تخترقُ القلوب، وتقتحم الضمائر. لم يكن الأَب يروي آلام الآخرين، بل كان يُجسِّدها، بين الفَيْنة والفنية، فيتلاشى صوتُه، ويرتعش الجمهورُ لسَماع همساته المُنكَسرة، ويُخفي بعضُهم عبراتهم بأَيدٍ يسترون بها وجوهَهم.

لقد تكلّم ساعاتٍ، ذلك الصَّباحَ، خلالَ ستَّة قداديس متعاقبةٍ، وحطَّمه التأَثُّر؛ وفيما كان، بين قُدّاسَيْن، منهارًا، جاثيًا، رنَّ الهاتفُ بجانبه، وأَخبره الرِّفاقُ أَنّهم التقطوا من فوق الرصيف عجوزًا تحتضر، ولكنّها فارقت الحياة قبــل وصــولها إلــى مخفــر الشُّرطة، وهي تشدُّ في يدها ورقةً زرقاء، هي هويَّتُها الوحيدة: قرار طردهــا مــن منزلها الوضيع بسبب تأَخُّرها في دفع أُجرته: وقد لقيتْ نحبَها، مُتَجمّدةً، فــي قلــب باريس، السَّاعةَ الثالثةَ صباحًا.

وعاد الأَب إلى المنبر، وروى الحادثةَ بلا تعليقٍ، وكأَنَّه ينطِقُ بحُكــم دينونــةٍ. وخرج الجمهور مُتَجهّمًا، في صمتٍ هادرٍ. ومع أَنّ المنطقة منطقةٌ عُمّاليّةٌ، واليــومَ كان الأَخير من الشَّهر، جبا الحاضرون ٧٥٠ أَلف فرنك، أَلقَوهــا بــين يــدَي الأَب قائلين: "لكي لا تتكرّر المأساة". وحثَّه بعضُهم على المثولِ إلى دار البلديّة لإِطــلاع الجميع على ما رواه لهم.

وبعدَ ظُهر ذلك اليوم، شهدتْ قاعةُ الاحتفالات في البلديَّة مهرجانَ التَّضامن، في سبيل مكافحة البؤس، اشترك فيه فئات من التَّبايُن بحيثُ قلّما تجمعها مناسبةٌ واحــدةٌ، إذ اختلط الأَغنياءُ بالفقراء، والمحافظون بالثَّوريِّين، واليمينيّون بالشيُّوعيّين، والكهنــةُ بقُسُسٍ بروتستانتيّين، وعُمّالٌ بمُفكِّرين، وفنّانون برجال إطفاء...

ومثلما تحدّثَ في الكنيسة، تحدَّثَ الأَبُ پــيير في دار البلديَّة، بــنفس الــصِّدْق والتأَثُّر، وكان لكلامه وقعٌ بعيدُ الغَوْر في الجميع. وقد أَكَّد: "إِنَّ "قرى الطَّوارئ" لــم تعُدْ تفي بالحاجة. ينبغي الآن تنظيم "إِغاثة طوارئ". فعندما ينفُق بردًا، على مقربــةٍ

منّا، كهولٌ وأَطفالٌ، لا يُمكن أَن يكون للقوم الشُّرفاءِ سوى رأيٍ واحدٍ، أَيَّةً كانت معتقداتُهم السِّياسيَّة؛ وهو أَن يعزم كُلُّ فردٍ على عمل ما يقوى عليه، وأَن يتكاتف الجميعُ لوضع حدٍّ للمأْساة".

وفي الحال تأَلَّفت أَوّل لجنةٍ لغوث من لا مأوى لهم، وعلى غرار رفاق "عمّاوس"، انطلق أَهالي "كوربقوا" كي يُنقذوا من غائلة البَرْد والأَلَم إِخوةً لهم سيئي الطَّالع. وكان الوقت يقارِبُ منتصف اللّيل، وميزانُ الحرارة يُشير إِلى العشرين تحتَ الصِّفر، ومُعظم الباريسيّين يرقُدون في دفءٍ، وسُكونٍ، ودَعَةٍ، في حين تلسع ريحٌ صقيعيَّةٌ بشفراتها الحادَّة أَجسادَ من لا مأوى لهم.

وقبل أَن يمضي الرِّفاق والمتطوّعون إلى مُهمّتهم، أَجبروا الأَب پيير على الإِخلاد إلى النَّوْم، قائلين: "من الحُمْق أَن تنهارَ وتمرضَ، ونحن في أَشدِّ الحاجةِ إليك". وكان الأَبُ من الإِرهاق بحيثُ استجاب لطلبهم بلا مقاومَةٍ، واطَّرح على سريرٍ وهو بكامل ثيابه.

وعاد المُنقِذون ببضع عشراتٍ من المساكين مقرورين، جائعين، مخبولين، مُجَمَّدي الوعْي والشُّعور، وكأَنّهم لا يُدركون ما يحدثُ لهم. وتلاشى كُلُّ شكٍّ كان لا يزال يُساورُ بعضَهم حَوْلَ من كان يُحدِّثُهم عنهم الأَبُ پيير، بعد أَن رأَوْهم بأُمِّ العين، واحتكُّوا بهم عن كثَب، وكلَّموهم، وساعدوهم، وسبروا غَوْر معاناتهم، وتبيَّنوا أَنّ نحوَ ثمانين بالمئة منهم لم يكن بينهم سكِّيرٌ أَو مُتَسوِّلٌ أَو مُتشرِّدٌ هامشيٌّ، بل كانوا عُمّالاً كادحين، شُرَفاء، مُستغَلّين، أَو عاطلين عن العمل، يُردِّدون بالإِجماع: "حَسْبُنا أَن توفّروا لنا عَمَلاً، وغُرَفًا نستطيع دفعَ أُجرتها بما نظفر به من أَجر"!

وفي الصَّباح احتشد أَمام سرير الأَب وفدٌ من الرِّفاق ومن أَبناء الضَّاحية، معترفين، هم أَيضاً، بضآلة جدواهم، ولا سيَّما أَنّ التنبُّؤات الجويَّة كانت تتوقَّعُ استمرارَ موجةِ الصَّقيع طوالَ شهر شباط؛ وقد اعترفوا بأسىً: "قد نستطيع إِنقاذَ حفنةٍ منهم، ولكن ماذا عن الآخرين؟ سيكون من النَّذالة تركهُم على الحضيض يعضُّهم الصَّقيع. بيد أَنّ عملنا أَشبه بعمل محترفين هواة، يعملون بأَيديهم، في حين أَنّ الحاجة هي إلى عَمَل مَصنعٍ يُدير سلاسلَ إِنتاجٍ كثيف".

وكان بين المتراصّين أَمامَ سرير الأَب پـيير صديقٌ له صحافيٌّ، ومَضَتْ في ذهنه خاطرةٌ عبقريَّةٌ، فهتف:

– « ولمَ لا تُطلق، أَبتِ، نداءً من الإِذاعة يَطالُ باريس كُلَّها، بل كُلَّ فرنسا، كي يطَّلع الجميعُ على ما جعلتَنا نكتشفُه بأَنفسنا؟

– "ولكنّني لستُ أَعرف أَحدًا في دار الإِذاعة!

– "أَنا أَعرف رئيس تحرير "الجريدة الناطقة.

– "فليكن ».

كان الوقتُ يُشارف الثانيةَ عَشْرةَ والرُّبع عندما هتف الصحافيّ إلى الإِذاعة ملتمسًا فُسحةَ خمس دقائق، أَثناءَ نشرة الثَّالثةَ عشرة، لبثّ نداءٍ عاجلٍ. وخُيّل لرئيس قسم الأَخبار في الإِذاعة أَنَّ صديقه الصّحافيّ قد أُصيب بمسّ جنونٍ، فالنشرةُ قد أُعدَّت نهائيًّا، وهي في طريقها إلى الأستوديو للبثّ. ولكنَّ صديقه الصّحافيّ كان مِلحاحًا ومُقْنعًا إِذ اعترض:

– « ولكن إِن قرأتَ، صباح غدٍ، في باب حوادث الصُّحف أَنَّ طفلاً ماتَ مُتَجمِّدًا مقرورًا، فستتحمّل أَنت تَبِعةَ موته، لأَنّك رفضتَ إِذاعة نداءٍ عاجلٍ، من شأنه إِنقاذ حياة العديدين ».

وسادَ الصَّمتُ، بُرهةً، قطَعَه رئيسُ التّحرير بقوله:

– "دع لي رقم هاتفك، وسأَعود للاتِّصال بك".

ورنَّ جرس الهاتف بعد دقائق، وقال رئيس التحرير مُتجاوزًا اللّوائح الإِداريّة:

– "هيّا، اِملِ عليَّ نداءَك، وسأُذيعه بنفسي، في نهاية نشرة الثَّالثةَ عشرة".

وإِذ لم يكن الأَبُ قد خطّ بعدُ لفظةً واحدةً، تناول ورقةً وراح يخربش بعصبيّةٍ وعلى عجلٍ؛ وتدَفَّقَ النداءُ تلقائيًّا، لاهثًا، يقول:

« أَصدقائي، أَنجدونا. في السَّاعةِ الثَّالثة من اللَّيلة الفائتة، ماتتْ امرأَةٌ مُتجمِّدةً على رصيف شارع "سيبستوپول"، ويدُها مُطبقَةٌ على قرار طردها، أَمس الأَوّل، من مسكنها. كلَّ ليلةٍ، ثمّة أَكثرُ من أَلفيْ شخصٍ يتقوقعون على الجليد، بلا سقفٍ ولا خُبْزٍ، وبعضُهم شبهُ عراةٍ.

"حيالَ هذه الفظائع، حتّى قرى الطَّوارئ باتتْ لا تقي بالحاجة. اسمعوني: في غضون ثلاث ساعاتٍ، أُنشئَ، اليومَ، مركزا إنقاذٍ: أَحدُهما تحتَ خيمةٍ، عند أَقدام "البانتيون" في شارع "جبل القدّيسة جينيفييف"، والآخر في ضاحية "كوربفوا". وكلاهما يغصّان الآن بالنُّزَلاء؛ وينبغي افتتاحُ مراكز أُخرى، في كُلِّ مكانٍ. هذا المساء، في جميع مُدُن فرنسا، وفي كُلِّ حيٍّ من أَحياءِ باريس يجب أَن تُعلَّق لافتاتٌ مُضاءَةٌ ليلاً، على أَبواب الأَماكن التي يتوفّر فيها أَغطيةٌ وقَشٌّ وحساءٌ، وحيثُ يمكن أَن يُقرأ تحت عنوان "مركزٌ أَخويٌّ للإنقاذ"، هذه الكلمات البسيطة: "أَنت يا من يتأَلَّم، أَيًّا كنتَ، ادخلْ، وكلْ، ونَمْ، واستَعِد الرَّجاءَ، فنحن نُحبُّك".

"إنَّ التنبُّؤات الجوِّيَّة تتوقّع شهرَ صقيعٍ مريعٍ. فلتبقَ، إذن، هذه المراكز مُشرعةَ الأَبواب، طالما استمرّ الشتاء. فحيالَ إخوةٍ لهَم يموتون بُؤْساً، يتوجّب أَلاّ يسود بين البشر سوى رأْيٍ واحدٍ: العزم على منع استمرار هذا البُؤْس. أَتوسّل إليكم أَن يُحبَّ بعضُنا بعضاً بالقَدْر الكافي الذي يُمكّننا من تحقيق هذا الهدف فورًا.

"بوسع كُلٍّ منّا الإسهامُ في غَوْث من لا ملجأَ لهم. يلزمنا، هذا المساء، وفي مهلةٍ أَقصاها يوم غدٍ، خمسةُ آلاف غطاءٍ، وثلاث مئة خيمةٍ أَميركيّة، ومئتا مدفأَة. أَودعوها، فورًا، في فندق "روشستر"، بشارع "لابوييسي" رقم ٩٢. أَمّا موعدُ المتطوّعين والشَّاحنات لجمع المُشرّدين، ففي السَّاعة الثالثة والعشرين، أَمام خيمة "جبل القدّيسة جينيفييف".

"بفضلكم لن يرقُدَ أَيُّ إنسانٍ أَو أَيُّ طفلٍ، هذا المساءَ، على الإسفلت، أَو على أَرصفة باريس. شكرًا ».

فَرَغَ الأَبُ من إملاء النّداء بضعَ دقائق قبل نشرة أَخبار الثَّالثةَ عَشْرة. واضطرّ رئيس قسم الأَخبار إلى إذاعته بنفسه؛ غير أَنّ الأَب لم ينتظر سماع إذاعته، بل بادر صديقه الصحافيّ بالقول:

– "هيّا بنا إلى إذاعة اللوكسمبورغ. فلديهم أَيضاً نشرة أَخبار في الثالثة عشرة، ولي، ثمّة، أَصدقاء".

صديقه، في تلك الإذاعة كان الكاتب "جيلبير سيسبرون".

كان الأَمرُ يبدو رهانًا أَحمق. فبين "كوربـڤـوا"، وإذاعة اللوكسمبورغ أَكثرُ من خمسة كيلومترات، والوقتُ وقتُ ازدحام. غير أَنَّ الأَبَ لم يأْبَهْ لاعتراض صديقه الَّذي كان يُذكِّرهُ بتلك الوقائع، بل اندفع يقفز فوق أدراج السُّلَّم، وأَلقى بنفسه في سيَّارته الهَرِمة ذات الأَربعة أَحصنة، التي اضطُرّ رَفيقه الَّذي كان يلهث وهو يحاول اللحاق به، أَن يدفعها كي ينطلق مُحرّكها المتجمِّد. وعلى مدى ربع ساعةٍ، خاض الأَب سباقًا مجنونًا مُتعرِّجًا بين زحمة السيّارات، غير حافلٍ بإِشارات المرور الضَّوئيَّة، وغير مُعيرٍ بالاً لصفَّارات الشُّرطة، بحجّة أَنّه لا يسمع بإِحدى أذنَيْه، إِلى أَن أَوْقف سيّارته تحت لافتةٍ تقول: "ممنوع وقوف السيّارات". وجرى إلى الأستوديو الَّذي ولَجَهُ مُزْريًا بالضَّوء الأَحمر الّذي يحظرُ الدُّخول. وآنذاك، بعد أَن نقّب جيوبه، تبيّن أَنه نسي نصّ النّداء في السَّيّارة، وهرع رفيقه فجاءَه به. وبعد دقيقتَيْن، كان المستمعون، في كلّ أَرجاء فرنسا، يُنصتون، متأَثّرين، إلى عباراته المُتقطِّعة، وصوته المتهدِّج، فيما كان آخَرون يستمعون إلى نفسِ النداء، وفي آن واحد، من الإِذاعة الرئيسة الفرنسيّة.

صمتٌ مطبقٌ، شبهُ مُقدَّسٍ، كان يُخيِّم على استوديو الإذاعة، فبعد موجة الاستنكار الَّتي استحوذَتْ على الموظَّفين حيالَ اقتحام الأَب لحَرَمهم، وقعوا تحت تأثير سحره، وأَخذَ نداؤُه بأَفئدتهم كُلَّ مأخَذٍ. ولكن ما إِن فَرَغَ الأَبُ من تلاوة ندائه حتّى ضجّت دارُ الإذاعة برنّات جميع هواتفها دفعةً واحدةً، متلقّيةً من كلّ حدْبٍ وصَوْبٍ عروضاً وتبرُّعات، واستعلاماتٍ عن كيفيّة تلبية النداء، وتقديم المساعدات؛ فهذا يودّ إِرسال أَلبسةٍ، وذاك أَغذية، وآخَر يتطوَّع لتبنّي طفلٍ، والجميع في حميّةٍ للإِسهام في إِغاثة المحتاجين.

وأَيقن الأَبُ أَنّ النّداءَ قد أَصاب هدفَه، فأَهاب برفيقه الإِسراع إلى فندق "روشستر"، لإِحاطة صاحبته علمًا، وإِبلاغها تعليماته.

لم يكن الأَب يعرف الفندق ولا صاحبتَه، ولئن هو عيّنه مركزًا لتلقّي التبرُّعات، فلأَنَّه تذكَّر، وهو يُدبّج نداءَه، رسالةً كانت قد وردته لثمانية أَيّامٍ خلَتْ، من صاحبته السيّدة "لارمييه" تقول فيها: "لقد طالعتُ كتابكم المفتوح إِلى وزير الإِسكان، عندما مات الطِّفلُ في موقع "شقائق النّعمان". ومُذَّاكَ، بتُّ أَعلم أَنّ أَولادًا صغارًا مُعَرَّضون للموت في باريس، وأَنّ كثيرين آخَرين يُعانون. ولم أَعُدْ أُطيق النَّوْم، وأَنا أَعلم أَنّ، ثمّةَ، غُرَفًا

مُدفَّأةً شاغرةً في فندقي، بسبب الرُّكُود الموسميّ، ولذلك أَضـعُ، فـي الحـال، تحـتَ تصرُّفكم، اثنتَيْ عشْرة غرفةً".

سباقٌ مجنونٌ آخر كان يقود الأَب پـيير ورفيقه إلى فندق "روشستر"، في سيّارة الأَب الهَرِمة التي كانت تتغلغل بين أَرتال السَّيارات، مُلامسةً هذه، متحاشيةً عن تلك في اللحظة الأَخيرة. وسُرعان ما تبيّن لراكبَيْها أَنّهما، بفضل بضع عباراتٍ خُربشَتْ على عَجَلٍ، ولكنّها كانت تُعبِّر عن خبرةٍ مأْساويّةٍ معاشةٍ مع الشقاء، وهي، من ثـمّ، تَهَبُ صاحبَها الحقَّ بالتكلُّم باسم البائسين، كانا قد أَفلحا في هَتْك حُجُـب اللاّمبـالاة، وتفجير ينابيع العطْف الحبيسة. كانا مثل صبيَّيْن أَوْريا عودَ ثِقابٍ، وقذفا به في غابة صنوبرٍ، ظُهرَ يوم صيفٍ قائظٍ، وأَخذتهما الدَّهشة حيالَ الحريق الهائلَ الَّذي أَشعلاه.

لقد أَمسى الأَبُ پـيير لا يُطيقُ الصَّمتَ، بعد أَن رأى ستَّةَ أَطفالٍ ينفُقون بـردًا في شهر كانون الثاني ١٩٥٤، وأُسَرًا تُطرَد لتواجه عراءً انحدرتْ حرارته إِلى مـا دون العشرين درجةً تحت الصِّفْر، وشُيوخًا وعجائز ترتعد فرائصهم وعظامُهم بردًا، وعُمَّالاً فقراءَ يرقُدون على الأَرصفة، وتحت حنايا الجسور، مُحاولين سَـتْر يأْسـهم وأَجسادهم المقرورة بأَكوام الخِرَق البالية.

وبات يُؤْمن بضرورة مخاطبة الرأْي العامّ على أَوسع نطاقٍ، وقد طالما أَعلـن: "ينبغي أَن نَصيحَ ونجأَرَ مُندِّدين بفضيحة أَزْمَة السَّكَن، الَّتي يجب أَن تنقلب فـضيحةً عامّةً، وخِزيًا وطنيًّا، وقضيَّةَ دوْلةٍ. ولا بُدّ لنا من مساندة الصّحافة الكبرى، من أَجل هزّ العُظماء، وإِيقاظ الأَغنياء، وإِنذار الرَّأْي العامّ".

كان بوسعه الحصولُ على ما يُمكّنه من مواصلة مهمّاته الإِنقاذيّة بفضل مئـات الاتّصالات الهاتفيّة؛ غير أَنّه آثرَ أَن يُلقي في الميزان أَلقابَه كمقاومٍ، ونائبٍ سـابقٍ، وأَوسمتَه، وجبّته الكهنوتيّة، وصداقاته الشَّخصيَّة، من أَجل لَفْـت انتبـاه الـصّحافة و"الكبار" إِلى بُؤَر البُؤْس التي كانوا يجهلونها أَو يتجاهلونها.

وتمثَّلَ هدفُه في هَتْك حُجُب المأساة، وكَشْفها للعيـان، بحيـثُ يراهـا الجميـعُ ويلمسونها، ويجعلون منها قضيَّتهم؛ وهو، في سبيل تحقيق هذا الهدف، كـان يتمتّـع بالحدْس والجرأة، حدْسٍ يجعلُ المأساة تتغلغل إلى صميم كيانه، ويتيح له استـشفاف وسائل مكافحتها، وجرأةٍ تدفعه إلى التَّحدّي والمخاطرة.

وفوقَ كُلّ ذلك كان يتطلّع إلى تعبئة المجتمع بأكمله من أَجل مكافحة البؤس، ويتوقّع صدمةً توقظ العزائم والطّاقات لتحقيق مُعجزةِ ثورةِ محبّةٍ، في خدمة الأَكثر تألُّمًا.

وقد تمّ له ذلك فوق كُلِّ ما تَوقّع.

نداؤه كان قد أُذيع في السَّاعة الثالثةَ عشْرةَ وخمس دقائق من الإِذاعة الوطنيّة الفرنسيّة، وفي السَّاعة الثالثةَ عشرةَ وعشر دقائق من راديو "لوكسمبورغ"؛ وفي السَّاعة الثالثةَ عشْرةَ وَالنِّصْف، عندما انتهى الأَب ورفيقه إلى فندق "روشستر" الَّذي يقع على بُعد بضع عشرات الأمتار من "الشانزيليزيه"، أشهر شوارع باريس، ذُهلا أمام مشهدٍ لم يكن ليخطر لهما ببالٍ، حتّى في الخيال، فقد كان رتلٌ من المُتبرِّعين يتراصّ أوَّلُه عند مدخل الفندق، ولا تُرى له نهايةٌ؛ وكلٌّ من انتظم فيه قد جاءَ برزمةٍ، أَو بتبرّعٍ ثمينٍ.

خَدَمُ الفندق المذهولون كانوا دائبين على إِخلاء ردهة الاستقبال من أَثاثها مُحوِّلينها إلى مستودعٍ، لاستيعاب سَيْل رُزَم الأَغطية والأَلبسة الَّتي لا يفترُ لِوُرودها تدفُّقٌ، في وتيرةٍ لا تني تتسارع، والّتي تراكمت تلالاً، فيما كان يتمادى طولاً طابور المُتبرِّعين المتدافعين على خزينة الفندق لإِيداع مجوهراتٍ ومبالغَ ماليّةٍ. لقد توافدوا ألوفًا، من كُلِّ فئةٍ ومَشْرَبٍ: بورجوازيّين وموظّفين، عجائز مثقلاتٍ بالحليّ، وطلاّبًا. بضعُ عباراتٍ كُتِبتْ على عجلٍ، وأُطلقت من الإِذاعة، فجّرتْ فيهم ينابيع السَّخاء والتَّضامُن، فاختزلوا غداءَهم، واصطحبوا ما تيسّر لهم، وهرعوا للإِسهام.

صاحبةُ الفندق نفسُها، التي فوجئت بذلك السَّيْل العارم الّذي داهم مكانها، وهي غافلةٌ عن منشئه، تهلّلت عندما علمت أَنّه من مُعجزات الأب پيير، فأشرعت أَبواب الفندق مردّدةً للجميع: "هذا منزلكم، أَهلاً بكم". وسرعان ما تعذّر عبور السيّارات في شارع "لابوييسي"، فحُوِّل عنه إلى شارعٍ آخر.

وتنازلت السيّدة "لارمييه" عن مكتبها في الفندق الكائن في الغرفة ٤١٢ للأَب پيير الّذي اتّخذ منه مركز قيادةٍ له. ولأَوّل وهلةٍ، اتَّضحتْ له الحاجةُ الماسَّةُ إلى المزيد من الخُطوط الهاتفيّة لتأمين اتّصالٍ دائم مع العالَم الخارجيّ، ومع رجاله النّاشطين في كُلّ مكانٍ، فهاتفُ الفندق كان مشغولاً بلا توقّفٍ باستعلامات المتبرّعين

وعروضهم، وبنداءات الاستغاثة التي تدفّقت في مثل كثافة التبرّعات. وبعد ثلاث ساعاتٍ من المحاولات تمكّن معاونوه من الاتّصال بمدير الاتصالات السّلكيّة. فأعرب له الأَبُ عن حاجته إلى ثلاثة خطوطٍ هاتفيّةٍ فوريّةٍ، وجاءه الردُّ روتينيًّا:

– « املأ الاستمارات اللاّزمة، وسنبذُل جُهدنا كي نلبّي طلبكم، ولكن لا تغالوا في التفاؤل، فالحصول على خطوطٍ هاتفيّةٍ في هذه المنطقة ليس بالأمر اليسير... ».

ولكنَّ الأَب اعترض، وهو يجيش غضبًا ونفادَ صبر:

– « ثمّة، في هذا الحيّ، أكثرُ من عشرين حلاّق كلابٍ، وإنّني موقنٌ بأَنّ شَعْر الكلاب قادرٌ على الانتظار قليلاً، ريثما ننقذِ النّاسَ من الموت! أفلا يسَعُكم إعارتنا بعض خطوطهم؟ »

كان الأَبُ يتكلَّم باسم البائسين، وبصفته تلك، يمتلكُ سُلطةً لا تُقاوَم، وكان مدير الاتّصالات السّلكيّة يسمع، للمرّة الأُولى، لهجةً لم يألَفْها. وفي غضون نصف ساعةٍ، تمّ تركيب أَوّل خطٍّ هاتفيٍّ إِضافيٍّ، تلاهُ، في الأَيّام اللاحقة، مقسمٌ خاصٌّ من عشرين خطًّا، دُعي "النجدة العاجلة للمُشرّدين"، وتطوَّع لتشغيله طُلاّبٌ جامعيّون، أَلقوا جانبًا كتُبَهم العلميَّة ودفاترهم، مؤَقَّتًا، وارتدوا لباس عُمّال الهاتف، وتعاقبوا على العمل الّذي كان مُتَّصلاً، أَربعًا وعشرين ساعةً كلّ يومٍ، لا تكفّ أَثناءَها كلّ تلك الخطوط عن الرنين، لحظةً واحدة.

وبعد أَن استوسقَ للأَب النَّصرُ في معركة الهاتف التي مكّنته من الاتّصال الدَّائم بطرفَي البُؤْس والسَّخاء، انصرف إلى المعارك الخاطفة الَّتي كان مُتمرِّسًا من خوضها وكسبها؛ وكان أَوّل من تصدّى له رئيس مجلس بلديّة باريس، الَّذي طالبه بإبقاء خمسين محطّة مترو مفتوحةً، في تلك اللّيلة، لكيلا يبيت أَحدٌ على الرَّصيف، في جوٍّ صقيعيٍّ مُميت.

لم يكن رئيس مجلس بلديَّة باريس يُطيق أَن يتدخَّلَ أَحدٌ بشؤونه على هذا النَّحو، فأَجابه: "لا مبرّر لطلبك. فقد زارني، منذُ برهة، مدير الأَمن، وأَكّد لي أَنّ المخافر كافيةٌ، وأَنَّ الكثيرين ممّن يرقُدون في العراء، إِنَّما يفعلون ذلك بمحض إِرادتهم، ويرفُضون أَيَّة مساعدة".

وتنفَّس الأَبُ بعمقٍ كي يكظمَ غَيْظَه متحاشيًا عن الصّدام مع رئيس مجلس البلديَّة، وعن إفساد علاقاته معه الَّتي ستكون مُطَّردةً في الأَشهر القادمة، ثمّ أَوضح:

– « **يبدو أَنَّ معلومات مُدير الأَمن غير دقيقة، وإلاّ لعَلِمَ أَنَّ رجاله هم الَّذين يأتوننا بالمُشرَّدين إلى الخيمة المنْصوبة عند أَقدام "الـپـانتيون". وخيرٌ لكم أَن ترافقونا في جولاتنا اللَّيليّة كي تتبيّنوا الأَمرَ بذاتكم، وتُكوِّنوا قناعةً بهذا الشأن** ».

ارتبَكَ رئيس مجلس البلديَّة، ووعد بالتحقُّق من الأَمر. ثمّ ما لبث أَن هتف للأَب پـيير مُعلنًا أَنّه، بعد التشاوُر مع مدير الأَمن، ومدير النَّقل العام، تقرّر فتح أَربع محطّات مترو مُغْلَقةٍ، بدءًا من مساء ذلك اليوم عينه. وهكذا، بفضل إصرار كاهنٍ، باتت محطّاتُ المترو تلعب دور "الملجأ" الَّذي سبق أَن لعبته الكنائس منذُ قرون.

بُلِّغ الأَب ذلك القرار في السَّاعة الثامنةَ عشرةَ، وبعد نصف ساعةٍ كان يخاطب مواطنيه عبر الإذاعة، من جديدٍ، قائلاً:

– « تجنّدوا، إذ يلزمنا مُتطوِّعون، كلَّ ليلةٍ، كي نتكاتف معًا على إنقاذ جميع من لا مأوى لهم، حيثُما كانوا متوارين... موعدنا في السَّاعة الثالثة والعشرين أَمامَ خَيمة "جبل القدّيسة جينيـڤـييـڤ". شكرًا ».

وفي الموعد المضروب ماجَ المكانُ بنحو أَلفٍ ممّن استجابوا لنداء الأَب پـيير، وآثروا الانسلاخ عن دِفْءِ أَسِرَّتهم، ومقاعدهم الوثيرة، كي يُسهموا في مؤامرة المحبّة والسَّخاء. في ذلك اللَّيل الصَّقيعيّ الّذي كان يُجمّد شفاهَهم، ويلسَعُ وجوهَهم بشفراته الحادَّة، ويعضُّ أَجسادَهم، تراصّوا منكبًا إلى منكبٍ، من كلّ منبتٍ ومشرَبٍ، وقد تجاور أَبطالُ مقاومةٍ، ورجالُ أَمنٍ سابقون، وأُسقفٌ وكهنةٌ، ومُستشارو سفاراتٍ، ونقابيُّون، وباعةٌ جوَّالون، وراهباتٌ، وزوجاتُ سياسيّين، وأَبناءُ أَغنياء، وجامعيّون، ومفكِّرون، ورجالُ إنقاذٍ، وقد انتظمهم اندفاعٌ واحدٌ للخدمة. لكُلٍّ منهم آراؤه وميوله، ولكنّهم، في تلك اللَّيلة، تعاضدوا على عَمَلٍ بسيطٍ وعظيم.

جميعُهم كانوا يؤَكِّدون جهلَهم للمآسي التي توقِعُ، كُلَّ ليلةٍ، ضحايا في مدينتهم، وكأَنَّ موجةً من الشُّعور بالذَّنْب قد سرتْ بوجدانهم، ودفعتْهم إلى التكفير.

وكانت عدسات آلات التَّصوير، التي هرع بها الصحافيّون لتخليد مشهدٍ قلّما تجود بمثله الأَحداثُ، تتمهّل عند كاهنٍ نحيلٍ، يكاد يُخفي الشالُ الأَسودُ العريض،

الَّذي تلفّع به، سترتَه الجلديَّة الخَلِقة، وجبَّتَه السَّوْدَاء التي اصطبغت بألوان القمامة الَّتي طالما انغمس فيها، فأَمست رايةً للبُؤْس، وعَلَمًا للمحبّة. وتحت هدير تصفيقٍ ملتَهبٍ، تسلَّق الأَبُ طَلَل جدارٍ مُتهدِّمٍ، وقد أَمسك مُكبِّر الصَّوت بيدٍ، فيما اتّكأ باليد الأُخرى على العصا الَّتي كان يستعين بها على اجتياز الجبال إبّان المقاومة، وغدتْ له، من بعدُ، رفيقًا لا يُبارحه. وراح يخاطب المتطوِّعين المتأَهّبين للسَّيْر وراءَه، بلا تردُّدٍ ولا تحفُّظٍ، قائلاً:

– « شكرًا لكم. إنّ كابوسًا سيتلاشى هذه اللَّيلة. والمشهدُ المأْساويُّ الَّذي كان ينبسط، حتّى ليلة البارحة، على أَرصفة باريس، وتحت جسورها، لن يتجدَّدَ اليوم. فبفضلكم، سيُنْقَذُ رجالٌ ونساءٌ من قضاء اللَّيل المُريع في العراء. فليعُدَّ كلٌّ منكم نفسَه مُجَنَّدًا، على الأَقلّ، حتّى انحسار أَمواجِ الصَّقيع. ولكن لا يكفي أَلاّ يموت البائسون برْدًا وجوعًا، بعدَ اليوم، بل ينبغي أَن نُهيّئ لهم العيشَ، عيشَ بشرٍ مُستوين على أَرجلهم ».

وانطلق مَوْكبٌ هجينٌ اشتركتْ فيه السَّيّاراتُ الأَميركيَّةُ الفارهة، والسيَّاراتُ الصَّغيرةُ ذات الحصانَيْن، إلى جانب شاحناتٍ صغيرةٍ عتيقةٍ مُقَعْقعةٍ وأُخرى كبيرةٍ من أَحدث طرازٍ، ودرَّاجاتٌ بعجلتَيْن وأُخرى بثلاث عجلاتٍ مُعدَّةٍ للنَّقل، انتشرتْ، جميعُها، في جهات باريس الأَربع بحثًا عن الرّاقدين في العراء، المُنْزوين كالذِّئاب المرتعبة على الأَرصفة، وتحت حنايا الجسور، أَو عند مداخل الأَبنية، ونوافذ المترو، ومنافذ المخازن الكبرى حيثُ يتسرَّب بعض الدِّفء.

وقد عاد مَوْكبُ الإنقاذ بالعشَرات من هؤُلاء إلى أَماكنَ أَوفى رحمةً ودفئًا. وما لبثتْ محطَّاتُ المترو الأَربع أَن ازدحمت بالنُّزَلاء، وإلى جانبها افتُتِحتْ عَشَرات "المراكز الأَخويّة للإنقاذ"، في المدارس، والمعاهد، والجامعات، وقصور العدل، والملاعب، والمُستوصفاتِ والكنائس، وفي جميعها جُهِّزت قاعاتٌ مُدَفَّأَةٌ لاستقبال من لا مأْوى لهم. وهكذا استطاعت الصُّحُف الصّادرةُ في الثاني من شباط ١٩٥٤ أَن تُعلن بلهجةٍ منتصرةٍ:

"في اللَّيلة الفائتة، لم يرقُد أَحدٌ في العراء في باريس".

لقد انقلبتْ تلك اللَّيلةُ ليلةَ ميلادٍ طويلةً، وُلِدَ فيها التَّعاطفُ والإِخاء، فوق القشّ والإِسفلت والخزْي، وتوهّجت الضمائرُ بأَلف أَلَقٍ وأَلَق.

ذلك الانتصارُ كان انتقامَ العقْل من الحماقة، واثّئار الحبّ من اللامبالاة، فموتُ الشُّيوخ والأَطفال بَرْدًا لم يكن ناجمًا عن نقصٍ في الوسائل، بل عن عدم الاكتراث وانْعدام الحيلة. وكان حَسْبُ صوتٍ مُخلْصٍ أَن يُطلِقَ نداءَهُ بعباراتٍ قليلةٍ صادقةٍ، نابعةٍ من مُعايشةِ البؤْس يوميًّا، كي ينعتق مجتمعٌ بأَكمله من عمًى طالما اطمأَنَّ إِليه، ويُدرك أَنَّ الله نفسَه يعيش في كُلِّ فقيرٍ. كان حَسْب الأَب پيير أَن يُردِّد بأمانةٍ كلام يسوع: "كنتُ جائعًا فلمَ لم تطعمني، وكنت مقرورًا فلمَ لم تلقِ على كتفيّ رداءً، وعلى جسمي غطاءً، لمَ أَهملتني؟ "كان حَسْبه أَن يفعل ذلك حتّى يسمعه كثيرون، ويسيروا في إِثْره.

بِوَجْهه الَّذي يُحاكي وجهَ المصلوب، وبكلامه النَّاريّ، كان الأَب پيير يُمثِّل وجدان فرنسا المُتعَب. وبقدر ما كانت تهبطُ دَرَجاتُ الحرارة، كانت شعْبيَّته تتصاعد. وبفعل تنديده الَّذي لا يعرفُ هوادةً، كان فتور الجماهير ولا مبالاته يُفتَضَحان، ويُقرّان بخطيئتهما، ويُحاولان التكفير، بالغُلوِّ في السَّخاء والاندفاع. وكان جليد الأَنانيَّة يتحطّم، والعطاءُ المتمثِّل في وفرةِ الهبات، والتمرّدِ على بُؤْس الآخرين، والمبادراتِ الخَيِّرة، يتَّخذ من الأَب پيير، ومن مُحيّاه وصوته، رمزًا، مُكتشفًا في أُسلوبه ولهجته وعباراته، حقيقةَ ذاته، وكُنْه مَشاعره، وغَضَبه على كلِّ ما يُسبِّبُ عذابَ المحرومين وموتَهم، ورفضَه لمُعاناتهم البَرْدَ والجوعَ والوحدة وهَدْر الكرامة. ومذّاك قامتْ وشائجُ وثيقةٌ بين السَّخاء والغَضب المُقَدَّس، بين العَطْف والعدْل.

قبل سنتَيْن، كان الأَبُ يتسوّلُ، وحيدًا وشبهَ مجهولٍ، على أرصفة الشَّوارع الباريسيّة، وها قد غدتْ عدَساتُ وسائل الإِعلام تُطاردُه، وهو يردِّد: "ساعدوني! لا ترضَوْا عن ذواتكم بما أَغدقتم من سخاءٍ في ليلةٍ واحدةٍ. فمهمّتكم الإِنقاذيّة الحقَّة تبدأُ الآن. فلنتَّحدْ لكي ينتهي كلُّ هذا الظُّلم!"

أَمّا الصَّحافيّون الباحثون عن الأَحداث والصُّوَر المُثيرة، فكان يصطحبهم في جَوْلاته اللَّيليَّة، كي يشهدوا بأُمِّ عيونهم، حتّى التُّخْمة، وثُمالة الخزْي، مناظرَ البُؤْس المنكفئ على ذاته، لا في الملاجئ التي افتتحها للبائسين في الحقول والغابات، بل في قلب الشَّوارع الأَنيقة التي أَلفوا ذَرْعها كُلَّ يومٍ، المتلألئة بالواجهات الوهَّاجة، ولافتاتِ المسارح المُتَأَلّقة، والمطاعم التي اعتادوا أَن يتذوَّقوا فيها الأَطايب.

وقد تفشَّتْ عدوى العطْف فطالت رجالَ الشُّرطة، الَّذين كانت الأَوامر، من قبلُ، تَفْرضُ عليهم أَن يدَعوا المُشرَّدين وشأنَهم حتّى يموتوا، وحينئذٍ فقط، كانوا يستدعون رجالَ الإِسعاف لتحرير الأَرصفة منهم؛ وإذا بهم غدَوْا يبحثون بحثًا عمَّن لا مأوى لهم كي يُسعفوهم، وقد افتتحوا لهم ملاجئَ في العديد من مراكزهم الَّتي باتت تفوح منها روائحُ القهوة وَالْحَسَاء السَّاخن. وكان الأَب قد أَفلح في الحصول على "حقّ اللجوء" للمُشرّدين، بحيثُ لا يُطلَب من أَيٍّ منهم جيءَ به إلى مركز إنقاذٍ إبراز بطاقة هويّةٍ، ولا يُسأل عن ماضيه. وهكذا بات رجالُ الشُّرطة ينهضون بدور راهبات الإِحسان، وهم سُعَداء بتنفيذ الشِّعار اليوميّ: "ساعدوا الأَب پيير". وغدت مداهماتهم تستهدف الإِنقاذ، لا الاعتقال، وأَمسوا يقتصرون على القول لمن يلتقطونَهم: "أَنتم تتأَلَّمون، فتعالوا، إِنّنا نحبّكم". ذلك الانقلابُ كان من العمق والمباغتة بحيثُ لا يُصدّق، فإِذا ما ارتاب أَحد المُنْقَذين، ورفَض مُواكبةَ أَصحاب القُبَّعات، عَمَد هؤُلاء إلى إِشاعة الطمأْنينة في رَوْعه بقولهم: "إِنَّ الأَب پيير هو الذي أَوْعزَ إِلينا أَن نخلِّصكم من براثن البرد".

وأَمسى مألوفًا مشهدُ المُشرَّدين المتلفّعين بالأَغطيةِ الصُّوفية، يفترشون المخافر، ويُقدِّم لهم رجالُ الأَمن القهوةَ والطَّعام، وكأَنَّ حُلْمًا غير معقولٍ قد انقلب واقعًا ماثلاً.

قبل نداء الأَب پيير، كان الميسورون القابعون في صالوناتهم الْوَثيرَة الدَّافئة، يروْنَ الشَّقاءَ بعيدًا، غيرَ واقعيٍّ، ولا قِوامَ له، وكان السِّياسيّون يَظنّون أَنَّ الأب يُغالي ويُجسِّم المأساة، ويدعو إلى ما لا يمكن الأَخذ به، خلافًا للنّهْج السِّياسيّ الَّذي يُحتّم رَوْزَ الأُمور بحذَرٍ، ووَزْنَها بمعايير السُّلطة والمصالح الانتخابيّة. فإِذا بالسِّياسيّين أَمسوا يتجوَّلون ليلاً، في مراكز الإِنقاذ مُؤاسين، ومُثيرين دهشة أُولئك الَّذين، لبضعة أَيَّامٍ خلتْ، كانوا واثقين من أَنَّ لا أَحدَ يأبه بهم، وأَنَّ الجميع قد تركوهم لمصيرهم القاسي المحتوم.

لقد أَثبتتْ صرخةُ جامعي النِّفايات، رفاق "عمّاوس"، النابعةُ من قلوبٍ تفيض صِدْقًا وتعاطُفًا مع البؤْس، قدرتَها على زلزلة كُلّ شيءٍ، وتحريكِ حتّى أَعتى القلوب وأَقساها، لأَنّها، بفضل عملٍ دائبٍ صادقٍ، كانت تنهض تحدِّيًا لأُولي السُّلطة وأَصحاب المال، وتُخاطبُهم في صراحةٍ لا تُقاوَم: "**ها إِنّنا نحن الَّذين لا كفاءَةَ لديهم**

ولا وسائل، وباستخدام أَقذاركم ونفاياتكم فحَسْبُ، قد حقَّقنا إِنجازاتٍ جمّةً؛ أَمّا أَنتم، مع كُلِّ ما تمتلكونه من ضروريٍّ ونافلٍ، فماذا فعلتم، يا أَصحابَ المُبادرات، والقابضين على مقاليد المسؤوليّات السّياسيّة، لكي تزولَ بأْساء جُموع المنبوذين"؟

وربَّما خَطَرَ لبعض المسؤولين، آنذاك، استغلال تعاطُفهم مع الأَب پيير لمآربهم الخاصَّة، بَيْدَ أَنّ محاولاتهم لم تكن تلقى منه سوى الإعراض، على حدّ ما جرى لذلك الوزير الَّذي أَنفذ له رسولاً يُبلِّغهُ أَنّه سيكون سعيدًا بمصافحته أَمام خيمة "جبل القدّيسة جينيڤييڤ"، في السَّاعة الثالثة والعشرين، قبل أَن يستقلَّ القطارَ قاصدًا دائرته الانتخابيّة؛ فأَجاب الأَبُ الرَّسولَ أَنّه يتمنّى للوزير كُلَّ خيرٍ، ولكنّه لا يعلم أَين سيكون في السَّاعة الثالثة والعشرين.

وقد نصَّبت وسائلُ الإعلام من الأَب پيير بَطَلاً يمْلأُ اسمُه وصُوَرُه الصَّفحات الأُولى من الصُّحف، وتتصدّر أَنباؤُه نشرات الأَخبار الإذاعيَّة، وبات رسمُه يُزيِّن كُلَّ منزلٍ، ويتّخذُ مكانَه، غالبًا، إلى جانب الصَّليب، ولا سيَّما أَنّ محيّاه بات يُحاكي مُحيّا المصلوب بهزاله، ولحيته، والأَلَم الذي يطبعُه.

وغدا الجمهورُ يُطاردُه، فغالبًا ما ينحدرُ رُكّاب حافلاتٍ، عند أَوّل موقفٍ، كي يُلقوا في سيَّارته وُرَيْقاتٍ نقديّةً، ثمَّ يعودون إلى أَماكنهم وهم يُحَيُّونه بأَيديهم، وبعضُهم يَلحقون به بشاحناتهم، كي يُسلِّموه تبرُّعاتهم.

لقد كان لما دُعي "انتفاضة العطف" عواقبُ فاقت كلَّ توقُّعٍ، لم يكن الأَب پيير ورفاقه مُستعدِّين لها. وقد اعترف الأَب: **"كنتُ مثلَ صبيٍّ ضغَط على غير علمٍ منه على زرٍّ أَحدثَ انفجارًا نوويًّا، فقال الناس: "يا لقوّته!". لم أَشعرْ، قطُّ، كما شعرتُ آنذاك، أَنّني غيرُ مُؤَهَّلٍ للإدارة، وأَن مهمّتي تقتصر على استنهاض الهِمَم".**

في غُضون أَيّامٍ معدوداتٍ، ترتَّب عليه إدارةُ ميزانيّةٍ قِوامُها ملايينُ الفرنكات، والردُّ على مئات أُلوف الرَّسائل، ومواجهةُ مُطاردة الصّحافة له، ومراجعة شتّى الدَّوائر والهيئات الدّبلوماسيّة، ومناقشةُ الوُزَراء، واستقبال عروض ذوي النَّوايا الطَّيِّبة، وتلبيةُ استغاثات المحتاجين التي انصبَّتْ عليه من كُلّ صَوْبٍ.

بعد سنواتٍ، أَسرَّ له رئيسُ وُزَراءٍ سابقٌ: **"لقد راودَنا التَّساؤُلُ، فترةً ما، إِن لم**

تكن عازمًا على الاستيلاء على مقاليد الحُكم؛ ولو أَنّكَ قرَّرْتَ ذلك، حينئذٍ، لما استطاعتْ قُوَّةٌ مُقاومتَك".

من المُحقَّق أَنَّ الاستيلاء على السُّلطة كانت فكرةً سخيفةً بعيدةً كُلَّ البُعْد عن تفكير الأَب پيير، غير أَنّ المهمّةَ الجسيمة التي تَعَيَّنَ عليه، بغتةً، النهوضُ بها، فرضت عليه تأليف "حكومةٍ" مُصغَّرةٍ، بجميع فروعها، من شأنها أَن توفِّر، كُلَّ يومٍ، المأوى، والطَّعامَ والكساءَ، والعنايةَ الصِّحِّيَّة والعملَ لأَكثر من ثلاثة آلاف مُشرَّدٍ بات هو مُعيلهم ووليَّ أَمرهم.

فمنذُ مساء الثَّاني من شباط ارتقى عددُ الرّسائل الواردة إلى الأَب پيير ستَّةَ آلاف رسالةٍ، واستمرَّ عددها على هذه الوتيرة طوالَ أُسبوعين، ضاربًا بذلك رقمًا قياسيًّا فريدًا. وقد اضطرَّت إِدارةُ البريد إلى الاستعانة بعناصر استقدمتْها من جميع أَنحاء فرنسا لمواجهة ذاك المدِّ الهادر، وتأَلَّف في مركز قيادة التَّضامُن، في فندق "روشستر"، فريقٌ من الطُّلاّب الجامعيِّين، لفرز ذلك البريد فَرْزًا عقلانيًّا سريعًا، ولتنظيم توزيعِ الهِبات، يوميًّا.

في تلك الأَثناء، كان الأَبُ يُنفق مُعظمَ وقته في الغرفة ٤١٢ من فندق "روشستر"، حيثُ تنساب الأَيَّامُ، لا بدءَ لها ولا نهايةَ، وتتوالى السَّاعات آخذةً بعضُها بخناق بعضٍ، من غير أَن يفلح اللَّيلُ في تحطيم النَّهار، ولا النهارُ في القضاء على اللَّيل. وكان الأَبُ يُدرك أنّ عليه الصمودَ، وكسبَ المعركة الأَخيرة، معركة الزَّمن، فيُحقِّقَ أَوفَر قسطٍ من أَهدافه، في خدمة المحرومين، قبلَ أَن تخْمُدَ نارُ الحماس الشَّعبيّ والرَّسميّ.

في غَمْرة تلك المشاغل الجمّة، ورغْمَ جدول مواعيدَ، لا فُسحَة فيه للَحظة هدنة أَو راحةٍ، كان يستقبل من الزّائرين ما يفوقُ بكثيرٍ كُلَّ توقُّعٍ، فالنَّاس يتدفَّقون من كُلِّ صوْبٍ، ومن كُلِّ بيئةٍ ووَسَطٍ، لرؤيته، والتّحدُّث إليه، والبعض للَمْسه، والتبرُّك به، ولا تردَعُهم عن تلك الرَّغبة صعوبةُ الوصول إليه عبرَ ممرّات الفندق المُزْدَحمة بأكوام الرُّزَم، وطولُ الانتظار أَمام باب مكتبه، ممّا اضطرَّ، يومًا، سفيرَ هولندا إلى الوقوف نِصْف ساعةٍ، أَمام باب مكتبه، قبل أَن تتسنّى له مقابلتُه؛ ولا ريب أَنّه كان سيأبى مثل ذلك الانتظار في وزارة الخارجية.

وكان الأَب يستقبل بحرارةٍ واهتمامٍ كُلَّ زائرٍ؛ وفي آنٍ واحدٍ، يضطَرُّ إلى الردّ على الهاتف، الَّذي يرنّ كلَّ عشر ثوانٍ، ثمَّ يستأنف الحديث مع زائريه حيث قطعه، وهو واقفٌ وراءَ أكوام من الملفّات، في مكتب الفندق الَّذي غدا له مسكنًا، وردهةَ استقبال، ومستَوْدَعًا، ومكتبةً، ومُصلًّى، مستعينًا بالهاتف كي يظلّ على صلةٍ بعالَم الفقر والسَّخاء، وبالآنسة كوتاز السَّاهرة، في مركز القيادة الآخر في "تويّي پليزانس".

ثلاث أَو أَربع مرّاتٍ يوميًّا، كان يجتاز ردهة الفندق مُشَجِّعًا، مُنَظِّمًا، رادّاً على أَسئلة الصحافيّين، شاكرًا مُقَدِّمي الهبات.

أَثناءَ وجبات طعامه الهزيلة، والَّتي كان يزيدها هزالاً التهابُ لثَّته الَّذي لا يُمكِّنه من تناول سوى الزَّهيد والطريِّ من الطَّعام، كان يُملي بريدَه؛ وغالبًا ما تعتريه القُشعريرةُ بعد ثماني عَشْرَةَ ساعةً من الجُهد المتَّصل، فيتلفّع بمعطفه، وقد يَحقنُه طبيبٌ بما يرفدُه بشيءٍ من النَّشاط؛ وقد ينتابه دُوار النَّصَب، ومع ذلك تغمرُه السَّعادةُ لأنّه يُسهم في تخفيف آلام الآخرين. وإذا ما خارت قُواه، ونفدتْ قُدرتُه على الصُّمود، استسلم للنَّوْم، حيثُما اتّفق له، مستلقيًا على الحضيض، أَو مكبًّا على منضدة مكتبه، أَو مسترخيًا على مقعد سيّارةٍ؛ ولا يلبثُ أَن يستفيقَ بعد ساعةٍ أَو ساعتَيْن، وقد استعاد طاقاته، فهشاشتُه الجَسَديّة كانت تُخفي صمودًا فذًّا، تَسنُدُه إرادةٌ مشدودةٌ أَبدًا، متجدّدة الطَّاقات باستمرارٍ، إذ إنّه يعيش كُلَّ حركةٍ وكُلَّ كلمةٍ، عملَ عبادةٍ، وتحقيقًا لشريعةٍ إلهيّةٍ يجهد في تحويلها إلى سُنّةٍ بشريّةٍ شاملةٍ، شريعةَ: "**اخدم، في المقام الأَوّل، الأَكثر تألُّمًا**".

وعندما يستيقظُ يبدو ذهنهُ مُزدحمًا بالخواطر الجديدة المجنونة، فيُكبُّ، من جديد، على إملاء الرسائل واستقبال الزَّائرين، وإنفاذِ التعليمات، ويجيشُ نشاطاً؛ وبين الفَيْنة والأُخرى، يُطبق جفنَيْه، لحظاتٍ، في تأمُّلٍ خاطفٍ يرفدُه بالطَّاقة؛ وقد يندفع فجأَةً إلى سيّارته المتوقّفة دائمًا عند باب الفندق، كي يراجع وُزراء، أَوْ يزورَ مراكز الإغاثة الطَّارئة الآخذةَ في الانتشار، ويبعثَ مزيدًا من الحميَّة لدى جميع من يُقابلهم؛ وإذا ماران عليه النَّصَب والإعياء، من جديدٍ، في حُميًّا نشاطه، خاطَب نفسَه قائلاً: "لاتَ ساعةَ نومٍ الآن، فسيسنحُ لي فيْضٌ من الوقت له، عندما تحين "العطلة الكبرى". بهذه العبارة قد أَلِفَ، أَبدًا، أَن يُسمِّي الموتَ.

أَمّا القُدّاس، فكان يحتفل به في كنيسةٍ مُجاورةٍ للفندق، في مواعيد عشوائيَّة لا انتظامَ فيها، تارةً فجرًا، وتارةً ليلاً، حالما استطاع أَن يسترق من مشاغله فُسحةً للعبادة.

وفي غُضون أَيَّامٍ قليلة، احتلَّ مُعاونو الأَب پيير ومُتطوِّعوه كاملَ فندق "روشستر"؛ وكان آخرَ نزيلٍ غادر الفندق ضابطٌ أَميركيٌّ، هَبَط على السُّلَّم بحقيبتَيْن ضخمتَيْن أَوْكلهما إلى فَتَيْين كي يوصلاهما إلى سيَّارته خارجًا؛ وربَّما لم يفقها قولَه، بسبب عدم إِلمامهما باللُّغة الإِنكليزيَّة، ففعلا كما كان يفعل كلُّ الَّذين كانوا يَقدمون إلى الفندق برُزَم الهبات، وفَتَحا الحقيبتَيْن، وأَلقيا بمحتوياتهما جُزافًا فوقَ رُكام الأَلبسة الَّتي ازدحم بها الفندق. وذُهل الأَميركيّ وهو يَشهَد ثيابَه، وربَطات عنُقه، وأَحذيتَه، وقمصانَه، ولوازمَ حلاقته، تنثَر في بَهْو الفندق، فأَخذ يجأَرُ باحتجاجه مُتَّهمًا الفتَيَيْن بالحُمق، إلى أَن فسَّر له بعضُهم دافِعَهما، فتخلّى بطيب خاطرٍ عن كُلِّ أَمتعته، وتبرّع، فضلاً عنها، برُزمةٍ من الدُّولارات.

وقد انضمَّ إلى حفنةٍ من رفاق الأَب پيير فريقٌ من المُتطوِّعين، أَتوا من كُلِّ أُفقٍ، ومن كُلِّ بيئةٍ ومَنْزعٍ، فتكاتف، جنبًا إلى جنبٍ، نساءٌ من المجتمع الرَّاقي، وتُجّارٌ، ووزيرٌ، ومُحاربون قُدَماء، وأَحدُ مدراء البنك المركزيّ الفرنسيّ، ومناضلةٌ شيوعيَّةٌ، ومُخْرجٌ سينمائيٌّ، ومهندسٌ زراعيٌّ، وراهبٌ هولنديٌّ، وملاكمٌ، ومديرةُ مستشفى، وسكرتيرةٌ سابقةٌ للجنرال ديغول، وسكرتيرةُ "روبير شومان"، وصحافيّون قَدِموا من أَجل تحقيقٍ صحافيٍّ، فأَغفلوا مُهمَّتهم وانضووا تحت لواء الأَب پيير وانتفاضة العطف. حتّى الأَمس، لم يكن يعرف أَحدُهم الآخر، وإِذا بأَلفَةٍ حميمةٍ تنتظمهم، وتصهرُهم في بوتقة المُهمَّة المُشترَكة الرَّائعة.

وكم من المهامّ كانت تنهض بها تلك الكتيبةُ من المُتَطوِّعين الَّذين هَجَروا كُلَّ شيءٍ، لتلبيةِ نداء المحبّة. هَجروا عملَهم ومنازلَهم، في سبيل العَوْدة إلى ينابيع الإِيمان؛ لم يَضنُّوا بشيءٍ حتّى بأَنفسهم، بحيثُ باتوا يُغفلون أَحيانًا الطَّعام، أَو الاتِّصال بذويهم، وبعضُهم لم يطأُوا منازلَهم طوالَ شهرَيْن مُتَّصلَيْن. كانوا يبذلون ذواتهم بلا تحفُّظٍ، على غرار ذلك الكاهن النحيل المُجلْبَب، الّذي لا يَسَعُ من يدنو منه أَن ينجوَ من ناره. وكانت سعادتُهم باكتشاف أَنفسهم تُزيح عن كواهلهم كُلَّ شعورٍ بالتَّعَب.

وكانوا يشهدون أَمثلةً من السَّخاءِ رائعةً، كذلك الَّذي بَعْدَ أَن أَوْدعَ ردهةَ الفندق الرُّزمة التي تبرّع بها، وخرج، واجتاز بضْعَ خطواتٍ على الرَّصيف، عادَ أَدراجَه، فنزع معْطفَه، وأَلقاه فوق رُكام الهِبات، وخرَج من جديدٍ، فأنذره شابٌّ شَهِد فعلتَه بأَنَّه قد يُصاب بالبرد في ذلك الطَقس الصقيعيّ، غير أَنّه أَجاب:

– "ثمَّةَ من هم أَكْثَر حاجةً إِليه منّي!"

وتعدّدتْ أَمثلةُ السَّخاء المُؤَثِّرة: فأطفالٌ كثيرون كانوا يأتون بحُقَق مُدَّخراتهم، ويكسرونها ليجودوا بكلِّ محتوياتها؛ وفتاةٌ في الرابعةَ عَشْرةَ قدمت من الضَّاحية سَيْرًا على قدمَيْها، وألقت بين يدي الأَب پيير كيسًا، مُصرِّحةً: "منذ ثلاث سنواتٍ أُوَفِّرها، فرنكًا فرنكًا، كي أَجمعَ ثمن درَّاجةٍ، وقد تجمّع لديّ عشرةُ آلاف فرنك أُقدّمها لك، من أَجلهم..."، وقد عانقها الأَب پيير باكيًا، تأثُّرًا. وفتى في السَّادسةَ عشرةَ، كان يكسب خبزَه من غسْل السَّيّارات، تبرّعَ بخمسة دولارات نفحَهُ إِيَّاها سائحٌ أَميركيٌّ.

ذلك السَّخاءُ الصَّادقُ الرَّائع، لم يكن كافيًا لتلبية مُتَطلَّبات البُؤْس الذي داهَمَ بدَوْره، في مَدٍّ هائلٍ، مركزَ قيادة الأَب پيير، بعد أَن اجتذبت الشُّهرةُ إِليه قوافلَ البائسين من كُلِّ حَدْبٍ وصوبٍ. فالشَّقاء الذي كان متواريًا، خزيًا وبأْسًا، قد داخلَه الأَملُ، مُذ تكلَّم الأَب پيير باسمه، وبات له شُعلة رجاءٍ وُضّاءةً، فتدفَّق سيْلُهُ، حضورًا شخصيًّا، أَو رسائلَ تشكو وتُقرُّ بالحاجة. فمنذُ الصَّباح الباكر، حتّى ساعاتٍ متأخّرةٍ من اللَّيْل كانت أَفواجُ المحرومين المُتلاحقة تُكرِّر، مثلَ لازمة: "**أَبتِ، أَنتَ وحدك تفهمنا**". ولكن أَنّى للأَب پيير استيعابُ كُلِّ ذلك السَّيْل العارم؟ لقد كان يُضطَرُّ، وفي حلقه غُصَّةٌ، بعد نفحهم مساعداتٍ عاجلةً أَوّليَّةً، أَن يُحيلهم إلى المراكز والمُؤَسَّسات الكفيلة بالعناية بهم، ويرينُ عليه، من ثَمَّ، شعورٌ مُرهِقٌ بالإحباط، إِذ يتَّضحُ له أَنّه، رغمَ كُلَّ عمله، كان كمن يُحاولُ إِفراغ بحرٍ بملعقةٍ. ففي كُلِّ يومٍ كان يأتي مئاتٌ شاكين: "نحن لسنا مُشَرَّدين، ولكن تعالوا فانظروا: لا نارَ لدينا ولا طَعام، وأَطفالنا ينفقُون جوعًا وبردًا". لم يلجأْ أُولئك إلى الشَّارع، ولكنّهم كانوا يعيشون في أَقبيةٍ رطبةٍ نتنةٍ، أَو في علِيَّات وأَهراءَ تسرح فيها الجرذان، وفي مخابئَ مُظلمةٍ تأبى حتّى البهائم الإِقامة فيها.

وكان البريدُ يأتيه، يوميًّا، برسائلَ تنزِفُ لها نفسه، مثل هذه الرِّسالة من فتاةٍ في العاشرة:

« أَبتِ، نحن لا نملك بيتًا، وإنّنا تعيسون جدًّا. ولكنَّ رئيستي في مركز العناية أَخَبرتْني، اليومَ، أَنَّكم تبنون بيوتًا لمن هم في افتقارٍ إِليها. وهكذا ستبنون لنا بيتًا، وسنُصبح سعداء.

"إِنّ ما كنّا نُعانيه حتّى الآن من بؤْسٍ قد حَمَلَنا على الاعتقاد بأَنَّ الناسَ كُلَّهم أَشرار. ولكنَّني بدأْتُ الآن أَظُنُّ أَنّني كنتُ مخطئةً، وأَنّ ذلك ليس صحيحًا، وأَنَّه، ربَّما، يوجَدُ من الطَّيِّبين، أكثر ممّا يوجد من الأَشرار، ولكنّني لم أكن أَعرفُهم... »

وكم آلمَ الأَبَ پيير أَن يبلغُ ولدٌ العاشرةَ من عمره، وهو موقنٌ أَنّ جميعَ النَّاس أَشرارٌ، من جرّاء ما يعانيه، وذووه، من تعاسةٍ!

كان الأَب يجهد في أَن يداعِبَ، ويبثَّ العزاءَ، ويُغدقَ العطاءَ، ويُنظِّمَ ثبتًا بأَسماء المحتاجين وعناوينهم، كي يستطيع اقتفاءَ آثارهم، والاستمرارَ في مساعدتهم؛ وبمؤازرة رفاقه كان يُحاول أن يَحُلَّ مشاكلَ كلِّ حالةٍ على حِدَةٍ، بكلّ عنايةٍ واهتمامٍ؛ وفي آنٍ واحدٍ بحرص على إِبقاء الجسور ممدودةً بين المُقتدرين والمُحتاجين.

وهكذا، طوالَ أَربعة أَشهرٍ، تحوَّل فندق "روشستر" إلى مقرِّ أَركان التَّضامن الإِنسانيّ. وبعد أَن كان مكتبُ صاحبة الفندُق هو مركز العمليّات، غدتْ ثلاثةُ طوابق من الفندق عاجزةً عن استيعاب دوائر "حكومة" "عمّاوس"، التي تضمُّ دوائر الماليَّة والمحاسبة والتَّموين، والصحَّة العامّة، والعمل، والمواصلات، والإِعلام، والبريد، والإِسكان، والعلاقات الخارجيّة، والعلاقات السِّياسيَّة مع الحكومة...

وكان الازدحامُ في ذلك الحيّ الرَّاقي الذي يقعُ فيه الفندق من الكثافة، بحيث اضطرُّت البلديَّة إلى تحويل خَطِّ سَيْر الحافلات عنه؛ وفي الطَّوابير التي كانت تشغلُ الرَّصيفَ المُؤَدّي إِليه، ليلَ نهار، كانت معاطفُ الفرو الفاخرة تُجاوِر لباسَ العمل الوضيع، كما يُجاورُ من جاء بهباته من قَدِم يلتمس عونًا؛ وعلى باب الفندق كان ثلاثة رجال شرطةٍ يجهدون، ليلَ نهار، في تنظيم الدُّخول والخروج، ويكادون يعجزون عن دَرءِ سَيْل القادمين المتدفِّق، فيما كانت أكوامُ التبرُّعات تتراكم باطِّرادٍ، في رُدْهة الفندق، ثمّ تُفْرَز وتوزَّع، في حركةٍ دائبةٍ لا تفترُ، وفي فَرَحٍ دافقٍ، في حين تغصُّ السَّلالم بالصَّاعدين والهابطين.

وكان البريدُ يصبُّ، كلَّ أسبوعٍ، في الفندق، ما يربو على خمسين ألف رسالةٍ ورُزْمةٍ بريديَّةٍ، تُمثِّل كاملَ حمولة عدّة شاحنات، بعضُها يحمل بين طيّاته هِبات، وبعضُها صيحاتِ استغاثة. ومنها ما يقتصر على ذكر عناوينَ مُختَزَلةٍ، مثل "الأَب پيير، فرنسا"، أَو "الأَب پيير، خوري جامعي النّفايات، باريس". وكان الأَب يُطالع، كلَّ يومٍ، حَفْنةً من تلك الرَّسائل، فيستمدُّ منها رفدًا من العزيمة والإِيمان، اللّذيْن كانت تقطرهما أَقوال مثل هذه: **"لا تهدروا خمسة عشر فرنكًا لكي تردّوا عليّ وتشكروني، بيد أَنّي، أَنا، في حاجةٍ إِلى الكتابة فقط لكي أَقول لكم: شكرًا لكم ولرفاقكم، لأَنَّكم موجودون. إِنّ مُجَرَّد تَيَقُّني بأَنَّ مثلَ هذه الأعمال التي قمتم بِها ليست من أساطير القرون الوُسطى، بل يُمكن أَن تحدثَ فعلاً في حقبتنا البشِعة، قد أعاد لي العزْمَ على أَن أَعيش عيشةَ أُمٍّ عاملة".**

إِحدى الرَّسائل خِيطَ بها خاتمُ زواجٍ، وجاءَ فيها:

– « إِنّني امرأةٌ عجوزٌ، ولستُ غنيَّةً، ولا أَملك أكثرَ ممّا يُقيم أَوَدي. لم يكن لديَّ ما أقدِّمُه لكم؛ وبعد أَن استمعتُ إلى ندائكم، كنتُ أُفكّر، عندما استقرَّ ناظري على خاتم زواجي؛ فقلتُ ما نَفْعُه الآن، وقد أَمسيتُ عجوزًا؟ فإِن كان من شأنه المساعدة على تسريع إِيواء أمٍّ، ساعةً واحدةً، ليس لي، بعدُ، الحقُّ بالاحتفاظ به... »

ولا يزال الأَب يحتفظ، بين أَوراقه، بمجموعةٍ من رسائل الأَطفال، ورسومهم المعبِّرة عن شكرهم وأَريحيَّتهم، مثل هذه الرسالة التي بعث بها صبيٌّ في الثامنة: "إِنّني أُرسل لكم فلوسي التي كنت سأبتاع بها لنفسي حلوى ودُمى"!

وبأُلوف الرسائل الواردة من أُناسٍ متواضعين، كانت تُرفَق وُرَيْقاتٌ ماليَّةٌ من فئة المئة فرنكًا، وعباراتٌ نابعةٌ من القلب مثل هذه: "إِنّني رجلٌ مُسِنٌّ، وضعيفٌ اقتصاديًّا كما يقولون. أُرسل طيًّا عشرة طوابع، كلٌّ منها بقيمة خمسةَ عَشَرَ فرنكًا. إِنّها زهيدةٌ، ولكنّها تجعلني سعيدًا".

وهناك رسائل كانت تنطوي على مبالغ اشترك في جبايتها عُمّال مصانع، وموظّفو مكاتب ممّا استطاعوا اقتطاعه من رواتبهم الهزيلة.

كلٌّ كان يجود بما يستطيع، وفي كُلِّ هِبَةٍ، سواءٌ عظُمَ مبلغُها أَو صغر، كانت تكمن روعة السَّخاء المُغْفَل.

وإلى جانب تلك الهِبات المتواضعة، العابقة بالأَريحيَّة والطِّيبة، كانت أُلوف الرسائل تحمل شيكاتٍ قيِّمةً، وتواقيعَ مشاهير نُظَراء "إيڤ مونتان"، والكردينال "لينيار"، والرئيس "أُريول"، وملكة بلجيكا، فضلاً عن تواقيع صناعيّين ورجال أَعمال. وقد اضُطرَّ الأَب أَن يُظَهِّر، في يومٍ واحدٍ، أَلفًا وثماني مئة شيك، بحيث ارتضى المصرف، تخفيفًا من عنائه، طبعة خاتمٍ، بمثابة توقيعٍ، كما أَنّه افتتح كُوَّةً، في الفندق نفسه، لتيسير المعاملات.

كثافة الرَّسائل الواردة إلى الأَب پيير وجماعة "عمّاوس" أَمست كابوسًا للعديد من مكاتب البريد، الَّتي استدعت مُساعدين من الضَّواحي، في حين استعان الأَب بكتيبةٍ من أُمناء السِّرِّ لفرز تلك الرَّسائل، والردّ عليها، وبفريقٍ من المحامين لمعالجة القضايا الحقوقيَّة، ومن المُساعدين الاجتماعيين لمواجهة المشاكل الإِنسانيّة، ومن المحاسبين لضَبْط سَيْل الواردات والنَّفقات.

وكانت حركةُ الأَموال كلّها، الواردة والمُنْفَقة، تمرُّ عبر المصرف ضمانًا للدِّقّة، والوضوح، والأَمانة. وفي غضون أَحدَ عَشَرَ يومًا ارتقى رصيد "عمّاوس" المصرفيّ إلى مئتين وخمسين مليونًا، وسرح خيالُ الأَب پيير في تصوُّر قرى الطوارئ الَّتي لن تدين بوجودها إلاّ إلى سخاء المواطنين وإِحساسهم بالعدْل، والَّتي لن يكون للسُّلطات أَيُّ فضلٍ فيها، بحيث يستطيع أَن يخاطبها قائلاً: "اُنظروا، أَيُّها السَّادة، ما أَفلحنا، نحن، في تحقيقه. فعليكم، الآن، شنّ الحرب على أَسباب الشَّقاء، واجتثاث جذوره".

ربَّما بدَتْ تلك المبالغ التي هبطت فجأَةً على "عمّاوس" فلكيَّةً بالنَّظر إلى مئتي جامع نفاياتٍ استطاعوا انتزاعها من جيوب الآخرين، ولكنّها، بالقياس إِلى حاجات البائسين اللاَّمحدودة، كانتْ زريّةً، ضئيلةً.

هنالك من كانوا يقتصرون، من الإسهام، على تَمَلُّق الأَب پيير، وكَيْل المديح له، واصفين إِيَّاه بِالْعَظِيمِ وَالْقدِّيس. أُولئك لم يكن الأَب رفيقًا بهم، ولم يكن يتحرّج من مصارحتهم: "أَن تُشمِّروا عن سواعدكم، وتؤازرونا على انتزاع المساكين من الموْت على الأَرصفة، خيرٌ من أَن تتشدَّقوا بالتّرَّهات".

وقد أَجاب، ذاتَ يومٍ، بعضاً منهم، في تهكُّمٍ حادٍّ: "إِنّي أُقدّر إِعجابكم، ولكن لا بدّ لي من الإِقرار، في خجَلٍ، أَنّني، مع كلِّ ما بذلتُ من جهودٍ، لم أَستطع أَن أُعِدَّ من الإِعجاب طعامًا، وأَتمنّى أَن يُضافَ إِليه شيءٌ من الموادّ الغذائيّة".

في السَّاعة السَّابعة من مساء كُلِّ يومٍ، كانت تُعقَد في فندق "روشستر"، جلسةٌ تضُمّ أَقطاب حركة الانتفاضة، ويرئسها، في الغالب، الأَب پيير، يستعرضون فيها، حالات البؤس التي تستلزم معالجةً فوريّةً، وكم كان يتكشّف لهم من وجوه الشَّقاء والظُّلْم ما يُدمي الأَفئدة، ويَغْمرُ الضَّمائر بالخِزْي، وما كان يتصدّى لفضحه والتَّنديد به، على الملأ، مع الأَب پيير، صحافيّون اعْتَنقوا مُثُله، وكرَّسوا أَقلامَهم لخدمتها! وممّا قاله الأَب پيير، في هذا الشأْن:

« السُّلطاتُ عاجزةٌ عن بناء بيوت، وإِنشاء المدارس والمشافي الضَّروريَّة، بحيث يتسكَّع مسلولون، ستَّةَ أَشهرٍ، في أَكواخٍ زريَّةٍ، وهم يبصُقون عُصيّات السّلّ، بين ظهرانَيْ أَطفالهم، لأَنّ المصحّات تفتقر إِلى أَماكن شاغرةٍ؛ ومع عجزها عن تحقيق تلك المشاريع الأَساسيَّة، تهدُر السُّلطات وقتَها في إِشادة العديد من الأَبنية الفاخرة في باريس، وهي لم تعد تعلم ما تعمل بتلك المنازل الفخمة الَّتي يبلغُ إِيجارُها الشَّهريُّ عشرين أَو خمسةَ وعشرين أَو ثلاثين أَلف فرنك، من جرَّاءَ الفائض منها. ينبغي أَن نصيحَ ونُعلن تكرارًا، بل ينبغي أَن نكتب على جميع الأَبنية العامّة هذه الحقائق: "**إِنّ جمال مدينةٍ، وجمالَ أُمَّةٍ لا يكمنان في متاحفهما أَوْ مسارحهما، أَو حدائقهما العامَّة، ولا حتّى في كاتدرائيّاتهما. إِنّ جمال المدينة، أَمامَ الله والنّاس، يكمُن، في المقام الأَوَّل، في خُلوِّها من الأَكواخ الزريَّة، وممّن لا مأوى لهم. يجب أَن نُدرك هذا الواقع، ونكافح للانعتاق منه** ».

وبالتَّالي لم يكن الأَب پيير يني يُؤَدّي، بجدٍّ ودأَبٍ، دورَ البعوضة الَّتي تقفز على مكاتب المسؤولين ورقابهم، كي تزعجهم وتوقظهم. فهو يتسلَّح بتقاريرَ طبِّيَّةٍ تُثْبت وجودَ نسبةٍ من السِّلّ، في المساكن الزريّة، أَعلى منها في السُّجون، كي يُرغم وزارةَ الصحَّة على افتتاح مصحّاتٍ جديدةٍ، وكي يحمل المشافي على معالجة الحالات الخطيرة.

ثُمَّ إِنَّه يتصدّى لآفة البطالة التي تُغذّي الشَّقاء، فيرغم وزيرَ العمل على استحداث مراكِزَ لبحث أوضاع العاطلين، وتوفير عملٍ للقادرين عليه، وتعويضاتٍ للَّذين ينتظرون عملاً.

ومدعومًا بالانتفاضة الشعبيَّة العارمة يقسُر الحكومةَ والنُّوَّاب على التنكُّب عن مواقف اللاّمبالاة، وركوبِ مَوْجة التعاطُف مع المحرومين المُتصاعدة.

وهكذا لم يكَدْ ينقضي شهرٌ واحدٌ على رفض مجلس النُّوَّاب مشروعَ الأَب پيير وأَصدقائه بتوظيف مليار فرنك فورًا لبناء بضع مئاتٍ من مساكن الطَّوارئ، حتّى انعقَدَ من جديدٍ، وأَقرَّ توظيفَ عشرة مليارات فرنك لبناء اثني عشر أَلفًا منها. وكان أَعضاء الحكومة والنُّوَّاب الَّذين صوَّتوا على تخصيص المليارات العشرة هم أَنفسهم الَّذين سبَقَ لهم أَن صوَّتوا على رفض تخصيص المليار الواحد! أَيُّ انقلابٍ أَحدثه الأَب پيير ورفاقهُ في وجدان الشَّعب ومسؤوليه!

"موريس لومير"، الَّذي كان وزيرًا للإِسكان في عام ١٩٥٤، وإِليه وجّه الأَب پيير الرّسالةَ المفتوحة، إِثْر موْت الطفْل "مارك"، كتب، بعد عشر سنواتٍ ما يلي:

"إِنّ الأَب پيير، بعد أَن استقطب شكاوى المواطنين اللاَّذعة ونفاد صبرهم، قد فجَّر من الحميّة والاندفاع، ما دعَّم مساعيَّ بصفتي وزيرًا. ولئن كان البناءُ يقوم على الحجر والمال، إِلاّ أَنّه يمكن القول أَنّ هذه الموادّ الصُّلْبة لا يتسرَّب إِليها الرّوح حقًّا، ولا تتحوّل إلى مأوى للبشر، ما لم تهبّ عليها نفحةُ العطف والحبّ الَّتي لا تُقاوَم".

وكان قد صرّح أَيضاً: **"أَنا، أَيضاً، أُسهم في "انتفاضة العطف"... عندما اشتركتُ، في شهر كانون الثاني، في جنازة الطِّفل الَّذي مات بردًا، في "تويّي پليزانس"، استجابةً لنداء الأَب پيير، قد طلبتُ من الصحافيّين القلائل الحاضرين هناك أَلاّ يُشيعوا الأَمر، وأَلاَّ يلتقطوا وينشروا صورًا. ولكنَّهم فعلوا نقيض ذلك، مُؤَدّين، بذلك، واجبَهم الصحافيّ. وإِنّني الآن أُهنِّئهم على ما فعلوا، إِذ أَسهموا في بَعْث حَدَثٍ مُدهش: انتفاضة العطف الَّتي نشهدها اليوم... ما هو جديدٌ، هو هذه الحركة الجبّارة التي لا تُقاوَم، والَّتي تُتيح للحكومة أَن تنحوَ منحى لم تكن، ربَّما، تجرؤُ على المُضيِّ فيه...".**

لقد تحقَّقت المعجزة، حقًّا، ففي غضون أَسابيع معدودات، انتصر الحُلْم على الواقع، وما كان يبدو مُحالاً بات ممكنًا، وما كان حُلْمًا شاردًا في الخيال تجسَّد واقعًا ملموسًا. من أَجل إِنقاذ الآخرين استطاع الَّذين أَنقذوا أَنفسهم إِنزال "عليّة القوم" من شُرفاتهم وقَسْرَ السَّلطات على عَمَل ما كانوا يصبون إِليه.

وقد هلَّلت الصحف لذلك التَّحوُّل العميق، وأَعلنت عناوينها الكبرى أَنَّ الحكومة استيقظت، أَخيرًا، من سُباتها. غير أَنَّ الأَب پيير لم تكن تخدعُه الكلماتُ والقرارات، قبل أَن تنقلب أَفعالاً ماثلةً. فقد أَلَّف الوزير لجنةً من الأَخصّائيّين لدراسة تنفيذ قسمٍ من أَبنية الطَّوارئ؛ ولم يكن الأَب پيير جاهلاً بِثقَل عَجَلة الجهاز الحكوميّ وبطئها. وكان، أكثر من أيٍّ سواه، يتطلّع إلى ما يدفع السُّلطات للارتجال من أَجل مواجهة ظروفٍ لا تحتمل التريُّث والاستمهال.

مبلغ العَشرة مليارات الَّذي أَقرَّته الحكومة والبرلمان، لمساكن الطَّوارئ، لم يكن مرصودًا في الميزانيَّة. وعندما لجأَ الأَبُ إلى المصرف العقاريّ للتَّفاوُض بشأن تسليفه ثمانين بالمئة من الأَموال اللاّزمة لتمويل تلك المساكن، أُجيب أَنّ المهلة الدُّنيا التي تقتضيها الأَنظمة لتقديم مثل هذه المبالغ هي شهران على الأَقلّ، فقال الأَب ثائرًا:

– « لا عليكم، لكم من الوقت ما تشاؤون؛ أَمّا نحن فعلى عَجلةٍ من أَمرنا: فهناك مَنْ يموتون كُلَّ يومٍ؛ ومن ثمّ، فخلافًا للتَّقاليد، سيتولّى جامعو النِّفاياتِ تقديمَ القروض، الَّتي ستفون بها، عندما يتسنّى لكم ذلك ».

وفي الغد جمعَ الأَبُ حفنةً من المتعهِّدين الَّذين ذُهلوا عندما أَعلن لهم: "**أَمامكم الآن خمسةٌ وثلاثون مليونًا، وإنّني على أُهبةٍ لأوقّع، في الحال، عقدًا لبناء المساكن الثمانية والأَربعين الأولى في موقع "پليسيّ تريـﭭيز". فهَيُّوا إلى العمل، إِذْ ليس بوسع الفقراء الانتظار**".

وما لبث أَن أَنشأَ مؤسَّسةً لبناء المساكن الشعبيَّة الزَّهيدة الثمن، أَنجـزتْ، في غضون خمسٍ وعشرين سنةً، تسعة آلاف مسكنٍ، أَتاحت إِيواء أكثر من خمسين أَلف فردٍ، كما أَنشأَ اتِّحادًا عامًّا سكنيًّا، انضمَّ إِليه عشرات أُلوف الأَعضاء.

في غمرة تلك الانتفاضة، انتاب الأَبَ پيير القَلَقُ على بذرة "عمّاوس" الوضيعة الَّتي كان يعودُ إِليها الفضلُ في كُلِّ ما حدَث، وخشي عليها أَن تغرق في خِضَمّ

النَّجاح المُباغت، فكان لا يني يُذَكِّر رفاقَه الأَوائل أَنَّ هدفهم الأَوَّل هو العمل بأَيديهم، لقاءَ مكسبٍ زهيدٍ، يستطيعون به تأمين معيشتهم، ومساعدة الأَكثر بؤسًا، فموجةُ الهِبات قد تنحسر، بعد أَن يفتُرَ اندفاعُها، بَيْدَ أَنَّ العملَ اليوميَّ الدَّؤوبَ هو الباقي، وهو الكفيلُ بأَن يُضفي على الجماعة معناها الحقّ، وهو ركنُها الأَساسيّ. وكان لا يكفُّ يردِّدُ على مسامع رفاقه: "**ينبغي أَلاّ نتوقَّف، فعطاؤنا الزَّهيد، الَّذي يكاد لا يُذكر، هو، في الواقع، الصَّاعق الَّذي يُفجّر القنبلة**".

ولا عَجَب، من ثَمَّ، أَنّ قليلين فقط من الرِّفاق سمعوا، في وقته، نداءَ الأَب پيير الشَّهير من الإِذاعة، إِذ كان الآخرون منهمكين في مهامّهم الوضيعة الخفيّة. وهكذا ظلّوا، فيما كانت باريس بأكملها تجيش تلبيةً لنداء أَبيهم وصديقهم.

وفيما كان فندق "روشستر" يشهد تدفُّقَ السَّخاء والتبرُّعات القيِّمة، لم يتقاعسْ، يومًا، "پول" ورفاقه عن جولاتهم الليليَّة في شوارع باريس حيث كانت تهبُّ ريحٌ صرصرٌ، وحيثُ كانوا يجوسون في عالم الشَّقاء المريع، لانتزاع ما يستطيعون من ضحاياه. وفي كلّ واحدٍ ممّن كانوا يهرعون إلى إِنقاذه، كانوا يستشفّون ما كانوا سيصبحون عليه لو لم يُقيِّضْ لهم التقاءُ الأَب پيير، والانضواءُ تحت لواء "عمّاوس".

وفي أَعقاب انتفاضة العطف بات ينضمُّ إلى "پول" ورفاقه، في تلك الجولات الإِنقاذيّة اللَّيليَّة، ويتكاتف معهم على النُّهوض بمهامّها، جماعاتٌ من البورجوازيّين ومن أَفراد الشَّعب نفذت إلى قلوبهم ووجدانهم نداءاتُ الأَب پيير.

ذلك الاندفاع كان له في نفوس بعضهم جذورٌ راسخةٌ عميقةٌ، ولكنّه كان، لدى آخَرين، سطحيًّا، على نحو ما حدث لسيّدة في حيٍّ راقٍ، أَقلقتها، يومًا، حركةٌ دائبةٌ منذُ السَّاعة السَّادسة صباحًا، قِوامُها ثلاثُ شاحناتٍ في مجيءٍ وإِيابٍ لا يفتُران، كانت تأتي بأَثاثٍ يهرع رجالٌ إلى نقله داخل بناء، واستفسرت أَحدَهم فأعلمها أَنَّهم رجال الأَب پيير، وقد استولوا على بيتٍ خالٍ كي يُسكنوا فيه أُسَرًا مُشرَّدةً، وأَنَّهم يساعدون تلك الأسَر على التَّنظيف والاستقرار، ويأتونها بالأَثاث اللاّزم، وأَسِرَّة الأَطفال؛ فهنَّأَتْهم السَّيِّدةُ معلنةً أَنّ عملهم رائعٌ، وأَنّ الأَب پيير قدّيسٌ تفتقر البلادُ إِلى الكثيرين من أَمثاله، ولكنّها عندما شاهدت الأُسَرَ الفقيرةَ قادمةً مع أَطفالها

القذِرين، ساورَها القَلَقُ حول اضطرارها إلى مُجاورة مثل هؤُلاء؛ ثمّ سأَلت أَيّ بيتٍ هو الّذي تمَّ الاستيلاء عليه، فإِذا به يخصُّها، فانفجرتْ بالشَّتائم.

وما انفكّ الأَبُ يذكِّر، في كلِّ مناسبةٍ، بأَنّ الفضل في كُلِّ ما حدث يعود إلى أَيّام الدَّياميس الَّتي عاشها الرُّوّاد من رفاق "عمّاوس"، وإلى تضحياتهم وبذلهم واضطلاعهم بالمَهامِّ الوضيعة، وغالبًا ما أَعلن في هذا الشأن: "كلّ ذلك العمل لم يكن، في شيءٍ، نتيجةَ مخطَّطٍ مُعَدٍّ بإِحكامٍ، ومنفَّذٍ بدقّةٍ. ففي الواقع، هو كان، لمن أَسهموا فيه، فعْلَ ما حَدَث لهم، أكثر منه ثمرة ما فعلوا... الذين كانوا يعيشون، متأَلّمين، يومًا إِثْر يومٍ، لم يكونوا يرون فيه سوى سلسلةٍ من الأَحداث المُتفرِّقة. ولا بُدَّ، لمن يتوخّى إِدراك حقيقة "عمّاوس"، أَن يذكر باستمرارٍ، أَنَّ الشّهرة الَّتي ذاعت في شباط ١٩٥٤، لم تكن بداية كُلِّ شيءٍ. ففي الواقع، لم يكن لحَدَث الأَوَّل من شباط أَن يتمّ، بكلّ عظمته الظاهرة، ثمّ في ملءِ أَصدائه، لو لم تكن، قبلَه، بداياتُ "عمّاوس" الأولى، الخفيّةُ والمجهولة، والّتي، مع ذلك، كانت تنطوي على سرِّ كُلِّ تلك العظمة.

« عندما صحنا "النجدة"، لم تكن صيحتُنا كلامًا قادمًا من فوق، من قومٍ رسميّين يمتلكون السُّلطة؛ ولم تكن كلامًا صادرًا عن لجنة نساءٍ ورجالٍ، قد يكونونَ رائعين، ولكنّهم، إِذا ما استُدعوا إلى نَجْدة البُؤس، يتكلّمون عنه كلامَهم عن شيءٍ يشاهدونه من شُرْفةٍ، لأَنّهم لا يعيشونه. قد يقولون: "هؤُلاء قَوْمٌ تُعسَاء، ويجب مساعدتهم"، ولكنّ قولهم ينبع من خارج قلوبهم، ويأتي من فوق... عندما انطلَقت الصَّيْحةُ، في ذلك الشِّتاء، لم تُطْلَق من فوقِ الشَّقاء، ولم يُطلقْها رجلٌ واحدٌ، بل كان، من ورائها، ما يُضفي عليها صدًى مُدوّيًا. كانت صَيْحةَ من يتكلَّم باسم جماعةٍ، جماعة جامعي نفايات "عمّاوس". »

في أعقاب انتفاضة العطف، غدا الأَب پيير رجُلَ سنة ١٩٥٤ بلا منازعٍ، وموضعَ إِعجاب فرنسا، وبات رفاقهُ ملوكَ الشَّارع الباريسيّ، وباتت "عمّاوس" قُوّةً جاذبةً تُنزِل الأَغنياءَ من شُرُفاتهم، كي ينطلقوا على دروب العطاء.

ربَّما توجَّس بعض الرُّوّاد خشيةَ افتقادهم الأَب پيير، في أَعقاب تلك الشُّهرة الذَّائعة، بَيْدَ أَنَّ في تأكيده المُتكرِّر بأَنّ ما حَدَثَ، آنذاك، لم يكن ليحدُثَ لولا سنوات الدّياميس التي عاشوها، كان يكمُن اعترافُه بفضلهم الَّذي لن يَغْفَل عنه أَبدًا، وإقرارٌ بحنينه إلى تلك الأَيَّام البُطوليَّة الَّتي قد تكون انقضتْ بلا عودة.

من تلك البذْرة الَّتي أَثمرتْ وازدهرتْ بفضلهم، لم يعُد الرِّفاقُ يذكرون سوى نشوة المغامرة، وتحدّيَ المُجتمع والقانون، والتعلُّق المُطلَق بالأَب پيير، وكانوا أَبدًا يردّون على كُلِّ مستفسرٍ: "عمّاوس لا تُحدَّد، بل تُعاش فحسب".

ثِقَةٌ مُتبادلةٌ، لا تَحَسُّبَ فيها ولا تَحَفُّظ كانت تربطُ الأَبَ برفاقه؛ فهم يتنازلون، طَوْعًا، عن كُلِّ حقٍّ بالمراقبة، والتدخُّل في الشؤون الإداريّة، وبالمقابل يعيشون مغامرةً رائعةً في خِدْمة قضيّةٍ ساميةٍ، مُتَحدّين بذلك ظُلمَ مُجتَمعٍ أَلحق بهم، في السَّابق، الحَيْفَ والفشَل، وعاملهم بلا مبالاةٍ وازدراءٍ، بحيثُ غدا وفاؤُهم للأَب پيير الَّذي، وحدَه، أَعاد لهم كرامتهم، وبادلهم ثقةً لا حدود لها، ضمانًا لوجودهم.

وقد أَسفرت انتفاضةُ العطف عن تضاعُف عدد الرّفاق، إِذ إِنّ كثيرين قد انقلبوا، حتّى أَعماق كيانهم، وانضووا تحت لواء "عمَّاوس"، مُضحّين بكلّ شيءٍ، وقد مسَّهم في الصَّميم سحرُ شخصيّة الأَب پيير الَّذي رأى فيه بعضُهم رسولَ المحبّة والإِخاء، وآخَرون نبيًّا يفضح الظُّلم، وينطق بلسان المحرومين.

وهكذا ارتقى رفاقُ "عمّاوس" الدَّائمون إلى ثماني مئة؛ غير أَنّ عدد أَصدقاء "عمّاوس"، والمتعاطفين مع الأَب پيير كان يُناهز اثني عَشرَ أَلف مُسْهِمٍ ومُتَبرّعٍ ممَّن

أَذهلهم الأَب پيير بعَمَله وصدْقه، فمَدُّوا له أَيديهم، وفتحوا له صناديقهم، ووظَّفوا خبراتهم ومهاراتهم في مضمار مساعدته. وقد أَلّفوا، في آذار ١٩٥٤، رسميًّا، "اتّحاد عمّاوس" الَّذي تكوَّن مجلسُ إدارته، بالإضافة إلى الأَب پيير، وأَمينة سرّه، الآنسة كوتاز، ومساعديه ولا سيَّما "پول" و"جان إِيف"، من صحافيّين، ومحامين، وكاتبين بالعدل، ورجال مالٍ وأَعمالٍ، وقبطانٍ متقاعدٍ، ومَرْكيزٍ تولَّى الإِدارة الماليّة، وأَخصّائيين في البناء تأَلّفت منهم "لجنة مشاريع الإِسكان".

وقد استقرَّ الاتّحادُ الجديد في بناءٍ من أَربعة طوابق، في شارع "بوردونيه" بباريس، كان يعمل فيه، على نحوٍ دائمٍ، أَربعون موظَّفًا يعاضدهم جيشٌ من المتطوّعين، ويضمّ دوائرَ إِداريّةً مركزيَّةً، ومَكْتَب جَماعات "عمّاوس" المركزيّ، وثلاثة اتّحادات بناءٍ، وإِدارة مشاريع أَبنيةٍ سكنيّةٍ، فضلاً عن مكتب مجلّة "جوع وعطش".

من المحقّق أَنَّ انفجارَ الأَوّل من شباط كان مُنْطَلَقًا لازدهارٍ رائعٍ، فالنَّجاحُ

المادِّيُّ تجسَّد في نحو مليار فرنك، هِباتٍ نقديّةً وعينيَّةً، والنَّجاح الاجتماعيّ في أُلوف البشر الَّذين أُغيثوا، وفي العدَد الجمِّ من ورَشات أَبنية الطَّوارئ الَّتي افتُتحت، وفي خروج "عمّاوس" من الدّياميس، وفي تفرُّعاتها العديدة، وكأَنّها ازدهار ربيعٍ مُعْجز.

بعد سنواتٍ، سُئِل الأَبُ پيير: "هل أَنت مستعدٌّ لِتَكْرَار أَحداث شباط ١٩٥٤؟" فأجاب:

– « تكرار؟ أَلا ترى أَنّ شباط ٥٤ لم "يبدأ"، ولم يكن تنفيذًا لعمل مُخطَّطٍ له، بل مجرَّد فترةِ حياةٍ قبلناها. في نظري، هو اندرَج في سلسلةٍ من الأُمور البالغة الضآلة التي تقبّلناها، يوميًّا، ببساطةٍ. وبغتةً كان له دويٌّ، ونتائجُ سارَّةٌ، خطيرةُ الشَّأْن. أَنا لم أَصنَعْه، بل عشتُه.

"ما توجّب علينا، بعد ذلك، هو أَن ندأَبَ جاهدين على أَن نحيا بصدقٍ، فلا نتنكّر لأَيِّ نِداءٍ، وأَن نُحكم الرَّقابةَ على ذواتنا، خشيةَ أَن يدفعَنا الإِنهاكُ إِلى الهروب والتَّواني. فالمواصلةُ أَعسرُ ممّا تسمِّيه التَّكرار، على فرض أَن يكون التكرارُ ممكنًا.

"ولكي يعودَ شباط ١٩٥٤ كرَّةً أُخرى، لا بُدَّ من سلسلة أَحداث مُماثلةٍ تتداخل وتتفاعل طيلةَ سنين، وتُفضي إلى إِمكانيّة مثل تلك الانتفاضة. صدِّقْني: مثلُ تلك الأَحداث لا تُصنعَ على الطَّلب ».

ابتكارات الحبّ

في غَمْرة النَّجاح، ما انفكَّ الأَبُ پيير يُعبِّئ الرأْيَ العامّ، ويستدرّ السَّخاء، مُستهدفًا إِشراكَ الجميع في توفير سقْفٍ لكُلِّ أُسرةٍ ومواطنٍ. ولهذا الغَرَض استخدم شتَّى المنابر وأَبعدَها صدًى.

ففي السَّابع من شباط ١٩٥٤، علت لافتاتٌ جسيمةٌ واجهةَ سينما "كومون بالاس" الباريسيَّة، مُعْلنةً بالأَحرف الكبيرة: "على كُلِّ فرنسيٍّ أَن يَعُدَّ نفسَه مُجَنَّدًا...". ومع أَنَّ حضورَ الأَب إِلى صالة السّينما تلك لم يُعْلَن عنه إِلاَّ في خَبَرٍ عابرٍ من الإِذاعة، غير أَنّ ستّة آلاف مُتفرِّجٍ تدافعوا نحوها منذُ الصَّباح، رغم البرْد القارس، بحيث سُدَّت الطرقاتُ المؤَدِّية إِليها.

وفي السَّاعة العاشرة والنّصف، بعدَ أَن عُرِضتْ صورة المرأة العجوز الَّتي ماتت مُتجمِّدةً على رصيف شارع "سيبستوپول"، وهي تُطْبق يدها على أمر طرْدها، تقدَّمَ على المسرح شبحُ الأَب پيير الأَسودُ النَّحيل، ووَقَفَ أَمام الميكروفون، وقد ضمّ يدَيْه، وأَغمض جفنَيْه على تأمُّلٍ عميقٍ، ثمّ اندفع يرتجل، طوال ساعتَيْن، بكلماتٍ بسيطةٍ تلقائيّةٍ، وبصوتٍ عذْبٍ مُتَهدِّجٍ، يتدفَّق تارةً، ويتمهّل، هامسًا، تارةً أُخرى، صامتًا، خاشعًا بين حينٍ وحينٍ. كلامُه كان يُجسِّد آلامَه وآمالَه، ويفيض جمالاً وبشاعةً على التَّوالي، ويسكُب أَمواجًا من التآخي، فيما قلبُه وذهنُه يسعيان نحو المُطلَق الَّذي هو حبٌّ.

وممَّا جاء في خطابه: "**كنتُ قد التمستُ خمسةَ آلاف غطاءٍ، وقليلاً من المال، ولكن، في غضون خمسةِ أَيَّامٍ، أَرسل الفرنسيُّون خمسةَ عَشَرَ أَلف غطاءٍ، وستَّةَ آلاف معْطفٍ، وثمانيةَ آلاف بنطالٍ، وأَلف سترةٍ، وخمسةَ آلاف جوزِ حذاءٍ، وعشرة آلاف كنزةٍ صوفيّةٍ، وأَلف قميص. ومُعظم تلك الأَلبسةِ كان جديدًا. أَمّا الهِباتُ النَّقْديَّة، فقد نافت على مئةٍ وعشرين مليون فرنك...**

"**قد يدَّعي بعض النَّاقمين أَنّ قوْمًا سارعوا إلى بَيْع الملابس التي ظفِروا بها من مراكزنا، ثُمَّ عادوا فأَخذوا غيرَها. وربَّما كان ذلك صحيحًا، ولكن، لو نحن حَرِصْنا على التَّحقُّق من أَمر كلِّ سائلٍ، لاضْطُرِرْنَا إلى إِرجاء غَوْث المحتاجين حقًّا حتّى شهر حزيران**

"**وقد يعترض البعض: لو كان بُؤْس المُشرَّدين من العمق والشِّدَّة بمثل ما تَصِفون، لكانوا ثاروا، وما تقاعُسُهم عن الثَّورة سوى الدَّليل على أَنّ بؤسهم دون ما تَصِفون... يا لفظاعة هذا التَّفكير الَّذي يتخيَّل أَنّ الثَّورةَ هي أَسوأُ ما يمكن حدوثه! وأَنا أَقول لهم، لأَنّني أَعيش هذا الواقع كُلَّ يومٍ، إنّ ذلك غير صحيحٍ... هناك ما هو أَسوأُ من الثَّورة، وهو أَن يوغل المتأَلِّمون في المعاناة بِحَيْثُ ينحدرون إلى دَرَك البهائم، وتُفضي بهم المُعاناةُ إلى الانحطاط! ذلكم هو الأَسوأُ: انحطاطُ الشَّبيبة وقنوطُها، بل انحطاطُ شَعْبٍ بكامله، وقنوطُه.**

"**وعندما تنتهي الشَّبيبةُ إلى هذا الدَّرَك، فهذا أَسوأُ من ثَوْرتها**

"**ينبغي أَن تستطيع تلك الشَّبيبةُ، بالتعاوُن مع كهولها وشيوخها، أَن تثور،**

سلميًّا، ولكن بعزيمةٍ جيَّاشةٍ، وتجأَر: نُريد بيوتًا، نريد وَضْع حدٍّ للحماقة الَّتي ترفض تخصيص مليارٍ لبناء مساكن، إذ إنّ رفض هذا المليار الآن، هو، في الواقع، القبول بدفع عشرة ملياراتٍ في السَّنوات القادمة لمعالجة المصدورين، ومُدْمني الكحول، ونُزَلاء المِصحَّات العقليّة، والبغايا، واليائسين الَّذين سيُقدمون على الانتحار، والأَحداث الجانحين، والبؤَساء المهملين. كُلّما رُفِضَ مليارٌ لإسكان من لا مأوى لهم، تقتضي المحاكمُ والسُّجون والمِصحَّاتُ العقليَّة عشرةَ مليارات. ينبغي أَن نُدرك ذلك، ونُعلن جهارًا استنكارنا لرؤيةِ الأُمور تُسَيَّر على هذا النَّهْج الأَحمق.

"أَلا فاعلموا، أَصدقائي، أَنّ فرنسا أَنفقتْ، في العام المُنصرم، مئةً واثنين وستّين مليار فرنك، كي تحاول فقط التَّصدي لعواقب إدمان الكحول، وفي آنٍ واحدٍ، خصَّصت أَربعين مليارًا لدعم إِنتاج مشتقّات الشمندر، أَو لحماية موادَّ أُخرى فائضةٍ لا جدوى منها سوى الإِسهام في إِنتاج المزيد من الكحول... ».

ولمّا فَرَغَ الأَبُ من خطابه، وتوارى خلف الكواليس تحت دويّ تصفيقٍ كهزيم الرَّعد، كان السِّتَّةُ آلافَ متفرّجٍ يُنشدون النَّشيد الوطنيّ، وهم مُغْرَوْرقو العيون، مُتهدِّجو الأَصوات.

وكان الأَبُ قد خاطب الشَّباب قائلاً: **"تَطوَّعوا في خدمة السِّلم. قد تكون الخدمة العسكريَّة ضرورةً، ولكنّها، بأَيَّة حالٍ، ضرورةٌ تدعو للأسى، فهي، في أَيّام السِّلم، لا تجدي نفعًا، وفي أَيَّام الحرب لا تُسهم إِلاَّ في الدمار".**

هذا النداءُ الصَّادر عن بَطَلٍ من أَبطال المقاومة، حاملٍ أَوسمتها، كان من شأنه استثارة استجابة الشَّباب وحماستهم. وقد تدفّقتْ على فندق "روشستر"، من كُلِّ صَوْبٍ، وبكُلِّ الوسائل، عروضٌ تؤَكِّد: "نودُّ التطوُّع"، "اِستخدمونا"، "نحن متطوّعون لشنّ الحرب على الشَّقاء".

كان الأَب متيقّظاً أَبدًا لمواجهة كلّ احتياجٍ بما يلائمه. وسُرعانَ ما اتَّضَح له أَنّ فندق "روشستر" ليس المكان المناسب لاستقبال سَيْل الهبات العينيّة وفرزِها وتوزيعها على نحوٍ أَمثل.

ووَمَضَتْ، في ذهنه، محطَّةُ "أورسي" الَّتي كان يحتفظ عنها بذكريات غاليةٍ من أَيَّام المُقاومة، حين كانت جَنَباتها تُدَوِّي بأَنّات المنفيّين، وبصَيْحات فَرَح عودة الأَسرى، ولقاء الأَحبَّة والأَصدقاء، والَّتي لم يعُدْ يعبرُ بها، مذَّاك، أَيُّ قطارٍ، وراح يُردِّد، وكأَنّه يُناجي نفسَه: "أَورسي، أورسي". ثمّ هرع إلى الهاتف، وخاطبَ وزيرَ الأَشغال العامَّة والمواصلات:

- "أَودّ مُصادرة مَحَطَّة أورسي".

بدا هذا الطَّلبُ للوزير، للوهْلة الأُولى، وكأَنَّه طلبُ حَرْث القُطْب الشَّماليّ، فأجاب:

- "ولكنّ ذلك مُحالٌ، ففي المحطَّة العديدُ من سيّارات الشَّحْن".

وجاءَ رَدُّ الأَب پيير، كعادته، مُفْحِمًا بواقعيّته:

- « ولكن، يا سيادةَ الوزير، هناكَ بَشَرٌ يرقدُون في العراء. أَوَلا تَروْن أَنّه من الأَفضل أَن يرقُد البشر في الدَّاخل، والشَّاحنات في العراء؟! »

واستلزم الأَمرُ خمسةَ أَيَّامٍ قبل أَن يستجيب الوزيرُ، مستسلمًا لطلبٍ مجنونٍ، ومانحًا موافقته، وهو، في دخيلته، غيرُ راضٍ.

وحالما أَصبح للأَب حقُّ الانتفاع بالمحطّة، بَسَطَ، فوقَ واجهتها، لافتةً كُبرى، باللَّوْن الأَخضر، كُتب عليها بحروفٍ جسيمةٍ: "**محطّة الأَمل. باريس تساعدكم**" تلك المحطَّة كانت المركزَ الأَمثل لتلقّي مئات أَطنان الأَلبسة الواردة من شتّى أَنحاء فرنسا، بفضل مساحتها الشَّاسعة المترامية الأَطراف، وقَبْوِها حيثُ كان يصطفُّ نحو مئة شاحنةٍ، بعضُها لجامعي نفايات "عمّاوس"، وأُخرى أعارها الجيشُ ورجُلُ أَعمالٍ كان، منذُ سنواتٍ، من أكثر أَصدقاء الأَب پيير عَوْنًا وسَخاءً.

وسرُعانَ ما بات لتلك المحطَّة قائدُها. فذاتَ صباحٍ، كان "جان"، الصِّناعيُّ في مدينة "ليل"، يحلق ذقنَه، في منزله الفخم، وهو يطفرُ فرَحًا، إِذ كان يهُمُّ بالمثول إلى جبال "ميجيف" المُغطّاة بالثُّلوج الكثيفة، لقضاء بضعة أَيَّام عطلةٍ، في التزلُّج على سُفوحها، مُشبعًا هوايتَه الأَثيرةَ في تلك الرِّياضة، عندما سمع نداءً من الأَب پيير، من راديو لوكسمبورغ. فوطَّنَ، مُذَّاك، عزمَه، وعوضاً عن أَمّ قِمَم التزلُّج، أَنهى

رحلتَه في باريس، وهرع إلى محطّة "أُورسي"، حيثُ كان الأَب يعقد مؤتمرًا صحفيًّا؛ وحالما تسنّت له مقابلتُه، حيّاه تحيَّةً عسكريَّةً، وقدّم نفسه:

– "جان، صناعيٌّ من "ليل"، ضابطُ احتياطٍ، في قطارات المعدّات".

وردّ له الأَب التحيّة بمثلها مبتسمًا، وقال:

– "ستتولّى المسؤوليَّة عن محطَّة "أورسي"

وإزاءَ إمكانيّات استيعاب المحطّة الجمّة، وسَيْل السَّخاء الَّذي كان ما زال جارفًا، أَشعَّتْ، في ذِهْن الأَب، خاطرةٌ عبقريَّةٌ وصفَها فرانسوا مورياك بالقَوْل: "**إنَّ فكرة الأَب پيير الأَخيرة تنمُّ عن اقتران شُعْلةٍ داخليَّةٍ آكلةٍ بذِهْنٍ موضوعيٍّ**". وقد دُعيَت تلك الخاطرة: "مشروع الانعتاق من المهملات"، أَيْ إِخلاء العلِّيَّات الموصدة، وقد فسَّرها الأَب بقوله:

« هناك فئتان ممّن يملكون، في باريس، غُرَف خَدَمٍ غير مأهولةٍ:

الفئةُ الأُولى تتألَّف من قومٍ تعيسين يأبون التخلّي عن تلك الغرف القائمة في الطَّابق الأَخير، لأَنَّه لا يروق لهم مقابلَة أُناسٍ أَقلّ منهم إرهافًا على سُلَّم منازلهم. فلْيَسْبر هؤُلاء عُمقَ جريمتهم، إذ إنّ، ثمَّةَ، أُمّهات يهوين إلى القنوط بجَريرتهم.

"أَمّا الفئةُ الثّانية، فهي فئةُ من لا يرفضون التخلّي عن تلك الغُرَف، بسبب قسْوة قلوبهم، بل لأَنّ تلك الغرف تغُصّ، منذ أَجيالٍ، بركُامٍ من المُخلَّفات؛ وليس من اليسير على أولئك أَن يدفعوا مالاً لتُجّار المُخلَّفات كي يعتقوهم من تلك الفوْضى، ولا من السَّهل عليهم أَن ينهضوا بتلك المُهمّة بأَنفسهم، ولكنَّهم سيدَعوننا نقوم بها عنهم، إذا نحن توخّينا ذلك.

"من المُحقَّق أَنّنا قد نُحطِّم قلوبَ من ينعمون بذاكرةٍ عاطفيّة، ويأبَوْن الانسلاخ عن أوراقٍ قديمةٍ مُصْفرَّة، وأَثاثٍ أَو أَلبسةٍ عتيقة، وعن أَسِرَّةٍ مُفَزَّرة، وفُرُشٍ فقدتْ أَحشاءَها الصُّوفيَّة، وساعاتِ جدارٍ توقّفت عن العمل منذ سنين، وخِرَقٍ مُهَلْهلة، وخِرْدةٍ التهمها الصَّدأُ... موروثةٍ من أَجداد أَجدادهم، ومحفوظةٍ بخشوعٍ، في ما يُشبه محرابًا مُقدَّساً. وقد نُحْزِنُ هؤُلاء المحافظين الطيّبين، وليسوا جميعهم من الأَغنياء، عندما سنحملهم على التخلّي عن تلك الأشياء العتيقة المُنْكَرة، النَّافلة، عديمة الجدوى. غير أَنّنا، في آنٍ واحد، سنُخلي أَمكنةً من شأنها إِسعادُ أُمَّهات وأَطفالٍ لا مأوى لهم، ريثما تُبنى لهم قُرى الطَّوارئ.

"وهكذا بحجرٍ واحدٍ سنُصيبُ ثلاثةَ أَهدافٍ: سنُحرِّر أَمكنةً، وسنُحرِّر ضمائر، وسنوفّر مالاً لبناء قُرى الطّوارئ، نتيجةَ بَيْعنا الخِردةَ والأَوراق والخِرَق العتيقة لبائعي النفايات ».

وافتُتحت الحملة في الثّامن من شباط، عندما انطلقتْ مئةُ شاحنة، بسبع مئة مُتَطوِّعٍ نحو دائرة باريس السَّادسة الَّتي فُتِّشتْ أَبنيتُها بدقّةٍ فائقةٍ، من أَقبيتها حتّى أَهرائها، وبالتواطؤ بين مالكين ومستأجرين، وطُلاّبٍ جامعيّين وكشْفيّين، وتُجَّارٍ، وحتّى رسميّين.

وفي المساء كانت حصيلةُ أَربع مئة رحلَةٍ بالشَّاحنات تراكمَ أَربع مئة طُنٍّ من الخردة الحديديَّة، ومئتين وخمسين طنّ أثاثٍ، ومئة طنّ ثيابٍ، فُرِزَتْ وأُرسلت إلى مختلف مراكز البيع.

وفي اليوم التَّالي، التَّاسع من شباط، انطلق مئةٌ وخمسٌ وأَربعون شاحنةً بألفٍ وثلاث مئة مُتَطوِّعٍ، اقتحموا الدَّائرةَ السَّابعةَ، ثُمَّ، في الأَيّام التَّالية، الدوائرَ الأُخرى، وبعضَ الضَّواحي.

وغدا مشهدُ محطّة أُورسي رائعًا ومُذهلاً: فالأَسِرَّةُ فيها تُجاوِرُ الدُّمى، وتماثيلُ للسيّدة العذراء و"لجانّ دارك" تُحاذي ساعاتِ جدارٍ وقوارير؛ والنَّشاطُ السَّائدُ يُحاكي نشاطَ خليّة نَحْلٍ، فمئات المُتطوّعين يفرزون وينقلون ويُصنِّفون مختلفَ الموادّ، وَسْطَ دويِّ النِّداءات والأَوامر، وصيْحات المُزايدين؛ وحصيلةُ المزايَدات تُسْفِر أَحيانًا عن حصادٍ مُذْهلٍ، إذ يحدو السَّخاءُ إلى دفع أَثمانٍ جزيلةٍ لأَشياء زهيدة القيمة أَو عديمتها.

بَيْدَ أَنَّ ذلك النجاح الباهرَ نفسَه سُرعانَ ما انقلب سببًا لتوقُّف العمليَّة. فقد أَخذت أَرضُ المحطّة تئِنُّ تحت وقْر مئات الأَطنان التي تراكمتْ عليها، وراح رُكامها يزداد تسامقًا، يومًا إثْر يومٍ، وسُمِعتْ أَصواتٌ مُنْكَرةٌ مُنْذِرةً بانْهيار المحطّة فوقَ الخطوطِ الحديديَّة الجارية تحتَ الأَرض، وأُلوفِ ركّاب الضَّواحي الَّذين يتراصّون فيها كُلَّ يومٍ.

وفي التَّاسعَ عشَرَ من شباط صدر بيانٌ كان لأَرقامه صدى انتصارٍ فريدٍ، إذ أَعلن:

« في غضون خمسةَ عَشَرَ يومًا ارتقتْ حصيلةُ "باريس تساعدكم" إلى ثلاث مئةٍ وعشرين طنًّا، منها عشرة أَطنانٍ من الأَحذية، وعشرةُ أَطنانٍ من حطب التَّدفئة،

وعدَّة مئاتٍ من المدافئ، وعشرون طنًّا من الأَغذية، وخمسةٌ وخمسون طنًّا من لوازم الأَسِرَّة، ومئة طنٍّ من الأَلبسة. وقد تحقّقت الإِفادة من مئةٍ وخمسةٍ وعشرين طُنًّا من شتّى الموادّ: ثلاثين طنًّا من حديد الأَسِرَّة، وستّين طنٍّ أَثاثٍ، منها عشرةُ أَطنانٍ في حالةٍ جيّدةٍ، وعشرين طنّ ورقٍ، وخمسة أَطنان قوارير، وعشرة أَطنان أَمتعةٍ متفرّقةٍ مُبَعْثَرةٍ في الأَقبية والأَهراء، وقد استُخْدِمَتْ هذه الموادُّ، في الحال، لصالح من لا مأوى لهم، أَو مباشرةً في أَبنية الطَّوارئ ».

في غضون الأَيَّام الخمسةَ عشر تلك، أَمكن إِكساءُ ثلاثين أَلف أُسْرةٍ كساءً دافئًا ونظيفًا، وغمرت الأَبَ سعادةٌ مشوبةٌ بالحُزْن، إِذ اتَّضح له أَنَّ القومَ لا يتقاعسون عن الإِحسان إلى المحتاجين، ولكنّهم يظَلُّون مُحجمين عن مخالطتهم، ويأبَوْنَ رُؤْية الشَّقاء عن كثَب أَو لَمْسَه. فمن أَصل عشرات أُلوف غُرَف الخَدَم الموصَدة، لم يوضَع في تصرُّف من لا مأوى لهم سوى بضع مئاتٍ، ما حدا بالأَب إلى الاستعانة باثنين من أَصدقائه النُّوَّاب في سبيل استصدار قانونٍ يفرُض إِعادةَ الغُرَف المستقلّة غير المستعملة من المستأجرين إلى مالكيها كي يضعَها هؤُلاء في تصرُّف المحتاجين إلى مساكن؛ ولكن سُرعانَ ما اتَّضحَ أَنَّ القوانين قليلةُ الجدوى إِن لم تواكبها رغبةٌ صادقةٌ في العَمَل بموجبها.

وفي نفس اليوم الَّذي صدَر فيه البيانُ مُعَدِّدًا مُنجَزاتِ عمليَّةِ الإِعتاق، عبَّر الأَب عن خيبة أَمله، من فوق منبر كاتدرائية "ارجانتييّ" عندما باح بأَسًى:

« لقد رقدتُم جميعكم في سريرٍ، هذه اللَّيلة، ولكن أَين هم فقراءُ يسوع؟ أَنتم الحاضرين ههنا لن تطيقوا أَن يُقيم أَحدُ هؤلاء البائسين بين ظهرانيكم. ومن المُحقَّق أَنّهم، هم، لن يأتوا إِليكم حيثُ سيشعرون بالغُربة.

"لقد جعلتم حتّى من بيت الله محرابًا لا يجرؤُ المحرومون على اقتحامه. وإِن هم تجاسروا فقد يغشَوْن السَّاحةَ الخارجيَّة، ويجلسون على الأَدراج علّهم يلتقطون كلامَ الكاهن. أَنتم تنعمون بمساكن حافلةٍ بالرَّفاه، ولبعضكم مساكنُ فخمةٌ، وبعضكم لا يشغَلُ من مسكنه سوى حيِّزٍ ضيِّقٍ، ولكنّكم لا تسائلون أَنفسكم عن مصير من لا مأْوى لهم... ».

ويُحذِّرُ الأب مستمعيه من الاستعجال في دينونة الشابّ السِّكير، أَو المرأَة البغيّ، ويبسط الأَسباب التي انتهت بهما إلى هذا المصير، بعد أَن كانا يحلمان بأُسرةٍ دافئةٍ تغمرها السَّعادةُ والحبّ، فيقول:

"لم يكن لهما مسكنٌ بل كوخٌ، ولم يصمُد الطِّفْل الَّذي رُزِقاه أَمام البُؤْس والبرد... فمات. وفَزِع الرَّجُل، مُفعمًا مرارةً وخيبةَ أَملٍ، إلى السُّكر، وما لبثت الأُمُّ المُهمَلةُ، الوحيدةُ أَن هوت بدورها. ثمَّ جاءت البطالة، فغدت حياتُهما ذليلةً، حافلةً بالمرارة والتقزُّز. مع أَنّه كان لكُلٍّ منهما قلبٌ طاهرٌ، وإِيمانٌ بالقانون، والوطن، وبأَبناء جيلهما... ومن حولهما، بين المزهُوّين بأَنفسهم، لم يَخْطُرْ لأَحدٍ أَن يدَعَ سيَّارته في الشَّارع كي يوفِّر لهما ملجأً في مرآبه. على من يقع الذَّنْبُ إِذن؟ لقد بنيتُم عالَمًا لا مجالَ فيه للجماهير كي تتطلّع إلى السَّعادة، لا بل إِنّها لا تستطيع التطلّع إلى الحدِّ الأَدنى المُتمثّل في السَّكن".

وفي حين اسْتَشَمَّتْ قلّةٌ من المؤمنين في تلك العبارات اللاّذعة نَفْحةً عابقةً بأَصالة الإنجيل، استنكرتْها أَغلبيّةٌ محافظةٌ، لمستْ فيها تنديدًا بهم. بعض النِّسْوة اللاّئي ارتدَيْنَ أكثر ثيابهنّ أَناقةً، بُغْيةَ لقاء نَجْمٍ من نجوم المجتمع، نَدِمْن على تأَنُّقٍ في غير محلّه، وأَطرقْنَ متأَمِّلات أَيديهنَّ المثقلةَ بالحُليّ والَّتي ما أَلِفَت، قطُّ، أَن تمتدَّ لأَيدٍ عَرَقَها البُؤْس. وسرت غمغمةٌ تُعَبِّر عن غضب الفرّيسيّين الَّذين لَسَعَهم سَوْطُ الحقيقة الصّراح، في حين تسلَّل بعضُهم خارجَ الكنيسة.

ذاك الَّذي كانوا يتوقَّعون منه الصَّفْح والوداعةَ الإنجيليَّة، كان يَهْدُر، ويتَّهم، ويفضَحُ، مشيرًا بإِصبعه، صاعقًا بنظَراته، ويزأَر بغَضَبه على شريعة الأَقوى الَّذي يسحَق، والازدراء الَّذي يجرَح، واللاّمبالاة الّتي تقترف الجرائم، والضَّمير الفاتر الَّذي يَتَخَدَّرُ بعدَ دفع حَسَنَة.

وصوتُه لا يني يُذكِّرٍ بواجب خدمة الأَكثر تألُّمًا، في المقام الأَوّل، ومن ثمّ واجب البذْل الدَّائم، بذْل الذَّات بلا هوادة، ذلك الواجب الَّذي ينبغي أَن يُصبح أكثرَ من عادةٍ تلقائيَّةٍ، فيتحوّل نشيدًا يتفجَّر من الأَعماق.

تلك العباراتُ، كان الأَب پيير المُنْهَكُ، اللاَّهثُ، ينتزعها من أَغوار كيانه، ومن عُمْق طاقاته المشدودة بأكملها نحو الحُبّ. وعندما أَعلن: "امضوا، انتهى القدّاس،

أَضاف: "لا تُظنّوا أَنَّ ذلك يعني: أَخيرًا، فلنعُدْ إلى منازلنا، ونَنْعَمْ بالرَّاحة، بل يعني: اُمضوا، اُجروا في كلِّ صوبٍ، وأَنجزوا رسالتكم".

وعندما خلَت الكنيسةُ من جمهورها، وظلَّ الأبُ وحيدًا مهدودًا، غمرتْه السَّعادةُ لأنّه سعى إلى الاثّار للإنسان، بالدَّعوةِ إلى الحبّ.

على هذا المنوال كان يَنْهَج، أُسبوعًا إِثْر أُسبوعٍ، طوالَ الصَّوْم، عبرَ شاشة التِّلفزيون، مُنَدِّدًا بتقاعُس المواطنين حيالَ نضالٍ لا ينتهي من أَجل خُبز الأَكثر فقرًا، ومن أَجل صِحَّتهم، وسكَنِهم، وعَمَلِهم، وتعليمهم. الَّذين ظَفِروا بكُلِّ تلك الميزات كان يدعوهم إلى المُشاركة، أَمّا الَّذين حُرِموها، فكان يُلوِّحُ لهم بالرَّجاء مُؤَكِّدًا: "**طالما بَقِيتْ أُسرةٌ واحدةٌ بلا مسكنٍ، لا تَحقّ لنا الدَّعةُ، ولا العَيْشُ في وهْمٍ مريعٍ بأَنّنا أَدّينا واجبنا**". ويردّد، في هذا الصَّدد، قولَ "أَنطوان دي سانت اكسوپيري" المأثور: "**إِن ابتغيتم إِزالةَ التباغُض بين البَشر، فدعوهم يشتركون معًا في البناء**".

وقد تفتّقتْ عبقريَّة الأَب پيير عن حيلةٍ أُخرى لجباية الأَموال من أَجل بناء مساكن الطَّوارئ، وهي الَّتي دُعيتْ "حملة أَوراق المئة فرنكًا"، الَّتي كان قد أَطلَقَها، اتِّفاقًا، يوم وافاه، على حين غرَّةٍ، فريقٌ من إِذاعة لوكسمبورغ لالتقاط حديثٍ يُبثُّ مباشرةً على الهواء، من مذياعٍ محمولٍ على سيّارة. وكان الأَبُ، آنذاك، هامًّا بالانطلاق، تلبيةً لمواعيدَ سبق له الارتباطُ بها، وغارقًا في لُجَجٍ من القضايا تبدو له أَشدَّ خطورةً وأكثر أَوْلويَّةً من حديثٍ إِذاعيٍّ؛ وكادَ يعتذر عن تلبية طلَب الفريق الإِذاعيّ، لو لم يلفُتْ أَحدُهم نظرَه إلى الفوائد الجمّة التي قد يجنيها من حديثه، مُبيِّنًا أَنّ للإِذاعة أكثرَ من عشرة ملايين مُستَمعٍ. وفي الحال أَقبل الأَب على الميكروفون، وراح يفيض في الحديث عن كُلِّ ما كان يَشغَلُه، وعن مظاهر البؤْس المريعة، الواسعة الرُّقعة، الَّتي كان لا بُدَّ من نَجْدَتها. وأَثناءَ حديثه، أَطلَقَ، عفْويًّا، هذا النداءَ: "**قيل لي إِنَّكم عشرة ملايين مُستمعٍ، فلو تبرَّع كلٌّ منكم بمئة فرنك، وكم منكم من يستطيع التبرُّع بعدَّة مئاتٍ من الفرنكات، من غير أَن يحرمه ذلك غرامًا واحدًا من الزّبدة الَّتي يدهنُ بها خبزَه - اِحسبوا كم ستبلغ الحصيلة!**"

وكم دهش عندما أَخذت تنهمر عليه الرَّسائل، بحيثُ وصلَ إلى مقرّ "عمّاوس"،

في غُضون الأيّام الأربعة التّالية، أكثرُ من مليون فرنك، أوراقًا نقديَّةً من فئة مئة فرنك، فيما رُفِد حسابُ "عمّاوس" المصرفيّ بمبالغَ طائلةٍ، نتيجة تدفُّق تبرّعات المئة فرنكًا!

وبعدَ أيّامٍ، زارَ وفدٌ من مُحافظي الرّيف الباريسيّ ورُؤَساءِ بلديّاته ورشاتِ بناء "عمّاوس" لإيواء المُشرَّدين؛ وقبلَ مغادرتهم، خَطَب أحدُهم قائلاً: "إنّ الوسيلةَ المُثلى للتَّعبير عن امتناننا لجماعة "عمّاوس" تتمثَّل في إسهامنا بالحملة الوَطنيَّة لأوراق المئة فرنكًا التي أَطلقَها الأَب پيير. واستفسر الأَب عن أيّةِ حملةٍ يتكلَّمون، فدَهشوا لاستفساره وذكَّروه بالاقتراح الَّذي كان قد أَشار إليه عبر الأثير، والَّذي شاع وتَجسَّم، وأَصبحَ مُؤسّسةً وطنيَّةً، في غفلةٍ منه.

وفي نهاية شباط ١٩٥٤، تبنّى تلك الفكرةَ واحدٌ من حوانيت باريس الكُبرى، إذ عرض في إحدى واجهاته نموذجًا بالحجْم الطَّبيعيّ، مصنوعًا بالورَق المُقوّى، لمسكنٍ من مساكن الطَّوارئ الَّتي كانتْ تشيدها جماعاتُ "عمّاوس"، ودعا كُلاًّ من زبائنه إلى إلصاق ورقة مئة فرنك بذلك النّموذج، إسهامًا في بناء تلك المساكن. وهكذا بات ذلك النَّموذجُ يزدان، كُلَّ يومٍ، بغطاءٍ من أُلوف الأَوراق النقديّة التي تُجْمَعَ وتُحوَّل إلى جماعة "عمّاوس".

ورغبةً في التمثُّل بأَبيهم، نَهَج بعضُ رفاق "عمّاوس" مُستلهمين أُسلوبَه، وفقًا لطاقاتهم، على نحو ما فعل "أَبراهام" الَّذي كان مُكَلَّفًا بالإشراف على خيمة "جبل القدّيسة جينيڤييڤ"، والَّذي لَمَس لدى زائريها رغبةً في التبرّع لمساعدة المحرومين، فارتأى شَحْذَ تلك الرَّغبة، ولهذه الغاية، أَعدّ، في قبوٍ تحت الخيمة، مُصلّى، وجاءَه من كنيسةٍ مُجاورةٍ بشُموعٍ، وبتمثالٍ للقدّيسة حنّة، ظانًّا أَنّه تمثال للسيِّدة العذراء، ونَصَبَ صُندوقًا للتبرُّعات، وشرع يُنظِّم دُخولَ الزّائرين وخروجَهم، ويصبُّ، كُلَّ مساءٍ، في خزينة "عمّاوس" المركزيّة، حصيلةَ التبرّعات. غير أَنّه، عندما جاءَ بالتمثال والشُّموع من الكنيسة المجاورة، أَغفل استئذان خوريها، ممّا استثار حَنَقَ هذا الأخير، وكاد يُفضي إلى أَزمةٍ، لولا تدخُّل الأَب پيير، ومُساعدة "پول"، لتسوية الخلاف.

شهرةٌ وسخاءٌ

اِنقضَّت الشُّهْرةُ بكُلِّ أَضوائها ودَوِيِّها على الأَب پـيير، بحيثُ أَغفلت الصُّحُف الواسعةُ الانتشار المواضيعَ الَّتي كانت تستأثِرُ بفُضول الرَّأي العامّ، وتحتلُّ العناوينَ الكُبرى من صَفحاتها الأُولى كي تُولي اهتمامَها الأَوَّل للأَب پـيير الَّذي انتشرت صُوَرُه، ودُبِّجتْ فيه وفي إِنجازاته المقالاتُ المُسْهَبةُ المُطنبة. وقد أَجمعت على ذلك النهج جميعُ الصُّحُف، أَيّةً كانت اتّجاهاتها السِّياسيّة، ما خلا صحيفةَ الحزب الشُّيوعيّ الّتي آلَمها أَن يحظى كاهنٌ بكُلّ ذلك الثَّناء، فاتّهمتْه، بادئَ الأَمر، بالتآمر على امتصاص نقمة المحرومين الَّتي كان الشيوعيّون يسعَوْن إِلى إِذكائها، ثمَّ ما عتّمتْ أن اضطُرَّتْ إِلى استخدام لهجةٍ أَقلَّ عنفًا، بعد أَن اتَّضح لها أَن عددًا غفيرًا من المناضلين الشُّيوعيّين باتوا يناضلون تحت راية الأَب پـيير، مأخوذين بصِدْق كفاحه في سبيل المحرومين، وبجَدْواه.

وقد كتبت إِحدى الصُّحُف في هذا الشَّأن:

« **في تاريخ الصّحافة، لم يُعهَدْ، منذُ أَمَدٍ بعيد، أَن احتلّ مواطنٌ بسيطٌ، فترةً في مثل هذا الطُّول، عناوينَ الصَّفحات الأُولى من الصُّحُف التي كرّست له مئاتِ الأَمتار من العناوين... إِنّه واحدٌ من ثلاثة رجال استحوذوا على الرأي العامّ الفرنسيّ، لأَسبابٍ مختلفة، عام ١٩٥٤.**

"هل كلُّ ذلك بدافع العاطفة؟... ولمَ لا؟ هذا السَّخاءُ العفويّ، وتلك الموجةُ من التَّضامن المتوافقة مع هجمة الصَّقيع، كلُّ ذلك لم يتحقَّق إِلاّ لأَنّ الهدَف أَصاب القلبَ، ولأَنَّ العاطفة كانت هي المحرِّك، شأنها في جميع الأُمور العظيمة، ولأَنَّ الكلمات التي تنفُذ إِلى القلوب لم تكن زائفة ».

ومن أكثر المقالات التي تأثَّر بمطالعتها الأَبُ، آنذاك، مقالٌ نشرته صحيفةُ "الأُوسّيرڤاتوري رومانو"، الناطقةُ باسم الڤاتيكان، الَّتي كتبت، تحتَ صورةٍ كبيرةٍ له في صفحتها الأُولى: "**الأَب پـيير مُحيي ليالي المحبَّة**".

وما أكثر الأَلقاب التي ابتدعها الكُتّاب والصّحافيّون، وأَطلقوها على الأَب پـيير، مُعْربين عن حبِّهم له وإِعجابهم به حتّى المغالاة. وقد بلغ الاندفاعُ بمجلّة "البطّة

المقيّدة" السَّاخرة الشهيرة، الَّتي أَطلقت عليه لقب "**القــدَّيس يوحنّــا المعمــاري**"، أَن عنونت أَحد مقالاتها: "إلى السُّلطة، أَيُّها الأَب!"

وقد علَّق الأَب، في ما بعد: "**لم أَفعلْ شيئًا للظَّفَر بكُلِّ ذلك، ولكنَّنـي لـم أَفعـلْ شيئًا، أَيضاً، لمنع حُدوثه، إِذ خَطَرَ لي أَنّه لا يحُقُّ لي مقاومتُه إِن كان مـن شـأنه الإِسهامُ في تحريك الاخَرين، بحيثُ نتكاتف جميعًا على الحُؤُول دون استمرار "ذلك". و "ذلك" يعني هذا الوضع، مُؤَسَّسةَ البُؤْس المُنَفِّرة إلى أَبعـد مـدًى، والحمقـاء، وبالتَّالي الَّتي لا تُطاق**".

وقد انهالت عليه الرَّسائل من العظماء والمشاهير؛ فالجنرال ديغول كتـب لـه عباراتٍ رقيقةً أَرفقها بشيك، وأَضاف: "أَرجوك إِبقاء الأَمـر سـرًّا بيننـا". رئـيسُ الجمهوريَّة، "ريني كوتي" هنَّأه بحرارةٍ، ورئيسُ الوزراء استقبله رسميًّا في ٩ شـباط ١٩٥٤، وبَسَطَ لقُدومه السَّجَّادةَ الحمراء عند مدخل قصر"ماتينيون"؛ وقد وصل الأَبُ مُتأَخِّرًا نصف ساعةٍ عن موعده، ولم يعتذر، بل بادر بالقول:

– « سيادة الرَّئيس، إِنَّ فرنسا اليوم لم تعُدْ ما كانت عليه قبلَ عشرة أَيّـامٍ. لقـد وَعَتْ صبغةَ الكارثة الوطنيَّة التي يُمثِّلها وضعُ من لا مأوى لهم، ومن يعانون مـن سكَنٍ غير لائقٍ، وأَدركتْ أَنَّ هذه المشاكلَ الخطيرة ليست مُتَعذِّرةَ الحَلّ ».

وردَّ رئيسُ الوزراء مُبْتسمًا:

– "حضرة الأَب، وراءَك رفاقُك جامعو النّفايات، وبذلك أَنت أَقوى منّا".

واستأنف الأَبُ حديثَه:

– « **إِنّ مليارًا واحدًا يُخصَّص، فورًا، لمواجهة مُشكلة السَّكَن، يعنـي تـوفير خمسةٍ أَو عشرة مليارات تُنفَق على النّفايات البَشَريَّة ضحايا الظُّلم الاجتماعيّ. وفي سبيل التَّصدّي لكُلِّ هذا الشَّقاء، من الحمق أَن نَعْمل في معزلٍ عن مُؤازرة الدَّولـة، أَو أَن نَدَعَ الدَّوْلةَ تُواجه الأَمرَ بمُفْردها. بل ينبغي أَن يتكاتف الجميعُ، وينهض كُـلُّ فردٍ بقسطه من المُهمَّة** ».

وخشيةَ أَن يكون رئيسُ الوزراء ما زال يُجيل في خاطره شائعة "الانقلاب" الذي عزا بعضُهم نيَّتَه إلى جماعة "عمّاوس"، أَوْضح الأَبُ پـيير:

– « يبدو أَنّ أَشخاصاً على جانبٍ كبيرٍ من الجدّ قد أَعربوا، في مجلس الوزراء، يومَ الخميس المنصرم، عن قَلَقِهم حولَ نوايا كمينةٍ، ربَّما كانتْ تُساور هذا الكاهن النَّحيل الَّذي يتمتّع بشَعبيَّةٍ ساحقة... كاهنٌ، جامع نفاياتٍ، يُهدِّد الجمهورية! أَليسَ ذلك مضحكًا؟ درءًا لكلّ التباسٍ، أكُرِّرُ ما صرّحتُ به، لأَيّامٍ قليلةٍ خلتْ، لمديرالشُّرطة: "إِن كان مصدرُ السُّلطة هو التفاف أُمَّةٍ بكاملها، بحماسٍ، فنحن نمتلك السُّلطة". ربَّما تساءَلتم ما عسانا نفعل، وإِن كنّا مُزمعين على الإِطاحة بكلّ شيءٍ. لا، نحنُ لسنا "نابوليون"، ولا "جانّ دارك"؛ ولكن يحقُّ لكم أَن تخافوا، فطُموحُنا كبيرٌ، ويتمثّل في أَن نكون "البعوضة" الَّتي تُسرّع جرَيان دم الإِدارة... أَيًّا كان متقلّدُ السُّلطة، وكلّما دعت الحاجة، سنظلّ "البعوضة" الضئيلةَ التي تقفزُ وتستقرُّ على مكتب المسؤولين، وأَصحاب النُّفوذ، السِّياسيّين والموظَّفين، فتلدغُهم قليلاً، وتصيح بهم: "استيقظوا"، كي تُسمعَهم صوتَ من لا صَوْتَ لهم. من المُحقَّق أَنَّ البعوضة قد تُصبح مُؤلمةً، ولكنَّها لا تبتغي الإِيلام. وأَنا لا تخامرُني سوى رغبةٍ واحدة: هي أَن أَنبش أكوام القمامة، وَسْط رفاقي، وأَن أَعمل بحيثُ يُصبح طريدُ الشُّرطة أَو اليائسُ، مُنقذًا للآخَرين. تلك هي، لي، الحياةُ المُثلى، الَّتي أُوثرها على المهمّة الّتي أَضطلع بها الآن... ».

أَمّا رئيسُ الجمهوريّة، "ريني كوتيّ"، الَّذي كان قد كتب له: "شكرًا لكلّ ما تفعلُه من أَجل أكثر البائسين بُؤْسًا"، فقد استقبله بحرارةٍ في قصر "الإِليزيه"، وقال له بتأثُّرٍ بالغٍ: "واصِلْ مُهمَّتَك". وهو، بهذا القول، كان يُعبّر عن أُمنيَّة معظم المواطنين، الذين عبَّروا عنها، أَيضاً، بأَنفسهم، وكلٌّ بأُسلوبه. فهنا عابرُ سبيلٍ يُصافحه بحرارة، تاركًا في يده حِلْيةً ذهبيَّةً، ويتوارى، وهناك عُمَّال تنظيفات، ومعظمُهم من الشُّيوعيِّين، يُقدِّمون له ما ظَفِروا به من هدايا السَّنة الجديدة، وأُمٌّ تدسُّ في يده سِوارَ زواجها، ومُتَسوِّلٌ يضعُ بين يَدَيْه قبَّعته وفيها كلُّ حصيلة تَسَوُّله... وعُمّال مطعمٍ يُوافونه بحصاد "بخاشيشهم"، ويتبرّعون له بوجبة طعامٍ...

وتنتشر عدوى السَّخاء والإِخاء انتشارَ الوَباء، فتتبارى المخازنُ الكُبرى في استدرار التبرُّعات لعمّاوس، ويُصدِر أَحدُها مئةَ أَلف دفتر مُشتريات يُقتَطع من أَثمانها اثنان بالمئة لدَعْم مشاريع الأَب پيير، فيما آخَر يَقِفُ رُكنًا من واجهاته لتلقّي الإِعانات لمساكن الطّوارئ.

وكان للفَنّ قسطهُ في مهرجان السَّخاء، فتعدَّدت العروضُ المسرحيَّةُ والغنائيّة التي أدّاها أَشهرُ الفنّانين لصالح من يُعانون الجوعَ والبردَ، وشاعت أُغنيةٌ تقول: "ما يكفي اثنين، يكفي أَربعة". وغالبًا ما كان الأَبُ يقتحم مقصورات الفنّانين، ويشدُّ على أَيديهم شاكرًا مُشجِّعًا.

وارتقتْ أَثمان اللَّوْحات المباعة لدَعْم مجهود الأَب پيير إلى قممٍ فلكيّةٍ، فبيعت، على سبيل المثال، لوحةٌ تصوّر الأَب پيير، بريشة الفنّان "رووو"، بمليون وسبع مئةٍ وخمسين أَلف فرنك.

أَمّا ستوديو تسجيل "پاتي ماركوني"، فقد فسح للأَب مُهْلَةَ عشر دقائق لتسجيل رسالةٍ مكثَّفةٍ؛ وبعد لحظاتِ تأمُّلٍ، تدفَّقت الرِّسالةُ كثيفةً، مركَّزةً، عميقةَ التّأثير، لا تكرارَ فيها ولا لَغْوَ، مُستثيرةً دهشةَ الفنيِّين وإِعجابَهم، وعنها صدرت أسطوانةٌ عنوانها: "الأَب پيير يُحدّثكم"، اضطلع كبار الفنّانين ببيعها في الشّارع، ممّا رفد مشاريع "عمّاوس" بحصيلةٍ طائلة.

ولكن في غَمْرة الاندفاع والنَّجاح والشُّهرة لم يُفلت الأَبُ من قَلَقِه. فقد كان يُوجس خشيةً من أَن يكون كُلُّ ذلك لهيبَ قشٍّ سُرعان ما يهمُد، في حين أَنّ المشاكل الجوهريَّة كانت ما تزال قائمةً، والإِحصاءات تُسفر عن أَرقامٍ مُرعبةٍ، وعن عجزٍ في الإِنشاءات السَّكنيَّة الشَّعبيّة يربو على مليونَيْن ومئتَيْ أَلف وحدةٍ، ممَّا كان يعني أَن سُدْس سكّان فرنسا يُعانون أَزمة السَّكَن. كان يتعيَّن على الدَّولة، من أَجل القضاء على تلك الأَزَمة، أَن تبني، في كُلِّ عامٍ من الأَعوام الَّتي تلت الحرب، أَربع مئة أَلف وحدةٍ سكنيَّةٍ، في حين أَنّها لم تبنِ سوى ٤٠ أَلفًا منها. ومن ثَمَّ فقد حُشر في مليونٍ وثماني مئة أَلف مسكنٍ أَضعافُ طاقتها من استيعاب السَّاكنين، ولجأ إلى الفنادق، والبيوت المفروشة أكثرُ من أَربع مئة أَلف شخصٍ، كان "تُجَّار النَّوم" يستغلّونهم أَبشع استغلالٍ، ولا يتحرَّجون من قذفهم إلى الشَّارع، حالما تحملُهم ضآلةُ مواردهم على التَّقصير في أَداء إِيجار غُرَفهم.

ومن أَجل تعبئة الرأْي العامّ، لمواجهة تلك الأَزمة المُستحكمة، لم يكن الأَب پيير يني يجوب المناطق الفرنسيّة في كُلِّ اتِّجاه، يُحاضر، ويَعِظُ، ويُوعّي، ويهزُّ الضّمائر والنُّفوسَ، في دُور السّينما والأَدْيِرة، والنَّوادي، والمسارح والكنائس،

واللقاءات الواسعةِ الجماهير، في الهواء الطَّلْق؛ وفي كُلِّ مكانٍ يتجمهر الناس أُلوفًا لسماع ذلك الصَّوْت السَّاحر، والعباراتِ البسيطة التي تجرح وتُضمِّد؛ وإِثْرَ كُلِّ خطابٍ يتفجَّر التَّصفيق، وتُقْذَف التبرُّعات، عينيَّةً أَحيانًا، على شكل أَساور، وأَطواق، وخواتمَ وساعاتٍ، أَو نقديّةً قد لا تكون كبيرة المبالغ إِلاّ أَنّها تُعبِّر عن سَخاءٍ نابعٍ من أَعماق القلوب.

في كلِّ مكانٍ، كان يفضَحُ ضآلة عدد أَبنية العمّال، مع أَنّهم يُمثِّلون ثَرْوَةَ البلاد الحقّة، وفي كُلِّ مكانٍ، يُعبِّر عن أَحلامه وتطلُّعاته:

« أَحلمُ بيومٍ يُشاد فيه، في كُلِّ مطرحٍ، كلِّ مدينةٍ وضاحيةٍ، عددٌ كافٍ من المساكن يُلبّي احتياجات الأُسَر الشابّة، والأُسَر المُتقدِّمة في السِّنّ.

"أَحلم بيومٍ يُعادُ فيه الرَّجاءُ إلى كُلِّ هذه الشَّبيبة التي تتسحَّب الآن في القُنوط، وتهدُرُ أَيْنعَ سني الحُبّ وأَجملها...

"إِنّ ما حدث في الأَوّل من شباط هو انبعاث روحٍ مشتركةٍ، وقيامة إِرادةٍ مُتضامنةٍ على منع مُعاناة أَبرياء، على هذا النَّحو الأَحمق ».

خمسة أَسابيع بعد نداء الأَوّل من شباط، كان قد غشى فندق "روشستر" أكثرُ من عشرين أَلف زائرٍ، وأكثر من أَلفَيْ مُشرَّدٍ نعموا بالمأوى والطَّعام والمعالجة، وحظيتْ ثلاثون أَلف أُسْرةٍ بالكساء الدَّافئ اللائق. وافتُتح أَربعون مركزًا أَخويًّا للإِسعاف، وانتشرت في الضَّواحي عشراتُ لجان الغَوْث المحلِّيَّة. كما باشر رفاق "عمّاوس" وَرشتَيْ بناءٍ جديدَتَيْن، إِحداهما في "پليسيّ تريڤير" مُستهدفةٌ إِشادة ٢٥٢ مسكنًا، وأُخرى في "تورسي" غايتها بناء ١٦٢ مسكنًا.

وهكذا، بفضل الأَب پيير ورفاقه جامعي النّفايات، لم يَمُتْ عَبثًا الطِّفلُ مارك، والعجوزُ المجهولة التي نفقَت بردًا وبين أَصابعها المُتجمِّدة قرارُ طردها من مسْكنِها، بل غدا موتُهما الشَّرارةَ التي أَوْرَتْ حريقًا، وجعلتْ كاهنًا يجأَر بأَعلى صوته، فيوقظ حكومةً وشعبًا من سُباتهما.

بَيْدَ أَنَّ تلك الانتفاضة بكُلِّ ما واكبَها من اندفاعٍ وسخاءٍ، لم تكن كافيةً للقضاء على البؤس، وطالما بقي بائسٌ واحدٌ يئِنُّ ويتأَلَّم، فالأَبُ پيير ورفاقُه، في كُلِّ مكانٍ،

يواصلون بدأبٍ وتصميمٍ "معركة الحجر"، حجر البناء الَّذي يشيدون بـه الجـدران، وحجر القلوب المُتصلِّبة التي يجهدون في بعث شيءٍ من الإِنـسانيّة والعطـف فـي شرايينها.

الأُسطورة

لقد جَعَل شُباطُ ١٩٥٤ من الأَب پـيير أُسطورةً امتزجتْ فيها وجـوهُ الكـاهن، ورَجُلِ المقاومة، والنائبِ، وجامعِ النّفايات، الرَّجُل البسيط، والبطَلِ، رجلِ الله ورجُلِ الشَّعب، "وجهٌ جميلٌ يُبرز بوضوح كلَّ مخايل الرَّسول": الطِّيبـة والمحبَّـة والعـدْل مقترنة، وبالإِجمال كلّ الصّفات التي يتوقَّعها الشَّعبُ من قدِّيسٍ. وقد ترسَّخت هويَّـة قداسته بفعاله، وتألَّقت بعمله من خلال "عمّاوس"، ولم يخُنْها كلامُـه، بـل أكّـدها، فتكراره العنيد لمعتقداته الجوهريَّة يُسبغ عليها استمراريَّةً وثباتًا يتحدَّيان الأَحـداث، والمواضيعُ الَّتي لا يفتأُ يتصدّى لها، سواءٌ هي كانت الشَّقاء، أَو ما ينبغي أَن يقابلـه من محبّةٍ وعَدْلٍ، مواضيعُ معاصرةٌ لكلِّ عهدٍ، حاضرةٌ في كلِّ مكان.

وقد بلغت الأسطورة من الذُّيوع والانتشار ما حدا ببعض المؤَسَّسات التِّجاريَّـة إلى استغلالها في دَعاوَتها، فربطتْ، على سبيل المثال، مؤسَّسة "برسيل" للمُنظِّفـات اسمَها باسم الأَب پـيير، وعُرفت، فترةً، منتوجاتها على أَنَّها "مُنَظِّف الأَب پـيير"، لقاءَ نسبةٍ من حصيلة المبيعات تؤدَّى لعمّاوس، وتدعَمُ مشاريعَها الإِنشائيّة من أَجـل من لا مأوىً لهم. وقد عبَّرتْ صحيفة "البطّة المُقيَّدة" الفرنسيّةُ الذَّائعةُ الصّيت، عـن توجّسها من ضررٍ قد يُصيب الأَبَ من جرَّاء هذا التَّرابط، فكتبت: "حيـالَ لجاجـة الحاجة، قد نفهم أَن يَعُدَّ الأَبُ المالَ خاليًا من رائحة القداسة، بحيثُ يسوغُ أَخذُه حيثُما وُجِد. ولكن، عندما يُعير اسمه لمؤسَّساتٍ يختلفُ هدفُها اختلافًا شاسعًا عن ذاك الَّذي ينشدُه هو، أَلا يخشى أَن "يُغسَل" عملُه، في نهاية المطاف؟"

ولكنَّ الأَب قد أَثبت أَنَّ حملة منظِّف "برسيل" لم تُفْلِحْ في غسل عمله؛ فهو كـان يواجه غُلوَّ الأسطورة بغضَبه المُقدَّس حيالَ كلِّ افتئاتٍ على العدْل، وبإِيمانه الرَّاسخ، المُطْلَق الَّذي لا يهتزّ. ذانكَ الإِيمان والغضَبُ قد سانداه أَبدًا على الاحتفـاظ بـسداد الحُكم، ووُضوح الرُّؤية. وحتّى عندما كانت وسائلُ الإِعلام تُوغـل فـي شَـطَطها

وغلوائها، كان يقتطف منها ما يفيد عمله ومشاريعه، ويلفظ الباقي، ساخرًا، غير مبالٍ، وتساعدُه براءتُه على اجتياز العواصف بأَمانٍ.

في تلك الفترة من عام ١٩٥٤، كان النَّاس يتهافتون لسماع محاضراته، ولَمْس الأُسطورة الحيَّة، وعلى نقيض نجوم المجتَمع الذين يُغَذُّون شهرتَهم بالسِّرِّ والتَّواري، كان الأَبُ پيير يُسلِّم نفسَه للجماهير ببساطةٍ وصراحةٍ؛ ومع ذلك، كان كلُّ اجتماعٍ يدعو إِليه ينقلب مهرجانًا يتفجَّرُ فيه حماسُ الجماهير، وكأنَّه، بمفرده، يُمثِّل جميعَ القدّيسين والأَبطال. وتتوالى المهرجانات مستنزفةً قوى الأَب پيير، مستثيرةً المزيدَ من حماس الجماهير وسخائها، فهي تُعطيه بلا تحفُّظٍ، ومن خلالها تتلقّى "عمّاوس"، ويتلقّى المحرومون المالَ، وشتّى أَصناف الهبات العينيَّة من موادَّ غذائيَّةٍ، وأَلبسةٍ، وما إِليها.

غَيْرتُه على المحرومين كانتْ تدفعُه إلى بَذْل نفسه بلا حدودٍ، واستدرار كنوز العطاء من أَجلهم؛ غير أَنَّ الجمهورَ لم يكن يكتفي بالعطاء، بل يَودُّ تَمَلُّكَ ذلك الكاهن النَّحيل، الَّذي أَخذ يحدَوْدِبُ من الإِرهاق، واقتطاعَ أَجزاءٍ من جُبّته، ولمسَ وجهه الشَّاحب، ولحيةَ الرَّسول التي تُغطِّيه، بل يُفضي الحماسُ ببعضهم إلى مُطالبته باجتراحِ المُعجزات، فيأْتونه بمرضاهم كي يشفيَهم، ويلتمسُ منه أَعمىً نِعمةَ البَصَر، ممّا يستفزُّ غضبَه واستنكارَه، فهو إِن كان يُشجِّع سَخاء العطاءَ للمحرومين، ويفرَحُ له، إلاّ أَنّه يضيقُ ذرعًا بتنصيب البعض له صنمًا، ويُوجس خشيةً من أَن يُنْسِيَ القومَ تعلُّقهُم به وتملُّقُهم له الغايةَ التي يسعى إِليها، والبائسين الَّذين يدعو إلى نَجْدتهم، وقد عبَّر عن ذلك بمرارةٍ، إِذ قال: "دَعوني وشأْني! إِنّكم تتشدّقون بِرَوْعة الأَب پيير، وتَكْتَفون بذلك، مُغْفلين الأَمرَ الجَوْهريّ. وبذلك تُفضون إلى العُقْم، وإِلى التحوُّل عن الهدف المُتمثّل في الأُسَر والأَطفال القابعين تحتَ الخيام، فلئِن متُّ غدًا، وكان كلُّ شيءٍ مرتكزًا على رجلٍ، لا على عملَه، فما الَّذي سيحدُث؟"

مثلُ هذا التبرُّم عبَّر عنه الأَبُ بمناسبة لقائه الرَّجُلَ الأُسطورة الآخر: شارلي شابلن. وقد جَهِد مُنظِّمو اللّقاء لإِدراجه في سرِيَّةٍ تامّةٍ، تلبيةً لرغبة الرجُلَيْن، فترك الأَبُ پيير سيَّارته الصَّغيرَة أَمام باب كنيسة، وخرج من بابٍ جانبيٍّ ليستقلّ سيّارةً فخمةً تخصّ "الفنّانين المتّحدين"، قادتْه إلى فندق "كريون"، الَّذي ولَجَه، أَيضاً، من بابٍ خلفيٍّ، ثُمّ أُدخِلَ رُدْهةً صغيرةً كان المُمثّل الشهيرُ ينتظره فيها. جلسا وجهًا لوجهٍ

وقَد أَخذ التّأثُّر بكِلَيْهما كُلَّ مَأْخَذٍ. كان الأَبُ متأَلِّقَ العينَـيْن، حـانيَ الـرَّأس قلـيلاً، وشارلي شابلن بشعره الشائب، ونظراته المتَّقدة، ويدَيْه العابثَتَيْن بقبَّعته في شيءٍ من العصبيَّة ونفاد الصبر، وبسمتِه الخجول، يُعبِّر عن كلِّ مُعانـاة الفقـراء والـضُّعَفاء والمحرومين. كلاهما قد سار على دروب الغُبار والوحل، في مُدن الظُّلم اللاّمبـالي، والأَنانيّة الجارحة، والمالِ الصَّلِف المُتعالي. وكلاهما قد بكى بؤس الإِنسان المُقيَّـد، المُهان، وجأَر ثورتَه، واستنهض اليدَ التي تُنقذ، والبسمةَ الَّتي تُدفئ. لم يكن من حاجةٍ بينهما إلى الكلمات، فقد خَبَرا، معًا، الحياةَ والشَّقاءَ، والوحدةَ والظُّلـم، ورازا قيمـةَ العَرَق والدُّموع، وطَربا لنشيد السَّخاء المتفجِّر من القلب.

وفي شيءٍ من التَوتُّر، مدَّ "شابلن" إلى الأب ظرفًا، قائلاً:

– « **إِنّي مدينٌ لك بملايين، ولستُ أُعطيها، بل أَردُّها. إِنّها تخصُّ المُشرَّد الَّذي كنتُ، والَّذي جسَّدتُ. وها إِنَّ الأُمورَ تعود إلى نِصابها؛ من البَدَهيّ أَنْ أُعطيكَ هـذا المال، فهو جائزة السَّلام، ولا أَستطيع أَن أَحتفظَ به، بل علـيَّ أَن أَهَبَـه صـانعي السَّلام، فالسَّعيُ من أَجل البائسين هو سعيٌ للسَّلام** ».

وكان الظرف ينطوي على خمسة ملايين هي نصفُ قيمة جائزة الـسَّلام التـي قدَّمتْها مدينة براغ لشارلي شابلن.

ومع أَنّ اللّقاء بين الرجُلَيْن الأُسطورتَيْن كان مفترَضاً أَن يُحاط بالكتمان، غيـر أَنَّ مئات الصّحافيّين احتشدوا عند مدخل فندق "كريّون"، يُحيـق بهـم أُلـوفٌ مـن الفُضوليّين، ومُوالي الأَب پـيير؛ وسرُعان ما شاع النّبأ، وأَخذَ بعـضُهم يـتَّهمُ الأَبَ پـيير بقبول مال الشُّيوعيِّين، ويُسبغُ على لقائه بشارلي شابلن طابعًا سياسيًّا. وخرج الأَبُ فخاطب الجمهور قائلاً: "**أَيُّها السَّادةُ الصّحافيّون، ثمّة، في الإِنجيـل، روايـةٌ يحسُن استخلاصُ عِبَرها، هي قصَّة دينار قيصر فلو أَوْصى الربُّ بـدفع الجزْيَـة، لقيل: "لقد باع نفسه له"، ولو رفض لقيل: "إِنّه ثوْريٌّ فوضويٌّ". ويكاد يكون هذا ما يحدث لي اليومَ؛ فلو أَنا رفضت هذه الهِبة لأَنّها قادمةٌ من أَنصار الـسَّلام، لقيـل: "أَترونْ: إِنّ محبَّته سِياسيّةٌ، فهو يُؤْثِر أَن يكون لديه قدرٌ من المال أَقـلّ، يُـضعف قُدْرتَه على مساعدة النَّاس، على أَن يتلقّى مالاً ممّن لا يُـشاركونه إيمانَـه"؛ وأَنـا موقنٌ أَنّني لو قبلتُ لنهض من يقول: "إِنّه يُطعم البائسين حساءً أَحمر (شيوعيًّا)!"**"

إنَّ الإنجازاتِ التي حقَّقتْها "عمّاوس" عام ١٩٥٤، كانــت، بجــسامتها، تُقــاربُ المُعجزة؛ فقد باشرت أَربعَ عشْرةَ ورشة بناءٍ، وأَسَّست شــركةً للمــساكن الزَّهيــدة الإيجار بنت ١٢٢٠ مسكنًا، وشركةً للمساكن المُعدَّة للبَيع تقسيطاً للعمّال الراغبين في التملُّك أَشادت ٢٦٣ بيتًا مستقلاًّ، واتّحادًا لمساعدة من لا مَسْكنَ لهــم فــي المنطقــة الباريسيَّة، والاتّحادَ الوطنيَّ لمساعدة من لا مَسْكِن لهم، ونزلاً عُمَّاليًّــا فــي مدينــة "پــروست"، ومركزَ نَجدةٍ سريعةٍ. وفي تلك السَّنة أَيضاً تأَسَّــست ثــلاثُ جماعــاتٍ جديدةٌ أُضيفت إلى جماعات "عمّاوس"، في كلِّ من "بوجيــڤــال"، و"ليل" و"مبريشي"، وجماعةٌ نسائيّةٌ أُخرى في "پــليسّي تريــڤــيز"؛ وأَخيرًا، في تلك السَّنة، أُصــدِرتْ مجلَّةُ "جوع وعطش" النَّاطقةُ باسم جماعات "عمّاوس".

وكان الأَب پــيير هو مُحرِّك كلِّ تلك الإنجازات، وروحَها، وحاملَ همِّها، بحيثُ تجسَّد فيه الأَملُ في القضاء على الشَّقاء البشريّ، وفي استدرار السَّخاء الإنسانيّ. ولا ريب أَنّه، في مثل تلك الفترات، حيثُ كلُّ شيءٍ يتّسم بالجسامة والمغالاة والانــدفاع، كان التعقُّلُ والتحسُّب لكلِّ خُطوة أَمرًا مُتَعذِّرًا، وكلُّ شيءٍ كان خاضعًا لهوى حبٍّ بلا حسابٍ، سابحًا في حَوْمة أَخطارٍ مُحْدقةٍ، لا يقي منها سوى الإيمانِ الَّذي يُوفِّر أَيــضاً القُدرةَ على الصُّمُود.

وعلى حدّ ما يحدث لكلِّ من يقفز فجأةً إلى واجهــة الأَحــداث، وتُــسلَّط عليــه الأَضواء، أَخذت تُنسَج حول الأَب الأَقاويل. وقد روَّجَها بعضُهم بنيَّةٍ طيِّبــةٍ، وبحجَّــة الحرصِ على سُمعة الأَب، كما فعل "روبير بارّا"، الَّذي كان سكرتير فرانسوا مورياك، وأَمينَ سرّ المُفكِّرين الكاثوليكيّين، والَّذي راح يعبّر عن قَلَقه من جرَّاء مطاردة النّــساءِ للأَب پــيير، في أَعقاب انتفاضة العطف، وإِغراقه بعطفهنّ بحجَّة السَّهرَ عليــه، وقــد اجتذَبْتهنَّ شهرتُه الصَّاعقة، وسَحَرتْهنَّ هشاشتُه الظَّاهرة، وتوتُّره الدَّائم، فتخطّى تفانيهنَّ له كُلَّ الحدود. وقد أَفضى "بارّا" بقَلَقه هذا لمساعد الأَب الأَوّل، "پــول"، موضــحًا أَنّ الأَحداث، في ذاتها، قد تكون تافهةً، غير أَنّ شَبَح الأَقاويل قد يغدو وبيلاً.

وقد صدم "پــول" لاحتمالٍ لم يَجُلْ قطُّ بباله، وراح يُصلّي بحــرارةٍ، ويتــساءَلُ بقَلَقٍ: "أَيُمكن أَن يُفسدَ الاندفاعُ انتفاضةَ العطف، في نظر البعض، بما يُعزى لــلأَب من شَطَطٍ، وهل يمكنُ للشُّكوك أَن تودي بكلِّ ذلك السَّخاء؟".

ومُذّاك أَخذتْ تتحفر الشِقَّة، في جوار الأَب پـيير، بين من يتفهّمون ومن يُحاكمون، بين من يُساندون ومن يَدينون، بين أَصدقاء الرَّجُل، وعابدي الأُسطورة. أَوَلَم يكن الأَبُ يُشير إِلى ذلك الواقع عندما كتب: "**ما أَندرَ الذين يُفلحون في أَن يكونوا أَصدقاءَ من غير أَن يتحوّلوا إلى عَبَدة أَوْثان!**"... إِنَّ الصَّداقة التي تُجيدُ النَّقدَ أَوفرُ ضمانًا من الإِعجاب الأَحمق الَّذي لا طائلَ تحتَه، والَّذي ينقلبُ نبعًا للأَضاليل بسبب مُغالاته، وافتقارِه إلى الحُكْم السَّديد، ومُنذئذٍ نشبتْ أَزمةٌ صامتةٌ بين من يُدركون آلام الأَب ومن يجهلونها، بين من يتوخَّوْن إِنقاذَ "عمّاوس" رغمًا عنه أَو على حسابه، ومن لا يرَوْن لعمّاوس خلاصاً ومستقبلاً في معزلٍ عنه. وقد برز إِجماعٌ على إِنقاذ "عمّاوس"، ولو انثلمَتْ هالَةُ القدِّيس أَو تحطَّمت صورتُه، وتغلَّبتْ مقولةُ الفقير الَّذي تتعَيَّنُ خِدمتُه في المقام الأَوَّل، على أُسطورة الأَب.

وقد أَثارت هيمنةُ أُسطورة الأَب پـيير هواجسَ السُّلطات المدنيَّة الفرنسيَّة التي توجَّستْ خشْيةً من أَن تنقلب انتفاضةُ العطف ثورةً عليها، فكلّفتْ وزيرَ الدَّاخليَّة بإِعداد ملَفٍّ ينطوي على جميع الأَقاويل التي تُشاع عن الأَب، وعن كلِّ موقفٍ له يمكن تأْويله تأويلاً يُسيء إِليه ويُشوِّهُ سُمْعَتَه، وقد ظلَّ ذلك المِلَفُّ سرِّيًّا، كي يُستخدَم عند الحاجة القصوى فقط؛ وبعد أَن تمَّ للسُّلطات ذلك، أَوعزت إِلى دوائرها أَن تتعاون مع الأَب، وتُغْضي عن مخالفاته، ولا سيَّما أَنّه، باستدراره سخاءَ المواطنين لبناء مساكن للمُعْوِزين كان يضطلع عنها بقسطٍ جسيمٍ من مسؤُوليَّاتها.

واتَّضحَ، لاحقًا، أَنّ السُّلطات الفرنسيَّة قد زوَّدت الڤاتيكان، سرًّا بعناصر من ملفّها عن الأَب پـيير، كي تُجبرَه على تلطيف لهجته في مُهاجمة المسؤولين المدَنيّين والكنسيّين. وقد حاك بعض الأَساقفة الذين لسعَتْهم كلماتُه الجارحةُ الجرأَة مؤامرةً عليه؛ وعلى إِثْرها طُلبَ من الأَب، في مناسباتٍ مختلفةٍ، تزويدُ الدَّوائر الڤاتيكانيّة بمقالاته، ونُصوص خِطاباته، وبتفاصيلَ عن سيرته، غير أَنّ تلك الدَّوائر لم تجدْ، في كلِّ ذلك، ما يُتيح لها التعرُّضَ له، فضلاً عن قناعتها بأَنَّ الكنيسة لا تنجبُ كُلَّ يومٍ ابنًا بارًّا، يتمتّع بصفات النَّبيِّ وسَطْوتِه، وتُجمِعُ الفئاتُ المُتباينةُ على محبَّته، وتقدير فِعاله، وتلبيةِ ندائه إلى الخدمة الإِنجيليّة.

وكانت كنيسة فرنسا، على نحوٍ خاصٍّ، تُعاني، آنَذاك، أَزمة انقسامٍ خطيرةً، في

أَعقاب مناوأَتها لحركة الكهنة العُمّال، وتحريمها إِيَّاها، مع أَنّها كانت تحظى بتأييد شطرٍ عريضٍ من المؤمنين، وقد وجدتْ في الأَب ضالتَّهَا الكفيلةَ باستعادة تعاطُف هؤُلاءِ المُؤْمنين، فدَعَمَتْه، ولو ظاهريًّا أَحيانًا، وكتب له المطران "غيرّي" أَمين سرِّ مجلس كرادلة فرنسا ورُؤَساء أَساقفتها، عام ١٩٥٤ ما يلي:

« **إِنّ مهمّتنا، كأَساقفةٍ، تتمثَّلُ في أَن نُطلقَ لك كاملَ الحرّيَّة في عملك الَّذي يتناول أَوساطاً هي غالبًا بعيدةٌ جدًّا عن الكنيسة. إِنّ إِشرافًا يُسبغُ طابعًا كنسيًّا، أَو يبدو كذلك، من شأنه أن يشلَّ، بلا ريبٍ، لدى الكثيرين، عملك ونفوذك** ».

وقد أَجاب الأَب پيير: "شكرًا، أَبتِ، فقد أَنْفَذْتَ لي البركة مع الحرّيّة".

إِلاَّ أَنَّه كان على السُّلطات الكنسيَّة أَن تحتمل الكثير من ذاك الَّذي لم يكن يعرف مُجاملةً ولا مُداهنةً، على حدِّ ما حَدَث للمطران "فيلتا"، الَّذي كان يرئسُ، شَرَفيًّا، حركةَ مُساعدة الإِسكان، والّذي أَعرب عن رغبته في المشاركة بتدشين قرية طوارئ، فأَجابه الأَب: "**من لا يشارِك في الجُهْد، لا حقَّ له بالتَّكريم! ولن يكون لك، ثمَّةَ، مكانٌ**".

مثلُ تلك الأَقوال القاسية، كانوا يعزونها إِلى طبع الأَب پيير الحادّ، وربَّما إِلى شيءٍ من الغُرور قد أَصابه إِثْرَ ما حَظيَ به من شُهْرة، فيبتلعونها صامتين، مُرغَمين، غيرَ راضين. بَيْدَ أَنَّه كان للأَب، داخلَ الكنيسة، أَيضاً، أَصدقاءُ مخلصون وذوو وزنٍ، مثل الأَب "نوربير"، والإِخوة "ڤويّوم"، الذين يُعتَبَرون مُنعطفًا في تاريخ الكنيسة، ولا سيَّما في حقبة التحوُّل المجمعيّ؛ وقد خطر للأَب پيير، في فترةٍ ما، أَن يؤسِّس، مع هؤُلاء، جمعيَّةً رسوليّةً لخدمة المحرومين، غير أَنَّ أَحداث ١٩٥٤، قد أَغرقتْهُ في خضمِّها، وطغتْ على علاقاته مع أَصدقائه أُولئك، فخدمةُ الفُقَراء تلتهم كُلَّ وقته، وَمُتَطَلَّبَاتهمْ لا تَذَرُ له مُتنفَّسًا، بحيثُ لا يبقى لديه فُسحةٌ لخلوةٍ أَو تأمُّلٍ، ولا لراحةٍ أَو نوْم.

وبات أَصدقاؤه المقرّبون يتوجّسون أَنّه انتُزع منهم، ومضى وحيدًا، بعيدًا، في مسارٍ إِعلاميٍّ لا مكانَ لهم فيه، فيخشَوْن عليه من الشُّهرة، ويجهدون في إِنقاذه، ولكنَّهم يعجزون في العُثور عليه، فهو أَبدًا نَهْبٌ بين أَسفارٍ وندواتٍ ومُحاضرات، وإِذا ما استطاع أَن يسرق، من سعيه المحموم، ساعتَيْن يُمضيهما بين رفاقه، يتكلَّم

ويسترسِل في الكلام مفرِّجًا عمَّا ينوء به صدرُه، قبل أَن ينفجر بكاؤُه مُعبِّرًا عن المأْسَاة العميقة التي يعيشها، ويتّضحُ أَنّ الأسطورة قد قذفتْ به إلى عُزْلةٍ مخيفة.

ومع ذلك يمضي أَصدقاؤُه في مُحاولة سَدّ الثُّغَر التي تُشرَع هنا وهناك، وفي دَرْء الفَضائح التي تُواكِبُ حُمّى الاندفاع، وتدفُّق السَّخاء...

في حزيران ١٩٥٥ صرّح الأَب أَمام جمهورٍ في جينيف: **"لقد سَئِمتُ من الإعجاب... بادئَ الأَمر، لم أَجد الأَمرَ مُزعجًا، ولكنّ التَّجربة بَيَّنتْ لي أَنَّ الإعجاب، عندما يتخطّى دَرَجةً ما، يغدو لا يُطاق"**.

فالأُسطورةُ التي استولَتْ عليه، فرضتْ عليه شريعتها وتضحياتها؛ وقد واجهها بلحمه ودمه، ولم يحاول الفرارَ منها، فظلَّ وَفيًّا للصُّورة التي رُسمتْ له، ونَهَض بمسؤُوليّة إيقونة القدّيس التي مُثِّل بها، وكذلك بمسؤوليَّة مُهمَّته الرُّسوليّة. لقد كان بقاؤه مرتبطاً بثلاثة شروطٍ: التغلّب على خَيْبات الأَمل في مجال الإِسكان، وتحقيق الرّسالة النَّبويّة، والحفاظ على مستقبل "عمّاوس".

ولكن، كم قد نغّصت أَعباءُ الشُّهرة وتناقضاتُها حياته! فعندما يرفضُّ الجمهور، وبعد أَن تُوفِّرَ مَحبَّةُ الأَصدقاء ما تستطيعه من عزاءٍ ومُساندَة، يُهيمن الشُّعورُ بالوحدة، وتنقلب الأُسطورة، لصاحبها، مهانةً، **"فإِن لم يكُن المرءُ أَحمقَ، وإِن كان، بالتالي، يُدركُ مكامنَ أَخطائه، وعثراته وعيوبه، فهو يَسْبُرُ جسامةَ البَوْن بينه وبين ما يُثير إِعجاب النَّاس، وإن صرَّحَ بشُعوره هذا، وصاح: "يا للمهانة!" أَجاب الآخرون، بصوتٍ واحدٍ: "ويا له من متواضع!" إِنّها مُشكلةٌ لا مَخْرجَ منها"**.

عندئذٍ كان يتآخى، لديه، الكاهنُ والإِنسان، مشتركَيْن في الأَلَم، وكلاهما أَعزلُ، في مواجهة الرَّبّ، وتتفجَّرُ الصَّلاةُ من قلبٍ ينوءُ بالوهَن، والجُبن، والتَّعاسة، توّاقٍ إلى الغفران، فيهتف:

« يجب أَن أُحبّ مئةَ مرَّةٍ، بل أَلفَ مرّةٍ، أكثر،
"وأَن أَخْدُمَ
"وأَن أكتُمَ دُموعي، ومذلَّةَ نَدَمي،
"ووَقْعَ كلِّ تلك المهانة في أَعماق ذاتي ».

وكان، أَحيانًا، يجد مخرجًا في المرض الَّذي ينتزعه مؤقَّتًا من دَوَّامة الجماهير، وحُمّى المشاريع، كي يَعودَ إلى مُجاوَرة الله، واكتشاف ذاته، من جديد، في العزلة مع الربّ، وفي التَّزوُّد بطاقات جديدة، بنَهْلِه من تلك الينابيع الأَصيلة. فكُلَّما شَعَر بـدُنُوِّه من الموت الَّذي لا يفتأُ يتوقَّعُه وينتظره، استعادَ العزيمةَ على العَيْش؛ وكُلَّما بَهَظَـهُ وقْرُ المُهمَّة، طاب له الصَّمتُ في رحاب الله؛ وكُلّما خارتْ قـواه، واضْـطُرَّ إلـى الاعتكاف في مستشفى، كما حَدَث له في صَيْف عام ١٩٥٤، من جرَّاءِ التهابٍ خطيرٍ في فكِّه، عادَ إلى الينابيع.

ولكن عندما يُخَيَّل إلى الأَطبَّاء أَنْ لا قَوْمةَ له من عِلَّته، سُـرْعان مـا يـنهض مُنْبعثًا، مُفْعَمًا حيويَّةً، وتأَهُّبًا لمُواصلة النِّضال، بعدَ أَن تكون قد اتّضحت رؤيتُه لما كان، ولما يُمكن أَن يكون.

خـــداعٌ وتحـــدٍّ

بعد أَن همدتْ ضجَّةُ نجاح شباط ١٩٥٤، أَزِفتْ ساعة بدءٍ جديد، ساعة مواجهة الحُلْم للواقع، والقائد السَّاحر للجمهور الَّذي لقيَ نفسَه فيه، والإنسان للأُسطورة التـي نُسجتْ حوله. ومن هذه المواجهة ستولد سلسلةٌ من الصِّدامات والآلام الجسيمة.

صِدامهُ الأَوّل كان مع مناورةٍ حكوميّةٍ، أَقلُّ ما يُمكن وصفُها به أَنّها كانت مخادعةً. فعندما أَقرَّت الحكومةُ تخصيصَ عشرةِ مليارات فرنكٍ لبناء اثني عـشَرَ أَلـف مـسكن طوارئ، أَغفلتْ لَحْظَ هذا المبلغ في ميزانيّتها؛ ومن ثمَّ تفتَّقتْ قريحةُ وزير الماليّة عـن حيلةٍ لتوفير نصفِ هذا المبلغ من غير أَن تستخرج من صناديقها فرنكًا واحدًا، فطـرحَ مشروعَ قَرْضٍ وطنيٍّ، بلا فائدة، بمبلغِ خمسة مليارات فرنك، يُسهم فيه الجميع صغارًا وكبارًا؛ وفي سبيل رعايته أُلِّفتْ لجنةُ شرَفٍ ضمَّت رئيس الجمهوريّة، ورؤساء وزارات سابقين، ومُديري مؤَسَّساتٍ كبرى، وشخصيَّاتٍ مرموقة. غير أَنَّه كان واضحًا للجميع أَنّ راعي القرض الأَوّل هو الأب پـيير، فهدف القرض تنفيذُ مشاريعه العمرانيّة لإيواء من لا مسكن لهم. ومن ثمَّ عقدت الحكومةُ أَملَها عليه، فإن جاءَت الـدَّعوةُ إلـى الاكتتـاب بالقرض منه، استجاب له جميعُ الفرنسيّين ذوو النَّوايا الطيّبـة. واشـتدَّت علـى الأب الضغوط كي يتولّى بنفسه الدَّعاوَة لذلك القرض الَّذي بدا وكأَنّه قَرْضُه.

كان مُخَطَّط المسؤولين مُحكمًا بحيثُ لا يأتيهم إلاّ بالمغانم، أَيّة كانت نتائج القرض الَّذي، إن نجحَ، وَفَت الحكومةُ بتعهُّداتها من غير أن تتكلَّف شيئًا، وبذلك تنجو من نقمة جماهير المحرومين، إذ كانت تتوجَّس، في حال تقاعسها عن الوفاء بما وعدت به، أن تنقلب "انتفاضة العطف"، الّتي استفزّها الأب پيير انتفاضةَ تمرُّدٍ على الحكومة، وإن فَشِل القرضُ، عُزِيَ فشله للأَب پيير، فأُفقد بذلك "زعامته" وسُلطته على الشَّارع. وأَلفى الأب نفسَه مُطوَّقًا بشِرْك مُحرِجٍ: فهو كان يوجس أبدًا خشيةً من مُناورات السِّياسيّين؛ وفي تلك الحال بالذَّات كان العقلُ يوصي بالحيطة، والتجربةُ تدعو إلى الرِّيبة؛ ولكن إن هو أَحجم عن تبنّي القَرْض، اتُّهم بالرِّياء، وبعرقلة الجهود الرَّامية إلى تنفيذ المساكن الَّتي كان يدعو لها بحماس، وبالتسبُّب في موت المزيد من المُشرَّدين.

وقد قال ساخرًا، عندما التمستْ منه الحكومة أزْرَه لإنجاح القرْض: "**عجبٌ: أنتم تمتلكون التقنية، ولا تجدون السَّبيلَ إلى المال، وعلينا، نحن، مع افتقارنا إلى التقنية اِسْتِخْرَاج المال من جُيوب النَّاس! ولكن حذارِ، فقُوَّتنا، نحن، هي براءتُنا، وبتعاوننا معكم، لن نُعيدَ لكُم براءَتكم، ولكن يحقُّ لنا أن نخشى فقدان براءتنا**".

ومن المُحقَّق أَنّ البراءةَ كلَّها كانت في جانبٍ واحدٍ، ولا سيَّمَا عندما أَفلح المسؤولون في تزيين تَمَيُّز ذلك القرض بفرادةٍ لا سابقَ لها، في مضمار التمويل العامّ، إذ إنّ عدَم ارتباط القرض بفائدةٍ، دليلٌ على تعبيره عن تضامُنٍ وطنيٍّ حَقٍّ.

من هنا وهنالك تعالت الإنذاراتُ مُحذِّرةً الأَبَ پيير من التورُّط مع الدَّولة؛ فكتب روبير بيرون، وهو من أكثر السِّياسيّين صداقةً صادقةً للأَب پيير: "كيف للأَب أَن يتعاون مع السُّلطات، ولا يُلحق الأَذى بعَمَله؟". كما أَنّ عُمْدَةَ مرسيليا، الَّذي كان يستشفُّ البَوْن الشَّاسِع بين مساكن الإنقاذ الَّتي يضطلعُ ببنائها رفاقُ "عمّاوس"، بحبٍّ، وتلك الَّتي ستُنفّذها الدَّولة تَنفيذَها لسُخرة، أَطلق إنذارًا نبويًّا بقوله: "إنّ هذه القرى سُرعان ما ستنقلب أكواخًا زريَّة، سيضطرُّ أَب پيير آخر إلى التَّنديد بها وفَضْحها".

ولكن، رغم هذه الإنذارات، وذلك التّحذير المُخلص، غلَّب الأَبُ القلبَ على العقل والتجربة، وأَبى أَن ينهضَ عثرةً في طريق أَيّ مجهودٍ يستهدف إنقاذ المتألِّمين، وارتضى خوضَ المغامرة، بعد أن ظفر بوعدٍ رسميٍّ بألاّ يُستخدَم فرنكٌ واحدٌ من حصيلة القرض – الَّذي اعتبره قرض القلب والمحبّة – في غير بناء مساكنِ الإنقاذ.

وهُيِّئَت للقَرْض دَعاوةٌ مُجلْجلةٌ أَسهمت فيها وسائلُ الإِعــلام مجَّانًــا، فقُــدِّمت اللاَّفتات بلا مقابلٍ، وتعهَّدت المطبعة الرَّسميَّة بطبع السَّندات على نفقتهــا، وتنــازَل المصرِف العقاريُّ عن عمولاته المألوفة. وفي الثامن من آذار ١٩٥٤، افتــتح الأب پــيير القرْض، ببراءةٍ مطلقةٍ، ونيّةٍ طيِّبةٍ، عبر هذا النِّداء الَّذي بثَّتْه الإِذاعةُ الرَّسميّة:

« ينبغي ألاّ يُخامر، بعدَ اليوم، من ينعم بسكَنٍ مُريحٍ، ذلك الشُّعورُ المُقْلِقُ بــأَنَّ رفيقَه في العمل، أَوْ صديقه، يفتقر إلى مكانٍ يضع فيه سريرَ وليده.

"ينبغي أن يزدهر، في كُلِّ مكانٍ، على أرض فرنسا، البيوتُ، والأَولادُ والزهور.

"أنت، أَيُّها الفرنسيّ، أَيًّا كنتَ، عندما ستتلقّى ثمرةَ عملك، خاطب نفسك قائلاً إنَّــك، أَنتَ الناعمَ بمسكنٍ جيِّدٍ، لا يمكنك أَن ترقُد مُطمئنَّ الضَّمير، إلــى جانــب صــغارك الناعمين بالدّفْء والسَّعادةِ، ما لم تكُنْ، يومَ قبضتَ راتبك، قد ادّخرت شيئًا لنَجْــدة أَخٍ لك، لا مأوى له.

"فليفعل الجميع ذلك، وحينئذٍ سنكون شعبًا متَّحدًا، في أُمَّة تسودُ فيها الصَّداقةُ، لأَنّه لن يكون هناك، بعدُ، دموعٌ، ولن يُعاني، بعدُ، أَيّ عاملٍ آثار الظُّلم".

كان الأَبُ يحلم بقرانٍ بين المحبَّة والعدْل، بين السَّخاء والتَّضامُن، ولكنَّه ربَّمــا غالى في تفاؤُله حولَ اقتران طيب النَّاس ورغبةِ حكَّامهم في إقرار العدْل، وهذا ما حدا به ليس فقط إلى دَعْم القرْض باسمه وبشعبيّته، بل إلــى أَن يكــون مُحاميَــه وداعيتَه، وأَن يلتزم به التزامًا كلّيًّا، على حدّ ما يفعل حيالَ كُلِّ ما يؤْمن به، غيــرَ طالبٍ من جزاءٍ سوى "رؤية ازدهار القرارات البنّاءة ».

فبعد إطلاق ندائه، راح يجوب أنحاءَ فرنسا الّتي ازدهرت فيها لافتاتٌ تدعو إلى الاكتتاب بالقرْض، وإلى الشُّروع في البناء على أَوسع نطاقٍ. وكان يخاطب الجماهيرَ بعباراته الملتهبة، كتلك التي أَطلقها، وَسْط تصفيق ستَّة آلاف مستمعٍ في مدينة ليــل: "قد تتضاءَلُ قليلاً موجوداتُ صناديقَ حديديَّةٍ، أَو حساباتٌ مصرفيّةٌ، ولكن سيتناقص، في آنٍ واحدٍ، على دروب فرنسا، عدَد نعوش الأطفال. ذلكم هو مغزى قرى الإنقاذ".

وقد استجاب لندائه الفقراءُ بإسهاماتهم المتواضعة، ولم يتردَّد بعضهم، في هــذا السَّبيل، عن التَّضحية بأَغلى ذكرياته وممتلكاتــه؛ بَيْــدَ أَنّ الميــسورين والأَثريــاء،

والمالكين والمؤسَّسات، أَي جميع أُولئك الذين أَلِفوا أَن يُغَطّوا، خلالَ ساعاتٍ معدوداتٍ، قروضَ الدَّوْلة الطَّائلة المبالغ، لم يُفْلِح سِحْرُ الأَب پيير في فتْح خزائنهم، وحملِهم على الاكتتاب في قرضٍ لا يدُرُّ فائدةً، لأَجل بناء مساكن للبائسين. وقد كانت لهم الدَّولة، في ذلك الإحجام، الأُسوةَ السَّيِّئَةَ، إذ أعرضت الوزاراتُ، والدَّوائرُ، والمصارفُ، وحتّى مصرف فرنسا المركزيّ، عن الاكتتاب؛ وقد اتَّضح، في ما بعد، أَنَّ مسؤولي وزارة الماليّة وعدوهم، سرًّا، بإِصدار قرضٍ آخر، بفائدةٍ مُجزيةٍ؛ وربَّما هم توخَّوا تحجيم ذلك الكاهن المُزعج الَّذي أَوقعتْه براءَتُه في شِراكهم، علَّهم يُلَقِّنونه درْسًا في الفصْل بين الإِحسان والأَعمال، فهم، في مجال العطاء، لا يُحسنون سوى تلقين الدُّروس.

وسُرعانَ ما تكشَّفتْ له الخديعةُ والخيانة، إِذ لم تتعدَّ المبالغ الَّتي كان معظمُها يُمثِّل تضحيات الفُقَراء، مليارَين ومئتي مليون فرنك. وفيمَا الأَب وحيدٌ، في اللَّيل، يعملُ واقفًا أَمام مكتبه، وفْقَ عادته، لكيلا يُوقعَ به النّعاسُ، مُحَلِّلاً أَرقامَ القرْضِ ونتائجه، انتابَه الاشمئزازُ؛ وخطرتْ أَمامَ مخيّلته قوافلُ البُؤساء، وكأَنَّهم يقتحمون غرفته بأَنّاتهم، وبُكائهم، وسُعالهم، وبُصاقهم، وانتابه الدُّوار، وهو يتساءَل هل عليه أَن يُخبرهم أَنَّ الأَغنياء والقادرين لا يحفلون بمصيرهم، وأَنّ عليهم أن يكتفوا بالمراحيض فنادقَ يرقدون فيها، ريثمَا تتحرَّك أَحشاءُ من يملكون مُساعَدتَهم.

وأَفرغَ الأَبُ كُلَّ مرارته في مقالٍ عنيفٍ نُشر في صحيفةٍ شيوعيّة جاء فيه:

« **كانوا قد توسَّلوا إِلينا انتشال العَرَبةِ من الوَحْل؛ ورغم توجُّسنا الرِّيَب، ها نحن نَشُدُّ كي نُخْرِجها من ورْطتها؛ ولكنّنا عندما نلتفت الى الوراء، نتساءَل أَينَ الآخرون؟ إِنّهم نائمون فوق العَربة، أَو إِنَّهم يعبثون في مكانٍ آخرَ** ».

وخاطب المساكين الرَّاغبين في مدِّ يد العَوْن قائلاً:

« **كُفّوا عن مُضاعفة تضحياتكم، من أجل هذا القرض الَّذي خَدَعونا به. أَمّا هِباتُكم وقروضكم فقدِّموها، مباشرةً، للمُنظمات الخاصّة التي تبني، حقًّا، مساكنَ للمُشرَّدين، أَيَّةً كانت تلك المُنظمات. وأَحيوا، من جديدٍ، حملة أَوراق المئة فرنك.**

"**أمّا الدَّولةُ فعليها البحثُ، لدى آخرين، عمّا لا يزال ينقصها؛ وهي، إِن شاءَت، استيقظت وأَيقظَتْهم. الأمرُ بيدكم، أَيُّها السَّادة. أَدُّوا واجبكم، ننهضْ نحن بواجبنا** ».

ذلك المقالُ كان إعلانًا بإيقاف القرْض، وبات على الحكومة أن تتدبَّر أمرها.

وفي ما بعد، علّق على ذلك القرْض بقوله: "**وجدنا أنفسَنا حيالَ مُناورةٍ دنيئةٍ قامت بها حكومةٌ تتألّفُ من رجال أعمالٍ، وتُمثِّل رجالَ أعمالٍ، حكومةٌ وعدت بجُهد، وحاولتْ، وفْقَ عادتها، أن تُحَمِّلَ هذا الجُهد أُناسًا متواضعين... إنّها لحيلةٌ حقيرةٌ**" وأَضاف: "**نحن لا نأبى التعاوُنَ مع أيّ نوعٍ من السُّلطات، ولكن، فقط، في سبيل عملٍ شريفٍ يستهدف، حقًّا، صالح ضحايا السِّياسة**".

تلك الغيومُ الدَّاكنةُ، في حياة الأب پيير، كانت تخترقها دائمًا أَشعَّةٌ وَضّاءَةٌ دافئة. ففي غَمْرة مرارته حيالَ الخديعة والخيانة، وافتْه رسالةٌ من أُولى نزيلات مساكن "پليسّي تريـڤيز"، التي أَشادها رفاقُ "عمّاوس" بأموال تبرّعات "انتفاضة العطف"، جاء فيها:

« أبت،

"بعد ظُهر هذا اليوم ذهبتُ الى "پليسّي" لأَرى ما تمَّ هناك، فأكَّدتْ لي المسؤولة، السيّدة رينار، أنّ باستطاعتي الانتقال، في الحال، الى منزلي. لم أُصدِّقْ، أوّلَ الأمر، ثمَّ تولّتني حُمَّى الاندفاع، فجئتُ بالأَوْلاد، واستقررنا كيفما اتّفقَ لنا. إنّه ليصعُب تخيُّلُ أنّ ذلك حقيقيٌّ فعلاً، مع أنَّ الأَولاد يرقُدون هناك، في هذه الليلة، ومفاتيح المنزل بمُتناوَلِ يدي. إنَّه لأَمرٌ رائعٌ، يُحاكي قِصَّةَ جِنٍّ، عِقْب كابوسٍ لامُتَناه، قصّةً بكلِّ حَسَناتها وسيِّئاتها ومُعجزاتها. غدًا سأُرسل زهورًا لمُصلَّى "عمّاوس"، حيثُ أُحبُّ أَن أُصلّي، وحيثُ صلَّيتُ كثيرًا، معَ إِلحادي.

"أَبتِ، إنَّك صانعُ عجائب، وإنّني لأشكرك! والأولاد في غاية السُّرور، لأَنَّهم يُقدّرون الأَمرَ حقّ قدره. إنّهم يُشاركونني امتناني لك، ويأملون أَن يروك، يومًا، في بيتنا، بعدَ أَن نجْعله جميلاً ».

في ٣٠ نيسان ١٩٥٤ دشّن وزير الإسكان والأب پيير الدّفعةَ الأُولى المؤلَّفة من ثمانيةٍ وأربعين منزلاً جديدًا صغيرًا، كانت تتألّق تحت أشعَّة شمس الرَّبيع، في موقع "پليسّي تريـڤيز"، الّذي دُعيَ "قرية الفَرَح". غيرَ أَنَّ الأَب، مع فَرَحه بهذا الإنجاز، ما انفكَّ تحت وطأةِ الشُّعور بأَنَّ المُهمَّة ما زالت في مُستَهلِّها، وأَنَّه، بعد هُمود الانتفاضة، لا بُدَّ من العودة الى العمل الدَّائب البطيء، وفقًا لأُسلوب "عمّاوس".

وكان عليه، هو، أن يُواصل النُهوضَ، حتّى آخر أَيّامه، بدور النَّبيِّ الَّذي يَفضح الضَّلالَ والاعوجاج، ويدعو الى المحبَّة والعدْل، ويهُزُّ القلوبَ والضَّمائرَ، ليس في فرنسا وحَسْب، بل في كلِّ أَرجاء المسكونة، وليسَ في صراعه مع أَزَمة السَّكن فقط، بل مع "جميع الآلام النَّافلة الظَّالمة"؛ وهذا ما عبّر عنه، في محاضرةٍ بمدينة "جنيف"، الَّتي لم تشهدْ قَطُّ جمهورًا في مثل كثافة الجمهور الَّذي جاءَ ليستمع إِليه متكلِّمًا عن الأَلَم. وكانتْ فحوى حديثه أَنَّ السُّلطة عمياء، والبُؤس أَخرس، وبينهما يقوم الصَّمْتُ والجَهْل، اللَّذان لا بدَّ أَن يُزيلهما "صوت من لا صوت لهم". تلك هي مُهمَّة النَّبيّ التي سيقف، على تحقيقها، أَيّامَه وجهودَه.

وفي معركته هذه، كان يحلمُ بافتتاح باب التَّطَوُّع، على مستوى البسيطة كلِّها، وبتأسيس جمعيّةٍ لكلّ مُنتسِبٍ، أَيًّا كان مذهبُه وعقيدتُه، راغبٍ في أَن يغدو "راهب البُؤْس المؤمن بأَولويّة الحبّ".

خُيِّل الى البعض أَنّ تعاونَ الأَب مع السُّلطة، ووقوعَه ضحيَّة خِداعهم، كفيلان بتحطيمه، غير أَنَّه، نظيرَ كُرَةٍ ارتطمت بالأَرض بعُنْفٍ، عاد فانطلق عاليًا، نحو آفاقٍ أَرحبَ وأَبعد. ولقد استطاع ذلك، بفضل وفائه الصَّامد لمبادئه ومُثُله، وبقدرته على إِبراز سُموِّها، وصدْقها، وجدواها، وبجرأَته على الجَهْر أَبدًا في وجه ذوي السُّلطان: **"لم تُعطَوا السُّلطةَ لأَجل خِدمة مُتْعة السُّعَداء، بل من أَجل إِنقاذِ من يتأَلَّمون ظُلْمًا"**.

استمرار التحدّي

مع انحسار موجة الصَّقيع، كان لا مَفَرَّ من إِخلاء العديد من الأَماكن الَّتي كانت قد أُعيرت مُؤَقَّتًا لإيواء من لا مأوى لهم، كي تُستخدَم، من جديدٍ، في ما وُجِدَت من أَجله أَصلاً. إِذْ كان لا يزال، ثمَّةَ، زُهاءُ أَلفين وخمس مئة شخصٍ بلا مأوى، تعهَّدت الدَّوائر الرَّسميّةُ بتوفير أَماكن سكَنٍ لهم، غير أَنّ كُلَّ دائرةٍ كانتْ، في الواقع، تُحيلُهم الى دائرة أُخرى؛ وحتّى مؤسَّسة الإِسعاف العامّ رفضتْ إِعارةَ واحدةٍ من الأَراضي الكثيرة الَّتي كانت تمتلكها كي يُقامَ لهم عليها مأوى مُؤَقَّت.

ولكيلا يُدفعَ هؤُلاء، من جديدٍ، الى التَّشرُّد، ولأَنَّ "رخصة العيش" كان لها الأَولويَّةُ على القانون، قرَّرتْ "عمّاوس" تحدّي الإدارة. ووفقًا لمُخطَّطٍ مُحكَمٍ، وَصَلَ،

في السَّاعة الثامنة مساءً، فريقٌ من الرّفاق الأَشدّاء إِلى منطقة "باب فانف"، عند أَحد مداخل باريس، وهناك، فوقَ أَرضٍ مهجورةٍ، على ضَوء مُولِّداتٍ كهربائيّةٍ، وتحت وابلٍ من المطر الصَّقيعيّ، دأبوا جاهدين على غرس أوتادٍ، نصبوا عليها، في نحو السَّاعة الواحدة صباحًا، عشرَ خيامٍ كبيرةً كانت مُعدَّةً لاستيعاب ٤٥٠ شخصاً، غير أَنَّها ظلّلتْ، في الواقع، ستّ مئة شخصٍ، أقاموا فيها حتّى حلول الصَّيف، عندما اضطرَّت شركةُ الكهرباء الى استعادة الخيام وتجهيزاتها الَّتي كان عليها استخدامها في مخيّمات الأحداث الصيفيّة.

وفي تلك الأَثناء، كان الأَب يُحاضِرُ في مكانٍ بشماليّ فرنسا، فرأى في باحة أَحد المصانع عَنْبَرًا من الإسمنت المُسبق الصُّنع، وخطر له أَنّ بناءً كهذا، إِذا ما أُضيفَتْ إِليه حدائقُ صغيرةُ يعبث فيها الأَطفال، سيكون حلاًّ مؤَقَّتًا مقبولاً. ثمّ عَثَرَ على أَرضٍ في منطقة "نوازي ليغران"، اشترتها "عمّاوس"، وحرَّرتْها من الأَقذار الَّتي كانت تتراكم فوقَ أَديمها، ومهَّدتْ تُربتها، وحفرتْ فيها مرافق صِحِّيَّةً، وشقّت فيها طُرُقًا، ممّا اقتضى من الرِّفاق جُهْدًا بُطوليًّا، وسخاءً لا قرارَ لفَيْضه، فهم كانوا يضطلعون، في آنٍ واحدٍ، بأَعمال البناء، وبتوفير الأَثاث، وبالطَّهْو، ورعاية الأَطفال في غياب الوالدَيْن؛ وقد انضمّ إِليهم مُتطَوِّعون قادمون من مُختلف الآفاق، فثمَّةَ طبيبٌ مُنِعَ من ممارسة مِهْنته، وهجرتْه زوجتُه فأَوْشَكَ على الانتحار، إِلاّ أَنّ "پول" أَقنعه بإِفادة الآخرين من علْمه في مُجمَّع البُؤْس ذاك، وآزرَه عُمَّالٌ ومِهنيُّون عاطلون عن العَمَل، وشُبَّانٌ، وكشَّافٌ جاؤوا لقضاء فترة اختبارٍ، من جميع أَرجاء فرنسا والعالم.

كانوا يستنيرون ليلاً بمصابيح الغاز أو بالشموع، ويمتاحون الماء بالصَّهاريج من ينابيع تبعُد مئات الأمتار، ويجهدون في إِنهاء مُهمَّاتهم، تحت وابل أَمطار الخريف الكثيفة، بحيث استقبلوا، قُبَيْل عيد الميلاد، في تلك المساكن المؤَقَّتة نحوَ مئتين وخمسين أُسْرةً تضمُّ نحوَ أَلف شخصٍ، ممّن كانوا، حتّئذٍ، يرقُدون تحت الخيام، ولا سيَّمَا في غابة "پومپون"، أو من العاطلين عن العمل العاجزين عن دفع أُجرةٍ زهيدةٍ لبيوتٍ شعبيّةٍ، ومن مختلف الذين كانت تُكتَشف مآسيهم، ولا يمكن حلُّها في الحال.

وقد أثبت الأبُ، في مدخل القرية، لافتةً كُتب عليها: "قريةُ الطَّوارئ هذه تُشرِّفُ من

أسهموا بعَمَلهم وتبرُّعاتهم، في إشادتها، وتُلحق الخِزْيَ بمُجتمعٍ عاجزٍ عن توفير سَكنٍ لعمّاله". تلك اللاّفتةُ كانت تحمل عنوان "عمّاوس" وتوقيع "الأب پيير"، وقد عمدت أيدٍ مجهولةٌ إلى انتزاعها، الكرّة تلوَ الكرّة، غير أنَّها، أبدًا، كانت تُعاد الى مكانها.

من المُحقّق أَنَّ تلك المساكن لم تكن مساكنَ مُثْلى، إلاَّ أَنَّها، لمعظم ساكنيها، كانت أوّل سَكنٍ حلُّوا فيه، وأكثرها مُحاكاةً لبيتٍ حقيقيٍّ، فقد كانت تحتوي على الأثاث الضَّروريّ، وتنسدلُ على نوافذها ستائرُ جميلة.

ومع ذلك تناول الذين لا يُجيدون سوى النَّقد ذلك الإنجاز بالتَّجريح، فبعضُهم استنكروا تجمُّع السّكارى والكسالى في ذلك المستنقَع، وآخرون ادَّعوا أَنَّ البؤَساء يستأهلون أَفضل من تلك المساكن الزريَّة. ولكن لم يُحرِّك أحدٌ من أولئك النّاقدين إِصبعًا للمساعدة، فيمَا رفاق "عمّاوس" وحدهم، أكَبُّوا على نَجْدة إخوةٍ لهم منكوبين، وبالموادِّ الزهيدةِ المُتاحة لهم، أَنجزوا خيرَ ما استطاعوا وهم موقنون أَنّ ذلك الإنجازَ، إِنْ هو إلاّ مرحلةٌ تستصرخ التحدّي الدَّائم، والتطلّع الى إنجازٍ أَفضل، بحيثُ يظلّ يومض في نفوس ساكني تلك القرية الرجاءُ في حياةٍ أوفر كرامةً، بفضل جهود الأَب پيير ورفاقه، الذين عقدوا عليهم آمالَ مستقبلهم.

غير أَنّ تلك المساكن المؤَقَّتة، خِلافًا لما خُطّط لها، انقلبتْ، شيئًا فشيئًا، مقامًا ثابتًا دامَ نحوَ عشر سنواتٍ، وتضخَّمت بتدفّق قوافل المشرّدين، وصبيان الشَّوارع إليها، بحيثُ سُرعان ما غدتْ بُؤْرةً وبيلةً، ودمَّلةً تعجّ بالقَيْح، أَغفلتْها إِغفالاً تامًّا السُّلطات التي انصرفت الى مظاهر جوْفاءَ لا تستهدف سوى الدَّعاوة، مثل تدفئة شوارع كاملةٍ، في العاصمة، شتاءً، في حين هي لم توفّر أَيّة تدفئةٍ لتلك الحفْنة من بيوت الفقراء.

أَبرزَت الإِحصاءاتُ آنذاك أَنّ ٢٨% من الفرنسيّين يعانون أَزمة سكَنٍ؛ وقد دفعت جسامةُ تلك المأساة وحِدَّتها الأَبَ پيير الى جعل المطالبة بمنزلٍ لائقٍ للجميع قضيَّتَه الأَكثرَ إِلحاحًا، والكفيلة بتبرير جميع الجهُود: فَضْح الأَزَمة، والإِكباب على البناء، المعارضة والتَّعاوُن، استنهاض همَم القادرين، والمطالبة بإنصاف المظلومين، وبالإيجاز "**إعلان الحبّ، وإعمال السَّوْط**".

وازداد الأَبُ پيير ورفاقُه في "عمّاوس" رسوخًا في قناعتهم بأَنَّ للعطف

والتطوّع الفرديَّين حدودًا، وأَنّ ما نادوا به من حقِّ كُلِّ مواطنٍ بمنزلٍ، إنّما تحقيقه مرتبطٌ بمخطَّطٍ شاملٍ مُتكاملٍ تنهض به الدَّولة بما لديها من موارد وخبراء.

غير أَنَّ الَّذين غابَ عن ذِهنهم ذلك الواقع، برّأوا الحكومةَ وأَنحُوا باللاَّئمةِ على الأَب پيير لفَشَله في تنفيذ مشاريع إِنقاذٍ نموذجيّةٍ، في كُلِّ مكانٍ. أَمّا الأَبُ فلم يكن يتوانى عن النُّهوض بدَوْر المُحرِّض، موقظِ الضَّمائر، الدَّاعي لتضافر كُلِّ الجهُود، فضلاً عن اضطلاعه بدَوْر الباني، والسَّاعي إلى حلّ ما استطاع من أَزمات المُتأَلِّمين؛ وقد كتب، في هذا السِّياق، إلى رئيس الجمهوريّة، مُنْذِرًا: "لقد ضِقْنا ذرْعًا، وضاقت الأسَر الفقيرة ذرْعًا... إِن لم يتحقَّق العَدْل، فسينفجر الغضب". وقد أَكَّدَ في مقالٍ له، آنذاك: "لا بُدَّ من تضافر المبادرةِ الفرديَّةِ والعمل الحكوميّ... نحن قُوَّةُ تخمير الوجدان الوطنيّ... علينا أَن نُثقِّف حكّامَنا بواسطة الرَّأْي العامّ".

كان موقنًا أَنَّ مُهمَّته لا تكمنُ في أَن يكون قدّيسًا بين البائسين، ولا أَن يُبرِّر عَملَه بشقائهم، بل يبتغي أَن يُقيم بين ظهرانيهم لكي يُزيلَ شقاءَهم، وأَن يُعالجَه، في الحال، بمكافحة أسبابه. كان يُحبّ الفقراء، ولكنّ وجودهم كان يُسبّب له الضِّيق والخزْي، ويرى فيه خِزْيًا للجنس البشريّ بأجمعه. حبُّه لهم كان غَضَبًا، وتضحيةً، وصيحةَ تمرُّدٍ، ومزيجًا من غوْث الأَكثر تأَلُّمًا، ودعوةً إلى استئصال أَلَمه؛ وخطابُه كان خطابَ الحُبّ والاثّئار "الاثّئار للإنسان، والاثّئار لله، بالحبّ".

كان يودُّ الاثّئار لأُولئك الأَحداث المستسلمين لشريعة الشَّارع، والعصابات، ومُستَقْبل الجُنوح، ويرغَب في انتزاع الحَجَر القاسي الذي يَرينُ على صُدورهم، ويقتُلُ فيهم الحنان، لأَنَّ الأمّ، فوق، في الغرفة الوحيدة التي يتأَلّف منها البيت تبيع جسدها... ويودُّ الاثّئار لأولئك الشبّان المُرهَقين من العودة، كُلَّ مساءٍ، إلى غرفةٍ ضَنْكةٍ حيثُ يتوجَّب تناولُ الطَّعام، والاعتناءُ بالأَطفال، والرُّقاد، كلُّ ذلك على مساحةٍ لا تتعدّى ثلاثة أَمتارٍ بمترَيْن؛ ويودُّ الاثّئار للأُمَّهات المُرْهَقات بالاختلاط الوبيل، والخلْوة المُستحيلة، والممارسات الصحِّيَّة الأَساسيّة غير المتاحة، والأَمراض المُتَجَدِّدة باستمرار...

كان يشعر، في جَسَده، الهَدْر المُريع النَّاشبَ بالإنسان المتأَلِّم، ووِقْرَ هذه الإهانة، والرَّجاءَ المحظور؛ يشعُر بكُلِّ ذلك حتّى الجنون.

لا جَرَم أَنّ موقع "نوازي ليغران" كان تحدّيًا مُجَلْجلاً، غير أَنَّ تحدّيًا آخرَ تمثَّل في الأَبنية المتقنة التي أنجزها رفاق "عمّاوس"، بعد أن أوْكلت إليهم البلديّاتُ خمسَ وَرْشاتٍ من أَصل ستَّة آلاف مسكنٍ، تُمثِّل الجزء الأَوّل من مساكن الطوارئ؛ وقد عكف "جان إيف" وبنّاؤوه المئتان على إنجازها بحبٍّ ودقّةٍ، كي يكون لهم، على حدّ تعبير الأَب پيير "سلطةُ الكلام"، ممَّا يُتيح لهم أَن يقولوا: "هذا ما فعلْنا. دورُنا هو التَّحريض على البناء، والإِسهامُ فيه".

غير أَنَّ مهندسي وزارة الإِسكان كانوا هم الَّذين يُحَدّدون مُواصفات البناء؛ ولكي يتقيَّدوا بمستوى الأسعار الَّذي تمنّاه الأَب پيير، أَي نحو ٦٥٠ أَلف فرنك ثمنًا لمسكنٍ مساحته ٣٨ مترًا مربّعًا، قتَّروا، إلى أقصى حدٍّ، في موادّ البناء المُستخدمة، وفرضوا أَقلّها كلفةً، فإِذا ما تبيّن، في ما بعد، عدم ملاءمتها، وبرزتْ عُيوبها عزوا كُلَّ خَلَلٍ فيها إلى الأَب پيير ورفاقه؛ وسُرعانَ ما اتَّضح أَنَّ تلك المساكن، في مُعْظمها، قد جاءَت على نقيض ما أَراده لها الأب، فزادت أَزمةَ سكن أَصحابها حِدَّةً، عوضاً عن حلِّها.

كان واضحًا أَنّ حكومةً تفتقر إلى سياسة إِسكانٍ واضحةٍ، لا يُمكن أَن تُنْتِج، في الاستعجال والارتجال، سوى سَقَط المتاع. ولكن ما كان أَسهلَ عليها إِلصاق المسؤوليّة بالمُحرِّض السَّاذج، الَّذي، في اندفاعه وطيب نواياه، ارتضى تحمُّل المسؤوليّة القانونيّة عن كلّ ما كان يتمُّ إِنجازه.

وكان بوسع كُلّ مراقبٍ مُنْصِفٍ أَن يشهد الفرْق جليًّا بين الأَبنية الَّتي قامتْ بمبادَرة "عمّاوس"، وتلك الَّتي أُنشئت وفْقًا لتعليمات الوزارة، فالأولى قد صَمَدَتْ في وجه كُلِّ العوامل، ووفَّرت لقاطنيها الطمأنينة والأَمان، في حين أَثبتت الأُخرى فشلَها في ما أُوجدت من أجله. ومع أَنَّ المساكن الجيِّدة التي أَنجزتها "عمّاوس" ناهزت الأَلفين، غير أَنَّ مناوئي الأَب پيير كان يطيب لهم إبرازُ فَشَله، في مضماره الأثير، مضمار البناء، مُتذَرِّعين بتلك الأبنية التي أُنشئت وفْقًا لمُواصفات الوزارة.

وجهٌ آخر من وُجوه التَّحدّي تَمثَّلَ في احتلال المساكن الشاغرة وإحلال من لا مأوى لهم فيها. وكان قانونٌ صادرٌ عام ١٩٤٥ أَتاح مُصادرة مساكنَ شاغرةٍ لصالح من لا مَسْكن لهم، إِلاَّ أَنَّ الإدارة الحكوميّة كانت تتجاهله، فيما استخدمه، طوال عام

١٩٥٤، فريقٌ يضمُّ عشرين من رفاق "عمّاوس"، بقيادة "پـول"، ومباركة الأَب، تُرافقهم "ليليان دي بروي"، النَّبيلَةُ المَحْتِد، الَّتي استَمَعتْ إلى نداءِ الأَوّل من شباط، فيما كانت في صالون حلاَّقٍ، تُصَفِّفُ شعرَها، فهرعت إلى فندق "روشستر"، وإِذ لم تكنْ تُجيد سوى قيادة السَّيَّارات، استُخدمتْ، في الحال، سائقةً.

ذلك الفريقُ كان متمرّسًا في ذلك المضمار، ويتمتّع بشَيءٍ من المناعة القانونيّة، مُستمدَّةٍ من صَلابة مركز الأب پيير، وتواطؤ رجال الأمن، في مُعظم الأَحيان، وكان يستهدف غايةً مزدوجةً: تأمين مأوى لمن لا مأوى لهم، وإِزعاج السُّلطات بتذكيرها بأَزمة السَّكن.

وفقًا للقانون، لم يكن مسموحًا التعرُّض لمُحتلّي البيوتِ الشَّاغرة إِذا ما تجاوز عددُهم الثَّلاثين. وكانت العمليَّات تُعَدُّ بدِقَّةٍ وإِحكامٍ، فيتمّ تجميع ما لا يقلّ عن ثلاثين شخصًا في أَحد مراكز "عمّاوس"، وتُحمَّل شاحناتٌ أَثاثًا وأَجهزةَ مطبخٍ، وتودَع ليلةَ عمليّة الاحتلال في أماكن أمينةٍ، وعلى الأَغلب قريبًا من مخافر الشُّرطة. وفي معظم الأحيان، كان الَّذين يتمُّ إِيواؤُهم يجهلون عنوان مَقْصدهم، ولكنَّهم عندما يستقلّون السَّيَّارات، في الصَّباح الباكر، يوعَز إِليهم أَن يُراعوا قواعد النَّظافة والكياسة، وأَلاَّ يَضطربُوا مهما حدث. وفي المنازل المُحتَلَّة كان الأطفالُ، بأسرَّتهم ورِضَّاعاتهم وأمتعتهم، يتبوَّؤون الغُرَفَ الأولى، بحيثُ يكونون أَوَّلَ ما يقع عليه رجال الأمن، إِذا ما استُدعوا وداهَموا تلك المساكن.

ولم تكنِ الأَماكنُ المُحتلَّةُ، جميعُها، على أَحسن حال، بل غالبًا ما كانت مهجورةً، مُهْمَلةً، عَبثتْ بها أَيادي الدَّمار، فيُصلِحُها الرِّفاق ويُرمِّمونها ويُنظِّفونها بمساعدة الأُسَر التي ستحتلّها.

وعند ساعة الصِّفْر والشُّروع بالاحتلال، كان يتمُّ إِعلام بعض الصُّحف، فيهرع مراسلوها ومصوِّروها، ويُمثّلون تغطيةً إعلاميّةً يرهبها رجال الشّرطة رهبَتَهم للأَب پيير، وإِذا ما تمّ أَيُّ استجوابٍ، يتولّى "پـول" الردَّ بقوله:

« إِنّني من جامعي نفايات "عمّاوس"، والتَمَسَ هؤلاء القَوْم استخدامَ شاحنتي، فهل يَسَعُني رفض مساعدتهم؟ أُنظروا إلى هؤلاء النَّاس الطيِّبين، الّذين لا عيبَ فيهم سوى افتقارهم إلى السَّكَن! »

ومن كان يجرؤُ على استخدام العُنْف ضدَّ رجال الأَب پـيير، ومَحْمِيِّيه المُـشَرَّدين، في أَعقاب انتفاضة العطف؟

تحسُّبًا لكلّ طارئٍ، كان "پـول" يعرف أَين يستطيع العُثور على الأَب پـيير إِذا ما احْتَدَمت الأمور، على حدِّ ما حدَثَ، فعلاً، ذاتَ صباحٍ، عندما استيقظَ سُكَّان حيٍّ، في الدَّائرة الثَّامنةَ عَشْرة، على جَلَبة الشَّاحنات اَلَّتي جاءت بأَثْـاثٍ لاحـتلال بنـاءٍ، فاستُدعي رجال الأَمن الَّذين وصلوا برتْلٍ من السَّيَّارات، في اللَّحظَة الَّتي كان فيهـا المُحْتلُّون يقتحمون البناءَ الخالي من نوافذه. واقتيد الجميعُ فـي سـيَّارات الـشُّرطة: الأَهلُ المُرْتعدون، والأَطفالُ المُنْتَحبون، ورفاقُ "عمّاوس" غيرُ المبالين، وسُرعانَ ما غصّ بهم المخفر، وضجَّ بصَيْحاتهم؛ واستفسر قائدُ المخفر عـن المـسؤول، فتقـدَّم "پـول" وأَجاب:

– "ليس من مسؤولٍ، ولكنَّني أَرتضي تحمُّلَ المسؤوليّة".

وأَجال قائدُ المخفر نظرَه على مزيج الأسَر تلك مُستغربًا، وسأَل:

– « من أين جاءَ كُلُّ هؤلاء؟

– من عمّاوس! »

وأُسقط في يد رئيس المخفر الَّذي، بعد إِجراء بضع اتِّصالاتٍ هاتفيَّـةٍ، غـادرَ المكانَ تاركاً رجالَه يتخبَّطون في مُواجهة فوضىً مُنْكرةٍ. وعندما عاد، كانت البَسمَةُ تعلو ثغرَه، وأَعلن:

– "حسنٌ، يُمكنكم الآن أن تمضوا في سبيلكم، ولن تعاقبوا لأَنَّكم أَنتم من أَنتم!"

واعترض "پـول" قائلاً:

– « إِلى أَين يمضون؟ فما جيءَ بهم إِلى هنا إِلاَّ لأَنَّهم يفتقـرون إِلـى مكـانٍ يمضونَ إِليه. فهل لديكم حلّ!

– ليس لديَّ حلٌّ، ولكن لستُ أَظُنُّ أَنَّكم ستَحْتَلّون المَخْفر!

– من المُؤَكَّد أَنَّنا لن نفعل ذلك، أَنا ورجالي، ولكن أَينَ تُريدون أَن تمضيَ هـذه الأُسَر؟ »

وفَقَدَ رئيسُ المخفر صوابَه، وبدا كمن علِقَ في شرِك نصبه لسواه، وراح يتَّصل بجميع الجهات، إِلى أَن توفَّر له حلٌّ، فخاطب "پـول" قائلاً:

– « المكان الَّذي كنتم تُزمعون إِحلال هؤلاء القَوْم فيه لا يصلحُ لهذه الغاية، ولكنَّنا سنَضعُ بتصرُّفهم بناءً آخر شاغرًا... على أَلاَّ يتعدَّى مكوثهم فيه بضعةَ أيَّامٍ ».

وقد مكثوا، ثمَّة، نحو عشرين سنةً!

وفي حين كان رفاق الأَب پيير ينعمون بنوعٍ من الحصانة، كان آخَرون ممّن ينهجون نهْجَهم، ويحتلُّون منازلَ شاغرةً لإِيواءِ من لا مأوى لهم يتعرَّضون لمُلاحقاتٍ قضائيّةٍ شديدةٍ، وكانت جماعاتُ "عمّاوس" تهرع لمؤازرتهم والدِّفاع عنهم.

مع حلول صَيْف ١٩٥٤ أُغلِق عددٌ من ملاجئ الطوارئ التي افتُتِحتْ في ليالي شباط الصَّقيعيّة، واضطُرَّ عددٌ من المُشرَّدين إلى النَّوْم تحتَ قُبَّة السَّماء؛ وذاتَ ليلةٍ اقتَحَم عددٌ منهم مركز "عمّاوس"، وهم يجأَرون بحَنقهم، لأَنَّ العطف قد أَغفلهم. وكان السُّكْرُ قد أَفقدَ بعضاً منهم صوابَهم، فحطَّموا نوافذ، وكادوا يقتلعون الأَسْيجة. وهرع الأَب پيير، فهدَّأ سَوْرَةَ غَضبهم، قائلاً:

– « إِنَّكم مُحِقّون، فأَنتم تعملون، ومن حَقّكم أَن تنعموا بسَقْفٍ تأْوونَ تحتَه. ويبدو أَنَّ العطف الآن في إِجازة الصَّيْف. ولكنّني أَعِدُكم بتوفير مأْوًى لكم غدًا ».

والتفَتَ إِلى "پول" طالبًا منه تأْمين مرقدٍ لهم، مُنذُ الغد.

ووقع خيار "پول" ورفاقه على جسر "سولّي"، الواقع على مقرُبَةٍ من ساحةٍ دائمة الازدحام، والَّذي يُغطّي فُسْحةً رحْبَةً يتدفَّقُ عند ضفافها نهرُ "السِّين". وبالتَّواطؤ مع قائد شرطة تلك المنطقة، الَّذي تغيّب، في ذلك النَّهار، دأَب نحو خمسين فردًا من رفاق "عمّاوس" على نَصْب ثلاث خيامٍ كبيرةٍ، انتشرت عليها شعارات "عمّاوس": "أحرارٌ وعادلون"، مجاورةً لافتةً تعلن: "نزل عمّاوس العمّالي".

وكان الأَب پيير قد أَحاط المطران رودان، المسؤول عن الإِغاثة الكاثوليكيّة، علمًا بمَا كانَ رجالُه يُنفِّذون، فجاءَ عارضاً تقديم أَغطيةٍ صوفيّةٍ؛ فقال له "پول"، بكلّ بساطةٍ:

– "يلزمنا منها أَلفان!"

وفي ذلك المساء عَيْنِه، كان الأَلفا غطاءً في الموقع.

وقدَّم بائعو زُهورٍ أَحواضاً أُنْبِتَتْ فيها ورودٌ وأَشجارٌ صغيرةٌ لتزيين المكان. ولمّا

وافى قائدُ شرطة باريس، وهو يتميَّزُ غضَباً، قابله عَشَرات المُشرَّدين بالشَّتيمة؛ وقد منعه من اتّخاذ أيّ إجراءٍ زجريٍّ وجودُ عَشَرات الصّحافيّين الذين كانوا يجهرون بإعجـابهم، إذ إنَّ كلّ شيءٍ كان قد أُعدّ إعدادًا مُحكمًا: فثَمَّةَ جهازُ هاتف، ومركزُ عنايـةٍ صِـحيَّةٍ، وبياناتٌ مطبوعة؛ وكان الحِساءُ يُقدَّم لثمانين أُسرةً تتألَّفُ من أَربع مئة شخصٍ.

مرَّةً أُخرى، انتزع رفاقُ "عمّاوس" البُؤْسَ من الظلّ، كي يقذفوا به فـي وَجْـه السُّلْطة، وتلقّفت الصحافةُ الحدَث، ونَشِبَ الخلاف بين مختلف فئات الحاكمين، فمنها المُتعاطِف مع تحدّي "عمّاوس"، ومنها المدافع بحرصٍ، عن هَيْبة الحُكم.

وقد صمَد ذلك المُخَيَّمُ في مكانه شهرًا كاملاً، مُتحدِّيًا هَيْبـة الـسُّلطة، وغَـيْظ الوُجهاء والمُتنفِّذين، ولم تُمكِنْ إزالتُه إلاَّ بعدَ أَن أَسكنت السُّلطاتُ الأُسَر الَّتي كانـت تقيم فيه، في منازلَ شاغرةٍ اضطُرَّت إلى مُصادرتها.

وكان الأَبُ قد شَهِدَ افتتاح متاجرَ تحت قناطر جسر "الباستيل"، فتساءَل لمَ لا تُقـام منازلُ تحت قناطر جُسورٍ أُخرى. ووقع خيارُه على جسر "أُويتي"، الواقعِ فـي منطقـةٍ راقيةٍ من باريس كي يكونَ لردّ الفِعْل دويٌّ أَبعدُ مدًى.

وكلَّف مُهندسًا من أَصدقائه بتحديد القياسات بدقّةٍ وكتْمَان، ووفْقًا لها أُعِدَّتْ أسقفٌ وجُدْرانٌ بنوافذها وأَبوابها وجميع تمديداتها، كما أُعدّت شتّى أَجزاء المنزل، وعنـدما بات كلُّ شيءٍ جاهزًا، شَرَعَتْ سيَّاراتٌ تتّخذ مكانها في المواقف المُحاذيـة لِلجِـسْر؛ ولمّا أَرخى الليلُ سُدولَه، راحت تلك السَّيَّاراتُ تُغادر، الواحدة تلوَ الأُخـرى، فتحـلّ مكانَها شاحناتٌ يهرع عمّالٌ إلى إفراغها من محتوياتها التي يُكِـبُّ آخَـرون علـى جمعها وتثبيتها، مُنشِئين منها مَسْكنًا مُكْتَملاً؛ ومن السيَّارة الأَخيـرة انحـدَرَ رجُـلٌ وامرأةٌ وأَطفالهما، فَدخلوا ولم يخرُجوا. وكان قد خُيِّل للـشُّرطيّ المُكلَّـف بمراقبـة المنطقة أَنَّ ما يجري أَمام عينَيْه إنْ هو إلا إعدادٌ لفيلمٍ سينمائيٍّ. وكم كانت دهـشته بالغةً عندما تبيَّن أَنّ الأُسرة وحدَها قد لبثَتْ هناك، ثمَّ عندما شاهد سُـحُب الـدُّخان تتصاعد من مدخنة المنزل الَّذي أُحدِثَ، مُشبَعةً بقتَار الطَّعام. فـسارَع إلـى إبـلاغ رُؤَسائه، ولكن ما حدَث كان قد حدَث.

وهكذا أَفلح الأَبُ پـيير في إقامة الدّليل على أَنَّه إذا ما توفّرت النِّيَّـةُ الـصَّادقةُ

والإدارةُ العازمة، فلن تفتقرا إلى حيلة، وأَنَّ قناطر الجُسور قد تتحوّل إلى مساكنَ مؤَقَّتة تُؤْوي من لا مَسْكِنَ لهم. غير أَنَّ اختياره لمنطقة "أوتيي" الرَّاقية كان ينطوي على تحدٍّ من الجَسارة بحيثُ لم يغْفِرْهُ له كثيرون.

ثُمَّ جاءَ دَوْرَ جسر "تولبياك"، حيثُ أُقيمتْ مُخيّماتٌ وخيامٌ كان يفزع إليها عُمّالٌ وحيدون لا يُتيح لهم دخلهُم الهزيلُ استئجارَ غُرفة فندق.

تلك المخيّمات الهجينة، في قلب العاصمة، كانت تشحذ فضول المارّة؛ ولكي يُجيب الأَبُ على تساؤلاتهم الصَّامتة، نَصَب لوحاتٍ كبيرةً تحمل بعض شعارات "عمّاوس"، مثل هذه:

« كلُّ مجتمعٍ يضمُّ أَقوياء، وضُعَفاء، وجبناء.

"للأَقوياء نقول: بادروا إلى مُساعدتنا على غَوْث الضُّعَفاء،

"وللضُّعفاء نقول: استعيدوا الأَمَل، فبتكاتُفِنا سننجح،

"أَمَّا الجُبَناء فعليهم أَن يُدركوا أَنَّهم سيجدون أَبدًا، منّا، الحرصَ على إقصائهم، بقدْر ما سيجدون المُبادَرَة إلى استقبالهم، حالما يُقرِّرون أَن يسلُكوا سلوكَ رجالٍ، سلوكَ شُجعان ».

بفضل تلك التَحَدِّيات كانَ الأَب يُصيب أَهدافًا مُتَعدِّدةً بحَجَرٍ واحدٍ، فهو يُوفِّر سَكَنًا، ولو مؤقَّتًا لمن لا مسكنَ لهم، ويشدُّ اهتمام الحُكّام والرأي العامّ إلى أَزَمة السَّكن المُسْتحكِمة، وضحاياها الأَبرياء؛ يَنْشُر الفضائح، ويفْضح الكَذِبَ والرِّياء.

غيرَ أَنَّ اعتلالَ الأَب پيير الَّذي أَقصاهُ عن ساحة النِّضال، في أَواخر عام ١٩٥٤، ترك قيادة "عمّاوس" بين أَيدي إداريّين يُؤْثِرون النِّظام على الاندفاع، ويُغَلِّبون التَّعَقُّل والمُداراة على روح النُّبُوَّة، وحَدْسِ الحُبّ، بحيثُ بات "پول" و"جان ايڤ" ورفاقُهما لا يجدون، حتّى في بَيْتهم، ما عهدوا دائمًا من دَعْمٍ، وتشجيعٍ وتضامُنٍ، وكأَنّ طلاقًا بين القديم والجديد أَخَذَ يذُرُّ قرنَه.

الاستشفاء الأوّل: خريف ١٩٥٤

في خريف ١٩٥٤، بَلَغ الإعياءُ بالأَب كُلَّ مبلغٍ، فأَوْعز إليه أَطبَّاؤُه بالتزام جانبِ الهُدوء، ولكنَّه ما استمرأ، قطُّ، دَعَةً ولا راحةً. وها هوذا يحرص على حضور

تدشين مساكن طوارئ في موقع "پـليسيّ ترڤـيز"، غير أنّه من الـوَهَن بحيـثُ لا يقوى على مغادرة سيّارته.

منذُ سنواتٍ كانت تُراوده فكرةُ تأليف كتابٍ بعنوان "البُؤْس يدين العـالَم"، غيـر أنّه، في نهاية المطاف، آثر تَرْكَ الكتابة لسواه، كي ينصرف إلى بَـذل ذاتـه بـلا حساب، ويكون حاضرًا في كُلِّ مكانٍ من البسيطة، يَسَعُه فيه بَذْرُ معتقداته، عبر كلامٍ مضطرمٍ، يعتلجُ في القلوب والضّمائر، ونشرُ رسالة "عمّاوس" النّبويّة، الّتـي نَمَـتْ أفعالاً، قبلَ أن يُعلَن عنها، عقيدةً ونظامًا.

لقد كانت مخاطبةُ النَّاس هاجسًا لديه مُقيمًا، يَلتهم طاقاته، ولا يعترف بحدودٍ، لا حدود الزّمان والمكان، ولا حدود المُقاوَمة الجَسديّة، فهو لا يحفل براحةٍ، ويَعُدُّ النَّوْمَ نافلاً؛ وهو في كلّ مكانٍ، في آنٍ واحدٍ؛ وقد يطغى عليه النُّعاس أثناءَ قيادته سيَّارته، ولكنَّه يُنهك من يُحاولون اللّحاقَ به.

وبَغْتَةً، في مَيْعةِ النَّشاط الَّذي كان يقتضي وجودَه وجهودَه، انهارَ جـسدُه، فـي أَعقاب سنواتٍ من الغَوْص في خِضَمِّ الشَّقاء البَشَريّ، والعَمَـل المجـانيّ المُرهِـق، والحرمان المادِّيّ، وإثرَ أَشهُرٍ متماديةٍ من البذْل اللاَّمحـدود، والتَّـوتُّر المُتواصـل، والتَّرحال الذي لا يهدأ. فهو، في تلك الفترة من نهاية صَـيْف ١٩٥٤، كـان يعقـد نَدْوتَيْن أَو ثلاث نَدواتٍ أُسبوعيًّا، ينقلب كلٌّ منها مهرجانًا صاخبًا. وفي أثناء ذلـك، وبالإضافة إلى إرهاقه الجَسديّ، كان يُعاني آلامًا مُبَرِّحةً في نفسِه ووجدانـه، مـن جرَّاء الأَبعاد الشَّاسعة التي اتخذتْها شُهرتهُ، ووجع ضميره المُمَـزَّق بـين تقـديس الآخرين له، وشعوره بالمحدوديَّة والتَّقصير.

وفي ذلك الخريف من عام ١٩٥٤، كان متحدّيًا إعيـاءَه، قـد باشـرَ سِلـسلةَ محاضراتٍ في مدينة "پـوي"، تلبيةً لرغبة أُسقُفها؛ وفيمـا هـو عائـدٌ، ذاتَ ليلـةٍ، بالقطار، إثرَ إحدى تلك المُحاضرات، داهمتْه أُولى نَوْبات المرض الخطيرة، واعتراه أَلَمٌ لا يُطاق، فنُقِل، في الحال، إلى مستشفى، حيثُ شخَّص الأطبَّاء دُمَّلاً خطيرًا فـي أنفه يُنْذِر بتلويث دمه. وأثناء علاجه، ظهرت دمامل أُخرى تحت عينَيـه، فخـضع لِسلْسلةِ عَمليّاتٍ، وانتُزع كيسان من تحت جَفْنَيه، وأُجريتْ له عمليّةٌ أُخرى في فكَّيْه.

ونشرتْ إحدى الصحُف، في صفحتها الأُولى، عنوانًا يقول: "**منصور دي پول عصرنا يُؤَدّي ثمنَ سنتَيْن من الدَّأب الَّذي يتخطّى طاقةَ البَشَر، ومن السَّهَر والحرمان**". وفي حين استطاع الجنرال ديغول، وكونت باريس اللَّذان كانا يُعالَجان حينئذٍ في نفس المشفى الحفاظ على كتمان وُجودهما فيه، والتمسا زيارة الأَب لهما خلسةً، حاصرَ الصّحافيّون المشفى للظَّفَر بأَدنى التفاصيل على حالة الأَب پيير، ونشروا سيرته الطِّبِّيَّة كاملةً، فاستطاع كلُّ قارئٍ أَن يعرف مثلاً، أَنَّه فقد أَسنانه أَثناءَ المقاومة، لكثرة ما عضّ على خبزٍ يابسٍ كالحجارة.

كان الأَبُ قد جعل من الصّحافة، في إحدى المراحل، حليفًا له جزيلَ الجدوى في أَداء رسالته، ولكنَّه، في مرضه، ضاقَ ذَرْعًا من انشغالها بالتُّرَّهات، فناشدها: "**أَتوسّل إلى الصّحافة أَن تبذُل جُهْدًا كي تُعتِقَ نفسَها من التَّواني والسُّهولة. ينبغي التَّنديد بأسطورة الأَب پيير، وبتلك العبادةِ الوبيلة التي تُمثّل ذريعةً سهلةً للتقاعُس عن الواجب...**". وربَّما حَجَبَتْ براءَةُ الأَب پيير عن ذهنه أَنَّ الصّحافة قلّما تهتمُّ بالواجب، وإِن هي فعلتْ، أَو بدتْ أَنَّها فاعلةٌ، فذلك مصادفةٌ بَحْتةٌ، فمِهنَتُها ومصلحتُها هما واجبها الفعليّ؛ وإن هي اندفعت في إِثْر الأَب پيير، أَثناءَ انتفاضة العَطْف، فلأَنَّ تلك الانتفاضة كانت تستأثر بالرَّأي العامّ؛ أَمَّا الآن، والأَبُ طريح الفراش، فلا نشاط "عمّاوس"، ولا الفُقَراء يهمّونها، بل ما يُهمُّها هو نَشْرةُ الأب الصِّحِّيَّة، فالأُسطورةُ الَّتي تواجهُ المَوْت أَكثر ترويجًا للصُّحف من بُؤسٍ مُغْفَل.

وما كاد الأَب يُفيق من تخدير العمليَّات حتّى تحدَّى الأَطبّاء المذهولين، وحَرِصَ على رعاية مهرجان الطُّفولة، حيثُ سلَّمته مجموعةٌ من أَطفال الأَثرياء مفاتيح خمسين منزلاً أَرادوا إِهداءَها لأَتراب لهم مُفتَقرين إلى المأوى. وفي "القصر الكبير"، حيثُ أُقيم الاحتفال، وقف الأَب مُتَرنِّحًا، وخاطبَ جمهورَه الفتيَّ قائلاً: "**أَصدقائي لا تنسوا أَنّ مهمّة الحياة الأُولى هي الحِرْصُ على توفير العَدْل لكُلِّ فردٍ**".

لقد كان المَرَضُ للأَب ملجأً، وفُسْحةً للوَحدةِ والتَّأمُّل والعبادة، في حين كان الجَسَدُ المُرْهَق يغرق في آلام السُّبات المفروض، الذي يُوفِّر له شيئًا من سكونٍ يرجوه الأَب أَبدًا في الموت، اللِّقاءِ الأخير، أَو "العطلة الكبرى" كما كان يُسمّيه، وقد كتب يومًا: "**لقد وجدتُ دائمًا المَرَضَ عذْبًا. فهو كان السَّانحةَ الوحيدة الَّتي تتيح لي**

الانعتاق من المسؤوليّات. إنّه لأَمرٌ فظيعٌ، ولكنَّ الواقعَ هو أَنّ حيـاتي لا تنطـوي على ذكرياتٍ أَسعد من تلك الّتي واكبتْ مُناسبات التَّخدير العامّ... إنَّه لأَمرٌ فظيعٌ حقًّا أَنّ ذكرياتي السَّعيدة الوحيدة قد حدثَتْ عندما لم يعُدْ لي وجودٌ".

وكُلّما صحا من خَدَره، كان الأَب يعكف على الصَّلاةِ والكتابة، وتحليل الأَحداث، وتصوُّرِ المُستقْبَل، غير أَنَّ مُطاردة الصّحافيّين له كانت تفسد عليه أَبدًا خلْوتـه، ولا سيّما أَنّه كان يتمّ آنذاك الإعدادُ لفيلمٍ سينمائيٍّ عن "جامعي نفايات عمّاوس"، زادَ مـن تهافُت الفُضوليّين على الأَب پـيير. وكم تَمنَّى الأَبُ، آنَذاك، أَن يُغيِّر ملامحَه، ويُموّه شخصيَّته، فينعتق من المُطاردة الَّتي تُلازمه! وكم طالب أَن يخلو الفيلم من دور الأَب پـيير، أَو، أَقلَّه، أَن يُسنَد ذلك الدَّورُ إلى مُمَثّلٍ لا يُشبهه؛ ولكن لم يُصغ أَحـدٌ إلـى طَلَبه بحُجَّة أَنّ من شأْن تلبيته إفشال الفيلم، فأُسْنِدَ دورُ الأَب پـيير، إلى مُمَثِّلٍ شـديد المُحاكاة له.

وقد عبَّرَ عن ضيقه من ذلك الفيلم – عندما تذرَّع صديقُه الأَبُ "دوڤـاليه" بحجَّة أَنّه إرادةُ الله، فابتدره مُنفعلاً:

– « وهل اتّصلتَ به هاتفيًّا، وعلمتَ منه ذلك؟

– "أَجل!

– إذن كفاك إزعاجًا له! »

وكان يبكي، أَحيانًا، عندما يتحلَّق الفضوليّون من حوْله، ويُحدِّقون فيه؛ وقد فاض به الكَيلُ ذاتَ يومٍ فصاح في وجه الصّحافيّين:

– « كفاكم من أُسطورة الأَب پـيير، ومن هذه العبادة الوبيلة! أَنا لستُ صَـنَمًا، بل إنّني أَوّلُ الكافرين بالصَّنَم الَّذي نَصَبتُموه منّي. فدَعُوني وشـأْني وحَـسْبي مـا تُلحقون بي من خِزْيٍ! »

لقد كان ينفجر سُخْطًا كلّما حدَّثوه عن الفيلم، ويصيح غاضبًا:

– « أَوقفوا هذا السِّيرك، ودَعوني أَعِش أَو أَمُتْ. حياتي أَصبحتْ لا تُطاق. لـم أَعُدْ أَستطيع أَن أَخطوَ خُطوةً واحدةً من غير أَن ينقضّ عليَّ الناسُ. إنّهم يوقفونني في الشَّارع، ويتأَلَّبون من حولي للمسي، ويلتمسونَ بركَتي. لقد بات يتعذَّر عليَّ أَن أُسافر

أَو أَن أَتناول طعامًا في مكانٍ ما، في معزلٍ عن المطاردة، وعن مراقبة الصّحافيّين. وإِذا ما دفعتُم بي إِلى الشَّاشة، سيتفاقم الأَمرُ سوءًا، فما الَّذي سيحِلُّ بي؟ »

كان الأَبُ يُؤْمنُ بالكَلمة، سواءٌ هي كانت أَخَويَّةً أَو مُتَّهمةً، ولكنَّه ما كان يُطيق الصُّورةَ المجرَّدة، ويرى فَجْوةً سحيقةً بين أَحاديثه، حتّى المُتلفزة، والسّينما، فتأْثيرُهُ كان يتَسلَّل عبر كلماتٍ مُثقلةٍ بالتَّجربة والأَمَل، وذلك التّأثير كان بليغًا، فاعلاً، يَستحْوِذُ على الجمهور، ويُحوِّل الاستماعَ إِلى مشاركة، مثلما يُحوِّل الفضولَ إِلى اندفاع، فهو كان يُضفي على أَبسط العبارات، وعلى الحقائق الشَّائعة، كثافةَ حياةٍ، وثِقَلَ حقيقةٍ. وكان الأَب مُدْركًا لنفاذ حضوره الشَّخصيِّ في جمهوره؛ فمرّةً واحدةً أَقعدَه المرض عن حضور اجتماع إِحدى جماعات "عمّاوس"، فبَعَثَ بشريطٍ مُسَجَّل؛ ومع أَنَّ الرّفاق، منذُ سماع أولى كلماته، نزعوا قُبَّعاتهم، وبكوا تأَثُّرًا، إِلاَّ أَنَّه، رغبةً منه في المشاركة الشخصيَّة، لم يكن يتحرَّجُ من الهروب من المستشفى، ولو ساعةً واحدةً، من أَجل مشاركة رفاقه في مناسباتٍ غاليةٍ على نفسه.

وعندما فُرِضَ عليه الفيلم، أَخيرًا، كما أَرادهُ المُنتجون، وباءَت كلُّ محاولات مقاومته بالفشَل، انهارَ تمامًا، وباتت العقاقيرُ المنوِّمةُ لا تُفْلِح في إِنامته أَكثر من ساعةٍ واحدةٍ، وأَعلن طبيبُه:

– « إِنّه، جسديًّا وعصبيًّا، في وضْعٍ مُريعٍ، وإِنْ هو لم يُنتَزَعْ، في الحال، من دوَّامة الضَّجيج، كي يعالَج في السَّكينة والصَّمت، فلن تُكتَب له النَّجاة، وستكونُ أَيّامُه معدودةً"

وقد تولّى "پول" أَمرَ الهَرَب به إِلى جنوب فرنسا، سِرًّا، حيثُ يمكنه أَن ينعم بعزلةٍ حقيقيّةٍ. وقد حاول، أَوّلاً، إِحلالَه عند أَصدقاء له هناك، غير أَنّ هؤُلاء تذرّعوا بحجَّةِ أَنَّ وجودَ الأَب پيير فيما بينهم سيحرمهم من كُلِّ راحةٍ وهدوءٍ، إِذ إِنّه سيجتذب سَيْلاً من المُعجَبين والفضوليّين. وقد أَفلح، أَخيرًا، في توفير ملجأٍ له في ديرٍ بمنطقة "نيس"، وقد ارتضى رئيس الدّير الامتناع عن استقبال قوافل الحجّاج إِلى الدير، حرصًا على سلامة الأَب پيير وطمأنينته.

وتمثَّلت العَقَبةُ الكأداءُ في إِقناع الأَب پيير بالمثول إِلى تلك الخلوة، إِذ كان

موقنًا أَنَّ الواجبَ يقضي عليه المكوثَ إلى جانبِ الرِّفاق والفُقَراء، وأَنّه، مع كُلِّ ما تحقَّقَ، منذُ شباط، إِلاّ أَنّ مُهمّاتٍ عديدةً ما زالت تستدعي المزيد من العمل والبذْل. غير أَنّه امتثل، بعد لأْيٍ، لإِلحاحِ رفاقه، بعد أَن اقتطع منهم وعدًا بتحقيق شرطَيْن: أَلاّ تقضي الأسَرُ المُقيمة في مخيّم "نوازي ليغران" شتاءً آخر تحت الخيام، وأَن ينعم أَطفالُ تلك الأُسَر، هم أَيضاً، بعُطلةٍ تحتَ شمس الجنوب.

وقد مثل الأَب إلى خلوته خِلْسةً، إِذ حَجَزتْ سكَّةُ الحديد مقطورةً كاملةً له ولرفاقه، ضمانًا لراحته، ولإِقصاء الفُضوليّين عنه.

وتكاتف "پول" و"جان إِيف" على تحقيق شرطَيْه، فكَدَحا ليلَ نهار، مع رفاقهما، حتّى أَشادوا عشرات البُيوت الصَّغيرة من الإيترنيت، أُسْكِنَتْ فيها جميعُ أُسَر "نوازي ليغران". وكانت تلك هديَّةَ الرِّفاق لأَبيهم، بمناسبة عيد الميلاد. وقد استخدم "پول" كلَّ المال الذي عَثَر عليه في صناديق "عمّاوس" كي يُوفِّر لتلك المنازل الأَثاثَ الضَّروريَّ، وزينةَ العيد، وهدايا للأَطفال. وتمّ الاحتفالُ بعيد ميلادٍ فريدٍ، اشتركتْ فيه الأسَرُ التي تَمَّ إِيواؤُها، ورفاقُ "عمّاوس"؛ هؤُلاء فخورين بما أَنجزوه، وأُولئِك شاكرين لكُلِّ ما أُحيطوا به من عَطْف.

وطَلَبَ التلفزيون إسهام الأَب پيير في برامج الميلاد، فناب عنه "پول"، مُتحدّثًا عن إنجازات "عمّاوس"، في سبيل من لا مأوى لهم، وعن إِيواء جميع أُسَر "نوازي ليغران" في مساكنَ إِسمنتيّةٍ قبلَ حلول عيد الميلاد. ولا رَيبَ أَنّ دفقًا من العزاء قد غمرَ صَدْرَ الأَب وهو يستمع إليه ويشاهده عبر الشَّاشة.

أَمّا شرْطُ الأَب الثَّاني، فقد حقَّقتْه السَّيِّدة "لارمييه"، صاحبة فندق "روشستر" التي وَضَعَتْ بتصرُّف "عمّاوس" مُلْكًا لها في ريف الجنوب، حيثُ استقبلتْ خمسين طِفْلاً من أَطفال "نوازي".

في تلك العزلة التي حرص الرِّفاقُ على أَلاّ يدعوا أَحدًا يقتحمُها، عَكَف الأَب على تحليل أَحداث السَّنَة المنصرمة، وتقصِّي الصِّلة الوثيقة بين مُثُلُ "عمّاوس" وانطلاقتها الوَضيعة من جهة، والأَحداث المُجَلْجلة التي انبثقتْ منها في شباط ١٩٥٤، والَّتي حالتْ حُمّى الأَحداث دون استجلاء مغزاها.

مثل تلك الفُسحات من التّأمُّل كانت تُشدِّد عزيمةَ الأَب وترفدُه بطاقاتٍ مُتَجدِّدة. فقد

كان له المرضُ انعتاقًا حقيقيًّا من ضُغوط المسؤُوليّات، ومن نير مجتمعٍ مراءٍ جَبانٍ في مُواجهة البُؤْس. وقد قُيِّض له أَن يقضيَ بين أَواخر ١٩٥٤ و١٩٥٨ اثنَيْن وعشرين شهرًا في المشافي، وأَن يخضع لِسلْسِلةٍ من العمليّات، وقد كانت تلك المحطّاتُ المرَضيّة بما توفّره من سَكينةٍ تُحاكي سكينةَ الموْت الَّذي تطلّع إِليه، تفسح له انطلاقةً خارج الزّمن، حيثُ، بتلاشي الجَسَد، وهيْمنةِ الصَّمْت، يعودُ الوِجْدان فيُوَثِّقُ صِلاتِه بالعبادة.

فترةُ استشفائه الأُولى هذه كانت له سانحةً لرفعِ صرْحِ "عمّاوس" التي رَسَّخَتْ جذورها بعد شباط ١٩٥٤. ربَّما لم يكن الأَبُ إِداريًّا حاذقًا، ولا مُنَظِّرًا عبقريًّا، ولكنه كان، بلا مِراء، مُحَرّكًا فعَّالاً، ونبيًّا يُدوّي صوتُه في أَغوار القلوب والضّمائر.

وعلى ضَوْء الأَحداث، توطَّد إِيمانُه في تدابيرِ العِناية الإِلهيَّة التي أَثبتت أَنّها أَقوى من كُلِّ العَقَبات. وقد اتَّضحَ له أَنَّ كُلَّ ما واجهه من فَشَلٍ وخيباتِ أَملٍ، وشعورٍ بالعَجْز، لم ينهض عائقًا دون هَدَفه الأَساسيّ، وأَنّ كُلَّ ما تمَّ، مع إِعجازه، لم يكن سوى بدايةٍ لحركةٍ ستضرب جذورَها في كُلِّ أَرجاء المسكونة.

سيُواصل نضالَه، ولن يقتصر على الإِسكان، فهدفُه القَضاءُ على "جميع الآلام النَّافلة الظَّالمة"؛ وبدافعٍ ممّا تعلَّمه من الإِنجيلِ، تغييرُ العالَم باسم قِيَم المَحبَّة المسيحيَّة المُقدَّسة. إِنّ للشّقاء أَلفَ وجهٍ ووجهًا، والأَب پيير عاقِدٌ العَزْم على مُكافحته بكُلِّ وجوهه، وأَينما وجدَه. والشقاء ناشِبٌ بثلاثة أَرباع سُكّان البسيطة المفتقرين إِلى الحدِّ الأَدنى الَّذي يؤَهِّلهم للعيش بكرامةٍ، والَّذين يتعلَّق مُستقبَل البشريّة بمصيرهم. فأُولئك الَّذين يفتقرون إِلى السَّقْف والرّغيف والتَّعليم، والعناية الصِّحِّيَّة، هم الَّذين سيدينون العالَم. وعلى حدِّ ما أَعلنَ الأَبُ في "جنيف"، في حزيران ١٩٥٥: "**المُستَقْبَل هو ملكُ الَّذين سيُفْلِحون في بَعْث الأَمَل وَسْطَ القُنوط**".

لقد ترسَّخت لديه القناعةُ بأَنّ السُّلطةَ تقف عاجزةً حيالَ البُؤْس، لأَنّها عمياءُ عنه، وأَنّ البُؤس قد بلغ دركةً من القُنوط والانحطاط أُصيب، معها، بالشَّلَل والخَرَس. وبين ذلك العمى وهذا البُكْم تكمُن مأساةُ العالَم.

وقد أَثبتت انتفاضةُ العَطْف أَنَّ "عمّاوس" كانت الحلقةَ المفقودةَ بين عمى السُّلْطة وخَرَس الشَّقاء، فكانت صوْتَ من لا صوتَ لهم، وبفضل ما أَنجزته، تأهَّلتْ للَوْم المجتمع، ومحاكمة المسؤولين، والتعبير عن آلام المحرومين، وهي، بذلك، أَورثَتْ،

من جديد، شُعلةَ "جنون الحبّ". "عمّاوس" بوسائلها الضئيلة، حقّقت عمَلاً رائعًا، إذ إنّها اكتشفتْ "ضربًا من اللقاح، ومن البنيسلين لمكافحة العجز والحمق اللّذَيْن تتخبّط فيهما مجتمعاتنا".

فأُولئك الرِّفاقُ "المتطوِّعون لخدمة الإنسان" الّذين كانوا "بائسين على درب "عمّاوس"، وأَمسوا مُنقذين، بعدَ أَن تحرّروا من الوَهْم"، المُتأهِّبون للموت من أَجل إسكان المحرومين وإطعامهم، وتعليمهم، وتشغيلهم، ومُؤاساتهم، قد شنُّوا "الحربَ المُقدَّسة في أَيّام السِّلم، الحربَ من أَجل العدْل، ضدَّ اليأْس، بواسطة الحبّ".

وقد نهض الأَب پيير، مُمَثِّلاً عمَّاوس، بدَور النَّبيِّ، وحاولَ أَن يُشرِك أَصحابَ السُّلطة في العالم، وعلماءَ اجتماعيّين، في قناعاته، فطرح عليهم الأَسئلة، والتمسَ أجوبتهم؛ وقد ردَّ عليه نهرو قائلاً: "من المُحقَّق أَنَّ القابضين على مقاليد الحُكْم لا يَعُون دائمًا تعاسةَ قِسطٍ جسيمٍ من الأَفراد، وبُؤْسَهم... وطالما لم يتوفَّر ذلك الوَعْيُ، فسياستُنا ستفتقر إلى الواقعيّة افتقارًا ذريعًا".

أَمّا الدكتور "أَلبير شڤايتزر"، فصرَّح: "إنّ ما ينتظرُه العالَمُ هو أَفكارٌ فاعلةٌ. إنّه يُريد رؤية عَملٍ يتمّ وفقًا لروحِ الإنجيل، ولكن، في آنٍ واحدٍ، مُنَظَّمًا على نحوٍ ملائمٍ ومُجْدٍ؛ يُريدُ رؤيةَ الرُّوحِ متفاعلاً مع الواقع، و"محوِّلاً الواقع"، وأَضاف مخاطبًا الأَب پيير: "**فليَهبْكَ الرَّبُّ من الحكمة والقوّة، ما يُمكّنك من بثّ شُعاعٍ من نور الإنجيل في خِضَمِّ ظُلمات العالَم**".

وكان الأَبُ پيير بصفته رئيسًا سابقًا للمجلس التّنفيذيِّ للكونفيدراليّة العالميَّة، قد وطَّد علاقاتٍ مع شتّى العُظماء، من رُؤَساء، ومسؤولين رفيعي المستوى، وكذلك مع علماءَ وفلاسفةٍ. ومن علْم هؤُلاء استمدَّ ما يُغذّي تفكيرَه، ويُسبغُ على حُجَجِه دَعْمًا لمواجهة أُولئك بسكينةٍ أَهّلَتْه لجميع ضُروب الجُرأَة؛ وقد دلَّل على تلك الجُرأة، يومَ استُدعي إلى قصر "الإليزيه" كي يقلِّده رئيسُ الجمهوريّة وِسام استحقاقٍ. وقد أَصرَّ على أَن يُرافقَه سائقُه، غير أَنّ مسؤولي المراسم اعترضوا بحُجَّة أَن السَّائق كان زريّ الهندام، وعاريَ الساعدَيْن، فما كان من الأب سوى رفض الدخول ما لم يُواكبْه "رفيقه". وعندما همَّ الرئيسُ "ريني كوتي" بتقليده الوِسام رفَضَه مُصَرِّحًا: "**إنَّ الحكومةَ لا تُؤدّي واجبَها كما يتعيَّن عليها، بحيثُ تُرغمني على القيام به، نيابةً عنها**".

تلك الوعكةُ الأُولى التي أَلَمَّتْ بالأَب پيير ربَّما أَوحتْ لبعض القادمين حديثًا إلى إدارة "عمّاوس"، بأَنَّ المَرض كفيلٌ بالقضاء عليه، فراحوا يُخطِّطون لخلافته، غيرَ أَنّ رفاقَه المُخلصين كانوا واثقين أَنّه ما زال معهم، ومُترَبِّصًا لمُواصلة النِّضال. وكانتْ فئةٌ منهم، مع الآنسة كوتاز، لا تني تُزوِّدُه بما يهمُّه من أَنباء، ويومَ أَحاطوه علمًا بأَنّ قرارًا قد صدر بإخلاء اثنتي عشرةَ أُسرةً احتلّت منازلَ خاليةً، أَعلن غاضبًا: "هذا القرار هو بمثابة إِعلان حَرْبٍ، وسنَتصدّى للتَّحدّي!"

وفي تلك الأَثناء، أَغفلَ الصحافيّون نِضالَ الأَب پيير، وانحصر همُّهم في العثور عليه؛ وقد تعقّب اثنان منهم الآنسة كوتاز، التي جَهِدَتْ كي تُضلِّلَهما في "نيس"، غير أَنّهما استطاعا العثورَ على سائق التكسي الَّذي أَقلَّها إلى مخبأ الأَب، فانتهيا إِليه، وارتضى الأَب مقابلتَهما، كي يتحقّقا من أَنّه لم يَمُت، ولم يُحجَر عليه، وأَنّه ليس مجنونًا، ولا منهارًا، بل في أَحسن حالٍ نفسيًّا وجَسَديًّا. فالأسطورة، بكُلِّ ما واكبَها من حُمّى، لم تقضِ عليه، وقد وافاه المرضُ مُنقِذًا، وزادَه نُضوجًا وتصميمًا على المُضيِّ حتّى نهاية الدَّرب الَّذي انتهجه.

وفي شباط ١٩٥٥، كان الأَب قد أَبلَّ تمامًا من مَرَضه، فهرع إلى الرِّفاق يطمئنهم:

– "لم يُقْضَ عليَّ بعد؛ ها قد عدتُ، وسنُواصل المسيرةَ معًا"

غير أَنّه أَنذرَهم بأَنّه لا يسوغ أَن يتعلَّق به كلُّ شيءٍ، فسواءٌ هُوَ مَرِضَ أَو مات، على "عمّاوس" أَن تستمرَّ، وعلى كُلٍّ من الرّفاق أَن يُصبحَ نورًا وشعلةً من أَجل نموِّها وازدهارها، فالرِّفاق هم قاعدة العَمَل النَّبويّ، وعملُهم هو الذي يُوفرَ وسائل غَوْث عددٍ مُتعاظمٍ، أَبدًا، من البائسين، وهم "الجذورُ المتواضعة الضَّاربة في التُّربة وفي النِّفايات، والَّتي تُخْصب كُلَّ شيءٍ، الجذور التي تقطر كُلَّ النُّسغ المُحيي الَّذي يسري في أَجزاء الشَّجرة"، وأَنّ ما أَفلحوا في تحقيقه هو الّذي استنهضَ جماعاتٍ تسير على غرارهم في كلٍّ من بلجيكا وسويسرا والولايات المتحدة وكندا، وشتّى أَقطار العالم.

منذُ نحو سنةٍ، لم يكن الأَبُ يجد سبيلاً إلى العَيْش، كالسَّابق، بين ظهراني الرّفاق، فتوجّس بعضُهم خشيةً عليه أَن "يتبرجوز" في المكاتب، مع الفنيِّين، ولكنّه

أكّدَ لهم أنّه، إن هو اضطُرَّ للابتعاد عنهم، فلكي يكونَ حيثُ تدعوه المشاكلُ الكبرى.

ومع تأثُّرهم ببُعادِه عنهم، كان الرِّفاقُ القدامى فخورين بما أَصابتْه "عمّاوس" من ازدهارٍ، وبما اكتسبوه، هم، من اعترافٍ بدَوْرهم، ومن شعبيَّةٍ، بفضله. وإذ كان الأَبُ مقبلاً على المثول إلى الولايات المتّحدة، كانوا واثقين من أَنّه، حيثُما سيتكلَّم، في شتّى بقاع المسكونة، فهو إنّما سيتكلَّم باسمهِم، وسيشهد أَمام رُؤَساء الدُّوَل وعظماء العالَم، بما نَجحوا، هم، في إنجازه. وقد أَقرَّ الأبُ، قُبَيْل سفَره، أنّ التوكيل الَّذي أَسندَه إليه الرِّفاقُ هو أَخلصُ توكيلٍ، وأَشدُّه إلزامًا، أُنيط به، في حياته كلِّها.

النَّبيُّ في أَميركا

دَويُّ "انتفاضة العطف" نَشَرَ شُهرةَ الأَب پيير في زوايا المسكونة الأَربع، فانهالتْ عليه دعواتٌ من شتّى بقاع العالَم لزيارتها، والتحدُّث إلى شعوبها؛ وقد آثَر الأبُ استهلال مُهمَّته النَّبويّة في أَميركا، عرينِ قُوَّة البسيطة الأولى، والتَّحدُّث إلى "ذلك الشَّعب العظيم الموسوم بالقَلَق وحُسْن النِّيَّة"، مُستجيبًا لدعوةٍ وردتْه من جامعة "برنستون"، حيثُ قُيِّض له أَن يلتقي، للمرَّة الأولى، العالم "أَلبيرت آنيشتاين"، ويعقد معه أَحاديثَ مستفيضةً، رَحْبَةَ الآفاق.

أَمام ذلك الشَّعب، "الأَمير الأَوّل" في مملكة الأَغنياء، الَّذي يَدَّعي تلقين العالَم نموذجًا شاملاً للسَّعادة، مُتَمثِّلاً في نَمَط العيْش الأَميركيّ، وقف الأَب پيير وِقْفَةَ المعمدانِ في مواجهة هيرودوس، وجاهره بالحقيقة، الحقيقة العارية الموجِعَة. ففي خطابه الأَوّل أَعلن:

« إنّني فَرنسيٌّ لم يَقْدِم إليكم كي يتحدَّث عن فرنسا، وكاهنٌ لم يَقْدِم ليتكلَّم عن الكنيسة، نائبٌ سابقٌ لم يأتِ كي يتحدَّث في السِّيَاسَة. ولم آتِ إلى أَميركا كي أَتحدّث عن أَميركا؛ إنَّما، بكلِّ بساطةٍ، أَودُّ مُحاوِلَةَ أَن أكون إنسانًا جاءَ يتحدَّث مع بَشرٍ آخرين حَسَني النِّيَّة، عن قضايا تَسْحَق إنسانَ اليوم، في العالَم أَجمع. إنّني قادمٌ من أُوروپا، ولا أَبتغي أَن أَسأَلكم مالاً، بل أَسأَلكم ما هو أكثرُ. فاحتفظوا بمالكم الَّذي يُفْسِد كُلَّ شيءٍ، وفي كُلِّ مكانٍ من العالَمِ، لأَنَّه، ما لم يَسْبِقْه بَذْلُ ذواتكم، وحضورُكم بين من يتَأَلَّمون، عديمُ الجَدوى، ويُؤدّي إلى الإِفساد عوضًا عن الإِنقاذ...

"إِنَّنا نهتف لكم، بكلِّ محبَّتنا، ولكن بكُلّ طاقاتنا: ذَهَبُكم ليس مُلْكَكم، وعندما تمنحونه، إنّما تُعيدونه إلى أَصحابه. فالَّذين طالما تأَلَّموا وحيدين هم دائنون لكم. ونقول لكم، أَيضاً: هذا الذَّهَب، وإِن لم يكن مِلكَكم، احتفظوا به، فاحتفاظكم به، خيرٌ من إفساد كُلِّ شيءٍ بتوزيعه توزيعًا سيِّئًا. وريثما تُصبحون قادرين على منْح ذواتِكم، فما من شعبٍ حريصٍ على كرامته وسلامته، يرغَبُ في ذَهَبكم.

"إِنَّ من يتأَلَّم مُتعطِّشٌ، في المقام الأَوَّل، إلى مُشاركة الآخرين له أَلَمه شخصيًّا؛ فليتعلَّم المَحْظيُّون، أَيَّةً كانت حُظوتُهم، أَن يعملوا ذلك، أَوّلاً؛ وحينئذٍ سيكون بوسْعهم أَن يهَبوا مادَّةً، من غير أَن يُفسدوا النُّفوس...

"أَيُّ تهريجٍ في التَحدُّث عن الحُرِّيَّة إلى قومٍ مُعَذَّبين، يعضُّهم الجوع. ليس، ثمّة، سوى فئةٍ ضئيلةٍ من الصُّوفيّين القادرين، بِفَضْل نعمةٍ خاصَّةٍ، على إِنقاذ نفوسهم من الضّياع، رغمَ مثل هذه المعاناة ».

في نيويورك وواشنطن، ولوس أَنجيليس وسان فرنسيسكو، وشتَّى المُدن الأُخرى التي تحدَّث فيها، كان لا يني يُردِّد: "افتحوا عيونكم"، مُؤَكِّدًا أَوْلويَّة الحُبّ على المال، والحياةِ على الذَّهَب، مُحَذِّرًا من الأَخطار التي تُهَدِّدُ الشَّعب الأَميركيّ: عبادة المال والتِّقنية، والقَلَق النَّاشِب بالأَفراد، واتِّساع رُقْعة العنف، وجُنوح الأَحداث، وجميعها أَعراضٌ تنمُّ عن "شعب لم تكتشفْ طاقاتُهُ وسائلَ تطبيقها ومجاله". فحتّى النَّوايا الطَّيِّبة لدى الأَميركيّين في سبيل مساعدة الشُّعوب الأُخرى لا تُفضي، في معظم الأَحيان، إلاّ إلى عواقبَ وبيلةٍ، من جرَّاء جهلها وسيلةَ التَّعامل المُثلى مع العالَم. ومن ثمّ، فتلك القوَّة تواجه مهانةَ عجزها حيالَ الآخرين، والخوف لأَنّها "بقدْر ما تُعطي؛ تَحْصُد البُغْضَ"

ويمضي الأَب في بيانه فيقول:

« إِنَّ كلَّ مُجتَمعٍ لا يستخدم إِنتاجه في سبيل تحسين مصير المحرومين، بل يُوظِّفُه لأَجل زيادة رفاه من يرفلون بالسَّعادة، محكومٌ عليه بالانهيار والموت. افتحوا عيونَكم على ما يجري هنا، من حولكم، وعلى ما يتراءى في الأُفق. اُنظروا إِلى فُقَرائكم، وكُلِّ فقراء المسكونة؛ تجاسروا وحَدِّقوا في ما تخفيه عنكم السُّلْطة، فالسُّلْطةُ تقطع صِلاتِكم بالحياة. تجاسروا على التَّحديق، ثُمَّ هُبُّوا للعمل. وإلاَّ، فما

جدوى كسْب حربٍ كُبرى على النَّازيَّة، إن أَنتم تعاميْتم عن الحرب الَّتي تستلزم، اليومَ، كُلَّ طاقاتكم، الحرب على الفقر والمجاعة والجَهْل؟ أَلا تسمعون أنَّات المتألِّمين؟ مَرَدُّ ذلك أنّهم لا يقوون على الكفاح، ولا على الجَهْر بآلامهم. ولكن اخشوا المستقبل، إن كنتم عاجزين عن سماع أُولئك الَّذين يتكلَّمون بصوتي! »

ويستشفُّ الأَبُ أَمَل التَّغيير في الشَّبيبة التي تبعثُ كلماتهُ فيها الدَّهشةَ والحماسَ، في آنٍ واحدٍ، فيُناشدها قائلاً:

« تجنَّدوا لا من أَجل المال، بل من أَجل الحُبّ. شُقُّوا لغيركم الطَّريقَ، فها أَنتم مُكَلَّفون بمسؤوليَّاتٍ كَونيّة. إنّ ما تُؤمنون به، وما جعلكم أَسياد العالَم، ليس هو الدَّواء لِعلَل الآخرين، وليس هو مُستقبل جميع شُعوب الأَرض. فليس المالُ هو الَّذي يفتقر إليه العالَم، ولا تقنيتكم الهادفة إلى إيجاد المال، بل إنّ العالَم يفتقر إلى حُبٍّ وقلب. فليَخْدُم غناكم الإنسانَ، في المقام الأَوّل، ومن مجموع البَشَر، فليخدمْ، أَوّلاً، أكثرَهم أَلمًا!

"من أَجل إنقاذ عالَم اليوم، يلزمُنا رُهبانٌ من نَمَطٍ جديدٍ، ويلزمُنا صعاليكُ، وما أكثرَهم، يترقَّبون مجيءَ حُبّنا... يلزمنا حفنةٌ من الرجال يحملون قُلوبَ أَطفالٍ، يُواكبون أُولئك الرُّهبانَ ويُعاضدونهم، وَسْط الصَّعاليك، كي يُعيدوا لهم إنسانيَّتهم الكفيلةَ بتحدّي المُجتَمع بأَسره ».

لقد رفض النَّبيُّ مال أَميركا، لأَنَّه ابتغى تلقينَها درسًا، وإفهامَها أَنّه ينشُد، أَوّلاً، الإنسانيَّةَ، والحُبَّ، وبَذْل القلوب. وقد استفزَّ كلامُه حماسًا عارمًا، فتطوَّع كثيرون للسَّيْر في إثْره، ولكنَّه أَهابَ بهم أَن يتدرَّعوا بالصَّبْر، ويضطلعوا بمسؤوليَّاتهم بأَنفسهم؛ فقد جاءَهم، باسم "عمّاوس"، بالميكروب واللّقاح معًا، جاءَ لإطلاق الصَّيْحة التي تُعيد الفَهْم لِمَن يُمسكون بمقاليد السُّلْطة.

لقد خاطب ذلك "الكاهنُ المسكين" الرئيسَ إيزنهاور "بصراحةٍ وبشيءٍ من القسوة". ودوَّنَ في إهدائه نُسخةً من كتاب "جامعو نفايات عمّاوس": "... تلك الصَّفحات من تاريخ فرنسا والإنسانيّة المتواضع، تاريخ الحرْب المُقدَّسة في أَيّام السِّلْم، الحرب المُعْلَنة من أَجل العدْل، على القنوط، بسلاح الحبّ... تاريخ "مُتَطوِّعين لِخدْمة الإنسان"، متأَهِّبين للموْت من أَجل البناء، والإطعام، والتَّعليم، وتوفير العمل، والمُؤاساة... الَّذين كانوا فاقدي

الأَمل على درب "عمّاوس"، وغدوا مُنْقِذين، بعد أَن تحرّروا من الأَوهام... فليهبْكم الربُّ أَن تستفزّوا في صفوف شعبكم العظيم، كُلَّ يومٍ، مزيدًا من رجالٍ يحملون مثلَ هذا القَلْب... فإِن كان العالَم الحرُّ المُنتَصرُ عاجزًا عَنَّ مطالبة شبيبته، من أَجل مكافحة الفَقْر، بمثل التَّضحيات التي طالبها بها من أَجل مكافحة الطُّغيان، فكلُّ تلك التَّضحيات كانتْ باطلةً، إِذ سُرعان ما ستَحْتَضِرُ الحُرِّيَّةُ المنتَصرةُ".

رغم تلك الصَّراحة العارية، وربَّما بسببها، كتب إِيزنهاور للأَب پيير مُؤَكِّدًا مشاركَته في "الإِعجاب العالميّ الّذي يحظى به".

من جهةٍ أُخرى، كان على الرُّؤساء الكَنَسيِّين، في أَميركا، أَن يحتملوا من صراحة ذلك الكاهن المُتكلِّم باسم البُؤَساء، ما لَم يألفوه من كاهنٍ، قطُّ، ولم يَرُقْ لهم أَن يسمعوا منه الحقيقة العاريةَ القاسيةَ التي كان يَصُبُّها على رؤُوسهم، من غير تزويقٍ ولا مُداراةٍ، غيرَ حافلٍ بحساسيَّاتهم، مُزعجًا إِيَّاهم بعُنفٍ. غيرَ أَنّه كان يُؤثر مخاطبةَ الإِكليريكيّين الشُّبَّان، ويُوليهم ثقتَه، وكانوا، هم، يضطرمون حماسًا لسماعه.

وفضْلاً عن أَحاديثه الجارحة بصَراحتها، ضاقَ الرُّؤَساءُ الكَنَسيُّون، ومُنَظِّمو زيارته إلى الوِلايات المُتَّحدة، برئاسة الفيْلسوف الفرنسيِّ "جاك ماريتان"، بإِزرائه بقواعد الپروتوكول والرَّسْميّات والمواعيد. فهو، مثلاً، أَثناء زيارته لشيكاغو، استغرق في تفقُّد أكواخها، والتَّحدُّث إلى قاطنيها، غير حافلٍ بموعدٍ له مع مجموعةٍ من الأَساقفة الَّذين اغتاظوا من انتظاره؛ ولمَّا جاءَ، وعوضاً عن استغفاره عن تأَخُّره، راح يُقرِّعُهم بأَعنف لَوْمٍ لإِهمالهم إِخوةَ يسوع الأَثيرين، القابعين، مُهمَلين، في تلك الأَماكن البائسة الزَّريَّة.

وقد عَجزَ حتّى أَصدقاؤه في أَميركا عن مُسايرته في كُلِّ ما كان يحدوه من نشاطٍ لا يهدأ، ومن رغبةٍ عارمةٍ في لقاء الجماهير، ولا سيّما البائسين، والنّقاش، ولا سيّما مع الشَّبيبة، ولو اقتضى منه ذلك الإِزراءَ بالبرامج المُحدَّدة مُسْبَقًا، وبقواعد اللّياقة الشَّائعة.

ولئن أَبدى الدِّبلوماسيُّون الفرنسيُّون في الولايات المُتَّحدة تفهُّمًا لموقف الأَب پيير، إِلاّ أَنَّ الرُّؤَساء الكَنَسيِّين كانوا يتعرَّضون للحَرَج أَمام الجماهير ويُفْضون لخاصَّتهم باستيائهم من إِقدام الأَب على انتقادهم على الملأ، ومن مهاجمته ذوي

السُّلطان والنُّفوذ، وجبابرة المال، وجميعَ الَّذين يُتاجرون بالشَّقاء البَشَرِيّ، ولا يُقْدِمون على غَوْثه إلاّ لمأرَبٍ في النَّفس رخيصٍ، والتماسًا لغُنْمٍ مُرْتَقَبٍ، مع أَنَّ الرُّؤَساء الكنسيّين قد أَلِفوا اتّقاءَ جانبهم ومُداهنتَهم.

مثلُ تلك المواقف تكرَّرتْ، في كندا، حيثُ كان لمرور الأَب پيير الخاطف آثارٌ بليغةٌ انحفرتْ عميقًا. وكانت ذُروة الفضيحة مناسبة تدشين كَاتِدْرَائِيَّة القدِّيس يوسف، مَفخرة الكنيسة المحلِّيَّة في مونتريال، الَّتي استنفدَ بناؤُها وتزيينُها مبالغ طائلةً، احْتَجَّ بعض المسيحيّين، هناك، أَنَّها حُوِّلت عَن أَهداف أُخرى كانت بها أَوْلى. وقد هالَ الأبَ پيير ما رأى عليه بناءَ الكاتدرائيّة من فخفخةٍ فاضحة، مثلما هالَه وُصول موكب الأساقفة المهيب، في سيّاراتٍ فارهة، مزدهين في أَفخر الملابس، ممَّا استثار لديه غَضَبَ النَّبيّ، وأَضفى على خطابه لهجةً لاذعةً فريدة.

أَمام تلك الكاتدرائيّة المَهيبة، الجاثمة فوقَ تلَّةٍ تراصَّ عليها أكثرُ من عشرين أَلف مؤمنٍ، تحدَّث الأَبُ عن المبالغ الطَّائلة التي استلزمها بناءُ الكاتدرائيّة وتزيينُها، ولم يستطِعْ إلاّ أَن يُقارنها بالأكواخ الزَّريَّة الَّتي لا تُحصى المُحيقة بالمدينة، وأَعلن: "**عليكم أَن تُدركوا أَنَّ يسوع لا يُعاني البرد في الإِفخارستيّا؛ ولن نُكرِّمَه بحَشْدنا الذَّهبَ والمَرْمرَ والفخامةَ من حوله، ولكن بغَوْثه في أَيدي وأَرْجُلِ الأَطفال الَّذين ينفُقون برْدًا، في العالَم أَجمع، لأَنّنا نُهْمِلُهم... لا بُدَّ من أَماكن عبادة، أَماكن لقاءٍ وصلاةٍ، ولكن طالما كانت هناك أكواخٌ، فلنقتَصِرْ على أَربعة جدرانٍ وسقْف!**"

بلسانه كان الفقراءُ يتكلَّمون مُعَبِّرين عن استنكارهم، وكانت المحبَّةُ المسيحيَّة تُندِّد بالكُفْر الحقِّ المُتَمثِّل في "لا مبالاة قلوبٍ من يَدَّعون أَنّهم مسيحيُّون"

وقد أجمعت الصُّحف على تبيان رُدود الفعل بعناوين تعلن: "إِنّ نبيًّا جعلَنا نَرْتعد، وأَهوى على رؤُوسنا بضربَات الإِنجيل الحقّ..." "أَقوالٌ حارقةٌ" "ذهول"، "اضطرابٌ عميقُ الغَوْر"

بَيْدَ أَنَّ تلك الأَقوال الجارحة بصِدْقها، لم تنقلب فضيحةً ولا كارثةً كنسيَّةً، بل أَثارت عاصفةً من الحماس لدى الجمهور المتراصِّ في الكاتدرائيّة ومن حولها، ولدى مُستمعي الإِذاعة ومشاهدي التلفزيون، وغرست بذور "عمّاوس" في جميع أَرجاء القارَّة الأَميركية

ولم يكُن الاستنكارُ والحَنَق بين صفوف الأَساقفة الكنديّين بأَقلَّ وقعًا منهما في الولايات المتحدة؛ إلاّ أَنهما، من جرَّاء الترحيب الشَّعبيّ، قد ظلاّ كامنَيْن صامتَيْن. ولم يتحرَّج الأَب من تحمُّل مسؤُوليّة أَقواله ببساطة مُعْلِنًا: "**لقد صارحتُهم بأَقوالٍ لم يأْلَفوا سماعَها، وكان من شأنها دفعهم إلى رجمي أَو شنقي، ولكنَّها كانت من صُلب الإنجيل**". فقد حَرِصَ على حَسْر النِّقاب عن الحقيقة العارية، وعلى الإعلان عمَّا يخشى المسؤُولون رؤيتَه "ممّا لا يُريهما القلوبَ المُتَحجِّرة، والبطونَ المُتْخَمة، والضَّمائرَ المستكينة، ولكنّه يُلبّي تَطَلّع جميع البشر الجائعين والظامئين إلى العدْل".

وقد تحلَّى رئيسُ أَساقفة مونتريال بقَدْرٍ وافٍ من الجرأَة والصِّدق، عندما دعا الأَبَ پيير إلى العودة، وإلى الجَهْر مُجدَّدًا بمثل تلك الأقوال المُتَدفقة من مَعين الإنجيل. ولكن لم يكن كذلك موقفُ سائر المسؤولين الكَنَسيّين الَّذين، وإن لم يرجُموه أو يَشنقوه، على حدِّ قوله، إلاّ أَنّهم حاكوا له المكائد، وسعَوْا بشكواه إلى المراجع العليا في الڤاتيكان. وغالبًا ما أَشار الأَب إلى تلك المكائد، وإلى العداء الماكر الَّذي يشنُّه عليه حانقون يلاحقونه ببُغْضهم العنيد. وفي مقابل ذلك أَوضحَ أَنّه حَرِص دائمًا أَن يكون مُطيعًا للكنيسة، غير أَنَّ الطاعة لا تقتضي الجُبْن.

وكان المسؤُولون الكَنَسيّون الأَعلَوْنَ، وإن أَزعجتْهم بعض ملاحظاته الفَجَّة، يُؤْثرون مداراتَه، لأَنَّه، دون سواه، استطاعَ النَّفاذَ إلى قلوب الجماهير، بعَيْشه روحَ الإنجيل الحقّ. غير أَنّ بعضًا منهم كانوا يترقّبون السَّانحةَ المؤَاتيةَ لكَمِّ ذلك الفَمِ المُزْعج.

ازدهارٌ شاقٌّ، وتمزّقاتٌ داخليّةٌ

تلك الفترةُ المُمْتَدَّةُ بين عامي ۱۹٥٥ و۱۹٥۷، شَهِدَتْ انبثاق جماعات "عمّاوس" في شتّى بِقاع العالَم، بِهَدْيٍ ممَّا حقَّقتْه "عمّاوس" في فرنسا، ومحاولةَ تنظيم جماعاتها ومؤَسَّساتها في فرنسا الّتي كانتْ تُمزِّقُها نزعتان مُتصارعتان: إحداهما مُتشبِّثةٌ، بعنادٍ، بروح الأَب پيير وبقيادته الَّتي يحدوها الحُبّ، وعفويَّةُ المبادرة، في حين كانت الأُخرى تتطلّع إلى تحويلها إلى مؤسَّسةٍ يُديرها تكنوقراطيّون، وفق نظامٍ يُولي الجدوى الاقتصاديّةَ المقامَ الأَوّل، ولا يعترف للحُبِّ والمبادرة والعطف إلاّ بدَوْرٍ ثانويٍّ.

وقد وَصَفَ الأَب پيير حالَ "عمّاوس" آنذاك بقوله: "بغتةً، وفي غضون بضع ساعاتٍ (في أَعقاب انتفاضة العطف)، اتّخذتْ "عمّاوس" حجمَ شَجَرة وارفةِ الظِّلال، سُرعانَ ما ناءَت غُصونُها بوِقْر الثمار الوفيرة؛ ثمَّ ما لبثت الثِّمار الَّتي سقطتْ أَن ضربتْ جُذورًا في الأَرض، وقد أَدّى كثيرٌ منها، وما انفكّ يُؤَدّي، إلى تكاثُر أَشجارٍ أُخرى، متشابهةٍ، في شتّى أَرجاء فرنسا، وفي مختلف أَنحاء البسيطة، وتحت شتّى الأَشكال... الغابةُ كلُّها مُشارَكةٌ وتبايُنٌ، تشابكٌ وتصادُمٌ بين الجذور والفروع. فعسى أَن تكون غابة "عمّاوس" هذه، لجماهير متزايدةٍ باطّرادٍ، وبفضل وفاء الجماعات ومسؤُوليها، احتياطيًّا، ومنبعَ حياةٍ لا ينضب، وعَوْدةً إلى الحياةِ الحقَّة".

وكانتْ حياةُ الأَب پيير، في تلك الآونة، سِجالاً بين محاولات صوْغ تصوُّرٍ لتنظيم جماعات "عمّاوس" في فرنسا، وانطلاقٍ إلى العالَم الرَّحب لريّ غرسات "عمّاوس" الآخذة في النموِّ والرُّسوخِ تحت كُلِّ سماء؛ وكانت أَيضاً، تَناوُبَ نشاطٍ جَيَّاشٍ، وانحطاطٍ ناجمٍ عن الإِرهاق، يودي به إلى هدأَة المشافي وصَمْتها، حيثُ خضَع الأَب، خلال تلك الحقبَة، إلى سبع مُداخلاتٍ جراحيّة.

إثر فترة استشفائه الأولى، كانَ الأَبُ قد تأَمَّل طويلاً في مسيرة "عمّاوس" ومصيرها، وراودتْه فكرةُ تأْليفِ كتابٍ بعنوان: "ما يبحثون عنه في عمّاوس". وكان الواقعُ الأَوّل الذي فَرَضَ ذاته على قناعَاته أَنّ "عهد القطيع الأَخويّ الصَّغير، الَّذي كان يتنفّس بروحٍ واحدةٍ"، قد ولّى، وإِن هو مازال يبعث في نفسه ونفوس عدَدٍ من الرُّوّاد الأَوائل، ورفاقٍ آخَرين، حرصوا على السير في إِثرهم، حنينًا موجِعًا".

الإِدارة المركزيَّة الَّتي كان يضطلع بها حتَّئذٍ، كانت قائمةً على المحبَّة المُتبادَلة، والمشارَكة الصَّادقة. وكانتْ قد برزت الحاجة إلى مثل تلك السُّلطة المركزيَّة، في أَعقاب انتفاضة العَطْف، لطمْأَنة الرَّأْي العامّ. غير أَنّه، في إِثْر التوسُّع المُذْهل واللاّمُتوقّع الَّذي انتهت إِليه "عمّاوس"، بات جليًّا أَنّ مواصلة الإِنماء، وترسيخ المستقبل يمرّان عبر مرحلةٍ من اللاَّمركزيَّة والتَّنسيق، إِذ غدا من المتعذّر على أَيّ قائدٍ أو إِدارةٍ مركزيَّةٍ الإِلمام بكُلِّ شيءٍ. وقد كتَبَ الأَب في هذا الشأْن:

« إِنّ وجود أَلف رفيقٍ في عشرين جماعةً في فرنسا يُولّد من التبعثُر ما يجعل

أَيَّة إِدارةٍ مركزيَّةٍ مُستحيلةً، بحيثُ إِنَّ كلَّ محاولة رَقابةٍ دقيقةٍ وواثقـةٍ، قادمـةٍ مـن سُلْطةٍ بعيدة، لا يمكنها أَن تكون إِلاَّ ضئيلةَ الجدوى، وسببَ تَوَتُّرٍ لا طائلَ تحته. ومن ثمّ، فإِنَّ الحلَّ الأَمثلَ يكمُن في أَن يتولّى، محلِّيًّا، أَشخاصٌ مُؤَهَّلون (رفاقٌ جمـاعيّون وأَصدقاء) معًا، وعلى مسؤوليّتهم الخاصّة، وبصفتهم راشدين، إِدارة العمل ». وفـي سبيل ذلك، لا بدَّ للجماعات من التمتّع بالاستقلال القانونيّ والمـاليّ، ومـن تعـاوُن إِدارتها مع لجنةٍ رُباعيّةٍ من أَصدقاء وإِخوةٍ، ومن خضوع إِدارتها الماليَّـة لجمعيّـةٍ مُرَخَّصٍ لها رسميًّا؛ وترتبط الجماعاتُ فيما بينها بمكتـبٍ مركـزيٍّ، فيمـا تـرتبط الجمعيَّات باتّحادٍ وطنيٍّ سيكون النّواةَ لاتِّحاد "عمّـاوس" الـدَّوْليِّ. وهكـذا تـنهض "عمّاوس" على أَربعة أَركانٍ: محلّيٍّ، وقُطْريٍّ، ومركزيٍّ، ودوليٍّ.

وكان الأَبُ موقِنًا بوُجوب اختبار الرِّجال لفرز أكثـرهم طاقـةً علـى العمـل، وتكليفهم بمهامّ قياديّةٍ، وارتأَى أَن تُوزَّع المهامُّ بين سُلْطتين متكـاملتين تحـت رأسٍ واحدٍ، سلطةٍ للقرار وأُخرى للعمل.

وقد شرع الأَب، في تلك الفترة، يتنازَل، شيئًا فشيئًا عن بعض مسؤوليّاته، مكلِّفًا كلَّ ذي كفاءَةٍ بالمُهمَّة الّتي يُحسِنُ أَداءَها، بحيثُ يتبوَّأُ كلٌّ من الرفاق المَوْقـع الَّـذي يسَعُه أَن يكون فيه مُجديًا ومُجلِّيًا، ويأتي فيه بأَفضل المُبادرات. وقـد صـرّح بهـذا الشأن: "حالما كان يبدو لي أَحدُهم مُلتزمًا بالقِيَم الجوهريّة، ومتأَهِّبًا لبـذْل ذاتـه، وذا كفاءَةٍ، كنتُ أَقول له: "هيّا، افعل ما تجيد فعله". وكان يضيف عابثًا: "كنتُ أَوَدُّ تزويج بناتي، ومواصلة مواكبتهنّ عن كَثَب، ولكن غير راغبٍ في أَن أُصبح حَماةً".

وكان الأَب موقنًا أَنَّ بقاءَ "عمّاوس" واطِّرادَ نموِّها مرهونـان بوفائهـا لـروح الرِّيادة الأُولى، والنَّهل الدَّائم من مَعينها، وبتحـالفٍ مُثمـرٍ بـين عناصـر ثـالوتٍ مُتضامنٍ: الرَّفيق والصَّديق والأَخ الّذين يُمثّلون المُغامرَ والواقعيّ والصوفيَّ.

فالرِّفاقُ هم المُتَطوِّعون المُلتَزمون التزامًا كاملاً ودائمًا بعمَّاوس، ومن صفوفهم يُنتخَب قادةُ الجماعات. وهم، عمومًا، من الرجال العازبين الّذين لا تُقيّدهم ارتباطاتٌ عائليّة.

أَمّا **الأَصدقاءُ**، فهم مناضلون أَثارتْ أَهداف "عمّاوس" وأَساليبها حماسهم، فباتوا،

إلى جانب التزاماتهم العائليَّة والمهنيَّة، يُكرِّسون لعمَّاوس أَوقاتَ فراغهم، وينشرون رسالتَها، وتحدّيَها للظّلْم والاعْوِجاج، ويتميَّزون، فضلاً عن تفانيهم المادِّيِّ، بتشبُّعهم من روحانيّة "عمّاوس"، وبفضل اتّصالهم الدائم بجماعاتها؛ وهم يستقدمون لها المساعداتِ المادِّيَّة، وتتولّى فئةٌ منهم إدارةَ الشُّؤون الماليَّة.

ومن الأَصدقاءِ القدامى يبرُزُ وجهان مُتميِّزان، هما "أندريه بيرشيه" و"جورج ليلاز".

كان "بيرشيه" يمتلك مصنعًا للنَّسيج، وقد التقى الأَب پيير عام ١٩٥٣، بمناسبة شراء "عمّاوس" لأَرضٍ في موقع "پليسّي تريـڤيز". وقد أَقنعتْه مشاهدتُه لوقائع البُؤْس بتكريس عطلاته على مُساعَدة الأُسَر المحرومة، فتنقَّل بين عدَّة جماعاتٍ، راغبًا في مدِّ يَدِ العَوْن، متأَلِّمًا من عَجْزِهِ عن مُساعدةٍ حقّةٍ. إلاّ أَنّه، حيالَ بُؤْس الأُسَر في موقع "الپومپونيت"، عقَدَ عزمَه على تخفيف حرْمانها، بتوفير الماء والكهرباء والمراحيض لها، ضامًّا، في ذلك جهودَه إلى جُهود مُتَطوِّعٍ آخرَ. وقد استجاب "پول" لرغبتهما في المساعدة، وأَذن لهما أَن يفعلا ما يستطيعان، وهو، في قرارة نفسه، مُرتابٌ في قُدْرتهما على الصّمود أكثرَ من يومَيْن. غيرَ أَنّهما كذَّبا توقّعاته، ففي غضون شَهْرٍ فرغا من حَفر بئرٍ، ومن إِشادة مراحيض ومغاسل، ثمّ ما لبثت الكهرباءُ أَن أَضاءت المكَان.

وقد استعان "برشيه" بمُتَسوِّلٍ، كان، من قبلُ، بنّاءً. وبفضل ما أَسبغ عليه من كَرَمٍ وتشجيعٍ، وما أَغدق عليه من نبيذٍ، جعلَه يستعيد مهاراته، ويُوفِّر لسُكَّان "پومپونيت"، الكثير من المرافق والإصلاحات التي جعلت شروطَ سكنهم أَفضل. ومُضيًّا في تكذيب توقُّعات "پول"، أَقام "بيرشيه" نفسُه، سحابةَ ثلاثة أَشهرٍ، في موقع "پومپونيت" في كوخٍ، فوقَ التُّراب، محاطًا بجيشٍ من الجُرذان؛ ثمَّ انتقل إلى مواقع أُخرى، وقد استحوذتْ عليه عدوى "عمّاوس"، وأَخذت الرَّغبةُ في خدمة المحرومين بمجامع فؤاده. وغالبًا ما رافق الأَب پيير في أَسفاره ومهمّاته، أَو عمل سائقًا لپول. وعندما انضمَّ إلى لجنة الإدارة في شارع "بوردونية"، احتلَّ مركزًا استأْهلَه بجدارةٍ، إذ كان أَكْثرَ أَعضاء اللجنة تورُّطًا على الأَرض. واستمرّ، أَخيرًا، في موقع "بوجيڤال" إلى جانب المسؤول عنها "إيميل بلوت"، الّذي، رغمَ ماضيه الحافِل بالمخازي، أَثبتَ، في موقع المسؤُوليّة، كفاءَةً نادرة.

وفي "بوجيــقــال" كانت فُرَصُ الخدمة وفيرةً، فظروف عيش الـستّين رفيقًـا العاملين هناك، تكادُ تكون مأْساويّةً: فهم يرقدون، جميعُهم، في تخشيبةٍ قذرةٍ وبيلــةٍ، ولا يُفيدون إلاَّ من خَدَماتِ صُنبور ماءٍ باردٍ واحدٍ، ومرحاضَيْن. أَلَم يكونوا في زُمرةِ الأَكثر حرمانًا الَّذين يتعيَّن خدمتهُم، في المقام الأَوَّل، وفق معيار "عمّاوس" كي يُمسوا أَشدَّ قدرةً على خدمة الآخرين؟

وبحث "برشيه" عن صديقه المُتَسوِّل البنّاء إلى أَن عَثَر عليه، ومعه شرَعَ بإِنشاء مغاسل استحمام عدَّها ضرورةً أَوَّليَّةً لرفاق ينغمسون، طيلةَ النهار، في الأَقذار. ثـمّ أَشادَ بناءً يتأَلَّف من عدّة غرفٍ، يتّسع كُلٌّ منهـا لأَربعـة أَسـرَّةٍ، وبفـضل هـذه التَّحسينات، بات الرفاقُ أكثرَ اندفاعًا في العمل، وغدتْ جماعةُ "بوجيــقــال" مـن أكثر جماعات "عمّاوس" جدوى وإِنتاجيَّةً؛ وقد استخدم "برشــيه" قِـسْطًا مـن دخـل الجماعة المتزايد كي يُزوِّد مقرَّها بمزيدٍ من المرافق الصِّحِّيَّة، ويُوَفِّر للرِّفاق طعامًـا أَوفرَ وأَدسمَ، وأَلبسةً إِضافيَّةً يستطيعون أَن يستبدلوا بها أَلبستَهم المُتّسخة.

بَيْد أَنَّ تلك التجربةَ على أَرض الواقع، رَسَّختْ لدى "برشيه" اليقــينَ بـأَنَّ مـا يزعمُه الأَبُ پـيير من "بعث" المنحرفين، وإِيلائِهم مراكز المـسؤُوليّة، إِنْ هـو إِلاّ وهمٌ؛ فمُعظمُ مسؤولي الجماعات يُنهِكون بالعَمَل رجالَهم، ولا يُـوفّرون لهـم مـن مُستَلزمات العيش الكريم الأَساسيَّة سوى النَّزْر اليسير، فيما الأب غالبًا غائبٌ، يـتكلّم باسم جميع فقراء الأرض، وهو غافلٌ عن معاناة رجاله. وعلى هذا الاتّهام كان الأَبُ يردُّ بالقول إِنّ عربة "عمّاوس" تجرُّها خيولٌ من أَجناسٍ شديدة الاختلاف، وهي كثيرًا ما تجرُّ العَرَبة في اتجاهاتٍ متنابذة.

وما ينهض دليلاً على صحّة قول الأَب پـيير أَنّ صديقًا آخـرَ مـن أَصـدقاء "عمّاوس"، صديقًا كان لها منذُ السَّاعات الأولى، ولم تفتر صداقتُه لها، يومًـا، هـو، أَيضاً، كان رجلَ أَعمالٍ من أَرفع طرازٍ، واسمه "جورج ليلاز"، صـاحب المخـزن الباريسيّ الكبير الشهير "B.H.V"، الّذي منذُ نشأة "عمَّاوس"، لم يكفَّ عن مُـساندتها، ولم يتوانَ، يومًا، عن لقاء الأَب پـيير؛ ورغم مشاغله الجسيمة الَّتي غالبًا ما كانـت تضطرّه إلى الطَّيران إلى أَقصى بقاع العالَم، لم يتخلَّفْ، مرَّةً، عن حضور جلـسات

إِدارة "عمّاوس"، حيثُ وقَفَ، دائمًا، إلى جانب الأب پـيير، ولم يبخلْ، قطّ، لا بماله ولا بوقته، مؤدِّيًا، بسخاءٍ، قِسْطه الثَّمين من المساعدة. غير أَنّه، مع كُلِّ ما شهدَه من أَمجاد "عمّاوس" ومواطن ضعْفها، لم يتراخَ، يومًا، اندفاعُه في خِدْمتها، ولا اهتزَّتْ، ثقتُه اللاّمشروطة بالأَب پـيير؛ وربَّما هو كان، في مخزنه، شديدَ الحِرْص على نظامٍ واستقامةٍ لا هوادةَ فيهما ولا تهاوُنَ، إلاّ أَنَّه، مع رفاق "عمّاوس"، كان مُتسامحًا، مُتَفَهِّمًا، مِعْوانًا.

ومن أَصدقاء "عمّاوس" من شهِدوا لها بجُرأَةٍ، وفي سبيل تلك الشَّهادة لم يخشوا إِلقاءَ أَنفسهِم في اليَمّ.

فثمَّةَ محامون تطوَّعوا للدّفاع، في المحاكم، عمَّن لا ملجأَ لهم، وعمَّن، منهم، احتلّوا مساكنَ شاغرةً، ففقدوا، بذلك، زبائنَهم من الملاّكين القادرين على أَداء الأُجور المُجزِية، وبذلك شهدوا لعمّاوس ورسالتها، أَمام هؤلاء الملاَّكين، وأَمامَ القضاء، ولو كان ثمنُ شهادتهم باهظًا. وقد اكتسبتْ شهادتُهم بُعْدًا أَعمق عندما اتَّضح أَنّهم ليسوا، في مِحنتهم، عُزَّلاً وحيدين، بل أَنّ شبكةً من إِخوانهم قد حيكتْ للتَّضامن معهم، ولتدعيم شهادتهم. فبوحي من هذا الرّوح، مثَلاً، قامَ اتّحادُ "بناء"، في غَمْرة حركة احتلال المساكن الشّاغرة، ضامًّا كوكبةً من المحامين الّذين تطوَّعوا للدِّفاع، مجَّانًا، عن مُحتلِّي المساكن الشَّاغرة، ولمساعدة زملائهم، ولا سيّمَا الشّباب المبتدئين منهم، الَّذين، بعَمَلهم الجريء، كانوا يُخاطرون بمستقبلهم المِهنيّ، فَهَبَّ لنَجْدتهم زملاءُ أَشدُّ رُسوخًا في ممارسة المهنة، وأَمتنُ قدرةً ماليّةً، وتنازلوا لهم عن جزءٍ من قضاياهم. وكثيرًا ما اتَّفق أَن ترافع في قضيَّةٍ واحدةٍ، محاميان صَديقان لعمّاوس، كلّ منهما يُمثِّل خَصْمًا، ولكنَّهما يقفان ما يكسبانه، كلاهما، من أُجورٍ، على الدِّفاع، مجّانًا، عمَّن لا مأوى لهم.

بَيْدَ أَنَّ الأَصدقاء، مع وفرتهم، لم يُثبتوا، جميعُهم أَنّهم، حقًّا، كانوا عونًا لعمَّاوس، فالتَّعاطف معها كان يجعل بعضهم يوجسون خشْيةً على مصالحهم، فيما كان آخرون، وقد جاؤوا بدافع الحماس الجامح لشَخص الأَب پـيير، يُصدَمون بسلوك بعض رفاقه، وبماضيهم المُثْقَل بالمخازي، فلا يلبث أَن ينقلب اندفاعهم عداءً. ولئن تغلَّب

أَصدقاءُ السَّاعات الأُولى على التَّناقضات، حبًّا بالأَب، وإِيمانًا برسالة عمَّاوس، إِلاّ أَنَّ مُعظَم القادمين، حديثًا، كانت الصَّدمةُ ترعبهم، وتدفع ببعضهم بعيدًا.

أَمّا **الإِخوة** فيُمثِّلون روحَ "عمّاوس" وصُوفيَّتَها، وهم فئةٌ من الكهنة والإِكليريكيّين، انضمّوا إلى "عمّاوس"، واندمجوا بالعاملين فيها ومعها، وقد حدَّد الأَب مهمَّتَهم المُزدَوجة: تنظيف التُّربة وانتزاع الأَشواك، من جهة، ومن الجهة الأُخرى إِنماء النِّعمة الإِلهيَّة في قلوب الرّفاق، وحَفْز التَّوَّاقين منهم للحياة الرُّوحيّة إلى تعميق تلك النَّزعة وترسيخها. إنّهم السُّلْطةُ الأَدبيّة التي تُلهم وتحرِّك، وعليهم أَن يكونوا الملجأَ المِضْياف، والمِنخَسَ والخميرة؛ ومن الخير لهم ولسواهم أَلاَّ يتدخّلوا في شُؤون المال والإِدارة اليوميَّة، بل الاقتصار على مُهمّة الارتقاء بمن قُيِّض لهم النهوضُ من كبوتهم؛ وعليهم، أَكثر من التمرُّس بالعلم واللاّهوت، التمتّع بالقُدْرة على التفهُّم الإِنسانيّ، وبالخبرة المعاشة مع الجماعات. وقد نهَضَ، فعلاً، بمُهمّة الإِخوة، كهنةٌ قَرَنوا الغيرةَ بالتّواضع، وأسهموا، إلى حدٍّ بعيدٍ، في انطلاق الجَماعات، وتقويم اعوِجاجها، وقد أَمسى بعضُهم للجماعات مُرشِدين ومستشارين.

ولئن كانت كُلّ جماعات "عمّاوس" ترتكز على أُسُسٍ مُتماثلة، إِلاَّ أَنَّ لكلٍّ منها أُسلوبَها الخاصّ. وكان بعض الرّفاق الجدُد، يتنقّلون من جَماعةٍ إلى أُخرى حتّى يعثُروا على المُناخ الَّذي يُسعدهم التأَقلُم معه، والعملُ في أَجوائه، فيستقرّون في الجماعة الَّتي يرتاحون إلى أَنماط الصَّداقة والسُّلطة السَّائدة فيها.

وكان الأب قانعًا أَنَّ أَيَّ تنظيمٍ، على ضرورته، مكتوبٌ له الفشَل، إِن هو لم يُراعِ التَّرابُط بين العمل والخدمة، وإِن لمَ يشعر أُولئك الَّذين "يُنقِذون أَنفسَهم" بالعمل الوضيع، أَنّهم يُنقِذون الآخرين بالخِدْمة والعطاء.

وبوحيٍ من تلك الرُّوحِ انبثقتْ، في تلك الفترة، جماعاتٌ جديدةٌ نموذجيَّةٌ تحمل رسالة "عمَّاوس"، وتنهج أَساليبَ ريادتها البُطوليَّة، وأَهمُّها جماعة "بورد" الَّتي ارتبطت شُهرتُها باسم قائدها "پول بودوان". و "پول" هذا كانَ شمّاسًا في الثانية والعشرين من عمره، يصبو إِلى عملٍ رسوليٍّ خارج إِطار الخِدْمة الرعويَّة، الَّتي كان يراها جامدةً كسلى، ميَّالةً إلى البورجوازيَّة، ولا سيَّمَا في أَحياء المدينة الغنيّة. وفيما كان يتلمَّس دربه في هذا المضمار، طرقَ سمعَه وبابَ قلبه نداءُ الأَب پيير،

فهرع إلى "عمّاوس" حيثُ استقبله الأَب "نوربير"؛ وفي غمرة "انتفاضة العطف"، عمل جاهدًا في محطَّة "أُورسي"؛ ثُمَّ كُلِّف بإِدارة جماعة "بورد" خلَفًا لإِكليريكيٍّ آخَر كان يتولّى، قبلَه، تلك الإِدارة، واضطُرَّ إلى التخلّي عنها، في أَعقاب حادثٍ أَلمّ به.

و"بورد" كانت مزبلةً متراميةَ الأَطراف، في شرقيِّ باريس، تُقذَف فيها، كلَّ يومٍ، أَطنانُ النّفايات الَّتي تمتدُّ إِلى ما لا نهاية. وقد نشأَتْ، في جوارها، إِحدى جماعات "عمّاوس"، تضمُّ ثُلَّةً من المُتَطوِّعين العُتاة الَّذين يكدحون عشرَ ساعاتٍ يوميًّا في التقاط النّفايات وفرزها.

وإِلى "بورد"، ذلك المطرح المهجور، كان يُنفى، من الجماعات الأُخرى، كلُّ رفيقٍ يسلُك سُلوكًا إِدًّا، وتلفظه، بالتَّالي، جماعتُه، كي يتعلَّم الانضباط، ويتمرَّس بالاستقامة.

ومن ثَمَّ غدتْ جماعةُ "بورد" رمزًا لروح "عمّاوس" الأَصيلة، على نحو ما هي نشأَت في الدَّياميس، في العُزْلة ومعالجة النِّفايات، وأَمست مدرسةً لعمل "عمّاوس" الجوهريّ، ولرسالتها الحقَّة، حيثُ الدِّقَّةُ في العمل قاعدةٌ لا تقبلُ أَيَّ تهاوُنٍ، فيها يتثقَّف المُتطوِّعون، ويُعادُ تثقيفُ من تقاعسوا في جماعاتٍ أُخرى. فيها يتعلَّم الرِّفاق التمييزَ، من النظرة الأُولى، بين شتَّى أَنواع النِّفايات، وتقديرَ قيمة كلٍّ منها، وفرزَها بعنايةٍ، ويعملون، على هذا النَّحو، السَّاعاتِ الطِّوالَ يوميًّا، غيرَ طامعين في أَجْرٍ سوى عشرين فرنكًا شهريًّا، بالإِضافة إلى لفافات التَّبغ لمن، منهم، يُدَخِّنون.

للقادمين الجُدُد، ولا سيَّمَا الَّذين تُنفْذهم إلى "بورد"، تأْديبيًّا، الجماعاتُ الأُخرى، يبادر "پول" بإعلان القاعدة الأَساسيّة: لا طعامَ بلا عَملٍ. غير أَنّ من يكدَحُ يحقُّ له طعامٌ جيِّدٌ. ويحرص "پول" على تنفيذ هذا الشَّرط حرصَه على جدِّيَّة العمل، ويهرع، في نهاية كُلِّ يومٍ، كي يوافي رفاقَه باللَّحم والطَّعام الكافي الجيّد، غير مستثنٍ سوى النَّبيذ، بعد أن شهِدَ آثارَه المُدَمِّرة، ولا سيّمَا في تلك النفوس الَّتي كانتْ مُهَشّمةً قبل انضمامها إلى "عمّاوس".

والعامل في "بورد"، طالما هو مُتَطوِّعٌ، يعملُ مجَّانًا، لا يجدُ أَيَّةَ غَضاضةٍ في العمل الوضيع القَذِر؛ غير أَنَّ ما قد يُسبّب له الضّيقَ هو عدم كفاية خبرته؛ أَمّا عندما يتمرَّس بقَدْرٍ كافٍ من الخبرة والكفاءَة، فيغمره الشُّعورُ بالكرامة، مثل أَيِّ عاملٍ، بل أكثر من أَيِّ عاملٍ، لأَنَّه لا يعمل في سبيل أَجْرٍ، بل يحدوه هدَفُ إِنقاذ نفسه وإِنقاذ الآخرين.

"وپـــول"، في هذا المضمار، خَيْرُ أُستاذٍ يوفِّر الخبرة والكفاءة، بحِرْصــــه علــى العَمَل المُتْقَن، حيثُ لا يهاوِد أَحدًا، ويُخضع لمعاييره الدَّقيقة الجميع بلا استثناءٍ، حتّى مرشدي "عمّاوس" الرُّوحيّين، عندما يُشاركون الرِّفاقَ عملَهم، مثل الآباء "نـــوربير"، و"دوڤــاليه"، و"ليران" وقد اتَّفق أَن عَمِلَ الأب "دوڤــاليه"، ثمّةَ، نصفَ نهارٍ؛ وعندما راقب "پـــول" عملَه، أَعلن له بصراحةٍ:

– « ما عليك سوى أَن تُعيدَ عملَك بأكمله، في فترة الغداء، ففي الكومةِ الخاصّةِ بك قد اختلط الأَبيضُ بالأَسود، وهذا أَمرٌ نرفُضُه، فنحن نحترم عملَنا، ونقوم بـــالفَرْز بِحرْصٍ ووِجدان ».

وبعدَ أَن أَعادَ الأَبُ فرز كُلِّ شيءٍ، قال له "پـــول":

– « في الواقع، لا فرقَ لدينا بين أَبيض وأَسود، فكلاهما يُباعان بسعرٍ واحـــدٍ، ولكنّ المهمّ لدينا هو الانضباطُ المهنيّ المُطلَق، وإِلاّ فما جدوانا؟ »

يومَ كُلِّف "پـــول" بتَوَلّي إِدارة جماعة "بورد"، كان قد اعترض:

– "ولكن ليس لي أَيّةُ خبرةٍ في هذا المضمار"

فلم يتلقّ من جوابٍ سوى:

– "تدبّر أَمرك!"

وهكذا أَلفى نفسه، بغتةً، بين ليلةٍ وضحاها، على رأس أَربعين من الرِّفاق العُتاة، القُساة الرِّقاب، الكادحين طوالَ النّهار كي ينتزعوا، من أكوام القمامة، نفاياتٍ لفَظَهـــا الآخرون، فيبتاعوا بها خُبْزًا وطعامًا ولباسًا وكرامةً، وبما يفيض يخدموا مَنْ هم أكثرُ منهم فَقْرًا وحاجةً. وما لبث أَن أَصبح، بفضل جِدّه والتزامه، أُستاذًا لا يُجـــارى فـــي العَمَل المُتْقَن.

وفي "بورد" تلقَّن پـــول صُوفيّةً جديدةً حيثُ انتزاع الجَيِّد من النّفايـــات يُعـــادل إِنهاضَ السَّاقطين إِلى الكَرامة المُستعادة، وأَدركَ أَن أَساس "عمّاوس" يرتكز على تلك الصُّوفيّة عينها.

وتلقّن أيضاً درسًا ثمينًا: وهو أَنّ كلّ شيءٍ يُمكن إِنقاذُه.

ومنذ مثوله إِلى موقع "بورد" لم يُبارحْه يومًا واحِدًا، سحابةَ سنتَيْن، عاملاً بتفانٍ

لا عهدَ به بالتَّواني، على رأس رجاله؛ ولا عَجَبَ، بالتَّالي، إن أَطلقت عليه جماعات "عمّاوس" اسم "پـول بورد"

وبرزت أَيضاً، في تلك الفترة، جماعة "سيرني"، التي تميَّـزت بتـاريخٍ فريـدٍ. وكانت مغامرتها قد وُلدت يومَ عَقَدَ أَربعةٌ من الرفاق عزمَهم على ضفْر جُهـودهم، والمُضيّ بشاحنةٍ هَرِمةٍ لجمع نفايات الأَوراق بعيدًا عن الضَّاحية الباريسيَّة. وقـادهم التجوالُ إلى الأَلزاس، مسقِطِ رأس أَحدهم، حيثُ وجدوا ملجأً لدى ذويه، وانضمَّ إليهم إكليريكيٌّ. وغَدتْ شاحنتهم تمتلئ، كلَّ يومٍ، وتعودُ إلى العاصمة بشحنةٍ من الـورق المفروز المعَدّ لإعادة التَّصنيع. وسُرعان ما اختمرَت في ذهن الرفاق الخمسة فكـرة تأسيس جَماعةٍ لعمّاوس في "سيرني". فاستعان الإِكليريكيُّ بالأَب "غاستون"، خـوري المحلّة، وهو مناضلٌ مندفعٌ غزتْ رسالةُ الأَب پـيير قلبَه وقناعاتِه، فهرع إلى بلديّة المدينة مُطالبًا إيّاها بمنح رفاق "عمّاوس" قطعةَ أَرضٍ كي يُنشئوا عليهـا مركـزًا لجماعتهم العاملة في خدمة المحرومين. واستعان الإِكليريكيُّ، أَيضاً، بأَصدقاء له من الشبيبة الكاثوليكيّة العاملة، والنّقابيّين المُلتَزمين، وبلَجنةٍ محلِّيَّةٍ معنيَّةٍ بمن لا مـأوى لهم، وقد أَسهمت تلك اللَّجنة مادِّيًّا، في تأسيس جماعة "عمَّاوس" في "الألزاس".

وبما أَنّ ذكرى شباط ١٩٥٤ كانت ما زالـتْ تخـتلج فـي الأَذهـان، أَشـار المسؤولون البلَديّون على الرّفاق استخدام مكانٍ إلى جوار مرمى القمامة، مُنْعزِلٍ عن المدينة. وقد استقرّت الجماعة بينَ دمنة القمامة وسكَّة الحديد، في هيكل حافلةٍ عتيقةٍ مهجورةٍ، حُوِّلتْ مُقدِّمتُها إلى مطبخٍ، وحلَّت مدفأةٌ محـلَّ مُحرّكهـا، فيمـا تحوَّلـتْ مقاعدها إلى أَسِرَّةٍ للنَّوْم. وفيما عدا زهيرات برِّيَّةُ نادرةً، لم تكن آفاق المكان تتفـسح إلاّ عن أَكوام قمامةٍ تسرَحُ فيها فئرانٌ ناشطةٌ، و هِرَرٌ جائعةٌ شاردة.

ولكن، في غضون أَسابيعَ معدودات، انبثقت حياةٌ جديدةٌ في ذلك المكان المُنَفِّـر المهجور؛ فبفضل مساعدة لجنة المدينة، تمَّ شراءُ شاحنةٍ جديدةٍ، أَوفَـر همَّـةً مـن السَّابقة، سُرعان ما أَلِفَتْها مناطقُ الجوار. ثُمَّ شَرَعَ يتقاطر إلى جماعة "سيرني" رجالٌ هَشَّمتْهم قَسْوةُ الحياة، وضاقوا ذرْعًا بالوحدة، فوافوا يبتغون مشاركةَ الرّفاق عَمَلَهـم الشاقّ، ومع أَنّ لمعظمهم ماضيًا حافلاً بالقتام، لم يكن أَحدٌ منهم يُسأَل عن ماضيه.

طوالَ الأُسبوع، كانوا يكدحون بجدٍّ، ولكنَّهم في أُمسيات السَّبت والأَحد، يطوفون على الحانات، فيشربون حتّى الثّمالة، وتطفو مرارةُ الماضي على أَسطحة نُفوسهم، فيفقدون السَّيطرة على أَزمَّة ذواتهم، ويُعربدون، ويثورون لأَدنى كلمة، ويتشاجرون فيما بينهم ومع الآخرين؛ ثمّ يعودون صباحَ الإِثنين مُطرِقين، محطَّمِي النُّفوس والأَجساد، محاولين إِصلاح ما أَفسدوه.

وبعد أَن تكرّرت تلك الفضائح، وتداولتْها الأَلسُن، متذرِّعةً بها للطَّعن بعمّاوس ورجالها، وخشيةً على سمعة "عمّاوس"، أَنْفَذَ الأَبُ پيير أَحدَ الرِّفاق، واسمه "هنري دوبيجيس" كي يُصَفِّي جماعة "سيرني"، في غضون ثمانية أَيّامٍ. وهنري هذا كان هزيلَ الجسم، هَشًّا، لم يأْلَفْ، قطُّ، الأَعمالَ الشاقّة، ويشكو من حَسَرٍ بَصَرٍ مُفرطٍ، بالإِضافة إِلى عجزه عن فهم لهجة أُولئك القوم العُتاة، الغريبة عنه؛ فاتَّخذ لنفسه حارسَيْن شديدَي المراس، أَحدهما من الرّفاق الأَربعة مُؤَسِّسي الجماعة. وخلافًا لكلّ توقُّع، ما لبثَ أَن أَعلن أَنّ تلك الجماعة قادرةٌ على البقاء، إِن هي نُظِّمت تنظيمًا ملائمًا. وفي هذا السَّبيل، تغلَّب على كُلِّ مُعوِّقاته وهبَّ للعمل، فاستقدم من محلّة مجاورةٍ تخشيبةً جعل منها مركزَ قيادةٍ للجماعة، ومَوئلَ استقبال؛ وبذل جُهودًا مُضنيةً دعمتْها إِنسانيّته الرَّقيقة، وصبرُه المنيع، واستقامتُه النَّاصعةُ الَّتي لا تشوبها ريبةٌ. وعكفَ على تثقيف أُولئك العُتاة مُثيري الشَّغَب، جادًّا في تسوية ما أَفسدوه مع السُّلطات والأَهالي، ونافثًا فيهم روح "عمّاوس" الحقّة، المُتَمثِّلةَ في استعادة الكرامة، بفضل إِغاثة الآخرين، ولا سيّمَا أَنّ سوانح العمل في مضمار الإِغاثة كانت وفيرةً، فالأُسَر الَّتي تُعاني أَزمة السَّكنَ، وتنتظر الغَوْثَ، لا تحصى.

وقد عاضَدَ هنري في جهوده أَربعةُ أَصدقاء شاركوه عزمَه على إِثبات أَنَّ جماعة "عمّاوس" في "الأَلزاس" جديرةٌ بالبقاء. أَحدُ هؤُلاء الأَصدقاء، بل زعيمهم، كان الأَب "غاستون"، والآخرون أَحد أَصدقاء الأَب، واسمه "فيليپ"، وزميلٌ له شيوعيٌّ، كان إِعجابُه بالأَب پيير بلا حدودٍ، وأَخيرًا مناضلٌ في منظّمة الشَّبيبة المسيحيّة العاملة يدعى "مارسيل مونتاليتّي"، كان يدفعه الفضول إِلى مشاهدة أُولئك "القوم غير العاديّين" وحيَّره أَمرُ ذلك الفريق الهجين الذي يضُمُّ محاربين وسكارى، عندما شاهدهم يكدحون، مَنْكبًا إِلى منكبٍ، لإِنقاذ بعض أُسَرٍ من محنها، فريقٌ غريبٌ

تُسانده لَجنةٌ رباعيَّةٌ، هي أَيضًا مُتباينة المشارب، ولكنَّها متضامنةٌ في مُواجهة شَـــقاءِ الآخرين، متلاحمةٌ في خدمة الأَكثر حرمانًا.

وإِذ كان بين يَدَي الأَب "غاستون" ثبْتٌ بنحو عشرين أُسْرَةً تعاني أَزَمَـــة سَـــكَنٍ حادَّةً، فقد تعاون وجماعة "عمّاوس" على بناء مساكن لهـــم، بعـــضها مـــن خـــشبٍ، وبعضها من إسمنتٍ مُسبَق الصُّنع استُقْدِم من "نويّي پـــليزانس"؛ وما لبث أَن تقاطر، لمدّ يد العون، طيِّبو النَّوايا من الأَهالي، الَّذين محوا من ذاكرتهم ما كان يُثيرُه رجالُ "عمّاوس" من شغَبٍ، وباتوا يتطوَّعون، كُثُرًا، ولا سيّمَا في نهايات الأَســـابيع، كـــي يشاركوهم في إِغاثة المحرومين.

وبإِفلاحها في إِيواء خمس أُسرٍ، قبل عيد ميلاد ١٩٥٦، وبتوفيرهـــا مـــساعداتٍ قيّمةً لنحو عشرين أُسرةً أُخرى، استحقّت جماعة "سيرني" حقَّ البقاء، ولا ســـيّمَا أَنّ أُسَرًا كثيرةً كانت ما زالت تلتمس عونها، وأَنّها أَفلحتْ في كَسْب ودِّ عُمّال المنطقـــة بما كانت توفّره لهم ولذويهم من خدماتٍ، وبتوفيرها لهم الملابسَ والأدوات المنزليّة، بأسعارٍ زهيدةٍ، ممّا كانت تجمعه من فضلات الأغنياء.

وبثمرة كَدْحها استطاعتْ الجماعة ابتياعَ شاحنتَيْن لجمع النِّفايـــات والفـــضلات، وأَمستْ تكسَبُ نحو مئة أَلف فرنكٍ أُسبوعيًّا، ما أَتاح لها مكافـــأة رجالهـــا بتحـــسين ظروف سكَنهم وعيْشهم. وبذلك أَثبت "هنري دوبيجيس" أَنّه كان مُحِقًّا في إِصـــراره العنيد على إِنقاذ "جماعة سيرني" من الإِعدام.

وعلى غِرار "جماعة سيرني" أَفلحت جماعاتٌ أُخرى، بقيادة مديرين شُبّانٍ جُدُدٍ، حازمي العزم، في إِصلاح أَوضاعها، وتحسين مستوى معيشة أَفرادها، والاستعاضة عن القاعات الجماعيّة غير الصِّحِّيَّة، بغُرَف نظيفةٍ لكلِّ أَربعةٍ منهم، مُزَوَّدةٍ بمغاســـل ووسائل استحمامٍ، وماءٍ حارٍّ هو ضرورةٌ أَوَّليَّةٌ لأُولئك الذين يقضون سحابةَ يـــومهم وَسْط الأَقذار والغبار. وقد تحقَّق ذلك باستخدام ربع دخل الجماعة من عملها، فيمـــا كان الباقي يُوزَّع بالتّساوي بين اتّحاد "عمّاوس" المحلّي، والمركز الرئيـــسيّ، وبنـــاء مساكن لمن لا مأوى لهم الَّذي يبقى هدفًا أَوْلَويًّا.

أَمّا الجماعات الَّتي، منذُ نشأتها، فاقتْ طموحاتُها طاقاتِها، فكان عليها أَن تـــتعلّم التطوُّر المُتواضع البطيء، على نحو ما جرى لجماعه "هازبروك" الّتي، منذُ مولدها،

اتَّخذت شفيعةً لها "سيّدة جميع الانتصارات"، وتَتَطَّحْت لمهامّ تتخطّى قدراتها، واستخدمت أَشخاصاً كثُرًا، عجزت مواردُها الهزيلة عن إطعامهم؛ وسُرعانَ ما اضطُرَّت إلى إغلاق أَبوابها مؤقّتًا، وإلى تعليق لافتةٍ تقول: "أَثناءَ غيابنا، نضع عذراءَنا تحت رعاية أَهالي "هازبروك". ثُمَّ تفرَّق الرِّفاقُ بين مختلف جماعات "عمّاوس"، حيثُ عملوا جادّين إلى أَن "وُلد، من جديدٍ، الأَمَل في انتصاراتٍ متواضعةٍ، لأَنّها ناجمةٌ عن الانتصار على الذّات".

أَما في "بريست"، فقد كان للعمل الأَوْلويّةُ على تأسيس الجماعة، ففي شتاء ١٩٥٥ – ١٩٥٦، اضْطلع نحو عشرين رجُلاً بإيواء من لا مأوى لهم، والعناية بالمشرَّدين، والاستيلاء على المساكن الخالية، وجمع الخبز وتوزيعه على الأَهالي، أَثناءَ إضرابٍ قام به الخبّازون. وهكذا استطاع "پول ليروك"، في نهاية عام ١٩٥٦ تأسيس فريقٍ من أَربَعين رفيقًا، يعملون في دأبٍ لا يفتر، ابتنوا لأَنفسهم تخشيبةً كبيرةً كي يرقدوا فيها، ومركزًا لفرْز الفضلات والنّفايات وبيعها، ومركز إغاثةٍ، رابطين عملهم بخدمة الأكثر تألُّمًا ربْطاً وثيقًا. وقد كان لشراء شاحنةٍ لجمع النّفايات والفضلات، لدى تلك الجماعة، الأَوْلويَّة على تزويد سكنهم بالكهرباء، مثلما كان لإيواء الأُسَر المُشرّدة الأَولويَّة على ماء الاغتسال، فرغم قذارة العمل، كانت مُعظم الجماعات تعُدُّ الماءَ الجاري تَرَفًا لا يُستَحقُّ إلاّ بعد سنواتٍ من خدمة المُشرَّدين.

وكان الأَبُ پيير لا يني يُذكِّر الجميع بأَنّ على كلّ جماعةٍ جديدةٍ باسم "عمّاوس" "أَن تُؤمِّن معيشتَها بنفسها، وأَن تُثبتَ جدارتها بتأمين سكَنٍ لأُسرةٍ واحدةٍ على الأَقلّ، خلال الأَشهر الثَّلاثة الأُولى من عمرها. فعمّاوس ليست ملجأً، ورجالُها يكدحون، غير أَنّ الأَب يُضيف: "من جهةٍ أُخرى، نحن لسنا مشروعًا عاديًّا. صحيحٌ أَنَّنا نرغبُ في أَن ننتظم ونتطوّر إلى الأَفضل، ولكن بشرطٍ أَساسيٍّ، وهو أَلاّ ننقطع عن الإغاثة الطارئة".

وقد جرت محاولاتٌ فاشلةٌ لإنشاء جماعاتٍ نسائيّة، ووُلِدَت أولاها في غمرة انتفاضة العطف، عندما وافت فندق "روشستر" امرأةٌ مُنهارةٌ، وراحتْ تجأَرُ وتنتحب، وتُثير الشَّغَب، فالتمس "پول" من السيِّدة "رينار" العنايةَ بها؛ والسيّدة "رينار" أَرملةُ ضابط بحريّة، وهي أَيضاً كانت ضابطاً في البحريّة برتبة أَميرال، وكانت تُقيم في الجزائر، حيثُ أَسَّست مَيْتم القُوّات المُسلَّحة، واضطلعتْ بقيادة مُساعِدات البحريَّة.

وفي عام ١٩٤٤ التقت الأب پيير في الدَّار البيضاء، حيثُ كان مرشدًا للبحريّة. وعندما تقاعدت من الخدمة العسكريّة، التحقت بالأب في "نويّي پليزانس"، وأصبحت عضوًا في لجنة أصدقاء "عمّاوس". ولدى شراء "عمّاوس" لنزلٍ في "پليسيّ تريڤيز"، شرعتْ تنبُتُ فِكرة إنشاء موئل استقبالٍ للنِّساء، ولاح للبعض أنَّ تلك الفكرةَ قد باتت جاهزةً لتتجسّد واقعًا، عندما كُلِّفت السيّدة رينار بالمرأة المنهارة، وأَطلقتْ على مشروعها اسم "جماعة القدّيسة مريم".

ولكن سُرْعانَ ما اتَّضحَ أنّ آفة النِّساء المُحطَّمات الرئيسة هي البغاء، الّذي لم تكن "عمّاوس" مُهيأةً لإنقاذ المتورِّطات فيه. أَما اللواتي كنّ يُفلحنَ في الانعتاق منه، من تلقاءِ أنفسهِنَّ، فهنَّ، عمومًا، كنّ يحملنَ في أَنفسهنّ وأَجسادهنّ عواقبَه المُدمِّرة، ولا يستطيع العملُ الشاقّ حَجْبَ ماضيهنّ، كما هو يفعل للرِّجال. ففي الخمسينات، لم تكن الأَعمال اليدويّة الشاقّة مألوفةً لدى النِّسَاء، ولا سيَّما تلك التي كان يتعاطاها رفاق "عمّاوس"، من جمع نفايات، وبناءٍ؛ وكان لا بُدَّ من أَن ينحصر عملُهنَّ في مهامّ خفيفةٍ كالفرْز، والتنظيف، والرَّتْق وما إِليها؛ وكانت سِمَةُ العار التي يدمغُ بها المجتمعُ البغايا السَّابقات عائقًا في سبيل انبعاثهنّ لحياةٍ جديدة. هذا، فضلاً عن الغَيْرة والفرديّة المتفشّيتَيْن بين تلك النّسوة، والّتي تجعل الحياةَ الجماعيّة، التي تقتضي قدْرًا كبيرًا من الإيثار والتَّضحية، شبهَ متعذّرةٍ لمعظمهنّ. وقد قُيّض للسيّدة "رينار" أَن تختبر بنفسها ذلك الواقعَ. فذاتَ يومٍ، كان عليها حضورُ عُرسِ ابن أَخٍ لها، وإِذ هي كانت قد نظَّمت لأَعضاء الجماعة دورًا لتزيين شعرهنّ، فقد التمست من الرفيقات أَن يبادلنها الدَّوْرَ في تلك المناسبة، ولكنّهنّ رفضنَ بإِصرارٍ، ممّا آلَمَها في الأَعماق. ثمّ لمّا علمت الرفيقاتُ أَنّها كانت تحتفظ لنفسها بمنزلٍ خاصٍّ في "پليسيّ تريڤيز"، أَجبرنَها، بقسوةٍ، على التنازُل عنه.

وقد فَشِلتْ محاولاتٌ أُخرى لإقامة جماعات نسويّة، مثلما فشلتْ محاولة إقامة جماعاتٍ للمتزوّجين. ومن ثمّ أَقرّ الأَب پيير أَن تظلَّ الجماعات من شأن رجالٍ عازبين يعيشون داخلَ الجماعة. أَمّا إذا وُجد مسؤُولٌ مُتزوِّجٌ، فلا يسعه أَن يكون عضو جماعةٍ، بل عليه أَن يكتفي بكونه صديقًا لعمّاوس، ملتزمًا، عاملاً لمصلحة الجماعة بأَجرٍ، على أَن يكون له مساعِدٌ عازبٌ، يعيش مع الرِّفاق، عيشةً جماعيَّةً كاملةً.

وربَّما استوحى الأَبُ پـيير نفسُه مشروع "عمّاوس" ممّا كان يجري في القـرون الوُسطى، حيثُ كان رجالٌ عازبون مُتصوِّفون، ولكنّهم غير مؤهَّلين لحيـاة الأَديـرة، والتأَمُّل السَّاكن، يجوسون المناطق، ويُهيبون باللصوص وقُطّاع الطـرق أَن يتعـاونوا معهم على بناء الجسور، وبذلك يُبعدونهم عن اللُّصوصيّة، وعن عقاب المجتمع؛ أو ربَّما هو استوحى مشروعَه من جماعاتٍ أُخرى تضمُّ حفنةً من الأَسياد التَّائبين والمُتـرمِّلين، الَّذين وقفوا ما بقيَ لهم من أَيّامٍ على عمل الخير، بالتعاوُن مع مئات اللُّـصوص الَّـذين يوفِّرون لهم، بجعلهم بنّائين، فُرصَةَ الانعتاق من السُّجون، بل من حبال المشانق.

وقد تآزر الأَبُ پـيير، وهو، في آنٍ واحد، الصُّوفيُّ "المجنون القلب" الذي يُبادِرُ ويَحْفِز، والواقعيّ الَّذي يُدير، مع "المنبوذين" الَّذين حوَّلهم هذا التآزرُ إلى "مُتميّـزين وكُرماء". وقد صرَّح، في هذا الشأن: "**أَنا لستُ مربِّيًا، إلا بعدوى المَثَل... قد أكـون نزوعًا إلى التأَمُّل، ولكنَّني لا أستطيع الثَّبات في مكانٍ واحد. بـالفطرة كنـتُ أَتّـق سريعًا بالآخرين، وأُشاركهُم حملَ العبء، فأَظلُمهم بذلك أَحيانًا، إذ لم أكن أُدرك أَنّني أكلِّف قوْمًا لا طاقةَ لهم، بحمل عبءٍ كنتُ أَنا نفسي أَنوءُ به**".

وقد ظلَّ الأَبُ طويلاً هو ملجأ الرِّفاق الوحيد، فهو الأَب الـذي يُـؤازر أَبنـاءَه ويُساعدهم، ويُصلحهم بتشجيعهم، وهو ربُّ الأُسرة الَّذي يَقْـرِنُ الـسُّلطةَ بالحنـان، والَّذي قد يصفعُ عُتاةً متمرِّدين أَو يطردُ سكارى مُتَعْتَعين، ثمّ ينخرط في البكاء، شأْنَ أمٍّ حيال أَبناءٍ عاقين.

ولا بدعَ، بالتَّالي، إن أَولت، مثلاً، "جماعـة سـيرني"، عـام ١٩٥٦ اهتمامهـا لتركيب هاتفٍ قبل اهتمامها بإدخال الكهرباء إلى مقرّها، فقد كان بإمكـان الرّفـاق الاستمرارُ، فترةً، بالاستضاءة بالشُّموع، ولكن كان لا بُدَّ من الاتّصال بالأب، لـدى كُلِّ طارئٍ، حتّى إن كان عُطْلَ شاحنة. فعندما اقترح "هنري دوبيجيس"، منقـذُ تلـك الجماعة، استبدال الشَّاحنة المهترئة، اعترضت اللجنة بحجّة أَنّ جماعات "عمّاوس" لا تستخدم إلاّ سيَّاراتٍ مُستعملةً، وكان لا بُدّ من الاحتكام إلى الأَب پـيير الذي قرَّر أَن تشتري الجماعة شاحنةً جديدةً، تقتطع ثمنها من حصّة الخمـسة والعـشرين بالمئـة العائدة لمركز باريس من مجموع دَخْل الجماعة.

وكان الأَب يضطرّ أَحيانًا إلى التدخُّل لحلّ مشاكلَ أكبر، وإهماد فضائح كان يُثيرها رفاقُه مع من لا درايةَ لهم بمعاملتهم على نحو ما هو كان يُعاملهم. فذاتَ نوْبةٍ أَنفذت "عمّاوس"، إلى كاهن إِحدى القرى، "أَبراهام" و"جول" ورفيقَيْن آخَريْن، لبناء منزلٍ من خَشبٍ من شأنه إِيواء أُسرتَيْن قُذِف بهما إلى الشَّارع. وأَنجز الرِّفاقُ العملَ في غضون شهرٍ واحدٍ، فدعاهم الكاهن إلى الغداء في آخر يوم أَحَدٍ قضوه هناك، مكافأةً لهم على جهودهم. وعندما مثُلوا، في الموعد المضروب، اعتذرتْ خادمة الكاهن، نيابةً عنه، إذ قد غرُبَ عن باله أَنّه كان قد دعا، من قبلُ، إلى الغداء، في نفس الموعد، إِخوانًا له كهنةً من القُرى المجاورة، وأَبلغتْهم أَنّ الخوري سيستقبلهم علِى العشاء في المساء؛ غير أَنّ قِوامَ ذلك العشاء لم يكن سوى بقايا الغداء الهزيلة، ونبيذًا دونًا مشوبًا، فاستشاط الرِّفاقُ غيظاً، واستطاع بعضهم إلهاء الخادمة، ريثما اقتحم آخَرون كهف الخوري واستولوا على خير احتياطيّه من النَّبيذ المُعتَّق، فشربوا حتّى الثُّمالة، واشترك معهم قندلفت الكنيسة الَّذي راح يقرع ناقوس التبشير في مُنتَصف اللَّيل. وفي الغداة، طافوا حانات القرية كلّها، حيث شربوا ما طابَ لهم على حساب الخوري، الذي جُنَّ جنونه، وراح ينعتُهم باللُّصوصيَّة، فكان ردُّهم أَن دمَّروا، في ساعات، البيتَ الَّذي قضوا شهرًا في بنائه، فاعتقلتهم الشّرطة، إلى أَن جاء "پول" فأَطلق سراحَهم؛ وأَنفذ الأَبُ پيير فريقًا آخرَ لإِعادة بناء المنزل الذي هدموه، ثمَّ وافى بنفسه لتسوية الأمر مع خوري القرية، وتطييب خاطره، ولكنّه، في آنٍ واحدٍ، أَفهمه أَنّ لهؤلاء، أَيضاً، رغم ماضي بعضهم، كرامةً لا يسمحون لأَحدٍ بانتهاكها أو الاستخفاف بها. فهؤُلاء الرِّفاق ذوو السَّوابق، مع كلّ ما هم عليه من عُيوبٍ ومثالب، ومع كلِّ ما يُحدثونه من مشاكل ومتاعب، هم مِلْح "عمّاوس" ونَسْغُها، ولولاهم لانتفتْ كلُّ صُوفيّتها.

ولكن بعد أَن اتّسعت أُسرةُ "عمّاوس" اتّساعًا فاق كُلَّ توقُّعٍ، وناهز عددُ الرِّفاق أَلفًا، وبعد أَن غدا العالَم بأَسره حقلَ عمل الأَب پيير، حيثُ الجميعُ يستدعونه وينتظرونه، لم يعُدْ بوسعه الحضورُ لحلِّ كلِّ مُشكلةٍ تقع للرِّفاق، أَو يوقعونها، هم، بالآخرين، كما لم يعُدْ بمكنته عقدُ علاقاتٍ حميمةٍ مع كلٍّ منهم، وبات لا مفرّ له من إِيكال بعض مسؤوليّاته لآخرين.

غير أَنّ كثيرين من الرِّفاق لم يستسِيغوا أُسلوبَ خُلَفائه الَّذين أَصفرتْ قلوبُهم من مثل عَطْفه وأُبُوَّته، وانحصر اهتمامهم في الأرقام والحسابات، فأَعلنتْ جماعاتٌ كثيرةٌ استقلالها عن إِدارة باريس، ولا سيَّما في أَعقاب الأَزَمة التي نشبت عام ١٩٥٨ من جرّاء مرض الأَب ﭘيير الخطير.

فجماعة "سيرني"، مثَلاً، تُؤيِّدُها اللَّجنةُ الرباعيّة التي كانت تدعمُها، أَعلنت أَنّ ما تقوم به هو من شأنها، ولا شأن لبيروقراطيّي باريس به، فطالبت باستقلالٍ يُمكّنها من مواصلة نشاطها محافظةً على ولائها التامّ لرسالة "عمّاوس" الأَصيلة. وكانت زيارةُ الأَب ﭘيير لسيرني، عام ١٩٥٦ قد كرَّستْ وُجودَ تلك الجماعة، وبدَّدت الشُّكوكَ الَّتي كانت تُساوِرُ أَفرادها في ذواتهم، وشكوكَ الآخرين فيهم، ولا سيّما أَنّ زيارة الأَب لأَيِّ مكانٍ، باتتْ حَدَثًا مُدَوِّيًا يُستَقْبَل بالموسيقى ومظاهر الزّينة، ويشترك فيه الرَّسميّون وأَعضاءُ البلديَّة، وأُسقُفُ المنطقة، ويحتلُّ فيه الرِّفاق العمّاوسيّون الصفوفَ الأُولى، وأَماكنَ الشرف؛ وغالبًا ما يُتَوَّجُ الاستقبال باحتفالٍ مُتواضعٍ تقيمه الأُسر الَّتي تمّ إِيواؤُها تكريمًا للزَّائر المحبوب، فيترسّخ روح "عمّاوس" رسوخَ الرِّفاق في الحياة المحلِّيَّة. ولا بدْعَ أَنَّ حُضور الأَب كان يُمثِّل مكافأةً للرِّفاق، ويوطِّد وُجودَهم، ويؤَكِّد دَوْرَهم الفاعلَ الَّذي يحرصون هم على إِبرازه، على نحو ما فعل رفاق "سيرني" بمناسبة عيد ميلاد ١٩٥٧، حيثُ نظَّموا حفلةً للأَطفال الفقراء، وأَغدقوا عليهم، بفضل ما غنموه من جمع النفايات وبَيْعها، هدايا، لم تُقدِّمْ، قطُّ، لهم مِثلَها السُّلطاتُ المحلّية.

وفي جماعة "بورد" حيثُ الرِّفاقُ مُتطوِّعون لا ينالون من أَجرٍ على عملهم سوى عشرين فرنكًا شهريًّا، ويتبرّعون بسخاءٍ لمشاريع إِغاثة الأَب ﭘيير ولجماعات "عمّاوس" الوليدة في شتَّى بقاع العالم، مثل تبرُّعهم بمئتي أَلف فرنكٍ للجماعة الناشئة في اليابان، في تلك الجماعة شاع الشّعورُ بأَنّ تَقَلّدَ مسؤوليّة "عمّاوس" من قِبَل من لا يحملون، في صدورهم، روحانيَّتَها وصوفيَّتها، كفيلٌ بالقضاء على روحها، وعلى الرّضى الَّذي يبعثه، في من يُنْقِذون، بالعمل، أَنفسَهم، شعورُهم بأَنّهم، بالعطاء، يُصبحون منقذين للآخرين.

طالما كان الأَب موجودًا، كان الحفاظ على تلك الروح مضمونًا، فالرِّفاق المُشْبَعون بِمُثُله لا يأنفون النهوض بأكثر المهامّ وضاعةً وقذارةً، ولا يتقاعسون عن

المثول إلى آخر الدُّنيا إكرامًا له، ويؤدّون له حصيلةَ كَدْحهم مُتَهلِّلين، واثقين أَنّه سيُنفقها على إنقاذ الآخرين، ومساعدة المحتاجين، وإيواءِ المُشرَّدين. ولكن، عندما يُلجئ المرضُ الأَبَ إلى ابتعادٍ طويل الأَمَد، وتتولّى الإدارةُ الجديدة، في شارع "بوردونّيه" تسييرَ الأُمور بأُسلوبها، الذي يروْنه بعيدًا عن روح الأَب وصوفيّته، فهم يأبون التعاونَ معها، وينزعون إلى الاستقلال عنها كي يظلّوا أَوفياء للأَب، عاملين بوحْيِ صُوفيَّته.

وكان الأَبُ يؤثر بحُبِّه أُولئك الرّفاق، ويقوى على حلِّ أَيِّ خلافٍ ينشب فيما بينهم، أَو بينهم وبين الغير، ببضع كلماتٍ، بفضل ما يتمتّع به، وَسْطَهم، من سُلطةٍ واحترامٍ. وكان، أَبدًا، يسعى إلى إِصلاح المسيئين، مراعيًا عَدَمَ تثبيط عزائمهم، بحنانٍ أَبَويٍّ، ولكن من غير وَهَن. وكان يُقرّ أَنّ هناك من وافوا "عمّاوس" بدافع دعوةٍ ساميةٍ، مثل "پول"، وهم قلّةٌ، أَمّا الآخرون فيقول عنهم: "علينا أَن نتّخذ من الأَقلِّ سوءًا فيهم مسؤولين... نحن نعرف عدَمَ كفايتهم، وأَنّهم، في تسع حالاتٍ من عَشْرٍ، جاؤوا مُتطوِّعين، ولكنَّهم تطوّعوا خشية أَن ينفُقوا. أَمّا روح التَّفاني فسيزدهر فيهم، في ما بعد، شيئًا فشيئًا". وكان يُؤثِر ترقيتَهم، وإسنادَ مناصب المسؤوليّة إلى أَفضلهم، في حين كان الإداريّون الجُدُد لا يولونهم أَيَّةَ ثقةٍ، ويعُدّونهم لُصوصاً وشُذّاذ آفاقٍ، ويؤثرون استئجار مسؤولين من خارج "عمّاوس"، يتمتَّعون بالكفاءات.

كانت اللَّجنةُ الإداريّةُ الجديدةُ تُواجه بالرِّيبة والعداء الجماعات ورفاقها المُتطوِّعين، ويُقابلُها هؤُلاء بالضّيق والخشية، ويتذرّعون، دفاعًا عن أَنفسهم، بوفائهم للأَب پيير، وبدَوْرهم الأَساسيّ في نشأة "عمّاوس". وكان الأَب أَشدَّ ميلاً إلى هؤُلاء الرُّوّاد، مع كلِّ عيوبهم، ويأخذ على الإداريِّين الجُدُد عجزَهم عن استيعاب الآخرين من جرّاء بورجوازيّتهم المُتحكّمة بعقولهم وسلوكهم ومشاعرهم، رغم تفانيهم وسخائهم ومؤهِّلاتهم؛ وهو، بالتَّالي، كان يُصغي إليهم بأذنٍ شاردةٍ، غير أَنّه يُعرض عن مشاريعهم الَّتي يمليها "العقل والنظام". وهذا ما حدا برئيسهم "روبين" إلى الانسحاب، وأَثار لدى الآخرين تململاً، وادّعاءً بأَنَّ الأَب ناكرٌ لجميلهم، ولأفضالهم في مُواصلة مسيرة "عمّاوس" أَثناءَ غيابه. غير أَنَّ الأَب غالبًا ما ذكَّرهُم، برفقٍ حينًا، وبعنفٍ، حينًا آخر، أَنّ "عمّاوسِ" لم تنتظر مجيئَهم كي توجَدَ وتكبُر، وأَنَّها طالما

استمرّت، في غيابه، بفضل رفاقه الأوفياء، وأَنّ على من يبتغي الشهادة لعمّاوس، حقًّا، أَن ينغمس، بكُلِّيَّته في خِضَمِّ بُؤس الفقراء، وخدمة الأَكثر تألُّمًا في المقام الأَوَّل.

وعندما التأَم مجمعُ مسؤولي "عمّاوس" في أَيار ١٩٥٦، بمدينة ليموج، بغيةَ تنسيق نشاطاتهم، وتوحيد نمَط حياتهم، حضرَ الأَبُ، رغم اعتلاله ووهنه، كي يُؤكِّد على ضرورة العَوْدة إلى نبع "عمّاوس" الأَصيل، من أَجل التذكير بمعاني التَّضحية، والخدمة الطَّوعيّة المجّانيّة، والبطولة، وبذْل الذَّات. ومُذَّاك، شرعت تبرز للعيان تطلُّعاتُ بعض المُديرين الجدُد إلى إقصاء الأَب عن زعامة "عمّاوس". وفي المجمع اللاّحق الَّذي انعقد، مطلعَ عام ١٩٥٧، ترسَّخت تلك النَّزعةُ، وزاد بروزًا الطَّلاقُ بين الصُّوفيّة والواقعيّة، والإِصرار على إِقصاء المغامرين، تمهيدًا للقضاء على المغامرة نفسها.

وكان الأَب يوجس خشيةً حقيقيّةً على "عمّاوس" الَّتي خرجت من الدَّياميس أَن تقعَ فريسة سُلْطة النِّظام الخالي من الرّوح، السُّلطة المستبدّة التي تُفسد كُلَّ شيءٍ، والتي أَخذتْ مخايلُها تتجلّى في الفئة الجديدة التي تولَّت الإِدارةَ في شارع "بوردونّيه" بباريس، والَّتي شرعتْ تُقْلق الرِّفاقَ الأَوائلَ الَّذين باتوا يرون فيها وحشًا هجينًا.

وممّا أَفسح المجالَ لمزيدٍ من تدخُّل الإِدارة الجديدة، وافتئاتها، تواتُرُ غياب الأَب پيير بداعي الاستشفاء أَو السَّفَر، وتطوُّرُ المُدُن الَّذي أَفضى إلى إِعمار الضَّواحي، ومعالجة القمامة صناعيًّا، ممّا أَدّى إِلى طيِّ جانبٍ هامٍّ من النَّشاط الَّذي عليه قامت جماعات "عمّاوس". ومن جهةٍ أُخرى، كان مجيء فريقٍ من المهندسين والمحاسبين للاضطلاع بمشاريع "عمّاوس" الإِنشائيّة، بمثابة الضّربة التي قصمت ظهرَ بنّائي "عمّاوس" المُتطوِّعين، الَّذين كان يحدوهم الاندفاع والارتجال، أكثر من العلم والتَّنظيم الدقيق.

غير أَنّ الفريقَ الجديدَ لم يقتصِرْ على إِقصاءِ الرُّوَّاد، بل تعمّد محاكمة زعمائِهم، ولا سيَّما اثنين منهم كانا للأَب پيير صديقَيْن مخلصَيْن، ومساعدَيْن مفتولَي السَّاعدَيْن، وكأَنّه، من خلالهما، توخّى دينونة جيل "عمّاوس" الأَوّل بأكمله.

وقد تصدّى، أَوّلاً، وبقسوةٍ خاصّةٍ، لجان إِيڤ، قائد كتيبة البنّائين، الشّديد المراس. ولا بُدَّ من الإِقرار بأَنّ "جان إِيڤ" كان يقودُ رجالَه بيدٍ من حديدٍ،

وبأُسلوبٍ لم يكن إنجيليًّا دائمًا، غير أنّه أثبت جدواه في حَمْل مُهَشّمي الحياة على العَمل بفَرَحٍ لبناء منازلَ لمن لا مأوى لهم. ومن المُحقّق أنّه كان يقرنُ الحزمَ بالعطف، بحيثُ انقاد لَهُ رجالهُ وأَحبّوه، في حين أَنَّ معظم الَّذين حاولوا النَّسْجَ على منواله، وقيادة الجماعات بالعصا، مُنوا بالفَشْل الذَّريع، فنبذتهم جماعاتهم، كما نبذهم أَصدقاءُ "عمّاوس".

وقد حاول الإداريّون الجُدُد تقويم مُنَجزات "جان إيف" ورجاله بمعايير تقَنيَّة مقارنين إيَّاها بأَساليب الفريق الهندسيِّ الجديد العلميّة، مُغفلين الإنجازاتِ الرَّائعة الَّتي حقَّقها، يومَ كانت الحاجة إليها حارقةً. وتفاديًا لانقسام "عمَّاوس"، تقبَّل "جان إيف" النَّقدَ، صامتًا، بل مُعترفًا بأَخطائه؛ غير أَنَّ رجاله أَعلنوا ثورتَهم واستنكارَهم وخَيْبتهم المريرة، حيالَ استخفافِ الآخرين بهم، ورَشْقِهم بأَبشع التُّهمَ، واعتبارهم عبئًا على "عمّاوس". وقد صرَّح ناطقٌ باسمهم: "نحن نريد مزيدًا من الوُضوح والصِّدق. إنَّ تقارير المحاسبة الَّتي يرسلونها لنا تستعصي على فهمنا، وكُلّ ما يبلِّغوننا إيّاه كاذبٌ. إنّنا لم نَعُدْ نُطيقُ سمَاعَ أَنَّنا عبءٌ باهظٌ مع أَنّنا نكدح؛ وإنّنا نرفض كُلَّ ما نُتّهم به".

وقد دافعَ معاون "جان إيف" عنه قائلاً: "صحيحٌ أَنّه كان فخورًا بإنجازاته وسُلْطته، إلاّ أَنّه كان أكثر فخرًا بعلمه أَنّ رجاله يُحبّونه بقدر ما يخشونه". وقال أَيضاً، لاحقًا، أَثناء محاكمة رئيس الإدارة الجديدة، "روبين"، الَّذي كادَ يُصفّي "عمّاوس": "لم يعُدْ بوسعنا التَّعاون مع إدارةٍ مركزيّةٍ لا يختلف نهجُها الفِكريُّ عن نهج الدَّولة الّذي طالما ناهضَتْه "عمّاوس". أَمّا الأَب "بارّال" الَّذي كان يعيشُ مع "جان إيف" ورجاله، فقد عَبَّر عن الحَنَق ومرارة خَيْبة الأَمل، "بعد أَشهر نضالٍ طويلةٍ للحفاظ على الوحدة فيما بيننا، حتّى لو كلّفنا ذلك آلامًا كادت تُفضي إلى كوارث". وقال، في معرض دفاعه عن "جان إيف": "قد يقضي العقل والنِّظام، الآنَ، طردَه؛ ولكن لو كان العقلُ والنّظامُ هما الشرارة الَّتي انطلقت منها "عمّاوس"، لما وُجدت الجماعات قطُّ".

وتعرّض "رينيه مارك"، وهو واحدٌ من أَقدم رفاق جماعة "پونتو" الَّتي كان يقودها "جان إيف"، للبيروقراطيّة الجديدة التي يرئسها "زعيمٌ وَصَل أَمس، مُتطلّعًا إلى نفوذ لن يستأهِلَه أَبدًا، ولكنَّه استطاع أَن يحرم الجماعةَ قائدًا نُحبُّه، وكنَّا نودُّ

الاحتفاظَ به... ثمَّةَ وغدٌ قد سرق، فلم تكتفِ الإدارةُ الجديدة بنَفْي التُّهمة عنه، وبإعادته كي تتيح له السَّرِقةَ من جديدٍ، بل أَلقت تبعةَ السَّرِقة على "جان إيف" بحجّة أنّه كان عليه تقصّي السَّرِقات".

وقد دعا "رينيه مارك" هذا إلى إضرابٍ في مركز جماعة "پونتو" بحيثُ لا يُسمح بدخوله إلاّ للأَب پيير، ولجان إيف، ولمساعده "كيديه"، وبحيثُ لا يُستأنف العملُ فيه إلاّ بأمرٍ من أَحدهم. وكانت تلك هي المرّة الأولى الَّتي يُعلَن فيها إضرابٌ باسم الأَب پيير، تَمَرُّدًا على بيروقراطيّي شارع "بوردونّيه".

وقد اتُّهم "جان إيف" بالإسهام في انتصار الإدارة الجديدة بابتعاده، ووُصف بالانهزاميّة، غير أَنّه برّر فعله بالقول: "خُيِّل لبعضهم أنّني استسلمتُ وانهزمتُ، وقد حان الأَوانُ لتبديد هذا الالتباس. كان عليَّ أَن أستريح، بضعةَ أَيّامٍ، قبلَ أَن أُباشر المُهمّات الخطيرةَ التي أَوْكلها إليّ الأَب؛ وها إنني سأمثلُ إلى النمسا، فنحن جنودُ الأَب، ولسنا أَحرارًا في تقرير مصيرنا. ومصيري أَن أَحمل راية "عمّاوس" إلى أَرضٍ غريبةٍ؛ ومصيركم أَن تظلّوا مُلتفّين حول الأَب".

واستأنفت جماعة "پونتو" جمع النّفايات، وتجاوزت وارداتها أَحدَ عشَرَ مليون فرنكٍ خلالَ أَربعةَ عَشَر أُسبوعًا، وأَفلحت في مُواصلة أَداء رسالتها. أَمّا "جان إيف"، فبعد اضطلاعه بمهمّته في النمسا، انتدبه الأَب پيير إلى مهمّة أُخرى في البرازيل حيثُ خاض، باسم "عمّاوس"، تجربةً اجتماعيَّةً فريدةً.

ومن الجدير بالذِّكر أَنّه، في غمرة احتدام الخلاف بين إداريّي شارع "بوردونّيه"، وجماعة "جان إيف"، كان الأَب پيير في المغرب، وما كاد يعود منه حتّى انهالت عليه طَلَباتٌ مُلِحَّةٌ من عدّة مُدُنٍ كنديّةٍ لزيارتها، وكانت أَشدَّها إلحاحًا دعوةُ المطران "ليجيه"، أُسقف مونتريال الَّذي كان قد أهاب به أَن يعود إلى كندا، رغم الفضيحة الَّتي كان قد فجّرها، بمناسبة تدشين كاتدرائية القدّيس يوسف في السَّنة الفائتة. وقد جَهد المُقَرَّبون من الأَب في الحؤول دون تلبية تلك الدَّعوة، بحجَّة صِحَّته الَّتي ما برحتْ هَشّةً، وبالمصاعب المستعصية الّتي تواجهها "عمّاوس" في فرنسا، والَّتي يقتضي تخطّيها وُجودُه.

إلاّ أَنّ الأب اهتَبَلها سانحةً كي يُثبت لمن حاولوا الطَّعنَ به، في أَعقاب "فضيحة"

مونتريال، وحاكوا له، بذريعتها، المكائد، بُطلانَ محاولاتهم؛ وكان مؤمنًا أَنّ على النَّبيِّ أَلاّ يتقاعس، أَبدًا، عن المُضيِّ في سبيله، وأَلاّ يتخلّف عن تلبية أَيّ نداءٍ. غير أَنّ كُلَّ التدابير قد اتُّخذت للحؤول دون زيارته لمواقع البُؤْس في كندا، بفضل برنامج عملٍ مُحكمٍ لا ثُغْرةَ فيه، تفاديًا لتصريحاته الصَّاخبة التي قد تثير حَنَق فئاتٍ من الحكومة والكنيسة، ولا سيَّما أَنّ خُطَبه ومداخلاتِه ستُذاع على الملأ الأوسع، عبرَ إِذاعة الأمم المتَّحدة.

وخليقٌ بالتَّنويه، أَيضاً، أَنَّ الأَب، لسوء طالع الرِّفاق، بدافع نزعتِه الكَوْنيَّة الشَّاملة، كان يحلم، أَبدًا، بعمَّاوس كُبْرى تُظلِّلُ فروعُها المسكونةَ كُلَّها؛ وكان موقِنًا أَنَّ كلَّ جماعةٍ صغيرةٍ في فرنسا، ولو هي تأَلّفت من تائِهين سابقَيْن، والتزمت بروح "عمّاوس"، من شأنها أَن تغدوَ بِذْرةً تنمو في الطَّرَف الآخر من الدُّنيا. وقد تحقَّق حلْمُه واقعًا تخطّى توقُّعاته، ففي شتّى بقاع الدُّنيا قامت جماعاتٌ، بِوَحْيٍ ممّا حقَّقه رفاقه، وكانت تلك الجماعاتُ تلتمس حضورَه كي يُلبسها ثوب "عمّاوس" بيده؛ ومن ثمَّ، كان الأَبُ، كُلَّما أَبلَّ من مرضٍ وبارَح مشفًى، يُسارع إِلى تلبية نداء تلك الجماعات الوليدة، تاركًا رفاقه عُرضةً للهواجس، خشيةً عليه من الإِرهاق، وعلى أَنفسهم من افتئات الإِداريّين الجُدُد.

بعد إِقصاء "جان إِيف" بقي "پول" هو العقبة الكأداء في مواجهة البيروقراطيّين الجُدُد، مدّعي إِقرار أَساليب "النّظام والعقل". فپول، بماضيه في "عمّاوس"، كان رمزًا للمُجازَفات اللاّمعقولة، فضلاً عن كَوْنه ذراعَ الأَب اليُمنى؛ وقد وُصِف بأَنّه النُّسخةُ العلمانيَّةُ عنه. فقد كان يمتلك مثلَ قدراته على اجتذاب الأَتباع، ومثل سِحْرِه وإِقناعه، واهتمامه العطوف بالآخرين. وقد كان، دائمًا، إِلى جانب الأَب يُسانده، سعيدًا، رغم قوّة شكيمته، بأن يكون مساعدَ الزَّعيم.

ولكن لم يكُنْ بوسع أَحدٍ أَن يدين "پول"، مثلما دينَ "جان إِيف"، فدينونته تقومُ بمثابة دينونةٍ للأَب پيير نفسه؛ والأَب پيير لم يتجرَّأْ أَحدٌ، بل لم يملِكْ أَحدٌ القدرةَ على محاكمته، حتّى في غمرة الحملة التي شُنَّت عليه عامي ١٩٥٦ و١٩٥٧.

وإِضافةً إِلى ذلك، لم يَكُن أَحدٌ من الإِداريِّين الجُدُد يمتلكُ مثلَ عبقريّة "پول" في إِيجاد الموارد لعمّاوس. وفي هذا المجال بالذّات، الّذي منه كان الإِداريّون ينطلقون

للطَّعْن بالجماعات الَّتي يُمثِّل بقاؤُها عبئًا ماليًّا على "عمّاوس"، كان يُسقَط في يدهم، عندما يتعلَّق الأَمرُ بپول، فهو يفوقُهم جميعًا قُدرةً على استنباط المال من لا شيء، وعلى تحويل المال إلى مزيدٍ منه، بنزاهةٍ لا تُداخلها شُبْهَةٌ، وبإدارةٍ حازمةٍ، والتزامٍ حريصٍ بنظامٍ صارمٍ؛ مثلما هو، في مضمار صوفيّة "عمّاوس" كان يمتلك طاقةً لا تُجارى على تحويل أكثر المعادن البَشَريّة خساسةً إلى ذَهَبٍ خالصٍ. وبالتّالي فهو، على جميع الأَصعدة، عسيرُ المنال، لا سبيلَ إلى الطَّعن فيه، إذ قد اقترن فيه الإداريُّ الفذُّ النَّزيهُ بمجنون القَلْب الَّذي يُلبّي أَشدَّ أَحلام الأَب پيير طموحًا، لخدمة الأَكثر تأَلُّمًا في المقام الأَوّل؛ وقد رَفَدَ "عمّاوس"، منذُ انضمامه إليها بمغانمَ مادِّيَّةٍ وأَدبيّةٍ لا تُقدّر بثمن.

بَيْدَ أَنّ انتهاءَ مرحلة الغَوْث الطَّارئ الَّذي كان هو روحه، واستقلال الجماعات الَّتي كان مُشرفًا عليها، قد جعلا دَوْرَه في "عمّاوس" ثانويًّا. ومن ثمّ آنَسَ ذلك المغامرُ نداءً إلى حقلٍ بكرٍ ينشُط فيه باندفاع روح "عمّاوس" الأَصليّة، مُتحرِّرًا من مماحكات الإدارة البيرقراطيّة، إذ إنّه لم يكُن يُطيق سُلطةً سوى تلك التي أَوجدت "عمّاوس": أَي تفانٍ لا يفتر في مساندة الأَب پيير، ووفاءٍ مُطْلَقٍ لهدف خدمة الفقراء، في المقام الأَوّل.

مُتَسلِّحًا بهذا الإيمان انطلق "پول" انطلاقةً جديدةً من الصِّفْر، في منطقة "النورماندي"، بجماعةٍ من "الجوّالين"؛ وفي غُضون ثماني سنواتٍ حقَّقَ إنجازاتٍ مُدهِشةً.

اختراقٌ عالميٌّ: إيرام

معَ اتِّساع جهاز "عمّاوس"، تَشَعَّبتْ اهتماماتها، ومع أَنَّ الإسكان ظلَّ هاجِسَها الأَوّل، إلاّ أَنّها شرعتْ تغوص، أكثرَ فأكثر، في شتّى مُستَنْقَعات البُؤْس البَشَريّ، وتولي مزيدًا من الاهتمام بالطُّفولة المُشرَّدة، والأَحداث الجانحين، والشُّيوخ والعاجزين، والعناية الصِّحِّيَّة، والتَّعليم، ومُخْتَلَف ضروب الحرمان.

وفي نفس الآن، اتّسعت رقعة "عمّاوس" جُغرافيًّا، بنُموِّ فروعٍ لها في الكثير من بقاع العالَم، وبانتشار خبرتها، وتخطِّيها التُّخومَ الوطنيّة، وانطلاقها إلى آفاقٍ عالميّة.

وكانت "إِيرام" (IRAM) كُبرى وسائل انتشار "عمّاوس" دوليًّا؛ و "إِيرام " يعني:

"معهد الأَبحاث والعمل لمواجهة الشَّقاء في العالم". وقد استهلَّ نشاطَه في خريف ١٩٥٤، تحت مظلَّة "عمّاوس"، وفي التَّاسع من أيلول ١٩٥٥، رُخّص له، رسميًّا، بصفته اتِّحادًا مُكَلَّفًا بالدّراسة والتوثيق والتَّعليم، وبمحاولة التَّنفيذ، وتعميم محاولاته. وفي الواقع، كان ذلك المعهدُ وسيلةً لنشر أَساليب "عمّاوس" في تقرّي ظواهر الشَّقاء، وبثِّ المعلومات عنها، وتدريب مُتَطوِّعين قادرين على مشاركة جهود الأَكثر تعاسةً، وحمل مختلف المُؤَسَّسات على توفير الخدمات، في المقام الأَوّل، للأَكثر تألُّمًا.

وعلى نحو ما تحقَّق، دائمًا، في "عمّاوس" سبَقَ العملُ الوعظَ، ونُفِّذت سلسلةٌ متكاملةٌ من التَّجارب قبلَ أَن تتأَكَّد نجاعةُ الأَساليب. فقد كانت "عمّاوس" السَّبَّاقة إلى تحديد أُطر أَزمة السَّكَن، وإِلى اقتراح وسائل مكافحتها، ونهضَتْ، في هذا المجال، بالواجب الذي تقاعستْ عنه الدَّولةُ، في حين كان من واجبها الاضطلاعُ به.

وقد طُلِب من جميع العاملين في ذلك المعهد أَن "يستغرقوا، دوريًّا، في العمل الميدانيّ، ضمنَ جماعةٍ، أَو في ورشةٍ، أَو في إحدى مهامّ مكافحة البُؤْس".

وبالتَّعاون مع مُؤسَّساتٍ عالَميَّةٍ مماثِلةٍ، أَسهمَ معهد "إِيرام" في إِنشاء المؤَسَّسة العالميّة لمكافحة البُؤس، واضطلع بمُهمّاتِ غَوْثٍ للبلدان المُتخلِّفة، وبذلك، جَنَّدَ مُتطوِّعين لصالح الأَكثر تألُّمًا، باستقطابه الكفاءاتِ الفنِّيَّة، وبتجربته حُلولاً سَخيَّةً وناجعةً، وبإِحداثه صدَماتٍ تدفع مُتَقلِّدي السُّلطة إلى التَّصدِّي لأَسباب الشَّقاء.

وبذلك، لم تَكُن "إِيرام" تجسيدًا لإِحدى تطلُّعات الأَب پيير النَّبَويَّة فحَسْبُ، بل كانت جزءًا من رؤيته الشَّاملة لعمَّاوس. فلئن كانت الجماعات الأولى هي الجذور، كان للشَّجرة فروعٌ مُتعدِّدةٌ، مُختَلِفة الأَشكال، تُمثِّل مهامّ "عمَّاوس" المتنوّعة: لجان الغَوْث الطَّارئ، ولجانُ مساعدةِ من لا مأوى لهم، وشَركات البناء، ومجلَّة "جوع وعطش"، وهي وسيلةُ إعلامٍ لإِيقاظ الضَّمائر، وبمثابة "اللّحاء العامّ الذي يُغلِّف المجموعَ بأكمله".

من خلال ذلك التصوُّر، كانت الجماعات ومعهد "إِيرام" العُنصُرَيْن الجوهريَّيْن؛ فعلى الجماعات أَن تُلهم "إِيرام" وتنفث فيها الرّوح، في حين تقوم "إِيرام" مقامَ دماغ الجماعات، وامتدادها على نطاق المسكونة، ومن تفاعلهما يولَد العديدُ من المُبادرات الثانويّة.

وَسُرْعَانَ ما أَشرعت شُهرةُ الأَب ونفوذُه لإيرام أَبوابَ مُؤَسَّساتٍ دوليَّةٍ مثل الأُمم المتحدة والأونسكو والفَاوْ، كما أَتاحت لها الإفادة من إرشادات خبراءٍ عالميّين.

ولكن سُرعان ما أَخذت الشقَّة في الانفراج بين مناقشات "إِيرام" العِلْميّة، و "ثرثرة" نشرة "الدَّائرة" الَّتي كانت تنقل أَصداء نشاط الجماعات، وتقتفي آثار الأَب في انطلاقاته النَّبويّة، وتبادرُ إلى توفير احتياجات فروع "عمّاوس"، في شتَّى بقاع العالَم، إِلى مساعداتٍ ضروريّةٍ؛ في حين بدا مسؤولو "إِيرام" وكأَنّهم تاهوا في الجَدَل الفكريّ، وأَغْفلوا العودة إلى الينابيع بين ظهراني الرّفاق. وشيئًا فشيئًا، تلاشى دَوْرُ تثقيف أَعضاء "إِيرام"، على الأَرض، وَسْطَ جماعات "عمّاوس"، وتَغَلّب العَمَلُ الدَّقيق على دور الإِعلام، واقتصر نشاط مسؤوليها على مشاكل المغرب، والعالَم الثَّالث، ما أَنساهم واجب "الحملة على البؤس". ومع إِفادتهم من أسطورة الأَب پيير في فَرْض وجودهم، إِلاّ أَنّهم شرعوا يتبرَّمون من اندفاعه بدافع الهوى، ومن مُداخلاته التي لا تتقيّد بالدِّقَّة العلميّة، وغدا شخصُه يُضايقهم.

وفي مطلع عام ١٩٥٧ تأَسَّس في جينيف معهد "إِيرام الدوليّ" بصفته "معهدًا للأَبحاثِ والعمل من أَجل الإنماء الإِنسانيّ"، مستقلاً عن "عمّاوس"؛ ومع ذلك طُلِبَ من الأب پيير أَن يحتلَّ فيه دورَ عُضوٍ في المجلس، دورًا فخريًّا أكثر منه دورًا فاعلاً؛ وكان الأَبُ غالبًا ما يفضح الشِّقّة الماضية في الاتّساع بين إِيرام وعمّاوس، إِلى أَن طُلب منه، في عام ١٩٦١، الانسحاب النِّهائيّ من المجلس.

وقد استَحْوذَ على الأَب شعورٌ بالمرارة حيالَ تَنَكُّر أَبنائه له، فقال لهم: "لا رَيْب أَنّكم الآن بالغون، ولكنّكم لستم لُقَطاء".

وهكذا كانت "إِيرام" من الأَحلام التي حطَّمها الواقع، فالغُصْن المُكَلَّف بنقل النَّسغ وتحويله، قد امتدّ بعيدًا جدًّا عن الجذْع، بحيثُ تحتّم بَتْره.

واتَّضح أَنّ الهواءَ في القِمَم خفيفٌ لا يستطيع ملءَ رئات الكثيرين، بحيثُ غالبًا ما يَظلُّ النَّبيُّ على تلك القِمَم شبهَ وحيدٍ.

وبقي الرَّجاءُ أقوى من جميع الظُّلمات، وَالرَّجَاء كان يثوي في جذور "عمّاوس" وفي جماعاتها، وبقيَ أَملُ العالَم وثِقتُه في الأَب پيير، في تعاظُمٍ مُطَّردٍ.

عبور الصحراء: ١٩٥٨

على غرار "پـول بورد" وإخوانه، كان الرِّفاقُ المُخلِصون، في مختلف الجماعات يُواصِلون مهامَّهم الوضيعةَ الرَّتيبةَ، فيما قَلَقُهم على أَبيهم يتفاقَمُ كُلَّ يومٍ، فهو يبذُل طاقاته بلا حُدودٍ ولا حسابٍ، ولا يقوى نظامٌ على ضَبْط اندفاعه. ففترات استشفائه باتَتْ مُطَّردةً، غير أنّه لا يكاد يستعيدُ شيئًا من قواه، حتّى يقفز إلى طرفٍ آخرَ من العالم؛ في كلِّ يومٍ، يبتدع مشروعًا جديدًا، ورفاقه يعجزون عن اللّحاق به، وعن مواجهة المصاعب اليوميّةَ التي يُوكلها إليهم، بعد أن لم يَعُدْ لَدَيْه من الوقت فُسحةٌ للتَّصدّي لها. ففيما هم يرتعدون لرؤيته شبه مُحْتَضرٍ، مُنهَكًا جسديًّا، مُرْهَقًا بالشُّكوك، وإذ به، بغتةً، جيَّاشٌ يتعذَّر كبحه، يرسُم خُططًا لنشر "عمّاوس" على مدى الكَوْن، مثل كوكبة نجومٍ لكلِّ جماعةٍ فيها موقعُها.

ما لم يكن راقدًا، من جرّاء مرضٍ، فهو يدور في دوّامة ارتباطات لا تفترُ ولا تهادن، لا تهمُد له حركةٌ ولا يهدأ له تَجوالٌ، فلكأنّ أَجنحتَه الجبّارة لا تُطيق السُّكون، مُتَشوِّقة أبدًا للخفقان في الأَجواء الفسيحة، بعيدًا عن الأَماكن الضَّنْكة، والأَجواءِ الموبوءة بالمشاحنات. إنَّه يهب نفسَه، بلا حسابٍ لأَلَمٍ أَو نَصَبٍ، يُنصت، بلا كَلَلٍ إلى مطالب هؤلاء، واستغاثة أُولئك، مُلبِّيًا، بسخاءٍ، مُقتضيات خدمة الأَكثر حرمانًا، وتوقُّعات الجماهير، وسخاء المُتَبرِّعين الحريصين على رؤيته شخصيًّا، جاهدًا، بلا هوادةٍ، أَن يكون حاضرًا للجميع، وفي كلِّ مكانٍ، مؤدِّيًا ما يتوقَّعه منه الآخرون، وما يفرضه هو على نفسه.

ويُبرز سجلُّ مواعيده، في مطلع عام ١٩٥٧، نموذجًا لذلك النَّشاط الذي لا عهدَ له براحةٍ؛ ونقتطف من تلك المواعيد أَهمَّها:

١٩٥٧/١/١٣: برنامج تيليفزيونيّ في "أُوروڤيزيون"

١٩٥٧/١/١٦: برنامج إذاعيّ في "راديو لوكسمبورغ"

١٩٥٧/١/٢٠: زيارة للمُشرَّدين في منطقة "سانوّا"

من ٢٢ إلى ١٩٥٧/١/٢٥: مجموعة محاضرات في "شارلروا" و"بروكسيل" ببلجيكا

١٩٥٧/١/٢٧: تدشين قرية سكنيّة

١٩٥٧/١/٣٠: مؤتمر في جينيف

١٩٥٧/٢/١: محاضرة في روما

١٩٥٧/٢/٣: محاضرة في "فريبورغ" بسويسرا

١٩٥٧/٢/٧: زيارة لمدينة "ليون"

١٩٥٧/٢/٨: اجتماع في باريس

١٩٥٧/٢/١٠: محاضرة في مدينة "أورن"

١٩٥٧/٢/١١: برنامج إذاعيّ

تلي سلسلةُ محاضراتٍ في شتَّى المُدُن الفرنسيّة والأُوروبيّة. وكلُّ محاضرةٍ كانت كافيةً لاستنفاد قواه، فهو، عادةً، يتحدَّث بكُلِّ جوارحه، طوالَ ثلاث ساعاتٍ مُتَّصلة؛ وفي تلك الأَثناء، حسب اعترافه يُعطي انطباعًا كاذبًا بالحيويّة المتدفّقة؛ غير أنّه ما يكاد يفرَغ من حديثه حتّى يشعُر أنّه كالإِطار المطّاطيّ المثقوب المُفْرغ من هوائه. فالشُّحوبُ يعتري مُحيَّاه، وجبّته تقطرُ عَرَقًا؛ وهو، مع ذلك، يتعرَّض لمحاصرةٍ لا تَرحَم. فمئاتٌ من الَّذين توافدوا لسماعه ولم يُتِحْ لهم ضِيقُ المكان ذلك، يلتمسون التحدُّثَ إِليه، فيستقبلهم، فئاتٍ صغيرةً، ثمّ يردّ على أسئلة الصَّحافة المسموعة والمقروءة، ولا يقوى على ردّ أَحد، لأَنّه، كالنَّبيّ، لا يتوارى ولا يُستجدى، ولكنَّه، في نهاية المطاف، ينهار خائرَ القوى.

وقد أَقرّت الآنسة "كوتاز" أَنّ اللَّيلَ لم يكن له، مثلما هو لسائر البَشر، فسحةً للنَّوْم والرَّاحة، بل الفرصةَ الوحيدة لِلرَّدِّ على سَيْل الرَّسائل المنهالة عليه.

وقد كتب هو نفسه: "لئن كان العملُ ضرورةً، فهو لي، أَيضاً، مصدرُ أَلَمٍ. فمعه لا أَرى سوى ما عَجِزْتُ عن تحقيقه. إِنّ الشُّهودَ يُعجَبون بما يُنجَز، أَمَّا العاملون فيتأَلَّمون من عدَم اكتمال عملهم. إِنّ كلَّ من يعمل يُحاكي طبيبًا لا ينعم أَبدًا بمُتَّسعٍ من وقتٍ كي يتمتّع بشِفاء مريضٍ، ليقينه بأَنَّ صيحات هواتف ستوقظه عند فجر الغَد، مُردِّدةً بلا هوادة: "إِنّني أَتأَلَّم، أَتأَلَّم، أَتأَلَّم". وهو غالبًا ما يعجز عن شفاء مرضاه، ممّا يحزنه في الصَّميم... "**إِنّني لا أَقوى على حمل بُؤْس العالَم إِلاّ بالعبادة، مُبتهلاً: يا إِلهي، إِنّي أُومن بحبّك، رغم كلِّ شيءٍ". إِنَّ الحبَّ هو أَن نُقاسي ما يُقاسيه الآخرون، وأَلاّ نكتفي بالنَّحيب، بل أَن نعمل، في حدود طاقتنا، لا بالنّيابة عمَّن يتأَلَّم، بل معه... أَمّا إِذا جاء المرضُ كي يمنعني من**

العَمَل، فهو يفسح لي أَوْقاتًا للتعبُّد والرَّاحة والتأَمُّل والصَّلاة، وكلُّها ضرورِيَّةٌ ضرورةَ العمل".

وقد جاءَ المرض، فعلاً. فمن جرّاء السَّهَد، والحرمان، والتوتُّر المُستمرّ، مُنِيَ الأَب بالأَرَق، وبفَتْقٍ في الحجاب الحاجز، كان من السَّهل معالجتُه جراحيًّا، غير أَنَّه كان يُرجئ، باستمرارٍ، تلك المداخلة، إِذ لم يكن يجد لها من وقته مُتَّسعًا.

وقد شهِدَ الأَبُ "دوڤاليه": "إِنّ الآنسة كوتاز الحازمةَ تمنعُه من التبرُّع بسريره، كي تحولَ دون مَوْته. فمن أَجل بقائه، لا بُدَّ له من سريره ذاك، ومن قِسْطٍ أَدنى من الطَّعام، ومن مدفأَةٍ صغيرةٍ؛ إِنّها تسهَرُ على حياته، وحالما يتراخى سَهَرُها، يُدمِّر نفسَه بإِفراطه في الحبّ".

وفي هذا المنحى أَيضاً تصبُّ شهادة الطَّبيب الَّذي كان قد عالج الأَب، في مصحّة "بيزبيه"، والَّذي أَقرَّ: "**إِنّني أُعطيه أَربعة مقاديرَ من العقاقير المُنوِّمة، فلا يستطيع الإِغفاء أكثر من ساعةٍ واحدةٍ، وسُرعانَ ما أَجده جالسًا في سريره، يردّد: "إِنّ شَقاءَ العالَم يوقظني، شقاء العالَم يوقظني**".

تلك كانت وتيرة نشاطاته طوالَ ثلاث سنواتٍ، لا هُدنةَ فيها، إِلاّ أَثناءَ فترات المَرض والاستشفاء في شتائي ١٩٥٥ و١٩٥٦، وعلى تلك الوتيرة اندرج نشاطُه سحابةَ عام ١٩٥٧. وفي غروب ذلك العام، بلغَ به الإِرهاقُ كُلَّ مبلغٍ، إِذ غدا لا مناصَ للجسَد من أَن يؤدّي ثمنَ الاستشهاد الدَّائم المفروض عليه؛ وقد أَمست آلامُ معدته مُزْمِنةً، بات معها عاجزًا عن تناوُل أَيِّ طعامٍ، كما بات لا يعرف إِلى النَّوم سبيلاً؛ ومع ذلك لم يُحاول أَن يَحُدَّ، في شيءٍ، من وتيرة عَمَله العاصفة. وحينئذٍ أَمرَه رئيسُه الكنسيّ، أُسقفُ غرينوبل، بالمثول إِلى عيادة الدكتور "شارل دوران"، بالقرب من مدينة "لوزان" السويسريّة، حيثُ سيكون بوسعه الخضوع لعلاجٍ جذْريٍّ وهادئٍ، بعيدًا عن مُراجعات رفاقه ومعاونيه، ومضايقة الصّحافيِّين والفضوليّينَ. غير أَنَّ ما جرى في الأَشهر التّالية يُبرّر التساؤُل هل كان، ثمَّةَ، تآمرٌ بين الرُّؤَساء الكنسيّين والطَّبيب السويسريّ، يستهدف عزْلَ الأَب پيير، وكبحَ اندفاعه، ولجم لسانه، وبالإِجمال إِلجاءَه إِلى وضعٍ يعجز، معه، عن إِحراج السُّلطات.

شخّص الأَطبّاءُ لدى الأَب فتْقًا في الحجاب الحاجز، يُمكن معالجتُه بمداخلةٍ جراحيَّةٍ لا ترتدي أَيَّة خطورةٍ؛ غير أَنَّه كان من الإِعياء بحيث لا يحتمل مثل تلك المداخلة، فأُخضع إلى تنويمٍ بواسطة عقاقير كيميائيّةٍ، امتدَّ أُسبوعًا كاملاً، علَّه يُعوِّضُ به أَشهرًا متماديةً من الإِرهاق والسَّهَد. وفي الثَّامنَ عَشرَ من كانون الأَوّل ١٩٥٧ أُجريتْ له العمليّة الجراحيّة، في معدته، بنجاح.

عَشيَّةَ ذلك اليوم، وقّع الأَب توكيلاً عامًّا لأَحد معاونيه، الأَب "ليران"، وللآنسة كوتاز، كما أَنّه دَوّن مُلحقًا لوصيَّته، أَوجز فيها القسم الماليّ بالقول: "**لستُ أَملك شيئًا، وكلُّ ما سيبقى ممّا استخدمتُه، فليُعطَ للفقراء**".

أَمّا جوهر وَصيَّته فهو بمثابة مراجعةٍ عامَّةٍ لمسيرة حياته، وتأَهُّبٍ للِّقاء الحاسمِ:

« منذُ أَربعين سنةً أَتوقُ إلى الموت،

"الموت: أَي الاندماج الأَبديّ في الوحدة،

"وحدة الحبّ الشَّاملة الفريدة،

"والتَّخلّي عن إِمكانيّة إِهانة الحبّ، إِلى الأَبد...

"كم بكيتُ، نَصَبًا، بل بكيتُ خَوْفًا من ذاتي...

"وإِن تَعَيَّنتْ عليَّ مُواصلةُ المسيرة، ولم يتحقَّق، بعدُ، أَملُ المَوْت،

"ولشدّة بكائي، فوحدَه حضنُ سيِّدتنا العذراء النَّقيُّ،

"يوفّر لي من الحنان ما يدفعُني إلى الارتماء فيه،

"وقد أَعياني البُكاء، وانعتقتُ من الانهيار في وهْدة القُنوط؛

"منها أَتوقَّع كلَّ خلاصٍ.

"فلتأخذ بين يدَيْها، في الوقت الَّذي تشاؤه،

"كلّ إِرادتي.

"كم أَودّ أَن أَموت،

"لكيلا يَقتَتِلَ النّاسُ، من بعدُ، في أَيّ مكانٍ،

"ويشيع السَّلامُ والفَرَح!

"فليرأَف الأَب بابنه الأَحمق، الَّذي لا يُضْمِرُ لأَحدٍ شَرًّا.

"وإِنّني لأَرجو، قبلَ أَن أَقضيَ نَحْبي،

"الاستغفار عن الجُبْن الجمِّ، والمساعي الكثيرة،
"الَّتي انقضت بعيدًا عن الاتّحاد بالوحيد الشَّامل.
"أَتوسَّل إِلى جميع إِخوتي، أَن يكفّوا عن إِبداء الإِعجاب وأَن يتشفّعوا لي،
"فالإِعجاب الموجَّه إِلى الأَداة، لا إِلى اليدِ الخفيَّة
"الَّتي، وحدَها، تؤدّي كلَّ خدمةٍ للوحدة،
"هو خداعٌ للذَّات،
"وابتداعٌ جبانٌ لأسطورةٍ، يتحرَّر بواسطتها المرء،
"بفضل إِعجابٍ سلبيٍّ كسول،
"من لَوْم نفسه على تقصيره في العطاء ».

كم تمنّى الأَب، دَوْمًا، إِقناع الجميع بأَنَّ العطاءَ لا يُكلِّفُ شيئًا، بالمُقارنة مع ما يُكلِّف الإِحجامُ عن العطاء!

وكان الأَبُ عندما ولَج غرفة المشفى، حيثُ كان عليه قضاءُ فترة علاجه، قد أَعرب عن مزيجٍ من الدَّهشة والاستنكار حيالَ أَناقتها ورفاهها المفرطَيْن، فصرّح: "إِنّني أَخجل من وُجودي في مثل هذه الغرفة، في حين أَنَّ آخَرين يفتقرون إلى كُلِّ شيءٍ، وينفقون، وما من يُعنى بهم".

إِلاّ أَنّه سُرعانَ ما حوَّل تلك الأَناقةَ إِلى مثل ما كان يُشيعه، في سَكَنه، من فوضى، فامتلأت الجدران برفوف الكتُب، وازدحمت المناضدُ بآلات الإِملاء والطِّباعة وأَدوات الكتابة.

في ١٩٥٧/١٢/١٩، فتحَ الأَبُ عينَيْه، فإِذا به ما زال بعيدًا عن الضفَّة الأُخرى، وعن اللِّقاء الحاسم، راقدًا على سرير مشفى، تعمل مجموعةٌ من الأَنابيب والحُقَن على إِعادته قسْرًا إِلى الحياة. كانت المداخلةُ الجراحيّة قد تمَّتْ على نحوٍ مُرضٍ، غير أَنّ الإِرهاق الَّذي كان يرسمُ آثارَه المُدمِّرة على ذلك الجسد المرهَق، لم يَكُن يُتيح للأَطبّاء أَيَّ تفاؤُلٍ في شفاءٍ تامٍّ، ممّا حدا بأَحدهم إلى مكاشفته: "عليك، أَبتِ، الاستسلام للواقع. فلن تقوى، بعدَ اليوم، على أَيّ عملٍ، ولن تمتلك بعدُ، أَبدًا، القُوى اللاَّزمة لحياةٍ نشيطةٍ".

لقد عالجَت الجراحةُ علّةً جسديَّةً محدودةً، وبقيت العلَّةُ الرئيسة المُتمثِّلة في الانهيار العصبيّ الشَّامل، والَّذي قرَّر الدكتور "دوران" معالجته بالكيمياء، بعد أن أَصدر تقريرًا أَعلن فيه أَنّ الأَب مُصابٌ بأعراض "حالةٍ عَصَبيّةٍ مَرَضيَّةٍ تستلزم حدًّا من نشاطه المألوف، وإِعادةً لتنظيم حياته...".

وسرعانَ ما اتَّضحت رغبةٌ مشتركةٌ بين الأَطبّاء والرؤَساء الكنسيّين في وضع الأَب تحت الوصاية. فقد أَوعز إليه، أَوّلاً، الدكتور "دوران" بإِلغاء التوكيل الّذي كان قد منحه للأَب "ليران" وللآنسة "كوتاز"، بحجّة أَنّ مثل ذلك التوكيل هو حدٌّ من صلاحيّاته، يُؤَثِّر، سلبًا، على شفائه. ثُمَّ أَعلن الأَب "مونييه" أَنّ على الآنسة "كوتاز" أَن تكون هي المسؤولة عن الوئام والتّنسيق داخل أُسرة عمَّاوس، كي يبعث السَّكينةَ والاطمئنان في قلب الأَب پيير، ويحمله على قبول إِجراءات الوِصاية من غير اعتراض.

ولكن ما إِن وافق الأَب على تلك الإجراءات حتّى أَصدرَ الدكتور "دوران" أَوامره القاضية بملازمة الآنسة كوتاز للأَب پيير أَثناء نقاهته الطَّويلة، وبإِقصائها، هكذا، عن "عمّاوس" وشؤونها، على أَن يكون إِلى جانبها كاهنٌ أَو كاهنان تُعيِّنهما السُّلطاتُ الكنسيّة، ويُشرفان على جميع تحرّكات الأَب بل يرافقانه فيها. وكان أَوَّل من أُسندت إِليه مهمّة مراقبته الأَب "مونييه" اليسوعيّ، الواعظ الشهير.

واستسلم الأَب طائعًا لرغبات الطَّبيب والرؤساء الكنسيّين، وقد وصف، لاحقًا، ذلك الاستسلام بأَنّه يُحاكي "تضحية إِبراهيم"، إِذ تَركَ "عمّاوس" بين أَيدي من قد لا يتردّدون في نحرها والقضاء عليها. فهل كان استسلامُه مَغَبّة الإرهاق الجسديّ الَّذي جعله يتطلّع إِلى الغَرَق في اللاّوعي واللاّمسؤوليَّة، غرقه في الموت الّذي كان يتوق إِليه؟ أَم هو كان نتيجةَ المعالجة الكيميائية الّتي مارسها عليه الدكتور "دوران"، وبها كاد يُفقده وعيه ويُخلخل تفكيره؟ أَم هو كان عاقبة التَّصريح الَّذي أَهوى به، مثلَ ضربةٍ على الرَّأْس، الطبيبُ الَّذي قال له: "لن تقوى، بعدَ اليوم، على أَيّ عمل..."؟

إِثرَ ذلك التَّصريح الصَّدْمة، كان الأَب قد مَثُل إِلى حديقة المشفى، وانفجر مُنْتَحِبًا، وكان بكاؤه صرخةَ ثورةٍ، فما معنى حياته إِن هو بات عاجزًا عن الشَّهادة؟

وأيُّ معنى للعبادة إن لم يواكبْها العمل؟ وكيف السَّبيلُ إلى جعل الآخرين يُصدّقون أنّنا محبوبون، ونمتلك طاقاتٍ للحبّ كبيرةً؟

لم يبقَ له سوى الدّموعِ يذرفها، والصلاةِ يسكبُها، للحدِّ من مآسي العالَم الَّتي بات عليه أن يقفَ أَمامَها أَعزلَ عاجزًا، وبأَصابعه التي غضّنتها سنواتُ الكَدْح راح يمرّ على حبّات سُبْحته مستغيثًا، وهو يستعرض شريط حياته؛ واستنار قلبُه بُبؤْرة النُّور الَّتي انبعثتْ من سنواته العشر الأَخيرة التي جُبلت بعمّاوس، بنَشْأَتِهَا وآلامها وانتصاراتها وإِنجازاتها الرَّائعة، وإِشعاعها إلى جميع أَرجاء المعمورة. وحينئذٍ، تفجَّرت من أَعماقه صرخةُ شكرٍ لله الَّذي وهَبَه أَن يعيش مثل تلك الحياة المُفعَمة نعمةً، وصلاةً، وتقدمةً، وتضحيةً، فهتف: **"أَجل، حتّى لو صحّ أَنّني لن أَستطيع، بعدُ، أَن أَفعل شيئًا، وحتّى لو تحتّم عليّ أَن أَبقى، سنواتٍ طويلةً على مثل ما أَمسيت عليه من سُقمٍ، إِنّني راضٍ بذلك، وأَودُّ تقديم هذا الرّضى، علَّه يكون تكفيرًا عن كلِّ أَخطاء حياتي، ويكون أَيضاً، بشكلٍ آخر، ولكن حقيقيٍّ، خدمةً لمن يتأَلّمون، والَّذين أُحبّهم..."**.

وحينئذٍ، قَفَل إلى غرفته، واستسلم لسُباتٍ عميقٍ، مع أَنّه كان، في تلك الفترة، لا يستطيع الإِغفاءَ، إلاّ بتناوُل جرعاتٍ مضاعَفةٍ من المُنوّمات.

ذلك الاستسلامُ للمشيئة الإِلهيّة، هيّأه للاستسلام لرغبات الأَطبّاء والرؤساء الكنسيّين، ممّا يسَّر على الدكتور "دوران" ممارسةَ العلاج الكيميائيّ الَّذي كان يفخر بأَنّه مُبْتدعه، والمتمثِّلُ في إِغراق مريضه في سُباتٍ مصطَنعٍ مُطْلَقٍ، سبعةَ أَيّامٍ متتالية، يفقد فيها الوَعْيَ فقدانًا كاملاً، وينقطع انقطاعًا تامًّا عن الطَّعام، بحيثُ يبدو السُّباتُ، وكأنّه موْتٌ مؤقّتٌ مُبرْمَجٌ. وكان الأب يخرج من ذلك السّبات مُشوَّشَ الذَّاكرة، خائرَ القوى. وكادَ ذلك العلاج يقضي عليه قضاءً مُبرَمًا، في مطلع ١٩٥٨.

بفَضْل قَسْوة العِلاج، والعُزْلَة التي فُرضت على الأَب طوالَ أَشهر النَّقاهة الطَّويلة في أَحد الأَديرة، بعيدًا، وحيدًا، كان من الجليّ أَنَّ الهدَفَ هو عَزْلُه، عزْلاً مُمَوَّهًا بالحِرْصِ على صِحَّته وسلامته. وقد بيَّن الدكتور "دوران"، في رسالةٍ له إلى أُسقف غرينوبل، بتاريخ ١٩٥٨/١/١٤، الأسلوبَ الأَمثل الَّذي يتوجّب اتّباعه، فكتب: "أَيّةً كانت خطورة وضعه الصِّحِّيّ، ينبغي إِدراك أَنّه لا يسوغ تجسيمها إلى حَدِّ بَعْث

الذُّعر في صفوف مُعاونيه الأقربين. من المحقّق أَنّ على الأب الخضوعَ لعلاجٍ طويلٍ، ولكنَّ ذلك لا يعني وجوبَ تواريه عن الأَنظار، ولا بتْر علاقاته مع العالَم، والحُؤول دون نشاطه فيه، لا بل ينبغي أَن يستمرَّ هذا النَّشاطُ بقدر ما هو يتلاءَم والعلاج الطِّبّيّ، لكيلا ينتابَ المريض انطباعٌ وبيلٌ إلى أَبعد مدًى، بأَنّه كائنٌ ناقصُ الطّاقات، بُتِر جزءٌ منه، على جانبٍ كبيرٍ من الأَهمِّيّة، ممّا قد يُفضي به إِلى حالةٍ من الانهيار، أَشَدَّ خطورةً، قد لا يكتب لها الشفاءُ أَبدًا. سيكون نشاطُ الأب پيير، من الآن فصاعدًا، خاضعًا لرقابة طبيبه الَّذي سيُحدّد تحرُّكاته. ومن شأن ذلك أَن يوفِّر للسُّلْطة الكَنَسيّة الَّتي تمثّلونها ضمانات إِن أَنتم وجدتموها كافيةً، فمن شأنها طمأنة المُساعدين الرئيسين في حركة عمّاوس".

ذلك كان شكل الوِصاية الذي قُصِد منه عدمُ إِثارة شكوك الجماهير، وجماعات "عمّاوس"، والأَب نفسه. وأَيّةً كانت مرامي تلك الوصاية المُقَنَّعة، فمن الواضح أَنّ بعض الَّذين نابوا عن الأَب أَثناءَ مرضه لم يفعلوا الكثيرَ لمساندته. وإِنّه لمن المُحزِن، حقًّا، أَن يكون الأَب "مونييه"، مع جليل شأْنه، ومع ما أَولاه الأَبُ من ثقةٍ بلا حدودٍ، فأَوْكَل إِليه أَمر ربيبته "عمّاوس" ومستقبلَها، ارتضى الاضطلاع بمهمّة قصّ أَجنحة النَّبيّ؛ فهو لم يُحاول الردّ كل تخرُّصات الصُّحف البريطانيّة والفرنسيّة التي راحت تختلق بشأن الأَب أَنباءَ كاذبةً. فقد نشرت صحيفةٌ إِنكليزيّةٌ بتاريخ ١٩٥٨/٢/٢٣:

« إِنَّ الأَب پيير مُعتلُّ الصِّحَّة، ولكنَّه، أكثر من ذلك، مُنهارٌ تحت تأثير فَشَلِه. فَعَمَلُه كان ناهضاً على هذه الفكرة: فلنساعد الفقراء والمُعذَّبين، وحينئذٍ سيتجنّد هؤُلاء، بدافع عرفان الجميل، كي يُساعدوا آخرين بدَوْرهم. ولكنّ أَبا "عمّاوس" الرُّوحيّ قد تبيّن أنّ البشريَّة ليست مثلَ ما تخيَّلها من جمالٍ وسخاءٍ. وحينئذٍ، أَصابه عقوقُ البائسين بخَيْبةِ أَملٍ ذريعةٍ، أَفضت به إلى الانهيار التامّ ».

وفي مثل صدى لهذا الادّعاء، أَعلنتْ، في آنٍ واحدٍ، صحيفةٌ فرنسيَّةٌ، استنادًا إِلى تصريحِ مُقرَّبٍ من الأَب پيير، أَنّه، فورَ إِبلاله من مرضه، سيعتزل في أَحد بلدان أَفريقيا، عاكفًا على التعبُّد والكتابة، وكأَنَّ الصَّحيفتين المذكورتَيْن كانتا تودّان الإِيحاءَ بانسحاب الأَب پيير من معركته، وبخذله رسالتَه، وتحثّان اللَّجنة الإِداريّة على الإِسراع في تنفيذ ما بيَّتَتْ عليه نيَّتَها من إِصلاحٍ كفيلٍ بتخليص الكثيرين من

مُضايقات الأَب پــيير ومداخلاته الصَّاخبة في سبيل العدْل، وبالتالي تحويل "عمَّاوس" إلى مُجرَّد جمعيَّةٍ خيريَّةٍ وديعةٍ خانِعة.

حيالَ تلك التخرُّصات، التزَم الأَب مونييه الصَّمتَ، ولم يقل في تكذيبها كلمــةً، ممّا حدا بالأَب پــيير إلى دحضها ووصفها بالافتراء الجسيم، وإلى إعلانه أَنّ أَيّ نبأٍ يتعلَّق به شخصيًّا، ما لم يكن صادرًا عن الآنسة كوتاز، فهو لا يستند إلى أيٍّ أَساس.

وربَّما أَوحى موقف الأَب "مونييه" السَّلبيُّ هذا إلى بعض المُراقبين أَنّه هــو الَّــذي سرَّبَ مثل تلك الأَنباء، دعْمًا للجنة "عمّاوس" الإِداريّة الجديدة. غير أَنّ الأَب "مونييه" قد نفى عن نفسه مثلَ تلك التُّهمة، وصرَّح بوضوحٍ لا لَبْس فيه: "حــذارِ مــن المنــاورات الخارجيَّة. إنّ موقفي ثابتٌ: لا "عمّاوس" في معزلَ عن الأَب پــيير".

وكان الأَب پــيير، قُبَيْل استشفائه الثاني، وبمناسبة اجتماع مسؤولي الجماعــات والاتِّحاد الوطنيّ، في آب ١٩٥٧، سعيدًا بمباركة محاولات لَجنة الإدارة الإِصلاحيّة، ولا سيّما في المضمار الماليّ، وبإِعلانه أَنّ شبحَ الإفلاس قد تلاشى، وأَنَّ "عمّــاوس" استعادت عافيتَها الماليّة، وبات بوسعها الانطلاق، من جديدٍ، على سكّةٍ آمنة. وعــادَ فأَكَّدَ أَنَّ على "عمّاوس" أَن تستمرّ، وتُواصلَ مسيرتها، حتّى لو وافَتْه المَنيَّةُ في الغد.

غير أَنَّ الواقعَ لم يكن يُبرِّرُ مثلَ هذا التفاؤل، ولا سيَّما في نظــر لجنــة الإِدارة الجديدة، فالعداءُ الكامنُ بينها وبين الجماعات، ومشاعر اللاّثقة المتبادلة، مــا زالــت متّقدةً تحتَ الرَّماد؛ والإِداريّون، إلى ذلك، يتّهمون الأَب بتمييــع الأُمــور، وســوءِ التَّقدير، من جرّاء ثقته العمياء في رفاقه القُــدامى، كمــا يتّهمــون الآنــسة كوتــاز بالاستبداد. وقد ظلَّت الأَزمةُ تتفاعل، هكذا، في الظِّلّ، ولكنَّها، لحُسْنِ طالع "عمّاوس"، لم تنفجر على الملأ، ولو هي انفجرتْ، لربَّما كانت أَطاحتْ بكُلِّ شيءٍ. وربَّما تريَّث الإِداريّون واعتصموا بالصَّبر، مُتوقّعين الفَرَج من مرض الأَب الكفيل بإِقــصائه أَو القضاءِ عليه.

وفي تلك الأَثناء، عبثًا حاول إِخوةٌ "صُوفيّون" رَدْمَ الهُــوَّة بــين لجنــة الإِدارة، والجماعات العاملة، على حدّ ما سعى الأَب "دوڤــاليه"، الَّذي، بعد أَن لَمَسَ بُطــلانَ مساعيه، انسحبَ، مُؤْثِرًا العملَ مع الرِّفاق في جماعة "بوجيــڤــال". وقد اتّــضح أَنّ لا شيءَ يجمع بين الفئتَيْن سوى حُبٍّ مشتركٍ للأَب پــيير؛ وقد حام الشَّكُّ حولْ قُدرة

ذلك العامل على الحُؤول طويلاً دون الصِّدام والفضيحة. وفي إِحدى الجَلَسات، بعد أَن تمادى الإداريّون في إِطلاق نُذُر الانهيار الوشيك، انفجرت الآنسة "كوتاز" بالنَّحيب، واستغاث الأَب "مونييه" بلهجةٍ مُؤَثِّرَة:

« بالحبِّ يُمكن إِنقاذُ كلِّ شيءٍ. وبما أَنَّ الأَبَ يُغدق حُبَّه على كلٍّ منّا، فلنعرفْ كيف نجودُ عليه بحبِّنا، كي نُنقذَه، فهو، اليومَ، أَفقرُ الفُقَراء ».

وكان الأَب "مونييه" مُحقًّا، فذلك الشِّقاقُ كان يُشيع في أَعماق مؤَسِّس "عمّاوس" أَلَمًا بليغًا، وشعورًا بالذَّنب والتَّقصير، ويُفضي به إِلى الانهيار، بحيثُ يعجز حتّى أَقربُ أَصدقائه عن مؤاساته. ولكنّه سُرعانَ ما كان يستعيد رباطةَ جأشه، واندفاعه في النِّضال، فيُعبِّر، بلهجةٍ مضطرمةٍ، عن استنكاره، واعتراضه، وهواجسه، ورفضه الرُّضوخ، والاستسلام لتصفية رفاقه، على حدّ ما جاء في رسالةٍ منه إِلى الأَب "مونييه":

« لقد سئِمتُ موقف الصَّلَف المتزيّي بمظهر البراءَة، الَّذي يَقفه من يُنصِّبون أَنفسَهم مُصلحاتٍ ومُصلحين لكلِّ ما هو قائمٌ. أَليس لزامًا على من يتنطَّح للإِصلاح، أَن يزدان بقسْطٍ وافٍ من التَّواضع بحيثُ يُتيح لكلّ جيِّدٍ موجودٍ قبلَ مجيئه، أَن يتغلغل إِلى أَعماقه. حذارِ، فردودُ فِعل شُبّانٍ وشابّاتٍ من نَمَط رفاق "عمّاوس"، قد لا تخلو من العُنْف.

"علامَ استند المُصلحون كي يُقرّروا إِصلاح حتّى مُصلّى "نويّي پـليزانس"، ذلك المكان الوضيع، حيثُ طوالَ أُلوف الأَيّامِ والليالي، وُلدت حقيقةُ "عمّاوس" في الأَلَم والدّموع؟.. قد يكون ذلك المُصلّى ضئيل الشأن، ولكن كم من الأُمور الضئيلة الشَّأْن تنطوي على أَسرارٍ جليلة... حذارِ أَن يؤدّي إِصلاحكم إِلى إِيباس الشَّجرة، أَو دفعها إِلى الانبثاق في مكانٍ آخَر! »

وغالبًا ما أَهاب بوُجَهاءِ شارع "بوردونّيه" إِلى الكفّ عن "دوس كلّ ما كان قبلهم"، واتَّهمهم أَنّهم، بحجّة تلافي الفضائح، لا يوفّرون جهدًا من أَجل إِثارتها واختلاقها. وكان يُلحقِ التحذيرَ بالإِنذار، فيُعلن، مثلاً: "فلْيعلم الجميعُ، يقينًا، أَنّني لن أَدع اتّهامًا باطلاً أَو نميمةً بحقّ الرِّفاق تتكرّران من غير أَن أَتصدّى لهما بكلِّ ما

سيدعه فيَّ الرَّبُّ من قوى. فالجُبْنُ رذيلةٌ". وكيف لا يهبّ للذَّوْد عن حياض رفاقه المستنجدِين به، ملتمسين منه الصُّمود والإِسراع في العودة، على حدّ ما كتب له أَحدهم:

« أَبتِ يُشيع البعض أَنّه لم يعد لك سوى دَوْرٍ إِداريٍّ ثانويٍّ، وبعض محاضراتٍ تلقيها، فحسْبُ. ويزعم بعضُهم: "إِنّ الأَب لن يعود، وإِن هو عاد لوَجَد بابًا موصدًا". ولكن اطمئنّ بالاً، فالقدامى وبعض الجُدُد حزينون وثائرون، فعمّاوس هي أَنت، ولا أَحد سواك. عُدْ بأسرع ما يمكنك... وبعودتك ستتراصُّ الصُّفوف تراصَّها وراءَ رجُلٍ واحدٍ ».

لقد تألَّم الأَبُ من اتهامات اللجنة الإِداريّة أَلَمًا بليغًا، فالاتِّهامات عندما تُلْصَقُ بإِنسانٍ جريحٍ قد تغدو مُميتةً. وما أَشاعتْه لَجنة "بوردونّيه" من تخرّصاتٍ بحقّه، وحقِّ رفاقه، قد حوَّلت خَلوته المَرَضيَّة الَّتي أَرادها فُسْحةً للتأَمّل والعبادة استشهادًا مُضاعَفًا يُضيف إِلى أَوجاع اَلْجَسَد العَليل آلام خيانة من ظنّهم أَصدقاء، ولكنّهم تجاهلوا إِنجازاته المُذْهلة، وتمثُّله بالأَلَم البشريّ، واندماجه بالشَّقاء، كي ينبُشوا أَخطاءه وسهواته – وهي الرَّفيقُ الملازم لكلِّ عَمَلٍ عظيمٍ – وكي يحمّلوه كلّ أَخطاء رفاقه الَّذين انتشلهم من وَهْدة البُؤس والانحطاط، وحوَّلهم إِلى مُنقِذين للآخرين، وقد طوى ماضيهم بكلّ خِزْيه وقتامه ليبعثَهم بَشرًا جُدُدًا، في حين دأَبت اللجنة الإِداريَّة على نشْرِ ذلك الماضي والتَّشهير به. ومع ذلك ما انفكَّ الأَبُ، يومًا، يؤَكِّد أَنّ الرفاق هم جذورُ "عمّاوس"، والنُّسْغ الَّذي يروي فروعها.

والتمست اللَّجنة الإِداريَّة مساعدةَ السُّلطة الكنسيّة على إِقصاء الأَب پيير، غير أَنّ تلك السُّلطةَ تدرّعت بالحيطة، وكذلك فعَلَ الأَبوان "مونييه" و"ليران" اللّذان أُنيطتْ بهما مُهمَّة قصِّ أَجنحة النبيّ؛ ويبدو أَنَّ السُّلطة الكنسيّة كانت تُؤْثر عودة الأَب موهَنًا، مُتَعقِّلاً، على التصدّي لإِقصائه عنْوةً.

ومن جهته التمس الأَبُ پيير من الدكتور "دوران" أَن يأذَن له بحضور جلسة هيئة "عمّاوس" العامَّة الموشكة على الانعقاد في ٥٨/١/٢١، كي يُتاح له الدفاعُ عن نفسه وعن رفاقه، إِذ من العار أَن يُدان امرؤٌ في غفلةٍ عنه. وحيالَ رفض الطَّبيب، كلَّفه الأَبُ أَن ينوب عنه، ويقومَ بمهمّة إِيضاح الحقائق. وكان ذلك شرطَه لمتابعة

العلاج، مُهدِّدًا، في حال عدم تنفيذه، بمغادرة المصحَّة، وتكريس ما تبقّى له من طاقةٍ وأيّامٍ للدِّفاع عن "عمّاوس" وعن الرِّفاق، ولو اضطرّه ذلك إلى إذاعة حُجَج دفاعه على الملأ. وبالإضافة إلى ذلك، طالبَ بأن يُحاط علمًا بكلّ ما يجري في "عمّاوس"، الَّتي عليها الالتزام بقاعدتَيْن أساسيَّتَيْن، لم يكن مستعدًّا للتهاوُن بشأنهما:

– "عمّاوس"، في جوهرها، تعاونٌ حَذِرٌ، ولكنَّه واثقٌ ثقةً جريئةً، بين رجالٍ مُثقلي الماضي، استعادوا الرَّجاءَ في الحبّ، ورجالٍ نشب بهم القَرَف من حياةٍ تستهدف المالَ والمُتعة.

– على كامل ناتج العمل الجماعيّ أَن يُوظَّف في خدمة الغَوْث الطارئ، وفي العمل الهادف إلى القضاء على أَسباب كُلِّ أصناف الشَّقاء.

ولكن ليس ما يُثْبتُ أَنّ الدكتور "دوران" بلّغ رسالة الأَب بحذافيرها، وأَنَّ تقريره حول وضعه الصحّيّ كان مطابقًا للواقع. بلْ وحدَه الأب "مونييه" دعا إلى التَّضامن مؤكّدًا أَنَّ الأَب پيير يودّ رُؤْيةَ ربيبته "عمّاوس" تطيرُ بأَجنحتها الخاصّة، ولكن لا بدّ لها من سُلطةٍ عليا، وما تلك السُّلطة سوى الأَب پيير الَّذي يُعاني أَقسى الآلام، من جرّاء ما بذله في سبيلها، فلا بُدَّ من مقابلته بالتَّضحية والحبّ. غيرَ أَنّ اللَّجنة الإداريّة الجديدة لم تكن مُستعدَّةً لسماع مثل تلك العظة من الأَب "مونييه"، ولا شروط الأَب پيير، ولا سيَّما فيما يتعلّق برفاقه.

أَمّا الدكتور "دوران" فقد طرأ على موقفه تبدُّلٌ يصعُب تفسيره، إثر عودته من اجتماع "عمّاوس". فبعد أَن كان وعد بالشُّروع بمرحلةٍ علاجيّةٍ أكثر رفقًا ولينًا من الأُولى، بدا وكأنّه يتعمّد إغراق الأَب، أكثر فأكثر، في سُباتٍ يحاكي الموت، وعزلَه عن العالَم؛ فدأَب على إخضاعه لفتراتٍ جديدةٍ من سُباتٍ مُطلَقٍ يستغرق كلٌّ منها أُسبُوعًا كاملاً يخرج منها الأَب خائرَ القوى، مخبولَ الذِّهن. وغدا الأَب يخشى ذلك "العذاب" أَو "العلاج البيطريّ" كما كان يدعوه؛ وقد أَعرب عن هواجسه تلك، في رسالةٍ إلى الدكتور "دوران" أَقرّ فيها:

« أَنا لستُ خائفًا، ولكنّني أَتوجَّسُ خشيةً من خداعٍ ما، أَو من خيانة... فإذا ما قُطع الحبل الَّذي يصلني بكلّ شيءٍ تقريبًا، ولا سيَّما بأَصدقائي القلائل الَّذين بهم كنت أَتنفّس، وأَزدهر، فتُساورني خشْيةٌ من أَن أَفقد صوابي. وحتّى لو صلَّيتُ بكلّ كياني،

فلن أَقوى على الصُّمود... لا يُمكن شفاءُ علّةٍ كتلك التي أُعانيها، رغم إِرادتي، أَو في معزلٍ عنها. فدعني أَفهم التغييرات المفاجئةَ الكثيرةَ التي تحدُث، وكلّ ما توحيه من مخاوفَ ومن أُمورٍ أَرفضُها، وكلَّ ما يتخطّى طاقاتي ووِجْداني ».

وأَخَذَ الأَبُ يتوجَّس دُنُوَّ أَجَلِه، فأَوْدع بين يدي الأَب "مونييه" مُستقبَلَ "عمّاوس"، ومصيرَ الآنسة كوتاز، وأَهاب به أَن يتملّى من روح "عمّاوس" الحقّ، وانتهى إلى القول: "لستُ أَحقد على أَحدٍ... إِن هم وجدوا، في هذا المآل، غُنْمهم، أَلا فليعلموا أَنّهم قد تمادوا في الإِساءة...".

إِلاّ أَن العلاج اللاّإِنسانيّ الَّذي كان يخضع له توقّف بعد شهرٍ، فطرأ على وَضْعِه انفراجٌ واضحٌ. وفي آخر شهر شباط أَذن له الدكتور "دوران" بالكتابة "إِلى الخارج"، بعد ثلاثة أَشهرٍ من الصَّمت والعُزْلَة، فجاءت رسائله إِلى الرِّفاق والأَصدقاء تُعبِّر عمّا كان يتجاذبه، آنذاك، من استسلامٍ وأَلَمٍ واستنكارٍ، كما يتّضح من المقتطفات التالية:

« بعيدًا جدًّا عمّا أَردتُ أَن أَعيش وسْطه منذُ عشر سنواتٍ، حاولتُ أَن أَظلّ عاملاً معكم جميعًا، في هذه المحنة ».

وقد بيّن لأَصدقائه أَنَّ العلاج سبّب له أَلمًا جمًّا، وموجاتِ إِحباطٍ وحزنٍ جارفةً. ثمّ عاد فأَكَّد أَنّ رسالة "عمّاوس" مع ضآلتها، متفجِّرةٌ، ومن شأنها زحزحةُ نفوسٍ كثيرةٍ، شرطَ أَن نحقّقها، كلٌّ في موقعه، بجرأةٍ وتواضعٍ.

ودعا رفاقَه إِلى طاعة المسؤولين المعيَّنين، ولكنَّه حثَّهم على "الكفاح ضدّ الأَقوال الجوفاء التي تُطلَقُ عن طَيْشٍ، أَو حَسَدٍ، أَو تباهٍ. إِنّه لتشهيرٌ مريعٌ". وأَخيرًا شكر الَّذين برهنوا له عن محبّتهم "لا بالكَلام، بل بأَعمالٍ تتَّسم بالوفاء"، وأَطلعهم على وضعه الصِّحِّيّ فقال: "يظُنُّ الطَّبيب أَنّني لن أَقوى، قبل منتصف شهر أَيّار، على استئناف نشاطٍ ذي بالٍ. وها إِنّني، في كلِّ صباحٍ، شبهُ متلاشٍ من جرّاء تأثير حقَن الأَنسولين الّتي عليها أَن تُعوِّضَ أتلاف الإِرهاق المزمن".

غير أَنّ اللَّجنة الإِدارية سارعتْ إِلى حَسْم الموقف، وفقًا لما كانت تراه، قبل أَن يُتاح للأَب تسلُّم الزّمام من جديد، فأَعلنت في الأول من آذار ١٩٥٨: "إِنّ مكتبنا، بأَسفٍ شديدٍ، مضطرٌّ إِلى أَن يأْخُذ بالاعتبار سَقَم الأَب الخطير، ولذلك ارتأى إِعفاءَه، حتّى شفائه، من كُلِّ همٍّ من أَيِّ نوعٍ، ولا سيَّما هموم الإِدارة. ولذلك لن تروا اسمه

في قائمة أَعضاء مجلس الإِدارة". ومن تلكَ القائمة شُطِب أَيضاً اسم الآنسة كوتــاز، التي قُذِف بها إِلى الشَّارع، بلا عَمَلٍ يُقيم أَوَدها، ولا مسكنٍ تأوي إِليه.

وبلغت الصَّفاقة بالإِداريّين الجُدُد أَنّهم لم يتريّثوا حتّى عودة الأَب، بل ســارعوا إِلى حزْم أَوراقه وأَمتعته، وركْمها في أَحَد الممرّات. وهكذا تمّ الانشقاق الَّذي ارتضى الأَبُ الكثيرَ من التنازلات في سبيل تفاديه.

وحدَه "پــول" اعترض بعُنْفٍ هاتفًا: « أَوقفوا هذه المهزلة في الحال". إِنّ كــلَّ مــا يتوجّب علينا إِصدارُه الآن هو شهادةُ ولاءٍ وتعاطفٍ ومحبَّةٍ للأَب پــيير، قائلين له: "تعافَ سريعًا، ونحن سنصمد حتّى عودتك". غير أَن أَغلبيّة أَعضاء اللجنة أَخرســت "پـــول"، فانسحب، ولحق به خمسةٌ من المسؤولين كانوا يشاركونه الــرأْيَ والــشُّعور، واســتتكارَ العقوق والفظاظة من قِبلَ الإداريّين الَّذين اعترف بعضهم في ما بعد: "لقد كنّا قُساةً، بــلا شفقة، وقد شقّ ذلك على الأَب. وفيما خلا "اللّصوص" لم يرتفعْ منّا صوتٌ مُطالبًا ببقائــه. وقد خُيِّل إِلينا أَنّه سيتسنّى لنا، في ما بعد، الوقت كي "نلصق أَشلاءَ الحُطام ».

ربَّما لم يكن جميعُ أَعضاء اللَّجنة الإِداريّة خبيثي النَّوايا، أَو طامعين في مَنْــصبٍ وشهرةٍ، فمنهم رجالٌ نُزَهاء كرامٌ؛ غير أَنّ القابضين على زمام الأُمور قد أَوْهموهم أَنّ سفينة "عمّاوس" موشكةٌ على الغَرَق والتحطُّم، أَثناءَ غياب رُبّانها، وعجزه عن قيادتها، ولن يُنقذَها سوى تدابيرَ جَذْريّةٍ حاسمةٍ، فاستولى عليهم الوَجَل، وضاعف وَجَلَهم تفشّي الأَقاويل والتخرّصات، وسلوك بعض مسؤولي الجماعات على هواهم، وموقف السُّلطة الكنسيّة الزِّئبقيّ المُتَمثّل في رغبتها الكمينة في التخلّص من زعــيمٍ ســليط اللّــسان، مُزْعجٍ، مقترنة بعدم تجاسُرها على التصدّي لأُسطورةٍ لها من الشعبيَّة ما لها.

وقد طعن موقفُ اللَّجنة الإِداريّة الأَبَ پــيير في صميمه، وزاد من أَلَمه إِقصاءُ أَمينة سرّه المُهين، وانسحاب أَصدقائه، ما أَدّى إِلــى انفــصام علاقتــه بعمّــاوس، وانحجاب أَخبارها عنه.

وإِلى كلِّ تلك المعاناة الَّتي كانت تُمزِّقه، في ذلك الربيع من عام ١٩٥٨، أَثنــاءَ نقاهته الأَليمة، أُضيفت إِصابته بالتهابٍ كبِديٍّ جُرثوميّ اقتضى علاجًا موجِعًا مُرهِقًا، انتزع منه هذه الأَنّة:

– "لقد صرتُ موضع تجارب بيطريَّة"!

غير أَنَّ كلَّ تلك الآلام وضروب المقاساة لم تنَلْ من عزيمته وتحفُّزه للنِّضال، فقد صرَّح لإِحدى الصُّحف: "**من شأن الموت وحدَه فصلي عن رفاقي البائسين**". وإلى أُولئك الرِّفاق كتَبَ مُشدِّدًا عزيمتهم: "**ما زلتُ شبهَ خارج الحلبة. ولكن لا يَغُرَّنَّ ذلك أَحدًا. فعند الاقتضاء، وعندما يتعلّق الأَمر بقضايا جوهريّةٍ، قد تجدونني وقد استعدتُ كلَّ عُنْفُوان غضب الحبّ**".

وفي مُنتَصفِ الصَّيْف كتب إلى الآنسة كوتاز: « **أَجل، إِنّني مُستمرٌّ في تقديم التَّضحيات... ولكن كم القوى ما برحَتْ بعيدةً عنّي! ثمَّة أَيّامٌ مُريعةٌ، حيثُ أَبكي، وحيثُ كلُّ شيءٍ يسحقني ويُمزّقني. إِنّني لا أَمتلك أَيَّ شيءٍ ذي بالٍ، سوى الاستغراق في الإِفخارستيّا المقدَّسة... أَحيانًا كلُّ شيءٍ يُخيفُني** ».

وعندما يجول في خاطرهِ كلُّ ما يُسامُ أَصدقاؤه من عَنَتٍ، وهو عاجزٌ عن غَوْثهم يهتف: « **إِن كانت آلامي جسيمةً إِلى هذا الحدّ، فلعلّني، على الأَقلّ، لا أكون سببًا لإِيلام الآخرين... إِلهي، إِلهي، ما أَقسى هذا اللَّيل المتمادي. إِنّني ألتمس الغفران لافتقاري إِلى الجرأَة الكافية. ثمّة أَيَّامٌ مُريعةٌ...** ».

ووَسْط الآلام والمهانة يستجير بالرّبِّ من أَعماقه، على حدّ ما جاء في رسالة إلى الآنسة كوتاز: "**فليهبْنا يسوع السَّلامَ، سلامَه المنيعَ الكفيلَ بجعلنا نُفلح في إِشاعة السَّكينة بين جميع من تُقْلقُهم الأضاليل، وصَلَف أُولئك الَّذين يسلكون بحُمْقٍ ولامسؤوليّة، ريثمَا يشاءُ الربُّ أَن تتغيّر الأَحوال. عليّ، مهما كلَّفني الأَمر، أَن أَصمد بقوّة الكرامة والصمت، بعضاً من الوقت، وحتّى الخريف**".

ولكأنّه كان واثقًا من إِعادة كُلِّ الأُمور إِلى نِصابها.

قيامة

في مقابل خُصوم الأَب پيير، أَو بالحريِّ خصومِ رفاقه، الَّذين كادوا يُحطِّمون كلَّ ما بناه، ظلَّ كثيرون من أُولئك الرِّفاق مُخْلصين له بعناد وبسالةٍ، وماضين، في تشدُّدٍ مُطلقٍ، في سبيل تحقيق رسالته الأَصيلة، أَوفياءَ للخطِّ الَّذي انتهجه. ولكي يُعبِّروا بوُضوحٍ عن مقاومتهم للَّجنة الإِداريَّة، أَطلقوا على أَنفسهم اسم "جماعات الأَب پيير"، ورفعوا عاليًا صُوَرَه، وصُوَر الآنسة كوتاز، مُحيطين إِيَّاها بتبجيل يُلامس العبادة.

وقد كتَب له أَحدُهم: "أَبتِ، أَنا على أُهبةٍ للمُثول حتّى آخرِ الـدُّنيا مــن أَجلــك، ولكنّك عليلٌ، والعلّةُ أَبعَدتك عنّا طويلاً... لقد ضقتُ ذرْعًا. أَودُّ إِنقاذَ نفــسي. أَوَدُّ أَن تكون لي حياةُ صلاةٍ، حياةٌ داخليّةٌ، ولا سبيل إِلى ذلك في "عمّاوس"، اليومَ. مع ذلك، أَتمنّى البقاء".

من أَجل جميع هؤُلاء، ومن أَجل إِنقاذ "عمّاوس"، كافح الأَب المرضَ والتــآمر، وكان يسنده في كفاحه حُلْمٌ تراءى له في الرَّابع من شباط ١٩٥٨، أَثناء إِغفــاءة لــم تتعدَّ عشر دقائق "حلمٌ يبدو، في بعض جوانبه كابوسًا، غير أَنّ الانطباع الَّذي خلّفــه عند الاستيقاظ كان انطباعَ سلامٍ نفسيٍّ عميقِ الغور". وقد طلب منه الــدّكتور"دوران" تدوينه، فكتب:

« الانطباعُ الأَوّل كَان انطباعَ عزلة، فقد رأيتُ نفسي في الظُّلمــة إِزاءَ حــاجزٍ كبيرٍ، كنتُ أَستشفُّ وراءَه نشاطاً كثيفًا يتعلَّق بي. لم يُساورني القلَق، بــل خــامرني شيءٌ من الاضطراب يشوبُه شعورٌ مدهشٌ براحة الضَّمير، وبقُوّةٍ مُبْهَمــةٍ تُفعمنـــي، وبدنوّ محنةٍ مريعةٍ، وكأَنّني سجينٌ يتوقَّع الإِهانة. وجال في خاطري: "ههنا، خلــفَ الحاجز، يُعِدُّون لي أَسوأَ الأُمور". تلك الخاطرة كانت شبه يقينٍ. وبغتةً ســطَعَ نــورٌ باهرٌ، وإِذا بي أُدفَع نحو باحةٍ حيثُ عدد من السُّجَناء المتــوتِّرينَ مثلــي. وانطلقــت صيحةٌ حادَّةٌ: "يجب أَن يُقضى على البارّ"، وإِذا بقوّةٍ غريبةٍ عن مــشيئتي، ولكنّهــا تنبثق من داخلي، وتَتَعذَّرُ مُقاومتُها، تدفع بي نحو "البارّ". لم أَشهَدْ له شكلاً مُحــدَّدًا، ولكن بدا لي وكأَنّه طائرٌ أَبيض ضخمٌ، وَسْط الباحة، بيني وبــين الجمــع. ونــشبَ صراعٌ مُبْهَمٌ، عاتٍ. وما لبثَ أَن همد الطَّائِرُ بين يديَّ، وسقَطَ أَرضاً. ووقفتُ مشدوهًا أَمامَ موته. حينئذٍ شاهدتُ "الأمّ"، وسرعانَ ما أَدركتُ وأَدرك الجمهورُ أَنّها "أُمّ البارّ". وبإِشارةٍ رقيقةٍ، وجيعةٍ، دلَّت إِلى جدارٍ وعْرٍ على جانب الباحة المُغلَقَة، جدارٍ يمكن، مع ذلك، تسلُّقه، وقالت ببساطةٍ، وبصوتٍ متناهي العذوبة: "يا لأَبنائي المساكين!..."

"وفي الحال استحوذَ عليَّ إِحساسٌ داخليٌّ بأَنّني قد تحرّرتُ من جميع القيود الَّتي كانت تأسرني، ودفعتْني إِرادةٌ عاتيةٌ، وكأَنَّها إِرادةُ انتقام من تلك القــوى المــسيطرة عليَّ، والَّتي دفعتْني إِلى خنق الطَّائر؛ فوثبتُ على الجدار الوعر الذي أَشــارت إِليــه الأُمّ، وأَنا أَشعر أَنّني، في آنٍ واحدٍ، ضعيفٌ وواثقٌ من النَّصْر؛ وحدَّقتُ في وجــوه

جمهور المساجين الجامدين، المُحدِّقين، وصِحْتُ فيهم صيحةَ تحدٍّ: "هل، بعدُ، من خلاصٍ لجميعنا الآنَ سوى تسلُّق درجات الإنسان؟"، وانطلقتُ في تصعيدٍ شاقٍّ، ولحق بي الجميع، وقد استولى عليهم الإعياء. ولمّا بلغنا القمّة، تلاشى العمى الناجم عن نور الأسفل الخدّاع الباهر، وحلّ محلَّه الهواءُ العليل، والضياءُ المُنْعش، وتولّتنا الدَّهشةُ: فهنا، في الأَعلى، في نهاية جهدنا، كانت الأُمُّ وابنها البارُّ حيَّيْن، وكلُّ الرِّجال الَّذين رافقوني في التَّصعيد المُنْهك يواجه بعضُهم بعضاً، في السَّلام، والفَرَح والحياة، متَّحدين بالبرّ نفسه ».

وقد شهد خريف ١٩٥٨ تحوُّلاً مُدْهِشًا في وضع الأَب پيير ووضع "عمّاوس" على السَّواء. ففي منسك "ڤوارون"، في منطقة "السَّاڤوا"، حيثُ كان يقضي فترة نقاهته في التأَمُّل والعبادة، والبَحْث عن المُطْلَق، آنس الأَب تدفّق القوى الجسميّة والفكريّة تغزوه من جديد، واندفاعًا إلى استئناف الجهاد لا يقوى على مُقاومته، مُكَذِّبًا، بذلك، كُلَّ توقُّعاتٍ الأَطبّاء المتشائمة، ومثبتًا أَنّ ملامسته للموت قد زوَّدتْه برفدِ حياة ثرٍّ. لقد كان حكم الطِّبّ عليه بأَنّه لن يقوى، بعدُ، على أَيَّة حركةٍ بمثابة تحدٍّ. ولم يكن يجول بخَلَد الَّذينَ أَطلقوا حُكمَهم الخاطئ ذاك أَنّ المرض، للأب پيير، إنْ هو إلاّ نقاهةٌ للنَّفس، يخرج منها، أَبدًا، أَصلبَ عودًا، وأَشدَّ مراسًا.

في خريف تلك السَّنة، نَعِمَ الأَبُ، أَخيرًا، بالقيامة، على نحو ما وَصَفَها أَحدُ الكُتَّاب: "هو، وحدَه، يعرف مدى الوَهَن الأَقصى الَّذي يهوي إِلى وهاده البائسُ الَّذي لا يبقى له، في اللَّيل المطبق، سوى الإيمان بأَنّ الحُبّ موجودٌ، حتّى إِذا التزم الصَّمت، وأَنّ الحبَّ يقوى على كلِّ شيءٍ في قلبٍ مُشرَعٍ له... الحبّ الَّذي كان حاضرًا في سفينة الأَب، مُمْسكًا بيده. وكان الأَب موقنًا أَنّ التمسّك بتلك اليد يعني قبول السَّيْر في إِثْر سيّده حتّى آخر الشَّوْط، وأَن يُعاني معه ما عاناه: الصَّلْبَ والموتَ، ويشهَد، في النِّهاية، القيامة"

وقد رفدت الأَبَ پيير بالمزيد من النَّشاط والإِقدام أَحداثٌ كانت لذهنه نورًا، ولنفسه الجريحة بَلْسمًا.

ففي تلك الآونة، ارتقى السُّدَّةَ البابويّة الكردينال رونكالّي، ذاك الذي كان يقول للأَب پيير: "أَنت جذوتي المتّقدة"، منتحلاً اسم البابا يوحنّا الثالث والعشرين،

وسُرعان ما استشفّ الأَب في ذلك الحَدَث مُنْعَطَفًا في الكنيسة الكاثوليكيَّة يتمثّل فـــي إِصغاءٍ أكثر اهتمامًا بحاجات الناس، وإِجاباتٍ أَكثر انسجامًا مع تـــساؤلات الوقـــت الراهن.

الحَدَثُ السَّعيدُ الآخر كان حلول الأَب "أَندريه جاك ڤـــريك" محلَّ الأَب "مونييه" في مُساندة الأَب پـــيير الَّذي وصفه بقوله: "ذلك الفرنسيـــسكانيّ الجبّـــار، بنظرتـــه الفريدة الوضوح"، الَّذي سُرْعانَ ما غدا للأَب واحدًا من الأَصدقاء المعدودين الباقين. كان رصينًا، هادئًا، مُتَّقِد الذَّكاء، ويحمل قلبًا مُدهشاً. وقد صـــرّح الأَب "دوڤـــــاليه" بشأن مجيئه: "لم تُرِد الكنيسةُ سقوطَ الأَب پـــيير، فجاءَ "جاك ڤـــريك" كرجل إِطفاء، في حين كانت النّارُ ما برحتْ تعصف، ولا من ماء، ولا من أُنبوب إِطفـــاءٍ... أَيّـــةُ صلابة أَعصابٍ، وأَيَّةُ سيطرةٍ على الذَّات، وأَيّة نَظْرةٍ نيّرةٍ على البشر! إِنّـــه، حقًّـــا، الرَّجُلُ المُناسب...".

منذُ الوهلة الأُولى استَوْلى الأَبُ "ڤـــريك" على قلب الأَب پـــيير الَّذي صارَحَه: "شكرًا لتكريس ذاتك لعمّاوس. إِنّني أُوليكَ ثقةً تامَّةً... إِنّ مجرّد معرفتي بأَنّك موجودٌ لتحلَّ محلّي في كلّ ما لا أَستطيع القيامَ به، اســـتجابةً لاســـتغاثات الآلام الجـــسَديَّة، وجوع النُّفُوس وعَطَشها، يُلهمني تعزية كبرى..." وكتَبَ الأَبُ پـــيير إلى جماعـــات "عمّاوس" يقول: "هذا الرَّاهبُ الفرنسيسكانيّ، قد ارتـــضى أَن يكـــون لكـــم المُرشـــدَ الرُّوحيَّ العامّ. فانظروا إِليه، وإِليه وحدَه، نظرتَكم إِليّ، عندما كنـــت أَنهـــض بهـــذا الدَّوْر... إِنّنا يدٌ بيدٍ... ساعدوه على معرفة "عمّاوس" معرفةً كاملةً، بكلِّ ما تنطـــوي عليه من ثرواتِ الحياة، وأَيضاً بكلِّ مِحَنها".

لقد كان مجيءُ الأَب "ڤـــريك" بمثابة طيِّ صفحةٍ قاتمةٍ، فقد أَفلح، بمهارةٍ فائقةٍ، وفي آنٍ واحدٍ، في إِنقاذ رسالة "عمّاوس" على نحـــو مـــا تـــصوَّرها الأَب پــــيير، ومسايرة رغبة "الإِصلاحيّين"، وطمأَنة الكنيسة التي توسّمت فيه خليفةً للأَب پـــيير، أَلْيَنَ عريكةً، وأَقلَّ إِزعاجًا.

هذا التحوُّل في الأجواء حدا بالنِّطاسيّ إلى إِفلات قبضته، وإلى حـــثِّ مريـــضه على الانطلاق من جديدٍ، ولكن خارجَ فرنسا، من أَجل استئناف "تلـــك الاتِّـــصالات الدَّوْليَّة الَّتي تُمثِّل ضرورةً قصوى" للأَب پـــيير.

وقد حاول الطَّبيبُ، بالتّواطؤ مع السُّلطات الكنسيّة، أَن يقــرنَ تراخـــي قبــضته وسماحَه للأَب بالانطلاق إلى الآفاق الرَّحبة النائية، بفَرض قيودٍ علـــى صـــلاحيَّاته، وتحرّكاته في فرنسا. بيدَ أَنّ الأَب أَبى، بعُنْفٍ، مثلَ تلــك القيــود وأعلــن للــدّكتور "دوران":

– « لن تتكرّر التَّجربة... آنذاك كنتُ متلاشيًا... وبما أَنّني لم أَلقَ حتفي بفضل ما أَغدقتموه عليّ من عنايةٍ وعلاجٍ، فقد استعدتُ قدْرًا كافيًا من الشَّخصيّة لكي أَقول لك، هذه المرَّة: كلاّ... إِنّ عهد الرُّضوخ لكلِّ ما تُخَطِّطون له، والاستسلام لكلّ مـا يجري قد ولّى... »

وقد علَّق، لاحقًا، على تلك الحقبة فقال: "لقد تغلَّبتُ على تلك المحنــة الرَّهيبــة، بفضل اللاّعنف... من المحقّق أَنَّ التجرُّد التامَّ عن الغَضب لا يُمكن أَن يكونَ فضيلةَ الإنسان المُثلى... فغاندي عندما دعا إلى اللاَّعنف، لم يَقْصُدْ به مُطلَقًا السَّلبيَّة، بل إِنَّ اللَّفْظةَ الّتي استخدمها، والتي تُرجمت عمومًا "اللاعنف"، إِنّما كانــت تعنـــي، فعــلاً، "صلابة الحقيقة". ولكن أَين السَّبيلُ إلى التَّوفيق بين الدَّعوتَيْن الجسيمتَيْن، المُلازمتَيْن للنَّفس البشريّة: الدَّعوة إلى الرِّفق، والدَّعوة إلى الغضب، حيالَ الخُبْث والظُّلْم"؟

وقد شرع الأَب، منذ شهر آب ١٩٥٨، يُمضي فترةَ نقاهةٍ جديدةٍ في "الساڤــوا"، خاضعًا لإِشراف الدكتور "بور" الَّذي كان يؤمن بعلاج الأَعــصاب والاضــطرابات النفسيَّة بأُسلوبٍ ليِّنٍ حقَّقَ للأَب نتائجَ طيِّبةً. غير أَنّ الدكتور "دوران" ما انفكّ يُلاحقه برسائله وتعليماته الشَّديدة الصَّارمة، إِلى أَن ضاق الأَبُ ذرعًا، فكتب له: "أَلا يُمكــن مساعدتي، بالكفِّ عن الشكِّ في ذاتي، وعَن جَعْلي أَعيشُ وكأَنّني "شيءٌ" لا يمتّ إلى نفسي بصلةٍ؟ أَلا يمكن مساعدتي على التقاء ذاتي من جديدٍ؟ كفاكَ قسوةً، أَرجــوك، فإِنّني شِبْهُ مُحَطَّمٍ!"

وقد أَسهم علاج الدُّكتور "بور" العقلانيّ الرَّفيق في استعادة الأَب پــيير لقــواه، وقدرته على النَّوم، والرَّغبة في العَيْش والعمل. أَمّا الحَدَث الجوهريّ الَّذي غمر نفسَه بالعزاء وشدَّ عزيمته، فكان ازدهار فروع "عمّاوس" في جهات العالَم الأَربع ولا سيَّما في أَميركا الجنوبيّة والمَشرق، وبلدان أُوروبا الشّماليّة، وتوارُد الدَّعوات إِليه من كلِّ صَوْبٍ لتكريس تلك النبتاتِ النَّاشئة، وإِلباسِها ثَوْب "عمّاوس" بيده، وإِســباغ نفــوذه

عليها. لقد استشفَّ الأَب، في ذلك، دليلاً على أَنّه، و "عمّــاوس"، مُلْتَزِمــان بــالنّهج السَّليم، مُخلصان لمُثُلهما وأَهدافهما، وإِن تنكَّر لهما بعض الأَقرباء لغايةٍ في الــنَّفس لئيمةٍ. وقد عبَّر عن رضاه بهذا التَّطوُّر في وضع "عمّاوس" العالميّ بقولــه: "**هــذا العمل، الَّذي كنتُ له أَداةً، لم يضمحلَّ، بل ازدهر. لقد كان يتوالد تلقائيًّــا، وكأَنَّــه الاستجابة المُجدية والملائمة للحاجات. ولم يكن لي، في ذلك، فضلٌ، بل كــان لــي أَروع عبرةٍ للرَّجاء في المُستقبل**".

لقد كانت الدَّعواتُ الَّتي تقاطرتْ عليه لزيــارة شــتّى بقــاع العــالَم، وإِلقــاء المُحاضرات فيها، وكأَنّها دعوةٌ إِلى الهواء العليل، وإِلــى تحطــيم دائــرة العُزْلــة المفروضة. وكان واثقًا أَنَّ كلَّ ما حصل من تمزُّقٍ في "عمّاوس" فرنسا كان لا يزال محدودَ الأَثَر، وسيتَّسع له الوقتُ لرَتقه، ولا سيَّما أَنّ فئةً عريضةً من الرِّفاق قد أَكَّدت عزمَها على إِنقاذ أَصالة "عمّاوس"، كما هو تخيَّلها، وبعضُهم قــد حقَّــق فــي ذلــك المضمار إِنجازاتٍ رائعة.

وفي الحال، ضمَّد جراحَه النَّازفة، وهرع إِلى تلك الجماعات النَّائية الناشئة، الَّتي من شأنها أَن تُعلِّمه الكثير وتتعلَّم منه الكثير، فهوَ هناك، ما برح النَّبيَّ الناطقَ باســم من لا صَوْتَ لهم.

انطلاقتُه الأُولى قادتُه إِلى بلجيكا، بصحبة الأَب "سالــڤــات"، المُكلَّفِ بالــسَّهَر على صِحَّته، ثُمَّ إِلى النّمسا حيث لقي استقبالاً مُدَوِّيًا مُفْعمًا بالحفاوة، اشــتركت فيــه شخصيَّاتٌ عظيمةُ الشّأن كالأُسقف "أوغار" رئيس مؤَسَّسة "كاريتاس"، ورئيس أَساقفة ڤــينّا الكردينال "كونيغ" الَّذي خلَّف لدى الأَب انطباعًــا إِيجابيًّــا عميقًــا، والقاصــد الرَّسوليّ الَّذي أَعدَّ له استقبالاً حارًّا، في حين رحَّب به الأَطفالُ وغمروه بــالورود، وقام التلفزيون بتصوير كلِّ تلك الاحتفالات، ممّا أَثلج صدرَه، وشدَّ من عزيمته، بعدَ كُلِّ أَشهُر المِحَن والاحتضار.

وفي "ڤــينّا" أَلقى محاضرةً قيِّمةً هرع للاستماع إِليها حَشْدٌ غفيرٌ؛ وقد وصَــف الأَبُ نفسُه الحَدَث في رسالةٍ إِلى "لوسي كوتاز" قال فيها: "لقد كان الازدحام شــديدًا، قِوامُه أَربعةُ آلاف مُستمعٍ؛ وإِذ لم يتَّسع المكانُ لجميعهم، بقي عددٌ منهم وقوفًــا فــي الشَّوارع... وكم كانت عذبةً تلك الكاتدرائيَّة الَّتي لها من العُمْر ثمــاني مئــة ســنةٍ،

كنيسة دير البينيدكتيّين... وقد أَفْعَمَني عزاءً أَنَّ كُلَّ شيءٍ سار على خير نَسَقٍ، بعد أَن كنتُ أُوجس خشيةً، فقد كنت مُتعبًا، وأعاني آلامًا في المعدة والرأْس... وقد أُعيدَ بثُّ عشرين دقيقةً من العظة، عبر إِذاعة الـﭬـاتيكان إِلى البلدان الَّتي لا تَتَكَلَّم اللُّغةَ الأَلمانيّة. وهذا أَيضاً كان على جانبٍ كبيرٍ من الأَهمّيّة".

لقد انبعث النبيُّ من رماده، وخشْيةَ أَن تُقَصّ من جديدٍ جوانحهُ، راح يطير بلا توقُّفٍ، من بَلَدٍ إلى آخرَ، ومن استقبالٍ حافلٍ إِلى آخرَ أكثر حفاوةً. فشخَص إِلى الدانمرك في ١٩٥٨/١١/٢١، ومنها مَثَل إِلى السُّويد حيثُ كان قد دُعي لمعالجة آفةٍ مُستعصيةٍ ناشبةٍ بالشَّبيبة. فذلك البَلَدُ المُزدهر، النَّاعم بنظام حمايةٍ اجتماعيّةٍ فريدةٍ في العالَم، كان يشكو شبابه من آفة السَأم الَّتي تدفع بعددٍ منهم إلى الانتحار. وها هوذا الأَبُ يطوف ستوكهولم وأُوپسالا وغوتيبرغ، مُشخِّصاً الدَّاءَ، واصفًا الدَّواء، بعباراتٍ مُؤَثِّرةٍ، قائلاً: "من أَجل إِدراك طبيعة مرضكم، ليس أَفصح من قول شاعرنا پيغي: "أَلا يتَّفق غالبًا أَن تتمثَّل مِحنةُ أَبناء باني الكاتدرائيّات في أَن ينحصر مصيرُهم بأن يُصبحوا لتلك الكاتدرائيّات سَدَنَةً؟". إِنَّ كُلَّ شيءٍ لديكم مُنَظَّمٌ تنظيمًا مُحكمًا، بحيثُ يُخيَّل إِلى الأَجيال الجديدة، منذُ مولدها، أَنّ لا عمل لها، وأَنّ مُهمَّتها لن تتخطّى العناية بالإِنجاز المُذْهل، بالكاتدرائيّة الاجتماعيّة الرَّائعة الَّتي أَشادَها السَّلَف. ومن ثَمَّ، فلا مناص من أَن يعمد الشباب، يومًا، إِلى التقاط الحجارة، ورَجْم زُجاج النَّوافذ، بُغية فعلِ شيءٍ، وكَسْر الرَّتَابَة...".

تلكَ الآفةُ التي نعتَتْها إِحدى الصُّحُف بأَنّها "تعاسة السُّعَداء" مَرَدُّها أَنّ أُولئك الشُّبّان والشَّابّات، لم يطرق آذانَهم، ولم ينفُذْ إلى أَفئدتهم نداءُ الحياة الحقِّ، لا عن طريق ما يُلَقَّنون من ثقافاتٍ، وتربيةٍ، ومبادئَ أَخلاقيَّةٍ، ولا من خلال ما يشهدونه في ذويهم، ولدى السّياسيّين الّذين يقودونهم. ومن ثمَّ، فما هم يزدرونه ليس جمالَ الحياة، بل صورة الحياة الممسوخة التي تصدِمُ أبصارهم. ورفضهم ليس مُجرَّد جبنٍ. بل إِنّ الآفة تكمن في أَنّ مجتمعاتنا لا تعرف استثارة غَضَب أبنائها إلاّ على ترّهاتٍ، ولا توجِّه هذا الغَضَب نحو الإِهمال المريع الَّذي يرسف في أَغلاله أُلوف الأَبرياء. وأَمّا مبادئ الأَخلاق التي يُلَقَّنونها فهي لا تتعدّى مجموعةً من النَّواهي، وكان الأَجدر بها أَن تكون دعوةً إلى الحبِّ كفيلةً، وحدَها، بتحويل كلّ شيءٍ إلى فضيلة.

وربَّما طافت في خَلَد الأَب پـيير، آنذاك، فكرة الانتحار الَّتي راودتـه، وهـو فتى، من جرّاء عجزه عن إِرواء عَطَشه إلى المُطْلَق، وتحذير صديقه فرانسوا لـه: "أَتبتغي الموت، وأَنت لم تُنْجِزْ من حياتك شيئًا؟"

حيالَ الجوع والعطش إلى المُطلَق، لا يعني الرفاهُ والحمايةُ الاجتماعيّة شيئًا، ولا هما يشفيان غليلاً؛ ولذلك يهتف الأَب، مُخاطبًا شبّان السُّويد، ومن خلالهم معظمَ شُبّان العالَم:

« الدواءُ هو أَن تستغلّوا شجاعتكم، وصِحّتكم، وما حصَّلتم من عِلْمٍ، فتقبـضوا على أَزِمَّة ذواتكم، وتنطلقوا من عالَمكم المُحْكَم التَّنظيم، كي تحملوا طاقاتِكم وإِرادتكم بين ظهرانَي من يتأَلَّمون، بصفتكم إِخوةً لهم، لا أَسيادًا ».

العلاجُ النَّاجع الَّذي وصَفَه لتلك الشَّبيبة الحائرة المتبَّطة هو إِعلانُ الحرب علـى الشَّقاء، وشنّ حربٍ مُقدَّسةٍ على الفقر.

وحيثُما مرَّ الأَبُ، في الدُّوَل الاسكنديناڤـيّة، كان يلقى ترحيبًا مُؤَثِّرًا، ويُخلِّـف تأثيرًا بليغًا؛ وفي إِثْره كان ينهض مُتَطوِّعون ليرسِّخوا الاندفاع الَّذي استفَزَّهُ، ويُبْقوا الشعلة التي أَوراها مُتَّقدة.

وأبرزُ الحركات التي نشأَت استجابةً لندائه، حركة "جماعات السُّنونو" المستوحاةُ من هجْرة تلك الطّيور الرقيقة إلى البلاد النائية، حركـةٌ دفعـتْ بـشُبّانٍ وشـابّاتٍ اسكنديناڤـيّين، ومعظمهم لم يتخطَّ ربيعه العشرين، للمثول إلى بلادٍ مُتَخلِّفةٍ، لمدِّ يَـدِ العون إلى الأَكثر فقرًا وحرمانًا من سكَّانها. لا يُسأَل أَيٌّ منهم عن معتقداته، والمكان الذي أَتى منه، بل تُبْسَطُ بين يدَيْه شُروطُ الانتساب، فإِن هو قبلها، رُحِّب به.

وشاءَت الصُّدَف أَن تكون طليعة المتطوّعين في "جماعة السنونو" مـن منطقـةٍ يدين ٩٨% منهم باللّوثيريّة، وأَن يعملوا في خدمة فقراء الـپـيرو حيـث ٩٨% ينتمُون إلى كاثوليكيّة متشدّدة، على النَّمَط الإِسبانيّ. وربَّما كانوا، بـذلك، مـن رُوّاد المسكونيّة، إِذ عكَف أُولئك الـپـروتستانتيّون على رعاية سـتّين طِفْـلاً كاثوليكيًّـا التقطوهم من تلال أَقذار "ليما"، عُمِّدوا بماءٍ لا ينتمي إلى طائفة، وكان عرّابوهم مـن "أُوسلو"، و"برغن" و"ستوكهولم". لم يكن أُولئك الروّاد مُبَشّرين، بل دعاة "مـسكونيّة

الحبّ"، آمنوا بقول الأَب پـيير: "**لقد خلق الله الإِنسان حُرًّا لأَنّ الحُبَّ لا يمكن أَن يكون إِلاّ طَوْعيًّا، الحبّ الَّذي يحدو بالإِنسان أَن يصارح أَخاه: "عندما أَنت تتأَلَّم، أَتوجَّع أَنا**".

حتّى "العُتاة" من الشُّبّان السُّويْديّين المرتدين السِّترات الجلديّة السَّوْداء، نفذتْ إِلى أَعماقهم رسالةُ الأَب پـيير، فبعد أَن استمعوا إِليه في صمْتٍ خاشعٍ، لم يطرحوا أَيَّ سُؤالٍ، ولكنَّهم هتفوا إِليه ليْلاً:

– « أَبتِ، لقد تحدَّثْنا، عبرَ الهاتف، إِلى "جماعات السنونو"، كي نُحيطهم علمًا بعزمنا على القيام بحملةٍ واسعةٍ لجمع النّفايات من شأنها أَداء أَثمان تذاكر سَفَر المتطوّعين. وبالمناسبة، هل تمانعون في أَن نسمِّيك عضوَ شرفٍ في جماعتنا، ونُهدي إِليكَ ميداليّةً حُفِر فيها شعارنا؟ »

ولدى عودته إِلى مُعْتَكَفه في "الـڤـوارون"، بمنطقة "الساڤـوا"، وجد الأَبُ رسالةً من الأَب اليسوعيّ الأَرجنتينيّ "باليستا"، الَّذي كان قد زاره، لسنةٍ خلتْ، أَثناءَ نقاهته من استشفائه الأَوّل، والتمس منه المثول إِلى الأَرجنتين، حيثُ الحاجة إِلى وجوده ماسَّةٌ. وكانت الرِّسالةُ تؤكِّد، مرَّةً أُخرى: "إِنّ زيارتك إِلى الأَرجنتين، ولقاءَك جماعات جامعي النّفايات فيها، ضروريّان بسبب الخير الرُّوحيِّ الَّذي يسعكم تحقيقه في بلادنا، حيثُ تمتدّ موجةٌ معاديةٌ للإِكليروس. ومن الواجب أَداءُ الشَّهادة للإِنجيل، لا بالأَقوال فقط، بل بالأَعمال". وقد أَجابه الأَب پـيير: "أَجل، سأَحضر، في أَعقاب زيارتي للهند".

وفي تلك الأَثناء، بعد أَن استقرَّ الأَبُ مع أَمينة سرِّه، الآنسة كوتاز، في مدينة "شارانتون"، بعيدًا عن "البوردونّيه"، ومُماحكات اللَّجنة الإِداريّة، ما انفكّ يتخاطفه سُفَراء، وسياسيّون، وأَساقفةٌ، يتباحثون معه في ما يشغلهم من شؤون، ويَقَعون، جميعُهم، تحت تأثير سِحْره، فيما هو، بذلك، يستعيد طاقاته النِّضاليّة. فلئن كان مركزُ المُؤَسِّس قد اهتزّ بعض الشَّيء، لفترةٍ، في فرنسا، إِلاّ أَنَّ النّبيَّ العالميَّ الشُّهرة والتَّقدير ما برحَ متين الجناح.

أَمّا حيالَ إِداريّي شارع "البوردونّيه" فقد استمرّ الأَب يُبدي اللامبالاة، واثقًا من تخطّي الأَزمة قريبًا، وكأَنّه يشهَدُ "الفجرَ يمتلك الأُفق، والنهارَ ينزلق على الأَرض،

والنورَ يتفجّر أَشعَّةً، وكلَّ محْنَةٍ تزول. فلتضمحلّ الآن أوهام اللّيل، وتتلاشَ أَوهـــانُ الذِّهن، ولتمَّحِ كلُّ خطيئةٍ تسلَّلَت تحت جنْح الظَّلام، لكي يكون الصَّباح الَّذي ننتظره، مُتَضرِّعين، معينَ نورٍ تنتشر أَشعّته نَغَمات فرحٍ".

وغدا جليًّا أَنّ المؤامرة الطبِّيَّة الكنسيَّةَ الرَّاميةَ إِلى تحويـــل الأَب إِلـــى صـــورةٍ تَقَوِيَّةٍ، في إِطارٍ مُذَهَّبٍ، تُعلَّق على الجدران، وتحويل "عمّاوس" إِلى جمعيَّةٍ خيريَّـــةٍ وديعةٍ، قد مُنيت بفَشَلٍ ذريعٍ. واتّضح أَيضاً أَنَّ عهدَ تضحية إِبراهيم الّتي استسلم لها الأَب في غَمْرة مرضه قد ولّى، بعدَ أَن بارَك الأَبُ حركة رفاقه "الجوّالين".

تلك الفترة المُظلمة من مسيرة الأَب پـــيير لم تُخلِّف في نفسه مرارةً، بـــل قـــال عنها: "لقد كانت لي فترةَ تجدُّد، مثلما كان لي مطلعُ حياتي، طوالَ الـــسَّنوات الـــسِّتّ التي أَمضيتُها في المنسك، منذُ كان لي من العمر ١٩ سنةً حتّى الحرب؛ فمن المُحقَّق أَنَّ تلك السَّنوات قد أَعدّت لديَّ القُوى الَّتي سأَحتاج إِليها من أَجـــل الخدمـــة، غيـــر المتوقّعة، التي وجدتُ نفسي مَدْعوًّا إِليها".

في موطن غاندي

كان الطُّلاّب المسيحيّون في الهند قد دعوا، مرارًا، الأَبَ پـــيير كي يَحُلَّ ضيْفَ شرفٍ على مؤتمرهم الوطنيّ. وفي كانون الأَوّل ١٩٥٨، تكرَّرت الـــدَّعوة مُدَعّمـــةً بتوقيعَي القاصد الرَّسوليّ، وكردينال بومباي الهنديّ الَّذي أَعرب عن رغبةٍ عارمـــةٍ في زيارة الأَب لبلاده. ولم يكن للأَب مفرٌّ من تلبية الدَّعوة، فارتُجِل، علـــى عَجَـــلٍ، برنامجٌ للزّيارة على أَلاّ يتجاوز خَمسةَ عشر يومًا، إِلاّ أَنّه تمـــادى ثلاثـــة أَســـابيع، وغطّى عشرة آلاف كيلومترٍ، وامتدَّ من بومباي إِلى دلهي، فكلكتّا، ومدراس، ونغبور وپـــونديشيري. وأَثناءَ تلك المسيرة الطَّويلة، توقّف الأَب في اثْنَتَيْن وأربعين مدينـــة، وفي كلٍّ منها عقد لقاءات، وتحدَّثَ، وراقَبَ، واخـــتلطَ بـــشتّى الجماعـــات العرقيّـــة والاجتماعيَّة. كان لا يفْرَغ من اجتماعٍ حتّى يقفُز، برفقة مترجمه، إِلى طائرةٍ تمضي به إِلى المحطّة التالية، مُخضِعًا برنامج زِيَارَاته لتعديلاتٍ مستمرَّةٍ تفرضها، باطّرادٍ، رغبتُه في تلبية الدَّعوات المتدفّقة عليه من كلّ صوب.

ولا رَيْب أَنّه صُدم إِزاءَ واقع بلادٍ تضمّ أَربع مئة مليون نسمةٍ، كثافتها الـــسُّكّانيّة

تُماثِل ستّة أَضعاف كثافة أوروبا، بلادٍ قاحلةٍ تخضع كلَّ سنةٍ لتدمير الرِّياح الموسميّة، ويعاني سُكّانُها الجوع ثلاث سنين من أَرْبَع، وفي السَّنة الرابعة ينفُقون، بالجملة، من المجاعة؛ بلادٍ تحفل بالتّناقضات وأبرزها أَنّ أُولئك القوْم الّذين يُعانون، تارةً، الجفاف وانحباس الأَمطار، وطورًا السُّيول الهادرة الّتي تقضي على كلّ شيءٍ، يُقدِّسون نهر الغانج ويقدّمون له الأَزاهير والأَضاحي، ويعدّون الغَرَق في عبابه بركةً علويّةً.

في تلك البلاد المترامية الأَطراف، المُزَرْكَشة الأَزياء والتَّقاليد، المتعدّدة اللُّغات تعدُّدًا فريدًا، رأى الأَبُ أَنّ العامل المُشتَرَك الّذي يُؤَكِّد وجوده في كلِّ مكانٍ هو الجموع الجائعة العليلة.

ففي بومباي مليون مُشرَّدٍ بلا مأوى، يُمثِّلون ثلث السُّكّان، ويعيشون في الأَكواخ وعلى الأَرصفة؛ معظمهم يقيمون في العراء، على أَراضٍ مهجورةٍ، قد يُطردون منها في كلّ لحظةٍ.

وفي كلكتّا التي يناهز مجموع سكّانها سبعةَ ملايين، ثَمَّةَ مليون لاجئٍ باكستانيٍّ يعيشون ويرقدون على أَرصفة الشّوارع. إِلاّ أَنّ كلكتّا تعرض لزائريها مشهدًا سَنيًّا، وتعبيرًا متواضعًا وعظيمًا عن الحبّ يتخطّى في مَغْزَاهُ ومداه أَجلَّ الأَعمال. ففي أَحد مجمّعات كلكتّا السَّكَنيّة البائسة، رأى الأَب پيير امرأَةً تأخذ بين ذراعَيْها طفلاً مُصابًا بالبرَص، تحتضنه، وتُهدْهِده، وتُحدِّثُه، وفي عينَيْها شُعْلَةُ حبٍّ متأَلِّقةٌ؛ ولم يكن من العسير عليه أَن يتعرّف في تلك المرأة الأُمَّ تيريزا.

تلك الراهبةُ الأَلبانيّة المَحتِد، كانت مُعلِّمةً في مدرسةٍ داخليّة لفتيات الطبقَة الراقية في الهند، وكلّ يومٍ، وهي شاخصةٌ إِلى المدرسة، كانت تلحَظُ أُناسًا يحتضرون على الأَرصفة، في وحدةٍ وبؤسٍ يُقطِّعان نياطَ قلبها، فتدنو منهم، وتداعبهم، وتحاول بلسمة شقائهم بكلمةٍ رقيقة، وتصل دائمًا إِلى مكان عَمَلِهَا مُتأَخِّرةً. ولكنَّها لم تحتمل طويلاً عجزها عن مساعدة أُولئك البُؤَساء، فقرّرت النهوض بعملٍ أَوفر جدوى، واستبدلت الثَّوبَ الرَّهبانيّ الغربيّ، بالسَّاري الهنديّ القطنيّ، الَّذي ربطتْ أَحد أَهدابه بكتفها كي تكون أَرشق حركةً، وأَثبتتْ فيه صليبًا صغيرًا، وراحت تذْرَعُ بمُفْردها شوارع كلكتّا، فتجثو أَمام كُلِّ مُحْتَضرٍ تُصادفه، وتغسل وجهه،

وتُنَظِّفه، وتؤاسيه، ثمَّ تنتقل إلى جاره، باعثةً في نفوسهم جميعًا الاطمئنـان، بفضل حضورها وحُبِّها. وقد فسَّرتْ للأَب ما تواجهه بقولها:

– « لقد ضاقت المشافي بالمُحْتَضرين. فعندما يلتقط رجل الأَمن أَحدَهم، ويمضي به إلى المشفى، تحدثُ أُمورٌ مُرَوِّعةٌ، إذ إنّ مكاتب القبول تغصّ بطالبي الاستشفاء، وغالبًا لا شاغرَ في المشافي سوى بضعة أَسِرَّةٍ لا تتعدّى العشرة، وقد لا تتجاوز الاثنين، يكون قد بارحها، قبلَ لحظاتٍ، من قضوا نحبهم؛ ويفحص الطَّبيبُ القادمين، فمن كان منهم قابلاً للشِّفاء، أَمر له بسريرٍ، وأمّا من شارف على نهايته، فالطَّبيب يهمس في آذان رجال الأَمن أَن يعيدوه إلى حيثُ جاؤوا به؛ إنّه يحتضر، فليمُتْ على الرَّصيف!"

ودَعتْ الأُمُّ تيريزا الأَبَ پيير لزيارة مركزها "موئل الموت"، الملاصِق لأَكبر معبدٍ في كلكتّا، حيثُ انضمّت إليها ثمانون راهبةً هنديّةً وأُوروبيةً، يستقبلنَ، بلا انقطاعٍ، تدفُّق المُحتَضرين، والمرضى الوحيدين والبُرْص، ويُعنَيْن بهم، ويُفلحن في إنقاذ عَدَدٍ منهم؛ وكثيراتٌ من الفتيات اللاّئي ينجونَ من الموت يُصبحنَ للأُمّ مُساعداتٍ. أَمّا الَّذين يقضون نحبهم، فيمضون إلى ربّهم ساكني النَّفس، مُزَوَّدين بالعَطْف والرَّجاء.

وقالت الأُمّ تيريزا: "كم كانت الإلهة كالي كريمةً معنا!"

وحيالَ دهشة الأَب أَوضحت أَنّ مركزها كان نزْلاً لاستقبال جموع الحجّاج إلى معبد الإِلهة كالي، أَربع أَو خمس مرّاتٍ كلّ سنة. وعندما لحظ كهنة المعبد تلك الرَّاهبةَ الغريبة تزحف على راحَتَيْها ورُكْبَتَيْها، طوالَ النهار، مُتَنَقِّلةً بين المُحتَضرين الَّذين افترشوا الأَرصفة، أَخذ ذلك المشهدُ بمجامع أَفئدتهم، فجاؤوها قائلين: "إِئتي بالمُحتَضرين إلى نزلنا، فهو، منذ الآن لك". ومُذّاك، بات للهندوسيّين والمسيحيّين والمسلمين حقُّ الإِقامة والعطف، في ذلك النزل.

ومنذُ الوهلة الأُولى استشفّ الأَبُ توافقًا وثيقًا بين رسالة "عمّاوس"، وعَمَلَ الأُمِّ تيريزا، تلك القدّيسة الحيّة، التي رغم هشاشتها، وضآلة جسمها، جَعَلَها اللِّقاءُ بالحبّ الأَبديّ منيعةً، صُلْبة.

هدفُ زيارة الأَب الأَساسيُّ كان المشاركةَ في مؤتمر الطُّلاّب المسيحيّين في

بومباي، الَّذي جمع شَمْلَ أَكثر من أَلفَيْ طالب؛ وقد اهتَبل مسؤولو الكنيسة الكاثوليكيّة في الهند تلك المناسبةَ، كي يتخاطفوه من كُلِّ صَوْبٍ، فأَخضعوه لِبَرْنَامَج عاصِفٍ، مجنونٍ، مُرهِق.

وحينما كان الأَب في مدراس، أَبرق له رئيس الوزراء، نهرو، من نغبور، حيثُ كان يرئس اجتماعَ حزب المؤتمر، مُعْرِبًا عن رغبته في لقائه؛ وكان لهما لقاءان ضَمَّ كلٌّ منهما نحو ثلاثين أَلف شخصٍ، التفُّوا حولَ نهرو ووزرائه، والأَب پيير، وجميعهم على الأَرض جلوس. ودارتْ مناقشاتٌ جادَّةٌ حولَ مُستقبَل الهند والبشريّة. وقد أَجمع الأَبُ ونهرو على أَنّ الأَوْلويّة، حيثُ يسودُ الشَّقاء، هي للمشاريع الاقتصاديَّة المُجدية، الكفيلةِ برفع مستوى عَيْش الشَّعب بأَكمله، وفي تلك الظُّروف يصبح السَّعْيُ نحوَ الجدوى الاقتصاديّة فضيلةً أَدبيّة.

وكان لقاءٌ آخَر مرموقٌ بين كلٍّ من نهرو والأَب پيير، ورسول الهند "ڤينوبا بهاڤي"، المعروف بدأبه على تنزيه الدِّين من كُلِّ شوائب التعصُّب والخرافة، وعلى تقويض التَّقاليد المُدمِّرة، مثل نفقات الأَعراس الباهظة التي كانت تجعل أُسَرًا بكاملها فريسةً للدُّيون مدى الحياة. وفي مواجهة تلك الآفة دعا جميعَ أَفراد القُرى إلى الإسهام بقِسْطهم في نفقات كُلِّ عرسٍ، بحيثُ لا تنوءُ بعبئه أُسرةٌ واحدة. وفي مجالٍ آخَر، دعا إلى وضع الأَراضي الزّراعيّة تحت تصرّف تعاوُنيّاتٍ يشترك فيها جميع سكّان كلّ قريةٍ، بحيثُ يُتاح للجميع إنتاج ما يقوم بمعيشتهم، وفي آنٍ واحد، إدخال أَساليب الزِّراعة الحديثة الكفيلة بتوفير المزيد من الإنتاج. وهو بذلك هيَّأ المُناخَ الذِّهنيّ للإِصلاح الزّراعيّ في الهند.

سحابة ثلاثة أَيّامٍ، زاروا جميعُهم، مع فريقٍ من تلاميذ "ڤينوبا"، سيرًا على الأَقدام، بعضَ القرى. وقد انطلقوا، قُبَيْل الفجر، من منطقةٍ جَبَلِيّةٍ، حيثُ البردُ صقيعيٌّ ليلاً، والحرُّ قائظٌ نهارًا. ولدى اقترابهم من القرية الأُولى لاقاهم وفدٌ من الوُجهاء، حاملينَ المشاعلَ، ودعوهم إلى زيارة معبد إلهة اللاَّعنف. وإذ لم يكن لڤينوبا علمٌ بتلك الإلهة، رووا له قصّتها. فقد رأتْ امرأةٌ عجوزٌ، في الحُلْم، نمِرًا رهيبًا، كان يفترسُ ويلتهمُ كلَّ ما يصادفه؛ ولم يكن يجرؤُ على الدُّنوِّ منه، بلا وَجَلٍ، سوى أُمٍّ طيّبةٍ، كانت تداعبُه، وتلاطفهُ، وتروِّضه، بحيثُ يقف منها ساكنًا مسالمًا، ويُتيح لها

حتّى امتطاءَه. وعندما استيقظت العجوز، قالتْ: "لا ريْب أنّ إلهة اللاّعنف هي الّتي، من خلال هذا الحُلْم، قد أَعربت عن رغبتها في أَن تُكرَّم، وتقامَ لها الصَّلَواتُ في قريتنا". وفي الحال باعت العجوز بهائمها، ووقفتْ كُلَّ ما تملك على بناء كوخٍ صغيرٍ، وتزينيه كي يكون للإِلهة معبدًا، وأوقدت من حوله المشاعل؛ وقد تبوَّأَ صدرَ المعبد تمثالٌ خشبيٌّ منحوتٌ، يُمثّل الأُمَّ الطَّيِّبة، ممتطيةَ صهوة النمر.

وبعد أَن أَصغى "ڤينوبا"، باهتمامٍ، إِلى تلك الرِّواية قال:

– « اللاّعنف هو أَنتم. إِنَّ روحه ينبثق من الله، ولكن ليس، ثمّة، إِلهٌ للاَّعنف. الله واحدٌ. إِنّه روحٌ وحُبٌّ. فهل، في هذا المعبد، تُرفع الصَّلَوات للإِله الشامل؟ إِن لم يكن الأَمرُ كذلك، فعلينا أَن نُصلّي في الخارج، إِذ يرافقني الأبُ ﭙيير، وهو كاهنٌ كاثوليكيٌّ، وهذا الطَّالبُ الأَميركيّ، وهو يهوديّ، وهذا الآخر، وهو مسلمٌ، وبما أَنّه لا يوجد عِدَّةُ آلهةٍ، فنحن سنبتهل إلى إِله الجميع، الإِله الشّامل". وإِذ كان القرويّون يتحرَّقون شوقًا لرؤية "ڤينوبا" يدخُل إِلى معبدهم، أَجابوا:

– "بالطَّبع نحن ندعو الإِله الشّامل

– فلنصلِّ إِذن ».

ويصف الأَب ﭙيير ما حَدَثَ حينئذٍ فيقول:

« شاهدتُه حينئذٍ يسوس أُولئك القوم القساة بسُلْطَة مُدهِشَة، إِذ كان، بواسطة مُكَبِّر صوتٍ صغيرٍ، يُخاطِبُ كُلَّ فردٍ، فتارةً يصيح: "أَنتِ، هناك، أَيّتها الأُمّ الفتيّة، مع صغيرك، صلّي، فليس الوقتُ وقتَ عَبَثٍ. أَفهميه أَنَّ الأَوان قد حان كي ينكفئ على أَعماق ذاته ويُصغي لله. عليه أَن يجلس مشبكًا الساقَيْن، مستقيمَ الجِذْع، وأَلاّ يتحرَّك. أَعطيه في ذلك المَثَل... وأَنتَ، هناك، كفاكَ مُساومةً على بيع بقرتك. ستفعل ذلك في ما بعد. أَمّا الآن، فاجلسْ أَو ابتعدْ من هنا.

"وهكذا كان يتعرَّض لهم واحدًا واحدًا، ويقتضي منه الأَمرُ كثيرًا من الصَّبْر والوقت كي يجعلَ كُلَّ أُولئك القوم يلتزمون بالصَّمت والخُشوع مُدَّةَ خمس دقائق. وحينئذٍ، يشرع يُرنّم، بصوته المرتجف، مُردِّدًا: "لو اتّخذتم الأَرضَ كلَّها قرطاسًا، والبحارَ كُلَّها حِبْرًا، وجميعَ أَشجار الغابات أَقلامًا، لما كفاكم ذلك للتعبير عن حقيقة عَظَمَة الله، وللإِشادة به ».

لم يكن لـــڤـــينوبا أَيَّةُ علاقةٍ بحزب المؤتمر، ومع ذلك جاءَه نهرو حاجًّا مُلتَمسًا زادًا روحيًّا، وسار في إِثْره، أَيَّامًا، وقد أَخبر الجميعَ أَنّ غانـــدي، أَثنـــاءَ المرحلـــة الأَخيرة من حملة اللاَّعنف الَّتي خاضَها من أَجل الاستقلال، كان يبحث عن أَفـــضل خطيبٍ يفتتح تلك الحملة، واتَّجهت الأَنظار كلّها نحو نهرو، عقلِ حِـــزْب المـــؤتَمر ودماغه؛ ولكنَّ غاندي اعترض قائلاً: "لا، إِنّني أَحتفظ بنهرو لمهامّ أُخرى، أَمَّا الرَّجُل الذي نحتاج إِليه الآن، فهو "ڤـــينوبا"؛ فنحن، في هذه السَّاعة، يلزمُنا صُوفيّ". ولـــئن كان "ڤـــينوبا" قد انضمّ إِلى غاندي، غير أَنّ غاندي لم يستحيِ من التتلمُذ على يدَيْه، مع أَنّه كان يكبره عشرين سنةً.

وفي ختام المسيرة، أَعلن "ڤـــينوبا" للأَب پـــيير: « إِنّني سعيدٌ بمرافقتـــك لنـــا، وبصلاتك لنا جميعًا... علينا أَن نشترك جميعًا في صلاةٍ حميمةٍ وحارَّةٍ، وعليك أَنتَ أَن تعيش طويلاً كي تواصل رسالتك ».

وتكلَّم، حينئذٍ، أَحد تلاميذ "ڤـــينوبا" فقال: « إِنّه لأَمرٌ لا يُصدَّق: ههنا رجـــلان: "ڤـــينوبا" والأَب پـــيير. إِنّكما لم تلتقيا، قطُّ، من قبلُ. وأَنتما لا تستخدمان نفسَ اللُّغَة، وليس لكما تربيةٌ واحدةٌ، وأَساليب عبادتكما متباينةٌ إِن كان عليكما التعبير عنها، ومع ذلك طرحنا، منذُ قليل، سؤالاً، فأَجبتَ عليه، أَيُّها الأَب پـــيير، تمامًـــا كمـــا كـــان "ڤـــينوبا" قد أَجاب بالأَمس!". حينئذٍ ابتسم "ڤـــينوبا" وقال: "إِنَّ الأَمر على قدرٍ كبيـــرٍ من البساطة، وهو الدَّليلُ على أَنَّ الله الحقّ، الَّذي هو حبٌّ، واحدٌ ».

أَمّا نهرو فتساءل: "أَبت، لقد شاهدتَ بلادنا، وما تواجهه من بُؤْسٍ. وإِنّني أَقـــفُ حائرًا أَمامَ لُغْزٍ كبيرٍ. إِنّني أَعلمُ أَنّك قادمٌ من الدُّول السكندناڤـــيّة. فهل لك أَن تفـــسِّر لي نسبة الانتحارات المرتفعة هناك، حيثُ لا يفتقر أَحدٌ إِلى أَيّ شيءٍ، وحيثُ جميـــع الضَّمانات مُتَوفّرةٌ، في حين لا وجود للانتحار في الهند، حيثُ يشيع الـــشَّقاء الَّـــذي يبعث على القُنوط"؟

فأَجاب الأَب:

– "**إِنّهم ينتحرون هناك لأَنّهم فقدوا مُبرِّرات العيش**".

وحَرِصَ الأَبُ على اختتام زيارته للهند بالصَّلاة والخشوع أَمام ضريح المهاتما

غاندي، حيثُ صمتَ ضجيجُ الجموع، ولم يعُدْ يُسمع سوى أَنين المغزل، وكأَنَّه نَفَسُ الهند، وصدى صوت النَّبيّ.

وفجأةً غمره، في الأَعماق، حضورٌ سُرْعانَ ما أَدرك أَنَّه روح اللاَّعنف.. ونجمة الأَهيمسا المتأَلِّقة.

إِنّه لوعرٌ السَّيْرُ على شفرة الأَهيمسا الحادَّة، في هذا العالَم الحافل بالجَشَع والحقد. قد يُفلح بهلوانٌ في السَّيْر على حَبْلٍ مشدود، بفضل تركيز قواه. غير أَنّ السَّيْر على درب الحقيقة والأَهيمسا يقتضي تركيزًا أكبر؛ وها إِنَّ الدَّليلَ حاضرٌ، قريبٌ، من وراء المَوْت... فليغزل بلا انقطاعٍ خَيْطًا واحدًا من الحُبِّ والسَّلام، به يُحاك نسيجُ العالَم!

ورَسَمَ الأَبُ على وجهه إِشارةَ الصَّليب، ورنا إلى السَّماء الَّتي كانت من الرَّوْعة بحيثُ التقط لنجومها صورةً.

من زيارته للهند، احتفظ الأَبُ پيير برغبةٍ عارمةٍ في تخفيف عبءِ الشَّقاء الَّذي ينوءُ به الشَّعبُ الهنديّ الطيِّب. وذاتَ يومٍ، التقى في "غرينوبل"، مادلين هيرمان، المُساعدةَ الاجتماعيّة ذاتَ الثمانيةَ عَشرَ ربيعًا، فحدّثها عن منطقة "پونديشيري" في الهند حيث تكافح راهباتٌ فرنسيّاتٌ من أَجل تأسيس دور توليد، ومستوصفات، ومياتم. وفي الحال حزمت "مادلين" أَمرَها على العمل هناك، وحطَّت الرِّحال، عام ١٩٦٢، في "أوپالام"، وهي قريةٌ متواضعةٌ، في ضواحي "پونديشيري"، مُغْرقةٌ في الشقاء، تضمُّ ثلاث مئةٍ وخمسين أسرة، وتحاكي مُعَسكَر شقاءٍ مريعٍ، بل بوتقةً للبُؤس. فتلك الأُسَر تعيش في العراء، وتتغذّى بحَفْنة أَرُزّ. غذاءُ الأُسرة الأساسيّ، في الأربع والعشرين ساعةً، قد لا يستلزم أكثر من روبيّةٍ واحدةٍ، ولكنَّ مُعظم أَرباب الأسر، لا يكسبون هذه الروبيّة، ومن ثمّ فنساؤهم وأَطفالهم يطعمون يومًا، ويظلُّون على الطَّوى يومًا أَو يومين مُتَّصلَيْن.

وقد كتبتْ مادلين: « صديقتي الأُولى فتاةٌ هنديَّةٌ يتراوح عمرها بين خمسة وعشرين وثلاثين عامًا، نصفُ مشلولةٍ، وقد هَجَرَها زوجُها تاركًا على عاتقها طفلاً في الثَّالثة. إِنَّها لا تملك ما يسدُّ جوعَها وجوعَ ابنها، وعندما يستطيع الجيرانُ، يجودون عليها بالماء الَّذي سلقوا به أَرُزّهم. أَمّا طفلها، فلم أَرَه، بعدُ، يومًا، يبتسم ».

وشَخَصتْ "مادلين" إلى مدينة "پوندیشیري" المجاورة حيثُ أَشاعت عدوى اندفاعها في عددٍ من الفتيات الأَرستقراطيّات الهنديّات، ومعهنَّ دأَبتْ على مدّ يد العَوْن لتلك المحلّةً البائسة. وقد أَوْلَت اهتمامها للمياتم حيثُ كان يموت نحو ٩٥% من الأَطفال، وللبُرص الذين كانت تُخْرِجهم من مخابئِهم كي تعالجهم؛ وفي سبيل تغذية أَهالي القرية دأبت على تربية الدَّواجن والأسماك، عاملةً بلا سَنَدٍ ولا وسائل سوى عدوى اندفاعها الَّتي حقّقت بواسطتها المعجزات.

وقد استطاعت الحصولَ، من فرنسا، على سيّارة إِسعافٍ من أَجل معالجة البُرْص، ولكنَّ مضايقات الجمارك أَخَّرت تسلّمها، فلم تألُ جُهْدًا حتّى شَكَتْ أَمرَها لرئيس الوُزَراء نهرو لدى زيارته لپونديشيري، وحُلَّتْ مُشكلتها؛ كما أَنّها استطاعت إِعادة تأهيل بئرَيْن كانتا قد أَصبحتا ملكًا لجيوش البعوض، وأتاحت للأَهالي الانتفاع منهما؛ وقد أَشادت سبعة أكواخٍ من الصلْصال الأَحمر غطَّتها بأَسْقُفٍ من أَغصان البامبو، وأوراق أَشجار جوز الهند، اقتضى بناؤُها عمل عشرة مُتَطوِّعين طوالَ شهرٍ، وثمانيةَ آلاف فرنكٍ. وقد كانت تلك الأكواخ بمثابة قُصورٍ للأسَر الَّتي كانت، حتّئذٍ، ترقد تحت حراسة النجوم.

أَمّا مستوصفها فيشهَدُ، طوالَ النَّهار، تدفُّق قوافل المصدورين، والبُرْص، والجُرْب، والمقروحين. وقد كتبت في تموز ١٩٦٣: "قد فحصتُ هذا الصَّباح الأطفال الثمانية والخمسين الَّذين يشغلون الميتم. ومع أَنّني طالما أَلفتُ رؤْية الحالات الصَّعبة، غير أَنّي، هذا الصَّباحَ، قد خرجتُ من اليتم مُنْهَدَّةً تمامًا بعدما لمستُ تلك الكائنات الضَّئيلة، ومعظمُها في أوضاعٍ مُريعةٍ فظيعةٍ. إِنّ سيقان أَطفالٍ كثيرين، في الثَّانية من عمرهم، ليست أَثخنَ من إِصبع اليد. اُنظروا إلى إصبعكم، وتخيّلوا أَنَّها ساقُ طفل... لا بُدَّ من أَشخاصٍ يكرّسون وقتهم كاملاً لعلاجهم... إِنّ المَصاعب وُجِدتْ كي نُحطِّمها لا لكي تحطّمَنا هي... اليومَ جاءَتْني امرأةٌ بطفلها مسكينة مُنْتَحبة، والتمستْ منّي أَن آخذَه لأَنَّها لم تَعُدْ قادرةً على الاحتفاظ به. ومثلُ ذلك يحدث غالبًا. فقلتُ لها: "لا، لا أَستطيع". ولكنّ الطِّفْلَ قضى نحبه بعد أَيّامٍ... ويخامرني شعورٌ بالمسؤوليّة عن موته. إِنّنا نلمس، عن كَثَب، احتياجات شَعْبٍ أَغفله الجميع، شعبٍ أَصيلٍ، لا يمدّ يده مُستجديًا، ويعرف كيف يقرنُ الفَقْر بالكرامة. إِنَّهم قومٌ يحتاجون

إلينا، ولكن نحن، أَيضاً، نحتاج إِليهم، إِذ إِنّهم، بفقرهم وببساطتهم، يحرّروننا من صغَاراتنا، ويرشدوننا إِلى معنى الحياة الحقّ".

في أَعقاب زيارة الأَب پيير إلى الهند بعثَ نهرو إلى "عمّاوس" بهذه الرسالة:

« لقد كان لي امتيازًا حقيقيًّا وسرورًا فعليًّا أَن أَلتقي الأَبَ پيير الَّذي طالما سمعتُ عنه، وقد أَصغَيتُ إِليه باهتمامٍ بالغٍ. نحن هنا، في الهند، ما زلنا مُتَأَثّرين، في العُمْق، بتعاليم غاندي. واليومَ، فوق سياسيِّينا وعظمائنا يطفو وجهُ "ڤينوبا بهاڤي". والأَبُ پيير يُذَكِّرني بـڤينوبا بهاڤي. ومع أَنَّهما يعيشان في بيئتَيْن مختلفتَيْن، إلاّ أَنَّهما يلتقيان في قَلَقِهما على الإِنسانيّة.

"إِنني أَتوجّه بأَحرّ التمنيّات لجميع العاملين مع الأَب پيير. وأَوَدُّ أَن أؤَكّد مدى مشاركتنا الرَّغبةَ في خدمةِ المتواضعين، الّتي، في نهاية المطاف، هي، في هذا العالَم، أَعظم من القنبلة الذرِّيّة، والَّتي ستنتهي حتّى بالسَّيطرة، بل بالقضاء عليها... ».

عمّاوس في بلاد الأَرز

الطريقُ إلى الهند طويلةٌ، وصحَّة الأَب كانت ما فتئَت هشَّةً، ولذلك لُحظت محطَّةٌ للرَّاحة في بيروت، حيث للأَب أَقرباء وأَصدقاء، في كلٍّ من الذَّهاب والإِياب، على أَلاّ تتعدّى، في كلّ مرَّةٍ، يومَيْن اثنين. غير أَنّ تلك البقعة الصغيرة الفريدةَ في العالَم سرعانَ ما سحرت الأَبَ پيير بروعتها وبتعايُش طوائفها المُتعدِّدة، كما سَحَرَ الأَبُ اللُّبنانيّين بمُثُله الإِنسانيّة الشَّاملة، وبعدوى رسالته. فاستقبله الرَّئيسُ فؤاد شهاب، وقلَّده وزيرُ الدَّاخليَّة وِسام الاستحقاق اللبنانيّ، واجتمع به عددٌ غفيرٌ من الشَّخصيّات المدنيّة والدينيّة، وكتبتْ إِحدى الصُّحف البيروتيّة: "هذا الرَّجُل بمفرده يُحقّق لِعزّة فرنسا أكثر من كلّ ما حقّقه دبلوماسيّوها الموفَدون".

غير أَنّ الأَب قد لحظ، في خِضَمّ ذلك الجمال الشائع، بُقَعَ بشاعةٍ مُتَمثّلةٍ في بيوت الصَّفيح الملتفّة التفاف حزامٍ بغيضٍ حول مدينة بيروت وضواحيها، والَّتي تؤوي بؤْسًا مدقعًا؛ فناقش أَمرَها مع لَجنة الشُّؤون الاجتماعيّة في المجلس النيابيّ، وأَعرب عن رأيه موضحًا أَنَّه لو أَبدى أغنياءُ لبنان مزيدًا من الاهتمام بفقرائه، لغدا لبنان موئلاً لتجربةِ إِخاءٍ فذَّةٍ. وقد تهيّأَ له، أَثناء محطَّته الأُولى، لقاءُ أَعضاء الحركة الاجتماعيّة

اللبنانيَّة، ولا سيّمَا مُحرّكها الديناميكيّ المطران "غريغوار حدّاد"، وأُعجب بوصفها "حركةً لا طائفيّةً، ولا حزبيّةً، ولا جمعيّةً خيريّةً، هدفها دراسة احتياجات المواطنين الفعليّة، وتنفيذ برامج في مضامير الصِّحَّة والتربية"

وقد أَعلن في أُولى عظاته ببيروت: "أنَّ الحبَّ وحدَه يُضفي على الحُرِّيَّة معناها، فالحرِّيَّة ليستْ غايةً في ذاتها، بل هي وسيلةٌ للحبّ؛ والحبُّ، وحدَه، هو الَّذي يُتيح للمقتدرين أَن يفعلوا ما يحلو لهم، في حين أَنَّ الضَّعيف، في إِطار حرّيّةٍ خاليةٍ من الحبّ، لا يشعرُ إِلاَّ بسُخْريَّة زَيْف حُرِّيَّةٍ تمنحه جميعَ الحقوق، ولكنَّها تسلُبه وسيلةَ مُجرَّد العيش، وإِثبات الوجود، والحؤول دون افتقار صغاره إلى الضَّروريّ الأَساسيّ. الحرِّيَّةُ المقترنةُ بالحبّ هي العطاء المتبادَل، وسعي الجميع ليكونوا واحدًا. إِنَّ عدم المحبَّة، وعدم الوحدة، إِهانةٌ للخالق."

وقد التمس عددٌ غفيرٌ من الأَب أَن يمكُثَ في ديارهم فترةً أَطول، في طريق عودته من الهند، وأَن يُحدِّثَهم بإفاضةٍ عن "عمّاوس"، وعن إِشعاع الأَمل المُنبعث منها. ولمّا عاد، كانوا ينتظرونه بتَوْقٍ شديدٍ، ولكي يُتيحوا لأَوْسع فئات مواطنيهم الاستماعَ إليه، أَعدّوا له برامج محاضراتٍ في أَماكن عدّةٍ من بيروت مثل جامعة القدّيس يوسف، والكاپيتول حيث تحدّث بدعوةٍ من "الندوة اللبنانيّة"، وفي مدرسة "اللاسال"، والروتاري كلوب، وأَيضاً في كلٍّ من طرابلس وجونية وزحلة وصيدا، وهو حيثما تكلّم خلّف أَثرًا بليغًا، بعيدَ الغَوْر.

وكان لدى عودته إلى بيروت قد صرّح:

« أَيُّ تبايُنٍ عن الهند! كنتُ خارجًا من مشهد أَربع مئة مليون نسمةٍ في واحدٍ من أكبر مفترقات الطرق في العالَم، وإذا بي أَهبط في ركنٍ صغيرٍ، في ما يُحاكي "موناكو" آهلٍ بمليون ونصف مليون نسمةٍ، تلتقي فيه وتتصارع أوروبا وأَفريقيا وآسيا. نصْف سكّانه من المسيحيّين، والنّصْف الآخر من المسلمين، منهم طبقاتٌ بلغت ذُرىً رفيعةً من التَّطوُّر، ومنهم فئاتٌ ما برحت بدائيّةً، شَرسةً، شهدتُ منها نماذج مُريعةً، وشهدتُ ما تقترفه من مذابح.

"أَوْقفوا هذه المجازر... وكُفّوا عن سفْك الدِّماء. فالأَخ لا يقتل أَخاه، لا يقتل

المسيحيُّ المسلمَ، ولا المسلمُ المسيحيَّ... وإلاّ هوى لبنان سريعًا إلى الاضمحلال. هنا، يا إِخوتي في لبنان، حيثُ يستيقظ سخاءٌ جمٌّ، راغبًا كلّ يومٍ، أكثر فأكثر، في تجاوز الفرقة الَّتي قد يكمُن فيها موتُ وطنكم، شيءٌ واحدٌ كفيلٌ بالبلوغ بكم إِلى تلك الوحدة القادرة على جعلكم أَقوياء ومُشعّين، رغم ضآلة مساحة وطنكم: أَلا وهو دأبكم على التأَمُّل في كيان الله، والإِنصات إلى العذراء مريم، الَّتي قد تبدو صغيرةً في سُلَّم القِيَم الاجتماعيّة، ولكنَّها تتبوّأُ المركزَ الأَوّل لأَنّها كانت الأكثر استجابةً، وكان يحفر نفسها، إِلى عمقٍ منقطع النظير، الظمأُ إلى الحبّ. وسيمتلئ كلُّ امرئٍ بقَدْر حجم حبّه، وسنرى كثيرين من الأَصاغر وقد أَمسوا أَوّلين لأَنّهم كانوا يفيضون على إِخوتهم حبًّا ».

لقد التهبتْ نفوس لبنانيّين كُثُرٌ وهم يستمعون إِليه يحدِّثُهم عن "مسكونيّةٍ فوريَّةٍ في مُتناوَل اليد، مسكونيَّةٍ لا يمكن أن تخطئ، مسكونيّة المحبّة والطّيبة، مسكونيّة عودة الجميع، معًا، إلى شريعة الشَّرائع، ووصيَّة الوصايا، التي تفرض على كلّ فردٍ أَن يخدم، في المقام الأَوّل، الأَكثر تألّمًا". ولبنان هو خير مكانٍ لتحقيق هذه المسكونيّة، فهو "ذلك الركن من فردوس الله الَّذي يبسط للأَنظار حديقة الزُّهور الأكثر تنوّعًا"، وحيثُ يمكن أَن يتضافر الجميعُ على شنّ الحرب المُقدَّسة الوحيدة: الحرب على أَلَم الآخرين وشقائهم".

وفي نهاية شهر كانون الثَّاني ١٩٥٩ رأَسَ الأبُ اجتماعًا ضمَّ مُمثِّلين عن مختلف المنَظمات الاجتماعيّة والثقافيّة، من شتّى الطّوائف، وأرسى قواعد تعاونٍ شاملٍ لخدمة الأَكثر تألُّمًا. وعندما قَفَل عائدًا إلى فرنسا، في الأَوّل من شباط، كانت البِذْرة قد غُرست، وسُرعانَ ما نبتتْ ونمتْ، إِذ بعد خمسة أَيّامٍ فقط، تأسّس في بيروت فرعٌ لعمّاوس، تحت اسم "واحة الرَّجاء"، بإِشراف كُلٍّ من الوزير المسلم أَنور الخطيب، والأب غريغوار حدّاد؛ وشُرِعَ بإِشادة بنائَيْن لإِيواء نشاطات تلك الواحة، على أَرضٍ في منطقة المعرض، مساحتُها ستَّة آلاف مترٍ قدّمتها مطرانيّة الرُّوم الكاثوليك. وقد تبرّع كلٌّ من نادي الروتراي والجيش وبلديَّة بيروت بسيّارة شحنٍ للمؤسَّسة الوليدة بُغْيَةَ تمكين "عمّاوس لبنان" من مباشرة أَعمالها فورًا. وإِذ كان حريقٌ قد التهم، بضعةَ أَيَّامٍ قبلَ ذلك، عدَّة أَكواخٍ في ضاحيةٍ فقيرةٍ، قاذفًا بساكنيها إِلى

قارعة الطريق، فقد هبّت المؤسّسة الناشئة لإعادة بناء مساكن للمتضرِّرين المُشرَّدين، بأموالٍ استدانتها من حيثُ تيسَّر لها.

وفي مطلع شهر آذار ١٩٥٩، كان سبعة رفاقٍ قد استقرّوا في منطقة المعرض، وراحوا ينظّمون حياتهم كجامعي نفايات لخدمة الأَكثر فاقةً، يؤازرهم سِتّةُ متطوّعين عزموا على تكريس كلّ أوقات فراغهم لعمّاوس لبنان. وقد جادَ كثيرون بأموالهم للنُّهوض بذلك المشروع، وكأَنّ مرور الأَب پيير قد خلَّف شعاعًا متأَلِّقًا، عبّرت عنه "مجلّة لبنان" بقولها: "لقد حدث ما يشبه ضجّة طقطقة عظامٍ، ولكأنّ عالَمًا من الأَنانيّة قد انهار، وانفرجت آفاقٌ جديدةٌ، مُسفِرةً عن عالَم أَفضل".

وقد عاد الأب، بعد سنة، إلى لبنان كي يشهد بسرورٍ ما أُنجز في تلك الأَثناء؛ ومرّةً أُخرى، قابل كبارَ الشَّخصيّات اللُّبنانيّة، وألقى سلسلةً من العظات والمحاضرات، مؤكّدًا بعض آرائه الجوهريّة، في أَقوالٍ مثل هذه:

« الحُرِّيَّة هي صورةُ الله التي رسمها الخالقُ في الإنسان"

"إنّ عظمة وطنٍ تكمن في أَن يجهد الجميعُ، بحيثُ لا يفتقرُ أيٌّ من أَبناء تلك العيلة الكبيرة إلى سقفٍ فوق رأسه، وإلى التمكّن، فعليًّا، من عملٍ كريمٍ يوفّر وسائل ازدهاره، وازدهار أُسرته ».

وكان الأَب يرى أَنّ للبنان رسالةً تاريخيّةً في هذا المضمار، على حدّ قوله: **"إنّني أَتحقّق، أكثر فأكثر، أَنّ قَدَر هذا البَلَد الصَّغير، وهذا الشَّعب الصغير، وهذه الأَرض الصَّغيرة الَّتي تحمل اسم لبنان، أَن يكونوا أَرضَ الشهادة وشعبَها، الشهادة بأَنَّ الإيمانَ حُبٌّ، وأَنّ الحُبَّ مُجْدٍ".**

ولكن كم يعبثُ التّاريخ بآمال من لا يتطلّعون إلاّ إلى السَّلام! وكم من العوامل التي تعاقبت وأدّت إلى تمزيق لبنان إلى فئاتٍ تتعادى وتتصادم، كما أَنّها أَفضت إلى تحطيم حلم الأَب پيير في رؤية لبنان نموذجًا للمسكونيّة القائمة على الحُبّ والتّضامن!

إلاّ أَنّ "واحة الرّجاء" ظلّت، وَسْط دوّامة العنف والعداء، صامدةً، في قلب بيروت، جزيرةَ سخاءٍ وحبٍّ وإخاءٍ، حيثُ واصل مسيحيّون ومُسلمون العيشَ المشتَرك، لا تحدوهم سوى شريعةِ خدمة الأَكثر تألُّمًا.

عَهِدت "واحة الرجاء"، بادئَ الأَمر، مرحلةَ ازدهارٍ، في مقرّها المؤَقَّت في محلَّة المعرض، حيث عمل نحو اثني عشر رفيقًا في جمع النِّفايات، وتصنيع "الناريت" – وهو وقودُ تدفئةٍ مصنوعٌ من نشارة الخَشَب وزيت الآليّات المحروق – وبناء منازل للأُسَر الأَكثر حرمانًا، أو إِصلاح ما تهدّم منها.

وفي مطلع السَّبعينات ابتاعت "الواحة" قطعةَ أَرضٍ فسيحةً، في جنوب لبنان، بفضل مُساعداتٍ سخيّة، كي تبني عليها مدرسةً مهنيّةً لتعليم الكهرباء، والحدادة والطِّباعة، وتؤَهِّلُ العاطلين عن العمل لعملٍ منتج كريم. غير أَنّ تسارع أَعمال العنف، وتأجيج النَّزعات الطائفيّة قد وأَدَت المشروعَ في مهده.

وفي تلك الفترة، زار الأَبُ پيير المُخَيّمات الفلسطينيّة، ولمس مغبّات العدوان الإِسرائيليّ، الَّذي استنكره بشدّةٍ. وقد كان، أَكثر من أَيٍّ سواه مؤهَّلاً لذلك، بعد أَن عرّض حياته مرارًا لإِنقاذ اليهود من بَطْش النّازيّين، يوم كانوا ضحايا، فإِذا بهم ينقلبون جلاّدين يُنَكِّلون بالآخرين، بعد أن امتلكوا القوَّة واغتصبوا الأرض، وقد أَعلن أَيضاً، في هذا الشأن: "**إِنّ كلّ تأويلٍ لنصوص الكتاب المُقدّس، تحدوه غايةٌ سياسيّةٌ، محوِّلةً إِيّاها عن مرماها الأَصليّ المستهدِف الارتدادَ الدَّاخليّ نحوَ الحبّ، إِنّما هو مرفوضٌ، ومصدرُ شطَطٍ وبيل**".

ومثل كلِّ شيءٍ، آنذاك، في لبنان، وقعت "واحة الرجاء" ضحيّة حربٍ مجنونةٍ، متماديةٍ، فوضويّةٍ، جعلتْ من بلَدٍ ضاحكٍ محظيٍّ، أَرضَ موتٍ ودمارٍ، فقد غدَت الحياة عسيرةً، والعمل شبه مستحيلٍ؛ وقد تعرّضت "الواحة" لما يُشبه مؤامرةً ترمي إلى طردها من موقعها في محلّة المعرض، ولكنّها جاهدت كي تصمد، رغم كلِّ شيء، ولئن هي قاست، في سبيل ذلك، نَصَبًا جمًّا، وتجرَّعت غُصصًا مريرةً، وهي دائبةٌ على رفض الواقع البشع، وتوفير خدمة الأَكثر تألُّمًا، مهما كلّف الأمر، "من غير تمييزٍ بين الانتماءات السياسيّة والطائفيّة"، ممّا جعلها هَدَفًا لنقمة شتّى الفئات.

وقد استغلَّت "الواحة" فترات الهُدنة السَّانحة كي تبني، بمساعدة "عمّاوس الدوليّة"، المدرسةَ المهنيّة الَّتي طالما حلمت بها، في منطقة برج حمّود، الَّتي استقبلت، في مطلع الثمانينات، زهاءَ ستّين طالبًا، يتلقّنون الميكانيك والكهرباء. وإِلى تلك المهنيَّة التجأَ الرِّفاق الذين تضاءَل عددهم إِلى ستّةٍ فقط، بعد أَن طردتهم الحربُ

من منطقة المعرض الَّتي أَصبحت خطّ تماسٍّ؛ وقد حاولوا، رغم اضطراب حَبْل الأَمن، ورغم محاولات الميليشيات المتكرّرة الاستيلاء على "الواحة"، مواصلةَ أَعمال الإِغاثة، بشتّى الوسائل، حتّى عام ١٩٨٧، عندما تحوّل بناء المعرض إلى مؤسَّسةٍ لمعالجة المُعوَّقين العقليّين، بإشراف مؤسّسة "إِيمان ونور" الَّتي تابعت بعض نشاطات "الواحة" مثل تصنيع "الناريت"، وجمع النِّفايات وفرزها وبيعها.

ومُذَّاك عمل رفاق "عمّاوس لبنان"، بفضل مساعدات "عمَّاوس الدوليّة"، ومؤَسَّسات لبنانيّةٍ، على مدّ يد العونْ لمن أَفقدتهم الحربُ كُلَّ شيءٍ، وهوت بهم إلى دَرَكات الفقر، مُساعِدةً إِيَّاهم على مزاولة أَعمالٍ متواضعةٍ توفِّر لهم عَيْشًا كريمًا.

كبيرةً كانت الآمال التي واكبتْ تأسيس "واحة الرَّجاء"، وكبيرةً الخيبةُ الَّتي أفرزتها الحرب المجنونة في لبنان. ولكن في خِضَمّ الفظاعات، استطاع رفاق "عمّاوس" وآخرون يُشاركونهم مُثُلَهم إقامة الدَّليل على أَنّهم، بترفّعهم فوق حُمق الأَهواء، قد أَفلحوا في إِنقاذ شرف الإِنسان، بمثابرتهم على الشَّهادة.

"مُدُن البؤس" في أَميركا الجنوبيّة

"مُدُن البؤس" هي بُؤْرة الظُّلمة والبشاعة التي تلطِّخ جميعَ بلدان أَميركا الجنوبيّة، والتي تنتحل، في بعضها، أسماء شاعريّةً، فهي "پاراداس" في الپيرو، و"فاڤيلاس" في البرازيل، و"كامپيلاس" في الشيلي، ولكنّها، في الأَرجنتين، تدعى باسمها الصريح "مُدن البؤس". وواقعها، أَينما كانت، إِغراقٌ في المأْساويّة.

هي، هنا، بيوتٌ من الآجُرّ المتراكم بلا مِلاطٍ يوفّر له التماسك، وهي، هناك، أكواخٌ من ألواحٍ خشبيّةٍ مربوطةٍ بالورق المقوّى؛ وفي أَمكنةٍ أُخرى، هي خصوصٌ متعانقةٌ يسند أَحدها الآخر، مصنوعةٌ من ركام صناديق الصابون الفارغة؛ أَمّا الأَسْقُف فصفيحٌ صدئٌ، وأَوراق نخيلٍ، أَو مُجرَّد رُقعةٍ من السَّماء، في الأماكن التي لا تهمي فيها الأَمطار، مثل مدينة "ليما".

هنا الطرقات مغاصُ غُبارٍ، وهناك مجرى من الوحل يتعرّج في الأَزقّة المرسومة عشوائيًّا. أَمّا السَّواقي فمزيجٌ من حمأَةٍ وماءٍ، تخوض فيها البهائم، وفيها تغسِلُ النِّسوة أَواني طهوهنّ الوضيعة، وتسكبنَ أَقذارهنّ.

والأَقذارُ تغمر كُلَّ شَيءٍ: الأَرضَ التي جرَّدتها الأَمطارُ من تربتها، والممـرّاتِ الضيِّقة التي تحوّل تلك المطارحَ إلى سراديب مُحيّرةٍ. إِنّها تختمر وتشيع في الأَجواء كريهَ رائحتها، حارقةً الأَقدام الَّتي تدوسها، والأَيدي التي تنبشها.

ومرامي القمامة هي مُدُن الفُقَراء، وملجأُهم، وسجنُهم المتطلّع إلى أُفقٍ تتراصّ فيه ناطحاتُ السُّحُب، وطرقاتُ السَّيَّارات العريضة، وأَضواء الدَّعاوات المتراقصة الأَلوان. فعلى مسافاتٍ قد تبعد قليلاً أَو تدنو، تمتدُّ العواصم وكبرياتُ المدن، وقد انتشرت فيها وَرَشاتُ البناء الجسيمة النَّاشطة، مُتنافسةً في إِشادة الأبنية السّامقة، وشقّ الشوارع المتباهية باتّساعها ولألاء ضيائها، وبخنق التُّراث القديم بحداثةٍ كئيبةٍ من إِسمنتٍ وزجاجٍ.

وعلى امتداد أَميركا الجنوبيّة تنبت المُدن المتغطرسة وتزدهر، وبفضل فيضٍ من الدّولارات تعبّر عن الثَّروة وتغدو لها رَمْزًا؛ غير أَنَّ مدن البُؤْس، من حولها، تبُزُّها انتشارًا وإِغراقًا في الامِّحاء والحرمان. فمن الجبال والسُّهول، يتدافع مزارعون ورعاةٌ مُعدَمون، وفقراء من كلِّ نَمَطٍ، وقد خَلَب ألبابَهم أَلَقُ الثَّروة المتباهية، ويقدِّمون، في سبيل ازدهارها، سواعدَهم وعرقَهم، وهي تستنفد منهم كُلَّ طاقاتهم، ولكنَّها لا تقبلهم في أَحضانها، ولا توفّر لهم حتّى المسكن الوضيع، ولا تمنُّ عليهم إِلاّ بأَجرٍ زريٍّ، يكادُ يكفي لإِبقائهم أَحياءً يُواصلون الكفاح كي تتعاظمَ ثرواتُ قلّةٍ من الآخرين، وتزدادَ تألّقًا المدن المنطويةُ على أَنانيّتها.

إِنّهم ملايين، يتراكمون تحت أَنظار ناطحات السَّحاب الباردة، وقد تلاشى كالسَّراب كلُّ أَملٍ لهم في ثروةٍ جَهدوا في إِنمائها، وتجاهَلَهم ازدهارٌ تحقَّق بعَرَقهم، فباتوا منبوذين في عهد التقدُّم أَكثر مِمّا هم كانوا منبوذين قبلَه. كانوا مُستَغَلّين في زمن الإِقطاع والاستعمار، وتفاقمَ استغلالُهم في عهد التَّصنيع والنموِّ الوطنيّ، فانقلبوا بائسين، بعد أَن كانوا مُجَرَّد فقراء.

على امتداد تلك البلدان الشَّاسعة المدى، تنبسط لوحةٌ مزركشةٌ تُبرز تباينًا واسعًا في الأَوْضاع السِّياسيّة والاقتصاديّة والاجتماعيّة، ولكن يوحّد بينها عامل الشَّقاء المشترك، ذلك الطَّابع الذي يَسِمُ كلَّ تلك الشُّعُوب، رغم ما يميّزها من تفاوتٍ في

الازدهار، وما يعصف بها، على التَّوالي، من انتفاضاتٍ سياسيّة. وفي كلِّ تلك البلدان، تعكس "مدُن البؤس" وجهَ الواقع الإِنسانيّ الحقّ، الموجع، وتُظهر للعيان صورةً موحَّدةً للحرمان.

مساحاتُ بعض تلك البلاد كالبرازيل والأَرجنتين بحجم قارّاتٍ، والمسافاتُ بين مُدُنها متماديةُ البُعْد، بحيثُ يتسنّى لمن يطير فوق أَجوائها أَن ينتقل، خلال سُوَيْعات، من شاطئ البحر إلى قِمَمٍ تشمُخ حتّى خمسة آلاف مترٍ ارتفاعًا، ومن السُّهول المخضلّة إلى التّلال الجرداء، ومن الغابات الكثيفة إلى التجمّعات السكنيَّة المُفْرطة الكثافة؛ غيرَ أَنّ الانطباعَ الذي يطغى على كلِّ انطباعٍ سواه، هو مشهدُ الفقر الَّذي يتخطّى أكثرَ وُجوه البؤس قتامًا، ذلك الفقر المتجسِّد في وجوهٍ مَسَخَها إدمانُ الكوكا والكحول، وفي أَطفالٍ كالهياكل العظميّة، وفي عدَد المُتَسوّلين المُخيف، وفي جموع العمَّال والفلاَّحين الراسفين في أَغلال المَتْرَبة والحرمان. كلُّ شيءٍ، هناك، مفرطٌ في الجسامة: المساحات، والمسافات، وجمالُ الطبيعة، وطيبُ العَيش، وإِدقاع الفقر المنتشر في كُلِّ مكان.

ذلك هو الانطباع الَّذي أَوجزه الأَب پيير، إِثر عَوْدَته من زيارة تلك البلاد، عام ١٩٥٩ بقوله: "**بؤسٌ يتفاقم حجمًا، وبؤسٌ يتفاقم حنَقًا**"

وقد كانت تلك البلدان هي التُّربة الخَصْبة المهيَّأَة لازدهار التَّضامُن والإِخاء، والرَّغبة في النُّهوض والانعتاق وإِنقاذ الآخرين، وبالإِجمال لتحقيق رسالة "عمّاوس" كما تصوَّرَها الأَبُ پيير، وكما مارسها مع رفاقه.

ففي معظم تلك البلدان، انبثقت حركاتٌ مُستلهَمةٌ من مثال "عمّاوس"، ومُعتَزَّةٌ بانتمائها إلى الأب پيير. فشُعوبُ أَميركا اللاّتينيّة، أكثر من سواها، شديدةُ الوَلَع بالشخصيّات النَّبويّة، وفخورةٌ بالسَّيْر على خطى زعيمٍ محبوب. وقد كان لصَوْت الأَب پيير فيها وقعٌ بعيد الأَصداء، إِذ إِنَّه جَسَّدَ قضيَّةَ المتأَلِّمَين في العالَم، فأَحبّته، وتاقت إلى الإِصغاء إِليه. ومن ثمّ، فقد كانت زيارته إلى تلك البُقْعة الجيّاشة من العالَم، عامَ ١٩٥٩، نصرًا مُدَوِّيًا، ولقيتْ ترحيبًا حارًّا، سواء في مُدن البُؤس، في الأَرجنتين والشيلي، أَو في كاتدرائيّات "الرِّيّو" و"سانتا كروز"، أَو في القصور الحكوميّة في "لاپاز" و"بوغوتا". في كلِّ تلك الأَماكن، برز الأَب پيير في أَسنى

صُوَره: متساميًا بالتحامه الحميم بجماهير البائسين، وأخًا للفقراء، وفاضحًا لأنانيّة الأغنياء، وانكفائهم على ذواتهم، ومنخاسًا للسُّلطات المدنيّة والدينيّة.

ومن الرَّجاء الَّذي كان يستفزّه، حيثُما مرَّ وتكلَّم، كان يستمدُّ لنفسه رَفْدًا من العزيمة المُتجدِّدة والانبعاث.

وحيالَ البُؤْس والظُّلْم المتفشّيَيْن هَتَف: "**ما هي الحُرِّيَّة في معزلٍ عن وسائل ممارستها؟ إنّ الله لا يهب الحُرِّيَّة إلاّ من أَجل الحبّ. ونحن تركنا الحرِّيَّة تتدبّر أمرَها، في معزلٍ عن الحُبّ... إنّ استبدادَ البُؤْس، والجوع، والجهل، والافتقار إلى العناية الصِّحِّيَّة، والبطالة، ليس أَقلَّ بطْشًا من الجَوْر السِّياسيّ. إنَّ تلك الشُّعوبَ المتروكة لليأْس ترى جيِّدًا التَّحوُّلات الجوهريّة التي تتحقَّق، وتقدُّم العلم الجسيم؛ وهي تعرفُ، لأَنَّ صدى تلك التَّحوُّلات التي تُثْري قطاعًا من العالَم، وتتجاهلها، ينفذ إلى أَسماع أكثرهم بعدًا. وهي تسمَعُ، لأَنَّ الرَّاديو باتَ الرَّفيقَ المُؤاسي لأَكثر النّاس حرمانًا. إن القَدَريّة القديمة التي ورِثوها من أَجدادهم تتراجع. وقد غدت تلك الشُّعوبُ، اليومَ، مُتَأَهِّبةً للدينونة، بل لقلب ما ندعوه، بحمقٍ، توازنَ العالَم. إنّها جائعةٌ، وقد شرعت تتحرّك، وستمضي في سَيْرها حثيثًا.**"

وقد خاطب تلك الشعوبَ قائلاً: « **تتباهى دُوَلكم، في أَميركا اللاتينيّة، بتعداد سكّانها. وفي الواقع عشرة أَو خمسةَ عشَر بالمئة فقط هم وحدَهم المستفيدون من الحياة الوطنيّة! وثمانون بالمئة منبوذون من المجتمع. والمستفيدون يجهلون ظروف عيش المنبوذين. فلنفتح أَعيُننا، إذ إنّه من الواضح أَنّ هذا الواقع غير قابلٍ للاستمرار** ».

لقد شهد، ثمَّة، الفقر المادِّيّ مقترنًا بالبؤس النفسيّ: فالَّذين يُقاسون ذلك الحرمان المخزي يدركون جيِّدًا أَنَّ، ثَمَّة، وسائلَ لتخفيف عبءِ آلامهم، ولكن ما من يدٍ تمتدُّ لنَجْدتهم، ولا مَنْ يحفَل بأَمرهم. ورأى أَنّ معالجة ذلك البؤس المأْساويّ لا تتمّ بالإحسان، "**فالإحسان يَدَعُنا، نحن المحظيّين، غائبين وغرباء**"، في حين أَنّ واجبَ الحُبّ الحقّ يقتضي المُشاركة، وإن اقتصر الحبُّ على الإحسان، سُرعان ما انقلب لَعْنةً". فإحسانُنا الضَّئيل، الَّذي يحول دون موت الآخرين، يُضاعف أَلَمهم، ويأْسَهم،

وتمرُّدَهم... فالَّذين يُعطون. قد أَعطوا القليل، لأَنهم تقاعسوا عن إِعطاء ذواتهم..."

وفي جميع تلك البلدان نهض الأَب پـيير محاميًا، يُقاضي الجَـوْر، وتقـاعُسَ الأغنياء أَفرادًا وحكومات، والامتيازات الَّتي لا تُستَخدَم لمنفعة المصلحة العامَّة. وقد دعا، بإِلحاحٍ، إلى تطوُّع الشُّبّان، شُبَّان تلك البلدان، وشُبّان أوروپـا، في سبيل تلك الخدمة السَّامية، حيثُ تنتظرهم جماعاتٌ ستمضي بهم إلى أَحلَك مطارح آلام أكـواخ الصَّفيح، والأزقّة الموبوءة البَرْصاء. وهناك، معًا، سيُنشِئون، دورَ حَضانةٍ، ومراكزَ استقبالٍ، وتثقيفٍ، وعنايةٍ صحّيَّة.

كانت تلك زيارة الأَب پـيير الأُولى لمعظم تلك البلدان، ولكنَّه كان وكأَنَّه يغشى أَرضاً سَبَق له احتلالُها. وقد وفّر، فيها، للكهنة والمُتطوّعين الناشـطين بهـديٍ مـن مثاله، في كلٍّ من "بوينس أيريس"، و"مندوسا"، و"سانتياغو"، و"مونتيـڤـيديو"، دعَمَه المنيع، وضمانتَه النبويَّة، وتبريرًا لعملهم وحمايةً، بفضل ما كانت شُـهرتُه العالَميّـة تنعم به من رُسوخٍ واتّساعٍ، وما كان لاسمه من عميق التَّقدير في الرَّأي العامّ، وفـي الأوساط العاملة في المضمار الدَّوْليِّ لمساعدة العالَم الثَّالث، بحيثُ كان ينهض، فـي تلك الدُّوَل الدَّائمة الاضطراب، مَعقِلاً لأَصدقائه دون تقلُّبات السّياسة.

ومن ثَمَّ وجَدَ رُسُل "عمّاوس"، في أَميركا اللاتينيّة، المناضلون في سبيل العدالـة الاجتماعيّة، تحت راية الأَب پـيير، حُرِّيَّة عملٍ ثمينةً. ومع أَنّ وسائلهم المادّيّة كانت موغلةً في التَّواضع، غير أنّ حقَّهم في الوجود والنشاط كان مصونًا بمُجرَّد انتمـائهم إلى مؤَسِّس جماعات جامعي النّفايات.

وقد كانت أَميركا اللاتينيّة هي الرُّقعة التي شهدتْ، فـي السـتّينات، الانتـشارَ الأَوسع لعمّاوس، والتعبيرَ الأَبلغَ عن مُثُلها ومغزاها.

عمّاوس في الأَرجنتين

منذ مطلع عام ١٩٤٦، كان أُلوف الفلاّحين الأَرجنتينيّين قد آمنوا ببركَات التقـدُّم والتحديث، ولا سيّما بعد أَن علَّلتهم الثَّوْرة الـپـيرونيّة بـالحكم باسـمهم، وبتحقيـق العدالة الاجتماعيّة الشَّاملة، وبعد أَن جسَّدت تلك الثورةَ، السيّدةُ الأولى، إِيـڤـا، زوجة الجنرال پـيرون، ابنةُ الشَّعب، وأُخت الجماهير، والممثّلةُ المحبوبة، فَهجروا مزارعَهم

وقطعانهم، وأَمُّوا المُدن الكبرى، يدفعون أَمامهم حميرهم، وماعزهم، ويحملون على ظهورهم، أَو في عرباتٍ صغيرةٍ يقودونها بأيديهم، ممتلكاتهم الزَّهيدة الزريّة، وغزوا كُبريات المدن مثل "بوينس أيرس"، و"كوردوبا" و"مندوسا" و"روساريو"، حيث فُرَص العمل الرَّخيص الأَجر وفيرةٌ، ولكنَّ فُرَصَ السَّكن شحيحةٌ، وعسيرةُ المنال. وقد أُلجِئوا إلى احتلال أَماكن مهجورةٍ، حولَ مكبّات القمامة، في حواشي المدن الكبرى التي طوَّقوها بحزامٍ من البُؤْس. وعندما كانت الحكومةُ تُنشئُ في أَحد تلك الأَماكن مساكنَ شعبيَّةً، كان يُسارع إلى احتلالها الموظَّفون الحكوميّون، في حين لا يحفَلُ أَحدٌ بأولئك العمّال الغُرَباء، الَّذين هجروا مساكنهم الرِّيفيّة، كي يتكدَّسوا في أكواخٍ من نفايات الصَّفيح، والعُلَب الفارغة، وأَخشاب الصَّناديق العتيقة، خاليةً من الماء والكهرباء، والمرافق الصِّحِّيَّة، لا يؤْنس، فيها، لياليَهم المُعتمة سوى نُباح الكلاب الشَّاردة.

وطوالَ الحكم الـپـيرونيّ الَّذي امتدَّ نحو عشر سنوات، ما انفكَّ يتفاقم، على نحوٍ مُريعٍ، عددُ ساكني "مُدُن البؤس"، الَّذين لم يظفروا بسَقْفٍ يُظلِّلهم. لقد كان الإِحسان الَّذي تجود به مؤَسَّسة "إِيـڤـا پـيرون"، رُكنًا من أَركان الحكم، وامتيازا موقوفًا عليها، دون سواها. وكانت السيّدة الأُولى في حركةٍ دائبةٍ، شبه مسرحيّةٍ، لا تني تزور المُسنّين، والعمّال، والأَطفال المهجورين، والمرضى، ولكنَّها عجزت عن تأمين مساكن لمن كانوا يفتقرون إِليها. وحتّى قُرى الطوارئ الَّتي استحدثتها لإِيواء بعض مئات المُشرَّدين، ما لبثتْ أَن تحوّلتْ إِلى "مُدُن بؤسٍ"، من جرّاء تدفُّق القرويّين المُطَّرد على المدن.

وقد جَهِدت الحكومة في إِخفاء ذلك الواقع المخزي عن الأَبصار، فأَشادت، مثَلاً، في إِحدى ضواحي العاصمة، جدارًا طولُه خمس مئة مترٍ كي تواري خلفه واحدةً من أكثر مُدُن البُؤس ازدحامًا، حيثُ تكدّس نحوُ ثلاثين أَلف محرومٍ. وما انفكّ عدد "مدن البؤس" تلك، في تفاقمٍ، حتّى تجاوزَ المئة في ضواحي العاصمة وحدها.

لم يكن الطَّعامُ مُشكلةً أَساسيّةً في الأَرجنتين، الَّتي، على نقيض جيرانها، تزخر بالموارد الغذائيّة الزّراعيّة والحيوانيّة، في حين كانت أَزَمة السَّكَن مَنبعًا لمشاكل صحِّيَّةٍ وأَخلاقيّةٍ حادَّةٍ، ولا سيّما أَنّ الأَمطار، في تلك البلاد غزيرةٌ، وهي تحيل "مُدُن البؤس" إِلى مُستنْقَعاتٍ تتوالد فيها الجراثيم والأَوبئة، فضلاً عن العِلَل النفسيّة الناجمة عن الاختلاط الوبيل، إِذ غالبًا ما تقيم ثلاث أُسَرٍ في غرفةٍ واحدةٍ ممّا يُفضي إِلى جُنوح

المراهقين، والبغاء، والشّذوذ الجنسيّ، والقمار وَالكحول، وتختلط كلّ تلك الأوبئة اختلاطًا مميتًا بالميكروبات المتفشّية.

وإثْرَ وفاة "إيـڤا پـيرون"، عام ١٩٥٢، تحرَّرت مبادراتٌ كثيرةٌ كانت مكبوتةً، ولا سيّما أَنّ الأرجنتين، على نقيض العديد من جيرانها، قد شهدت ازدهار طَبَقةٍ مُتوسِّطة الحال. وعندما باشر الأَب باليستا اليسوعيّ، في ذلك العام نشاطه، بمساعدة شابَّيْن، أَحدُهما مهندسٌ والآخر طالبٌ في كُلِّيَّة الحقوق، لعَوْن قاطني "مُـدُن البؤس" في ضواحي "بوينس أيرس"، ما لبث أَن انضمّ إليهم نحوُ خمسين طالبًا جامعيًّا راغبين في الخدمة. وقد اقتصرت مساعدتهم، بادئَ الأَمر، على السَّنَد الأَدَبيّ، لعجزهم عن العَوْن المادّيّ، فكانوا أَصدقاءَ ومرشدين لضحايا أَزمة السَّكن، قبل أَن يكونوا لهم حُماةً، ويُقدّموا لهم مساعدةً اقتصادية.

وكان لانتفاضة العطف الَّتي فجّرها الأَبُ پيير، في فرنسا، في شباط ١٩٥٤، أَصداءٌ مُدوِّيةٌ في الأَرجنتين، وفي جميع أَرجاء أَميركا اللاتينيّة، وغدا الأَبُ پيير هو الأسوة والنبراس لجميع المنخرطين في العمل لصالح المحرومين، وتعزّزت شهرتُه، على نحوٍ خاصٍّ، في مدارس الأرجنتين وجامعاتها.

وفي أَعقاب زيارةٍ قام بها الأبُ "باليستا" إلى المطران "هيلدر كامارا"، أُسقُف ريسيف في البرازيل، قرّر أَن يُنشئ، مع رفاقه المُتطوّعين، مؤسَّسةً هدفُها مساعدة المحرومين، لم يتردّدوا في إِطلاق اسم "عمّاوس" عليها؛ وقد استهدفوا، في مرحلةٍ أُولى، حَسْر النِّقاب عن الجُروح النّازفة التي خلّفتها السياسةُ الپيرونيّة، وفضْح البُؤْس المُدقع والمُخزي المتواري خَلْف الجدار الطّويل الذي يحاول إِخفاءَ الشقاء، وزرع "القلق الاجتماعيّ" لدى الميسورين، والمُثقَّفين، والطَّبقة المتوسِّطة، وإِيقاظ الأَذهان والضَّمائر، والتَّفاعل تفاعلَ الخميرة في المجتمع.

وقد أَوْضح الأَبُ "باليستا": "إِنّ اختيارنا لاسم "عمّاوس" نابعٌ من رغبتنا في استلهام الفكرة الَّتي أَمْلتْ على الأَب پيير عملَه، أكثر من توخّينا تقليد أَساليب عملِه. لقد وُلدتْ "عمّاوس"، في فرنسا، تحت ضَغْط الوقائع، ومثْلُ ذلك حَدَث، أَيضاً، في الأَرجنتين. وقد تضافر مع عملِنا عَملُ الأسَر الرَّاغبة في إِسكان أَفرادٍ أَو أُسَرٍ لديها. وقد شرعنا بالعمل وفق شعار: "على كلّ فردٍ أَن يعمل ما يستطيع فعله"

وقد استحوذ هذا الشِّعارُ على الشَّارع الأَرجنتينيّ، مُستفزًّا الهِمَم، فاستجاب له أُلوف المُتطوِّعين، سواء من الطَّبقات الثريّة، أَو من أَوساط المُفكّرين، والمسيحيِّين الملتزمين، ومن العمّال، وقد تكاتفوا، جميعُهم، على شنّ حربٍ على البؤس، لا البُؤْس القابع في أكواخ الصَّفيح فحَسْبُ، بل بؤس جميع الَّذين يعانون من سوء السَّكن، وعددُهم يربو على المليونين.

وعلى نحو ما جرى في فرنسا، سادَ الارتجال في الأَشهُر الأُولى، كما هَيْمَن شِعارُ السَّكن للجميع. وقد جهدت "عمّاوس" الأَرجنتين، بواقعيَّةٍ مُجْديةٍ، في سبيل إِيقاظ السُّلطة والرَّأي العام، واستخدمت الدَّعاوَة لنماذج سكَنٍ رخيصةِ الكلفة، سهلة التَّنفيذ، وأَسهمت في بناء مساكن على أَراضٍ زهيدة الثمن، وفي تنفيذ برنامج تنظيمٍ سكَنيٍّ. ولقد انحصر جُلُّ الاهتمام في "مدن البؤس" على إِيقاظ الشُّعور بالكرامة لدى الأَهالي، كي يتفجّر لديهم العزمُ على العيش على نحوٍ أَفضل، والقناعة بِالتَّمَكُّنِ من بلوغ هذا الهدف. وفي هذا السَّبيل، كانت الوسائل الَمُثْلَى التي استخدمها الأَبُ "باليستا" وأَصدقاءُ السَّاعات الأولى، وأُلوف المتطوّعين الَّذين استنهض هِمَمَهم للمساعدة والخدمة، هي المساعدة الشخصيّة والاتّصال المباشر، واستفزاز جهود الأهالي الجماعيّة المُتمثِّلة في التعاوُنيّات.

وقد ضربت تعاونيّاتُ مدينة "مندوسا" أَروع مثلٍ في هذا المضمار. وكانت جماهيرُ غفيرةٌ من القرويّين قد غشت تلك المدينة المزدهية بكرومها وزيتونها، وبمواردها من الأورانيوم والبترول، والمزدهرة بفضل اليد العاملة الزّهيدة الأَجر التي تهافتت على العمل فيها. بيد أَنّ "مندوسا" لم تحفل بتوفير مأْوى لأولئِك الَّذين كانوا يُغنونها بعرقهم، واكتفت بالإِغضاء عن إِقامتهم وراءَ اَلسُّدُود المُحيقة بها لوِقايتها من السُّيول، حيثُ كانت تَتراكم أَكوامُ القمامة.

عام ١٩٤٩، عزمت بعض الأُسَر القابعة في تلك الضَّاحية البائسة على التَّضامُن في سبيل تحسين أَوضاع معيشتها، وأَطلقت على تجمُّعها اسم "سان مارتان"، تَيَمُّنًا بالبَطَل القوميّ الَّذي حرّر البلاد، وتعبيرًا عن تصميمها على الثَّورة على البُؤْس المفروض عليها، وانتخبت لهذا الغرض لَجنة حيٍّ تمثّلها. غير أَنّ تلك اللَّجنة سُرعان

ما استسلمت لوعود السِّياسيّين الخدّاعة، أَو هي عنتْ لضغوطهم. وبعدَ أَن وفَّرتْ صُنبورَ ماءٍ واحدٍ لكلّ مئةٍ وخمسين أُسرةً، ذَهِلتْ عن مُهمَّتها الجوْهريَّة، وحصرتْ اهتمامَها في تنظيم حفلات الرَّقص في نهايات الأسابيع، ومباريات كرة القدم!

إِلاّ أَنّ مثال "عمّاوس" الفرنسيّ، وقرينه الأرجنتينيّ بمبادرة الأَب "باليستا" ورفاقه، بما أَحدثاه من صَدْمةٍ في الأَذهان والنُّفوس، قد أَيقظا المسحوقين على الجَوْر الَّذي كان يسومُهم حَيْفًا وهوانًا.

وذاتَ مساءٍ من شهر آذار ١٩٥٩، التأَم عشرةٌ من ساكني أَكواخ "سان مارتان "كي يُعلنوا ثورتهم على بؤْسهم وبؤس إِخوانهم، وظروف عَيْشهِم المهينة، مُطلقين على حركتهم اسم "عمّاوس". وقد انضمَّ إِليهم امرأَةٌ تمثّل "عمّاوس الأرجنتين"، وكاهنٌ يسوعيٌّ، هو الأب "خوسي ماريا لورنس" الَّذي سئم تلقين التعليم المسيحيّ للمبتدئين، وقرّر أَن يعيش المسيحيَّة واقعًا، وقد كتب: "عام ١٩٥٨ وصلتُ إلى "سان مارتان ". من قبلُ، كان لي اسم، ولَكِنِّي لم أَكن قد وُلدتُ بعدُ. وصلتُ بحياةِ شخصيَّة نصف مُحَطَّمةٍ، وأَدركتُ، بالحَدْس، معنى الحياة، عندما تُقرِّرُ جماعةٌ مُتضامنةٌ تحمُّل مسؤوليّة حياتها". وعلى حدّ قوله، كان الواقع قد قَفَزَ إلى وجهه، ولم يُرْخِ عنه قبضته، من بعدُ، قطُّ.

في ذلك المساء من آذار ١٩٥٩ تكلّم "هومبرتو" باسم الرِّجال العشرة من سكّان "سان مارتان " الملتئمين مع الأب لورنس وممثِّلة "عمّاوس"، فأعلن: "لا يمكن لهذه الحال أَن تدوم، ولا يمكننا مواصلة العيش على هذا النحو". إِنَّ عشرات الأُلوف من أَمثالهم، في الأَرجنتين يعرفون ما لم يعودوا يُطيقون، أَمّا هؤُلاء العشرة، فقد أَخذ يتبلور في أَذهانهم ما يتطلّعون إِليه، وهذا ما عبّر عنه "هومبرتو" بقوله: "إِذا ما طُرِدْتُ، فلا حيلةَ لي غير الرحيل. ولكنّني قد شرعتُ أَبني بيتي بالحجر. لن أَعيش، بعد اليوم، في كوخٍ مبنيٍّ بصفيح علب الكونسروة، ولن يتأَلّم أَبنائي كما تأَلّمتُ... فلتتابع لجنة الحَيّ اهتمامها بحفلات الرَّقص في أَماسي السَّبت، وبمباريات كرة القَدَم. أَمَّا نحن فسنعمل شيئًا آخر... نحن نريد بيوتًا، وشوارعَ، وسُبُل ماء، ومصابيحَ تضيء الشَّوارع، ولمَ لا، أَيضاً، أَسيقةً للصَّرْف الصِّحّي!". ما كان يتطلّع إِليه هو ورفاقه، تعاونيّةٌ شاملةٌ توفِّر لأَهل الحيّ كلَّ ما إِليه يحتاجون من أَجل حياةٍ كريمةٍ.

وقد وعد الأَب "لورانس" بالمساعدة على صَوغ تلك التَّطلُّعات في قالبٍ قانونيٍّ، واستخدام علاقاته في المدينة لإِسباغ الطّابع الرسميّ على تلك التَّعاونيّة.

وعندما التأَمَتْ، في شهر حزيران التَّالي، الجمعيَّةُ التأْسيسيَّةُ لتعاونيّة حيّ "سان مارتان" الشَّاملة، في مركز "عمّاوس"، وقِوامُها مئةُ شخْصٍ، عبّر "هومبرتو" عن أَهدافها بالقول: "لقد اجتمعنا للتَّحدُّث عن مشاكلنا. نحن نأْكل، هذا مُحقَّقٌ، ولكن لم يعُدْ بوسعنا أَن نحيا حياةَ البهائم! إِنَّ "عمّاوس" تُغيثُنا، وتَهَبُنا ملابس، وهذا لا بَأْس به. ولكن علينا أَن نتَدبَّر أُمورَنا بأنفسنا، ونعملَ من أَجل ذواتنا". واستأنف قائلاً: التَّعاونيّةُ الشَّاملة تعني أَنّ ما نؤَسّسه هذا المساء، سيضطلع بكلّ شيءٍ، وسيكون بمثابة حكومة الحيّ. هذه التَّعاونيّةُ ستبتاعُ الأَرضَ التي نقيم عليها، لأَنّنا نأبى أَن نوهَبَها كهديّة، وستُشيد المنازل، وستشقّ الطرقات، وستبحث عن مموّلين... وستُنشئ معملاً لموادّ البناء، وأَقسامًا مختصّةً بمختلف الشؤون، كالاستهلاك، والعمل والصحّة..."

وكان على الأَعضاء أَن يُؤَدُّوا، على أَقساطٍ، قيمةَ مساهماتهم في التعاونيّة، فيُصبحوا بذلك خالقي مصيرهم، وينعتقوا من عالَم المهانة الَّذي رفضوه من أَجل عالَمٍ آخر يجدون فيه كرامتهم المسلوبة.

وحطَّت أَنظارُ فئةٍ من الحاضرين على الأب "لورنس"، وكأَنَّهم يستطلعون رأْيَه، ويلتمسون تأكيده بأَنّ ما يسمعونه جديرٌ بالتّصديق، فهبَّ، بجُبَّته الخَلِقة، وبقُبَّعةِ العمّال الَّتي كان يعتمرها، وقال: "ليس من العَدْل أَن تعيشوا على هذا النحو، فهذا العيش لا يليق ببشرٍ. علينا أَن ننظِّمَ أَنفسَنا، ونتكاتف لنخلق هذه التعاونيّة الَّتي ستكون ملكنا. إِنّني أَفتقر إلى الخبرة، ولكنَّني جاهزٌ لكلِّ ما يتوجّب، شرطَ أَن تعدُّوني واحدًا منكم، وندًّا لكم..."

وقد أَكَّدَ له أَهالي "سان مارتان" موافقتهم على شرطه، ليس فقط بالتَّصفيق الحارّ الَّذي قابلوا به خطابَه، بل بانتخابهم إِيَّاهُ عُضوًا في "حكومتهم" الجديدة.

وهكذا نشأَت تعاونيّة "سان مارتان" الشَّاملةُ عَلَى موقع قمامة، مُتحدِّيةً قوانين الحكومة الَّتي كانت تحظُر مثل تلك التَّعاونيّات، وماضيةً في تحدّيها، بإِنشاء المساكن الإِسمنتيّة الثابتة، رغم دأَب الجرّارات الحكوميّة على إِزالة الأَبنية المماثلة في الجوار، ومُتحدِّيةً إِيَّاها، أَيضاً، باستيلائها على الكهرباء العامّة، وعلى أَنابيب المياه، لإِفادة ساكني الحيّ منِها.

يومًا فيومًا، أَخذَ وجْهُ الحيّ يتغيَّر، وشرَعت الحياةُ فيه تتَّخذ منحىً قشيبًا، ممّا جعل منه نموذجًا رائدًا أثار لا اهتمام أَهالي "مندوسا" فحَسْبُ، بل الكثير من المدن الأَرجنتينيّة الأُخرى. وقبل أَن يتنبّه الرَّسميّون إِلى استيلاء تعاونيّة "سان مارتان" على المرافق الأَساسيّة، وإِلى مخالفاتها المُتعَدِّدة، جاءت سيارةُ الأَب پيير المُباغِتة كي تكرّسَ ذلك الواقع الشَّاذّ، وتمنع حكومةَ البلاد من اتِّخاذ أَيّ إِجراءٍ زجريّ.

ففي خريف عام ١٩٥٨، كان الأَبُ "باليستا"، رسولُ "عمّاوس" في الأَرجنتين، وفي مختلف أَرجاء أَميركا اللاتينيّة، قد طار إِلى فرنسا، واقتحم خُلْوةَ الأَب پيير في "الساڤوا"، وبعد أَن تبادلا الآراء، وقارنا تجاربهما، اتّضح لهما، منذُ الوهلة الأُولى، تطابقها. وقد أكّد الأبُ "باليستا" بعناد:

– "عليك أَن تأتي إِلينا، إِنّي أُؤَكّد لك ذلك. فعمّاوس، في نظر الآخرين هي أَنتَ".

وهزّ الأَبُ پيير رأسَه مُستَنكرًا، وقال:

– "إِنّهم مُخطئون. ينبغي أَن توضح لهم أَنّ "عمّاوس" هي هم، في المقام الأَول." أَمّا الزيارة، فوَعَدَ بتحقيقها في أَعقاب زيارته للهند، بعد أَن اتّضح له مدى الشَّقاء الصارخ الَّذي تعانيه فئاتٌ واسعةٌ في أميركا اللاتينيّة، حيثُ الأكواخ تزدحم بالبُؤس والبائسين، وحيثُ الفقر يسيل في الأَزقّة والشوارع؛ حيثُ الأَطفال يَنْفُقون جوعًا ومَرضًا، والنّساء يضَعْنَ مواليدهنّ على قارعات الطُّرُق، والرِّجالُ يقتتلون من أَجل دُرَيْهمات. تلك الصُّورةُ المريعةُ كانت تنسيه وَهَنه، وتبعثُ فيه العزيمةَ على مقارعة الظُّلم.

وبعدَ أَن أَنفذ إِليه الأَبُ "باليستا" بطاقة الطَّائرة، ونظَّم له الزيارةَ بالتعاون مع "دون هيلدر كامارا"، شَخَص الأَبُ پيير إِلى أَميركا اَلْجَنُوبيَّة، وبين زيارتَيْه إِلى كلٍّ من الشّيلي وبوينس أيريس، كانت له محطّة في "مندوسا"، الَّتي حرصت حكومتُها المَحلِّيَّةُ على استضافته، فاضطرَّتْ، بالتَّالي، إِلى تنفيذ برنامجه، وواكبه كبارُ مسؤوليها من المطار مباشرةً إِلى ما وراء السُّدود، إِلى موقع "سان مارتان"، حيثُ دَهِشوا لرؤية المزابل وقد أَصبحت شوارع مُنَظَّمةً، ومساكنَ نظاميّةً من الإِسمنت، بعد أن جُزّئت الأَرض إِلى محاضرَ صغيرةٍ يسهُل على العمّال تملُّكها. غير أَنّ ما

أَدهش الزّائرين، أكثر من العمار النَّاشط، هو الرَّجاءُ المُستعاد، والتّضامنُ الفعّالُ الصَّادقُ بين فقراء الحيّ. وقد شدَّدتهم رسالةُ الأَب پيير في ما عزموا عليه أَمرَهم، وجاءَتهم زيارتُه دعمًا ووقايةً.

فقد كانت الأَرجنتين، منذ انتفاضة العطف في فرنسا، تُجلُّ الأَبَ پيير إِجلالاً عظيمًا، رسميًّا وشعبيًّا. وقد اعتُبر يومُ زيارته لمندوسا عطلةً رسميّةً، أُقفلت فيه المدارس، واصطفَّ الطُلاّب على طول الطَّريق المؤَدّي من المطار إلى المدينة، حاملين الأَعلام والزُّهور؛ وانعقدت حلَقات الرَّقص، واختلط مسؤولو تعاونيّة "سان مارتان" بالمسؤولين الحكوميّين، مشتركين، معًا، في استقبال الضَّيْف المحبوب وتكريمه. وكان خطابُ الأَبِ پيير، في هذه المناسبة، بمثابة تبريرٍ للتَّعاوُنيّةِ النَّاشئة ودَعْمٍ لها، حرَّرَها ممّا كان لا يزال يُساورها من خوفٍ وشكوكٍ، فقد قال:

– « **ينبغي أَن نُواجه الشَّقاء جماعيًّا، وأَن يُصبح المتأَلِّمون إِخوةً لنا. والتعاونيّة هي التعبير القانونيّ عن هذا الإِخاء لأَنّها تُحقِّق المُساواة بين الجميع، وتُجسِّدُ مغزى "عمّاوس" الجوهريّ: بعث البشر والضَّمائر، وتخمير عجين المجتمع بأكمله** ».

وقد حقَّقتْ تعاونيّةُ "سان مارتان" كلَّ هذه الأهداف، الَّتي أَوجزها الأَب "لورنس" بقوله:

« خلفَ السُّدود، عندَ أكوام القمامة، لم يكن، ثمَّةَ، أَيّة سُلْطةٍ تشريعيّةٍ، أَو تنفيذيّةٍ، أَو قضائيّةٍ، ولا بلديّةٍ، ولا شرطة. ولكن كان، ثمَّةَ، فريقُ رجالٍ راجحي الرأي، رغم أُميَّتهم، حريصين على مصلحة أسَرهم، ومصلحة جميع أَبناء الحيّ، ولا بِدْعَ، بالتَّالي، إِن هم نظَّموا أَنفسَهم، فكوَّنوا سُلْطةً متكاملةً. فحيث القانون غيرُ شرعيٍّ، وحيثُ مغبَّةُ الظلم تَحُطُّ من قدر الإِنسان، تنبثق شريعةٌ أُخرى، مطبوعةٌ في القلوب المستقيمة المتَّحدة، شريعةٌ نابعةٌ من الشّعور باسترداد الكرامة المسلوبة ».

خيار "اللاشرعيّة" هذا قد قوَّى شكيمةَ القوْم، وجَعَلهم يتمرّسون بالنِّضال من أَجل حياتهم وكرامتهم، وكرامة كلِّ إِنسانٍ. لقد ثاروا على الظّلْم، وآثروا الموت على المهانة، فاحترم حتّى الظالمون بسالتَهم، ويومَ وافت الجرّارات الحكوميّة لتُزيل أكواخ

"سان مارتان"، بعدما أَزالتْ أكواخ الأحياء المجاورة، لم يتردَّد أَفرادُ الحـــيّ، رجـــالاً ونساءً، من الاستلقاء تحت مُسنَّناتها، ما حدا بالجرّارات على التراجع، باعثةً دهـــشةَ الجميع، ومنتزعةً شكرَهم لله.

وحتّى عندما أَقدم الانقلابيّون العسكريّون، عام ١٩٧٦، على اعتقال العديد مـــن رجال الدّين الَّذين اعتبروهم ثوريِّين يساريّين، لم يتورَّعوا عن إِعدام أسقُف "مندوسا" الَّذي كان يعيشُ الإِنجيل، كما يقتضي الرَّبُّ، مع الفُقَراء، وضِدَّ الظّلْـــم، واعتقلـــوا، لفترةٍ طويلةٍ، الإِكليريكيّ الَّذي كان يُساعده، فـــي حـــين هـــم أَطلقـــوا ســـراح الأب "لورنس"، سُوَيْعاتٍ بعد توقيفه، بلا تفسيرٍ، وكأَنّهم توجَّسوا خشيةً من التصدّي لرمـــز "سان مارتان".

ولا بِدْعَ، بالتالي، إِن غدت "سان مارتان" مُلتَقى محرومي تلـــك المنطقـــة، وإِن غشاها الصّحَافيّون والمُصوِّرون مُستطلعين، وأَمَّها الباحثون دارســـين مُـــستَعْبِرين، والمُصلِحون الاجتماعيُّون مُلتمسين المشورةَ والخِبْرة.

ولا عجَبَ، أَيضًا، إِن تقاطر المحرومون إِلى "سان مارتان" تقاطرَهم إِلى المرفأ الآمن الحاني؛ وفي غضون سبع سنواتٍ ارتقى عدد الأُسَر المقيمة فيهـــا مـــن مئـــةٍ وسبعين أُسرةً إِلى أَلفٍ ومئتي أُسرة.

وبعد أَن ظَفِرتْ التَّعاونيَّةُ بالاعتراف القانونيّ، عام ١٩٦١، باتَ مـــن الـــسَّهْل عليها استنباط الحلول الملائمة لمشاكل الأَهالي اليوميّة، فغدت تمنحهم سنداتٍ تضمن لهم ملكيَّة الأَراضي التي يُقيمون عليها، وتجرُّ لهم الميـــاه، وتبنـــي لهـــم المـــدارس والمستوصفات، بمؤازرة "عمّاوس" أَوّلاً، ثمّ بمساعدة السُّلطات التي رأَت من الأَجدر دعمَ عَمَلِها عوضًا عن التَّصدِّي له.

وشيئًا فشيئًا، بعد أَن ترسَّخت أَقدامُ التعاونيّة، واتّسعت رُقْعةُ صلاحيّاتها، شرَعَتْ تنعتق من الفوضى، وتنظّم الضَّاحيةَ تنظيمًا مدنيًّا لائقًا، بحيثُ نهضت، مـــن أكـــوام مرمى قمامةٍ، مدينةٌ عمَّاليّةٌ، أَمست، اليومَ، تَضُمّ أَربعين أَلف ساكنٍ، وطُرُقًا مُزَفَّتـــةً تخترقها، يوميًّا، حافلاتٌ جديدةٌ، وستّ مدارسَ ابتدائيّةٍ، ومدرسةً ثانويّةً، وصـــيدليَّةً، ومركزَ بريدٍ، ومخفرَ شرطةٍ، وثلاثَ تعاونيّاتٍ، ونحـــو ثلاثـــين مجموعـــة إِرشـــادٍ اجتماعيّ.

أَمّا الأَبُ "لورنس"، فقد ربَطَ مصيره بمصير "سان مارتان"، وقد أَشاد له الأَهالي بيتًا، ثمّ راحوا يَحُثُّونه على إِشادة كنيسةٍ، ولكنّه كان لا ينِي يجيب: "فلنُنْجِز، أَوَّلاً، مساكن النَّاس، وبعدئذٍ فقط سيحين موعدُ إِشادة بيت الله". وبالفعل، كان قد تمّ بناءُ نحو أَلف مسكنٍ في موقع المزبلة القديم، قبل أَن نهضت، في ساحة "سان مارتان" الرئيسة "كنيسة العذراء سيّدة الفقراء"، الَّتي بات الأَب "لورنس" خادمَها، وراعيَ مؤمنيها، حتّى وفاته، رغم تهديدات السُّلطات الكنسيّة المتكرّرة بنقله، ورغم محاولات بعض السِّياسيّين القضاءَ عليه؛ وقد فُجِّر منزلُه، ذاتَ ليْلةٍ، ولكن اتَّفق أَنّه، في تلك الليلة، قد تلكّأ في المدينة لاشتراكه في اجتماعٍ مسكونيٍّ، فأُنقِذت حياته. وعند وفاته عام ١٩٨٤، حُقّقتْ رغبتُه في عدم مغادرة "سان مارتان"، فدُفِن فيه "الرَّفيقُ الطيّب، الأَخ والصَّديق، والملتزم إِلى جانب الفقراء، الّذي عبّر عن الحقيقة، وكان نبيَّها، سابقًا المجمع المسكونيّ". إِنّه، على غرار مُعلِّمه، أَثبتَ حُبَّه لإِخوته، ببذل حياته من أَجلهم.

إِنّ تعاونيّة "سان مارتان" من أَروع الإِنجازات المُستلهَمة من "عمّاوس" في القارّة الأَميركيّة. وهي قد رفدت الأَب "باليستا" ورفاقَه بمزيدٍ من الزَّخْم في تعميم تجربة "عمّاوس" في أَميركا اللاتينيّة، باستخدام أَساليبَ تتلاءم ومقتضيات تلك البلاد، مُتَمثِّلةً في تعبئة الرَّأْي العامّ وتجنيده، وفي آنٍ واحدٍ، إِطلاق أَعمال إِنماءٍ جماعيٍّ محدودةٍ ولكن نموذجيّة، في أَحياء البؤس. وقد عبّر الأَب "باليستا" عن ذلك التوجّه بقوله: "علينا أَن نوقظ لدى السُّكّان الشُّعُور بكرامتهم، وإِقناعهم أَنّ بوسْعِهم العيشَ في ظروفٍ أَفضل، شرط أَن يُنظِّموا، لهذا الغرض، أنفسَهم، ويُصبحوا قادرين على ممارسة الضُّغوط على السُّلطات... ومساعدتهم على استخدامٍ أَفضلَ لمواردهم، كي يَعْكِفوا على حلّ مشاكلهم بأَنفسهم". وعلى هذا النَّحو ازدهرت "عمّاوس"، في كلّ أَنحاء الأَرجنتين، فبات لها جماعاتٌ في كلٍّ من "بوينس أيرس"، و"كوردوبا"، و"بورزاكو"، و"ماردبل پلاتا"، و"سانتا في"، و"روزاريو"، و"ريزيستانسيا"، فضلاً عن "سان مارتان".

عمّاوس في الشيلي

رسالةُ "الأَمل" حيالَ ما يُثيره المُستقبَل من قَلَقٍ لدى فئات المحرومين هي الَّتي جَهِد الأَبُ پيير في نشرها، أَثناءَ مروره بالشيلي عام ١٩٥٩؛ وقد أسهمت زيارته

تلك في تكريس رسالة "عمّاوس" في بلادٍ للحرب على البُؤْس والظُّلم، فيهــا، تــاريخٌ عريق.

ولا ريبَ أَنَّ الشّيلي من أَكثر بلدان أَميركا اللاَّتينيّة نُضوجًا، واستعدادًا للسَّيْر على دُروب الدّيمقراطيّة، ولكنّها من أكثرها عجًّا بالتناقُضات، واصطراعًا، كما يتَّضح مــن محاولات الحُكّام المُتعاقبة، فبعْدَ الدّيمقراطيّة المَسيحيّة الَّتي جاءَت "بإِدواردو فراي" إلى سُدَّة الحُكم عامَ ١٩٦٤، حاولَ "اللّندي" فرْضَ النِّظام الاشتراكيّ عــام ١٩٧٠، إلــى أَن قضى الجنرال پــينوشيه على الممارسات الدّيمقراطيّة عام ١٩٧٣ حين بَسَط، عنْــوةً، حكمَه الدِّيكتاتوريّ.

لقد كانت الشّيلي سبَّاقةً إلى النموِّ الاقتصاديّ، وقد شَرَعَتْ تزدهر في الثَّلاثينات، بفضل موارد مناجمها وزراعتها، ولكنَّها كانت في آنٍ واحدٍ، سبَّاقةً في إِشاعة مآسي البُؤْس، إِذ كان ازدهارُها مَشوبًا بظُلْمٍ اجتماعيٍّ صارخٍ. فالَّذينَ أَثْــروا، لــم يحفلــوا بمُقاسمة من ساعدوهم على الاغتناء، و لو جزءًا نزْرًا من الثَّروةِ الَّتي هبطتْ عليهم، فشاعَ إِدقاعُ سوادٍ غفيرٍ، في مُحاذاة بَطَر نفرٍ ضئيل.

إِنّ الشيلي بلادٌ غنيّةٌ، ونسبةُ التمدُّن فيها تُناهز الخمسين بالمئة، ولكنَّ، ثمَّةَ، نسبةً مُماثلةً من الأمِّيَّة. والمُلكيَّة الزِّراعيّة فيها ما انفكَّتْ من نَمَطٍ استعماريٍّ، حيث ١٥% من المالكين يحتكرون، وحدهم، ٨٥% من الأَراضي الصَّالحة للزِّراعــة، وعــشرة بالمئة من المَحْظيِّين يحتكرون نصفَ الدّخل القوميّ.

ولا بِدْعَ، والحالةُ هذه، إِن أَمسَتْ تلك البلادُ الغنيَّةُ عاجزةً عن إِطعام مواطنيهــا، وإِن ازدهرتْ حَوْلَ "سانتياغو" المشهورةِ بتقواها، وعذوبة مُناخها، "الكالمــپــــاس" ومعناها الفُطور، أيْ مدُن الصَّفيح الَّتي، كالفطور، تنبت وتتكاثر تلقائيًّا، في الرُّطوبة، تحتَ جُنْح اللَّيْل، حيثُ يعجُّ الشَّقاءُ، على مسيرة عَشْر دقائق مــن الأَحيــاء الأَنيقــة الغنيّة، حيث العيش دائمًا طيِّب.

ومن ثمّ، يبدو الظُّلْمُ الاجتماعيُّ، في الشّيلي، أكثر منه في أَيّ مكانٍ آخَر، إِهانــةً للإِنسان، ولمئات ألوف البائسين، لأَنّ تلك البلاد هي من أَرسخ بلدان أَميركا اللاَّتينيَّة نُضوجًا للنُّموِّ الاقتصاديّ، والتَّقدُّم الاجتماعيّ، والديمقراطيّة.

وقد تيقّظت لذلك الواقع المأْساويّ، في وقتٍ مُبكِّرٍ، فئاتٌ مُتَبايِنةُ المشارب من المناضلين، منهم شُيوعيّون، ومنهم مسيحيُّون راسخو الأَقدام في تُربة الإِنجيل، وكهنةٌ يعيشون على صِلةٍ وثيقةٍ بالمحرومين، ومن صميم ذلك الواقع الأَليم، صاغوا التزامهم، وفيه اكتشفوا رسالتَهم، فغدَوا مُتأَهِّبين لبذل حياتهم في سبيل إِخوانهم المظلومين، ومعظمُهم من اليَسوعيِّين المُتمرّسين بالنِّضال.

ومن أَبرز أُولئك الكهنة، وأَوْسعهم شُهرةً، وأَسناهم إِشراقًا، الرَّجُل الأُسطورة، الأَب "هورتادو" اليسوعيُّ، الَّذي وافق مولده مولد القرن العشرين، وأَطاح به سَرَطانٌ صاعقٌ عام ١٩٥٢، وكان دكتورًا في الفلسفة، ومحاميًا قبل أَن ينتهج درب الكهنوت، بعد أَن حوّلَ مسيرتَه لقاؤُه بمُحْتَضرٍ بائسٍ تائهٍ، ملقًى على رصيفِ شارع.

يبدو الأَب "هورتادو" صِنوًا للأَب بيير في الشّيلي، ولطالما خيَّم شَبَحُه على مُدُن صفيح "لاس نوكاليس" أَي "الجوز" في "سان مانويل"، و"البازوراس" أَي المزابل في "سانتياغو"، وعلى أُلوف المُشرَّدين الضَّاربين في الأَرض بلا مأوى ولا أُسرةٍ، وجوع الأَوْلاد المهجورين الَّذين حوَّلوا ضفاف "ريومابوكو" إِلى جحيمِ يأسٍ وقُنوطٍ. ومن أَجل هؤُلاء جميعًا أَسَّس، عام ١٩٤٤، بالتعاون مع سيّدةٍ فرنسيَّةٍ موظَّفةٍ في قنصليّة بلادها في الشيلي، وحفنةٍ من العِلمانيّين المُتَطوِّعين، "منزل المسيح" الَّذي كان بمثابة نموذجٍ مُسبَقٍ عن "عمّاوس"؛ وقد تجسَّد قانونُ إِيمان مؤَسِّسيه في شعارهم: "**اِبحثوا عن الفقراء، فهم المسيح**".

لقد كانتْ بُذور"عمّاوس" كلُّها كامنةً في تَطَلُّعات "منزل المسيح"، كالغوث الطارئ، والاستقبال، وبناء المساكن لمن لا مأوى لهم، ومطالبةِ أُولي السُّلْطة والثَّرْوة بأَداء واجبهم حيالَ المحرومين، وفوقَ كُلِّ ذلك، الانغماس الفعليّ في الشَّقاء، حيثُ يتعلَّم المرءُ، كلّ يَوْمٍ، الحياةَ الجَماعيّة، ومعنى المحبّة الأَسمى. وبعد أَنِ اتَّسعت رُقعةُ نشاطات "منزل المسيح"، وتشعَّبتْ، انبثقتْ عنه مُؤَسَّسةٌ خاصَّةٌ، للعناية بالفتْيان المُشرَّدين، بإِشراف كهنةٍ كانوا أَعضاء في لجنته، وأَسَّسوا، لهذه الغاية، مركزًا خاصًّا، أَطلقوا عليه اسم "بيتي"

بفضل خبرته المعاشة في صميم البُؤْس، نهض "منزل المسيح" على نحو ما ستفعل "عمّاوس"، من بعدُ، بدَورٍ خطير الشَّأْن في مجال الكشف عن المآسي، وفَضْح

التَّقصير وتَعْبئَةِ الرَّأْي العامّ، ولا سيّمَا أَنْ الشيلي تضمُّ طَبَقَةً متوسِّطةً عريضةَ القاعدة، وفئةً مُثقَّفةً واسعةً، بإمكانهما التنسيق بين "السُّلطة العمياء" و"البؤْس الأَخرس" وإن هما لم تتولّيا مقاليد الحكم، إلاّ أَنّهما كانتا قَادِرَتَيْنِ على الفهم، والمساعدة، والتّأثير والشَّهادة. وعلى نحو ما أَهاب الأَبُ پيير، عام ١٩٥٥، بعمّاوس أَن تُخاطِبَ الأَغنياءَ، كي يحملوا رسالتَها إلى البلاد الفقيرة، كذلك، في الشّيلي، نَهَضَتِ الجامعاتُ، والحرفيُّون، والطَّبَقاتُ المُتوسِّطةُ في المجتمع، بمُهمَّة إشاعةِ الحبّ لخدمة الأَكثر تألُّمًا، وإشاعة الخدمة وَسْط المحتاجين، وواجب الخدمة في أَوْساط الأَغنياء.

وقد اتَّضحَ للأَب "هورتادو" ورفاقِه أَنَّ مُشكلةَ التَّشَرُّد لا تكمُن في المُشرَّدين، بل في المجتمع الجائر، والأَزمة الاقتصاديّة، والتضخُّم، واللاّمساواة، ونقص المساكن. وبالتَّالي طَفِقَ، هو ورفاقه، في "منزل المسيح"، يستقبلون المُشَرَّدين، ويُقدِّمون لهم العَوْن الطَّارئ، والمأوى، وكوبَ حساءٍ، ويُكافحون الشَّقاءَ، في مُدُن الصَّفيح، دائبين على تخفيف وطأته، واجتثاث جُذوره، بملاحقتهم السُّلْطات كي تعالج أَزْمَةَ السَّكَن، وبتأسيسهم شركةَ إنشاء مساكن زهيدة الكلفة والإيجار، لسكَن الفقراء، وبانغماسهم في لُجَج الشّقاء، انطلاقًا من إيمانهم بأنّ "المَحبّة ليست الإحسان، وهي لا تنحدر من الأَعلى إلى الأَسفل، بل تمضي أفُقيًّا، ندًّا لِندٍّ، "من جسدٍ وقلبِ بَشَريَّين، إلى جسدٍ وقلبٍ بشريَّين آخرَين". والرِّسالةُ الَّتي دأَب الأَب "هورتادو" على نشرها هي أَنّه ينبغي صُنع التّاريخ، لا احتمالُه قَسْرًا، بالتآخي مع من يتأَلّم. ذلك ما حاول أَن يَبُثَّه ليس بعمله، فحسْبُ، بل، أَيضاً، عبرَ مجلّة "الرِّسالة" الَّتي أطلقها عام ١٩٥١، والتي سُرعان ما غزت الشّيلي، وسائر بُلدان أَميركا اللاّتينيّة، ولا سيّما في الأَوساط العُمَّاليَّة المناضلة، ما عرّضها لسُخْط الأَوساط المحافظة؛ غير أَنّ التزامها الجريء، هو الَّذي ضمنَ نجاحها، حتّى بعد وفاة مُؤَسِّسها، بتجنيد رأيٍ عامٍّ واسعٍ، في سبيل ثورةٍ وفق نموذجٍ مسيحيٍّ. وقد التقى، في ذلك، مع عِدَّة مُحاولاتٍ مماثلةٍ بادرتْ إليها أَوْساطٌ مسيحيَّةٌ مُختلفةٌ، ما أَفضى، في عام ١٩٥٨، إلى تأسيس مَرْكزٍ اجتماعيٍّ للأَبحاث والغَوْث بمبادرة الكنيسة المحلِّية وإشرافها.

وقد انغمست النخبة المُثَقَّفة الشّيليّة، باكرًا، في النِّضال لتخفيف وَطْأَة البُؤْس، واجتثاث جُذوره؛ واقترح شُبَّانٌ جامعيّون أَن يضطلع مُتطوّعون من كُلِّ كُلِّيَّةٍ بخدمة

ساكني مُدُن الصَّفيح وفقًا لاختصاصاتهم، وأن يُشيعوا، في آنٍ واحدٍ، لدى أبناء البورجوازيّين، "القَلَق الاجتماعيّ". وكانت مجموعةٌ من الجامعيّين، أَساتذةً وطلاّبًا، قد هبَّت، عام ١٩٥٢، لنَجْدة مئةٍ وخمس عشرة أُسْرةً، تضمُّ نحو سبع مئة فردٍ، كانوا يعيشون في أكواخٍ زريّة، في ضاحية "سان مانويل"، بانتظار وعْدٍ من الحكومة، لم يتحقَّقْ قطُّ، بمَنْحِهم قطعةَ أَرضٍ كي يبنوا عليها مساكنَ لائقةً. وقد بادر أولئك المُثَقَّفون فأَنشأوا لهم مستوصفًا، ومدرسةً، ودارَ حضانةٍ، ومُصلّى؛ ثمَّ راحوا يستنهضون، بين أَترابهم الجامعيّين، مَزيدًا من المُتَطوِّعين؛ وسرعان ما تجنَّد للعمل ثلاثُ مئةِ مُتَطوِّعٍ ناشط، وجميعُهم كاثوليكيّون مُلتَزمون، مُنخرطون في مكافحة البؤْس والظُّلْم، وقد توزَّعوا جماعاتٍ، وفقًا لميولهم، وعقدوا علاقاتٍ وثيقةً مع حَرَكات الشَّبيبة، والنَّوادي، ومُؤسَّساتٍ اجتماعيَّةٍ، وفي طليعتها "منزل المسيح". وقد كتبَ أَحدُهم، عام ١٩٥٥، في مجلّة "جوع وعطش": "لم يتوقّع أَحدٌ أَن نصْمُد أكثرَ من ثلاثة أَشهرٍ، وكاد المتشائمون يكونون مُصيبين، أَوّلَ الأمر، فلا أَثَرَ لمالٍ، ولا لأَراضٍ وعدتْ بها الدَّوْلةُ الأسر المحتاجة... وقد أَمضينا صيف ١٩٥٢ في نقاشٍ، غير أَنَّه كَان هناك واقعٌ ماثلٌ: مئةٌ وخمسَ عشْرةَ أُسرةً، أَي سبع مئة إِنسانٍ يتعيَّن إِيواؤهم... لقد أَلقَيْنا المحاضرات في كلّ الصُّفوف، إِذ حان الأَوان كي نهزّ الجامعة، ونحشر أَنفها في ذلك البؤس الَّذي كانت حريصةً على تجاهله. وسُرْعانَ ما قفزَ عددُنا من بضعة أَفرادٍ إِلى ثلاث مئة متطوّعٍ..."

وفي عام ١٩٥٧، التهمَ حريقٌ مجموعةَ أَكواخ صفيحٍ في إِحدى الضَّواحي، فحضّ كاهنٌ يسوعيٌّ مناضلٌ آخَر، هو "الأَب ديل كورّو" الأهالي المنكوبين على احتلال أَراضٍ كانت الدَّوْلةُ تعتزم إِنشاءَ مرافق تَسْليةٍ للأَغنياء عليها. فسُجن الأَب "ديل كورّو" وهَمّ الجَيشُ بطرد مُحتلّي الأرض، عنْوةً؛ إِلاّ أنّ كردينال "سانتياغو" تصدّى له، ذائدًا عن حياض المُشرَّدين، فتراجعت الحكومة، وأُفرِجَ عن الأَب "ديل كورّو"، وتكرَّسَ حقُّ المحتلّين بالأرض الّتي أَطلَقوا عليها اسم "لافيكتوريا"، أَي النَّصر، رمزًا لغلبة النِّضال الشَّعبيّ وللرَّجاء في كُلِّ أَنحاء الشّيلي.

وذلك النَّصرُ بَعَثَ دفْقًا من العزيمة والاندفاع، وأَحلامًا مُتأَلِّقةً، في فريق المُتَطوِّعين الجامعيّين الَّذين اعتنقوا شعار "الحبّ والمرح"، وأَطلقوا على حركتهم اسم

"طيور القندس" (لاس أُورّاكاس). فالطائر رمزٌ للحُرِّيَّة والانطلاق، للعُشِّ، وللملجأ الَّذي ينبغي بناؤه، للأسرة التي يتعيَّنُ الحفاظ عليها؛ في حين يُضفي شعار "الحبّ والمرَح" على كُلِّ ذلك فضولاً في معرفة العالَم، وروح المغامرة الَّذي سيحدو ببعضهم إلى الشُّخوص لفرنسا، بحثًا عن نموذجٍ حيٍّ لنضالهم، لدى جماعات "عمّاوس".

عام ١٩٥٧ عينه، كان "أوسكار برينيان" الطَّالبُ في كُلِّيَّة الحقوق الَّذي أَبعدتْه الدِّراسة مؤقَّتًا عن "سانتياغو"، قد اطَّلعَ على كتاباتٍ للأَب پيير، ترجمَها الأَب "خوسيه باليستا" إلى الإسبانيّة. وقد قَفَلَ عائدًا إلى العاصمة، في غَمْرة أَحداث "لاڤيكتوريا"، فحدَّثَ أَصدقاءَه الجامعيّين عن "عمّاوس"، وعن جامعي النّفايات، وعن الفيلم الَّذي استلْهم من إنجازاتهم، والَّذي أَلهبتْ مشاهدتُه مشاعرَه. وسُرعانَ ما نُسِجت شبكةٌ من التَّواصُل بين "عمّاوس"، وحركة "لاڤيكتوريا"، ونشاط شُبّان "طيور القندس"، الَّذين ترسَّخَ لديهم اليَقينُ بأَنَّهم ورَثَةُ نضالٍ عريقٍ، يدعمُه، عالميًّا، نضالُ الأَب پيير الّذي غَمَرتْ أَنْباؤُه البسيطة، منذُ شباط ١٩٥٤؛ وقد وجد الكثيرون منهم أَنفسَهم في رفاق "عمّاوس"، وتعرَّف عديدون منهم ذواتِهم في هذا أَو ذاك من أَبطال كتاب "جامعو نفايات عمّاوس" لبوريس سيمون، وأَلفوا فيهم إِخوةً لهم.

وفي مطلع شهر تمّوز ١٩٥٩، وصلَ الأَبُ پيير إلى الشّيلي، حيثُ لم يمكُثْ أكثرَ من أُسبوعٍ بين "سانتياغو" و"ڤالپاريزو"، مُحاضِرًا، مُناقِشًا، عاقِدًا اللّقاءات. بَيْدَ أَنَّ تلك الفترةَ القصيرةَ كانت حاسِمةً لمصير جماعات المُتَطوِّعين، ولا سيَّما أَنّ الحركة التي تبلورت حول "منزل المسيح"، بمبادرة الأَب "هورتادو" أَوّلاً، ثمَّ الأَب "ديل كورّو"، والأَبَوَيْن البلجيكيّين "ڤان دير ريست"، و"ڤيكيمانس"، كانت قد حقَّقت، إلى حدٍّ بعيدٍ، دعوةَ الأَب پيير للشَّباب كي يلتزموا في خدمة المحرومين. ذلك الواقع جَعَل من إِقامة الأب پيير الوجيزة، في الشّيلي، أكثرَ مراحل زيارته لأَميركا اللاتينيّة إِثارةً وجدوى.

وأَثناءَ تلك الزِّيارة الخاطفة تسنَّى للأَب پيير عقدُ لقاءاتٍ مؤثِّرةٍ مع الرُّؤَساء الكنسيّين، ورئيس الجمهوريّة، ووزرائه، وسكَّان قُرى الصَّفيح، ومسؤولين عن الأَعمال الخيريّة المُتعدِّدة، بل المُتنافسة، وخَرَجَ بانطباعٍ عبَّر عنه بالقول: "إنّ نضوج

فئة كبيرةٍ من الطَّبقة العاملة، يجعلُ مَوْعِدَ الصِّراعات الجوهريّة وشيكًا... إنّ للشّيوعيّة، هنا، فُرَصاً أكثر ممّا لها في أَمكنةٍ أُخرى، ولكن، في آنٍ واحدٍ، إنَّ يقظَةَ المسيحيّين والإكليروس، والمناضلين في مضمار النَّشاط الاجتماعيّ الجادِّ، هي، أَيضاً، أكثرُ اتّساعًا وعُمْقًا ورُسوخًا"

غير أَنّ أَعمق أَحاديث الأب تأثيرًا كانت تلك التي خاطب بها شُبَّان الشِّيلي الَّذين احتشدوا في الجامعة الكاثوليكيّة في "سانتياغو"، مأْخوذين بسِحْر كلامه الَّذي لم تُفقِدْه الترجمةُ إلى الإسبانيّة شيئًا من بليغ وقْعه، بفضل حضور الأَب المُهَيْمن، وجاذبيَّتِه، وقُوَّةِ إِقناعه الَّتي تجتذب إِليه الجماهيرَ غفيرةً، وتُلهب نيران الحماس.

لقد أَبرز حديثُ الأَب پيير عن إِنجازات "عمّاوس" الرَّائِعة في فرنسا لأُولئِك الشُّبَّان المُتطلِّعين إِلى الخدمة الاجتماعيّة في سبيلِ رفع الحَيْف عن الأَكثر تألّمًا، واقعًا حيًّا، بل نَموذَجًا يجدُرُ احتذاؤه، كما رسم لهم صورةً جليَّةً لمستقبل العالَم، حيثُ بإمكانهم استطلاعُ وجه مُستَقبلهم. وهكذا، بعد أن اكتشفوا الشَّقاء، آن لهم أَن يتبنّوا نهجَ عَمَلٍ يُسبغُ على رسالتهم ملءَ معناها.

وقد أَخذ حديثُ الأَب پيير، على نحوٍ خاصٍّ، بمجامع قلبَيْ شابَّيْن جامعيَّيْن، هما طالب الحقوق "أوسكار برينيان" الَّذي أَتيْنا على ذكره، والَّذي كان حَدَثُ "عمّاوس" مُستَحوِذًا على كلِّ كيانه، ورفيقٍ له، طالبٍ في كُلِّيَّة طِبِّ الأسنان، يُدعى "پيپي أراڤيا"، وقد ترسَّخ لديْهما اليقينُ بأَن نشاط المُتَطوِّعين، في "سانتياغو"، على صِلَةٍ حميمةٍ ووثيقةٍ بعمل الأب پيير ورفاقه؛ ومن ثمّ، وطَّنا العزم، في أَعقاب زيارة الأَب پيير، على أَن يريا بأَعيُنهما، ويلمسا بأَيْديهما، ما يجري في فرنسا، وينْهَلا من نبع حقيقة "عمّاوس" هناك. لم يكونا ينشُدان فكرةً أو نموذجًا فحَسْبُ، بل يبتغيان اندماجًا حميمًا بروح "عمّاوس"؛ وهذه الروح تختلج في إِحدى ضواحي العاصمة الفرنسيّة، في "نويّي پليزانس".

وفي شهر تشرين الأَوّل ١٩٥٩، قَطَعا دراستَهما، وودَّعا آمال الحياة الوثيرة، الّتي من شأن ممارسة مهنَتَيْهما توفيرها، واستقلاّ قطارَ المُغامرة نحوَ المجهول، مُستعينين بالزَّهيد من المال، والقليل من العناوين الَّتي أَثبتت جدواها، ولا سيّما عنوان الأَب "خوسيه باليستا" في الأرجنتين، داعيةِ "عمّاوس" في أميركا اللاّتينيّة،

ومُؤَسِّس فروع "عمّاوس" في الأَرجنتين، الَّذي زوَّدَهُما بكتاب توْصِيةٍ، وساعدهما على استقلال باخرةٍ مُبْحِرةٍ إلى فرنسا، خِلْسةً، بالتَّواطؤ مع مرشد السَّفينةِ الرّوحيّ. إلاّ أَنّ أَمرَهما اكتُشِفَ في "ساوپاولو"، فأُجبرا على مغادرة السَّفينة؛ وقد ساعدهما شُبَّانٌ ماركسيّون على الاتّصال بدون "هيلدر كامارا"، الَّذي كانت شهرتُه قد طبَّقت البرازيل وأَميركا اللاّتينيّة، والَّذي آزرَهما على مُواصلة رحلتهما، الَّتي ما انفكَّت تتعرَّض للمفاجآت والعوائق؛ فقد رُحِّلا من البرازيل إلى المغرب، وهناكَ تَدبَّرا أَمرَهما حتّى بلغا إِسبانيا، ومنها اقتادتْهما سيّارةُ دفن موتى إلى "تويّيپ ليزانس"، حيثُ انتهيا في مطلع عام ١٩٦٠، بعد ثلاثة أَشهرٍ من المُضايقات والمغامرات.

لقد كانا يجهلان كُلَّ شَيءٍ عن مأساة الأَب پيير مع من يدَّعون إِدارةَ "عمّاوس" في معزلٍ عنه؛ ومع ذلك توفَّقا في تجسيد حُلمهما، والنَّفَاذ إلى أعماق "سرّ عمّاوس"، بإِقامتهما في مُختلِفِ الجماعات في فرنسا، وسويسرا، وبلجيكا وهولندا، بمرافقة الأَب پيير تارةً، ووحدَهما تارةً أُخرى.

وقد عاد "پيپي" إلى الشيلي، أَوّلاً، ليقود، في بلاده، جماعةً من نحو عشرين شابًّا وفتاةً، وجميعُهم في نحو العشرين من العمر، كانوا يتلمَّسون طريقَهم، إلى جوار جماعاتٍ أُخرى عاملةٍ في مضمار الخدمة الاجتماعيّة، واختاروا لأَنفسهم مقرًّا على أَرضٍ مهجورةٍ بين كنيسةٍ وقَناةٍ تجرُّ مياهَ "سانتياغو" المُلوَّثة، حيثُ كانت بعض أُسرٍ تكافح من أَجل البقاء، فوق الأَقذار، في معزلٍ عن كُلِّ شيءٍ وعن الجميع.

في تلك الأَثناء، كان "أوسكار برينيان" ماضيًا في استقراء مسيرة جماعات "عمّاوس"، في مختلف مَقَرّاتها في أُوروپا، وقد استُقبِل في منظّمة اليونسكو في جنيڤ، وفي شتّى مُنَظمات الأمم المتّحدة المُكلَّفة بالإِنماء؛ ولمّا قَفَل عائدًا إلى بلاده، ترأَس أَوّلَ جماعةٍ لعمّاوس في الشيلي وقد تأسَّست رسميًّا في أَيّار ١٩٦١، بعد أَن عقد العزم على تعليق دراسته، ووَقْفِ كُلِّ حياته وطاقاته، على أَداء رسالة "عمّاوس" الَّتي غدا عالَمُها عالَمَه، وأَحلامُها أَحلامَه، وعلى تجسيدها في الواقع الشّيليّ، بمشاركة رفاقه. وهكذا انطلقت "عمّاوس" الشّيلي بأَجنحتها الخاصّة، وقد ترسّختْ أَقدامُها على نحوٍ خاصٍّ، في سانتياغو"، حيثُ أَنشأَت مركزًا لجمع النّفايات ومعالجتها، ومرافقَ خدماتٍ مُتعدِّدة كالمستوصفات، ومراكز التَّعليم، والوِقاية الاجتماعيَّة.

ولكن، في إِثْر انقلاب الجنرال پـينوشيه، عام ١٩٧٣، بَطَشَ العَسكريّون بجميع العاملين في ميدان الخِدْمة الاجتماعيّة، وأَوْقفوا الكثيرين منهم، وحقَّقوا معهم؛ وفتّشوا أَماكن إِقامة جماعات "عمّاوس"، وسَجَنوا اثنَيْن من الرِّفاق، وأَوسعوهما تعذيبًا، واتَّهموهما بحيازة المُتفَجّرات، وهي تهمةٌ كفيلةٌ بأَن تودي بهما إِلى الإِعدام. فاستنفر جميعُ رفاق "عمّاوس" في العالَم لإِنقاذهما. وكان الأَبُ پيير عائدًا من الڤيتنام عندما أُحيط بالأَمر عِلْمًا، فقَفَزَ إِلى أَوّل طائرةٍ ميمِّمةٍ شطرَ "سانتياغو"، حيثُ ظلَّ يُحاور ويُفاوض إِلى أَن أُفرج عن الرجلَيْن وقد أَعلن، إِثْر ذلك، أَنّ "عمّاوس"، مع تبايُن جماعاتها، وأَساليب عَمَلِها، "يجب أَن تبقى مُتضامنةً في ساحة النِّضال، عَمَليَّةً، ومُخْلِصةً لالتزامها، فالحربُ على البُؤْس، والكفاحُ في سبيل العدالة هما واحدٌ في كُلِّ مكانٍ".

وقد استهدفتْ جماعاتُ "عمّاوس" في الشيلي وأَميركا اللاّتينيّة لا غَوْث المحتاجين وسدَّ حاجاتهم الطَّارئة، فحسْبُ، بل استئصال أَسباب بُؤسهم وحاجتهم، بالعمل السِّياسيّ الجَذْريّ، ولو أَدّى ذلك إِلى استخدام العُنْف الرَّامي إِلى خلق "إِنسانٍ جديدٍ، في مجتمعٍ جديدٍ".

صحيحٌ أَنَّ بيان "عمّاوس" العالَميّ، الصَّادر عام ١٩٦٩، قد مَنَح كُلَّ جماعةٍ حقَّ استخدام الوسائل المُلائمة لنِضالها وفقًا لمقتضيات الزَّمان والمكان، و"شرف إِيضاح الوسائل الخاصّة الَّتي عليها استخدامها، على أَن تضمن المحبّةُ من الجميع احترامَ بعضِهم بعضاً". غيْرَ أَنَّ لجوءَ جماعات "عمّاوس" في الشّيلي، وفي أَماكنَ أُخرى من أَميركا اللاّتينيّة كالأُوروغواي، إِلى التطرُّف، قد أَثار الجَدَل بين شتّى الجماعات في العالَم. وعلى التساؤل الّذي انبثق من ذلك الجَدَل، حول معرفة من يُحقِّقُ على أَمثَل وَجْهٍ رِسالةَ "عمّاوس" النَّبَويّة، المُحرِّضة، باسم الأَكثر تأَلّمًا: أَهم الذين يؤاسون الشقاء، أم الذين يُسهمون في النّضال من أَجل إِزالة أَسبابه، أَجاب الأب پيير: "النزْعتان معًا. فمن المُفيد جدًّا أَن تهُزَّنا تلك الأَصوات الآتية من المُتَطرِّفين، فهي عاملُ توازُنٍ أَكثر منها عاملُ تناقضٍ، ولكن بشرطٍ واحدٍ، تفقد تلك الأَصوات، في معزلٍ عنه، كلَّ قيمتها: وهو أَن يحتفظَ كُلُّ فردٍ، حتّى في أَشَدِّ التزاماته تطرُّفًا، بوضوح الرؤْية، والتَّواضُع، بحيثُ لا يذهَلُ عن مصدَر اندفاعه المُتواضِع الَّذي انطلقَ منه يومًا: كونه عضوًا في جماعة جامعي النِّفايات"

وحيالَ دُعاة الأَساليب العنيفة يُقرُّ الأَبُ پـيير أنَّ عليه "**مسؤوليّة إِقناعهم ببُطلان الاعتقاد أَنَّ العُنْفَ، وحدَه، قادرٌ على تحقيق ما يطمحون إِليه من عدالةٍ. إِنّنا نعلمُ أَنّه قد توجَدُ أَوْضاعٌ لا يُمكن التَّصدّي لها إِلاّ بأساليبَ عنيفةٍ. ولكن ينبغي أَن يكون العُنْف الملاذَ الأَخير، عندما تنعدم كلُّ الوسائل الأُخرى. وإِن اتَّضح أَنَّ العنفَ ضروريٌّ، في مرحلةٍ ما، إِلاّ أَنّه ينبغي أَن يتوَقَّف حالما يُتبيَّن أَنّه ليس الوسيلة الوحيدة. وعلينا أَن نُبرز الإِنجازات الجماعيّة، بعيشنا إِيّاها، كوسيلةٍ خاليةٍ من العُنْف متاحةٍ للفقراء كي يُحقّقوا آمالَهم في العدالة. هل أَثبتَ التاريخُ انتصارَ هذه الوسيلة بشكلٍ قاطعٍ؟ لستُ واثقًا من ذلك. فتاريخيًّا ليس الحبُّ هو صانع التَّاريخ. ولكنَّ الحبَّ جَعَلَ من المُستحيل إِفناءَ الحياة. ورِسالةُ "عمّاوس" سابقةٌ للعَمَل السِّياسيّ، فهي تكتشف مُتَطلِّبات العَدْل، وتُطْلِعُ الآخرين عليها في سبيل تحقيقها. ورسالة "عمّاوس" مُتمِّمةٌ للعَمَل السِّياسيّ الَّذي يفتقر أَبدًا إِلى مؤازرة الحبّ، تلك الشَّريعة الَّتي لن يستطيع أَيُّ عملٍ سياسيٍّ، حتّى الأَفضل، ادِّعاء تحقيقها**"

وقد أَثبتت جماعاتُ "عمّاوس" الشيلي وفاءَها لأَهداف "عمّاوس" الأَصيلة. ففي غَمْرة الحُكم العسكريّ، أُنشِئَتْ جماعتان جديدتان إِلى جانب الجماعتَيْن القائمتَيْن. إِحداهما نشأَت في مدينة "كونسپسيون"، عام ١٩٧٧، في حيٍّ فقيرٍ، لاستقبال العاطلين عن العمَل والهامشيّين الَّذين كان عددُهم آخذًا في التَّفاقُم، وتصدَّت لمعالجة الآفات الماضية في الشُّيوع: كالمجاعة الَّتي انتشرت في سنوات الازدهار الاقتصاديّ المُنْفَلِت أكثر منها في أَيّ عهدٍ آخر؛ والنَّقْص الغذائيِّ لدى أَطفال الفقراء، والوضع الصِّحّيِّ المُريع لدى سواد السُّكّان، والإِهمال المُطْلَق الَّذي كان مصيرَ العاطلين عن العَمَل والمُشرَّدين. وفي هذا السَّبيل دأَبتْ جماعةُ "عمّاوس" على التَّثقيف الأساسيّ، والتوعيةِ الصِّحِّيَّة، والتدريبِ على كلّ وسائل كسْب العيش كجمع النّفايات ومقايضتها بالموادِّ الأَساسيّة.

أَمّا جماعة "عمّاوس" الأُخرى التي نبتت عام ١٩٨٠ في منطقة "تالكا" الرِّيفيَّة، فقد أَوْلتْ الرِّعاية الصِّحِّيَّة جُلَّ اهتمامها. وحيثُما قامت لعمّاوس جماعاتٌ، ساندت تلك الجماعاتُ مُبادراتِ الفقراء، والمُنظمات الإِنسانيّة القائمة، وعمَّمت وسائلها الخاصَّة

المُتمثّلة في جَمع النِّفايات ومعالجتها، مُؤَكِّدةً أَنّ "جماعات جامعي النفايات، والعمل الاجتماعيّ مترادفان"

بالإِجمال، لم تُغْفِلْ جماعات "عمّاوس" في الشّيلي شيئًا من المُحرّكَات الَّتي حدثْها عِنْدَمَا رأَت النّور في تلك البلاد، لأَربعة عقود خَلَتْ، رغم "المُناخ السِّياسيّ والاقتصاديّ الثَّقيل الوَطْءِ" السَّائدِ هناك: مساعداتٌ طارئةٌ، وتوعيةٌ، وتنظيمٌ، وتأهيلٌ إنسانيٌّ، من خلال التَّجارب الجماعيّة؛ وفوقَ كُلِّ ذلك، شريعة الحُبّ الَّتي تُسبغ على كُلِّ تلك الجهود، مغزًى عميقًا وهدَفًا أَسمى؛ وهي ما زالت ماضيةً، بعنادٍ، نحو مُستقبلٍ أكثرَ إشراقًا للمحرومين.

وقد حيَّت الهيئَةُ العامَّةُ لعمّاوس الدَّوْليّة المُلتئمة عام ١٩٨٨ في "ڤيرونا" بإيطاليا، وعام ١٩٩٢ في "كولونيا" بألمانيا، تلكَ الجُهود. وقد جاءَتها أَثمنُ تحيّةٍ من الأَبِ پيير الذي قال:

« هذه الجماعات صامدةٌ منذُ أَربعين عامًا، مع أَنَّ كُلَّ العوامل، حَسَب المَنْطِق، كانتْ مُتَوفِّرةً لتحطيمها، كُلَّ يومٍ. قد يبدو هذا الواقع مُخالفًا للمَنْطق، بل قد يبدو لغْزًا، ولكنَّه يُلبّي حاجةً، ولذلك أَقول لكم: استمرّوا وكونوا أَنفُسَكم، فالعالَم في حاجةٍ قصوى لوُجودِكم ».

"عمّاوس الــپــيرو"

عددُ سُكّان "البارياداس"، أَي قُرى الصَّفيح، في العاصمة ليما، يُناهز مئةً وعشرين ألفًا، مُعْظَمُهم من الهُنود الحمر، قاطني الجبال، الَّذين غشوا مُدُن الشَّاطئ بحثًا عن عملٍ. والجديرُ بذكره أَنّ الپيرو الغنيّةَ بمعادنها وزراعتها، ما زالتْ تُخضِع حوالي نصف مواطنيها لنظامٍ إقطاعيٍّ جائرٍ. فالدّستور يمنح حقّ الاقتراع مبدئيًّا، لجميع المواطنين، عدا الأُمّيِّين منهم، وثلاثةُ أَرباع الهنود الحمر من الأُميّين.

وعلى مرمى حجرٍ من "البارياداس"، حيث تقبع أَقصى دَرَكات الشَّقاء، تُبْرزُ فئةٌ ضئيلةٌ من كبار الملاّكين، في صلَفٍ وَقِحٍ، ثرواتِها الفادحة، في قصورها المرمريّة، ودار اتها المُرَصَّعة بالذَّهب. ولكأَنَّ مَثَلَ الغنيِّ ولعازَرَ الفقير ماثلٌ، هناك، حيًّا.

في صميم جحيم "البارياداس" ذاك، وفي أَحضان بُؤْسه المُدْقِع، كرَّس الأَبُ

"جيرار پروتان" ذاتَه "للثورة والحبّ". وقد حَسَرَ النِّقابَ عن سرّ رسالته بقوله: "لسنا في حاجةٍ إلى تغيير الأسماك، بل إلى تغيير الماءِ الَّذي تسبح فيه".

فطوالَ ستِّ سنوات، منذُ عام ١٩٥٦ وحتّى ١٩٦١، انغمسَ الأَب "پروتان" في واحدةٍ من قُرى البُؤْس تلك التي تُعطي انطباعًا بأَنَّها بُنيت مؤقَّتًا وعلى عَجَلٍ، إثر كارثةٍ مُدَمّرة؛ وهي، غالبًا، مجموعة أكواخٍ لا تتعدّى مساحةُ واحدها اثني عشر مترًا مربّعًا، حيثُ يتكدّس عشوائيًّا الوالدون والأبناء الَّذين يُزَجُّون ساعات النَّهار على ضفاف السَّاقية، في حَوْمَة العنف، ويقضون ليلهم في اختلاطٍ وبيلٍ، فيصبحون ضحايا الإملاق المادّيّ، والأَلَم النَّفسيِّ المتلازِمَيْن تلازُمًا وثيقَ العُرَى. ثمّةَ، لا معنى للرّفاه أو لانعدامه، فالهمُّ الطَّاغي هو تأمين الطَّعام براتب الأَب الهزيل؛ وبالتَّالي، يتبوّأ الجوعُ المركز الأوّل في سلّم المعاناة، لأَنّ البُؤْس المادّيّ يولِّد الانهيارَ الصِّحِّيّ الَّذي يدفع بالجَسد إلى الوهَن والعِلَل، وهذه بدَوْرِها تُولِّد أَقسى صنوف البُؤْس والقُنوط.

وبعَيْشه فقرَ جموع البائسين، اكتشف الأَب "پروتان" كُلَّ ما يُلحقه الافتقار إلى الغذاءِ، والعنايةِ الصِّحِّيَّة والتَّعَلُّم، من حرمانٍ للفكر والروح، وأَقرّ "أَنّ الثقافة لا يسعها أن تكون ثروةً لمن لا يملكون كفايةً للعيش". فالرَّاحةُ، لهم، مُتَعذِّرةٌ، والأُلْفةُ، لديهم، لا أثر لها في تلك السَّراديب من البُيوت المتشابهة، حيثُ لا مَناظِرَ ولا خُضرةَ... فمن ذا الذي لا يتوق إلى الفِرار بحثًا عن الأُوكسيجين والشِّعْر؟". غير أَنَّ "البارياداس" جحيمٌ مغلقٌ، حيثُ الشَّقاء يُولِّد لدى البشر ما يُولِّده لدى الحيوانات: الكراهية، والصِّراع الشّرس، من أَجل البقاء. فالنَّاس، ثمّة، يتعايشون بلا حُبٍّ، ويجتمعون كي يُدمِّر بعضُهم بعضًا. وحدها الحاجةُ تجمعُهم وتربطهم، ولكنّها تنبُذ المحبَّة، وتُحيلُ التّآلفَ إلى مُجرّد تضامن قبائل تُمزّق إحداها الأُخرى.

لقد كابد الأَب "پروتان"، في أَعماقه، ذلك الأَلَم الَّذي يُغذّي شتَّى الرَّذائل الناجمة عن "السُّكْر، والحقد والحسد... أَلَمٌ نَفْسيٌّ يقاسيه مُجتَمعٌ لا يُلاقي من الآخرين سوى ضربٍ من الشَّفَقة الوبيلة، والازدراء البيِّن، واللامبالاة القاسية"، وقاسى ما يقاسيه ألوف الهنودَ من "عذاب الأَلَم الجهنّمي"، الأَلَم الملازم، والَّذي لا يلوح لشفائه أملٌ. لقد قاسمهم أَفراحهم، واشترك في احتفالاتهم، واحتمل لغَطَهم، واستمع إلى مهاتراتهم، وغالبًا ما اعترف: "إِنّني أَفشلُ وأُعيد الكرَّة، فالجحيم هو انعدام الرَّجاء"

أَمَّا أُولئك البائسون فكانوا يعيشون في جحيمٍ، لأَنّهم استسلموا لقَدَر البُؤْس! لذلك الواقع الأَليم تصدَّى الأَب "پــروتان"، وشقيقُه الكاهن "پــول"، ورئيسُ أســاقفة ليمــا المطران "لاندا زورّي"، مستلهمين الأَب پــيير، ومُتَمِّمين ما كان قد شَرَعَ بــه فــي مطلع الخمسينات صديقُ الأَب پــيير، الأَب "ليبريه"، مؤسِّس جماعــات "الاقتــصاد الإِنسانيّ "من برامج غَوْثٍ، ودراساتٍ، ومساعدةٍ على الإِنماء، مــضطلعين برســالة تثقيفٍ، وعَوْنٍ فنّيٍّ واجتماعيٍّ.

وعندما زار الأَبُ پــيير ليما، في شهر آب ١٩٥٩، صارَح الأَغنياءَ بــواقعهم، وقد كتبت الصُّحُف: "لقد دان مُستغلّي البَشَر، ولكنَّ هؤُلاء ماضون فــي غــيّهم... لا يسوغ لأَحدٍ أَن يعيش هانئًا في الــپــيرو، طالما ظلَّ ثلاثةُ أَرباع الــسُّكَّان فريــسةَ البُؤْس. لقد تكلَّم الأَبُ پــيير أَمام الجماهير، ولكنَّ شبّان الطَّبَقات الميسورة وفتيانِهــا لم يأتوا ليسمعوا، ففوَّتوا على ذواتهم ذلك الموعدَ مع الحقيقة، في حين كانت الرِّسالةُ مُوَجَّهةً إليهم. الرَّغبةُ الوحيدة التي تُراوِدُهم هي الفِرار إِلى مرابع التَّرَف. وهم بذلك يرتكبون خطيئةً بحقّ الرُّوح والحبّ".

وقد توافقت زيارةُ الأَب پــيير للــپــيرو مع وقْف نشاط الأَب "ليبريه" هنــاك، تحتَ ضُغوط السُّلطات وتواطُؤ الدِّيبلوماسيّين الفرنسيّين. وقــد فــضحت صــحيفة "الحرّيّة" تلك المؤامرة فكتبت: "پــيير وليبريه كلاهما ثَوْريٌّ". وقد طَرَدَ رأْســماليّونا الأَبَ ليبريه، واستقبلوا الأَبَ پــيير في كثيرٍ من الضَّجيج، وقد تخيّلوا فيهما قُطْبَــيْن مُتَصارعَيْن، يعملان في الكنيسة لصالح العدالة الاجتماعيّة، وزعمــوا أَنّــه يُمكــن موازنة ليبريه القريب من الشُّيوعيّة، بالمحبّة والعَطْف المسيحيَّيْن اللّــذَيْن يُجــسِّدُهما الأَب پــيير، إِذ إِنّه من الأَيسر ممارسة المحبّة من ممارسة العدالة! غير أَنَّ المفاجأةَ كانت جسيمةً! فذلك الكاهن الهزيل، الدَّمِث، قد تكلَّم، على غرار الأَب "ليبريه"، عــن مهزلة المالكين الكُبرى، وحذَّرَهم كما فعل "ليبريه"، من الخَطَر الجمِّ المُحْدِق بهم".

وكان الأَب پــيير، أَثناءَ زيارةٍ سابقةٍ له إِلى السُّويد، قد أَلهب اندفاع فئــةٍ مــن الشبّان الَّذين تطوَّعوا لإِغاثة فُقَراء العالَم الثَّالث، وأَلّفوا، لهذه الغاية، فريق "السنونو". وقد طارت بضع من تلك "السنونوات" إِلى ليما وعملنَ إِلى جانب "پــروتان"، بهــديٍ من شعارات عمَّاوس ومثالها، وهكذا، وُلــدت، رســميًّا، عــام ١٩٥٩، "عمَّــاوس

الـــپـيرو"، مُتَمِّمةً "رسالة ليما"، الَّتي كان قد أَنشأَها الأَبُ "پـــروتان" ورفاقُه.

وقد وَصَفَتْ إحدى المُتَطوِّعات السُّويديّات ما شاهدتْه هناك، فكتبت: "على بُعْـد نحو كيلومترٍ من الطَّريق العامّ، يرتفع جبل الأَقذار: "المونتي". علَــى قِمَّتِــهِ مئـــاتُ الخنازير والحميرِ والخيول الَّتي تنبُش القاذورات بَحْثًا عمَّا تأْكُله. ووَسْطَ هذه البهائم، ولكن أَوفر منها عددًا، انتشر فُقَراء المدينة، من فِتيانٍ، ونساءٍ، ورجالٍ حافي الأَقــدام التي قرّحتْها الأَقذارُ الحارقة... عندما تأتي الشَّاحنات بحمولاتها القَــذِرة، الـــسَّاطعة بالرَّوائح الكريهة، يتهافتُ الجميعُ لانتشال ما يُمكن اطّعامه أَو بيعُه، ممّا رماه أَغنياءُ المدينة. إِنّه لمنظرٌ مريعٌ!

« إنّ جوّ جَبَل الأَقذار قاسٍ، خبيثٌ ووحشيٌّ. الطَّعام هو الهمُّ الرئيس، وكلّ مـــا سواه، لا شأن له. العُنْف المريع يبلغ هنا ذُروتَه... والشَّقاء يتفاقم كلَّ يومٍ...

"ليس لنا طاقةٌ على مقاومة ما يجري. لقد شخصنا إِلى الجبل حيثُ اعترانا الهَلَع والتقزُّز. فقد خُيِّل إِلينا أَنَّ كلَّ خُبْثِ العالَم مُرَكَّزٌ هناك... »

عند أَقدام ذلك الجَبَل، ينبسط مُستَنْقَعُ بُؤْس يتمرَّغُ في حمأَته نحو عشرةٍ بالمئة من سُكّان ليما. وفي ذلك الجحيم الحقيقيّ سجن الأَبُ "پـــروتان" نفسه عاملاً بـــوحيٍ مـــن روح عمل الأَب پــيير، جاهدًا في منح الفُقَراء الحدَّ الأَدنى من الاستقلال الاقتصاديّ، بفضل العمل الجماعيّ، وهدفُه الأوّل إِحياء الأَمَل في نفوسٍ قضى عليها الفَقر. وحولَ الأَب "پـــروتان" التفَّ نحوُ عشرين مُتَطوّعًا من سُكّان المنطقة، بالإِضافة إِلـــى شُـــبّانٍ وشابّاتٍ من السُّويدِ وكندا، كانوا قد هُرِعوا تلبيةً لنداء الأَب پـــيير.

وتمضي المُتَطوِّعةُ السُّويديّة في تقريرها فتقول: "يسكن الأَب "پـــروتان" علـــى مقربةٍ من جبل الأَقذار، حيثُ ابتنى مُصلًّى صغيرًا، ومكانًا لفَرْز النّفايـــات، وغُرفَـــةً تُستَخْدَم، في آنٍ واحد، مطبخًا وقاعَة طعامٍ، وغرفتَـــه الخاصّـــة... عـــددُنا يُنـــاهز العشرين، ومعظمُ المُتَطوِّعين قادمون من "الباريا داس"، حيثُ أَمضوا فتـــرةَ شـــبابٍ كئيبةً. مُهِمَّةُ الفتيات أَن يمضين اثنتَيْن اثنتَيْن إِلى "الباريا داس"، بحثًا عن الأُسَر الأَكثر حاجةً إِلى المساعدة. ولهُنَّ مُهمَّةٌ أُخرى، تتمثَّل في إِصلاح الثِّياب التي حصل عليهـــا جامعو النفايات...

« قد يُظنّ أَن لا جدوى من عملنا، فنحن قِلَّةٌ نتصدّى لبُؤْسٍ جمّ، بوسائل مفرطة التَّواضع. غير أَنّ الَّذين نساعدهم، مع ذلك راضون. فأَصغَرُ الأشياء يرتــدي شـــأنًا عظيمًا في نَظَر أُولئك الَّذين لا يمتلكون شيئًا.

أَمَّا الأَبُ "پــروتان"، فقد كتب: "إِنَّ اندماج فتاتَيْن سويديَّتَيْن وأُخرى كنديّةٍ فـــي حياة "البارياداس" ليس بالأَمر الضئيل في تاريخ المحبّة. هذه هي "عمّاوس": احتـــرامُ كرامةِ الفقير ».

وفي العطاء الحقِّ كَتَب: "نحن لم نَهَبْ ذواتِنا بعدُ، ولم نقبل، يومًا، عطيّـــةً مـــن أَحدٍ، لزَعْمنا أنْ ليس للآخرين ما يهبوننا. ما نفتقر إليه هو وُجهةُ نظـــر الآخـــرين، واحترامُ قِيَمهم، والاتِّصالُ الحميم بهم، وحضورُنا، والالتزام الذاتيّ".

وفي مواجهة الاستعمار الجديد الَّذي يسلُبُ العالَم الثَّالثَ خيراتِه، تحـــت ســـتار مساعدته، و"مسكِّنات" حملات الإحسان، دعا الأَبُ "پـــروتان" إلى تحويـــلٍ جـــذريٍّ للنُّظم الاقتصاديّة بُغيةَ جعلها أكثرَ إخاءً وعدلاً.

وقد اتَّضح له أَنّ "عمّاوس" هي مَلامةٌ دائمةٌ لمن يعيشون في بحبوحـــة، وهـــذه المَلامة قد قسمت الطّبقة المالكة. ولم يبقَ لفئة من يرفضون الحقيقة، مع أَنّهـــا تفقـــأُ عيونَهم، سوى وسيلةٍ واحدةٍ "إِخراس عمّاوس".

"إِخراس عمّاوس": هذا ما دأَبتْ على تحقيقه السُّلُطات المدنيّة، وسُلطات الكنيسة المَحلّيّة معًا، وقد توجّست جميعُها خشْيةً من عناد الأَب "پـــروتان" في جهوده لغَوْث البائسين، وإِيقاظ الأَذهان والضَّمائر؛ وقد تفادت تلكَ السُّلطات تدمير "عمّاوس" علَنًا، بل عمدتْ إلى قطع رأْسها المتمثّل في الأب "پـــروتان"، الَّذي أَفلحت في طَرْدِه مـــن الـــپـيرو، في تموز من عام ١٩٦١.

غير أَنّ "عمّاوس" لم تمُتْ، بل واصلتْ نضالَها في سبيل الحثّ على مَنْح الذّات، حتّى في أكثر الأَوساط انغلاقًا دون الـــسَّخاء، وذلـــك بفـــضل إيمـــان المُتَطـــوِّعين السكنديناڤـــيّين، الَّذي أَثبت أَنّه أَقوى من المؤامرات، وقادرٌ على زحزحـــة الجبـــال، ولو كانت مُثقَلةً بالأَقذار، وعلى إِبقاء صَوْت "عمّاوس"، مُجلْجلاً، مُدَوِّيًا.

ولكنَّ المُتَطوِّعين السكنديناڤـــيّين اصطدموا بعقَبةٍ كأداء، مُتَمثِّلةٍ في تقاعُس أَهل الـــپـيرو أَنفسهم عن استنهاض "كتيبةٍ لمكافحة البؤس" من صُـــلبهم، بحيـــثُ لقـــي

"الطّعم السُّويديّ" مشقَّةً كُبرى في عقد علاقةٍ حقَّةٍ حميمةٍ مع الفُقَراء الَّذين عكف على غَوْثهم. وقد اقتضى إِصلاح ذلك الخَلَل نحوَ عشرين سنةً قبل الوُصول بعمّاوس الـﭙـيرو إلى حيث وصلَتْ "عمّاوس" "سان مارتان"، في الأَرجنتين، تِلْقائيًّا.

"عمّاوس" في البرازيل

عامَ ١٩٥٩، كان "دون هيلدر كامارا"، مُساعِدُ أُسقف "ريودي جانيرو" قد أَمسى أَسطورةً في أَوساط البائسين، وسُرعانَ ما سيغدو النَّاطقَ باسمهم على امتداد أَرجاءِ أَميركا اللاتينيّة.

قامةٌ ضئيلةٌ، ومَظْهَرٌ مُغرِقٌ في البساطة يُحاكي بهما "خوري أَرس"؛ ذكاءٌ حادٌّ، وطيبةٌ مُتَناهيةٌ مُوظَّفان بأَكملهما في خدمَة الفقراء، وإِرادةٌ صلبةٌ صيغتْ في بوتقة المُطْلَق.

كان قد سيم كاهنًا وهو في الثانية والعشرين من عمره، واختصّ في التَّربية، إلاّ أَنّه سُرعانَ ما اكتشف رسالته في "الفاڤـيلاَّس"، أكواخ البُؤْس المُحيقَة بتلال الريو، حيثُ كدَّسَ الانفجارُ السّكَّانيُّ، وهجرةُ الرِّيفيّين الَّذين اجتذبهم سَرابُ تصنيعٍ عشوائيٍّ، أكوامًا من البُؤْس المُريع، على حواشي المدينة.

وفي الأَربعينات أَصبحَ "دون هيلدر كامارا" الذَّائدَ عن حِياضِ أُولئك المسحوقين المُهْمَلين، ورسولَ الفُقَراء، ورمزًا لالتزام الكنيسة إِلى جانب المحرومين.

كان سُكّان "فاڤـيلاّس" الريو يعيشون في مُستَنْقعٍ موبوءٍ، فقام "دون هيلدر كامارا"، مع مُتَطَوِّعيه بتَجْفيفه، بعدَ تجريد التِّلال المُحيقةِ به، فإِذا به يغدو أَرضًا صِحِّيَّةً تُغري المستثمرين العقاريّين، ولا سيّما بعد أَن جعَلَها تَوَسُّعُ المدينة الجامحُ مَوْقعًا مُمَيَّزًا للبناء، وارتقى ثمنُها إلى قِمَمٍ مُذْهِلةٍ، فاحتفظ "دون هيلدر" بجزءٍ منها لفُقَرائه، وباع جزءًا آخَر استخدم ثمنه لبناء مئات المساكن في المدينة للمُشَرَّدين المفتقِرين إلى مأْوى.

وكان "دون هيلدر كامارا" هو الَّذي نظَّم مع الأَب "خوسّيه باليستا" زيارةَ الأب ﭙـيير إِلى أَميركا اللاّتينيّة، وأَسْهَمَ في تمويل نَفَقاتها. وعندما التقى الرَّجُلان في تمّوز ١٩٥٩، امتدَّ بينهما الحديثُ وتشعَّب، ودوَّن الأَبُ ﭙـيير في مذكّراته: "يا لَهُ من إِنسانٍ

قِدّيسٍ وفاعِلٍ! هذا اللِّقاءُ الَّذي يتَعذَّر وصْفُ جدواه، سيظَلُّ محفورًا في أَعماقي، كحَدَثٍ هامٍّ في حياتي. لقد خُيِّل إِليَّ أَنّني أُقابِلُ "خوري أَرس"، وقد أَمسى أُسقفًا، وجديرًا بالأسقفيّة".

لقد وَجَدَ كُلٌّ منهما في الآخر صِنْوًا، ورفيقَ نضالٍ. وأَثناء زيارة الأَب پيير إلى الريّو أَطلق "دون هيلدر كامارا" مشروع "بنك العناية الإلهيّة" الَّذي أَتمّ دراسته بالتعاوُن مع مُؤَسِّس عمّاوس، وهو بنكٌ للفُقراء تُموِّله الهِباتُ والتبرّعاتُ، وثمارُ العَمَل، ورَيع "معرض العناية الإلهيّة" السَّنَوِيِّ الضَّخْم، ويُقَدِّمُ القروضَ للفُقَراء، ولمُؤَسَّساتِ الخِدْمات الاجتماعيّة، ويستدرُّ السَّخاءَ من أَجل إِعادة توزيع الثَّروات لصالح المحرومين.

وهكذا، بدا "دون هيلدر كامارا"، في مطلع الستِّينات، مُحرِّضاً خَطِرًا في نظر الَّذين رأَوا سُلطانَهم مُهَدَّدًا بما أَثاره من مُطالبةٍ بالعدالة الاجتماعيَّة وتجاوبت له أَصداءُ واسعةٌ في كلٍّ من البرازيل، وسائر بلدان أَميركا اللاتينيّة، والعالم الثالث. أَمّا في نظر الأَكثر تأَلُّمًا، حاملي رجاءٍ جديدٍ لعالَمٍ أَوفر عدلاً، فكان تجسيدًا لنضالهم، والنَّبيَّ النّاطق باسمهم، نبيًّا أَفلح التحرُّر من جميع حبائل السّياسيّين، الَّذين جَهدوا وفَشِلوا في استقطابه واستغلال اسمه، إِلاّ أَنّه أَبى الوزارةَ وكلَّ مَنْصِبٍ رفيعٍ آخَر، وظلَّ مَثار خوفٍ لدى الدّكتاتوريّين، وهَدَفًا لنقمة العسكريّين، ومع ذلك، ثابت الجنان، ماضيًا بلا هوادة، في نضاله لنَجْدة المقهورين، وإِيقاظِ الضَّمائِر.

وفي تمّوز ١٩٥٩ كان "دون هيلدر" دليلَ الأَب پيير عبرَ مدينة الريو الشّاسعة المزدحمة حيثُ تتركَّز وتتجلّى كلُّ الآلام الَّتي تُعانيها البلاد؛ ومن اجتماعٍ إِلى اجتماعٍ، كان يُتَرجم بلا ملَلٍ، رسالتَه لعشرات أُلوف البائسين، والمسؤولين السِّياسيّين، والأَساقفة والكهنة، مردِّدًا أَقوالَه بلُغتهم:

« كيف يَسَعُكم تخيُّل أَن يستمرّ طويلاً ما يستأْهِلُ أَن يُدعى مهزلةً: أَناقةٌ وترَفٌ لدى فئةٍ من البشر تَدَّعي تمثيلَ أُمَّة، في حين أَنَّ سبعين بالمئة من أَفراد تلك الأُمّة ليسوا شيئًا، بل ليسوا بَشَرًا، ومحكومٌ عليهم باليَأْس.

"قد يُقال: "ما أَطيبَهم، وما أَودَعَهم، وما أَشدَّهم دماثةً!" ولكن لا يسوغُ لكم الاعتقادُ بأَنّهم سيظَلّون، طويلاً، على هذه الوداعة والدَّماثة. وسيأْتي يومٌ يحقُّ لهم فيه

أَن يُفَكِّروا أَنّ طُغيان عددهم يُؤَهِّلُهم للسَّيطرة، وأَنّ الواجب يفرض عليهم أن ينهضوا لكيلا يظلَّ أَبناؤُهم يتأَلَّمون، على نحو ما يرونهم يتأَلَّمون الآن.

"ذاتَ يومٍ، قال لي أَحدُ الرّفاق من جامعي النفايات البائسين: "أَبتِ، نحن نعيش في عِصْمَةٍ من الخطأ" فسأَلتُه: "ماذا تعني؟" فأَجاب: "عجبًا، أَلم تدرك؟ إنَّ أَيّ إِنسانٍ، إِن كان مناضلاً يمينيًّا أَو يساريًّا، وما لم يكن أَحمق، لا بدّ أَن يواجه فَتَرات شكٍّ يتساءَل فيها إِن لم يكن مُخْطئًا في هذا الأَمر أَو ذاك. ولكن عندنا، عندما نحن نقضي نهارَنا في بناء منازلَ لأَمَّهاتٍ لا مأوى لهنّ، فنحن موقنون بأَن لا سبيلَ إِلى وقوعنِا في الخطأ"

"فهل أَنتم قادرون على تقديم ذواتِكم لمثْل هذا التَّطوُّع؟

"هل بوِسْعِكم، بين شُبّانٍ مخطوبين، أَن يقولَ أَحدُكم لرفيقِه: "انتظرني سنةً أو سنتين، فالحرب معلنةٌ، وعليّ الانضواء في صفوف مقاتليها. إِنَّها الحربُ على البُؤْس؟ »

وفي تلك اللَّيلة التي أَطلق فيها نداءَه ذاك، جفاه النَّوْمُ، في دير الدومينكيّين حيثُ كان يُقيم، وقد انبسط أَمامه شاطئُ الريو المترامي الأَطراف الّذي هَيْمَن علَيه سكونٌ عَميقٌ ساحرٌ، فخرج، ومشى، تحت جنْح اللَّيْل، على امتداد الشَّاطئ الرَّائع، مشى طويلاً، وبكى وحيدًا؛ لقد ذَهِل عن كُلِّ ما أُحيط به من تمجيدٍ وتكريمٍ، ونسيَ أَنّه الأَب پيير رسولُ المَحرومين، ونبيّ الفُقَراء، ومُحاوِرُ الرُّؤَساء والعُظماء، وعاد هنري غرويس المُلتَهِبَ شَغَفًا بالمُطْلَق، الرَّاهب الكبّوشيّ العائش في الخفاء، عاد رجلاً وحيدًا، مُتعبًا، يبكي، ويُصلّي، ولا يجد إِلى النَّوْم سبيلاً.

وفي اليوم التَّالي، بعدَ أَن غادر الأَب البرازيل، تولّى "دون هيلدر كامارا" عبر شاشة التلفزيون، نشر ندائه إِلى التطوّع من أَجل الحرب على البؤس، فاستجاب للنّداء أُلوف الشبّان، "شبّانٌ قد يرتكبون الهفوات، وهم يتلمّسون دربهم، وقد يطول بحثهم، غير أَنّه من المحقَّق أَنّ شيئًا كان قد بدأ"، وأَنّ بذور عمّاوس قد أُلقيت في تربة البرازيل المهيّأة لاحتضانها وإِنمائها.

وعندما عُيِّن "دون هيلدر كامارا" رئيسَ أَساقفةٍ لمدينة "ريسيف"، التمس من الأَب پيير أَن يُنْفِذ إِليه مُتَطوِّعًا يتَميَّزُ بشِدَّة المِراس والخِبْرة، لمواصلة ما كان هو قد

شرَعَ به في الريّو، وهي مُهمَّةٌ تقتضي، ولا رَيْب، "دعوةً خاصّةً". ولم يجد الأَب پيير من ينتدبه لتلك المُهمّة الجسيمة خيرًا من "جان إِيف أليشون"، أَحد أَقطاب "عمّاوس" في فرنسا، قائد جماعة "پونتو"، وزعيم البنّائين، والَّذي كان أَوّلَ من نبذْتَهم إِدارة "عمّاوس" الجديدة، أَثناءَ مرض الأَب پيير؛ وقد رأى فيه الرَّجُل القويَّ القادر على إِطلاق "عمّاوس" في الريو، في إِطار نشاطات "بنك العناية الإلهيّة".

وقد استقرّ "جان إِيف" مع أُسرته في الريّو، عام ١٩٦٣، ومُذّاك لم يغادرْها سوى مرَّةٍ واحدةٍ، ولأَيّامٍ معدوداتٍ، من أَجْل عيادة أَخيه المُحتَضر في فرنسا. وقد خاض مغامرةً جديدةً، في البرازيل، مستوحاةً من مغامرات "عمّاوس"، ولكنّها من نَمَطٍ خاصٍّ، في بلدٍ يجيش بالاضطراب، ويُحَطِّم جميع الأَرقام القياسيَّة في عدَد الجرائم. ففي الأسبوع الَّذي وصلَ فيه إلى الريو، وقعتْ سبع عشْرةَ جريمةَ قتلٍ، في حيٍّ فقيرٍ واحد.

ومُنذُ وصوله، أَعلن "جان إِيف": « إِنّني لم آتِ كي أُلقي دُروسًا، بل لكي أَعيشَ اختبارًا". وقد شَرَعَ بتأسيس جماعةٍ صغيرةٍ لجمع النِّفايات على غرار جماعات "عمّاوس"، ولكنَّه سُرعانَ ما تبيّن عَدَم ملاءَمتها لأَوضاع الريو، وقرَّر: "لن تكون "عمّاوس" أَبدًا مُؤَسَّسةً خيريّةً. ففي "عمّاوس"، نحن لا نعطي، بل نقتضي من الإِنسان أَن يبذُل ».

"ليست "عمّاوس" اندفاعَ شفَقَةٍ تجعلُنا نرقد إلى جانب البائس ونشاركه البكاء". فواقع "الفافيلاس" لا يتمثّل فقَط في البُؤْس، والهامشيّةِ، والكُحول والمُخَدِّرات، والتَّسَوُّل، والتَّشرُّد، بل أَيضاً في العنف والجريمة والسِّجْن، والتَّأهيل لحياةٍ مستقيمةٍ يبدو مستحيلاً. وسُرْعانَ ما أَدرك "جان ايف" أَنّ الوضعَ الخاصّ الَّذي يواجهه لا يمكن معالجته بأساليب "عمّاوس" التقليديّة. وبفضل الحُرِّيّة المادِّيَّة الَّتي كان يوفّرها له بنك العناية، وحرِّيَّة المبادرة التي طُبع عليها، اختارَ العَملَ على إِقالة عثار الجانحين، وانتقى من البائسين الفئةَ الأَشدَّ عُتُوًّا، وقَسْوةً واستهتارًا، وفي آنٍ واحدٍ، الأَشدَّ مرارةً ويأْسًا، وجعل من "عمّاوس" في الريو مركزًا لإِعادة تأهيل المساجين أَثناءَ فترة توقيفهم، أَو بعدَ الإِفراج عنهم. ووفاءً لمبادئه أَنشأ لهم "مكانًا" يلقَوْن فيه

التفَهُّم، والمساعدةَ، والحُبّ، لا بصفتهم مُذْنبين، منبوذين، بل بصفتهم بَشَرًا يتوقّع منهم الآخرون خيْرًا، ويُطلب منهم نسيانُ الماضي، والانْبعاثُ على حياةٍ جديدة. وهو موقنٌ أنَّ ازدهار "عمّاوس"، هناك، مرهونٌ بالنِّظام، والانضباط، والعمل الجادّ، "على أن تُمارَس جميعُها بعنادٍ، وعلى أَمَدٍ طويل"

ولم يَعزِفْ "جان ايف"، يومًا، عن شعاره: البناء، البناء معًا، الَّذي جعل منه زعيمًا للبَنّائين. وقد باشرَ نشاطه الجديد في الريو، عام ١٩٦٣، مع جماعةٍ ضئيلةِ العدد، كانتْ تُقيم في تخشيبةٍ فوقَ الوَحْل والحجارة، إلى جوار مرمى أَقْذار. وما مضتْ خمسَ عشْرةَ سنةً حتّى غدا المكانُ مُعَسْكرًا فسيحًا، يقيم فيه فريقُ عملٍ مُؤَلَّفٌ من ثماني مئة رفيقٍ، ويخفُق عليه جَنْبًا إلى جنبٍ العَلَمُ البرازيليّ، وعلَمُ عمّاوس، فوق مجموعةٍ من الأَبنية الحديثة المبنيّة وفق هندسةٍ مُحْكَمة، تؤَدّي أَفضل الخِدْمات، تضمُّ مساكنَ، ومكاتبَ، ومشفى، ووَرْشاتٍ عديدةً لتلقين أكثر من عشر مِهَنٍ مختلفة، ومَطْعَمًا جماعيًّا، وحدائق. وخلال تلك السنوات الخمسَ عَشْرة مرَّ بالمركز ثلاثةٌ وأَربعون أَلفَ محكومٍ، لقوا فيه العنايةَ، وتأَهَّلوا لحياةٍ جديدةٍ، بعد أَن تلقَّنوا مِهْنةً، وتزوَّدوا بمُثُلٍ تقودُهم على دُروب الحياة القويمة.

ومن البَدَهيّ أَنّ مثل ذلك المركز لم يكن قادرًا على تمويل نفسه بنفسه، فاعتمد اعتمادًا أَساسيًّا على تمويل بنك العناية؛ ولم يكن يمتلك أو يُنتج مواردَ لمُساعدة الأَكثر حرمانًا، وفقًا لمبادئ "عمّاوس"، فوجَّه جُلّ اهتمامه إلى استقبال المجرمين والجانحين وإِعادة تأْهيلهم. غيرَ أَنّ الحكومةَ البرازيليَّة رأَتْ فيه، أَخيرًا، مشروعًا ذا نفْعٍ عامٍّ، ومركزًا تأديبيًّا رائدًا، و"سجنًا نموذجيًّا بلا سجّانين، ولا حُرّاسٍ مسلَّحين"، فقدّمتْ له الدَّعْمَ الماليّ.

ثمانون بالمئة من العاملين في المركز، أَصحابُ سوابق إجراميّةٍ، وربعُهم يُنَفِّذون فيه محكوميَّتَهم. ثلاثةٌ من أَربعةٍ منهم أُمِّيّون. وأَربعةٌ من خمسةٍ يفتقرون إلى أَيّةِ مهنةٍ أَو أَهْليَّة؛ ومع ذلك، فإنّ نتائج المركز مُذْهِلةٌ، و"تكاد تكون مُعجزةً بالقياس إلى عدد الّذين يستقبلهم المركزُ وإلى أَنماطهم". فثمانون بالمئة ممّن غشوه خرجوا منه مؤَهَّلين؛ ويفسِّر "جان إيف" هذا النَّجاح بقوله: "من كُلِّ صَوْبٍ يستفسرون عن سرِّ نجاحي. إنّني أَعتمد، في المقام الأَوّل، على الثّقة، وانفتاح القلب، وتفهُّم كُلّ حالةٍ

تَفَهُّمًا حميمًا. وفي آنٍ واحدٍ، أَجهد في صَوْغ الشخصيّة باقتضاء التمــرُّس بالعَمَــل، والانضباط، واحترام نظام الحياة الجماعيّة".

بَيْدَ أَنّ ذيْنك المنحى والأُسلوب، لم يروقا لجميع إداريّي "عمّاوس"، فانتقدوهما. ولكنّ "جان إيــڤ" واجهَ نقدَهم باللاّمبالاة، مؤكّدًا التزامه بروح "عمّاوس" أكثرَ مــن حرفها، ووفاءَه المُطْلَق للأب پــيير، ومساندة "دون هيلدر كامارا" والكنيسة له، وفي كُلِّ ذلك حَسْبُه. وخشيةً على مشروعه من مُغالاةٍ في اللّوائح قد تُعيقُ نشاطه، وإفراط في المماحكات قد يُؤدّي إلى شَلَله، اختار أَن يعمل، اعتبارًا من عام ١٩٩٠، مُــستَقلاً عن "عمّاوس".

غير أَنّ جماعاتٍ أُخرى كثيرةً، عاملةً بأُسلوب "عمّــاوس"، وتحــتَ شــعارها واسمها، نشأَتْ، لمواجهة احتياجاتٍ لا متناهيةٍ، في مطارحَ شتّى مــن تلــك الــبلاد الشَّاسعة، حيثُ النموُّ العشوائيّ، وأَكثرُ الإِبداعات المعماريَّة جُرأَةً قد فَشِلَتْ في إِخفاء إِملاق ملايين المحرومين، إِذ إِنَّ مليون شخصٍ في البرازيل يموتون جوعًا، وأَربعين مليونًا آخرين لا يَطعَمون ما يُشبِعهم.

وتُمثِّل جماعةُ جامعي النّفايات في "كروزيرو" نواةَ "عمّاوس" في البرازيل فــي حين تُعنى جماعةُ "أوباتوبا" بإِنشاء المساكن، وتدريس الفتيان الأُمِّيِّين المحرومين من أَيَّةِ تربيةٍ؛ أَمّا في قرية "إِيمبو"، فكان الأب "جوآي بنيــڤــيدس" قد أَنشأَ ملجأً للأَولاد المهجورين، غير أَنّه، بعد إِقامةٍ طويلة الأَمد في مختلف جماعــات "عمّــاوس" فــي فرنسا، تشبّع أَثناءَها من روح "عمّاوس"، وتمرَّسَ بأُسلوب عملها، حوَّل ذلك الملجــأ إلى جماعةٍ تُعنى، خاصّةً، باستقبال المُشرَّدين. أَمّا جماعة "پــيرامبو"، فقد انْبَثَقتْ في أَشدِّ أَحياء "فورتاليزا" بُؤْسًا، وثاني مُدُن الصَّفيح اتّساعًا إِذ إِنّها تؤوي نحو مئتي ألف ساكنٍ، وفي نفس المكان الَّذي استهلَّ فيه "دون هيلدر كامارا" حملتَه لخِدمة الفقــراء، لأَربعين سنةً خلَتْ.

محاولاتٌ كثيرةٌ، في سبيل هَدَفٍ عظيمٍ، أَثبتت أَنّ الإِنسان، في البرازيل، مثلــه في أيِّ مكانٍ آخر، غير محكومٍ عليه بقَدَر الفقر والإِذلال.

وفي هذا الشَّأْن كَتَب "دون هيلدر كامارا": "يبدو أَحيانًا أنّ كفاح الإِنــسانيّة مــن

أجل عالَمٍ أَفضل يتعثّر... وإنّنا لنعيش حِقْبةَ تعثّرٍ من هذا النَّمَط، غير أَنّنا لا نستسلم، وسنواصل كفاحنا من أَجل الحبّ والإِخاء، وسنَظَلُّ نرجو، رغم افتقارنا إِلى أَسباب الرَّجاء"

ويمضي "كامارا" فيروي قصَّة فتاةٍ بذلَتْ حياتها، في ساحة تلك الحملة النَّبيلة: « لقد عزمتْ "إِيـڤـون"، العاملةُ الصغيرة، أَن توفّر من راتبها الضئيل مبلغَ أَلفٍ ومئتين وخمسين فرنكًا، وهو ثمن العبور إِلى ليما، ببطاقةٍ مُخَفَّضةٍ إِلى نصف سعرها، في باخرة شحنٍ. فخدمت ثمانية عشرَ شهرًا ضمن فريقٍ، في مساكن صفيح المرفأ، بمحلّة "كالاّو"، حيث دأَبت بلا كلَلٍ، وبفرحٍ، وحماسٍ عارمٍ كان يدفعها إِلى العناية بالأَطفال المرضى، وإِلى تثقيف أُمّهاتهم. وفي كانون الأوّل، انتهت فترةُ التزامها، إِلاّ أَنّها التمست منّي تمديدَها، لأنّها كانت قد علِمتْ أَنّ هناك، في أَقصى الشَّمال، في غياهب الغابة الأمازونيّة، في قُرى البُرْص، كان آباءٌ كبّوشيّون كنديّون يلتمسون مُساعدين للعناية بالأَطفال. وقد بيَّنتُ لها كم ستكون المُهِمّة، هناك، أكثرَ مشقّةً وإِرهاقًا. بيد أَنّ "إِيـڤـون" كانت ثابتةً في عزمها. كانت قد نضجتْ وتمرّستْ. فوافقتُ على طلبها.

"وطوال ستّة أَشهرٍ غَزَتْ قُلوبَ المجذومين. وفي تلك الأَثناء، كان تطوّرٌ داخليٌّ يقودها إِلى اكتشاف المسيح، وقد غدا تناولُ الأَسرار قوتَها اليَوْميَّ.

"وفي ليلة الخامس من تمّوز، فيما كانت تسهر في قلب الغابة، على مجموعَةٍ من الأطفال البُرْص، دوّنتْ: "الرّيّو، والسُّفُن الصَّغيرة، غافيةٌ، وكُلُّ شيءٍ راقدٌ. لكنَّ طيورَ اللَّيْل الكبيرة تُبقيني مُتَيقِّظةً، وهي، في آنٍ واحدٍ، تبعث في نفسي السَّكينة، إِذ إِنّها تحملني على التفكير في عالَمٍ من السَّلام يستيقظ.

"وفي الصَّباح، كانتْ حُمّى عاصفةٌ قد أَطاحتْ بها. وقد لفظتْ أَنفاسها الأَخيرة، وهي في طريقها إِلى المستشفى، من جرّاء التهابٍ رِئَويٍّ صاعقٍ.

"أَيُّ مثالٍ لحياةٍ مليئةٍ تُقدِّمها لنا تلك السَّنواتُ من التَّطوُّع، في أَماكن قصيَّةٍ، بوحي من "عمّاوس"، والّتي انتهت بإِيـڤـون إِلى التّضحية بحياتها. أَرجو أَن يكونَ كُلُّ منّا قد "أَنجح" حياتَه، على هذا النَّحو، عندما تأذن ساعة "العبور". »

الجوّالون

عام ١٩٥٦، بعيدًا عن "عمّاوس"، في قريةٍ بمنطقة "أُورن"، القريبة من مدينة ألانسون، كان الأَبُ "إِسنو" يُواجهُ مُعْضلةً لا يقوى على التصدّي لها بمُفرده؛ فذاتَ صباحٍ، وجَدَ في كُرسيّ اعترافه طفلاً مهجورًا، أَوْكله إلى فتاةٍ من فتيات رعيّته كانتْ تصبو إلى النُّهوض بمهمّةٍ إنسانيّة، وإلى حياةٍ مُكرَّسةٍ للخدمة، وقال لها: "اعتني به يا ماري جينيـڤـيـڤ. وكوني لهُ أمًّا".

وما أَن أُشيع أَنّ الأب "إِسنو" قد وفّر الرعايةَ لِطفْلٍ مهجورٍ، حتّى هَبَط في كرسيّ اعترافه، في غُضون أُسبوعٍ واحدٍ، أَربعةُ أَطفالٍ آخرين، آثَرَ ذووهم تركَهم، خِلْسةً، في الكنيسة، وإيكالَ أَمرهم لرعايةِ من يستطيعون الاضطلاع بتربيتهم، على رُؤْيتهم يُشاركونهم الشّقاءَ والفَقْرَ والتَشَرُّدَ، فقد كانت الأَوضاع المعيشيّة في الرّيف، أَشدَّ هشاشةً وإيلامًا منها في المدينة.

ولجأ الأب "إِسنو" إلى الأَب پـيير، علَّه يلقى لديْه ما يُعينه على مواجهة المأزق الَّذي أَلفى نفسَه مُتَورِّطًا فيه. ولم يجد الأَبُ خيرًا من صديقه ومعاونه "پـول"، فهو الكفيلُ بالتَّصدّي للمواقف الوَعِرة، ولا سيّما إذا ما فسحت له حُرِّيَّة المبادرة، في معزلٍ عن قيود الإداريّين البيروقراطيّين وتمحُّكاتهم، فقال له: "لك عندي مُهمَّةٌ. امضِ إلى هناك، واعمل بالأُسلوب الَّذي تُجيده"

وتوسَّمَ "پـول" في تلك المُهمَّة مخرَجًا جاءَ في حينه، فهو قد سَئِمَ جوَّ المال الَّذي استَحْوَذَ على اهتمام المسؤولين الجُدُد في "عمّاوس"، وتاقَ إلى أَيّام الريادة الأُولى، على حدّ قوله: "كدنا نفقد نفسَنا، بسبب وفرة المال واليُسر وها إِنَّ الأَب يقترح أَن نعود فنَنْطلق من الصِّفر، وأَن ننشئَ شيئًا من العَدَم، من غير امتلاك".

وكانت عودةٌ إِلى الينابيع، إِلى مغامرة "عمّاوس"، مقرونةٌ ببركَات المُؤسِّس، الَّذي،باسمه، تكلّم "پـول" في "آلانسون"، في قاعةٍ غاصّةٍ بالحضور، فاستطاع تجنيد طاقاتِ من كانوا لا يزالون يذكُرون "انتفاضة العطف".

وسُرعانَ ما تأَلّفتْ لجانُ أَصدقاء "عمّاوس" من كهنة القرى، ونساء الجمعيّات الخيريّة، وتجّارٍ، وتكوَّنتْ جماعاتٌ جديدةٌ لرفاق "عمّاوس"، ضمَّتْ قلوبًا ملتهبةً، وسواعدَ توَّاقةً للعمل في أَوضع المُهمّات. منهم من جاؤوا من "عمّاوس" كي يستعيدوا

إِحياءَ أَيَّام الدَّياميس والمغامرة، ومنهم من انضمّوا إليهم، وهم من نفس عجينتهم. معظمُهم كانوا منبوذين، مُهمَلين، ومن ضحايا الحياة، غير أَنّ "عمّاوس" أَعادتْهم رجالاً منتَصبين بشمَمٍ على أَقدامهم. إِنَّهم فخورون بانتفاضة العطف التي تفجَّرتْ عام ١٩٥٤، ولكنّهم لم يُتيحوا لشعبيَّتها وشُهرتها أَن تنال من بساطتهم شيئًا. إِنّهم مدينون بنجاتهم، وبكرامتهم المُستعادة للأَب پيير، ولمساعده "پول"، وإِلى الفقراء الذين هبّوا، هم، لإِنقاذهم. وهم يرفضون، على السَّواء، البيروقراطيّين، والسادة "المحترمين"، الَّذين تولّوا مقاليد الإِدارة في عمَّاوس، إِذ إِنّهم، على نقيضهم، قد آثروا المُغامرةَ، والاندفاعَ الملتهبَ الأَصيل، وصفاءَ النَّوايا، وجدوى الخدمة المستعجلة التي تُسدى للأكثر حرمانًا. الأب پيير هو أَبوهم، و"پول" قائدُهم، والخِدمةُ الجوّالة الَّتي استحدثوها على طرقاتِ منطقة "أورن" هي حُرِّيَّتُهم. إِنّهم ينهضون تحدِّيًا لمظالم المجتمع ومعاييره الفاسدة، ورُسُلَ أَحلام البدايات الخفيّة الأُولى.

أَمّا "پول"، القائدُ المحبوب، والتلميذُ الوفيُّ للأَب پيير، فقد كان حريصاً على إِبراز صورةٍ له لا تتغيّر، حيثُما كان، تُعَبِّر عن زِيِّ المُساواة الشَّعبيّة: لباس العمّال الأَزرق، ومَداس الحجَّاج الأَسود، وقبّعة المُحارب، وفي نجاده مِزْوَدةُ الرحَّالة. على هذه الصُّورة ظَلَّ يبدو طوالَ مسيرته العمَّاوُسيَّة التي تجاوزت عشرين سنةً، سواء وهو يغشى مكاتب الوُزَراء، أَو يحضر استقبالات نادي الرّوتاري، أَو حفلات التَّدشين الرسميّة؛ أَثناءَ احتلال المساكن الشاغرة، أَو إِبّان معالجة أكوامِ الأَقذار، وتلال الخُرْدة والنِّفاياتِ، أَو العمل في الوَرْشات.

ولئن تميَّز الأَب پيير بصِفاتِ رسول الفُقَراء، فپول كان يحمل صفاتِ الفقير نفسه، بل إِنّه كان رمزَ الفقير الَّذي أَنقذ نفسَه، لا الفقير البائس المُتَهدِّم، بل الفقير المعتزّ بكرامته، الفقير النَّظيف النَّاصع، لقد كان، في آنٍ واحد، قرويًّا عاملاً، وعاملاً ريفيًّا، انطوتْ جوانحه على كثافة قَرَوِيّة، متيقِّظةٍ لروح التَّضامن الَّذي يسود عُمَّال المصانع، ملتزمةٍ ببساطةِ عيْشٍ مُطْلَقةٍ، تأْبى كُلَّ هدْرٍ، وتحرص على استخدامٍ للوقت دقيقٍ، ولا تبالي بالرّفاه.

لقد تمثَّل بالأَب پيير، واندمج بيُسرٍ في قالب المُساعد، والنَّظير العلمانيّ الَّذي يخلق العملَ حيثُ لا يوجَد شيءٌ، يستصلح الأرض البَوار، ويجتذبُ في إِثْره الهمَم.

وقد وافى الرِّيفَ الفرنسيّ مُنتَدَبًا من نبيٍّ عالَميٍّ الشُّهرة، حاملاً زَخْمه النبــويَّ، من قريةٍ إلى قريةٍ، وقوَّة إقناع النبيّ نفسه، والبلاغةَ التي تسحَر، وتنفُذ بلا استئذانٍ، وبنفس اليُسر، إلى أذهان المُثقَّف، والنَّبيل، والعُمْــدة، والــوزير، وعامَّــة الــشَّعب، مُرَسِّخةً في جميعها الحقيقةَ الرَّائعةَ، العميقةَ الإنسانيّة، حقيقــةَ "عمّــاوس"، وخدمــةِ الأَكثر تألُّمًا.

إنّه قريبٌ من كُلِّ النَّاس، أَخويٌّ معهم، طبيعيٌّ في جميع الأَوْساط لأَنّــه هــو لا يتغيّر. رِقَّتُه تُشيعُ الاطمئنان، وطيبتُه تنفُذُ إلى القلوب، وقناعتُه تفرض الموافَقة. يكادُ يُحاكي الأَبَ في امتلاك سرِّ الكلمة الَّتي تُؤثِّر، وتستفزُّ المشاعر، وتسحرُ الجُمهــور. ولكنَّ خطابَه أَشدُّ إيجازًا، وتركيزًا على الجوهريّ، وإلهابًا، لأَنّ التأثير الَّذي يُــشيعه مرتبطٌ مباشرةً بمهامّ ملموسةٍ، يضعُها مثالُه في متناوَل الجميع. بصوتٍ عميقٍ دافئٍ، ونبرةٍ هادئةٍ لا تحتاج أَن تعلو وتُجَلْجل، لأَنّها ملتزمةٌ بقول الحقّ، يتحــدَّث، لا عــن أَزماتٍ مُجَرّدةٍ، ولا عن تطلُّعاتٍ عالميّةٍ قد تستثير حماسًا مؤقّتًا، بل عــن حاجــاتٍ واقعيَّةٍ ملموسةٍ يعرفها الجميعُ في كلِّ قريةٍ، فيَصِفُ البُؤْسَ الماثل، ويدُلّ إلى الغَوْث الَّذي يستلزمه، ويُشير إلى أَطفالٍ يَنْفقون جوعًا وبردًا، وأُسَرٍ تتمزَّقُ بُؤْسا، وعزلــةً، مُهيبًا بالجميع أَن "افعلوا... نحن سنعتقكم من فضلاتكم، وأَنــتم إذ تعطوننــا إيَّاهــا، ستهبوننا قلوبَكم".

خطيبٌ في زيٍّ عاملٍ، يتكلَّمُ بلُغَة سليمة، وأَلفاظٍ بسيطةٍ، لها في أُسلوب عيــشه وإنجازاته خيرُ مصداقٍ وتأكيدٍ، ويقطُر إيمانًا يُزَعزع الجبــالَ. يــستنهض الهِمَــم، ويجعلُ واقعيّةً وممكنةً، هنا، في الحال، خدمةَ المحبَّة الَّتي يدعو إليها جمهورَه، شَرْطَ أَن ينصرف إليها الجمهورُ بكُلّ نفسه، مُقْتَضيًا منه "عنفًا رقيقًا"، مُرَدِّدًا على مسامعه: "دعوا قلوبكم تتكلّم، تنالوا جزاءَكم. افتحوا قلوبكم، واحتذوا بي..."، "الحياة هي حبٌّ".

ولا بدْعَ، من ثَمَّ، إن قيلَ فيه: "لديه الجوابُ على كُلِّ سُؤَالٍ، وهــو يُكَهربنــا... وينتابُنا شعورٌ بأَنّنا مُلزَمون بالسَّيْر في إثْره".

عندما يُزمع على إلقاء محاضرةٍ يُعرَّف عنه بأَنّه "السيّد پــول، من رفــاق الأَب پــيير جامعي النفايات" وكأَنّ ذاك هو لَقَبُه وكنيتُه.

وأَمّا فريقه، فريق الجَوَّالينَ، فَيخْضع لطُقوس نِظــامٍ صــارمٍ، وعمــلٍ مُــتقَنٍ.

فـبـول شغوفٌ بالدِّقّة والكمال، حريصٌ على نصاعة صورة فريقه، حِرْصَه علـى جدواه؛ ورجالُه يمارسون حياةً شبهَ نسكيّةٍ تجعل من جماعتهم "ديرًا متـنقّلاً": فهـم يستيقظون في السَّادسة، وبعد الاغتسال والإفطار يباشـرون العمـل فـي الـسَّابعة والنصف، ويواصلونه، بلا انقطاعٍ، حتّى السَّادسة مساءً.

وفي العاشرة يُخلدون إلى النَّوْم، ما لم تقتضِ ظروفٌ طارئةٌ تعديلاً للبرنـامج: فهم لا يرتضون راحةً ولا نومًا قبلَ الفراغ من فرْز الخُردَة الَّتي جمعوها؛ وكذلك إذا ما توقّعوا هطولَ مطرٍ، لا يرتاح لهم بالٌ حتّى يضَعوا كُلَّ ما جمعوه في مأمَنٍ مـن البلَل والتلَف، ولو استلزمَ ذلك مُواصلةَ العَمَل حتّى ساعاتٍ متأخّرةٍ من اللَّيل، وهـم، عمومًا، يمضون في عمليّات جَمْع النِّفايات الَّتي باشروها حتّى يوفوا على نهايتهـا، على غير اعتبارٍ للوقت.

وعليهم العناية، أبدًا، بمظهرهم، فيكونون حليقين، نظَافًا. وحتّى العـاملون فـي فرْز الخردة عليهم، أَن يحرصوا على نظافة أظافرهم، وأَن ينهضوا، جميعُهم، علـى غرار قائدهم، مثالاً حيًّا للفُقَراء الَّذين أَنقذوا أَنفسَهم، وهبُّوا على أَقدامهم مـستقيمين؛ فطقوسُ النَّظافة ضمانٌ لنصاعة الأَعمال، ولبقاءِ جُذْوة المبـادئ متَّقـدةً. وأُسـلوب "بـول" في قيادة كتيبته هو أُسلوب زعيمٍ عسكريٍّ موقِنٍ أَنَّ النَّـصر يتحقَّـق قبـل المعركة، بالمِنْعةِ الأَدَبيَّة الَّتي تَشَبَّعَ منها رجالُه، الَّذينَ لا يني يُذَكِّرهم: "لقد حـرص أَبدًا الأَب على كرامتنا، وهو يأبى رؤيتنا نحاكي مُتَسوِّلين، ومُتَلقّي إحسانٍ... علينـا بذلُ كلّ جُهْدٍ كي تكون نظافتُنا بلا شائبةٍ، وشعرُنا مُسرَّحًا، وأَحذيتُنا مُلمَّعةً، وذقوننـا حليقَةً". وبالتَّالي، لا هوادةَ في مجال النَّظافة والنِّظام، لا أَثناءَ العمل ولا خارجَه.

ويُشارك "بـول" رفاقَه حياتَهم اليوميَّةَ، في مُساواةٍ تامَّةٍ معهم؛ فهو، أَبدًا، يتناول طعامَه معهم، وفق طقوسٍ تعكسُ حِرْصَه على المشاركة والنظام؛ فالمائدة، عمومًـا، بشكل حُدْوة حصانٍ، والصَّلاةُ الَّتي يستهلّ بها الطَّعامَ هي من وضـع الأَب بـيير وتقول: "اللهمّ، باركنا، وبارك الطَّعامَ الَّذي سنتناوله، وساعدنا كي نهب الجياعَ خبزًا، ونهبَ مَنْ لا يفتقرون إلى الخبز جوعًا". وبعدَ الفراغ من الطَّعـام، يُقـرع جـرسٌ صغيرٌ، ويُتلى جدول المهامّ اليوميّة، حيثُ لكلِّ رفيقٍ مكانه، ودورُه، ومسؤُوليَّته حيالَ الآخرين، في حين تكون عُلِّقت على الجدران مقالاتُ الصُّحف الّتي تتكلّم عن الرفاق

وإِنجازاتهم، ومن خلالها يستقري الرجالُ سيرةَ حياتهم، ومسيرةَ مغامراتهم، وقصَّة خلاصهم، فقد جاؤوا عُراةً، محطَّمين، مُحتقَرين، ووجدوا المأوى، والكِساءَ، وَالْحَسَاء، والعَمَلَ الَّذي يُوَفِّرُ الكرامةَ بين البشر، ويُؤَهِّلُهم لإِنقاذ بَشرٍ آخَرين إِخوةٍ لهم في الشَّقاء.

وتستهدف فلسفةُ "پول" أَن تبثَّ في صدور رفاقه، ومن خلال أَنظمة الحياة الجماعيّة المنضبطة، الإِيمانَ في مُساواة البشر، وتحريرهم من الشّعور بالنَّقْص حيالَ الوُجَهاء الَّذين يستقبلونهم، والبورجوازيّين الَّذين يمدُّون لهم يد العَوْن، فهم رُسُلُ أَنبل قَضِيَّةٍ، وإِذا ما كُرِّموا فلأَنّهم بالتكريم جديرون، لأنهم لم ينهضوا من عَثْرتهم فحَسْبُ، بل غدَوا لأَمثالهم قُدوةً ومثالاً، ومنقذِين.

على أُولئك الَّذين جاؤوا محطَّمين، أَغدق "پول" حُبَّه الصَّادق، وفي جماعتهم أَشاع الفرحَ، ورغبةَ الاحتفال بالأَعياد والمناسبات السَّعيدة، وبذلك استطاع أَن يقتضي منهم اندفاعًا في العمل بلا هوادة، ولا حسابٍ لعَدَدِ ساعات العمل، أَو لقيلولةٍ، أَو لفترةِ استراحةٍ، أَو لوجوب توقُّف العمل عند حلول ساعةٍ مُعيَّنة، فجامعو النِّفايات الجديرون بهذا الاسم مُعَبَّؤون باستمرارٍ، ولا يخلدون إِلى راحةٍ حتّى يفرغوا من عَمَلهم على أَكمل وجه.

وبعد أَن وفَّر "پول" لرفاقه الكرامةَ والعزَّةَ، ومُبَرِّرًا للحياة، غدا بإمكانه أَن يُطالبهم بما يشاء، وأَن يُبقيَهم مُجَنَّدين للخدمة، وأَن يفرض تضحياتٍ أَقبلوا عليها طائعين راضين، وأَهمُّها الإِقلاع عن الشراب، في موقع العمل، وفي مكان إِقامتهم، والتنكُّبُ عن ارتياد الحانات والمقاهي، والالتزامُ بسلوكٍ مُنَزَّهٍ من كُلِّ شائنة.

وبالمقابل حباهم الحُرِّيَّةَ والمساواةَ، ونشوةَ المغامرة الَّتي تتجدَّد باطِّرادٍ، كُلّما انتقلت الجماعةُ من محلَّةٍ إِلى أُخرى، نشوةً تجهلها الجماعات الثابتة في مكانٍ واحدٍ؛ والمغامرة تُغَذّي الأَحلام، وتَشْحَذُ التَّطَلّع إِلى المستحيل الَّذي انبثقتْ منه "عمّاوس".

لم يكن "پول"، في نظَر رجاله، رئيسًا مسؤُولاً، بقَدْرِ ما كان قائدًا محبوبًا، جَعَل من جماعتهم مجالاً للانطلاق الدَّائم، ولبطولات البدايات المَجيدة، في وفاءٍ مُطْلَقٍ للأب پيير ورسالته، وتعلُّق بپول يُجَدِّدُ الطَّاقات ويشحَذُ العزيمة. وهم،

من ثَمَّ، كانوا مُتَأَهِّبين للمُضيّ في إِثْره "حتّى آخر الدنيا"، ولعمل ما أَلِفوا إتقانــه، أي جمع النفايات وفرزها. فجامعي نفاياتٍ كانوا، وجامعي نفاياتٍ سيبقون. إنّهم اثنا عَشَر فردًا توّاقون إلى إعادة الشَّباب لعمّاوس، وقد وطّنوا العزم، في ذلك اليــوم، الثــامنَ عشر من تشرين الثاني ١٩٥٦، على تدوين صفحةٍ جديدةٍ في سِفْر ملحمة "عمّاوس".

وقد باشروا مُغَامرتهم الجديدة بأَوضع الوسائل، من أَوْضع مكــانٍ، فــي قريــةٍ صغيرةٍ، مستعينين بعَرباتٍ يَدويَّةٍ، وعربات أَطفال، استُعيض عن مماسكها الخَرِبــة، بمماسك مكانسَ عتيقةٍ؛ ولم يظفَروا بخِدْمات عربةٍ يَجُرُّها حــصانٌ، إلاّ بعــدَ عــدَّة أَسابيع. كلُّ ما التَمسوه من أَهل القرية، هو ما يمكن لقَرَويّين فُقَراء تــوفيره بيُــسرٍ: مستودع حبوب خالٍ، وشيءٌ من القَشّ بمثابة فِراشٍ، وفُسْحةٌ مــن الأَرض لتخــزين النفايات وفرزها.

حصيلةُ جمعهم للنّفايات، خلالَ خمسةَ عَشَر يومًا، ناهزتْ مئةً وخمــسين أَلــف فرنك، كان من شأنها النُّهوضُ بنَفَقات الأَطفال المهجورين الَّذين فُرض علــى الأَب "إسنو" إعالتُهم. ولكن حَدَثَ ما يحدُث، غالبًا، عندما يُسارع أَحَدهم إلى ســدّ حاجــة مُحتاجٍ، فتنهال عليه أَمواجُ حاجاتٍ أُخرى، كانت صامتةً لأَنّها تجهَلُ إلى من تَلْجــأُ. فقد تنامى إلى سمع "پــول" ورفاقه أَنَّ طفلاً قضى نحبَه في كوخٍ، وأَنَّ أَخاه يرقد في حُجرةٍ تحت السَّلالم لا نافذة لها. وبما أَنّ البناء هو إحدى مُهِمَّات الرِّفاق، فقد عكفوا على إِصلاح المكان، وجعله أَكثَرَ أَهليّةً للسَّكَن؛ وما كادوا يفعلون ذلك حتّى تهافتــت عليهم جموعُ أُسَرٍ أكثر معاناةً من أزمة السَّكَن، كانت تجوسُ الحقولَ بحثًا عن مأوى.

من أَجل مُساعدة أولئك البائسين، وتوفير سَقْفٍ وحَدٍّ أَدنى مــن الأَثــاث لهــم، ونَفْحِهم شيئًا من الأَمَل، راح "پــول" يستدرُّ سخاءَ الأَهالي؛ وفي حين شَرَعَتْ تتكوّن "كتيبة المحبّة"، لجمع النِّفايات والفضلات من قُرى المنطقة، حتّى أَصغرها، ترسّخت روحُ المغامرة، مُستهدفةً نشر قانون "عمّاوس": فتح القلوب، وهزّ الضَّمائر وإيقاظها على المُهمّة الوحيدة التي تستحقّ الجهد: خدمة الأَكثر تأَلُّمًا.

عبارات "پــول"، ببساطتها وصدقها، كانت تَسحَرُ وتُؤَثِّر، نافذةً إلى الأَعمــاق، مستفزّةً الحماس، مُسْتَنْهِضةً الهِمَم، بحيثُ كان الوُجَهاء، الَّذين أَعدّوا خطابــاتٍ كــي يُلقوها في الاجتماعات الَّتي تَضمُّ الجماهير ورفاق "عمّــاوس"، لا يجــرؤُون علــى

إِخراجها من جيوبهم، ويكتفون بالانتظام في قوافل المُتطوِّعين والمُتبرِّعين، صامتين، وكان "پـول" يشرح لمستمعيه رسالةَ "عمّاوس" قائلاً:

« عمَّاوس لا تُفسَّر، بل تُعاش؛ إِنّها حَدَثٌ يتعذَّر على البعض فهمه، وغير مألوفٍ لدى الجميع، ويستعصي على التحليل من جرّاء تناقضاته الظاهرة: فالَّذين لا يملكون شيئًا هم الذين يعطون، والغارقون في البُؤْس يَهُبّون لنَجْدة من يفوقهم تعاسةً، وبذلك يتحدَّون ضمائر المَحظِيّين.

"إِنَّ الذين احتكّوا بعمّاوس، استمدّوا منها تعاليم فريدةً؛ وقد التقوا فيها أُناسًا مختلفين، ولكن مُتَضامنين. ومن الاتّصال بهم وعُوا، أَو استعادوا وعي معنى الحياة المشتركة، وكُنْهَ الجماعة البَشَريّة، وأَدركوا أَنَّ تحقيق الذَّات لا يتمُّ إِلاّ بالخدمة. وقد وَجَدوا، أَيضاً، أَصدقاء كانوا يجهلونهم. هذا الزَّخْم، جامعو نفايات "عمّاوس" هم صانعوه ».

وهكذا، سحابةَ سنتَيْن جاس "پـول" ورفاقُه جميعَ أَنحاء منطقة "أُورن" ولمُّوا مُعْظَمَ نفاياتها، وفَضَلاتها الَّتي حَوَّلوها إِلى مساعداتٍ للمحرومين، وفق أُسلوبٍ ثابت يكادُ لا يتغيّر، إِذ كان "پـول" يَمْثُلُ، أَوّلاً، بمُفرده، إِلى المحلَّة التي يعتزم الرفاقُ العملَ فيها، فيدعو إِلى اجتماعٍ عامٍّ، تتأَلَّفُ، في أَعقابه، لَجنةُ أَصدقاء "عمّاوس". وعندما يلتحق به سائر الرِّفاق، يكون قد أَمّن لهم السَّكَن والطَّعام، غالبًا في أَهراء، أَو أَماكنَ مهجورةٍ، أَو في قاعات الاحتفالات في البلديّات، أَو في بيوت كهنة الرعايا، عندما يكون فيها مُتَّسعٌ. وفي تلك الأَثناء تكون لافتاتٌ ومُلْصَقاتٌ قد أَحاطت الأَهالي عِلْمًا بوُصول جامعي النّفايات، فيُوافونهم بكُلّ ما لا حاجةَ بهم إِليه، الَّذي يُجمَع، ويُفْرَز ويُباع، ويوزَّعُ نصفُ رَيْعه على مُحتاجي المحلّة، ويُنفَق النِّصْفُ الآخر على إِغاثة المحتاجين في سائر الأَماكن.

وبفضل العَمَل الدَّؤوب الدَّقيق، والنتائج الملموسة، في مضمار خدمة البائسين، والإِعلام المُنَظَّم، نمت جماعةُ الجوّالين، واتَّسعت شهرتُها مع اتّساع رُقعة نشاطها، وما انقضت سنتان على بداياتها المتواضعة حتّى تخطَّت حدودَ "أورن" إِلى كلّ أَنحاء النُّورماندي. وبعد أَن كان مشروعًا مُرْتَجَلاً لمواجهة حالةٍ طارئةٍ، وإِنقاذ حَفْنةٍ من الأَطفال المهجورين، غدتْ مُؤَسَّسةً راسخةَ الجُذور، تُمثِّل، وحدَها، روحَ "عمّاوس"،

"عمّاوس" على نحو ما تخيَّلَها الأَب پيير: رسوليّةً، شعبيّةً، مُنتَصرةً؛ وهي، في انطلاقها، تجاهلتْ الإدارة البيروقراطيَّة في باريس، السَّاعية إلى إِعادة تنظيم "عمّاوس"، وتحدَّتها، في آنٍ واحد.

وعندما أَوشكت "عمّاوس" على الغَرَق عام ١٩٥٨، بعد أَن شَلَّ المرضُ الأَبَ المؤَسِّس، وتقاعستْ بعض الجماعات، وقد هَيْمَنَ عليها الشّعورُ باليُتْمِ ومزَّقَتْها الخِلافاتُ مع الإِدَارَة المركزيّة في باريس، وفيما كانت تلك الإدارة تتخبَّطُ في الحَيْرة والضّياع، ظلَّ "پول" ورفاقُه أَوفياءَ للأَب ورسالته، وطفوا على سَطْح الأَحداث، مجتذبين الأَتباع، غازين قلوبَ الجماهير، مُنتَزعين تأْييدَ السُّلطات المدنيّة والدينيّة، مُواصِلين ذَرْع مناطق النورماندي، مستنبطين ملايين الفرنكات من النّفايات والخردة، غائصين في لُجَّة خِدْمة المُشرَّدين، والأَطفال المهجورين، والمُعاقين والمُسنِّين.

وظَلَّ "پول" هو حارس الإِيمان الأَصيل، الَّذي لا يُساومُ ولا يُهادِن، وقائد كتيبةٍ من جامعي النِّفايات، ومُرشدًا لمنسكٍ متجوِّلٍ، يحرث في العمق أَرض "النورماندي"، باسم صُوفيّة "عمّاوس" الَّتي حَرِص على سلامتها.

هذه النَّصاعةُ في السُّلوك، وهذا الثَّباتُ في الوفاء لمُثُل "عمّاوس"، قد هزّا فئةً من مسؤوليها الَّذين كانوا قد التحقوا بالإدارة المركزيّة، وكانت ما تزال تخفُقُ بينَ جوانحهم روحُ المغامرة، فتنكَّبوا عن البيروقراطيّة، وهرعوا إلى الانضواء تحتَ لواء الجوَّالين، وقد ارتقى عددُهم إِلى الأَربعين، باتوا هيكل "عمّاوس" المَتين، الَّذي أَسبغَ عليه "پول" بفضل الانضباط الصَّارِم، والنِّظامِ شبه المُقدَّس، والحِرْصِ على العَمَل المُتْقَن، مِنْعةً أَخلاقيَّةً راسخةً، وجَعَلَ منه فريقًا لا عَيْب فيه، مُتلاحمًا، مُتضامنًا، فخورًا، تسودُ أَعضاءَه المساواةُ، ويعكس بأمانةٍ، صورة رسالته الأَصيلة: صورة جماعةٍ من الفقراء هبُّوا ناهضين على أَقدامهم، وأَمسوا قادرين على إِنهاض الآخرين.

وما انفكّ عديدُ الرِّفاق في تعاظُمٍ حتّى ناهز المئتين بين عامي ١٩٦٢ و١٩٦٣، يومَ تسنَّم الجوّالون ذُرْوَةَ نجاحهم في مدينَة "روان". غير أَنّ النَّجاحَ لم ينلْ في شيءٍ من روحِ التَّواضُع والبَذْل والمغامرة المتأصِّلة فيهم.

وعندما كانتْ جسامةُ العَمَل تستلزم مزيدًا من السَّواعد، لم يكن "پول" يتحرَّج من تجنيد نُزَلاء مخافر الشُّرطة، الَّذين كانوا يظفَرون، بين رفاقه، بالإِصلاح الَّذي

تعجزُ الشّرطة عن توفيره لهم. ولم يكُنْ يخشى الدِّفاعَ عنهم إذا ما زلّوا؛ فقد ردَّ، يومًا، على وجيهٍ انتقد سُلوكَ أحد أُولئك الرِّجال، بقوله له:

- « هل أَنتَ تغشى كُرسيَّ الاعتراف أَحيانًا؟
- "كلَّ أُسبوع، وذلك منذُ كنتُ في السَّابعة، وعمري الآن خمسٌ وستّون سنةً
- "وهل تغيّرتْ خطاياك؟
- "... لا، بل هي هي ذاتها أَبدًا
- "وكذلك هي أَخطاؤُه، فإيَّاكَ ودينونته! »

وما فتئ يتقاطر إِلى جماعة الجوّالين كهنةٌ ومُتَطوِّعون مُتَعطِّشون إِلى التَّضحية والبذْل والعمل المجّانيّ، مُلتَمسين نسيمًا مُنْعِشًا، وزخْمًا متَجدِّدًا؛ وإِليها التجأ الأَبُ "پروتان" بعد أَن طُرِدَ من الـپيرو، فاضطرم حماسًا، وكتب في تشرين الثّاني ١٩٦١: "يا لهُ من اكتشافٍ! قد تُثيرُ عُيوبُ "پول" المخاوفَ، ولكن لا يُمكن الارتياب في النَّار التي تُلهِبُه، ولا في صدْقه. إِنّه لنَبيٌّ، ولم أَستطع العثورَ، في جماعاته، رغمَ نَزْعتي النَّقديّة، على أَيّة ثُغْرة. يُمكن أَن تستفزَّ وسائلُه الحَسَد، ولكن لا يُمكن أَن تُقابلَ باللاّمبالاة، وبالأَخَصّ لا يُمكن اكتشاف أَيَّةِ شائبةٍ فيها... إِنّ مُجَرَّد مشاهدة الوُجَهاء، وكهنةِ الرّعايا، وجامعي النّفايات يَلُفُّهم، جميعًا، ذلك الجوُّ من الثِّقة المتبادَلة، والصَّداقةِ والتَّعاوُن، يستدعي الدَّهشةَ. إِنّ "پول" مبعثُ فخْرٍ سواء هو أَنتج مالاً أَو لم ينتج. وعلى المرء أَن يَقدِمِ إِلى هنا، إِلى النورماندي، كي ينهل من الينبوع ما يُجدِّدُ به عزيمته".

غيرَ حافلٍ بانتقادات الإِداريّين المقيمين في باريس، كان "پول" يقود أَبطاله، باسم الأَب پيير، في مُهمَّاتٍ تتَّسع، كُلَّ يومٍ، مُقدِّمًا لهذا الأَب الحبيب، الَّذي عزلَه المرض، وشَرعَ يتنكّر له الإِداريّون الجدُد، بمثابة هديَّةٍ، إِنجازاتِ الجوّالين، محاطةً بدَعاوةٍ إِعلاميّة مُجَلْجلة. ففي أَحلك ساعات التمزُّق الداخليّ الكمين، كانت جماعةُ الجوَّالين هي الَّتي تُمثِّلُ "عمّاوس"، ورسالةَ الأَب پيير الحقَّة، في عُيون الجماهير. وقد أَفلح "پول" في فرْض هذا الواقع بإِنجازاته المُدْهشة، وبالدَّعاوَة الَّتي كان يُحيطها بها مُؤَكِّدًا للجميع أَنَّ الأَبَ پيير ما زال هو الزَّعيم الفاعل.

في غضون أَربع سنواتٍ، كان ثماني مئة رجُلٍ قد اشتركوا مع "پول" ورفاقه

الجوَّالين، وأَنتجوا نحو مئة مليون فرنكٍ، ثمّ تضاعف هذا الرَّقْمُ أَربع مـرّاتٍ خـلالَ السَّنوات الأَربع التالية.

وبعد أَن تضخَّم عددُ الرِّفاق الجوّالين، قسمهم "پـول" إلى سبعةَ عَـشَر فريقًـا، يتولّى كُلٌّ منهم جمع نفايات منطقةٍ مُحدَّدةٍ، بمؤازرة لَجنة أصدقاء، في كُلّ منطقـةٍ؛ وكان ينهض بنقل النّفايات رَتْلٌ من الشّاحنات ترفرف عليها أَعلام "عمّاوس"، وتسيرُ معًا مُضاءَةَ المصابيح، ويتصدَّر شاحنةَ الطَّليعة تمثالٌ للسيِّدة العذراء، فـي تظـاهرةٍ دائمةٍ تستثير الاهتمام.

حيالَ تلك الإنجازات، بات جميع مسؤولي منطقة النورماندي، من العمدة، إلـى قائد الشُّرطة، ومن الأسقف إلى رئيس المجلس المحلّي يتبارون في استقبال "پـول" ورفاقه، ومؤازرتهم، وتسهيل مهامّهم؛ وكانت حصيلة جمع النفايات تربو على أُلوف الأَطنان، يُحوِّلها "پـول" إلى ذَهَبٍ يُنْفَق على خدمة الفقراء، ويسهم في استمرار عمل الأَب پـيير وتوسيعه؛ وكان "پـول" لا يني يُردِّد، حيثُما ذهب:

"سنجني ذَهَبًا، إن أَنتم فتحتم عيونكم على شقاء النَّاس، وغيّرتم ما في نفوسكم"

ومنذ عام ١٩٥٩، بعد أَن أَبلّ الأَب پـيير من مرضه، بات يرعـى بحـضوره الشَّخصيّ، كُلَّ حملةٍ جديدةٍ من حملات الجوّالين، وغالبًا ما كان ينقلب حضوره هـذا حَدَثًا بليغَ الأَثَر تتناوله وسائلُ الإعلام بإسهابٍ، ولا سيّمَا أَنّ الأب كـان يـصطحب معه، في تلك المناسبات، مشاهير العالَم، العاملين في مَجال مكافحة الجوع والفقـر. وكان الأَب، عادةً، يصل إلى مكان الاحتفال، بَعْدَ الظُّهْر، وبعد فترة استراحةٍ، وتناوُل العَشاء مع الرِّفاق، يتحدَّثُ أَمام حَشْدٍ كثيف، في مـسرحٍ أَو صـالةِ سـينما، وقلّمـا يستَوْعبُ المكانُ الَّذي يخطُب فيه، مهما اتَّسع، جميعَ الحـضور. ويحتَـلُّ المقاعـدَ الأُولى، في صمتٍ خاشعٍ، عُمدةُ المحلَّة، وقائدُ شرطتها، وأُسقُفُها ووُجَهاؤُها، وينساب كلام الأَب پـيير فيقطُر أَبدًا نفس التأثير الَّذي يهزُّ الأَعماق، ونفس الوعد المُـشرِق الَّذي يُضيءُ الأَمل، ولا سيّمَا بعد أَن أكسبته الأَسفارُ إِلى شتّى أَقطار العالَم مزيدًا من الشُّمول والبُعد.

في تلك الأَثناء، كانت الإِدارةُ المركزيَّةُ جاهدةً في تحرير "عمّاوس" مـن كـلّ

طابعٍ شخصيٍّ، ولو هي اضطُرّت، في سبيل ذلك، إلى طَمْس صورة مؤَسّسها؛ بيد أنّ احتفالات الجوّالين، الَّتي يرئسُها الأَب پـيير وتتناولُها وسائلُ الإِعلام بإِطنابٍ، كانت تُبرز لها مدى فَشَلِها في هذا المضمار.

وكان بعض أَعضاء الإِدارة المركزيّة يزورون جماعاتِ الجوَّالين، مُتَذَرِّعين بالرّغبة في الاطّلاع، والتعبير عن الإِعجاب، غير أَنّهم، من مركزهم، كانوا يُهاجمون، ويُشَكِّكون بسلوك "پـول"، ويصبُّون عليه جامَ غَيْظهم.

وكان الأَب، في حالات الصِّدام بين الفريقَيْن، فريق الجماعيّين، مرتدي أَلبسة العُمّال الزَّرقاء، وفريق الإداريّين مرتدي الياقات البيضاء، ورَبْطات العُنق الأَنيقة، يلعبُ دور صانع السَّلام، أكثر منه دورَ الحَكَم مُردِّدًا: "إِنَّه لمن الحُمْق والعار أَن نسمع الرِّفاق الجماعيّين يتَّهمون الإِداريّين بالنَّوم على ظهورهم، وبأَنّه لولا جهودُ الجماعيّين، لما كان لهم عملٌ؛ أو سماعُ الإِداريّين يَصِفون الجماعيّين بأَنهم من طبقةٍ دنيا..."؛ "عاجلاً أَو آجلاً سنُضطَرّ إلى إِيجاد وسائل تحملنا على أَن يُحبّ بعضُنا بعضًا، لأَنّه يستحيل التَّصفيق بيدٍ واحدة"؛ ويضيف مُهدّئًا: "لا ريب أَنّ هذا التكامُل بين الأَمان الضروريّ للجماعات الثابتة الَّتي تواجه خَطَر الانزلاق إِلى البورجوازيّة من جانبٍ، ومن جانبٍ آخَر التجدُّد المستمرّ، بوسائل شبه معدومة، الَّذي تضطلع به الجماعاتُ الجوّالة، هو الَّذي سيَقي الجماعاتِ من انحطاطٍ يُهدِّدُ كُلًّ من يستكين إِلى الاستقرار والجمود".

وعام ١٩٦٣، في ذُرْوةِ نشاطهم، وزَّع الجوّالون سبعةَ عَشرَ مليون فرنكٍ قديم للطُّفولة البائسة، والمُشرّدين، وللإغاثات الطارئة، ومساعداتٍ للعالَم الثالث، وكذلك ثمانية عشر مليون فرنكٍ للّجان المحلّيّة الَّتي تعاونت معهم وقد افتتحوا مركزًا للمعوّقين، ومركز استراحةٍ للرّفاق الَّذين يشيخون ويعجزون عن العمل، في قصر إيستقيل الَّذي وضَعَه أَحدُ المحسنين تحت تصرُّف "پـول"؛ والَّذي يقيم فيه الأَب پـيير منذُ سنواتٍ، بعد أَن خارَتْ قواه.

ولكن في نيسان ١٩٦٤، وبعد ثماني سنواتٍ من نشاط الجوّالين، وخشية اتِّساع شُقَّة الخلاف بين الإِدارةِ المركزيّة وبينَهم، طلب الأَبُ پـيير من "پـول" إِيقاف هذا

النَّشاط. وقد قرع "پـول" ناقوسَ الحُزن على مشروعه، في مدينة "روان"، بتظاهرةٍ مُجَلْجلةٍ، اشترك فيها أَلفان وستّ مئة شاحنةٍ، تُقِلُّ نحوَ ثلاثة آلاف طنٍّ من السِّلَع المتنوّعة التي تمّ جمعُها من مئةٍ واثنتَيْن وثلاثين محلَّةً في تلك المنطقة؛ وقد جاء ذلك الموكبُ الفريد، في جوٍّ مهرجانيٍّ، تواكبُه الموسيقى، وترقُبُه وتُسجِّلُه عدساتُ التِّلفزيون والمصوّرين الصحافيّين. وقد أَوجز "پـول" إِنجازه ذاك بالقول: "كان ثمّة طلبٌ فلبّيناه، ولم نكن نمتلك خيارَ رفضه. أَنا لستُ أَتباهى، ولكن عندما يُوطِّن امرؤٌ على الأَمر عزمَه، ينبغي أَن يُنفِّذه تنفيذًا جيِّدًا، كاملاً،وبلا تحفّظ".

وقد شَهِدَ التظاهرةَ الأَبُ پـيير، والآنسة كوتاز، والسيّدة (الأَميرال) "رينار"، و"ماري جينيـڤـييـڤ" الَّتي تولَّت العناية بالأَطفال المُشرَّدين، والأَب "پـروتان" قبل مثوله إلى السُّويد لتأسيس جماعةٍ لعمّاوس فيها، وعددٌ من أَعضاء الإِدارة المركزيّة.

وقد أسفرتْ نتائجُ حملة الجوّالين عن نتائجَ مُذهلةٍ: ثلاثُ مئةٍ وخمسون مليون فرنكٍ وُزِّعت على جهات مُتعدِّدة، ومراكز للمعاقين، ونزلٌ للمسنِّين، ومراكز تعليميّةٌ نهضتْ من لا شيء، أو أُصلحتْ ووُسِّعت، فضلاً عن أُلوف الاجتماعات والمحاضرات، في أكثر من اثنتي عشرة مقاطعةً، وخمسة آلاف محلّةٍ أَفادت، في غُضون ثماني سنواتٍ، من خدمات الجوّالين.

هذه الأَرقامُ، مع جسامتها، ليست سوى الزَّبَد الطَّافي على السَّطْح؛ أَمّا الجوهر الخفيّ فلا يستطيع التعبيرَ عنه سوى الَّذين عاشوا تلك الملحمة النورمانديّة.

وقد اجتذب ذلك الحَدَثُ عددًا من الشُّبّان عام ١٩٦٣، فحاولوا النَّفاذ إلى سِرِّه، وقاسم عشرةٌ منهم حياةَ الجوّالين ونشاطَهم خلال العطلة الصيفيّة. إلاّ أنّ عددهم ارتقى، في السَّنة التَّالية، إلى الخمسين، وقفز، عام ١٩٦٥، إلى ثلاث مئةٍ وأربعةٍ وستّين. لقد ولَدت جماعةُ الجوّالينَ مُعسكراتِ شباب "عمّاوس"، لأنّ الكنز الكامن في القلب يعيش أَطول من الملاحم، ولأَنَّ سِرَّه لا يفتأُ يُشيع سحرَه من جيلٍ إلى جيلٍ. وقد واصلتْ مُعَسْكَرات شباب "عمّاوس" حملَ مشعل الجوّالين الَّذين قادهم "پـول" في النورماندي.

عمّاوس في اليابان: "جيوكوكاي: نور الصباح"

كان الأب پيير ما زال في المستشفى عندما وافتْه من الأَب "روبير ڤلاّد" (ROBERT VALLADE)، المقيم في اليابان، رسالةٌ يلتمس فيها النُّصْحَ والعَوْن.

و"روبير ڤلاّد"، ذاك، ابنُ نجّارٍ، وُلد في مدينة "شارانتون" الفرنسيّة، عام ١٩١٤، وفقد والدَه وهو في الثَّامنة، فاضطُرّت والدتُه إلى الكَدْح الشاقّ كي تقوم بأَوَد أبنائها الثَّلاثة. ومنذُ صِغَره، اختار الفتى روبير دربَ الكَهنوت، وآنس، في داخله، ميلاً شديدًا إلى العَمَل الرَّسوليّ، في البلاد النائية؛ غير أَنّ الحربَ لم تُتِحْ له تحقيق هذه الرَّغبة، إلاّ بحلول عام ١٩٥٠، وكان قد بلغ، آنذاك، السَّادسةَ والثَّلاثين من العمر، حينَ قُيِّض له أَن يشخَصَ إلى اليابان، حيث تولّى رعاية أَبرشيَّةٍ صغيرةٍ في إِحدى ضواحي أُوزاكا. ومنذُ الوهلة الأولى، راعَه فقرُ العمَّال القادمين من القُرى، بحثًا عن عملٍ نادرِ الوجود، المفتقرين إِلى كُلِّ ضروريٍّ، الرَّاقدين في العراء، والنّاشدين في الكحول مَوْئلَ نسيانٍ وذُهولٍ. وقد روى لاحقًا:

« مذْ وطِئَتْ قدماي أَرضَ اليابان، صَدَمتْني مصائبُ المفتقرين إِلى الملجأ والعَمَل الَّتي لا حصْرَ لها. وطوالَ سنواتٍ، شَغَلني التَّساؤُل عمّا أَستطيع أَن أَفعل من أَجلهم. فالدَّوائرُ الحكوميّة، رغم كلّ جهودها، وتطلّعاتها البعيدة الشَّاملة، عاجزةٌ عن إِيجاد مأوى، في هذا المساء، لأُسرةٍ مُشرَّدةٍ تحت المطر، ومعها طفلٌ يكاد ينفُق بردًا... كان يراودني شعورٌ عميق الغَوْر، بأَنّ عليّ أَن أَعمل بأسرع ما أَستطيع، وأَن أُوفِّر الملجأ لعددٍ من الَّذين ينفُقون في العراء، وأَن أُزوِّدهم باحتياجاتهم الأَساسيّة، وأَنفحهم مُبَرِّرًا للعيش.""

وفي سبيل تدبير خُطَّة عمل مُحكَمة، لهذه الغاية، اعتكف ردَحًا في منسكٍ بفرنسا، عاد منه عاقدًا العزْمَ على بذْل كُلِّ جهوده، من أَجل غَوْث المحرومين، وقد ترسَّخت لديه القناعةُ بأَنّ مُساعدةَ الفُقَراء تقتضي منه معرفتهم عن كَثَب، فاستقرَّ في حيٍّ فائقِ البُؤْس في مدينة "كوبيه" الَّتي كانت تشهد انطلاقةَ ازدهارٍ عارمةً، غيرَ أَنَّها، وراءَ واجهة التَّقدُّم والحداثة الرَّقيقة، كانت تُخفي أَحياءً متماديةً من أكواخ البُؤْس. وقد قضى حَوْلاً كاملاً في بناءٍ من الوَرَق المَطْليِّ بالقار، حيثُ كان يعيش أكثر من ثماني عشرة أُسرةً، وكانت إِقامتُه في غُرفةٍ بلا تهويةٍ، تبدو، مع ذلك،

مُغْرِقةً في التَّرَف إذا ما قورنت بسكَن جيران له في أكــواخٍ مــن خَــشبٍ جُمِّعــتْ أَجزاؤُها عشوائيًّا، وانتشرتْ فيها الثُّقوب والثُّغَر، حيثُ الشِّتاء صــقيعيٌّ، والــصَّيْفُ خانقُ القَيْظ؛ وهي، في جميع الفصول، مسرحٌ للجُرذان والبَعوض والهوام، وطامتُها الكبرى الضَّجيجُ المُتَّصلُ بلا رحمةٍ: ضجيجُ معامــل الــصُّلْب المجــاورة، وجَلَبــةُ القطارات، وصيحاتُ الشِّجار الَّذي يُغذّيه الفقرُ والضّيقُ.

باديءَ الأَمر، قابَلَ سُكّانُ الأَكواخ ذلك الغريبَ الأَبيض – أَفليس، إذن، أَميركيًّــا؟ – بالحيطة المقرونة بتهذيبٍ باردٍ. ولكن، شيئًا فشيئًا، تغلَّبَ الفُضولُ على التحفُّظ، ثمَّ ساد التوادّ. وكان الصِّغارَ هم أَوّل من بادلوه الودَّ، فعكَفَ على تلقينهم دروسًا مسائيّةً، ثمّ جاءَت الأُمّهات تلتمسنَ عَوْنَه ونُصْحَه، ولا سيّمَا في أُمور الصِّحَّة. وأَخيرًا جــاءَ دورُ الرِّجال الَّذين غدوا يدعونه إلى مشاركتهم تناول "الساكي". وقد حَــرِصَ الأَب، في تلك الأَثناء، على كتمان صِفَته الكهنوتيّة، تفاديًا لأَيِّ نُفورٍ من قومٍ لا يعرفون عن المسيحيّة شيئًا، ولا تضبط سلوكَهم مبادئُ الأَخلاق الْقَويمَة دائمًا. وهكَــذا اســتطاع التَّغَلْغُل إلى صُلب همومهم ومتاعبهم اليوميَّة، وسَبْر مدى معاناتهم، الَّتي كانت، مــع ذلك، تبدو ضئيلةً، مقارنةً بمعاناة نحو أَلفَيْ مُشَرَّدٍ لا يعثرون في مدينة "كوبيه" علــى ملجأ. وقد قَضّ مضجعه التساؤُل المُضْني عن وسائل غَوْثهم.

وتنامتْ إليه، حينذاك، أَنباءُ كاهنٍ، من نَمَطٍ فريدٍ، كان يتصدّى، فــي الــضَّاحية الباريسيّة، إلى مثل مشاغله، وقد أَلّفَ، لتلك الغاية، جماعةً أَطلق عليها اسم عمَّاوس. وفي التَّاسع من شهر تمّوز ١٩٥٥، كتب إلى الأَب پــيير:

« بفضل أَصدقاء لي في فرنسا تقرَّيتُ نشاطك وتطوُّره منذُ البدء حتّى الآن. وقد أَثَّر فيَّ ذلك بعُمْقٍ، إذ إنّني أجابه، في اليابان، ما يُحاكي المعضلات الَّتي تواجهها أَنت... »

ثمّ تبسّط في تعريف نشاطه في منطقة "كوبيه" حيثُ الوضع، عامّةً، أَدنى مــن أَشــدِّ المستويات الأُوربيّة تدنّيًا، ويبلغُ أَقصى دَرَكات البُؤس الَّتي "لا شيء بعدَها سوى الموت".

وبعد أَن وَصَف المصاعب المادِّيَّة الَّتي يتخبّط فيهــا، واســتجلى تــلاؤُم وســائل "عمّاوس" مع الأَوضاع الخاصّة الَّتي كان يتصدّى لها، أَرفق برسالته نداءً عمَّمــه فــي فرنسا، بواسطة مركز الرِّسالات الخارجيّة، التماسًا لمُساعداتٍ ماليّةٍ كفيلةٍ بتمكينه مــن عَمَلٍ مُجْدٍ في مضمار خدمة فقرائه. وقد انطوى ذلك النداءُ على صَيْحاتٍ جريحةٍ تجأر:

« ليس ملكوتي من هذا العالَم، بل هو مكانٌ مَنْسيٌّ تائهٌ، لم تُثْبِتْ له، قطُّ، خريطةٌ موقعًا: إنَّه يزدهرُ بزُهور البَرَص، فوق أَراضٍ مُتَعفِّنةٍ أَحرقتها الحربَ. إنَّه يتقوقع تحت الجسور، أَو ينثني مثل عجائز يرتعدنَ، قرًّا، فوق رماد نارٍ منطفئةٍ، وينبسط، بتوانٍ، بمحاذاة سواقٍ جفَّت مياهُها، مثل قطٍّ أَعور تيسّر له، بالأَمس، بعضُ طعامٍ. إنَّه يلتصق مُتَذَلّلاً بإِسمنت الجسور، وكأَنَّه علقةٌ صائمةٌ أَبدًا...

"ليسَ ملكوتي من هذا العالَم، ولكنَّه في هذا العالم. ولئن لم يكن له مكانٌ، إلاّ أَنّه في كُلِّ مكانٍ، وهو، في المُدن الكبرى، يَمُدُّ مجاسَّه إِلى ما لا نهاية.

"إنّ ملكوتي، لا محالةَ، من هذا العالَم، مثل صَفْعَةٍ على الخَدّ، مثل قُرحةٍ صديديَّةٍ لا شيءَ يقوى على لأْمها، مثل تكشيرةٍ قبيحةٍ لا نهايةً لها، مثل كلبٍ جَرِبٍ يُطرَد ثُمَّ تُرمى جيفتُه بين الأَقذار...

"ربَّما كان في صوت المُتَسوِّلِ نبرةٌ جَشَّاءُ تصدُم الأُذن، قد تحدو بك إلى القَذْف بهذه الصَّفَحات الزريّة بغَضَبٍ واشمئزازٍ. ولكن، حذارِ، فإِنّ ما تقذِفُ به، هو تِلْكَ الصَّيحةُ، وتلك اليَدُ الممدودة، وذلك الأَملُ الَّذي قد يقضي نحبه، ساعةَ مولده، بل هو إِخوتُك في الجانب الآخر من العالَم، الأَكثر بعدًا وهُجرانًا. وإِنّني وحيدٌ، وحيدٌ جدًّا معهم: أَنا صَيْحتُهم ويَدُهم؛ وها إِنّني، فجأةً، لستُ أَجد العباراتِ كي أَصفَ لكم آلامَهم، لأَنّ هناك أُمورًا يعجز الكلامُ عن وصفها ».

وحدّثَ الأَبُ پيير رفاقَه من جماعة "بورد" الَّذين كانوا يعودونه، في مشفاه، عن مصاعب الأب "ڤلاّد"، فتبرّعوا له بمئتي أَلف فرنكٍ كانوا قد وفّروها من نتاج كَدْحهم. غير أَنّهم، وقد علَّمتهم التَّجربةُ، ربطوا هِبَتهم بشرطٍ، موضحين أَنّ ذلك المبلغ يجب أَلاّ يُستخدَم في توزيع الحَسَنات والحساء، بل أَنْ يوقَف على شراء عِدَّة عَمَلٍ، تساعدُ على تأسيس جماعةِ جامعي نفايات.

وفي الثالث من آب ردّ الأَب پيير على رسالة الأَب "ڤلاّد": « كُلُّ ما يَسعُني قولُه، مع عدم إِلمامي الدقيق بواقع بلادكم، هو أَنّه لا بُدَّ من أَن تتوفّر، في جميع بلدان العالَم، إِمكانيَّةُ الإِفادة من النفايات. فلو استطعتَ، بالتَّعاون مع رجلٍ أَو أَكثر، محاولةَ إِكسابهم خبزَهم بفضل جَمع النفايات، لربَّما أَفلَحتَ، شيئًا فشيئًا، في تأسيس جماعةٍ صغيرةٍ.

"وفقًا لخبرتنا، يجدُر بك، في البدءِ، أَن تتعاون مع رجالٍ غير ملتزمين بأُسْـرةٍ، وقد يتمكَّنون، بقَدْر ما يُفلحون في ترسيخ جماعتهم، من مساعدة أُسَرٍ أُخـرى علـى الانعتاق من مآسيها. إنّنا، بهذا الأُسلوب، قد أَفلحنا في جمع نحو أَلـف رجـلٍ فـي فرنسا، ولا يني يتزايدُ تكوين جماعاتٍ من هذا النَّمط في المُدن الكبرى. وهدفُنا، في كُلِّ مكانٍ، هو تدريب جامعي نفايات، يُسهم نتاجُ عَمَلهم في مساعدة أسَرٍ على بنـاء مساكن صغيرةٍ لها.

"نحن، أَيضاً، نعاني فقرًا مُدْقعًا، ونُجابهُ همومَ الاستحقاقات. غير أَنّنـا لا نـصمُّ آذانَنا دون ندائك؛ وها إِنّنا نقوم بتحويل مبلغٍ إِلى حسابك، كي نساعدَك لا على توزيع حساءٍ مجّانيٍّ، بل على شراءِ موادَّ تؤَهِّلُك للشّروع بعملٍ مع واحدٍ أَو اثنين أَو ثلاثـةٍ من الرِّجال البائسين ».

واعتملتْ الفكرةُ حتّى نضجَتْ في ذهن الأَب "ڤـلاّد" الَّذي استشفّ فيهـا حَـلاًّ مُمْكنًا لتساؤله عن وسيلةٍ لمساعدة بائسي اليابان. وبعد ستَّةِ أَشهرٍ، أَي في الـسَّادس من آذار ١٩٥٦، كتب إِلى الأَب پـيير:

« تأَمّلتُ طويلاً في فحوى الرِّسالة التي تنصحُنا فيها بعمل جمع النفايات، علـى غرار رفاق "عمّاوس". وطالَما تردَّدْتُ من جرّاء عوائقَ لا تُحصى، أَحدها هو العائق المادّيّ.

"وأَعتَقدُ الآن أَنَّ الأُمورَ تسير مسارًا مُرضيًا؛ وقد استطعتُ جمعَ مبلغٍ من المال كفيلٍ بشراء قطعةِ أَرضٍ تُؤَهِّل للشُّروع بعمل.

"وحالما سيتمّ شراءُ المكان، سأَمضي لقضاء نحو أُسبوعين في جماعـةٍ لجمـع النفايات في طوكيو، وسأَعود بمُساعدٍ شابٍّ، أَستطيع معه مباشرةَ العمل. وبما أَنّكـم كنتم قد عرضتم مساعدةً لشراء العدَّة اللاّزمة للبدء، فإِنني أُرَحّبُ بها الآن ».

وفي الواقع قضى الأَب "ڤـلاَّد" فترةً تجاوزتْ الأُسبوعين في تلقُّن أَساليب المهنة وأَسرارها، وقد تلقّاها على يد رجلٍ كوريٍّ مُتَمرِّسٍ، كان يُدير جماعة جمع نفاياتٍ في طوكيو. وقد أَثار وجوده، لأَوّل وهلةٍ، ارتيابَ الرِّفاق الَّذين راحوا يتساءلون عن جدِّيَّة ذلك الرَّجُلِ الأَبيض الَّذي هوى، طائعًا، إِلى أَقصى دَركَاتِ الانحطاط الاجتمـاعيّ. إلاّ أَنّ أَحد الرِّجال قد ارتضى أَن يصطحبه، ويَمْتَحِنَه، ويُلَقِّنه أَسرار المِهنة، وكلَّ ما يخفى

منها عن غَيْر المحترفين. وهكذا استقبل الأبُ "ڤـلاّد" في نـادي جـامعي النِّفايـات، وقضى بين ظهرانَيْ عُتاة تلك المِهنة أَسابيعَ تدريبٍ وتمرُّسٍ.

وقُيِّض له، آنذاك، الاتِّصالُ بمجموعةٍ من جامعي نفاياتٍ، في اليابـان، مُخْتَلفـةٍ عن جماعات "عمّاوس"، فهي لا تخضع لقيادة زعيمٍ، وتنظيمها الجماعيّ مبنيٌّ علـى روح التَّعاوُن الأَخويّ، أكثر منه على الرِّبح، واسم تلك الجماعة "آري نوكـاي" أَي "مدينة النمل"، كانت تُقيم على قطعة أَرضٍ في طوكيو تتعانق فيها أَطـلال الـدَّمار والأَشواكُ البرِّيَّةُ وتنبُت فيها كالفِطْر، أكواخٌ لا حَصْر لها، تُؤلِّف أَحياءً شاسعةً يقطنها فُقَراء هامشيّون، لمعظمهم سوابقُ جنائيّة.

وكان قد أَسّس "مدينة النمل" صناعيٌّ يابانيٌّ أَفقدتْه الحربُ كُلَّ شيءٍ، فَعَقَد العزمَ على الجهاد للانطلاق من جديدٍ، ولكنَّه آثر أَن يتضامن، في ذلك، مع منكوبين آخَرين علّه يكون لهم عَوْنًا على النُّهوض. وقد تآزر معه، لهذا الغرض، الكاتـبُ اليابـانيّ "توهورو ماتسوي"، الَّذي آثر، هو أَيضاً، العيش مع الفقراء، واشتهر بتأسيسه "جَمْعيَّة المادّة ٢٥"، وهي المادَّة الَّتي، في الدستور اليابانيّ، تنُصّ على أَنّ "على الدَّولـة أَن تضمن لكُلِّ مواطنٍ الصِّحَّةَ، والحدَّ الأَدنى، الَّذي يُمكِّنه من عيشةٍ بشريّةٍ لائقةٍ". وقـد حمل الرجلان الفقراءَ الَّذين توخَّوا مساعدتهم على جمع النّفايات وفرزها وبيعها، كي يضمنوا لأَنفسهم عيشًا أَفضل، وعملاً مستقرًّا، من غير حاجةٍ إِلى استجداءِ أَحد.

وكان يختلف إِلى "مدينة النمل" الأَخُ "زينو"، الفرنسيسكانيّ، الَّذي عـايش، قبـل الحرب، القدّيس الأَب "مكسيميليان كولب". وكان الأَخ "زينو" لا يني يجـوس قُـرى الصَّفيح، ومواقعَ البُؤْس في اليابان، جاهدًا في بثِّ ما استطاع من عـزاءٍ وعَـوْنٍ، وموزّعًا صُوَرًا للسَّيِّدة العذراء. وقد التقى، ذاتَ يومٍ، الآنسة "ساتوكو كاتاهارا"، وهي طالبةٌ في كُلِّيَّة الصَّيدلة، كانتْ قد اعتنقتْ، حديثًا، الدِّينَ المسيحيَّ. وقد حَـدَّثها عـن فُقَراء مدينة النمل، وناشدَها الصَّلاَة من أَجلهم. وقد بُهرتْ "ساتوكو" بالإِشعاع السَّنيِّ، البعيدِ الغَوْر، المُنْبعث من الأَخ "زينو" المُغرِق في التَّواضُع والمحبّة، فوطَّنَت العـزمَ على الوقوف بنفسها على معالم البُؤْسِ الَّتي حَدَّثها عنها بتأثُّرٍ متدفّقٍ حبًّا؛ وغـامرتْ فولجتْ بمُفردها ذلك الحيَّ الزَّريَّ الَّذي كان يأبَى أَن يغشاه أَيُّ يابانيٍّ محترَمٍ. ومنـذُ الوهلة الأُولى، صَدَمَها مشهدُ البُؤْس المريع المنبسط على خطواتٍ من منزل ذويها،

فعقَدت العزمَ على الخدمة بكُلِّ ما يتيسَّر لها، في "مدينة النمل". وقد تعلَّقتْ تلقائيًّا بأَطفال الأَكواخ الَّذين باتتْ تزورهم، كُلَّ يومٍ، وتُلقِّنهم شتَّى الدُّروس، مؤازرةً، في آنٍ واحدٍ، جامعي النِّفايات، ومعالجةً المرضى، وغازيةً قلوبَ الجميع.

وقد باءَت بالفشل جميعُ محاولات رجال الأمن الَّذين كانوا يخشوْن عليها من مَغَبَّة اختلافها إِلى تلك الأَماكن المُريعة، سيِّئَة السُّمعَة، فسعَوْا، عَبَثًا، إِلى رَدْعِها، وكذلك كان باطلاً مصيرُ مُحاولات والدها، الأُستاذ في كُلِّيَّة الزراعة، فقد كان عَزْمُها ثابتًا لا يتزعزع. ثمَّ ما لبثتْ "ساتوكو" أَن التمست من والدها أَن يأذَن لها بالإِقامة الدَّائمة بين ظهرانَيْ من قرَّرتْ أَن تُكرِّس ذاتَها لخدمتهم. وقد بنت بيدَيْها الكوخَ الَّذي بات مَسْكِنَها، وسرْعانَ ما أَشاعت روحًا جديدًا، أَسبغ على "قرية المُتَسَوِّلين" وجهًا قشيبًا، ومُناخًا عابقًا بالفرَح والمحبّة والوِئام. وتحلَّقتْ حولَها جماعةٌ من خمسين شخصًا، حذا عشرةٌ منهم حَذْوَها، فاعتنقوا المسيحيَّة.

وما عَتَّم أَن نال الإِرهاقُ، وسوءُ التَّغذية، وشُروط السَّكَن الوبيلة من مناعة جَسَد تلك الفتاة الرَّقيقة، فغزا السِّلُّ رئتَيْها؛ ولكن لم يقوَ وَهَنٌ أَو مرضٌ على النَّيْل من مناعة نفسها وحُبّها، فكانت لا تتوانى عن مغادرة المصحَّة لتقفَ في وجه الجرّارات القادمة لسَحْق الأَكواخ، وتَمنعَ الشُّرطة من طَرْد إِخوتها الفُقَراء من مساكنهم البائسة، قبل أَن تُؤَمّن لهم مساكنَ لائقة.

وعندما أَشرفَتْ على أَجَلها، عام ١٩٦٨، كوفئَتْ برؤيةِ جهودها تُثْمِر وأَمانيها تتحقَّق، إِذ تبرَّعت بَلَديَّةُ طوكيو بقطعة أَرضٍ مساحتُها ستَّةَ عَشَرَ أَلفَ مترٍ مُربَّعٍ، لمدينة النمل، حيثُ أُنشئت مساكنُ صحِّيَّةٌ، وورَشاتٌ منظَّمةٌ. وفي عام ١٩٦٩، أَي سنةً بعد وفاة مؤَسِّسها، انضمّت "مدينة النمل" إِلى حركة "عمّاوس"، وغدا اسمها "مدينة النمل الجديدة".

أَمّا الأَب "فلاّد" ففي أَعقاب بضعة أَشهرٍ من مُمارسة جمع النّفايات، قرَّر تأْسيس جماعتِه الخاصَّة، على أَن يكون مقرُّها في مدينة "كوبيه"، وأَن تكون، ثمَّةَ، موازيةً لمدينة النمل في طوكيو. وقد آزره السَّيِّد "يوشيدا" وقرينتُه، وكلاهما كانا قد تأَثَّرا، تأَثُّراً بالغًا، بسلوك الآنسة "سالوكو كيتاهارا". وقد عُمِّدت الجماعةُ الجديدةُ باسم "جيوكو كاي" أَي نور الصباح، تيَمُّنًا بالسَّيِّدة العذراء، نور العالمين المُشرق، وأُمِّ

الفَجْر المُضيء. وقد استفسر صحافيٌّ أَميركيّ الأبَ "فِلاّد" عن رمز "نور الصباح" متسائلاً: أهو يعني التجدُّد، والربيع، والرَّجاء؟ فقال:

– « لا، بل هو لحظةُ الصِّراع بين النَّهار واللَّيْل، ساعة يستيقظ السِّكّير المُثْقَل بالسَّاكي من السُّبات الَّذي فزع إِليه هربًا من شقائه، وساعة يعود الفقير والمريض إلى الغَرَق في بُؤْسهما اليَوميّ. ولكن هو، أَيضاً، الوقت الذي يبدأ فيه كُلُّ شيءٍ من جديد، وفيه ينعتق المرءُ من أَوهامه، ويتوسّمُ أَملاً جديدًا، كفيلاً بجعل أَكثر الناس قُنوطًا يُنقذون آخَرين، فيُنقذون، بذلك، أَنفسَهم ».

وقد دُشِّنت جمعيّة "نور الصَّباح" يومَ عيد سيِّدةِ الحبل بلا دنس، في الثامن من كانون الأَوّل ١٩٥٦.

أَمّا مولد تلك الجمعيّة فقد تمَّ في الآلام، وكانتْ بداياتها شاقَّةً، إِذ لم يكن بدٌّ من تذليل العَقَبة الكأْداء المُتَمثِّلة في تعليم الأَربعينَ رفيقًا، الَّذين أَلَّفوا الجمعيَّة الوليدةَ، التغلّبَ على القُنوط الَّذي غالبًا ما يدفع إِلى التَّواني أَو إِلى العُنْف، والعيش وفقًا لقواعد جديدة. وقد اقتضى الأَمرُ سنتَيْن من العيش والعمل المشتركَيْن، قبل أَن يُشيد الرفاقُ بناءً استُخْدِم طابقهُ الأَرضيُّ مُستودَعًا لفرز النّفايات، والغُرَف العَشْر الَّتي علَتْه لإيواء نحو أَربعين شخصًا، ثمّ أُضيفت إِليه قاعةُ طعامٍ ومستوصفٌ ومُصلًّى. وفي ما بعد أُشيد مَقَرٌّ للجماعة في مجرى نهرٍ جَافٍّ، إِلى جوار قرية صفيحٍ بائسةٍ، في منطقة "أَماكازاكي". غير أَنّ ذلك المقرَّ لم يُعمِّر طويلاً، إِذ قضى عليه طوفانٌ جَارفٌ، فاستُبدل بآخر، أَحسنَ مصيرًا، في أوزاكا، عام ١٩٥٧، سُرعانَ ما أُلحق به مستوصفٌ، ودارُ حضانةٍ. وإِلى جوار ذلك المقرّ، وبفضل دخل مزرعةٍ تابعةٍ له، نَهَضَ، في ضاحية أوزاكا، بعد اثني عشر عامًا، على قِمّة تلّةٍ، "مركز كيتاهارا" لاستقبال العَجَزة والعناية بهم.

وفي عام ١٩٧٥، أَفضت جهود أُولئك الرُّوّاد إلى تأسيس "عمّاوس آسيا"، ثمّ، في عام ١٩٧٢، وفي أعقاب اشتراك نحو ستّين شابًّا يابانيًّا في مُخَيّمٍ للشَّباب في فرنسا، انبثقتْ جماعةٌ عمّاوسيَّةٌ جديدةٌ، في طوكيو، باسم "عمّاوس الشابَّة".

وعرفانًا بجمائل الأَب "فِلاّد" وتكريمًا لجهوده الرَّائدة، انتخبته مُؤَسَّسة "عمّاوس الدَّوْليّة" مسؤُولاً عن جماعات "عمّاوس" في الشَّرق.

تلّة العذراء سيّدة الفقراء: عمّاوس في رواندا

رواندا "بلَدُ العشرة آلاف تلّة"، القابعةُ، متوانيةً، على بُعد مئة كيلومترٍ مــن خــطّ الاستواء، تمتاز بسِحْر مناظرها الجَبَليَّة الضَّاحكة، وانتشارِ البُحَيْرات الحالمةِ المُتألِّقــة، الَّتي تعكس للسَّماء صورةً صافيةً، واعتدالِ مُناخها الدَّائم الَّذي لا ينــال منــه تعاقــبُ الفصول. تلك الميّزات تجعل من رواندا البلدَ الأَفريقيَّ الأَكثر اكتظاظاً بالسُّكّان، بحيثُ يكاد يُعادل سويسرا كثافةً سُكَّانيَّة، غير أَنّها، بالمقابل، تجعل وسَطيَّ دخل الفرد فيــه، واحدًا من أَدنى الدُّخول في العالَم. فالزِّراعة تُمثِّل موردَ البلاد الأَساسيّ، إلاّ أَنّهــا مــا برحتْ، هناك، تعتمد وسائلَ باليةً؛ ومع أَنَّ مُعظَم الأَراضي الصَّالحة للزّراعة مُستَغلَّةٌ، غير أَنّ هُزال إنتاجها يكاد لا يكفي لإطعام جميع المواطنين؛ ومن ثَمَّ فالأَملُ الوحيد في إنعاش الاقتصاد الوَطنيّ يكْمُن في استنباط زراعاتٍ جديدةٍ وإنمائها؛ وهو أَمرٌ مُتَعــذِّرٌ، إلاّ في إطار برنامج تعاونٍ دَوْليٍّ؛ وفضلاً عن ذلك، إنّ نــصفَ سُــكّان روانــدا دون الخامسةَ عشرة من العمر، والمساكن من البَعْثَرة بحيثُ تغدو أَيَّــةُ محاولــةٍ للتَّثقيــف والعَمَل الاجتماعيّ شبهَ مُتَعذِّرةٍ؛ ومرافق الصحّة والتعليم مريعةٌ بضآلتها، بل بغيابها.

في ذلك البلد، اختارَ الأَبُ جوزيف فريــپـــون (FRAIPONT)، البلجيكــيُّ المولِد أَن يعيش ويعمل. وكان قد جاءَه، عام ١٩٥٧، وهو ما زال كاهنًا شابًّا، مُكلّفًا بتدريس اللُّغتَيْن اللاَّتينيّة واليونانيّة؛ ولكن سُرعانَ ما تبيَّن له أَن ليــست تلــك هــي الأَوْلويّة الَّتي يفتقر إليها بَلَدٌ كَلِفَ هو به، وعَزَمَ على أَن يُكرِّس حياتَه لــه ولــشَعبه، وأَن يَقِفَ كُلَّ حُبّه على صغاره، ولا سيَّما أَنّ تدريسه تَيْنك اللُّغتَيْن القديمتَيْن لم يكــن يفيد منه سوى نفَرٍ شديد الضآلة من المَحظيّين. ومن ثمَّ آثــر الأَبُ "فريــپـــون" التزامًا آخَر، أَشدَّ التصاقًا بحياة الشَّعب المحروم، كي يشهد للحبّ.

وعندما نالت "رواندا" استقلالَها، اعتنق الأَب "فريــپـــون". جنــسيَّتها، واســم "تداجيجيمان"، الَّذي يعني، في مختلف اللَّهَجات المحلِّيَّة: "أَوكلتُ للربّ أَمري".

وممّا كان له أَثَرٌ بليغٌ في دَفْعه نحوَ منحاه الجديد، والرِّسالةِ الَّتي وطَّــد العــزمَ على خِدْمتها، فترةٌ كان قد قضاها، لسَنواتٍ خلتْ، مع رفاق "عمّاوس"، وقد خلَّفتْ فيه حياتُهم المُشتركة، وما يسودُها من روح الإخاء والتَّضحية، أَثــرًا عميــق الغَــوْر لا

يُمحى. وكانَ أَوَّل ما صدمه في "رواندا"، حشدٌ من الأَطفال واليافعين المُعوَّقين جَسديًّا، يربو عددهم على عشرة آلافٍ، يُجَرْجرون حياتَهم البائسة، مُهمَلين وَسْطَ شعبٍ فقيرٍ، لا مكانَ لهم بين أَصحَّائه، تُقعدهم عاهاتهم عن العمل، فيواجهون بُؤْسَهم عُزَّلاً، لا أَملَ لهم في عَوْنٍ أَو علاجٍ أَو شفاءٍ، ولا مستقبلَ يتطلَّعون إِليه سوى التَّسوُّل، في أَفضل الأحوال.

على خدمة أُولئك البائسين عزم الأَب "فريپون" أَن يقف كُلَّ جهوده، وأَن يعمل كُلَّ مُستطاعٍ وغير مُستطاعٍ، كي يمكِّنَهم من حياةٍ أَوفر كرامةً، ويوفّر لهم فرَص ازدهارٍ أَفضل؛ فهَجَر التَّعليمَ كي ينصرف إِلى تلك المهمّة الَّتي كانت تُضرمُ كيانَه اندفاعًا، وأَفلح في إِقناع السُّلطات بإِطلاق يده في تَلَّةٍ جرداءَ مهجورةٍ، لا أَثَر فيها سوى بيتٍ صغيرٍ مُتَهدِّمٍ، تدعى "كاتاغارا"، حيث استقرّ وأنشأ مركزًا لاستقبال المعاقين الصِّغار؛ وكانت تلك انطلاقةَ لمغامرةٍ رائعةٍ، جعلتْ من "كاتاغارا" نموذجًا يُحتذى به في إِغاثةِ من قسا عليهم الدَّهرُ، ومُصالحتِهم مع الحياة والأَمل.

لقد شرع بتحويل أَطلال البيْت الخَربِ إِلى منزلٍ فسيحٍ؛ وفي مطلع عام ١٩٦١ أَنشأَ جمعيّةً أَطلق عليها اسم "منزل عذراء الفقراء"؛ وكان أَوَّل قاطني ذلك المنزل، أَربعة عَشَرَ مُعاقًا يافعًا. وما عتّمت أَن أمستْ تلّة "كاتاغارا" قريةً تَضمُّ عِدَّة مبانٍ منها مدرستان مِهنيّتان، إِحداهما للصِّبيان المُعاقين، وأُخرى للفَتَيات المُعاقات. وسُرْعان ما انضمّ إِلى الأَب "فريپون" مُتَطوِّعون من "روندا" وأُوروپا. وقد تَولَّت الدكتورة "تيريز سيميلون"، المُتخصِّصَةُ في معالجة الإِعاقات الجسديَّة، تُساندها ممرّضةٌ مُتَطوّعةٌ، مُهمّةَ العناية الطِّبِّيَّة، في حين عَكَفَ فريقٌ من الأَصدقاء على جباية المُساعدات المادِّيَّة الكفيلة بتأمين سَيْر المؤسَّسة. وفي غضون سنواتٍ معدوداتٍ، ارتقى عددُ نزَلاء "منزل عذراء الفقراء"، من المعاقين، إِلى مئتين وخمسين صبيًّا وفتاةً مُتَفاوتي الأَعمار؛ وعلى غرار ذلك المنزل، افتُتحت عِدَّةُ مراكز للمعاقين في مختلف المدن الرواندِيَّة.

وهكذا انبثقتْ، في تلّة كاتاغارا، وفي المراكز المُماثلةِ لها، حياةٌ قشيبةٌ، إِذ علَتْ شفاهَ المُعاقين فيها بسمةُ الثِّقة والأَمل، وباتوا يُكافحون، ببسالةٍ، في سبيل عَيْشٍ كريمٍ، مُتَحدِّين عاهاتِهم، بعد أَن باتوا يتلقَّوْنَ تربيةً علِميَّةً أَساسيَّةً، والعلاجَ الَّذي يُؤَهِّلهم

لاكتساب استقلاليَّةٍ قُصوى، بفضل استخدامٍ أَفضلَ لأَعضائهم. وفي تلك الأثناء كـان بالغون تحدوهم روحُ التَّضحية، يخوضون حياةً جماعيّةً موقوفةً على خِدْمة الطُّفولـة المحرومة؛ ولا بدعَ، بالتَّالي، إِن غدتْ تلّة "كاتاغاري" مَلكوتًا للأَمل، وإِن دُعِيتْ "تلّة الأَمل".

بعض المعاقين، كانوا، بعد قضاءِ بضعة أَشهرٍ، أَو بضع سنواتٍ في المركـز، يعودون إِلى ذويهم، وقد أَمسوا أَفضل تسلّحًا لمواجهة الحياة، في حين يُؤثِر آخَـرون المكوثَ كي يساعدوا القادمين الجُدُد، أَو يَشْخَصون إِلى مناطق أُخرى من البلاد، كي يُقدّموا فيها العَوْن لأَقرانهم المعاقين. أَمّا المُتَطوِّعون لخدمة أَطفال "منـزل عـذراء الفقراء"، فكانوا يُؤَلِّفون، شيئًا فشيئًا، جماعةً متينةً، مُطَبِّقين تعـاليم "عمّـاوس" فـي المحبّة، وغَوْث المتأَلِّمين، مع أَنَّ مركز "كاتاغارا"، عند نشأته، لم يكن تابعًا لعمّاوس، بل مُجَرَّد تجربةٍ مستوحاةٍ من مثالها. إِلاَّ أَنّه، تلقائيًّا، رغب فـي الانـدماج بـشبكة "عمّاوس". وفي شهر تشرين الأوّل من عام ١٩٦٨، تلقّى الأَب پـيير رسـالةً مـن جماعة المُتطوّعين الأَفريقيّين في "كاتاغارا"، جاءَ فيها:

« إِنَّ منزلنا المتواضع الَّذي تأَسَّس عام ١٩٦٠ قد أَصبح قريةً صغيرةً، حيـثُ يأتوننا بالبائسين من كُلِّ صَوْبٍ. وقد باركَنا الربُّ، وما انفكّت بركتُه تواكبنا. يلزمنـا ملايين، كُلَّ عامٍ، ومع أَنّنا لا نعتمد على أَيّة مساعدةٍ مضمونةٍ، نتوفّق، فـي نهايـة المطاف، إِلى النُّهوض بجميع التزاماتنا. أَجَل، إِنَّ الربَّ يُوفِّر لنا جميع احتياجاتنا، لا الماليَّةَ فحَسْبُ، بل أكثر منها. فكم يتكشّف معاقونا، الَّذين يوافوننا حُطامًا مُهَلْهلاً، عن روائع سَخاءٍ، كُلَّ يومٍ!

"ثمّة، الآن، جماعتان للشبَّان وللشَّابّات الأَفريقيّين، الرَّاغبين في تكريس ذواتهم، مئةً بالمئة، للفقراء مع الحفاظ على صبْغَتهم الأَفريقيّة، مئةً بالمئة، وحِرْصِهم علـى توثيق صِلاتهم بإِخوانهم، وفَهْمِهم وحُبِّهم... في بلدٍ مثل بلـدنا، إِنّمـا الحاجـة إِلـى جماعاتٍ مثلِ هذه، الَّتي ينبغي أَن تنموَ، وتزدهرَ، وتتكاثرَ، وأَن تشعرَ أَنّ هناك، في العالَم، أُلوفَ الشبّان الآخرين الَّذين يؤْمنون بنفس المبادئ، ويعيشونها... هل بوسعنا أَن نغدوَ رفاقَ "عمّاوس"، وأَن تنتسب جماعاتنا لجماعات "عمّاوس"؟ »

وقد تحقّقت رغبتُهم في السَّنةِ التَّالية، بمناسبة انعقاد الهيئة العامّة العالميّة الأُولى

لعمّاوس، يوم عيد العنصرة. وقد جاء في النشرة الصَّادرة بمناسبة الذِّكرى العاشرة لتأسيس "منزل عذراء الفقراء" برواندا:

« رغبةً منّا في تدعيم وحدة جميع أَعضاء أُسرتنا، معاقين ومربّين، قرّرنا بالإجماع أَن نصبح "جماعة عمّاوس" رواندا. وهذا يعني اختيارَنا أُسلوبَ مشاركة ظُروف حياة إِخوتنا المعاقين، وحياةِ كُلِّ من يتأَلَّم على مقربةٍ منّا، وتصميمَنا على أَن نَخْطوَ مَعَهم خُطواتٍ واقعيَّةً في خدمة الآخرين، لكي ينعم الجميعُ بفَرَح العطاء وفخرِه، ولكي يستثيرَ لدى الآخرين الخَجَل لكَوْنهم مَحْظِيِّين، قليلي الجدوى، أَو لا جدوى منهم على الإِطلاق ».

كانت مُشكلةُ المعاقين الكبرى تتمثَّل في تَلَفِ أَطرافهم السُّفلى ممَّا يُعيق سَيْرهم أَو يحولُ دونه، وتقتضي علاجًا يحدُّ من تأثير العاقة، أَو استخدام الأَطراف الصِّناعيَّة. وبما أَنّ أَسعارَ مثل تلك الأَطراف كانت باهظةً لمؤسَّسةٍ تنوءُ بعبءِ التزاماتها اليَوْميَّة، فقد تَمَّ إِنشاءُ مشغلٍ لصُنع أَجزاء تلك الأَطراف الأَساسيّة، ولهذه الغاية تَمَّ تدريبُ فريقٍ مؤلَّفٍ من ثمانية معاقين؛ وأُنشئتْ، أَيضاً، مصانع أُخرى، كان من شأْنها توفيرُ موادَّ أَساسيّةٍ، وخدماتٍ ضروريَّةٍ لحُسنِ سَيْر المؤسّسة، وفي آنٍ واحدٍ، إتاحةُ الفُرصة للمُعاقين الشُّبّان كي يظفَروا بخبرةٍ في مِهَنٍ يواجهون بها المستقبَل، مثل أَعمال صناعة الحديد، ولَحْم المعادن، والميكانيك وإِصلاح السَّيّارات.

أَمّا الصُمُّ والبُكْمُ، فقد ظفِروا بعلاجٍ خاصٍّ، على أَيدي اختصاصيّين، وتبرَّعَ لهم أَصدقاءُ أُوربيون بأَجهزةٍ سَمْعيّةٍ تيسِّر اتِّصالَهم بالعالَم الخارجيّ.

واتَّضحت خطورة معالجة المعاقين باكرًا، قبل استفحال عاهاتهم، فافتُتِحَ، في "كاتاغارا"، قِسْمٌ خاصٌّ لاستقبال الأَطفال المُعاقين، والعَمَل على الحدِّ من إِعاقتهم، ومن ثَمَّ، تلقينهم العُلومَ الأَساسيَّة المعادلةَ لسنوات الدِّراسة الابتدائية الخمس، وفي ما بعد تمكينهم من كفاءةٍ مِهْنيّةٍ تكفل لهم كَسْبَ عَيْشهم بكرامة. وبما أَنَّ موارد البلاد الرئيسة ناجمةٌ من الزِّراعة، فقد حَرِص المشرفون على تأْهيل أَكثر المعاقين قدرةً على الحركة، لاستخدام الأَساليب والتقنيّات الزّراعيّة المُتَطوّرة الكفيلةِ برفع مستوى الإنتاج الزِّراعيّ في "رواندا"، وتحسين نَوْعيَّته.

وهكذا استطاعَ عَدَدٌ من المُعاقين، بعدَ فترة تدريبٍ، العودةَ إلى منازلهم، والمساعدةَ على تحسين الزِّراعة، وتربيةِ المواشي، في حين قرَّر آخَرون المكوثَ في تلّة "كاتاغارا"، وتعاطيَ زراعاتٍ نموذجيَّةٍ، وإنتاجَ شتّى صُنوف الخضار والفواكه، بل التَّصدّي لزراعة البنّ. وقد حقَّق بعضُهم ما كان يبدو مُستحيلاً، إذ أَسَّسوا، ثمّة، أُسَرًا، وغدا لكاتاغارا أَطفالها.

وعام ١٩٧٤ تبرَّعَ زوجانِ من الأُوروپيّين - بيرنار ومارتين - بتأسيس مَدْبَغةٍ، كانت، في آنٍ واحدٍ، مدرسةً لتعليم صِناعة الدِّباغة الَّتي أَثبتت جدواها في بلدٍ حافلٍ، بالمواشي.

أَمّا الفتيات فكنَّ يَظْفَرْنَ بتربيةٍ أَساسيَّةٍ في الطَّهْو، والخياطة، والعناية الصِّحِّيَّة، وتربيةِ الأَطفال، وأَيضاً في فنونٍ خاصَّةٍ ذات شأنٍ في التقاليد الأَفريقيّة، كالتَّطريز، ونَظْم اللُّؤلُؤ والخرز. وقد تأسّست لهذا الغرض تعاونيّةٌ كانت توفِّر للمُتمرّسات بتلك الفنون الموادَّ الأَوَّليَّة بأسعارٍ معقولةٍ، وتضمن لهنّ بيع إنتاجهنّ بأَفضل الشُّروط.

أَمّا الإِنجازُ الأَكثرُ إِعجابًا، فتَمثَّل في قيام نحو اثني عَشرَ مُعاقًا تلقَّوا التدريبَ في "كاتاغارا"، بتأسيس مَشْغَلٍ لتصنيعِ الأَلبسة. وقد عُدَّ ذلك الإنجاز فَتْحًا في بلدٍ ما زالت فيه الصِّناعةُ تحبو، وما برح فيه اللباسُ بدائيًّا.

ومع أَنّ مُهمَّة "منزل عذراء الفقراء"، الأَساسيّة، كانت العنايةَ بالمُعاقين، إلاّ أَنَّ ذلك المنزل لم يستطع إِغفالَ مصير سائر المواطنين ومعاناتهم. وبما أَنَّ مُعظمَ أطفال الجوار كانوا يُقاسون سُوءَ التَّغذية، كان لا بُدّ من معالجة ضحايا نقص التَّغذية، وتلقين الأُمّهات توفير غذاءٍ أَفضل، وأكثر توازُنًا لأَطفالهنّ. وفي هذا السَّبيل أُنشئَ مركزٌ غذائيٌّ، بفضل مساعدات مُنَظَّماتٍ خيريَّةٍ، كما أُسّس مستوصفٌ مهمَّتهُ توفير المعالجة الصِّحِّيّة الأَساسيَّة للأَطفال.

وكان لإِنجازات تلّة "كاتاغارا"، ولإِسهام بعض المستفيدين منها في تعميمها، إِشعاعٌ واسعُ النِّطاق، في كلّ أَنحاء رواندا، وفي بلدانٍ أُخرى مجاورةٍ مثل الكونغو، حيث نشأَت مراكز مُماثلة.

وبفضل كفاءَةِ وتَضْحية مهندسٍ الكترونيٍّ بلجيكيٍّ يُدعى "روبير شوم" أُنشئت

على أَرضٍ في العاصمة كيغالي، قدَّمتها السُّلُطات، تعاونيّةٌ تتعاطى جمع أَجهزة الترانزستور، يعمل فيها ويُديرها مُعاقون. كما انبثق، إِلى جوار تلك التَّعاونيّة، وبمبادرةٍ من الأَب جان، مركزُ تدريبٍ مهنيٍّ للميكانيك والكهرباء، فضلاً عن استصلاح الأَراضي وزراعة الخُضار.

وفي غضون عشرين سنةً، أَمسى المركز الَّذي افتتحه ونشَّطه الأَب "جوزف فريپون" عِمادًا للنُّموِّ الاجتماعي في "رواندا"؛ وبفضل ذاك الَّذي اختار اسم "تداجيجيمانا"، أَفلح فتيانٌ كان النَّبْذُ المُطلَق مصيرَهم المحتوم، أَن يحتلُّوا مكانَهم في المجتمع، ويعيشوا عيشًا طبيعيًّا، بعد أَن آنسوا أَنّهم محبوبون، وتعلَّموا البَسْمة والضِّحكةَ، واللَّعِبَ كسائر الأَطفال، ورغم أَطرافهم الاصطناعيّة أصبحوا يرقُصون، بل يلعبون بالكرة.

وعندما اشتدّ المرضُ بالأَب "فريپون"، قَفَل عائدًا إِلى بلجيكا، حيث تُوفِّيَ بعد أَن قضى سنةً في شَلَلٍ تامٍّ؛ وقد شَهِدت الرَّاهبةُ الَّتي رافقت نشاطَه ومرضَه واحتضارَه، بقولها:

« منذُ الوهلة الأُولى، ولكن على الأَخصّ عندما يُتاح للمرء أَن يعيش في مُتناوَل إِشعاعه، يدهشُ لرُؤية مدى تفانيه في سبيل الآخرين، ولا سيَّما في سبيل أَطفاله المعاقين الأَحبّاء، الَّذين كان يشدُّه إِليهم عطفٌ عميقٌ، يُمكن وصفه بحنان الأمّ. تفانيه كان يُنسيه نفسَه نِسْيانًا تامًّا. لم يكن بِوُسْعِهِ رُؤْيةُ بؤسٍ إِلاّ اعتملت فيه الرَّغبة في إِغاثته بأيِّ ثمنٍ... ما كان يهمّه، في المقام الأَوّل، هو الحفاظ على روح "كاتاغارا" المميّز: الروح الإِنجيليّ، وخدمة الأَكثر تواضُعًا وحرمانًا، والجاهزيّةُ، وحُسْنُ الاستقبال. وكان حُسْنُ الوفادة من صِفاته المُمَيَّزة، فحتّى عندما كان مُعتكفًا في مكتبه، مُثْقَلاً بالمُهمّات، متَمنّيًا أَن يعمل في هدوءٍ، ويطرق طارقٌ بابَه بغتةً، كان يُرحِّب بالزَّائر بابتسامةٍ عريضة، ويُصغي إِليه باهتمامٍ، ويَهَبُه وقتَه، كما لو لم يكن يشغلُه سواه. ذلك الطِّيبُ المُتأَصِّلُ فيه، كان يرغب في أَن يكون سِمَةَ "كاتاغارا" المميّزة. وكانت نصيحتُه إِلى المُربّين، وإلى جميع المُهتمّين بالأَطفال: أَن يكونوا شُهودًا للطِّيبة، بحيثُ يوقِن الأطفال، حقًّا، أَنَّهم محبوبون ».

وفي كولومبيا

لأَكثر من عشرين سنةً خلتْ، استقرَّ الأَب "فلاڤيو ڤيرونيزي" الإِيطاليُّ في جزيرةٍ نائيةٍ، بعيدًا عن المُدُن الكبرى، بين الغابة الاستوائيّة، والمحيط الهادئ، هي المرفأُ الأَوّل، والأَوفرُ نشاطاً في كولومبيا، رغم صِغَر حَجمه، غير المتناسب مع عدد سكّانه السُّود، المكَدَّسين في تخشيبات مدينة صفيحٍ عائمةٍ على أَوتادٍ فوق البحر، وما تنفكّ تمتدّ، مع الأَيّام، بفضل أَقذار المدينة الَّتي تني تُقْذَف تحت "شوارعها". أَمَّا جزؤُها الواقع على اليابسة، فشريطُ شاطئٍ ضَيِّقٌ موحِلٌ؛ ومن وراء الجسر، تربُض مدينة "بويناڤنتورا" الَّتي لا تَقِلُّ عن مرفئها قذارةً وبؤسًا "والَّتي تبدو من الجوّ، في أَيّام الجزْر، وكأَنّها مدينةٌ غمرها طوفانٌ وحْليٌّ".

ويعترف الأَب "فلاڤيو" قائلاً: "وصلتُ إِلى هنا صدفةً، فربطني بذلك المكان حبٌّ صاعقٌ. وراءَ المرفأ لا شيءَ سوى الغابة. وفي المرفأ زنوجٌ فقراء، أَحفادُ العبيد الأَفريقيّين الَّذين قُذِف بهم، لثلاثة قرونٍ مَضَتْ، على الشَّواطئ الكولومبيّة، فأَهَّلوا تلك البُقْعةَ للسَّكَن. إِنّهم مُستَغَلّون بكلّ وسائل الاستغلال، ومعظمُهم عاطلون عن العمل، ومع ذلك لا ينفكُّ عددُهم في تفاقُمٍ، وقد اجتذبهم سحرُ مدينةٍ لا تُقدِّمُ لهم سوى وعودٍ كاذبةٍ، وشقاءٍ أكيدٍ.

تضُمُّ مدينة "بوينا ڤانتورا" مئتَيْن وخمسين أَلف ساكنٍ، وقد أَولتها السُّلطات دَوْرَ "نافذة البلاد على المحيط الهادئ" رغم افتقارها إِلى مرافق النُّموِّ المَدَنيّ العقلانيّ. وفيها أَسّس الأَب "فلاڤيو"، المُلَقَّب بالنحيل، وصديق الزُّنوج، عام ١٩٧٩، جماعةَ صيّادي "عمّاوس"، في كولومبيا.

لم يكن بوسعه انتهاجُ سُبُل "عمّاوس"، في معظم البلدان الأُخرى: فالأَقذارُ تُستخْدَم أُسُسًا للأَكواخ العائمة، ولا فضلات يُمكن جمعُها والإِفادةُ منها؛ فليس في المدينة من يمتلك الضروريَّ، أَو يستطيع الاستغناء عن شيءٍ مهما كان زريًّا. ولا موردَ رزق غير الصَّيد، يتعاطاه أَرباب الأَسَر وشُبّانها. وإِذ لم يكن الصَّيْد كافيًا لإِطعام أُولئك الجائعين، ولا سيَّما بعد انهيار أَسعار الأَسماك في أَعقاب انتشار الكوليرا، لجأَتْ "عمّاوس" إِلى إِنشاء مخبزٍ، ومطعمٍ عُمَّاليٍّ. بيد أَنَّ إِنجازَها الأَكبر

كان حوضاً لإصلاح السُّفن. وقد باشَرَ العَمَل بأساليبَ حرفيّة، ولكنّه أَخذَ بالتوسُّع منذُ عام ١٩٩٠، بحيثُ غدا قادرًا على بناء ناقلات بترول، وأَمسى أكبر حوضٍ بحريٍّ لإصلاح السُّفُن وبنائها على شاطئ المحيط الهادئ الكولومبيّ.

وبفضل إنتاجها تمكّنت تعاونيّة الصيّادين الَّتي تضمُّ نحو ستّين عضوًا من التوسُّع، ومن بناء مساكن نظاميّةٍ، ومستوصفٍ، ومَقَرٍّ جماعيٍّ لائق.

وغدت "عمّاوس" عنوانًا مميَّزًا لأنّها توفِّر العَمَل للمحتاجين، ولأَنَّ صوفيَّتَها، ومثالَها الجماعيّ، ورغبتَها في خدمة الأَكثر فقرًا، تتلاءَم مع عقليّة زنوج الشَّاطئ الَّذين ينشدُون نَمَطَ عَيْشٍ جديدٍ، لا يمكن أَن يكون شبيهًا بنَمَطِ عَيْش البيض.

رسالة من الغابون

الدُّكتور "أَلبير شفايتزر" (SCHWEITZER)، الَّذي كَرَّس حياتَه لمعالجة الأَفريقيّين، وظَفِرَ بجائزة نوبل للسَّلام، كتب عام ١٩٦٠ رسالةً أَخويّةً إلى الأَب پيير مُحَذِّرًا إيّاه من النَّزعةِ الوبيلة إلى محاورة العالَم أَجمع، ومن كُلِّ عَمَلٍ يتطلّع إلى حجْمٍ عالَميٍّ، إذ على المرءِ أَن يُحدِّدَ المنطقة الَّتي يرغب في العمل فيها، فحقيقةُ الشَّقاء ليست واحدةً في كُلِّ مكانٍ، ولا بُدَّ من استلهام الحلول من الْوَاقِع؛ ومن شأْن تعميمِ الرِّسالة إضعافها، فإن أَنتَ عملتَ في حقلك كنتَ نهرًا يُخصب الأَرض، ولكنَّك إن تطلّعتَ إلى العالَميّة كنتَ ماءً لا مجرى له، لا يغمر الأَرض إلاّ بقِشْرةٍ رقيقةٍ. وربَّما فات "شفايتزر" أَنّ الأَب پيير لم يسعَ إلى العالَميّة، بل إنّ العالم الَّذي اهتزّ لرسالة "عمّاوس" هو الَّذي سعى إليه مُلتَمسًا دعمَه الأَدَبيَّ، وبركتَه، وشرف الانتساب إلى الحركة الَّتي أَسّسها في فرنسا. وقد أَضاف "شفايتزر" في رسالته:

« إنّكَ تتمتّع، أَبتِ العزيز، بامتيازٍ جَمٍّ، مُتَمثِّلٍ في كونك تَعِظُ بنشاطك؛ وما الكلماتُ سوى المصاحبة الموسيقيّة الخافتة لذلك النَّشاط. فحافظْ على تلك الميزة، مُستقبلاً، منظِّمًا، موقظاً بفضل انسياب خطابك الَّذي يستفزّ الحماس. ما يتوجَّب الآن هو إبقاءُ جذوة الاندفاع متّقدةً، ودفعها في سبيل العمل المثمر... إنّ العالم بحاجةٍ إلى أَفكارٍ فاعلةٍ، وبانتظار تفاعل الرُّوح مع الواقع والسُّموِّ به. دَعْ لسواكَ مُهمَّةَ نشر خواطرَ إنجيليَّةٍ نظريَّةٍ، بالكلام أَو بالكتابة، أَما أَنت فعليك جعل تلك الخواطر فاعلةً

في الحقل المخصّص لك. فليَهَبْكَ الله من الحكمة والطَّاقة ما يُمكِّنك من بثِّ شُعاعٍ من نور الإنجيل في ظُلمات هذا العالَم ».

وهرع الأَب پـيير إِلى مدينة "لامباريني" الَّتي اتَّخذ فيها الدكتور "شـڤـايتزر" مقرًّا، وأَقام فيها مشفى للبرص، للتحدُّث إِليه، فنشأت بينهما علاقةٌ حميمــةٌ حـارّةٌ، عبَّرتْ عن ذاتها بسلسلةٍ من المراسلات المتبادَلَة بانتظـامٍ؛ وقـد صـرّح الـدكتور "شـڤـايتزر" عام ١٩٦٤: "سيكون بوسع العالَم أَن يلحظ اشـتراكنا بـنفس الـرّوح الإِنسانيّة، ونفس المُثُل، ونفس التَّقوى".

وقد كانتْ تلك الصَّداقةُ الصَّادقةُ، النَّاقدةُ، على بُعد المسافات، ثمينةً للأَب پـيير الَّذي كتب: "إِنّ ما يفتقر إِليه المرء المنغمس في واقع الحياة المأساويّ، هو الـصَّداقةُ الَّتي تجمعُ أَشخاصاً حقَّقوا إِنجازاتٍ رائعةً وعسيرةً".

أَزمَة نموّ

طوالَ أَشهرٍ مَرَضه المديدة، ظلَّ الأَبُ شبهَ معزولٍ عن انطلاقة حركتـه، وقـد استمدّ "عزاءَ رجاءٍ جمٍّ"، من كَوْن تلك الحركة قد عهدتْ أَوسعَ انتشارٍ فـي العـالَم، أَثناءَ غيابه عن السَّاحة، ما أَثبتَ له أَنّها "كانت تحمل في ذاتها مُبَرِّرَ وجودها". وقـد صرَّح: "عام ١٩٥٨، عندما استعَدْتُ حياةً طبيعيّةً بعدَ عشرة أَشـهُرٍ قـضيتُها فـي المستشفى، تبيَّنتُ أَنّ "عمّاوس" قد أَحرزتْ تقدُّمًا ممتازًا، في معزلٍ عنّي. وهذا دليل على زَخْم انطلاقها المنيع. كان بعضُهم يلومُني بتلميحاته الخبيثة: "فلانٌ فـرَّ حـاملاً الصُّندوقَ معه. أَنتَ وثقت في أُناسٍ عديمي الأَخلاق". ولكنّني كنـت أَبـدًا أُجيـب: "ولكنّكم تُغْفِلون ذكرَ الَّذين لم يذهبوا بالصُّندوق. وأَظُنُّ أَنَّ، ثمَّة، العديـدَ مـنهم، وأَنّ أكثر من واحدٍ منهم يُجَرْجِرُ ماضيًا حافلاً بالمخازي. هؤُلاء قد وجدوا في "عمّاوس" كرامتهم. ثُمَّ عليكم أَن تذكرُوا أَنّه خيرٌ للإِنسان، في الحياة، أَن يُخْدَع من أَن يَخْدَع".

من المُؤكَّد أَنّ مأساة عام ١٩٥٨ قد خلَّفتْ جروحـًا كمينـةً، وأَنّ مـا عهدتـه "عمّاوس"، مع ذلك، من ازدهارٍ في الدَّاخل والخارج، مُتَمثِّلٍ في تأسـيس جماعـاتٍ جديدةٍ في فرنسا، وفي شتَّى بقاع المسْكُونَة، وظهور مُبادراتٍ موازيةٍ، قـد واكبـه الكثيرُ من التَّعَثُّر والأَخطاء والصِّدام، بين العاملين معًا. وبالتَّالي، وجدت "عمّـاوس" ذاتَها، عشر سنواتٍ بعدَ مولدها، حيالَ مُنْعَطَفٍ خطير.

وقد تركَّزتْ بذورُ الوَهَن، في موطن نشأَة "عمّاوس"، فرنسا، من جرّاء نزوع الجماعات إِلى الاستقلاليّة، وتبايُن طبائع الرِّفاق، وتعدُّد الحالات الَّتي تستدعي معالجتُها خياراتٍ عَمَليّةً يكادُ يتعذَّر حولَها الإِجماعُ. أَضف إِلى ذلك كُلِّه أَنّ الحركة، طالما هي كانت ماضيةً في اندفاع مغامرتها، وفي دأبها على سَدِّ الاحتياجات النَّاشئة، يومًا فيومًا، على الأَرض، قد أَغفلت الانتظامَ في مُؤَسَّسة، ومن ثَمَّ، فقد تجاورَت، في فوضى حافلةٍ بالحرارة، جماعات الاستقبال، والجماعات المُتخصِّصة، و فِرَق المتطوِّعين، وأَصدقاء "عمّاوس". وقد انتشرت الحركة في كُلِّ اتجاهٍ، مرتكزةً على ثلاثة أُسسٍ انعقد حولها إِجماعٌ ضمنيٌّ: العمل، والحياة الجماعيّة، والخدمة.

في غَمْرة ذلك الازدهار، كان عاملَ الوحدة المشترك الرَّابط بين الجماعات المُتباينة هو شخصُ الأَب پيير الَّذي بقيَ، في آنٍ واحدٍ، هو الدَّليل والمنبع والرَّمز والمُفارَقة؛ فحتّى عندما أَبرزتْ "عمّاوس" حيويَّتَها، في غيابه، كان هو، للجميع المرجع الَّذي لا محيدَ عنه؛ وبفضل تضافُر الشُّهْرةِ الَّتي هبطتْ عليه، والإِنجازات التي حقّقها، بات، هو، "إِنجيل" الرّفاق.

غير أَنّه، في قِمَّةِ نُفوذه، لم يكن، يومًا، الدِّكتاتورَ المُطْلَق، ولم يَسْلَمْ من التَّجريح والغَمْز، بل انهال عليه الذَّمُّ، الجائر أَحيانًا، حتّى من أَقرب أَصدقائه. فهذه مساعِدةٌ اجتماعيّةٌ تتعرّض بالنَّقد للطَّريقة الَّتي يُستقبَلُ بها البائسون في "عمّاوس"، أَو يُرَدّون من قِبَلِ من يدَّعون، افتئاتًا، العمل باسم الأَب پيير. وهذا أَحدُ رفاق جماعةٍ يكنُّ لها الأَبُ محبّةً خاصَّةً، يتصدّى بعنفٍ لما يدعوه "عبادة الأَشخاص"، ويكتب إِلى الأَب بانفعالٍ:

« إِنّك الرّباطُ الحيُّ الوحيد في هذه المؤسَّسة الكبيرة، والمرجعُ الدَّائمُ لأَعظم مسؤولي "عمّاوس" شأنًا. غير أَنَّ قليلين جدًّا يتجرّأُون على التحدّث إِليك حديثَ إِنسانٍ لإِنسانٍ، بل هم يُصغون إِليك، ولا يعارضونك...

"ما جدوى مطامح عالميّة؟ وهل من المقبول أَن تذوب حياةُ الجماعات وتتبعثَر لصالح الاقتصار اللاَّمنطقيّ على صوت رجُلٍ واحدٍ، جُعِلَ موضعَ عبادة، وحُكِم عليه

بأَن يُحدِّثَ نفسه؟... إِنَّ "عمّاوس" تفتقر إِلى مجلسٍ أَعلى، ولستُ أَعني بذلك هيئةً مركزيَّةً مُسَيْطِرةً، ومُنَظِّمةً لكُلِّ شيءٍ، ولكنّني أَعني مجلسًا يتمتّع بقَدْرٍ كافٍ من السُّلطة، ووُضوح الرُّؤية يؤهِّله لمؤازرتك مؤازرةً مُجديةً باسم مُثُلنا ».

وجديرٌ بالتَّنويه أَنَّ غيابَ الأَب الطَّويلَ عن "عمّاوس"، وعن شؤونها اليوميّة وإِدارتها، من جرَّاءِ أَسفاره المتواترة، وفترات الرَّاحةِ الَّتي كان يقسُره عليها باطِّرادٍ انهيارُ قواه، والحيرة التي كان يتخبَّطُ فيها الرِّفاقُ، في تلك الأَثناء، حيالَ القضايا الشَّائكة الطَّارئة، هو الَّذي كان غالبًا يستفزُّ صَيْحاتِ انفعالهم ويستدرُّ شكواهم.

إِلاّ أَنَّ تلك العنعنات، في الغالب، كانت تظَلُّ قضايا عائليَّةً، قد يُناقشُها الرِّفاقُ، ولكنَّهم يحرصون على عدم تسريبها إِلى الخارج، ونشرها على الملأ، خشْيةَ أَن يؤَدِّيَ ذيوعُها إِلى نَسْف العمل اليوميّ الدَّؤوب الصَّامت.

غير أَنّ بعض الصحافيّين الكَلِفين بالفضائح، راحوا يتَسقَّطون أَصداءَ مثِلِ تلك الصِّدامات الدَّاخليَّة الكمينة، كي يُلفِّقوا منها عناوين مثل هذه: "لقد أُقْصِيَ الأَب پيير عن "عمّاوس"، وتمَّ الانفصال بينه وبين أَصدقائه. أَقدّيسٌ هو أَم مُغامِرٌ؟ أَنبيٌّ أَمْ مُشاغب؟..."

صَحافيٌّ آخَر قرع باب الإِدارة المركزيّة، في شارع البوردونيه، وتسلَّلَ ليسترق أَخبارًا مثيرةً، ويستدرج الثَّرثرات، وعاد لينشُرَ أَقوالاً مثل هذه: "انتهى الأَب پيير... لم يعُدْ له هنا حتّى أَمانةُ سرٍّ، وفُصِلَ عن مجلس الإِدارة. إِنّنا نتوخّى العَمَل، بعدَ الآن، في الصَّمْت والكتمان. هكذا تتحقّق أُمورٌ جدِّيَّةٌ... الَّذين سبقونا كانوا كَلِفين بالدَّعاوة... طبعًا يظلُّ الأَب پيير هو مُؤَسِّسُنا، و "عمّاوس" هي من صُنع يدَيْه. في البَدْء كانت لديه فكرةٌ ناضجةٌ تستند على أُسُسٍ وطيدةٍ... ولكنَّه تاه في لُجَّة الأَموال التي تَدَفَّقتْ عليه، وأَوْكَل إِلى أُناسٍ لم يكن يعرفهم جيِّدًا عشرات الملايين، وقد استغلّ نصّابون اسمَه كي يخدعوا الفُقَراء".

إِلاّ أَنَّ أكثرَ ما آلَم الأَبَ پيير، آنذاك، هو التَّصريحُ الَّذي أَدلى به إِلى أَحدِ الصَّحافيّين، صديقُه الأب "جوزيف ڤريزنسكي" (WREZINSKY).

غَضَبان مُقَدَّسان

الأَب "جوزيف ڤـــريزنسكي" هو أَحدُ أَبرز الكهنة الَّذين تكاتفوا مع الأَب پـــيير على مُكافحة البُؤْس. إلاّ أَنَّه، على نقيض الأَب پـــيير، لم يكن "ابن أَثرياء" بل عانى، في طفولته، أَقسى أَلوان البُؤْس والفقر؛ وممّا أَفضى به من ذكرياتٍ عن تلك المرحلة من حياته: "كان أَبي لا يكُفّ يصيحُ في البيت، ويضربُ أَخي الأَكبر، ممّا يُثير غيظَ أُمّي، لأَنّ ضرباته كانت تستهدف أَبدًا رأْس أَخي... كنّا نعيش في رُعبٍ مُقيمٍ".

وقد انخرط جوزيف، منذُ طراوة عوده في ميدان العمل، فعمِـل متمرّنًـا، ثـمّ عاملاً، وظلَّ يُناضل حتّى أَمسى كاهنًا فذًّا، من طِرازٍ فريـدٍ، وذا شخـصيّةٍ نـادرة المثال. واستهلَّ كهنوتَه بصفته خوري قرية، فعكَفَ على العنايـة بالبائـسين سـيِّئي السُّمعة والسُّلوك، بحيثُ دُعي "خوري الرعاع". وقد أَوْلى جُلَّ اهتمامه لأُولئك عاثري الحظّ الَّذين انحدروا إلى قعر دَرَكات الانحطاط، والَّذين أَطلق علـيهم اسـم "العـالَم الرَّابع"؛ وقد تَرَكَ، في مجال إِغاثتهم بَصْمَتَه المُمَيَّزة، ولو أَنّه اضطُرَّ، في سبيل ذلك، إلى إِغضاب السُّلطات الكنسيَّة والمدنيّة على السَّواء، بحيثُ رُويَ أَنّ قائد شُرطةٍ سأل أُسقُفَه يومًا:

– "متى ستحرمونه فأُودعه السِّجْن؟"

فأَجابه الأسقف:

– "ومتى ستلقون عليه القبض بتُهمةٍ ما، فأُخضعه للتَّحقيق؟"

وفي عام ١٩٥٦، استقال من مُهمَّته الرَّعويَّة، والتحق بفريق الأَب پـــيير، واتَّخذ من "نوازي ليغران" مَقَرًّا.

كان مُعَسكَر "نوازي ليغران"، في مخطّط الأَب پـــيير، مَرحلةً مؤقَّتةً، اسـتهدف بها إِصابة غايتَيْن معًا: إِنقاذ بضع مئاتٍ من الأسَر من وضعٍ لا إِنـسانيٍّ، إذ كانـت تعيش في العراء، أَو في حُفَر في الأَرض مُغَطّاة بأكياسٍ خَلِقة، وقد هيَّأ لإِيوائها مكانًا رحبًا نُصِبت فيه خيامٌ ما لبثتْ أَن استبْدِلتْ بأَبنيةٍ مُؤَقَّتةٍ مـن مـزيجٍ مـن إِسـمنت وأَميانت، فوق أَرضٍ تُرابيَّةٍ لا ماءَ فيها ولا كهرباء، رَيْثَما تُنشأ لتلك الأسَـر أَبنيـةٌ نظاميّةٌ لائقةٌ. وكان الهدف الثَّاني من إقامة ذلك المُعسْكَر على أَبواب بـاريس لَفْـتَ نَظَر الفرنسيّين إِلى حالة البُؤْس المُريعة الَّتي يُكابدها إِخوةٌ لهم، وهم عنها غـافلون،

وللتَّدليل على تَيْنِك الغايَتَيْن علَّق الأَب پـيير على باب المُعَسكَر لافتةً كَتَب عليها: "هذا المُعَسكر هو وِسامٌ شَرَفٍ لمن أَنشأُوه بكَدْحهم أَو بهباتهم، ووصمةُ عارٍ في جبين مُجتَمَعٍ عاجزٍ عن توفير سَكَنٍ لائقٍ لعُمّاله". وغالبًا ما نُزِعت تلك اللاّفتةُ، ثمّ أُعيدَ إِثباتها في مَكانها. لقد توخّى الأب پـيير أَن يجعل من ذلك المُعَسْكر نموذجًا صارخًا يهزُّ لا مبالاةَ مُجْتَمعٍ أَنانيّ، إِلاّ أَنّه، شيئًا فشيئًا، تخطَّى الغايةَ الَّتي أُوجد من أَجلها، وأمسى، بفضل تكدّس أقسى ضروب المعاناة والانحطاط، مبعثًا للاستنكار، ومِثالاً للفَشَل.

فمن جرَّاء ما مُني به الأَبُ من مرضٍ، وما دُعيَ إِليه من أَسفارٍ متلاحقة، ابتعدَ عن ذلك المُعَسْكَر الَّذي أَوْدعه بعُهْدة الأَب جوزيف ورفاقٍ آخَرين. وقد قُيِّض لعشرات الأسَر الانتقالُ منه إِلى مساكنَ أَوفرَ سلامًا وأَمانًا، بفضل مساعدة "عمّاوس"؛ غيرَ أَنَّ أُسَرًا أُخرى أَشدَّ إِملاقًا وبُؤْسًا كانتْ تتسابق لاحتلال الأَماكن الخالية، بحيثُ استمرّ المؤقّت، وطال استمراره، وانقلب ذلك المُعَسْكَر، على غير ما توقَّع له الأَب پـيير، بُؤرةً للبُؤس يضُمُّ، باطّرادٍ، بين مئتَيْن وخمسين، وثلاث مئة أُسْرةٍ، عدد الأَطفال والفتيان فيها يتجاوز الألف، والجميعُ يُعانون الإِملاق المادِّيّ والرُّوحيّ، والأَوبئة الصِّحِّيَّة النَّاجمة عن انعدام المرافق، والرُّطوبة، والازدحام الوبيل.

لقد أَمست الحياةُ، في ذلك المعسكر، جحيمًا مُرعبًا، وَصَفَه أَحدُ الشهود بالقول: « اليومَ أَيضاً شهدتُ حالةَ السِّكّير فاقد الرُّشْد، العائد إلى منزله مُهَدِّدًا، محطِّمًا كلَّ شيءٍ... وفِرار الصِّغار مرعوبين، والزوجة المسكينة وقد اعتراها الرُّعبُ والشُّحوب، ومحاولة الأَب جوزيف تهدئة الوحش، ووصول سيَّارة الشُّرطة الَّتي استدعاها أَحدُ الجيران، وتدخُّل رجال الأَمن العريضي المناكب بقسوةٍ، ومحاولة الأَب جوزيف التدخّل، مَرَّةً أُخرى...

"في الصَّباح حضرتُ القُدّاس في المُصلّى الصَّغير المزدحم بالصِّبْية المذهولين... بعد ذلك، زار الأب جوزيف أُسْرةَ "ليفيبر" المُؤلَّفة من أَربع بناتٍ وصبيٍّ تتراوح أَعمارهم بين سَنةٍ وثلاثَ عشْرةَ سنةً، غير أَنّ مستواهم الذِّهنيّ دون سِنّهم، ومن أَب مسلولٍ، وأُمٍّ مُنْهدَّةٍ، وقد وعدَهم الأَبُ بإرسالهم إلى قريةٍ صغيرةٍ قريبةٍ من البحر، فيما كانوا هم يُنصتِون، مُعْجَبين، وأراهم مسكنهم الجديد، الَّذي ينهض رُويدًا رُويدًا، في موقع

المزبلة القديمة، على حاشية الطريق الصَّغير... الرُّطوبةُ والبَرْدُ سائدان، والأَب جوزيف يتَعثَّر في الحمأَة الدَّاكنة.

"أمسِ كان الأَب يرتجف من الحُمّى فوقَ فراشه الزَّريّ، في جحيم كوخه المليء بالشُّقوق، حيثُ يسود الصَّقيع... ».

وشيئًا فشيئًا، أَمسى مُعَسْكَر "نوازي ليغران" اختزالاً لعالَمٍ من الفَشَل والضّياع والهرَب، يفزَعُ إِليه قومٌ مَوْصومون يرومون التَّواري؛ قد يكون انحطاطُهم قد بدأَ بدَيْنٍ عَجِزوا عن أَدائه، أَو حساب مستشفى أَو فندقٍ لم يقووا على سداده، ففرّوا إلى حيثُ لا يعرفُهم ولا يطالُهم أَحدٌ؛ اقتلَعَهم الرُّعبُ من جذورهم، فتشرّدوا، ونَشَدوا أَبعدَ ملجأ. وربَّما اضطرَّتهم الحاجةُ إلى بعض السَّرِقات، وإلى العنف أحيانًا، فتراكمتْ بحقِّهم الأَحكامُ الَّتي يُجرْجِرُ بعضُهم العشرات منها، فالتمسوا عالَمًا من الإِغفال يوفِّر لهم أَمَلاً هزيلاً في النجاة، حيثُ يعيشون في جوٍّ من تدمير الذات، والهامشيّة والإِهمال، وحيثُ يعُدُّهم المُجْتَمع هالكين لا أَملَ لهم في انبعاث.

وقد ترسَّخ لدى الأَب "ڤريزنسكي" اليقينُ بأَنّ مُشكلةَ هؤُلاء ليست مشكلَة سَكَنٍ فحَسْبُ، بل هي، في جوهرها، مُشكلةُ أُسَرٍ "لا اجتماعيّة"، لا أَحد يريدها، لأَنّها مَوْصومةٌ وميؤوسٌ منها. وفي سبيل معالجة تلك الآفة، قرّر أَلاّ يَسأل أَيَّ قادمٍ عن ماضيه، بل إِنّه مضى في التصميم بحيثُ أَعلن: "منذ يوم الرَّابعَ عَشرَ من تمّوز ١٩٥٦، الَّذي حلَلْتُ فيه هذا المكان، عاهدتُ نفسي، إِن أَنا مكَثْتُ فيه، على أَن أَعمل كُلّ ما بوسعي لكي تستطيع تلك الأَسَرُ أَن ترقى، يومًا، سلالم الڤاتيكان، وقصرَ الإِليزيه، ومقرَّ الأُمم المتّحدة".

لم يرَ الأَب ڤريزنسكي في ذلك "العالَم الرابع" مجموعةً من الحالات الخاصّة، بل شَعْبًا من أُسَرٍ مريضةٍ، عاجزةٍ عن تَوَلّي مسؤوليَّةِ عيلةٍ، وحياةٍ اجتماعيّةٍ سليمة، والاضطلاع بجُهدٍ مستمرٍّ ومُجْدٍ، مبتلاةٍ بعِلَلٍ عقْليَّةٍ وثقافيّةٍ وجسديّةٍ، تُبقيها رهينةَ الفَشَل الدَّائم.

أَمّا أَطفالُ تلك الأُسر المُحطَّمة، فلم يعرفوا من براءَة الطُّفولة وسعادتها شيئًا، إِذ إِنّهم فتحوا عيونهم على العُنْف والكراهية والحرمان؛ فعمل بعضهم، وهم دون

العاشرة، كي يُطعموا أُمًّا مريضةً، أَو أَخًا أَصغر، ويظفروا، هم أَيضاً، بلُقمةٍ تقاعسَ الوالدُ السِّكِّيرُ عن توفيرها لهم. أَطفالٌ عكَستْ نظراتهُم خيبةَ أَمـل كهـولٍ يائـسين، وتحمَّلوا، منذُ طراوة عودهم، مسؤُوليّة الوالدين، ولم تكن لهم البراءةُ سـوى فرِيَـةٍ بَشعةٍ؛ ولم يعمل الكبار شيئًا كي يُعلّموهم الضَّحِك، واللَّعب والازدهار. إنَّهم أَطفـالُ القَلَق والعار، تحفل أَحلامُهم بمآسي الانفصال، والتمزُّق، والخيانة والكَذِب. أَمّا الَّذين، منهم، أُبعدوا عن ذويهم بحُجّة إنقاذهم، فلم يبقَ في قلوبهم سـوى بُغْـض والـديهم ومحيطهم، أو تَعَلُّقٍ مصابٍ بالإحباط. ولا عَجَبَ إن قال أَحدُهم، وكأَنَّه لسانُ حـالهم جميعًا: "كيف تُريدون أَن يُحِبَّ بعضُنا بعضاً؟ أَلا ترونَ ذلـك مـستحيلاً؟ فالتَّحـابُّ والتعاوُن يفترضان أَن نعيش عيشةَ سائر البشر!"

قد يكون بعض الأَهل قد خَبَروا مثلَ تلك الطُّفولةِ المحرومة، فجهدوا كي يُجنِّبوا أَبناءَهم مرارتَها، وأَن يهَبوهم ما استطاعوا من مأوًى وطعامٍ وكساءٍ وحُـبٍّ. وهـم غالبًا ما تعثّروا في جهودهم لأَنَّهم لم يعهَدوا لها أُسوةً في صِغَرهم، أو هم عَجِـزوا، بسبب ضيق ذات اليد، عن أَن ينفحوا أَبناءَهم أكثرَ من البطاطا الَّتـي يمـلأون بهـا مِعَدهم. وربَّما تساءَلوا، قَلِقين، كيفَ لهم أَن يَبُثّوا فيهم الاعتـزازَ بأنفـسهم، وهـم، ذواتُهم، يغوصون في العار! أَنّى لهم أَن يُلقِّنُوهم العطاءَ عوضـاً عـن الاسـتعطاء، والحُبَّ عِوَضاً عن الخَوْف، والإبداعَ عوضاً عن استمْداد كُلِّ شيءٍ منَ الآخَرين!

من أَجل ذلك، سعى الأَبُ جوزيف إلى تعليم النِّساء خَيْطَ الثِّيـاب وإصـلاحَها، وتربيةَ أَولادهنّ والعنايةَ بهم؛ كما جَهِد في أَن يُعيد إلى ذلك الشَّعْب اليـائس روحَـه وشرائعه، وتقاليدَه وعزَّتَه، بحيثُ تُبرهن الفتيات العاملات في المصانع عن قُـدْرَتهنّ على العمل المُتْقَن، ويبرهن الفِتْيان عن مهـارتهم فـي أَلعـاب الكُـرة، وإصـلاح السَّيّارات، والإبداع الفنّيّ. فذلك العالَم، الذي دعاه "العالَم الرابـع"، لا شـفاءَ لـه إلاّ بالنُّهُوض اجتماعيًّا وثقافيًّا وروحيًّا، وباستعادة كرامته المسلوبة.

ذلك التحوُّلُ كان الأَب فـريزنسكي يحلم به، ويسعى إليه بكُلِّ طاقاته، مع بعض الرِّجال الَّذين انضمّوا إليه، ومُتطوِّعين من "عمّاوس". بيدَ أَنّ معسكر "نوازي ليغران" ظلَّ يحمل اسم "عمّاوس"، وظلَّت نسبتُه تُعزى إلى الأَب پـيير.

وفي ذلك المُعَسْكَرِ، كانت رطوبةُ المساكن العائمة فوق مُستَنْقَعٍ من الوَحْـل، ولا

سيَّما في الشِّتاء، تنزُّ بَرْدًا قاتلاً يتغَلْغَل حتّى نقيِّ العظام، ويُحاوِل بعضُهم تخفيف وطأته بتغليف الجدران والأَسقُف بورَقٍ مطليٍّ بالقار، ممّا يعرّضها لشبوب الحرائق من جرّاء إِشعال نار التدفئة، أو شموع الإِضاءة. وفي الثّالث من كانون الأوّل، ماتَتْ، فعلاً، احتراقًا، طفلةٌ لم تتخطَّ سنتَها الأولى، وأُخرى في الخامسة.

وقد تكلَّم الأَب جوزيف في جنازة الطفلتَيْن، مازجًا بالعَبَرات كلماتِه، كلماتِ سَلامٍ، وإخاءٍ، وغضب.

وفي أعقاب الصَّلاةِ قابلَه أَحدُ الصّحافيّين، فأَطلق العنانَ لكُلِّ مكنونٍ كان يُثقِلُ صدرَه، مُعَبِّرًا عن الإِحباط الذَّريع الَّذي كان ينوءُ تحت وقره، حيالَ مآسي سُكّان "نوازي ليغران". وفي سَوْرَة انفعاله، أَخذ على الأَب پيير، صديقه وزميله، إِهمالَه لأُولئك البائسين الَّذين جمَّعهم في ذلك المعسكر، ثمَّ التهى عنهم بالتَّطْواف في شتَّى بقاع المسكونة، وقال عنه: "إِنَّه يحلمُ ويُفلسف الأمور؛ ينقاد لخداعِ الآخرين ويَخْدَع نفسَه. لقد خُيّل لفكره الحالم المُعَقَّد أَن إِقامة مُعَسْكَرٍ نموذجيٍّ هنا، بفضل الهبات التي تدفّقت عام ١٩٥٤، أَمرٌ في منتهى البساطة... وها إِنّه ما انفكّ يحلم، ويتحدَّثُ، ويُخادع نفسَه بكلامٍ فارغٍ، فيما نحن، هنا، ما زلنا نفتقر إِلى ماءٍ جارٍ. ربَّما خُيّل إِليه أَنَّه ما زال يعيش في القرون الوسطى، أَو أَنّه نَمَطٌ من القدّيس منصور. إِنّ أُسلوبَه الأَبويّ والديماغوجيّ لم يعُدْ يتلاءَم مع ظُروف القرن العشرين!"

وكأنّ الأَب پيير هو العناية الَّتي عليها السَّهَرُ الدَّائمُ على توفير احتياجات كلّ فقيرٍ، والمُتَعهِّدُ المُلتَزِمُ بتأمين الماء والكهرباءِ والصَّرْف الصحّيّ!

لقد كان عُنْفُ هجوم الأَب جوزيف نابعًا من مرارته حيالَ فداحة البُؤْس الَّذي يصطدم به في كُلِّ لحظةٍ، ولم يفطَنْ إِلى أَنَّه كان يُفضي بأَقواله إِلى صحافيٍّ شغوفٍ بالفضائح، وأَنّ نجواه ستَتَحوَّل إِلى عناوينَ بارزةٍ على صَفَحات الصُّحُف، مُشَهِّرةً بالأَب پيير، مشوِّهةً صورتَه، بل إِنّها ستتحوّل إِلى طَعْنةٍ نجلاءَ في ظهر صديقه وأَخيه. فقد استغَلَّ الصّحافيّ تلك النَّجوى العفويّةَ كي ينشرها، مثل غسيلٍ قَذِرٍ، وبعناوينَ كبرى، على صفحات صحيفته. وعندما تبيّن الأب جوزيف أيّ شَرَكٍ وَقَعَ فيه، تألَّم في الصَّميم.

كان لا بُدَّ للأَب پيير من توضيح الحقائق، فصرَّح: « أَنا لستُ أُضمِرُ للأَب

جوزيف أَيَّةَ ضغينة. ولكن، أَلا يستطيع، هو، أَن يرى أَبعد من حدود مُعاناة قريته؟ أَغَرُبَ عن باله أَنّنا أَنفَقْنا على مُعَسْكَر "نوازي" مئة مليون فرنكٍ قبلَ أَن يأتي هو إِليه، لثلاث سنواتٍ خَلَتْ؟ وأَنّ نحو مئة أُسرةٍ كانت تسكن في نوازي قد حصلتْ، مُذّاك، على مساكن لائقةٍ، في أَماكنَ أُخرى، وأَنّ أُسَرًا أُخرى قد هرعت لتحلّ محلّها؟... وهل نسيَ أَنّ هذه القرية لم تكن سوى نقطةِ انطلاقٍ، وأَنّ "عمّاوس"، بفضل الملايين التي ورَدتْ إِليها، وبفضل كَدْح جامعي النفايات، وبمساعدة قروض الدَّولة الَّتي استيقظتْ أَخيرًا، تمكَّنت من بناء أَلفٍ وثماني مئةٍ وخمسةٍ وعشرين مسكنًا زهيد الأجرة، وأَربع مئةٍ وخمسين بيتًا مُعدًّا للبيع بأَيْسر الشُّروط في مناطقَ شتّى؟...

"إِنّني أُدرك أَنّ "نوازي" هي الجُرحُ الأَكثرُ إِيلامًا، ولكنَّها، في آنٍ واحدٍ، الدَّليلُ على ما ينبغي فعلُه، وما يجبُ الإِعراضُ عنه لأَنّ ثلاث مئة أُسرةٍ مجتمعةٍ في تلك الظّروف القاسية تُمثِّل مجموعًا مُفْرطاً من الآلام المُتضاعفة الَّتي يُهَيِّجُ بعضُها بعضاً. وكان الأَحرى بنا إِنشاءُ مئة "نوازي" عشر مرّاتٍ أَصغر من هذه، على مداخل مُدُننا الكبرى. وبدَهيٌّ أَنّ مجتمعنا يُؤْثر أَن يظلّ الشَّقاءُ خَفيًّا، وأَلاّ يثير أَمرَه أَحد... ولذلك هو يَأْخُذ عليّ المآخذ. ولكن فليُظهر لي أُولئك المتخومون الرَّاضون عن ذواتهم ما فعلوا، وإِن هم لم يفعلوا شيئًا، فليخرسوا! »

لم يكن الأَب پيير يجهل تلك الحالاتِ الاجتماعيَّةَ الشَّاذّة، وأَعراضها المتعدّدة الأَمراض، وكانت تؤلمه بقَدْر إِيلامها الأَب جوزيف؛ ولم يكن غافلاً عن وجود "فقراء أَشرار" ورَعاع، وعن نضال الأَب ڤريزنسكي البُطوليّ المتجرّد إِلى جانبهم، في جوٍّ مُفْعَمٍ بالقذارة والجهل والرُّعب.

وكان كلّ من الكاهنَيْن يُضمْر للآخر احترامًا عميقًا، غير أَنَّ قُوَّةَ شخصيَّةِ كُلٍّ منهما كانت تُعدُّهما لتصادُمٍ محتومٍ. وتفاديًا لذلك، قال الأَب پيير للأَب جوزيف: "انفرد بالقطاع الَّذي تختاره، واعملْ فيه كما ترى مناسبًا". وقد تولّى الأَب جوزيف مسؤوليّة مُعَسْكر "نوازي"، وأَسَّس مُنظَّمةَ "عون لكلّ بُؤس"، المستوحاة من مُثُل "عمّاوس"، الَّتي أَصبحت، في ما بعد، "عَوْن لكلّ بؤس العالَم الرَّابع"، أَي عالم الأسر الَّتي تتخبّط في أَزماتٍ تُضيفُ إِلى الفَقْر والحرْمان عِلَلاً نفسيّةً وأَخلاقيّةً واجتماعيّةً. وقد برهن، في ذلك المجال، عن عبقريةٍ تنظيميّةٍ فريدة.

وقد اعترف الأبُ جوزيف بأفضال الأب پيير، وكأنَّه يودُّ محوَ آثار سَوْرة الغَضَب الَّتي انتزعتْ منه انتقادًا لصديقه، فأعلن:

« لقد أفلح الأب پيير في تعبئة البلاد، وحَمْل الحُكّام على مواجهة مسؤوليّاتهم، بحيثُ لم يعدْ بوسع أحدٍ، من بعده، ادِّعاءُ أنّ المسكن لكلّ فردٍ ليس من واجبات الدَّوْلة. وفي نظره، لم تكن قُرى الطَّوارئ، ومُعَسْكَرات المشرّدين، و"نوازي ليغران" سوى مراحلَ مُؤَقَّتة. وقد حدثتْ به شخصيَّتُه القويّة، وسِحْرُ تأثيره، واندفاعه في "خدمة الأكثر تألّمًا"، إلى خَوْض معركةٍ شاملة، كان البَشَرُ المعزولون المَوْصوفون، افتئاتًا، بالتَّسوُّل والتَّشرُّد، شُهودًا عليها. وقد أمسى رفيقًا لهم، وأسمع صوتَهم في شتّى أركان العالَم. هذا أيضاً جديرٌ بأن يظلَّ ماثلاً في الأذهان".

وقُبَيْل وفاته، أهدى الأب جوزيف نسخةً من كتابه "الفقراء هم الكنيسة": "إلى الأب پيير الَّذي أدينُ له بكوني الكاهن الَّذي أصبحتُه".

مساعي إصلاحٍ ووئامٍ

لقد آلم الأب پيير ما طفقتْ تحيكه بعض الصُّحف من قِصَصٍ تختلط فيها الوقائعُ القليلة بكثيرٍ من التخرُّصات حول خلافه مع إدارة "عمّاوس" المركزيّة، وعبَّر عن مرير شكواه من "نزعةٍ مجنونةٍ لدى عالمٍ فَقَدَ أعصابه، ولم يعُدْ يجدُ السَّبيل إلى الرُّؤية والسَّماع خارج الضَّجيج". وعلى كلّ ما أُثير حولَ ذلك الخلاف من ضجّةٍ ردَّ: "ليس، ثمَّة، سوى جوابٍ واحدٍ، وهو الذي نسعى، منذُ سنواتٍ، أن نجيب به، تحت وابل الأقوال الَّتي تمتدح حينًا حتّى العبادة، وتؤلم حينًا آخر: وهو أن يعمل كلُّ واحدٍ في مكانه، بكلِّ طاقاتنا، في خدمة الأكثر تألُّمًا. فهذا هو هدفنا".

بيْدَ أنّ تلك الحملات الصّحافيّة الهزيلة كانت ضَيِّقةَ النِّطاق، سطحيَّةَ الأثَر، بحيثُ ظلَّت الأُسطورةُ تلاحق الأب پيير، ووسائلُ الإعلام ترقُب أيَّ ظُهورٍ له. ولا بِدْعَ في ذلك، فصورتُه ما فتئت متألِّقةً في عيون الفرنسيّين ومخيّلاتهم ونبرة صَوْته مختلجةً في أفئدتهم. ولم يكن هذا الموقف أقلّ إيلامًا له، فقد ضاق ذرْعًا بما اعتبره عبادةَ أوثانٍ يُحاط بها، وما انفكّ يُردِّدُ: "**إنّني أتألَّم، ولا أقوى على إدراك ذلك التَّقديس الوبيل. إنّه لأمرٌ ممتازٌ أن تتحدَّثوا عن "عمّاوس"، وتطووا ذكرَ الأب پيير. إنَّ "عمّاوس" جمهورٌ**

من النَّاس يُحاولون تخفيفَ آلام الآخرين... أَنا لم أَكن سوى أداةٍ، ولم تَعُدْ لديَّ القُوَّةُ الَّتي تُؤَهِّلُني للاشتباك مع عَبَدة أَوثانٍ، وإِنّي أَصبو إلى السَّلام".

هذا الصَّبُوُّ إلى السَّلام عبَّر عنه الأب پيير بإقصاءِ نفسه عن إِدارة "عمّاوس" المباشرة، وعن معالجة قضاياها اليوميَّة، تاركًا لمختلف القائمين عليها تدبُّر أُمورهم بأَنفسهم، وتسوية خلافاتهم بما يضمن نضوجَهم واستقرارهم وتآلفَهم؛ وهو، بذلك لم يهجُر الحركةَ الَّتي أَسَّسها، ولم يتنكَّر لها، بل وَهَبها كُلَّ روحه، وعَقَدَ العزمَ على أَن يحفظ لها روحَها سليمةً، على حدّ قوله: **"لا يستطيع الإِنسانُ أَن يعيشَ إلاّ بفضل شُعلةٍ تولَد في التفاني والحبّ. وستتمثّل مغامرةُ حياتي المسكينة القادمة، في إِضرام هذه الشُّعْلة".**

وقد اتَّخذَ له مقرًّا في مدينة "شارنتون"، القريبة من باريس، لكي يكونَ بمنال جميع الَّذين يودُّون الاتّصال به؛ إلاّ أَنّه ظلَّ يقضي كلَّ شهرٍ خمسةَ عشرَ يومًا في منسكه في "الساڤوا" للصَّلاة، والتزوُّد بعزيمةٍ متجدّدةٍ، في حين كان يقضي سائرَ أَيَّام الشَّهْر مسافرًا.

أَمَّا الاتّحادُ المركزيُّ فقد حَصَرَ اهتمامَه بالإدارة الماليَّة، ولكنَّه قوبلَ، بادئَ الأَمر، بعداء مُعْلَنٍ من شتّى الجماعات، بسبب محاولته الاستعاضة عن سُلطان الحُبّ الَّذي كان الأَب پيير يمارسه، بسُلْطةٍ عقْلانيّة، "من غير أَبٍ ولا معلّمٍ". وقد اضطُرَّ، أَخيرًا، استرضاءً لخواطر الرِّفاق، إلى وضع نظامٍ مُستَنِدٍ على مجموعة مبادئَ وأَقوالٍ مُستقاةٍ من خطابات المُؤَسِّس وكتاباته.

لقد تخبَّطَ الاتِّحادُ المركزيُّ طويلاً، قبلَ أَن يستجليَ طريقه. وقد كَثُرتْ تعثُّراتُه، وفاضَتْ أَخطاؤه، وكان أَدهاها السَّماجَةُ الَّتي اتَّسم بها طردُ الآنسة كوتاز، أَمينة سرّ الأَب، والقذْفُ بأَشياء الأَب نفسه خارجًا. وكان أَفضحَ تعبيرٍ عن تخبُّط الاتّحاد المركزيّ تعاقبُ ثلاثة مُديرين على رأسه في غضون ثلاث سنواتٍ؛ فعام ١٩٥٩، استقال مديرها الأَوّل "جان بوشي" الّذي ارتكب أكبر قدرٍ من الحماقات، واستفزّ أَوْسَعَ قِسْطٍ من استنكار الرّفاق وعدائهم؛ فخلفه الصِّناعيّ القادم من "روبيه" المعروف باسم "الكابتن جان"، الّذي كان قد تطوَّع، عام ١٩٥٤، لإدارة محطَّة أُورسي. ولكنَّه سُرعانَ ما ضاق ذرعًا بجوِّ الخلافات، فتخلّى عن الإدارة، عام ١٩٦٠، لهنري كاموس الَّذي صرّح: "لم يكن، ثمَّةَ، أَيُّ مُرَشّحٍ للإِدارة، ولم يكن أَحد راغبًا فيها".

لقد رفض الاتّحادُ المركزيُّ عبادةَ الفرد، غير أَنَّ الواقع أَثبتَ أَنّ الأَب پــــيير هو عامل الوحدة الَّذي لا غنى عنه، ولا بديلَ له، وأَن لا "عمّاوس" في معزلٍ عنــه. وقد سعى الاتّحادُ إِلى تفادي الخَلْط بينهما، بحيثُ لا تصبح "عمّاوس" هي الأَب پــيير فحَسْب، ولا يُصبح الأَب پــيير هو كلّ "عمّاوس". لذلك فُوِّضت إِلى الأب مُهمَّة نشرِ رسالة "عمّاوس" في شتّى أَرجاءِ العالَم، وحصر الاتّحادُ اهتمامه بالشُّؤون المادِّيَّة، ولا سيَّما بعد أَن غَرقت الحركة في لُجّة المال، وهي تفتقــر إِلــى مُــؤَهَّلين لإِدارتــه، وانخرطتْ في مشاريع بناءٍ كانت تحتاج إِلى قدْرٍ وافٍ من الدّراية والخِبرة، فكــادت تُسبِّب لها الكثيرَ من الإِساءَة.

وكان يُدير الاتِّحادَ مجلسُ إِدارةٍ من تسعة أَعضاءٍ منهم ثلاثةُ أَصدقاء، وثلاثــةُ مسؤولين، وثلاثة مُرشدين روحيّين تنتخبُهم الهيئة العامّة، وفقًا للنّظــام الَّــذي كــان المؤَسِّسُ قد سنّه. ومن حُسْن طالع "عمّاوس" أَنّه كان دائمًا بين أعضاء الاتّحاد، عددٌ من الأَوفياء للأَب پــيير، ولمُثُل "عمّاوس"، ولا سيَّما بــين الأَصــدقاء والمُرشــدين الروحيّين، حَرِصوا على تحرير الحركة من تَوَرُّطاتهــا الخطيــرة، وعلــى تنقيــة أَوْضاعها المادِّيَّة، وتقويم أحوال الجماعات المتعَثِّرة، وفي آنٍ واحدٍ، تشبَّثوا بالحفــاظ على روح "عمّاوس"، رغم بعض التصرُّفات العدائيَّة النابعة من نَزواتٍ وانفعــالاتٍ عابرةٍ. وممّا كان له أَثرٌ خيِّرٌ أَنّ مُرشد الاتّحاد الرُّوحيّ كان الأَب "جــاك ڤــــريك" الّذي كان يحظى بثقة الأَب المُطْلَقة، وقد سَهِرَ على سلامة رسالة "عمّــاوس" ســهرًا يَقِظًا. وشيئًا فشيئًا، تحرّرت الحركة من المشاريع العمرانيَّة الَّتي تمُتُّ إِلى عالَم المال وأَسياده بصلةٍ أَوثق من انتمائها إِلى رسالة "عمّاوس". فقد انقضت الحقبة الَّتي كــان فيها لمثل تلك المشاريع ضرورةٌ لازمةٌ، وحان أوانُ فصلها عن "عمّــاوس"، لكــيلا تقضيَ على روحها، وتطيحَ بِرِسالتها في خِدْمة الأَكثر تأَلُّمًا، وفي مؤازرتــه علــى النهوض لكي يقوى على خِدمة الآخرين.

وهكذا، بحلول عام ١٩٦٠، كان الاتِّحادُ قد بَسَطَ سُلْطتَه على معظم الجماعات فــي فرنسا، وصفَّى الجماعاتِ الَّتي اشتَمَّ فيها تلاعُبًا بالأموال، أَو الَّتي كانت دخولها قاصرةً عن الاضطلاع بأَوَد أَعضائها. أَمَّا الجماعات الَّتي كانت حساباتُها منتظمــةً، وإِدارتهــا نزيهةً، فقد سعى الاتِّحادُ إِلى تحسين حال معيشة الرِّفاق العاملين فيها بتأَمينه لهم المرافقَ

الأَساسيّة من ماءٍ وكهرباءٍ وتدفئةٍ، وسَكَنٍ في غُرَفٍ نظاميّةٍ، يتَّسعُ كلٌّ منهـا لأَربعـةٍ منهم، وطعامٍ جيّدٍ كافٍ. أَمّا الرفاق المصابون بعلَلٍ جسديَّةٍ أَو نفسيَّةٍ، فقد باتوا يتمتَّعون بالعلاج المُنَاسب على أَيدي أَطبَّاءَ مختصّين.

كان مسؤولو الاتّحاد المركزيِّ لا يكُفُّون يجوبون أَنحاءَ فرنسا، مستقرين أَوضاعَ الجماعات فيها. وغالبًا ما كانوا يكتشفون جماعاتٍ هشَّةً، ومـسؤولين مغـامرين أَو هزيلين، وأَصدقاء يتدخّلون بكلِّ شيءٍ، وآخَرين لا يكاد يُشعَر لهم بوجودٍ، وجماعاتٍ عاجزةٍ عن النُّهوض بأَوَد رفاقها الكُثُر.

قليلةً كانت الجماعاتُ الوطيدةُ الأُسس، مثل جماعة "بوجيـڤـال" حيـثُ كـان خمسون رفيقًا يكدحون بجدٍّ. كانوا قد تعثّروا فترةً ما، وأَشفوا على هُوَّة اليـأس، إلاّ أَنَّهم بادروا إِلى إِعتاق الأَهراء والأَقبية من النّفايات المزدحمة فيها، وفرْز محتوياتها، وبناتج بيْعها ابتاعوا لأَنفسهم طعامًا، وأَعتقوا أَفرادًا وأُسَرًا كثيرةً من براثن الـشَّدائد الَّتي كانوا فريسةً لها.

قائدُ تلك الجماعة، السيِّد أَرمان، كان فخورًا بقاعة طعام جماعتـه، وبـالغُرَف الصِّحّيَّة النَّظيفة الَّتي يرقُد في كلٍّ منها أَربعـةٌ مـن رفاقـه الخمـسين، وفخـورًا باستضافته، بين الرّفاق، الأَبَ "جول" البالغ من العُمْر خمسةً وسبعين عامًا، والّـذي أَجمع الرفاقُ على محبّته، وكذلك واحدًا من الرِّفاق الرُّوَّاد، هو الَّذي كان قد لقّن الأَبَ پـيير مهنة جمع النِّفايات، واسمه "أوغست ليغال AUGUSTE LE GAL".

جماعة "بوجيـڤـال" هذه قد حقّقت عام ١٩٥٨ فائضاً قدرُه ثمانيـةٌ وعـشرون أَلفَ فرنكٍ، قدَّمت نحو رُبْعه للاتّحاد المركزيّ ولشركات "عمّاوس" الإِنـشائيّة، كمـا قدَّمتْ خدماتٍ مُتعدِّدةً كتبرُّعها بمبلغٍ لكاهنٍ في الجوار كان يُـدير مركـزًا للفتيـان الجانحين، وبمبلغٍ آخرَ لأُسرةٍ من ثمانية أَشخاص يعيشون جميعُهم في غرفةٍ واحـدةٍ وببضع حمولات سيّاراتٍ حَطَبًا لمحتاجين كانوا يعانون البرد هنا وهناك. كان الرِّفاق يُعطون وينعمون بفَرَحِ إِنقاذِ الآخرين، وقد قال فيهم قائـدُهم: "إِذا مـا التقيتمـوهم، طالَعَكم خمسون وجهًا نَحتَها الشَّقاء، ومع ذلك تتجلّى فيها صورةُ سـكينةٍ سـاجيةٍ لا يُمكن اكتشافها في أَيّ مكانٍ آخر. أَوَليسوا هم الفقراء الَّذين عملوا كي يعطوا، فغدوا رجالاً منتَصبين على أَقدامهم، بعد أن كانوا كالكلاب المُعذَّبـة؟ أَجـل، إِنَّ مُـستقبَل

الحركة لا يعتمد على اندفاع الجماهير العابر، ولا على شخصيّة القائد، ووفاء المناضلين، بل على هذه الحقيقة الثابتة العريقة: "**أُخدُم أوّلاً الأكثر تألُّمًا**". تلك هي "طريقة استخدام الحياة المثلى" على حدِّ قول الأب پيير".

على غرار جماعة "بوجيڤال" نهجتْ جماعتا "بريست" و"سيرني"؛ ولكن، في جماعاتٍ أُخرى كم من الخَلَل والاضطراب والفضائح! وقد عبّر كاهنٌ مؤسِّسٌ لإحدى تلك الجماعات عن عُمْق مرارته حيالَ سلوك الرِّفاق بقوله: "يا لسذاجة من يتخيَّل أنّه يكفي إيقاظُ ضمائر الرِّفاق وتشجيعهم أَخَويًّا لكي يُصلحوا ذواتهم، ويسيروا على السِّراط القويم! لئن كان يلزم وقتٌ طويلٌ لتثقيف الأطفال، فإنّه يلـزَمُ وقت أطول لإصلاح البالغين!" ولا عجبَ إن نَكَصَ مسؤولون عديدون عن مَهامّهم، وتعاقب عددٌ من القادة على رأس بعض الجماعات في فتراتٍ قصيرة، فعلى قائد الجماعة أن يتحلّى بالحنْكة، والاتّزان، والصَّبْر، والإيمان الصَّامد بعمّاوس وبالله، وأن ينهض، في آنٍ واحدٍ، بدَوْر مديرِ مُؤَسَّسةٍ، ورَبِّ أُسرةٍ، وقائمٍ على مُستشفى أمراضٍ نفسيّةٍ. وقليلون هم القادرون على جمع كُلِّ تلك المناقب والمؤهِّلات.

ولا بِدع، بالتالي، إن نَزَع الاتّحادُ المركزيّ إلى البَحْث عن كفاءاتٍ من الخارج تَعملُ بأَجْرٍ، وإلى دَفْع رواتبَ لمُتَطوِّعين قُدامى أثبتوا جدارةً في إدارتهم، في سبيل الاحتفاظ بهم، مثيرين غضبَ "المنشقّين" الموالين للأب پيير، الذين كانوا يَصِفون هؤلاء، بموظّفين صغار. إلاّ أنَّ كثيرين حتّى من الرّفاق القُدامى قد استسلموا لذلك التطوّر، ورضوا به.

وقد أثبت عددٌ من هؤلاء المسؤولين الجُدُد، المعيَّنين لقاءَ راتبٍ، براعةً فائقةً في قيادة جماعاتهم، بعد أن تلقّنوا عمل جامعي النفايات على الأرض، مع الرّفاق، وتشبَّعوا من روح "عمّاوس" على أيدي المُرشدين الرُّوحيّين من أمثال الآباء "جاك ڤريك"، و"كوديفروا"، و"دوڤاليه"...

وربَّما خطر لأولئك المسؤولين الجُدُد، هجرُ تلك المُهمّة الوَعْرة التي انتُدبوا لها، بعد أيّامٍ معدوداتٍ من الممارسة، غير أنَّ ما كان يشدُّهم إلى المكوث هو جامعو النّفايات أنفُسهم، بتضامُنهم الفذّ، وبالتفافهم حول المسؤول عنهم، في صداقةٍ عَفْويَّةٍ حارَّةٍ.

وكان، ثمّةَ، من يتولّون الإدارة، بحُسن نيّةٍ، ويُفلحون في كسب ودّ الرِّفاق، ولكنّهم يرتكبون من الفضائح ما يجعل الاستغناء عنهم مؤلمًا، ولكن ضرورةً لازبةً.

أمّا أحوال عيْش الرِّفاق فكانت، أحيانًا، زَريَّةً ومخجلةً، ممّا استفزّ صيْحات استنكارٍ من مرشدين مثل الأب "كوديفروا" (GODEFROY)، بل حتّى من "كاموس"، المدير الثَّالث للاتّحاد المركزيّ الَّذي صرّح:

« لا، ليس مقبولاً أن يظلّ جامعو النّفايات، البنّاؤون – فهم يدعون بنّائين – يُعانون سكَنًا سيّئًا في أبنيةٍ خَشبيّةٍ معرّضةٍ للحرائق، وغرَفٍ صقيعيّةٍ خاليةٍ من وسائل الاستحمام، ومراحيض تحاكي مُعَسكرات ما قبلَ الحرب. أهم رجالٌ من مستوى أدنى، لا يتطلّعون إلى دفء منزلٍ، وإلى العادات الَّتي يألَفُها كلٌّ منّا في بيته؟ هل نحن أنفسُنا مستعدّون للاستغناء عن التَّدفئة المركزيَّة، والاستحمام؟ بالطبع لا ».

ولذلك خاطب الرِّفاق قائلاً: "هذا الشَّهر يُستخدَم ريْعُ بيع الوَرق المُقَوَّى، لتوفير وسائل الاستحمام. وإذا توقّفتم في بيع المزيد منه، فيُستخدَم ناتجُه لوضع بضعة أمتارٍ أُخرى من الأَسقُف المنيعة. وأنتم، أيُّها القدامى، الموجودون هنا منذُ خمس أو ستّ سنواتٍ، إنْ كنتم قد عانيتم، فليس لكي يظَلَّ الآخرون يُعانون، اليومَ، مثلكم!".

وقد لَعِبَ المُرشدون الرُّوحيُّون دَوْرًا حاسمًا رائعًا. كانوا قِلَّةً، بَيْدَ أَنَّهم من طينةٍ فريدةٍ مُدهشةٍ. ففي جماعة "بريست" لقي كاهنٌ كان يضطلع بالإرشاد الروحيّ نحبَه من الإعياء، في حين برهن الأب نيقولا في "سيرني"، والأبوان "لوجين LE JEUNE" و"ليونار" في "ميز"، والأب "دوقالّيه" في "بوجيقال "، والأب "كوديفروا" في " نويّي پليزانس"، عن نجاعةٍ نادرةٍ. فإلى جانب المسؤول الذي يُنَظِّم ويأمرُ، والصَّديقِ الذي يُساعد ماليًّا من الخارج، ثمّة الأخ، وهو "الرُّوح الَّذي يدعو إلى التفكير"؛ وهو لا يُشارك في وضع القرارات، ممّا يُضفي عليه مزيدًا من السُّلطة الأدبيّة، وعلى حدِّ قول الأب "دوقالّيه" في هذا الشأن: "إذا ما غاب الرُّوح، كانَ لنا سلطةُ الفيتو".

ومُعظم المُرشدين الرُّوحيّين، أو الإخوة، هم من الكهنة، ولكنّهم غير مسؤولين عن الواجبات الكهنوتيّة كالأسرار الَّتي يَذرون أَداءَها لكهنة الرعايا، وبذلك ينجون

بأَنفسهم ممّا يُتّهم به هؤلاء الكهنة، افتئاتًا، في معظم الأَحيان، من تواطؤٍ مع الأَغنياء والسُّلطات، ومداراةٍ للفرّيسيّين المرائين، ويظلّون، في نَظَر الرِّفاق، البعوضةَ الّتي تقفز من القمامة لوخز المجتمع الأَنانيّ، الراضي عن ذاته.

إِلاّ أَنّ ذلك المنحى الجديد الَّذي نحاهُ الاتِّحادُ المركزيّ، لم يرُقْ لجميع الرّفاق، ولا سيَّمَا أُولئك الَّذين عاشوا توثُّبات عام ١٩٥٤، والأعوام القليلة الَّتي تلتْها، وهذا ما عبّر عنه قائدُ جماعة "دويي، DOUAI" بقوله: "هل يرغبون في شَلِّ الحركة، وحَمْلِها على الانتظام، والاكتفاء بمُهمّاتٍ عاديّةٍ لا مُخاطرةَ فيها! هل يريدون تحويلَنا إِلى جمعيّةٍ خيريَّةٍ؟ إِنّنا نأبى ذلك. فرسالة "عمّاوس" ليست الإِحسان، بل هي اكتشافٌ جديدٌ للإِنجيل، وهي ثورةٌ. إِنَّ الأَزمَةَ الأولى هي أَزمَةُ سَكَنٍ، ومهمّة الجماعات هي البناء". ومن ثَمَّ أَعلن "رفاق الأمل" في "دويي" عن تأسيس "اتّحاد حركات الأَب پيير". وعلى منوالهم، ازدهرتْ حركاتٌ أُخرى عديدةٌ، كلُّها تنتمي، على طُرُقها الخاصّة، إلى "عمّاوس"، رافضةً الخضوعَ للاتّحاد المركزيّ، متشبِّثةً بالوفاء للمؤَسّس، منتهجةً أَساليبَ عَمَلٍ خاصّةٍ بها.

وقد أُوتيَ المُرشِدون الرُّوحيُّون قدْرًا كافيًا من الحكمة، بحيثُ تفادوا مناهضة مثل هذا الازدهار؛ بل إنَّ أَحَدَهم، وهو الأَب "دوڤالّيه" صرَّح: "في الواقع إِنّه لمن دواعي الفَرح أَن نكون متنوِّعين، فالاتحاد المركزيُّ لم يكُن مُؤَهَّلاً لاستيعاب جسامةٍ مُفْرطَةٍ، ولكان نَفَقَ تلقائيًّا من التُّخمة".

وكذلك كان موقفُ الأَب پيير الَّذي ارتضى أَن يكون "جَدًّا" لجميع الفئات الَّتي تنتمي إِليه أَو لعمّاوس، وتوجّسَ خشْيَةً من نزعاتٍ متشدّدة، راغبةٍ في الإِسراع بفَرْض وحْدةٍ مرجُوّة، ولكنّها كانت ما تزال غير ناضجةٍ. وقد اعترف بأربع فئاتٍ رئيسةٍ "أَربعة أَبناء راشدين مستقرّين"، أَحدُهم في باريس، وهو الاتّحاد المركزيّ، وآخر في "دويي" وهو "اتّحاد جماعات الأَب پيير"، وثالث في "ألانسون" وهو فريق الجوّالين بقيادة "پول"، والرابع في "پليسّي تريڤيز PLESSIS TREVISE" وهو "جماعة القدّيسة مريم النسائيّة" بقيادة السيّدة "رينار"، وقد قال فيهم: "هؤلاء هم أبنائي الرَّاشدون، وهم ليسوا لُقطاء، وجميعهم، على تعدُّدهم، أَوفياء للرِّسالة الأَصيلة".

هذا القَوْل لم يرُقْ كثيرًا للابن الباريسيّ، الاتحاد المركزيّ، الذي رَفَضَ مساواة الأَب بينه وبين "المنشقّين"، رفضه لإِهانةٍ موجعةٍ.

أَمّا بين الإِخوة الآخرين فقد شَرَعت تظهر بوادر النُّزوع إلى الوئام، على نَحْوِ ما يتبيَّن من الأَسطُر التَّالِيَة الَّتي بعثت بها السيّدة "رينار" إلى "پول" (وكلاهما من الأَبناء الرَّاشدين الَّذين أَشارَ إليهم الأب پيير):

« لم يعُدْ الأَبُ عضوًا في الاتّحاد المركزيّ، وكذلك هو شأن الجماعات المدعوّة "منشقّة". ومن الطبيعيّ أَن تتمّ تعيينات لا تروق لا للأب ولا لنا. إذا ما حادت جماعةٌ عن سراط "عمّاوس"، لما تقاعس الأَب "جاك" عن قول كلمته في الأَمر... تذكَّر أَنّ الأَبَ كان لا يني يُردّد على مسامعنا: "لا تتعلّقوا بي". ولئن كانَ الحال يؤلمنا، فتيقَّن، يا پول، أَنَّه أكثر إيلامًا للأَب. ومعلومٌ أَنّ الأَب لم يُضْمِرْ، يومًا، ضغينةً لأَحد ».

تلك النزعةُ الوئاميّة راحتْ تتفاعل ببُطء، فيما ظلَّت تنبثق عن "عمّاوس" فروعٌ جديدةٌ، تحمل زَخْمًا شابًّا، ويُسهم كلٌّ منها، بأُسلوبه الخاصّ، في تحقيق مُثُل الأَب پيير. وكان لا بدّ أَن ينقضي نحو رُبع قرنٍ، قبل أَن تنصَهِر كلُّ تلك الحركات والتفرّعات في "اتّحاد عمّاوس فرنسا"، الَّذي أَبصر النور، مع غروب عام ١٩٨٥.

خلوةٌ في الصحراء

لكي يتزوَّدَ بالقُوَّة الَّتي كان عليه بثُّها، لجأَ الأَب، في مطلع عام ١٩٦١، إلى الصَّحراء، مُستمدًّا بين أَحضانها، المدَد الرُّوحيَّ، والنقاهةَ الجسديّة. وأَقام في منسك القدّيس الأب "شارل دي فوكو"، في بني عبّاس، مع الكاهن الدومينيكيّ الأَب "جانسن"، الَّذي كان يقيم في ذلك المنسك، حيثُ نَعِم بالصَّمت والسَّلام والنّقاهة. وقد مكث في الصَّحراء ثلاثةَ أَشهُرٍ، قضى قِسْطًا منها برفقة المطران "مرسييه" (Mgr MERCIER)، الذي كان قد دعاه للقيام بتلك الرِّحلة.

وكان الأَب، حقًّا، في حاجةٍ إلى تلك النّقاهة، في أَعقاب الأَسفار النائية المتعاقبة الَّتي عاد منها منهكًا، خائِرَ القُوى، مُحْدَودبًا، بحيثُ لم يعُدْ يُفيده كثيرًا اختلافُه المطَّرد إلى منسكه الجبليّ في "الساڤوا"، لاستعادة بعض الطَّاقة.

غير أَنَّ العالَمَ الرَّاغبَ في سماعه قد لاحقه حتّى خلوته النائية تلك، فطُلب منه

الشُّخوص إلى مصر لإلقاء سِلْسلةٍ من المحاضرات في كلٍّ من القاهرة والإسكندريّة؛ وقد أَرجأ موعد تلبية تلك الدعوة بضعة أشهرٍ وسُرعانَ ما تبنّى الزيَّ الصحراويّ، وأُسلوبَ عَيْش أَهل البلاد الَّذين كانتْ تحلو له مواكبةُ قوافلهم أَحيانًا؛ وكان يغمرُه حُبورٌ فائقٌ، في أَعقاب أَيَّامِ السَّير الطّويلة المُنهِكَة، الَّتي لا يعرف أَحدٌ إِلى أَين تقود، إذ يجدُ نفسَه، فجأَةً، وَسْط مُحيطٍ من الكثبان، أمام نبع ماءٍ يتدفَّق بسائله الثمين، بلا انقطاعٍ. وكان النُّورُ، ثمَّة، يتميَّز بروعةٍ لم يَألف لها، قطٍّ، مثيلاً، واللَّيل من السُّجُوِّ وصفاء السَّماء، بحيثُ غالبًا ما كان يُصوِّب طويلاً، نحو القُبَّةِ المُكَوْكَبة، عدسةَ آلة تصويره، علَّه يلتقط صُوَرًا نادرة.

وقد اتَّفق لصحافيَّيْن وعالِمَيْن كانوا يجوبون الصَّحراء، أَن تورَّطت سيّارتهم في الرّمال، وهم على عتبة "بلاد العطش"، وكادوا يفقدون كلَّ أَملٍ في النجاة، لو لم يبادر إلى نجدتهم رجلان انبثقا، بَغْتةً، من الأفق، يرتديان لباس أَهل الصَّحراء، فساعداهم على إِعتاق مركبتهما من أَسْر الرمال، وأَرشداهم إلى الاتّجاه الصَّحيح الذي كان عليهم سلوكُه، وكان أَحدُ الرَّجُلَيْن يتكلَّم الفرنسيّة، وكم دهش الرِّجالُ عندما تعرّفوا فيه الأبَ پيير!

ومن وَحْي التَّأمُّل في صَمْت الصَّحراء اللاَّمحدود، والتبحُّر في كنوز الإِنجيل، تفتَّقت قريحةُ الأَب عن هذه الرُّؤيا:

« ذات يومٍ رأيتُ الحبَّ والأَلَم، وقد امتطيا غيمةً، يرقُصان عند الغروب، وهما يُنشدان لله الَّذي أَوحى لهما بلحن النشيد. فدنوتُ مدهوشًا لمشاهدة الحبِّ يُحبُّ الأَلم، والأَلم يُحبّ الحبّ، مُتسائلاً عن سرّ تشابُك أَيديهما، وحُبِّهما المتبادَل ذاك. فقد كنتُ أَعرفهما، كلَيْهما، معرفةً حميمةً: أعرف الحبّ بجماله الرّائع، والأَلَم ببشاعته البالغة. ولكنّني عندما ازددتُ دُنوًّا، دهشتُ لرؤية الأَلم بوجهٍ لم أَعهده، فقد تلاشت بشاعتُه، وتألَّق جبينُه المُضيء بجمالٍ سامٍ بهرني إِشعاعُه؛ وقد انتشر نورٌ ليس من هذا العالَم، فمكثتُ جامدًا متنبّهًا، وسمعت الأَلَم يُناجي الحبَّ: "لا تهجرني، بعدَ أَن دعوتني. إِنّني أَعلَم أَنّني بدونك سأكون بَشِعًا. قلْ لي إِنّك لن تبارحني أَبدًا فأنا أَخشَى أن أجدَ نفسي وحيدًا". وقد أَجاب الحبُّ، بنبرةٍ كانت تتردّد فيها أَصداءُ

الأَبديّة: "لا تخشَ شيئًا، أَيُّها الأَلَم الصَّغير؛ أَفلا تُدرِك أَنّني، أَنا أَيضاً، معك، أكتسب مزيدًا من الجمال، مع أَنَّ البَشَر الَّذين يَرَوْنني بدونك لا يستطيعون أَن يتخيَّلوا أَنّ بهاءَ وجهي يُمكن أن يزداد إِشعاعًا. أَجل، يا أَلَمي، إِنّني أُحبّك لأَنَّك تُكمل جمالي، ولأَنَّك، وحدَك، قادرٌ على الارتقاء به إِلى ذُرْوة الكمال، وعلى ملئه نورًا وفَرَحًا.

"وقد تأمَّلتُ طويلاً ذلك المشهدَ، ثُمَّ تجرَّأتُ فالتمستُ من الأَلَم والحبّ أن يصطحباني معهما. فأخذاني بين ذراعَيْهما مثلَ طفلٍ. سأَظَلُّ، أَبدًا، أبدًا، فقيرًا، وسأُنشِدُ، معهما، نشيدَ تسبيحٍ للرَّبِّ الَّذي حبانا حياته، حياةَ الرَّبّ العُظمى، حياة الله النَّبع الجمّ، إِله الكمال والملء. إِنّ الله الَّذي جمعنا نحن الثلاثة وحَّدنا. فهلمّوا، جميعكم، وانضمّوا إلينا، فيغدو النَّشيد من النَّقاء والرِّقّة، بحيثُ سيُصعِّد، بخَفْقةِ جناحٍ واحدةٍ، إلى أَعالي السَّماوات، ويمتزج بأناشيد جميع الملائكة ».

في تلك الخَلْوةِ الصَّحراويَّة، لم يكُن الأبُ وحيدًا، إذ مذْ حطَّ في رمالها أَقدامه، واكب خيالَه وجهٌ حبيبٌ، وصوتٌ عذبٌ، ما انفكّ يتردّد صداه في حناياه. فمن هنا كانتْ تُوافيه، لنحو عشرين سنةً فاتتْ، رسائل صديقه "فرانسوا كاربيت"، الَّتي طالما وطَّدتْ عزيمته، وأَنارت بصيرته، وشدَّت أَبصارَه إلى النُّجوم. وهناك في الصَّحراء، عقَدَ العزمَ على جمع تلك الرسائل ونشرها تحت عنوان "صَوْبَ الحُبّ الأَعظم"، علَّه ينير درب "جميع مراهقي هذا العالم المُضطرب، في مواجهة النَّهار المُشرق على حياتهم، بين أيديهم".

بين رحاب تلك الصَّحراء الشَّاسعة، كان فرانسوا يعيشُ مع صديقه. "**فهل يُعقل أَنّ الحياةَ انتهت لمن ارتضى أَن يلج، مثلما هو ولَجَ، بكُلِّ كيانه، في ملءِ الحياة، حيثُ لا وجودَ لبشاعةٍ، أَو خطأٍ، أو حدود؟**"

إِنَّ فرانسوا، بواسطة هذه الرَّسائل "أَشدُّ إِشعاعًا، داخل قلوب الَّذين يقرؤونه، وفيمَا حوله... علَّها تُساعدُهم على بَسْط أَشرعتهم، بلا تحفُّظٍ لريح الحُبِّ".

الغريق

ما كاد يستعيدُ شيئًا من قُواه، حتّى عاد الأَبُ من جديدٍ للتَّجوال، فزارَ، على

التَّوالي، مصرَ حيثُ أَلقى سلسلةً من المحاضرات، ومُدُنًا أفريقيَّةً عـدَّةً، والنمسا، والهند، مرّةً أُخرى، حيثُ أَمضى شهرًا في قلب قرى الصَّفيح، مع فِرَق المُتطوِّعين، وهنودٍ شبابٍ يعملون معًا، يدًا بيدٍ، لتخفيف معاناة المُعذَّبين.

في تلك الأثناء، كانت "عمّاوس" تعهد ازدهارًا مُطَّردًا خارج فرنسا، وازدهارًا داخل فرنسا تشوبُه خلافاتٌ، تشتدُّ وتخبو، بين الاتّحاد المركزيّ وشتّى الجماعات، إلى أَن جرت، في تمّوز من عام ١٩٦٣، مأساة دفعت بمصير الحركة في منحًى جديد.

فقد كان الأَب پيير، عقبَ اشتراكه في مؤتمرٍ لمكافحة الجوع، في روما، قد طار إِلى أَميركا الجنوبيَّة، استجابةً لدعوات فروع "عمّاوس" المتعدِّدة المنتشرة هناك، وكانت أُولى محطّاته مدينة "لاس فلوريس"، على بعد نحو مئة كيلومترٍ من "مونتيڤيديو" عاصمة الأوروغواي، حيثُ كان تاجرٌ يهوديٌّ قد تبرّع لعمّاوس بقطعةِ أَرضٍ فسيحة، قُرِّرَ أَن يُقامَ عليها مُعَسْكَرٌ صَيْفيٌّ لأَكثر فتيان "مونتيڤيديو" بُؤْسًا، وقد تكاتف على إِنشائه فُقَراءُ وطُلاَّبٌ، بقيادة الأَب "سييرّا"، مُؤَسِّس "عمّاوس" الأوروغواي.

وكان على الأَب أَن ينتقل من هناك إلى بوينس أيريس، حيث العمّاوُسيُّون في انتظاره. ومن المعلوم أَنَّ شهر تمُّوز في أَميركا الجنوبيّة هو ذُروة الشِّتاء، معادلاً، في ذلك شهر كانون الثاني في بلادنا. وفي المطار أُبلغ الأَبُ أَنَّ كثافة الضَّباب تحولُ دونَ انطلاق الطَّائرات، فأَبرق إلى أَصدقائه في بوينس أيريس مُنبئًا: "سأَصِلُ غدًا بسفينة اللَّيل، واسمُ تلك السَّفينة "سيوداد دي اسونثيون".

كان موعدُ الإِبحار هو التاسعةَ مساءً، ولكن من جرّاء تعذُّر إِقلاع الطَّائرات، وتضاعُف الإِقبال على استقلال السَّفينة، سادَ الازدحام والفوضى، فأَقلعتْ مُتأَخِّرةً، وعلى متنها ٤٢٩ راكبًا، عَشَراتٌ منهم لم يكن لهم أَسرَّةٌ، فأُلجؤوا على افتراش مقاعد في الرّدهة الكبرى.

وشاءَت العناية أَن يكون رفيقَ سفر الأَب پيير، الأَبُ "أودينيه AUDINET"، الَّذي كان يضطلع بمُهمَّة التربية الدِّينيّة في الأوروغواي. وسرعان ما شاعَ نبأُ وُجود الأَب پيير على ظهر السَّفينة فتقاطر عديدٌ من الرُّكّاب التماسًا لبركته، وفي مُقدِّمتهم

النِّسوةُ اللاّئي كُنّ يأتينه بأَطفالهنّ كي يُباركهم. وبعدَ أَن تحدَّث إلى عددٍ من الركّاب، انتابه التَّعَبُ، ففزع إلى سريره، علَّه يُصيب بعض راحةٍ، غير أَنَّ النوم جفاه، فعادَ يذرَعُ ظَهرَ السَّفينة جيئةً وذهابًا، مُصلِّيًا، وحالمًا في الأَيّام الَّتي قضاها مع البحّارة، أثناء الحرب، مُجيلاً في فكره معاناتهم في قعر الباخرة، في حين لا يشهد الرُّكّاب منها سوى زخارفها وجانبِ المُتعةِ فيها. ثمَّ عاد إلى سريره، حيثُ أَفلح، بعد لأْيٍ، في الإغراق في النَّوم. وإذ ببابه يُقرع في السَّاعة الرابعةِ فجرًا، وبالأَب "أودينيه" يمُدُّ له سِتْرة نجاةٍ، ويُنبئه بأَنَّ السَّفينةَ عالقة في وسْط النهر، وأَنَّ التعليمات صدرتْ إلى الرُّكَّاب بالتجمُّع على ظهرها.

كانت سِتَر النَّجاة المتوفّرةُ تفيض عن عدَد الرُّكَّاب، غير أَنَّ الملاّحين قد تقاعسوا عن إيضاح طريقة استخدامها، وعن مساعدة الرُّكّاب، فارتداها عددٌ منهم، ومعظم الأَطفال، على نحوٍ خاطئٍ، وكذلك فعل الأَبُ پيير نفسُه، الّذي قال في ما بعد: "أنا أَيضاً قد ارتديتُ سترةَ النَّجاة، على نحوٍ خاطئٍ، ولكنَّ الربَّ شاءَ، مع ذلك، أَلاّ أَلقى حتفي".

وشرعت المأساةُ تتسارع فُصولاً، فإِثْر فترةِ جَلَبةٍ وجيزةٍ، انطفأت الأَنوارُ، فتصاعدت أُولى صَيحاتِ الجزَع، وتنادى الأَقارب والأصدقاء، وكان الضَّباب شديدَ الكثافة، غيرَ أَنَّ ضياءَ البَدْر كان يُسرِّب نورًا حليبيًّا، ويسكبُ في النُّفوس شيئًا من السَّكينة، إذ كان لا يزالُ يسودُ الاعتقاد بأنَّ الأمرَ لا يتخطّى كونه خَلَلاً طارئًا. ولكن سُرعان ما شاعَ أَنَّ السَّفينةَ حادتْ عن مجرى المياه العميقة؛ وأَخذ الرُّعبُ يرتسم على الوجوه، ويُقرأ في العيون، وازداد الرُّكَّاب التصاقًا بعضُهم ببعضٍ، حتّى غدا التنفُّس عسيرًا.

وهَمَسَ الأَب پيير في أُذن زميله الأَب "أودينيه" بالتَّساؤلات التي غزَت آنذاك ذِهنه، وهي التساؤلات التي تَتَفجَّر تلقائيًّا حيالَ ضربات الشَّقاء الّتي تنهال على أَبرياءَ مساكين، وتمتَمَ: "أَيُّ سرٍّ، في مجال الإيمان، يكمنُ في كُتلة الشَّقاء الكثيفة الّتي تُصيب عدَدًا غفيرًا من النّاس الطَّيِّبين، أَجل طيّبين، مع ما يكونون قد ارتكبوا من أَخطاء، مثلنا، نحن البشر أَجمعين. ما سرّ ذلك، ولمَ كُلُّ هذه الآلام التي يُمنى بها قَوْمٌ غيرُ مهيَّئين لاكتناهِ مغزاها"، وحدَّقَ كُلٌّ من الكاهنَيْن بالآخر، كأَنّ خاطرةً واحدةً قد

جمعتْهما في تلك اللَّحظة؛ فربَّما هما وُجدا، في ذلك المكان، وفي تلك السَّاعة، لكي يتحمّلا عبءَ كُلّ ذلك الأَلَم، ويسمُوا به، ويُحَوِّلاه إِلى تقدمةٍ.

وقد بدتْ دقائقُ الانتظار دُهورًا، ثمَّ علا صوْتٌ عبر المكبّرات يوعز إلى الرُّكّاب بالهبوط إلى الماء في هدوء. وانصاع الرُّكّاب للأَمر، وهم يجهلون حقيقةَ ما يحدث، من غير ذُعْرٍ، ولكن في قلقٍ ظاهرٍ. وقد أخذ كثيرون يؤلّفون حلقات صلاةٍ صامتةً، ثُمَّ راحوا، واحدًا إِثْرَ الآخر، يجثون أَمام الكاهنَيْن، ملتمسين الغفران.

لقد كان اصطدام السَّفينة بحُطام سفينةٍ غارقةٍ خفيفًا بحيثُ لم يكَدْ يشعرُ به الركّاب؛ غير أَنّه أَحدث شقًّا في المُقدّمة تدفَّقتْ منه المياهُ غزيرةً؛ ثمّ ما لبثَ أن اندلَعَ الْحَرِيق إِثْر انفجار المرجَل؛ وبغتةً تصاعدت عُمُد دخانٍ كثيفٍ داكنٍ، وانبثقت أَلسنةُ اللّهيب هائلةً، ممتدَّةً إِلى كُلِّ أَرجاءِ السَّفينة. واستحوذَ، حينئذٍ، الذُّعرُ على الرُّكّاب، وامتَزجت الصَّلواتُ بالعبَرات، وصَيْحاتِ الرُّعب.

وتولَّى رجالٌ غيرُ مدرَّبين، زادَ اهتزازُ سلوكهم من نشر الخوف، إِنزالَ مراكب النَّجاة الأَربعة المتوفّرة إِلى الماء، وهي تكاد لا تتّسع لأكثر من مئةٍ وخمسين شخصاً، وتسابق الرُّكّاب إِلى احتلال أَماكنهم فيها، في فوضى من الجُنون والعُنْف، إِذ شُوهِدَ رجالٌ أَشدّاء، يُقلّون حقائبَ ثقيلةً، يدفعون بشراسةٍ نساءً وأَطفالاً، بل ينهالون عليهم ضرْبًا، كي يسبقوهم إلى مراكب النَّجاة تلك.

في تلك الأَثناء تريَّثَ الأَب في مؤَخِّرة السَّفينة، مُحاطًا بجمعٍ من الجاثين، ملتمسين الغفران، فيما كانت النَّار تحبو نحوهم، ومُؤَخِّرة السَّفينة تعلو شيئًا فشيئًا إِلى أَن ارتفعت نحو سبعة أَمتارٍ فوق سطح الماء، في حين كانت المُقدّمة تغوصُ إِلى أَسفل. وأَخذ من استطاع من الرُّكّاب، أَو من سيطر عليهم الذُّعر يُلقون بأنفسهم في الماء، ولا سيّما وقد بات الانحدار إِلى الطابق السُّفليّ من السَّفينة مُتعذِّرًا، بعد أَن نَشِبَت النَّار بالسَّلالم، ما حدا بمتطوّعين إِلى ارتجال سلالمَ من حبالٍ، بكلّ ما تهيَّأَ لهم؛ وقد استُخدِم لهذا الغَرَض معطف الأَب پيير، وكذلك أَرديةُ آخرين، وسُرْعانَ ما أَمسى بين طَيّاتِ المياه معظمُ الركّاب، ما خلا نحو ثلاثين نفَرًا، أَبوا أَن يريموا عن مُؤَخِّرة السَّفينة، ومنهم الرُّبَّانُ نفسُه، وقد كُتِبَتْ لجميعهم النَّجاة، لأَنَّ السَّفينة، بعد أَن ارتطمت مُقدّمتُها بالرِّمال، لم تغرَقْ.

لم يُلقِ الأَبوان پـيير وأُودينيه بنفسَيْهما في الماء، إلاّ بعدَ أَن سبقهم إِليه جميع الرَّاغبين في مغادرة السَّفينة. وحينئذ جثا كلٌّ منهما أَمامَ الآخر مُلتمسًا الغفران، ثمَّ قفزا إلى الماءَ بعد أَن قذفا إليه بكُلّ ما من شأنه أَن يطفوَ، وبعد أن اتَّضحت الحاجةُ الماسَّة إلى تجمُّع الَّذين كانوا يُواجهون خَطَر الغرَق، حلقاتٍ مُتضامنة، والتشبُّث بأيِّ حُطامٍ طافٍ على سطْح الماء، ولا سيَّما بالحُطام الخَشَبيّ. وكان طاقم السَّفينة قد أَغفلَ قذف ما لديهم من صناديقَ فارغة، لهذا الغَرَض.

كان التيَّارُ يجُرّ، بشِدَّةٍ، الناسَ والأَشياءَ، معًا، نحوَ المُحيط الأَطلسيّ القريب؛ ومع أَنّ الأَب پـيير لم يكن سابحًا ماهرًا، إلاّ أَنّه سبَح بكُلِّ طاقاته، بعد أَن تعذَّر عليه الانضمامُ إلى رفيقه الأب "أودينيه" الَّذي كان مُتشبِّثًا بصُندوقٍ خشبيٍّ. وقد صرّح: "**لقد اعتراني شيءٌ من القلَق، ولكنّه لم يكُن قلَقًا عظيمًا، فمنذُ اللحظة الَّتي أَلفَيْتُ فيها نفسي في النَّهر، وتأكَّدْتُ أَنّني غارقٌ، لا محالة، استحوذَ عليَّ شُعُورٌ مدهشٌ بالسَّكينة، واستسلمتُ استسلام طفلٍ. أوَّلُ ما جال بخاطري، في تلك اللَّحظات، خطايا حياتي الَّتي استغفرت الربَّ عنها. ولكن، بعد ذلك، استقرَّتْ في ذهني خاطرةٌ واحدةٌ ظلّت تشغَلُه حتّى أُغمي عليّ، بعدَ ساعةٍ ونصف أَو ساعتَين: وهي أَنَّ من يَضَعُ يدَه في يدِ الفُقَراء، يجدُ يَدَ الله مُمْسكةً بيده الأُخرى**".

وقد اعترف، في ما بعد، أَنَّه، في تلك اللَّحظات العصيبة، وقبلَ أَن يغمرَه ذلك الشُّعور بالسَّلام كان قد خامره ندمٌ عميقٌ على فُرَصِ خدمةٍ وإنقاذٍ للآخرين ربَّما تقاعَس عنها خلالَ حياته، حين هي كانت في منال يده، فمدى اتّحادِ المرءِ بإخوته يُحَدِّد مدى اتّحاده بالله.

وأخيرًا تمكَّن من الإمساك بصُندوقٍ كان ثمانيةٌ آخرون مُتشبِّثين به، جاهدين في إبقاء رؤوسهم خارجَ الماء، وفي عَدَم افتراق أَحدهم عن الآخرين. وقد تجلَّتْ له آنذاك، بقوّةٍ، ظاهرةُ الحاجة المترسّخة، بعمق، لدى البشر إلى نبذ العزلة، في ساعات الشدَّة الجماعيّة، ونزوعهم الغريزيّ نحو التجمّع. وكم كان رائعًا ومؤثِّرًا ذلك العطشُ إلى الاتّحاد والتضامُن!

واعترى الأَب، حينئذٍ، شعورٌ بالحُزْن، بعجزه عن الغناء، وعن "إنشاده سلامَه وثقته في الربّ". غيرَ أَنَّه كان، ثمَّة، بين رفاق المحنة، رجلٌ شجاعٌ، في نحو

الثَّلاثين من العمر، لا يكفّ يضحك، ويروي دُعاباتٍ من شأنها إقصاءُ الجزع والقنوط عن نفوس رفاقه. ويروي الأَبُ عنه قائلاً: "كان يتكلّم بالإسبانيّة الّتي لا أُلمّ بها جيّدًا. ولكنَّني فهمتُ أَنَّه كان يدعو الجميعَ إلى منزله، في الغد، لاحتساء كأس ويسكي، بلا ماء... وقد ضَحِكَ الجميعُ؛ وفجأةً توجَّه إليّ بكلامٍ أَدهشَني، إِذ قال: "أَنتَ فرنسيٌّ، ومُلتحٍ أَفَلَسْتَ الأَب پيير؟ عاشت فرنسا! وشرع ينشد "المارسييز". ما أجمل هذا النَّشيدَ عند عتبة الموت! وكم كان بودّي، أَنا، أن أنشد للعذراء "سلامٌ أَيَّتها الملكة"، أو أَن أُدَمْدِم بعض التَّراتيل الغريغوريّة التي أُحبُّها كثيرًا! ولكنَّ حلقي ظلَّ عاجزًا عن إِصدار أَيّ صوت".

وأَخَذَت الأَمواجُ تتصاعدُ مُتجاوزةً المترَ ارتفاعًا، دافعةً بالغَرْقى بعيدًا عن السَّفينة، مُحقِّقةً بذلك أُمنياتهم، إِذ كانوا يخشون انسياب البترول الكفيل بجعل جوارِ السَّفينة مَحرقَةً قاتلةً؛ وكانوا، هم أَيضاً، يعملون في هذا السَّبيل، ويسوطون الماءَ بأَرْجلهم بعُنْف، في محاولةٍ لإِبعاد الصُّندوق عن السَّفينة ما استطاعوا؛ ولدى كلِّ حركة، كانت ساق الأَب پيير تصدُم غطاء الصُّندوق وأَقفاله؛ وقد روى أَيضاً: "كنتُ أَشعر أَن جُرْحًا بليغًا كان يُشرَع فيَّ، وأَنّ ساقي موشكةٌ أَن تُهشَّم شَرَّ تهشيمٍ. غير أَنَّ للماء ما يُحاكي مفعولَ المُخدِّر... كنتُ أَتألَّم، ولكنّه لم يكن أَلمًا شديدًا. ثمَّ لم يكن لديَّ حيلةٌ أُخرى".

أَدهى من الأَلم كان الشُّعورُ بالعجز، بعدَ أَن أَخذ الماءُ يخدِّرُ الأَجساد، والقَلَقُ يتسلّل إلى النُّفوس، ولا سيَّما أَنّه، بعد ساعاتٍ من الجُهد المُضني لم تظهر في الأُفق أَيَّةُ نَجْدةٍ قادمةٍ. ورأَى الأَب، بحُزنٍ، بعضَ رفاقه يعتريهم شُحوبُ الموت، ويهوون في إِغماءٍ قاتلٍ، وهو عاجزٌ عن إسداء أَيَّةِ مُساعدةٍ لهم.

وبعد لأيٍ، ثَقَبَت الضَّبابَ أَضواءُ أَوّل سفينة إِنقاذ، وعَبَثًا راح الغرقى يجأَرون بالاستغاثة من نواصي الأَمواج الَّتي كانت تنهض بهم عاليًا، ثُمَّ تكاد تدفنُهم في الحُفَرِ العميقة الَّتي كانت تُحدِثُها أَثناءَ انحدارها، فالغَوْثُ كان لا يزال قصيًّا.

ويستأنف الأَب روايته فيقول: "إِن كنتُ أَشعُر بالبرد، فلم يكن ذلك من جرَّاء برودة الماء، بل من جرّاء الإِعياء. كانت الرِّعْشَةُ تسري في عمودي الفقريّ، عندما كانت الأَمواج، تتسلَّل من تحتِ ثيابي، وتصعَدُ إِلى رَقَبَتي. وحينئذٍ كنتُ أَشعر بلَسْعةِ

سوْطِ الماءِ الجليديّ".

باخرتان حربيَّتان أَرجنتينيّتان هرعتا لدى تلقّيهما نداءَ الاستغاثة، غير أَنَّ كثافة الضَّباب كانت تجعل تقدُّمَهما بطيئًا، وكانتا تعملان، بتؤدةٍ، في البَحث عن الغرقى، والتقاطِهم، واحدًا واحدًا، أَو جماعاتٍ صغيرةً، في مراكب إِنقاذٍ صغيرةٍ، كانت كُلَّما امتلأَت عادت إِلى الباخرتَيْن لتخَفِّفَ من حمولتها، ثمّ تعيد الكرّة. وقد اقتضى إِنقاذُ نحو أَربع مئة غريقٍ، على هذا المنوال، ساعاتٍ طويلةً. وتمّ التقاط الأَب پيير في نحو السَّاعة التَّاسعة صباحًا، بعدَ أَكثرَ من أَربعِ ساعاتٍ قضاها في عُبابِ الماء، وحُشِر جسده مع جُثَث الدّفعة الأُولى من الموتى الثمانية والعشرين. ولكن فيما كانوا يُسَجُّون إِلى جانبه جُثثًا أُخرى، سَمِعَ، وهو في شِبْهِ غَيْبوبة مَنْ يقول: "ولكن هذا ما زال حيًّا". وقد شَرَعَ يستعيدُ وَعْيَه في نحو السَّاعة الحادية عَشْرَةَ، على ظَهْر الباخرة الحربيَّة، وهو مُستلْقٍ على فراشٍ، وثُلَّةٌ من البحّارة عاكفون على تفريكه بعنفٍ، بحيثُ يكادون يَسلخون جلدَه.

"أَوَّلُ صورةٍ مثلتْ أَمامَ ناظريَّ، كانت صورةُ وجوهٍ طيِّبةٍ، وبسماتُ البحّارة الأرجنتينيّين. وقد علمتُ، في ما بعد، أَنَّهم جاهَدوا طويلاً كي يعيدوني إِلى الحياة... وكان فَرَحُهم عارمًا عندما انفرجتْ شفتاي عن كلماتي الأُولى: "صباح الخير... شكرًا لكم جميعًا". وجالتْ لواحظي، يمنةً ويسارًا، فلم تشهدْ سوى أَجسادٍ مُمَدَّدة في كلِّ مكانٍ. وسأَلَني البحَّارَةُ باسمين: "هل تحسَّنتَ حالاً؟" واستعدتُ، آنذاك، كاملَ رُشْدي. كنتُ ملفوفًا بغطاءٍ صوفيٍّ، وأَسناني تصطَكُّ، ونوباتٌ عنيفةٌ من القشعريرة تهزّني. بينَ الفينة والفينة، كانت دمُوعي تنساب، بيْدَ أَنَّ سكينةً عميقةَ الغَوْر كانت تستحوذُ عليّ... منذُ طراوة عودي، قد تملَّكتْني الرَّغبةُ في "العطلة الكبرى"، على حدِّ ما كنتُ أَدعو الموتَ، مازحًا. وقلتُ لنفسي: "ها إِنَّ الموعِدَ الَّذي طالما تطلَّعتُ إِليه، والَّذي طالما أُرجئَ، يُؤَجَّل، مرَّةً أُخرى، إِلى موعدٍ لاحق".

واستطلع الأَبُ أَنباءَ رفاقه، فأُحيط عِلْمًا بأَنَّ الأَب "أُودينيه" قد التُقِطَ حيًّا مُعافى؛ أَمَّا الآخرون، الَّذين جاهَدَ معهم للنَّجاة، حولَ صُندوق خشبيّ، في عُباب الماء، والَّذين باركهم بالأَمس، فكان يذكرُ وجوهَهم، ويجهلُ أَسماءَهم، وبالتَّالي يعجَزُ عن تقصّي أخبارهم، ولا سيَّما أنّه لا يُجيد اللُّغةَ الإِسبانيّة. ويواصل الأب روايته قائلاً:

« حينئذٍ أَزِفتْ أكثر اللَّحظات قَسْوةً. ففي حين كنتُ، بين فَيْنةٍ وأُخرى، أَبكي في صمت، من جرّاء تراخي الأَعصاب الَّذي يسكُبُ في النفس الطّمأنينة، في أَعقاب السَّاعاتِ العصيبة الَّتي واجهتُها، إذ برجُلٍ مُتَجَهِّمِ الوجه، مُقَطِّب الجبين، لا ينِي يروح ويجيء نصفَ عارٍ، وَسْطَ رجال طاقم السَّفينة، وتعرّفتُ فيه أَحدَ الّذين تحدَّثتُ إليهم عشيَّةَ البارحة، والَّذي التمسَ منّي مُباركةَ أَبنائه. وهو، عندما لحَظني، انقض عليّ، وهوى على رُكبتَيْه، قريبًا منّي، مُنتحبًا، ورأْسه مُتدلٍّ على صَدْره؛ ثُمَّ أَوْضح لي، مازجًا كلامَه الإسبانيّ ببعض أَلفاظٍ فرنسيَّةٍ، أنّ ابنَه البالغَ من العمر تسعَ سنواتٍ قد استُخرج للتوّ، من الماءِ، مَيْتًا. من جَرّاء جهلي اللُّغةَ الإِسبانية لم أَستطع أَن أَقول له شيئًا، ومع ذلك، وإذْ كان كلٌّ منّا بينَ ذراعيْ الآخر، عبَّر كُلٌّ منّا عن الكثير ممّا كان يفيض به قلبُه. وقد ظلَّ الرَّجُلُ طويلاً، إِلى جانبي، ينتحب.

"وقد تكرَّر مثلُ ذلك الحَدَث مرَّات، في غضون السَّاعات التَّاليات، إذْ كان رجالٌ ونساءٌ، عندما يلحظونني، يَدْنونَ منّي مُنْتَحبين. كُلٌّ منهم كان قد أُحيط، قُبَيْل ذلك، علمًا بأَنّ واحدًا من أَفراد أُسرته قد التُقط وأُودع قَعْرَ السفينة، في مَقام الأَموات السُّفليّ، حيثُ كنتُ قد أُودعتُ، برهةً، أَنا أَيضاً؛ هناك، حيث لم يكن يُسمَحُ لهم بالمثول، كان جُثمانُ عزيزٍ عليهم مُسجّى. حقًّا، كانت تلك أكثر اللَّحظاتِ قسوةً ».

لقد فقدَ الأَب، في ذلك الحادث، كُلَّ أَمْتعته، ولكنَّه، في ما بعد، عثَر، بين الأَشياء الَّتي أُنقذتْ، على سِترته الجلديَّة، وكتاب صلَواته، ومُفَكِّرته؛ إلاَّ أَنّه حَزِنَ حُزْنًا شديدًا على فقدان أوراقه، ودفاتره، ووثائقَ عديدة تتعلَّقُ بعمّاوس، وترتدي، في نَظَره، شأْنًا جليلاً.

في تلك الأَثناء، كان قد أُذيع اسمُه في لائحة ضحايا الكارثة الأَربع والثمانين، من أَمواتٍ ومفقودين، وطارَ النبأُ الفاجع، كالبرق، إِلى أَقاصي الأَرض، وهبَّ عددٌ من رفاق "عمّاوس" فرنسا مُطالبين بشنّ حملةٍ للبَحْث عنه ومحاولة إِنقاذه، في حين كان هو يستعيد، شيئًا فشيئًا، بعضَ قِواه. وإِذ كان عاريًا أُعْطِيَ لباسَ ميكانيكيٍّ رَماديَّ اللَّون، وأَعاره بَحَّارٌ أَحذيةً ضيِّقةً، وفي هذا الزَّيِّ هَبَط، مُترنِّحًا، في قاعدة "لايِلاتا" العَسْكريَّة، في السَّاعة السَّابعةَ عَشْرةَ من الحادي عشر من تَمُّوز، وقد لفَّ كتفَيْه بغطاءٍ صوفيٍّ، فيما تراصَّ، رغم البَرد القارس، حشدٌ من المُصوِّرين

والصّحافيّين، والقوْم الطيّبين الَّذين هرعوا حاملين الأغطيةَ الصوفيَّة والأَلبسة. وقد أَحدثَ ظهورُه، مثلَ ما قد يُحدثه ظهورُ ناهضٍ من القَبْر.

وعلى أَسئلة الصّحافيّين الَّذين تدافعوا لانتزاع تصريحٍ منه، أَجاب: "اهتمّوا، أَوّلاً، بالمُنتَحِبين والمُنتَحِبات، الَّذين يبكون أَعزّاءَ عليهم لَقُوا حتفَهم".

وما لبثتْ أَن تغلّبتْ عليه يقظةُ النَّبيِّ، فناشَد الصّحافيّين:

« إنّكم تتّسمون بلطفٍ رائعٍ. ولكن عليكم أَن تهتِفوا عاليًا، في مدينة "لاپلاتا"، وفي "بوينس أيرس"، وفي جميع مُدنَ العالَم، أَنّ، ثمّةَ، كوارثَ، لا مرَّةً كُلَّ عامٍ، بل في كُلِّ يَوْمٍ وكُلِّ ليلة... هناك عشرات الألوف، بل مئات أُلوف الآباء والأُمَّهات، الَّذين يُجَابهون كارثةً كالّتي حلَّت بنا، ولكن ما مَن يتأثّر لنكبتهم، ولا من يتطوَّع لإغاثتهم، مثلما تفعلون أَنتُم اليومَ من أَجلنا...

"فكِّروا في ما تُسمّونه، هنا، مُدُن الشَّقاء، وفي جُموع سُكّانها، الَّذين، تحتَ المطر الْمُنْهَمِر، لا يجدون مكانًا أَمينًا يضعون فيه سريرَ طِفْلٍ، وفُرشُهم مُهترئة من الرُّطوبة، لافتقارهم إِلى المنزل، والعمل، وإِلى كُلِّ شيْءٍ. هؤُلاء كارثتُهم ليست كارثةَ يومٍ أَو ليلةٍ، بل كارثة حياةٍ بأكملها، مذْ أَبصروا النُّور، ومن غير أَيّ أَملٍ، في أَيِّ تبدُّلٍ، حتّى يلقَوا حتفَهم. حياتُهم غَرَقٌ دائمٌ، وهم، في كُلِّ يومٍ، غَرْقى.

"افتحوا عيونَكم على نكبة هؤلاءِ الغرقى اليَوميَّة، النَّكبةِ التي يُؤْثِرُ المُجتَمَعُ المُرائيُّ إِغفالها ».

في تلك الأَثناء وافتْه امرأَةٌ مُلْتمسةً مساعدتَه في سبيل العثور على زوجها الَّذي فقدتْ أَثَره، في مياه النَّهر، فودَّع الصّحافيّين، وخفَّ لنَجْدتها، ولا سيَّما أَنّ تلك المرأة وزوجها كانا، في الأَمس، قد جاءاه قائلَيْن: "باركنا، أبتاه... لقد كُنّا منفصلَيْن، وها قد تصالحنا، وهذا هو شَهرُ عسلنا الثّاني". وبرفقة الأَب "باليستا"، وبعض أَصدقاء "عمّاوس"، جالَ على الأَماكن الَّتي نُقِل إِليها الضَّحايا، وانتهوا بالعُثور على شقيق زوج المرأة، أَمّا زوجها، فلم يقفوا له على أَثَر. وقد قادهم البحثُ إِلى المستشفى العَسْكريِّ، حيثُ ناشَدَ أَحدُ الأطبّاء الأب پيير قائلاً:

– "تريّثْ لحظةً، وتناولْ شيئًا من الطَّعام، وخُذْ حمّامًا. وبعد ذلك سنُواصل بحثنا".

وحينئذٍ، فَقَطْ، اكتشفَ الإِصابَة في ساقه الَّتي خلَّفت فيها أَثَرًا بليغًا، والَّتي، منذْ شَرَع يدفأُ ويتحرَّك، أَخذتْ تُشيع فيه أَلَمًا لاذعًا؛ فاقتاده الأَب "باليستا" إِلى مشفى تُديره راهباتٌ إِيرلنديّاتٌ، وهناك قُسر كل الظّفَر بقِسْطٍ من الرَّاحة. وتدفّقت عليه البرقيّات من كُلّ أَرجاء المَسكونة، غير أَنّه، قبل الاطلاع على رسائل الرُّؤَساء، والوزراء، والأَساقفة والسُّفراء، ومشاهير العالم، اطّلع على برقيّات "إخوته" جامعي النّفايات، في "نويّي پليزانس"، فأَبرق إِلى الآنسة كوتاز: "كلّ شيءٍ على خَير نَسَقٍ. طمئني الجميع".

وفي اليوم الثَّالث، وكان يومَ أَحد، حَرِصَ الأَب على إِقامة قدّاسٍ لراحة نفوس ضحايا الحادث، خارقًا إِرادة الطَّبيب الَّذي كان يُعارض رغبتَه في مغادرة المشفى. ولكنَّه استسلم، بَعْدَ لأيٍ، حيالَ إِصراره. وأَمامَ الجمهور المحتشد في الكنيسة قال الأَب:

« في الموت لقاءاتٌ، أكثرُ ممّا فيه انفصالٌ، فهناك اللِّقاءُ الأَكبرُ بالربّ أَوّلاً، ثمّ اللّقاءُ الحميمُ بمن ما زالوا على قَيْد الحياة، والَّذين أَمسى الَّذي بات مقيمًا في الرّبّ يعرفهم في أَعماق كيانهم. ثمَّ هناك اللِّقاءُ مع جميع السَّلَف، جميع البشر الَّذين ظَفِروا بالخلاص. كلّ شيءٍ حضورٌ مُتزامن، لحظةٌ تتراكم النِّعَمُ حَوْلَ النَّفس، كي تقول "نعم" للحبّ...

"أَجل، ساعةَ الموت، لا يُفكِّرُ المرءُ إِلاّ في شيءٍ واحدٍ: إِنّ يد الله في يدي، بقدْر ما أكونُ قد وضعتُ يدي الأُخرى، أَثناءَ حياتي على الأَرض، في يد الفقراء... ».

لقد كان وَهَنُه البالغ يفرضُ عليه المزيدَ من الاستجمام، إِلاّ أَنّه لم يُطق القُعودَ أَكثَرَ من يومَيْن آخَريْن، ثمّ غادر المشفى، كي يعود إِلى ممارسة حياةٍ لا عَهْدَ لها براحةٍ، مُرهِقًا معه الأَب "باليستا"، والرِّفاقَ الآخرين، في جولاتٍ مكّوكيّةٍ عبرَ أَرجاء الأَرجنتين للاطِّلاع على كلّ إِنجازات "عمّاوس" هناك، وبالأَخصّ للتَّحدُّث إِلى الفقراء، الَّذين كانوا يؤْنسون، في كُلِّ عبارةٍ يتبادلونها معه، سعادةً جمَّة.

وقد وصف الأَبُ حالَه، آنذاك، بالقول: « **كنتُ أُحاكي لعازر الخارج من القبر، وبتُّ أَعمقَ إِدراكًا أَنَّ كُلَّ شيءٍ يخُصُّ الربَّ. "أَبت، إِنّ كلّ شيءٍ هو لك. فلتأخُذْ، ولْتَأْمُرْ، ولْتُقَرِّرْ ما تشاء!" كما أَدركتُ أَنَّه ينبغي أَن نتبنّى أَلَم الجميع، الأَلَم الجمَّ، المُبْهَم، لعلَّ كُلَّ أَلمٍ لا نُفْلِحُ في شفائه يُصبح، بفضل التَّقدمة، سَلامًا** ».

وكم بات معنى "التقدمة" يرتدي، لدى الأَب من عمقٍ، بعد أَن كاد يُقَدِّمُ حياتَه ضحيّةً!

إلاّ أَنّ أَحدَ العمَّاوسيِّين عبَّر عن انزياح غُمَّة قاتلةٍ عن صدور جميع الرِّفاق بقوله للأَب: "عليكَ الآن أَن تُواصل جهادَك، بعد أَن بتَّ قابَ قوسَيْن أَو أَدنى من "العطلة الكبرى". ولكنّني، بأَنانيّةٍ، أَشكرُ للربّ إِبقاءَك فيما بيننا".

التنظيم

ليس التنظيم من مَلَكات الأَب پيير البارزة، فهو يؤْثِر تدفُّق الحياة، وتفجُّرها الحرَّ على حَصْرها في أُطُرٍ ثابتةٍ، وتقييدها بنُظُمٍ صارمةٍ؛ ويُرجِّح المبادراتِ السَّخيّة على إِخضاع الآخرين لقواعدَ جامدةٍ؛ وهو، على غرار قدوته، الأَسّيزي، يأبى أَن يأمر ويَقْسُر، ويؤْمن بسُلطان الحُبّ، أَكثر من إِيمانه بسُلطة القانون.

إلاَّ أَنّه، بعد أَن اتَّسعتْ رُقعة "عمّاوس"، وتكاثر عديد أَعضائها، بات يُؤْنس، أَكثرَ فأَكثر، حاجةً إِلى التنظيم، وإِلى تحديد مُثُلٍ وأَهدافٍ وقواعدَ ينتظم على هَدْيها سلوكُ جماعات "عمّاوس". غيرَ أَنّ أَسباب الخشية كانت أَبدًا تدعوه إِلى الإِرجاء، مخافةَ أَن يخنُقَ تنظيمٌ سابقٌ لأَوانه، الطّاقاتِ المُتوثّبةَ الكامنةَ في فكرة "عمّاوس" الجوهريّة، وأَن يمنعها من النُّموِّ والازدهار، ويُحوِّلَ "عمّاوس" إِلى بيروقراطيّةٍ تحول دون إِلمام المسؤولين والرِّفاق بمآسي الآلام الإِنسانيّة.

في أَعقاب انتفاضة عام ١٩٥٤، كان العملُ من الجسامة، بحيثُ يحتاج إِلى العديد من العاملين، وحيالَ تلك الحاجة الملحَّة، سلَك الأَب منهجًا وصَفه بالقول: "حالما كان يبدو لي إِنسانٌ مُلتزمًا بالقِيم الجوهريَّة، مُتأَهِّبًا لبذْل ذاته، متمتِّعًا بالكفاءَة، أَلِفْتُ أَن أَقول له: "امضِ على نحو ما تُحسن العمل!". معاييرُ الانضمام إِلى الحركة الوليدة، آنَذاك، كانت: القناعة، والاندفاع، وخيارَ مشاركة حياة الفقراء. ومثلُ هذه المعايير الشخصيَّة أَشرعت البابَ أَمام شخصيَّاتٍ قَوِيَّةٍ، مُندفعةٍ، سخيَّةٍ، حريصةٍ على استقلالها، في مشاركة البائسين بُؤْسَهم، وأَفضتْ إِلى ضربٍ من الفوضى المُلهَمة، مُلبِّيةً رغبةَ الأَب في أَن يرى حركته موئل حياةٍ، وخَلْقٍ دائم.

على نقيض سائر المُؤَسِّسين، لم يبدأ الأَبُ پيير بوضع القوانين الدَّقيقة الإِحكام،

ولم يعكفْ، في ما بعد، على انتقاء أعوانه وأتباعه وفقًا لها، قبل أن يُباشر نشاطه، بل هبَّ يُلبّي حاجاتٍ كانتْ لازبةً ملحاحًا، واستعان بالأيدي السَّخيّةِ الَّتي امتدَّت لتُؤازره، قبلَ أن يتفرّغ لوضع نُظُمٍ للحركة الَّتي نشأتْ ونمتْ، في تيَّار ذلك الاندفاع. وهو، من ثَمَّ، ما انفكّ يُعلن: "**ليسَت عمَّاوس هي ما فعلتُ أنا، بل هي ما حدث لي**".

التنظيم الوحيدُ الَّذي حَرِص عليه الأَب منذُ نشأة "عمّاوس" هو أَن تتألَّف كُلُّ جماعةٍ من ثلاث فئاتٍ متكاملة:

– **الرّفاق**، وهم قَوْمٌ ممّن قسا عليهم الدَّهر وطَحَنَهم، وقادهم البُؤْس إلى "عمّاوس"، فعزموا على إِنقاذ أَنفسهم بخدمة الآخرين وإنقاذهم؛ ومن الرِّفاق أيضاً مُتَطوِّعون قرَّروا، في سبيل خدمةٍ مُثلى، أَن يعيشوا الحياة الجماعيّة في الصَّميم. وجميعُهم يعيشون معًا حياةً جماعيَّة.

– **الأَصدقاء**، الَّذين، وإن لم ينقطعوا عن حياتهم العائليَّة والمهنيَّة، ولم يُشاركوا الرِّفاقَ حياتهم الجماعيَّة اليوميّة، ندَبوا أَنفسهم لمُهمّة "العدوى"، وإسماع صَوْتِ من لا صوْت لهم، وممارسة النُّبوَّة، أَي فضح المظالم ومكافحتها، فضلاً عمّا يُسدونه للجماعات من مُساعداتٍ مادّيَّة.

– **الإِخوة**، ومهمّتهم بَثُّ الرّوح في كُلِّ ذلك، والحفاظُ على المُثُل والمناقب والرُّوحانيَّة في الحركة.

ولا مفرَّ من الإقرار بأَنَّ هذه العناصرَ المُتباينة لم تكن دائمًا متجانسةً؛ ولم يتسنَّ دائمًا للأَب پيير أَن يختبر كُلاًّ من أَعضائها، عن كَثَب، كما يفعل سائرُ المؤسِّسين، إذ كانت الحاجاتُ الطَّارئةُ تشغَلُه بلا هوادةٍ. وربَّما فقدتْ عمّاوس، من جَرّاء ذلك، في العُمْق، بعض ما كسبتْه في الاتّساع؛ وكان لا مناصَ من أَن تتصارَعَ، أَحيانًا، العناصرُ المتنافرة، وأَن تُرتكبَ، هنا وهنالك، أَخطاءٌ وتجاوزاتٌ، فَسَحَ لها غيابُ الأَب المُتواتِر، من جَرَّاء الإعياء والمَرَض، مزيدًا من الفُرَص.

من أَجل تلافي هذه العَثَرات، وُلدَ اتِّحادُ "عمّاوس" المركزيّ عام ١٩٥٨، في محاولةٍ للتَّوفيق بين أَحلام النَّشأَة الأُولى، ومُتَطلَّبات الإِدارة اليَوْميَّة؛ وقد تعثَّر ذلك الاتِّحادُ نفسُه كثيرًا، وارتكبَ جمًّا من الأَخطاء، قبل أَن يهتديَ إلى سَوِيّ السَّبيل.

وبعدَ أَن نمَتْ "عمّاوس" واشتدَّ عَضُدُها، شرَع الأَبُ ينزع إِلى تركها تنظِّم نفسَها بنفسها، إِداريًّا، إلاَّ أَنّه ظَلَّ ساهرًا على سلامة مُثلها، وإبقاء روحها نابضةً.

ولكن، إِثْرَ الصَّدْمة العنيفة الَّتي أَحدثتها شائعةُ موته غَرَقًا في "ريــودي پـــــلاتا"، وما أَعقبها من تنفُّس الصُّعَداء، بعد أَن تأكّد نبأ نجاته، ومــن خــلال شــواهد الوفــاء والارتياح الَّتي عبَّر عنها رفاقٌ وأَصدقاءُ ومسؤولون، من كلّ أَرجاء العالَم، عمَّ شعورٌ جماعيٌّ بالقَلَق والتساؤُل المُضني: فلو لم تُكتَبْ للمؤَسِّس النَّجاة، أَلم يكن موتُــه يعنـــي ضياعًا لتاريخ "عمّاوس" ولذاكرتِها؟ فالأَب هو الصِّلةُ الوُثقى الوحيــدةُ بــين مختلــف جماعات "عمَّاوس" في العالَم. هو، وحدَهُ، قام بجولتَيْن حول العالَم، متفقِّدًا كُلَّ مَوْقعٍ فيه لعمّاوس نشاطٌ وانتماءٌ، وهو، وحدَه، يعرف العمّاوسيّين كُلاًّ باسمه، في كلِّ مكان، ويُلمُّ بمواقفهم واتِّجاهاتهم وبما يُواجهون من صِعاب. ربَّما كان لأَمينة سرّه الآنسة كوتـــاز شيءٌ من اطّلاعه ذاك، ولدَيها من العزيمة وشِدّة المراس ما قد يُمكّنهـــا مـــن ضـــمان استمرار الحركة، إلاّ أَنَّها طاعنةٌ في السِّنّ، ولا تتمتّع بمثل سُلطة الأَب پـــيير.

ذلك التساؤُلُ كان يُملي إِجابةً لا مفرَّ منها، ويفرض، بعد خمسةَ عَشرَ عامًا مـــن عيشة الدَّياميس، وازدهار المُبادرات الفَرديّة المُبَعْثَــرة، حَــدًّا أَدنـــى مـــن التَّنظـــيم والتَّنسيق. ومن ثَمّ، شُرع منذ عام ١٩٦٣ بتأليف مجلسٍ مُهمَّتُه الإِعداد لانعقاد هيئـــةٍ عامَّةٍ عالميَّةٍ لجماعات "عمّاوس". ولم تُؤْتِ مناقشاتُ ذلك المجلس وجهودُه ثمارَهـــا، إلاّ بعدَ مُضيٍّ ستّ سنوات. وكانت المادَّةُ الأَساسيّةُ الَّتي تناولها النِّقاش مشروعَ بيانٍ عالميٍّ كان الأَب پـــيير قد أَعدَّه أَثناءَ خلوةٍ في إيطاليا، واستند فيه على ثَبْتٍ بمختلف قوى "عمّاوس" الناشطة في العالَم، وخلص منه إِلى ميثاقٍ كفيلٍ بتبنّي الجميع له.

ذلك المشروع كان قد اختمر في ذهن الأَب پـــيير نتيجةَ سنواتٍ مـــن التّأمُّــل، ومَضَتْ فكرةُ نصّ بيانه، في ليلة أَرَقٍ، إِذ كان ضَيْفًا على المطران "بتّازي" أُسقف مدينة "إِڤــريا" الإيطاليّة. وإِذْ كان جالسًا على السَّرير محاطـــاً بالأَوســـدة، يكتـــب، ويشطُب، مُتَحرّيًا نصّاً فيه من الوضوح ما يُبرزُ فلسفةَ حياة، ومن المرونة ما يتـــيح للياباني والباريسيّ أَن يُدرِكاه ويتقبَّلاهُ بنفس اليُسر، دَخَلَ المطران "بيتّازي " خِلــسةً، وهمسَ في أُذنه: "هل تعلم أَنّ آخر شخصيّة عظيمةٍ رقدتْ في هذا الـــسَّرير، كانـــتْ "مونسنيور مونتيني"، رئيس أساقفة ميلانو، قُبَيْل انتخابه بابا"؟

كان الأَبُ قد شرع يَضعُ خُطوطَ ذلك البيان العريضة، لخمس سنواتٍ خلتْ، عام ١٩٥٨، أثناءَ فترة استجمامٍ في جنيف، وكان يودّ أَن يُطلق عليه عنوان "عمَّ يبحثون في عمّاوس؟" وعندما اعترض أَصدقاءُ له بأَنَّ مثل ذلك العنوان قد يوحي بالتمييز بينه و"بينهم"، مُؤْثِرين أَن يحمل البيانُ عنوان: "عمَّ نبحث في عمّاوس"، أَوضح لهم ما يلي:

« إِنَّ فلانًا من الرِّفاق الَّذي قد يبدو أَقلَّ التزامًا من آخَر، أنا أَعلم جيِّدًا ما كان عليه قبل عشر سنواتٍ، وأَعرف من أَين هو قادمٌ. رفيقي الأَوَّلُ كان قد قَتَل أَباه، والمسيرةُ الَّتي اجتازَها منذُ جريمته، وسنوات سِجنه العشرين، ومحاولته الانتحار، وانضمامه إِليَّ، تلك المسيرةُ، مع أَنّها كانتْ تبدو هزيلةً، وهو يُغادر هذا العالَم، إِلاّ أَنّها كانت تنطوي على عَظَمةٍ يفتقر إِليها مِشوارُ إِنسانٍ آخَر يَجدُهُ الجميعُ رائعًا. أَنا نفسي قد أَفدتُ من نِعَمٍ كثيرةٍ، من جرّاء أُسرتي، وتربيتي، وطفولتي، وسنواتي الرهبانيّة، ومن ثمَّ لم يكن عليّ اجتيازُ مسيرةٍ طويلةٍ. وفي واقع الحال، حتّى لو أَنّني ظفرتُ بإِعجاب الناس، فإِنّني أَقلّ جدارةً بالإِعجاب، بمعيارِ مُطلَق الله، من إِنسانٍ آخَر، قد يُعاقر الخمرةَ بين حينٍ وحينٍ، ويرتكب أَخطاء جسيمةً، إِلاّ أَنّه اجتاز مسيرةً مُتمادية الطُّول، لأَنَّه قَدِمَ من بعيدٍ بعيد...".

"وإذن، ماذا عليَّ أَن أَفعل، كي، يومَ أُعلن: "هذا هو البرنامج، هذه هي الخطوطُ الأَساسيَّةُ"، لا يخطُرَ ببال أَحدٍ أن يدين آخرين. علينا أَن نظْفَرَ بالاحترام والتَّقدير المتبادَلَيْن في حَوْمة تعدُّديّتنا وتنوّعنا، انطلاقًا من قِيَمٍ جوهريّةٍ ينطوي عليها البيان، الَّذي لا بُدَّ أَن يكون مستفيضاً كي يكون سُنَّةَ حياةٍ لأَفريقيّين ويابانيّين، وأَقوامٍ شديدي التَّبايُن ».

بهذا الرُّوح كان يعملُ الأَبُ پيير على وضْع بيان "عمّاوس" العالَميّ، ومع ذلك اقتضى الأَمرُ ستّ سنواتٍ من النّقاش، والتّعديل، قبلَ عَقْد هيئةِ "عمّاوس"، بمناسبة عيد العنصرة لعام ١٩٦٩، في عاصمة الاتّحاد السُّويسريّ، "بيرن"، حيثُ التأَم ممثّلو سبعين جماعةً قادمون من عشرين دولةً. في ذلك النَّهار، غَدَتْ عاصمةُ المصارف العالميّة، وليومٍ واحدٍ، "برلمان فُقَراء العالَم".

مُعظَمُ العمّاوسيّين الملتئِمين في "بيرن"، كان يجهل أَحدُهم الآخر، ولكنّهم "اكتشفوا أَنّهم يشتركون في امتلاك قوّةٍ جَوْهَرِيَّةٍ مزدوجة: الرَّغبة في عدم التَّقاعس أمامَ نداءات الشَّقاءِ في بلادهم وفي العالَم، وفي آنٍ واحد الرَّجاء النابع من جماعات "عمّاوس" الَّتي وُجِدتْ لتُعيد للعَيْش مُبَرِّراته وأَفراحَه، فتكون، بذلك، منبعَ سلامٍ اجتماعيٍّ وعالميٍّ". كلُّ ذلك عبَّر عنه الخطابُ الَّذي افتتح به الأَب پيير المؤتمرَ، والَّذي جاء فيه:

« أَصدقائي،

"تُساورُنا، جميعنا، هذا الصَّباحَ، مشاعرُ قويّةٌ،

"فمن جهةٍ، هنالك الفرَح، فَرَحُ إِخوةٍ وأَخواتٍ يلتقون، معظمُهم لا يعرف أَحدُهم الآخر، ولم يسبق لهم أن رأى أَحدُهم الآخر، ولكنَّ رباطاً أَخويًّا وثيقًا يجمعُهم، لأَنّهم عزموا، جميعُهم، على تكريس حياتهم لخدمةٍ واحدةٍ.

"ومن جهةٍ ثانية، هنالك شعورٌ جادٌّ ووقورٌ نابعٌ من إِدراكنا بأَنّ لنا رسالةً وعلينا مسؤوليَّةً. ويمكن القول إنّ جميعَ الموجودين ههنا، هم رجالٌ ونساءٌ قد شرَعوا، ذاتَ يَوْمٍ، وكُلٌّ بطريقته، يشعُرون بالتَّعاسة لدى اكتشافهم تعاسةَ الآخرين. ومُنذُئذٍ، أَدرك كُلٌّ منّا، حسب طاقته، أَن ليس من مَجْدٍ، ولا من كرامةٍ إِنسانيّةٍ حقَّةٍ، ولا من نجاحٍ في الحياة، إلاّ في العمل، كُلٌّ في مكانه، لكي يُخدَم، في المقام الأَوَّل، المَنْسيُّون، والأكثرُ معاناةً، والأَكثر عزلةً.

"إِنّنا نُدرِكُ أَنّه لن يكونَ هناك سلامٌ اجتماعيٌّ أَوْ دَوْليٌّ ثابتٌ ما لم تكن قاعدةُ كلِّ سياسةٍ راسيةً على ما ندعوه "شريعة الحياة"، أَي "خدمة الأَضعف في المقام الأَوَّل". إِنّ هذا هو ما يوحِّدُنا جوهريًّا.

"ونُدرك، أَيضاً، أَنّ نضالنا في هذا المضمار لا يقتضي، فقط، ثوراتٍ، هي، لا رَيْبَ، ضروريّةٌ دائمًا، بل قد علَّمتنا تجاربُنا الحميمةُ اليَوْميَّة أَنّ نضالنا عملٌ يستلزم، كذلك، تحوُّلاً شخصيًّا، أَي كفاحًا داخليًّا يُمكِّننا من أَن نستأنف، كلَّ يومٍ، عمليَّةَ التَّحرُّر من "صَلَف" الأَنانيَّة الأَحمق، وأَن نتميَّزَ بإِنسانيَّةٍ حقَّةٍ، فنعيش مُشرَعي الأَبواب والنَّوافذ، كي تنفُذَ إِلينا أَنّاتُ الأَكثر تألُّمًا، فتُعذِّبنا، وتنعشنا، وتدفَعنا...

"... فلنذكر على نحوٍ خاصٍّ، أُولئك الَّذين، في كُلِّ بلَدٍ من بلداننا، كانوا في

أَساس حركة "عمّاوس"، ولتكن ذكرى المصاعب الَّتي تغلَّبوا عليهـا منبـعَ رجـاءٍ وشجاعةٍ لجميعنا، ولتَسنُدْنا وتَحفّزنا...

"لقد قدموا آملين في العُثور على رغيف خبزٍ، وزاويةٍ يرقُدون فيها، وما بـه يغتسلون، ويكتسون، ولكنَّهم، شيئًا فشيئًا، اكتشفوا ما لم يكونوا عنه يبحثـون، أَو ما كانوا قد فقدوا الرَّجاءَ في العُثور عليه، وما كانوا يفتقرون إِليه أَشدَّ افتقـار، إِذْ لم يلبث أَن شَهِدَ كلٌّ منهم، وبفضل الجماعة الَّتي انـضوى إِليهـا، لا زوالَ يأْسـه الماديِّ فحَسْبُ، بل أَيضاً زوالَ يأسه الإِنسانيّ الأَعمق، المُتمثّل في افتقـاده مُبـرِّرًا لوجوده. فباندماجه بجماعة "عمّاوس"، لم يكن يستعيد فقط كرامتَه الأُولى، المُتَمثِّلة في كسْب خبزه بعَرَق جبينه، بل كان يجد أَكثرَ من ذلك كثيرًا، لأَنّ هـذه الجماعـة تعمل بحيثُ تستطيع أَن تَهَبَ كُلَّ ما يفيض عن ضروراتها الأَساسـيَّة، وإِذ بأُولئـك الَّذين كانوا قانعين أَنَّهم لن يُصبحوا، يومًا، من الأَقوياء، قد بـاتوا قـادرين علـى العطاء، وعطاءِ الكثير قياسًا إِلى ضعْفهم، وها هم يعون أَنّهم، بوصـفهم صِـغارًا يَهبون، قد غدوْا تَحَدِّيًا حقًّا ومُجديًا.

"فهم يستفزّون لدى من ليسوا فقراء، بل أَصحاب امتيازاتٍ، يقظةَ شُعورٍ أَقوى بمسؤوليّاتهم، ويقظةَ شُعورٍ بمقتضيات الصِّدق والاستقامة. فحركـةُ "عمّـاوس" لا تُنقِذ، فقط، اليائسين، ماديًّا وأدبيًّا، بل هي تُسهم، ببلاغةٍ، في القـول لمـن يمكـن تسميتُهم "أَغنياء": "حتّى لو أَنّك حصلتَ على امتيازاتك بوسائلَ شريفةٍ، لا تنسَ أَنّك تُصبح سارقًا، إِن لم تُصبح امتيازاتُك خِدْمةً عاكفةً باستمرارٍ على اكتشاف المَنْسيّين والمرذولين، خِدْمةً تدفعك على النّضال، حتّى من خلال الـشَّرائع، للتَّـذكير الـدَّائم بالضُّعَفاء والمَنْسيِّين، فتجرؤُ على القَوْل: "إِنّنا مُجرمون إِن، نحن، قبلَ السَّعْي إِلـى إِضْفاء المزيد من الرَّوْنق والرَّفاه على حياةِ من يمتلكون الضروريّ، لم نكافحْ مـن أَجل جَعْل حياة الأَقلِّ سعادةً، إِنسانيّةً.

"ونكتشف، أَيضاً، أَنَّ حَرَكةَ "عمّاوس" ليست، فقط، استجابةً لتطلُّعـات الفقـراء، ولا هي، فقط، إِسهامٌ في إِيقاظ وجدان أَصحاب الامتيازات، بل هي، فضلاً عن ذلـك، تُوَفِّرُ نورًا وزَخمًا للشَّبيبة الَّتي لا يُحصى عديدُها، الباحثةِ عن الهدف والحقيقة... ».

بيان "عمّاوس العالميّ"

أمّا بيان حركات "عمّاوس العالميّ"، فإليكم نصّه:

"أُخدُم، في المقام الأوّل، الأكثر معاناةً".

توطئة

اسم "عمّاوس" الّذي تبنَّيْناه، هو اسمُ مَحلَّةٍ في فلسطين حيثُ استعادَ يائسون رجاءَهم المفقود. وهذا الاسم يعني لجميعنا، مُؤْمنين وغير مؤمنين، قناعتَنا المشتَركة بأنّ من شأْن الحُبِّ، وحدَه، أَن يجمَعنا، ويساعدنا على التقدُّم معًا.

"لقد وُلِدَتْ حركةُ "عمّاوس"، في شهر تشرين الثاني عام ١٩٤٩ من لقاء:

- رجالٍ وعوا ما يتمتّعون به من امتيازاتٍ ومسؤوليَّاتِهم الاجتماعيّة حيالَ الظُّلم
- ورجالٍ فقدوا كلَّ مُبَرِّرٍ للحياة.

وقد عقد هؤُلاء وأولئك العزمَ على ضفْر إراداتهم وجهودِهم للتَّعاضُد على إغاثة المُتَأَلِّمين، موقنين بأَنّ الإنسانَ يُنقذُ نفسَه بإنقاذ الآخرين.

وفي سبيل تحقيق هذه الأَهداف تألّفت جماعاتٌ كي تعيشَ وتُعطي، وتألّفت، إلى جانبها، جماعاتُ أَصدقاءَ ومُتَطوِّعين، يُكافحون على الصَّعيدَيْن العامِّ والخاصّ.

١- **شريعتنا**: وعليها تنهض، للبشريّة جمعاء، كلُّ حياةٍ جديرةٍ بالعَيْش، ويتحقَّق لكلّ فَرْدٍ وجماعةٍ، كُلُّ سلامٍ حقٍّ، وفَرَحٍ أَصيلٍ، أَي:

"أُخدم، قبلَ ذاتك، من هو أَقلّ منك سعادةً،

"أُخدم، في المقام الأوّل، الأَكثرَ معاناةً".

٢- **يقينُنا**: هو أَنّ احترامَ هذه الشَّريعة ينبغي أَن يَحْدو كُلَّ سعيٍ إلى العَدْل، وبالتَّالي إلى السَّلام بين البشر

٣- **هدفُنا**: هو العمل كي يستطيع كلُّ إنسانٍ، وكلُّ مُجْتَمَعٍ، وكلُّ أُمّةٍ، العيشَ وتأكيدَ الذَّات، والازدهارَ في التَّبادُل والمشاركة، وفي التساوي بالكرامة.

٤- **أُسلوبُنا**: يتمثَّل في خَلق ومساندة وتنشيط أَجواء يشعرُ فيها الجميع أَنَّهم أَحرارٌ ومُحترَمون، وبالتَّالي قادرون على سدِّ احتياجاتهم الخاصَّة، وعلى التَّعاوُن فيما بينهم.

٥- **وسيلتُنا الأُولى**: حيثُما كان ذلك ممكنًا، هو الإِفادة من النِّفايات، ممَّا يُسبغُ

على كُلِّ شيءٍ قيمةً، ويُضاعف إمكانيّات المساعدات الطّارئة، الهادفة إلى غَوْث الأكثر تألّمًا.

٦- **جميع الوسائل الأُخرى** الكفيلة بإيقاظ الضّمائر، وبالتَّحدِّي، ينبغي أَن تُستخدَم من أَجل خِدمة الأَكثر تألُّمًا في المقام الأوّل، وحثّ الآخرين على خِدْمتهم بمقاسَمَتِهم متاعبَهم وكفاحَهم – الخاصّ والعامّ – إِلى أَن يتمّ القضاءُ على أَسباب كُلِّ شَقاء.

٧ – **حُرِّيتُنا:** لا تخضع "عمّاوس"، في مضمار أَداء مَهامّها، لأَيَّةِ مُثُلٍ سوى تلك الَّتي ينصّ عليها هذا البيان، ولا لأَيّة سُلطةٍ غير تلك القائمة في داخلها، وفقًا لقواعد تنظيمها الخاصّة. وهي تعمل وفقًا لإِعلان حقوق الإِنسان، الَّذي تبنّته الأُمم المتّحدة، ولكلّ الشّرائع العادلة في كلّ مجتمعٍ، وكلّ أُمّة، في معزلٍ عن أَيّ تمييزٍ سياسيٍّ أَو عرقيٍّ أَو لغويٍّ أَوْ روحيٍّ، أَو أَيّ تمييزٍ من نَمَطٍ آخر. ولا يُطلب من أَيّ راغبٍ في الانتماء إِلى حركتنا سوى موافقته على محتوى هذا البيان.

٨- **أَعضاؤنا:** هذا البيان هو الأَساسُ البسيط والواضح لحركة "عمّاوس"، وعلى كلّ جماعةٍ راغبةٍ في أَن تكون عضوًا فاعلاً فيها أَن تتبنّاه وتطبّقه ».

وقد علَّق الأَبُ پيير على ذلك البيان بقوله: "إِنّه واضحٌ ودقيقٌ في تصوُّره للحياة البشريَّة، ويفسح المجالَ لأَنماط تنفيذ شديدةِ التَّبايُن، على أَن تظلَّ مُتوافقةً مع التصوُّر العامّ... ولا يسوغ لأَيّ شخصٍ أَو مُنَظَّمةٍ محلّيَّةٍ أَو قُطريَّةٍ إِلزام الغير بالخُضوع لهذا التفسير أَو ذاك للبيان العالميّ".

وقد أَثبتَ الواقعُ أَنّه كان لمختلف الجماعات، ضِمْنَ أُسرة "عمّاوس"، قراءاتٌ مُتَنوّعةٌ للبيان العالميّ، وفقًا لتصوّر الوقائع الماثلة في كُلِّ موقعٍ، ومع الالتزام بجوهر البيان.

في السَّنة التَّالية، أُصْدِرَ دليلٌ عامٌّ لجماعات "عمَّاوس". ثُمَّ انعقد، في تمّوز من عام ١٩٧١، مُؤْتَمَرٌ آخَر في "مونتريال"، لَمَّ شَمْلَ جامعي النفايات، قاعدة "عمّاوس"، وكان بمثابة عَوْدةٍ إِلى الجُذور، وهيئةٍ عامَّةٍ ثانيةٍ لعمّاوس، تبنّت نظامَ مؤَسَّسة "عمّاوس الدَّوْليّة"، وهي المؤَسَّسة العالَميَّة الوحيدة الَّتي أَرادها الأَب پيير لتمثيل الحركة عالميًّا، والّتي أَقرّت أَن تلتئم في هيئةٍ عامَّةٍ عالَميَّةٍ، كلَّ أَربع سنواتٍ، على أَن يتأَلّف جهازها من:

– لجنةٍ تنفيذيّةٍ، تُمثّل المؤَسَّسةَ عالميًّا، ومُخَوَّلَةٍ بالتَّكَلُّم باسمها علنًا، وتتألَّفُ من الأَب پـيير، بصفته المُؤَسّس، ومن خمسة أَعضاء ينتخبهم مجلسُ الإدارة.

– مجلس إِدارة يضُمُّ اللَّجنة التنفيذيّة، ومُمثِّلين عن جماعات "عمّاوس" في مختلف أَقطار العالَم، ويلتئم، كُلَّ ثمانية عَشرَ شهرًا، ويتمتّع بصلاحيّة قبول الأَعضاء أَو فصلهم، ويُحدِّد الوسائلَ العمليّة لتحقيق أَهداف الاتّحاد، ويُعِدّ اتّجاهات الحركة الكُبرى لعرضها على الهيئة العامَّة.

– أَمانةٌ عامَّةٌ تضطلع بإِدارة الشُّؤون الجارية.

وقُرِّر أَيضاً أَن يكونَ لكُلِّ منطقةٍ في العالَم هيئةٌ قُطْريَّةٌ تلتئم، عمومًا، مرّةً في السَّنة. والمناطق حاليًّا هي: أَفريقيا – أَميركا الجنوبيّة – أَميركا الشماليّة – الأَرجنتين – آسيا – أُوروبا الشَّماليّة – أَوروبا الجنوبيَّةُ والوُسطى – فرنسا – الشَّرق الأَوسط.

وبما أَنّ ثلاثة أَرباع أَعضاء "عمّاوس" هم في أُوروبا، فقد وُلِدت في الثمانينات "خَلَيَّةٌ أَوروبيّةٌ"، مُهِمَّتها الدَّعوةُ إِلى مُساعدة المنبوذين في قلب أَوروبا، وجماعات الفقراء عبرَ العالَم.

وقُرِّرَ، أَيضاً، أَن يتمَّ تمويلُ "عمّاوس"، رئيسيًّا من ناتج عمَل أَعضائها، ومن مساعداتٍ دَوْليَّةٍ، على أَن يظلَّ قِسْطُ هذه المساعدات ضئيلاً.

أَمّا أَهداف "عمّاوس الدوليّة" فهي اختصارٌ لأَهداف "عمّاوس"، وتتلخَّص في:

– مكافحة النَّبْذِ والحرمان، ومساعدة المنبوذين على النُّهوض، ولا سيَّما بفضل الحياةِ الجماعيّةِ، والتَّعاوُنِ معهم على مكافحة أَسباب نَبْذِهم، وفقًا لمقتضيات الأَحوال والأَمكنة.

– الإِنماء، ولا سيّما بواسطة العَمَل التعاونيّ.

– المحافظة على البيئة: الَّتي وإِن لم تلتمسها "عمّاوس"، أَصلاً، إِلا أَنَّها أَمستْ في مضمارها رائدةً، بفضل جمع النِّفايات وإِعادة استخدامها.

وقد التأَمت الهيئة العامَّة الثَّالثة لعمّاوس عام ١٩٧٤، في "شارانتون" بفرنسا، وقرَّرت أَن تُلْحِق بالأَمانةِ العامّة دائرةَ إِعلامٍ، تتولّى إِصدارَ رسالةٍ إِعلاميَّةٍ، كُلَّ ثلاثة أَشهرٍ، تفسحُ فيها المجالَ لكُلِّ جماعةٍ من جماعات "عمّاوس" المبثوثة في شتّى

بقاع العالم، لنَشْر رسالةٍ عن إنجازاتها، وتطلُّعاتها، واحتياجاتها، ولمناقشة مختلف الآراء والاقتراحات.

هيئةُ عمّاوس العامَّةُ الرَّابعة انعقدت في "آرهوس" بالدانمرك، عام ١٩٧٩، والهيئة العامّة الخامسة في "نامور" ببلجيكا، عام ١٩٨٤؛ وكانت الهيئة العامّة السَّادسة التي انعقدت في شهر أَيلول ١٩٨٨ في مدينة ڤيرونا الإِيطاليّة، تمثّل ٣١٧ جماعةً في ٢٩ دولة.

وقد أَبرزت تلك الهيئة، عُقْب نحو أَربعين سنةً من مسيرة "عمّاوس"، ومن خلالِ الأَسئلة المسكونيّة الّتي طَرَحَتْها، والقضايا الّتي تداولَتْها، مدى تطوُّرها ونضوجها؛ فمن التَّوصيات الّتي أَقرّتها:

- دراسةُ أنظمةٍ بديلةٍ للأَنظمة الرأْسماليَّة والليبيراليَّة والكُلِّيّانيّة.
- مساعدةُ الفُقَراء على وعي دَوْرهم في تقرير مصيرِ بلادهم
- مؤازرةُ المُهَمَّشين على الظَّفَر بالاكتفاء الذَّاتيّ
- تأييدُ الإِنجازات الواقعيّة الّتي تتصدّى لأَسباب البُؤْس الأَساسيَّة.
- التضامنُ مع الجُهود الرّاميةِ إِلى الدِّفاع عن حقوق الإِنسان، والتعاوُن مع الشُّركاء العاملين بإِخلاصٍ، في سبيل تحرير الإِنسان.
- إِيجادُ الأَجوبة الصحيحة على تساؤُلات الشَّباب الَّذين باتوا يُمثِّلون أَغلبيَّةَ جماعات اليوم.

أَمّا الهيئة العامّة السَّابعة التّي انعقدَت عام ١٩٩٢ في مدينة "كولونيا" الأَلمانيَّة، فكان من أَهمّ مُقرَّراتها:

١- تكثيفُ التَّحالفات، والشَّراكات، وضمّ جهود "عمّاوس" إِلى جهود مُؤَسَّساتٍ أُخرى تناضل في سبيل العدالة الاجتماعيّة، والبيئة والسَّلام.

٢- المستقبل الذي نتطلّع إِليه يقتضي بناء مُجتَمَعٍ جديدٍ قائمٍ على اقتصادٍ لا يكون رهنًا بخدمة السُّوق، بل يتوخّى خدمةَ الإِنسان ويحترم البيئة.

٣- امتدادًا لرسالة الأَب پيير النَّبويّة والمحرّضة، بكُلِّ اتِّساعها، وبفضل شهادة جماعات "عمّاوس"، إِيقاظ الوَعْي التَّضامنيّ، وإِظهار أَنّ مجتمعًا قائمًا على المشاركة ممكن.

٤- تشجيع تثقيف الشَّباب وتوعيتُهم، ومساندتُهم في التزامهم الاجتماعيّ.

٥- نشر وَعْيٍ واضحٍ مَحَلِّيًّا وعالميًّا، كفيلٍ بفضح التَّعدِّيات على حُقوق الإِنسان وعلى البيئة.

أمّا الهيئة العامّة الثّامنة فقد عقدت عام ١٩٩٦، في مقرّ الأُونيسكو بباريس؛ ومن المواضيع الَّتي طرحَها الأَب پيير للنّقاش في هذه الهيئة: التَّضامنُ العالميّ، وضرورة المشاركة؛ كما أنّه، حِرْصاً على إِثبات نضوج جماعات "عمّاوس"، اقترح ألاّ يُسمَح لأَيّة جماعةٍ بالمشاركة في الاقتراع ما لم تُبَرْهِن عن دقّة حساباتها، بمصادقة محاسبٍ قانونيٍّ عليها.

وجديرٌ بالتَّنويه أَنّ "عمّاوس" كانت، عام ١٩٩٤، تضمُّ ٣٦٣ جماعةً موزَّعةً في ٣٧ بلدًا، في القارّات الأَربع، منها ٢٦٤ عضوًا مُنْتَسبًا في ٢٧ بلدًا، و ٩٩ جماعةً شريكةً في ١٠ بلدانٍ؛ وخلال العامَيْن الأَخيرَيْن جرت مفاوضات مع ١٥ جماعةً أُخرى راغبةً في الانتساب أَو المشاركة. أَمّا توزيع هذه الجماعات جغرافيًّا فهو كالتالي:

١٥	جماعةً في أَفريقيا
٦	في الولايات المُتَّحدة وكندا
٣١	في أَميركا اللاتينيّة
٢٧	في آسيا
٣٣	في أوروبا الشماليّة
٦٧	في أوروبا الوُسطى والجنوبيّة
٨	في أوروبا الشرقيّة
١٨٥	في فرنسا

وتظَلُّ الجماعات هي الخَليَّة الأَساسيَّة في هَيْكَلِيَّة "عمّاوس"؛ وقد نشأَ مُعظَمُ جماعات "عمّاوس" في سبيل استقبال أَشخاصٍ يُواجهون مصاعب، أَو يُعانون النَّبْذ والحرمان، ومن أَجل تلبية احتياجاتهم إِلى سَقْفٍ، وأَمانٍ وصَداقةٍ، ومُبَرِّرات وُجود. وقد وُلد بعض تلك الجماعات، نتيجةَ اختيار عيشٍ قائمٍ على التَّضامُن والمشاركة.

وتستقبل الجماعاتُ كلَّ إنسانٍ مهما كان عمرُه ومَنْبتُه وماضيه، وتوفّر له إطار حياة، ولا سيَّما العمل، ومُبَرِّرَ عَيْشٍ، بفضل التَّضامن مع الأَكْثر إملاقًا، قريبًا كان أم بعيدًا.

وتنهض الجماعات على عمادي العَمَل والتَّضامُن.

فالعمل من أَوّل مُقتضيات "عمّاوس"، وقيمةٌ أَساسيّةٌ من قِيمه الجوهريَّة. إنّه يُضْفي على الإنسان كرامةَ العامل، ويضمن للجماعة وسائلَ العَيْش والاستقلال. والعمل، في "عمّاوس"، في متناوَل الجميع، ويُتيح لكلّ فردٍ أَن يستغلَّ كفاءاته ويُبرزَها. ومع أَنّه، في معظم الجماعات، يقوم على جمعِ النِّفايات وإِعادة استعمالها تفاديًا للهَدْر، إلاّ أَنّه يسلُك في بعض البلدان، منحًى آخَر وفقًا لحاجة كلٍّ منها، كالزِّراعة، وتربية المواشي والأسماك، وبناء السُّفُن وإصلاحها، وصَيْدِ الأسماك، والنِّجارة، والنسيج...

أَمّا واجب **التضامن** مع الأَكْثر حرمانًا، فهو يُحرِّرُ الجماعاتِ من الانطواء على ذاتها، بما يدعوها إليه من مُساعدات طارئةٍ لضحايا الحروب، والكوارث الطَّبيعيَّة، ونشاطات إنماءٍ تضامُنيٍّ مَحلِّيًّا وعالَميًّا.

وأَهمُّ ساحات نِضال جَماعات "عمّاوس" هي:

- مكافحةُ النَّبْذ والحرمان
- الدّفاعُ عن حقِّ السَّكَن لكلِّ مواطنٍ
- تشجيعُ الإنماء في بُلدان الجنوب
- حمايةُ البيئة
- الدِّفاعُ عن حقوق الإنسان، ولا سيَّما حقوق الفُقَراء الاقتصاديَّة والاجتماعيَّة.

وتستفيد كلُّ جماعةٍ من خِبْرات الأُخْريات، بتبادُل الآراء ومناقشتِها؛ ففي "عمّاوس" التفكير عالَميٌّ، والتنفيذُ مَحلِّيّ.

وقد أَثبتت جماعاتٌ كثيرةٌ نضوجَها وجدواها بإنجازاتها الرَّائعة، في مواقع نشاطها. ففي الشِّيلي، مثلاً، قد فرَّخت "السنونوات" السكندينافيّة (اوراكاس)، وبات لها خمس جماعاتٍ تكفي ذاتَها بذاتها، وهي ناشطةٌ في شتَّى ميادين "عمّاوس" من

استقبالٍ، وحياةٍ جماعيَّة، وعملٍ، وخدمةٍ، وكفاحٍ في سبيل حُقوق الفقراء والمنبوذين؛ كما أَنّها تدعم المُبادرات المحلِّيّة، والاتّحادات النقابيّة، وتُنفّذ برامج تثقيف مُرشِدين صحِّيّين وزراعيِّين. وأَفرادُها يَعُدّون ذواتِهم، في الشيلي، أَميركيّين لاتينيّين، وعلى المستوى العالميّ، أَعضاء عاملين في أُسرة "عمّاوس".

أَمّا في "كامازاكي"، أَفقر ضواحي مدينة أُوزاكا اليابانيّة، فقد تعهَّدت جماعة "عمّاوس"، هناك، بتوزيع ألفٍ وخمس مئة وَجْبَة أَرُزٍّ مطبوخٍ مرَّتَيْن يوميًّا، وبتنظيم جولاتٍ ليليّةٍ للحؤول دون موت العَجَزة والمحرومين، جوعًا وبَرْدًا، على الأرصفة وقارعات الطرق.

وفي الولايات المتَّحدة احتفل "بيت عمّاوس" (EMMAUS HOME) عام ١٩٩٥ بالذِّكرى الخامسة والعشرين لتأسيسه، وهو أَشدُّ عَزْمًا على مواصلة النّضال من أَجل خدمة المحرومين ومساعدتهم على تدبُّرِ أُمورهم بأَنفسهم، كي يتمكّنوا، بدَوْرِهم، من مساعدة الأَشدِّ منهم حرْمانًا وأَلَمًا.

وبقيادة "عمّاوس هارلم" في نيوريورك خاض أُلوف الفُقَراء السُّود المُهملين حملةً جريئةً، حاذقةً، مُحكمَةً، حتّى أَفلحوا في إِقصاء أُسرةٍ مُتَحكِّمةٍ، كانت تتزعّم المافيا هناك، وتحتكر الحُكْم المحلّيّ، وتنهبُ الأَموال المُخصَّصة لمساعدة المحتاجين، واستطاعوا انتخابَ عُمْدةٍ جديدٍ، مُناصرٍ للفُقَراء.

وفي الأُوروغواي تمكّن العمّاوسيّون، بمناسبة زيارة الأَب بيير لبلادهم، عام ١٩٩٤، من استصدار طوابعَ تحمل اسمَه وصورتَه، رُصد رَيْعها لمشاريع "عمّاوس" في تلك البلاد.

هذا غيضٌ من فيضِ نشاطات جماعات "عمّاوس" في شتّى بقاع العالَم.

أَمّا "عمَّاوس الدوليَّة" فقد منحتْها الأُمم المتحدة، عام ١٩٩٣، صفة منظّمةٍ استشاريَّةٍ لدى المجلس الاقتصاديّ والاجتماعيّ التَّابع للأُمم المتّحدة. وهي تتعاون مع المنظّمة العالميّة، على نحوٍ خاصٍّ في المجالَيْن التَّاليين:

– التَّحقيق في شؤون حقوق الإِنسان والفقر. وهي تهيب بأَعضائها أَن يُسهموا في مكافحة كَلِّ أَصناف التمييز، وفي حماية الأَقلِّيّات.

– المجلس العالميّ للإِنماء الاقتصاديّ؛ وقد اشتركت في القمَّة العالميَّة الَّتي انعقدت لهذا الغرض في كوبنهاغن عام ١٩٩٥.

و"عمّاوس الدَّوْليّة"، في هذا المجال، على تعاونٍ وثيقٍ مع مختلف المُنَظّمات الدَّوْليّة غير الحكوميَّة الَّتي تتمتّع، مثلها، بوضعٍ استشاريٍّ لدى الأمم المتّحدة، وكذلك مع المنظّمات الدَّوْليّة، غير الحكوميّة، للإِنماء؛ وهي، بهذه الصِّفة، شريكةٌ في "مركز الأَبحاث والمعلومات عن الإِنماء" (CRID) في باريس، وفي "الشبكة الأُوروبيّة لاتّحادات مكافحة الفقر والنبذ الاجتماعيّ".

ونظرًا لوزن "عمّاوس" في أُوروبا، فهي تولي الشُّؤون الاجتماعيَّةَ الأُوروبيَّة اهتمامًا خاصّاً، وتشترك في معظم اللّجان الاجتماعيّة، في الاتّحاد الأُوروبي، ومجلس اتّحاده، بفضل خليّتها الأُوروبيّة الَّتي أُنشئت في الثَّمانينات.

وقد نظَّمت "عمّاوس الدوليَّة"، عام ١٩٩٢، يومَيْ دراسة في البرلمان الأُوروبيّ في بروكسيل، وتبيّنت أَنّ، ثَمَّةَ، من أَصل ٣٤٠ مليون نسمةٍ يُمثِّلون مجموع سكّان الاتّحاد الأُوروبيّ، خمسةً وأَربعين مليون فقيرٍ، ومليونَ إِنسانٍ بلا مأْوى، وستّة عشر مليون عاطِلٍ عن العمل، وثلاثين مليون مُعاقٍ. ومن ثَمَّ، دعتْ إِلى:

– أَن تكون أُوروبا للجميع، لا للأَكثر إنتاجيّةً، فحَسْبُ.

– نَشْر وَعْي العدالة الاجتماعيّة، بحيثُ لا تنحصر الحمايةُ الاجتماعيّة بالعاملين فقط.

– جعل حقوق الإنسان تشمل، أَيضاً، الحقوق الاقتصاديّة والاجتماعيّة.

وقد اقترحتَ "عمّاوس"، من أَجل تحقيق هذه الأَهداف، عِدَّة تدابيرَ عمليَّة.

وحدةٌ وتعدُّديَّة

لا ريب أَنّ السَّعْيَ إِلى التَّنظيم قد مكَّن من تفادي ثلاثة مخاطرَ كبُرى كانت تَترَبَّصُ بمصير "عمّاوس" في نهاية مرحلة نشأَتها. فشريعةُ "عمّاوس" الجوهريّة والمُطْلَقة، على نحو ما حدّدها البيانُ العالَميّ، والمتمثّلة في العمل على أَن يُخدَم، أَوّلاً، الأَكثرُ تألُّمًا، تلك الشَّريعةُ حالتْ دون تراخي مُثُل "عمّاوس" أَو اضمحلالها. وقد

أَقصى تأسيس "عمّاوس الدوليّة"، عام ١٩٧١، خَطر تَبَعْثُر الجهود، في حين قضتْ دائرةُ الإِعلام الَّتي أُوجِدَت عام ١٩٧٤ على خطَر عُزْلة الجماعات بعضها عن بعضٍ، وشدَّتها معًا بوثاقٍ متينٍ حميم.

وبعد أَن تحقَّقَ الإِجماعُ حولَ الشَّريعة الأَساسيّة الممثِّلة لروح "عمّاوس"، تُرِك حقُّ المبادَرة واختيار الأَساليب لكُلِّ جماعةٍ، وفقًا لظروفها الخاصّة، بشرطٍ واحد، وهو "السَّهَر عَلى أَلاّ يكون خيارُ أَيِّ عملٍ مَخالفًا للبيان. ويعود لكلّ جماعةٍ شَرَفُ إِيضاح وسائلها الخاصة...".

وقد نهض الأَب پيير نفسُه مثالاً، في هذا المنحى، عندما أَعلن أَن مجلَّةَ "جوع البشر وعطشهم" الَّتي تُصدرها أَمانة سرّه، تُلزِمُه، هو، شخصيًّا، ولكنّها لا تُلزِمُ مجموع عمّاوس".

لقد التزَمَ الجميعُ بالوصايا الثلاث الأَساسيَّة: العمل، والمشاركة، والخدمة. إِلاّ أَنَّ سِياقَ الجهاد في سبيل التَّحرير السياسيّ، وتحرير المسحوقين من نير الجَوْر، ولا سيَّما في أفريقيا وأَميركا اللاتينيّة، قد أَبرز ضرورةَ وَصيَّة رابعة، هي وصيَّةُ النِّضال، النِّضال، طبعًا، في سبيل القضاء على الشَّقاء، والنَّبْذ، والقُنوط، ولكن الحرب أَيضاً، وحتمًا، على الطغيان، ومقاومة أَنظمةٍ، ولا سيَّما في أَميركا الجنوبيّة، أَرستْ قواعد سُلْطتها على استغلال الفُقَراء. ففي أَعقاب صدور بيان "عمّاوس" العالميّ، لاحظتْ جماعاتٌ في أَميركا اللاتينيّة أَنّه غير كافٍ لتلبية احتياجات تلك البُلدان إِلى العدالة الاجتماعيَّة، فأَصدرت البيانَ التَّالي:

« هل سنستمرّ في الإِيمان بجدوى التحريض؟

وهل سنكتفي بوظيفةِ جامعي الأَقذار الَّتي يَقْذِف بها الأَغنياءُ، في مواجهتنا لآلام الفُقَراء؟

وهل سنرضى بأَن نكون مُجرَّدَ سامريّي ضحايا الظُّلم؟

أَو، هل، على نقيض ما سَلَف، سنُقرِّر الوقوفَ إِلى جانب الفُقَراء؟

هل نحن نلتمس الإِحسانَ، أَم إِنّنا نُطالبُ بالعدالة؟ »

على مُطلقي هذه الصَّرخةِ ردَّ الأَبُ پيير بالقَوْل:

« ما أَسعدَني بموقفكم! من المُؤَكّد أَنّه في حركةٍ باتّساع حركة "عمّاوس"، حيثُ يتعيّن العملُ في ظروفٍ من التَّبايُن بحيثُ تُوفِّقُ بين "الهدوء السّويسريّ" و"ثـورات أَميركا الجنوبيّة التي لا مَفرَّ منها"، وكذلك الأَوضاع الشديدة الدِّقَّة الخاصّة بالـشَّرق الأَقصى، مع مثلِ هذا التَّبايُن، لا يَسَعُ الوثائق الجماعيَّة إِلاّ أَن تكون وثائق توافُقيَّـةً. ولذلك يُسعدُني موقفُكم لأَنّه سيُمكِّن الهيئةَ العامّة من بلوغ وثيقةٍ، وإِن هي لـم تكـنْ تَقَدُّميَّةً بالقَدْر الَّذي أَتمنّاه، إِلاّ أَنّها لن تكون "ماء ورد". »

كان لا بُدَّ لمثل ذلك التَّبايُن في الآراء والمواقف أَن يحفُرَ هوَّةً بين رفـاقٍ فـي أَميركا اللاّتينيّة يدَّعون للمحرومين حقَّ التمرُّد والثَّورة، ورفاقٍ آخَرين في بلدانٍ أكثرَ استقرارًا، آثروا الانزواءَ في مناسـك، والانـصراف للتَّأَمُّـل، والعمـل الحرفـيّ والزراعيّ.

لهؤُلاء وأُولئك أَوضَحَ الأَبُ پـيير أَن لا تنافرَ بين العبادة والتمرُّد، مُؤَكِّدًا شَرْطَ تواصُل الحوار، والحفاظ على الوحدة: "فليحتفظْ كلٌّ واحدٍ، حتّى في أكثـر خياراتـه تطرُّفًا، من وُضوح الرُّؤْيةِ والتواضع ما يُذَكِّره أَبدًا بمنشأ اندفاعه، فيظلّ، أَبدًا، وفيًّـا للواقع المتواضع الَّذي التقاه يومًا، أَي حقيقة جامعي النفايات..." هذا اللّقاءُ هو الَّـذي سبقَ الالتزامَ، وهو الصِّلةُ الوُثقى النَّابعةُ من خدمة الأَكثر تأَلُّمًا، وهو الكفيلُ بتخطّـي جميع وُجوه التَّبايُن بين الجماعات، وهذا ما أَكَّـده الأَبُ پـيير بترديـده: "فلْيُقَـدِّر ويحترمْ بعضُكم بعضاً مع تبايُن دعواتكم".

فالأَب پـيير لم يخشَ، يومًا، تضارُبَ الآراء بين مختلف الجماعات أَو الرِّفاق، بل كان يغتبط له، ويرى فيه عاملَ نُضوجٍ وازدهارٍ، لا موطِنَ وَهَـنٍ، بـل إِنّ مـا توجَّسَهُ، أَبدًا، هو أَن تُصبح "عمّاوس"، على غرار "الحزب الواحـد"، حيـثُ يُعلِـنُ الرئيسُ فيهتف الجميع "آمين"؛ يومَها، يقول الأَب پـيير، ستقف "عمّاوس" على شـفا الاندثار، مُضيفًا: "غايتنا هي الحفاظ على الوحدة في التنوّع، فهذا شـرطٌ جـوهريٌّ لاستمرار الحياة والنَّشاط، على أَن نُجْمع كلُّنا على "قانون إيمـان بيـان "عمّـاوس" الدَّوْليّ، الَّذي يتّسم بالإِيجاز، كي يكون صالحًا لليابانيّين والفنلـديّين والأَفـريقيّين... على السَّواء".

غير أَنّ تبايُنَ الآراء لا يُسوِّغ الإعراضَ عن اتّخاذ موقفٍ، مع احترام رأي المعارضين ومحاولة إقناعهم بالتَّفسير الواضح؛ فأسبابُ الخلاف تنجُم، عمومًا، عن استخدام نفس الألفاظ للتَّعبير عن أُمورٍ مختلفةٍ. وكان الأَبُ يُحبُّ، في هذا السِّياق، إيرادَ قَوْلٍ مأثورٍ لأنطوان دي سانت اكسوپيري، يُلخِّص نظرتَه في هذا الموضوع: "ارموا للبشر حُبوبًا، يتقاتلوا كالدَّجاج على التقاطها، ولكن أَهيبوا بنفس البَشر أَن يبنوا بُرْجًا، تجدوهم مُتَّحدين".

وبالإجمال تظلُّ أَبدًا، في "عمّاوس"، الأَوْلويّة للحياة على التَّنظيم القاسِر، فشَخْصُ الأَب پيير، ورسالةُ "عمّاوس"، هما المرجعُ الحيُّ الَّذي يُوحِّد الجميعَ، وَسْطَ تلك المَجرَّة، مُتَخطِّيًا تبايُنَ التَّوجُّهات. وهذا ما أَشار إليه الأَبُ بقوله:

« ستظلُّ، ثمَّةَ، صِداماتٌ، ولن تكون لعمّاوس قوّةُ تَحَدّيها، إلاّ إذا ضَمَّ روحُ بيان "عمّاوس" شخصيّاتٍ قويَّةً، بعيدةً عن البيروقراطيّة، جريئةً، مندفعةً بكلّ كيانها... ولا تراوِدَنَّنا أَيَّةُ خشْيةٍ، فجذورُ تلك الشَّجرة المُتَعدِّدةِ الفروع، ضاربةٌ في الأَعماق.

"في هذا العالَم المُتأَرجح، حيثُ البعضُ يقولون: "حذارِ، إنّكم مُتمادون في الجسارة، وتسعَوْن حثيثًا نحو الكارثة"، فيما يقول آخَرون: "حذارِ، فإنّكم تنزلقون، ولن تلبثوا أَن تُصبحوا بورجوازيّين صغارًا"، علينا أَن نكتشف السِّراطَ القويم، والاتّزانَ السَّويّ". ولكنَّ الأَبَ ما فتئ يُردِّد: "يعلم الجميعُ أَنَّ التوازن ليس تنازُلاً، فالبهلوان لا يُهادِنُ جاذبيَّةَ الأَرض، بل يمضي في السَّيْر على سلكه ».

ومع كُلِّ ما يفرِّق الجماعاتِ من مواقفَ وآراءٍ مُتباينةٍ، صَمَدَتْ "عمّاوس" بفضل وفائها لأهدافها ومُثُلها، فالبُؤَساء الَّذين يؤُمُّونها هم هم، وقد مرُّوا جميعُهم بنفس الدُّروب الشائكة، وهبطوا إلى قعر بئر الشَّقاء الَّذي لا قرارَ له، "وعمّاوس"، في استقبالها لهم هي هي بمبادئها الثَّابتة: الاستقبال، والعَمَل والخدمة، وبنتائجها الطبيعيّة: النّضال من أَجل العدالة، والتحريض على الظُّلم، وإيقاظ الضَّمائر. وبذلك استطاعت "عمّاوس" أَن "تصمُدَ، رُغمَ أَسباب زوالها العديدة الَّتي كانت كفيلةً، كلَّ يومٍ، منذُ أكثر من أَربعين سنةً، بأَن تُمزِّقها أَشلاءً، وأَن تُحطِّمها على صخور مكائد التّاريخ".

وقد بيّن الأَبُ موقفَه من التيّارات المُتضاربة بقوْله: "الصعوبةُ الَّتي أُواجِهُها تتمثَّل في أَلاّ أُشْعِرَ الرّاغبين في المُضيِّ نحوَ التزاماتٍ متشدّدةٍ أَنّني أَعدُّهم مجانين،

وفي آنٍ واحد ألاّ أُوهمَهم، إن أَنا أَيَّدتُهم، أَنّني أعُدُّهم متفوِّقين على الذين يقتصرون على مطامع أَدنى منالاً. ولا بدَّ لي من التأكيد على ما لا أكفُّ أُكرِّره: "**يجب ألاّ نحكم على الآخرين كما نراهم الآن، بل وفقًا للمسيرة الّتي اجتازوها**".

المبدأُ الوحيدُ المقبول، لدى "عمّاوس"، في ميدان السِّياسة هو وجوبُ التَّصدّي لأَسباب الشَّقاء. فلئن كان لا يسوغ ازدراءُ العمل السياسيّ، إلا أَنّه لا يليق بعمّاوسيٍّ الالتزامُ بأَيِّ حزبٍ أَو مُنظَّمةٍ سياسيَّة، بل عليه الاقتصارُ على مُقدِّمات العمل السِّياسيّ، فيكون عاملَ إِيقاظٍ وتحدٍّ، وحَسْبُ؛ فكما أَنَّ "عمّاوس" ليست كنيسةً، كذلك لا تدخُلُ في اختصاصها تقنياتُ العَمَل السِّياسي ومناوراتُه، فمُهمَّتها نَبويَّةٌ، إِذ عليها أَن تكون "البعوضَةَ التي تُزعج الضَّمائر". وبعد أَن تُحرِّضَ وتَستَنفِرَ في سبيل العَمَل السِّياسيّ عليها أَن تُكافِحَ كُلَّ تَعَصُّبٍ حزبيٍّ، فما من حِزْبٍ يستطيع ادِّعاءَ احتكار الصَّواب والسُّلوك السَّليم، ثُمَّ إِنَّ أَفضَلَ القوانين وأَرقاها عاجزةٌ عن تأمين المُجْتَمع السَّعيد، إِذ لا شيءَ يقوم مقامَ المحبَّة والإخاء، وهذه ليستْ شأنَ الدُّوَل والحُكّام؛ فعلى أَعضاء جماعات "عمّاوس" أَن يبقوا فوق مستوى الحسابات السِّياسيّة، وأَلاّ يتمثَّلوا بأَيِّ حاكمٍ، ولا ينتسبوا إلى أَيّةِ إيديولوجيّةٍ، فمُهمَّتهم تسمو على كلّ ذلك، فهي مُهمَّةٌ نَبَويَّةٌ، وصوت النّبيِّ عليه أَن يُزعِجَ الحاكِمَ، بلا هوادَةٍ؛ وليسَ من شأن النّبيِّ أَن يُصبح مَلِكًا، وإلاَّ فمن يدُلُّ المَلِكَ على أَخطائه، وربَّما على جرائمه؟"

هذا الموقفُ العَدْل بين شتّى الاتّجاهات، وذلك التفهُّمُ العميقُ الغَوْر لوضع كُلِّ فَرْدٍ، قد طالما عرَّضا الأَب پيير لاتِّهاماتٍ ظالمة، ولافتئاتِ المُغرضين. فبما أَنّ دعوتَه الخاصَّة قد حملتْه على استقبال أكثر النَّاس حرمانًا، و"جريحي الحياة"، غالبًا ما اتُّهم بالتهاوُن والتَّواطؤ مع المُجرمين، والسَّكارى، ومُنْحلّي الأَخلاق؛ وقد راقَ للبعض إظهارُ "عمّاوس" في صورة مجموعةٍ من السَّكارى الصَّاخبين الماجنين. إلاّ أَنّ الأَمثلةَ الحَيَّةَ، والإنجازاتِ الرائعة، والواقع المُعاش بلا تزويقٍ ولا تمويهٍ، قد دحضت، أَبدًا، مثلَ تلك الافتراءات، وسفَّهت مثْلَ تلك الأَحكام الشَّوْهاء.

وكان على الأَب، من جانبٍ آخَر، التصدّي لمُشكلة تفاوُت الأَعمار بين مختلف أَجيال "عمّاوس"، فأكَّد أَنّ على تصادُم العقليّات أَن يمَّحي ويتلاشى أَمام واجب خِدْمة الفقير الأَكثر تألُّمًا، وأَوْضَح: "كما أَنّه لا يحقُّ للأَعضاء الجدُد، ازدراءُ عَمَل القُدامى

وشجاعتهم، كذلك لا يسوغُ لنا أَن نرتاب في صِدْقِ جوع هؤُلاء الشُّبّان إِلى المُثُل، وتعطُّشهم إِلى العمل، بدعوى قِدَمنا، أَو بحجّة التفرُّد بالصَّواب. بل علينا أَن نَهَبَهم ثِقَتَنا، وننهج سبيلاً وَسَطاً لا يُشلُّ التَّطوُّرات المُستَحدثة، وفي آنٍ واحدٍ، لا يهدِمُ الأُسُس القديمة. بالثّقة والصَّداقة نتفادى خَطَر تحويل حركتنا الخارجة من عهد الدَّياميس إِلى بيروقراطيَّةٍ، وإِلى مُؤَسَّسةٍ جامدة...".

ولا بدْعَ، بالتَّالي، إِن هو راح يُردِّد، بلا انقْطاعٍ، دعوتَه إِلى مطلبٍ جوهريٍّ، يُراعي احترامَ الاختلافات، وضرورةَ الاستفزاز الدّائم قائلاً: "**ليس هناك سوى طريقة استعمالٍ واحدةٍ للحياة، وليس للحياة سوى هَدَفٍ واحدٍ، بمستوى جوعنا الأَكثر حدّةً، لأنّه هو الكائن اللاّنهائيّ، وهو الحُبّ**".

كما أنّه ما انفكّ يُكرِّر على مسامع الجماعات ما قاله في أَميركا اللاَّتينيّة في الثَّمانينات: "إِنّ جماعات "عمّاوس" قائمةٌ منذُ ثلاثين عامًا، مع أَنّه، حَسَبَ المنطق القويم، المعقول، الإِنسانيّ، قد توفَّرتْ، كُلَّ يومٍ، جميعُ العوامل لتحطُّمها. إِنّها مُخالِفةٌ لكُلّ منطقٍ، بل هي ضربٌ من اللُّغز، ولكنّها، في آنٍ واحدٍ، ضرورةٌ. ولذلك أَقول لكم: واصلوا مسيرتكم، وكونوا ذواتِكم، فالعالَم في حاجةٍ مُطلَقَةٍ إِلى وُجودكم...".

وغالبًا ما روى الأَبُ، في شيءٍ من الدّعابة أَنَّ مسؤولي "عمّاوس" في فرنسا قد التقوا للمرَّة الأُولى بمناسبة الهيئَة العامَّة للحركة الَّتي التأَمتْ، عام ١٩٧١، في "مونتريال"، أَي أكثر من عشرين سنةً بعد مولد الحركة. وكان يرى، في ذلك، الدَّليلَ على أَنّ الفروع، ولئن هي مضت في اتّجاهاتٍ متباينةٍ، وتجاهلت إِحداها الأُخرى، تظلُّ تنطوي على قوَّةِ الشَّجرة.

وبالتَّالي، فإِلى جانب التَّنظيم الَّذي باتَ ضرورةً حتمِيَّةً، كان لا بُدَّ من مُراعاة الحفاظ على روح "عمّاوس" متوثِّبةً، فالتّنظيم، مهما كان مُحكمًا ومَرِنًا، ليس، وحدَه، ضمانًا للدَّيْمومة، ولا سِيَّما إِن هو افتقد الدَّافعَ الجَوْهريّ؛ وهذا الدَّافعُ الَّذي دأَب الأَبُ پيير على الدَّعوة إِليه، بلا هوادة، هو المشاركة، أَي شريعة الحُبّ والحياة، في مقابل شريعة البُغْض والموت، والعَدْل في مقابل الشَّقاء؛ والمشاركة هي العلاجُ الأَنجعُ لمعالجة مخاطر التَّفكّك الاجتماعيّ، والاضطرابات المُدمِّرة، الماضيةِ اتّساعًا وتسارُعًا،

في العالَم، منذُ بضعة عُقود.

لقد ظلَّ هاجس الأَب پـيير الأَوّل أَن تظلَّ "للعدوى" الأَوْلَويَّةُ على "الأَنظمة"، وأَن تتجنَّبَ الجماعةُ ما ينجم، غالبًا، عن النَّجاح من انحطاطٍ، ومن خَنْقٍ المُؤَسَّسة للاندفاع الفَرديِّ، وللرَّغْبةِ الصَّادقة في المشاركة. وهو يتوقَّع أَن لا تني أَنظمةُ جماعات "عمّاوس" تتطوّر وفقًا لمقتضيات الزّمان والمكان. غير أَنَّه موقنٌ أَنّ رسالة عمّاوس ستبقى حيَّةً، تستفزُّ، في كُلِّ جيلٍ، من يحملون لِواءَها بصدقٍ واندفاعٍ؛ وجوهَرُ هذه الرِّسالة يُمكن أَن يُلخَّص في مفهوم "المشاركة"، الَّتي تُرَسِّخ في الإِنسان اليقينَ بأَنَّه لن يكون، أَبدًا، سعيدًا حقًّا، في معزلٍ عن الآخرين، وأَنّه، لولا الرَّغبةُ الصَّادقةُ في الخِدْمة، وفي السَّعْي إِلى أَن يُخدَم، في المقام الأَوّل، الأَكثرُ معاناةً، إِذن، لغدت الحياةُ على البسيطة جحيمًا، إِذ سيُناضل كلُّ فردٍ ليكون الأَقوى، لا ليَخْدُم على نحوٍ أَفضل، بل لكي يستوليَ على كُلِّ شيءٍ، ويقْسُر الآخرين على خدمته، ومن ثمّ يُسحَق الضّعَفاءُ، ويعيش الأَقوياء، في عزلةٍ، خشيةَ أَن يقوم أَقوى منهم بسَحْقِهم. فالواقعُ يُثبتُ وجودَ عالَمَيْن: عالَم البُغْض والمَوتِ السَّاعي إِلى خدمة الأَقوى على حساب الأَضعف، وعالَم السِّلْم وملءِ الحياة للجميع، المؤمن بضرورة خدمة الأَضعفِ والأَصغر في المقام الأَوّل. وبقَدْر ما يقوى الضَّعيفُ والصَّغيرُ تنشبُ به عدوى الخِدْمة، فيُسْهِم، بدَوْره، في خِدمةِ الأَصغرِ والأَضْعَفِ منه. العالَم الأَوّلُ هو عالَم اللَّعنة، أَمّا الآخر فهو عالَم الفَرَح، وانفتاحٌ على الفَرَح المُطْلَق؛ و"عمّاوس" تعمل لإِقرار ملكوت هذا العالَم القائم على الفَرَح والحُبّ.

تفرّغٌ ورُسُوخٌ

ممّا سلَف، يتَّضح أَنَّ عبقريَّةَ الأَب پـيير، الَّتي تسري في كُلِّ تاريخ "عمّاوس"، قد تجلّت في إِطلاقه العنان للنُّفوس الكريمة والنوايا الطيِّبة، كي تُعبِّر عن ذاتها، وتُباشِرَ المبادرات الَّتي تُؤْمن بها؛ فهو لا "يفرض" أَبدًا، ولا يدعو إِلى النَّهج وفقًا لأُسلوب هذا أَو ذاك، بل إِنّه، حالما يتبيّن أَنّ المشاركَةَ مُعاشَةٌ حقًّا، يُشجّع قائلاً: "**افعل كما تستطيع، وكما تعلم**".

هذا ما أَتاح للأَب "باليستا" أَن يُحقِّق، في الأَرجنتين، نموذَجًا رائعًا مُستَوْحى من "عمّاوس"، ولا سيّما بعد أَن اقترحت الدَّوْلةُ التَّعاون مع جماعات "عمّاوس" هناك،

على التَّخلُّص من مُدُن الصَّفيح، على امتداد أَراضي البلاد، ما أَسبغ علــى جــامعي النفايات صِفَةَ جَدْوى وَطَنيَّة، وفق نموذجٍ انفردتْ به "عمّاوس الأَرجنتين". ومن ثــمّ استأهل الأَب "باليستا" أَن يُعَيَّنَ نائبًا لرئيس "عمّاوس الدَّوْليَّة"، قبل وفاته.

وهذا ما مكّن الأَب "ڤــلاّد"، الَّذي تعلَّم اليابانيّة في الشّارع وفي الأَكواخ، بفضل علاقته الحميمة بالمُتسوِّلين والمُشَرَّدين، من أَن يكافح وحيدًا، أَعزل، إِلى أَن أَسّــس "جيوكاكاي" (نور الصباح) في مدينة "كوبيه"، ثمَّ جماعةً أُخرى في "أوزاكــا" وَسْــط أكواخٍ يعيش فيها، في بُؤسٍ مُريعٍ، أَكثرُ من نصف مليون بائسٍ، ثــمّ أَتبــع ذيْنِــكَ المركزَيْن بمأوى للعَجَزة، وبدار حضانةٍ للأَطفال. وقد أَمسى الأَب "ڤــلاّد"، بجدارةٍ، المسؤولَ عن "عمّاوس" في الشَّرق.

وهذا ما سمح لكاتاغارا في "رُواندا" أَن تُصبحَ منارةَ حُبٍّ، وعَملٍ مُجْــدٍ، فــي خدمة من جار عليهم الزَّمن، وقابلهم إِخوتُهم بالإِهمال والازدراء.

وإِلى جانب ذلك، تميَّز الأَبُ پــيير بخِصلَةٍ جَهِدَ في إِشاعتها بين رفاقه، تتمثَّــل في التَّسامُح حيالَ المخالفات، وتجديد الثّقة باستمرارٍ، وفي ذلك تكمُــن، معًــا، قُــوَّةُ "عمّاوس" ومواطنُ وَهَنها.

هذا الموقفُ القائم على الثِّقة والتّواضع، على الواقعيّة والتــسامُح، يُنيــر لُغْــزَ "عمّاوس"، ويُفَسِّر نجاحَها، وطولَ عمرها اللَّذَيْن لم يكن ممكنًا، منطقيًّا، توقُّعُهما، مع كُلِّ ما واكبَ مسيرةَ "عمّاوس" من مُفارَقاتٍ عجيبةٍ؛ فمن جهةٍ، على المُثُل أَن تتماشى مع ضرورات التَّمويل الذّاتيّ، بفضل جُهْد رجالٍ ونساءٍ يتّسمون، عمومًــا، بانعــدام الكفاءَة، ومن جهةٍ أُخرى، على الأَب، بطباعه المتأَجِّجة، أَن يــنهض حكَمًــا بــين اتّجاهاتٍ مُتنابذةٍ، عليه، هو الَّذي يَصِفُ نفسه باللاانضباط، ونفاد الــصَّبْر، أَن يؤَبِّــد تحدّيًا، ويكفلَ مُستقبَلَه واستقرارَه، وعليه، عندما تتعدَّدُ أَشكال "عمّــاوس"، وتتكــاثرُ فروعُها، أَن يحفَظَ لها روحَها سليمةً، وأَن يرعى ازدهارَها المُتَفَجِّر، حُرًّا، في الهواء الطَّلْق، بلا تخطيطٍ ولا تنسيقٍ، بدفعٍ من قُدوته.

وقد آمن الأَبُ بقَوْل أَحدهم: « **ثَمَّةَ، في "عمّاوس"، مجانينُ لا يتوانَــوْن عــن التَّضحية بكلِّ شيءٍ، حتّى بصحَّتِهم، أَحيانًا، حبًّا بإخوتهم. فكيف "يُحــبس" هــؤُلاء المجانين في أَنظمةٍ تخنقهم؟ أَلَيْس من الأَجدى تركُهُم يعيشون جنونَهم؟** ».

في هذا المُناخ المُخصب، تواترتْ، في فرنسا، ولادةُ مؤسَّسات جديدةٍ، كلُّها مستوحاةٌ من صوفيّة "عمّاوس"، وماتّةٌ إِليها بأَسبابٍ وصلاتٍ، ومن أَهمّها:

– **منظّمة عمّاوس للمساكن الزَّهيدة الأُجرة:** التي رأَتْ النُّور في أَعقاب انتفاضة عام ١٩٥٤، وأَنجزتْ، في غضون ثلاثين سنةً، في المنطقة الباريسيّة، نحو ثمانية آلاف مسكنٍ، محتفظةً برسالتها الَّتي تولي الأَوْلويَّة لمُساعدة الأَكثر حاجةً.

– **اتّحاد عمّاوس – باريس:** الَّذي تأَسَّس عام ١٩٥٤، ويُدير حاليًّا:

– مركز إِيواءٍ من أَربعين سريرًا.
– مأوى من عشرة أَسِرَّة.
– مركز استقبالٍ عابرٍ من عشرين سريرًا.
– مركزًا اجتماعيًّا في موقع "پليسّي تريـفيز"، حيث أُشيدتْ أَوّلُ مدينةِ طوارئ، وهو يضمّ ناديًا للوقاية، وحديقةَ أَطفال.
– مركزًا عقاريًّا.

– **اتّحادات أَصدقاء عمّاوس غير المنتسبين إِلى جماعات:** وقد أُسّستْ في مطلع السِّتّينات، إِثرَ مرور فرق الجوّالين، وانعقاد مُخَيّمات الشَّباب، بمبادرة "پول النورماندي"، فذَانك الحَدَثان قد خلَّفا في العديدين ممَّن شَهدوهما آثارًا بليغةً، فوطَّنوا العزمَ على مُواصلة العَمَل الَّذي تمَّ في مُدُنهم وقُراهم؛ وهَدَفُهم: "خدمةُ الأَكثر حرمانًا، وإِيقاظ الضَّمائر على شدائدهم وكفاحهم، باستخدام النفايات وسيلةً رئيسةً أُولى".

ورغبةً في تعارُفٍ أَفضل، وتبادُل الخِبْرات، وتعاوُنٍ مُثْمرٍ، والاضطلاع بأَعمالٍ مشتركةٍ، والاتّصال بفروع "عمّاوس" الأُخرى، أَوجدَتْ تلك الاتّحاداتُ لنفسها، عام ١٩٧٨، أَمانةَ سرٍّ للاتّصال. وفي عام ١٩٨٠ وُلدت "اللَّجنة الوطنيّة لأَصدقاء "عمّاوس"، الَّتي تمتلك شبكةً تُغَطّي معظمَ الأَراضي الفرنسيّة.

وعدد "أَصدقاء عمّاوس" يُناهز، في فرنسا وحدَها، الأَلفَ، وهم يمارسون علاقاتٍ منتظمةً مع الجماعات. إِنَّهم يدُ المجتمع الممدودة، وفي آنٍ واحدٍ، تعبيرٌ حيٌّ عن نَمَطٍ آخَر من العلاقاتِ الإِنسانيّةِ القائمة على التَّضامُن والمشاركة، ومكافحة الفقر المُذِلّ.

وهناك الأَصدقاءُ المُستقلُّون، الَّذين يتعاطَوْن، معًا، جمعَ النِّفايات، ويُسدون خدمةً

اجتماعيَّةً مستوحاةً من بيان "عمّاوس"، وينهضون بعملٍ تطوُّعيٍّ يُخصِّصون له أَيَّام عُطلتهم، ويُقدِّمون مُساهمتَهم الأَدَبيَّةَ والماليَّةَ لمساعدة قطاع المحرومين في محيطهم، أَوْ لغَوْث العالَم الثَّالث. إِنّهم قوّةُ سخاءٍ فرديٍّ وجماعيٍّ فريدةٌ.

أَصدقاءُ "عمّاوس" يُمثّلون رأسمالاً بَشَريًّا يتمتّع بالكفاءة والبَذْل، وهم، منذُ أكثر من أَربعين سنةً، عِماد الحركة في فرنسا، فهم يُساندون وَهَن الجماعات، ويُبَرهِنون عن تفهّمٍ قائمٍ على العَطْف والصَّبْر والحنكَة، يُؤَهِّلهم لفضّ الخلافات، وتسوية التَّوَتُّرات.

- **منظَّمة عمَّاوس لنَجْدة الأُسر:** وهي جماعة مُستقِلَّةٌ، سَلَكَتْ نَهْجًا مُتشدِّدًا في مجالَيْ الخدمة والمال، أَسَّسها، عام ١٩٧٣، الأَبُ "هنري ليبورسيكو" (HENRI LE BOURSICAUD)، في مدينة "شارانتون"، حيثُ كان يُقيمُ الأَبُ پيير، آنذاك، والَّتي اتَّخذت لها مقرًّا كنيسةً قديمةً خاليةً، وهَبَها إِيّاها الأَب پيير؛ أَما شعارُها فإِنسانٌ مُتحرِّرٌ من أَغلاله، وساعداه مرفوعتان نحو السَّماء تُعلنان: "**نحن أَحرارٌ لكي نُحِبَّ**". وقد فسَّر المؤسّسُ هدَفَه بالقوْل: "في عالَمٍ كان يبدو أَنّ التقدُّمَ التقنيَّ سيُوفِّر له فُرَصًا متعاظمةً للحُرِّيَّة، تترسَّخ أَساليب طغيانٍ متفاقمةٌ، مُولِّدةً عبوديّاتٍ مُتعَدِّدةَ الوجوه؛ ومن ثَمَّ فإِنَّ الصِّراعَ ضِدَّ جميع أَنماطِ الظُّلم، ذلك الصّراع الجوهريّ في منطق "عمّاوس"، ينبغي أَن يغدو لنا، في المقام الأَوّل، صِراعًا في سبيل حُرِّيَّةٍ مُثلى".

ومن ثمّ كانت أَهدافُها رُباعيّةً تتمثّل في:

- التحرُّر من المال
- التحرُّر من الكحول
- التحرُّر من التسلُّط
- التحرُّر من السَّيْطرة الخانقة الَّتي يجهَدُ بعض أَصدقاء "عمّاوس" في بسطِها على الجماعات.

بعد سنوات من العمل المُؤَثّر، فتر نشاطُ تلك الجماعة، من جرّاء استقرار مؤَسِّسها، عام ١٩٨٦ في أَميركا اللاّتينيّة، حيثُ وجَدَ لكفاحه مجالاً أَرحب، ثمّ انضمّت "عمّاوس – الحريّة" إِلى اتِّحاد أَصدقاء "عمّاوس".

عمّاوس الإخاء: التي تأسَّستْ عام ١٩٨٢، وهي أَيضاً، على غرار "عمّاوس الحرّيّة"، مُتَشدِّدةٌ في رفضها المالَ، وحِرصِها على العَمَل التَّطوُّعيِّ المجانيّ، وقد لخّصت أَهدافها المُستقاة من بيان "عمّاوس الدوليّ" بالقول: "معًا نُريدُ أَن نَشهد لوِلادة بشريّةٍ جديدةٍ، وأَن نناضل بدافع رفضنا السَّعادةَ في معزلٍ عن الآخرين، لكي يستعيد المنبوذون الرَّجاءَ... ونَوَدُّ التعبيرَ عن رجائنا، مشتركين مع نشدان البشريَّة جمعاءَ المتعطِّشةِ إلى مُبرّرات حياة".

تعدُّدُ الجماعات والفروعِ هذا يَنْهَضُ دليلاً على أَنَّ "عمّاوس" هي، في المقام الأَوّل، مجالُ حياةٍ وخلقٍ دائمٍ، وانطلاقٍ حُرٍّ، قبل أَن تكون أَسيرة نظامٍ. غيرَ أَنّ اشتراكها، جميعها، في صُوفيّة "عمّاوس"، وفي الوَلاء للأَب پيير، كان لا بُدَّ له من أَن يقودها نحوَ ضَرْبٍ من الوحدة الّتي تجسَّدت، رَسميًّا، في إِعلان تأسيس "اتّحاد عمّاوس فرنسا"، ومن أَهمّ غاياته: أَن يكون حَلَقةَ اتّصالٍ بين مختلف الاتّحادات والهيئات المنتمية إِلى "عمّاوس"، ووسيطًا لحلِّ الخلافات الّتي قد تنشأ بينها، وتأمين تعاونها المُشتَرك، مع احترام شخصيّاتها، واستقلالها الذّاتي، فضلاً عن كونه مُمثِّلاً لعمّاوس على المستوى الوَطنيّ أَمامَ السُّلطات العامّة، ومؤسَّسة عمَّاوس الدَّوْليّة، والسَّهَر على حرمان كلّ اتّحادٍ لا يلتزم ببيان الحركة العالميّ من حقّ الانتماء إِلى "عمّاوس". وقد أَعلن عن تأسيس ذلك الاتّحاد في ١٩٨٢/١١/٢٠.

وفي اليوم التَّالي لإِعلان إِنشاء "اتّحاد عمّاوس فرنسا" رسميًّا، رأى الأَب پيير أَن يتخلّى عن سُلطاته في المؤسَّسة الّتي أَسَّسها، فيضع بذلك حجر أَساس بناءٍ جديدٍ. وتأكيدًا على رغبته في الوحدة والتَّضامن، ودرءًا لخَطَر كلّ تفتُّتٍ أَعلن عن ضرورة استخدام كُلِّ الوسائِل الممكنة لمنع أَيٍّ كان من الانتساب إِلى "الأَب پيير"، إِلا بصفَته عُضوًا في "عمّاوس" الّتي أَسّسها الأب پيير.

في "عمّاوس"، اليومَ أَساليبُ متباينةٌ، فالبعض يسعَوْن إلى اكتناز العِلْم ذريعةً مُثلى للخدمة، وآخَرون يؤْثِرون إِرساءَ الخدمةِ على الصَّلاةِ التي تحتلُّ حَيِّزًا رحْبًا من وقتهم، صلاةٍ فرديَّةٍ وجماعيَّةٍ ومسكونيّة.

هذا التبايُن، وإِن سبَّب، عَرَضاً، صداماتٍ نادرةً، يُمثِّل، في الواقع، عالَم إِغناءٍ، فالجماعاتُ المختلِفَةُ الأَساليب، يعضُد أَحدُها الآخر، ويُغني أَحدُها الآخر، وتحدو

الجميعَ رغبةٌ مشتركةٌ في إِعطاء العالَم، بالمشاركة الَّتي يعيشونها، مُبرِّرًا للحياة: أَلا وهو تعلُّم المحبَّة.

ومن الجميع يقتضي الأَب پيير:

- في ما هو مُؤَكَّد: الوحدة
- في ما هو غيرُ مُؤَكَّد: الحُرِّيَّة
- في كُلِّ شيءٍ: الصَّداقةَ المقرونةَ بالاحترام.

نداءٌ إلى الشباب

ثقةُ الأَب پيير في الشَّباب بلا حُدودٍ، وإِليهم غالبًا ما يتوجَّهُ كي يُؤازروه في مواجهة الهاجس الَّذي ما انفكَّ، يومًا، يُؤَرِّقه، والذي لا يني يعبِّر عنه بإِلحاحٍ في عظاته ومقالاته، مُذَكِّرًا أَنّ ثُلْثَيْ سُكّان المسكونة عاجزون عن تلبية احتياجاتهم الأَساسيّة من غذاءٍ، وسكَنٍ، وعنايةٍ صحِّيَّةٍ، وتَعلُّمٍ، وعمَل.

ومن ثَمَّ، فهو ما فتئَ يُهيب بالشَّباب ذوي الكفاءات، في الدُّوَل المُتَقدِّمة، حالما يفرغون من دراستهم، ويظفرون بشهاداتهم، وقبلَ انخراطهم في مسؤُوليّاتهم المهنيَّة في موطنهم، أَن يُكَرِّسوا بضعَ سنواتٍ لمشاركة فُقَراء الدُّوَل النَّامية أَوضاعَهم المَعيشيَّة والإِنسانيَّةَ الصَّعْبة، مُردِّدًا: « لئن كان هؤُلاء الَّذين يُعانون انعدام التنمية في حاجةٍ إِلى مؤَازرتنا، فنحن المعانين من سوء التَّنمية علينا أَن نعود فنكتشف لَديهم العديدَ من القِيَم الحقيقيّة ».

وقد لبَّى نداءَه مُتَطوِّعون كُثُرٌ، من كُلِّ صَوْب، فتقاطرتْ أَفواجٌ من السكندِناڤيّين والكنديّين والفرنسيّين، والبلجيكيّين، والسُّويسريّين وسواهم، شبّانًا وشابّاتٍ، يتعاونون مع مُتطَوِّعين مَحلِّيِّين في العالَم الثالث، وغالبًا تحت إِمرتهم، ولا يتوانون عن الامِّحاء أَمامَهم، حالما يغدو ذلك ممكنًا، مُتمِّمين وصيّة الأَب لهم: "**ستكونون قد نَجَحْتُم عندما لن تبقى إِليكم حاجةٌ**".

وطالما حذَّر الأب أُولئك المُتَطوِّعين من الارتجال، ومن الاندفاع الَّذي يفقد جدواه، إِن هو لم يتسلَّحْ بالمعرفة والكفاءَة، "**فالنَّوايا الطَّيِّبة غيرُ كافيةٍ، ولا بُدَّ من كفاءاتٍ حقّةٍ... فلا يمكن إِنماءُ السنابل، بمُجرَّد شدِّها إِلى فوق**". ولذلك أَهاب بهم

أَن يكتسبوا القَدْر الأَكبر من الكفاءات والبراعات، كي تكون جدواهم مُثلى. واستجابةً لهذا الطَّلب تأَلَّفتْ فِرَقُ اختصاصيِّين في مختلِف الميادين، فالمُتَطوِّعون السّويسريّون، على سبيل المثال، قد اختصّوا في مُعالَجَة البَرَص في العالَم، منذُ البدء، وفي عام ١٩٧٥، كانت "عمّاوس سويسرا" قد أنفقَتْ ما ينيفُ على أَربعة ملايين فرنكٍ فرنسيٍّ لإنجاز أَربعٍ وتسعين مُهِمَّةً في اثنين وثلاثين بلدًا.

وقد اتَّضحَ للمتطوّعين أَنّ أَحد عوامل التخلّف الأَساسيّة في العديد من الدُّوَل النَّاميةهو سوءُ تغذية الأَطفال منذُ مَوْلدهم، ممّا يُؤَثِّر تأثيرًا سلبيًّا حاسمًا على مستقبل نُمُوِّهم. ومن أَجل دَرْء هذا الخطر، وبتشجيعٍ من صديقٍ بلجيكيٍّ، قامتْ مؤَسَّسةٌ مُحْكَمَةُ التَّنظيم، ذاتُ شَبَكةٍ تنطلق من الدانمرك، وتمتدُّ خيوطها إلى جميع أَرجاء أوروپا، ويُسهم فيها الشَّباب إِسهامًا جادًّا ومجديًا؛ تلك المؤَسَّسة التي دُعيتْ "إِس أو إِس (استغاثة) علب الحليب" تقوم، باطّرادٍ، بشحن عشرات أَطنان عُلَب الحليب المركَّز والمُحلّى، إلى شتّى الجهات الَّتي يعمل فيها مُتَطوِّعون يُؤَمِّنون توزيعَها المنتظم، المتوازِن.

ولا تني تتردَّد، في أَقوال الأَب پيير وكتاباته، قناعاتُه في نجاعة تَطوّع الشَّباب، « ففي عمّاوس، يجد الشبّان، حقًّا، فاعلةً، وماثلةً في الواقع، المشاعر العميقة، والرَّغبات المضطرمة في التَّضامن، والانتماء العالميّ، الَّتي تشغل اليوم أَذهان معظمهم، ففيها، في آنٍ واحدٍ، شهادةُ حياةٍ وعملٍ جماعيَّيْن، والتَّطلّع إلى الإِسهام في بناء مجتمعٍ عادلٍ، وإِلى النِّضال ضدَّ الحرب، والجوع، والشَّقاء والاستبداد ».

ولا يُنكر الأبُ وُعورةَ ذلك التَّطَوُّع، ولا يخفيها على المُتَطوِّعين، وقد حذَّر واحدًا من أَوائل المُتطوِّعين بقوله: "**إِنّ التزام تطَوُّعك سيَشرَعُ يُصبح حقيقيًّا، غداةَ اليَوْم الَّذي ينتابك فيه الاشمئزاز، ولكنّك، مع ذلك، تُقرِّر المكوث**". ويؤكّد ضرورةَ مثل ذلك التَّطَوُّع القُصوى، على الصَّعيد الاجتماعيّ فيقول: "**لن تُجدي مضاعفةُ أَعداد الأَطبَّاء النَّفسيّين، ورجالِ الأَمن، في شِفاء شريحةِ الشُّبَّان التَّائهين، الماضية في التَّضَخُّم. ما من شأنه شفاؤُها هو النِّداء، وإِمكانيّة تلبيته، إِلى النِّضال من أَجل**

تحرير ضحايا جميع أَصناف البُؤْس. ولا يُبرِّر وجودَ أَيِّ مُجتَمَعٍ سوى اضطلاعه بتلقين هذه الحقيقةِ لأَبنائه". "الحضاراتُ تُقَيَّم بأَنماط غضبها، بنُبْلِ أَو حقارةِ مواضيع ذلك الغَضَب.

« فالغضب دليلُ حبٍّ، ولا حبَّ بلا غَضَب... حيالَ ما يجرح المحبوبَ

"الويلُ للأَجيال الَّتي لا تمتلك من الأَنبياءِ عددًا كافيًا يُبيِّنون لها مجَالات الخَلْقِ الرَّائعة، الكفيلة بأَن يحتملوا في سبيلها، باندفاعٍ، كُلَّ أَصناف التَّضحيات، الَّتي تَهَبُ، على نحوٍ آخَر وأَفضل، أكثر كثيرًا، ممَّا يُكرَّسُ لها.

"في كلّ مكانٍ يتطلّع الشُّبَّان إِلى الحياة، مُدْركين، بالفطرة، أَنَّ الحياةَ هي نضالٌ وخَلْقٌ.

"إِنَّهم يتطلَّعون إِلى الحياة، أَي إِلى تدمير كُلِّ الحواجز الَّتي تحول دون الحياة، حياتِهم، وحياةِ العالَم بأَسره، أَيضًا.

"وإِن هم تبيَّنوا أَنّهم غيرُ مدعُوِّين، وأَنّ دراستَهم، وتربيتَهم، ومُستَقْبلَهم غير موجَّهَةٍ، وغيرُ مُعَدَّةٍ لشَنِّ الحرب الجديدةِ، الجميلةِ، الحربِ الوحيدةِ الجميلةِ دون سائر الحروب، الحربِ على البُؤْس، وإِن هم اكتشفوا أَنّ جميع الوسائل المُجْدية لم تُجَهَّزْ وتُكَرَّس بالأَولَويّة لها، على نحو ما تُعَدُّ أَحسنَ إِعدادٍ للحروب البَشعة القَذرة، إِذَنْ، لا يُخامرنَّنا شَكٌّ بأَنّهم لن يكونوا سوى أَولادٍ بليدين في إِطار سِلْمٍ مَيِّت.

"وليسَ لصَرْخَتِهم سوى جواب واحد: مساعدتهم على عَيْشِ أَفراحٍ، وأَنماط غَضَبٍ، سليمةٍ، هي، وحدَها كفيلةٌ بتحقيق سَلامٍ حيٍّ، السَّلام الَّذي يُكمل خَلْقَ الأَرض، وبذلك يتحقّق اللِّقاء بالأَزليّ، الَّذي هو، وحدَه، ملءٌ مكتفٍ بذاته، وحقيقيٌّ، ملءُ حياة الحُبّ ».

ويغتبط الأَبُ عندما يَشْهَدُ مدى استجابة الشَّباب لهذا النِّداء، فيهتفُ: "شيئًا فشيئًا، ومن بَلَدٍ إِلى آخَر، يتعاظمُ التزام الشُّبَّان، والأُسَر الشَّابّة بتطوُّعٍ حقيقيٍّ وشاقٍّ في سبيل شتَّى أَصناف الخِدْمة، في قلب مُدُن الصَّفيح، وإِلى جانب الشُّيوخ، وجموع منكودي الحظّ، وأكثر الفئات فَقْرًا. في شتّى أَرجاءِ العالَم يستيقظُ مثلُ أُولئك المُتَطوّعين، منهم خبراءُ، ومنهم مُجَرَّدُ رفاقِ إِيقاظٍ اجتماعيٍّ، يَمْضون مُتَطَوِّعين لمدَّةِ سنةٍ أَو سنَتَيْن. وأَحيانًا يأخُذُ العطاءُ بمجامع قلوبهم، فيمكُثون وقتًا أَطول. على بَذْل

الذَّاتِ هذا ينبغي أَن يرسوَ، في المستقبلِ القريب، توازُنُ العالَم أَجمع، والسَّلامُ، والتَقَدُّمُ الحقّ"

ولا يقتصر الأَب على مناداة الشَّباب، بل إِنّه يتوجّه أَيضاً بندائه إِلى الوالدين فيقول: "إِذا ما وَجَدْتُم، ذاتَ صباحٍ، في بريدكم، رسالةً من أَحد أَبنائكم الشَّباب، قادمةً من بلادٍ وأَماكن نائيةٍ، فقيرةٍ، وفيها يُحيطونَكم عِلْمًا بالتزامهم لفترةٍ، بخدمة المحرومين، فثقوا، حينَذاك، أَنّ ابنكم أو ابنتَكم قد انتهجا الدَّرْبَ السَّويّ، وأَدْركا المعنى الصَّحيحَ للحياة، الَّتي ليستْ نجاحًا مادّيًّا ومهنيًّا، فحَسْبُ".

وفي سياق إِعداد "عمّاوس" للحرب على الشَّقاء، وتعبئة الشُّبَّان لخَوْضها، نشأَتْ مُخَيّمات الشَّباب، أو "مخيّمات العَمَل الدَّوْليّة"، الَّتي غدَتْ في السِّتّينات، بُعدًا من أَبعاد "عمّاوس" الأَكثر خطورةً، والَّتي كانت تَضمُّ أُلوفَ الشُّبَّان والشَّابّاتِ القادمين من شتّى أَقطار العالَم، ولا سيّما أَثناءَ العُطَل المدرسيَّة الصَّيْفيَّة، لتلَقُّن مبادئ الخِدْمة على يد جامعي نفايات "عمّاوس". وقد برَّر الأَبُ وجودَ تلك المُخَيّمات بقوله: "إِنّ الشَّبيبةَ الباحثةَ عن مُثُل، تودُّ، هي أَيضاً، الإِسهام في المُثُل الَّتي تعيشها جماعاتُ "عمّاوس"، وتريد أَن تستمدَّ منها الرَّجاءَ، والقُوَّة الكفليةَ بفضْح ظواهر سلوك العالَم "اللاّإِنسانيّة"، والعزيمة على معالجة تلك العِلَل بأَعمالٍ واقعيّةٍ. ومن ثمّ، بات الشبابُ يلتقون، كُلَّ سنةٍ، أَثناءَ العُطَل المدرسيّة، ليس فقط في فرنسا، بل، كذلك، في الدانمرك، وفنلندا، وإِيطاليا، وإِسبانيا، واليابان، ويَجْأَرون: "كفى، إِنّ استهلاكَنا للنَّافِلِ، وهدرَنا، يُمثِّلان ازدراءً للضَّروريِّ الَّذي حُرِمتْ منه جموعُ أَطفالٍ وشيوخٍ، ومرضى، ومنبوذين، في كُلِّ مكان".

وعلى كلّ راغبٍ في الاشتراك بتلك المُخَيّمات، تجاوز الثَّامنةَ عَشْرةَ، أَن يُدرِكَ ما يَتَطلَّبهُ ذلك، فيُقالَ له:

« إِنَّ هذه المُخَيَّمات وُلدتْ في مدرسة جماعات "عمّاوس"، ومن ثَمَّ عليك أَن تعلم أَنّك، بمجيئك إِليها، تلتزم بالعيْش على غرار جامعي نفايات "عمّاوس"، أَي:

حياة عَمَل: وعملُنا القاسي والصَّارم يتمثَّل في جَمع النّفايات من البيوت، من أَوراقٍ، وخرَقٍ، وخردة، وأَشياءَ مُتَنوِّعةٍ، تُفْرَز، بعد ذلك، وتُعَدُّ للبيع... هذا العمل، الَّذي ينبغي أَن يؤَدّى بدقّةٍ وأَمانةٍ وِجدانيّة، هو الوسيلةُ الأَساسيَّةُ للظَّفَر بثقة النَّاس

واحترامهم.

حياة فقرٍ طَوْعيٍّ: حياةٌ لا نفتقر فيها إلى أيِّ شيءٍ ضروريٍّ حقًّا، في حين أنَّنا نرفُض كلَّ مَظْهَرِ امتيازٍ من أيِّ نوعٍ، يمثِّل خيانةً لالتزامنا، وإهانةً بحقّ من نـدّعي خدمَتهم.

حياة خدمة: تفرض علينا إعادةَ النَّظَر في موقفنا من الظلم والبُؤْس، على الصَّعيدَيْن الأَخلاقيّ والاجتماعيّ، في مُجتَمَعٍ لنا فيه مسؤُوليّةٌ ستصبح، قريبًا، كاملة.

منذُ اليقظة حتّى ساعة النَّوْم، كُلُّ شيءٍ يُعاشُ جَماعيًّا، في المحبَّة، فالحياةُ الجماعيَّةُ تقتضي الاحترام:

– احترام الآخرين جميعهم

– احترام الوسائلِ المُعارَة: المكان، والهاتف، والعدَد، والسَّيَّارات الَّتي ينبغي قيادتُها بحذَر

– احترام الأَشياءِ الموهوبة من أَمتعةٍ، وأَلبسةٍ وأَغذيةٍ، فإنّما نحن وُسَطاء بين من يملكون فائضًا، ومن لا يمتلكون شيئًا.

– احترام نَوْم الآخرين: فإن أَخلد بعضُهم إلى النَّوْم قبلَ السَّاعة العاشرة والنِّصفِ لَيْلاً، افعلْ أَقصى ما تستطيع لتَفادي إزعاجهم

– احترام من هم دونك غنًى: فبما أَنّ أَفراد جماعات "عمّاوس" يعتاشون بمبالغَ أُسبوعيَّةٍ ضئيلةٍ، فاحرصْ، أَثناءَ اشتراكك في المُخَيَّم، أَن تعيش على غرارهم.

"إِنّ كُلَّ مخالفةٍ، وكُلَّ هَدْرٍ تعبيرٌ عن عَدَم احترام الآخرين."

وقد عَهِدَت المُخَيَّماتُ انطلاقتَها الكُبرى، بين أَعوام ١٩٦٥ و١٩٧٥، إبّان أَوْج حملة "الجوّالين" بقيادة "پول النورمانديّ"، وقد ضمَّ بعضُها أكثرَ من خمسة آلاف شابٍّ وشابَّةٍ، ضَفَروا جهودَهم واندفاعَهم في سبيل عمليَّاتِ جَمْع نفاياتٍ واسعةِ النِّطاق، كان يُرصَدُ ثُلْثُ رَيْعها لنفقات المُخَيَّم، وثلث آخَر لخدماتٍ اجتماعيَّةٍ في المناطق الَّتي تمَّ فيها جمعُ النفايات، والثُّلْثُ الأخير يوقَف على مساعدةِ العالَم الثَّالث. وما زال يُقامُ، الآنَ، نحو خمسةِ مُخَيَّماتٍ في كُلِّ صَيْفٍ، إلاّ أَنَّ حَجْمَها تضاءَلَ عمّا كان عليه آنَذاك.

وقد يُسفر عَمَلُ المُخَيَّمات عن نتائجَ ماديِّةٍ قيِّمةٍ، ولكن ليس للجانب الماديِّ في "عمّاوس" كبيرُ شأنٍ، بل ثمَّة لتأثير العَمَل على الحياة الدَّاخليّة الحميمة، وعلى أُسلوب التفكير والسُّلوك، لدى الَّذين عَمِلوا، وللفُرصَةِ المُتاحةِ للشُّبَّان كي يكتشفوا قِيَمًا من شأنها توجيهَ حياتهم، وَسْط مُجْتَمَعٍ مُتأَزِّمٍ، من الخطورة مِثْلُ ما لإِعطاء طعامٍ لجياع.

وبالتالي يُمسي معظم الَّذين يشتركون في مُخَيَّمات "عمّاوس"، وبفضل الصَّدْمة الَّتي يتلقَّوْنَها فيها، مناضلين في حَرَكاتٍ اجتماعيَّةٍ أَو نقابيَّةٍ أَو طُلاَّبيَّةٍ، أَو سياسيَّة، أَو إِنّهم يتطوَّعون لِلخدْمة، مُسهِمين في تعاوُنيّاتٍ أَو مُؤَسَّساتِ غَوْثٍ اجتماعيٍّ. وهم، بذلك، يثبتون أَنَّ مُثُل خِدْمة الآخرين، مُثُل "عمّاوس"، قد نَفَذَت إِلى قناعاتهم.

صوفيّة عمّاوس

صرَّحَ الأَبُ پيير، يومًا: "**إِذا ما نُسيَ ما حَدَثَ لجورج، لَزالتْ "عمّاوس"، وما حَدَثَ هو، في المقام الأَوَّل، القولُ لمن يظُنُّ نفسَه نافلاً، لا جدوى منه: ليس لديَّ ما أُعطيكَ سوى صَداقتي، ومُشاركتي جُهودي كي نُنقذَ آخَرين معًا**".

قيام "عمّاوس" إِذن، ينبثق من التقاء فريقَيْن: أَحدُهما آمَن أَن لا سعادةَ في معزلٍ عن الآخرين، ونَشِبَت الرَّغْبَةُ في خِدمتهم بمجامع قلبه، وأَثقلت احتياجاتُهم واستغاثَتُهم كاهلَه، في حين كان الفريق الآخر ينوءُ بفراغ حياته، وبالشُّعور المُضني بعَدَم جدواها.

ومنذُ الوَهلة الأُولى يبرز دَوْرُ المال والعَمَل.

فالمالُ ضروريّ، ولكنَّه غيرُ جَوْهَريٍّ، إِذْ يَكْمُنُ الجَوْهريُّ في الغايات، لا في الوسائل. والمُهم ليس "بمَ نعيش؟" بل "لمَ نعيش؟"

أَمَّا العَمَل فهو مشاركةٌ في الجهود لإِنقاذ الذَّات، وإِنقاذ الآخرين، وهو دعوةٌ تُلبّى، ومُهِمَّةٌ توكَل، والمُهمَّة رسوليّةٌ: "معًا نُنْقِذ الآخرين"، وإِنقاذُ الآخرين يقود إِلى إِنْقاذِ الذَّات، وإِلى لقاء "الأَزَليّ الَّذي هو حُبّ".

وقد تجلَّت عبقريَّةُ الأَب في جعل تلك النَّظريّة واقعًا مُعاشًا على نطاقٍ عالَميٍّ، بتذكيره القادرين أَنَّ الحياةَ حُبٌّ وخِدْمَةٌ، وإِلاّ فهي لا شَيء، وتذكيرِه اليائسين الهاوين إِلى قعر البُؤْس والقُنوط، والَّذين توهَّموا أَنّهم انتهوا إِلى دربٍ مسدودٍ لا مخرَج لَهم منه، أَنَّ الحياةَ تظلُّ جديرةً بأَن تُعاشَ على أَن يكون لها مُبرِّرٌ، والمُبرِّرُ هو العَمَل

على إِنقاذ الأَشدِّ بُؤْسًا، فهو الَّذي يُضفي على الحياة معنًى.

تلك الحقائِقُ كانت ثاويةً في الضَّمائر والصُّدور، وتمثَّلَ فضلُ الأَب پيير في إِطلاقها من عقالها، وإِضرامِ نارِها الَّتي امتدَّت أَلسنَتُها إِلى كلّ أَرجاء المسكونة. وهذا ما رمى إِليه بقوله: "**نحن لم نبتدعْ "عمّاوس"، ولكنَّ الحَياةَ هي الَّتي جاءَتْ بها. كانت تتفجَّرُ في كُلِّ مكانٍ حيثُ تستدعي الحياةُ جوابًا يُحاكي جوابَها، وحيثُما وُجِدَ إِنسانٌ متأَهِّبٌ لأَن يَهَبَ حياتَه، استجابةً لهذا النّداء**". ومِصْداقُ ذلك أَنّ مَوجات التَّوَسُّع الكُبرى التي نشرت "عمّاوس" في العالَم أَجمع من الشَّرق الأَقصى إِلى أَميركا اللاّتينيّة، قد تحقَّقت عام ١٩٥٨ حين كان المَرَضُ قد أَقعدَ الأَبَ پيير وعَزَلَه، ما أَفعمه حبورًا وأَملاً، إِذ أَثبتَ له أَنَّ حركة "عمّاوس" ليستْ مُرتبطةً بشخصٍ، أو ببضعة أَشخاصٍ، بل هي تحمِلُ، في ذاتها، علَّةَ وُجودها.

كان الأَبُ يبتهج عندما يتنامى إِلى علمه أَنَّ جماعاتٍ قد تأَسّستْ في أَماكنَ شتَّى. مُبَرِّرًا فَرَحَه بالقول: "**أَوَليسَ داعيَ رجاءٍ في مُستَقْبَلِ "عمّاوس"، أَنَّ انبثاقَ هذه الجماعات يَنْهَض دليلاً على أَنّها تلبيةٌ لنداءٍ جوهريٍّ، حاضرٍ، شاملٍ، يهدي القانطين إِلى مُبَرِّراتٍ للوُجود: الحبّ، وتجشّمِ العناء لكي تقلَّ معاناةُ الآخرين؟ أَوَلَيست التِّلقائيّة التي تُميِّز وِلادةَ هذه الجماعات دليلاً على أَنّ هذا الإِشعاع، وزَخْمَ الاستجابة للنّداء، ليسا قائمَيْن عليَّ، على شخصٍ واحدٍ، بل يستمدّان قيمتَهما من ذاتِهما، بفَضْلِ ريح الأَزَليّ الَّذي هو حبٌّ، الَّتي تَهُبُّ على الأَشرعةِ المبسوطَة؟**"

اليائسون الَّذين يلتمسون في "عمّاوس" الخلاصَ يُعانون مآسيَ مُتباينةَ الوُجوه والأَنماط، ولكنَّ عاملاً جَوْهريًّا مُشتَركًا ينتظمُهم جميعًا.

فهذا "مارسيل" كان يعيش في دَعَةٍ مع زَوْجته وابنه، وفجأَةً مُنيتْ زوجتُه بمرضٍ عُضالٍ، وجَهِدَ، هو، كالمجنون في سبيل مُعالجتها، ولكن عَبَثًا، وقضت نَحْبَها، فانهارَ، وانقطعَ عن العَمَل، وأَوْكَل ابنتَه إِلى دار رِعايةٍ، ولكنّه أَغفَلَ دَفْعَ الرُّسوم المُستحِقَّة، فدينَ، ولاذَ بالفرار.

وهذا "پول" الَّذي واكَبَهُ البُؤْسُ منذُ مولده، إِذ حُشِر، وليدًا، في علبةِ أَحْذيَةٍ، وأُلقيَ به في دلْوِ قمامةٍ، وأُنْقِذَ، بَيْدَ أَنّه ما انفكّ يتنَقَّلُ بين المياتم والأُسَر المُضيفةِ، حيثُ سيم الإِهانةَ والضَّربَ، ولمّا بلغ العشرين من عمره، بات مُتَمرِّدًا، لا أَمل له في شفاء.

وذاك "فرنان" الَّذي هوى، وهو في السَّابعة والعشرين، إلى قعر الهاوية، وإلى انحطاطٍ تامٍّ، فأصبح متَسوِّلاً، يَسْكَرُ ويُقامِرُ براتبه، إلى أن هجرتْه زوجتُه المُعَاقَة جسديًّا، عائدةً إلى ذويها

أَمّا "روجيه" فكان في الخامسةِ والثَّلاثين، ويظنّ نفسَه في مأْمَنٍ، فلديه زوجةٌ يحبُّها ووظيفةٌ مرموقةٌ، وإِذْ به يكتشف خيانةَ زوجته له، فينهارُ كُلُّ شيءٍ؛ وبعد أَن فَقَدَ الأُسرةَ والصَّديقَ، أَدمنَ على الكحول.

إنّ "عمّاوس" ملجأٌ لمثل أولئك الرِّجال الَّذين لم تَتَدَرَجْ حالاتُهم في لوائح المساعدة الاجتماعيّة، الَّذين تراكمتْ فوقَ رؤوسهم أَسبابُ الشَّقاء، ولفُقَراءِ عَصرْنا الَّذين لا يَغفِرُ لهم المُجتَمعُ ضُعْفَهم، ولا هم يقوون على تعويض هذا الضُّعْف بمواهبَ تحمل المجتمع على تقبّلهم؛ فلكُلِّ امرئٍ، في المُجتَمَع، مواطن ضُعْفٍ يُموِّهُها بمَلَكاتٍ تجعله مقبولاً.

بيدَ أَنّ هناك فُقراءَ سَحَقَهم ضُعْفهُم بحيثُ باتوا عاجزين عن التغلُّب عليه، فلفَظَهم المُجتَمعُ الَّذي يأبى أَن يستقبل في أَحضانه من لا يتوفّر فيهم حدٌّ أَدنى من الشُّروط، وهم عن تحقيقها عاجزون. كان بالإمكان استغلالُ ثمانين بالمئة من طاقاتهم إِن هم أُحيطوا بالرَّأفة والتَّسامح، إلاّ أنّه لا مكانَ، في أَنظمة المجتمع الصِّناعي، لتسامحٍ أَوْ لرَحْمةٍ، ففيه القَوْمُ الجَيِّدون، والقَوْمُ الأَقَلُّ جودةً، فيه الَّذين يُجيدون عَمَلَهم، والَّذين يُؤَدُّونه على قدْرٍ من الجودة أَدنى، أَمّا هم فلا يعملون شيئًا، ولا وجودَ لهم في سُلَّم المقاييس.

وبالتَّالي، لا يقدِمُ إلى "عمّاوس" من يمتلك مَسْكنًا، وقليلاً من المال، وأَمَلاً في الحصول على عَملٍ؛ إِنَّما يقدِم إِليها من لم يعُدْ يمتلكُ شيئًا، ولا أَمَلاً.

في السَّابق، كان أَمثالُ هؤُلاء يجدون، يومًا، عملاً هنا، ويومًا، عملاً هناك. يومًا يتبرّعُ لهم هؤُلاء بطَعامٍ، وفي الغد، يتبرَّع لهم أُولئك بكِساءٍ أَو مأوى. أَمّا اليوم، فعلى العامل أَن يعمَلَ كُلَّ يومٍ، بكُلِّ طاقاته، وإِلاّ لُفِظ كالنّفاية. وقد بات مُجْتَمَعُنا، الَّذي فَقَد روحَه الاجتماعيّة، يلفُظُ عشرين بالمئة من أَعضائه، لَفْظَ نفايةٍ غيرِ صالحةٍ للاستخدام.

أَمّا "عمّاوس"، فتستقبلُ، استقبالَ الأَخ، كُلَّ إِنسانٍ مُتأَلّمٍ، جائعٍ، مُشَرَّدٍ، وحيدٍ، مُفتقرٍ إلى الحُبّ، وهي موقنةٌ أَنّها، ما لم تَهبْهُ هذا الحبَّ، لم تهبه شيئًا، ولذلك هي

تُحبُّه، كما هو، بنقائصه وحَسَناته. قد يكون له ماضٍ، ولكنَّ ماضيَه هو شأنُه وسِرُّه، إِن هو آثَر كتمانَه، أَمّا إِن هو شاء البَوْح به، فمن الأَفضل أَن يبوح به لإِنسانٍ مُؤَهَّلٍ، من خارج "عمّاوس"، طبيبًا كان أَمْ مُساعدًا اجتماعيًّا، لكيلا يؤَثِّرَ هذا البَوْحُ على علاقاته برفاقه، ولَوْ لا شُعوريًّا. وإِن هو كان يشكو من عِلَّةٍ جَسَديَّةٍ أَو نفسيّةٍ، عولج فاستعاد في نفسه ثقةً أَوطد. وقد غدا لعمّاوس أَطبّاؤُها ومساعدوها الاجتماعيّون منذُ عام ١٩٦٠، وبات الرِّفاق يجدون من يُصغي إِليهم، فيُفهَمون، ويعالَجون، ويُساعَدون على نحوٍ أَفضل.

أَمّا الذين دفعتهم مآسيهم إِلى الإِدمان، فلا بدّ من إِعتاقهم منه، ولكن ليس في مِصحّاتٍ تزيدُهم شُعورًا بالانحطاط، بل في مشافٍ خاصَّةٍ، يُلاقون فيها الدِّفءَ والعنايةَ، والحُبَّ.

وأَمّا من كانوا مُثْقَلين بالأَحكام القضائيَّة، فعمّاوس تُجري الملاحقاتِ الكفيلةَ بتخفيف تلك الأَحكام، وتدفعُ عنهم الغَرامات المستحقّة، لكي تُعْتِقَهم من الرُّعْب المُقيم، والشُّعور المضني بالمطاردة، وتُدخِل إِلى أَنفسهم الطمأنينة، وتُؤَهِّلهم للاستقرار.

والنِّعمة الكُبرى الَّتي يحظى بها مَن يغشون "عمّاوس" هي التحرُّر من الشُّعور بالوحدة، الَّذي حَطَّم كثيرين منهم منذُ طفولتِهم، إِذ لم يعرفوا، يومًا، أسرةً حقَّةً، وعندما حاولوا خَلْق أُسرَتِهم الخاصَّة، فَشِلوا لأَنّهم لم يعهَدوا الحُبَّ، قطُّ، من قبلُ، ممّا زادَهم تَحَطّمًا.

هؤُلاء جميعُهم يفتقرون إِلى قدْرٍ وفيرٍ من الصَّبْر والحُبّ، لم يوفّره لهم سوى "عمّاوس" الَّتي حقّقت لهم المعجزات، بحيثُ صرَّح أَحدُهم، وكأَنّه لسان حال معظمهم: "لو لم أَلتقِ "عمّاوس" في طريقي، لكنتُ إِنسانًا منتهيًا، ميؤوسًا منه. أَمّا الآن فإِنّني إِنسانٌ سَوِيٌّ كالآخرين".

بل يمكن القولُ إِنّ رفاق "عمّاوس"، بعد أَن كانوا حُطامًا تائهًا، غدَوْا أَفضل من الآخرين، لأَنّهم كانوا "غارقين" فأَمسوا "مُنْقِذين". كانو ا يائسين، فظفروا بالمأوى والطَّعام، وشيئًا فشيئًا، أَصبحوا مُفيدين للآخرين، يخلقون لهم الفَرح، ويبذُرون السَّعادة.

ويحظى القادِمون إِلى "عمّاوس" بنعمة الصداقة، الَّتي تتخطّى فجواتِ التَّبايُن الاجتماعيّ وشتّى مواطن الفُرقة. والصَّداقةُ، هنا، صورةٌ مسيحيّةٌ للإِخاء الشّامل.

وبفضل الصَّداقة، غالبًا ما تصبحُ "عمّاوس" محطَّةً لاستعادة الاتِّزان، والإيمان بالحياة، والانطلاق نحو مستقبلٍ جديدٍ سليمٍ؛ وتدريجيًّا تتحوّل إِلى إِدراك أَنّ الصَّداقة الحقّة تقتضي التبادُلَ والمشاركة.

وعندما يقرع أَحدُهم باب "عمّاوس"، يُقال له: « **لن تكون، بعدَ اليوم، إنساناً يتلقّى الإِحسانَ. بل ستأْكلُ خبزَك بعَرَق جبينك؛ فعمّاوس ليستْ ملجأً أَو مصَحَّةً، بل وَرشةً حريصةً على العمل المُتْقَن. قد تكون في حاجةٍ إِلينا، ولكنّنا، نحن أَيضاً، في حاجةٍ إِليك، لأَنَّ لدينا الكثيرَ من العَمَل، وبفضل عَمَلنا سنُنْقِذُ أُسَرًا كثيرةً من التمزُّق والتشرُّد** ».

بالعَمَل يُلبّي القادمون إِلى "عمّاوس" احتياجاتهم المادِّيَّةَ من طعام وسَكَنٍ ولباسٍ، وعنايةٍ صِحِّيَّة، واحتياجاتهم الأَمنيَّةَ والنَّفسيَّةَ، بعد أَن كانوا مُهَشَّمين مُهانين في مُجتَمعٍ لا عَهْدَ له بالرَّأْفة، وتُساورُهم هواجسُ الحياة المُؤَرِّقة؛ وبفضل العَمَل يجدُ الكَثيرون من الرِّفاق، في "عمّاوس"، أُسرةً ينتمون إِليها، ويفخرون بالإِسهام في نشَاطها وإِنمائها، ويسعَدون فيها بشعُورِ تخفيف شقَاء بُؤَساءَ آخَرين، عاثري الحظّ.

قد يكونون قد عانوا فَشَلاً ذريعًا، واستمدُّوا منه عِبَرًا، ومن ثَمَّ، فهم رأسمالٌ إِنسانيٌّ ينطوي على جمٍّ من المُفارقات، رأسمالٌ هَشٌّ، شديدُ التقلُّب، ولكنّه غَنيٌّ بأبعاده الإِنسانيّة لأَنَّه مَعْدَنٌ صُهِر في بوتَقةِ الأَلَم، حافلٌ بالطَّاقات الَّتي ما برِحَتْ بِكْرًا، ومُتأَهِّبةً للاندفاع في برامج إِغاثةٍ ثَرِيَّةِ النَّتائج.

العَمَلُ هو الشَّرْطُ الأَساسيُّ لمن يروم الانعتاقَ من حياة التَّشَرُّد والضّياع، والعَيْشَ في جماعةٍ فاعلة. وبالعَمَل تغدو "عمّاوس" مَسرَح كرامةٍ مُستعادَة، تتجلّى في شجاعة العاملين، شجاعةٍ برهَنوا عنها في انعتاقهم من مسيرة التِّيه، والتسوّلِ أَحيانًا، والَّتي استبدلوها بالالتزام بقيود حياةٍ جماعيَّةٍ تسير على إِيقاع العَمَل.

عام ١٩٨٣ زار السيِّد "پيير بيريغوڤوا"، رئيسُ وزراء فرنسا الأَسبق، وكان، آنذاك، وزيرًا للشؤون الاجتماعيّة، إِحدى وَرَشات جماعات "عمّاوس"، وشَهِدَ أَمثلةً عن الشَّجاعة اليَوْميّة، في العَمَل المُنْجَز؛ ثمَّ لمّا غدا وزيرًا للماليّة والاقتصاد حرص على التَّعبير عن تقدير الدَّوْلة لأُولئك العُمّال الجماعيّين بتقليده مُمثِّلاً عنهم وسامَ العَمَل.

إِنّ قاعدةَ العَمَل، في "عمّاوس"، والاستقلالَ النَّاجمَ عنه، شريعةٌ مُقَدَّسةٌ تُبْرِزُ

جَوْهَر جماعات "عمّاوس" أَيَّةً كانت الأُسَر التي تنتمي إليها. عَمَلٌ للعَيْش، وعمل للاقتسام والمشاركَة. وللعَمَل، في عمّاوس، مغزًى خاصٌّ، فتلك الأَشياء الَّتي كانت مَرميَّةً، والتي تُلتقَط، وتُصلَح، وتصبح ذاتَ قيمة، أَليستْ رمزًا للعاملين الَّذين يُعالجونها، والَّذين كانوا منبوذين، فنهضوا، وأَصلحوا ذواتهم، وتحوَّلوا، وغَدوا مُنْقذين للأَشدِّ منهم بُؤْسًا. أَلَيْسَ هذا ما عَنُوه بقَوْلهم: "نودُّ أَن نجني ما نستطيعُ من أَرباحٍ، بفضل تنظيم عَمَلنا، دائمًا على نحوٍ أَفضل، كي نتمكَّن، نحن الفقراء، المنبوذين، الهامشيّين، وبواسطة أَرباحنا، من أَن نرتقي إلى تَرَف كوننا مُحْسِنين، فنُنْقِذ من لا يأبَه بهم المُجْتَمَع".

غير أَنّ العَمَلَ، على خطورة شأْنه، لا يُخَوِّل أَيَّ امتيازٍ. على هذه القاعدة أَجمعتْ أَمرَها جميعُ أُسَر "عمّاوس".

"فعمّاوس الإخاء أَعلنت: "عَمَلٌ يشترك فيه الجميع... نحن فخورون بكَسْب خبزنا، وبالحفاظ على حرّيتنا... سنسهر على أَلاّ يَحكُمَ أَحدُنا على الآخر على أَساس ما يُنجزُه من عمل". "إن كان هَدَفُ العَمَل أَن يجدَ فيه كُلّ فردٍ ازدهارَه، فما من حاجةٍ إِلى اقتضاء قَدْرٍ مُعَيَّن من "الإِنتاجيّة"، إذ سيفخر كلٌّ واحدٍ بإِعطاءِ أَقصى ما يستطيع إِعطاءَه".

و"عمّاوس الحرِّيَّة" أَكّدت: "لن يكون لدينا أُجورٌ بالمعنى الشَّائع، ولا سُلَّمُ أُجورٍ مبنيٌّ على كفاءَة الرِّفاق والعَمَل المُنجَز" و"اتِّحاد أَصدقاء عمَّاوس" صَرَّح: « ينبغي أَن يكونَ كُلُّ فردٍ مرتاحًا في عَمَله، بحيثُ يستطيع احتمالَ أَعبائه وفقًا لطاقاته... وعلى من يستطيع تحمُّلَ قَدْرٍ أكبَر من المسؤُوليّات أَن يضطلع به خِدْمةً للجماعة، لا التماسًا لامتيازاتٍ شخصيّةٍ ».

أَمّا "الاتّحاد المركزيُّ" فأعلن: "إِنّ تولّي مركز عملٍ ما يخضَعُ لطاقات كُلِّ شخصٍ... ولا يُخوِّل أَيُّ مركزٍ امتيازًا، أو يُمثّل فُرصةً لامتيازات".

ويرى الاتّحاد في العمل "واجبًا من شأْنه الإِسهامُ في إِعادة بناء شخصيَّة عضو الجماعة، واستفزاز الاهتمام والدَّافع لديه، والشُّروعُ بإبراز هويَّته الاجتماعيّة".

وبالإجمال يجد، في "عمّاوس"، من جاءَ مُلتمسًا طعامًا ومأوًى، ما ينتشلُه من هُوّة انحطاطه، ويُسبغ على حياته معنًى وهدَفًا. فهو يبدأُ بتوطيد ثِقته بنفسه، بفضل

العمل الجادِّ المُتْقَن الّذي يُسْهِم في ازدهار الجماعة، وفي تألُّق صورتها؛ وإتقانُه عَمَلَه يجعلُه "يُصعِّد في الحبّ"؛ وإن كانت مؤهَّلاته غيرَ متألّقةٍ، فهي لا تفضي بـه إلى التحطُّم، كما يُحدثُ في المُجتَمع الصِّناعيّ. بل هو يُصعِّد في الحُبِّ بقَدْر ما يودع عَمَلَه حُبًّا. وعملُ جامع النِّفايات نفسه خيرُ مثالٍ لهذا التَّصعيد؛ فالمادَّةُ الَّتي يُعالجها، ولو هي كانت نفايةً زريّةً، تكتَسبُ شأْنًا ونُبْلاً، إذا ما عولجَتْ بعنايةٍ، ولكنَّها تـزدادُ خساسةً، وتتلف، إذا ما تناولتْها أَيدي الإهمال. كذلك هو شأْنُ القادمين إلى "عمّاوس" الَّذين غرقوا في الفَشَل، وفقدوا الاتّزان النَّفسيَّ، من جرّاء فراغهم العـاطفيِّ، وكـان علاجُهم الحبَّ، وتوفّرَ مُبرِّرات العَيْش والحبّ.

إنَّ سِحْرَ "عمّاوس" يكمُن في تحويل الأَشياء المرذولةِ الخسيسةِ إلى ذَهَبٍ، "هـذه المادّة الأَوَّليّة المَجّانيّة، الأكثر إيغالاً في الفَقْر"، على حدِّ قَوْل الأَب "دوڤـاليه"، ينبغي أَلاَّ تُهمَل أبدًا. فبفضلها هناك إنسانٌ لا مُؤَهّلات له سوى جمعها ومعالجتِها، يكـسب منها قوتَه. وإن نُبِذَتْ تلك المادَّةُ الخسيسة، هوى عالَمٌ كاملٌ من العمّالِ ذوي الكفاءات المحدودة. فإن أَنت رذَلْتَ نفاياتِ الورَق، ضحَّيْتَ بجامعيه وفارزيه الَّذين لا يُجيدون مهنةً أُخرى. ثُمَّ، سواء كانت خسيسةً أَم لا، هذه النِّفايات، وهذه الخُرْدَة مُعطاةٌ، ونحن مسؤولون عَمَّا نُعطاه".

وتكمُن عظَمةُ مهنة جامعي النّفايات في كونها، جوهريًّا، خدمةً كفيلةً بالقضاءِ على جميع مُركّبات النّقص، وعوامل الانحطاط. "الخدْمةُ تكمُن في الحُبّ، والحُبّ في كـلِّ عمل"، وفي الفرز الَّذي يضطلع به الرِّفاقُ بهوىً واندفاعٍ، من أَجل الإفادة من كُلِّ مـا يُعطى، كُلِّ ما من شأنه أَن يَخْدُم. فمن هذا القماش الَّذي يُفرَز بحُبٍّ يُمكن استخراجُ ما يُستَخْدَم في صُنع أَلبسةِ أَطفالٍ؛ ومن ذاك القماش المحـاك يُمكـنُ اسـتخراجُ خيـوطٍ صوفيّةٍ، تحيكُه، من جديد، عجائزُ، فتبتدعْنَ منه ما يدفئهنّ ويدفئ أَحفادَهنّ. أَولَيس في ذلك تحدٍّ للمتْخَمين، الَّذين يُثْبتُ لهم من عدُّوهم نافلين، أَنّهم قادرون على عَملٍ مُفيـدٍ، فعساهم يُفيقون، ويشهَدون الشَّقاء القابع عند أَبوابهم.

بالمالِ القليلِ النَّاتج عن بَيع النّفايات، يُؤَمّنُ الرِّفاقُ طعـامَهم، ويُحـسِّنون وَضْـعَ معيشتهم، ويُوَظِّفون قِسْطًا في العطاء، وفي إعتاق المُتَورِّطين من ورطاتهم. غيـر أَنّ ما تمتاز به "عمّاوس" عن سائرِ المُؤَسَّسات الخَيْريّة هو أَنّ عطاءَها المـادِّيَّ مقـرون،

أَبدًا، بصَداقةٍ تدفَع بالَّذي يَتَلَقَّى العَطَاءَ إِلى العطاءِ بدَوْرِه. من البَدَهيّ أَنّ هنالك حالاتٍ طارئةً لا بُدّ من مواجهتها بلا شُروطٍ ولا حساب. فإِن كان، ثمَّةَ، أَطفالٌ جائعون تعيَّنَ إِطعامُهم؛ وإِن احترقَ مَنْزِلٌ، توجَّب إِيواءُ ساكنيه، ولو تحت خيمةٍ مؤَقَّتًا. إِلاّ أَنَّ "عمّاوس" تؤمن بقول الأب پيير "إِنّ عالَمًا جديدًا لا يمكن بناؤُه فوق مقبرة". ومن ثَمَّ، تُؤَمِّن "عمّاوس" منزلاً لوالدٍ كي ينتزع أَطفالَه من المأوى الَّذي اضطُرَّ إِلى إِيداعهم فيه، فيستطيع أَن يعيش معهم، ويُضفي عليهم حُبَّه. و"عمّاوس" تُصلح بَيْتًا خَرِبًا تُقيم فيه نِسْوةٌ عاجزاتٌ تستقدمن إِليه، بمناسبة الأَعياد والعُطَل، مَرْضى من المشافي القريبة، فتشتركنَ معهم في الغناء والفرح... وبذلك تفسحُ "عمّاوس" للحبّ فُرصَةً. و"عمّاوس" تُقدِّمُ مدْفأَةً لعجوزٍ وحيدةٍ لأَنّها تدعو أَربعةً آخَرين لاقتسام الدِّفءِ معها، ولأَنّها تقول فرِحةً: "هم أعطوني المدْفأَة، وأَنا أُعطي الدِّفءَ".

لذلك، أَخفقتْ كلُّ محاولةِ سدّ حاجةٍ طارئةٍ لم تُضْرِم في صُدور من ساعدتْهم شعلةَ الحبّ والخِدْمة، كي يبادروا، بدَوْرهم، إِلى خِدْمة الآخرين. ولذلك، أَيضاً، عَمَدَتْ "عمّاوس" إِلى إِغلاق كلِّ جماعةٍ لم تعد قادرةً على إِطعام أَعضائها، ومدِّ يد العَوْن إِلى الآخرين، لأَنّ الرِّفاقَ فيها باتوا عاجزين عن "التَّصعيد في الحبّ".

وبتصعيدهم في الحبّ يغدو الرِّفاقُ مدرسةً للمُتَطوِّعين، على حدِّ ما فعلتْ مجموعةٌ من البُرْص الَّذين عولجوا وشُفُوا، ولكنَّهم هَجَروا المشفى حيثُ سَئِموا العنايةَ الَّتي كانوا يُحاطونَ بها، وتجمَّعوا في مزرعةٍ حيثُ باتَ بِوُسْعِهِمْ العَيْشُ أَحرارًا. ولمّا كان معظمُهم مُقْعَدين، وعميانًا، ومعاقين، استدعوا فريقًا ممَّن تطوَّعوا لِخدمة العالَم الثالث، وقالوا لهم: "تعالوا عيشوا معنا، وعندما تُمْسُونَ قادرين على احتمال أَوضاعنا المُريعة، سيغدو بإِمكانكم المُثول إِلى أَيِّ مكانٍ في العالَم". وهكذا أَمسى أُولئكَ البُرص مُثَقِّفين للآخرين، الَّذين عندما شخَصوا إِلى أَنغولا، وواجهوا، ثمَّةَ، بُرْصًا حقيقيّين كفيلين بنقل عدوى عِلَّتِهم، لم يعترِهم أَيُّ خوفٍ، لأَنّهم "تثقَّفوا".

وعلى هذا المنوال تَثَقَّف، بالقُرب من الرِّفاق عددٌ من المسؤولين الجدُد، الَّذين استخدمهم الاتِّحادُ المركزيُّ، فتَمرَّسوا بالعَيْش بين ظهرانيهم، وتشبَّعوا من روح "عمّاوس"، بجِوار "إِخوةٍ" مُفْعَمين بذلك الرّوح؛ وهكذا تمكَّنتْ جميعُ فروع "عمّاوس"، مع تبايُنها، من الوَفاء لرسالة "عمّاوس"، والمُضِيِّ في أَدائها.

ويبقى أُسلوبُ "جامعي النّفايات" الَّذي تنتهجه مُعظَمُ جماعات "عمّاوس"، هو الأُسلوب الأَمثل لعَيْش الفرنسيسكانيّة اليوم. فالرِّفاق يعملون، بأَيديهم، عَمَلاً شاقًّا، ومع ذلك، هم مُتَسوِّلون لأَنّهم لا يبتاعون ما يسُدّ مُعظَم احتياجاتهم، بل يتصرَّفون بما يلتقِطون، أو بما يُوهَبون، غالبًا تحت وابلٍ من الصدِّ والإِهانات.

مثلُ هذه الجماعات، هي ضروريَّةٌ ومُمْكنةٌ في كلّ مُدُن العالَم، إِذ إِنّها تجعل من بَشَرٍ كانوا يظُنّون أَنّهم مَقْضيٌّ عليهم، ومن أَشياءَ مرذولةٍ مَرْميَّةٍ، وسائلَ تحرُّرٍ، وشهادةً على إِمكانيّة إِنشاء علاقاتٍ إِنسانيّةٍ جديدة.

وفضلاً عن ذلك يؤَدّي جامعو النِّفايات خِدْمةً جُلّى للبيئة، فما يلتقطونه من نفاياتٍ، ويُنقذونه، بذلك، من التعفُّن والحَرْق وإِشاعة التلوُّث، يقتصد قَدْرًا كبيرًا من هَدْر الطَّاقات الضَّروريَّة للبشريَّة، ففي فرنسا، وحدَها، تُمثِّلُ النِّفاياتُ الَّتي يجمعونها، ويُصنِّفونَها، ويعيدونَها إِلى الاستخدام، إِنقاذًا لأَكثر من مئة أَلف شجرةٍ يوْميًّا.

وهم، بذلك، ينهضون قُدْوةً في التحاشي عن الهَدْر، ويُثْبتون أَنَّ السَّعادةَ لا تكمُن في استهلاكٍ وبذخٍ مُفْرطَيْن، وفي السَّعْي الدَّائب وراءَ كُلِّ جديدٍ؛ ويتفادون البِطالةَ بإِيجاد عَمَلٍ مُفيدٍ لكلّ فردٍ من أَفراد جماعاتهم، وينهجون، في توزيع الواردات، نهْجًا عادلاً، إِنسانيًّا، يَشْرعُ بتوفير الضَّروريّ لكلِّ فرد، بدءًا بالأَشدِّ فقْرًا وحاجةً، بحيثُ يبقى ما يكفي مَن يتبوّأون مراكز المسؤوليّة، خلافًا للأُسلوب الشَّائع الَّذي يخُصِّص معظمَ المغانم لمن يجثمون على قِمَّة الهرَم، ويقذِفُ بالفُتات إِلى القابعين عند قاعدته.

وعلى جماعات "عمّاوس" أَن تَشهد بما تعيش: إِمكانيّة العُثور على مُبَرِّرٍ للعيش في علاقاتٍ إِنسانيَّةٍ خاليةٍ من الطَّمَع والاستغلال، والتسلُّط. على جماعات "عمّاوس" أَن تصبح حركةَ تحريضٍ على التَنَكُّب عن اللاّمبالاة اللاّواعية، وعن الحياد الجبان الَّذي لا يُحرِّك ساكنًا حيالَ المظالم المُحيقة، فليسَ سوادُ الناس من المُتسلِّطين، القُساة القُلوب، ولكنَّهم قد لا يَروْنَ المظالم الَّتي يُخفيها المجتمع، أَو إِنّهم يَرَوْنَها ولا يأْبهون، والمطلوبُ هو استنفارُهم وتعبئتُهم.

وهذا ما دفع الأَبَ پيير إِلى تحذير الكثيرين من الأَثرياء، والوُزراء والحُكّام بقوله: "**ستَظَلُّون أَبدًا حمقى، سياسيًّا، في مراكزكم الرَّفيعة ما لم تمضِ ابنتُكَ أَو**

ابنكَ، في العشرين من العمر، للعَيْش، ولو مُؤَقَّتًا، بين ظهراني من يَتَضَوَّرون جُوعًا، بحيثُ عندما أَنتَ توافي مكتبكَ، يا معالي الوزير، تجدُ بين التَّقارير والإحصاءات، رسالةً تُبلّلها الدُّموع، رسالةً من ابنتك الَّتي تكتب لك: "بابا، هكذا تتألَّم أُمَّهاتٌ أَعيش مَعَهنّ، وهكذا يموتُ أَطفالهنّ". ومن ثَمَّ لا تبقى معرفتُكَ السِّياسيّة مبنيَّةً على ما بين يدَيْك من تقارير وإِحصاءات، بل تُصبحُ حَيّةً، داميةً؛ فلو كانت ابنتُك هي إِحدى الأُمّهات الَّتي تتكلّم عنهنّ، فمن المُحقق أَنَّك ستجد في الحال وسائلَ للقضاء على مِثْل تلك المُعاناة".

بالإِجمال، ليستْ "عمّاوس" جمعيَّةً خيريّةً، ولا هي حَرَكَةٌ سياسيَّةٌ، أَو طائفيَّةٌ، بل هي قوَّةٌ روحيّةٌ إِنسانيّةٌ، مُهمَّتُها إِيقاظُ الضَّمائر، وقد أَثبتتْ، طوالَ نحو نِصْف قَرْنٍ من عمرها، أَنَّها لقاءٌ بين "الأسطورة" و"الحداثة"، بين المَحَبَّةِ المسيحيَّةِ، والتَّضامنِ الاجتماعي.

وصُوفيّة "عمّاوس" تَنْهَض على تَصَوُّرٍ روحيٍّ للكائن البَشَريّ، يتخطّى تُخُومَ المُعْتَقَدات الدّينيَّةِ، أَيّةً كانت، فهي تقوم على الإِيمان بأَنَّ البشريَّة لا تنقسم، جوْهريًّا، إِلى فِئَةٍ من يُدعَوْن "مؤمنين" وفئةٍ من يُدعَوْن "غير مؤمنين"، بل بين من يُشيحون بأَبصارهم عن آلام الآخرين، ومن يُناضلون مع المتأَلِّمين كي يتحرَّروا معهم من أَلَمٍ باتَ أَلَمَهم؛ وفي هذا السّياق يورد الأَب هذا القول: **"كفاحي من أَجل خبزي قد يُعتَبَر مادِّيَّةً، أَمّا كفاحي في سبيل خُبْزِ الآخرين، فهو روحيٌّ"**

فحالما يجعل المرءُ من جُرْح الآخرين جُرحَه، لا يعودُ بوسعه أَن يتخاذَل، ويشُقّ عليه أَلاّ يُفلح في تخفيف ما يُصادفه من آلامٍ، ومن ثَمّ فهو يقف أَمامَ الله عاريًا، رازِحًا تحت وِقْر ضُعْفه، مُلتَمسًا العَوْن لكيلا ينهارَ أَمامَ تجربة الهَرَب من المغامرة، ولا يتخاذَل أَمام الدَّعوةِ إِلى تعلُّم الحُبّ وعَيْشه.

هذه الصُّوفيَّةُ يلْمسُها كلُّ من يغشى جماعاتِ "عمّاوس"، وهذا ما عبَّر عنه المطران "إِيزيدور دي سوزا" رئيسُ أَساقفة "كوتونو" في "البينان" (أفريقيا)، بعدَ أَن قضى عشرة أَيّامٍ مع بعض الجماعات في إِيطاليا وفرنسا، إِذ كتَبَ:

« ما زلتُ تحتَ تأثير كُلِّ ما عشتُه طيلة عشْرة أَيّامٍ مع الجماعات الَّتي زُرْتُها. إِنّني أَعتبر كُلَّ ذلك نِعمةً لا تُقدَّر، بل حجًّا حقًّا إِلى حيثُ كان الله قد ضَرَب لي

مَوْعِدًا. وقد تسنّى لي أن أكتشف الإنجازاتِ الكُبرى الّتي تَتَحقّق في خفْيَة جماعات "عمّاوس"، ممّا لم أكُنْ حتّى لأتخيَّله من خلال مُطالعتي الصُّحف، ومجلاّت الأَب پيير ورفاقِه جامعي النّفايات.

"لقد ازدادَ مَيْلي الفِطريُّ نحو الصِّغار والفُقراء اندفاعًا. عبرَ الجماعات تعلَّمتُ أَنّ الإنسانَ، أَيًّا كان، يستأْهل الاحترامَ، وأَنّه قادرٌ على إنجاز أُمورٍ عظيمةٍ. وقد ترسَّخ إيماني في الإِنسان، وتعزَّزَ رجائي فيه، وفي جدوى الجُهْد في سبيل نُمُوِّه؛ ومن ثَمَّ فإِنّني، أكثرَ من أَيِّ وقتٍ مضى، عاقدٌ العَزْم على الاضطلاع بكُلّ ما أَستطيعُ في هذا المجال ».

لقد وُلدت "عمّاوس" في الظُّلمةِ، من خلال وقائعَ ضئيلة الشَّأْن، ثُمَّ أَصابتْ شُهرةً لا تُضاهى، ولكنّ تلك الشُّهرةَ الصَّاخبةَ لم تَنَلْ من ديناميكيّتها، "ديناميكيّة الحلم"، لم تحطِّمْها ولم تُشَوِّهْها، بدليلِ عَوْدَتها، طوعًا، إلى الظلِّ، وعملها في الخفاء، طيلةَ ما يُناهزُ نِصْفَ قَرْنٍ، بلا هوادَةٍ، بحيثُ غَدَتْ ملجأً أَمينًا، وبمُتناوَلِ يَدِ جموعٍ نَشِب بها الشَّقاء، مثلما غَدَتْ مُحرّضًا على تغيير أَنماط السُّلوك البشريّ، وضمانًا لعلاقاتٍ إنسانيّةٍ جديدة.

ومن ثَمَّ، فذلك الشَّيءُ الَّذي بدأَ "مُفْرِطَ الصِّغَر"، باتَ، اليومَ يلبس ثوبًا عالميًّا، وهو حاضرٌ في كلّ أَرجاء المسكونة، من أَميركا إِلى آسيا، ومن أُوروبا إِلى أَفريقيا، حيثُ تتكرّر نفسُ الأَعمال الّتي كان يضطلع بها الرّفاقُ، تحت أَنظار قياديّين جُدُد.

وبعدما أَصابتْ "عمّاوس" من تعاظُم الشَّأن، وتضاعُفِ أَعداد أَعضائها، أَمسى هاجسُ الأب پيير أَلاّ تهوي إِلى الانحطاطِ، وأَلاّ يُفضي تعدُّدُ الشَّخصيّات وتناقضُها، أَحيانًا، إِلى صداماتٍ وبيلةٍ، فلا يَدينُ المُتَشدِّدون في الوَفاء لمُثُل الحركة الأَصيلة، من يعملون بقَدْرٍ أَدنى من التَّشدُّد بدافع تلك المُثُل عينها، وبالمقابل لا يُصبح هؤُلاءِ المُتَشدِّدون، في نظر الآخرين، شاذّين وموضِعًا للسُّخريَّة، فهم الملحُ والخميرةُ، وسلوكُهم، بنقائه، شهادةٌ لا بُدّ منها.

وبالتَّالي، لا يني الأَبُ پيير يُذَكِّر بقصَّةِ مَوْلد الحركة، وبالدّيناميكيّة الفَذَّةِ الَّتي كانت دافعَها ومُحَرّكَها، فتظلُّ، بوفائها للفَقْر الطَّوعيّ، ولحياة المشاركة، وبالجاهِزيَّةِ

الدَّائمة للخِدْمة، سَنَدًا للرِّفاق المُخلصين لهذه القيَم، وحافزًا للّذين لا قبَلَ لهم على مثْل تلك الحياة، غير أَنَّهم يرغبون، صادِقين، في تبنّي قِيَم البدايات، بحَيثُ يُظهِر أُولئك وهؤُلاء معًا، للعالَم أَجمع، أَنَّ سُنَّة حياة كُلِّ مجتَمَعٍ هي أَن ينتظم، بحيثُ يُخدَم، في المقام الأَوّل، الأَكثر معاناةً، وأَن يُعلَن الكفاح، في هذا السبيل، بمشاركة هؤلاء أَنفسهم، الَّذين كانوا منبوذين، وكأَنَّهم نفاياتٌ نافلةٌ، إِلى أَن يعترف المَحْظيّون بأَنَّ عليهم أَن يُصبحوا خُدّامًا للآخرين.

فعلى "عمّاوس" أَن تبقى موئلاً لاستقبال جرحى المُجتَمع، بلا حدود، وأَن تظلّ، بقُدْوَتها، مَثَلاً يُحتذى في المشاركة، وأَن تُبْرِزَ للملأ، بعَمَلِها وكفاحها، بُؤْسَ المستَغَلّين والمنبوذين، فلا يرضى باستمرار أَوضاعهم على هذه الحال، لا الرَّأيُ العامّ، ولا الحاكمون، فيبادروا إلى اجتثاث أَسباب تلك الأَوضاع نفسها... وعلى الجماعات أَن تظَلَّ تضطلعُ بمُهِمَّة الإِنقاذ، وتبقى خمائرَ قلَقٍ، على نقيض الأَحزاب والمؤسَّسات التي تحصُر اهتمامَها في البقاء مُتَربِّعةً على دسْت الحُكم بأَيِّ ثمن.

فمُهِمَّة "عمّاوس" مُهِمَّةٌ نَبَويّةٌ، وليس من شأْن النَّبيّ التَّطَلُّع إِلى الحُكْم، ولا إِلى قيادة معارَضَةٍ، بل مُهِمَّته زَرْع القَلَق في وِجدان الحاكمين والمعارِضين على السَّواء.

وقد تساءَل الأَبُ پيير: "هل ينبغي أَن نرى في "عمّاوس" "مشروعًا"؟ إِن نحن عَنَيْنا، بذلك، تَصَوُّرًا جَوْهريًّا للحياة، فلا رَيْبَ أَنَّ لعمّاوس مثلَ هذا التصوُّر، وهو يتمثَّل في اقتضاء "خدمة الأَكثر تألُّمًا، في المقام الأَوّل". وإِن نحن عَنَيْنا بلفظة "مشروع" مجموع وسائلَ أَوّليَّة تُمكِّن من العمَل الجادِّ، في هذا السَّبيل، فلدى "عمّاوس" مثلُ هذه الوسائل. أَمّا إِذا عنَيْنا معرفةً علميَّةً خاصَّةً بنا، فلا... ولكن هل مثلُ هذه المعرفة هي المطلوبةُ منّا، أَساسًا؟ ولئن كان لعمّاوس ديناميكيَّةٌ، ومُداخلات مُجديةٌ، فلأَنَّ أَعمالاً قد أُنجزَتْ وفق نظامٍ ونَسَق، وجعلتْ صوْتَنا جديرًا بالسَّماع والتَّصديق، وفوقَ كُلِّ ذلك، لأَنَّنا حَرِصْنا على الحِفاظ على موقفٍ حيويٍّ، مُنفَتحين على الآخرين، سريعي التأَثُّر بما يُصيبهم، مُنصِتين إِلى الأَلَم السَّائد، في مكانٍ وزمنٍ محدَّديْن، ومردِّدينَ صداه".

وقد صرَّحَ الأَبُ پيير، أَيضاً: « **"عمّاوس" لا يُمكن تفسيرُها. "عمّاوس" تُعاش. إِنّها حَدَثٌ يستعصي إِدراكُه على البعض، وغير مألوفٍ لدى آخرين... ينِدّ**

عن التحليل من جرّاء تناقضاته الظَّاهرة: فالَّذين يُعطون هم من لا يملكون شيئًا، والبُؤَساءُ هم الَّذين يُساعدون من هم أَشدُّ بؤسًا، ويُحرِّضون ضمائرَ الميسورين.

"إنَّ الَّذين قدموا إلى "عمّاوس" وجدوا فيها تعاليمَ فريدةً، والتقُوا أفرادًا مُختَلِفين، ولكنَّهم مُتضامنون؛ وباحتكاكهم بهم وعُوا أو استعادوا وَعْيَ الحياة الجماعيَّة، وأَدركوا معنى الجماعة البشريَّة، كما أَدركوا أنّ اكتمال الشخصيّة لا يتحقَّق إلاّ بالخِدْمة. ووجدوا، أَيضاً، أَصدقاءَ كانوا يجهلونهم. هذا الزَّخْم، جامعو النفايات هم الَّذين استفزّوه ».

وقولُه إنّ "عمّاوس تُعاش ولا تُفسّر" يعني أَنّ الالتزامَ بها ليْسَ عَقلانيًّا، بل إنّه يُعاش، أَوَّلاً، بالقَلْبِ والأَحشاء، ويقتَضي قناعاتٍ ودوافعَ، وتلازُمًا بين سُلوكِ كُلِّ فردٍ وما يحملُه من إيمانٍ. ولذلك أَعلن الأَبُ "أَنّ مُستَقْبَلَ "عمّاوس" خاضعٌ لشروط الحيويّة والإيمان لتغذية العقائد، وإبقاءِ شُعلةِ الاندفاع مُضطَرِمةً، وطاقةِ الإبداع فاعلةً، إذ لا غنى لعمّاوس عن شُهودٍ جديرين بالتَّصديق، قادرين على الإشعاع.

وضمانُ مُستَقْبَل "عمّاوس" يعتمد على قَرْن الوفاء بالتَّجديد. فقد أَفلح الأَبُ پيير، دائمًا، بفَضْل ذكائه وحنكَتِه السِّياسيَّة، في تقدير المصاعب الخاصَّة، ووضعها في إطارها المُلائم من التطوُّر العامّ. وعلى خُلَفائه أَن يُعنَوا بِقَدْرٍ كافٍ من البَحْثِ والدِّراسةِ، ويُقيموا دوائرَ للتَّثْقيف كفيلةً بتزويد الحَرَكة بما تَفتَقِرُ إليه من مراجعَ، وبذلك يُجنّبونها الشَّيخوخةَ والشَّلَلَ؛ كما عليهم أَن يتحلَّوْا بالمعرِفة والكفاءَة، وفي آنٍ واحد، أَن يسلُكوا سُلوكَ قومٍ أَحرارٍ، حريصين على حُرِّيَّة من يتعاملون معهم، فيُرسوا سلطَتَهم على الحُبّ والحِوار.

ولن يُكتَبَ لعمّاوس الوفاءُ لمبادئها ومُثُلها، إن لم يهُبَّ منها، في كُلِّ حِقْبة، حالِمون مُندَفعون، في شيءٍ من الجنون، على أَن يُمَيّزَ مرجعٌ أَعلى بين النَّبيِّ الحقِّ، والمغامر الَّذي ينشُد مكسبًا شخصيًّا. فالنَّشاط الاجتماعيّ الَّذي مارَسه الأَب پيير، وعلى غراره كثيرون من رفاقه الأَوفياء، قد أَثبت جدواه، رغم ما واكبه من فوضى، وكأَنّه صورةٌ لجيَشان الحياة نفسها؛ فالنِّظام يُحاكي، إلى حدٍّ ما البلّور، فهو جميلٌ ولكنّه باردٌ، ويفتقر إلى لحم ودمٍ ورغبةٍ، وعلى حدّ قول طاغور: "إن أَنت أَوْصَدتَ بابَك دون جميع الأَخطاء، لتَعذَّر على الحقيقة الدُّخول"

وعلى خُلَفاء الأَب پــيير، فَضلاً عن تحلّيهم بالكفاءَة، أَن يكونوا، في آنٍ واحــدٍ، خُبَراءَ نفسيّين، ورجالَ أَعمال، ولكن، فوقَ كلِّ شيءٍ، ناقلي عدوى، كفيلــين بــدعم النَّوايا الطيّبة، وبَثِّ الرَّجاء وفَرَح الخِدْمة.

على غرار تاريخ البشريَّة، تعاقَبَ في تاريخ "عمّاوس" القصير، الوَهَنُ والعَظَمة؛ وقصَّتُها، مثلُ كُلِّ قِصَّة حُبّ تنبُض بالمفارَقات، ولكنَّها ستظلُّ فاعلةً في كلِّ مُجْتَمَــعٍ تتسلَّل إليه، وستتكرَّر مُعْجِزتُها، كُلَّ يَوْمٍ، وفي كُلِّ مكانٍ، بفضلِ فعل حُــبٍّ مُغْفَــلٍ، ولكنَّه مثاليّ.

« "**هذا الشَّيءُ المتناهي الصِّغَر والمتناهي الكِبَر، في آنٍ واحــدٍ، يَظَــلُّ كبيــرًا باهتمامه بالآلام، وبما ينشرُه من أَصدائها، وبما يقدِّمه من رَجــاءٍ فــي إِنــسانيّةٍ جديدةٍ. وهو، في ذلك، من نَمطٍ يختلف عن أَيّ علم.**

"**إِنّه، أَوّلاً، مشاركةٌ إِنسانيّة** ».

وفي هذه المشاركة يكمُن نداءُ الحبّ الَّذي تُمثِّلُ "عمّاوس" صداه الفاعــل، كمــا يكمُنُ الفَرَحُ والسَّلام، من وراء أَرزاء الزَّمن، وجُروح التَّاريخ.

إِنّ فضلَ جماعات "عمّاوس" لا يثوي، فقط، في أَنّهــا موجــودةٌ، وفــي أَنّهــا، بوُجودِها، قد هَدَتْ إِلى الطريق، بل في كونها الدَّليلَ الحَيَّ على أَنّه يُمكــن العــيشُ عَيْشًا مختلفًا. صحيحٌ أَنّها الاستثناء، لا القاعدة، غير أَنّها البُرهانُ على تحوُّلٍ ممكنٍ، وعلى إِمكان تَوجُّه المجتمع نحو "حياةٍ دافعها شيءٌ آخَر غير "امتلاك المزيد"، حيــاةٍ سعيدةٍ بالمشاركة مع الأَضعف، في المقام الأَوّل ».

و"عمّاوس" مَبْعَثُ رَجاءٍ للجميع، فبالمشارَكة المُعاشة، وبالخدمة السَّخيَّة، أَثبت جامعو النّفايات أَنَّ المرءَ، مهما كان ماضيه حافلاً بالأَخطاء، حَسْبُه أَن يقفَ ذاتَــه على خِدْمة المحتاجين والمتأَلِّمين، ويوظِّفَ كُلَّ طاقاته في هذه المهمّــة الــسَّامية، حتّى تُغْفَر له تلك الأَخطاءُ، مثلما أَثبتوا أَنَّ الربَّ قادرٌ على استخدام حتّى المُثْقَلــين بالأَخطاء، وقد يستخدمهم في إِنجازاتٍ رائعة.

ومن ثَمَّ، يُذَكِّرُ الأَبُ رفاقَه: « **علينا أَن نفخَر بعمَلنا، لا بما نحن عليه. فــنحن لسنا أَفضلَ من الآخرين، ولكنَّ عملنا هو خيرٌ منّا** ».

و"عمّاوس"، أَيضاً، مصدرُ تحدٍّ بليغِ الأَثَر، لأَنّها مجموعة فقراء يُعطون ما كسبوه بجُهدٍ مُضْنٍ، وأَبَوْا الاحتفاظَ بما يحتاجُ إِليه آخَرون أَشدُّ منهم فقْرًا، وهم بذلك يُشيعون عدوى بَذْلِ الذَّات. أَوَليست صَلاتُهم تعبيرًا عن هذا الواقع حيثُ يقولون: « **ربَّنا ساعدْنا على اقتسام خبزنا مع من لا خُبْزَ لَديهم، وعلى إِثارة الجوع إِلى العَدْل والمشاركة لدى من يملكون الخبز؟** ».

وفي هذا المعنى أَوضح الأَب پيير أَنّ "**عمّاوس، هي، في الواقع، صَفْحةُ إِنجيل المشارَكة الَّتي مزَّقَها مسيحيّون متخاذِلون، عن وَعْيٍ أَوْ عن غير وَعْيٍ، وأَلقوا بها في القمامة، فوجدها رفاقُ** "**عمّاوس**"**، أَثناءَ قيامهم بجمع النّفايات**".

وقال أَيضاً: « **ربَّما كان أَخطر ما فعلناه يتمثَّل في القِحة الَّتي جعلتْنا نعمَل ما لا يُعمل، وفي تحدّينا رياءَ القوْم السُّعداء ولا مبالاتهم، بإبرازنا لأَنظارهم مَشاهدَ مُزْعجةً عن معاناة المتأَلّمين، ومآسي الظُّلم الَّتي يقاسونها، بعد أَن واجهنا نحن أَنفسُنا كُلَّ ذلك مواجهةً صريحةً، وبعد أَن تورَّطنَا كُلّيًّا وَسْط أُولئك البائسين** ».

وبفضل هذا التورُّط، أَتتْ "عمّاوس" بثمارٍ وفيرةٍ حقَّ لها أن تفخَر بها، بدليل قول الأَب پيير: "**ذاتَ يَوْمٍ، قلتُ للوران فابيوس، لمّا كان رئيسًا للوزارة، أَنَّ رفاق عمّاوس الأربعة آلافًا، خلال السَّنةِ الفائتة، بعدَ إِيفاء كلِّ التزاماتهم، وأَداءِ ثمن الطَّعام والتأمينات الاجتماعيّة، قد تبرّعوا بثلاثين مليون فرنك لمُؤَسَّسات إِنسانيّة، فذُهِل، ثمّ أَجرى حسابًا سريعًا لخَّصه بقوله: لولا عمّاوس، لكان تسعةٌ من كلّ عشرةٍ من آلاف رفاقكم في مشفى، أَو في مصحَّة، أَو في سجنٍ، بسبب تكرار الجرائم الَّتي يدفع إِليها البُؤس، ولكلّف ذلك الدّولةَ مبالغ جسيمة!**"

والأَب پيير أعلن لرفاقه: « **إِنّني أَقول للمُناضلين الَّذين يستقبلون أَسَرًا بائسةً تبحث عن ملجأٍ: اليومَ تسعةٌ بالمئة، فقط، من الفرنسيّين يُعانون سُوء ظروف السّكَن، ويفتقرون إِلى الماء والمرافق الصحّيّة. ولكن، لأَربعين سنةً خلَتْ، كان تسعةٌ وعشرون بالمئة من مواطنينا يعيشون على هذا النَّحو. كما ترَوْن لم تُهدَرْ سُدىً جهودُ رفاقنا. ولكن طالما افتقرتْ أُسرةٌ واحدةٌ إِلى سَقْفٍ، فمُهمّتنا ما زالتْ قائمة** ».

لقد تميَّزتْ "عمّاوس" بصُوفيَّةِ المُشاركة والتَّضامُن، وبنفاذها إلى كَبِد حقيقة المحبَّة، وباكتشافها سِرَّ تجاوُز الوهم إلى الحماس، بتحرير البائس من وَهْم اليأس، وتحرير المَحظيّين من وَهْم السأَم، وفي تميُّزها هذا، ضمانٌ لدوامها وتجدُّدها الدّائِم، وهذا ما عناه الأَبُ پيير بقوله: **"لو إنّ كلَّ ما هو موجودٌ اليَومَ، عبرَ العالَم، تحت اسم عمَّاوس، قد تبخَّر فجأةً، بفعل شرّيرٍ، فحسْبُ إنسانٍ سعيدٍ، ولكن انتابه السأَم والخجَل لكونه سعيدًا في معزلٍ عن الآخرين، أَن يلتقي، غدًا، إنسانًا يائسًا لم يعُدْ يُطيقُ الوحدةَ، فيعزِمُ الاثنان على ضَفْر جهودهما في سبيل إنقاذ إنسانٍ ثالث... في تلك اللَّحظة تكون "عمّاوس" بأكملها قد شرَعَتْ تنبعثُ من جديدٍ، من تلك البِذْرَة الجديدة"**

إنَّ قصَّةَ حَركة "عمّاوس"، الَّتي وُلِدت عام ١٩٤٩، هي قِصّة مغامرةٍ فذَّةٍ، اشترك فيها رَجُلٌ عظيمٌ، كبيرُ القلب، تصدَّى لمحاربة أَسباب الفقر بمختلف وجوهه، وكتائبُ من المناضلين المتبايني المشارِب، عَكَفوا معَه على سَدِّ ثُغَر النِّظام الاجتماعيِّ المختلّ، في نَسَقٍ، حيناً، وفي الفَوْضى أَحيانًا؛ إنّها قِصّةٌ متشعِّبةٌ، جيَّاشةٌ، حافِلةٌ بالتحدّي، على صورة مؤسّس عمّاوس.

هذه القِصَّةُ جعلتْ من "عمّاوس" حَدَثًا عالَميًّا، صغيرَ الحَجْم، كبيرَ المغزى، في مُفْتَرَق طُرُق الحضارة.

رحيل الآنسة كوتاز

عام ١٩٧٩، مُنيتْ الآنسة "كوتاز" بفالجٍ نصفيٍّ، اضطرَّها إلى التَّخلّي عن ربيبتِها "عمّاوس"، ومذّاك، لم تَعُدْ تعني لها الحياةُ علَى الأَرض شيئًا.

وقد صرَّحتْ، في أَيَّامها الأَخيرة: "لا يهمُّني أَن أكَونَ في الثانية والثَّمانين من العمر. إنّ الحياة مُستَمرّةٌ، وأَنا أَعلمُ أَنَّه لم يعُدْ يتعيَّنُ عليَّ مُمارسةُ الصَّبر وقتًا أَطول. ففي سنّي يكتفون بقول "نعم". المُهِمَّةُ نُفِّذت، ولكنَّ قبولَ هذا الواقع وعَيْشه يقتضيان حياةً داخليّةً كثيفةً".

يوم الجمعة، السَّابع من أَيّار ١٩٨٤، عادَها الطَّبيبُ، على نحو ما كان يفعلُ كُلَّ يومٍ، مذْ أُجريتْ لها عمليَّتان جراحيَّتان مُتَتاليتان، ولم يُخْفِ عن الأَب خطورةَ

وضْعِها، فقَلْبُها قد شارَف على نهاية شَوْطه، والأَجَلُ بات وشيكًا. ولحَظَتْ، هي، ذلك، فالتمستْ من الأَب منحَها الغفرانَ والأَسرارَ الأَخيرة.

وقد علَّق الأَبُ على رباطة جأشها إزاءَ الموت بالقول: « كنّا نتحدَّثُ عن الموت ببساطةٍ، كما نتحدَّثُ عن رسائل يجبُ أَن تُكتَب في الغد ».

وكان على الأَب المثولُ إِلى روما في اليوم التَّالي، فقرَّر إِلغاءَ سفَره، غير أَنّها اعترضت بحَزْمٍ: « إِنّني أَمنعُك من فعل ذلك! فمُهمّتي، أَنا، المكوثُ في سريري، ومُهمَّتُك، أَنت، أن تمضي غدًا إِلى روما ».

في ساحة القدّيس بطرس خاطبَ الأَبُ نحو خمسةٍ وعشرين أَلفَ شابٍّ، ونال بركةَ البابا، وعادَ، ليلاً، إِلى "إِيستقيل"، حيثُ كانت الآنسة كوتاز يَقِظَةً، مُتَمتِّعةً بكامل وَعيِها، ولكن عاجزةً عن الكلام، فقال لها: "لقد جئتُك ببركةٍ خاصَّةٍ من الحبر الأَعظم... إِنّه البابا الرَّابعُ الَّذي يهتمُّ بك." فقد كان الكردينال "رونكالّي"، الَّذي أَصبح، في ما بعد، البابا يوحنّا الثالث والعشرين، قد حَصَل لها، بوساطة الكردينال "مونتيني"، الَّذي أَمسى البابا بولس السادس، على مقابلةٍ خاصّةٍ مع البابا بيوس الثاني عشر، الَّذي شجَّع قرارَها بمعاونة الأَب پيير، وبارَكه. فهي كانتْ قد التزَمتْ، منذُ شفائها المُعْجِز في لورد، بأَن تعيش "راهبةً في العالَم". وقد ساوَرتْها الرِّيَب حول انسجام ذلك الالتزام مع عملها كأمينة سرّ نائبٍ في البرلمان، ولو هو كان كاهنًا. غير أَنَّ "الحديث الَّذي أَجرتْه مع قداسة البابا كان لها، بلا مراء، سَنَدًا قويًّا أَتاح لها الصُّمود حتّى يومِها الأَخير، في مقاسمة الأَب مَهامّه ومشاقَّه الَّتي كانت باهظةً أَحيانًا".

وكان على الأَب القيامُ بسفَرٍ آخَر، ومرَّةً أُخرى، عَقَد العزمَ على إِلغائِه. وإِذ هي كانت عاجزةً عن الكلام، رمقتْه بنظرةٍ ثاقبةٍ، وأَومأَت بيدها اليُسرى الَّتي كانت ما زالت تتحرَّك أَن "عليكَ بالسَّفر".

كان غيابُ الأَب يطرح مُشكلةً، فهو الَّذي كان يُعنى بالآنسة "كوتاز" بالتَّعاوُن مع أَحد الأَصدقاء. فتلك الَّتي قضت حياتَها تأْمُرُ الرِّجال، وتعيش بين ظهراني عُتاتهم، كانتْ تأبى عنايةَ ممرّضةٍ بها. وقد أَسرّت للأَب الَّذي كان، هو أَيضاً، يُعاني

الإرهاق: "أَلا ترى، أَبتِ، أَنَّ من قضى حياتَه يَخْدُمُ الآخرين، يلقى مَذَلَّةً في خِدْمَةِ الآخرين له؟"

إِلاّ أَنّ العنايةَ الإِلهيّة تداركتْهما، بعودة الرَّفيق القديم "جاك پيروتّي"، ذاك الَّذي كانوا يدعونه "جاك الرّهيب"، لأَنّه لم يكُنْ يأمُر، بل يَطلُب، ويعرف الجميعُ أَنّه، إِن لم يُلبَّ طلبُه فسيُهلك نفسَه في تحقيقه، ولذلك يبادرون إلى تنفيذه. وقد تولّى "جاك" العنايةَ بالآنسة كوتاز بحزمٍ، ورِقّةٍ، وتفانٍ.

وفي تلك الأَيّام، سأَلها الأَبُ مرَّةً:

– « آنسة، هناك موضوع لم نتطرَّقْ إِليه قطُّ، سحابةَ السَّنوات التِّسعِ والثلاثين الَّتي أَمضيناها نعمل معًا... هل لك وَصيَّةٌ، مودعةٌ في مكانٍ ما؟"

– "وصيّةٌ؟ وما نفعها؟ أَنا لستُ أَملك شيئًا، أَمَّا ثيابي فلن تَعْسُرَ عليكم هبتُها! ».

يومَ السَّبت التَّالي، أَثناءَ القُدَّاس، ربَّما أَوحتْ عيناها المُغْمَضتان أَنّها فاقدةُ الوَعْي، غير أَنّها، بغْتةً، وبكُلِّ العُنفوان الَّذي حداها دائمًا، فَتَحتْ عينَيْن واسعتَيْن، وتناولتْ من فوق الهيكل صُورةً صغيرةً تُمثِّل الوجهَ المُقَدَّس، وظلَّت، حتّى أَوان المناولة، مُحدِّقةً بوجه الأَلَم والسّلام، بصورة يسوع الحافلة بالسِّرِّ. وقد وَرَدَ في إِنجيل ذلك اليوم قولُ يسوع لتلاميذه: "لن أدعوكم، بعد اليوم خُدّامًا، بل دعوتُكم أَحبّائي".

ويروي الأَب پيير:

« وانقضى يومُ السَّبت... وفي نحو السَّاعة السَّادسةِ من صباح يوم الأحد، إِذ كان لديَّ فُسحةُ بضعِ دقائق، قبلَ موعد اجتماعٍ، جئتُ فجلستُ بالقرْب من سريرها، وأَمسكتُ بيدها، وشرعتُ أُصلّي. وشعرتُ أَنّ نبضاتها أَخذَتْ تتباطأ شيئًا فشيئًا، إِلى أَن همدت نهائيًّا. لقد خرجتْ من الظلِّ ».

لقد حُمَّ أَخيرًا الأَجَلُ الَّذي طالما ترقَّبتْه طيلةَ سنواتِ مرضها الأَخيرة، ومذْ عَجَزتْ عن العناية بعمّاوس.

غداةَ وفاتها، استعاد مُحيّاها شبابَه، وبدا مُشِعًّا بالسَّلام والبَسْمة.

وقد احتلّ جُثمانُها مكانَه في مقبرة "إِيستفيل" الصَّغيرة، المحاذية للكنيسة، إِلى

جانب رفيق "عمّاوس" الأَوّل، جورج، والرِّفاق الآخرين الَّذين سبقوا إِلى ديار الآخرة، في ظِلِّ ذراع صَليبٍ جسيمٍ، كان الرِّفاق قد وجدوه، يومًا، بينَ النِّفايات، فارتأُوا أن ينصبوه في المقبرة كي يُظَلِّل بذراعَيْه الرِّفاقَ الراقدين.

وفيما كان الرِّفاقُ يتأَهّبون لمواكبتها إِلى مثواها الأَخير، قال للأَب أَحدُهم، وهو شيخٌ لم يطأ كنيسةً، قطُّ: "أَبتِ، لن أَمضيَ معكم، لا، لن أَمضيَ، لأَنّني إِن فعلتُ، فلن أَكُفّ عن البكاء. ولكن حين ستكونون أَنتم هناك سأَشخَص، للمرَّة الأُولى في حياتي، إِلى المُصلّى".

وهكذا أَنهتْ مسيرتَها لفظةُ "نعم"، أُعلن عنها في يومٍ من عام ١٩٤٥، وعيشَتْ في ظِلِّ مُغامرةٍ فريدة.

وفي ما بعد، علَّقَ الأَبُ پيير على رحيل الآنسة "كوتاز" بالقول: "في كُلِّ مَرَّةٍ يخرُج أَحدُ الَّذين نُحبُّهم من ظلال الزَّمَن، لا يكون خروجُه فراقًا أَليما وقاسيًا، بل لقاءً رائعًا. وحدَهم المُتَأَلِّمون الَّذين يرفضون الحبَّ يعانون الفِراق. من المُحقَّق أَنّ الباب المؤدِّيَ إِلى حياة الحُبّ الأَبديّ هو ضيّقٌ. غير أَنّ حالات اللّقاء فيه تربو على عَدَد حالات الانفصال. إِنّ الإِيمان أَكبرُ من عَدَدِ المؤمنين."

نصيرُ حُقوق الإِنسان

بكلِّ ما تَميَّزَ به من صِدْقٍ، وجُرأَةٍ ومَحبَّةٍ، وبفضل ما يتمتّع به من احترامٍ دَوْليٍّ عميقٍ، برزَ الأَبُ پيير مُدافعًا فذًّا عن حُقوق الإِنسان، فكلُّ امتهانٍ لهذه الحقوق، في نظره، إِن هو إلاّ إِهانةٌ لله. ولئن كان لصَوْته في جوقَة المُدافعين عن حُقوق الإِنسان صدًى فريدٌ، فلأَنَّه نابعٌ عن حبٍّ صادقٍ للإِنسان، ولأَنّه لا يبتغي، عن دفاعه، أَيَّ جزاءٍ، فلا يُخضعُه لأَيّة مُناسَبةٍ أَو غايةٍ سِيَاسيَّةٍ أَو شخصيّةٍ، ولا يختار الوقْتَ الَّذي يُعلن فيه عن دفاعه، ولا عن الجمهور الَّذي يَتَوجَّهُ إِليه بخطابه، بل حَسْبُه أَن يلحظ مُخالفةً حتّى يتصدّى لها، أَينما كانت، وأَيًّا كان مُقْتَرفُها، وبنبرةٍ من الصِّدقِ لا يطرأُ عليها أَيُّ تبدُّلٍ، فتفرُضُ التَّصديقَ.

مُدافعًا باسِلاً عن حُقوق الإِنسان كان، عندما تصدّى، وحيدًا، للذَّوْد عن رَجلٍ مظلومٍ وحيدٍ يُدعى "ڤاني موليناريس" (VANNI MOLINARIS) زُجَّ في سجنٍ

إِيطاليٍّ، افتِئاتًا، بتُهمة الإِرهاب الدَّوْليّ، عام ١٩٨٢. وكان الأَب قد عرفه عن كَثَب، وأُعجبَ بطيب بداهته، ورِقَّة مشاعره، وحرارتهـا، وتطلُّعاتـه الإِنـسانيَّة العالميّـة الصَّادقة. وكان لقاؤُهما الأَوّلُ كافيًا لنَسْج صداقةٍ متينةٍ بينهما.

وفيما ظلَّ المتَّهم معتقَلاً ثلاثَ سنواتٍ، بمُقْتضى حكمٍ عُرْفيٍّ، على أَمل أَن يعثُـرَ القُضاةُ، في تلك الأثناء، على دليلِ الدينونة الَّذي كانوا يفتقدونه، وفيما تكرّر إِضـرابه عن الطَّعام احتجاجًا على الظُّلم الواقع عليه، كان الأَبُ دائبًا على البَحْـث والتقـصِّي، ومناقشةِ القضاة الَّذين أَزروا بكُلِّ قواعد الدّيمقراطيّة بحُجَّةِ الدِّفاع عنها. وهكذا، بَعيـدًا عن جوِّ الشَّائعات، والتُّهَم الَّتي يرغَبُ بعض الحكّام في إِثباتها، ولو افتقرت إِلى السَّنَد، كوَّنَ الأَبُ رأيَه الخاصَّ، مُطالعًا، معاينًا، مُنْصتًا، إِلى أَن تحقَّق أَنّ "موليناريس" بريءٌ من التُّهمة الَّتي اعتُقِل من أَجلها، فهبَّ يُدافع، بلا وَجَلٍ، عن صديقه المظلوم، فاضـحًا ممارسات المحاكم الإِيطاليّة اللاَّشرعيّة، عاقدًا المؤْتمرات الصّحافيَّة وهو متقلِّدٌ جميـعَ أَوسمته، غيرَ هيّابٍ من الصّحافة الإِيطاليّة الَّتي اتَّهمته بالكَذِب، ومن تهديـد القُـضاة باعتقاله. وطوالَ أَشهرٍ لم يكفَّ يُحرِّض اتّحاداتٍ عالميَّةً، وشخصياتٍ بارزةً، وسَفاراتٍ مُتَعدِّدةً، على الإبراق إِلى المسؤولين الإِيطاليّين تأْييدًا لمسعاه. وممّن أَهـاب بهـم أَن يتضامنوا معه، رئيسُ الجمهوريَّة الفرنسيّة، والنُوَّاب الفرنسيّون الَّـذين نـشروا، فـي الجريدة الرَّسميّة، تكذيبًا لبعض ادّعاءات القضاء الإِيطاليّ بحقِّ المُتَّهم.

غير أَنَّ كلَّ تلك المساعي قد أَخفقتْ في زحزحة القضاء الإِيطاليّ عـن موقفـه المُتَعنِّت، وكادَ الأَبُ يَقْنَطُ، لو لم تبلُغْه من "موليناريس" السَّجين، رسالةٌ مؤَرَّخةٌ فـي ٢٣ أَيّار ١٩٨٤، يُؤَكِّد فيها براءَتَه، ووقوعَه فريسةَ مَكيدَةٍ مُدَبَّرةٍ، ومهزلـةٍ أُعِـدَّت فصولُها مُسبّقًا؛ وقال في رسالته، أَيضاً، إِنّه طالما ظلّ البحثُ عن الحقيقة غائبًا عـن اهتمام القضاة، فهو عاقدٌ العَزْم على التزام الصَّمت، وعلى مباشرة صيامٍ كاملٍ وغير محدودٍ، اعتبارًا من ٢٠ أَيّار ١٩٨٤. وأَنهى "موليناريس" رسالته بالتماسِ تفهُّمِ الأَب لموقفه، وغفرانه لما أَقدَمَ عليه.

وطوى الأَبُ الرسالة، ودسَّها في جيبٍ بصَدْر ثَوْبه، قريبًا من قلبه، ومنذُ تلـك اللَّحظة لم يعُدْ يعرفُ الوَسَنُ إِلى جَفنَيْه سبيلاً.

وبينما هو على فراشه يُصارع الأَرَق، أَخذَتْ تتردّد في ذهنه أَصداءُ أَبياتٍ كان قد قرأها يومًا تقول:

« ألاّ أَقتل، وألاّ أَخونَ،
"أَعلَمُ أَنّ ذلك واجبي،
"ولكن عليّ أَن أَتعلَّم شيئًا آخَر:
"فعليَّ أَلاّ أَعتاد،
"فإن اعتَدْتُ
"خُنْتُ من لا يعتادون الخيانةَ،
"والقتلَ، والاعتيادَ.
"وإن اعتَدْتُ، في البدءِ، فقط،
"فإنّي أَشرَعُ بالاعتياد في النهاية ».

تلك الأَبيات ذكّرته بأَنّ "السُّكوتَ عن ظُلمٍ واحدٍ، يعني القبول بكُلّ المظالم، واغتيالَ كلِّ رَجاءٍ". وفي تلك اللَّحظات، تألّق القرَارُ في ذهنه، واستطاع أَن يُخلد إلى النَّوم.

بعدَ أَيّام، استقلَّ الطَّائرةَ إِلى مدينة "تورينو" الإِيطاليّة، وكان قد دعا إلى مُؤتمَرٍ صَحَافيٍّ في كاتدرائيَّتها، لا لكي يخطُبَ، ويُقْنعَ، ويحاولَ التّأثير، فكلُّ ذلك كان قد سعى إِليه عبثًا، بل لكي يُعلنَ عن قرارٍ مُستوحًى من المهاتما غاندي، والَّذي كان يأمُلُ أَن يكون أَوفرَ جدوى من سابق مساعيه. وقد فاجأَ ذلك الكاهنُ العليلُ، الهشُّ الصِّحَّة، البالغ من العمر اثنَيْن وسبعين عامًا، جمهورَه المُحتَشد في الكاتدرائيّة، بقراره الصِّيامَ، إِلى أن يُرفعَ الحَيْفُ عن صديقهِ البريء.

وطوالَ ثمانية أَيَّامٍ، لم يتناول الأَب سوى الماء القُراح. وكان، قبل مُثوله إِلى "تورينو" قد أَجرى الإِضافاتِ اللاَّزمةَ على وصيَّته، شأْنَه كُلّما شعر بدُنوِّ أَجَله.

وحولَ صيامه ذاك، أَوْضَح، لاحقًا: "إِنّ الحرمان الجسديّ لا يقتضي إِجهادَ الإِرادة سوى في اليوم الأَوّل، وقليلاً منه في اليَوْم الثّاني. ثمّ، من جرّاء انشغالي بمطالعة مواضيعَ روحيّةٍ تعقبُها فترات صمتٍ وتأمُّلٍ طويلةٍ، لم يعُدْ يبدو لي الصَّوْم

سوى امتيازٍ نادرٍ ثمينٍ، بحيثُ إنَّ تَقَيُّدي بالتزامي عدم إطالة فترة الصِّيام أكثرَ من ثمانيةِ أيّامٍ، قد اقتضى منّي، عندما أَزِفَ مَوْعِدُ إنهائه، جُهدًا إراديًّا شديدًا.

"إنَّ الصَّوْمَ الَّذي يُنَفَّذ في سبيل هدَفٍ مُحَدَّدٍ، يغدو لمن انطوتْ جوانحُه على دوافعَ روحيّةٍ حقَّة، نوعًا من السِّحر الَّذي لا ينسلخُ عنه بلا جُهْد".

لقد أَعلن الأَبُ، مُخْلصاً، أَنّ حياته لا تُساوي شيئًا، ولكنَّه كان موقنًا أَنَّها تعني للكثيرين الكثيرَ، وفضلاً عن ذلك كان قد تَثَبَّتَ من تضامُن عددٍ كبيرٍ من الرُّؤَساء الكنَسيّين، مثل رئيس أَساقفة "أودينه"، حيثُ كان صديقُه "موليناريس" سجينًا، وكرادلةِ "تورينو" و"ميلانو" و"باريس" و"مرسيليا". وقد عاضدَتْهُ وسائلُ الإعلام على إصابةِ مرماه، إذ شرعَتْ تُصدرُ، ساعةً فساعةً، نشراتٍ عن وضعه الصِّحِّيِّ، فما لبثَ أَن شرَعَ العالَم ينظرُ إليه نظرةَ شهيدٍ، ويخشى على حياته، ويُفَكِّر، ويعمَلُ، فأَعلن المُدافعون عن حقوق الإنسان تضامُنهم مع الأَب پيير، كما أَعلنَ جميعُ سجناء "أودينه" الإضرابَ عن الطَّعام تضامُنًا مع "ڤاني موليناريس". واهتزّت الحكومةُ الإيطاليّة، فأَوعزتْ إلى القضاء بدراسة القضيَّةِ دراسةً وافيةً، وأَلغَتْ الأَحكام العُرْفيَّة جزئيًّا، فأُفرِج عن "موليناريس" الَّذي ظلَّ، مع ذلك، خاضِعًا للإقامة الجَبْريَّة، ريثَما صدرَت الأَحكامُ الَّتي بَرّأَتْهُ.

لقد حرَّك إيمان الأَب پيير الجبالَ؛ ولا بِدْعَ في ذلك، فهو لم يكُنْ يخشى سوى التقاعسِ دونَ الدِّفاع عن الحقّ؛ لم يكن يرهَبُ المَوْتَ، وهو الَّذي، منذُ صباه، ما انفكّ يتطلّع إلى "العطلة الكبرى" حيثُ الشَّمْسُ الدَّائمةُ الشُّروق. ولم يكن يخاف على صورته من تُهمة مساندة الإرهاب، فالوَفاءُ للذّات فوق كُلِّ صورةٍ ورأيٍ عامٍّ، ومن كانت دافِعَهُ إلى الذَّوْد عن الحقّ، المحبَّةُ، لا يحسَبُ للأَقاويل حسابًا. وهذا ما مكّنه من زعزعة نظامٍ مُتَعنِّتٍ، ونسْف واقعٍ سلَّم الجميعُ به رغم انطوائه على الحَيْف.

وهذا ما أكَّده رئيسُ أَساقفة ميلانو الَّذي كتب للأَب پيير: "شكرًا لما فعلتَ، لأَنّك، بذلك، حُلتَ دون يأْس الأَبرياء".

بمثل هذا الاندفاع في الذَّوْد عن حِياض كُلِّ مظلومٍ، شنّ الأَبُ پيير حملاتٍ عديدةً، دفاعًا عن حُقوق الفلسطينيّين، وعن الكثيرين ممَّن سُلِبَتْ حقوقُهم، وامتُهِنَتْ كرامتُهم.

انتفاضة عام ١٩٨٤

ومضى الشَّاهدُ في شهادته. وكان للتَّاريخ عودةٌ، ثلاثين سنةً بعد انتفاضة ١٩٥٤. فقد حلَّ الشِّتاءُ مبكّرًا عام ١٩٨٤، وأَسهمْت قَسوْتُه في فَضْح الحالة الاقتصاديَّة المُهلْهلة الَّتي كانت تُعانيها البلادُ، وتجهَدُ في تمويهها ما استطاعت. غير أَنَّ مَوْكبَ البرد القارس، بما يفرضُه من احتياجاتٍ، قد هَتَكَ النِّقابَ عن الإِدْقاع الَّذي كان يمتدُّ، يومًا فيومًا، ويطالُ حتّى الفئاتِ المتوسِّطة الحال، الَّتي أُوهِمتْ، طوالَ سنواتٍ، أَنَّها في مأمنٍ من كُلِّ عَوَز. فقد بات "الفقراء الجُدد أكثر عددًا، وأَوْفر شبابًا، وأَفضلَ تسلُّحًا لمواجهة الحياة من فُقَراء الأَجيال السَّابقة؛ ومع ذلك، كانوا، مثلهم، محكومًا عليهم بالنَّبْذ الاقتصاديّ فالاجتماعيّ. التَّبدُّلُ الوحيد الَّذي حَدَثَ لم يكن في نَمَط الفَقْر، بل في كَوْنِ الفُقَراء قد فقدوا الرَّجاء".

وكان غَضَبُ الأَب پيير قد شَرَع يجيش، عندما استطلعتْ إِذاعةٌ صغيرةٌ في الضَّاحية الباريسيّة رأْيَه في مشروع إِضرابٍ كان الموظَّفون عازمين على القيام به دفاعًا عن قُوَّة رواتبهم الشّرائيَّة، فأَجاب الأَبُ: "هذا المشروع يبدو لي حماقةً. فالصِّراع من أَجل زيادة واحدٍ أَو اثنين بالمئة، في حين أَنَّ مليونَيْن من العاطلين عن العمَل لا يملكون سوى خمسين فرنكًا يوميًّا لتأمين معيشتهم، يبدو لي أَمرًا غير لائقٍ. ولا عَجَب، بالتَّالي، إِن رأَيتم إِنسانًا عاطلاً عن العمل يتهجَّم على موظَّفٍ مُضْربٍ" وعلى إِثر هذا الردّ، ظهرتْ صحيفةٌ نقابيّةٌ بعنوانٍ يقول: "إِنجيل الأب پيير الجديد: اضربُوا بعضُكم بعضاً". وأَرْعَدَ الأَبُ پيير في مَعْقِله في منسك "سان ڤاندريل"، وقرَّر أَن يُلقي ملءَ الضَّوء على الأَزمة العميقة الجُذور الَّتي تتخبَّط فيها البلاد، في غفلةٍ عنها، والتي شرَعَ يتكشَّف بعض جوانبها، في أَعقاب أَزمة النِّفط الَّتي نشبتْ بالغرب عام ١٩٧٣، منذرةً بنهاية ثلاثين سنةً "مجيدةً" من الازدهار السَّهْل القائم على سَلْب العالم الثالث مواردَه.

بضعةَ أَيّامٍ بعدَ ذلك، في مكتب رئيس الوُزراء "لوران فابيوس" لم يكن الأَب پيير يتلعثم، بل يقرع المِنْضَدة بقبضته، ويُعلن للأُمَّة كلِّها، عبرَ رئيس الوزراء، بملءِ شدقَيْه: "إِنَّ كُلَّ تدبيرٍ حكوميٍّ، وكُلّ مبادرةٍ فرديّةٍ، سيظلاّن عقيمَيْن وباطلَيْن، طالما بقيَ الرَّأْيُ العامّ يعيش في وَهْمٍ يُزيّن له أَنّ الأَزمة فترةٌ خاطفةٌ لن تلبث أَن

تزول. فالأَزَمة ستدوم مدى جيلٍ كاملٍ، وسنجد أَنفسنا، قريبًا جدًّا، مرغمين على المشاركة... إِنَّ الادِّعاء بأَنّ الأَزمة هي فترةٌ عابرةٌ، أَو دواءٌ مُرٌّ يُشرَب فيُزيل العلّة، إِنّما هو تخرُّصٌ بَشِع. فالأَزمة ستتمادى، وعهد الازدهار والهَدْر قد ولّى، وعلينا أَن نتأَهَّب ليقظةٍ صعبة، وما "الفقر الجديد" الَّذي أَخذتْ تتشدَّق به وسائلُ الإِعلام، سوى الفقر الدائم، الفقر الَّذي تصدّى الأَبُ پيير لمكافحته في شتاء ١٩٥٤، ذلك الفقر الَّذي طَفِق ينهشُ الَّذين كانوا يزعمون أَنَّهم في مأْمنٍ من غائلته، وينشَب بالأُسَر المتوسِّطةِ الحال، الَّتي غدا أَربابها يفقدُون، بغتةً، عَمَلَهم، على غير أَمَلٍ في الحُصول على عملٍ بديل، الفَقْرِ الَّذي طالَ، على حين غرَّةٍ، أُلوفَ المواطنين الَّذين دغدغوا، طيلةَ سنواتٍ، أَحلامَ الاستهلاك اللاَّمحدود، والمِلكيَّة السَّهْلة، وإِذا بهم، بلا عَمَلٍ، ولا تعويضٍ، ولا سَكنٍ، محكومٌ عليهم، فضلاً عن النَّبْذ الاقتصاديّ، بالتَّهميش الاجتماعيّ.

وكان لإِنذاره دويٌّ نبويٌّ، عندما أَضاف قائلاً:

« جميعُ البشر يحلمون، ولكن ليستْ أَحلامُهم سواء، فالَّذين يحلمون ليْلاً، في تضاعيف أَفكارهم الَّتي غشاها الغُبار، يستيقظون، نهارًا، ويحلمون بأَنَّ رُؤاهم كانت باطلةً. غير أَنّ الَّذين يحلمون في وَضَح النهار خَطِرون، إِذ إِنّهم كفيلون بجَعْل أَحلامهم تعمل، وعيونُهم شاخصةٌ، كي تُحوِّل الأَحلامَ واقعًا ماثلاً ».

لم يعُدْ الأَب پيير نصيرَ المُشرَّدين، ومنبوذي اليوم، فحَسْبُ، بل قد غدا رسولَ إِنسانٍ جديدٍ، ومُجتَمعٍ جديدٍ، يختَزِلُ قانونَ إِيمانهما، ومُستَقبلهما، ودوافعهما، في كلمةِ "المشاركة": « إِنَّنا مُرْغمون، اليومَ، على المشاركة... والمشاركةُ ليست أُسلوبًا طارئًا، بل هي واقعٌ قاسٍ كالبطالة والفقر. علينا أَن نزداد كينونةً لا أَن نزداد امتلاكًا. وسيتعيّن علينا، غدًا، في غُضون سنةٍ أَو سنتَيْن، أَن نعيد توزيعَ أَوقات العمل، وعوائد العمل ».

هذا القولُ النَّبويّ، كانت له الاضطرابات الاجتماعيَّةُ الَّتي عكّرت حياةَ الفرنسيّين في غروب عام ١٩٩٥ خيرَ مصداق.

وبعد أَن أَعلن الأَبُ عن تصوُّره، كان لا بُدَّ له من نقل قناعاته إِلى ساحة الواقع، كي يُجابه، بنجاعةٍ، الأَزمةَ الإِنسانيَّة الَّتي جاءَ بها شتاءُ ١٩٨٤. وشخصَ فكرُه نحوَ

"عمّاوس"، غيرَ أَنّ حركته تلك لم تكن قادرةً على النُّهوض بمُهمّةٍ في اتّساع تلك الَّتي كانت تُراود خاطره. وفي سبيل جَمْع الأَموال الطَّائلة، الَّتي كان يستشفُّ الحاجةَ الحارقةَ إِليها، ضاعف المحاضراتِ والمُداخلات في شتَّى المدن الفرنسيّة والأُوروبيّة، حتّى الإِرهاق التامّ.

وذات مساءٍ، في أَعقاب مُحاضرةٍ أَلقاها في بلجيكا، بادرتْه امرأةٌ عجوزٌ خَجلةً، وقدَّمت له كيسًا عتيقًا مهترئًا قائلةً: "ثمَّة شيءٌ لك". وعندما مدَّ يده لالتقاطه، وهو شارد الذِّهن، أَردفت العجوز: "حذارِ، إِنَّه ثقيلٌ بعضَ الشَّيء"، وتوارت وَسْط الجمع، بحيث لم تسمع لفظة الشُّكر الَّتي وجّهها لها، وهي مُدْبرة.

لقد كان الكيسُ المُهترئُ يحتوي على ثمانين ليرةً ذهبيّةً، وبهذا المبلغ الَّذي هَبَط عليه من مُحْسِنةٍ مُغْفَلةٍ، نظَّم الأَب حَمْلةَ دَعاوةٍ بعيدة الأَصداء؛ فقد اكتشف يومَ فراغٍ في "قصر المؤتمرات"، يقع في ١٩٨٤/١١/٢٣، استأجره، ودعا إليه الصّحافة والتلفزيون، وكُلَّ من يودُّ سماعَ كلمةِ حقٍّ. وفي الموْعد المضروب، ازدحمت الشّرفاتُ بالرسميّين، ورجالِ المُجْتَمع ونسائه المتأَنّقات، فيما تراصَّ في القاعة جامعو النِّفايات المتحمِّسون، وحشدٌ من مُحبّي الأَب پيير.

وشغَلَ الأَبُ المسرحَ وحدَه، مُحْدَوْدِبَ الظَّهْر، بسترته الجلديَّةِ المعهودة، وكنزةٍ صوفيّةٍ باليةٍ، وأَحذيته العسكريّة العتيقة، أَي الأَب پيير كما يراه أَخصّاؤُه كُلَّ يومٍ، بصِدْقه ونزاهته، ذاك الَّذي طمأن أَبدًا أَصدقاءَه بقوله: "لا يمكن لأَحدٍ شرائي، لا أَنا، ولا المحبّة، ولا العَدْل. مع رجالٍ مُتحابّين، كلُّ شيءٍ متاحٌ، حتّى جنيُ المال". ولذلك لم يكن يخشى استخدامَ أَيَّةِ وسيلةٍ، طالما ظلَّ هو هو، في دخيلة نفسه، لا يتغيَّر، وطالما ظلَّت قُوَّته وعظمته، في هذا الثبات، يكمنان. ولئن كان المَرَضُ والشّيخوخة قد نالا من جسده، إِلاّ أَنّه ما برح نفسَ الرَّجُل، وبنفس الإِيمان، ونفس الغَضَب المُقدَّس، ونفسِ النَّبرة الأَخّاذة.

أَمّا المظاهرُ فلا يهمُّه منها سوى نتائجها، وقد أَشار إِلى ذلك بقوله: "**لستُ أُقيم أَيَّ وزْنٍ للشُّهرة، غير أَنّ لها ميزةً، وهي أَنَّ الناسَ عندما يتعرَّفون يفتحون محافظهم**".

في السَّاعة العاشرة ليْلاً، لم يكن خطابُ الأَب پـيير، في قصر المؤتمرات، قد انتهى، بعدُ، ولكنّ الإنهاك كان قد أَخذَ منه كُلَّ مأخَذ، وازداد ظهرُه انحناءً، فجلس متأَلِّمًا؛ وكادَ التَّصفيقُ يتفجّر، ولكنَّه التمس أَلاّ يصفِّقَ له أَحدٌ: "أَرجوكم أن تُؤَدّوا لي هذه الخدمة، وستساعدوني بامتناعكم عن التَّصفيق". وسَرَتْ غَمْغماتٌ وتساؤلاتٌ بين الحضور. غير أَنَّ الأَب كان يأبى استفزاز تأثيرٍ عابرٍ، وربَّما بيَّن له حَدْسُه أَنّ جمهوره لم يعِ، بعدُ، رسالتَه وعيًا كافيًا، فنهض من جديدٍ، وما لبث صوتُه السَّاحر أَن أَخرس التمتمات السارية بين الحضور، وأَزاح النّقاب عن سرِّ مسعاه؛ وعندما استتبَّ الصَّمْتُ من جديدٍ، أَلقى في ثناياه حقائقَه الدَّامغة: "هنالك عالَمٌ واحدٌ، وقد فَضَحَتْ يقظةُ الفُقراء عجزَ المُتَسلِّطين. إنّ المحرومين الّذين ضربَتْهم الأَزَمة، والّذين أُقصوا إلى تخوم مجتمعنا، ليسوا فقط في حاجةٍ إلى تلقّي هباتٍ".

ثمَّ خطا خُطوةً أُخرى في إيضاح مرماه، فقال: "أَليس من السَّهل توقيعُ شيكٍ، من إعادة النَّظر في أُسلوب الحياة؟" وفي تحدٍّ مباشَرٍ هَتَف: "أَنتم، أَيّها الأغنياء الجُدُد، تتشبّثون بنظامٍ قد بدأَ يتعثّر".

أَمّا علاجُ الأَزَمة، في نظره، فالتَّضامنُ الّذي يؤدّي إلى المشاركة: مشاركةٍ في العمَل والدَّخل، وسكَنٍ لائقٍ للجميع، ومكافحة البطالة.

لقد كانت المشاركة هي جوهر خطابه وغايته، وكم كان يخشى أَن تتجاهلها وسائلُ الإعلام، ويتجاهلَها الجُمهور، فيكتفيا باندفاع سخاءٍ مؤقَّتٍ، ثمّ "تتوقَّفُ الأَعمالُ الإنسانيَّة، ويستمرُّ الجوع".

ومضى الأَبُ في إبراز المخاطر الَّتي تُهدِّد الاقتصادَ الغربيَّ، الَّذي يستمدُّ قسْطاً وافيًا من ازدهاره من عوائد الدُّيون الَّتي يُكبِّل بها العالَم الثالث؛ فتلك الدُّيونُ تعود عليه بغنائمَ تفوقُ كُلَّ ما يُنفقه بحُجَّة تنمية العالَم الثَّالث، وهي، بالتَّالي، تُمثّل بركانًا قد يثور في أَيّةِ لحظةٍ، ويُطيحُ بالاقتصاد العالميّ برُمَّته. وتعرَّض الأَبُ أَيضاً للسِّياسة الزِّراعيَّة الخرقاء في العالَم الغربيّ، الَّتي، بفائضها، تدفع بمزارعيها إلى الإفلاس، في حين أَنّها لا تحاوِلُ سدّ ثُغرةٍ من جوع البلدان الفقيرة المُعْدَمة.

وكان من نتائج ذلك العَرْض المسرحيِّ الفُراديّ، الَّذي تمادى ثلاثَ ساعاتٍ، أَن تمكَّن ذلك الشَّيخُ الهَشُّ تعبئةَ فرنسا بأَكملها، بعد أَن أَدخلَ إلى رَوْع "جميع السُّعَداء

ذوي الأَفراح الجوفاء" أَنّ "الحرب قد أُعلنت، وأَنّ عليهم أَن يفتحوا عيونهم".

وقد استفزّ خِطابُه مساندةً حقيقيَّةً سخيَّةً، واستدرَّ أَموالاً طائلةً، فأَعلنت بلديَّةُ باريس، ووزارةُ الزِّراعة، والجيش، ومؤسَّسات النَّقل، وشركاتُ الإِعلان، والإِذاعة والتلفزيون، الانضمام إِلى جهوده الرَّامية إِلى إِطلاق وإِنماء "مصرف غذائيّ"، مُهمَّتُه جمْعُ الأَغذية من الشَّركات الَّتي تنتِجُها وتُصنِّعُها، وتوزيعُها على المُعوزين، بواسطة مُؤَسَّساتٍ معتَرفٍ بها.

تلك الحملةُ على الفقر الَّتي قادها الأَبُ، في ذلك اليوم، في قصر المؤتمرات، لمواجهة مآسي شتاء ١٩٨٤ – ١٩٨٥، كانت صدًى لانتفاضة العَطف الَّتي استفزَّها عام ١٩٥٤، ولم تكن نتائج هذه دونَ نتائج تلك. ففي أَعقاب محاضرته، أَعلنتْ صحيفة "فرانس سوار" عزمَها على شنّ حملةِ دَعاوةٍ واسعةِ النِّطاق، وحملاتِ جَمْع أَغذية، وعلى إِقامة سِلْسلةٍ من الحفلات الَّتي يُرصَدُ رَيْعُها للمصرف الغذائيّ، وكانت الحصيلةُ ستَّةَ ملايين فرنكٍ، ومئتي أَلف طنٍّ من الموادّ الغذائيّةِ الَّتي وُزِّعتْ في شتَّى المناطق الفرنسيّة، بواسطة مئتي شاحنةٍ أَعارَها الجيشُ لهذا الغرض.

وانطلقتْ حملةٌ مُجَلْجِلةٌ شعَارُها "عيد ميلاد للأَب پيير" الَّذي أَطلق نداءً يقول "لا تُلقوا بقلوبكم في القمامة"، تردَّدتْ له أَصداء بعيدةُ المدى، تُرجمتْ عطاءً وسخاءً، وخيرًا وفيرًا للمعوزين، ووَعيًا للأَزمَة المُستحدَثة.

خطابُ الأَب پيير، في ذلك المساء، كان ينطوي على الكثير من الأَفكار الجديدة، ومن التَّحذير لنظامٍ اقتصاديٍّ أَعمى يجري حثيثًا نحو اندثاره. وقد علَّق الباحث "پاتريس غالّو" (PATRICE GALLAUD) عليه بالقول:

« تلك الرِّسالةُ الثَّوْريَّة والخطيرةُ إِلى حدٍّ مخيفٍ اَلَّتي تدعو كُلَّ فردٍ إِلى إِعادة نظرٍ جَوْهريَّةٍ في حياته الخاصَّة، وتدعو الجميعَ إِلى إِعادة النَّظر في النِّظام الاقتصاديِّ والاجتماعيّ، هل كان بِوسْع اَلرَّأْي العامّ استيعابُ كُلِّ أَبعادها؟ من المُؤَكد أَنَّه لم يكن قادرًا على ذلك، لأَنَّ العطاءَ أَسهلُ من المشاركة. إِنَّ تلك الصَّيْحةَ النَّبويَّةَ الَّتي أَطلقها الأَبُ پيير عام ١٩٨٤، وكان، في ذلك، وَفيًّا مع ذاته، مُتَحدِّيًا ومُزْعجًا، قد بُسِّطت، وخُفِّضت فحواها إِلى مستوًى مقبولٍ، ولا رَيْبَ، مع ذلك، أَنّ تلك الفحوى، لم تكن بالأَمر اليسير. إِنّ ميزةَ عمل الأَب پيير، والطَّبيعةَ النَّبويَّةَ لِنضاله

المستمرّ لا تُقيمان منه زعيمًا، بل شاهدًا. قد يزعم البعض أنَّه يَعِظُ في البَيْداء؛ ولكن ليس ذلك صحيحًا، فهو إنّما يشهد لحقيقة ما بَرِحتْ خفيَّةً. هل سيُحوِّلُهُ الواقعُ، الّذي سيُؤَكِّد صوابَ رُؤْيته، إلى دليلٍ بليغ التّأثير؟ كلاّ، فهو، بالأحرى، المهماز. إنّه يرى أبعد من الآخرين، وينذرهم، ويشهد لحقيقةٍ ما زالت كمينةً ».

ولئن كانت المشاركة الّتي طالب بها هي الطريق، فالغايةُ هي اللّقاءُ بالأزليّ. وفي ذلك هو يقول: "من سار في عكس التّيّار العامّ، عن حُبٍّ صادقٍ، يعلم أنّ الربّ الأزليّ الذي لا يمكن الإلمام به يضع عليه يده، وأنّ الحبَّ اللاّنهائيّ يُحبُّه. يكفي، لأجل ذلك، القبولُ بما يَحْدُث، ولو على غير إعدادٍ أو تخطيطٍ له، والإيمانُ الصّامد بالله".

وهكذا، ثلاثين سنةً بعد انتفاضة عام ١٩٥٤، ارتقى الأبُ إلى ذُروةٍ أُخرى، اكتملتْ بها قامتُه، بصفته "رجلَ التحدّي"، لا في معزلٍ عن عمّاوس، بل في امتدادٍ لرسالتها.

وبذلك باتَ قُدوةً وشريكًا لكلِّ ساعٍ إلى تمجيد الله في الفقير والمحتاج.

الأب پيير و"كولوش"

من الدَّواعي الَّتي أخرجَتْ الأَبَ من خَلْوَته، مشاركتُه في جنازة المُمثِّل الهزليّ، "كولوش" (COLUCHE)، الَّذي اشتهرَ، أثناءَ مسيرته المِهْنِيَّة الفَنِّيَّة بعباراته المُقْذعة، ونقدِه اللاّذع، والَّذي لم يتحرَّج من ترشيح نفسه لانتخابات رئاسة الجمهوريّة في فرنسا، عام ١٩٨٢، وخاض، في هذا السَّبيل، حملةً ساخرةً استهدفت فَضْح السِّياسيّين أيًّا كان انتماؤهم. غير أنَّه، في ما بعد، خاض حملةً أُخرى على جوع مواطنيه، أبرزتْ بعدَه الإنسانيّ الرَّفيع.

فذلك المُهرِّج كان يُخْفي، وراءَ مظاهر الاستهتار، قلبًا كريمًا. ويومَ تبيَّنَ أنَّ قَوْمًا من مُواطنيه جائعون، وأنّ عددَهم ماضٍ في التَّفاقُم، تخلّى عن التَّمثيل الهزليّ، ليقومَ بدورِ حياته الأَساسيّ المُتمثِّل في الذَّوْد عن كرامة الإنسان، وإطعام الجياع.

وكان أوَّلَ من تبادَر إلى ذهنه الأبُ پيير، فهو خيْرُ من يدعَم جهودَه في هذا المضمار. وعندما سعى للاتّصال به، قيل له: "الأَب طاعنٌ في السِّنِّ، وهو غالبًا

طريحُ الفراش، ويقضي مُعْظَم وقته في منسك..." وأُسقط في يده، غير أنّه لم يتنكّب عن مهمّته، ومضى يُؤسِّس "مطاعم القلوب"، حيثُ يُقدِّم الطَّعامَ للمحرومين، مقرونًـا بالعَطْف والحنان، ويَجبي، لهذا الغَرَض، التبرُّعاتِ الَّتي كان حاذقًا في اجتذابها.

وإذْ كان "كولوش" يفخَر أَبدًا بسَيْره في خُطى الأَب پـيير، سـعى صَـحافيّون كَلِفون بالفضائح إِلى الحصول من الأَب عن تصريحٍ من شأنه إِحراجُه، أَوْ إِحـراجُ الممثّل "كولوش"، فاعترف الأَبُ بعدَم معرفته له، وبعدم سماعه أَيِّ شـيءٍ منـه أَو عنه، غير أَنّه استدركَ فقال: "ولكن، صحيحٌ أَنَّ الجوعَ منتشرٌ في فرنسا، ومرحـى لكلّ جُهدٍ مخلِصٍ في سبيل القضاء على ذلك الوَباء الأَحمق". ثـمّ عَهِـدَ الأَبُ إِلـى الصحافيّين بإِبلاغ "كولوش" أَنّه، إِن أَفلح في مسعاه، واتَّسع مشروعه، فالأَب، باسـم خبرته في هذا المجال، يدعوه إِلى أَن يُسارع فيُقيمَ من حوله أُناسًـا مـشهودًا لهـم بالنَّزاهة والحنْكة الإِداريَّة، درْءًا لكلّ شكٍّ، أَو خـلافٍ، أَوْ اتِّهـامٍ بـسوءِ اسـتخدام التبرّعات. ولقد أَخذ "كولوش" بتلك النّصيحة، فلقيَ مشروعُ "مطاعم القُلوب" نجاحًـا باهرًا، ولم يتسنَّ لأَحَدٍ الطَّعنُ في أُسلوب توزيع التبرُّعات الَّذي كان مُحكمًا وناجعًا.

وعندما انتهتْ حملةُ "مطاعم القلوب" الأُولى، في ذلك الشِّتاء، كان لدى "كولوش" فائضٌ يبلغ نحو مليونٍ ونصف المليون من الفرنكات، فلم يجد من يأْتمنه عليه خيـرًا من الأَب پـيير؛ وفي سرِّيَّةٍ تامَّةٍ، من غير إِعلانٍ ولا ضجيجٍ، طلب مقابلة الأَب في ٢٥ آذار ١٩٨٦، وكان الأَب، آنذاك، مُتْعَبًا يستجمُّ في مقـرِّه بمدينـة "شـارانتون"، وحائرًا في جدوى مقابلة "كولوش" الَّتي لم يكن يعلم شيئًا عـن دوافعهـا. غيـر أَنَّ رفيقه، الأَب "جاك پيروتيّ" كان مِلحاحًا، مؤكِّدًا أَنَّه لا يسوغُ رَفْض مثل ذلك اللِّقاء.

البَوْن شاسعٌ بين ممثّلٍ خبيرٍ بالاستعانة بوسائل الإِعلام، وإِنسانٍ سـلاحُه قلبُـه وحُبُّه للآخرين، وذلك ما عبَّر عنه "كولوش" بقوله: « الأَب پـيير، يا له من شـيخٍ طيّبٍ. ولكنّه يقتُل نفسَه في العمل ولا مُعينَ له سوى الله، في حين أَنا أَستعينُ بوسائل الإِعلام، وأنا مُستَعِدٌّ لأَتخلّى لها عن قميصي ».

ولكنّ رباطًا سرِّيًّا وثيقًا كان يشدُّ أَحدَهما للآخر، أَلا وهـو حبُّهمـا المُـشتَرك للإِنسان، واندفاعُهما في خِدْمة كُلِّ فقيرٍ جائعٍ.

ووقف "كولوش " في قاعة الطَّعامِ الضَّيِّقة، خَجِلاً، مرتبكًا، مثـل طالـبٍ فـي

امتحان، فيما انتصبَ الأَب عندَ إِحدى زوايا المِنضَدَة، وسادتْ فترةُ صَمْتٍ، ثُمَّ استلَّ "كولوش" من جيبه شيكًا وقال:

– « هذا ما جئتُ من أَجله. إِنّ الفرنسيّين شَغِفون بالطَّعام، أَبتِ، وقد آلمني أَنَّ بعضًا منهم لا يَجِدون إِلى الشَّبع سبيلاً. ولذلك أَعددتُ العدَّةَ لمواصلة إِطعامهم في الشتاء المقبل؛ وبانتظار ذلك، إِليك هذا المبلغ ».

وردّ الأَب:

– « كولوش، بفضل التبرُّعاتِ الَّتي وردتنا بمناسبة عيد الميلاد قد ابتعنا بناءً، ونحن عاكفون على تجديده بمُساعدةِ وزاره الشؤون الاجتماعيّة، بحيثُ يُستَخدَم طابقان لإيواء من لا مأْوى لهم، حتّى في أَقسى أَيّام الشِّتاء برْدًا، في حين يحتوي الطَّابقُ الأَرضيّ على مطعمٍ يستطيع تقديمَ ثلاث مئة وجبة طعامٍ. وكُنَّا حائرين في كيفيّة تمويل ذلك المطعم، وقد جاءَتْ هِبَتُكَ حَلاًّ لمُشكلتنا، فبفضلها سنشرع بتقديم الحساء في مطلع الشِّتاء المُقبل ».

وكان الأَبُ قد حُذِّرَ من أَنّ "كولوش" لا يحترم أَحدًا، وبأَنَّه قد يُصيبه بشيءٍ من مُقذع نكاته؛ إِلاّ أَنّ "كولوش" قد أَثبتَ أَنّه، عندما يتعلَّق الأَمرُ بقضايا جادَّةٍ، مُتَّصلةٍ بحياة المحرومين، يعرفُ كيف يكون وقورًا، ما حدا بالأَب إِلى أن يُهدي إِليه رسمًا غاليًا على قلبه، فقال له:

– « كولوش، لديَّ شَيْءٌ أُحبُّه كثيرًا، أَصْلُه مرسومٌ على كتاب صلواتي، يُمثِّلُ قَوْسَ قُزَح، ولديَّ صورةٌ مُكَبَّرةٌ عنه، أُهديها إِليك. هل تعرف "نشيد الخلائق" للقدّيس فرنسيس الأَسّيزي، الَّذي يستهلّه بالقول: "بوركتَ يا إِلهي من أَجل أُختي الشَّمس، وأَخي القمر، والنجوم...؟ »

– « إِنّه لرائعٌ

– "لقد أَضفتُ إِليه مقطعًا، في ليلةٍ كانت لي ذاتَ شأنٍ خطير، إِذ كان عليّ أَن أُبرزَ نذوري في جمعيّة القدّيس فرنسيس؛ وكنتُ مُعْتَلَّ الصحّة، فارتَأى رؤَسائي ردعي عن تلك النُّذور، ولكنّي كنتُ مُصِرًّا عليها؛ وجفاني النومُ في تلك اللَّيلةِ، فرسمتُ على كتاب صلواتي القدّيسَ فرنسيس تحتَ المطر مُتَهَلِّلاً أَمامَ منظر غيمةٍ تتمزَّق، وتنفرج عن مطرٍ وأَشعَّةِ شمْسٍ، وقوس قزَحٍ رائعٍ، وتحت الرَّسم كتبتُ:

"المجد والتسبيحُ لك، يا ربُّ، من أَجل أَخينا قَوْس قُزَح
"الَّذي أَعطيتَنا إِيّاه، بالأَمسِ، ضماناً لعَهْدِكَ معنا...
"بوركتَ، أَنت، يا ربّ،
"لانقشاع الغَيْمة،
"ولبسمتك من خِلالِ الدُّموع، ولفَرحِك على الصَّليب ».

وكان "كولوش" من شدَّةِ التأَثُّر بحيثُ لم يُحِرْ جوابًا، في حين شخصت أَبصاره إِلى الجدار، حيثُ عُلِّقت صورةٌ مكبَّرةٌ لذلك الرَّسم، سارع الأَبُ إِلى انتزاعها، ولفِّها، ودسّها تحتَ إِبطِ زائره. ثمَّ قطعَ صمتَهما طَلَبُ مُصَوِّرٍ كان حاضرًا لقاءَهما، أَهاب بهما أَن يقتربا ويقفا معًا تحت تمثالٍ للعذراء. وروى الأَب لضيفه قصّة ذلك التمثال، فقال:

– « ذات يومٍ من عام ١٩٥١، إِذ كنتُ نائبًا، دعاني أَحد حُرّاس المجلس، وشخصتُ إِلى القاعة، فإِذا بي إِزاءَ كاهنٍ مُريع المنظر، قَذِر الجُبَّة، غيرِ حليقٍ، انتشرتْ في وجهه جروحٌ متقيِّحةٌ، بادرني بالقول: "أَبت، لقد فقدتُ رُشدي، وها أَنذا، منذُ أَيّامٍ، أَتسكّع في الشوارع، وقد راودَتْني شتَّى الوساوس، وكدتُ أُلقي بنفسي في نهر السِّين؛ وفيما كنتُ جالسًا على مِقْعدٍ خشبيٍّ، التقطتُ صحيفةً كانت مرميّةً عليه، وطالعتُ فيها أَخبارَ كاهنٍ نائبٍ، ممّا دفع بي إِلى هنا". وسأَلتُه هل كان قد تناوَل أَيَّ طعامٍ فأَجاب: "كلاّ، بل مَضَغْتُ بضعة أَعقاب سجائر". فجئتُه، للحال، بسندويش، وفي أَعقاب انتهاء جلسة البرلمان، اصطحبتُه إِلى منزلي، حيثُ غدا من رفاق "عمّاوس" العشرين الأَوَّلين، الَّذين لم يكونوا يجمعون النِّفاياتِ، بعْدُ، بل يعتاشون بتعويضاتي النيابيَّة، ويبنون بُيوتًا لمن لا مأْوى لهم، غالبًا بلا ترخيصٍ. وعالجنا الكاهنَ حتّى شُفِي تمامًا، وعندما عَزَمَ على الرَّحيل، جاءَني قائلاً: "كيفَ لي أَن أُعبِّر تعبيرًا كافيًا عن شكري لجميع الرّفاق ولك؟ أنا لم أكنْ أَحملُ في قِمَطْري سوى شيءٍ واحدٍ قَيِّمٍ عندما طفقتُ أَتَسكَّع..." ذلك الشيءُ كان مخطوطاً من مئةٍ وخمسين صفحةً، مع مقدّمةٍ وضَعَها رئيس أساقفة ليبج في بلجيكا، وتتضمّن دراسةً دقيقةً وعلميَّةً، عمّا صرَّح به طفلان من محلَّة "بانّو" (BANNEUX) البلجيكيّة القريبة من ليبج، ظهرتْ لهما السَّيِّدةُ العذراء، وأَعلنت: "أَنا عذراء الفقراء، وعذراء الأُمَم ».

وتابع الأَب روايتَه فقال: « لقد صُنِعتْ لهذه العذراء تماثيل، وأُرسِلَ لي أوّلُ تمثالٍ منها، فوضعتُه على رفٍّ خشبيٍّ في غرفتي، وفي تلك الأيّام، كنتُ دائمًا مرهقًا، وكان عليّ أن أعملَ وأكتبَ واقفًا، لكيلا أغفو، وإلى جانبي كانت تسهرُ العذراء، سيِّدةُ الفُقَراء. وفي كانون الثّاني من عام ١٩٥٤، في السّاعة الثالثة صباحًا، كَتبتُ بقربها، بل عندَ أقدامها، رسالتي إلى وزير الإسكان، الّتي أثارت تلك الانتفاضة الّتي أفضتْ إلى تغيير القوانين ».

وكان "كولوش" يُنصتُ في تأثُّرٍ بالغٍ، وقد سَقَطَ قِناعه، وبرزَ وجهُهُ الحقيقيّ، ولم يستَطِعْ أن يقول، وهو يشدّ على يد الأَب مودّعًا، سوى: "ينبغي أن نلتقي من جديدٍ". ولم يكدْ يمضِ شهران على ذلك اللّقاء، حتّى اتّصل الصّحافيّ الشهير "جان پيير الكبّاش" بالأَب پيير، منبئًا إيّاه، وَسْط العَبَرات: "لقد لقي كولوش حتفَه على درّاجته الناريّة..." فقال له الأَب:

– "أَبلغْ والدتَه أنّني سآتي للصّلاة عليه، سواءٌ قرّروا إقامةَ جنازةٍ دينيّةٍ أَمْ لا".

ثمّ اتّصل مديرُ أعمال "كولوش" بالأَب پيير ليُبلّغه: « إنّ والدته حريصةٌ جدًّا على أن تُقيم له صلاة الجنازة، وراغبةٌ في أن يتمّ ذلك في ضاحية "مونروج" الباريسيّة، حيثُ عاشت الأُسرة دائمًا. ولكنّنا نَجهلُ تقاليد كنيستكم، ولا نُريد إغضابَ كاهن المحلّة ».

وأَجاب الأَب پيير: "لا عليك، فسأَتدبَّر الأَمرَ معه، وسنَشترك معًا في الصّلاة".

وقد أَسهمت بلديّة "مونروج" في إثبات مُكبِّرات الصَّوْت على الأَشجار، ونشرها في زوايا الشّوارع؛ وبعد أَن أَدّى "إخوة كولوش"، راكبو الدرّاجات الناريَّة، بفَرْقَعات مُحرّكَاتهم، التَّحيّةَ الأَخيرة لفقيدهم، صَمَتوا كي يُنصتوا، هم وحَشْدُ المراهقين والشّبَّان الَّذين تراصُّوا للاشتراك في تشييع بَطَلهم، إِلى كلماتٍ رقيقةٍ لم يألفوها، تتحدَّثُ عن الحنان، والحُبّ، والحُزن، والرَّجاء، وممّا قاله الأَبُ في تلك المناسبة:

« لسنواتٍ خلت زُرْتُ مركزَ جماعتنا في "پونتو كومبو"، حيثُ كانَ الرِّفاق قد التقطوا تِمثالاً للعذراء، ونَصَبوه في قاعة الطَّعام، ووضعَ أَحدُهم أَمامه لافتةً كتَبَ عليها: "يا سيّدةَ المُشرّدين، استقبلينا". ونحن، جميعنا، مُشرَّدون.

"إنّنا هنا، اليومَ، شديدو التَّماسُك حول واحدٍ من الرّجال العديدين الَّــذين يلقَــوْن حتفهم في كُلِّ ساعة. لمَ نحن بهذا العَدَد الغفير، وكُلٌّ منّا يحــاولُ أَن يُــصلّي كمــا يستطيع؟ أَليس لأَنّ الّذي استدعاه الله بَغْتَةً إِليه، قد شاءَ أَن يكون، ولــو كلَّفــه ذلــك رغيفَه اليوميّ، الرَّجلَ الَّذي يعني "نَعَمُه" نعم و"كلاّه" كلاّ، وحَرِصَ علــى أَن يخــدُمَ الأَكثر تأَلّمًا، في المقام الأَوّل؟ فلنجهَدنّ في اقتفاء أثره...

"ولئن بكت الشَّبيبةُ "كولوش" فلكي تشكر له هَتْكَه أَقنعَة رِياءِ مُجْتَمَعِنا المُهــذَّب. فلقد كان الشَّاهد الَّذي يتَّهم، ويعمل ».

وفي ما بعد، علَّقَ الأَبُ على زيارة "كولوش" له بالقول: « عندما زارني لأَسابيعَ خَلَتْ، اكتشفتُ سِرَّ الإِنسان بلا قناعٍ؛ فلجميعنا أَقنعةٌ، شئنا أَمْ أَبينا. وجميعُنا نــسعى لإِبراز شخصيَّةٍ مُحدَّدةٍ. أَمَّا أَعماقُ كياننا الحميمة، فتَظَلُّ غارقةً في السِّرِّ ».

وعلَّقَ أَحدُ المُثقَّفين المسلمين على جنازة "كولوش" بالقول:

« لقد علمتُ أَنّ الأَب پــيير كان هناك، وأَنّه كان قريبًا من "كولوش". تأَمَّلوا رَوْعة رحمة الله! لقد كان تعالى يُحبّ "كولوش". لماذا؟ الأَمرُ لا يعنينا. ولكن من المُحقَّــق أَنَّ الرَّبَّ كان يُحبّه، وكان عالمًا بأَنَّه سيستدعيه سريعًا إِليه، وبأَنّ سيرته لم تكن دائمًا مثاليّةً. ولكن لأَنّ الله أَحبَّه، أَوحى له أَن يقضي الأَشهُر الثَّلاثةَ الأَخيرة من حياته، مُنْهِكًا ذاتَه في سبيل الأَكثر بُؤسًا، فيرعاه تعالى بدلاله عندما سينتهي إِلى ديارِه ».

رالي باريس – داكار

من القضايا الَّتي تصدّى لها الأَب پــيير بعنفٍ مُؤَخَّرًا سباقُ السَّيَّارات الــشَّهير برالي باريس– داكار، الَّذي يحظى لدى فئةٍ من الفرنسيّين بشعبيَّةٍ واسعةٍ. وفي حين ارتفعتْ أَصواتُ مُطربين، وفنّانين، وسياسيّين، ورياضيّين، مُشيدَةً بتلــك التَّظــاهرةِ الصّاخبة، وحدَهُ صوتُ الأَب پــيير علا بالشَّجْب والتَّنديد، لأَنَّــه رأى فيــه مَــسْخًا للعلاقة بين الجنوب والشّمال، وعارًا في بَسْط بَذْخ الغَرْب البَطِر، تحتَ أَنظار واحــدٍ من أكثر الشُّعوب الأَفريقيّة فقرًا.

وقد أَعلن بجرأةٍ: « بينما يَنفُقُ أَناسٌ جوعًا، لعجزهم عن توزيع الحبوب الَّتــي جمعوها من شتّى البُلدان، والمكدّسة في موانئهم، بسبب الافتقار إِلى وســائل النَّقــل،

تُتْخَم وُحوشُنا الميكانيكيّة بالمحروقات والزّيوت. وعلى حجَّةِ البعض بأَنّ وُجَهاءَ المنطقة يرغبون في مرور السِّباق بأَراضيهم، لأَنّه يُمثِّل دَعاوَةً للسّياحة في تلك البلاد، أُجيب: إِنّ وُجَهاء المناطق الَّتي يجتازُها السِّباق، قلّما يتكلّمون بلسان شعوبهم... وغالبًا ما أَعلمني أَصدقائي أَنَّ قوافلَ سيّارات السِّباق قد هوجمتْ بالحجارة، تعبيرًا عن سُخْط الأَهالي ».

ويستنكر الأبُ المبالغَ المجنونةَ من المال الَّتي تُهدَر على تلك المخاطرة، فكلْفةُ دخول سيّارةٍ واحدةٍ السِّباقَ تتجاوزُ خمس مئة أَلف فرنكٍ، وهو مبلغٌ يتخطّى الدَّخلَ السَّنويّ لثماني مئةٍ من سُكّان "تشاد" أو "مالي"، ويُضيف قائلاً: « وإِذا ما ضلَّتْ إِحدى تلك السيّارات طريقَها أُعلنت، في الحال، التعبئةُ العامَّة، وتدخَّل الجيشُ والطيرانُ والإِسعاف. أَمّا إِذا دعت الحاجة إِلى نقل فتاةٍ صغيرةٍ إِلى المستشفى، فثمّة أَلفُ عائقٍ دون الحُصول على وسيلة نقل ».

ويُهيب الأَب بالمتسابقين أَن يراعوا شعور الأَهالي الفقراء، فيخاطبهم بلهجته الناريّة: « لا بأْس إِن تناولتم اللَّحم المشويّ اللَّذيذ، وليس إِقلاعُكم عن تناوله هو الَّذي سيقضي على الجوع في العالم. ولكنّكم ستثبتون حقارتكم إِن أَنتم تناولتموه تحت أَنظار أُناسٍ لا خبزَ لديهم يُطعمونَ به صغارَهم ».

ثمّ إِنّ الأَبَ يخشى على الصَّحراء أَن تفقد روحَها وطهارتها إِن اقتحمتْها تلك الوحوش الميكانيكيّة، فضلاً عن تنديده بما تُحدثه من زعزعةٍ للجسور، ومن طمسٍ لمعالمِ الدُّروب.

كثيرون جَهدوا في رَدْعه عن مقاومة "الرالي"، أَو حاولوا إِغراءَه بالسُّكوتِ مُقابلَ منَحٍ قيِّمةٍ يَهَبونَها لعمّاوس، وللبلاد الأَفريقيّة، ولكن لا سبيل إِلى إِسكاته أو إِغرائه، طالمَا امتُهنتْ كرامةُ فقيرٍ أَو جُرِح شعورُ ضعيفٍ.

الشاهد

كانت الآنسة "كوتاز" هي الصِّلَة بين الأَب پيير وحركة "عمّاوس"، ولكن قُبَيْل المرض الَّذي أَقعدَها، شرَعَ الأَب يتباعَد، طَوْعًا، عن إِدارة الحركة. وبمناسبة انعقاد الهيئة العامَّة في الدانمرك، عام ١٩٧٩ خاطب الرِّفاق قائلاً: « للمرّة الأُولى ينتابُني

شُعورٌ بأَنّكم بالغون، وأنّه بات بوسعي أَن أغيب بين ليلةٍ وضحاها، فلا تزول هذه الحركة التي وُلِدتْ خارج إرادتي، والَّتي كنتُ أَداةً لها، على غير اختيارٍ منّي ».

وقد كرَّسَ رحيلُ الآنسة "كوتاز" الانفصامَ بين إدارة "عمّاوس" الفِعْليَّة ومؤسِّسها الذي صرّح: "إنّ دَوْري، اليوم، ينطوي على فترة صحراء، وعُزْلة... الشَّهادة، تلك هي الرِّسالة الَّتي أَشعرُ أَنّني مدعوٌّ إِليها منذُ الآن".

وهل كانت حياته كلُّها سوى شهادةٍ يوميّةٍ، وسوى تذكيرِ الجميع، ولا سيَّما الشّباب، بأَنَّ مُهمّة الحياة هي تعلُّم الحبّ؟

غير أَنّه، في هذه الحقبة المُتَميّزَة بانهيار التوازن العالميّ المزعوم، وفَشَلِ الإيديولوجيَّات الَّتي ادَّعت إِعادة تنظيم الكَوْن، وحالةِ الفراغ المُريعة الَّتي هتكت النِّقابَ عن جروح البشريّة النازفة، وعن افتقارها إِلى المُرشد والدَّليل، اشتدَّت الحاجةُ أكثر منها في أَيَّة حِقْبةٍ أُخرى، إِلى شُهودٍ من أَمثال الأَب پيير يهزُّون الضَّمائر، ويُذكِّرون بمعاني الحياة الحقَّة، ويفضحون الممارساتِ الَّتي تُزري بالكرامة الإِنسانيّة، وتودي بالظَّالمين والمظلومين، معًا، إِلى الانحطاط.

في مطلع الثمانينات، كان للأَب مواقفُ ذاتُ أَصداء بعيدة المدى، في مجالَي الدّفاع عن حُقوق الإِنسان والذَّوْد عن المحرومين، وكانت أَبرزَها الحملةُ المدويّةُ الَّتي شنَّها في خريف عام ١٩٨٤، والَّتي أَعادته بقوَّةٍ إِلى واجهة المسرح، بعد غيابٍ تمادى زهاءَ خمسةَ عشرَ عامًا، وأَسهمتْ في التفاف العمَّاوسيّين من حوْله، وتوثيق لُحْمةِ وَحْدتهم، وتأكيد مسكونيّتهم الَّتي ما انفكَّ الأَبُ يدعوهم إِليها منذُ السبعينات، ممّا أَفضى إِلى الإعلان، في العشرين من تشرين الثاني ١٩٨٥، عن انضمام جميع الفئات والجماعات الفرنسيَّة المنتمية إِلى "عمّاوس " في مؤسَّسة "عمّاوس فرنسا" الَّتي اعتبرتْها الدَّوْلةُ الفرنسيَّة مؤسَّسةً ذات نَفعٍ عامٍّ.

ولكن، في ذلك اليوم الَّذي تحقَّقت، رسميًّا، وحدةُ "عمّاوس" في فرنسا، لم يتسنَّ للمؤسِّس أَن يكون بين إِخوته ليُعرب لهم عن اعتزازه وفَرَحه بالحَدَث الَّذي طالما تطلّع إِليه. ففي أَعقاب الزّيارات الَّتي دُعيَ إِليها من كلّ صَوْبٍ، والالتماسات الَّتي لم يكن يقوى إِلاّ على تلبيتها، انتهى إِلى المستشفى، ومن هناك وجَّه إِلى "جميع الَّذين تقومُ على كواهلهم حركةُ "عمّاوس فرنسا"، الآنَ، وفي المُستقبل، رسالةَ مودَّةٍ ووفاءٍ

ورَجاءٍ في أَن يواصِلَ اتِّحادُهم المُتضامنُ ابتكارَ أَجوبةٍ جديدةٍ على الآلام الآخذة في التفاقُم". وقد وقّع الأَب على تلك الرّسالة بعبارة "أَخوكم"، أَخٌ لم تُتِحْ له قواه الحضورَ جسديًّا، غير أَنَّه كان مُتّحدًا معهم اتِّحادًا كاملاً، بأُسلوب عمله الآخر: الصَّلاة، والتَّقدمة، والعبادة، "عملٍ واقعيٍّ إِلى أَبعد حدٍّ".

لقد آن للمحارب الَّذي ناضل النِّضالَ الحَسَن، وبلغَ الثالثة والسَّبعين من العمر، أَن يودع شُعلةَ "عمّاوس" أَياديَ أَوْفَر شبابًا وهمَّةً؛ غير أَنّ بينه وبين ربيبته مشاركةً عميقةَ الجذور لا تفتر، ولن ينال منها أَيُّ عامل.

لقد واكب المَرَضُ الأَبَ پيير منذُ شبابه، وكان لحياته الصَّاخبة الحافلةِ بالبَذْل والإرهاق يدٌ في هدِّ جسمه الهَشّ، على نحوٍ مُبكِّرٍ، ولا عَجَبَ إِن انقضَّتْ عليه أَسقامُ الشّيخوخة منذُ الثَّمانينات. وهو، مُذَّاك، توّاقٌ إِلى "العطلة الكبرى" الَّتي تُمكِّنه من اللِّقاء الحاسم بالأَزَليِّ الَّذي هو حبٌّ، مُستَسْلمٌ لعَبَث الموت الَّذي يدنو تارةً، ويبتعد أُخرى.

فقد مُنيَ بداء "باركنسون"، بحيثُ غدا عاجزًا عن كتابة سَطْرٍ واحدٍ، غير أَنّ علاجًا مُحْكَمًا قد خفّف كثيرًا من آثار ذلك الدَّاء، وأَعادَ له القُدرَة على استخدام يدَيْه. وتحفَل دفاترُ مُذكّراته بعباراتٍ تصفُ تَوْقَه إِلى اللّقاء الأَعظم. ففي ١٩٨٦/١/١٧، إثر حضوره عرض مسرحيَّته "سرّ الفرَح"، كتب: « في ذلك اليوم ساءَت صِحّتي جدًّا، ورأيتُ الموتَ قادمًا... تعالَ، تعالَ، تعالَ إِلى ابنك الَّذي يُحبُّك حُبًّا جمًّا، مُنذ صباه. أَعلمُ أَنّني قد أَقضي نحبي في غضون لحظاتٍ، ويُذكّرني بذلك، في كلِّ ساعةٍ، الأَلَمُ الحادُّ الناشبُ بِمعْصَم يدي اليُسرى. أَجل، إِلهي، أَجل، أَجل... ».

وفي ١٩٨٨/٤/٢٥ دوّن: « يا أُمّ الله، أُمّاه، هلُمّي واشهدي اللِّقاءَ... من جديدٍ، نَفْسُ الأَلَم في مِعْصَم يدي اليُسرى حيثُ يُجَسّ النبض. كدْتُ أَقضي نحبي هذه اللَّيلة. الوجَعُ يعودُ أَشدَّ إِيلامًا: أَهو يبتغي إِبلاغي أَنّ الأَجَل قريبٌ. هيّا، اللّهمَّ، تعالَ، وتكلّم إِلى قلوب من يتوجَّب عليَّ التحدُّثُ إِليهم في الأَيّام المقبلة... ».

وفي الأَوّل من تشرين الأول ١٩٨٨، كتب: « يا إلهي، هذا المساء، للمرّة الأُولى، لقيتُ مشقَّةً في التلفُّظ ببضعة مقاطع، كما حدَثَ للآنسة "كوتاز" عشيَّة إِصابتها بالفالج. تعالَ، إِلهي، إِنّي جائعٌ إِليك ».

غير أَنّ ذلك المُناضل الأَصيل، مع وهَن قواه، لم يُلقِ سلاحه، ولم يبارحْ السَّاحةَ، فهو ما فتئ حتّى اليوم، لا يُفوِّت سانحةً حتّى ينقضّ إِلى واجهة المسرح العالَميّ، بوجهه التَّعِب والَّذي ما انفكَّ يشعُّ عزيمةً، ولحيته البيضاء، وعينَيْه الغائرتَيْن اللَّتَيْن يتطاير من تحت نظَّارتَيْهما شررُ النَّفْس المُلتهبة، فيُعلن كلمتَه النَّبَويّة الَّتي تُندِّد، في جرأةٍ نادرةٍ، بالظُّلم والخطأ، وتَهدي، في وضوح رؤيةٍ ثاقبةٍ، إِلى سِراطِ الخلاص، وتدعو، بحرارةٍ، إِلى المحبَّة والمُشاركة. ولا يكاد يمرُّ شهرٌ من غير أَن تبرز على شاشات التلفزيون صورتُه، مُقابلاً أَحد الرُّؤَساء، أَو خطيبًا في مناسبةٍ عامّةٍ، أو مفتيًا في قضيّةٍ وطنيَّةٍ أَو دوليَّةٍ تشغل الرأْيَ العامّ، ويترجَّع صدى صوته الَّذي يبدأُ واهنًا مُغَمْغِمًا، ثُمَّ لا تلبث أَن تستعيد نبرته قوَّتَها وحرارتَها، ذلك الصَّوت الَّذي يُخيف المسؤولين المتقاعسين، ويشدُّ عزيمةَ المتردِّدين، ويُفَجِّر الاندفاعَ لدى ناشدي الحياة الحقّة.

وقد أَهاب بالأَب أَصدقاؤُه الكُثُر، خشيةً على جُذْوَةِ حياته الثَّمينة من الهُمود، أَن يُخلد إِلى راحةٍ استحقَّها جهادُه الطَّويلُ، وقد صادفتْ تلك الدَّعوةُ من نفسه تلهُّفًا للعوْدة إِلى حياة العبادة والاعتكاف، يُنهي بها حياته، على نحو ما استهلَّها، في حوارٍ حميمٍ مع الربّ "الأَزليّ الَّذي هو حُبٌّ".

وقد راودتْه، أَوَّلاً، الرَّغبةُ في الشُّخوص إِلى الدَّيْر الَّذي كان قد فَزِع إِليه، وهو راهبٌ شابٌّ، عام ١٩٣٨، وحيثُ تبلور قرارُه في مُغادرة دير "كريست" من أجل الانصراف إِلى مهامِّ الرّسالة. ثُمَّ طارَ به الخاطرُ إِلى منسك "تاميه" حيثُ تُمارَس الحياةُ النُّسكيّةُ ممارسةً مُطلقةً، وحيثُ كان صديقان له يتمنَّيان انضمامَه إِليهما. إلاّ أَنّ أَصدقاءَه اعترضوا على ذَيْنك الخيارَيْن كلَيْهما، فالمكانان شديدا البُعد عن باريس، ما قد يفرضُ على كلِّ زائرٍ قادمٍ من مكانٍ قصيٍّ، يومَ سفرٍ إِضافيًّا من أَجل مقابلته والتحدُّث إِليه.

وأَخيرًا استقرَّ خيارُه على دير "سان ڤاندريل" البينيديكتيّ، الَّذي كان، بدعوةٍ من رئيسه، قد تحدّث مرَّتَيْن إِلى رُهبانه؛ وكان ذلك الدَّيْر قد استحوَذَ على قلبه، لكونه يقرن الوقار بالبشاشة؛ وعندما التمس الاعتكاف في ذلك الدَّير، لم يُخفِ عن رئيسه

ما قد يُسبِّبهُ وجودُه فيه من إزعاجٍ، من جرَّاء كثْرة الوافدين لمقابلته. إلاّ أن رئيس الدَّير اقتصر على الإجابة:

– "شكرًا لاختيارك ديرَنا".

في منسك "سان ڤاندريل" لا شيءَ يقطعُ الصَّمتَ سوى رنّات النَّواقيس داعيةً، سبع مرّاتٍ كُلَّ يومٍ، إلى الصَّلاةِ. إنّها دعوةٌ دائمةٌ إلى الصَّحراء في صومعةٍ مساحتُها دون عشرة أمتارٍ مربَّعةٍ، يزيدُها ضيقًا الأشياءُ المتراكمة على رُفوفٍ مصنوعةٍ من صناديقَ عتيقةٍ مستعملةٍ: علب كرتونٍ، وأوراقٌ، وكتبٌ، وفوق المغسلة المزدحمة بالعقاقير، يسهر وجهُ "لوسي كوتاز"، وقد أضفى عليه الموتُ سلامًا أبديًّا.

ذلك المَنْسكُ هو الملجأُ الَّذي فَرع إليه "متمرّد الله"، في طريق عودته إلى الينابيع، إلى العبادة الّتي انسابتْ في أَجوائها الصَّافية سنواتُ شبابه، وفي بوتقتها انصهرت شخصيَّتُه، ممّا زوَّده بالطَّاقة الفذَّة على خوْض جميع معارِك حياته. وكمْ خاطبَ مُضيفيه الرُّهبانَ قائلاً: "أَيُّها الرهبان، شكرًا لوجودكم! تعلمون جيِّدًا أَنّكم لستُم، حَتْمًا، أَفضلَ من كثيرين سواكم. ولكنّ وجودَكم ضروريٌّ للجميع، مثل قمَم جبالنا البَيْضاء، الَّتي تبدو ظاهريًّا عديمةَ الجدوى. فليكنْ بِوسْع من يشعُرون أَنَّهم جياعٌ، أَن يأْتوا إِليكم أَبدًا".

إِنّ الأَب لا ينسى فضلَ سنوات النُّسْك الَّتي استهلَّ بها مسيرتَه، فيعترف: "**لولا سنواتُ العبادة السَّبع، في منسك كريست، لما استطعتُ الصّمودَ في حياتي العاصفة...**

وقد ظلَّت تُراودني الرَّغبةُ في العَوْدة، يومًا، لو مكّنني الربُّ من ذلك، قبلَ بلوغ غاية دربي في ظلال الزَّمن. مرّتَيْن، خلالَ الخمسين سنةً الفائتة، قصدتُ رهبانَ دير "الشرتريّين" الكبير، مُستفتيًا هل عليّ هجرُ كُلِّ شَيءٍ، والاعتكافُ للتنسُّك. ولنفس الغاية زرْت الآنسة "مارت روبان" الَّتي وُسِمتْ بسِمات الصَّليب، وقد أَجابني الجميع: "في ما بعد". ثمَّ تُوُفِّيت الآنسة "كوتاز"، وكان الأَب "جاك" قد عاد ليُساعدنا؛ وأَنا مدينٌ له بأَنّه أَتاح لي العودةَ إِلى الصَّلاةِ في العُزلة. إنّ "عمّاوس" تُواصل مسيرتَها، ويسعدني القول: لقد استقرّ أَبنائي، وقد أَمسيتُ الآن جَدًّا".

هذا الارتياحُ إلى مصير "عمّاوس" أَتاحَ له الانصرافَ إِلى مشاركة الرُّهبان تعبُّدَهم، في كنيسة الدَّير المجرَّدة، حيثُ يركع في الظلّ، ويُصلّي، منصتًا إلى تراتيل الرّهبان، التي يأسف لعجزه عن مُشاركتهم بها، غير أَنّه سعيدٌ بالشُّعور أَنّه مندمجٌ بهم، ذائبٌ في تآخيه معهم.

في ذلك الدَّير، أَلِف الأَبُ قضاءَ ساعات الصَّباح، بعدَ القُدّاس، وكذلك ساعاتِ ما بعد الظهر، قبل صلاة الغروب، وبعدَها، في المطالعة، والردّ على الرّسائل العديدة، وتصنيفها، وفي الكتابة، والبحث، عاكفًا على دراسة قضايا جوهريّةٍ مطروحةٍ على اللاّهوتيّين، والعلماءِ، عن الإِنسان، والإِيمان، مستغرقًا في اكتناه الأَسرار، ولا سيَّما سرّ "الإِيمان بالأَزليّ، الَّذي هو حُبٌّ، والَّذي تثير الشُّكوكَ حوله آلامُ البشريَّة الجمّة". ذلك السِّرُّ يواجهه بالعبادة.

هذه العبادةُ هي "عَمَلٌ من نَمَطٍ آخَر، ضروريٌّ، على مقرُبةٍ من الجماهير، بل حتّى بين ظهرانيها" فالمنسك يُحاكي جَبَل جليد "يبدو ظاهريًّا متجمِّدًا، ولكنّه، في أَعماقه، يكاد يسبحُ فوق المياه الناجمة عن ذَوَبان جليده، ومنها تتكوَّن، بعيدًا عنه، ينابيعَ وسيولاً لا حياةَ ممكنةً في معزلٍ عنها... وفي تلك القمم، بفضل الغيوم والعواصف، لا يني جبل الجليد يُعيد تكوينه بالغمام المتصاعد من السَّهل، والَّذي يعلو ثُمَّ يتساقط عليه ثلوجًا ناصعةً... صدِّقوني إِنَّ سلام المنسك الصَّامت قد يكون أَيضاً نشيطاً".

لقد انصرف ذلك المُحاربُ العنيدُ إِلى الرَّاحة والعبادة، في ثنايا صمت المنسك البينيدكتيّ العريق، فالعبادة عمادٌ أَساسيٌّ لحياته، ولولاها لما تهيّأ لتلك الحياة أَن تمضي أَبدًا في مسيرتها الخَطِرة على شفا الهاوية. إِلاّ أَنّ العبادة لم تُفْلِح في تجميده، فهو كالشَّقاء، بدويٌّ دائمُ التَّرحال؛ ومن ثمَّ، لم تكن عزلته، يومًا، كاملةً، فرَجُلُ العمل القابع في أَعماقه، لا يستطيع الانسلاخ عن النّضال، ولذلك احتفظ، في خلوته، بهاتفَيْن لا يكُفَّان عن الرنين ليُطلعاه على أَنْباء "عمّاوس"، وعلى صَيْحات البُؤْس المستغيثة به، عندما يعجُزُ سواه عن تلبيتها، فيتحدّى المَرَض والوَهَن والشَّيخوخة، ويجرُّ جسدَه المُتهالكَ كي يعلن كلمة الحقِّ الَّتي يرهبها الحاكمون، وينتظرها المحرومون.

وهو لا يفوّتُ أَيّ حَدَثٍ عالميٍّ ينطوي على ظُلْمٍ فاحشٍ، أَو امتهانٍ لكرامة بشرٍ، أَيًّا كان دينُهم أَو انتماؤُهم أَو عِرقهم أَو جنسيّتهم، إِلاّ أَسمعَ، عبر أكثر وسائل الإعلام شيوعًا، على مدى الكون، رأيه الجريءَ، الَّذي لا يُحابي أحدًا، والمُستَمدّ من مبادئ المحبَّة الإنسانية الشاملة؛ ولكأنَّه ضميرُ عالَمنا المُضطرب.

ولئن نأى الأَبُ بنفسه عن العالَم، إِلاّ أَنَّ العالَم ما فتئ، في كُلِّ يومٍ، يلجأُ إِليه مُستغيثًا، مستشيرًا، فكبارُ العالَم ورؤَساؤُه يستطلعون رأْيه، ويلتمسون نُصحَه، وَالْمُنَظَّمَات الدَّوْليّة تدعوه للخطابة في احتفالاتها، ووسائلُ الإِعلام تُذيعُ تعليقاتِه على الأَحداث الكبرى، الَّتي يقف أَمامَها الناسُ حيارى.

فهذا "إِدغار- فور" الذي تقلَّب في عدَّة مراكزَ رفيعةٍ في فرنسا، وكُلِّف، عام ١٩٨٧، بترؤُّس الاحتفالات بالذِّكرى المئويَّة الثَّانية للثَّورة الفرنسيّة، يستشيره، ويعقد معه لقاءً كان مقرَّرًا أَن يستغرق نصف ساعة، ولكنَّه امتدَّ أَكثر من ساعتَيْن. إِنَّ "فور" يُؤْمن بتلاقح الخواطر، ويحلم بمؤَسَّسَةٍ تَضُمُّ عُلماء، ورجالَ دينٍ، وسياسيّين، يضفُرون جهودَهم وآراءَهم، كي يتصدَّوا معًا، وكلٌّ بوسائله الخاصّة، إِلى تقويض السُّجون الَّتي يرسف في أَغلالها عصرُنا، كالبطالة، والمخدّرات، والجوع، وتدمير البيئة؛ وقد روى السيِّد "فور" للأَب، بصدقٍ واندفاعٍ، الأَحلامَ الَّتي تراوده في هذا الشأْن، وأَفضى إِليه أَنّه، على نحو ما تطلّع الأَب، يومًا، إِلى إنشاء جمعيّة "رهبان البؤس"، يتطلّع، هو أَيضاً، إِلى تأسيس جمعيّة "مهندسي الإِخاء". وبعد أَن أَصغى الأَب باهتمامٍ إِلى ضيفه الجليل، وأَبدى له بعض الملاحظات، شدَّ على يده مُوَدِّعًا وقائلاً:

- "ادغار، "مُهندسو الإِخاء" مشروعٌ جيّد"

وهذه "آنّ سانكلير" مُذيعة التّليفزيون الشَّهيرة، الّتي تلتقي كلَّ يوم أَحد، رئيسًا أَو وزيرًا أَو مسؤولاً رفيعًا في برنامجها الأُسبوعيّ "سبعة على سبعة"، تستضيف الأَبَ في أَحد برامجها؛ ولكي توفّر عليه مشقَّة الحضور إلى الستوديو، اتّخذت الإجراءات التقنيّة الكفيلة بمحاورته، تيليفزيونيًّا، وهو في منسكه في "سان ڤاندريل". وقد افتتحت حلَقة برنامجها تلك بالتعريف بضَيْفها، فأَعلنت أنّ استطلاع الرَّأي الّذي أُجري، آنذاك، قد أَثبت أَنّ الأَب پيير هو الشَّخصيَّةُ الأَكثرُ شعبيّةً في فرنسا، إِذْ إِنَّ ٩٧ بالمئة من الَّذين سُئلوا عنه يعرفونه، ويُحبّونه، ويُؤَيِّدون عَمَلَه، وهي نسبةٌ لا يستطيع أَن يحلم

بمثلها، أَو بدونها كثيرًا، أَيَّةُ شخصيَّةٍ فرنسيّةٍ، سابقًا وحاضرًا. وقد استغلَّ الأبُ الفُرصة المتاحة له، على الشاشة الصغيرة، مدى ساعة، ليُكرِّر على مسامع الملايين، المُثُل الَّتي قادت حياتَه، ويفتح عيونَهم على آلام الفُقَراء والمُشرَّدين والَّذين نَبَذَهم المجتمعُ، بلا عَمَلٍ، ولا مَسْكنٍ، ولا طعامٍ، داعيًا إِلى خدمتهم، مُذَكِّرًا مستمعيه أَنَّ الحياة ليست سعيًا وراء التملّك والمُتْعة، بل هي حُرِّيَّةٌ على الإِنسان استخدامُها لتعلُّم الحُبِّ والخِدْمة، ومُمارستِهما. وعندما تطرَّق إِلى الحديث عن الفظائع الَّتي ارتُكبت في الاتّحاد السوفـيتيّ المنهار، وفي الدُّوَل التَّابعة له، من أَجل إِقرار الشيوعيّة عنوةً، تعرَّض بأَقذع الأَلفاظ لرئيس الحزب الشيوعيّ الفرنسيّ، الَّذي كان قد سُئِل عن تلك الفظائع، فتمادى في الرِّياء والكذب حتّى أَعلنَ أَن لا علمَ له بها. وردّ الأَب پيير بالقول: إِن هو لم يعلَمْ بها حقًّا، وهي الَّتي شاعت أَخبارُها إِلى أَقاصي المسكونة، فهو ليس أَهلاً لتزعُّم حزْبٍ، بل ليس جديرًا بالعمل في ميدان السِّياسة أَصلاً؛ وإِن هو كان يعلم بها ويمعن في تجاهلها وإِنكارها، فهو مُغْرقٌ في النَّذالة.

وبنفس العُنْف ندَّد بمسؤولين يجهَدون في طَمْس واقع البُؤْس الَّذي تتخبَّطُ في مُستَنقَعه فئةٌ عريضةٌ من مُواطنيهم، وكأَنّهم، بذلك، يتخفَّفون من تَبِعاتهم حيالها.

ولقد مكّن الأَبَ پيير ماضيه الوطنيُّ الناصعُ، وتاريخُ نضاله الإِنسانيّ المُشرق من التَّنديد بأَيِّ خطأ أَو تقصيرٍ أَيًّا كان مرتكبُهما، ومن التعرُّض، بلا وَجَلٍ، لأَكثر الرُّموز قُدْسيّةً وشعبيَّةً. فها هوذا، في العاشر من كانون الثّاني ١٩٨٩، يُدعى إِلى التحدُّث، على مدرَّج السُّوربون الكبير، إِلى نحو أَلفين من العاملين الاجتماعيّين، الَّذين التأَموا ليتناقشوا في مجالات التّضامُن الجديدة، تحت إِشراف ثُلَّةٍ من الأَساتذة. وقد ارتجلَ الأَبُ خطابَه، من غير ملاحظاتٍ مكتوبةٍ، فالوقائعُ والأَرقامُ الَّتي تشغَلُه، راسخةٌ في ذهنه، وأَعلن:

« في أَغنى بلدان العالَمِ، أَيْ في الولايات المُتّحدة، ثلاثون مليون بائسٍ. وعندنا، في أُوروبا، أَربعةٌ وأَربعون مليونًا! أَجل، إِنّني شيخٌ مجنونٌ، غير أَنّني، اليوم، كما فعلتُ لأَربعين سنةً خلت، ما زلتُ أُعلن الحربَ على البُؤس، داعيًا إِلى مواطنيّةٍ عالميّةٍ جديدةٍ... منذُ مئتي سنةٍ، أَعلنتْ شعوبٌ بكاملها حقوقَ الإِنسان، التي لم يعُدْ شيءٌ يقوى على نَقضها، حتّى الفظاعات العديدة التي ما برحتْ تُرتَكَب. أَلَيْس هذا

هو الوقت الَّذي يتعيَّن علينا، فيه، جميعنا معًا، مهما تباينتْ أَوْضاعُنا، أَن نتقصّى، بوضوحِ رُؤيةٍ وشجاعةٍ، ما ينطوي عليه الإِرثُ الثَّمين الَّذي تلقَّيناه، من غَثٍّ ومن سمين. إِنَّ نشيدَنا الوطنيَّ الَّذي ورِثْناه، يتميَّزُ بموسيقى مُثيرةٍ، ومُشبَعةٍ بالفَخْر، بحيثُ بات على كُلِّ لسانٍ؛ غير أَنَّه يحتوي عباراتٍ غدا التلفُّظُ بها لا يسوغُ، من خلال تشابُك الأَحداث الَّتي جرت مُنذُئذٍ، في أَعقاب الجرائم النَّابعة من التعصُّب العرقيّ، والَّتي لم يُشفَ العالَم، بعدُ، من عارِها. فأَيُّ معلِّمٍ، بل أَيُّ أَبٍ أَو أُمٍّ، يستطيعُ، الآنَ، مُجرَّدَ تخيُّل أَنّ عليه تلقين الأَبناء البُغضَ، والتشوُّق إِلى إِرواء أَرض بدمٍ غير طاهر؟ »

لقد دعا الأَبُ إِلى استبدال عِباراتِ البُغْض، في النَّشيد الوطنيِّ الفرنسيّ – "المارسيّيز" – بعباراتِ محبَّةٍ وتآخٍ؛ اقتراحٌ لم يكن سواه ليجرؤَ على النُّطق به. ومع ذلك هبَّ الجمهورُ بكامله واقفًا، وصفَّق له طويلاً، طويلاً.

ويَظلُّ النِّضالُ في سبيل توفير مأْوى لمن يفتقرون إِليه من أَوْلَويّاتِ رسالته. ومع أَنّ مساعيه النَّاشطةَ منذُ نحو نصف قرنٍ، في هذا السبيل، قد أَجبرت الحكومات الفرنسيَّةَ المتعاقبةَ على لَحْظِ مبالغَ ضَخْمةٍ في ميزانيَّاتها للإِسكان، وعلى مُصادرة مساكنَ خاليةٍ من أَجل إِيواء المُشرَّدين، عندما يقسو الشِّتاء، إِلاَّ أَنَّ الأَبَ لم يرضَ بما تحقَّق، ليقينه بضرورة تحقيق المزيد، والكثير منه، في هذا المضمار. وها هوذا، في الثَّامن من أَيّار ١٩٨٩، يُطلق، على صفَحات صحيفة "الفيغارو" الأَوسعِ انتشارًا، إِنذارًا جديدًا:

« ها إِنّ العالَم بأَسره يُواجهُ مأْساةَ الفقر؛ والقادِرون، أَي السُّلُطاتُ والرأْيُ العامُّ لا يعرفون، ولا يسعَوْنَ إِلى المعرفة، بل هم، في حقيقة الأَمر، لا يُريدون أَن يعرفوا. ومن حاجات الإِنسان المادّيَّة الأَساسيَّة، يأتي، بعد الجوع – إِذ إِنّ عدَمِ إِرواء هذه الحاجة يُفضي إِلى الإِضرار بالتربية والصِّحَّة والعمَل – الحاجة إِلى السَّكَنَ الَّذي يفتقر إِليه الإِنسان وأُسرتُه... في فرنسا أكثرُ من أَربع مئة أَلف إِنسانٍ لا مأْوى لهم. أَمّا الَّذين يُعانون سوء ظروف السَّكَن، فيربو عددُهم على المليونين. وتستقبل مراكز الإِيواء الطارئ، في جميع أَرجاء فرنسا، ثلاثين أَلفَ شخصٍ، كُلَّ ليلةٍ. ولكن ماذا عن الآخرين؟

"ولن تتوفّر، يومًا، وسيلةٌ تُتيح لمُجتَمعٍ تلبيةَ مثل هذه الحاجة، من غير عَزْمٍ صادقٍ؛ وهذا العَزْمُ ينبغي أَن يتحوَّل إِلى هوى يستحوذُ على النُّفوس كي يحرّكها، ويُصبح وسيلةَ ضغْطٍ. منذُ الطّفولة، منذُ المدرسة، يجب أن يغدوَ هذا الواقعُ أكثرَ المواضيع جدارةً بالغَضَب المُقَدَّس ».

* * *

السَّادس والعشرون من آب ١٩٨٩، السَّاعة السَّادسة والنصف مساءً.

عند "قوس الإِخاء"، في منطقة "الديفانس" بباريس، جمعٌ غفيرٌ متراصٌّ، للاحتفال بذكرى إِعلان حقوق الإِنسان. ويشقُّ الأَبُ طريقَه وَسْط حَشد الصحافيِّين والمصوّرين، و"النجوم"، ودهاقنة السّياسة، وجموع الشَّبيبة المندفعة؛ وبعدَ تبادُله التحيَّةَ مع الرَّئيس فرانسوا ميتيران، يستقرُّ في مقعده، فيهرع إِلى تقبيله وتحيَّته نخبةٌ من المدافعين عن حقوق الإِنسان في العالَم. ويُحيقون به من كُلِّ صَوْبٍ؛ ثمَّ، عندما يخلو بنفسه، يُطبق جفنَيْه على رؤاه الداخليّة، مُنصتًا إِلى "حلم" مارتان لوثير كينغ، وإِلى فَقَرات الإِعلان عن حقوق الإِنسان الَّتي يتوالى على تلاوة موادّها، مشاهيرُ في شتّى المجالات. وكان على الأَب تلاوةُ المادّة العاشرة المتعلّقة بالحُرِّيّة الدِّينيَّة، وفي تلك الأَثناء، جاءَه من قال له:

– « أَرجوكَ أَن تُوجِّه بضعَ كلمات للشَّباب التوّاقين إِلى سماعك ».

فأجاب: « إِنّ قلبي مُفعَمٌ بالأَزليّ الَّذي هو حُبٌّ، وكم أَتمنّى أَن تُفعَم قلوب الآخرين به »!

وبعد أَن خربَش بضع كلماتٍ على ورقة، فَزعَ من جديدٍ إِلى الصَّمت، ريثَما حان دورُه للكلام، فوقف، شبحًا ضئيلاً، عند أَقدام قوس "الديفانس" المهيب، فيما كانت الرّيح تخفق بمعطفه؛ وممّا قاله: « نحن في حربٍ، نحن شعوب الأَرض كلّها مجتمعةً، الأَرض الَّتي ينقضّ عليها من كُلِّ صَوْبٍ، بؤسٌ جامحٌ. إِلى متى سنظلّ على موقفنا المخزي، صابرين على أَلَم الآخرين؟ وهل نحن عازمون على تعبئة كلِّ شيءٍ لإِحراز النَّصْر على ذلك البُؤْس؟ النَّصر، في هذه "الحرب الأُخرى"، الحرب الَّتي يسعنا، في هذه الحال على الأَقلّ، أَن نصفها بالحرْب الجميلة »؟

في تلك اللَّحظات، لم يعُدْ لذلك الشَّيخ النَّابض بالهوى السَّامي، عمرٌ يُقاس

بالسّنين، بل غدا حُبًّا أَبديًّا يجتازُ الزّمن. وقبل أَن يُغادر المكان، سارع أُسقفُ الشيلي إِلى تقبيله، والشدِّ على يده بحرارةٍ. وطارت بالأَب الذّاكرةُ إِلى عشرين سنةً خلت، عندما قال له أُسقفُ ليشبونة، في أَعقاب محاضرةٍ مُستفيضةٍ مُتْعِبةٍ: « لكم أَنتَ مُنْهَكٌ! ولكن إِن منَّ عليك الربُّ بالقوَّة، امضِ إِلى كلِّ مكانٍ في العالم مردِّدًا ما قلتَه لنا الآن. فهذا ما يحتاج العالَم إِلى سماعه... ».

وطالما عُهِد عن الأَب مقاومتُه العنيفة للتَّفرقة العنصريَّة الَّتي يعتبرها "أَحد جروح الإِنسانيّة". ويوم رشَّحه البعض لجائزة نوبل للسَّلام، أَجاب:

– « أَنا، من جهتي، أُرشِّح "مانديلا". إِنَّ فترة سَجْنه المتمادية هي رمزُ اللاَّعنف. واللاَّعنف هو كلّ معنى حياتي. وبما أَنّهم قد جعلوا منّي ضربًا من الأسطورة الحيّة، فإِنّي أَرجو أَن يكون لدعمي هذا بعضُ الوزْن لدى اللَّجنة... ».

* * *

إِثر اعتكافه ثماني سنوات في منسكَ "سان ڤاندريل"، وعقبَ أَسابيع من العَمَل المُرهق الّذي كان يطوفُ به، كُلَّ يومٍ من مدينةٍ أُوروبيَّةٍ إِلى مدينةٍ أُخرى، انهار الأَب وأُدخل المستشفى، فطالبه رفاقه أَن يُمضيَ فترةَ نقاهته، وما تبقّى من أَيّامه، بين ظهرانيهم في "استراحة عمّاوس". وهي مقرُّ المتقاعدين من الرِّفاق، في محلَّة "إِيستـڤيل"، حيثُ يعيش نحو ثلاثين رفيقًا مُسنًّا أو عاجزًا، عيشةَ أُسرةٍ ملتحمةٍ متضامنةٍ، في اكتفاءٍ ذاتيٍّ، ساعين إِلى اكتساب قوتهم بما يقووْن عليه من عملٍ سهلٍ، يتطلّب صَبْرًا.

إِنّ مقرَّ التَّقاعُد هذا لا يُحاكي أَيَّ مقرِّ تَقاعدٍ آخَر، فزائره يدهش إِذ لا يشهد فيه قاعاتٍ يقبع فيها رجالٌ عاطلون، منتظرين باستسلامٍ، قدومَ أَجلهم، بل يُفاجأ برؤية مبنى يعجّ بالنَّشاط، لكُلِّ نزيلٍ فيه مُهمّتُه الَّتي تتلاءم وكفاءاته وقواه؛ فهذه رفيقةٌ مُسنّةٌ تتولّى الغَسيل، وهذا رفيقٌ شَيْخٌ يَتَولَّى الطَّهْوَ، وفي ساعات فراغه يصقّل قِطَعًا من خشبٍ مرميّةً، فيبدع منها دمًى تُوزّع، بمناسبة عيد الميلاد، في الأَحياء المحتاجة. وثمَّةَ من يُرَبّون الدَّواجن كالدَّجاج والأرانب والماعز، وآخَرون يزرعون الخضار، وآخَرون، في الخريف، يجمعون أَوراقَ الأَشجار المُتساقطة، ليُعدّوا منها سمادًا. وفي المقرِّ، إِلى ذلك، ورَشاتٌ، فهنا تُخاط قِطَعٌ صغيرةٌ من الصُّوف حاكتها عجائز، بصَبْرٍ

وحُبٍّ، وتُصنع من جمعها أَغطيةٌ تُوزَّع بضعةُ آلافٍ منها، كلَّ سنةٍ؛ وهناك من يجمعون الطَّوابع، ويُصنفِّونها، ويبيعونها، وكذلك من يفرزون الأَزرار التي لمَّها الرِّفاق من النفايات.

وفي كُلِّ سنةٍ يعقد نزلاء المقرّ جلسةً عامَّةً يقرِّرون فيها طريقة توزيع الفائض ممّا كسبوه، وقد يُناهز، أَحيانًا، مئة أَلف فرنكٍ في السَّنة. وهم، بذلك، يُبرِزون روحَ "عمّاوس"، بحرصهم على المشاركة الإِنسانيّة، حتّى في شيخوختهم، ويواصلون العَطاءَ، رُغمَ عجزهم، ويؤكِّدون أَنّ فِعْل الحبّ لا يشيخ.

وعلى غرار رفاقه، ما فتئَ الأَبُ، وهو أكبرُهم سنًّا، نشيطاً، يستقبل العديدَ من الزُّوَّار، ويُسافر لمقابلة مسؤولين، أَو لزيارة جماعات "عمّاوس". وعندما يسمع الرِّفاقُ في "إِيستـقـيل" دقَّات مطرقةٍ، على مقربةٍ منهم، يُدركون أَنّ الأَب في صحَّةٍ حسنةٍ، يجهدُ في إِصلاح رفوف مكتبة، أو إِثبات المزيد منها.

وفي هذه المرحَلَةِ من حياةِ الأَب پيير تغلبُ العبادةُ على العَمَل، بعد أَن تغلّب هذا على تلك فترةً طويلةً، ويغلبُ المرضُ على النَّشاط، إِلاَّ أَنّ المرضَ والوهَن لا يحولان دون انقضاض الأَب إلى واجهة المسرح، كلُّما دعَتْ قضيَّةٌ كبيرةٌ أَو صغيرةٌ إِلى إِسماع صوت الحق الجريء.

ففي شتاء عام ١٩٩٥، عندما احتلَّتْ أُسرٌ لا مأوى لها بناءً في شارع "الدراغون" الرَّاقي، في باريس، لم يتوانَ عن الانضمام إِلى تلك الأُسَر، معلنًا تضامنَه معها، ممّا جعلَ أَيَّ مسؤُولٍ يحسب أَلفَ حسابٍ، قبل التعرُّض لها.

وها هو في الثَّامنَ عشرَ من تمّوز ١٩٩٥ يبعث برسالةٍ مفتوحةٍ إِلى الرئيس "شيراك" مُنَدِّدًا بقراره استعادة التَّجارب النوويّة، ولو لفترةٍ مؤَقَّتة. وقد اشترك معه في توقيع هذه الرِّسالة أَعضاءُ مجلس إِدارة "عمَّاوس" الدَّوْليّة، و"عمّاوس فرنسا".

ورغم معارضة العديدين من رفاقه، لم يخشَ الأَب المثول إِلى "سارايـيـڤـو"، في خريف عام ١٩٩٥، تحت وابل القنابل المُتساقطة، لكي يُعلِنَ، من هناك، سُخطَه على الحرب المجنونة الموغلة في تدمير ذلك الجزءِ من يوغوسلاڤـيا السَّابقة، ويدين ما واكبها من وَحْشيّةٍ في التَّقتيل بدافع التعصُّب العرقيّ والدّينيّ.

ثمّ زارَ الرئيسَ "جاك شيراك"، في مطلع عام ١٩٩٦ كي يُقيّم معــه إِنجــازات الحكومة في مجال بناء مساكنَ للمُشرَّدين، ويحثَّه على إِنجاز المزيد منها، إِذ لا تزال الحاجة إِليها مُلحَّةً وكبيرةً.

وإِلى ذلك، لا يغيب "جَدُّ" عمّاوس عن أَحداثها الكبرى، فرغم الاثنتين والثمــانين من سنيه الحافلة بالإِرهاق، قام عام ١٩٩٤ بزيارةٍ إِلى جماعات "عمّاوس" في أَميركا اللاتينيّة، حيثُ أصدرت بعض تلك الدُّوَل طوابعَ تحمل صــورتَه، لــدعم مــشاريع "عمّاوس" في تلك البلاد. كما شوهد على شاشات التلفزيون، في غروب عام ١٩٩٤، يرعى تدشين جماعاتٍ جديدةٍ لعمّاوس في كوفــنتري وغرينويتش بانكلترا، برفقــة وليّ العهد الأَمير تشارلز ورئيس أَساقفة كونتربيري.

وهو حريصٌ على أَن يظلّ لعمّاوس القدوةَ والــضَّمير، وعــرَّابَ كــلّ وليــدٍ. ويؤرِّقه، أَبدًا، سَهَرُه على سلامة مُثلها. فذات يومٍ، وجد، بين أكــوام بريــده، هــذه العبارات المؤثِّرة:

« ابقَ معنا، أَيُّها الصَّديق، فاللَّيلُ يقترب! غالبًا ما أَقول لنفسي: ليتَه يكون هــو، قادمًا من جديدٍ! إِنّ قلبي يضطرم عندما أَشعُر بقدوم الغريب... وغالبًا ما انقشعتْ لي الحقيقة إِثرَ رحيله، فقلتُ في ذاتي: أَجل، ذلك الغريبُ كان يسوع ».

هذا الشُّعور يعيشه الأَب پــيير، كلَّ ساعةٍ، وهذا ما دفعه إِلــى الكتابــة، فــي ١٩٨٧/٥/٥:

« عليّ إِنذار الجميع، عندما يُهَدِّد الخطرُ قلبَ "عمّاوس". فعندما يَقْدم بائسٌ، ماديًّا أَو أَدبيًّا، مُلتمسًا المأْوى والعَمَل عندنا، ونضطَرّ، بسبب عدم توفُّر المكان له أَن نقول له "لا"، فبأَيِّ احترامٍ نكون قد قابلناه؟

"بعضُنا قد عاشوا مثلَ هذا الرَّفضَ قبل أَن تتمكّن، يومًا، إِحدى الجماعات، مــن أَن تقول لهم: "أَجل، تفضّلوا". فلا يغرُبَنَّ عن بالهم ليسَ فقَطْ التَّعَبُ، والبردُ، وربَّمــا الجوعُ، والتَّساؤُل القَلقُ عن مكان قضائهم اللَّيلةَ التَّالية، بل، أَيضاً، إِحساسهم بأَنّهم لم يفشلوا، والخجلُ الكمين من الألبسة القَذِرة... أُولئك الَّذين، من رفاقنا، عاشــوا هــذه التَّجربةَ، أَرجو أَلاّ يُبتَلوا بنسيانها. أَمّا الَّذين لم يُقيَّض لهم عيش مثل تلــك المهانــة، فليجهَدوا في تخيُّل ذواتهم، في مثل ذلك الوضع.

"إِنّني أَعلم أَنّنا، جميعًا، حتّى أكثرنا تعلّقًا بمُثُل "عمّاوس"، نمرُّ بلَحَظات انحطاطٍ، ووهَنٍ، واضطرابٍ. ومع ذلك، لا يغرُبَنَّ عن بالنا أَنّه أَمرٌ خطيرٌ جدًّا أَن نظَلّ غير مبالين بضيق إِنسانٍ آخَر، وبالأَحرى، أَن ندعَه يمضي مُهانًا، يحمل جوعَه، وأَلبستَه القَذِرة.

"ما أَقوله الآن يُذكِّرُني بقصَّةٍ جميلةٍ، جرتْ لنَحْو ثلاثين سنةً خَلَتْ. كنتُ، آنذاك، في مشفى، وقيل لي إِنَّ أَسقفًا إِسبانيًّا كان مارًّا بباريس يُصِرُّ على مقابلتي. كان قد عُيِّن مطرانًا على مدينة "قرطبة" الكبيرة، وقد هرع جميعُ الوُجَهاء لاستقباله استقبالاً باهرًا. ولكنَّه، بعد أَيَّامٍ، اختفى بغتةً، ولم يتوقّفْ أَحدٌ في العُثور عليه، وشاعَ القَلَقُ على مصيره. وإِذْ به، بعدَ أُسبوعٍ، في مكتبه من جديدٍ، يستدعي جميع الوُجَهاء كي يبيِّن لهم أَنّ المحتاجين، أَثيري يسوع، لم يكن لهم مكانٌ في حفلات استقباله. ولذلك أَنفق أُسبوعًا، مُتنكّرًا، بين المفتقرين إِلى السَّقف والخُبز والعمل. وأَعلن عن قراره بتحويل جزءٍ من أَماكن المطرانيّة الفسيحة، إِلى مركز استقبالٍ وتعليمٍ، وأَهاب بجميع الميسورين أَن يُسهموا في وضعٍ وتمويلِ برنامجٍ جريءٍ لإِشادة مساكنَ شعبيّةٍ. إِنَّ ذلك الأُسقف، الَّذي كان يدعى "بادري أَلبينو" ما لبثَ أَن لقيَ حتفَه. ولكنَّه كان قد اقتحم قلوبًا كثيرةً وعبّأها. أَحيانًا، يتعيَّن على كلٍّ منّا أَن يعيش مثلَ ذلك ».

حياةُ الأَب پيير، اليومَ، هي، على نحو ما كانت دائمًا، شهادةً هدفها إِثباتُ أَنّ الله هو المُطلق الَّذي صارَ حُبًّا، وأَنّه حبٌّ رغمَ كُلِّ شيْءٍ، وهو، بدافعٍ من هذا الإِيمان، غارقٌ في إِنقاذ البُؤْس المُغْفَل، المتعدِّد الوجوه والأَسماء، يُصغي إِلى نداءات المتأَلِّمين اليَوْمية، ويبادرُ إِلى تلبيتها؛ ولا يخشى أَن يجأَر عاليًا، إِذا ما امتُهنتْ كرامةُ إِنسانٍ، في أَيَّة بُقعةٍ من العالَم؛ ولا يخاف من أَن يَصدُمَ البعضَ، فالربُّ نفسُه قد صدَمَ بسياط كلامه المُنافقين والمُرائين، ومُغتصبي الحُقوق. وهو، بذلك، ينتظم في جماعة إِخوةٍ له قدَّموا حياتَهم، إِيمانًا بالمُطلَق الَّذي صار حُبًّا، من أَمثال المطران "روميرو" الَّذي اغتيل أَثناءَ احتفاله بالذَّبيحة المُقَدَّسة في السّلفادور، و "دون هيلدر كامارا"، الَّذي أنفق حياته في خدمة أَطفال بيوت الصَّفيح البُؤساء في البرازيل، و"مارتان لوثير كينغ" شهيد حُلم الإِخاءِ البَشَريّ الشَّامل، والأُمّ تيريزا التي قضتْ، وما زالتْ تقضي حياتها تبثُّ الرَّجاءَ والعزاءَ في صُدور المُحْتَضرين الوحيدين.

هذه الشَّهادةُ يستمدُّها الأَبُ من العبادة الَّتي ما انفكَّ يغرَقُ في عُبابها، ويزدادُ بها تقرُّبًا من المُطْلَق الَّذي هو حبٌّ. ولنستمع إِليه يَصِفُ استغراقه في العبادة، في آخر ما كتب:

« إِنّني هنا في غرفتي، أَو في المُصلَّى حيثُ يُخيِّم أكبرُ قدرٍ مُمكنٍ من العتمة. بادئ الأَمر، ثمَّةَ شيءٌ من الجَلَبة: كلُّ ما يجيش فيّ من مآسي البشر أَومن لحَظات سعادةٍ، من مهامّ يتعيّن إِنجازها، ومن ضجيج العالَم. عندما أَشرع أَستغرق في التأمُّل، في كثيرٍ أَو قليلٍ من المَنطِق، أُجيل الفكرَ في كلِّ ذلك، لأَنّني أكونُ ما برحتُ في مضمار العَقْليِّ.

"ثمّ يحين وقتٌ حيثُ تنعتقُ الصَّلاةُ من كُلِّ تلك المؤثِّرات، من غير أَن تفصم عرى تضامنها معها، وتتحرَّر من الجلَبة. وشيئًا فشيئًا، تتوارد كلماتٌ، آتيةً من العادات المأْلوفة، أَو من صلَوات الطُّفولة، أَو من تلك التي كانت تُتلى قديمًا للمرضى... إِنّها عباراتٌ أَحتفظُ منها بذكرى عزاءٍ قد طالما ساندَني، في ساعاتِ المحن. أكُرّر تلاوة "السَّلام عليكِ يا مريم"، وفكري ذاهلٌ عن معناها، وكأَنّني أَلتمس في التكرار ملجأً.

"ثمّ، إِن تسنَّتْ فُسحةٌ من وقتٍ، وإِذا وَهَبَني الله النِّعْمةَ – فهي هبةٌ إِلهيّةٌ – تحين المرحلة الثالثة... ورويدًا رويدًا، يهدأ الضَّجيج ويصمُت، وتتلاشى الكلماتُ، أَو يبدو الأَمرُ كذلك، ولو إِنّني ما برحتُ أَتلفّظ بها، على غرار الرهبان الأُورثوذكسيّين الَّذين لا يكُفُّون يُردِّدون، سحابةَ ثمانين عامًا، وهم قابعون على طَرَف صخرةٍ: "اِرحمني، يا ربّ". تلك هي العبادةُ الحقَّةُ، بقدر ما يُتيح لنا ثِقَلُنا البشريُّ أَن نبلغ منها.

"إِنّ العبادة، عندما تتحقّق، هي أَشبه بالإِفلات من نطاق الزَّمان والمكان، وتُحاكي تلك اللَّحظاتِ الَّتي تتمزّق فيها الغُيومُ، فيَشعُّ، فجأَةً، بالنُّور ما كان ظلامًا مُطبقًا.

"في إِيستقيل، وعندَ السَّاعةِ الخامسة والنّصف من كلِّ مساءٍ، أُمارس نصفَ ساعةٍ من التعبُّد، ما لم يحُلْ، دونَ ذلك، وصولُ زائرٍ قد يكون على جانبٍ من عظيم الشَّأْن. ويتمُّ ذلك في المُصلَّى الصَّغير. وإِذا كان الوقت صيفًا، والشمسُ ما برحتْ، آنذاكَ، في جَوْز السَّماء، تُسدَل الستائرُ بحيث أَجد نفسي في جوّ الدَّيْر، حيثُ تعلّمتُ

الصَّلاة، وذلك يُفعمني حُبورًا، مع أَنّني، طوالَ سنوات دراستي اللاّهوتيّة والابتـداء، كثيرًا ما تألَّمتُ لعجزي عن القيام بما كان يستهويني. فلم يكن لدينا، آنـذاك، سـوى نُصوص "السَّواعيّة" الّتي نرتّلها ببطءٍ، مدى سبع ساعاتٍ ونـصْفٍ، موزَّعـةً علـى خمسة أوقاتٍ، فضلاً عن ثلاثة أَرباع السَّاعة من الصَّلاة الصَّامتة، مـساءً، وسـاعةٍ أُخرى، آناءَ الليل.

"وقد اتّفق لي أَن آنستُ، حينئذٍ، شعورًا بهَـدْرِ شـبابي، وبـالفراغ والتمـزُّق، وإضاعةِ الوقت. ولكن، في الواقع، لتلك السنوات الفضلُ في اكتسابي القـدرة علـى التَّعبُّد، وفي أَثنائها ترسَّختْ لديَّ غريزةُ الصَّلاة. وشيئًا فشيئًا، أَدركتُ أَنّني لم أكـن في الدَّير من أَجل ذاتي، وبغاية الإِعداد لمهنة... ففي الـدَّير، أَنـا النافـد الـصَّبر، والعنيف، اكتسبتُ شيئًا من روح الصَّبر. وبفضل الصَّبْر والصَّلاة، انحفر فيَّ شـيءٌ عميق الغَوْر. وهذا ما أَتاح لي، لاحقًا، أَن أكرّر القول على مسامعِ رفـاقي جـامعي النفايات، الّذين هدَّهم الشّقاءُ والأَلم: "**يا صاحِ، تعلَمُ جيّدًا أَن ليس الشَّدُّ على العُـشْب هو الّذي يُسرّع إنبات القمح. بل لا بدَّ لذلك من مطـرٍ، وشـمسٍ، وقَـرٍّ، وثلْـجٍ، وحرارةٍ، ولا مفرَّ من عَمَل الزَّمن. إِذن، ثق بالله، وبنا نحن المُتَّحدين بك**".

"**غير أَنّ الصَّبْرَ الحقَّ لا يُطفئ غَضَبَ الحُبِّ الحارقِ بطبيعته.**

"**فيما يَصرخُ الطِّفْلُ قائلاً لأُمِّه الّتي تُخْضِعُه لعلاجٍ مُؤلِمٍ: "أُمّي، أَنتِ مـا عـدتِ تحبّينني"، يرتمي بين ذراعَيْها، إِذ ليس له سواها.**

"**ونحن تجتاحنا أَحيانًا الرَّغبةُ في قوْل حماقاتٍ للرَّبّ... ولكنّي، فـي العبـادة، أَعيش مبهورًا بما أَعرفُه عنِ الله، على نحوِ ما هو يتجلّى في الإِنجيل. إِنّها عبـادة الأَزليّ الّذي هو حبٌّ. "والله ليس لي سواه،**

"**اللاَّنهائي هو حبٌّ، وفكرةُ اللاّنهائيِّ هذه تُسكرني، بل هل أَجسر فأَقول إِنّنـي أَطمئنّ إِليها؟**

"**تلك هي السِّمةُ الّتي طَبَعَتْها فيَّ سنواتُ الدَّير. فالرُّهبانُ الّذين يَهبون ذواتِهـم تقدمةً للربّ، ينبعث فيهم، منذُ يقظتهم، دافعٌ لا عُنْفَ فيـه إِلـى تجديـد التَّقدمـة، ويستمرُّ هذا الدَّافع، بلا انقطاعٍ، أَيًّا كان الشَّاغلُ: اسـتقلالُ قِطـارٍ، أَو التحـدُّثُ أَو**

العَمَل، الخ. فالصَّلاة تستمرُّ، وكُلُّ عَمَلٍ يُمسي تقدمةً. وهي تقدمةٌ لا تُنقِص الإنسان في شيءٍ، لأَنّها حُبٌّ، وتعريف الحبّ، ولا سيَّما في صيغته المُطلَقة، حيالَ الله، هو أَنّه أكثرُ كينونةً، عندما يكون خارج ذاته.

"وبعد أَن اعتلن لي الحبُّ على هذا النَّحو، وتكوَّن لديَّ عنه هذا الإدراك، ولو بقَدْرٍ ضئيلٍ، فكيف لي أَن أَتخيَّل حبسَه في ذاتي، ووعائي على هذا الجانب من الصِّغَر؟ إنّ لقاءَ الله لا يتمّ إلاّ عندما يخرُجُ المرءُ من ذاته. والحبُّ يُخرجُنا من ذواتنا، ونحن نشهد لدى الصُّوفيّين كيفَ يقودُ هذا الخروجُ من الذَّات إلى ضربٍ من إنكار الذَّات، هو، في الواقع، سُموٌّ بالذَّات.

"لا يُمكنني تخيُّلُ لقائي باللاّنهائيّ، في بيتي، فلا بُدَّ من أَن يسبقَ اللقاءَ التجرُّدُ. ولا يُمكن للِّقاء أَن يتحقَّقَ إلاّ في بيته هو، وحينئذٍ يُصبح منبعَ ازدهارٍ، وانبهار. فالحبُّ انخطافٌ، أَي إفلاتٌ من الذَّات. الحبُّ ينطلق بك إلى الخارج، ولكن لكي تزدادَ به كينونةً.

"في العبادة، في نشدان هذا الحُبِّ، يقفُ المرءُ – وفقًا للصُّورة الَّتي أَعود إليها دائمًا – باسطاً شراعَه. وبَسْطُ الشِّراع هو نداءٌ للرّيح. ولا بُدَّ من الإيضاح أَنّ هذا الموقف لا ينطوي على أَيِّ شيءٍ سلبيٍّ، وأَنّه، عندما تتّحد الرّيح بالشراع، لا بُدَّ من تعلُّم استخدام المقود. وغالبًا ما يكون عسيرًا، بل شاقًّا العَيْش في هذا النّداء، وهذا التوسُّل.

"في تلك الظُّلمة، في تلك الوَحْدة، يقفُ المرءُ باسطاً أَشرعتَه. وقد تهُبُّ الرِّيح يومًا، وتسكُنُ في يومٍ آخر؛ فتراتٌ من اليُسْر يكون فيها الإنسان شبهَ محمولٍ، وفتراتٌ أُخرى تنفخ فيها الرّيح بالاتِّجاه المُعاكس. لكلِّ حياةٍ روحيَّةٍ لياليها؛ وبين الظُّلمة والإشراق المُبْهر، فتراتٌ تبدو وكأنّها فراغ.

"في مثل تلك الفترات يتعيّن الإيمان بأَنَّ الشمسَ ستُشرق. ولكيلا يتغلَّب القُنوطُ، يتحتَّم الاستمرار في تجديد التَّقدمة.

"أَمّا اللِّقاءُ، عندما يتمُّ، فهو يندُّ عن الوَصْف

"ثمَّة حُضوران: فاتِّصالُ الإنسان بالله، واتِّصال الله بالإنسان يرتديان أَشكالاً

شديدةَ التبايُن. وقد أَوضحتُ كيف أَنّني أَدركتُ، في أَسّيزي، أَنّ العبادةَ هي، في آنٍ واحدٍ، مشاركةٌ شاملةٌ، ومصدَرُ نشاطٍ وعَمَلٍ. هذا الواقع قد تجلّى لي بواسطة القدّيس فرنسيس الأَسّيزي. لقد اتّصلت بالله عبرَ قدّيس ».

بالعبادةِ وما استَمدَّه منها من مشاركةٍ شاملةٍ، وعملٍ نشيطٍ، على حدّ قوله، ما انفكّ الأَب پيير، إِلى جانب استغراقه في الله، وفيرَ النَّشاط. ففي السنتَيْن الأَخيرتَيْن قد أَصدَر كتابَيْن هما "وصيّة" و "اللهمَّ شكرًا" طواهما على زبدة تجارب نضاله وتأَمُّلاته، وروحانيّته القائمة على الغَوْص في "الأَزليّ الَّذي هو حُبٌّ". وما بَرِح صوتُه يُجلجل في كلِّ مُناسبةٍ تهدِّدُ العالَم، حيالَ الكوارث الَّتي تضرب هنا وهناك، وحيالَ القضايا الدَّوْليّة الشَّائكة، مثل مأْساة الفلسطينيّين الأَليمة المُزمنة، ومجازر لبنان المجنونة، وحرب الخليج المُخزية، والمجاعة المستشريةِ في أَفريقيا، والحرب الحمقاء في البوسنة. في كُلِّ تلك المناسبات وأَمثالها، ليس مثلُ صَوْته ما يهزّ الضَّمائر ويوقظها، ويدعو إِلى التَّضامن العالَميّ للتَّنديد بالظَّالمين ودَرْءَ الظُّلم، ويستفزّ السَّخاءَ، ويُضرِمُ شُعلةَ الرَّجاء.

وهو، بذلك، يُحقِّقُ ما توقَّعه منه الدُّكتور "شقايتزر" الَّذي كان قد كتب له: « إِنّ العالَم يتوقّع أَفكارًا فاعلةً، ويتمنَّى رؤيةَ الرُّوح يتفاعل مع الواقع ويُحوّله ».

عندما يذكرُ الأَبُ شيخوختَه يُفضي باعترافٍ مؤثِّرٍ إِذ يُسرّ: « **يتّضح لي الآن أَنّني عشتُ جميعَ معاركي، وأَعمالي، وكلَّ المصاعب مع الرِّفاق، من غير أَن ينتابني، في لحظةٍ ما، الشُّعورُ بأَنّني، في كُلِّ سنةٍ كنتُ أَكبَرُ سنةً. بل كان يُخَيَّل لي أَنّني لا أَنفكّ في ما يُشبه الثلاثين، مع أَنّه كان لي من العُمر سبعٌ وثلاثون سنةً عند تأسيس "عمّاوس"، وخمسون سنةً عندما غرقتُ، وسبعٌ وستّون سنةً عندما أَجبت على أَسئلة "بيرنار شيڤالييه" أَثناءَ إِعداده كتاب "عمّاوس، أَوْ الاتِّثار للإِنسان...". وحينئذٍ، فقط، شرعتُ أَشعرُ أَنّني قد تجاوزتُ الثَّلاثين! فقد تزامن الأَمر مع إِصابة الآنسة "كوتاز" بالشَّلَل، فاضطررْتُ أَن اضطلع بمهامّها من شراء اللّوازم اليوميّة، والردِّ على الهاتف، وإِعداد الطعام؛ وإِذ كنتُ، ذاتَ مساء، مُرْهَقًا، خائر القوى، مواصلاً إِنجاز ما كان إِنجازُه مُلحًّا، استَحْوَذَ عليّ الشُّعورُ بأَنّني شيخٌ مسنٌّ، فبكيتُ** ».

إِلاّ أَنَّ ذاك الَّذي يقطُنه جُنون الحبِّ لا يُلقي سلاحَه، ولا يستسلم، وقد سُئِل

مؤَخَّرًا: "ما الَّذي يجعل شيخوخَتَكَ نشيطةً؟" فأَجاب: "هو الحاجةُ إِلى الإِعلان أَنَّ الحياةَ هي حفنةٌ من الوَقْت الممنوح للحُرِّيَّات، كي يتعلَّم كلُّ إِنسانٍ أَن يُحبَّ. والحُبُّ مشارَكةٌ، هو أَن أتوجَّع مع الموجوع، وأَن نسعى معًا لِشفاء ذلك الوَجَع الَّذي بات وَجَعي، من أَجل فَرحي بفرحك، وفَرَحك بفرحي".

فعسانا نعتبر بهذا الردِّ لكيلا نُضْطَرَّ إِلى التحسُّر مثل ذلك المُخْرِجِ السِّينمائيِّ المُلحد، الذي سَمِعَ الأَبَ پيير، يومًا، يُفضي بمثل هذه الأَقوال، فتمْتَمَ بتوجُّعٍ:

- "لمَ لم يُقَلْ لي ذلك، عندما كنت ما أَزال فتًى؟!"

الجُزْءُ الثّاني

معالم على درب مسيرة

« المسيحيَّةُ دعوةٌ إلى تخطِّي الدُّوَل كنُظُم، وإلى تخطّي الأَديانِ كمؤسَّسات، لا تتقيَّد بقَوْميَّةٍ، ولا تربطها لُغَةٌ مُنزلَةٌ، ولا تعتمد، أَساسًا، على شريعةٍ مكتوبةٍ، فالكلمةُ صار فيها بَشَرًا، فليس الكتابُ محلَّها، بل الإنسانُ، لا الإنسانُ الواقع، بل الإنسانُ القائم الموعودُ، الَّذي يَطمع بكمال الله، ومجدِ الله، ولاهوت الله »

(الأَب ميشال الحايك)

"ليست الحياة دربًا في الصحراء"

لقد التقى الأَب بيير على دَرْب مسيرته أَشخاصًا عديدين وَسَمُوه في الأَعماق، ولا سيَّما أَنّ شخصيَّته كانت مُشرَعةً لتلقّي كلّ خيِّرٍ، وتلقُّن كُلِّ مُفيدٍ، من أَيٍّ كان، وللتّواطؤ مع كُلِّ جَيِّدٍ في كُلِّ إنسان.

فعلى حدّ قوله: « منذُ يقظتي على الوجود، كان، ثمَّةَ، والدي، وشخصيَّةُ والدي، وسلوكُه في شتّى المجالات، والدي الَّذي قيل فيه، لدى وفاته، إنّه سيظلُّ نَموذَجًا يُقتدى به، بحياته الرُّوحيَّة، وحياته كرَجُل أَعمالٍ، وحياته في خدمة الفقراء... لقد دمَغَني بفضل ما كُنّا نتجاذبُه من أَحادِيث، وبالمُناخ الَّذي كان يُشيعه، في أُسرةٍ فيها ثمانيةُ أَبناء ».

ومن الذِّكريات الَّتي خلَّفت في نفسه آثارًا باقيةً لا تُمحى، صلاةُ الأُسرة الجماعيَّة، ولا سيّمَا مَشْهَد والدَيْه، اللَّذيْن كانا، في نظره، أعظم ما في الوجود، وهما يركعان كأطفالهما، مُعْتَرفَيْن بصِغَرهما أَمامَ الربّ، ملتمسَيْن منه، بضراعةٍ، غُفرانَ زلاَّتهما، وطالِبَيْن من كَرمه كلَّ ما تحتاج إليه الأُسرة. وعن تلك الصَّلاة يُقرّ الأَب الآن، في شيخوخته: « كان والدانا يقدّمان لنا أَجمل هديّة بوسع أَهلٍ مُؤمنين أَن يُقدّموها لابنهم، بجَعْله يعي أَنّ، ثمّة، ما يفوقه، وإِفهامه أَنّ الكبار والأَقوياء، الَّذين هم دائمًا على حقٍّ، لا يختلفون عن الأَولاد الصِّغار، عندما يقولون: "اغفر لي يا ربّ". إِنَّ رؤيةَ الأُمِّ والأَبِ راكعَيْن على هذا النحو، تتركُ أَثرًا لا يقوى شيءٌ على مَحْوِه.

"الصَّلاةُ، عندَنا، لم تكن تدومُ أكثرَ من عَشْر دقائق، ولم يُخامرني، يومًا، الشُّعورُ بأَنّها مُملِّةٌ، بل، على نقيض ذلك، كانت أَشبه بفترة هُدْنة، ينعتِقُ فيها الإِنسان من الوهميِّ الزَّائل، كي يجد نفسه، وجهًا لوجهٍ، مع ذاتِه، ووَهْنه، ومع روعة الله ».

وقُبَيْل مُثول الفتى هنري إِلى المنسك، وفيما كانت أُمُّه عاكفةً على معالجته من علَّةٍ أَلمَّت به، وهي تعاني، مُسبّقًا، جُرْح غيابه الوشيك، أَفضتْ إِليه، وحدَه، دونَ سواه، بنجوى عمَّا كانتْ حياتُها الدَّاخليَّةُ الحميمة. ويقول الأَب، عن تلك المناجاة، إِنّها كانت "هديّةً غايةً في الثمن، بحيثُ ما انفكّت تعيش فيَّ".

وفي طفولته، التقى الصبيُّ هنري الأَبَ ميشيل اليسوعيَّ الشَّيْخَ، وقد وافاه، يومًا، شاكيًا حيرتَه، قائلاً: "أَرى أَنَّ جميعَ القدّيسين الَّذين نسمَعُ عنهم، كانوا شديدي التَّعَبُّد للسَّيِّدة العذْراء. وإِنّني لَقَلِقٌ، حقًّا، لأَنّني لستُ أَشعُرُ، في ذاتي، بمَيْلٍ شديدٍ إِلى التَّعَبُّد". فأَجابه الكاهنُ الشَّيخ: "لا عليكَ، يا بُنَيَّ، فالأَمرُ سهلٌ: كُلّما وجدتَ نفسَك وحيدًا اتْلُ: "السَّلام عليك يا مريم". ويقول الأَب: "لقد فعلتُ ذلك، ومضَيْتُ فيه قُدُمًا، بحيثُ، وقد تجاوزتُ الثَّمانين من العُمْر، لا أَستطيع النَّوْم إِلاَّ وأَنا أُكرِّر: "السَّلام عليكِ يا مريم". وبذلك رسَّخ فيه الكاهنُ الشَّيخ عادةَ الصَّلاة.

أَمّا رئيسُ دير الكبّوشيّين الَّذي انضمَّ إِليه هنري، فقد استشفَّ أَنّ ذلك الشابَّ الهشَّ الصِّحَّة، والمتدفِّقَ حَيَويّةً، في آنٍ واحدٍ، لن يقوى على المكوث في مَنْسكٍ، ولكنَّه تبيَّن بأَيّة قُوَّةٍ استحوذتْ روحانيّةُ القدّيس فرنسيس الأَسّيزيّ على نفسه؛ وكانت التَّجربة قد علّمَتْه أَنَّ تغيير نَمَط الرُّوحانيّة، في سنيّ التنشئة الأُولى، من شأنه أَن

يخلُق الكثيرَ من اللاّستقرار في نفس الشَّابّ الَّذي يتأهّب للكهنوت، ففَسَح له الفرصةَ كي يتملّى، طيلةَ سبع سنواتٍ، من الرُّوحانيّة الفرنسيسكانيّة، قبل أن ينصحه بمغادرة الدَّيْر للانخراط في حياة الرِّسالة. وقد كان لتلك السَّنوات السَّبع أَثَرٌ حاسمٌ وباقٍ في مسيرة الأَب پيير.

وفي الدَّيْر تمرَّسَ الأَب بالصَّبْر الَّذي رسَّخَه فيه أَعمقَ ترسيخٍ، أَحدُ رفاق الكفاح في صُفُوف المُقاومة، وهو مهندسٌ كان قادمًا من معمل "بيجو" للسَّيَّارات، وقد دأبَ على إقناع رفاقِه بأَنَّ النّصرَ لا يتحقَّق إلا بفضل الصَّبْر الجميل، والصُّمود العنيد.

وكان له، في الأَب "دي لوباك" صديقٌ ثمينٌ، وسَنَدٌ منيع. فهو الَّذي أَسدى إليه، عشيّةَ سيامته الكهنوتيّة، النصيحةَ الَّتي أَنارتْ دَرْبَ رسالته كلِّها، وحملتْه على الاندفاع في أَداء واجباته الكهنوتيّة بلا حسابٍ، مُتَرَفِّعًا عن التماس أَيِّ مَغْنَمٍ ناجمٍ عن صفته الكهنوتيّة.

وبفضل نُصْح الأَب "دي لوباك"، تمَّ له الإِفادة من مُؤَازرة الآنسة "كوتاز"، الَّتي امتدَّت زهاءَ نصف قَرْنٍ، تلك المُؤازرة الَّتي كانت جوهريّةً في حياة الأَب پيير الَّذي أَقرّ: "لولاها لما تَحقَّقَ شَيءٌ ممَّا يُنسَب لي فضلُه". لقد دَرَأَتْ عنه تلك المُساعِدة الأَمينة مخاطرَ جمَّةً، وجهدت، أَبدًا، في إِعادته إلى أَرض الواقع، ولكن عندما كانت تراه ماضيًا بعنادٍ في جنونه، تنضمُّ إليه لكيلا تَدَعَه وحيدًا، ورغمَ تَبايُنِ طباعهما، قام بينهما تعاونٌ صادقٌ، كانت "عمّاوس" أَشهى ثماره.

وفي مُعرِّفه، الأَب "زوندل" قابلَ الأَبُ پيير كائنًا على منتصف الطَّريق بين الله والبشر، واستشفَّ، من خلاله، الصُّوفيَّةَ الصَّافيةَ، وحياةً تأمُّليَّةً من نَمَطٍ فريد.

أَمّا التَّأثيرُ الأَعمق فقد طَبَعَه فيه صديقُ صباه، "فرانسوا غاربيت"، الَّذي كان يكْبُرُه سنتَيْن، والَّذي بثَّ في سنواتِ مُراهَقته المُضطَربةِ شعاعًا مُتأَلِّقًا من المُثُل؛ وبيدٍ خبيرةٍ ثابتةٍ، أَنقذَه من الأَحلام الوبيلة الَّتي من شأنها إِشاعةُ الحزْن في نفسِ المراهق الحسَّاسة. وقد كتَب له، يوم كان، في الخامسة عشرة، عليلاً يتمنّى الموتَ: "أَيجول المَوْتُ في بالك، وأَنتَ في الخامسة عشرة، والحياةُ المشرقةُ تَمُدُّ لك ذراعَيْها؟ أَلا فاعلم أَنّ الموت إِن هو إِلاّ تتويجٌ للحياة وامتدادٌ لها؛ وإِنّما نحن بالحياة نستحقّه."

وكتب له أَيضًا: "كلُّ امرئٍ يفعل بحياته ما يشاءُ، ولئن مرّغ بعضُهم حياتهم بالحَمْأَة، فهل هم بذلك يُدنّسون حياتَنا؟ لا بل على النَّقيض من ذلك، إنَّهم يُبيِّنون لنا كيف تُجعَل الحياةُ ذميمةً. فلنُفِدْ من العبرة، ولنجعلْ حياتَنا رائعةً!"

تلك النبْرةُ المنعشةُ استجاب لها الفتى هنري، فجاءَت حياةُ الأَب پـيير رائعةً حقًّا.

قناعاتٌ وثَوابتُ

تَحْتَلُّ **الحُرِّيَّهُ** حَيِّزًا جَوْهَريًّا وفريدًا في تفكير الأَب پـيير، وفلسفته، وسلوكه؛ وطالما كرَّر القول: « **ذلكُم هو اليقين الَّذي أَودُّ توريثَه للخَلَف: إنّ الحياةَ فُسْحَةٌ من الوقتِ مُنِحتها حُرِّيّتُنا كي تتعلَّم الحُبَّ، وتستعدَّ للِّقاء الأَبديِّ مع الحبّ الأَبَديّ. هذا اليقينُ هو مفتاحُ حياتي وسرُّ كلِّ أعمالي** ».

لقد أَدرك أَنَّ حُرِّيَّةَ الإِنسان هي رمزُ كرامته، ومكْمَنُ عظَمته، وفي آنٍ واحدٍ، منبعُ كلِّ الشُّرور التي تُرتَكب على وجهِ البسيطة. وهذا ما أَجاب به السَّيِّدة دانييل ميتران، أرملة الرئيس الفرنسي السَّابق، الَّتي التمست من بعض المُفكِّرين موافاتها بتعريفٍ للحُرِّيَّة، فكتب لها:

« **قد تكون الحُرِّيَّةُ دَهْشةً رائعةً، أَو أَمرًا مُرْعبًا؛ قد تكون ذئبًا طليقًا وَسْط حُملانٍ، أَوْ سأَمًا من العَيْش بلا هَدَف.**

"لفظةُ الحُرِّيَّة لفظةٌ رائعةٌ، ولكنَّها قد تكون أكثرَ الأَلفاظ انطواءً على الرِّياء. إنَّ الرَّغبةَ تتملَّكُني في مُخاطبة الحُكماء: هل أَعملتُم الفكرَ، وهل لَديكُم الجُرأة كي تواجهوا من تدَّعون أَنّه أَساسُ الأَخلاق، والشَّريعة الطبيعيّة؟ إنّكم لحمقى! فما هي الشَّريعةُ الطَّبيعيَّة؟ هي أَن يلتهم القويُّ الضَّعيفَ، وحينئذ تنقلب الحُرِّيَّةُ إِرهابًا. ليس صحيحًا أَنّنا أَحرارٌ بأَن نُحبَّ أَوْ لا نُحبَّ، فليس للحُرِّيَّة سوى معنًى واحدٍ: هي ذلك الشَّيْءُ الكامنُ فينا، بين البشر، المُكَوَّنين من خمسين أَو ثمانين كيلوغرامًا من المادَّة، والقادرين، مؤَقّتًا، على حمل أَفكارٍ. نحن أَحرارٌ لكي نكونَ قادرِين على الحبّ ».

وهو لا يني يُردِّد: "**الحُرِّيَّةُ هي الخيارُ المُتاحُ لكَ في أَن تعبُدَ ذاتَك وتقول: « فلينفُق الآخرون، لا شأنَ لي بهم. ما يهمُّني هو "نجاحي" و"ثروتي"؛ أَوْ أَن تفكِّر: "لن أَسعَدَ في معزلٍ عن الآخرين". الحُرِّيَّةُ اختيارٌ ومسؤُوليَّةٌ، فيها يستطيع المرء سَلْبَ طعام أَخيه أَو بَذْل حياته لخدمة الآخرين. بها يستطيع أَن يكون نابوليون أَو القدّيس فرنسيس الأَسيزيّ، هتلر أَو الأُم تيريزا** ».

وهو غير غافلٍ عمّا في الحُرِّيَّة الَّتي ضلّت سبيلها وأُسيءَ استخدامُها من مخاطرَ وكوارث: "**فأَن يكَونَ المرءُ حرًّا كي ينعم بحُرِّيَّته فحَسْبُ، لا لكي يحبَّ، ذلك هو تعريف القطيعة، والطريق المسدود، والفراغ، حيث يَعْبَثُ المدعوُّ إِبليس، حاملُ النُّور الَّذي انقلبَ ظُلُماتٍ مذْ شاءَ أَن يظُنَّ نفسَه نورًا مكتفيًا بذاته**".

و"مع ذلك"، هو راسخُ الإِيمان بالحُرِّيَّة، ويتمنّى أَن يُؤْمنَ بها الجميعُ، رغم كلِّ شيءٍ، لأنّها شرْطُ الحبّ الأَساسيّ، بحيثُ إنّ الربَّ نفسَه يحترمُها، ولا يُقدم على اغتصابها، ولو من أَجل خَيْرنا، وكما قرأَ الأَبُ، يومًا على مُلصَقَةٍ في مَوْهِف كنيسةٍ عتيقةٍ: « **لا يستطيعُ الرَّبُّ أَن يرى إلاَّ بعيوننِا، ولا أَنْ يسيرَ إلاّ بأَقْدامنِا، ولا أَن يقتسم إلاّ بأيدينا** ».

وفي هذا السِّياق يروقُ للأَب پيير سردُ حوارٍ بين كاتبةٍ وابنتها الَّتي قالتْ لها يومًا:

– « أُمَّاه، ما أَروعَ دورانَ النُّجوم الَّتي لا تتحارب. ويا للخطأ الَّذي ارتكبَهُ الله عندما حبانا الحُرِّيَّة! فلولا الحُرِّيَّة، ولو كان البشر خاضعين لشريعةٍ تُلزِمُهم، لما اقتُرِفتْ كلُّ تلك الجرائم، ولعاش مليارات البشر في وِئامٍ وانسجامٍ!"

– "أَجل، يا ابنتي، لو لم نكن أَحرارًا، لما كان ثمّة فوضى وشرورٌ، ولكن لما كان لكِ أُمٌّ تُحبُّكِ، ولما كانت لي ابنةٌ تحبُّني، ولما كنَّا سوى أَشياءَ مبثوثةٍ بين أَشياء! »

ويستعيدُ الأَبُ صورةَ الشِّراع الأَثيرةَ لديه، فيقول: « **الحرِّيَّةُ تُحاكي إِنسانًا على ظَهْر مركبٍ شراعيٍّ، وهو حرٌّ في أَن يشدَّ الحَبْل كي يُشرع الشِّراع، أَو أَن يُرخي الحبل. وإِن كان الشِّراعُ مَطْويًّا، فحتّى لو هبَّت أَكْثَر الرِّياح مُلاءمةً، فالمركبُ لن يتقدّم، وتعجز الرِّيح عن دَفْعه. أَمّا إِذا بُسِطَ الشِّراعُ، ولأَنّ الرّيح الأَزَليَّةَ، الرُّوحَ**

القُدُس، هي حبٌّ، فلا بُدَّ من أَن تَهُبّ. إنّ الشِّراعَ المُشرَع هو توسُّل: "أنا أَعملُ ما أستطيعُ عَمَلَهُ، ولكنَّ عَمَلي لا يكفي، فتعاليْ يا نسمةَ الله". وهنا تحدثُ النِّعمة الَّتي هي لقاءٌ بإرادة الإِنسان الطَّيِّبة، الإِنسان الذي يُقَرِّحُ أَصابعه بالشَّدِّ على الحبل. الشَّدُّ على الحبل، وحدَه، لا يجعل المركب يتقدّم، ولكن إِن لم يكن الشِّراعُ مُشرَعًا، فالريح أَيضاً لن تقوى على شيء ... ليسَ الله الكلّيُّ القُدرة مُتَسلِّطًا، وليس الإِنسانُ عبدًا، فهو منذُ اللَّحظَة الَّتي أَحبَّ فيها قد بات سجينًا، وإِنّ أَيّة محاولةٍ منه لانتزاع جوابٍ قَسْريٍّ، قد جَعَلَ كلَّ ما كان يتوقَّعُه عديمَ القيمة. إنّ الإيمان بذلك الواقع جوهريٌّ لإِدراك – في ضربٍ من الانبهار – أَنَّ الله ليس الكُلِّيَّ القُدرَةِ المُتَسلِّط، بل الكُلِّيّ القدرة الأَسير، أَسير الحُرِّيَّات الَّتي يخلُقُها في قمَّة العالَم، كي يستطيعَ العالَمُ المشاركةَ في الحُبِّ".

"الحقيقةُ هي أَنَّ الله، لأَنّه حُبٌّ، ولأَنّه كليُّ القُدرة، فهو أَسير الحُرِّيَّة الَّتي حباناها، يُغامر بمجده احترامًا للإِنسان. أَجل، وحدَه الله يحترم الإِنسان إِلى هذا الحدِّ، لأَنّه هو خالقُ الحُرِّيَّة ».

هذا الواقعُ ينتزع من أَعماق الأَب پيير صَيْحةَ شُكرٍ تنبُض دَهْشةً، فيهتف: « **شكرًا، اللَّهمَّ، لأَنّك أَعطيتَنا، لا ابنَك المُتجسِّدَ فَحسْبُ، بل وهبتَنا، أَيضاً، حُرِّيَّتنا. إنَّ الفظاعةَ الناجمةَ عن حُرِّيَّة ضلَّت سبيلَها قد حملتني على التفكير، بشعورٍ عنيفٍ، كم واقعُ الحبِّ رائعٌ، بحيثُ إنَّ الربَّ لم يَتَرَدَّد، وهو يحمل في إِحدى كفَّتي الميزان: "لا حُرِّيَّة، ولا فظاعات"، وفي الكَفَّة الأُخرى: "الحُرِّيَّة، وبالتَّالي إِمكانيّةُ الشَّرّ أَو الحبّ" قد رجحت لديْه كفَّةُ إِمكانيَّة الحُبّ. لقد تجاسَرْتَ، اللَّهُمَّ، وغامرتَ، في هذا السَّبيل، بمجدك. فلولا الحُرِّيَّة، لما كنّا سوى بضعةِ أَرطالٍ، لا اسم لها، من مادَّةٍ تافهةٍ، تائهةٍ في الكَوْن، عاجزةٍ عن الإِجابة على الحُبّ بالحبّ** ».

هذه الحُرِّيَّةُ هي الَّتي تُؤَهِّل المرءَ لتلبية دواعي البُطولةِ والعطاء، وتحدّي جُبْنه الطَّبيعيّ، وتحسُّبِه لتقوُّلات الآخرين. فامتياز الإِنسان أَنّه حرٌّ، وهو يُسيء إِلى هذه الحُرِّيَّة، إِن هو أَبى المغامرةَ واتَّقاها.

وتلكَ الحُرِّيَّة هي الَّتي حَدَتْ بالأَب پيير إِلى فِعْل ما لا يُفْعَل، وإِلى الجَهْر بما يخشى غيرُه حتّى الهمسَ به. فهو قد آمَنَ في الصَّميم « أَنّ اضطلاع المرءِ بمهمَّته

كإنسانٍ، يعني أَن يُعرِّضَ نفسَه، أَحيانًا، للمهالك، وأَن يُسْلَبَ بعضاً من ذاته في مواجهة البُؤْسِ المحيقِ به. أَنا ورفاقي كان بوسعنا أَن نُغمِض أَعيننَا، ونلوذَ بالفرار. ولكنّنا، ببساطَةٍ، لم نتقاعس، مع أَنّنا لم نكن قد حسِبنْا للأَمر حسابًا، ولم نختَرْ، نحنُ، ما فعلنا... »

إِيمان الأَب بمثل هذه الحُرِّيَّة هو الَّذي مكَّنه من تحقيق أَروع الإنجازات الَّتي قال فيها: « **لم يكنْ لي سوى دَوْرٍ ثانويٍّ يتمثّل في أَنّني لم أَتقاعسْ عن المواجهة، فقد قَبِلتُ التَّصَدِّي لأَوْضاعٍ على المرء، حيالَها، أَن يتَّخذَ واحدًا من موقفيْن: فإِمَّا أَن ينجوَ بنفسه، مُغْمضًا عَيْنَيْه، وكأَنَّه لمْ يَرَ شيئًا، وإِمّا أَن يُغامرَ ويتحمَّل مسؤوليَّةَ التَّدَخُّل، وحينئذٍ لن يكونَ له، بعدُ، مخرجٌ. لقد لَعِبَ الله دورَه، وقبلتُ أَن أَلعَبَ أَنا دَوْري. لَعِبْتُه، تارةً، على نحوٍ جَيِّدٍ، وتارةً أُخرى، على نحوٍ سَيِّئٍ، فغمرني الفَرَحُ، حينًا، وذرفتُ الدُّموعَ أَحيانًا. في بعض الأَحيان يضجُّ فيَّ الوَجَعُ، لأَنَّ أَلَمَ الآخرين يغدو، حقًّا، أَلَمي، ومن ثَمَّ، إِنْ أَنا تدخَّلتُ، لا أَطرحُ على نفسي أَيَّ تساؤلٍ، فما من شَيءٍ كان لديَّ، يومًا، نتيجةَ حسابات. أنا لستُ أَختار، فإِمّا أَن أخرس، أو أَدَعَ الغَضَبَ يتدفَّقُ بلا حساب**».

هذا الموقف بات لدى الأَب طبعًا يفخرُ به، مهما سبَّبَ له من متاعب، وهو يعترف: « **إِن أَنا رأيتُ إِنسانًا يضربُ آخرَ لدَسَسْتُ نفسي بين الاثنَيْن وقلتُ للضَّارب: "لن تنال منه قبل أَن تُدَمِّرني". إِنَّ طبعي هو الَّذي يدفعُني إِلى التَّحدِّي، أَي إِلى الخُروج من التَّفاهة والعُموميّة من أَجل الاندفاع في العَمل، عَملٍ جَيِّدٍ، وإِن كان يلتهمني. هل، ثمَّةَ، ما هو أَشدُّ إِثارةً؟** »

وهذا يقودُنا إِلى قناعةٍ أُخرى من القناعات الجوهريّة الَّتي حدَّدتْ مسيرةَ الأَب پيير، تتمثّل في الإِيمان الرَّاسخ الَّذي ما انفكَّ يُردِّده أَنَّ عَظَمة الحياة تكمن في **الموافقة** أكثر منها في الاختيار. الخياراتُ تأْتينا، وعلَيْنا قبولُها أَو رفضُها، والحياة موافَقَةٌ أَو هروبٌ إِزاء هواتفَ داخليَّةٍ تقتضي، في مواجهة الوقائع الماثلة، تارةً قولَ "نَعَم"، وتارةً قول "لا"، أَحيانًا التزامَ الصَّمتِ، وأَحيانًا أُخرى تدخّلاً مُجَلْجلاً.

ولا رَيْبَ أَنّ الموافقةَ أَوْ الرَّفضَ هما أَيضاً خيارٌ، غيرَ أَنَّ ما ليس خيارًا هو

مجموع المُعطَيات الَّتي جعلَتْ أَنَّك وُلدتَ في زَمَنٍ ما، مَوْسومًا بطابعٍ وراثـــيٍّ مـــا، جسديًّا ونفسيًّا، وأَن تجتاز، منذُ مطلع وجودك، أَحداثًا معيَّنةً، وأَن توجد فـــي وَسَــطٍ ثقافيٍّ مُحدَّدٍ، وتواجه ظروفَ سكنٍ وغذاءٍ مُعَيَّنة...

ويقول الأَب في هذا السّياق: « **لا أَحدَ يعلَمُ أَيَّ دربٍ عـــاديٍّ أَو غيـــر عـــاديٍّ سيدعوه الربُّ إِلى سلوكه. ولا يُطلَب منّا سوى أَن نقـــول "نعـــم"، لا "نعـــم، نحـــن بمُفردنا" بل "نعم مع الربّ". والربُّ لا يطالبنا سوى في أَن نرغب، حقًّا، وأَن نَبْسُط أَشرعَتَنا للرّيح، ونتشبَّثَ بالحبل، ولو تقرَّحَتْ، منهُ، أَيدينا. مـــن شـــأننا أَن نكـــون شراعًا مُشرَعًا أَو مرخيًّا، أَمّا الريحُ فليست شأْنَنا. إِنّها نفحةُ الحُبِّ، وهي لا تنفـــكُّ تهُبّ، وما مَن يدري من أَين تأتي، ولا إِلى أَين تذهب. ولكنَّه، هو، يعلَم، وحـــسبُنا، كي نثق ونرجو، أَنّه "هو الكائن" الوَحيد، الكلّيّ. وهذا كافٍ لبَعثِ فَـــرَحٍ لا يُقهَـــر، كامنٍ في أَغوار النَّفس، حتّى حينَ يبكي القَلْبُ، وتذرف العينُ دُموعًا** ».

وغالبًا ما تردَّدَ على لسانِه وقلمِه أَنَّ بَسْطَ الأَشرعة والتَّشَبُّثَ بالحبل همـــا نـــداءٌ للرّيح الَّتي لا بُدَّ أَن تستجيب، فتهبَّ وتدفعَ السَّفينة. وفي هذا التَّشبيهِ صورةٌ لحياتـــه الَّتي كانتْ إِنْصاتًا دائمًا مُتَنَبِّهًا للرّيح، ولِهَمْس الرُّوح، وانقيادًا لهما. وهذا ما جعل من سيرة ذلك الإِنسان العاديِّ، مَلحمةً فذّةً، غيرَ عاديَّة.

وهو يقول: "نحن لسنا أَوْلادًا لُقَطاءَ، ولسنا مُهمَلين إِهمالاً تامًّـــا، ولا مقـــسورين مسلوبي الإِرادة، بل إِنَّنا نمتلك هذا القِسْط من الحُرِّيَّة الَّذي يجعلنا مـــسؤولين حيـــالَ نداءات تستدعينا". وهو، عندما يَستعرِضُ مسيرتَه، يتبيَّن، في شتّى مراحلها، معـــالمَ قصوى، كانتْ همساتِ الرُّوح الَّتي استجابَ لها، فانتهى إِلى حيثُ قاده الـــربُّ. فـــلا شيءَ ممّا أَنجزَه، أَو ممّا انتهى إِليه، كان نتيجةَ مُخَطَّط أَعدَّ له من قبـــل، بـــل كـــان استجابةً لمُعطَياتٍ طارئَةٍ هزَّته، وتلبيةً لنداءاتٍ استحوذَتْ على كيانه، وهو مـــستعينٌ بقُدْرات الرُّوح الَّذي ناداه. أَوَلَمْ يقُل، هو نفسُه، إِنّ "**الحياة هي القُدرَةُ على الحبّ"، أَي أَن نسمع، في داخلنا، صَوْتَ الحُبّ اللاّنهائيّ، الَّذي يقولُ لنا بوضوحٍ: "إِن شـــئتَ، كنتَ معي، وإِن شئتَ استطعتَ، لأَنّني مَعَكَ**".

فعن نشأته يقول الأَبُ پـــيير: « **لقد وَهَبَني الربُّ أُمًّا شُجاعةً، وأَبًا كريمًا. أَفلم ينطوِ ذلك على إِلزامٍ لي بأَن أكونَ بطلاً؟ وقد أَعطاني، فوق ذلك، أَن يكـــون ذلـــك**

الأَبُ الكريمُ، وتلك الأُمُّ الشّجاعة، مسيحيَّين حقيقيَّين. أَفلم يفـرض ذلـك علـيّ أَن أُصبحَ قدِّيسًا؟ »

ثمّ هو اكتشف، في صباه، القدّيسَ فرنسيس الأَسّيزيّ، فانتسب إِلـى مدرسـته، حيثُ قضى سبع سنواتِ نُسْكٍ وتَرَهُّبٍ تزوَّد منها بمِنْعةِ نفسٍ، كانت له العَوْنَ علـى خَوْضِ أَعتى المعارك بصلابةٍ لا تفتُر، وبروح العبادةِ والصَّلاةِ الَّتـي رفدتْـه، فـي ساعات المِحَنِ والإِحباط، بطاقاتٍ مُتَجدِّدةٍ تدفعُه، رغمَ كُلِّ شيءٍ، إِلى مُواصلة نضالٍ لا هُدْنةَ فيه. وهو يُقرُّ، في هذا الشَّأْن: « **ما قيل لي عن فرنسيس الأَسّيزي، هيّـأني لليقين بأَنّ كثافة التجرُّد، تجرُّد العبادة، من شأنه أَن يقودَني إِلى كثافة العَمَل، وفي آنٍ واحد، إِلى الاتِّحاد بجميع البَشَر على وجه البسيطة** ».

وهو، منذُ مُباشرتهِ مهامَّه الكهنوتيَّة، استنجد به مُضطَهَدون يواجهـون المـوتَ ظُلْمًا وافتئاتًا، فلم يستطعْ سوى الاستجابةِ لاستغاثتهم، وانطلق يخـوض مغـامراتٍ مدهشةً لإِنقاذهم، وانخرط في مقاومةٍ غدا من أَبطالها المرمـوقين بحيـثُ اعتـرفَ الجنرال أيزنهاور نفسُه، في مُذكّراته، بمناسبة حديثه عن صُمود فريق المقاومة فـي "ڤـيركور"، أَنّه لولا صُمودُ ذلك الرَّاهب، ونحو أَلفٍ من الـشّبّان المُلتَفّـين حولَـه، والَّذي أَجبرَ وحدتَيْن من خيرة الوحدات الأَلمانيّة على المكوث في تلك البُقعة، لربَّمـا تحوّل مصيرُ الإنزال إِلى كارثة.

أَمّا "عمّاوس"، إِنجازُ حياته الأَكبرُ، فما انفكَّ الأَب پـيير يُؤكِّد أَنّها هي ما حَدَث له، ليس ما فَعَل: "حَدَثٌ لم أَصنَعْهُ، بل عِشْتُه"، حدثٌ انبثق عفويًّا من لقـاء إِنـسانٍ يائسٍ رازحٍ تحت وِقْر فراغِ حياته، ونائبٍ ما انفكَّ يحمل بين جِنْحَيْه قلـب راهـبٍ، خَجِلٍ من امتيازَاته، مُتْعَبٍ من عجزه عن تلبية جميع نداءات الاستغاثة الَّتي لا تنـي تأْتيه من مُشَرَّدين يائسين. كانت العوامل متوفِّرةً، مفتقرةً إِلى مـن يوظِّـفُ روحَـه وعبقريَّتَه في استنباط الجواب الملائم، الجواب الذي ينتظره الجميع، وهـم يجهلـون فحواه، ومن يُضفي على الحركة الَّتي نشأَتْ من ذلك الجواب، زَخمًا وسِحْرًا. ومـن ثَمَّ لم يكن الأَب پـيير مؤَسِّسًا بمعنى من يدرس مُسبَّقًا، ويُخَطِّط، ويُنفِّذ ما خطَّط لـه بإِحكامٍ، بل كانت عمَّاوس عمَلاً عفويًّا، دعوةً استجابَ لهـا مـن أعمـاق أَحـشائه، وعرف كيف يُسبغ عليها دَوِيًّا يأخذ بمجامع العُقول والقلوب، ويهزُّ الأَنظمة الجامدة.

وقد اعترف الأَبُ نفسهُ بقوله: « **غالبًا ما قلت إنَّ "عمّاوس" قد وُجِـدت عفْـوًا، فهي ليست ثمرةَ تفكيرٍ، أَو مشروعٍ مُعدٍّ بإِحكامٍ، بل هي نتيجةُ عَدَم تقاعُسنا حيـالَ ضِيقٍ نقابلُه، ونتيجةُ استجابتنا للنِّداء، كُلّما تيسَّر لنَا ذلك** ».

ومن ذاك الحَدَث الجَلَل، وكُلِّ ما نَجَم عنه، استخلص الأَبُ مجموعةَ عِبَرٍ كانـت هاديًا لنضاله، حسْبَ اعترافه:

« يبدو أَنَّ "عمّاوس" قد خلَّفت فيَّ ثلاثةَ أَشياء جوهريّة:

"أَوَّلها هذا الواقع: مع كوننا مُفرطين في الصِّغَر، مُغرقين في التعثُّـر والخطـأ، يمكن أَن نكون، جميعُنا، مَدْعُوِّين إِلى الخدمة، وبوسعنا أَن نجد أَنفسَنا، رغم أَخطائنا، على نحوٍ خفيٍّ أَو ساطعٍ، نُعلن للجماعة البشريّة، على مقربةٍ منّـا، أَو بعيـدًا عبـر العالَم، عن "مُبرِّرات الحياة"، وعن ذلك اللِّقاءِ الأَكيد مع "الحُبِّ المُطْلَق"، الَّذي يجـأَرُ جوعُه في داخلنا. وليس لدَوْرنا هذا شأْنٌ بما نحن نَستحقُّ أَو لا نَستحقُّ.

"وتعلَّمتُ درسًا آخَر: حينَ كنتُ غارقًا، ورازحًا تحت وِقْر الشُّهرة والإِعجـاب، من جرَّاء السَّذاجةِ الرَّقيقة الَّتي تدفَعُ الجموعَ إِلى أَن تغْزو لي كُلَّ تلك الأَحداث التـي تثير دهشتَها، تعلَّمتُ إِلى أَيِّ مدى يُمكن للمرء أَن يكون مُهانًا في داخله، على نحـوٍ مريعٍ، عندما يكتشف أَنّه غيرُ جديرٍ بالإِعجاب، ولا مُتَمتّعٍ بالكفاءَة الَّتـي يتطلَّبهـا الجميعُ ممّن غدا يُشار إِليه بالبنان.

"وأَخيرًا علَّمتني تلك التجربةُ كثيرًا من الصَّبْر، إِذ كان لا بُـدَّ مـن مواصـلة المسيرة؛ مع كُلِّ ما كنتُ أَكتشفه، كُلَّ يَومٍ، في ذاتي، من عجزٍ وتقصير ».

وعندما يستجيب الأَبُ لنداءٍ، يندفع في تلبيته بكُلِّ جوارحه، وبلا تحفُّـظ، ويُعمـل العقلَ والقلبَ في تَقَصّي أَفضل الوسائل الكفيلة بإِيتاء أَوفر النَّتائج. فقد آمن أَنّ "**البُـؤْس من صُنع البَشَر، وعلى البَشَر أَن يقهروه**"، **ولذلك التمس من الربِّ**: "**اللّهُـمَّ اجعلْنـا، جميعًا، من فئة من يرفُضون عارَ قضاء يومٍ واحدٍ، من غير مشاركة العـالَم آلامَـه، ومن غير أن نكون، بأَفعالنا، جوعًا وعطشًا إِلى العدل**". وفي هذا السَّبيل لم يضُنَّ، يومًا، بجُهْدٍ، ولم يُحجمْ عن تَدَخُّلٍ، ولم يخشَ أَيَّة مُخاطرةٍ، ولم ينِ يهزُّ الـضَّمائرَ، ويـستحثُّ الهِمَم، ويستدرُّ السَّخاء. ولكي يستوفيَ كُلَّ شروط النَجاح، عَمِلَ على تأسـيس مركـزِ أَبحاثٍ مُهمَّته جمعُ المعلومات، ودراسةُ الوسائل الكفيلة بمكافحة البُؤْس، على خيْر وجهٍ.

وكان أَحدُ رفاقه الكَهَنة قد سمع، في مُسْتَهَلِّ عَهْد "عمّاوس"، عن مشاريع البنـــاء الَّتي كان الأَب پـــيير يضطلع بها، مُتَحدِّيًا، غالبًا، الأَنظمة والقوانينَ، من أَجل إِيواء من لا مأْوى لهم، فوافى لزيارته، واطَّلع بنفسه على بعض تلك المـــشاريع، وشـــاهدَ طائفةً من المحرومين الَّذين كان الأَبُ يُناضل من أَجلهم، ثُـــمَّ انعطـــفَ علـــى الأب ناصحًا: "حَسْبُكَ ما فعلتَ حتّى الآن، فانسحبْ قبل أَن تتورَّطَ ورْطةً لن يكون لك منها مخرجٌ؛ فمن فتح بابه لإِغاثة البُؤْس، تدفَّق عليه، منه، سيلٌ عارمٌ." فردَّ الأَب: "أَنا لم أُقدِم على ورطةٍ لكي أَلتمسَ منها مخرجًا، بل سأَمضي فيها حتّى نهاية الشَّوْط".

وهو، في سعيه إِلى غايته، منفتحٌ على كُلِّ نُصْحٍ وعَوْنٍ، من أَيّة جهةٍ أَتيا. فمن لِصٍّ سابقٍ تعلَّمَ جمعَ النّفايات الَّذي أَضفى على "عمّاوس" طابعها المميّز، وقد قـــال، في هذا الشَّأْن: "للتُّعَساء اكتشافاتٌ مُدْهشةٌ. صحيحٌ أَنَّ علينا أَن ننقل لهـــم البُـــشرى، ولكن ينبغي أَن نكون مستعدِّين للتَّعَلُّم على يدهم".

وقد أَدرك الأَب پـــيير أَنّ ممارسةَ الحُرِّيَّةِ الحقَّةِ يقتضي التحرُّرَ من أَوْهام الأَنانيّة والخوف، والسَّعادة الباطلة في معزلٍ عن الآخرين، وفي هذا الشأن قال: "**التحرُّرُ مـــن الوَهْم هو بدءُ الحياة الحقّة. فالإِنسان يُصبح إِنسانًا حقًّا عندما يخرُجُ من الأَوهام كي يَلجَ في الواقع. وهذا صحيحٌ في جميع الظُّروف: التَّربية، والزَّواج، والمحبّة**".

والتحرُّرُ من الوهم يقتضي مواجهةَ الواقع والانغماس فيه، وتلبيةَ دواعي الخدمة الَّتي تتعالى صيحاتُها منه، وعلى ضوء ذلك اكتشاف كلِّ ما في الأَنانيَّـــةِ والتَّقـــاعُس والانطواء على الذَّات من بشاعةٍ، ولكلِّ ما في المَحَبَّة والالتزامِ بالخدمة من تحـــرُّرٍ وازدهار.

وعن خبرته في هذا الشأن قال: « عندما استقبلتُ الرَّفيقَ الأَوَّل، جورج، لم أُفكّر بالأَمر دقيقةً واحدةً، بل إِنّ الواقع هو الَّذي نظَّمَ كُلَّ شيءٍ. ذلكَ هو الانعتاقُ من الوَهْمِ المندفعُ: الخروج من الوهم الَّذي يُؤَهِّل لرؤيةِ الواقع، واستيعابُ الإِنسان لكُلِّ ما فـــي العالَم، وفي حياته الخاصَّة، من بشاعةٍ، وفي آنٍ واحد، انطلاقًا مـــن هـــذه الخبـــرة، اكتشافُ إِمكانيّة الالتزام، مدى الحياة، بالعَدْل واحترام حقوق الإِنسان ».

وأَجملُ ما في الحُرِّيَّة أَنّها وسيلةٌ للمحبّة، وشرطٌ للحبّ.

ويؤكّد الأَب پـيير أَن ثلاث قناعاتٍ تقطنه، وكم هو يتمنّى أَن يُبلِّغها البَشَرَ أَجمعين، ويستميلهم إِلى مشاركته إِيّاها:

« أُولاها أَنَّ الأَزَليَّ هُوَ حُبٌّ، رغم كلِّ شيْءٍ.

وثانيها أَنَّ الحُبَّ الأَزليَّ يُحبّني، رغم كلِّ شيءٍ، ورغم ما قد يوحي بنقيض ذلك.

وثالثُها أَنّ الحُرِّيَّةَ السِّرِّيَّةَ القابعةَ فينا لا مُبرِّرَ لها سوى جعلنا قادرين على مُقابلة الحبِّ بالحبّ. فجمالُ الحُرّيّة الرائعُ ليس في أَنّها تجعلُنا أَحرارًا بأن نُحبَّ أَو لا نحبَّ، بل في أَنّها تجعلنا أَحرارًا لكي... نحبَّ، ونكون محبوبين ».

ويُعقِّبُ الأَبُ على ذلك بالقول: **« لا، ليس صحيحًا أَنّ الآخرين هم الجحيم، بل الجحيم هو، وحدَه، من ابتغى أَن يكون مُكتفيًا بذاته، على نحوٍ أَحمق »**

أَحداثٌ كثيرةٌ قد تبدو، ظاهريًّا، تكذيبًا لهذه القناعات، و"مع ذلك" يظلُّ الأَبُ عنيدَ الإِيمان بها، فيهتف: **"أَيَّتها الغيومُ، حتّى إِذا تحوّلتِ إِلى عواصفَ صاخبةٍ، لن تقوي أَبَدًا على إِنكار الشمس".**

هذا الإِيمان، عندما يترسّخ في النَّفْس لا يذَرُ فُسحةً لتردُّدٍ أَوْ تساؤُلٍ، فعلى حدّ قَوْل الأَب پـيير: "في فترةٍ ما يقول المرء "أُحبُّ" أَو "أُومن"، وينغمسُ بكلِّيَّته، وهذا ما فعله، هو، حسبَ اعترافه: **« أَثناءَ حياتي، وجدتُ نفسي محمولاً، أَبدًا، على اختيار مواقفَ قلّما تكون واعيةً، وغالبًا ما أُقدم عليها، عفويًّا، وأُثقِّف نفسي بها، في ما بعد. إِنّنا نختار، باستمرارٍ، بين "جميعنا معًا" أو "تبًّا للآخرين"، وما شأني بهم؟ عليّ أَن أَنامَ، وآكُلَ، وأَمتلكَ كُلَّ ما أَرغبُ فيه، وإِلى الجحيم بالآخرين ».**

وفي الخيار الأَوّل، وحدَه، تكمن السَّعادةُ: "**إِن أَنا ابتغيتُ أَن أكون سعيدًا، في معزلٍ عن الآخرين، فعاجلاً أَو آجلاً، لا بُدَّ من أَن تفسدَ سعادتي. ولكن إِن أَنا التمستُ السَّعادة بإِسعاد الآخرين، وبالإِشعاع، ما استطعتُ، فستتعاظم سعادتي باطِّراد**".

وفي هذا الخيار، أَيضاً، ازدهارُ الإِنسان وكمالُه: « الحبّ هو أَن يكون المرءُ ذاتَه، عندما يخرجُ من ذاته. وطالما وُجد من يستطيع أَن يُعطيَ، ويُقدِّمَ خدمةً، ففي ذلك تعبيرٌ عن الحبّ".

"من يستطيع أَن يُثابر في الحبِّ، الحبِّ الصَّادق، القادرِ على الاهتمام بفَرَح الآخرين، بقَدْر اهتمامه بخبْزِهم، مَن يستطيعُ أَن يُثابر في مثل هذا الحبّ، أَو أَن يتحوّلَ وينخرطَ فيه، فذلك هو التعريفُ الجوهريُّ للإِنسان.

"من أَين استَمدَّ أَسرارَهم رجالُ التَّاريخ ونساؤُه المشاهير، الَّذين كان لمساعيهم أَثَرٌ خلاصيٌّ عميقُ الغَوْر، إِن لم يكن من إِدراكهم البسيطِ للحُبِّ، أَي إِدراكِهم أَنَّ لكلّ ما يتأَلَّمُ حَقّ الأَوْلَويّة، وعلى نحوٍ مُطْلَقٍ، على كُلِّ ما يتأَلَّقُ ببريقٍ خدَّاعٍ، بريقِ القُوَّة والجمال، أَوْ أَيّ تفوُّق؟ »

وهذا الخيار يمنح الشُّعور العَذْبَ بيقين السَّيْر في السِّراط القويم، فقد آمن الأَبُ پيير أن "**لا شيءَ ممنوعٌ سوى الإِعراض عن الحُبّ**". وهذا ما مكَّنه من الإِعلان: "**بالإجمال، أَنا واثقٌ أَنّني لم أَضِلَّ السبيلَ، فمن مدَّ يدَه لمساعدة الشَّقاء، لا يمْكنه أَن يُخطئ**". وما أَقلَّ الَّذين يمتلكون هذه الثِّقة، وهذا اليقين!

وخيارُ الخدمة يملأُ الحياةَ ويُضفي على كلِّ دقيقةٍ ثَمَنًا، هُوَ طعْمُ الحياة الصَّادقة المُكرَّسة للمحبّة، وهذا ما أَتاح للأب پيير أَن يُصرّح: "**لستُ أذكر أنّني، في غضون اثنتَيْن وثمانين سنةً عشتُها، قد عهدتُ الملَل، ما خلا في الحفلات العامّة أَو الدِّبلوماسيَّة، حيث كان يعتريني الشعورُ أَن لا شيءَ كان صادقًا**".

صحيحٌ أَنّ الالتزام بالخدمة مصدرُ قلَقٍ دائمٍ، فقول القدِّيس منصور دي پول لم يَغْرُبْ، يومًا عن ذِهْنِ الأَب پيير: "ما أَعسر أَن يكون المرءُ جديرًا بخدمة المتأَلِّمين!" وهو نفسه غالبًا ما اعترف: "**طالما استمرَّ الشَّقاءُ، وسادَ الحرمانُ، لن يكون لنا عهدٌ براحة نفسٍ، أو بفَرَح قلبٍ، أَو بسلام**"، ويزيده الإِيمانُ شعورًا بذلك القَلَق "**فالعمل أَشدُّ صعوبةً للمؤمن لأَنَّه خاضعٌ أَبدًا لمقتضيات المُطْلَق الَّتي يشعرُ دائمًا أَنّه غيرُ جديرٍ بها**".

وعندما سُئل: "أَيُّ شعورٍ يُخامر من كان مؤَسِّس عمّاوس؟" أَجاب: « شعورٌ بالمهانة. ففي كلِّ يومٍ يؤلمُني جُرْحُ مهانةِ عجزي عن فعل ما كان عليَّ فعلُه لمن لمْ أَستطِعْ أَن أَقول له كلمة فَرَحنا: "ادخل، فنحن ننتظرك! »

ويتساءَل الأَب: « **ما هو العَطْفُ؟ فلنتأَمّل مثال أُمٍّ ابتُليَ ابنُها بالمرض: إِنّها لا تعرف الرَّاحة، بل هي، ليلَ نهار، في حَرَكةٍ دائبةٍ، في جيئَةٍ وذَهابٍ، عليها أَن تفعل**

كلّ شيءٍ، حتّى الموت إِن اقتضى الأَمرُ. ذلك هو العَطْف، ومن ثمّ، لكي نكون، نحن، طيِّبين، فلنكافحْ ليكون كلٌّ منّا كما لو كان أُمًّا لجميع البشر القاطنين في هذه القرية، قرية الأَرض ».

ولكن "حتّى من خلال الدُّموع، والمصاعب، والصِّراعات، الحُبُّ مصدَرُ فَـرَح. فلنأخذْ مثالَ امرأةٍ تبكي، لأَنَّ طفلَها عليل. إِنّها تُنفِقُ اللَّيالي ساهرةً عليه، وقد تنتَحب، ولكنّها، في آنٍ واحد، فرحةٌ فَرَحَ الحُبّ، رغم القَلَق".

وبالإِجمال "الحبُّ معنًى يقف أَمامَه المرءُ صامتًا، أَوْ لا حُدود للتَّكلُّم عنه. إِنّه بلا حدود، لأَنّه الكمال، ولأَنّه كيانُ الكائن الأَبديّ".

ولأَنّهُ أَحبَّ بكُلّ كيانه، لأَنّه كان مجنونَ حبّ الله، ومجنونَ حُبِّه للإِنسان، حقَّ للأَب پيير أَن يقول: "لقد كانت حياتي حافلةً بالنِّعَم!"

ولكي يعمّ الحبُّ ونعَمُه وبركاتُه، يرى الأَب أَنّ "ما من خيارٍ سوى ولادة إِنسانٍ جديدٍ، أَدعو الجماهير إِلى الإِسهام في تحقيقها، وإِلاّ تعرَّضَتْ لرُؤْيةِ البشريَّةِ الَّتي فقدتْ رُشدها تضمحلّ من التاريخ الشَّامل. الإِنسانُ الجديد هو الَّذي وعى أَن لا سبيل له إِلى سعادةٍ تامَّة، في معزلٍ عن الآخرين، وبحجَّة أُوْلى، ضدَّ الآخرين؛ وهو الَّذي ترسَّخَت لديه القناعةُ بأَنّ عليه مُواصلةَ النّضال، حتّى تسودَ الحُرِّيَّةُ في الأَماكن والقلوب الَّتي لم تستقرَّ فيها، بعدُ.

وهو بات يرى، ولا سيّما في السَّنواتِ الأَخيرة، أَنّ العلاجَ الأَمثل لآفات عصرنا هو المشاركة، الَّتي قد تبدو بعيدةَ المنال، ولكن لا مفرَّ منها، إِذ لا يمكن لهذا الضَّرب من الفرديّات المتجاورة أَن يستمرّ إِلى الأَبد؛ فمع انتشار وسائل الإِعلام وتعميمها، أَمسى بوسع الفقير أَن يشعُرَ بعبء فَقْره وظُلمه، عندما يُقارنه ببَذْخ طائفةِ المحظيّين الوَقح، ويُقَدِّرُ على نحوٍ أَكثرَ واقعيّةً ومأْساويّةً، ثقل هذا الظُّلْم، عندما يشهد توفُّر إِمكانيّات معالجة فقره، والقضاءَ عليه، وفي آنٍ واحدٍ، عدمَ اكتراث المُجتَمع الدَّوْليّ بتلك المعالجة، وهذا القضاء. هذا الوعيُ المُضني، ومُضيُّ الشقَّة في الاتِّساع بين فئة المحظيّين الضَّئيلة – دُوَلاً وأَفرادًا – وفئة المحرومين الَّتي لا تنفكّ صفوفها تتضخّم، كفيلان بإِبراز الفَقْر كالقوَّة العُظمى في عالَم الغد، القادرة على زعزعة توازُنه المزعوم، وتدمير كُلِّ مُكتَسباتِه.

إنّ هذا الوعيَ قد ينقلب قُنْبُلةً تُنذِر بنَسْف التَّوازُن العالَميِّ بأَسْره، فاليائس الَّذي يُسْلَبُ كُلَّ شيْءٍ، ويرى وسائلَ خلاصه مُتَوَفِّرةً ولكنّها محبوسةٌ عنه، قد يُقدم على أَيِّ عَمَلٍ، على نحو ما أَثبتته وتثبته أَعمالٌ إِرهابيّةٌ في أَماكنَ شتّى من عالَمنا المضطرب المتجاهلِ للعَدْل والحقّ.

هذا الخَطَرُ الدَّاهمُ المُنذِرُ بأَسوأ العواقب، لا سبيلَ إِلى درئه سوى المشاركة: مشاركة في موارد العالَم، وتقنياته، ومعارفه، وفُرَص العَمَل المتاحة فيه، مشاركة تتحقّق في كُلِّ مُؤَسَّسَةٍ، وفي العالَم أَجمع.

و"لكي تَكون المشاركةُ سليمةً ينبغي ممارستُها – بدءًا بالأَكثر حرمانًا. فإِذا ما شرعنا بتحديد حِصَّةِ الرَّئيس، ثمّ حِصَصِ الوزراء، ورُؤَساء المؤَسَّسات، والمديرين، الخ... لما بقيَ، قطّ، ما يكفي الكنَّاسين! ولكن إِذا بدأَ التَّقسيم بالكنّاسين، ثمَّ ارتقى إِلى عامل البناء، فعامل المصنع، الخ... صُعودًا، هكذا، درجةً درجةً، حتّى مستويات المسؤوليّة، والسُّلطة العليا، فسيكون دائمًا هناك ما يكفي؛ ولا بأْسَ إِن تضاءلتْ قليلاً حِصَّةُ الأَعلى مَنصبًا، وعلى مدى السُّلَّم."

وليس الأَب، في هذا المجال خياليًّا، بل هو يعترف أَنّ من يتولَّون المناصبَ العليا، يستحقّون أَجرًا أَكبرَ لأَنّ مسؤوليّاتهم تلتهم حياتَهم العائليّة، وأَوْقات فراغهم؛ ولولا ذلك، لما ارتضى أَحدٌ تولّي منصبٍ ينطوي على مسؤوليّات. وهو يعترف، أَيضاً، أَنّ المساواة غير ممكنة، ولا هي في طبيعة البشَر والأَشياء. غير أَنّ اللاّمساواة، ما لم تكن نتيجةَ مواقفَ مُخزية، هي دَعْوةٌ : دعوةٌ إِلى القويّ كي يدعمَ الهزيلَ، وإِلى مالك إِمكانيَّات ماليّة ضخمة كي يؤازرَ المحرومَ. ففي مدرسة الحياة، التي غالبًا ما يُقال إِنّها قاسيةٌ، لأَنّها قائمةٌ على اللامساواة، لا خيارَ سوى أَن يتعلَّم المرءُ الحبَّ، أَو أَن يُصبح وحشًا.

ويُقرُّ الأَبُ أَنّ لكلّ امرئٍ مُهِمَّتَه، الَّتي قد تكون وضيعةً أَو رفيعةً، ولكن لكلّ مُهِمَّة، ولكُلِّ إِنسانٍ ضرورةٌ ودَوْرٌ.

أَمّا ما هو مرفوضٌ، فهو أَن يقالَ لفتى أَن لا مُسْتَقْبَل لَه، وما لا يسوغُ هو أَن يكون أَيُّ رَجُلٍ أَو امرأة "نافلين"، لا لزومَ لهما. وإِن كان، ثمَّةَ، أُناسٌ نافلون، فلأَنّ

المجتمع يتصرَّفُ بحمْقٍ ولا مسؤوليّة. وفي هذا الشَّأْن يُصرّح الأبُ أَنّ "ما يعاني منه إِنسانٌ مبتلى بالفقر هو الشُّعورُ الَّذي لا يلبَثُ أَن يتحوَّلَ إِلى يقينٍ بأَنّه نافلٌ. ذلكم هو عُنصرُ الفقر الأَوَّلُ والأَشملُ، والأعمقُ، والأَبعدُ تَغَلغُلاً في الصَّميم، والأَشدّ تدميرًا". ويخلص الأَبُ إِلى التّأكيد، مُجَدَّدًا، أَنّ "**مشكلة الإِنسان ليست افتقاد وسائل العـيش، بل افتقاد مُبررٍ للوجود**".

واحتياجات العالَم الجسيمة، اليومَ، تقتضي مشاركةً في الأَبحاث والتّقنيّات. وإِنّـه لمن المحزن، حقًّا، أَن نشهد كُلَّ دولةٍ تقوم بأَبحاثها بمُفردها، في حرصٍ شديدٍ علـى إِسدال ستار الكتمان عليها، في حين أَنّ الشُّعورَ بالمسؤوليّة يفرض أَن تتعاون الدُّوَلُ جميعُها، في هذا المضمار، وكأَنّها أُسْرةٌ واحدةٌ، على القيام بهذه الأَبحاث، فتوفّر جَمًّا من الوقت والمال، الَّذي يُمكنُ توظيفهُ في مجالاتٍ أُخرى أَشدَّ ضرورةً للبشريّة.

ويُلخّص الأَبُ رؤيتَه في هذا المنحى بالقول: "نحن في مُستَهلِّ انقلاباتٍ جسيمةٍ"، ولا بُدَّ من إِعادة خَلْق العالَم. علينا مُواصلةُ البحث والاختراع، ولزامٌ علينا أَن نعمـل ذلك معًا: العالِم الأَميركيّ مع الهنديّ والروسيّ، والمُناضل النقابيّ مع ربِّ العمـل، الدُّوَل المزدهرة، مع البلدان المحرومة".

ومع انتشار التّقنيات الَّتي تدعو إِلى الاستغناء عن السّواعد البشريّة، وتؤدّي إِلى تفاقُم البطالة، يرى الأَبُ أَن لا مناصَ من مُشاركةٍ من نَمَطٍ جديدٍ، تُفضي إِلى إِعـادة توزيع فُرَص العَمل وأَوْقاته توزيعًا عادلاً، وإِلى خَلْق مُناخٍ جديـدٍ لإِنفـاق سـاعاتِ الفراغ في ما يُؤَدّي إِلى الازدهار الإِنسانيّ؛ وهو، في هذا السِّياق يقول "في حقبةٍ مثل حقبتنا، حيثُ مشكلةُ البطالة ترتدي حجمًا جسيمًا، ينبغي أَن نتجاوز البطالةَ، وأَن نَعِيَ أَنّنا ماضون نحوَ بشريّةٍ مختلفةٍ. قد نثور، ولكن لا مفرَّ لنا، فهذه البـشريَّةُ محكـومٌ علنها بالمشاركة حتّى في أَعظم ثروةٍ، أَي العمل. فمن جرّاء الميكانيك، والروبـوت، والاليكترونيك، سيتوجَّبُ علينا انتهاجُ طريقةٍ جديدةٍ في المشاركة. سـنكونُ بـشريّةً محكومًا عليها بفسحات فراغٍ، وإِن نحن لم نبتدع وسائلَ لجعل تلك الفُسْحات خصبةً، وعاملَ ازدهارٍ إِنسانيٍّ، فهي ستتحوَّلُ إِلى هروبٍ، ومُخَدِّراتٍ، وكُحـولٍ، وانحطـاطٍ إِنسانيٍّ. وستكون لعنةً رهيبةً".

ويمضيَ الأَبُ في إِيضاح رؤيته فيقول: « إِنّ جميعَ العاطلين عن العمل يعرفون

مهانة أَخذ المال من صُندوق الإعانة، من غير عملٍ يؤدّونه بالمقابل، فذلك يُمثِّل دمارَ الإنسان. وغدًا، أَيةً كانت صيغَةُ الحُكْم، لن يحولَ شيءٌ دون أَن تُصبحَ بلادُنا، والبلاد الَّتي تحاكيها، ولأَجَلٍ طويلٍ، بلادًا محكومةً بأَوقات الفراغ. وما كان يتعذَّر تخيُّله، من قبلُ، سنُقسَر عليه. وحينئذٍ، هل سيكون وقتُ الفراغ هذا بركةً أَم لعنةً؟ سيكون بركةً إِن أَمكن أَنسنة الحياة من جديدٍ، بعد أَن دمَّرها، إِلى حدٍّ كبيرٍ، اختيارُنا الإِثراءَ بأيِّ ثمن.

"نحن، اليوم، مُرغَمون على المُشارَكة، والمشاركةُ ليستْ زيًّا، بل هي واقعٌ قاسٍ مثل البِطالة والفَقْر. علينا أَن نزدادَ وجودًا عِوَضاً عن أَن نزداد امتلاكًا... غدًا، في غُضون سنةٍ أَو سنتَيْن، سنكونُ مُضطرّين إِلى إِعادة توزيع وقتِ العَمَل ودخله ».

هذه المشاركةُ تقتضي محبَّةً حقيقيَّةً صادقةً يُعبِّر عنها الأَبُ پيير بسلوكه وبقوله المؤثِّر: « **إنّني أَجيشُ لأَنّني جريحٌ بجُرْح العاطل عن العمل، وبجُرح الفتاة الَّتي تتسكَّع في الشّوارع، على نحوِ ما تعتلّ الأُمُّ بعلّة ابنها. تلكُم هي المحبَّة... فالمحبّةُ ليست فقط عطاءً، بل هي أَن يُجرح الإِنسان بجُرح أَخيه، وهي ضَفرُ كُلِّ طاقاتنا مع طاقاته للشِّفاء من علّته الَّتي أصبحت علَّتنا.**

"وأَيَّةُ سياسةٍ لا تنتهج هذا النَّمَط من المحبّة هي عليلةٌ، عرجاءُ، عديمةُ الجدوى".

هذه القناعات قد أَوحت لهذا الكاهن الهَرم المضطرم حبًّا، مسرحيَّةً جديدة، تبرّع فنّانون كبار بتمثيلها؛ وقد رأى أُلوفُ المشاهدين، في الثامن عشر من آذار ١٩٩٦، على شاشات التّلفزيون، ذلكَ الشيخَ الَّذي يحمل عبءَ أَربعةٍ وثمانين حَوْلاً من الجهاد، مُنْتَصبًا على أَحد المسارح الفرنسيّة، بعزيمة شابٍّ في الثلاثين، يدعو إِلى مشاهدة هذه التَّمثيليّة التي قد تستدرّ للمنبوذين دعْمًا، مُكرِّرًا على مسامع جمهوره المذهول قناعاته الماضية ترسُّخًا في ضرورة المُشاركة، وإِعادة توزيع أَوْقات العَمَل، وابتداع ما يجعل من فُسْحات الفراغ المتزايدة ذريعةً لإِغناء الإِنسان إِنسانيّةً.

وقد عقّب "جاك مارتان"، صاحبُ البرنامج التيليفزيونيّ الَّذي استضافه: « إِنّ الاستماع إِلى الأَب پيير يُحاكي الإِبْحارَ في أَجواز السَّماء".

مجنون حبّ الله

لا يَتَميَّزُ الأَبُ پـيير بمؤَهّلات خارقة، بل هو إنسانٌ عـاديٌّ. إلاّ أنَّ مـسيرته فريدةٌ، غيرُ عاديَّةٍ، وإنجازاتُه فذَّةٌ، مُدْهشةٌ. وسرُّ تلك المسيرة، وتلك الإنجازات يكمُنُ في إيمانه الَّذي لا يتزعزع بأَنّ "الأَزليَّ هو المُطْلَق الَّذي صارَ حُبًّا".

لقد سكَنَه جنونُ حُبِّ الله، في كُلِّ لحظةٍ، رغمَ تراكُم أَسباب الشَّكِّ والقُنوط، وهو الَّذي قادَ خطاه، وسما به إِلى مرتبةٍ فريدةٍ، وما انفـكَّ ذلـك الجنـونُ يقطُنُـه فـي شيخوخته.

فهو، مذ التقى فرنسيسَ الأَسّيزيّ، في صباه، بات هاجسُه صيحةَ ذلك القـدّيس: "الحبُّ ليس محبوبًا". ومُذَّاك عقَدَ العزمَ على تكريس حياته لكي يُصبح الحبُّ محبوبًا حقًّا، ولو هو اضطرَّ، في سبيل ذلك، إلى التَّضحيةِ بذاته، وبراحته. فهل يسوغُ وضعُ حدٍّ للجهود، عندما يكون الخطرُ بلا حدود؟

إثرَ لقائه الأَسّيزيّ، بات الإنجيلُ الرَّفيقَ الَّذي لا يبارحه، وأَيْقَن أَنّه، به، قد نهجَ طريقَ الحياة الحقَّة، طريقَ الحُبِّ، وأَنَّ الله يُحبّه. وعندما يؤْنس المرءُ أَنّه محبـوبٌ حقًّا، لن يكون عليه عسيرًا أَن يُحبَّ بلاحدود.

وسُرعان ما تبلورتْ لدى ذلك الحالِم الواقعيِّ، فلسفةٌ للحبّ فسَّرها بقوله:

« أَن أُحبَّ يعني أَن أَتأَلَّم أَنا، عندما تَتَأَلَّمُ أَنتَ، أَيًّا كنتَ، فلا أكتفـي بالـشَّفقة وتذريف الدُّموع، بل أَستفزّ كُلَّ ما فيَّ من طاقاتٍ، وأُناضلُ معك، لكي نبرأَ معًا مـن علَّتك الَّتي باتتْ علَّتي، فالحبُّ هو فرحي بفرحك، وفرحُك بفرحي، وأَنا وأَنـت فـي خدمة فرَح الجميع، بدءًا من الأَصغر. وإن كانت حُرِّيَّتكَ تقول "لا" لمُقتضيات شفائك وشفائنا من علَّتك، فالحُبُّ هو السَّعْي، بالصَّومِ والصَّلاة، للظَّفَر بتلك النفحة المُسمَّاة "نعمة" الكفيلة بحملك على قول "نعم" ».

والنتيجةُ الحتميَّةُ لهذا الإيمان هو أَنَّ "الحبّ نقيض اللامبالاة. فإن نحن لم يعترنا عندما نرى الآخرين ضَحايا للسُّخرية والاستغلال والمهانة، فمـنَ الواضـح أَنَّنـا لا نحبّ. والأَب پـيير، الَّذي أَحبَّ بكلِّ جوارحه، انتبذ اللاّمبالاة، وهبَّ للنِّـضال بـلا هوادةٍ ولا تحفُّظٍ، وحداه أَبدًا غَضَبٌ مُقَدَّسٌ على كلِّ ما يجرحُ الحبَّ ويَمتهِنُـهُ. وقـد كان لغَضَب الحبّ في حياته وفي تعليمه مكانةٌ عُليا، على حدِّ قوله:

« ليسَ الغَضَبُ عيْبًا، إلاّ عندما يكونُ دافعُه خسيسًا وأنانيًّا. إلاَّ أَنَّه فضيلةٌ عندما يكونُ تمرُّدًا على الشَّرِّ، وحَرْبًا على الظُّلْم والفساد، كما فعل يسوع بتُجَّار الهيكل، وحينئذٍ يكونُ الغَضَب تعبيرًا عن الحبّ.

"إنّني نادِمٌ على سَوْرات الغَضَب الَّتي لم أَجرؤ على الجَهْر بها، أكثرَ من ندَمي على سَوْرات الغضَب الَّتي لم أَستَطِعْ السَّيطرةَ عليها ».

وقد لخَّص الأَبُ پيير رؤْيتَه، تلك وسِرَّ مسيرته في الكلمة التي أَلقاها أَثناءَ قُدَّاسٍ شاركَ الاحتفال به "دون هيلدر كامارا"، بحضور "جاك ديلور"، رئيس الجماعة الأوروپيّة آنذاك، وطائفةٌ من السِّياسيّين، في "محابس" الفرنسيسكانيّين في أَسّيزي، حيثُ كانَ أَشرقَ عليه نورُ رسالته، وهو فتًى، حيثُ قال:

« الحبُّ، في ذاته، إشعاعٌ، ولا يكون ذاتَه، إلاَّ خارجَ ذاته،

"الحبُّ هو أَن يَهَبَ المرءُ ذاتَه، وبفضل هذه الهِبَة، أَن يخرجَ من ذاته...

"ومن تبادُل هذا الحبِّ اللاّنهائيّ، يولَدُ الرّوح مثلَ نسمةِ قُبلةٍ متبادَلَة

"كيانُ الله حبٌّ، ولا شيءَ سوى الحبِّ. ورسالتُنا أَن نجعَلَ ذلك الواقِعَ جديرًا بالإيمان "رغْمَ كلِّ شيءٍ"، أَي رغم كلِّ رزايا العالَم، رغم الهزَّات الأَرضيَّة، والطَّوفانات، وأَعمال الإرهاب. هذا ما كان قد هزَّ كيانَ الشابِّ "إرنست بسيكاري"، حفيدِ المُلحد "إرنست رينان"، في أَعماق أَعماقه. فهو، رغمَ حياةٍ مُذَهَّبةٍ، مُغْرقةٍ في التَّرف، حاولَ الانتحار، ثمَّ فزِع إلى الصَّحراء المغربيّة، وهناك، ذاتَ ليلةٍ، وهو يتأمَّلُ النُّجومَ المتأَلِّقةَ، انبجسَ من أَغوار كيانِه الإيمانُ، فهتف: "ليس صحيحًا أَنّ الطَّريقَ السويَّ لا يُؤَدّي إلى غاية." وارتمى جاثيًا على ركبتيه، ومع كلّ ما لجَدّه الشَّهير من عِلْمٍ ومجْدٍ، وشُكوكٍ وإلحادٍ، تصاعدتْ إلى شفتَيْه، من أَعماق الأَجيال، وأَغوارِ النَّفسَ المخلوقة على صورة الله، الكلماتُ السنيَّاتُ: "أبانا الَّذي في السَّماوات ».

ومن أَدرك سرّ حبّ الله، لم يعُدْ بوسْعِه أَن يظلَّ سلبيًّا، أو أَن يدَّعي الحقَّ براحة البال لمُجرَّد إعراضه عن الإساءَة إلى الغير، أو عدم ارتكاب أَخطاء، متجاهلاً أَنَّ الحبَّ، في جوهره، بَذْلٌ وعطاءٌ. مثلُ تلك المواقف السَّلبيّة، الشَّائعة لدى فئةٍ واسعةٍ من المؤْمنين، تنتزع من صدْر الأَب پيير صيْحات استنكارٍ مُجلْجلةً، فيهتف:

« يا للفظاعة! لقد حوَّلْنا الله، الَّذي هو حبٌّ، إِلى عدَمٍ، بتحويلنا الحبَّ إِلى "عدم ارتكاب خطأ"، وبتخيُّلنا أَنَّنا نُحبُّ، بمُجرَّدِ أَنَّنا لا نُؤتي سوءًا.

"لقد حوَّلْنا الحبَّ إِلى عدَمٍ، وإِلى لا شيء عطاءَ الله ذاتَه لنا. فلو كان الحُبُّ هو مُجَرَّدَ عَدم عمَل الشّرّ، أَفتظُنّون أَنَّه كان، ثمَّة، ما يدعو الربَّ إِلى المجيء إِلينا، وإِلى الموت على الصليب؟

"أَحببْ، أَحببْ كما تحبُّ ذاتَك"

"وماذا يعني: "كما أُحبُّ ذاتي؟" يعني أَن أَخدمَ قريبي قبلَ ذاتي طالما كان أَقلَّ سعادةً مني ».

وإِدراكُ سِرِّ حُبِّ الله يُلقي على كلِّ مسيحيٍّ مسؤُوليَّةً باهظةً، هي مسؤُوليَّةُ نشر هذا الحبّ، وجعلِه جديرًا بالتَّصديق، وذلك بتَطَوُّع كلِّ مسيحيٍّ لخدمة الآخرين، وبالتَّالي للعمل على إِرساء ملكوت الحُبّ. وهذا ما عبَّر عنه الأَب پيير بقوله:

« لقد عرفتُ ذلك الشُّعورَ الرَّهيبَ بثقل المسؤوليّة الملقاةِ على النَّفس المسيحيّة، لأَنّها تلقَّت، من إِيمانها بيسوع، ملءَ النُّور حولَ أَسرار الله الَّذي هو حبٌّ خالص...

"المُتطوِّعون الغانديّون ومُتَطوّعو عمَّاوس، في الهند أَوْ في أوروبا، سرعان ما يكتشفون أَنَّهم من جنسٍ واحدٍ، جنس المُتَطوِّعين لإِقرار ملكوت الحُبّ".

"الشَّريعةُ الإِنجيليَّةُ هي شريعةُ الحياة الاجتماعيَّة الجوهريّة. فأنا لستُ إِنسانًا إِن ارتضيتُ أَن أَطمئنَّ لسعادتي، في حين يعاني آخَرون البُؤْس. وستعمُّ الفَوْضى، ويُغْتال السَّلامُ، ويتمُّ التَّحريضُ على الحرب، إِذا ما نُظِّم المجتمعُ الأُسرويُّ، والوطنيُّ، والدَّوْليُّ، لِخدْمة راحة الأَقوى، في المقام الأوَّل.

"إِن كان، في أُسْرةٍ، ولدٌ ضعيفٌ أَو سقيمٌ، أَلا تُنظَّم كلُّ حياة الأُسرة بحيثُ تُوفَّر له الرَّاحةُ والشِّفاء؟ وبالتَّالي، لن تعهدَ الأُسرةُ البشريَّةُ جمعاءُ الفَرَح ما لم تنهجْ هذا النَّهْجَ ».

وذات يومٍ، كاد حادثٌ يُطيحُ بالطَّائرة الَّتي كان الأَب پيير يستقلّها، فاستعرض، في تلك اللَّحظاتِ الحاسمة، مسيرةَ حياته، ولخَّصها بقوله:

« الحبُّ المُطْلَق، وهو الأَبديُّ الأَوحد، هو الَّذي شدَّتني إِليه كلُّ بُرهةٍ من الزَّمنِ، سواء كانت اللَّحظات العاديّة الَّتي يُنسجُ منها كلُّ يومٍ، أَو السَّاعاتُ الكبرى الَّتي برزتْ هنا أَو هناك، أَو الدَّقائق الطويلةُ الحاليَّةُ، الَّتي قد تكون الآن هي الأَخيرة، قبل المواجهة الرَّائعة.

"إِنّ جوهر الحياة النَّاجحة هو الاثّار للإنسان، ولله، بالحبّ.

"وطريقةُ استعمال الحياةِ النَّاجعةُ الوحيدةُ هي الرَّغبةُ في تعلُّم الحُبِّ، في التَّراحُم والجوع إِلى العدل ».

وفي الواقع، كانت حياةُ الأَب پيير كلُّها محاولةً للاثِّار لله وللإنسان، من كلِّ ما يطالهما من امتهانٍ، بواسطة الحُبّ، ذلك الحُبِّ الَّذي أَفعمَ فؤادَه، فهتفَ من أَعماق كيانه:

« أَجلْ، أُحبُّه، الله الأَزليّ، الَّذي هو حبٌّ، وأَودُّ أَن أُؤَكِّدَ ما آنستُه سحابةَ سني عمري: إِنّه حبٌّ لا يَخْدَع.

"إِنّني لا أُحبُّه بالقَدْر الكافي، ولا بالطَّريقةِ المُثْلى، ولا حسْبَ ما يستأْهل من إِخلاصٍ. ولكنَّني أَعلمُ أَنّه، في كلِّ ساعةٍ، هو الغفران، وهو، لمن يُريد، معينُ تجدُّدِ إِرادةِ حُبِّه، وحبِّ جميع إِخوتي ».

إِلى ذلك النَّبع كان الأَبُ يفزَع، باطِّرادٍ، في حَوْمة كفاحه، مُستَمِدًّا لعزيمته رَفْدًا ولا سيّما عندما كان يُجيل النَّظَر في حقل الرَّبِّ الممتدّ، ويتبيَّنُ مدى جسامةِ المُهمّة الَّتي ما برحت تنتظر الإِنجازَ، فيتولاّه شيءٌ من الجَزع والأَسى؛ ولا عَجَبَ، بالتَّالي، إِن قال أسقفٌ إِيطاليٌّ كان قد دعاه لإِلقاء محاضرةٍ، إِنّه استشفَّ لديه مزيجًا من الأَسى والاندفاع، فردَّ الأَب: "وكيفَ لي أَن أَكونَ على غير ذلك، ما لم أكن فاقدَ الوَعْي، على نحوٍ يدعو لليأس؟"

فالأَسى يغشاهُ حيالَ القليل الَّذي يُنْجَز بالمقارنة مع الكثير الكثير الَّذي يستدعي الجُهْدَ والبَذْل السَّخيّ. وقد يشعر بالإِحباط، ولكنَّه لا يستسلم، مُستمدًّا من الحُبِّ طاقاتٍ مُتَجدِّدةً أَبدًا، فالحبُّ اللاّمتناهي لا يُهمل أَحدًا، وهو حاضرٌ أَبدًا، في كُلِّ لحظةٍ، حضورًا حميمًا مُنْعشًا، في قلب الأَكثر تَأَلُّمًا. وفي هذا السِّياق يقول الأَب پيير:

« في الأَلَم الَّذي يبدو وكأَنَّه لم يَعُدْ يُحتَمل، لا يحتاج المُتَأَلِّم إِلى نقاشٍ فكــريٍّ، بل إِلى حضورٍ مُستَغرقٍ في الصَّلاة، إِلى صداقةٍ، ومودَّةٍ متبادَلَةٍ. فهــذه، وحــدَها كفيلةٌ، حتّى تحت سَطْوة الأَلَم الَّذي يشُلُّ، ببعث الإِيمان في الحضور الآخــر الَّــذي تعجَز الكَلماتُ عن التعبير عنه، مَعَ أَنّه أكثر واقعيَّةً من الشَّرِّ، والَّذي يَهَبُ القُــدرةَ على احتمال العبء، دقيقةً إِثرَ دقيقةٍ، لأَنّه حضورُ رجاءٍ هو أَقوى، رغمَ كُلِّ شيءٍ، من جميع الآمال الضَّائعة ».

وعندما سُئِل الأَبُ، يومًا، عن أكبر فشَلٍ في حياته، أَجابَ: **« أَظُنُّ أَنّ ما أَعتبره الفشَلَ الأَكبرَ هو ما لم أَجروْ على الإِقدام عليه. وهذا يعني أَنّ مسؤوليَّتنا، كأَحياءٍ، هي أَن نَهُبَّ للتَّدخُّل، بلا هوادةٍ، كي يُؤْتيَ كلُّ حَدَث أَفضلَ ما ينطوي عليه من بُذُور الثِّمار، وأَلاّ نحول دون ذلك، بإِحجامنا عمَّا يتعلَّق أَمرُه بنا. إِنَّني أُحــاول أَن أَنــدَمَ نَدَمًا صادقًا على كلِّ خطأٍ ارتكبتُه، وأَن أُكفِّر عنه. بيد أَنَّ شعوري الأَكبــرَ بالــذَّنب ينتابني عمَّا أَحْجمتُ عن فعله ».**

وشعورُه العميقُ بضرورة الائتّار لله وللإنسان بالحبّ، وبحجــم ذلــك الائتّــار، يحملُه على الإِهابة بالجميع، ولا سِيَّمَا الشُّبَّان، لكي يتعاضدوا معه على إِنجاز تلــكَ المُهمَّة الجليلة، وقد جاءَ في إِهدائه كتاب: "الأب پــيير: عمَّاوس، أَوْ الائتّار للإنسان:

« إِليكم، يا جماعة شَباب هذا العالَم المُضطَرِب
شابّاتٍ وشُبّانًا في مواجهة النَّهارِ الطَّالع على أَيّامكم، وبين أَيديكم،
أَدْرِكوا وعيشوا ما يلي:
إِنَّ الحياة الحقَّةَ، هي جعلُ الحُبِّ جديرًا بالثِّقَة،
وبثُّ اليقين بأَنّنا، جميعًنا، محبوبون،
وأَنّنا قادرون على تَعَلُّم الحبّ، إِلى الأَبَد...
وهكذا نثأَرُ للإِنسان
ونثأَرُ لله
بالحبّ ».

قد يكون دربُ الحبِّ وعْرًا، وقد تكونُ مشاركةُ آلام الآخرين مصدر أَلَمٍ، إِلاَّ أَنّ في ذلك الدَّرْب وهذه المشاركة السَّبيلَ الأَوحدَ إِلى الازدهارِ والإِشراق والامتلاء، بالاندماج في الكائن الكُلِّيِّ، والحبِّ وَاللَّانِهَائِيِّ، ممّا يجعلُ الأَبَ يهتف:

« أَجلْ، عندما يُنفِقُ كُلُّ واحد أَيَّامَه كادحًا مُتأَلِّمًا لكيلا يتأَلَّم الآخرون، فليثق أَنَّه لن يفتقد "لقاءَ الحُبّ اللانهائيّ" الَّذي تصرُخ دمعَتُه المحفورةُ في أَغوار نفوسنا أَنّنا خُلِقْنا لكي نلقاه. فهو يأْتي نحوَ كُلِّ من يريد أَن يعيش كي يَتَعَلَّمَ الحُبَّ، ويجهَدُ بكلّ طاقاته البشريَّةِ كي يُعلِّمَ العالَمَ كيفَ يتحرَّرُ من كلِّ ما يحول دون هذا اللِّقاء ».

وبديهيٌّ أَن يُقاوِم العنفَ ذاك الَّذي اتَّقدَ صدرُه بمثل هذا الإِيمان المضطرِم بالحُبّ، والَّذي تَشرَّبَ مبادئَ غاندي في اللاَّعنف، واتَّخذ منها منهجَ سُلوك، وأَن يُعارِضَ، أَيضاً، الَّذين يَدْعون إِلى العُنْف أَو يؤيِّدونه، إِحقاقًا للعَدْل، إِيمانًا منه بأَن لا حُبَّ من غير عدلٍ، ولا عدْلَ من غير حُبٍّ، وأَنَّ العُنْفَ يُخلِّف في نُفوس حتّى أُولئك الَّذين يُقسَرون على اللّجوء إِليه وسيلةً لدَرْءَ الظُّلْم، جُرحًا بليغًا سامًّا. غير أَنّه لا يَدينُ هؤُلاء بقدر ما يَدينُ الَّذينَ، من جرّاء أَثَرَتهم، وتنكّبِهم عن الحُبّ، وإِنكارهم له، يستفزُّون للعنف نفوسًا قد تكون كريمةً طافحةً بالحبّ، وهو في ذلك يقول:

« علينا أَن نمقت العُنْفَ، نحن الَّذين عرفناه وعشناه، عندما لم يكن من وسيلةٍ سواه لإِنقاذ الأَبرياء، إِذ إِنّنا نعلَم بلاغةَ الجُرْح الذي يُشرعه في من يُضطرّ إِلى استخدامه حتّى في سبيل أَعدل الأَهداف، وحتّى إِذا كُتِب له النَّصرُ. نحن مُحقُّون في مَقْتِنا العُنْفَ، ولكن آنَ الأَوانُ لكي نعيَ أَنّ، ثمَّة، أَكثرَ من نَمَطِ عُنْفٍ واحد. فذاتَ يومٍ، لسنواتٍ عديدةٍ خَلَتْ، كنتُ في بلدٍ صغيرٍ من بلدان أَميركا الجنوبيّة، وقد أَمسى الآنَ خاضعًا لحكمٍ ديكتاتوريٍّ، وطَرَحَ عليَّ أَحدُ الصّحافيّين سُؤَالاً رهيبًا، على حين غرَّة، وكان البَثُّ التّليفزيونيّ مباشرًا، على الهواء، ويتعذّر تصحيحُ أَيّ شيءٍ ممّا يُقال فيه. كنت أَعلَمُ أَنَّ الجميعَ يستمعون، على السَّواء: الأَغنياء، وذوو السُّلْطان، والجيشُ والشُّرْطةُ، وأَيضاً الفقراءُ. ولا تضحكوا إِن قيل لكم إِنَّ البعض شاهَدوا، هنا وهناك، فوق أكواخٍ من الورَق المُقوَّى المتعفِّن، وَسْطَ مُدُن الصَّفيح المريعة، هوائيَّاتِ تليفزيون. لا تضحكوا ولا تسخَروا، فهذا ما يُقيمُ الفَرْقَ بين الإِنسان

والبهيمة. فالكَلْبُ، إِن جاع، لا يبتغي سوى الطَّعامِ فحَسْبُ، أمَّا الإنسانُ، فحتّى وهو جائعٌ، يصبو إلى التعلّم، وفي هذا الصَّبوِّ تكمُن عظَمتُه.

"إذنْ، كنتُ أَعلَمُ أَنَّ الفقراءَ أَيضاً يُنصتون إليَّ بترقُّبٍ، والسُّؤالُ الَّذي طَرَحَه عليَّ الصحفيُّ، ببساطةٍ، هو التّالي: أَبتِ، عندما تأْتي إِلى بلادنا، ويتَّفقُ لك مشاهدة بعضِ هؤلاءِ المُتَمرِّدين الَّذين تنكَّبوا سلاحَهم ماذا تقول لهم! وأطرقتُ، برهةً، ثمّ أَجبتُ:

"بالطبع يتَّفقُ لي أَن أُصادفَ بعضَهم. إنّهم، هم أَيضاً، بَشَرٌ، ولأَنَّهم يعرفون كيفَ نحن نحاوِل العيشَ مع رفاقنا في مثل ظُروف أُسَرهم، مقاسمينَهم آلامَهم، وكدْحَهم، يودّون البوحَ، وإِنّني أستمع إِليهم، وبعد استماعي إِليهم، ما تُراني أَسْتطيعُ أَن أَقولَ لهم؟ ليسَ لي ما أَقوله. فبأَيِّ حقٍّ، أَنا الَّذي تخلّى عن الثروة، أَنا الَّذي ليس أبًا مُهانًا يسمَعُ، عاجزًا، نحيبَ أَبنائه، بأَيِّ حقٍّ أَستطيع أَن أكرِّر على مسامعه: "اصبر"؟ حقًّا ليس لديَّ ما أَقولُه لهم. ولكنَّني أَعرف أَنّ عليّ أَن أَصيح في وجه من يُطاردونهم، وفي وجه القُضاة الَّذينَ يدينونهم، وفي وجه الَّذين سكبوا كلَّ الطَّعام في طَبَقهم، وتركوا أَطباقَ الآخرين خاويةً، والَّذين بعد أَن استأْثروا بكُلِّ شيءٍ، يقولون، بوجهٍ باشٍ، وضميرٍ مرتاحٍ: "نحن، نحن مالكي كلِّ شيءٍ، نحن طالبو سَلامٍ".

"إِنّني أَعلم أَنَّ عليَّ أَن أَصرُخ في وجه هؤُلاء: إنَّ العُنَفاء الحقيقيّين، ومُستفزّي كلِّ أَصناف العُنْف همْ أنتم يا أَصحابَ الحُظْوة والامتيازات ».

ولا بِدْعَ إِن شعّ الحبُّ من كُلِّ كيانِ ذاك الَّذي قامت حياتُه على عبادة الأَزليّ الَّذي هو حُبٌّ، وعلى خدمته في أَعضائه المتأَلِّمة، وكانت مسيرتُه دعوةً مُتَّصلةً إِلى إِشاعة الحبِّ؛ وهذا ما أَكّدَتْه الأُخت "إِيمانويل" الَّتي اندفعت في تيَّار الأَب پيير، وحقَّقت للفقراء، في مصر، إِنجازاتٍ رائعةً؛ وقد أَفادتْ أَنّ الأَب زار مشاريعها في القاهرة مرَّتَيْن، "ومع أَنّه لا يتكلّم العربيَّة غير أَنّ نظْرةَ العَطْف الَّتي يُلقيها على الفُقراء، تنعكس عليهم فَرَحًا يشعّ من عيونهم، واطمئنانًا يغمرُ كيانَهم، فتلك النظرةُ نفسُها هي انعكاسٌ لينابيع الحُبّ في داخله".

"ســـرُّ الفَرَح"

"سِرُّ الفَرَح": ذلك هو عنوانُ إِحدى مسرحيَّاتِ الأَب پــيير.

وسِرُّ فَرَحه هو شعورُه بحُضور الرّبِّ المُشعِّ فيه ومن حوله، وإِيمانــه الرَّاســخُ الَّذي يُؤَكِّدُ له أَنّه، مهما حَدَثَ، فالله يُحبُّه، حبًّا لانهائيًّا، لا فتورَ فيه ولا تراجع. ذلــك الشُّعورُ، وهذا الإِيمان يولِّدان في أَعماقه سعادةً وطيدةَ الأَركان، تظَــلُّ راســيةً فــي الأغوار العميقة، ولو هاجت على السَّطح العواصفُ، وتلاطمت الأمواج.

فالفَرَح عندَه، هو "**تعلُّمُ الحُبِّ، حتّى من خلال الدُّموع**"

وهو تعليم الآخرين الفَرَح، بتحريضهم على الخِدْمة، على حدِّ قوله:

« لن نَجدَ الفَرح، ومعنى الحياة، وطعمَ كوننا أَبناءَ الله، إِلاّ بعد أَن نكون إِخوةً لإِخوتنا أبناء الله الآخرين.

"أنتَ خُلِقْتَ للحبّ. وهذا لا يعني الصُّدوفَ عن الفَرَح، بل تَعَلُّم عَدَم التماسه إلاّ في خِدْمة فَرَح الآخرين، جميع الآخرين، بدءًا بمن هم حولَك، ثــمَّ، شــيئًا فــشيئًا، التَّطلّع إِلى خدمة الفَرَح العالَميِّ الشامل.

"وهذا يعني أَن توظِّفَ فَرحَك في خدمة فَرَحِهم، ومساعدتِهم، لا بالأَقوال، بــل بعدوى أَعمالك، علَّهم يتعلَّمون، هم أَيضاً، خدمةَ فرح الآخرين، فذلك هو ســبيلُهم الأَوْحدُ، إِلى بلوغِ الفَرَح الحقِّ.

"هذا هو النَّهجُ الوحيدُ الَّذي لا خِداعَ فيه، ففيه، فقط، يُقيمُ الله، وفيــه فــي آنٍ واحد، الطَّريقُ والغايةُ ».

بالخِدْمة، اكتشفَ الأَبُ يسوعَ، وبه اكتــشفَ للفَــرَح مَعينًــا ثَــرًّا لا ينــضُب، واضطرمتْ لديه الرّغبةُ في إِشراك الآخرين بهذا الاكتشاف، وهذا مــا عبَّــر عنــه بقوله، في مَسرحيّة "سِرّ الفَرَح":

« لستُ أُريدُ إِقناعَك بشيء، بل أَودُّ فقط... أَن أُشركك في اللِّقاءِ الَّــذي جَعَلَنــي أَكْتَشِف الفَرَح، فأُبيِّن لكَ كيفَ أَنّ المسيحَ، بحياته المُفْعَمة حُبًّا، وبموته الَّذي وهَبَنــا، جميعنا، إِيّاه، ليس حَدَثًا عابرًا من أَحداث التَّاريخ، بل إِنّه، ويجب أَن يكون، للخليقــة كُلِّها جمعاءَ، نقطةَ انطلاقٍ على دربٍ جديدٍ...

"على المسيحيّين أَن يتفجّروا فَرَحًا. أَنا لا أَستطيع أَن أَفهم كيــفَ هــم يكتفــون بالقليل من الغِبْطةِ الرَّاضيةِ عن ذاتها، ولكنْ ليس ذلك فرحًا ».

والخِدْمةُ تضحيةٌ بالذَّات قد يتنكَّر لها الكثيــرون ويُعارضــونها، والأَب پـــيير يعترف: « إِذا ما هبَّ إِنسانٌ جريءٌ (كالمسيح أَو غاندي) وأَعلــن، بــلا وَجَــلٍ، أَنّ الفَرَح الشَّامل يولَد من التَّضحية بالذَّات، لا من التَّضحية بالآخرين، سُخِر منه، وشُتِم، وسُجن، وفي نهاية المطاف يُخيَّل أَن لا خلاص منه إِلاَّ بقتله ».

ولكنّ المسيحَ قُتل، فقامَ، وكانت قيامتُه الفَرَح الأَكبر، ويُدَلِّلُ الأَبُ على ذلك بمثال تلميذَي "عمّاوس"، اللَّذَيْن عرفا القائمَ من المَوت عند كَسْره الخبزَ، واقتسامه معهمـــا، فتحوَّلا من هاربَيْن وَجِلَيْن إِلى شاهدَيْن جريئَيْن.

« لقد شَهِدا الموتَ مقهورًا، فدخلا في الفَرح: الفَرَحُ الحقُّ كان هناك مـــاثلاً. إِنَّ الفَرَح ينشأ، ويُصبح أَقوى من الدُّموع، منذُ اللَّحظة الّتي، بفعل نفحة الرُّوحِ القُــدس، يتحوَّلُ فيها الضَّعيفُ الخائفُ إِلى مُناضلٍ مُستَشهدٍ في سبيل العَدْل، مُلتــزمٍ باتّبـــاع يسوع، حالما يعرفه، حبًّا به، في فرح المشاركة ».

ويختتم الأَبُ مسرحيَّةَ "سرّ الفرح" بانفجار فَرَحٍ، فيهتفُ متهلّلاً:

« إِنّه معنا،
وهذا هو سرُّ فرحنا.
إِنّه معي، في الواقع،
فلستُ، بعدُ، وحيدًا،
أَجتازُ دَرْبَ الوُجود معه،
يدُه في يدي.
أَسير ويدي في يد الفُقَراء،
إِنَّ سرَّ الفَرَح يَعتَلِنُ،
بعدَ اجتيازِ النّزاع،
على مدى المسيرة الدَّاخليّة، في الفَرَح.
إِنّه معنا حتّى نهايةِ العَالَم
وحتّى اكتمالِ ملءِ الكَوْن... »

وقد سُئِل الأَبُ يومًا: « هل أَنتَ سعيدٌ؟"، فروى هذه الحادثة: "كنتُ، ذاتَ يــومٍ، في حيٍّ بائسٍ من أَحياء "سايغون" في الــڤــيتنام. وكــان، ثمّــةَ، ثــلاثُ راهبــاتٍ ڤيتناميّات، يعشنَ وَسْط أُسَرٍ حطَّمتْها الحربُ. وإذا بأُمَّهاتٍ تلتئمنَ عنــدَهُنّ، وتــسأَل إحداهنَّ إحدى الرَّاهبات: "أَنتِ لا تنعمين بسكَنٍ أَفضلَ من سكَننا، وتعملين مثلَنا فــي المَصْنعَ ولا تنالين أَجرًا أكبرَ من أَجرنا، وليس لك زوجٌ ولا أَوْلاد، ومع ذلك، كُلّمــا جئناكِ وجدناكِ مَرِحةً، مُبْتَسمةً، فما هو سرُّكِ؟" وصمتَت الرّاهبةُ لحظاتٍ، ثمَّ قالــت، في خَفَرٍ ورِقَّة: "السِّرُّ أَنّني أَعلمُ أَن الَّذي أُحبُّه يُحبُّني، وهو الحياة ».

ويُعَلِّقُ الأَبُ پــيير: « آمل أَن أَستطيعَ القَوْلَ مثل قولها. أَجل، على هذا النَّحو، أَنا سعيدٌ. ولكنَّ هذه السَّعادة تقبع في قَعْر المياهِ العميقة، أَمّا على أَمــواج الــسَّطْح، فالعواصفُ تنشَب أَحيانًا ».

وكم من دواعي الفَرَح تُفاجِئُ الأبَ پــيير، من حيثُ لا يتوقَّع! فأَثناءَ زيارته لإِحدى المُدُن الأُوستراليَّة، انتصب أَمَامَه رجُلٌ معه أَولاده، وبتأَثّرٍ بالغٍ قال لَهم: « يا صغاري، كثيرًا ما رويتُ لكم كم عانينا أَنا وأُمُّكم، في فرنسا، في أَعقاب الحَرْب، حيْثُ كنَّا تُعَساء، بلا بيتٍ ولا أَمَلٍ، ثُمَّ كيف آوانا قومٌ فُقَراء وكاهنٌ، ثمّ بنوا لنا بيتًا... ذلك الكــاهنُ هــا هوذا! » أَيُّ سيلٍ من الفَرَح يتدفَّق على قلب الأَب پــيير عندما يستمع إِلى شهاداتٍ مثل هذه، وما أَكثرها! وهو الَّذي يستمدُّ فرَحَه من أَفراح الآخرين، أَيُّ محيطٍ من الفَرَح يجب أَن يغمُر أَعماقَه، بعدَ كُلِّ ما بثَّ من أَفراحٍ، على مدى مسيرته الطَّويلة!

ومع ذلك، يطمح الأَب في أَن يكون فرحُه بالمسيح كاملاً، ويُقرّ، في أَسًى، أَنّه لم يستسلم دائمًا بالقَدْر الكافي للفرَح، مشيرًا إِلى قول "نيتشيه" في المسيحيّين: "عَلَيْهم أَن يَبدوا مُخَلَّصين أَكثرَ ممَّا يُظهرون، كي أُومن بمُخَلِّصهم"، ويقول: « عُذرًا إِن لم أَبدُ، طيلة حياتي، مُخلَّصًا بقَدْرٍ كافٍ. ولكن قبل بلوغي نهاية الشَّوط لا يُخامرنّكم رَيْــبٌ، إِن كان، ثمَّةَ، دُموعٌ على دربي، (وما أكثرها) أَنّها ليست الدُّموع الَّتــي قــد يُحبُّهــا البَعض حُبًّا وبيلاً، بل هي الشَّمس، وقوسُ قُزَحٍ يُواكبها ».

ويُضيف، في مقدّمة مسرحيّته "سرّ الفرح" قائلاً: « لقد جاهدنا بقسوةٍ، متعثّرين، ولكن مثابرين، على مدى مسيرة حياتنا، كي نُقوِّض الأَصنام: وجوهًا لله، ووجوهًــا للإِنسان، ووجوهًا للتَّاريخ، مُزَيَّفةً. فلا تدعوا أَحدًا يستعبدكم أَنتم أَيضاً...

"فلنتكاتف من أَجل ثَأرِ مُحبٍّ. فهو دَرْبُ الفَرَح الوحيد الَّذي ينشُدُه الجميع ».

الكاهن

الكهنوتُ دَعْوةٌ من الرّبِّ، واختيارٌ منه. والدَّعوةُ قد تلقّاها "هنري" الفتى، فلبَّاهـا مُندفعًا. وخُيِّل إليه أنّه يحقِّقُها في الرَّهبنة، فترهَّب سبع سنواتٍ، كانت هـي البوتقـة الَّتي انصهرتْ فيها روحانيّته، وتمرَّست فيها نفسُه من التأَمُّل في الكائن الأزَليّ الَّذي هو حُبٌّ.

إلاّ أنّه لمّا تيقّن أنَّ الربَّ يُؤْثرُ له الحصادَ في كرمه، هرع إلى الكَرْم وهو أَبـدًا مُنصتٌ إلى نفحات ريح الرَّبِّ، من خلال صَيْحاتِ الاستغاثة الَّتي كانت تُناديه، وينقادُ لها حيثما تقوده.

وعشيَّةَ سيامته الكهنوتيّة نصحَه الأَب "دي لوباك" ألاَّ يلتمس من الرُّوح القُـدُس، عندما تحلُّ عليه نعمة الكهنوت، سوى مقاومة الامتيازات الكهنوتيّـة علـى غـرار القدّيسين، وقد عمل بتلك النَّصيحة، فبذَل ذاتَه بلا حسابٍ، في أَداء واجباتـه، ولكنَّـه عَزَف، بإباءٍ، عن كُلِّ امتيازٍ أو مَغْنَم.

وكانت تنشئتُه الفرنسيسكانيّة قد وَسَمَتْه في الأَعماق بطابع الفَقْر وحُبِّ الخِدمـة، اللَّذيْن صَبَغا مسيرته الكهنوتيّة كلَّها. ومن ممارسته الفَقْر وروح الخدمة تبلورتْ لديه قناعاتٌ كانت لكهنوته الدَّليلَ والمرشد؛ فقد أَيقن أَنّ الإيمان هو، جوهريًّـا، رفـض السَّعادة في معزلٍ عن الآخرين، وأَنّ الكنيسةَ هي جماعةُ الّذين يناضـلون ليكونـوا أَوفياءَ للإِنجيل، وأَنَّ الحياة الأَبَديَّةَ ليستْ هي فقط "حياة الآخرة، بـل حيـاة الحُـبِّ والخدمة التي تُعاش كلَّ يومٍ. ومن ثمّ، لم يكن له الكهنوت خدمة الهيكل فحَسْبُ، بـل كلّ خدمةٍ يُسديها للآخرين؛ وعندما تبيَّنَ فداحةَ أَزمة السَّكَن، وانعكاسَـها المأْسـاويَّ المُدمِّر على فئةٍ واسعةٍ من مواطنيه، عدَّ المَسكِنِ اللائّقَ هو المحراب الأَوّل، فجهـد كي يوفِّره لكلِّ أُسرةٍ، وكلِّ فَرْد.

وآمن أَنَّ اكتمال كهنوته سيتحقَّق بمقدار تشبُّهه بالكاهن الأَوّل والأَوحـد يـسوع، الَّذي تمثَّل بالجائع والعطشان والعريان والمُشرَّد والسَّقيم، وبمقـدار عملـه بمقتـضى إنجيله. لقد آمن بكلِّ كيانه، إيمانًا مُطْلَقًا، بحُضور الرَّبِّ في القربان المُقَدَّس، ولكنّه آمن أَيضاً، وبنفس القدْر من القناعة والعمق، بحضوره في كلّ فقيرٍ محتاجٍ، فمذ قال يسوع: "كنتُ جائعًا". غدا الجائعُ الفقيرُ مُكرَّسًا. وطالما كرَّر الأَبُ پـيير القولَ: "**قـد تُـصبح**

مشاركتُنا في سرِّ القربان بغيضةً لدى الله، إن لم نمضِ، بعد خُروجنا من الكنيسة، لنكملَها في المشاركة بالحضور الآخر، في آلام إخوتنا وفي كفاحهم. وحينئذٍ، فقط، تستطيع المسكونةُ كلُّها أَن تُعَبِّر عن شُكرها" (لفظة "افخارستيا" تعني الشكر).

ذاتَ يومٍ، تلفَّظ الأَبُ پيير بمثل هذه الأَقوال خلالَ عِظَةٍ أَثناءَ قُدّاسٍ احتفل به في مسرحٍ بالبرتغال كان قد حُوِّل، من أَجل المناسبة، إلى كنيسةٍ، وقد اشترك فيه أُلوفُ المؤمنين، وأَخذَ التأَثّر بالحُضور. بحيثُ طفقوا ينتزعون حلاهم وجواهرهم ويتبرَّعون بها. وكان، ثمّة، حشدٌ من الأَحبار والأَساقفة الّذين انتظموا في مَوْكِبٍ، ومرُّوا يُلقون على الأَب التَّحيَّةَ، وعقْبَ القُدّاس، فيما هو كان، من الإعياء، مُستندًا إلى طَرَف منضدة. وانحنى عليه أُسقفٌ طاعنٌ في السِّنّ، وطوَّقَه بذراعَيْه، وأَسَرَّ في أُذنه: "هكذا ينبغي أَن يكون الوَعْظُ. ولكن على من يقول هذا القَوْلَ أَن يمارسَ أُسلوبَ عيشٍ خاصًّا ينسجم معه. أَمّا نحن، هنا، وقد فرضَتْ علينا التقاليدُ أَن نعيش في مظاهر الغنى، فإن تكلَّمنا على هذا النَّحو، لانفجَرَ الحُضورُ ضحكًا، في كاتدرائيَّاتنا".

وبالتَّالي طالما تناوَل الأَبُ بلَوْمه، إلى جانب الأَساقفة ورجال الدِّين الَّذين يُغفلون ذلك الجانبَ الأَساسيّ من الإنجيل، المسيحيّين الأَغنياءَ الَّذين يدفعونهم في هذا المنحى، ويقول: "أَلا تظُنّون أَنّ الكثير من مآسي العالَم، عبر مآسي الكنيسة، ينجم عن هذه الحيلة الَّتي بها يجهَدُ مُؤمنون ميسورون، هنا وهنالك، كي يوفِّروا للإكليروس ظروفَ حياةٍ شبيهةٍ بظروف حياتهم، فيتيقّنوا أَنّ صفحاتٍ كاملةً من الإنجيل لن يوعَظَ بها، بعدُ؟!"

لقد عمل الأَبُ بالنَّصيحة الَّتي أَسداها إليه الأَب "دي لوباك" عشيَّة رسامته، فمارس مهامّ كهنوتهِ بتفانٍ وغيرةٍ؛ ولكنَّه نأى بنفسه عن أَيٍّ من الامتيازات الَّتي قد تنجمُ عن تلك الممارسة، فاختار الفَقْر طائعًا، وعاشَه بكُلّ حذافيره، فهو الوَضْع الوحيدُ الَّذي يتناسب مع الكهنوت. وطالما اعترف أَنّه أَمرٌ صعبٌ يجب تعلُّمه، من جديدٍ، كلَّ يومٍ.

وفي إحدى مواعظ الصِّيام، أَعلن أَنَّه لا يعرفُ شيئًا أَدعى للأَسى من كاهنٍ يموتُ وهو يملك من المال أَكثَرَ ممّا كان يملِكُ يومَ قرَّرَ تكريس نفسه للربّ. وبعد بضعة أَيَّامٍ، جاءَه كاهنٌ كان قد استمع إلى عظته، فأَلقى بين يديْه، بكلّ ما جمعه من

مالٍ منذ ممارسته الكَهنوت، تحسُّبًا لشيخوخته، قائلاً: "لا أُريد أن أَموت، وأَنا أَملك أكثرَ ممّا كنتُ أَملك يومَ وهبتُ الله نفسي".

ويعترف الأَب پيير، في هذا السِّياق: "لقد تولاّني الحزنُ، أَحيانًا، أَمامَ موتِ إِخوةٍ لي كهنةٍ أَصابوا، فعلاً، بعض الثَّراء. فما أكبرَ حماقةَ من تخلّى عن كلّ شيءٍ، في سبيل الكلمة الَّذي تجسّد في مغارةٍ، فقيرًا، ومات على الصَّليب، فقيرًا، ومع ذلك استطاع أَن يُصيب، من الكهنوت، مغانم مادِّيَّةً!" وغالبًا ما أَقرَّ بأَسًى أَنَّ الباحثين عن المال والسُّلطةِ ما أكثرهم، أَمَّا الباحثون، بصدقٍ، عن الله، فما أَندرَهم!

إِنَّ فقرَ الكاهن شرطٌ لمصداقيّته ولأَمانته للإِنجيل، ولاحتفاظه بحرِّيَّة القلب والفكر واللّسان، فلكي يُحمَل محمل الجدّ، عندما هو يتحدَّث عن الله إِلى الفقراء، ينبغي أَن يتشبَّه بهم، ولكي يُحمل محمل الجدِّ، عندما يتحدَّث عن الله إِلى الأغنياء، ينبغي أَلاّ يكون مثلَهم.

وليست تلك بالمُهمَّة اليسيرةِ دائمًا، باعتراف الأَب پيير الَّذي أَقرَّ: « إِنَّني أَعرف مأساة حياتي ككاهنٍ، ومأساة حياة كُلّ كاهنٍ مكرَّسٍ من أَجل البُشرى، الّتي، في سبيلها، ارتضى الفقرَ طائعًا، بدافع الحُبِّ، ومن أَجلها يتعيَّنُ عليه إِعلان الإِنجيل بكُلِّ مُقتضياته، بلا نقصانٍ، وهو مدركٌ، ما لم يكن أَحمق أَو أَعمى، أَنّه، بذلك، سيتعرَّض للدينونة والنَّقد. فكيفَ له أَن يعيش تلك البُشرى، بكلّ ملئها، كما ينبغي؟ »

والإجابة على هذا التَّساؤُل يجدُها الأَب في الاحتفال بالذَّبيحة الإِلهيَّة، فيقول: "لدى كلِّ احتفالٍ بالذَّبيحة المُقدَّسة، مَنْ منّا لم يذكر أُولى الذَّبائح، آنَ شبابه، الَّتي كان يُقدِّمها من أَجل العالَم، قبل أَن يكون رازحًا تحت وقْر مآسي الآخرين؟ هنا، ولو مدى لحظاتٍ، يُمكن التحرُّرُ من المُضايقات، والاستماعُ، من جديدٍ، على نحوٍ أَفضل، لمن قرَّرنا، يومًا، أَن نقول له "نعم".

في صباه، كانت رؤْيَتُه لله المحبّة الَّتي لا تُعكِّرها شائبةٌ، يسيرةً عذبةً. ولكن، بعد أَن انغمس في مُجتَمع الشَّقاء، وأَدمتْه في الصّميم صيحاتُ الأَلَم المتصاعدة من كُلِّ صوب، بات لا مفرَّ له من مواجهة تساؤُلاتٍ وجيعةٍ يفرضها عليه واجبُه، تقول: "إِنّي أَعبدُك، أَيّها المتأَلِّقُ في كيانك، المستعصي على الإِدراك، والمُحيِّر في خليقتك. ومع ذلك، إِنّني واثقٌ أَنّك أَنت الحبُّ، رغمَ كُلِّ شيءٍ، بين البَشَر".

هذا اليقينُ، المقرونُ بالشُّعور بكلّ ما في المسكونة من شرورٍ، وكلِّ ما بين البشر من معاناة، يُريده الأَبُ پيير أَن يترسّخ في وجدان كُلّ مؤمنٍ، إِذ، "على المؤمن أَلاَّ يكون "مُؤْمنًا فحسب" بل "مؤمنًا رغمَ كلِّ شيءٍ"، أَعني أَن يكون مُبصرًا للوقائِع الَّتي تستأثر باهتمام البَشَر أَجمعين، وتجرحُهم، وتستعصي على إِدراكهم، وأَلاّ يكون، حيالَ تلك الْوَقَائِع، أَقلّ تألُّمًا من أيّ إنسانٍ يُحسُّ ويفكِّر. وعليه، رغم تأثُّره وأَلَمه، أن يظلَّ مُؤْمنًا بأَنّ الله الأزليّ، هو، معَ ذلك، حُبٌّ، وأَنّ الجماعة المُكَلَّفة بالشَّهادة، أَي الكنيسة، حتّى ولو هي ناءت بوقْر الأَخطاء البَشَريَّةِ، هي أَكثرُ حاملي الرِّسالة إِدراكًا لمُهمّتها، وأَنّ واجبَ كُلِّ فردٍ أَن يكون صَوْتًا من أَصوات تلك الرّسالة".

إِنَّ التزامَه بالفقر الطَّوْعيّ، ومكافحته فقر الآخرين، ومشاطرتَه آلامَهم ومعاناتهم، قد قادته إِلى بَلْوَرة نَمَطٍ من الإِيمان الرَّاسخ، الَّذي يضرب جذورًا عميقةً في أَرض الواقع الإِنسانيّ الأَليم؛ وهو، في هذا السِّياق، قد أَعلن من فوق منبَر الأُمم المتّحدة:

« من كان مُؤْمنًا فحسب، مؤْمنًا خدَّاعًا يُردّد بيُسرٍ: "الله عطوفٌ، الله محبّة"، لأَنّه يتمتَّع بشتّى الامتيازات، وبالأَمان، هذا المُؤْمنُ، في عالَم اليوم، لا يُمكن أَن يكون له، بعدُ، اعتبارٌ، ولا يمكن لأَحدٍ أَن يحترمَه. أَمّا المُؤْمن الوحيدُ الجدير بالاحترام، فهو الَّذي يتميّز، قبلَ كُلِّ شيءٍ، بإنسانيّته، ويؤمن، رغم كلِّ شيءٍ، أَي بصِفَته إنسانًا، أَوّلاً، على غرار أَخيه غير المُؤْمن، الجريح، الثَّائر على كلّ ما يشهَد، في الوجود، من فظاعاتٍ، وهو رغم كلِّ ما يبدو غريبًا كُلَّ الغُربة عن الحبّ، يحمل في ذاته اليقينَ بأَنَّ الأَزليَّ هو حبٌّ، ومحبٌّ للحياة. هذا هو إِيمان المؤمن الحقّ ».

وهو مُؤمنٌ أَنّ على المُكرَّسين للرَّبِّ أَن يضطلعوا، في هذا المضمار، بدورٍ أَساسيٍّ، بدليل قوله: "في ساعات الكوارث الكبرى، تتجلّى ضرورةُ الكهنوت الحارقَة، وعظمتُه المتمثّلة في استيعاب كلِّ الآلام الناجمة عنها، وإِسباغ معنى التَّقَدُّميَّة عليها. إِنّ في ذلك صُوفيّةً كهنوتيّةً جوهريّةً وضروريّةً". "في العالم أَجمع، الإِنسانيَّةُ ظمأى إِلى تجلّي آلامها، ومن شأن الكهنوت أَن يحقّقه لها، على أَن يقوم به كهنةٌ يعيشون الإِنجيلَ بعمقٍ؛ فليأْتِ الزّمنُ حيثُ الرَّعايا والأَبرشيَّاتُ والكنيسة تكون كلُّها جماعةً توّاقةً، بأكملها، إِلى خدمة الأَضعف والأَصغر في المقام الأَوّل". فعلى

الكهنةِ أَن يكونوا، قبلَ كلِّ شيءٍ، خَدَمةً للجميع، على غرار الله الَّذي حلَّ أَرضَنا ليَخدُم لا ليُخدَم... ويروي الأَب پيير، بهذا الشَّأن:

« قرأْتُ أَنّ أَحد البابوات، أَيَّامَ الكنيسة الأُولى، قد أَنَّب الكهنة المطالبين بلباسٍ متَميِّزٍ قائلاً: "من يَظُنّون أَنفسهم؟ أَو هل يطمحون في أَن يكونوا فوقَ الآخرين؟ »

وذلك المبشِّرُ بيسوع قد استوحى جوهرَ الإِنجيل، فكما أَنَّ يسوع يدين الناسَ وفقًا لموقفهم من الجائع والعطشان والسَّقيم والغريب الَّذين تَمَثَّل بهم، كذلك الأَب پيير موقنٌ أَنَّ البشريّة لا تنقسم إِلى من يَدَّعون أَنّهم مؤْمنون، ومن يُدْعَوْن غيرَ مؤمنين، بل بين "عَبَدة الذَّات" و"المُشاركين"، بين من يشهدون آلامَ الآخرين فيزْوَرُّون عنها، ويلتمسون السَّعادة لأَنفسهم في معزلٍ عن إِخوانهم، ومن يؤْلمهم أَلمُ الآخرين، فيسعَوْن إِلى شفائهم منه، ويفرحون لفرحهم فيجهَدون في توفير السَّعادة لهم.

وهو موقنٌ أَنّ فئةً كُبرى من الَّذين أَعرضوا عن الإِيمان أَو تنكّروا له قد انتهوا إِلى هذا الموقف من جرّاء صورة الإِيمان الشَّوْهاء الَّتي يعكسها مُدَّعو الإِيمان، على حدّ قوله:

« أَوَليس معظمُ الَّذين يُزعَم أَنّهم غيرُ مؤمنين، هم الَّذين لم يشهدوا من صورة الله الَّتي تبرزها لأَنظارهم جماعةُ المؤمنين سوى صورةٍ مُشَوَّهةٍ، في حين كان يهتف في أغوار نفوسهم ما أَوْحاه الرُّوحُ القدُس، وما استطاعوا استشفافه من الإنجيل، أَي إِنَّ خدمةَ الأَكثر تألّمًا هي الطريق نحو وجه الحبِّ الأَزليِّ الحقّ؟

"إنّ مواكبَ التَّجديفِ المُتصاعدة من الأَرض (وما أَندرَ تلك الَّتي تُوجَّه لله الحقّ، الله الذي هو جوعٌ وعَطَشٌ، الله الَّذي هو حُبٌّ) تنْصَبُّ على الآلهة الزَّائفة التي تبتكرها الأَنانيّات، والرِّياء، واللاَّمبالاة. ومن شأننا نحن أَن نحوّلها إِلى صيحاتٍ، ونداءات، وترانيم تمجيدٍ لله الحقّ ».

ولكي نصحّح تلك الصورة ينبغي أَن نُؤْمن أَنَّ الله هو، جوهريًّا، محبّةٌ، وأَن نجعل الآخرين، بسُلوكنا، يكتشفون وجهَ الله الحقّ. وفي هذا السِّياق يقول الأَب:

« لقد شوّهنا صورة الله بإظهاره على صورتنا! فبما أَنّ الإِنسان عندما يمتلك السُّلطان، يُصبح متحكِّمًا، خُيِّل إِلينا أَن الكُلِّيَّ القُدْرة هو أَيضاً مُتَحكِّمٌ. ولو هو كان كذلك فعلاً، لَوَجبت دينونته.

"ينبغي الاثّأرُ لله من الإهانة الّتي أُلْحقت به عندما صُوِّر، على نحو ما فعلتْ، غالبًا، تعاليمنا المسيحيَّة، ولاهوتنا، على أنّه كُلِّيُّ قُدْرة متَسلِّطٌ. وإنّنا لنثأر له عندما نُظهره كُلِّيَّ القُدرة، ولكنَّه، بدافع الحبّ، أَسيرُ الحرّيّة الّتي حبانا بها.

"لأنَّه حُبٌّ، ولأنَّه الكُلِّيُّ القدرة، فهو "كُلِّيُّ قُدْرةٍ أَسيرٌ"، أَسير حُرِّيَّة المحبوب الَّذي ينتظر منه استجابةَ الحُبّ، أَسيرٌ طَوْعيٌّ، يخاطر بمجده (إن ساغ هذا التَّعبيرُ بأسلوبنا البَشَريّ) من أَجل عَظَمة الإنسانِ الحقّة ».

إنّ الأَبَ پيير تَوّاقٌ إلى أن يعمر الإيمانُ بالله المحبَّة قلوبَ البَشَر أَجمعين، إلاَّ أنّه لا يُؤْمن إلاَّ بالمحبّة والاحترام وسيلةً لبعث هذا الإيمان، ولذلك هو لم يُحاول، قطُّ، تبشير البائسين، بل كان يَشرع بمساعدتهم على إنقاذ أَنفُسهم تمهيدًا لإسهامهم في إنقاذ الآخرين؛ كان ينفَحهُم ثقتَه، ويستأهل ثقتَهم باحترام أَسرارهم، وماضيهم، وحُرِّيَّتهم الدِّينيّة. ولم يخطُر، يومًا، بباله أَن يقسُرَهم على ترتيل المزامير قبل أَن يقدِّمَ لهم الحساءَ، ففي ذلك امتهانٌ لكرامَتِهم، وإزراءٌ بالله. بل هو، أَوَّلاً، يُعيد للبائس كرامةَ أبناءِ الله الَّتي سُلبتْ منه، فيحمله، طائعًا على عيش حياة جامعي النِّفايات القاسية، ويكونُ الله حاضرًا في عَمَله، وفي يومٍ أَو في آخَر، ومن غير أَيِّ تدخُّلٍ خارجيٍّ، يقْتَحم الله قلبَه الَّذي استعاد السَّلام، وحينئذٍ، يبحث عمَّن يُحدِّثُه عن الله. وطالما طالبَ الرِّفاقُ الأَبَ أَن يحدِّثَهم عن الله، فكان يردُّ عليهم أَنّ الله هو ذلك الفَرَحُ الطَّاغي الذي غشي قلوبهم، ذاتَ يومٍ، بعد أَن تجشَّموا من النَّصَب أَلوانًا، في سبيل إيواء أُسرةٍ مُشرَّدةٍ.

وهو يقول، في هذا الشَّأْن: « من كُلِّ أَقطار العالَم، يقول لي أَساقفةٌ "إنّ جماعات عمّاوس تمهيدٌ رائعٌ للإيمان". وعلى هذا القول ردَدْتُ دائمًا: "بل إنّها تمهيد وتكميلٌ : فأَن يرتَضيَ قوْمٌ أَن يكدَحوا كي يَهَبوا أَرباح كدحهم للآخرين، لا لكي يغتنوا، هم أَنفسُهم، لا رَيْب أَنَّ تلك وسيلةٌ ممتازةٌ لتمهيد التُّربة لنُموِّ كلمة الرَّبِّ فيهم.

"والأَهمّ هو أَنّ حركة "عمّاوس" اللاّطائفيّة تصدم "أُناسًا مستقيمين" لا يأبَهون بأَن يَنفقَ بَشَرٌ من حولْهم فقرًا وحرمانًا، مع أَنّهم يوصفون بالمؤْمنين الممارسين الَّذين لا عَيْبَ فيهم، وهم، بذلك، يدعمون، سياسيًّا، نظامًا ظالمًا يستفيدون منه ».

لقد حرص الأَب پـيير على نَفْي الصَّبْغَة الدِّينيّة عن "عمّاوس"، غير أَنّه، بتأسيسه تلك الحركة، كانَ شاهِدًا على عَطْف الرَّبّ، وتجسيدًا له. وقد كان، بمثال سلوكه، خَيْرَ دَليلٍ إِلى الله؛ ولا غَرْوَ أَنَّ الَّذين عايَشوه وشهدوا أَفعاله اكتشفوا الله من خلالها، فقد كان حاضرًا في كلِّ عَملٍ من أعماله، وكلِّ قولٍ من أَقواله، بفضل سنوات ترهُّبه السَّبع، وساعات السُّجود والتَّعبُّد الطّويلة التي وَسَمَتْه في الأَعماق، وظَلَّتْ تطبع سُلوكه حتّى في ذروة نشاطه العَمَليّ. ولا رَيْبَ أَنّ الإنجازات الَّتي حقَّقها تتدرج في غايةٍ دينيّةٍ، بشكلٍ صريحٍ، حيناً، وخفيٍّ، أَحيانًا، وأَنَّ مسيرته كُلَّها لم تكن سوى قراءَةٍ جديدةٍ واقعيّةٍ للإِنجيل، وتنفيذًا لمُقتضياته في الواقع المُعاش.

وهو، بذلك، قد أَدَّى للكنيسة خِدمةً جُلَّى. ففي أَعقاب قَمْع المؤَسَّسة الكَنَسيَّة لحركة الكَهَنة العمَّال في فرنسا، عام ١٩٥٣، اهتزَّت صورتُها في عيون فئةٍ عريضةٍ من المسيحيّين وسواهم، الَّذين توقَّعوا منها أَن تكون، أبدًا، نصيرةً للفُقَراء، تُطْعِمُ الجياع، وتسقي العِطاش، وتستضيفُ الغريب، وتعالجُ المريض، وتعودُ السَّجين، وتدافعُ عن حَقِّ كُلِّ مظلومٍ، لكي تكون جديرةً بمؤسِّسها يسوع. وكان للأَب پـيير ولإِخوانه الكهنة الَّذين حذوْا حذوَه، في جميع أَرجاء العالَم، الفضلُ بعودة تلك الصُّورة إِلى نقاء رَوْنقها، بحَدَبهم على المحرومين والمعذَّبين. ولا عَجَب إِن تقاطر إِلى "عمّاوس" العديدُ من الكهنة الَّذين وجدوا في مشاركة "جامعي النفايات" مصيرَهم وجهودَهم، تجسيدًا لرغبتهم في التَّضامُن مع الأَقلّ حُظْوةً، والأَشدِّ أَلَمًا، بل حجًّا إِلى قلبِ يسوع.

كم كان قريبًا من قلب يسوع، ذلك الكاهنُ الَّذي لم يتحرَّج من إِيداع كأْس القُربان المقدَّس في سقيفةٍ، كي يُتيح لأسرةٍ مُشرَّدةٍ أَن تنعم بالدِّفْء في المُصلّى، حيثُ كان ذلك القربان، لإِيمانه بأَنَّ يسوع إِنَّما يرتجف من البرد في أَجساد أَفراد تلك الأسرة!

وكم كان قريبًا من فِكْر يسوع، ذاك الَّذي هالَه بَذْخُ كاتدرائيَّاتٍ وأَحبارِها، في حين كانت طغماتٌ من الأسَر، على بُعد بضع مئاتٍ من الأمتار، تُقيم في أكواخٍ من عُلَب الصَّفيح، والورَق المُقوّى، فأَعلن: "أماكنُ الصَّلاة والاجتمَاع ضروريّةٌ، ولكنّني أقول: بعدَ أَن تشيدوا أَربعة جدرانٍ وسقفًا، وتُثبّتوا النّوافذ والأَبواب، علّقوا لوحةً رُسمت عليها جميع الزِّينات التي يمكن أَن يتخيَّلها المهندسون، واكتبوا تحتها: "إِنّنا نتعهَّد بإِنجاز هذه الأعمال كلّها، يومَ لن تبقى في محلَّتنا أُسْرَةٌ واحدةٌ بلا مأوى!"

وكم كان على اتّصال بروح يسوع ذلك الَّذي صرَّح: « في نظري استقبال أُمّهاتٍ تنتحبنَ، ومخالفةُ القوانين من أجل بناء بيوت لهنَّ، والعمل مع جامعي النّفايات، هي، بلا مراءٍ، بمثابة الاحتفال بالقُدّاس، وتلاوةِ المسبحة! »

كم لَزِمَ الأَبَ پيير من جرأةٍ ليفعل ويقول ما فَعَلَ وقالَ، أَمام أساقفةٍ وكهنةٍ ومؤْمنين ادَّعُوا أَنّهم أَقطابُ المسيحيّة وحُماتُها، وهم عن روح المسيح غرباء!

لم يتخلّ الأَبُ، لحظةً، عن إِيمانه الوطيد بأَنَّ "الكنيسة منارةٌ عظيمةُ الشَّأْن لبشرٍ ينشُدون دربَهم في ليل الحياة، وَسْط مهالكَ جمّة. ولكن إِن خبا نورُ المنارة، وفَقَدت الكنيسةُ حرارتها وحُبَّها، وتقاعستْ عن النّضالِ من أَجل العدالة، باتتْ خَطَرًا على البشريّة".

وقد حداه ولاؤه وحبُّه لتلك الكنيسة التي كان لها، أَبدًا، ابنًا بارًّا، إِلى السَّعي لإِبقاء نورِ منارتها مُتَأَلِّقًا، ونارِ حُبِّها مُشعَّةً، مُدفئةً، مُعْدِية. ومع تعرُّضه لبعض مسؤوليها بالنّقْد، عندما هم ينهجون مواقفَ لا تنسجم مع روح يسوع، وواقع المسيحيّين، إِلاَّ أَنَّه ظلَّ، دائمًا، على أَطيب علاقةٍ مع رؤَسائه الرُّوحيّين، ومع البابوات الَّذين تعاقبوا، أَثناءَ مسيرته، على الكُرسيِّ الرَّسوليِّ. وقد اعترفت الكنيسة، باطّرادٍ، بخُطورة رسالته، فمنذ عام ١٩٥٤، كتبَ له نائبُ أُسقفه، الَّذي أَمسى، في ما بعد، أَمينَ سرِّ مجلس كرادلة فرنسا ورؤساء أساقفتها:

« ... يبدو لنا أَنّ دورَنا كأَساقفة، هو أَن نَدَع لكَ حُرِّيَّةً كاملةً للنّهوض برسالتكَ الَّتي تتَّصلُ بأَوساطٍ هي، غالبًا، بعيدةٌ جدًّا عن الكنيسة. إِنّ إِشرافًا ذا طابعٍ كنسيٍّ، أَو هو يبدو كذلك، من شأْنه أَن يشُلَّ، ولا رَيْبَ، لدى الكثيرين، مُهِمَّتك.

"بيد أَنّ ابتعادنا الظَّاهر عن الجماهير لا يُمكنُه أَن يمنَعَنا من أَن نُعبِّر لكَ عن شكرِنا، وفي ما يخصُّني شخصيًّا، عن وَلائي التامّ. فإِنّني أَشكر للرَّبِّ اختيارَك أَداةً له، من أَجل رسالةِ السَّكن المُعاصرة والملحّة... »

وقد جاءَ في ردّ الأَب پيير: "شكرًا، أَبتِ العزيز؛ لقد حقّقتم مُعْجِزةً، فمع بَركتكم، أَرسلتُم لي الحُرِّيَّة".

تلك الحُريّة، استخدَمها الأَب پيير ليكونَ كاهنًا بلا تحفُّظٍ، كاهنًا يُحقّق رُؤْيته

لكاهن الغد الَّذي أَرادَه أَن يكون "عاملَ عدوى يُسهم في إِحلال إِفخارستيا العالم. "إِفخارستيا" تعني الشّكر، وعلى الكاهن أَن يكون المحرِّكَ الذي يُفجِّر نشيدَ شُكْرٍ من الخليقة نحوَ الخالق.

وجديرٌ بالتَّنويه أَنّه، نتيجةَ وشايةٍ من بعض الأَساقفة والكهنة متحجِّري الأَذهان، طُلِب، يومًا، من الأَب پيير أَن يُرسل، بواسطة أسقفه، مقالاتِه، ونَشَراته، وتسجيلاً عن محاضراته إِلى "المجمع المُقدَّس"، الَّذي كان، حتّى الخمسينات، مُرعبًا. وقد أَرسل دفعةً أُولى منها، ولم يتلقَّ عليها أَيَّ تعليق؛ ثمّ أَعقبها بدفعةٍ أُخرى، وبُعَيْد ذلك، اضطُرّ إِلى الشّخوص، في مُهِمّةٍ، إِلى روما، حيثُ مكثَ بضعة أَيّامٍ. وعندما همَّ بمُغادرتها، هتَفَ له أَحدُ مستشاري "المجمع المقدّس" طالبًا مقابلتَه، فاعتذر، لأَنَّ موعدَ إِقلاع طائرته لا يفسح له سوى القليل من الوقت. ولكنَّ مُحدِّثَه كان ملحاحًا، وقال: "سأَستقلّ سيّارة تكسي، وفي غضون دقائق معدوداتٍ، سأَكون عندك". ولمّا وصل، أَشرع ذراعَيْه واسعتَيْن، وأَعلن: "إِنّني مُلزَمٌ بالحفاظ على السرِّ من قِبَل "المجمع المقدّس". كلّ ما أَستطيع البَوْحَ به هو أَن أُقبّلَك!" وقد أَفعم ذلك قلبَ الأَب حبورًا.

وخليقٌ بالذِّكْر، من ناحيةٍ أُخرى، أَنّ الأَب پيير، لدى ترهُّبه، التزم بنذور الفقر والطَّاعة والعِفّة، وكان لها وفيًّا، سحابةَ حياته. وقد استطلع، يومًا، ابنُ أُختٍ له ما عاناه الأَب من جرّاء خُضوعِه لتلك النّذور فأَجابه:

« لقد اخترت الفقر طائعًا وعشتُه فَرِحًا مُتَهلّلاً، وكان لي خير عَوْنٍ ومصداقٍ في أَداء رسالتي.

أَمّا الطَّاعة فلم أَلقَ في ممارستها عَنَتًا لأَنّني لم أُؤمر يومًا بما لا طاقة لي على أَدائه، أَو لا رغبة لي في إِنجازه.

أَمّا نذْرُ العفّة الَّذي لم أَخرقه يومًا، فقد شقَّ عليَّ منه، أَحيانًا كثيرة، الافتقار إِلى الشُّعور بالحنان. ولكن بعد أَن ضحَّيتُ بالحنان البَشَريِّ، غمَرَني الرَّبُّ بدفْقٍ من حنانه الَّذي يفوقُ كُلَّ حنانٍ. وبالتَّالي، إِن أَنا وُجدتُ من جديدٍ، في الثَّامنةَ عَشْرةَ من العُمر، مَدْعُوًّا إِلى إِبراز نَذْر العفّة، فمع كُلِّ معرفتي بما تنطوي عليه التَّضحيةُ بالحنان البَشَريّ من مَشَقَّة وعَنَتٍ، إِلاَّ أَنّني بعدما خبرتُ من حنان الرَّبِّ، لن أَتردَّد، لحظةً، في الالتزام بذلك النَّذْرِ من جديد ».

بيدَ أَنّ الشَّهادة الَّتي خلَّفتْ في نفس الأَب أَطيبَ أَثَرٍ، هي ما قاله فيــه خــوري رعيَّةٍ صغيرةٍ، في فرنسا، كان قد دعاه للوعظ في كنيسته الَّتي غصَّت بالجموع الَّتي انتشرت، أَيضاً، في الشَّوارع، وحتّى ساحة البلدة، متلهِّفةً لسماع الــواعظ الــشَّهير. وعندما فَرَغَ الأَبُ من عظَته، خاطبَ الخوري أَبناءَ رعيَّته قائلاً: "لقد جئتُم لتــشهدوا نَجْمًا، فرأَيتُم إِنسانًا، ورأَيتم كاهنًا. من أَجل ذلك، أَشكرُكَ، أَبتِ"

وقد علّق الأب على هذا القول: "كم أَودّ أَن يُقال فيَّ ذلك، ولا شيءَ سواه، عندما أَموت".

ملامح

لم يسعَ الأَب پــيير، يومًا، إِلى تقليد أَيِّ نموذجٍ. أَمّا التأثيرات الحميــدة الَّتــي استمدَّها من أُناسٍ مُمَيَّزين التقاهم على درب مسيرته، والَّتي طبعت دَمْغَتَها فيه، فمــا كان من شأنها سوى مساعدته على اكتشاف الطَّاقات الخيِّرة الكامنة في حناياه، وعلى إِبراز ملامح شخصيَّته الخاصّة.

وقد وصفه أَحدُ أصدقائه بقوله:

« الأَب پــيير، في جوهره، طيِّبٌ طيبةً مريحةً، متكتِّمةً، متنبِّهةً للآخرين، تخمِّن احتياجاتهم، وتسارع إِلى تلبية نداءاتهم، وتسعى إِلى إِسعادهم.

"هو جريءٌ، ويُعطي انطباعًا عامًّا بأَنّه يُحبُّ المخاطرة على دروب الحياة؛

"إِنّه يجتذب، ويدفع، ويُشيع في الآخرين شرارتَه واندفاعه، ولكنّه غيــر مُؤَهَّــلٍ للإِدارة. "مَن التقاه لا يستطيع أَن يُبارحه إِلاّ وقد ازداد جُرأَةً.

"شخصيَّتُه تشيع عدواها، مع احترامها لحُرِّيَّة كلِّ فردٍ. إِنَّه مُتَوَاطِئٌ مع الأَفضل في كلِّ إِنسان ».

أَمَّا الطِّيبةُ فقد تشرَّبها، منذُ طفولته، من قدوة أَبيه، وتوطَّدت فيه أُسُسها يومَ لمَسَ كثافةَ حُزْن ذلك الأَب، عندما أَجاب، وهو فتًى، إِخوتَه: "وما شــأني، أَنــا، بفــرَحكم طالما لم أَشتركْ به!". لقد كان فخورًا بما انطوى عليه ذلك الجوابُ من منطقٍ مُحْكمٍ، ولكنَّ أَباه، من خلال حُزْنه، ومن غير حاجة إِلى توبيخٍ أَوْ عقاب، قد جعله يُدرك كم جوابُه ذاك كان حافلاً بالأَنانيَّة والحقارة. ومُذَّاك عقدَ العزمَ على أَلاّ يستمدَّ فرحَــه إِلاّ

من فرَح الآخرين، وأَن يتألَّم لأَلَمهم، ويتضافر معهم على شفائه، كي يسعد بسعادتهم، وقد بات ذلك التَّصميمُ دافعَ حياته ونبراسَ مسيرته، ومُؤَرِّقَهُ عندما يشعر أَنّه لا يملك سوى طاقاته الضئيلة، حيالَ معاناة الآخرين الجمَّة.

لقد كان معيارُ عمله كلِّه المحبَّة، ولكأَنَّه كان يعمل بنصيحة القدّيس أُوغوسطينوس: "أَحِبْ، وافعلْ ما تشاء".

وقد آلى على نفسه أَن يفعل كلَّ مُستطاع كيلا يشعر أَيُّ إِنسانٍ أَن لا حاجةَ إِليه، ولا مكانَ له على أَرض البشر، وحرص أَبدًا أَن يُشعر كُلَّ إِنسانٍ بخطَر شأنه كما يتَّضح من قوله:

« إِن شاءَ أَحدُ الرِّفاق أَن يقول لي "شكرًا"، أَجبتُه: "ليس لقولك معنى. صحيحٌ أَنّك، بمُفردِك، لم تكن تستطيعُ شيئًا، وكذلك كنتُ أَنا، بمفردي. والحلُّ هو أَن نقول معًا، كلٌّ بطريقته: شكرًا لله الَّذي هو حُبٌّ ».

ولذلك، مع احترامه العميق لحرِّيَّة كلِّ فردٍ، ما انفكَّ يدعو الناسَ أَجمعين إِلى "الارتداد إِلى محبَّة القريب".

وهكذا كان، أَبدًا، سفيرَ المعاقين اجتماعيًّا وأَدَبيًّا، وداعيةً، بلا تحفُّظٍ، ولا كَللٍ، إِلى العَدْل من أَجل إِخاءٍ شاملٍ يُحييه حبٌّ لا نهائيّ.

فالعَدْلُ، اليومَ، ينبغي أَن يكون هو أَساس المحبّة الحقّة، على حدّ قول "دون هيلدر كامارا": "لو كان القدِّيس منصور دي پول يعيش اليوم، لما تكلَّم عن الإِحسان، بل عن العَدْل"، وقول الكاردينال مارتي: "لا حبَّ بلا عدلٍ، ولا عدلَ بلا حبٍّ"؛ والعَدْل كفاحٌ يتعيَّن على كلِّ مسيحيٍّ خوضه ببطولةٍ، إِذ إِنَّه يقتضي منه، غالبًا، البدءَ بنَشْر الغُصْن الَّذي يجثم فَوْقَه.

ومن أَجل تحقيق العَدْل ليس تعديلُ بعض الشَّرائع بكافٍ، ولا الإِنجازاتُ الاجتماعيّةُ الصَّغيرة، بل ينبغي تغييرُ نمَط الحياة، والنَّسيجِ الاجتماعيّ بأكمله. ومن أَجل ذلك يتعيّن تغييرُ القلوب.

هذا الكفاح هو هاجسُ الأَب پيير الَّذي يُنذر، في الفصل الأَخير من مسرحيَّته "ترخيص بالعيش": "نحن الآن خمسةُ مليارات إِنسانٍ على الأَرض، وعددُ من لا

مأوى لهم يبلغُ ربعَ هذه المليارات الخمسة. في غضون ثلاثين سنةً سيبلغ تعدادُ سُكّان العالَم سبعةَ ملياراتٍ ونصف المليار، فكم منهم سيفتقر إلى مأوى؟ وفي مُدُن العالَم الثّالث سُكّان قُرى الصَّفيح يُمثِّلون، اليومَ، ثلاثين بالمئة من مجموع السُّكّان، إلاّ أَنَّ هذه النِّسبةَ تتضاعف مرَّتَيْن أَسرعَ من تضاعُفِ سُكّان المُدن، وأَربعَ مرّاتٍ أَسرعَ من تزايد سُكّان العالَم".

وإزاءَ ذلك الواقع المُفْجع يتضرَّع الأَبُ پيير مُبْتهلاً: « اجعل، اللّهمَّ، أَن نكون، جميعُنا، ممَّن يحرَصون على رفض عار قضاءِ يومٍ واحدٍ، من غير مشاركة العالَم آلامَه، ومن غير أَن نكون، بأَفعالنا، جوعًا وعَطشًا إلى العدل! »

لقد انتدب الأَبُ پيير نفسَه، مدى الحياة، لمكافحة الفَقْر الّذي يُذِلُّ، ويَحطُّ من كرامة الإنسان؛ ولكي يُضفي على كفاحه المِصداقيَّةَ والنَّجاعة، مارس الفَقْر الطَّوعيَّ فتخلّى، منذُ شبابه، عن حصّته من إرث والدَيْه، وعاش فقيرًا يقتسم راتبَه النّيابيَّ مع عشرات المُشرّدين، ويتسوَّلُ لإطعامهم، عندما لم يبقَ له راتبٌ. إنّه، بتمرُّسه في المدرسة الفرنسيسكانيّة، قد أَدرك العلاقة الوُثقى بين الفقر الطَوْعيّ والحُبّ المُطلَق الّذي يقتضيه، فقدَّس ذلك الفقر، ولكنَّه كافح بكُلِّ قُواه الفقرَ القسْريّ الّذي يسلُب الإنسانَ كرامتَه، وحُرِّيَّتَه، وحُبَّه، في حين أَنّ من لا يمتلكون مثلَ روحانيّته يتمرّدون على كلِّ فَقْر، وقد يَعُدُّون حتّى الفَقْرَ الطَّوعيَّ من ابتكارات الأَغنياء، لتخْدير المحرومين.

الفقر الّذي آمنَ به الأَب پيير ومارسه هو "**أَلاّ تملك شيئًا، وأَن تكون قادرًا على إعطاء كلّ شيءٍ**". وبالفعل غدا الأَب ورفاقُه، جامعو النِّفايات الّذين لا يملكون شيئًا، نموذَجًا في العطاء والسَّخاء. وللأَب پيير، في هذا السِّياق، هذا القول الرائع:

« **قد يكون الأَلَم دَرْبًا إلى الإيمان أَو إلى الكُفر. إنَّه دربُ خلاصٍ لمن يملك، ويعرف كيفَ يحرمُ ذاتَه من أَجل من لا يملك؛ وحينئذٍ يتحقَّق الخلاصُ لكلَيْهَما: خلاصُ من يحرم ذاتَه، وخلاصُ من يتلقّى، لأَنَّ هذا الأَخير يستطيع أَن يحمل على محمل الجِدّ الكلمةَ الّتي تُرافق العطاءَ.**

"**لدى جميع من يتأَلّمون، ثمَّةَ شيءٌ "مُكرَّس"، دعوةٌ إِلى الكمال، وإلى لقاءٍ لا مكان فيه لخداعٍ أَو لخيبة أَمل** ».

الرأْيُ السَّائدُ يقول: "النّفايات إِلى المزابل". وهذا الرأْيُ ما انفكَّ الأَبُ يُعارضه، ويجهد، منذُ عقودٍ، في إِثبات خَطَلِه، رافضاً لا مبالاة الجماهير حيال المرذولين، موقظاً ضمائر المحظيّين، موفّرًا الحياةَ الكريمةَ لأُلوف البَشَر الذين حُشروا، قسرًا، في خانة الموت الاجتماعيّ.

وقد رسَّخَ فيه ذلك الكفاحُ الشعورَ بالتَّكافل مع أُلوف الَّذين يناضل من أَجلهم، وهم يحتاجون إليه، وغمر ذلك قلبَه رجاءً، "فأَروع أساسٍ للرَّجاء هو أَنَّ آخَرين يحتاجون إِليّ، وأَنا لا أَقوى على الاستغناء لا عن مُساعدتهم، ولا عن احتياجهم إِليّ. فهذا الاحتياجُ هو الَّذي يجعلهم لديَّ ثمينين".

ومن جرّاء طيبته، كان الأَبُ ميَّالاً إِلى الثِّقة بالنّاس، يوليهم ثقتَه بلا تحفُّظٍ، ويفعلُ كلَّ ما يُعينه على اكتساب ثقتهم. صحيحٌ أَنَّ ذلك جعلَه فريسةً سهْلةً للمحتالين، ولكنّه كان أَبدًا يلتمس العُذْرَ لمن يخدعونه، وعزاؤُه أَنّه لم يَخْدَعْ، قطُّ، أَحدًا. وقد أَكَّد، في هذا المجال: « الإِيمانُ بالحياة هو إِيمانٌ بالآخرين، لا جميع الآخرين، بالطَّبع؛ ولكن من يضطلع بمسؤوليَّاته يتَّخذُ لنفسه مُوالين وشركاءَ، لأَنّ العيش المشتَرك يُضحي له ضرورةً مُطلَقة ».

وفي هذا السِّياق قال أَيضاً: « يحينُ وقتٌ يتحتَّم فيه، كما يحدث في الحُبِّ البَشَريّ، أَن ينغمس الإِنسان، ويُخاطر، ويَثِق ».

لقد كان من الطِّيبة بحيثُ يتعذَّر عليه أَن يمقُتَ إِنسانًا، مهما كانت أَفعاله قبيحةً، على حدّ تصريحه: "**إِنّني أَمقُتُ أَفعال البَشَر الشِّرّيرة، لكنّني لا أَستطيع أَن أَمقت أَحدًا. بل إِنَّ ما أَشعرُ به هو ضَرْبٌ من الإِحباط: "كيف، ربّاه، يمكن حدوث ذلك؟**"

إِنّ ذاك الَّذي حداه، أَبدًا، جنونُ حُبِّ الله، وحبُّه للمُتأَلِّمين بجنونٍ، حرّكه دائمًا دافعٌ جبَّارٌ للعمل بلا هوادة، ولعَمل كُلِّ شيءٍ، في سبيلِ دَرْءِ الضَّيْم عن المظلومين، ورفع عبء الأَلَم عن المُعذَّبين، وإدخال الفرَح والرَّجاء إِلى قلوبهم، ومصالحتهم مع الحياة، مؤمِنًا أَنّ الهوى وسيلةٌ لا بُدَّ منها لإِنجاح أَيَّة رسالةٍ أَو حياةٍ؛ ولذلك هو انغمس بكلّيَّته، ووثق، وخاطر، وكانت حياتُه كلُّها سيرًا على شفا الهاوية.

وقد أَرَّقه، باستمرارٍ، شعورُه بالعجز إِزاء خِضَمِّ البُؤْس؛ ولكنَّ ذلك الشُّعورَ لم يُثَبِّط عزيمتَه، بل كان لها حافزًا دائمًا على التَّطلّع إِلى المزيد، وعلى عمل كلّ ممكنٍ،

بل التَّصدِّي للمستحيل، على حدِّ قوله: « إنّ إنسانَ اليوم جسيمٌ جَسامةَ المسؤوليَّاتِ المُتَرتِّبة عليه، وضئيلٌ حيالَ ضخامة المَهامِّ الَّتي تستدعيه من كُلِّ صَوْبٍ. ولكن لا يسوغ، بحجّة عجزنا عن إنجاز كُلِّ شيءٍ في يومٍ واحدٍ، ألاّ نفعل شيئًا. فلنحتفظ، في قلوبنا، بالتَّوْق إلى العمل، وبعدم الرضى عن المُنجَز منه ».

وقد اعترف الأَب بيير: « منذ صباي تولاّني الشُّعورُ بالعجز حيالَ تقصيري في توفير الضَّروريِّ لمن يفتقرون إليه. هذا الشُّعورُ هو النَّارُ الَّتي تدفعني إلى العمل بلا هوادةٍ، ولا هدنة". وقد اعترف أيضاً: **"مُذْ كنتُ في دَيْرِ الكبُّوشيّين، أنا في حالٍ من "اللاّراحة". ولا بُدَّ من الإقرار أَن ليس الدَّيْر هو الَّذي وضعني في هذه الحال، بل إنّي أَعتقد أنّني كنتُ أَتململ مُذْ كنتُ في أحشاءِ أمّي ».**

المُهمُّ أَلاَّ نَتَنكَّب عن داعي واجبٍ، وألاَّ نتخاذَل أَمام مسؤُوليّةٍ. وكُلّما تحمَّلنا مسؤُوليّاتنا بشجاعةٍ، تمرَّسنا من الجرأة والقُدْرة على النُّهوض بها بعزيمةٍ أَشدّ، إذ "إنّ كُلَّ ظرفٍ لا نتهرَّب فيه من مسؤُوليَّاتنا يدمَغُنا" في الصَّميم.

كلُّ ذلك جعل من الأَب بيير رجلَ عملٍ من طِرازٍ فذٍّ، مُنصِتًا بلهفةٍ إلى نداءات الاستغاثة، مندفعًا إلى تلبيتها بكلِّ كيانه، لا يخشى، في سَبيلها، شيئًا، حتّى السِّياسة الّتي قال فيها: "لستُ أَخشاها طالما كانت تنطوي على الحبّ، بل على الجوع إلى العدل". وبعد أَن يندفع في العَمَل، مُستسلمًا لطيبته الفطريّة، يعكف على تحليله وتنظيمه، بحيثُ يتيسَّر له أَداؤه على أكمل وجهٍ، وأَوْسع نطاقٍ، ويستمدُّ منه أَوْفر نجاعة؛ وقد وَصَفَ هو نفسهُ، هذه النَّزعة فيه بقوله: **« لديَّ ليست الأَفكار هي الَّتي تستفزُّ العمل، بل إنّ الأَعمال تتراكم: عملٌ، فاثنان، فخمسةٌ، إلى أَن يحين وقتٌ يُصبح فيه العَمَلُ خاطرةً، وفكرةً واضحةً »**

وبفضل تضافر الجرأة والشجاعة و"اللاّراحة"، والدأَب، أَمسى الأَب بيير زعيمًا خبيرًا بتجنيد الرِّفاق، واستنفار المساعدين، يستحثّ هِمَمهم، وينفثُ فيهم جُذْوتَه المتَّقدة واندفاعَه الجامح، مُوَفِّرًا لرفاقه سعادةَ العمل مع شخصيّةٍ قويّةٍ لا تتوانى في مهاجمة أَيِّ مسؤولٍ لا يحترمُ شريعةَ المحبّة، وتُفلحُ في تحقيق ما يُحجم عنه الآخرون، أَو يَعُدُّونه مستحيلاً.

وعن قوّة العدوى المُشعَّة من الأَب پيير قد عبَّر، بفصاحة، أَحدُ الَّذين عايشوه، عندما أَفضى إِليه، يومًا: "إِنّ أُسلوبَ عيشك يجعلني أَتمنّى، أَنا الَّذي لا يُؤْمن، أَن يكون الإِيمانُ حقيقيًّا".

هذه العدوى هي الَّتي مكَّنت الأَبَ پيير من تأْسيس "عمّاوس"، وإِشعاعُ هذه العدوى هو الَّذي جعل "عمّاوس" تنتشر في جميع أَرجاءِ المعمورة.

قد لا يكون الأَب پيير من عباقرة التخطيط والتنظيم والإِدارة، بل هو، جوهريًّا، سُلْطةٌ كاريسماتيّةٌ تجتذبُ الأَتباع؛ وهو سُلطةٌ ثَوْريَّةٌ ترفض الواقعَ الماثلَ، طالما هو انطوى على ظُلْمٍ؛ وقد يُداخل عملَه بعض الفَوْضى، إِلاّ إِنَّها فوضى خلاّقةٌ، تُبدع في مجالاتٍ شتّى، وتعرفُ كيف تلتزم بحَدٍّ أَدنى من النِّظام الَّذي يضمن الاستمرار.

وفي الواقع، كان الأَب پيير "مُرَبِّيًّا"، أكثر منه مؤَسِّسًا، وقد قاد رفاقه إِلى غمار العطاء والمشاركة، بالتوافق مع منطق كيانهم العميق، المخلوق لكي يُحبّ، محقّقًا بذلك هويّته الجوهريّة. وقد لقَّنته خبرتُه الشَّخصيَّة أنّ المُضيَّ في ذلك الدَّرْب وعْرٌ ومحفوفٌ بالمهالك، ومعرَّضٌ لجمٍّ من العثَرات والكبَوات. ولذلك كان ميّالاً إِلى الصَّفْح والمسامحة، والدَّعوة إِلى النُّهوض، واستئناف المسيرة بعزيمةٍ مُتَجدِّدَةٍ، باطِّرادٍ.

تلك العزيمةُ المُتَجدِّدة هي نتيجةُ نارٍ دائمة التَّأَجُّج في أَعماقه، يُغذّي شعلتَها مرأى الظُّلم والبؤس، وتزيدها ضرامًا الرَّغبةُ في مكافحتهما، ممّا يُسبغ عليه قدرةً فريدةً حتّى في أَقسى ساعات وَهَنه وإِعيائه. وقد عبَّر عن تلك الظَّاهرة الدكتور "كوشنر" مؤَسِّسُ جماعة "أَطبّاء بلا حدود"، بقوله للأَب پيير: "طالما تأَثَّرتُ بحرارتك، وبقوّة الإِنسانِ المُحطَّمِ والمنيعِ فيك. إِنّك تَستهلُّ أَبدًا عباراتك بصوتٍ خافتٍ، وكأَنّك موشكٌ على لفظ نفَسك الأَخير، وتُنهيها بقُوّةٍ خارقةٍ، بهمسةٍ مجلجلةٍ".

وفي تلك الهَمْسة تسري نبرةُ "النَّبيّ". أَجَلْ، إِنّ الأَب پيير هو أَحد أَنبياء عصرنا، لا النبيّ بمعنى من حباه الرَّبُّ نِعْمةً خارقةً تؤَهِّله للإِعلان عن المُستَقبَل، بل النَّبيّ الَّذي يقرأ الحاضر بوضوحٍ، ويفضحُ كُلَّ مظالمه وعوراته، يفعلُ ما يجبُنُ الآخرون عن الإِقدام عليه، ولا يتردّد في الجهر بما يَرْهَبُ الآخرون الهمسَ به.

إنّه النَّبيُّ الَّذي "يرى بعيدًا، ويُحذّر، ويشهد لحقيقةٍ ما زالت خفيّةً"؛ يقف إلى جانب الضُّعفاء، ويتكلّم باسمهم في وجه المقتدرين والظالمين؛ وبالإجمال هو "صوت من لا صوت لهم"، وهو مدركٌ أَنَّ قطعَ الرَّأْس هو أَحد طوارئ وظيفته المحتملة في كلّ حينٍ، ولكن لا يتولاّهُ، من ذلك الإدراك، الجَزَع.

إنّه الحلَقةُ بين "الألم الأَخرس" و"السُّلطة العمياء"، الحلقة الَّتي لا علاجَ ولا رجاءَ للعالَم إن هي ظلَّتْ مفقودةً. ولقد دأَب الأَب پيير على تأنيب المسؤولين، ومطالبة المجتمع بتحمُّل مسؤوليَّاته حيالَ بُؤْس المعدَمين. وقد اتّخذ من "عمَّاوس" عونًا له في مُهمّته، فهي "مدرسةٌ للوجدان، والعمل الإنسانيّ. ورسالتُها الَّتي تضرب جذورَها في تربة الإنجيل، هي تحويل العالَم، باسم القِيَم المُقَدَّسة، النَّابعة من المحبّة المسيحيّة."

النَّبيُّ حُرٌّ، هادئٌ، جريءٌ، لأَنَّه مُستَقِلّ، وبالتَّالي قادرٌ على بعث القلق في السُّلطات القائمة، وفي مُعارضيها، على السَّواء. إنّه المُنذر الَّذي ينتصب في وجه السُّلطان كي يُذَكِّره: "سُلطتُكَ لم تُعطَ لك من أَجل خدمة مُتعة السُّعَداء، بل من أَجل تحرير من يتأَلَّمون ظلمًا"، كما يُذكّر مسؤولي المُؤَسَّسة الكنسيّة، بعباراتٍ حارقةٍ تثير الدّهشة والاضطراب، أَنَّ "للحياة الأَوْلَويّة على المال".

لقد انتصب الأَبُ پيير، في عصرنا، نبيًّا بطَلاً لا يعرف الوَجَل، ولا يتوانى عن الإعلان عن الحقِّ في وجه كُلِّ ظالمٍ ولا مبالٍ، لسانَ حال الفقراء، وذائدًا عن حياضهم ببسالةٍ، ودأَبٍ، ونجاعةٍ، وتجرُّد؛ ثائرًا على كُلِّ وضعٍ لا يُقيم للضَّعيف وزنًا. وقد استمدّ مزيدًا من المصداقيّة والسُّلطة من حُرِّيّته حيالَ جميع الاتّجاهات والإيديولوجيّات، والقوى السياسيّة، ومن تحرّره من قيد أَيّ انتماءٍ فئويٍّ.

وكان الأَبُ راسخَ الإيمان بمسؤوليّته تلك، وشديد الرّغبة في أَن يُواكبه رفاقُه في تلك المُهمّة، كما يتَّضحُ من قوله: "إنَّ ما تفتقر إليه مُجتمعاتنا، في الصَّميم، لمعالجة مشاكلها الدّاخليّة والخارجيّة، هو ضربٌ من الآليّة الَّتي زالتْ، والَّتي، في معزلٍ عنها، لا يسيرُ شيءٌ سيرًا يتّسم بالجدوى الإنسانيّة. ما هي هذه الآلية؟ إنَّها ما بتنا، نحن، ندعوه "الوظيفة النَّبويّة".

وهو، على غرار الأَنبياء يُنذر: "**الويلُ للمجتمعات حيثُ تتحوّل، يومًا، قوى المحاكمة النَّبويَّة، القليلةُ العدد، أَي أولئك المطلوب منهم أَن يكونوا "صوت من لا**

صوت لهم"، إِلى قُوى سياسيّةٍ. وليس معنى هذا ازدراءً للسِّياسة، أَو دينونةً لهــا. ولكن، عندما يُصبح النَّبيُّ شبيهًا بالحاكم، فمن الَّذي سيُعلن للحاكم حقيقته؟"

وعلى غرار الأَنبياء، أَيضاً، كان صِدْقُ الأَب پــيير ضمانًا لمِصداقيَّته، فقد كان يعِظُ بأَفعاله أكثر منه بأقواله، وكان التَّناسُقُ تامًّا بين أَقواله وأَفعاله في كُــلِّ حــينٍ. وكان لا يني يُهيب برفاقه أَن يجعلوا إِيمانهم بحبِّ الله جديرًا بالتَّــصديق مــن قِبَــل الآخرين، بفضل سُلوكهم وحُبِّهم. ولكأَنّي بالوزير "رينيه لينوار" الَّذي قلَّد الأَبَ پــيير عام ١٩٧٥ وسامَ مؤَسَّسة غوتيه، وقدَّم له جائزةً "البير شــفــايتزير"، كــان لــسانَ حال الجميع، عندما خاطبه، مُثنيًا على صدقه: "يحقُّ لك أَن تتكلَّم عن الأَلَم والمهانــة والحرمان، بما أَنَّك اقتسمت ثمارَها المُرَّةَ مع أُلوف الفقراء والمُهمَّشين والمسحوقين. وبوسعك التَّكلُّم عن الرَّحمة، بعد أَن مارستَها، كما بوسعك التَّكلُّم عن الفرَح المستعاد، إِذ إِنّك قد استعدتَه، حقًّا، في العطاء والمشاركة".

ويعترف الأَب قائلاً: "**أَعتقد بصورةٍ مُطلقةٍ أَنّني لم أَشهد، قطُّ، بما لم أكن أَحمل في داخلي قناعةً به مُطْلَقة**".

وطالما أكَّد أَنَّ أَمرَيْن يؤلْمانه إِيلامًا بليغًا: أَن يُرتاب في صدقه، وأَن يُظَنَّ أَنــه يعمل من أَجل الشُّهرة، مُضيفًا أَنّ مطامعه تنحصر في أَمرَيْن:

– جَعْل البشر يؤْمنون بحبِّ الله لهم،

– ومساعدة حركة "عمّاوس" على بلوغ مستوى من التَّنظيم يُتيح لشتَّى الفئــات، ولجميع الأَفراد الَّذين يحملون رسالةً يودُّون أَن يهبوها حياتهم، أَن يتعايــشوا تحــت راية "عمّاوس"، رُغْم تباينهم واختلافهم.

أَمّا عن الشُّهرة، فيُقرُّ الأَب أَنَّ ما هَبَطَ عليه منها، كان عبئًا عليه مُرهِقًا، لأَنَّــه كان يشحذ، أَبدًا، شعورَه بالتَّقصير دون الكمال المنسوب إِليه، وفي آنٍ واحد، يــوهم الَّذين يُبخِّرونه، أَنّهم، بذلك، يؤَدُّون ما هو مطلوبٌ منهم. ولطالما كرَّر: « **لقد ضِقْت ذَرْعًا بمن يُعلِّقون صورةَ الأَب پــيير فوق أَسرَّتهم، يرمقونهــا بنظــراتهم عنــدما يستيقظون، ويذرفون دمعةً، ويزعمون أَنّهم فعلوا الكثير. فليس العمل بكــاءً، بــل التماسُ الوسائل للقضاء على الظلم** ».

وهو يقول، في هذا الشَّأْن، أَيضاً: « **تطوفُ بذهني صورةُ الحمار الَّذي يحمل ذخائرَ مُقدَّسةً. إِنّني لم أَتخيَّل، قطُّ، أَنَّ البخورَ الَّذي يُنثَر على الذَّخائر مُوجَّه إِلى الحمار** ».

وعلى نحو ما كان الأَب پيير، سحابةَ حياته، رَجُلَ عملٍ دؤوبًا، لا عهدَ له بدَعَةٍ أَو سكونٍ، كان، كذلك، رجلَ صلاةٍ دائمة، وروحانيّةٍ كثيفة، وكان المَيْلان فيه متشابكَيْن متكاملَيْن، ولئِن بدا للعيان أَنَّ الميلَ إِلى العَمل، بنفاد صبرٍ، كان أكثر بُروزًا. فقد اتَّسم كُلُّ عَملٍ من أَعماله بُبعدٍ روحيٍّ مُحقَّقٍ، حتّى عمله في المقاومة، أو في السِّياسة، الَّتي يومَ اتَّضحَ له أَنَّه غيرُ قادرٍ على أَن يُسبغَ عليها كُلَّ ما كان حريصاً عليه من قِيَمٍ، طلَّقَها، غير آسف؛ ويتجلّى البُعْدُ الرُّوحيُّ، على أَسطع وَجْهٍ، في "عمّاوس" الَّتي، وإن كانت لا طائفيّةً، إلاّ أَنّها اتَّسمتْ بدعوةٍ رَسُولِيَّة بعيدةِ المرامي، وتفرَّدتْ عن جميع المُؤَسَّسات الإِنسانيَّة والخيريَّة الأُخرى، بقيامها على مبدأ المشاركة، وهو من صميم تعاليم يسوع.

وكانت له الصَّلاة هي الذَّريعة لاكتمال إِنسانيَّته، وتحريرها من ميولها الوبيلة، على نحو ما يُستَشفّ من قوله: « **نحن نحمل في ذواتنا قُطبَيْن يتنازعاننا: الخير والشرّ. تارةً يبدو هذا، وتارةً ذاك، هو الأَقوى. كيف لنا أَن نُقاوم الشَّرّ؟ بالنسبة لي، وطيلةَ مسيرتي، كان سَنَدي هو العبادة، والصَّلاة بكُلِّ أَشكالها. في مصارعة الشَّرّ، العبادةُ علاجٌ مُطلَق النجاعة، وكذلك هو سرُّ الإِفخارستيَّا لمن يمتلك الإِيمان، وكما دلَّت التجربةُ، إِنّ هذا السرَّ ينطوي، في ذاته، على الصَّفْح، ويوفّر منعةً وأزرًا. إِنّه، مع صلاة العبادة، لمن مُنِح نعمتَهما، ركيزتان منيعتان لمزيدٍ من الإِنسانيّة** ».

الصَّلاةُ كانت ملجأه وسنَدَه في كُلِّ أَزمة، على حدِّ اعترافه: "**بالصَّلاة، أَتحرّر من كُلِّ ثانويٍّ. فإبّان عهد المقاومة، أَوْ أَثناء الأَزمات الخطيرة الَّتي عصفتْ بعمّاوس، كنتُ أَصوم وأَختلي أسبوعًا، على جبلٍ شاهقٍ، قبل إِقدامي على أَيّ قرارٍ. ولم تكن تلك فتراتُ تفكيرٍ، بل فترات إِقلاعٍ عن إِعمال الفكر، وبعد أن يكون كُلُّ شيءٍ قد كُنّس، وبعد أَن تكون النَّوافذ قد نُظِّفت، كان يتَّضح لي ما ينبغي عمله**".

والصَّلاةُ كانت له عونًا على المرض، الَّذي، بفضل الخلوة مع الله، كان ينقلب معينَ اغتناءٍ داخليٍّ، يوضحهُ الأَب بقوله: "**غالبًا ما عانَيْتُ من الأَسقام، سحابةَ حياتي، وفي بعض الأَحيان كان ذلك قاسيًا جدًّا، نفسيًّا، أكثر منه جسديًّا. ومع ذلك كانت تلك اللَّحظاتُ كلُّها من أثْمن لَحَظاتِ حياتي. لقد عرفتُ ساعات "إيلي، إيلي، لما شبقْتَني!" على مستوى حجمي الإنسانيِّ المسكين. قد تكون هذه العبارة مُريعةً، بل قد تكون تجديفًا مُطْلَقًا إن لم تلحق بها، في الحال، صرخة: "أَبتاه، بين يديك أُودع كلّ كياني**".

وفي هذا المعنى اعترفَ الدُّكتور "كوشنر" مُخاطبًا الأَبَ پيير: « **إن العَمَل الدؤُوب، لأَصعبُ بمكانٍ، عندما يفتقر الإنسانُ إلى الإيمان بالله، في حين أَنّ العَمَل الإنسانيّ هو أَيسرُ لدى المؤْمن... الوحدة، مع الله، ليستْ وحدةً، أَمّا الوحدة، من غير الله، فهي فراغ** ».

وهذا ما أكّده الأَبُ پيير نفسُه بقوله: « **كم سيغدو كلُّ شيءٍ بسيطاً، إن نحن ارتضَيْنا أَن نكون، بكُلِّيَّتنا، أَبناءَ الآب!** »

ولذلك أَحبّ الأَبُ الصَّلاةَ، ونسج بها حياتَه، فحقّ له أَن يُصرِّحَ: « **أُحبُّ الصَّلاةَ، ويبدو لي أَنَّ حتّى أكثر أَعمالي صَخَبًا لا تقطع صلاتي. ولكنّني لستُ أُجيد التوسُّل، في حين أَنَّ المفهومَ الرَّائج قد خلَط بين الصَّلاة والتوسّل. الصَّلاةُ، في جوهرها، عبادةُ كائنٍ بشريٍّ جريحٍ بجروح البشريَّة جمعاء؛ وفي آنٍ واحدٍ، هي هتافٌ للحبّ البشريّ الَّذي لا يقوى الشرُّ نفسُه على التَّشكيك فيه** ».

منذُ مطلع شبابه، اكتشف الرَّاهبُ الفتى أَنّ الله هو "الكائن"، فشرع يُرسِّخ إيمانَه على صخرة هذه العقيدة الصَّلدة، وانبثقتْ من أَعماقه صرخةُ "**أَجل، أَيُّها الكائن، كُنْ**"، وظلَّ موقنًا أَنَّ أَيَّ وصفٍ يُضاف إلى "الكائن" ينال من عظمته المُطْلَقة، إلى أَن اكتشف الرُّوحانيَّةَ الفرنسيسكانيّة؛ وحينئذ توطَّد لديه اليقين بأَنّ "الكائن" الذي ارتكز عليه إيمانه إنّما هو حُبٌّ، وأَنّ صفة الحُبِّ وحدَها يُمكن أَن تُضاف إلى صفة "الكائن" من غير أَن تنتقصَ من كينونته شيئًا، وأَنّ الخليقة كلّها الّتي رأى فيها الأَسّيزي، في صِدْقٍ مؤَثِّر، إخوةً وأَخواتٍ، تدين له بالبُنُوَّة، فشرَعَ يُؤنس، وهو يتلو صلاةَ يسوع،

أَنَّ الأبَ الَّذي في السَّماء كائنٌ حقٌّ مُحبٌّ، بل هو حبٌّ خالصٌ، وهو، بفضل الحُبِّ الثُّلاثيّ الَّذي يجمع أَقانيمَه الثَّلاثةَ، ثُلاثيُّ الحُضور، شخصيًّا، في وحْدَةٍ مُطْلَقة.

ومن ثمّ بات له "الإِيمان فعلُ حُبٍّ، فعلاً لا يُناقض العقل، ولكنّه يندرج في مجالٍ آخَر".

وقد فتحت الصَّلاةُ والعبادةُ بصيرتَه على صميم الحقيقة، وكشفتْ له مكامن أَسرار الوجود، وفقًا لاعترافه: « أَعتقدُ أَنّ خبرةَ الصَّحراء قد خلَّفت فيّ ردَّ فعلٍ من شأنه أَن يُعيد قِطَع الواقع المُبَعْثَرة إِلى مكانها الصَّحيح.... إِنّ وجود الجبل والصَّحراء يُدخلنا إِلى صميم ما يُمكن تسميتُه بأَسرار الخليقة، ويذكِّر أَنَّ السِّرَّ هو الخيار الوحيد في مواجهة اللاّمعقول. إِنّ اختباري العزلة الَّتي تُخاطب النَّفْسَ قد رسَّخت فيّ القناعة بأَنّني، ولو تأَلّمتُ، من محظيّي الله ».

كلُّ ذلك قد حفر في أَعماقه هُوَّةً ملأى جوعًا وعطشًا إِلى الله، وإِلى كلّ ما يقودُ إِليه. ويَطيبُ للأَب أَن يُشبِّه تلكَ الحفرة بالدَّمغةِ الَّتي يَطْبَعها خاتمٌ في الشَّمع، فيقول: **« هذا العطش إِلى المُطْلَق الَّذي يجأر في أَعماقنا، يستدعي صورةَ الشَّمع الَّذي تَرَكَ فيه خاتمٌ دمغتَه. أَنا لستُ أَرى الخاتم، ولكنّني، بتحديقي في الحفرة المطبوعة في الشَّمع، وبتقصّي ما ينقُصُني وما يَصْرُخُ فيّ، أكتشف الجواب، إِذ أكتشفُ قِيمَ المعرفة، والصَّداقة والحب ».**

تلك الدَّمغةُ المحفورةُ في أَعماقه، وذلك العطَشُ المُتلظّي قد جعلاه يتطلّع، في توقٍ، إِلى الموت الَّذي يصفه بلقاءٍ مُؤَجَّل مع صديق، وببلوغ الأَمل المنشود، وهو، بالتَّالي، يقول: **« عندما أُفكّر بالموت تتولاّني سعادةُ الخطيبة الَّتي تنتظر خطيبَها بثقةٍ. إِنّني سعيدٌ لأَنَّه سيأتي، ونافدُ الصَّبر لتلكُّؤه في الوصول ».**

وهو، بانتظار ذلك، يُسلِسُ قيادَه للرّوح القُدُس، ويقرّ: "**بوسعي القول، مثل معظم النَّاس، إِنّ الرُّوحَ القُدُس يقودُني. إِنّ كلَّ امرئٍ يتميَّزُ بقليلٍ أو كثيرٍ من الطَّاعة. ولئن كنتُ، بالسَّليقة، مُتمرِّدًا، إِلاّ أَنّني أُطيعُ الرُّوحَ القُدس، أَو على الأقلّ، أَجهَدُ في أَن أكون له مطيعًا**".

وفي هذه الأَثناء يواصل نشاطَه، بكلِّ ما في جسده المُنهَك من طاقاتٍ، وبكلّ ما تَخفق به نفسُه الكبيرةُ من حُبٍّ، ويقول في بعض آخر ما كتب:

« أَحدُ أَصدقائي الَّذي يرى أَنّني ما زلتُ أَضطلع بالكثير من المهامّ، وأَستجيب للكثير من النداءات، غالبًا ما يسخَرُ منّي قائلاً: "إِيَّاك أن تَنْسى أَن تتنفّس"، فأَبتسم، وتجولُ في خاطري الوصيّةُ الَّتي تبدو مُفارَقةً: "صلّوا بلا هوادة". ربَّما قيل إنّ ذلك مستحيلٌ، ما لم يكن الهواءُ الَّذي نتنسَّمه، في العبادة، هو ذلك الهواءُ القادم ممَّا يتخطَّى الزَّمن، وما لم تَكُن الصَّلاةُ هي الغوص في بُنُوَّة الله، وتنسُّم هواء الأَبديّ.

"أَولَيسَ تنفسُّنا إِيمانًا، ورجاءً، وقدرةً على الحبّ؟

"شكرًا، اللهمّ، لروحك الَّذي، في هذا التنفُّس، يُحيينا، ويحملنا، جميعنا، إِليك! »

هل سيفلحون في تدمير الأَب پـيير؟

كنتُ قد فرغتُ لتوِّي من إِعداد هذا الكتاب، عندما شُنَّتْ، في فرنسا، حملةٌ عنيفةٌ على الأَب پـيير، مستهدفةً تحطيمَه، والإِطاحةَ بمركزه المُمَيَّز في الرَّأي العامّ الفرنسيّ، من جرَّاء تجاسره على اختراق جدار الصَّمت المفروض، في الغرب، على تجاوزات إِسرائيل وجرائمها، وبسبَب تحدّيه للإِرهاب الإِعلاميّ الممارَس على كلّ من يتناول تاريخ اليهود، العتيق أَو الحديث، بالنَّقد، بل بالشَّكّ أَوْ التَّساؤل.

وكان الإِعلامُ الصّهيونيّ قد شرَع يتربَّص بالأَب پـيير مذْ هو شَخَص إِلى غزّة، والتمس من الفلسطينيّين، مُمَثَّلين بشخص ياسر عرفات – وباسم مسيحيّي الغرب – الصَّفْح عن تخاذُل ذلك الغرب ورئائه، إِذ إِنّه غضَّ الطرف، وأَمسك اللّسان، عن مآسي الفلسطينيّين، وتقتيلِهم، وتشريد مئات الأُلوف منهم، بعد سَلبهم منازلَهم، وأَراضيهم، وموارد رزقهم، تحت سمع العالم وبصَره، وسكوت الغرب الرّازح تحت عبء الشعور بالذَّنب عن جرائم النازيَّة بحقّ اليهود، وكأَنّه بهذا السكوت الجديد يغسل ذنب سكوته السابق.

لقد كان الأَب پـيير، في هذا القرن، الذائد الأَوّل عن حياض المشرّدين، فلم يستطع السكوت عن مآسي ملايين الفلسطينيّين الذين سلبتهم إِسرائيل أَراضيهم وبيوتهم ولقمة عيشهم وكرامتهم، ولا عن مأساة مئات أُلوف اللبنانيّين الذين شرَّدتهم مؤخَّرًا؛ وكان صوته من الأصوات القلائل التي دأبت على فضح مؤامرة الصمت العالميّ حول هذه المآسي، تلك المؤامرة الّتي أَتاحت لإِسرائيل التّمادي في صَلَفها،

واعتداءاتها على جيرانها، وتحدّي المجتمع الدَّوليّ بأكمله، والإزراء بقراراته، بحيثُ غدت ضحيَّةُ الأَمسِ، بعد أَن توفّرت لها القوَّة، وبعد أَن ضمنت تواطُؤ دُوَلٍ كبـرى، جلاّدًا، لا عهدَ لقلبه بشفقةٍ، يسوم جيرانه الأَبرياء مثلَ ما سيمَ من حيفٍ، بل أكثر.

وقد قاوَم الأَب پـيير، أَبدًا، بعنفٍ، تَذَرُّع إسرائيل بوعدٍ إِلهيٍّ، لمناصَبَة الآخرين العداء، وتفسيرَها السِّياسيّ للكتاب المقدَّس، من أَجل تبرير تماديها فـي الغطرسـة، والاحتلال، والتعدّي.

إلاّ أَنّ العاصفة الهَوْجاء الكبرى قد انفجرت في شهر نيسان ١٩٩٦، على إِثْـر إِصدار "روجيه غارودي" كتابه "الأَساطير المؤَسِّسة للسّياسة الإسرائيليّة"، الّذي أُحيل، بسببه إلى القضاء، بتهمة التشكيك بجرائم مقترفةٍ بحقّ الإنسانيّة، في حين انفرد الأَب پـيير بتهنئته، لإقدامه على التّصدّي لمحرّماتٍ تحظُر على أَيٍّ كان التشكيك بما تُريد الصّهيونيّةُ العالميّة أن يؤْمنَ به العالَم حول تاريخ اليهود، بل تحظر على أَيٍّ كان أَن ينتقد في يهوديٍّ عيبًا، حتّى لو كان العيب في مظهره، أَو نشاز صوته، في حين هي لا تجد حَرَجًا من أَن يتناول الإعلام، لو هو شاء، الله، وسائر الأَديان، والقِيمَ السَّامية، والأَقوام الشّرَفاء، بالتّجريح والسخريّة.

وضجّ الإعلام الذي تُهَيمن عليه الصهيونيّة، فأَقام الدنيا على رأس الأَب پـيير وأَقعدها، واتَّهمه بالخَرَف والهَذَيان، وباللاّساميّة والعداء لليهود، وهو الَّـذي طالمـا خاطَر بحياته لإنقاذ المئات منهم من براثن النّازيّة، كما نُعِتَ بـالتخلّف والرجعيّـة؛ وحُمِلَ حتّى بعض من كانوا يفخرون بصداقتهم له، على الإعلان عن حزنهم، بسبب الانحطاط المُريع الَّذي أَودى إِليه نفسَه؛ وراحَ يرشقُه بسهامٍ مسمومةٍ حتّى من كانوا، لأَشهرٍ معدوداتٍ، يُطالبون بأَن تُنصَبَ له التماثيل.

وهو الذي كانت وسائل الإعلام تتسابق لالتقاط أَحاديثه وتصريحاته، حُجِبَتْ عنه كلّ إمكانيَّةٍ لتفسير موقفه؛ وقد جرحَه كلّ ذلك في الـصَّميم، فـآثر الترفُّـعَ فـوق الصغارات، والمكائد والخيانات، والاعتكاف، منذ مطلع أَيّـار ١٩٩٦، فـي منـسكٍ بإيطاليا، بعيدًا عن الضجيج والصَّخَب، والتماسًا لعبادةٍ ساجيةٍ صامتةٍ، ما انفكّ يتطلّع إِليها، منذُ أَمد.

إلاّ أَنّه لم يقوَ على السُّكوت طويلاً، ولم يتلكّأ في تفسير موقفه وتبريـره كلّمـا

سنحت له، من أَجل ذلك سانحةٌ، أو استفسرته، في ذلك، إحدى وسائل الإعلام. فاشتدَّت عليه نقمة المشايعين للصهيونيّة استعارًا، ومورسَ عليه من الضُّغوط أقساها، وكان بعضُها مُريعًا، على حَدّ وصف "غارودي" نفسه لها. ولم يكن أَفظعها طردُه من منظَّماتٍ دوليّةٍ ناشطةٍ في ميادين مكافحة العنصريّة والدفاع عن حقوق الإِنسان، ولا أَكثرها إِغراقًا في الصفاقة والسماجة سعيُ بعض الشخصيَّات الفرنسيّة لدى رئيس الجمهوريّة كي يسحب منه وسام جوقة الشرف الذي كان قد قُلِّده لنحو نصف قرنٍ مضى، ممّا قد يُمثّل أَقصى دَرَكات المهانة والإِذلال. وقد غرب عن بال النَّاقمين السَّاعين إلى القضاء على الأَب پيير، أَنّ تاريخ نضاله وسجلّ إِنجازاته سيظلاّن على صدر فرنسا، والإِنسانيّة جمعاء، أَرفعَ وسامٍ وأَسناه، في هذا القرن المشرف على غروبه.

غير أَنّ "غارودي" نفسه قد خشي على صديقه الأَب پيير، الهشّ الصحّة، من أَن تودي به ضغوطٌ تنوءُ بمثلها الجبال، فطلب منه الانسحاب من معركةٍ ضاريةٍ لا رحمةَ فيها؛ وخشيَ الأَب پيير على "عمّاوس" من مكر من لا يرعون لله ولا لبَشَرٍ حرمةً، فأُلجئ أَخيرًا إلى التزام الصمّت، بعد أَن بلّغ الرسالة، وهَتَكَ الزّيف والتّزوير.

وأُوحيَ إلى الرَّأْي العامّ أَنَّ أسطورة الأَب پيير قد انهارتْ وتبخَّرتْ، بعد أَن تطاولَ على ما لا يجوزُ المَساسُ به.

ولكن، خَسِئوا! فما يُحاولون تصويرَه سقطةً، إِنْ هو إِلاّ وثبةٌ نحو قِمَمٍ أَسمى، أَثبتَ بها "النَّبيّ" أَنّه لا يخشى الجهرَ بحقٍّ، ولو رهِبَ الجميع الهمسَ به، ولو أَفضى به ذلك إِلى الحُكْم عليه بقطع رأسه!

أَجل، أَيُّها الأَب پيير، هذا ما برهنتَ عنه، عندما أَجبتَ الصّحافيَّ الَّذي سأَلك: "أَلا تشعرُ، أَنت، أَكثر الفرنسيّين تمتُّعًا بالمحبَّة الشعبيَّة، أَنّ هذه اَلْقَضِيَّة ستُحطِّم، لديكَ، علاقةً ممتازةً؟" فأَجبتَ:

« سأَرُدُّ بجوابٍ واحد! فيومَ سأَمثُل أَمام الرَّبّ، لن يكون هاجسي أَن أَقول له إنّني أَفضل الفرنسيّين، بل أَن أَسمعه يقول لي: "إِنّكَ رجلٌ حيُّ الضمير". وإنّني لواثقٌ بأَنّ كثيرين من الفرنسيّين سيقولون لي، بعد أَن تهدأ العاصفة: "لقد ساعدتَنا على أَن نرى بوُضوحٍ أَكبر ».

مهما حَاوَل المُتخَرِّصون إِيهامَ العالَم بأَنّك ارتكبتَ خطيئةَ العمر الكفيلةَ بالقضاء عليك، إلاّ أَنّك بتَّ، في عيوننا، أكبر وأَسمى، وأَمست مكانتُك في قلوبنا، أَرفع وأَرسَخ، لا بدافع عنصُريّةٍ نحن نمقُتُها، ولا بَوحْيِ تعصُّبٍ نحن نمجُّه، بل إِكبارًا للجرأة في قول الحقّ، وأَنت صوتُه الَّذي لا يهاب.

وستبقى الإِنجازاتُ الجبّارة الّتي حقَّقتها في فرنسا، وفي العالَم، شاهدةً على عظَمة مسيرتك، كما سيبقى تيّارُ الحبِّ الَّذي أطلقتَه يجرُّ، في إِثركَ، جيلاً بعد جيلٍ، جموع المتطلّعين إِلى شمس الحقيقة، والصابين إِلى كمال الإِنسانيّة، ولن تُجدي، في النَّيْل منك، مكائدُ العُنصريّين وخُبثُهم، ولا صَغارة الجبناء وزحفُهم.

الجُزءُ الثَّالِث

مقتطفات من أقوال الأب پيير

تمهيد

لقد كان الأَبُ پـــيير، على امتداد مُغامرة رسالته الجريئة، النَّبيَّ الَّذي يجهرُ بما لا يجرؤ الآخرون على الهَمْس به، وصوتَ من لا صوتَ لهـــم، المنَـــادي بتعـــاليم الإِنجيل الأَصيلة، عائشًا إِيَّاها، بصِدْقٍ، في الحياة اليوميّة، مُتّخذًا من الإِنسان الضائعِ، المنسيِّ، المرذولِ، أَخًا في المسيح، ومُكتشفًا فيه، مع فقره، كائنًا روحيًّا مُشعًّا بـــالْقُوَّةِ والحبّ. لقد كان الصوتَ المُدوِّي، الَّذي يُخَلْخل أَمانَ المتمترســـين وراءَ سُـــلْطَتهم، ومالهم، ولا مبالاتهم، وأَنانيّاتهم.

وقد تذرَّع، في أَداء رسالته، بوسائلَ ثلاث: العمل الَّذي ينهض مِصداقًا على كُلِّ ما يقولُ ويُعلن، والكلمة المسموعة الجريئة الَّتي لا يُفوّت فُرصةً ليُعلنها على المـــلأ في شتّى أَصقاع المسكونة، والكلمة المكتوبة الَّتي تُكَثِّـــفُ عقائِـــدهُ، وتُلَخِّـــص عِبَـــر إِنجازاته، وتنشُرُ دعوتَه على مدى المسكونَة، واضعةً إِيّاها في مُتَناوَل كلِّ راغبٍ في النَّهل من ماء حياةٍ مُنعش.

وقد كانت الكتابةُ له سلاحًا ماضيًا استخدمه منذُ مطلع شبابه؛ فأَثناءَ نضاله فـــي المقاومة أَصدرَ صحيفةً تنطق بلسان فريقه؛ ثمَّ، منذُ مستهلّ مغامرة "عمّـــاوس"، دأَب على مشاركة جماهير رفاقه وقُرَّائه خُلاصةَ تجاربه، وزبدةَ تأَمُّلاته، واندفاع نضاله، من خلال مجلَّة "جوع وعطش"، الَّتي باتت لسانَ حاله، وما زال يُصدرها حتّى اليوم؛ وقد عكَفَ، فيها، على تحليل الأَحداث المحلِّيَّة والعالميَّة، على ضوء عقائده الثَّابتـــة، المبثوثة والمتردّدة في كلّ ما قال وكتب: إِنّ الله الكائنَ الأَزليَّ، الَّذي هو حـــبٌّ، قـــد

حبانا الحُرِّيَّةَ، فقط لكي نُحبَّ، وبات، هو نفسه، أَسيرَ حُرِّيَّتنا وحبِّه لنا؛ وما الحياة سوى فرصةٍ لتَعَلُّم الحُبّ، وإنّما يُخطئُ هدفَه كُلُّ من سعى إِلى أَن يَسْعَدَ في معزلٍ عن الآخرين، إِذ يتعيّن أَن تكون غاية كلِّ حياةٍ، وكلِّ نضالٍ، خدمة الأَكثر تألُّمًا في المقام الأَوّل، وإلاّ كانت الحياة عَبَثًا باطلاً، وكان النِّضال نكسةً.

للمؤمنين يقول أَن يعيشوا إِيمانَهم، كي يكونوا جديرين بالتَّصديق،

وللمُحسنين أَن يتحوَّلوا إِلى المشاركة،

وللسِّياسيّين أَنّ واجبَهم الأَساسيَّ هو خدمةُ الأَكثر تألُّمًا، لا خدمة المحظيّين الَّذين يمتلكون كلَّ شَيْءٍ،

وللشَّباب الَّذين لم تعُدْ تُساورهم سوى الرِّيَب، يُؤكِّد أَنّ المرءَ لا يستطيع أَن يبني سعادتَه بمفرده، ومن أَجل ذاته فقط، وإِلاّ انقلَبَتْ، عاجلاً أَو آجلاً، على رأسه،

وللجميع يُردِّدُ قول المُعلّم: أَحبّوا بعضُكم بعضاً، وتقاسموا الخبزَ والمالَ والوقتَ والعَمل، وابنوا عالمًا جديدًا على ركائزَ من حُبٍّ ومشاركةٍ، وأَيقنوا أَنّ خدمة الأَكثر تألُّمًا، في المقام الأَوّل، هي منبعُ كُلِّ فرحٍ حقّ.

وإِلى جانب مقالاته التي تُمثّل سجلاًّ لنضاله، نظم الأَب پـيير بعض قصائد، وكتب مسرحيَّاتٍ أَنجز أَخيرتها منذ أَشهرٍ قليلةٍ، وقد تبرّع بعضٌ من كبار الممثّلين بعرضها على أَحد مسارح باريس؛ وفي سنتي ١٩٩٤ و١٩٩٥، بعد أَن استقرّ في استراحة "عمّاوس"، وَظّف فترات الفراغ المُتاحة له كي يُدبّج كُتَيِّبَيْن هما من أَعذب وأَغنى ما كتب، طواهما على خُلاصة صوفيّته، وتأَمُّلاته، وخبرته المتمادية في مضمار الخدمة والمحبّة.

من هذا الإِنتاج الغزير اقتطفنا بعضَ مقالاتٍ، ومقاطع، وأَقوالٍ، تُلقي حُزَمًا من ضوءٍ على شخصيّة الأَب پـيير، ونضاله، ورسالته، وتُمثِّل "وصفةً لاستعمال الحياة"، نسوق، في الصَّفحات التالية، ترجمةً لها.

ومنها يتَّضح أَنَّ الأَب پـيير يمتلك سِرَّ العبارات المُتَفجِّرة نورًا ونارًا، عباراتٍ جيَّاشةٍ كنفسه تزدحم وتتدافع فيها الخواطر والعواطف، وغالبًا ما تنطق فيها الكلماتُ بمعانٍ قشيبةٍ. كلماتٌ هي، حينًا، ماءٌ زلالٌ ينساب على النفس عذوبةً، وحينًا تستدرُّ الدُّموع؛ هي، تارةً، براكين تُزلْزِل أَعماق الكيان، وتارةً أُخرى، تأَلُّقُ نورٍ يسمو

بالنَّفس إلى قِمَمٍ شامخةٍ؛ كلماتٌ للتَّاريخ، كلماتٌ حافلةٌ بالاكتشافات المُذْهلة، كلماتُ غضبٍ، كلماتُ حُبٍّ، كلمات "رعد الله".

لقد قال اللورد بيـڤـيريدج: « إنّ الأَب پـيير يتكلّم لُغةً يفهمها جميع البشر"؛ لأَنّها تخاطب وجدانهم مباشرةً، وتهُزُّ في كلّ قلبٍ وترًا. فعسى أَن تنقلب هذه المقتطفات، في نفوس قارئيها، بُذورَ إِيمانٍ، وحُبٍّ، وفَرح ».

أَحرارٌ لكي نحبّ

ليسَ الإِنسانُ حُرًّا في أَنْ يُحِبَّ أَوْ لا يُحبَّ،

بل هو حُرٌّ لكي يُحبّ!

وحالَما يخطرُ له أَن يَسْتَخْدِمَ حُرِّيَّتَه لكيلا يُحبّ، أَو لكي يَحُدَّ حُبَّه، فهو يغتالُ حُرِّيَّتَه، ويغدو أَسيرَ الطَّاغوتِ الَّذي يُوَلِّدُ أَكبر قَدْرٍ من العُقْم، وعمى البصيرة، والإرهاقِ، والقُنوط: أَلا وهو الذَّاتُ، في معزلٍ عن الآخرين، الذَّاتُ بكُلِّ حدودها، الذَّات الَّتي لا تقوى على الانعتاق من ظَمَئِها، لأَنَّها محبوسةٌ عن الينابيع.

"الحبُّ " هو انطلاقُ المرءَ خارجَ ذاتِه، ليعيشَ في جميع الآخرين، وليتبوَّأَ، أَخيرًا، مكانَه الطَّبيعيَّ في الله الأَزَليّ، الَّذي، وحدَه، لا حدودَ له، وفيه وحدَه يظفرُ بكلِّ ما يحتاجُ إِليه من حُبٍّ، ويهَبُ كُلَّ ما يتعيَّن عليه من حبٍّ، أَي ملءَ الحُبّ، بلا حدود. أَما خارجَ ذلك، فكلّ شيءٍ زريٌّ.

في عالَمٍ ظاهريًّا غير مُكتَملٍ، طالما اختار الإِنسانُ أَلاَّ يُحبَّ، أَو أَن يكتفي بالقَدْر الأَدنى من الحُبِّ، بحيثُ يغدو عابدًا صنَم وحدته السَّخيفة، عبادةً جديرةً بالسُّخرية والرّثاء، فإِنّه يُصبح، لا محالةَ، عاملَ تدميرٍ وتبديدٍ للكَوْن الَّذي يُمسي مثلَ جَسَدٍ مُعتلِّ الرَّأس.

في الواقع خُلِق الإِنسان لكي يبني، ولكي يُواصِلَ عمليَّةَ الخَلْق الَّتي يُؤْنس حيالَها أَنّه قادرٌ، ولكنَّه مفتقرٌ إِلى المزيد من المعرفة.

فلا قُدرَةَ على البناء، من غير معرفة،

والمعرفة تعني أَلاَّ يغتَرَّ المرءُ بنفسه، وأَلاَّ يَظُنّ، بحمقٍ، أَنّه كلُّ شَيْءٍ، وبدايةُ الدُّنيا ونهايتُها.

إِنّ الأَشياءَ الَّتي ندعوها طبيعيَّةً، والَّتي يُخلَقُ المرءُ في وَسْطها، هي أَيضاً - على نحوٍ مختلفٍ عن البشر، ولكن في واقعيَّةٍ لا ترحم - تُمثِّلُ نِداءً للإِنسان، وتقتضي منهُ

الاعترافَ بأَنَّه حُرٌّ، فقط، بقَدْرِ ما هو يُسيطر طَوْعًا على نفسه، كي يتعلَّم احترامَ الكَوْن.

إنّ الواجبَ القاضي بأَن يفرُضَ الإنسان على نفسه جَعْلَ القُوَّةَ خادمةً، لا تعسُّفيةً (وهو الشَّرْط الوحيدُ لإقامة مجتمعٍ مطمئنٍّ لحياته، وناعمٍ بأفراح السَّلام الحقّ) لا يتعيَّن حيالَ "الناس" فقط، بل أَيضاً تُجَاه الأَشياء، أي الأَراضي والمياه، والهواء، والنَّباتات، والحيوانات، الَّتي عليه أَن يَخْدُمَها حتّى عندما هو يستخدمها، وأَن يحافظ عليها، أَي أَن يَخدُمَ معها الحُبَّ نفسَه الَّذي خَلَقَها معنا – خَلَقَها هي من أَجلنا، بلا ريْبٍ، وخَلَقَنا جميعنا، بعضنا للبعض الآخر، ومع البعض الآخر، وبه، إِذ نحن جميعُنا، الناس والأَشياءَ، نُمثِّلُ، معًا، الطريقَ والمسافرين، نحو لقاء هذا الحبّ الأَوَّل.

إنّ العصر الرَّاهن يُثبت شططَه، كُلَّ يومٍ، بمزيدٍ من الوضوح، وبما يبعثُ فينا الدُّوار.

إنّ الكوْن مُشرَعٌ أَمامَنا مثلَ حديقةٍ قشيبةٍ، هي، في آنٍ واحد، دانيةٌ، وبعيدة المنال؛ ربَّما هي مُثْقَلَةٌ بالوعود، أَو ربَّما جرداءُ على نحوٍ مريعٍ؛ وفي الوقتِ عينه، يجأَرُ احتجاجًا علينا ما نُلحقه بالأَرض من دمارٍ. إنَّ العلومَ الاجتماعيَّة وكذلك علومَ الحياة، وعلومَ الطَّاقة تُبرز قُدُراتٍ بشريَّةً تتخطّى حتّى أكثرَ الأَحلام الَّتي حلمت بها الإنسانيَّةُ طموحًا؛ وفي آنٍ واحدٍ، ها هي ذي بشاعةُ الحروب، والتعنُّت الأَعمى الَّذي يُميّزُ التَّفرقةَ الطَّبَقيَّةَ، والدَّمارَ المقصود من أَجل إقامة "توازن الخوف"، كلُّ تلك العوامل الَّتي توصِد أَبوابَ كنوزنا دون حُشود الأُسَر المفتقرة إلى المأوى والعناية، والخبز والعمل، والَّتي أَصابتْ من العلم ما يكفي لتُدركَ مدى يأْسها.

إنَّ مثلَ هذه الأَزمنة هي امتيازٌ، امتيازٌ مأساويٌّ، ولكنّه امتيازٌ على أَيّة حالٍ... لأَنّها تقسُرنا على الإقلاع عن الكذب.

ففي مثل هذه الحقَب، إمّا أَن يؤُولَ كلُّ شَيءٍ إلى الأَسوأ، وبأَشدِّ قدْرٍ من القَسْوة، فيهوي إلى العَدَم، أو أَقلَّه، إلى تمزُّق التَّنابذ بين الجميع، حيالَ كُلِّ شيءٍ وحيالَ الخالق...

وإمّا أَن يَعكفَ كلُّ فردٍ، وبلا هوادةٍ، وفي كلِّ ساعةٍ، على لَعِبِ لعبة الحياة، مُردِّدًا على ذاته: "ستُحبّ".

"ستُحبُّ": أَيْ عليكَ أَن تتخطَّى نفسَك، لا بضَمِّ المزيد إليك، ولكن بالخروج من ذاتك للقاء الجميع.

"ستُحبّ"، أَي إنَّك ستتعرَّف العلامةَ التي تَسِم إخوتَك والأَشياءَ، والَّتي تحثُّك على خدمتهم واحترامهم، العلامةَ الَّتي، في معزلٍ عنها، كلُّ شَيءٍ يغدو "تفاهةً" لا تُطاق، العلامةَ الَّتي تشهدُ على حُرِّيّتك لأَنَّها نداءٌ، نداءُ الأَزليِّ الَّذي هو حبٌّ، علامةَ ذاك الَّذي

يصرُخُ فينا، ومن خلالنا، من بعضِنا إِلى البعض، ومن خلالنا إِلى الخليقة جمعاء: "إِن شئتَ، تعالَ".

فليكن لدينا من الفِطنةِ ما يحولُ دونَ إِفسادنا أَرضَنا، وقتلِنا إِخوتَنا، وما يدفعنا إِلى بناء الأَرض، وبناء السَّلام، وهذا لا يتحقَّق إِلاّ بفضل استجابةٍ، تتجدَّد كلَّ يومٍ، وبالأَفعال، لهذا النّداء، إِلى أَن يَظْفَرَ منّا بكُلِّ ذاتنا.

لقد باتَ من المُسلَّمات الرائجةِ تدميرُ الأَرضِ بأَكملها، وعَدَمُ المبالاة بشفاء مصائب أكثرِ النّاس مُعاناةً، وذلك بفَضْل هَدْرِ أَروع موارد البسيطة، بحُجَّةِ "الدفاع"، في حين كانت تلك الموارد وسيلةً بأَيدي البَشَرِ، كي يستطيعوا بها إِكمال الخليقة، في جوٍّ من التعاضُد، والعَدْل، والسَّلام والفرَح.

لا، ليس الإِنسان حُرًّا بأَن يُحبَّ أَو لا يُحبّ،

وما الحُرِّيَّةُ سوى صورةِ ذلك الحبِّ الأَبديِّ المزروعةِ فينا، لكي نكونَ قادرين على الحبّ.

قد يكون الكَوْنُ، إِن نُزِعَتْ عنه الحُرِّيَّةُ، صورةً رائعةً، لا غُبارَ عليها، ولكنَّه لن يُساوي شيئًا، ولن يتعدّى كونَه آلةً مُتَحرّكةً متناهيةَ الإِتقان، أَوْ دُمْيَةً لا تُكسَر. ولكن أَيَّةُ جدوى تُرجى من مثل هذا الكَوْن؟

في قِمَّةِ الكون المنظور ينتصبُ الإِنسانُ، هَشًّا، مُعَرَّضاً للانهيار، وفي آنٍ واحدٍ، قادرًا على بلوغ ذُروةِ السُّموِّ المُتَمثِّل في بذْل الذّات طَوْعًا، لكي يتحرَّر الآخرون، جميعُ الآخرين، بدءًا من الأَكثرهم معاناة.

الحُرِّيَّات الحقيقيَّةُ، المُطلَقةُ، الوحيدةُ، هي الَّتي تُصبح أَدواتِ تحرير، على صورة الله، الكُلِّيِّ القُدرة، السَّجين الطَّوْعيّ لدى تلك الحُرِّيَّات الّتي وهَبَها البشرَ لكيلا يكونوا قَدَرِيَّين، بل لكَيْ يكونوا قادرين على الحُبّ...

إِنَّ الخُبْزَ، والعَمَل، والمَسْكَنَ، والمدرسةَ، والعنايةَ الصِّحِّيَّة، هي ضرورات لكلّ إِنسانٍ كي يَنْعَم باستقلاله، ويكونَ سيِّد نفسه، وقادرًا.

فلنناضل، مع الجميع، كي تتوفّر هذه الخيرات، حقًّا، للجميع.

إِنَّ الكُلِّيَّ القُدْرة، الَّذي حلَّ بيننا، لم يأتِنا مُسيطرًا، بل في منتهى الصِّغَر، يومَ الميلاد، وكانت تلك كلَّ الرِّسالة الَّتي انتدَبَنا لها.

هذه الرِّسالةُ هي كلُّ شيءٍ للإِنسان المُتَعطِّش إِلى تبَصُّر هَدَف حياته.

الإيمان "رغم كلّ شيء"

كيف يتَسنَّى للمرءِ أَن يكون مُؤْمنًا "رغمَ كُلِّ شيءٍ"، في حين أَنَّ وسائلَ الاتّصال والإِعلامِ الدَّوْليَّة، اليومَ، تُرينا فظائعَ العالَم، وروائعَه، في آنٍ واحد؟ وكيف يتسنّى للمرء أَن يكون مُؤْمنًا، رغمَ كُلِّ شَيْءٍ، وهو يَقِفُ شاهدًا على بشاعة الظُّلْم اللاَّحقِ بالضَّحايا البريئةِ المسحوقة.

لقد بات لي هذا الإِيمانُ مُمْكنًا يومَ أَدركتُ إِلى أَيِّ مدًى كُنَّا مخدوعين...

هذا يعني أَنّي أَدركتُ أَنّنا كنَّا على خطأ في فهمنا لله الأَزليّ، إِذ إِنّنا قد مسخناهُ على صُورَتنَا البَشَريَّة. فحينَ يكون للإِنسان سُلْطةٌ، يُصبح مُتَسلِّطاً؛ ومن ثَمَّ خُيِّلَ لنا أَنَّ الله الأَزليّ، بما أَنّه كُلِّيُّ القُدْرة، هو أَيضاً مُتَسلِّطٌ؛ ولو هو كان كذلك، حقًّا، لكان جديرًا بالاستنكار...

الحقيقةُ الوحيدةُ الَّتي تجعلُ الإِيمان مُمْكنًا، والَّتي، في منأًى عنها، لا تُطاق الحياةُ، تلك الحقيقةُ الَّتي قد تبدو مُفارَقةً، هي أَنّ الخالق، لأَنَّه حُبٌّ، ولأَنَّه كُلِّيُّ القُدرة، هو نقيض القادر المُتَسلِّط، تمامًا.

فلأَنّه حبٌّ، هو "الكُلِّيُّ القُدرة الأَسير".

غايةُ الحبِّ الوحيدةُ هي أَن يُقابَل بالحُبِّ. ولا يُحَبّ إِلاّ من احترمَ حُرِّيَّة الآخر أَعمقَ احترام.

فلكي يكون هناك حُبٌّ، واستجابةٌ له، لا بُدّ من أَن يتوفَّر الاحترام.

إِنّ الله الأَزَليّ، كُلِّيَّ القُدْرة، هو على نقيض البشر، لا مُتَسلِّطٌ، بل، إِن أَمكن القول، هو "مخاطرٌ بمجده"، احترامًا للإِنسان. أَجل، إِنّ الله وحده، خالِقَ الحُرِّيَّة، يحترمُ حُرِّيَّةَ الإِنسان بهذا القَدْر.

وقد أَعلن لنا ذلك، بملءِ النّور، في حَدَث تجسُّد ابن الله التَّاريخيِّ، الابن الَّذي هو كَلمةُ الله، والتعبيرُ عن الحُبِّ الأَبَديّ، في شخص يسوع، وفي أَفعاله وأَقواله...

عندما أَنظُر إِلى يسوع على الصَّليب، أَرى كلَّ آلام البشريَّة؛ ثُمَّ إِنّني، في يَدَيْه المُسَمَّرَتَيْن، أَرى "كُلِّيَّ القُدْرة الأَسير"، الأَسيرَ الطَّوْعيَّ للحُرِّيَّة التي وَهَبَنا إِيّاها.

أَجل، يجب أَن نثأَر لله من الإِهانة التي أُلحقتْ به، بإِظهاره (كما فعل غالبًا تعليمُنا المسيحيّ ولاهوتُنا) بمظهر كُلِّيِّ القُدْرة المُتَسلِّط. علينا أَن نثأَر له، بإِظهاره "كُلِّيَّ القُدْرة الأَسير بدافع الحُبّ".

وعلينا أَن نثأرَ للإِنسان الَّذي خُدِعَ على نحوٍ مريعٍ، فالحُرِّيَّة هي قيمة الوُجود العُظْمى، وفي معزلٍ عنها لن يكونَ الإِنسانُ سوى شيءٍ من الأَشياء؛ غير أَنَّ مُجتمَعنا المغرورَ الَّذي يُنْعَت بالمُتحضِّر، قد صَوَّر هذه الحُرِّيَّة الفائقة الرَّوعة كما لو كانت هي الغاية. فهل نَعْجب، بعدَ ذلك، لرؤْيةِ شبابنا يفزَعون إِلى المُخَدِّرات، بل يُفْضون إِلى الانتحار، ويقنطون، ويفقُدون طَعْمَ الحياة؟

فما نَفع الحرّيَّة من أَجل الحُرِّيَّة؟

إِنّ الاثّار للبَشر، وردَّهم إِلى الصَّواب، يقتضي إِطلاعَهم على حقيقة أَنّ الإِنسانَ حُرٌّ لكي يكون قادرًا على الحُبّ، هو أَيضاً، وأَنَّ الحُرِّيَّة، إِنْ هي إِلاّ الوسيلةُ الَّتي تجعله أكثرَ من شيءٍ بين الأَشياء، وقادرًا، بعون الله، ومن غير إِكراه، أَن يغدو، كالله، مُحبًّا، وأَسيرًا طائعًا، حتّى العذاب، لأَلَم إِخوته، ولجَهْدهم في سبيل التحرُّر، بحيثُ يقودُهم إِلى الرَّغبة في أَن يتعلَّموا، هم أَيضاً، الحُبَّ، ويتذوّقوا ما ينبعُ عنه من فَرَح.

إِنّني أَسمع المسيحَ يقولُ لنا: "النَّاسُ يشتمونني! يقولون: أَين هي رحمتُك؟ ولكن كيفَ لرَحْمتي أَن تغمُرَ العالَم، محافظةً على احترام الإِنسان، إِلاّ عبرَ رحمتِكَ، أَنتَ، الطَّوْعيّة. فكن رحيمًا، كن القلبَ الَّذي يُشارِكُ الآخرين بُؤْسَهم. حينئذٍ ستنسابُ رحمتي عبرَ العالَم، وعبرَ رَحمتِكَ، في احترامٍ تامٍّ للإِنسان، مُسبِغةً على الإِنسان كُلَّ عظمته".

إِنّ الرّوح – الكائن الذي ندعوه الرُّوح القدس – ذلك التَّعبيرَ عن حُبّ الآب وكلمته، كان أَبدًا حاضرًا لدى الحُرِّيَّة، منذُ وجودها، داعيًا إِيَّاها، ومُخيِّرًا إِيّاها: "عليك الاختيار، إِن شئت، من غير إِكراه".

وجَهنّم، في نظري، ليستْ ضربًا من العقاب ينتقم به الله. بل هي أَخطرُ شأنًا، هي فترةٌ من وُضوح الرُّؤْية، ومن ملءِ النُّور، حيثُ يرى كلُّ امرئٍ نفسَه على نحو ما جعلَها: مُنغَلقةً على ذاتها، أَو مُشرَعةً على المشاركة.

وستتمثّلُ الدَّينونةُ في القَوْل: "زَعَمْتَ أَنَّكَ تكتفي بذاتك، إِذن فاكتفِ بها"... ليسَ الخالقُ هو الذي سينتَقِمُ، بل كلُّ إِنسانٍ يُعاينُ على أَيّ شكلٍ جعَل ذاتَه: مُدَّعيًا الاكتفاءَ بذاته: بمهنته، بنجاحه، بثروته... فحسْبُ، أَو راغبًا في تَعَلُّم المشاركة: "أَنت تتأَلَّم! أَلَمُكَ يؤْلمني. وسنُكافح لنشفى معًا من مرضك الَّذي أَصبح مرضي".

إِنَّ البشريَّة بأَسرها تتوقَّع رُؤْيةَ وَجْهِ الله الحقيقيّ، ووجه الإِنسان الحقيقيّ!

لقد حدَّثونا عن حِقْبةِ مَوْت الله؛ ولكن، حمدًا لله، إِنّها حِقْبَةُ موتِ صورةِ الله

الممسوخة الَّتي ابتدعناها على صورتنا البشريّة: صُورة الجبَّار المُتسلِّط؛ إنّها الحِقْبَةُ الَّتي يُمكن فيها - بعد تحطيم الأَصنام - إبرازُ وجهِ اللهِ الحقّ، كُلّيِّ القُدرَة، ولكن، على نقيض البشر، كُلّيِّ القدْرةِ الَّذي يجعل نفسه - لأَنَّه حُبٌّ - أَسيرًا طَوْعيًّا للحُرِّيَّات الَّتي خَلَقَها، كي يتكاثَر الحُبّ.

وهي، أَيضاً، حِقبةُ مَوْتِ الإِنسان المكتفي بذاته، المُصابِ بقَرَف الحياة، ولا سيَّما في العالَم المدعوّ "حرًّا".

إنّها الحِقبةُ الَّتي ينبغي أَن نُعلن فيها أَنّ مُبرِّر الحياة الحقَّ ليس الكفاح في سبيل "الحُرِّيَّة من أَجل الحُرِّيَّة"، بل الكفاح لكي يكونَ الجميعُ أَحرارًا، ليكونوا قادِرين على الحُبّ، وعلى التأَلُّم مع المُتأَلِّمين.

ولا غروَ أَنّنا لن نكون مُؤْمنين جديرين بالتَّصديق، إن كُنَّا مُؤْمنين فَحَسْبُ، بل علينا أَن نكون "مُؤمنين رغمَ كُلِّ شيءٍ"، غير مُغمِضي العيْنَيْن عمّا يُحيق بالعالَم من بشاعةٍ وفظاعةٍ ناجمتَيْن عن فقدان الحبّ، وعن الخداع الَّذي وُرّط فيه الإِنسانُ حولَ استخدام حُرِّيَّته، والَّذي نجم عنه خوفُ الجميع بعضهم من بعض، ودمارٌ شامل.

ينبغي أَن نُحدّق في هذه الفظائع، وأَن نكافحَ من أَجل إِزالتها.

الفقر الطوعِيّ

أَن يكونَ المرءُ بائسًا يعني عدمَ قُدْرته على أَن يكون بَشَرًا،

ولكن، أَن يكون فقيرًا، طَوْعًا، وبوَعْيٍ، أَليس هو النَّقيض، تمامًا؟

أَوَليس هذا هو الشَّرط كي يتهيّأَ لكُلِّ فردٍ، وللجماعة البَشَريّة بأَكملها، بلوغُ مِلْءِ إِنسانيَّتِهم؟

فما الَّذي ينبغي أَن يكونَه، فِعْلاً، هذا الفقرُ الطَّوْعيُّ، المناقضُ تمامًا للبؤْس، كي يُفجِّر ينابيعَ الفرَح للجميع؟

إنّه، أَوّلاً، إرادةُ العَمل، لا بُغْيةَ "امتلاك المزيد للذّات"، بل بغَرَض المزيد من الخدمة، لكي يتمكَّنَ الجميعُ، والفردُ أَحدُهم، من "كينونةٍ أَوفر".

وهو، ثانيًا، العَزْم على عدم إِخفاء شيءٍ ممّا يتعلَّقُ باستخدام الموادِّ المتوفِّرة؛

ولا غروَ أَنَّ ذلك كمالٌ يعْسُر منالُه، كما يعسُر الحفاظُ عليه، بلا شائبةٍ. ولا بُدَّ من امتلاك جُرأَةِ الاعتراف بأَنَّه لولا الجُهْد المُتَجدِّدُ باطِّرادٍ للحفاظ عليه، لم يصمُدْ، يومًا، فقرٌ طَوْعيّ أَمامَ خطَر الانحطاط.

وهو، أخيرًا - وهذا الشَّرطُ الثالثُ هو الأَسهلُ عندما يُصبح الشَّرطُ الثاني واقعًا ماثلاً - الرَّغبةُ في بَذْل كُلِّ جُهدٍ لأَجل خدمة الأَكثر تألُّمًا في المقام الأَوَّل، أي، بشكلٍ مباشرٍ أَو غيرِ مباشرٍ، أَن يَخدُم كلُّ امرئٍ، قبلَ ذاته، كلَّ من يتألَّم أكثرَ منه.

ولا بُدَّ من إقرار هذا الواقع: إنَّ البؤس موجودٌ بسبب الافتقار إلى مثْل أُولئك الفُقَراء، لا إلى فقراءَ طَوْعيّين منفردين، بل إلى جماعاتهم الأَوفر جدوى، فقراءَ يَهبون لا حَسَنةً فَحَسب (فالحَسنة غالبًا ضروريَّةٌ، ولكنَّها غير كافيةٍ للشِّفاء) بل يَهَبون حضورَهم، وقُدْوَتَهم اللَّذَيْن يَسنُدان، ويُنهِضان، ويَدْفَعان؛ فُقَراء يُشيعون عدوى الحُبِّ الحقّ.

من ذا الَّذي لَمْ يُدرك سريعًا، وقبلَ أَن يُوغِل قُدُمًا في العمر، كَذِبَ العلاقة الظاهرة بين الثَّروة والسَّعادة؟

ومن ذا الَّذي لا يتَبيَّنُ العلاقةَ بين الفَقْر الطَّوْعيّ الجماعيِّ، كما حدَّدناه، والسَّلام، والفرَح، وتسامي الجميع؟

فهو، وحدَه، كفيلٌ بشفاء الجميع، إذ إنَّه، وحدَه، يقضي على العار المُزدوج، عار الحرمان من وسائل العَيْش لدى البعض، وعار السَّعادة الزَّائفةِ، في معزلٍ عن الآخرين، لدى أَصحاب الامتيازات.

ورُبَّ مُعتَرضٍ يقول: "أَجلْ، هذا هو دربُ الحياة، ولكن لا قِبَل للوَهَن البَشريّ على المُضيّ فيه قُدُمًا".

أَمّا المُؤْمنُ الحقُّ فيُجيب: "ليس الإنسانُ، أَبدًا، وحيدًا. بل إنَّ الحُبَّ الأَبديَّ يُواكبهُ دائمًا، ويُمكِّنه من التَّقدُّم، رغم تعثُّره، بمُجرَّد أَنّه يُشرع ذاتَه، بتواضعٍ، ويشدُّها كالشِّراع، في وَجْه الرّيح".

وكم من الَّذي يُعَدُّون، أَو يَعُدّون أَنفسَهم غيرَ مؤمنين، ليسوا كذلك إلاّ لأَنّهم تجرَّدوا من الحُبّ.

وكُلُّ من تذوّقَ طَعْمَ الحياة الَّتي يحدوها روحُ الفقر الطَّوعيّ يعلَم علمًا يستعصي على الوَصْف أَنَّ الفرَح هو هنا، لا من أَجله، فقط، بل مثل ماءٍ ينسابُ نحو الجميع.

ولكي تكون جميعُ تَقْنيات الأَرضِ وثَرَواتِها مَعينَ فرحٍ، لا مَدْرَجةً للعبوديّة، فلْيَعكف جميعُ البَشر طيّبو النَّوايا على نفْح روحٍ جديدةٍ في هَذَا الفَقْر الطَّوعيِّ، حِقْبةً إثْرَ حِقبة.

وكما أَنَّ صيحةَ "أَنا جائعٌ" لا تعود تُمثِّل إعلانًا عن فظاعة، بل، على النَّقيض، تغدو يقينًا بالفَرَح، بمُجرّد توفر الطَّعام، كذلك، من شأْن حُضورِ الحُبِّ الواقعيّ، لدى جماعات

الفُقَراء الطَّوْعيّين، أَن يحولَ دون أَن تبدو صيحةُ "طوبى للفقراء"، على مثل ما طالما بدَتْ عليه، مَهْزَلةً شنيعةً، بل تغدو نشيدَ شُكْرِ الأسرةِ البَشريّة المُتَحرِّرَة (١٩٦٥).

الرغبة في الحياة

ما أَسهلَ الرَّغبةَ في الحياة! فالغريزةُ كفيلةٌ بها.

ولكن، من أَجْل المُضيِّ قُدُمًا في هذه الرَّغبة، بعد أَن تنتفي، دونَها، جميعُ الموانع، لا بدَّ من شيءٍ آخَر.

لا بُدَّ من تَعَلُّم المحبَّة، ومن الموافقة على تعلُّمها، وكم هذه الضَّرورةُ تختلف عن الغريزة، فهي تقتضي الحُرِّيَّة، ومن الحُرِّيَّات أَقصاها، أَي حُرِّيَّةَ التطوُّع لبَذْل الذَّات، وحُرِّيَةَ الالتزام.

إِنّها مثلُ مَوْتٍ، مثل جنونٍ، مثلُ وِلادة، خارج الذَّات، لما هو أَكثرُ من الذّات: ولادةٌ جديدةٌ مُتَحرِّرةٌ، جوْهريًّا، من القيود (مع أَنَّها تَدَعُ لكلِّ فردٍ، وحتّى لحظة موتِه الآخَر، وَعْيَه المُضْني لكلِّ أَوهانه)...

ولادةٌ على الجميع، وعلى كلِّ شيء، بحيثُ لا يعودُ المرءُ، هو ذاتُه، وحيدًا، ولا هو فَحَسْبُ، بل يُصبح ذاتًا مُمتلئَةً لأَنّها، أَخيرًا، لا وُجودَ لها إِلاّ بصفتها حضورًا، في الآخرين، لما لا يُحيط به وصْفٌ، لأَنّه، هو، كلُّ قيمةٍ، القيمةُ الوحيدة.

حضورٌ، لدى الآخرين (رغم جميع العثرات، والكبوات، ونوبات تمنّي الهُروب) للأَزَليّ، الَّذي، عندما شاءَ أَن يُعرِّف ذاتَه، عرَّفَها بأَنَّه حُبٌّ، وعندما شاءَ أَن يُريَ نفسَه، أَظهَرَ أَنَّهُ "رحمة"، في ذاته، وفي كلِّ من يقتحمهُم عندما يُشرعون له ذواتِهم.

فقط بفضل هذه الرَّغْبةِ في المحبَّة، يتسنّى الظَّفَرُ بالفَرَحِ، والسَّلامِ، والإِشعاعِ، التي تُمكِّن من الرَّغبةِ في الحياة،

بفضل الإِرادة المستسلمة، طَوْعًا، الَّتي تُدعى حُبًّا، وفي مواجهة كُلِّ أَلَمٍ، بحيثُ تُدعى رحمةً، إِن لم يكن بدٌّ من التَّمتَمة بكلمات...

هذا ما يتعذَّرُ وصفُه، ولا تمكن معرفتُه إلا بعَيْشِه، هذا ما تتجلّى عُذوبتُه، لقاءَ ثمن الذَّات بأَكملها، الَّتي يَتَجدَّدُ بذْلُها، طَوْعًا، كُلَّ يومٍ.

مُبرِّر العَيْش هو الوِلادةُ على الحُبّ، وعلى تعلُّم معرفته والرَّغبة فيه (١٩٦٥).

الصَّداقة

ما من صداقةٍ لا تُكلِّف، وقد تُكلِّفُ الكثير، عاجلاً أَو آجلاً، وحينئذ، فقط تُثبت صدْقَها، وكونها علامةً، ومنبعًا لحياةٍ أوفرَ امتلاءً للذَّات وللمحيط، أَو تثبت أَنَّها غِشٌّ، وطريقةٌ زَرِيَّةٌ لمداهنة الذَّات، وللتَّمتّع بلذَّاتٍ عقيمةٍ، وخِداعٌ للنَّفس وللآخرين.

الصَّداقةُ المتينة، وهي غيرُ المَيْلِ الطَّبيعيّ، هي ما يُفعم قلوبَ الَّذين يُحقّقون معًا، بمثابرةٍ، أُمورًا جميلةً وصعبةً، ويكتشفون، معًا، وَهنَ كُلٍّ منهم، وواقعًا لا يمكن وصفه بكلماتٍ، يتجلّى داخلَ كُلِّ فَرْدٍ وخارجَه، ويجعلُهم بمُجرَّدِ نَظَرهم بعضهم إِلى بعض، يُدركون أَنّهم شُركاء، ويُسبغ معنًى وقيمةً مُطلقَيْن على ما يعيشون.

ولكنَّ هذا الواقع لا يتحقَّق إِلاَّ عبْرَ التَجرُّد،

فالصَّداقة تحطيمُ الغُرور وتمزيقُه، الغُرورِ الفِعْليِّ أَو الظاهر، الَّذي يجهدُ كلُّ واحدٍ في إِبدائه، مُتَدرِّعًا به في علاقاته مع الآخرين.

فأَنا لستُ صديقًا، حقًّا، إِن أَنا عزمتُ على أَن أُعطِيَ وأَخْدُمَ فَحَسْب، بصفة حامٍ أَو مُحْسِن، وإِن لم أكنْ قادرًا، في آنٍ واحدٍ، على أَن أَتلقّى وأَعترفَ بحاجتي إِلى التلقّي للتَّمكُّن من الخدْمَة حقًّا.

ولا فُسْحَةَ للصَّداقة، أَوْ للحُبِّ الصّادق، إِلاَّ حيثُ يتحقَّقُ روحُ الفَقْر، وفقًا للحكمة الإِنجيليَّة، أَيْ حيثُ يتحقَّقُ تحوُّلٌ جَوْهَريٌّ عن الانكفاء على الذَّات.

وطالما أَبَيْنا الاعترافَ الصَّريح بهذا الضَّرب من الفَقْر، وتشبَّثْنا بالغُرور، بقينا تافهين، بكُلِّ ما تحمل هذه الصِّفةُ من إِرهاق. ولو نحن كنّا كذلك، فلن يخفى الأَمرُ عن المحيطين بنا، حتّى لو كان وضعُنا الاجتماعيُّ يحملهم على تَصنّع نوعٍ من التَّقدير لنا.

فما عسى العالَم البشريّ أَن يرجو، في عَطَشه الجمِّ إِلى اللاَّنهائيِّ، من قَوْمٍ مغرورين غرورًا يدعو للسُّخرية، وبالتالي لا يحملون أَيّة علامةٍ على ما يتجاوزُ الذَّاتَ.

فالعالَم البَشَريّ لا يتنفَّسُ، ولا يُطيقُ العَيْشَ، ولا يمضي قدُمًا في نضاله، ما لم يَقْطُنْهُ اليقينُ بأَنّه ماضٍ للقاء الامتلاء، الَّذي يحملُ دعوتَه، ودمعَتَه الَّتي لا تمّحي، محفورتَيْن في أَعماقه.

ومن ثَمَّ فالعالَم لا يُقدِّر، حقًّا، سوى أُولئك الَّذين يوفِّرون له مِنْعةً ورجاءً لأَنّهم بمثال صداقتهم المُعاشة على هذا النَّحو، يُدَعِّمون لديه ذلك اليقين، ولأَنّهم يحملون علاماتٍ على ما يتخطّى الواقعَ الماثل، وما يُؤَكِّد أَنَّ الله حُبٌّ.

إنّ حَرَكة "عمّاوس"، منذُ نشأتها، تضرب جذورَها في صداقةٍ مُعاشةٍ على هذا النَّحو.

إنّها مدرسةٌ تقتضي الكثيرَ، ولا رَيْبَ أَنَّ، في ذلك، التفسيرَ الوحيدَ للُّغز الَّذي يُمثِّله، كُلَّ يومٍ، التباينُ بين ضآلة الوسائل والأَشخاص الَّتي تُكوِّن "عمّاوس"، وبلاغة الآثار الّتي تُحدثها، في أَعماقِ قلوبِ الكثيرين، داخلَ الحركة، وخارجَها (١٩٧٣).

المواجهة

عندما يفقدُ المرءُ، أَو عندما هو يَهَبُ، تقريبًا، كلَّ شيءٍ، ويُؤْنس أنّه أَمسى مُعاقًا إعاقةً ذريعةً، لا يبقى أَمامه سوى نمطَين مُحتَمَلَيْن من السُّلوك:

فإمَّا أَن ينكفئَ على ذاته، ويَنْغلق دون الآخرين، ودونَ كلِّ شَيْءٍ، وينتابه شعورٌ بالتَّلاشي، ثمَّ لا يلبَثُ أَن يَمْتَلِئ مرارةً وقُنوطاً،

وإمّا، على نقيض ما سلَف، يتحقَّقُ لديه، وبحجم التَّجَرُّد الَّذي انتهى إليه، انفتاحٌ، ونوعٌ من الشفافية، وتفهّمٌ حَدْسيٌّ مُفْعَمٌ اندفاعًا لكُلِّ مآسي الآخرين.

ولا يتمُّ ذلك إلاّ بمقارعة الذَّات، فلكُلِّ فرْدٍ طباعُه، ونقائصُه، وأَوْهانُه... إنّما حَسْبُه أَلاّ يهرُبَ من المواجهة.

ولكن، لا يستطيع أَحدٌ، حقًّا، بلوغَ هذا الهَدَف بمُفرده. فالانفتاحُ على الآخرين والترحيبُ بهم، إنّما هما نتيجةُ لقاء، قد يكون لقاءَ جماعة أَشخاصٍ مُتفاهمين حولَ الجوهريّ، وتجمعهم رغبةٌ مشتركةٌ في الخدمة؛ وقد يكون لقاءً بالمُطلَق، مُغلَّفًا بالأسرار، غيرَ مرئيٍّ، أَوّل الأَمر، مُنْبجسًا من أَعماق الذَّات، يعلو صوتُه، بغتةً، ويدفَع صاحبَه مثل ريحٍ تنشب في شراعٍ مُشْرَعٍ، أَو مثل صديقٍ يقول: "هل تريد؟" ونجيبه: "أَجل، بالتأكيد". بعضُهم يُسمّونَه الأَزَليَّ الَّذي هو حُبٌّ، وبعضُهم لا يُطلقون عليه أَيَّ اسمٍ، ولكنَّهم، هم أَيضاً يُحبّونه، وينقادون له.

على كلّ من يبتغي أَن يحيا مِلْء حياته، ومهما كانت البحبوحة الَّتي يتَمتّع بها، أَن يسلُك مثلَ هذا الدَّرب، عاجلاً أَم آجلاً، فهذا النَّمَط من الاغتناء والامتلاء، الَّذي، وحدَه، يُحَطِّم تحطيمًا حيًّا، جميعَ الحُدود الإنسانيَّة، حُدود الأَرقام، والوقت، والمدى، والوَهْم، لا يمكن بلوغه إلاَّ عن طريق التَّجرُّد.

لا تخلو حياةُ إنسانٍ من ساعات أَلَمٍ قد تكون حاسمةً: فإمَّا هي تغدو عامل انغلاقٍ وقَسْوة، وبالتَّالي منبعَ بُؤْسٍ حقيقيٍّ، وإمّا تكونُ سانحةً تُنتَهَز في سبيل الانفتاح، ومزيدٍ من العَطْف.

ولو لم يوجَد، كلِّ يومٍ، هنا وهناك، وفي كُلِّ مكانٍ، بَشَرٌ ينفتحون على هذا النَّحو، لأَنَّهم أَبَوْا أَن يختنقوا، لغدا العالَم لا يُطاق. فهؤُلاء ينهجون دَرْبًا مُشرَعًا ومُضيئًا حيثُ تستطيع الجموعُ السَّيْرَ، مُتَعثِّرةً أَحيانا، ولكن واثقةً أَبدًا.

وبفضل هؤُلاء تُكتَب اليقظةُ لِلسَّوَادِ الأَعظم، أَي للكثيرين ممَّن، وإِن لم يكونوا سيِّئين، غير أَنّ همومَهم الشخصيَّة قد أعمت بصيرتَهم؛ وعندما يستيقظون يَعون واجبَ الأقوياءَ تجاهَ الضُّعفاء، وينبرون لما ينطوي عليه هذا الواجبُ من تحدٍّ (١٩٦٩).

رسالة إلى الشباب

أَيُّها الشباب، تعلَّموا أَن تكونوا سادةَ أَنفسكم.

بِوُسْعِكُمْ أَن تكونوا أَسعدَ الخَلْق، كما بِوُسْعِكُمْ أَن تكونوا أَتعسَه، ولذلك أَنتم جديرون بأن تُحسَدوا.

اكتسبوا الكفاءات، ولْيكنْ لديكم اندفاعُ الهوى، وتمرَّسوا من فَرْض سيادتكم على ذواتكم، لكي تكونَ لكم جدوى، وتنهضوا إلى مستوى هذه المُهمَّةِ الرَّائعةِ الماثلة أَمامكم، والَّتي بها تعتلنُ لكم عظَمةُ الإنسان الحقَّة.

وقولوا لأَنفسكم، أَنتم الشَّباب الّذين سيُباشرون قريبًا مسؤُوليّاتِ الرّجال، مسؤُوليَّات مُواطني العالَم، إنّكم ستغدون أَسعدَ جيلٍ، أو أَتعس جيلٍ وُجد حتّى الآن.

الويلُ لكم، إِن أَنتم ولَجْتُم الحياةَ، حاملين هذه الخاطرةَ الحمقاء: "أَنا، أَنا، أَنا، أُريد أَن أكون سعيدًا؛ لا أُريد بالآخرين سوءًا. أَنا لستُ شرِّيرًا، ولكنّي لا أُبَالي بالآخرين. المُهمّ أَنا: مهنتي، نجاحي، تقدُّمي، ثروتي، لذَّتي"، الويل لكم! فالانقلاباتُ العَنيفة النَّاشبةُ حاليًّا بالعالَم، والحمد لله، ستُحطِّم، لا محالةَ، في السَّنوات القادمة، جميعَ الَّذين تحدوهم الحماقة إِلى جعل "أَناهم" غايتَهم الوحيدة؛

أَقول: الحمد لله، راجيًا أَن يفتح هذا الواقعُ عيونَهم، قبلَ أَن يُبدّدوا، عَبَثًا، هذا الوقتَ الزّهيد، هذه السّنين القصيرة... فما وَزْنُ الخمسين أَو الثمانين سنةً الَّتي تُفْسَح لكُلٍّ منّا كي يتعلَّم الحُبَّ؟!

ولكن، إِن أَنتم ولَجْتم الحياةَ، أَيُّها الشباب، عاقدين العَزْمَ على أَن تسعدوا، لأَجل مجد الله – ويَحِقّ لكم أَن تكونوا سُعَداء – إِن ولَجْتُم الحياةَ بذكائكم، ذلك الذَّكاء الَّذي يبدأ ينقلب "حكمةً"، عندما يَشْرَع المرءُ "يتذَوَّق كم المحبَّةُ طيِّبة"،

إِن ولَجْتُم الحياةَ، وأَنتم عازمون على أَن تسعدوا بالخدْمة المُتَميِّزةِ بالكفاءَة، والأَهليّة والجدوى، في سبيل سعادة الجميع، حينئذٍ ستستأهلون أَن تُحسَدوا لكونكم في العــشرين من العمر.

ستستأْهلون أَن تُحسَدوا لأَنَّكم تلجون الحياةَ، في حِقْبةٍ تُوفِّر لكم، إِن أَنتم تعاضَــدْتم جميعًا، من الوسائل، ما لم يتوفَّرْ مثلُه، قطُّ، من أَجل تحقيق سعادة الجميع، وتفجير فَرَح البَشرَ، بلقائهم لا "بالإِله المزيّف" الَّذي مات، بل بوجه الله الأَزَليِّ الّذي هو حُبٌّ، وبحُبِّــه الحقِّ المُتَأَلِّق.

معالجة آفات الشباب

لن تُجديَ مُضاعفةُ أَعداد الأَطبَّاءِ النَّفْسيِّين، ورجالِ الأَمن، في معالجة فِئَةِ الــشَّبيبة المُتفاقمة أعدادُها، والماضيةِ إغراقًا في الغِوَايَةِ والضّياع.

بل إِنَّ علاجَها يكمُن في أَن يُفسَح لها مجالُ المُهمَّات القاسية والحقيقيّة، الَّتي، فيها، وحدَها، يتسنَّى بلوغ القِيم الَّتي تُبرِّرُ الخُضوع لشرائع الحياة الشَّخصيَّةِ والاجتماعيَّة.

وعلاجُها يكْمُن، أَيضاً، في الدَّعوةِ إِلى النِّضال من أَجل تحرير ضحايا جميع أَصنافِ البُؤْس، وفي الفُرصَة المُتاحة للاستجابة لتلك الدَّعوة.

فثمَّة الدَّليلُ الوحيد الَّذي يؤَكِّد أَنّ الشَّريعةَ تستأْهل أَن تُطاع، وأَنّ كيان اللهِ هو رجاءٌ واقعيٌّ، وليسَ دَجَلاً.

أَجل، إِن كان هناكَ العديدُ من الشُبّان الَّذينَ يرفُضون، ولو باللُّجُوءِ إِلى العُنْف أَحيانًــا، الخضوعَ لشرائع العالَم، الرّافض شريعةَ الحُبّ، فليس هؤُلاء الشُّبَّانُ هــم الَّــذين يتَّــصفون بالحمق، بل أولئك البالِغون الّذينَ توهَّموا أَنَّ بوسعهم، ومن غير أَن يُسهموا، ســريعًا، فــي تدمير كلِّ شيءٍ، استبدالَ مقتضيات الحُبِّ الصَّارمة، بتعديلاتٍ تافهةٍ، وببعض مظاهر اللّياقة.

حيالَ سَيْل الخراب هنا، وعمى البصيرة هنالك، أَيُّ هَدَفٍ يُمكن أَن يكرِّس له المرءُ، كُلَّ يومٍ، بل كلَّ ساعةٍ من حياته، سوى الشهادة، عمليًّا، للفَرَح الحقّ، والخلاصيِّ الوحيد، الكامن في أَن يَخْدُمَ، قَبلَ نفسِه، من يتأَلَّمُ أَكثر منه، وفضلاً عن الشهادة، الجُهْــد فــي أَن يُصبح هذا الواقع روح الجماعة، حيثُ كلُّ طفولةٍ جديدة، منذُ ميلادهــا، وســحابةَ فتــرة مراهقتها، ينبغي أَن تتصدّى لدعوتها كشريكةٍ للحبّ الأَزَليّ.

وليسَ لأَيّ مُجتَمعٍ، في النِّهاية، مُبرِّرُ وجودٍ ســوى تلقــين أَبنائــه هــذه الحقيقــة (١٩٦٠).

إلى الشباب

– « عليكم أَن تُرسِّخوا في أَبنائِكم، بكلامِكُم، وخاصَّةً بنَمَطِ سلوككم، القناعةَ بأَنَّ ما سيرثونه من امتيازات، من شأْنه أَن يجعلَ منهم لُصوصاً، إِن هم لم يتأهَّبوا لوَفاء الدَّيْن الَّذي تُمثِّلُه هذه الامتيازاتُ، بخدماتٍ فعليّةٍ، يُسدونَها، سحابةَ حياتهم، إِلى جماعات إِخوتهم الأَكثر بُؤْسًا » (١٩٥١).

– « احذروا من أَن يُصبِحَ أَبناؤُكم وُحوشًا صغارًا، يجهلون كُلَّ شيء عن الشَّعب الَّذي يعيشون بين ظَهْرانيه، ولم يلتقوا، يومًا، أَطفالاً يَعْدِلونَهم كرامةً، ولكنَّهم يعيشون في ظروف يأنف فلاّحٌ أَن يدَع خنازيرَه تعيش في مثلها. وإِن هم باتوا، غدًا، بلا قلْبٍ، فما ذلك لأَنَّهم أَشرارٌ، بلْ لأَنَّكم لم تتحلَّوْا بالفَهْم الكافي كي تُطلعوهم على حقيقةِ الواقع » (من رسالةٍ إِلى النوّاب ١٩٩٢).

– « إِنني أُدْرِكُ قَلَق الشَّباب الَّذين يشهدون بالغين قد فَقَدوا معنى الحياة، لا يَسعُهم أَن يستمدُّوا منهم سوى الرِّيَب » (الوصية ١٩٩٤).

– « (أَيّها الشباب) اعملوا، واعملوا! أَيًّا كان الاختصاصُ الذي تُعدّونه، اكتسبوا من الكفاءَة ما يضمنُ لكم اهتمامَ النَّاس وثقتَهم. فهذا هو الشَّرطُ الوحيدُ لكي يَحمِلَ الآخرون، على محمل الجِدّ، المعارفَ والحقائق الَّتي سيتعيَّن عليكم اقتسامُها معهم » (١٩٩٤).

– « إِن كنتَ الأَفضل، صُدِّقتَ، فيما لو كنتَ نجّارًا يصنع موادَّ سيِّئةً، أَو طبيبًا فاشلاً، فحتّى لو قلتَ للجميع حقائقَ جوْهريَّةً، لن يَحمِلَ أَحدٌ أَقوالك مَحملَ الجدّ. يتحتَّم عليك، إِذنْ، ارتقاءُ أَسمى ذُروة يُمكنُك بلوغُها، لا لكي تُصبح أَوفر غنًى، أَو لتَسحق زميلاً، بل لكي تُسعِدَ المرأَةَ الَّتي تُحبُّ، وتُسعِدَ أَبناءَك، وفضلاً عن ذلك، لكي تنعم بفَيْضِ السَّعادة المتمثِّل في خِدْمةِ سعادة الآخرين ».

كن طيِّبًا

كن طيِّبًا وامقُت العُجْبَ.

فالعُجْبُ الَّذي يجعلُ منكَ أَحمقَ مملوءًا بذاته، لن يلبَثَ أَن يجعلَ منك كائنًا مملوءًا بُغْضاً؛

أُمقُت الغرور، لأَنّه، إِذا ما استسلمتَ له، لن يلبث أن يُحوِّلكَ إِلى قاتلٍ لإِخوتك، حتّى وإِن أَنت لم تبتغِ ذلك، قاتلاً لحياتِهم ولقلوبهم، ثُمَّ هو يجعَلُ منك إِنسانًا مُدانًا،

والمُدان إنسانٌ وَحيدٌ، فالغُرور يُولِّد عُزلةً محتومةً، حمقاءَ، حقيرةً، زريّةً، ومن البَشاعة بحيثُ يَقفُ المرءُ، حيالَها، صامتًا، واجمًا، لأنّها عُزْلَةُ من ظنَّ نفسَه كلَّ شيءٍ، وهو لا شَيْء، لأَنّه أَبى قبولَ وسيلة الوجود الوحيدة الحقيقيّة، وهي الحُبّ، الّذي هو كيانُ الكائن الأَزَليِّ نفسه.

أَن يكون المرءُ طَيِّبًا غيرَ مُغْترٍّ بذاته، يعني أَنَّهُ كائنٌ حقًّا.

كلُّ كائنٍ بَشَريٍّ، بمجرَّد أَنَّه وُلِد، ولو أَنّه لم يكن يملك حيلةً في إِرادة الحياة أَو في رفضها، يتطلّع إِلى مِلْءِ الوُجود، وتَحْطِيم القُيود، إِلى المعرفة والقدرة، والاكتمال، وبلوغ الفَرَح، وانتباذ كُلِّ أَلَمٍ، وبالإِجمال يتطلّعُ ببساطةٍ، وبكُلّ رغبةٍ، إِلى العَيْش بلا حدود.

وحالما يكبر بحيثُ يَشرَع يُصبح واعيًا ومسؤُولا، ولو جزئيًّا، عن خياراته، يُشرَع أَمامَه طريقان، نَمَطان من الالتزام، وطريقتا وجودٍ. ودوريًّا، على مدى سنوات مسيرته الأَرضيّة، غالبًا ما يجدُ نفسَه في ملتقى طُرُق ذلك الاختيار؛ وبخياراته المُتعاقبة، حتّى اللّحظة الأَخيرة، يتعلّق مصيره.

أَحدُ الطَّريقَيْن يدعوه إِلى الاكتمال بالأَخذ، ولو نهبًا (وأَيُّ شأنٍ للآخرين؟) كما لو أَنّه، وحدَه، كافٍ؛ في حين يدعوه الطَّريقُ الآخر إِلى تَأْكيد كيانه، بإِعطاءِ ذاته، وإِلى تحقيق مصيره، في مشاركةٍ شاملةٍ، بخدمته، قبلَ ذاته، كُلَّ من يتأَلَّم أكثر منه.

طريقان: أَحدُهما يدعو الإِنسانَ إِلى أَن ينفيَ عن كُلِّ سواه أَيّةَ قيمةٍ حقيقيَّةٍ، ساميةٍ، مُشعَّةٍ في الجميع، قيمةٍ ينبغي أَن تُستقبَل، وتُسمَع، وتُحبَّ في الجميع، فيما الطَّريقُ الآخر يدعوه إِلى أَن يكون مُتَنبِّهًا للآخرين، مستضيفًا لتلك الذَّرَّة من الرِّسالة اللاّنهائيَّة، والمتجلِّية في كلِّ إِنسانٍ، كما في الذّات. العُجْبُ أَوْ الحُبّ: لا بُدَّ من العودة، باطِّرادٍ، إِلى هذا الخيار. ولا يمكن لأَحدهما أَن يتمّ إِلاّ بإِنكار الآخر، أَوْ الاستخفاف به. فالمغرورُ يكفُرُ بالحبّ، ولَيْتَه يستطيع سَبْرَ الأَضرار الّتي يَنْثُرُها حيثُما مرَّ؛ فعلَّهُ، قبلَ فوات الأَوان، أَن يتوب، ويُعوِّض، بأَن يُصبح، بكلِّ كيانه، وبكلِّ أَعماله، شاهدًا يفضح كلَّ ما ينطوي عليه الغُرورُ من إِفكٍ، كفْرٍ، وجرائمِ قَتْل.

وقد يكون الغُرور فرديًّا، مُغرقًا في البشاعة، وفي عزلةٍ تامَّة، ولكنَّه، وغالبًا ما يكون جماعيًّا، بل قَبَليًّا، وهو، حينئذٍ، يغدو ماكرًا مكرًا مُخيفًا، يتستّر بحيلةٍ تُموّهُه، وتُواريه عن الأَنظار؛ إِذ إِنَّ كلَّ فردٍ يزعم أَنّه يُحبّ، لأَنَّه على أُهبةٍ لبذْل ذاته من أَجل الأَقربين إليه، ولمشاركتهم مشاقَّهم؛ ولكنَّ بذلَه ومشاركتَه مقصوران على الأَقربين، وفي

حدود. أمّا الآخرون فلا يأبه بهم، ويتجاهلهم، ولا يلبثُ غرورُ قبيلته أن يدفعه إلى الرَّغبة في ابتلاعهم.

الحبُّ كلِّيٌّ يأبى أيَّةَ حُدود، لأنَّه لا يُطيق حَدًّا... الحُبُّ بطريقته، شاملٌ، وإلاّ فهو تشويهٌ، وإن هو كان كذلك تعثَّر كلُّ شَيْءٍ.

وأيًّا كان موقعُ الغرور، فهو، بإنكاره الشُّموليَّة، ينقطع عن نَبعْ الكائن الأَبديّ، ويستدعي القَتْل، ويولِّدُ العُزلةَ المقرونةَ بالازدراء المتبادَل بين المتواطئين الَّذين استكانوا إلى إنكار دعوَتهم الإنسانيّة...

اختيارُ العَطْف أو الزّوال، ذلك هو، لجيل البسيطة الرَّاهن، أكثر ممّا كان لأيّ جيلٍ نعرفُ تاريخَه، الخيارُ اللاّزب.

كثيرون هم الَّذين يهدرون هذه الفُرصة. ولكن، في كلِّ يومٍ، وفي كلّ مكانٍ، ثمَّةَ من يتمتَّعون بقَدْرٍ كافٍ من الفَهْم والإرادة كي يغتنموها.

فلنكن، بعونِ الله، من هؤلاء، فهم وحدَهم، اكتشفوا سرَّ الحياة.

المدرسة تتجاوز المدرسة

كم تتجاوزُ المدرسةُ المدرسةَ!

أيْ، كم يَتَعيَّنُ على المُعلِّمين، كي يكونوا مُعلِّمين صالحين، أن يَعُوا باستمرارٍ، أنَّ مُهمَّتهم تتخطَّى حَشْوَ رؤُوس تلامذَتهم بالمعلومات؛ وكم يتعيَّن على الجميع أن يُدركوا أنَّ المعلِّمين، مهما بلغوا من التفوُّق في أداءِ مَهامِّهم، فالطُّلاّب سيُمسون، غدًا، فاشلين، إن أثبتتْ لهم، إثْرَ مُغادرتهم المدرسة، الدُّروسُ المُستمرَّةُ والبليغةُ التَّأْثير، الَّتي يتلقَّونها من الأُسرة والشارع، ووسائل الإعلام، ومن سُلوك "الكبار"، أنَّها، جميعها، إنكارٌ للمُثُل الَّتي جَهِدَت المدرسةُ في تلقينهم إيَّاها، بل ازدراءٌ لهذه المُثُل، وهُزْءٌ بها.

أليْست المدرسةُ الأُولى، والأَكثرُ استمرارًا لكُلِّ طفلٍ، هي حَرَم المنزل، حيثُ تعيشُ الأُسرة؟

إذنْ، والحالةُ هذه، ألسنا حمقى بإحجامنا عن تقديم كُلِّ التَّضحيات اللاّزمة لإيواء الأُسَر، بقَدْر ما نُضحّي من أَجل بناءِ مدارس؟

الأُسرة تحتاج إلى المدرسة. ولكنّ المدرسةَ، مهما بلغَتْ من مراقي الكمال، ألا تظلُّ باطلةً، للسَّوادِ الأعظمِ من الطُّلاّب، إن كان مأواهم كوخًا تهوي فيه النُّفوسُ والأجسادُ إلى الانحطاط؟

فليُطلِق المعلِّمون والآباءُ صيحةَ إنذارٍ واحدةً، مُذكِّرين الحكومةَ بأَنَّ للمدارس والمنازل خُطورةً متكافئةً، وأَنَّ لكُلٍّ منها الأوْلَويّة، عندما يحين أجَلُ توزيع موارد الأمَّة العامَّة.

إنَّ هدفَ المدرسة لا ينحصرُ في تعليم ماهيَّة الأَشياء، بَلْ يرمي إلى فَتْح الأَذهان على ماهيَّة كياننا البَشَريِّ المُشترَك، الّذي، وإن كان ماثلاً بين الأَشيَاء، يتخطّاها، ويُسبغ عليها معنًى، بالقياس إلى شخصيَّة كُلِّ فَرْدٍ، وإلى الشَّراكة الَّتي تجمَعُ البَشَرَ أَجمعين، وإلى نشْدان علاقةِ الإنسان بالحقيقة القُصوى، الَّتي تتخطَّاه هو نفسَه.

وفضلاً عن ذلك، هل نحن نستقصي، بالقَدْر الكافي، ما تُثيره المدرسةُ من هوًى بالنّفوس، بالإِضافة إلى ما توفّرُه من معرفة؟

أَوَلا يُمكن تقييم حضارةٍ ما بما تبثُّه في صدور الشَّبيبة من دواعي الغَضَب، بفضل ما تحيطهُم به من تربية!

لا الغَضَبُ لأَتفه الأَسباب، ولا الغَضَب دفاعًا عن الذَّات، بل الغَضَبُ حيالَ تدنيس خير الجميع المُتَمثِّل في الاهتمام الدَّائمِ بتحرير جميع الَّذين تسحقُهم، ظُلمًا، شتّى عوامل الاستعباد، بدءًا بالأَقرب كالأُسرة والمدينة والوطن، ثمّ، امتدادًا، تدريجيًّا، إلى كامل العالَم البَشَريِّ.

وأَيَّةُ قيمةٍ لمدرسةٍ لا تُشرع القلوبَ على شتّى صنوف الجوع والعَطَش، وعلى إرادة خدمة الأَكثر تألُّمًا في المقام الأَوّل، وعلى ما يمكن تسميتُه بغَضَب الحُبّ؟ (١٩٥٦).

بؤسٌ وحقارةٌ

اللَّبْسُ قائمٌ دائمًا بين البُؤْس والحقارة.

ولئن أَفلَحَ البعض، هنا أَو هنالك، في تبديد شيءٍ منه، إلاّ أَنَّه لا ينفكُّ يولَدُ من جديدٍ، طالما ظلَّت مُتَأَجِّجةً الرَّغبةُ الفطريَّةُ لدى النَّاس السُّعَداء في أَن يتحرَّروا من كُلِّ تأْنيب ضَمير، ومن كُلِّ دعْوةٍ إلى بَذْلِ الذَّاتِ، ومن كُلِّ التزامٍ باقتسام آلام الآخرين.

من كُلِّ مكانٍ، عبرَ البسيطة كُلِّها تُتمْتِم، أَو تجأَرُ الكذبةُ الجسيمة البَشعة: "إن هو تألَّمَ، فلأنّه مُذْنبٌ، وإن كان فقيرًا فلأَنَّه خاطئٌ، ولئن كنتُ غَنيًّا ومُزدهرًا، فلأَنّني أَسْتأْهِل بركاتِ الله...".

على هذا النَّحو كانَ يُخاطبُ، قديمًا، الوُجَهاءُ الواثقون والمزدهون بذواتهم، زميلَهم السَّابق، أَيّوب.

وربَّما كان ذاك مَكْمَنَ الشرِّ الجَوْهريّ لقيمة كُلِّ نَفْسٍ أَو لزَيْفِها، وفقًا لرغبتها الصَّادقة أَو لإِحجامها عن الجأْر بالحقيقة، الَّتي من شأنها، وحدَها، إِزالةُ الجمِّ من المُستَنْقَعات الَّتي تفوح بروائح الرِّئاء والجُبْن، والجَهْرُ بتلك الحقيقة، مرارًا وتكرارًا، وإِعادةُ التَّأكيد باستمرارٍ، بالأَفعال أكثر منها بالأَقوال، على المَقُولةِ الصَّحيحة المُنْقِذة.

« الأَلم ليسَ خطيئةً، ولا قيمةَ إلاّ للحُبِّ. وفي البشريّة الحقيقيَّة، كما هي في واقعها المُؤْسي، قد يكون الكثيرُ من الآلام الخالية من الحُبّ، ولكن لا يوجد، ولا يُمكن أَن يوجَد حُبٌّ بلا أَلَم ».

ليست الحقارة في البُكاء، بل في الاكتفاء بالذَّات، وحيدةً، أَو مع فئةٍ ضئيلةٍ من الخاصَّة. هذا الاكتفاء، إِنْ هو إلاّ تفاهةٌ زَرِيَّةٌ منكفئةٌ على ذاتها. والحقارةُ ليست البُؤْس، بل الجهلُ المقصودُ، والازدراءُ، والرَّفض الجبان لمُشاركة الآخرين دموعَهم وأَفراحَهم، تلك كُلّها هي الحقارة.

وحماقةُ البَشَر وبشاعتُهم القُصويان تكمنان في الظَّنّ، أَو في التَّظاهر بالظَّنّ أَنّ السَّعادة، في معزلٍ عن الآخرين ممكنةٌ.

ففي هذا الظَّنّ يكمنُ الفَشَلُ الأَكيد، الفَشَلُ المُغرِقُ في البشاعة، لكلِّ أَملٍ في فَرَحٍ حقٍّ.

قد يُحاول السُّرورُ الإِيهامَ بوجوده، بأَلف مَظْهرٍ مُصطَنَعٍ زائفٍ، غير أَنّ نقرة إِصبعٍ واحدةٍ، خليقةٌ بتبديدها جميعها. فكلُّ القهقهات الرنّانة، وكلُّ تظاهرات الوَقارِ المُعْجَبَ بذاته، لن تحلَّ، يومًا، مَحَلَّ مُجرَّد بسمة صافيةٍ من نفس عرفت أَن تنفتح، وتظَلَّ منفتحةً، على معاناة الآخرين، ولئن هي تعثَّرتْ تعثُّرًا ذَريعًا، ولكنَّها بقيتْ مُتعطِّشةً إِلى الصَّفح والتَّكفير.

قد يستطيع المرءُ، في الحياة، أَن يَغُشَّ في أُمورٍ كثيرةٍ، ولكن لا يَسَعُه الغِشّ في هذه الوقائع.

وإن كان ذلك يصِحّ في كُلّ فَرْدٍ، فهو صحيحٌ كذلك في علاقات الجماعات البشريَّة، وعلاقات الشُّعوب والأمم فيما بينها.

والويلُ للأمم الَّتي تزعم أَنَّ الازدهارَ والنَّجاح، وشتَّى أَصناف التفوُّق والامتيازات

هي، في المقام الأَوّل أَو الوحيد، مكافأَةٌ عادلةٌ عن فضائلها، وإن هي لم تُدرِكْ أَنّها، أَوّلاً، وفوقَ كُلِّ شيءٍ، امتيازاتٌ تَفْرِضُ واجباتٍ، لا واجب الوصاية على الآخرين، بل واجبَ مساندتهم على بلوغ ملءِ حجمهم الإنسانيّ، ومؤازرتهم على نَيْل حقّهم الأَصيل في الجلوس على مائدةِ الأسرة الواحدة المُشترَكة، ظافرين باحترام الجميع، وبالتَّساوي معَهم.

والويلُ أَيضاً للشُّعوب والأُمَم المُهانة والمهضومة الحقوق الَّتي، لكيلا تقنَطَ من ذاتها ومن مُسْتَقْبَلِها، تَضَعُ كُلَّ أَملها في محاكاةٍ دنيئةٍ للرّذائل والحِيَل والجرائم الَّتي بها طالما استعبدَهم الأقوياءُ لِخدمة مصالحهم ونزواتهم.

إنَّهم، بذلك، قد يظفرون بحُرِّيَّتهم الخارجيّة، إذ لم يَحْدُثْ قطُّ أَن لم تنتصرْ مقاومةٌ شاملةٌ على جميع قُوى الأَمن، والجيوشِ الخارجيَّة.

ولكن ماذا عن حُرِّيَّتهم الحقّة، حرِّيَّتهم الداخليّة؟ الحُرِّيَّة الَّتي تُمكِّن، بعدَ النَّصر المادِّيِّ، من عَمَلٍ جماعيٍّ عادلٍ، لا يستبدل طُغاةً أَجانبَ، بطُغاةٍ وطنيِّين. وأَنّى لهم توفيرُ مثل هذه الحُرِّيَّة الَّتي ستموت قبلَ أَن ترى النُّورَ؟

يتعذَّر الخروجُ من هذه التَّناقضات، إن لم يُنتَهج دربٌ آخَر.

والسَّبيل هو الانتصار بعدوى العُنْف الَّذي يمارسُه المرءُ على ذاته، لا العنف الَّذي يُمارَس على الآخرين. فمن المعلوم أَنَّ العنفَ الممارَس على الغير، حتّى في سبيل قضيّةٍ عادلةٍ، يُخلّف لدى من يلجأُ إليه سُمًّا يتعذَّرُ الشِّفاءُ منه.

نادرونَ هم الَّذين يمتلكون، بالسَّليقة، الوعيَ والإدراكَ، والميلَ والقوَّة على الرَّغبة في انتهاج هذا الدَّرْب.

فذلك لا يُكتَسَب، غالبًا، إلاّ بَعْدَ لأْيٍ، وإِثْرَ كثيرٍ من الكَبَوات، وشَرْطَ امتلاك قلبٍ مُستقيم.

ولكن أَليس واجبُ كلّ إنسانٍ التطلّع إلى ذلك الهدف؟ لا إلى السَّلبيّة، بل إلى غَضَب الحُبِّ الَّذي لا يتصدّى للآخرين قبل أَن يُهذِّب نفسه، الَّذي لا يَطْرُدُ، بقسوة، تُجّارَ الهيكل، إلاّ بعد أَن يكون قد وطَّن العزمَ على عدم التماس "طغمات الملائكة"، غدًا، أَثناءَ التَّوقيف، وذُلِّ الآلام والموت على الصَّليب؛ ولم يبتغِ، في هذا العالَم، القضاءَ على المُذْنب، بل تحويلَه إلى الخير، ولا سحقَ الخاطئ، بل شفاءَه، ولا استبدالَ ظُلمِ الطَّاغي، بنَمَطٍ آخر من ظُلم الَّذين ظهروا عليه، بل الانتصارَ، بحرمان الذَّات، لكي تَقِلَّ معاناة الأَكثر حرمانًا، أَو يزول حرمانهم.

لا يجهلُ العالَم البَشريُّ "طريقة استعمال الحياة" السَّامية هذه، الَّتي شَهِد نماذجَ منها في جميع الحضارات، وفي سِيَر أَفرادٍ مثاليَّةٍ، بلغتْ ذُروة قمَّتها في إِنسانيّة يسوع، وتبيَّن، من خلالها، السِّراطَ القويم.

فعسى أَن يتحقَّق، كُلَّ يومٍ، هنا وهناك، في كُلٍّ منّا، شيءٌ من هذه الحقيقة، الّتي تعيد إِلى كُلِّ شيءٍ سلامتَه.

وعسى أَن نُؤثر، كُلَّ يومٍ، واحدًا فواحدًا، وجميعُنا معًا، كلَّ بُؤسٍ على أَدنى حقارةٍ.

وعسى أَن تستنير "عمّاوس"، وجامعو النّفايات فيها، وأَصدقاؤها ومُتَطوِّعوها في وَرَشات الإِنسان، كُلَّ يومٍ، بمزيدٍ من ذلك النُّور المُحْيي.

ولا رَيْبَ أَنّه سيكونُ من الأَفضل، لمن يرفُضون الجُهدَ في هذا السَّبيل، أَو الَّذين يأبَوْن احترامه، أَلاّ يحتفظوا بشيءٍ من اسم "عمّاوس"، فهذا الاسمُ لا معنى له سوى أَنّه "الاندفاع، في تخطٍّ لكُلِّ وَهْم" (شباط ١٩٥٨).

القضيّة الفلسطينيّة

ما هو ساطعٌ سُطوعَ شَمْسِ تلك البلاد، هو أَنَّ هنالك، منذُ ما يربو على عشرين سنةً، أكثر من مليونٍ ونصف المليون من البشر، قد طُردوا من حقولهم ومزارعهم. صحيحٌ أَنّهم، في الغالب، فُقَراء، ولكنّهم، إِذا ما توفّرتْ لهم وسائلُ العلم والمال، يتمتّعون بمثل كفاءة أَيّ أَحدٍ سواهم.

طُردوا، لماذا؟ بأيِّ ذَنْبٍ اقترفوه؟ وقد كانوا يعيشون على أَرضٍ صمدتْ طِوالَ قرون، أكثر من أَيّ أَرضٍ سواها، في وجه "اللاساميَّة".

وعندما اتَّضحت للدُّوَل الكبرى فظائعُ المعتقلات والمقابر الجماعيّة، أَثقلها وِقْر المسؤوليّة والخِزْي، لقناعتها بتحمُّل جزءٍ من جريرة ما أَدّى إِلى تلك العاقبة الوخيمة، وأَرادت أَن تغسِلَ نفسَها، ففعلتْ بفرضها الثَّمنَ الأَبهظَ على هؤلاء الصِّغار.

إِنّهم يعيشون تحت خيامٍ قد تكون قائظةَ الحرّ أَو صقيعيَّة القَرِّ، حسب الفصول، ويستطيعون، لو هم تسلَّقوا رابيةً، أَن يشهدوا منازلهم المُحرَّمةَ عليهم.

مئاتُ أُلوف الأَطفال الَّذين يبلغون الآن مبالغَ الرجال، قد وُلدوا هنا. ولمُعظمهم قد غدا الطَّعامُ لا يُطاق... ما لم يكن في سبيل الظَّفر بالقُوَّة اللاّزمة للنّضال من أَجل إِحلال العَدْل. أَولَم يكن ذلك متوقّعًا؟

إنّ إسرائيل، كدولةٍ، غالبًا ما تتذرَّع بالكتاب المُقدَّس لادّعاء حقِّها، ليسَ فقط بالاستناد إلى واقع أَنّ وطنَها كان قائمًا هناك، لعشرين قرنًا خلتْ. فلو أَخذتْ جميعُ أُمَم العالَم بهذه الحُجَّة التَّاريخيَّة فَحَسْبُ، لأَدّى ذلك إلى تهجير جميع الشُّعوب، إذ قد طالها جميعَها الغزوُ الأجنبيّ؛ بل أَيضاً لادّعاء حُجَّة سلطةٍ إلهيّة.

ولا مريةَ أَنّه، في أُمور الإيمان، كلُّ تفسيرٍ للكتاب المقدَّس تحدوه غايةٌ سياسيَّةٌ تُحوِّلُه عن هَدَفه الأَصيل المُتَمثِّل في التحوُّل الرُّوحيّ نحوَ الحُبِّ، تفسيرٌ غيرُ مقبولٍ، ومصدرٌ لضُروب من الشَّطَط المُنكَر.

ومن جهةٍ أُخرى، ما هو الإيمانُ في نَظَر سواد الإسرائيليّين؟... وإذا ما اعتُمدت هذه الحجّة، ألا يعني ذلك أَنّ جميع الحُدودِ الحاليَّة مُؤَقَّتَةٌ، وأَنّه يحقّ لجميع الجيران أَن يخشَوا الغَزْوَ؟

وأَخيرًا، أَيّ معيارٍ يحدّد "من هو يهوديٌّ"، بالقَدْر الكافي كي يكون له مكانٌ هنا؟ المهاترات، بهذا الشأْن، في إسرائيل، يوميَّةٌ. فهل يُؤخذُ الجنسُ إمامًا بقطع النَّظَر عن الدِّين؟ ولكن ما سيكون معيارُ الجنس، بعدَ كُلِّ ما طرأَ على اليهود من اختلاطٍ بأجناسٍ أُخرى؟ أَو يكون الإيمان إمامًا بقطع النظر عن الجنس؟ ولكن أَيُّ مستوى من الدّين، إذ إنّه يوجَد هنا، كما يوجد في كلِّ مكانٍ آخر، "متطرّفون" و"تقدُّميّون"، وشتّى المستويات المتوسِّطة بين أُولئك وهؤُلاء؟

إنّ مجموع هذه التَّناقضات والإبهامات يُهدِّد إسرائيل – الَّتي كانت تُعَدّ حتّى الآن ضحيّةَ العُنْصُريَّة النَّموذجيَّة – بانتهاج عنصريَّتها الخاصَّة، الَّتي ستجعلها عَزْلاء، حيالَ مظاهر اللاّساميّة المتجدِّدة...

لا بُدَّ لي أَن أَهتف لإخوتي اليهود هؤُلاء، الَّذين يحقّ لي أَن أُصارحهم، بعد أَن جازفتُ بحياتي في سبيلهم يومَ كانوا ضحايا: "إنَّكم صائرون إلى الانتحار!".

"إنّ الرأْيَ العامَّ الموالي لكم يتزعزع... العالَم يريد إنقاذ الضَّحايا، ولكنَّه لا يُحبّ، طويلاً، الضَّحيّة الَّتي تتحوّل جلاَّدًا.

"الوضعُ العنصريّ، أَو الحكم الدينيّ، مَقْضيٌّ عليهما بالزَّوال، أَينما وُجدا. فإيّاكم وهذا النَّهج الخاطئ.

"وسْطَ شبيبتكم، في قلب إسرائيل، يتعاظَم التَّيَّارُ الرَّافضُ للحرب الدائمة، والَّذي يتَّهم الحاكمين بالانغلاق على دبلوماسيّةٍ صَلِفةٍ، ترفُض كُلَّ اتّصالٍ وحوارٍ.

"قبلَ فوات الأَوان، أَصغوا إلى شبيبتكم الجديدة" (تموز ١٩٧٠).

تكامل الأَجيال

قد ثبُت، في كُلِّ وَقْتٍ، أَنّ ما من شيءٍ بَشَريٍّ قد تحَقَّقَ واكتملَ في معزلٍ عن تعايُشٍ جماعيٍّ، فطبيعةُ البَشَر ومصيرُهم يفرضان ذلك.

ولكن هل وُجدتْ، يومًا، حِقْبةٌ تجلّى فيها، على نحو ما هو يتجلّى في الوقت الرَّاهن بشتّى الأَساليب، وبوضوحٍ متناهٍ، هذا الواقعُ الَّذي يحمل في ذاته، فـي آنٍ واحـدٍ، كُـلَّ الحُدود المُبهمَة، وكلَّ الانفتاحات الرَّائعة على المُشاركة باللاّنهائيّ، الّتي هي من خصائص الحبّ؟...

حيالَ وَهَن الأَطفال، تحمل الفِطْرةُ البالغين على كَبْح قُوَّتهم وضبطِها تلقائيًّا، بحيـثُ يتعلّم "الكبار"، ما لم يكونوا وحوشًا، ذلك السُّلوكَ الحضاريَّ الذي يجعل الأَقوى خادِمًا لمن هو أَضعف منه.

ولكن لا أَحَد يَجْهَل أَنَّ المراهِقَ هو غيرُ البالغ.

فإِزاءَ ضُعْفِ الصِّغار، كلُّ ما في المراهِق يدفعه إِلى إِبرازِ تفوُّقه، لا إِلى اسـتخدامه في سبيل الخِدْمة...

إِنّ الطبيعةَ لا تحدو المراهِقَ إِلى السَّيطرة على قواه، وإِلى استخدامها، في مواجهة الأَضْعَف منه. ولكنَّها تدفعهُ إِلى تلك السَّيطرة، وذلك الاستخدام، حيالَ الوَهَن الطَّارئ على الشُّيوخ. إِنّ "الولد الطيّب"، أَثناءَ جريه على السَّلالم، يتراجع، تلقائيًّا، أَمامَ شيخٍ يُصادفه، وقد يتطوَّع لمُساعدته، في حين أَنّه، تلقائيًّا، يُحاول إِدهاش أَخيه الأصغر.

إِنّ نوعًا من البربريّة ينشأ، لدى البالغين، حيثُ لا يوجد أَطفالٌ، وبربريَّةٌ أُخرى تنشأُ لدى المُراهقين حيثُ لا يوجد شُيوخٌ.

إِنَّه يتحتَّم على كُلِّ كائنٍ بَشَريٍّ، منذُ مولده حتّى مماته، أَن يسبح في لجَّة الأَجيـال، مثلما هو معجونٌ بوتيرة الفصول. ولا بدّ أن يتأَثَّر، سَلْبًا، عنصرٌ جوهريٌّ وعميقٌ، في كلِّ حيٍّ وكلِّ أُسرةٍ يفتقران إِلى بُعد المُشاركة هذا.

إِنّهم لحكماءُ أُولئك الَّذين، وقد أَدركوا هذه العبرة، باتوا يجهدون كي يتأَلَّف الطَّـابقُ السُّفْليُّ من أَيّ بناءٍ جديدٍ، من مساكنَ صغيرةٍ، لأُسَر الشُّيوخ؛ فقد أَدركـوا أَنَّ المدينـةَ الإِنسانيَّة هي عالمٌ يحتاج إِلى جميع أَفراده، وأَنّ قسطاً جوهريًّا من الحبّ يمـوت حيثُمـا يُزاح، على نحوٍ مصطَنعٍ، أَيُّ شكلٍ من أَشكال الضُّعف الطبيعيّ الَّذي يستدعي الخدمة...

نحن جميعُنا مسؤُولون، مسؤُولون عن أَنفسِنا، ومسؤُولون بعــضُنا عــن الــبعض الآخر، وفي هذا الواقع تكمُنُ عظمةُ الإِنسان.

"احْمِلُوا بعضُكم أَحمالَ البعض الآخر، وهكذا تُحققون شريعةَ إِله المحبّة".

كلمةُ الرَّسول بولس الحارقةُ هذه لم تكُنْ، قطُّ، أكثرَ معاصرةً ممّا هي لنا الآن. فلنتَّخذ منها شعارًا، إِذ ليس، في معزلٍ عنها، أَيَّةُ فُرصةٍ للفَرَح وللسَّلام الحقِّ (حزيران ١٩٦٢).

ذكريات عن البابا يوحنّا الثالث والعشرين

روى لي، مُؤَخَّرًا، صديقي الكَنَديُّ، الجنرال ڤــانييه، الَّذي، بعد أَن كان، ردَحًا طويلاً، سفيرًا في باريس، أَصبحَ حاكمًا لبلاده، والَّذي عَرَف البابا عن كَثَب، الحديثَ الَّذي تجاذَبَه معه، بضعة أَسابيع بعْدَ تنصيب "مونسنيور رونكاليّ" على السُدَّة البابويّة.

فبعدَ أَن قابله لفترةٍ وجيزةٍ، قال له البابا:

– « لم يُتَح لنا، هذا المساءَ، سوى الوجيز من الوقت، ولا بُدَّ من أَن نتقابــل وقتًــا أَطول، فارجع غدًا باكرًا، واخدُمْ لي القُدّاس ».

وفي الغد، عقْب القُدّاس، أَراهُ قداستُه، مجموعةً متواضعةً من صُوَر أُسرته الفلاّحة، مستفيضاً في التحدُّثِ، كالأَطفال، عن طيبة أُمِّه الَّتي كان يُشير، بإِصبعه، إِلى صورتها، ثُمّ تمتَم:

– « ها قد أَصبحتُ نائبَ المسيح، مُكلَّفًا بمسؤوليّة نعمة خلاص العــالَم الجــسيمة. ولكن انظر إِليّ جيّدًا: فأَنا ما زلتُ نفس رونكاليّ الفقير ».

وبعدَ قليلٍ جيءَ إِليه بدفتر مواعيد الاستقبالات، وبَرنَامَج أَعمال النَّهار، فما استطاع الجنرال ڤــانييه إِمساكَ نفسه عن الملاحظة كم ستكون مرهِقةً كلُّ تلك الالتزامات، فــردَّ الحبر الأَعظم:

– "أَلا ينبغي أَن يكون البابا هو النبع الَّذي يَنْهَلُ منه الجميع؟"

بفضل طيبته وتواضعه كان يملك السَّلام، وبالتالي تمكَّن من إِشاعته...

... ويقول فرانسوا مورياك: "عندما أُبْلِغْتُ نبأ انتخابه بابا، لم يَجُلْ في ذهني ســوى هذه الخاطرة المستوحاة من ذكرى لقاءاتنا السَّابقة في باريس: "إِنّه لإِنسان لطيفٌ جــدًّا". ولكن من كان يستطيع التَّنبُّؤَ بجسامة القرارات والمُبادرات والدفعات الَّتي أُوتيناها خــلال فترةٍ قصيرةٍ، بواسطة ذلك الإِنسان الَّذي لم يَكُنْ فيه أَيُّ شيءٍ يتأَلَّق؟"

أَجلْ، لم يكن بوسع أَحدٍ التَّنبُّؤ بذلك... ولكن لم يَدْهَشْ أَحدٌ لما حَدَث، لأَنّه كان بوسع كُلِّ واحد أَن يلحظ، بينما كانت الأَحداثُ تتحقَّق مُتَلاحقةً، أَنّها لم تكن ناجمةً عن عُلومِه، بل نابعةً من نورٍ آخَر، قادمٍ إِلينا بلا عائقٍ، عبرَ الشفافية الَّتي كانت تُسبغُها عليه طيبتُه المتواضعة السَّامية.

عندما اختير خلَفًا للبابا بيوس الثاني عشر الَّذي تميَّز بتُقًى، وعِلْمٍ، ومواهبَ استثنائيّة باهرةٍ، كم من وجَدَ نفسَه يتساءَل: "ولكن، بمَ تُفكّر، يا ربّ؟" إِنَّ وقتَنا العصيبَ إِلى أَقصى مدى، يحتاج إِلى رجالٍ من مُستوًى أَرفع بما لا يُقاس!"

وكم كنّا، حينئذٍ، مُخطئين!

لقد أَثبت البابا يوحنّا الثَّالث والعشرون، الطيِّبُ والمتواضِعُ، الطيِّبُ حيالَ المتواضعين، والمتواضعُ حيالَ الجميع، حتّى عندما اضطُرَّ أَن يشهد للحقيقة أو للفضيلة المَنْسِيَّتَيْن والمُحتَقرتَيْن، أَنّه هو البابا الَّذي كان العالَم في حاجةٍ إِليه، أكثر ممّا كان يمكن لأَيّة عبقريّة فذّةٍ أَن تُتيح من أَمل.

لقد كُنّا مذهولين، ومُفعَمين رجاءً

وما كادت تَشْرَعُ تُقال الكلماتُ الَّتي يتعيّن قولُها، وما كادت تَشْرَعُ تتحقَّق الأَفعالُ المعبِّرة، أكثر من أَيِّ كلامٍ، حتّى حرَمَنا الله – بل نكاد نقول إِنّه "حرم ذاته" – من العاملِ الضَّروريِّ في حَقْله، المُدهش بنجاعته، ومُمثِّل العناية الإلهيّة خيرَ تمثيل.

أَلن نُباغتَ ذاتَنا، ونحن نُدَمْدِم، مَرَّةً أُخرى: "ولكن بمَ تُفَكّر، يا الله؟...".

إِن كان ذلك البابا "السَّاذج" و"اللّطيف" قد أَصبح لأَجيال الأَجيال، "البابا يوحنّا العظيم والطيّب"، فلم يكن، في ذلك، أَيُّ فضلٍ للمواهب؛ أَوْ كان لها القليلُ من الفَضْل؛ وقد نَجَم كلُّ شيءٍ من التجرُّد الَّذي يُبَسِّط كُلَّ شَيْءٍ، ومن العَطْف على كُلِّ إِنسان، ومن الإِذعان لإِرادة ليستْ إِرادةَ كائنٍ بشريٍّ، ولا إِرادةَ جماعةٍ بشريّة، ولكنّها شفافيةٌ مُطْلَقَةٌ لعمل الأَزَليِّ الَّذي هو حُبّ. وقد برهن على ما يقتضيه الرَّبُّ من البشر، أَي، قبلَ كُلِّ شيءٍ، الاستسلام لطيبته وحُبّه، بحيثُ يغدو كلُّ شيءٍ ممكنًا.

وإِن كان الربُّ، بعد أَن بيَّن لنا أَنَّ التَّواضعَ، والطِّيبةَ الحقّة ينتصران على كلّ شَيْءٍ، قد انتزع منّا يوحنّا الثالث والعشرين، أَلا يرمي، بذلك، إِلى حملنا على أَلاَّ نعتمد، في تحقيق هذا الانتصار، على أَيٍّ كان، مهما بَلَغ من الرِّفعة، وإِلى إِقناعنا بأَنّ السَّلامَ في قلوبنا، والسَّلامَ بين البَشَر، والخلاصَ الأَبديّ، تعتمد على استجابة كُلٍّ منّا، أَيًّا كان موقفُنا؟ (آب ١٩٦٣).

ثقافة

– "واحدةٌ من أُولى الحقائق الَّتي اضطرَّت حركةُ "عمّاوس" إلى تأكيدها، تَتْرى، هــي أَنّ ما تَدَّعي الحضاراتُ تسميتَه "ثقافة"، ليس في الغالب إلاّ زيْفًا.

"لقد قُلنا، وكرَّرْنا القولَ، إنّ ثقافتَنا زائفةٌ، لأَنَّها، بتوفيرها معرفة إنجــازات العلْــم، والفنِّ، والآداب، أَغفلتْ أَن تُوَفِّرَ، لمن ينعمون بتلك المعرفة، وعيًا واضحًا يستَوْلي علــى جميع الكيان، لما يُمكن أَن يُسمَّى "العاملَ الإنسانيّ" لهذه القِــيمَ، أَي إدراكَ ضــآلة عــددِ المَحْظِيّين الَّذين يتسنَّى لهم الإلمامُ بها، وتذوُّقُها، والاغتناءُ بواسطتها.

"وغالبًا ما يُولِّد الظَّفَرُ بتلك "الثَّقافة" عقيمين، قد يكونون على شَــيْءٍ مــن التّــألُّق، ولكنّهم معزولون، لا اتّصالَ لهم بالغَيْر، ولا خدمةَ يُؤَدُّونها لهم.

« إنّ لفظةَ "النُّخْبة" نفسَها، الَّتي تعني "المُنتَخبين"، غالبًا ما توحي بتَرَفٍ باطلٍ، لدى أُناسٍ معزولين، وبالتّالي حزانى مُكتئبين أكثرَ ممَّا تُوحي بفرَح أناسٍ خَلاَّقين للخَيْر العامِّ، واهبينَ ذواتِهم لخِدْمة الثّقافة الحقَّة الوحيدة، الَّتي تُحقِّقُ ازدهارَ المُجتمع بأَكملِه، ولأَجــل ذلك، لا تني تولي الصِّغارَ المُهْمَلين أَوْلَويَّة اهتمامها.

– « إنّ ثقافاتنا زائفةٌ، بقَدْر ما هي تدَّعي تعليمَنا أَنَّ الغَضَب رذيلةٌ. ولو هــو كــان كذلك، فلا بُدَّ أَن يكون سيِّدُنا يسوعُ المسيح على قَدْرٍ هائلٍ منها، عندما هو أَطلقَ صَيْحات "الويل لكم" للمرائين والفرِّيسيّين، وعندما تناول حِبالاً وهوى بها على ظُهور تُجّار الهَيْكل. ومن المؤكَّد أَنّ الربَّ يسوع لم يكن خائرَ القُوى، وعندما كان يضْرِبُ، لم تكــن ضــربتُه رمزيَّةً، وكان غَضَبُه حقيقيًّا.

« ما هو رذيلةٌ هو صَبُّ الغَضَب على خِدْمة المصالح الذَّاتيَّة، والعجز عن الغَــضَب حِيالَ الظُّلم؛ هو عدَم القُدْرة على امتلاك قَدْرٍ كافٍ من الجوع والعَطَش إلى العَدْل، كفيــلٍ بإثارة ما سأدعوه سَوْرَةَ غَضَب الحُبِّ. وطالما أَخفَقْنا في تحطيم هذا التردُّد الجبان، الَّذي غالبًا ما رسّخوه فينا، وفي التمرّد على الظُّلم، ولا سيَّما الظُّلم الَّذي نمارســه، نحــن، لا بدافع الغَضب، بل بدافع الهوى والحبّ، فلن نكون متحضّرين ».

– « الويلُ لشُعوبٍ يخْجَلُ مَنْ تعلَّمَ فيها القراءةَ والكتابةَ من سكْب عرقه فــي عَمَــلٍ يَدَويٍّ فلاّحيٍّ أَو عُمَّاليّ.

"فالشُّعوب الَّتي ازدهرتْ مَدينةٌ بازدهارها، وباستمراره، لعالَمها الفلاّحيّ والعمَّــاليّ المُثقَّف.

"ففي هذَيْن العالَمَيْن تُستَنْبت وتتجدَّدُ، كُلَّ يومٍ، النُّخبةُ الوطنيَّةُ على أَن تتحاشى المدرسةُ عن أَن تجعل من المتعلِّم فارًّا.

"وويلٌ للشُّعوب الَّتي لا يَعُدُّ أَبناءُ أَرفع حاكميها، عقبَ فراغهم من فترة إِعدادهم الجامعيّ، شَرَفًا عظيمًا، قضاءَ سنواتٍ من الخِدْمة المجّانيّة في صفوف الأَكثر حرمانًا من أَبناء قومهم، كي يعرفوا ويتعلَّموا هذا الحبَّ الكفيلَ، وحدَه، بأَلاَّ يدعَهم، غدًا، عاجزين، في مواجهة المهامِّ الجادّة ».

– قيل: « ضاعفوا أَعداد المدارس والجامعات، تُغْلقوا السُّجون". ولكن، في الواقع، لم يَعْهَد العالَم زَمَنًا كان فيه مثلُ هذا القَدْر من المدارس والجامعات، وفي آنٍ واحدٍ، مثلُ هذا القَدْر من المُعتَقلات الجماعيّة، والمُحاكمات الظّالمة، والضَّحايا البريئة. أَجل، لقد هوى الإِنسانُ من قاعدة التّمثال الَّتي نصَّبَ نفسَه فوقَها، في كبريائه وحُمقِه. ولكنّه، أَيضاً، زمنٌ يستطيع فيه المرءُ اكتشاف عظمته الحقَّة، المُتمثِّلةِ في قُدْرَته على تعلُّم الحبّ. وكما تعلمون، ذلك لا يتطلَّبُ مواهبَ فذَّةً ».

الحرّيّة

– « حُرِّيَّتُنا هي أَن نكونَ جاهزين، مشدودي الشِّراع، مُخلصي النَّوايا. هي هذه "الموافقة على قول: "نعم" مع الربّ". ليست جاهزيَّتُنا اختيارًا، بل موافقةً على ما هو ممكن.

"أَمام الله تلك هي مُهمَّتُنا اليوميَّة الوحيدة، وستَظَلُّ كذلك إِلى ما لا نهاية".

– "أَجل، إِنّ الكَوْنَ يقتضي بأَن يُحرثَ في كُلِّ أَبعاده، كي يُؤْتيَ الثِّمارَ الوفيرةَ الَّتي يحمل إِمكانيَّاتها. أَجل، إِنَّ كلَّ شَيْءٍ يُردِّدُ صَيْحةَ هذا العَرْضَ وهذا الانتظار.

"ويَعْلَمُ الإِنسانُ جيِّدًا أَنّه يُجدِّف على قَدَره، إِن هو لم يَقِفْ ذاتَه على نشر هذا النَّشيد الرائع، وعلى المبادرة إِلى الاستجابة لجميع صُنُوف جوع وعطش من يتأَلَّمون من حَوْله، إِخوتِه البَشَر الأَكثر منه ضُعفًا، وهم ليسوا متطفِّلين، مُتسوِّلين، بل إِخوةٌ راغبونٌ، هم أَيضاً، في القُدْرةِ على المشاركة، في تلك المُهمَّة المشتَرَكَة الّتي هي الحياةُ عينها.

"أَجَلْ، تلكَ هي المُهمَّة، مُهمّةُ حُبٍّ، وفُرْصَةُ كلِّ كائنٍ بشريٍّ كي يُحِبَّ، بأَفعالٍ حقيقيّةٍ، جميعَ إِخوته، وفُرْصةُ جميع البَشَر معًا كي يقرؤوا، قَرْنًا بعد قرنٍ، مقطعًا جديدًا من اسم الكائن الوحيد الَّذي يَستأهل أَن يُدعى كائنًا، لأَنَّه الأَزَليُّ، ولأَنَّه حُبٌّ.

"ما الحُرِّيَّةُ سوى القُدْرةِ على قول "نعم" لعبوديّة الحُبِّ المُتَطَلِّبة.

"ولكن من ذا الَّذي يقوى على فعل ذلك، باستمرارٍ، وحدَه؟ فلندرك أَنَّ القوّة تَحُلُّ على كلٍّ منّا، كُلَّ حينٍ، حالما يتأكّد أَنَّه لا يقوى سوى على شيءٍ واحدٍ، وهو حَسْبُه: أَلا وهو قول "نَعَم" لنَفْحة الحُرِّيَّة الأَبديّة الَّتي تريد، فيه، أَن تحبَّ ».

– « كلما تقدَّم التاريخُ البَشَريُّ، كُلّما صَرَخَ البشرُ، على مدى الكَوْن، مُطالبين بالحُرِّيَّة، وكلّما ازدادت هَوْلاً المجازرُ الَّتي تلطِّخُ الأَرض باسم مُثُل الحرِّيَّة.

"إِنَّ الجماهير الَّتي لا تني تتأَرجح بين حُكْم الفَوْضى، والديكتاتوريَّات، بين طغيان حكومات مُغْفَلة جماعيَّة، وطاغوت وثنيّين يعبدون فردًا، أَليستْ باسم اكتساب الحُرِّيَّة تُستَنفر لبَذْلِ أَقصى التَّضحيات؟ ورغم إِنجازات التقدُّم التّقنيّ المُطَّرِد، أَلا تُبتلى البشريّة، أَبدًا، بمزيدٍ من القَلَق والقنوط، ما دام الإِنسانُ، مع قدُراته، لا يدري في سبيل أَيِّ لقاءٍ نهائيٍّ عليه أَن يستخدم طاقاته المُتفاقمة؟

معرفةُ السَّبَب الَّذي من أَجله تجأَر، بشدّة، في قلب البَشَر، حاجةُ الحُرِّيَّة، ذلكم هو السُّؤال الَّذي يُهيْمنُ على الكَوْن، وذلكم هو شَرْطُ الفرح لكلٍّ من الأَفراد الَّذين لا يُحصى لهم عدد، الَّذين، على مدى الزَّمن، يؤلِّفون مليارات المليارات، كلٌّ منهم مُفْرِطٌ في الصِّغَر، ومع ذلك، كلٌّ منهم أكبر من الوجود بأَسره، ومن أَجوائه وحدوده، بفضل ما يُعانيه من جوعٍ إِلى الحرّيّة...

لا لسنا أَحرارًا بأَن نُحبَّ أَو لا نُحبَّ!

وما الحُرِّيَّةُ سوى صورةِ الحُبِّ الأَزَليّ، الَّتي رُسِمَتْ فينا، لكي نكون قادرين على الحبّ.

في معزلٍ عن الحُرِّيَّة، قد يبدو الوجودُ تُحفةً لا شائبةَ فيها... ولكنَّه لا يُساوي شيئًا ».

الحرب المثاليّة

« مع انتهاءَ الحَرْب الباردة، دقَّتْ ساعةُ بدءِ حربٍ جديدةٍ، الحربِ الوحيدة الَّتي يُمكن أَن يكون فيها رابحون، ولا يكون فيها خاسرون. ولكنَّ ذلك يستلزم شَرْطاً واحدًا: ففي هذا العالَم الدَّائر، حاليًّا، في فَلَك قُطْبَيْ قوّة تمتدُّ بينهما فُسْحةُ الشَّقاء اللاّمتناهية، ينبغي أَلاّ يتغلَّب أَحدُ القُطْبَيْن على الآخر، بل أَن يندفعا معًا، بهمَّةٍ مُتماثلة، نحوَ خِدْمة الأَكثر تأَلُّمًا، بحيثُ لا يربحُ لا الغَرْبُ ولا الشَّرقُ هذه الحرب، بل يكون البائسُ هو رابحها الوحيد.

"هذا ليس مستحيلاً، ولكنَّه يبدو بعيد المنال،

"إِنّ السّلم، أَيضاً، أكثرُ من الحرب، يقتضي، كي يُربَحَ، بذْلاً كاملاً للذَّات ».

الرَّجاء

« الرَّجاءُ المُنطوي على فَرَحٍ وسَلامٍ يَندّان عن الوصف، والصَّامدُ أَمام الهُوّات التي تتفجَّرُ منها الدُّموع،

"الرَّجاء، ذلك اليقين الَّذي يبقى، وحدَه، ثابتًا عندما يترنَّحُ كُلُّ شيءٍ، تلك البذْرة المترسِّخةُ في الأَعماق الَّتي لا يتسرّب إِليها لا موتُ الأَجساد، ولا أقسى آلام المشاعر الممزَّقة،

"الرَّجاءُ الَّذي قد يتأَلَّق فجأةً، مدى لحظةٍ، مثلَ نجمةٍ وحيدةٍ، في أَشدّ اللّيالي ادلهمامًا، مثلَ بَسْمةٍ تتسلَّل إِلى النَّفس، من خلال فجوةٍ في الغيوم الدَّاكنة، مثلَ ضياءٍ ضئيلٍ، من العسير استشفافه، ولكنَّه كافٍ للقضاء على صخَب خِداع الغُيومِ الَّتي تُحاول الإِيهام بأَنَّ اللَّيل قد خلا من النُّجوم، وبأَنّ الصَّباحَ لن ينتصر أَبَدًا على الليل؛

"الرَّجاءُ، القرينُ الملازمُ لحياة كُلِّ من وطَّدَ عزمَه، توطيدًا ثابتًا ودائمًا، على الخيار الجوهريّ، وعلى تخطّي فِخاخ عبادة الذَّات، مُؤْثِرًا عبادةَ الحُبّ، رافضاً أَيَّ فرَحٍ خاصٍّ، في معزلٍ عن التماس فَرَح الجميع وتوفيره؛

"الرَّجاءُ، ذاك الَّذي لا يُغلب، والماثلُ انتصارًا في داخل كُلِّ إِنسانٍ وُلد فيه، أَيَّةً كانت الآلام التي يرزَحُ تحتَها، والَّتي لن تني تبهظُه ».

الله، الإِيمان، الصلاة

– « بعضُ النَّاسِ يَرهَبون الصَّلاةَ، مع أَنَّها على جانبٍ كبيرٍ من اليُسْر والبساطة، ولا تقتضي الكثيرَ من المعرفة. فحَسْبُ المرءِ أَن يتناولَ كتابًا، كالإِنجيل أَوْ أَيِّ كتابٍ آخَر يستمدّ فحواه من أَنواره، ويقرأ قليلاً، وحالما يُؤْنس أَنَّ خاطرةً ما كانت أَبلغ تأثيرًا فيه من سواها، يستَيْقظُ في داخله شُعورٌ يستعصي على الوصف، يُدفئُ قلبه، ويجعلُه يتمنّى أَن يسلُكَ سُلوكًا أَفضلَ، في الأَيّامِ القادمة، وبخاصَّةٍ يبعثُ فيه اليقينَ بأَنَّه، حقًّا، ليس، أَبدًا، وحيدًا أَوْ مهجورًا؛ وحينئذٍ، عليه أَن يَضَعَ الكتابَ جانبًا، كي ينصرف إِلى الاهتمام بذلك الحُضور، وباستقباله، والإِنصات إِليه، وإِفساح المكان له كي يستقرّ، من غير كلامٍ، في ما يُشبه حوارًا بين إِرادتنا، الَّتي غالبًا ما تُخطئ، والحبِّ المُطْلَق ».

– « عندما قابلت (في الهند) ڤينوبا الشَّيخ، تلميذَ غاندي، التمستُ منه أَن يُصلّي من أَجلي، فأَجاب بالرَّفض، فدهشتُ، واستطلعتُ سببَ رَفْضِه فأَجاب: إِنَّه لأَسهلُ، بمكانٍ، لو كنّا، جميعُنا، نُصلّي للجميع، كُلَّ يومٍ ».

– « كلّما عبَّر لي النَّاسُ عن دَهْشتهم من جُرأَتي، ومناعةِ مُقاومتي، وطاقَتي، كلّما تَرسَّخ لديَّ اليقينُ بأنّني لم أكن لأقوى على ذلك، لو لم أتنسَّكْ طيلة سبعِ سنواتٍ في دير للكبُّوشيّين، حيثُ كنتُ أَستيقظ، كُلَّ ليلةٍ، عندَ مُنتصف الليل، وأظلُّ متجهِّدًا حتّى الثانية صباحًا. وكان، ثمّةَ، كنزٌ في انتظاري: العبادةُ، في الظّلْمة، غير مُستعينٍ بأَيِّ كتابٍ. إنَّها تُحاكي كيًّا بالنَّار يحملُ المرءُ دمغتَه طيلةَ عمره؛ إنّها اقترابٌ من الحبّ المُطْلَق، مع تعذُّر النَّفاذ إليه، يُخلِّفُ فيك جُرحًا لا يندملُ أَبدًا. لقد كانت تلك التَّجربةُ هي نعمة حياتي" (١٩٩٤).

– « إنّني موقنٌ أَنَّ الله صَنَعَ الإنسانَ على صورته، على نحو ما يُغرَزُ الخَتْمُ في الشَّمْع. قد لا نرى الخَتْم أَبدًا، ولكن إن أَنا كُنتُ مُتيَقِّظاً، عرفتُه خيرَ معرفةٍ من خلال الحفرة الفاغرة فيّ، ومن خلال كُلِّ ما أَفتقر إِليه" (١٩٩٣).

– "لا يوجَد، ولا يمكن أَن يوجَدَ سوى خطيئةٍ واحدةٍ تُفضي إِلى القنوط: هي الشَّكُّ في الغفران".

– "تلاميذُ المسيح، الَّذين كانوا بالأَمس شهداء، أَصبحوا، اليوم، أُمراء".

– (الدينونة): هي لحَظَةُ وُضوح رؤْيةٍ، وفَيْضِ نورٍ، حيثُ يرى كُلُّ امرئٍ ما فَعَل بنفسه: مشاركًا الآخرين، أَو مكتفيًا بذاته، ومنكفئًا عليها؛ مُحبًّا للآخرين، أَو عابدًا لذاته، وهذا، ستكون دينونتهُ: "لقد اكتفيتَ بذاتك، فلتكفِكَ". جَهنَّم هي الحُكْم على الإِنسان بأَن يرى حقيقةَ نفسه في مرآةٍ، مدى الأَبديَّة ».

– « الإيمانُ هو التزامُ الفِكْر، بحافزٍ من الإِرادة، وهو يَخْتَلِفُ تمامًا عن خُلاصة تفكير، أَو عن واجبٍ مرتبطٍ بالخَوْف من الخَطيئة أَوْ من الشَّيطان. الإِيمانُ دعوةٌ إِلى حُرِّيَّةِ المحبّة، إِنَّه فعلُ حُبٍّ ».

– « عندما أُحَدِّقُ بالشَّمس، في رائعة النَّهار، يغشى على عينيّ السَّوادُ، وليس سببَ ذلك غيابُ النّور. إِنّي أَرى كُلَّ شيءٍ قاتمًا، كما لو كان اللَّيلُ يسود، لأَنَّ النور ساطعٌ باهرٌ. ذلك هو سرّ الحياة » (١٩٨١).

– « عِنْدَمَا نتكَلَّمُ عن القدّيسين ينبغي أَن نوضح: عمَّن نتكلّم؟ هل هم قدّيسو الرّوزنامة؟ أَمْ هم قدِّيسو كُلِّ يومٍ: الآباء، والأمَّهات، والأبناء الَّذين يُنَفِّذون واجباتهم خيرَ تنفيذٍ، وهم يتعثَّرون؟ فالقداسَة هي، أَيضاً، أَن يُوظِّف المرءُ كلَّ إِرادته، الَّتي قد تبدو عرجاءَ وهَشَّةً، ولكنَّها مشدودةٌ، دائمة التَّوثُّب، باطّرادٍ، للقيام بما يتوجَّب عليه خيرَ قيام » (١٩٩٣).

– (من رسالةٍ إلى العالِم جاك مونود، الحاصل على جائزة نوبـل، إِثـر نـشر كتابـه "الصّدفة والضرورة"): « كم كتابك "الصّدفة والضرورة" زاخرٌ بالعلم! كم هو ينير لنا "كيفيّة" كُلِّ شيءٍ! وماذا بعد؟ أَو بالحريّ، ماذا قبلُ؟ أَعني القول فيما يتعلّق "بكينونة" كلّ ذلك، كـم كتابك أَعمى! هل كنتَ تزعم، حقًّا، الإِلمامَ بالأَزَليِّ، بفضل تجسيمك ضـآلة الـذرَّات، علـى غرار رُوّاد الفضاء السُّذَّج، الذين سَخروا لأَنّهم لم يعثروا عليه في الفضاء اللاَّمتناهي؟

من توخّى رُؤيةَ الموسيقى، أَو استنشاقَ الأَلوان، أَو سماعَ الشَّذا، بِوسْعِه أَن يؤكِّد، صادقًا، أَن لا وجودَ لا لموسيقى، ولا لأَلوانٍ، ولا لعطورٍ. ولكنَّه مخطئٌ.

وأَنتَ مُحقٌّ في شهادتك بأَنَّ المجهَر لا يُحيط بالأَزَليِّ، فلا شيءَ يُحيط به.

أَمّا الَّذي يقول لا للظُّلم... ذاك الذي يَسيرُ، عن حبٍّ صادقٍ، في اتّجـاه معـاكسٍ لكـلِّ مكْسَبٍ، لكي يُخْدَم، أَوّلاً، الأَصغرُ، ففي المذاق الَّذي يندُّ عن الوصف المنبثقِ من أَعماقه، يعلم أَنَّ الأَزليَّ الَّذي يستعصي على الإِلمام قد أَلمَّ به. وهو، بتلك الشَّرارة الضئيلة مـن الحرِّيَّـة الكافية لتُؤَهِّله كي يُحبَّ، يعلَمُ جيّدًا أَنَّه، في هذا الحبِّ الوليد، قـد بـات يُحبُّـه اللاّمتنـاهي المحبوبُ، الّذي كان يَسْتَشِفّ آثارَه في أَغوار الجوع والعَطَش المُتململة في داخله.

هنا يتمُّ اللقاء

وهو لقاءٌ من نَمَطٍ مختلِفٍ عن صُدَف المادّة، ولو أَنّ تحرّكـات المـادَّة تُواكبـه » (١/٤/١٩٧١).

– « عندما كان يسوع يعيشُ على الأَرض، كان الهيكَلُ مَسْلَخًا جسيمًا يتـردَّدُ فـي أَرجائه ثُغاء الحملان، وخوارُ الثّيران، وتفوح منه روائحُ الرَّوْث والدّماء بحيثُ كان لا بُدَّ من إِسالة سواقي ماءٍ حولَ سور الهيكل،

"وإِذ بالإِفخارستيا، فجأَةً، تُنذِرُ بنهاية سَفْك الدِّماء، وباستهلال عهد ذبيحةٍ يُقدَّم فيها الأَكثرُ أَساسيَّةً، أَي الخبزُ والخمر؛ بهذا الغذاء الأَكثر شيوعًا، يَهَبُ الله ذاتَه، في كلّ حُبِّه، للبَشَر، داعيًا إِيَّاهم إِلى أَن يَهَبَ بعضُهم بعضاً ذواتِهم، وإِلى العزوف عن سَفْك الدِّماء في خلافاتهم. ولا ننسينَّ أَنّ لفظة "إِفخارستيا" تعني "الشكر"، وهي تعبيرٌ عن الامتنان حيـالَ نبع الحياة » (الوصيّة ١٩٩٤).

– « فلنتخيَّل إِنسانًا وليدًا قابعًا في حاضنةٍ تحميه من كُلِّ تأْثيرٍ خـارجيٍّ دُنْيَـويٍّ أَو مُقدَّسٍ. إِنّني لواثقٌ أَنّه سيحمل، مع ذلك، في ذاته، أَثرًا قُدْسيًّا.

"وإِذا ما خرج من الحاضنة سيجذبه الدُّنيويّ، والمُتَعُ الزَّائفة، والغرورُ. ولكن، مـن

خلال ضجيج الزَّمن، ينتهي إليه تحدّي الأُمّ تيريزا، ومئات أُلوفٍ من أَمثالها، قد يكونون مجهولين، ولكنَّهم رائعون، ويُحرِّضون بشخصيَّاتهم، وبما هم يفعلون، وإِذا بالقُدْسيّ يطفو، بغتةً، على السَّطح، وحينئذٍ سنشهَدُ على شفاه الإنسان الصَّغير، الخارج حديثًا من حاضنته بسمةً ساخرةً من كُلِّ ما يدعو إلى تدنيس القُدْسيّ، فالتَّدْنيسُ تدميرٌ للحسّ، وانزلاقٌ إِلى العَدَم، وفي معزلٍ عن القُدْسيّ يفقدُ الواقعُ توازنَه، وبإِقصائه تتصاعد مخاطرُ البربريّة" (الوصية ١٩٩٤).

– "فَرَح المُؤْمن، عندما يُعاشُ كاملاً، بلا حدودٍ، يصبح عدْوى".

– "لا يُمكن للإِيمان أَن يكون نتيجةَ تفكيرٍ منطقيٍّ؛ وحتّى عندما يسبق حلولَه التفكيرُ، والمحاكمةُ العقليَّة، ومقارعةُ الحُجَج، فالإِيمان "فعلُ حبٍّ"، فعلٌ ليس مناقضاً للعَقْل، ولكنَّه من مضمارٍ غير مضمار العَقْل".

– « الحبُّ هو اسمُ الله، وكيانُ الله، أَيّ الكمالُ الأَبديُّ الحيُّ واللاّنهائيّ، الَّذي نحوه يتطلّع ويهفو كلُّ ما يُفكّر ويُحبُّ، على حدّ قول القدّيس أَوغوسطينوس: "خُلِقْنا، اللّهمَّ، من أجلك، ولن يعهد قَلْبُنا الاطمئنانَ حتّى نرتاحَ فيك ».

– "أُومن": هذه اللفظةُ هي وثبةُ حبٍّ نحو سرٍّ لا نهائيٍّ.

والمؤمنُ الجديرُ بالتَّصديق هو الَّذي يُثبت أَنّه مُؤْمنٌ "رغم كلّ شيءٍ"، ولا يُغمض عينَيْه عن كلِّ ما يبدو وكأَنَّه إنكارٌ لله: كالظّلم، والأَلَم، والهزّات الأرضيّة، والطّوفانات، والصبيِّ الَّذي تدهسه شاحنةٌ، وآفة السيدا (الإيدز) الَّتي تُصيب أُسرةً بأكملها.

« لا يَخْلُق بالتَّصديق سوى من يستطيعُ أَن يقولَ لأَخيه غير المُؤْمن: إنّني، مثلك، ثائرٌ، ومُستَنْكِرٌ، ومُستَقْبِحٌ لهذه الكوارث؛ إنّني أُسائل الله، وأُجْرَح بجُرح الآخرين. وقد أَجبت الدَّكتور "كوشنر" الَّذي قال لي: "من المُؤَكَّد أَنّك لا تواجهُ مشاكل، لأَنَّك مؤمنٌ"، بقولي: "ليس صحيحًا أَنَّ الإيمانَ يعفي المرءَ من التَّساؤُل". بل قد تكون قبائح العالَم أَعسرَ تحمُّلاً على المُؤْمن، لأَنّه، من خلال الإنجيل كلِّه، هو مَدْعوٌّ إِلى نَشْر الكمال في العالَم، رغم ما يغمُره من رزايا وجرائم، وهو يَسْبُرُ مدى بُعْده، أَبدًا، عن ذلك الكمال ».

– « هكذا أَفهم الفِداءَ: نحن انحجبنا عن الله، وإِذا بالَّذي سُرِقَ، أَي الله، يأتي إِلى السّارق – أَيّ نحن – ويقولُ له: لكي تعودَ لي أَدفعُ لك؛ إنَّني آتي إِليكَ لأَهَبَ ذاتي فديةً، لكيلا تتمّ المتاجرةُ بالتُّحفةِ الَّتي هي الإنسان، ولكي تعودَ إِلى ذاتك". إِنَّه الحُبُّ الَّذي ينقلبُ خادمًا، ويَهَبُ ذاتَه لسارقه ».

– « العبادةُ هي حضورُ اللهِ في هيكل القُربان. لكُلِّ مركَبٍ في العالَم مرفأٌ يرسي فيه؛ وهيكلُ القربان هو المرفأُ الَّذي منه ننطلق، وإليه نعود ».

– « على الكاهن أَن يكون عاملَ عدوى، وأَعتقدُ أَنَّ عليه أَن يُسْهِم في إِحلال "إِفخارستيا" العالَم، أَي شكره.

– « حيث يغيبُ العَطْفُ والجوعُ إِلى العَدْل، لا وُجودَ لله.

فلنُسارِعْ، نحن مدَّعي الإِيمان، الإِيمان بأَنَّ الله الأَزليَّ هو حبٌّ، نحن الجموع الَّتي تمتلئُ بها الكنائسُ، نحن الرُّعاة والرَّعايا".

« أَلا تنادينا دموعُ الشُّيوخ والأَطفال، الآباء والأُمَّهات الَّذين يفتقرون إِلى مأْوى، أو إِلى خُبْزٍ، أو إِلى عملٍ، أَو إِلى عنايةٍ، عندنا، وفي كُلِّ المسكونة، تمامًا كما يُنادينا الله الأَزليُّ الَّذي نَدَّعي حُبَّه؟

"هيّا، فلنسارع، أو فلنهربْ! ولكن إِلى أَين الهرب؟

"لن يسعَنا أَن نهزأَ أَبدًا بإخوتنا، ولا أَن نهزأَ بالآب!

– "دُعيتُ، في الخريف المُنْصَرِم؛ إِلى عاصمةِ أَحَد أَغنى بُلدان العالَم، لإِحياءِ يومٍ عن الفَقْر والحرمان، كان يشتركُ فيه من يُسَمُّون أَنفسَهم صانعي القرارات. وفورًا، إِثرَ القُدَّاس الَّذي قدّمتُه من أَجل الجميع، كما أَفعلُ كُلَّ مساءٍ، في مُصلّى "إِيستـڤـيل"، التقيتُ ضيوفي على العشاء، في بهوٍ أَنيقٍ بفُندقٍ فاخرٍ، حيثُ كان خُدّامٌ في زيٍّ مهيبٍ، ينتظرون، جامدين، في أَلبستهم المتأَلّقة، أَن يُقدِّموا أَطعمةً نفيسةً ومرهَفةً، في آنيةٍ تلتمع تحت الأَنوار المزدوجة التي تبثُّها الثُّريّاتُ والشمعداناتُ. لقد كان البَذْخ يطغى على كُلّ شيءٍ.

"وإِذ بي أُدعى إِلى إِقامة الصَّلاة، فأحسَسْتُ أَنّ قَلْبي يكاد يتوقّف، وعندما، أَخيرًا، تمكَّنتُ من التلفُّظ، سمعتُ ذاتي أَقول:

"أَصدقائي، لن أُقيم الصَّلاة. فهل تُدركونَ ما ينطوي عليه موقفُنا من دواعي السُّخرية ومظاهر القحة؟ أَوَلا تذكرون أَنَّ يسوع، بعد احتفاله بقدّاسه الأَوَّل، شَرَع يحتضر؟ وها نحن، هنا، إِثْرَ القُدَّاس، قد أَعدَدْنا لأَمرٍ قبيحٍ مُستنكرٍ! أَلا تظنُّون أَنّه كان يتعيَّن علينا اختتام لقائنا حولَ الفُقَراء والمحرومين بعشاءٍ قوامُه الطّبيعيُّ شيءٌ من الحساء وسردينتَيْن؟ لا تطلُبوا منِّي، الآنَ، أَن أَشعُرَ بالارتياح، فلئن أَنا اشتركتُ، بطيبةِ خاطرٍ، في هذه المأدُبة، لن أَستطيع، بعدُ، التحديقَ في عيون من سأُقابلهم غدًا، المرضى في المستشفيات المشرفين على الرَّحيل، والشَّباب في السُّجون، لأَنّني سأكون قد خُنتُهم.

"ما هو معنى الصَّلاة الَّتي تطلبون منّي مشاركتكم فيها؟ إنّ دعوتكم تدفعني إلى الجهر بالحقيقة: الصَّلاة لا تكفي، فالعالَم في حَرْبٍ، وأكثرُ من نصف البَشريَّة يفتقرون إلى الجوهريّ. وأنتم تزعمون أنّكم مسيحيّون... في حين يتعيّن عليكم أن تعلموا أنَّ الإيمان يدعو إلى المخاطرة. إنّ الروح القُدُس الَّذي جعلَنا مؤمنين يُهيب بنا أن نكونَ مؤمنين جديرين بالتَّصديق. فهل نحن كذلك؟"

– "الإفخارستيا هي غفرانُ خطيئة البَشريّة، عبْرَ جميع العصور، تلك الخطيئة الَّتي نقترفُها كلّما لم نُحبَّ بالقَدْر الكافي،

"وهي، أيضاً، منبعُ تواضعنا، وتوبتنا، وأَلَمنا، ذلك الأَلَم الخَصْب، خصوبةَ حَبَّةِ القمح، الّتي تتلف كي تُعطي سنبلة.

"بالإفخارستيا نتلقّى الربَّ، لكي يكون الرّابطَ بيننا، ولكي نكون واحدًا على غرار الأَقانيم الثَّلاثة المتميِّزة، في الثَّالوثِ الأَوحد. إنّ مشاركتنا في التَّضحية تصنعُ وحدتَنا.

"النَّفسُ الَّتي لا عهدَ لها براحة، بحاجةٍ إلى استراحة، تُوَفِّرُها الإفخارستيا. إنّني أَحتاجُ إليها، وأَجدُ فيها يسوع، الكلمةَ النَّابعَ من حُبِّ الآب، أكثر ممّا أَجدُه حتّى في الأناجيل".

– "اللاّنهائيُّ هو حُبٌّ؛ فكرةُ اللاّنهائيِّ هذه تبعث فيَّ شيئًا من النَّشوة، بل أَجرؤُ فأقول إنّني أَطمئنُّ إليها...

كيفَ لي أن أَضع هذا الحُبَّ فيَّ؟ إنَّ الوعاءَ مُفرطٌ في الصِّغر، ولا يمكن أن يتمّ لقاءُ الله، إلاّ بالخروج من الذَّات... الحبُّ يُخرجُنا من ذواتنا. ونحن نرى جيّدًا، لدى الصُّوفيِّين، كيف يُفضي هذا الخروج من الذَّات، إلى تَخَلٍّ عن الذّات، هو، في الواقع، تسامي الذات.

"لا يسعني تَصَوُّرُ أَن يتمّ لقاءُ اللاّنهائيِّ في بيتي، إذ لا بُدَّ أن يَسبقَ اللقاءَ التجرُّدُ، ولا يمكن أن يتمَّ اللقاءُ إلاّ في بيته، هو، وحينئذٍ، يُصبح مَبْعثَ ازدهارٍ وانبهارٍ، وانخطاف، أَيْ خروجٍ من الذَّات. الحُبّ يدفعُك خارجًا، ولكن لكي تزدادَ كَينونةً ».

– "أَنا لستُ ابنَكَ، يا ربّ، ما لم أكن أَخًا لإخوتي، وما لم نكن، معًا، أبناءَك".

– « الله أَبٌ، وبصفته أَبًا يَلِدُ الكلمةَ، وهذه الكَلمةُ هي ملءُ صورته، ولا يَسَعُه إلاّ أَن يُحبَّها حُبًّا جمًّا. وإذ بالرُّوح ينبثقُ، في ما لا يتبدَّل، من نسمة القُبْلة المتبادَلة بين الأَب والكلمة المُتحابَّيْن. والرُّوحُ يعني الرّيحَ، أَي ذلك الواقع الَّذي ينتفي وجوده، إن هو توقَّفَ عن الحركة، وعن تحريك كُلِّ شيءٍ. إنّ نسمةَ الرُّوح تولَد من حبِّ الأَب للكَلِمة، وحبِّ الكلمةِ للأَب ».

– « عن العَذْراء مريم يُقال لنا القليلُ، وقليلةٌ هي العباراتُ الَّتي تلفَّظَتْ بها، ومع ذلك يُمكن القولُ إنَّ نظامَ الكَوْن بأَسره قد تغيَّر بفضلها.

"لا نجزعَنَّ بعدَ الآن، فأُختُنا العذراءُ هي أُمُّ الله، وأُمُّ جميع المُتَّحدين بالله، من ملائكةٍ وبشر.

"عندما أُصلّي ملتمسًا القدرةَ على مُقاومة تجربة الكَلَل والإحباط، الخبيثة، أَرفع عينيَّ إلى مريم، الَّتي لم تزلَّ يومًا، ولم تَنْهَرْ قَطُّ، فأَستعيدُ الثِّقةَ.

"يا ملكةَ الجماعة الَّتي تُكوِّن الكنيسة، أَنتِ، يا مريم، ملكةُ جميع الَّذين يودُّون النِّضالَ في سبيل الحُبِّ. ففيك قد تعايش أَبدًا الرَّجاءُ مع الإيمان، في حُبِّ ابنك، وحبِّنا جميعًا ».

– « عندما يَلْتَبِسُ علينا كلُّ شيءٍ، في الحِقَب الَّتي يُصبح فيها كلُّ شيءٍ ضبابًا، والَّتي قد يجتازُها الجميعُ، وعندما ينتابنا الشَّكُّ في ذواتنا وفي كُلِّ شيْءٍ، حينئذٍ تغدو صلاةُ "أَبانا" هي الملجأ.

"لقد تأَثّرتُ، في الأَعماق، عندما قرأْتُ هذه العبارة الَّتي كتبَها الأَبُ "دي فوكو": "يا له من شُعورٍ بَنَويٍّ رائعٍ! إنَّه يحبُّني، وهو على كُلِّ شيءٍ قديرٌ. فممَّ أَخاف؟"

"وهناك روايةٌ تروق لي كثيرًا، توضحُ ما كتبه الأَبُ "دي فوكو"، تقول:

"فيما كان الله يستقبلُهُ، استعرض إنسانٌ مسيرةَ حياته، وتعقَّب آثارها على الرَّمل، فتبيَّن آثارَ أَقدامٍ أُخرى، تُواكبُ آثارَ قدمَيْه، وفجأةً استدقّ الطريق، وانتهى إلى معبرٍ وعرٍ، وهنا لم تعد تظهَرُ سوى آثارِ قدمَيْ شخصٍ واحدٍ، فسأَل الربَّ:

– "ربّاه، أَين كنتَ حينئذٍ؟

– "لقد كان الدَّرْبُ من الوُعورة بحيثُ حملتُكَ على مَنْكبيَّ ».

– « إن لم تكن البَشَرِيَّةُ لقاءً بالمُطْلَق، باللاَّنهائيّ، فهي ليستْ سوى فقاقيع صابون تنطلق في الهواء، وسُرعان ما تتلاشى. لمَ؟ ولأَيّ غَرَضٍ؟ ولمُتْعةِ مَن؟ إنّني أَرفُض العَبَثيَّ، وأَرى السِرَّ يُتيحُ لي من التنفُّس أكثر من كلّ ما يُتيحه لي العقلُ ».

– « الخيارُ الجَوْهريُّ بين الضّياع في العَبَثيّ، أَو التأْكيد أنَّ الأَزَليَّ كائنٌ، وأَنَّه حبٌّ، ذلك هو أَساس الإيمان، وذلك هو سرُّ تأكيد الإيمان، الَّذي يتفجَّر في أَعماق القلب، بحدْسٍ من الحبّ ».

– « إِن أَنت طالعتَ كتبَ جميع مكتبات اللاَّهوت في العالَم، فقد تُكوِّن أَفكارًا عن الله،

ولكنّك لن تكون التقيتَ الله. إنَّ أُستاذَ اللاَّهوت الأَغزرَ عِلْمًا في العالَم، إن لم تتـسنَّ لـه فُرْصةُ مخاطرة الحُبّ، بمقاسمته آلام إِنسانٍ آخَر، والإِسهامِ في تخفيف آلامه، لا يعـرفُ الله حقًّا ».

– « ما أَعذبَ أَن يكونَ المرءُ، حقًّا، ابنَ أَبٍ عطوفٍ! وما أَعظمَ حُمقَنا، عندما نبتغي الازوِرار عن نداءاته، وعن علاقات حنانه، وحُبِّه! »

– "الإِيمانُ حياةٌ، والحياةُ حبٌّ، والحُبُّ هو أَن يُخدَم، أَوّلاً، الأَكثرُ تأَلُّمًا، الَّذي دُنِّـستْ صورةُ الله فيه".

– "الكنيسةُ هي جماعةُ الَّذين يناضلون كي يكونوا أَوفياء للإِنجيل."

« إِن الربَّ الَّذي شاءَ أَن يُخلِّص الأَغنياءَ والفقراءَ، لم يتوخَّ كنيسةً تكـون جماعـة أَغنياءَ طيِّبين، يستضيفون الفُقَراءَ ويُحسنون إِليهم. ولكنَّه توخّى أَن يجعل مـن كنيـسته جماعةَ فُقَراءَ تستضيف الأَغنياءَ، ولا تُحتِّمُ عليهم التجرّدَ من كلِّ شيءٍ، بل تسائلهم عمَّـا فعلوا بامتيازاتهم: هل هم استخدموها لمُتْعتهم، أَو لتسريع خلاص المسحوقين والمنسيّين؟

"ومن ثَمَّ فما من جماعةٍ دينيّةٍ أَو إِنسانيّةٍ ترمي إِلى الخلاص البَشَريّ هي مـن الله، حقًّا، إِن هي تحوَّلت إِلى جماعة أَعيانٍ وأَغنياءَ تستضيفُ فُقَراء.

"مثل هذه الجماعة قد تكون شيئًا حميدًا، ولكنَّها ليستْ عملَ الله، بل هي عملٌ بشريٌّ صغيرٌ جدًّا، حيالَ مصير البَشَريّة الإِلهيّ.

"الجماعةُ الوحيدة الَّتي هي من الله، هي جماعةُ فُقَراء، ومتـأَلِّمين، مُـشِعَّةٌ بفَـرَحِ الحُبِّ، ومُشْرَعةٌ على الأَغنياء ».

– "الكنيسةُ هي جماعةُ الَّذين قرَّروا عدمَ الاكتفاء بذواتهم، وآثروا المُشاركة.

– "اللهُ حُبٌّ، وفي المسيرة الخفيَّة لحياة كلِّ كائنٍ اعتلانٌ حميميٌّ وشخصيٌّ لهذا الحبّ".

– « حيثما كان الحُبُّ كان الله؛ وحالما يوطِّن إِنسانٌ العزمَ على أَن يُعاني، لكي تقـلَّ معاناةُ الآخرين، فهو مقيمٌ في الله وقد يرفُض صُوَرَ الله المُشوَّهة الَّتي قد يصادفها، ولكنَّه عندما يَنشُد الحبَّ، فهو ينشُد اللهَ، ولا سيَّما عندما يُضفي على الحُبِّ قيمةً تحملـه علـى التَّضحية بحياته في سبيلها.

"أَجلْ! الحبُّ هو أَن يزداد المرءُ كينونةً عندما يَخْرُج من ذاته ».

– « حيالَ ما يتخطّانا، علينا أن نختار بين السرِّ والعَبَثيّ. السرُّ يُحاكي ما يحدُث لي عندما أَرنو إلى الشَّمس في رائعة النَّهار. فهل أَشكو حينئذٍ من غياب النّور أَو من فَيْضه؟ السرُّ ليس نفيًا للنُّورِ، بل هو نورٌ يتخطّاني، ولكنّ عقلي وقلبي يُدركان تمامًا، أَنَّه لــيسَ غير معقول...

"إزاء الشَّرِّ، لا يمكنُنا استخلاصُ سوى أَمرٍ واحد، وإزاءَ الانبهار، لا يَـسعُنا تبنّــي سوى موقفٍ واحد: كلَّما تلقَّينا دفقًا من نورٍ يتعلَّق بالحُبِّ، أَصبحنا مسؤولين عن الشَّهادةِ الَّتي يتعيَّن إبلاغُها للآخرين ».

– « في عهد يسوع كانت الصَّلاةُ أَمرًا شديدَ التَّعقيد؛ فالكَتَبةُ، أَي العُلماءُ، والباحثون كانوا قد جعلوا منها مُمارسةً عسيرةً. وذاتَ يومٍ سأَل يسوعَ تلاميذُه، بدافع علاقة الثقــة الَّتي كانت تربطُهم به: يا معلِّم، قل لنا كيف نصلّي... فأجاب:

– « عندما تُصلّون، قولوا ببساطةٍ: أَبانا الَّذي في السَّماوات".

ومُذَّاكَ لم تَعُد المقدرةُ على الصَّلاةِ تستلزمُ الكثيرَ من المعرفة ».

– « كم الكهنةُ ضَروريُّون كي يبعثوا في قلوب الجميع طاقاتِ النِّضال من أَجل شفاء مُعاناة الجميع! وكم هو ضروريٌّ، أَيضاً، ذلك الضَّربُ من الكهنوت الأَوسع الَّذي ينتظمُ في سلْكِه جميعُ أَبناء الله، وجميعُ المَحْظيّين الَّذين يعرفون الله، الكهنوت الطَّبيعيّ، الجوْهَريّ، الّذي يجعلهم يأْخُذون بين أَيديهم أَلَمَ الجميع الجمَّ، الخَفيَّ، ذلك الجزءَ من الأَلَم الَّذي يَتعذَّر شفاؤه، فيُسهمون في تجلّيه، بحيثُ يتحوّلُ كلُّ ما في ذلك الأَلَم من مؤقَّتٍ إلى جمال حــبٍّ يَغْمُره السَّلام إلى الأَبد، وبحيثُ يغدو جميعُ الّذين يتأَلَّمون غير آملين في شفاءٍ، مثلَ طفلٍ وَجَد السَّلام، رغم أَلَمه، بعد أن استسلم استسلامًا كاملاً وآمنًا بين ذراعَيْ أَبَويْه.

"هذا الكهنوت الرّامي إلى تصعيد أَلَم العالَم أَجمع، كم أَتوسَّل إلى الرَّبّ أَن يجعلَ جميعَ البشر، وفي طليعتهم المسيحيّين، يُدركون أَنّ عليهم مُهمّةَ تحقيقه.

فليكونوا كُثُرًا أُولئك الَّذين يقولون للرَّبِّ "نَعَم"، وهم مُتحرِّرون من الوَهْم، ومُدْركون أَنّهم بتلك الموافقة، حقًّا، ولأَسبابٍ مُتَعدّدةٍ، سيُعانون الصَّلْب ».

– « إنّ اللهَ أكبرُ من كُلِّ ما علّمونا عنه، لأَنَّه جعل نفسَه سجينَنا. ولهــذا الــسَّبب، يسمو الإنسان عظمةً على كُلِّ إنجازاته، لأَنّه خُلِقَ ليَخْدُم ».

– « ليس مُهمًّا أَن تكون مؤْمنًا. بل إنَّ الأَمرَ الجَوْهريَّ هو أَن تكون جــديرًا بــأَن يُصدّقكَ الآخرون ويأْمنوك ».

– عن الخطيئة المميتة يقول: "إِنَّكَ مائتٌ حالما تستطيع أَن تكون سعيدًا في معــزلٍ عن الآخرين".

– « أَوَدُّ أَن أَقول لمن يسأَلني: "كلِّمني عن الله":

"إِرغَبْ في الحُبِّ بكلِّ عزيمتكَ، ولو آلمك، حتّى ولو لَمْ تُفْلحْ في ذلك إِلاّ على نحــوٍ غير مُرْضٍ.

"إِرغبْ في الحبِّ تعرف الله، وستتعرَّفُه، هو الَّذي كنتَ تبحثُ عنه،

"وبلقائِه ستجدُ كلَّ شَيءٍ، كلَّ ما كان يَنشُدُه جوعُك وعطشُك، وهو سيهبكَ المزيدَ من الجوعِ والعطش إِليه، وإلى الحبّ، وسيُعطيك ما يُشبع هذا الجوعَ ويروي هــذا العطــش، وسيُعَلِّمك كيفَ تُعلن للآخرين، جميعِ الآخرين، عمّا ينجم عن ذلك من فَرَح.

"وسيكون لك وللجميع، في أَبديَّة الدَّهر الآتي، فَرَحُ النَّصر، وملءُ الحياة أَخيرًا ».

المحبّة

– "الحُبُّ يستلْزِم الحُرِّيَّة. فلا حبَّ حيثُ لا حُرِّيَّة، والحُرِّيَّةُ لم تُعْطَ لنا إلا لكي نُحبَّ".

– « إِنَّ العَملَ من أَجل العدالة عندما يكونُ دافعهُ الحبّ، حتّى إِن لم يُفْضِ، "تاريخيًّا"، إِلى النَّجاح، هو، في ذاته انتصارٌ، منذُ اللَّحظة الَّتي خرج إِنسانٌ من ذاتــه لكــي يُحــبَّ ويُشارك. لقد كُتب له النَّصرُ حالما هو قرَّر أَن يُحبّ، بدافعٍ من جوعه وعطَشه إِلى العَدْل، أَي حالما قرَّر أَن يَخرُجَ من ذاته، لا بالأَخذ، بل بالخدمة والمُــشاركة. أَجــلْ، ذلــك هــو إيماني، وأَنا موقنٌ أَنّ هذا الإِيمان هو صَيْحةُ الحقيقة، هــو، للجميــع، اللقــاءُ بالحُــبِّ اللاّنهائيِّ، الَّذي تُشير إِليه أَلسنتُنا المتلعثمة باسم "الله".

"وطالما لم يسبق الحبُّ الهِباتِ المادِّيَّة، وطالما لم تَسبقْ هِبَةُ الذَّات لــدى الكثيــرين وصولَ المنَح التّقنية والموادّ، فكلُّ هذه آيلةٌ إِلى الفَشَل، لا بل، في حالاتٍ عديدةٍ، كلُّ تلك المِنح تُفضي إِلى نقيض الغاية الَّتي ابتغتْها، فهي لن تُسهم إِلاَّ في تسريعِ الانهيار الأَدبيِّ، والاجتماعيّ، والسِّياسيِّ والاقتصاديّ لدى الشُّعوب الَّتي أُريدت مساعدتُها.

"ثمّة يكمُنُ صميمُ مشاكل العالَم، وعقدتُها".

– "عندما أَنت تتَأَلَّم، يا صديقي،

عليَّ أَن أكون بجانبك.

عندما تتألَّم، تذكَّر أَنّني بقربك،

حتّى لو أَبقتني مئاتُ الواجبات، بل آلافها، بعيدًا،

فأَنتَ تعلَمُ، مع ذلك، أَنّني إِلى جانبك،

لأَنَّك تتألَّم، ولأَنّي صديقُكَ" ».

– « أَجلْ، عندما يقضي كلٌّ منّا أَيَّامَه مُعانيًا لكي يخفَّ عناءُ الآخرين، فهو متيقِّنٌ من أنّه لن يُفوِّت "اللقاءَ بالحُبّ اللانهائي"، الَّذي تصرخُ دمغتُه المحفورةُ فينا إِنَّنا خُلقنا من أَجل لقائه. إِنَّه يأتي نحوَ كُلِّ امرئٍ يُريد أَن يعيشَ كي يتعلّم الحُبَّ، ويعمل بكلّ طاقاته الإِنسانيَّة كي يتعلَّم تحريرَ العالَمَ من كلِّ ما يحول دونَ ذلك اللّقاء ».

– عندما يُحبُّ المرءُ كليًّا لا يسأَل: "هل هذا منطقيٌّ؟" بل يُحبُّ بكلِّ بساطة.

– حالما يختارُ امرؤٌ أَن يُحبَّ، أَي أَن يؤثِرَ الجميعَ على ذاته، منذُ تلك اللَّحظة، فلْنَثقْ أَنَّ اللهَ باتَ حاضرًا بيننا، واللهُ هو "الأَبديُّ الَّذي هو حبٌّ". وكم نحن محظيُّون إِذ أَتاح لنا تذوُّقَ هذا الفرَح! أَجل، في كُلِّ كفاحٍ من أَجل العدل يتمُّ في الحُبّ، يُكتَب لنا النَّصْرُ مُسبقًا.

– "ليست المحبّةُ بُكاءً أَو مجرَّدَ عطاءٍ، بل هي مُناهَضةٌ فِعْليَّةٌ للظُّلْم" (الوصية ١٩٩٤).

– « ليس هامًّا أَن تنفَحَ فقيرًا عشرة فرنكاتٍ في الشَّارع، بل أَن ترمقَ من يتأَلَّم ببسمةٍ، لكي يشعر أَنَّ هناك من يراه، هو الَّذي لم يأْلَفْ أَن يستقرَّ عليه بَصَرٌ » (١٩٩٤).

– "ثمَّةَ قاعدةٌ واحدةٌ تُؤهِّل للبلوغ إِلى الفردوس: أَن يُحبَّ المرءُ طالما كان له على الحبِّ طاقةٌ، فَحَسْبُ".

– "الشَّريعةُ الإِنجيليَّة هي أَيضاً شريعةُ الحياة الاجتماعيّة الأَساسيَّة، وهي تقول: "أَنا لستُ إِنسانًا سعيدًا، إِن ارتَضَيْتُ الاطمئنان إِلى سعادتي، في حين يتخبَّط آخَرون في التَّعاسة وستعمُّ الفوضى، ويُغتال السَّلام، ويتمُّ التحريض على الحرب، إِن نُظِّمَ المجتمعُ الأُسْرويُّ والوطنيّ والدَّوْليُّ في سبيل أَمان الأَقوى" (١٩٩٠).

– "التَّعريفُ الجَوْهريُّ للإِنسان هو أَنّه ذاك الَّذي يستطيع أَن يُثابر في الحُبّ، حبٍّ صادقٍ كفيلٍ بالسَّهر على فَرَح الآخرين، سَهَرَه على خُبزهم، إِنّه ذاك الّذي يُثابر على هذا الحبّ، أَو لا يني يتحوّل إِليه أَبدًا".

الدعوة

"إِن كُنْتَ تَتَأَلَّم، فأَحببْ أكثر،
أَحْببْ من هم أكثر مِنْك بُكاءً
وأَعمقُ معاناةً للبَرْد والجوع، وأَشدُّ انطواءً على ذواتهم،
الَّذين يكاد لا يكون لهم وجودٌ، والأَكثر تغرُّبًا عن ذواتهم،
فتُؤْنِس فَرَحًا لن تعهَدَ أَبدًا أَعمقَ منه.
أَحْببْهم بالقَدْر الكافي،
بحيثُ يبلغون كلَّ ما يستطيعون من امتلاء
وحتّى إِن آلموك، أَحببْهم أكثر،
إِن كانت دعوتُك، لفترةٍ مُحَدَّدة، أَو للأَبد،
هي، حقًّا، الوُلوج في فرَح المُطْلَق ذاك.
ليس، ثمّةَ، وسيلةٌ أُخرى، كي تقف منتصبًا،
متعثّرًا، ولكن مُنتصبًا،
سوى هذا الحُبّ المتناهي الصِّغَر،
في جميع التَّقدمات الصَّغيرة،
وجميع اللَّحظات البالغة الصِّغَر،
حبّ الأَكثر صِغَرًا أَوْ هُزالاً، ورَثاثةً،
وتجرُّدًا من الرُّتَب.
وحينئذٍ، يتّضح لك أَنَّ الرُّتْبةَ الوحيدة،
هي المُطْلَق المُحتَجب، والَّذي يتجلّى
من خلال الأَكثر شحوبًا واتساخًا،
وتعرُّضاً للسُّخرية،
من خلال آخِرِ الوُجوه،
وجهِ إِنسانٍ هو صورةٌ
للوجه الأَزليّ، غيرِ المرئيّ ».

– « الحبّ هو: عندما تتأَلَّم أَنتَ، الآخر، أَيًّا كنت، أَتأَلَّم أَنا؛ وحينئذٍ تُـستَنْفر جميـعُ طاقاتي، وتتضافر مع طاقاتك، لكي نشفى معًا من أَلَمك الّذي غدا أَلمي، ولكي يتمّ فرحـي بفرحك، وفرَحُكَ بفرحي، وأفراحنا مُتّحدةٌ في خدمة حياة الجميع ».

– « عندما يرضى شابٌّ وفتاةٌ أَن يأْتيَ ولَدٌ إِلى الوُجود يُثْبتان إيمانَهما بالحياة. إِنّهما يخوضان مخاطرةً، ولكنَّها مخاطرةُ الحُبِّ والفَرَح. فهذا الطِّفْل الَّذي سيولَد سيوجّهانه نحو الشَّمس والنّور، وسيُفضيان إِليه بأَجمل الأَسرار، سرِّ قُدْسيَّة الحياة ورَوْعتها. وسيُعلّمانه بُطلانَ الاعتقاد باستطاعة الإِنسان أَن يَسْعَدَ في معزلٍ عن الآخرين ».

– « الاضطلاعُ بمُهمَّة الإِنسان يقتضي، أَحيانًا، التعرُّضَ للمخاطر، والتجـرُّدَ عـن الذَّات لمواجهة آلام الآخرين. وكثيرون هم الرِّجالُ والنساءُ الَّذين يُقـدمون علـى هـذه المخاطرة، في سبيل خدمة من يُحيطون بهم، بأُسلوبهم الخاصّ، وفي الخفاء ».

– « ما أَدعوه كنزَ المؤْمن هو الفَرَح، فَرحُ اليقين بأَنّه محبوبٌ، وأَنّه بفـضل حُرِّيَّتـه سيتعلَّم الحبَّ. في اليهوديَّة، وفي الإِسلام، اللهُ وحيدٌ، وعارٍ، أَمَّا لدى المسيحيّين فهو حبٌّ... إِنّه يُعبِّر عن ذاته، إِنّه أَبٌ، ومن نسمة الحبّ المتبادل بين الأَب والابن ينبثق الروح.

"هذا الحُبُّ هو أَحدُ وجوه التَّشابُه الجوهريّة بين الله والإِنسان. إِنَّه مكتملٌ فـي الله، وفي حالة ولادةٍ لدى كلّ إِنسان ».

– « إِن كان عليَّ تبليغُ يقينٍ لمن يتوخَّون خوضَ معركةٍ لبثِّ مزيد من الإِنسانيّة في كُلّ شيءٍ، فمن المُحقَّقِ أَنّني لن أَستطيعَ أَن أَكتُبَ سوى هذه العبارة: "الحياةُ هي تعلُّم الحُبّ ».

– « هذا القَرْنُ، أكثر من أَيِّ قرنٍ سواه، ومنذُ أَمَدٍ طويلٍ، ينتظر قدّيـسه فرنـسيس الأَسّيزي، كي يُذكِّره، بالأَفعال، أَنّ الحياة أَخطرُ من المال، وأَنّ الحبَّ عطاءٌ، قبل أَن يكون امتلاكًا. وحينئذٍ فقط، تستعيد كلمتا "الفَرَح" و"السَّلام" معناهما، وتُصبحان حقيقةً ماثلة ».

– « إِن لم يُصبحْ أَصحابُ الامتيازات خُدَّامًا لأَكثر النَّاس معاناةً، غـدتْ امتيـازاتُهم عقيمةً، وجعلتْ منهم لصوصاً ».

– « من أَين يستمدّ عَظَمَتَهم رجالُ التَّاريخ ونساؤه المشاهيرُ النَّادرون الَّذين خلّفـوا آثارًا خلاصيَّةً عميقةَ البُعْد، إِن لم يستمدّوها من إِدراكهم لمعنى الحبّ، الَّذي يرون، علـى ضوئه، أَنَّ كلَّ ما يتأَلّم يستأْهلُ الأَوْلويّة المُطْلَقة على كُلِّ ما يتأَلّق ببريقٍ خـدَّاعٍ، بريـقِ القُوَّةِ، والجمالِ، وأَيّ نمطٍ من أَنماط النّفوذ؟ »

– « القاعدةُ الثَّابتةُ طوالَ الحياة بكُلِّ ما يعْتَورُها من تعقيدات وتبدُّل أَوضاعٍ، القاعدة الأُولى التي يتعيّن التزامُها قبلَ أَيّ عَمَلٍ، هي أَن يضَعَ الإِنسان نفـسَه موضـعَ الآخـر. وبدَهيٌّ أَنّ هذه القاعدة تنطبق، أَوّلاً، على كلّ من يفوق الآخرين قوَّةً ».

– « الوسيلةُ الوحيدةُ كي نُحبّ حقًّا، ونقوى على الإنقاذ، في احترامٍ تامٍّ لكرامةِ من نُحبُّ، هي أَن نغدوَ واحدًا منهم، مقرّبين منهم قربًا وثيقًا بحيث نتألَّم حقًّا لأَلمهم.

"حينئذٍ يكتشف خيالُ كُلِّ واحد، سواءٌ كان محظيًّا أَو منكوبًا، الطُّرُق الَّتي كانت خفيّةً، كما يجد القلبُ القوى والتَّضحيات الَّتي كانت تبدو مستحيلةً.

"قد نكونُ أَحيانًا مُرْهَقين، خائري القِوى. ولكن حسبُنا شيءٌ واحدٌ، أَو بالحريّ أَمرٌ واحدٌ هو ضروريٌّ، في المقام الأَوَّل؛ وبعده ستتفجّر المعجزة، في صُلب وهننا، إِن لم يكن من المُعجزة بُدّ:

"علينا، أَوّلاً، أَن نستيقظَ، من جديدٍ، وأَن نقترب، حقًّا، من خِضَمِّ الآلام، ونُشاركَ فيها ».

طريقة استعمال الحياة

– « ما نَفْتَقِرُ إِليه هو رجالٌ لا يُطيقون أَن يناموا، كلَّ ليلةٍ، مُطْمئنِّين، في بيتٍ عاديٍّ أَو فاخرٍ، إِلى جانب أَولادٍ لا يفتقرون إِلى شَيْءٍ. ما يَفْتَقر إِليه العالَم، وما قد يهوي بسببه إِلى الدّمار، هو احتواؤُه على هذا العَدَد الجَمِّ من الرِّجال، الَّذين، مع أَنّهم ليسوا أَشرارًا، يقْوَون على النَّوم بلا قَلَقٍ، سُعَداءَ، موقنين أَنّهم في أَمانٍ، في حين أَنّ ثُلْثَي البشريَّة غارقون في اليأْس. إِنَّ ما قد يودي بالعالَم إِلى التَّهْلُكَة، هو افتقارُه إِلى الشُّعور بجريمة الهَدْر، الَّتي تنقلب جريمةَ تحريض، عندما تتخطَّى المعقول، وعندما، بفضل سُرعةِ الاتِّصالات، تُصبح مَعْرِفَة التَّبايُن مُتَيسِّرةً، في الحال، لمن يُعانون.

"أَيُّ حبٍّ يمكن أَن يكون صادقًا، عندما يكونُ المحبوبُ مُهانًا، مُذَلاًّ، مُدَمَّرًا؟ وهل الأمُّ الَّتي لا تغضب عندما ترى ابنَها يُضرَب، تُحبُّه حقًّا؟ وإِن نحن لم تَنْتَبْنا سَوْرَةُ الغَضَب عندما نرى الآخرين مُهانين، مُسْتَغَلِّين، مُذَلّين، فمن المُحقَّق أَنَّنا لا نُحِبُّهم.

"إِنّ غَضَبَنا يُعلن عن حبِّنا الحقيقيّ ».

– « العالَم لم يَكْتمِلْ، بعدُ، بل ما زال في طَوْر البناء، والخَلْقُ مُتواصلٌ، كُلَّ يومٍ؛ والله يعملُ في عالَمنا اليوميِّ، وعلينا التعاونُ معه. وما المحبَّة سوى شريعة بناء العالَم.

"... ليس اللهُ في السَّماء، بل في الإِنسان المسكين الَّذي يُحدِّثُكَ الآن، والمسيح قد تجسَّد في هذا الوَغْد، في هذا السّارق، في هذا الكاذب. ومجدُ الله يتجلّى فيكَ أَنت الّذي يقرأُ الآن، وفيَّ أَنا الَّذي يتكلّم.

"ليست الحياةُ الأَبديَّةُ هي "حياة الآخرة"، ولكنّها تُعاش منذُ اليوم ».

– « لا يخلُص الإِنسان، حقًّا، إِلاّ عندما يُصبح مُخَلِّصاً.

"أدركوا هذا، وعيشوه:

"الحياة هي جعلُ الحُبِّ جديرًا بالتَّصديق، وإِثباتُ أَنّنا محبوبون، وأَنَّنا قادرون على تَعَلُّم الحُبِّ، أبدًا، وهي الاِثّارُ للإِنسان، ولله، بالحبِّ.

"لا، ليست الحياة حُلْمًا، ولا هي مخطَّطٌ بَشَرِيٌّ، بل هي موافقةٌ. فالله يقودنا من خلال الأَحداث، ومن شأْننا أَن نقول "نعم" أَو "لا".

"والعطاءُ ليس عطاءَ وسائل العيش فحَسْبُ، بل هو إِعادةُ مبرِّرات العيش للبائسين.

"علينا أَن ننظر إِلى العالَم بكلّ أَبعاده. تلك هي الوسيلةُ الوحيدة كي نَنْعتِق، نحن السُّعداء، ممّا يُسمّى بتعاسة السُّعَداء. فلن نظفر بالفَرَح، وبمعنى الحياة، وبعذوبةِ العيش عيشةَ أَبناء الله، إِلاّ بقدر ما نكون إِخوةً لإِخوتنا، سائر أَبناء الله ».

– "لا يَسْعَدُ المرء إِلاّ بما يُشيعُه من سعادةٍ. فالعطاءُ هو تَلَقٍّ".

– « كلّما توغَّلَ المرءُ في المعرفة، اتَّضع. من لا يعلمون سوى القليل، قد تُنشيهم قدراتُهم على القراءَة والحساب، ولكن كُلّما أَوغلَ الإِنسان في المعرفة بات في مأمنٍ من الكبرياء ».

– "اَلنَّدَم، بعد فوات الأَوان، باطلٌ؛ فقد تحطَّمت السُّدودُ، وتدفَّقت المياهُ، جارّةً الأَوحالَ؛ المهمُّ هو الغَد".

– "لا يملك المرءُ، حقًّا، سوى ما يستطيع إِعطاءَه. وإِلاّ فهو مملوكٌ لا مالكٌ".

– (في رسالة رفضه وسام الشَّرف كتب الأَب پيير إِلى رئيس الوزراء بيريغوڤوا):

"الشرفُ هو أَن تَخْدُمَ القوّةُ الضُّعفَ".

– "ليست المشكلةُ في امتلاك وسائل العيش، بل في إِدراك هَدَفٍ للحياة" (١٩٧٠).

– « علِّموا أَبناءَكم أَنّ، ثمّةَ، فَرَحًا أَوفرَ في امتلاكٍ أَقلَّ، إِن كان ذلك يُوليهم اليقينَ بأَنّ آخَرين ما كانوا يمتلكون شيئًا، قد كُفْكِفَتْ دُموعُهم" (١٩٧٠).

– « لقد بِتْنا نَعْلَمُ، وعلينا أَن نَتَعلَّمَ، كُلَّ يومٍ أكثرَ، أَنّ ما من شَيءٍ يُؤتي ثمارَه، لدى البَشَر، إِلاّ بفضل صبرٍ لا نهايةَ له... فليس شدُّ سنابل القمح إِلى فوق، هو الَّذي يُسرّع نمُوَّها" (١٩٥٧).

– « من لا يرنو إِلاّ إِلى الزُّهور المُتفتِّحة، وسنى النُّجوم، يُغمِض عينَه الأُخرى بيده، لكيلا يرى البشاعةَ، ويَكْذِبُ على نفسه » (١٩٩٤).

– "مسؤوليَّةُ كلِّ فردٍ تستلزم فِعْلَيْن: إِرادةَ المعرفة، وجرأَةَ القَوْل" (١٩٩٤).

– « عرفتُ قليلاً من المُنْتَحرين، ولكن، كُلَّ مرَّةٍ، ومع أَنّ الأَمرَ لم يكن يتعلَّقُ بأَقارب لي، ولم يكن لديَّ حيالَ الأَمر حيلةٌ، قد تولاّني وَجَعُ الضَّمير، كما لـو أَنَّ البـشريّة قـد افتقرت إلى الحرارة، ولم تعرف أَن تكون حاضرةً، عندما كان يتعيَّن عليها ذلـك » (مـن البرنامج التيلفزيوني ٧ على ٧ – ١٩٩٣).

– « ذاتَ يومٍ، أَثناءَ زيارتي لإحدى جماعات عمَّاوس، قال لي رفيقٌ متقدِّمٌ في السنّ: أَبتِ، إِنّني أَفقدُ البَصَر، ولن أَلبث أَن أُمسيَ عاجزًا عن الخدمة، والخدَمة هي التي أَسبغَتْ على حياتي معنًى، منذُ خمس عشرة سنةً". فأَجبته: "ليس صـحيحًا أَنّـك سـتعجز عـن الخدمة، فحتّى آخر دقيقةٍ من حياتك، ستستطيع أَن تبتسم لرفيقٍ يأْتيك بطَبَـق طعامـك، وستكونُ قد خَدَمْتَ إِن ساعَدَتْه بَسمتُك على عمل ما يتوجَّبُ عليه عملُه، بقيَّـةَ النهـار » (الوصيّة ١٩٩٤).

– "البسمةُ أَقلُّ كلفةً من الكهرباء... ولكنّها تعطي نفسَ القَدْر من النّور".

– "الحياة هي تعلُّم الحبّ".

– « أَلا يمكن أَن يُحاط بنفس القَدْر من التَّكريم الَّذي يُحاط به من يتطوَّعون للحرب، وأُولئك الَّذين يقفون قِسْطاً من حياتهم على التطوُّع للخدمة الإِنسانيّة؟ » (١٩٩٥).

– "كلُّ الثَّوراتِ تنهض باسم الحُقوق المسلوبة، وكلُّها تُفضي إِلى سَـلْب الحقـوق" (١٩٥٦).

– « لكيلا يظلَّ الإِعلانُ العالميُّ لحقوق الإِنسان إِعلانًا عن نوايا طيِّبةٍ فَحَسْبُ، لا بُدّ أَن يُضاف إِليه إِعلانٌ عن واجبات الإِنسان. فعلى كلّ امرئٍ واجبُ تحقيق مصيره، وهـذا الواجب يَهَبُه حقَّ مُطالبة المجتمع، ومطالبة الوالدَيْن اللّذَيْن جاءا به إِلى الوجود، بوسائل تحقيق ذلك المصير. فعلى الواجب أَن يكون أَساسًا للحقوق » (١٩٨٩).

– "ليس هدفُ السُّلطة خِدْمةَ مُتْعة السُّعَداء، بل تحرير من يتأَلَّمون ظُلْمًا" (١٩٥٥).

– « نحن ملحُ الأَرض، ولولا هذه الذَّرَّة الضئيلة، لكان الطَّعامُ تافهًا. وكوننـا ملـحَ الأَرض يُسند إِلينا واجبَيْن: أَلاّ نفقد طعمنا، وأَلاّ نبقى في وِعائنا بـلا اسـتخدام. أَمَّـا إِذا نَهَضْنا بهذَيْن الواجبَيْن، فالبشريَّةُ بأَكملها تكتسب طعمًا، ونرجو أَنَّها سـتخلُص. أَمَّـا إِذا خادعنا، فلن يَصلُح الملْح إِلاّ لأَن يُقذَف به إِلى التُّراب، ويُداس بالأَرجل".

– « هذه قِصَّةُ رَجُل أَعمالٍ كان يقضي عطلةً في الهند. وبينما هـو جـالسٌ علـى الشَّاطئ، شاهدَ صيّادًا عائدًا بَسَمكةٍ، فأُعجب بها، وقال للصيَّاد:

– "يا للسَّعادة! هل ستعودُ لاصطياد المزيد، فأَمضي معك، وتشرح لي طريقةَ الصَّيْد؟ فسأَل الصيَّادُ مستغربًا:

– "وعلامَ أَعود لاصطياد المزيد؟

فأَجابه رجلُ الأَعمال:

– "لكي يكون لديك قَدْرٌ أَوفرُ من السَّمك!

– "ولمَ؟

– "لأَنّك، إِذا ما بعتَ السَّمك، أَصبح لديك مالٌ،

– "ولمَ؟

– "لأَنّك، بالمال، تستطيع ابتياع مركبٍ صغيرٍ،

– "ولمَ؟

– "لأَنّك، إِن امتلكتَ مركبًا صغيرًا، استطعتَ اصطيادَ المزيد من السَّمك!

– "ولمَ؟

– "لأَنّك ستستطيع، حينئذٍ، استخدامَ عُمَّالٍ،

– "ولمَ؟

– "لأَنَّهم سيؤازرونك في العمل،

– "ولمَ؟

– "لكي تُصبح غنيًّا.

– "ولمَ؟

– "لكي ترتاح!

– "وهذا ما أَنا ماضٍ لأَفعلَه في الحال ».

– « لا يَسَعُ أَيًّا من البَشر أَن يخلُص في معزلٍ عن الآخرين. إِنّ البشريَّةَ قبيلةٌ عليها اجتيازُ صحراء، وغزْوُ ما هو أكثر من قارَّة: الأَرض بأَكملها... ولا يسوغ أَن يُترَك الضُّعَفاء يهلكون، بل ينبغي أَن يوجَدَ لكلّ فَرْد مكانٌ يُثبت فيه جدواه. قديمًا كان حتّى مجذوب القرية يجد لنفسه مكانًا، فينْفُخُ النَّار في كير الحدَّاد، أَو يُزوِّد فُرنَ القرية بالحطب... وعلينا أَن نعود فنخترع قرية الأَرض، حيث يتوفَّرُ لكلِّ فردٍ مكانٌ، من الأَوْفرِ موهبةً إِلى المحرومِ من كُلِّ موهبة ».

– « على قمَّة العالَم المنظور، يجثُم الإِنسان هشًّا، مُعَرَّضاً للسُّقوط، وقادرًا على التسامي أَي على بذْلِ ذاتِه طَوْعًا لكي يَتحرَّر الآخرون، جميعُ الآخرين، بدءًا بالأَكثر تأَلُّمًا ».

– « ما لم يَكُن السِّلْم حَرْبًا على البُؤْس، فهو زائف.

وهو، عندئذٍ، ليسَ أَفضلَ من فظاعات الحرب، بل قد ينطوي على قسْطٍ أَوفر من الخِزْي، لأَنّه أكثرُ تمويهًا للرَّذيلة الأَكثرِ نفيًا جوهريًّا لمُبَرِّرات المصير البشريّ: رذيلةِ رفض الحُبّ.

"السِّلم محبَّةٌ، أَو لا وُجودَ له

"وليس للمحبّة سوى دليلٍ يضمن أَلاَّ يكذب الإنسانُ على نفسه، وهو: "عندما، أَنت، تتأَلَّم، أَتوجَّع أَنا، وكلُّ شَيْءٍ فِيَّ يُستَنفَر لتحريرك، كما لو كنتُ أُعَبَّأ لتحرير نفسي من كُلِّ أَلَمٍ جَسَديٍّ، أَوْ نفسيٍّ، أَوْ روحيٍّ ».

– « الحياةُ موافَقَةٌ أَو رَفْضٌ، أكثر منها اختيارًا. نحن لا نختار أَبدًا شيئًا، أَو تقريبًا لا شيءَ، بل نقول "نعم" أَو "لا". نَقْبَلُ أَو نرفُض ما نُواجه، ولا نرى أَوْ نُدرِكُ كلَّ شيءٍ لأَوَّل وهلة.

"إنّ وَتَر الكمان، إن لم يكن مشدودًا، ليس سوى خيْطٍ غليظ، وحتّى لو وضعتَه بين يديْ أكثر الفنّانين عبقريَّةً، فلن يكون أكثر من خيطٍ غليظٍ لا يصلُح إلاّ لربْط الأَحذية. أَمّا إذا شُدَّ، فستنبعث منه أَنغامٌ مُدْهشةٌ.

"إنّ بَسْط الشِّراع، ولو أَدّى إلى تجريح الأَيدي، يجعلُ القاربَ يسير... والرّيحُ، أَفضلُ ريحٍ، إذا توسَّلتَها وأَطلتَ انتظارَها، فهي، أَيضاً، لا تستطيعُ شيئًا، إن كان الشِّراعُ مَطويًّا، والأَيدي متراخيةً... أَمّا الشِّراع المشدودُ باستمرارٍ وعنادٍ، فيقسُر الرّيح، في نهاية المطاف، على الهبوب... ريح الأَبديّ الَّذي هو حُبٌّ، الَّذي يرقُب، بلَهْفةٍ، كلَّ جوابٍ يأْتيه ممَّن يحبُّهم، لكي يستفزَّ، بالاشتراك معهم، فَرَح العالَم أَجمع... ولكنَّ إشراع الشِّراع، والرّيحَ الطيِّبة ليسا كلَّ شيءٍ، إذ لا بُدَّ من وُقوف الإنسان وراءَ الدفَّة... والويل له إن هو حاولَ تحويلَ كلِّ تلك الطّاقة عن هَدَفها المُتمثِّل في السَّعي نحو تحرير الأَكثر تأَلُّمًا ».

– « حَدِّق في ما حولك، فحالما ستكفُّ عن التَّحديق في ذاتك، كي تُحدِّقَ في الآخرين، ستكتشف أَنّ لديك ما تقتسمه معهم ».

– من خطابٍ أَلقاه في مَقَرّ الأُمَم المتّحدة أَمامَ دبلوماسيّين من مختلف الجنسيّات: « ليس المهمَّ قدرتُكمُ على فهم لغاتكم المختلفة، فبالوسائل الحديثة المُتقدِّمة، وبفضل التَّرجمات الآنيّة المتزامنة، تُدركون، فورًا، ما تقولونه بعضُكم لبعضٍ، كلٌّ بلغته الخاصَّة، ولكن ما جدوى ذلك؟ إنّه لا يُفضي، في الغالب، سوى إلى مُجَرَّد معرفتكم الفوريّة

للاتّهامات والشّتائم الّتي يقذفُ بها أَحدُكم الآخر، والمخاوف الّتي يُحاول أَحدُكم أَن يفرضَها على الآخر... ليس مهمًّا أَن يتكلّم بعضُكم لغة الآخرين، بل أَن تتكلّموا جميعُكم لُغَةَ الإنسانيّة الشّاملة، وهذه اللُّغة قائمةٌ بكاملها على لفظةٍ، وعلى قيمةٍ ربّما كانت هي القيمة الشّاملة الوحيدة حقًّا، أَيّةً كانت التربية، واللُّغة، والعِرْق والمذهب. هذا اليقين لدى كلِّ أمٍّ، أَيًّا كان لونُ جلدتها، وجنسُها ومحيطُها، وتربيتُها، هو أَنّها، منذُ أَن تحمل بين يدَيْها هذا الضُّعْفَ، لا يعود لها سوى سعادةٍ واحدةٍ، وسوى شَرَفٍ واحدٍ، يتمثّلان في بذل كُلِّ طاقةٍ، لأَجل خِدْمة هذه الحياةِ الواهنة، بحيثُ تستطيع أَن تُصبح أَقصى ما يمكنها أَن تصبحه... هذه هي شريعة السَّلام، والفَرَح، وهذا هو فرَحُ الحياة ».

– « إِنّنا نولَد في عالَمٍ من الأَوهام، ولا نَكُفُّ عن خَلْق أَوهامٍ جديدةٍ. والتحرُّر من الأَوهام هو بدءُ الحياة الحقَّة. وإِنّما يبلغُ المرءُ مرحلةَ النّضوج، عندما يخرُجُ من الأَوهام ليدخُل عالَم الواقع. هذه الحقيقة تنطبق على جميع الحالات: كالتَّربية، والزّواج، والمحبّة. وعلى من يرغب في معرفة حقيقة الحبّ، أَلاّ يكون قد مُنِيَ بخيبة الأَمل، بل أَن يكون قد تحرّر من الأَوهام ».

– « فلنحترم الإِنسانَ التَّعيس، ولنوحِ له بالثِّقة، ولنستأْهل ثقتَه. لنحترمْ أَسرارَه، وخفَرَه، فلا شأن لنا بماضيه. ولنحترمْ حُرِّيّتَه الدّينيَّة، ولا نُجْبِرْهُ على ترتيل المزامير كي نُقَدِّم له الحساء، بالمقابل؛ ففي ذلك انحطاطُه ».

وجه الإِنسان

الإِنسانُ كائنٌ مسؤولٌ، مؤهَّلٌ للحرِّيَّة،

كائنٌ يمتلك حرِّيَّةَ سِرِّه وتاريخه (كلُّ سؤالٍ يُطرح حول ماضي إِنسانٍ ينبغي أَن يُعتَبرَ خَطَأً فادحًا يتحتّم إِصلاحُه فورًا)،

كائنٌ قد تأَلَّم، ويفتقرُ إِلى الكرامة والصَّداقة؛

كائنٌ قادرٌ على المشاركة،

وقادرٌ على أَن يقول: "لن أكون سعيدًا في معزِلٍ عن الآخرين"، وأَن يعيش وفقَ هذا القول؛

كائنٌ يُعاني القَلَق والفَشَل، والانكفاء على الذَّات،

كائنٌ قادرٌ على الاختراع، للأَفضل وللأَسوأ؛

كائنٌ عليه أَن يختار، أَبدًا، بين شريعةِ السَّلام والحياة، وشريعةِ البُغضِ والموت،

شريعةِ فَرَح الإنسان: "خدمة الأَكثر تألُّمًا، أوّلاً"،

وشريعةِ موتِ الإنسان: "أَنا، أَنا، أَنا".

الإِنسان يرفُض إِلهًا، سيِّدَ كلِّ شيء، قادرًا مُتَسلِّطاً؛

والإِنسانُ يكتشف أَنّه يملك حُرِّيّةً بوسعها أَن تُحِبّ، وبوسعها إِشاعةُ الرُّعب، وأَنَّه يمتلك قُدرَةً عجيبةً بين يدَيْه.

ويكتشف أَنّه يعيش في بشريّةٍ تحتاج إِلى خلق علاقاتٍ، وتُمَزِّقُها تبايُناتٌ مُذْهلةٌ؛ يَتَخبَّطُ بين شهوة العُنْف، ودواعي الرِّقَّة واللاَّعنف،

وقد يُمسي لأَخيه ذِئْبًا،

أَو قد يقنَطُ ويُدمِّر نفسَه.

إِنَّه محبوبٌ من الله الَّذي يَهَبُه الحُرِّيَّة، والقُدْرةَ على ممارسة الرَّحمة؛

يدين ذاتَه عندما يُعْجَبُ بها، ويكتفي بذاته،

ويكبرُ عندما يُصلح الأَرضَ، ويثورُ على الآلام.

فهو كبيرٌ عندما يُساعد الأَكثر سَحْقًا،

وكبيرٌ عندما يعبُد.

هو كائنٌ حقًّا عندما يُشارك، لا عندما يكتفي بتلقّي العَوْن، وكبيرٌ عندما يُشارك.

وَجْهُ الله

الله هو الَّذي لا يُمكن تسميتُه،

هو الَّذي يُحاكي لقاؤُه لقاءَ حُبٍّ حقيقيٍّ.

هو الَّذي يستطيعُ، بحرِّيَّةٍ، إِرسال إِشارةٍ إِلى حياة أَيِّ كائن.

هو الَّذي يُمسكنا، بلا انقطاعٍ، من يدنا، ولو نحن لم نُدركْ ذلك.

إِنّه الموجودُ وُجودًا كُلِّيًّا، إِنّه الحيّ.

إِنّه الكائن والدَّاعي إِلى مشاركته كلَّ كيانه.

هو الَّذي نسيءُ في حديثنا عنه، لأَن في كلِّ ما نقول عنه شيئًا ناقصاً...

الله هو الَّذي أكتشفُه من خلال يسوع،

هو الَّذي يجعلُني يسوعُ أكتشفُ فيه المُحرِّرَ الحقَّ؛

الله هو الَّذي يدعوه يسوعُ أَبًا، والَّذي أكتشفُ لديه هوًى لمساعدتي على الانعتاق من شقائي،

هو الَّذي يعرفُه يسوعُ معرفةً حميمةً، بحيثُ يستطيع أَن يُؤَكِّد لنا: "إِنّه لا ينتظرنا وفي يدَيْه فواتير حساب، بل ينتظرنا لكي يتيح لنا ملءَ الحياة، في أَعقاب الفشل والخطيئة".
فاللهُ ليس كُلِّيَّ القُدْرة المُتَسلِّط (وإِن هو كان كذلك لتوجَّبتْ دينونته).

يسوع هو الذي عاشَ بُرهةً من تاريخنا في أَحد البلدان، غير أَنّه يعيش أَيضاً في ما وراءَ الزمن،
وهو الَّذي يُعلن لنا أَنّ الإنسانَ وُجِدَ للزَّمن ولما وراءَ الزَّمن.

اللهُ هو أَبٌ وابنٌ وروحٌ، أَي إِنَّه حُبٌّ يَهَبُ ذاته، ويخرج من ذاته، كي يُسعِدَ آخرين.

اللهُ أَبٌ وابنٌ وروحٌ، أَي الأَب والابن المتحابَّان، ونسمة حبِّهما هي الرُّوح.

يسوعُ يؤكِّدُ عندما يُعلن: "طوبى للمساكين، فملكوتُ السَّماوات لهم"، أَنَّ الله حبٌّ، وليس فقط للَّذين عرفوه بواسطة الوَحْي،
فوَحْيُ أَنَّ اللهَ حُبٌّ مُنتَشرٌ بأَساليبَ شتّى في العالَم: "من أَحبّ، عَرفَ اللهَ"، و "اللهُ الحقُّ، الَّذي هو حُبٌّ، واحدٌ".
يسوع يُعلن أَنَّ كُلَّ من يسأَل اللهَ أَن يكون رؤُوفًا يُهينُ الله. فما يتوجَّبُ علينا أَن نسأَله هو أَن يُحَوِّلنا، نحن، كي نكون مُحِبِّين.

اللهُ هو الَّذي خاطرَ، وما انفكَّ يُخاطر بمنحنا الحُرِّيَّة،
فلدَيْه من جنون الحُبِّ ما يجعله يعتقد أَنَّ الحُرِّيَّة خيرٌ من الأَخطاء الَّتي تُرْتَكَب باستخدامها،
إِنَّ الإيمانَ أَوسعُ رُقْعةً من جماعة المُؤْمنين؛
يسوعُ جاءَ كي يُتيح لنا معرفةَ ذاك الَّذي نعلم أَنَّه يُحبُّنا،
والرّوحُ القُدُس، نسمةُ حبِّ الآب ويسوع، يحملنا على الحُبّ.
"من وَضع يَدَه في يد الفُقَراء، وَجَدَ يدَ الله في يده الأُخرى"،
"بقَدْر اتّحادي بإخوتي، أَظفرُ بالاتّحاد بالله ».

إِنّ يسوعَ على الصَّليب هو الكُلِّيُّ القُدْرة الَّذي أَمسى أَسيرًا طَوْعيًّا للحُرِّيّة الَّتي وهَبَناها.

يسوعُ هو الله المحبُّ الَّذي جعلَ نفسَه أَسيرًا، طَوْعًا، كي يقتسم آلامَ إِخوته البَشَر. إِنّ وجْهَ الله الحقّ هو كُلِّيُّ القُدْرة، ولكن على نقيض البَشَر، فلأَنَّه حُبٌّ، جعَل نفسَه، طوْعًا، رهينَ الحُرِّيّات الَّتي خَلَقَها لكي ينشر الحُبَّ.

اللهُ هو الأَب الَّذي يستقبل، فيما وراءَ المَوْت، من أَجل حياةٍ خَرَجتْ من ظِلِّ الزَّمن، وستمتدُّ إِلى ما وراءَ الزَّمن.

من حصاد التَّجارب

– « عندما يكونُ المرءُ شابًّا، قد يَشُقُّ عليه احتمالُ الآخرين. ولكن، بعد أَن يمتدَّ به العُمْر، كم يشُقُّ عليه، أكثر، أَن يَحتَمِل ذاتَه، إِذ قد بات، يومًا إِثْرَ يومٍ، يعرفُ ذاتَه معرفةً أَعمقَ وأَصدَقَ ».

– « سأَلتُ آينشتين عمّا يتوجَّب توقُّعُه من عواقب قُدرة الإِنسان على تشطير الذرَّة، فأَجاب بما لم ينفكَّ يُؤَكِّدُه حتّى مماته، أَي نَدَمه ووَجَع ضميره لإِسهامه في وضع مثل هذه القُدْرة بين أَيدي شعوبٍ ورُؤَساءِ دُوَلٍ على قَدْرٍ كبيرٍ من الصِّبيانيّة. إِلاّ أَنَّه سارَعَ فأَردف، مثيرًا دهشتي: "بيد أَنّ تَفجير المادَّة هو الأَقلُّ خطرًا بين التفجيرات الثلاث الَّتي ستدمغُ مُستقبلَ البَشَريَّة".

التفجيرُ الثَّاني هو التفجُّر السُّكّانيُّ، تفجُّرُ الحياة، الَّذي لن يصمدَ في وجهه سَدٌّ. فمن شأن تقدُّم الطِّبّ والصَّيْدلة كَبْحُ وفيّاتِ الأَطفال، بوتيرةٍ أَسرع كثيرًا ممّا ستتضاءل نسبة الولادات في البلدان حيثُ كان، أَبدًا، تكاثرُ الولادات هو ضمان استمرار الشُّعوب. وبالتّالي، سنشهدُ تَفَجُّرَ بعض أَرجاءِ البسيطة، وتَخَلْخُلَ توازُن كَوْكبنا الزّائف، لأَنَّ للحياة الغلبةَ أَبدًا.

أَمّا الانفجارُ الثَّالث والأَقوى، فهو الانفجارُ النفسيُّ، انفجار المعرفة، إِذ بات بوسع الإِنسان الاطِّلاعُ على كُلِّ شيءٍ، وبات كلُّ نبأٍ يُشاع في لحظات، وغدا النّاسُ، في أَقاصي الدُّنيا، يعرفون كيفَ يعيش آخَرون في أَماكنَ أُخرى، وسيشرع الفُقَراء يتأَلَّمون لإِدراكهم كُنْهَ أَلَمِهم؛ وقد أَمسى بوسع أَيِّ قائدٍ يَضَعُ يدَه على وسائل الإِعلام، وبواسطة نبأ كاذبٍ، أَن يستفزَّ مليارَ كائنٍ بشريٍّ على مليارٍ آخر » (١٩٥٥).

– « وحدَهم البشر يقتُلون مليونًا منهم في سبيل انتصار قائدٍ لهم: بشرٌ لا يعرفُ أَحدُهم الآخر يَقْتَتِلون تنفيذًا لأَمر رُؤَساءَ لهم يتعارفون، ولكنَّهم لا يقتتلون، رُؤَساءَ قد

يوقِّعون اتّفاقيةَ السَّلام، وكلٌّ منهم يَشدّ على يد الآخر، وفي يده الأُخرى كأسٌ من الشامبانيا » (١٩٩٤).

– « من المرجَّح أَنَّ الفلاسفةَ سيقولون عن هذه الحِقْبة من التَّاريخ إنّها غَدَتْ زمنَ عجز الأَقوياء، ونوعٍ لا يُصدَّق من قُوَّة الضُّعفاء؛ وقُوَّة الضُّعَفاء هذه، الَّتي تَبرُزُ هنا وهنالك، قد تكون من الشِّدَّة بحيثُ تَشُلُّ من كانوا يزعمون أَنّهم أَسيادُ كلِّ شيءٍ » (١٩٦٥).

– « دعوني أُفضِ باعتراف، فَبعدَ كلِّ ما التقَيْتُ من شخصيَّاتٍ بارزةٍ، ترسَّختْ لديَّ القناعةُ بأَن لا وجودَ لرجالٍ عُظَماء، فهناك رجالٌ طيِّبو النوايا، شُجعانٌ، موهوبون؛ وهناك رجالٌ جديرون بالازدراء لأَنّهم يستغلّون مواهبَهم للخداع. ومن ثَمَّ، فقد وُجِدَ أَشخاصٌ سُذَّجٌ أَفلحوا في قيادة شُؤون الدَّوْلة مع كلّ ما يُداخلها من تشابُكٍ مريعٍ، قيادةً رائعةً، وآخَرون ماهرون أَفسدوا كُلَّ شيء. وما من قائد في مأْمنٍ من الخطأ. ومن ثَمَّ فأَيُّ انتسابٍ إِلى رجُلٍ، ومُثُلٍ، وقيَمٍ بَشَريَّةٍ تُكرَّس لها الحياة، إِن هو إلاّ طيْشٌ مأْفونٌ، لا بُدَّ أَن يوجع آجلاً أَو عاجلاً؛ فضلاً عن أَنّ عبادة أَيٍّ كان، عبادةَ أَصنامٍ، تنتهي، لا مَحالةَ، إِلى الإِضرار به ».

– "السِّياسيُّون لا يعرفون الشَّقاءَ إِلاّ من خلال الإِحصاءات. والمرءُ لا يبكي أَمام الأَرقام" (١٩٩٥).

– « لا تستطيع أُسرةٌ أَن تعيش ما لم يُكيِّفْ كبارُها وأَقوياؤُها أُسلوبَ عيشهم وِفْقًا لحاجاتِ الطِّفْل والمريض والشَّيخ. وذلك هو شأْنُ المجتمع أَيضاً » (١٩٩٤).

– « لا يحكُمُ المجتمعاتِ سوى واحدةٍ من شريعتَيْن: شريعةِ البُغْض والموتِ العاكفةِ على خدْمة الأَقوى في المقام الأَوَّل، وشريعةِ السَّلام والحياة الَّتي ترمي إِلى خِدْمة الأَكثر تألُّمًا، أَوّلاً ».

– « الغَضَبُ إِحدى فضائل الإِنسان؛ ولكن بُغيةَ تبسيط الأُمور يُعلِّم الصغارُ أَنَّ الغَضَب رذيلةٌ؛ فإِذنْ، والحالةُ هذه، قد ارتكب يسوعُ أَمرًا شائنًا، عندما قلب موائد تجّار الهَيْكل.

"في الواقع، الغَضَبُ، مثل المَيْل الطَّبيعيّ، ومثل الذَّكاء، قد يكون فضيلةً أَوْ رذيلةً، وفقًا لما ينصبُّ عليه، وهو كفيلٌ بهَتْك الحجاب عمّا نُحبُّ: فإِن أَنا غَضِبْتُ لأَنّني خَسرتُ في اللَّعب، ففي ذلك الدَّليلُ على أَنّني أُحبُّ ذاتي؛ أَمّا إِذا غضبتُ رغبةً في حماية آخَرين

وإنقاذهم، فهذا الغَضَب يُثبت محبَّتي للآخرين...

"أَعتقد أَنّ الحروب، في تاريخ البشريّة، قد نجمت، جزئيًّا، عن الفَشَل في تعبئة طاقة الغَضَب البشريَّة حَوْلَ الأَهداف السَّليمة » (الوصيّة ١٩٩٤).

– « شُبّان اليَوم سيُدركون، غدًا، أَنّ قوى الجيوش إِن هي إِلاَّ مهزلةٌ في مواجَهة الإِرهاب، وثَوْرة الجياع، واضطرابات العالَم الجديدة" (الوصيّة ١٩٩٤).

– « ما لمْ يكُن الإِنسانُ أَحمقَ، ومملوءًا غرورًا، لأَنَّه مملوءٌ جَهْلاً، فهو لا يتوقَّع، بعدُ، من العِلْم أَن يُطْلعَه على كُلِّ شيءٍ. لقد تحطّمت كبرياؤنا، وبفضل ذلك، اكتشفنا المجهولَ من جديدٍ. وربَّما توقَّفنا، أَخيرًا، إِلى إِدراك أَنّنا لسنا أَسيادَ الكون » (الوصيّة ١٩٩٤).

– « للفُقَراءِ أَبناءٌ كُثُرٌ، فيما يحدُّ الأَغنياءُ من إِنجابهم؛ وهذا سيقود، لا محالةَ، إِلى ما أَفضى بالإِمبراطوريّة الرومانيَّة إِلى الانحطاط، إِذ انتقل البرابرة، في غضون أَشهرٍ معدوداتٍ، من التخوم إِلى قلب روما! وكيف لنا أَن نتصدّى للإِرهاب، وخطفِ الرهائن، والتهديدِ النوويّ من قِبَل أَفراد؟ » (الوصيّة ١٩٩٤).

– « مراقبةُ الطَّبيعة، وتعلُّمُ الزِّراعة والبَذْر، والتآلف مع وتيرة الفصول، وجعل الأَطفال، في سنٍّ مُبكِّرةٍ على تماسٍّ بالأَرض، الَّتي تُعلِّمهم احترامَ الحياة، كلُّ ذلك أَساسيٌّ للتوازُن الإِنسانيّ.

– "أَمام الثمرة، أَو حبَّة القمح موقفُنا الشَّائعُ هو المسارعة إِلى استهلاكهما فورًا. ولكن لا بُدَّ أَن نرقب، لدى الشُّعوب الّتي لها بالمجاعة عهدٌ، كيف يحرص أَربابُ الأسر، في شيءٍ من الشَّراسة، على الاحتفاظ بالبذار لموسم البذْر ».

– "الوطَنُ هو، قبلَ كُلِّ شيءٍ، الأَرضُ الَّتي تودع البذار".

– « من الأَهمِّيَّة بمكانٍ أَن يعيَ أَطفالُ اليومِ، الطابعَ القُدْسيَّ الَّذي يَسِمُ ما هو ضَروريٌّ للجميع، والَّذي ليس وَقفًا على أَحد ».

– « ليست الأَرضُ لنا: هذا المبدأُ الأساسيُّ يذكّرنا به المدافعون عن البيئة. وإِنّني أَعُدُّ هذا الاهتمام الحديثَ العهد، بالبيئة، جَوْهريًّا لتاريخ البشريَّة. فقد غدَوْنا ننظُر إِلى النَّشاط البَشَريّ نظرةً جديدةً، بعد أَن كانت الأَرضُ، حتّى الآن، تُستَثْمَرُ على نحو ما تُعْتَصَر إِسفنجةٌ، بلا حدود، و بِهَوَسِ التَّقَدُّم على الجار، بُغيةَ الانتصار في سباق

المنافسة، ممّا كان سيودي إلى كارثةٍ محقَّقةٍ، قد شرَع بعضٌ منها يحدُثُ حقًّا ».

– "قد تكون الحُجَجُ ضروريّةً للإقناع، ولكنَّ الأَعمالَ أَجدى إقناعًا".

– « إنّني أَثقُ بالمهارة البَشريَّة القادرةِ على ابتكار وسائلَ تُوفِّر لنا التَّدفئةَ والغذاءَ، من غير أَن تمضي قُدُمًا في جَرْح الطَّبيعة، ومن غير حاجةٍ إلى تدمير آلاف الهيكتارات من الغاباتِ الّتي، لولاها، لافتقرت الأَرضُ إلى الأُوكسيجين والماء. فعوَضاً عن إمداد الشُّعوب الجائعة بشحناتٍ من الموادِّ الَّتي غالبًا ما تُتلف قبل أَن تُوزَّع، فلنقدِّمْ لهم بذارًا يُلائم تُربَتَهم، وأَسمدةً لا تنقلب عوامل تلوُّث. وبما أَنَّ للكيمياء طاقةً على تصْنيع موادَّ جديدةٍ تمامًا، قادرةٍ، إن هي أُضيفت إلى ثمار الأَرض، على تلبية احتياجاتٍ بشريّةٍ ماضيةٍ في تزايدٍ مُطَّردٍ، فلنولِ هذه الأَبحاث أَوْلويَّةَ اهتمامنا ».

– « إن لم يكن السَّلامُ حَرْبًا على البُؤْس، فهو زائفٌ، وهو، إذن، ليس أَفضل من فظائع الحرب، بل ربَّما هو انطوى على قِسْطٍ أَوفرَ من السَّفالة، لأَنّه، أكثر من الحرب، تستّرٌ مرائيٌّ على رَذيلةٍ تُنكِر إنكارًا جوهريًّا أَسبابَ وُجودِ الإنسان ومصيره: رذيلة رَفْض الحبّ ».

"السَّلام هو الحبّ، أَو لا وجودَ له ".

– « ينبغي أَلاّ يُقال، يومًا، لفتًى، أَن لا مستقبلَ له، كما ينبغي أَلاّ يظلَّ رجلٌ أَو امرأَةٌ "نافلَيْن" لا جدوى منهما ».

– « نحن بحاجةٍ إلى من يُشيعون العَدوى

"فما من قيمةٍ إنسانيّةٍ تقوى على النُّموِّ والانتشار بلا عدوى. إنَّ العدوى نَمَطُ سلوكٍ تلقائيٍّ، على غرار سُلوك الوالدَيْن اللّذَيْن يُواكبان استيقاظ طفلٍ على الحياة.

"مُشيعُ العدوى هو الَّذي يُميِّز فظائعَ العالم وروائعَهُ، ولا يُطيق الفَظائعَ، فيسعى إلى إيجاد حُلولٍ لكي تتضاءَل. مثلُ هذا جديرٌ بأَن يُصغي إليه النَّاس لأَنَّه يعمل ».

– "ما حُرِّيَّةُ الحُقوق سوى خِداعٍ ومَهْزَلة، عندما تكونُ البطونُ خاويةً".

– « ليس سوى شرٍّ واحدٍ يدعو إلى اليأْس، هو الشَّكُّ في الغفران". هذه هي العبارة الأُولى من وصيَّتي الحقيقيّة ».

– "ما لم نتخطَّ شريعةَ القسوة الَّتي تجعل الكبيرَ يبتلعُ الصَّغيرَ، هوَيْنا إلى البربريَّة".

– « ليسَ العَملُ هو الَّذي يَهَبُ الإنسانَ كرامتَه. بل الإنسانُ هو الَّذي يُسبغ على العمل كرامته، بفضل الهَدَف الذي يوجِّهُهُ نحوَه. إنّ نقل كومة تراب يُصبح ذا قيمةٍ جُلّى إن هو كان خِدْمةً للآخرين. وتكنيسُ قاعةٍ من أَجل فَرَح الآخرين أَخطر شأنًا، وأَجملُ من صُنْع قنبلةٍ تقتل الجيران.

"الخدمة، أَيضاً، هي وسيلةٌ للوقوف، حيثُ لا يكفي العمل. فقد يعمل الإِنسان لنفسه، وينكفئُ على أَنانيَّتِه، ولكنَّ الخِدْمة هي الَّتي تُسبغ على العمل والحياة معنًى، وهي الَّتي تجعل من أَيِّ كائنٍ شخصاً، أَي علاقةَ حبٍّ ».

– « كلّما تكاثرت واكتملت الأَشياءُ التي تُنتجها التّقْنياتُ العلميَّةُ المُتَقَدِّمةُ، الَّتي كان من شأنها تحريرُ الإِنسان من وسائل تأمين احتياجاته، كُلّما اتَّضحَ أَنَّ الأَغنياءَ يُفْرَغون من شخصيَّتهم الحقيقيّة. فالوسائلُ الَّتي غدَتْ في متناول يدهم، لا تعود تُمثِّل إِمكانيّاتٍ مُتاحةً، بل ضَرورات تمارس طُغيانًا، وتولِّد آليَّات يذوب فيها الكائنُ في أَعماقه.

"لقد كان من شأْن الأَعمال الطَّبيعيّةِ الضَّروريّةِ للعيش الأَساسيِّ، في حالات الحياةِ البدائيّة، أَوْ في حالات البُؤْس، أَن تُسبِّبَ الإِرهاق، وإِذ بالانعتاق من هذه الأَعمال يغدو للكثيرين سببَ تلاشٍ، إِذ من جرّاء تشبّثهم بامتلاك الوسائل الحديثة، يفقدون السَّيطرةَ عليها، ويخضعون لتحكُّمِها، ويُمسون عاجزين عن الاستغناء عنها، ولا يتخيَّلون حتّى القدرةَ على إِعطائها. إِنّهم ما عادوا لها مالكين، بل باتوا، حقًّا، مملوكين.

"إِحدى مُشْكلاتِ عصرنا الأَساسيَّة هي القدرةُ على استخدام الأَشياء، عِوَضاً عن الخضوع لسُلْطانها ».

– « لن يَتَعيَّنَ على من يُناقشون حقوقَ الإنسان وواجباته أَن يُفكِّروا طويلاً، إِن وَضُح في أَذهانهم ما هو الإِنسان، وإِن أَدركوا أَنّ المنبع الأَساسيَّ، المُطْلَق، الكلِّيَّ لجميع الحقوق، هو حاجةُ المرء إِلى الوسائل الَّتي تُؤَهِّله لأَداء واجباته: أَي تمجيد الخالق، بتحقيق كمال كيانه. وعلى واجب الاكتمال، في سبيل تمجيد الله، تقومُ جميع الحقوق، الَّتي لا يعودُ لها معنى، إِذا ما طولب بها، كما لو أَنّها غايةٌ في ذاتها، مرتكزةٌ على الإِنسان بحدّ ذاته، وكأَنّ لا شيءَ بعدَه، وكأَنّ لا بُعْدَ له.

"الحياةُ هي الَّتي تولِّد الشريعةَ، ولا يسوغ أَن تُجَمِّد الشريعةُ الحياةَ ».

الفقر – المال – العطاء

– « عندما مَثُلَ يوسفُ ومريم إِلى النَّزْل، رُدّا وقيلَ لهما: "إِنّه مُمتلئٌ، فامضيا إِلى هناك، إِلى المغارة، مع البهائم". ولو أَنّهما كانا قد جاءا في موكبٍ حافلٍ، فمن المُحقَّق أَنّه كان قد وُجد لهما مكان، ولكان طُردَ مَنْ هو أَفقرُ منهما لكي يَحُلاَّ محلَّه. ولكنَّ يسوع آثَرَ أَن يجيءَ هكَذا، فقيرًا بين فقراء، مُشرَّدًا، لا مَسْكِنَ له » (١٩٩٢).

– « وفقًا للإنجيل، قد يتحلّى بروح الفقْر رئيسُ مؤسَّسة، أَو رئيسُ دوْلةٍ، إن هما وعيا أَنَّ كُلَّ ما يتمتَّعان به من امتيازاتٍ إنّما يُرتِّب عليهما دَيْنًا. ففقير الرُّوح هو الَّذي لا يُطيق أَن يرى نفسَه سعيدًا في معزلٍ عن الآخرين. قد لا يتوجَّب عليه أَن يهجُرَ كُلَّ شيءٍ، بل عليه الاضطلاع بواجب مُهمّاته، باستقامةٍ، وأَن يَجْهَدَ في سبيل سعادة الجميع، بحيثُ يتهيَّأ عملٌ، وأجرٌ مناسِبٌ لكلِّ فردٍ؛ وطالما حداه هذا الدَّافعُ، فهو فقيرٌ بالرّوح ».

– « في الواقع، لم يَعُد، ثمّةَ، سوى عظيمٍ واحدٍ على الأَرض، هو بمفرده، أَعظمُ من جميع القُوى العُظمى مُجتَمعةً. وهذا "الْعَظِيم" الأَوحد، سيِّدُ الغَدِ المُطْلَق، هو بُؤْس العالَم » (١٩٨٢).

– « طالما كرَّرْتُ على مسامع رجال الحُكم: "حتّى لو كنتُم أَشرفَ الحُكّام وأَشجعَهم، وأَفضلَهم، سيبدو لكم أَنّ تجديد ستائر الأُوبرا وزينتها أَوْلى، وأَشدُّ ضرورةً من إدخال الماءِ الجاري، وإقامة المراحيض في البيوت الزريَّة. وقد لا يدلُّ ذلك على أَنّكم تفتقرون إلى العَطْف، بل على أَنَّ وظيفَتكم تفرضُ عليكم المُثول إلى الأُوبرا، وحينَ تجدون فيها شيئًا عتيقًا أَو مهترئًا، تأْمرون بتغييره، وأَنتم، في ذلك، على حقٍّ؛ ولكنَّ وظيفتكم لا تدفعكم إلى الشُّخوص إلى حيثُ الأمَّهات تنتحبنَ، وأَنتم، في ذلك، على خطأ » (١٩٩٠).

– « عندنا، عندما يعود الأَولادُ إلى البَيْت فَرِحين ويهتفون: "بابا، ماما، إنّني جائعٌ!"، فهُتافهم يُعبِّر عن فرَح الحياة، لأَنَّ المائدةَ حافلَةٌ بما يشتهون. ولكن ينبغي أَلاّ يغرُبَ عن بالنا أنّ ذلك الهُتاف، في نفس الآن، وفي شتّى مناطق العالَم، يعني، لملايين الأَولاد، نقيضَ ذلك تمامًا: يعني بَشاعةَ الحياة القُصوى » (١٩٥٩).

– « بكلِّ مال العالَم يتعذَّر صُنْعُ بَشَرٍ، بل غالبًا ما يُفضي المالُ بالبَشَر إلى الانحطاط. ولكن بواسطة بشرٍ يَهَبون ذواتِهم، يُمكن صُنْعُ كلِّ شيءٍ مُهمٍّ، حتّى المال اللاّزم، عندما يصبح المالُ خادمًا، لا سيِّدًا » (١٩٥٥).

– « الشُّعورُ الَّذي ينتابُ إنسانًا مُبتلًى بالفقر، والَّذي لا يلبثُ أَن ينقلب يقينًا، هو أَنّه نافلٌ، لا جدوى منه. ذلكم هو دليلُ الفقر الأَوَّلُ، الأَساسيُّ، والشَّاملُ، الأَعمقُ غورًا، والأَبلغُ أَثرًا في النَّفس، والأَشدُّ تدميرًا" (١٩٩٥).

– « إنّ أَسوأَ أَلَمٍ قد يُلمُّ بإنسانٍ أَو بشعبٍ هو أَن يُنكَرَ وُجودُهما، وأَن يُنْبَذا من الجماعة البشريَّة. لن أنسى أبدًا ذلك المُتَسوِّلَ الَّذِي قال لي: "إنّ نظراتهم تخترق جَسَدي".

وفي هذا السّياق يبدو تعبيرُ الأَب "جوزيف ڤريزنسكي": "العالم الرّابع"، صحيحًا إِلى حدٍّ مُريعٍ. فقد طالما دارَ الحديث عن عالَمَيْن: الغرب والشَّرق. ثمّ انصبَّ الاهتمام على عالَمٍ ثالثٍ. وبعد أَن تمَّتْ تجزئةُ العالَم، هكذا، إِلى فئات اتَّضح أنّه ما زال هناك، في قلب كُلِّ فئةٍ، بَشَرٌ لا ينتمون إِلى أَيٍّ من تلك العوالِم، لأَنَّ بُؤْسهم يتجاوزُ كُلَّ حدٍّ ».

– « بكلّ مال العالم لن يُفلح أَحد في خلق رجالٍ، ورجالٍ مُتَحَابِّين. بل فقط بفضل رجالٍ متحابّين، يمكن فعلُ كلّ شيءٍ، حتّى السَّعادة، والسَّلام الحقّ، والمال الضَّروريّ ».

– "لا يملك الإِنسان إِلاّ ما يستطيع إِعطاءَه، وإِلاّ فهو مملوكٌ وليس مالكًا".

– « عندما ينهض بواجباته، على خير وجهٍ، إِنسانٌ يتبوَّأُ، في المُجتمع، مركزًا رفيعًا، من جرَّاء وظيفته، أَوْ ثروته، أَو ثقافته، يحترمُه الجميعُ، ولكن لا يهتزّ لذلك أَحدٌ، فالجميع يَروْن أَنّه إِنَّما يُؤَدّي واجبَه؛ ولكنَّهم لا يلبثون أَن يُفكّروا: "مع كلِّ ما يتمتّع به من امتيازات، ربَّما كان عليه أَن يفعل المزيد".

"ولكن إِن اتَّفق لك أَن مررتَ، في ليلةٍ قارسة البرد، بشارعٍ، وصادفت فقيرًا يلتقي فقيرًا آخَرَ أَشدَّ منه بؤسًا، فينتزعُ معْطَفه، وينفحه إِيّاه، فلا بُدّ من أن يتركَ ذلك المشهدُ في أَعماقك أَبلغَ أَثَر. فذاك الَّذي لا يملك شيئًا قد جاد؛ أَمّا أَنا الَّذي يملكُ أَكثر، فما عساني أَفعل للآخرين، لإِخوتي المُتَأَلِّمين؟

من غير عزمٍ صامدٍ ودؤوبٍ على الاعتراف بخَطَل التَّوهُّم بإِمكانيّة الظَّفَر بسعادةٍ حقيقيّةٍ، في معزلٍ عن الآخرين، ومن غير إِرادة خدمة الأَكثر تألُّمًا أَوّلاً، وحمل الآخرين على خدمتهم، في المقام الأَوَّل، لن تكون الحياةُ سوى جحيمٍ، إِذ إِنّ الضُّعفاء سيُسحَقون، والأَقوياءَ الَّذين يزعمون أَنّهم "وصلوا"، يعيشون معزولين، في خَوْفٍ مُقيمٍ من أَن يسحَقَهم، بدورهم، الأَقوى منهم ».

– « فلنَجْرُؤ، أَوّلاً، على الإِصغاء إِلى يأْس جميع الجائعين المفتقرين إِلى عمل، ومسكنٍ، ومدرسةٍ، والَّذين يُمثِّلون أكثر من ثُلثيْ سُكّان العالَم. وأَسوأُ ما في الأَمر أَنَّ هؤُلاءِ باتوا، اليومَ، يعلمون كيفَ يعيش الآخرون، أي نحن؛ بيد أَنَّنا، نحن، أَيضاً، المحظيّين، نعيشُ في رُعب، بسبب الظّلم الَّذي يُفضي إِلى الثَّوْرات، وبسبب هشاشة كُلِّ شيءٍ، وبسبب الشَّكّ الَّذي يُعكّر رؤيتنا للمستقبل ».

– « حيالَ الأَلَم الَّذي يبدو وكأَنَّه لم يعُدْ يُطاق، لا يحتاج المتأَلِّمُ إِلى نقاشٍ عقليٍّ، بل إِلى حُضور صلاةٍ، حضور صداقةٍ وتبادُلِ ودٍّ؛ فهذه، وحدَها، كفيلةٌ، حتّى حيالَ الأَلَم

المُرعب، ببعث الإيمان في حُضورٍ آخر، وفي احتمال العبء، دقيقةً إِثْرَ دقيقةٍ، لأنَّها حُضورُ رجاءٍ أَقوى من جميع الآمالَ الخائبة ».

– « الرِّسالةُ الأُولى الَّتي على من يبتغون مقارعةَ جميع أَصناف البُؤْس التَّصدِّي لها، هي إِظهار هذا البُؤْسِ للعيان، لأَنَّ القابضين على مقاليد السُّلطة يعيشون في ما بينهم، بعيدًا عن الواقع.

"والمُهمَّة الأُولى الموكَلة إِلى من يتوخَّوْن العملَ المؤَثِّر، هي هتكُ السِّتار، وإِطلاعُ الرأْي العامِّ، على ما يأبى الاطِّلاع عليه ».

– « متى سعى صاحبُ السُّلطة، حقًّا، إِلى وضع سُلطاته في خدْمة الأَشدّ ضعفًا، فحتّى لو هو كان مَلِكَ الملوك، فهو يمتلك روحَ الفقر إِن كانت سُلطَتُه مُوظَّفةً في خدمة الفقراء ».

– « لو نحن وُجدْنا في مثلِ ظُروفهم الوراثيَّة، والتَّربويَّة، ومصاعب العمل والسَّكَن، أَما كان من المُمكنِ أَن نصبح، نحن أيضاً، حُطامًا بَشَريًّا، ولُصوصاً وقَتَلةً، وربَّما أكثر منهم انحطاطاً؟ ».

– « للإِنسان نفسٌ، ولكن قبلَ أَن نُحدِّثَه عنها، فلنُعطهِ قميصاً، ولنَضَعْ فوق تلك النفس سَقْفًا، ثمّ فَلْنُبَيِّن له ما تنطوي عليه نفسُه ».

– « إِنّ عالَمًا يُساس من أَجل مُتْعةِ السُّعَداء، لا من أَجل تحرير مَن يتأَلَّمون ظُلمًا، سيسوده البُغْضُ، لا محالة".

حيالَ كلِّ أَلَمٍ بشريٍّ، انصرفْ، بكُلِّ طاقاتك، لا إِلى تخفيف وطأته، في الحال، فَحَسْبُ، بل إِلَى تقويض أَسبابه.

وما من إِنسانٍ طيّبٍ وعادلٍ وصادقٍ، حقًّا، ما لم يعزِمْ، وفق إِمكانيَّاته، على وقف جهوده، بلا حسابٍ، وبكلِّ كيانه، على تَيْنِكَ المُهمَّتَيْن معًا، فهما، إِن افترقتا، أَنكَرتْ إِحداهما الأُخرى ».

– « ينبغي التمييز بين الفاقة والفقر:

فالفاقةُ هي ما يحول دونَ أَن يُحقِّقَ الإِنسانُ إِنسانيّتَهُ.

أَمّا الفقر، في معناه الإِنجيليّ، فهو الشَّرْطُ الَّذي لا مَعْدى عنه كي يكون الإِنسانُ إِنسانًا؛ وهو رفضُ السعادة في معزلٍ عن الآخرين؛ إِنّه فَقْرُ القلب.

أَظُنّ أَنّ هذا اللَّبْس، الَّذي يُمثِّل الفقرَ بالفاقةِ يُطفئُ النُّورَ الَّذي أَفاضه علينا الرَّبُّ في التَّطويبات ».

المشاركة والمساواة

– « أكُرِّرُ القول: إنّ قَدَر الإنسان هو أَن يكون للإِنسان؛ وكم هو جليٌّ واقعُ أَنَّ الحياةَ لا معنى لها سوى أَن تكون فُسْحةً من الوقت، يتعيَّنُ علينا، أَثناءَها، أَن نختبر قدرتَنا على أَن نكون إخوةً، وبذلك نكون، حقًّا، أَبناءَ الآب، الآب الوحيد، الشَّامل.

"إنّ "طاغوت" الحُبّ يجعلني أَتوجَّعُ، عندما أَنتَ، أَخي، تتأَلَّم، وبكلِّ حُرِّيَّةٍ وطَواعيةٍ، أَستنفرُ جَميعَ طاقاتي في سبيل تحريرِك، كما لو كنتُ، أَنا ذاتي، أُعاني ذلك الأَلَم.

"فما دُمْنا، نحن المدَّعين أَنَّنا أَحرارٌ، لم نتمثَّل بظروف آلام إِخوتنا المريعة، وطالما نحن المُدَّعين أَنّنا أَبناءُ الله ومؤمنون، وخاضعون لشريعة الله، لم نُصبح، بكُلِّ حُرِّيَّتنا وإِيماننا، وبطريقةٍ تتغلغل إِلى أَعماق جسدنا ونفسنا، مُشاركين في آلام إِخوتنا، فما حُرِّيَّتنا، على حدّ ما كتبتُ لإِيزنهاور، سوى جيفةٍ بَدَأَتْ تتفسَّخ ».

– « مبدئيًّا ونَظَريًّا، قد أَنقذْنا الحُرِّيَّةَ والعَدْلَ. ولكنَّهما، في الواقع، يفوحان برائحة الجيَف. وهما ضائعان، سلَفًا، إِن لم يَتَسرَّبا إِلى الحياة اليوميّة، وما لم يُضمَن لجميع البَشَر الخُبزُ، والعَملُ، والسَّكَنُ، الَّتي يحتاجون إِليها ليكونوا بشرًا، حقًّا.

"ينبغي الجَهْرُ بهذه الحقيقة: ليس صحيحًا أَنَّ مشكلةً مثلَ مشكلة السَّكَن هي قضيّة صَدَقةٍ وإِحسانٍ، بل هي، لمن يعملون بشَرَفٍ، حقٌّ، وقضيَّةُ عدلٍ، وليْستْ منحةً. وإِنَّها إِهانةٌ، لمن يعملون، أَن يُقال لهم بأَنَّ الإحسانَ سيتصدّى لمشاكلهم، وسيبادر إِلى إِغاثتهم ».

– « ينبغي أَن نجأَر بهذه الحقيقة: ليس الاعوجاجُ في إِخوتنا البَشَر المهمَّشين، بل في الأُسلوب الأَساسيّ الَّذي تنهجه الجماعةُ في المدينة، والَّذي به تجهَد في مضاعفة مُتَع السُّعداء، أكثر من اهتمامها بتحرير من يتأَلَّمون ظُلْمًا.

"وما هو كذبٌ ليس تسمية أُولئك الرِّجالِ والنِّساء إِخوةً وأَخَوات، بل إِطلاق اسم الحضارة على عالَمٍ يُفلح في تحقيق إِنجازاتٍ جسيمةٍ جمَّةٍ، منها زيارةُ القَمَر، ولكنَّه يفشل في توفير عنايةٍ ناجعةٍ لأَعضائه المُستضعَفين، والمجروحين، الَّذين لن يلبثوا أَن تُمْتَهَن كرامتُهم ».

– « في هذا الجيل، بات كوكبُنا، فجأةً، يأهل بالسُّكَّان، بوتيرةٍ أَسرعَ من وتيرةِ القَتْل الَّذي كان يمارِسُه الإِنسانُ على أَخيه؛ ففي غضون قرنٍ واحدٍ، تخطَّى عددُ سُكّان البسيطة أكثرَ من ضعف ما كان عليه، وهو في طريقه إِلى التَّضاعُف من جديدٍ، في أَقلَّ من خمسين عامًا. إِنّ الأَراضيَ والبحارَ مجتمعةً، والَّتي تحفل بموارد تكاد تكون غير

مستثمرةٍ، من جرّاء حماقة الطريقة الَّتي تُستَغَلّ بها حتّى الآن، ليست قاسيةً، ولا هي عاجزةٌ، بل هي زاخرةٌ بعطايا احتياطيَّة، شرطَ أَلاّ تُدَنّس بمزيد من الدَّم، وشرطَ أَن تكون صيحةُ الصَّغير الجائع، في قلوب الأَغنياء والجماهير، نشيدًا أَعذبَ وقعًا، وأَشدَّ إِثارةً للاهتمام، من المَيْل الوبيل إِلى الاغتناء الفرديّ الَّذي يُفسِد خيرَ الجميع، من غير أَن يُفلح في منح الفَرَحِ لمن باتوا له عبيدًا ودُمًى، والَّذين لن يلبثوا أَن يُمسوا جلاّدين لأَنفسهم، أكثر منهم جلاَّدين للجموع".

"ليس أَمامَ إِنسان اليَوْمِ مَهْرَبٌ، وهذه هي فُرصةُ مصيره الصَّارم.

"فبمُكنتهِ أَن يكون الأَتعسَ أو الأَسعدَ، في كُلِّ ما سَبَقَ من تاريخٍ، حسبما هو سيواصل، في حماقةٍ مقرونةٍ بالخُبث، السَّعيَ كي يَسْعَدَ في معزلٍ عن الآخرين، أَو بقَدْر ما سيتَّصف بالجُرأة وإِشعاع السَّلام، بحيثُ يدرك أَنّ فَرَح حُرِّيَّته يكمُنُ في خدمة فَرَح الجميع وحُرِّيَّتهم، وهو مُدْرِكٌ أَنّه، في سبيل هذه الخِدْمة، يملِكُ، اليومَ، من الوسائل، أَكثر ممّا امتلك أَيُّ إِنسانٍ قطّ ».

– « طالما أَدركَ بَشَرٌ أَنَّهم "نافلون"، وطالما كانوا، فعلاً، كذلك، بلا ذنْبٍ اقترفوه، على هذا الكوكب المصنوع، أَيضاً، من أَجلهم، والَّذي يشتركون في امتلاكه، والقادرِ على إِنتاج ما يكفي الجميع، بل يفيض كثيراً، ربَّما من غير حدود، بشرط أَنْ يتمَّ هذا الإِنتاج بتبصُّرٍ، أَي أَن يتمَّ بقَصْد الخِدْمة، لا بقصد الرِّبْح؛ على هذا الكَوْكَب الَّذي من شأن بعض نشاطات أَنانيّة تحويلُه سريعًا إِلى يَباب، في حين أَنّ من شأن بعض تضحيات حبٍّ حقيقيٍّ إِعادتَه، وفي أَسرع ممّا نَظُنُّ، إِلى خِصْبه، على هذا الكوكب المشتَرَك، طالما ظلّ بشرٌ "نافلين"، فعلينا، جميعًا، تَحلُّ لعنةُ قايين ».

– « حيالَ الفراغِ النَّاجمِ عن انهيار جميع القِيَم القديمة، نحن في حِقْبةٍ مفْصليَّة. فمن جهة، ثمَّةَ أَزمةٌ اجتماعيَّةٌ، وأَخلاقيّةٌ، وبخاصّة، أَزمةٌ روحيَّةٌ لا سابقَ لها، تطالُ جماهيرَ مُبْتلاةً بالأُمِّيَّة الدِّينيَّة، وهي، بشريًّا، ماضيةٌ في الانحطاط على وتيرة أَعمال العنف الَّتي أَمستْ ظاهرةً شائعةً، ومظاهر الجنون والحُمْق اليوميّة؛ وفي الجهة الأُخرى، تحوّلاتٌ من السُّرعة والعُمْق، بحيثُ منْ شأْنها إِحداثُ صدمةٍ خلاصيَّةٍ، تستفزّ، قبلَ فوات الأَوان، يقظةَ القُلوب والعقول، وتبعثُ تحوُّلاً إِنسانيًّا بعيدَ الغَوْر يُمكن تلخيصه في: "مزيدٍ من الكيْنونة، بفضل مشاركةٍ عادلةٍ، عوضاً عن مزيدٍ من الامتلاك » (من حديث إِلى مجلّة فيغارو ماغازين ١٩٨٥).

– « أَعطوا، اقتسموا وقتكم، و علمكم، وتجربتكم، تتلقَّوا، بالمُقابل، الكثيرَ، وأكثـرَ من كُلِّ ذَهَب العالَم: سعادةً كثيفةً قائمةً على سرِّ الإنجيل الَّذي يَقذف به كثيرون، خلسةً، إلى القمامة، لأَنّهم يَعُدّونه مُفرطاً في الاقتضاء: "أَحْبِبْ قريبَك كذاتك". »

– « العنيفون الحقيقيُّون هم الَّذين يمتلكون وسائلَ إغاثة من يفتقرون إلى كُلِّ شيءٍ، وإفساح الفُرصة لهم كي يستعيدوا إنسانيَّتَهم، ولكنَّهم يُحجمون ».

– « إنَّ أثمنَ درس تلقَّنتُه من "عمّاوس" هو أنَّ الرفاقَ باتوا يُدْرِكون أَنَّ المُساواةَ، كفكرةٍ مُجرَّدةٍ، الَّتي يُزْعَم أَنّها مطلبُ الفُقَراء، إنْ هي سوى خدْعةٍ. فما يُطالبُ به المتألِّمون هو الصِّدْقُ والعَدْل، ليس إلاّ » (١٩٧٠).

– « ليست المساواة هي ما تنبغي المطالبة به، لأَنّها وَهْمٌ. فاللاّمساواة تُواكب المرء من المهد إلى اللَّحد، إذ إنّه عندما يولد يكون ضعيفًا، ووالداه قويَّيْن. وعندما هو يقوى يكون أَبواه قد وهنا. ما هو ضروريٌّ للحياة نفسها هو التَّضامن » (١٩٩٥).

سرّ الأب پــيير

– "أَنا أَشعر أَنّني أَداة الله، في حين يعزو لي البَشَرُ، بدافع عطفهم، كمالاً لستُ أَملكُه".

– "أَظُنُّ أَنّ أَكبرَ فَشَلٍ لقيتُه، هو ما لم أَجرُؤْ على فعله".

– "ثمَّةَ خُبَراءُ في السِّياسة. أَمّا أَنا فأُوثِرُ أَن أكون خبيرًا في الإنسانيَّة".

– « في الواقع لم أَتحلَّ إلاّ بملَكةٍ واحدةٍ، وهي ضربٌ من حاسَّة شمٍّ تُمكِّنُني من استشفاف البُؤْس الَّذي أَمرّ به، لحظةً فلحظةً؛ وبعد تقديري للمُمْكِن، أُقْدِمُ وأُجازف. بالإجمال: حَدْسٌ وجُرأَة ».

– « قلتُ (في أَميركا) أُمورًا لم يأْلفوا سماعَها، وكان من شأْنها أَن تُسبِّب لي الرَّجمَ أَو الشّنق. ولكنّها أُمورٌ من صُلب الإنجيل ».

– « رسالتي؟ ليس لي سِوَى رسالةٍ واحدةٍ، هي صرخة: "شاركوا! أَعطوا! مدُّوا أَيديكم للآخرين. احتفظوا أبدًا بزجاج نافذةٍ مكسورٍ، في عالمكم الوثير، كي تسمعوا الأَنّات القادمةَ من الخارج » (١٩٩٥).

– « عيوبي الرئيسة هي اللاَّانضباط، ونفادُ الصَّبر. هل عليَّ كَبْحُها، أَوْ الحفاظُ عليها؟ الخيار صَعْبٌ، فمن أَجل هذه العيوب، يُحبُّني النَّاس ».

– عن ذيوع الشّهرة قال: « تصوَّروا هذا العذابَ: أَن يكون المرءُ كحيوانٍ غريبٍ، وأَلاّ يستطيع التَّواري عن الأَنظار، وأَن يُطارده الإِعجاب... كلُّ أولئك القَوْم، الَّذين يتوخَّون أن يجعلوا منك قدِّيسًا، في حين أَنَّك لستَ سوى إِنسانٍ بائسٍ كجميع الآخرين... قد يبدو الأَمرُ مُؤثِّرًا، ومُدْهشًا، ولكنَّه، أَيضاً، مُؤْلمٌ كالصَّليب".

"إِن توخَّيتَ إِزعاجَ زميلٍ لك، فتمنَّ له أَن يَذيعَ صيتُه".

– « لستُ أُونس أَيَّ تَوْقٍ إِلى الطُّفولة، وإِلى الأَيّام الغوابر. فما نفعُ البُكاء على الأَطلال؟ إِنّه لأَخلقُ بنا الاهتمامُ بأمورٍ جدّيّة » (الوصيّة ١٩٩٤).

– "بالإِجمال، أَنا واثقٌ من أَنّني لم أُخطئْ، فعندما يمدُّ المرءُ يدَه للشَّقاء، لا يسعُه أَن يخطئ" (١٩٩٥).

– « إِنّ نظامًا كنظامنا (لا يُقيم لِلْمَحْرُومينَ وزنًا)، أَنا مستعدّ لخرقه، حتّى نهايةِ العالَم، إِن اقتضى الأَمرُ، إلى أَن يتغيَّر ويُصلَح. إِنّني أوثِر رؤيةَ طفلٍ يعيش، مخالفًا القوانين، على أَن أَراه يموت وفقًا للقوانين ».

– "إِن كانت حياتي تساؤُلاً دائمًا، فهي كذلك لأَنَّ يقينًا يقطنُني: وهو أَنّ اللانّهائيّ هو حبٌّ".

– « إِنّ الحياةَ هي بعض الوقت الممنوح لحُرِّيّاتنا كي تتعلَّم الحبَّ، وتتأَهَّب للِّقاء الأَبديّ مع الحبّ الأَزليّ. هذا هو اليقين الّذي أودُّ أَن أورِّثَه، فهو مفتاح حياتي وأَعمالي » (الوصيّة ١٩٩٤).

عمّاوس

– « لا يمكن اعتبار أَحَدٍ مُستقيمًا وصادقًا، حقًّا، ما لم يُصَمِّمْ، بعزيمةٍ ثابتةٍ، وبكُلِّ كيانه، على تكريس ذاتِه لتخفيف الآلام البَشَرِيَّة، وتقويضِ أَسبابها » (من قوانين رفاق عمّاوس).

– « إِنّ أَساس الإِدراك الأَكيد الأَوحد، لدى رجُل العَمَل، هو اقتسامُ مُعاناة من يتأَلَّمون، ويهوون إِلى القنوط » (من قوانين رفاق عمّاوس).

– « يحسُن التعريفُ بالأَلَم، وفرضُ معرفته على المُجتمَع، فهذا هو الشَّرطُ الأَوَّلُ لقيام عملٍ حقيقيٍّ، أَي عملٍ لا يقتصر على تخفيف عِبْء البؤْس، بل يعكف على تقويض أَسبابه. وحينئذٍ لن يظلّ مَكمومًا صوتُ من لا صَوْت لهم، ويحلُّ محلَّ جوع المتأَلِّمين، جوعٌ إِلى العدل ».

– « ينبغي أَن تكون أُولى مهامّنا، إِبراز الأَلَم المحيق بنا، وفـــرض معرفَتـــهِ علـــى الجميع، بحيثُ لا يعود يُطيقه لا السُّعَداء ولا البائسون » (١٩٥٤).

– « ما نحن سوى رُوّاد اكتشفوا البُؤْس. نحن وجدناه، ولكنَّ كواهلَنا ناءَتْ بعِبْئِـــه، ولذلك نحن نجأَرُ بأَنّاته في آذان المُجتمع الَّذي عليه أَن يَحُلَّ مشاكله، ويمحو عارَه ».

– « العمل أَشدّ صعوبةً للمؤمن، فهو خاضعٌ باستمرارٍ لمقتضيات المُطلَق الَّتي يشعر بعدم كفاءته لها » (١٩٩٣– أَثناء برنامج ٧ على ٧).

– « خلاصُ العالم، اليوم، يستلزم وجودَ رُهبانٍ من طرازٍ جديد، أَي حفنةٍ من رجالٍ، بقلوب أَطفالٍ، يحلُّون بين ظهرانَيْ بائسين كي يُساعدوهم على أَن يُصبحوا بَشَرًا، وبـــذلك يتحدَّوْن المُجتمع بأكمله ».

– « القاعدةُ الأُولى، قبلَ العمل، هي أَن يضع المرءُ نفسَه موضعَ الآخرين. ما مـــن التماسٍ حقٍّ للخير العامّ ممكنٍ في معزلٍ عن ذلك » (١٩٥٦).

– "كلُّ حركة "عمّاوس" تكمُنُ في هذه الفكرة: يُنقِـــذ المـــرءُ نفـــسَه، عنـــدما يُنقِـــذ الآخرين".

– "نحن طاقة تخميرٍ للضَّمير الاجتماعيّ".

– « تعريف عمّاوس الأَساسيّ هو: الاستقبال، والعيشُ المشتَرك، وأَن نكون أَحرارًا بفضل الخبز الَّذي نكسبُه بعمَلنا، عَملٍ لا نقوم به، فقط، من أَجل سَدِّ الرَّمَق، بل لكي يكون لنا الحقُّ والقُدْرة على التحريض، في قلب المجتمع، ونكون صوتَ من لا صوتَ لهم ».

– « إِنّني أَقول، بصدقٍ، لرفاقي عندما يشكرني أَحدهم: لا داعيَ للشُّكر؛ صحيحٌ أَنَّك لولاي، لكنتَ متسوّلاً، ولكنْ صحيحٌ بنفس القَدْر أَنّني، لولاك، لكنـــتُ، أَيـــضاً، متـــسوِّلاً، وثرثارًا، وصنجًا رنّانًا، صاحبَ أَفكارٍ جميلةٍ، وكلمات أَنيقةٍ، ولكنّها عاجزةٌ عن تحريك أَيِّ شَيْءٍ في من يسمعون. فالعاملُ الوحيدُ القادرُ على التَّحريك، ليس الخواطر والعبارات، بل الجماعات الَّتي تُنجز عَمَلاً. إِنّها، في العالَم أَجمع، تتكلَّم بأفعالها ».

– (قال الأَب پـــيير، مخاطبًا رئيس شرطة باريس): « أَنتم بكُلِّ سُلْطاتكم، أُسودٌ؛ أَمّا نحن فلسنا سوى براغيث. وطالما شوهِدَت البراغيثُ تلدغ أُسودًا، ولكن نادرًا ما شوهدت الأُسودُ تعضّ البراغيث. يحقّ لكم أَن تخافوا منّا، فنحن أَقوى منكم ».

– « كيف لا يكون المرءُ نشيطاً وَسْطَ هذه الجماعة النَّشيطة، وكيف لا يكــون فــي سَلامٍ، وسْط تلك المجموعة من الرِّجال والنِّساء، الَّذين يبدو التَّعَبُ على تحرُّكاتهم، ومــع ذلك ما انفكّوا يعيشون مُثُلَ المُشاركة؟ إنَّ فِعْلَ "الحبّ" لا يشيخ ».

– « ما الإعجابُ سوى عدمٍ. وحدَها الصَّداقةُ حقيقةٌ، الصَّداقةُ المتمثِّلةُ في التَّعاضُــد على مواصلة الجُهْد، في سبيل إنجاز المَهامّ الجيِّدة، العسيرةِ، والضَّروريَّة، معًــا، وفــي احترامٍ متبادَلٍ متواضع.

"فمن مثل هذه الصَّداقة، وُلدت الصَّدمة الجماعيَّة. ولئن استفزَّتْ ستُّ جُمَلٍ مثلَ هذه الأَمواج، أَلم يكُنْ ذلك لأَنّها لم تنطلق من شفاه فردٍ، بل تفجّرت من صُلب حياة جماعــاتٍ اختلط فيها صعاليكُ الأَمس بأُناسٍ اشمَأَزّوا من كونهم سُعَداء، في معزلٍ عــن الآخــرين، وقد اتَّحدوا، جميعًا، في تواضعٍ، ولكن في اندفاع الهوى، طيلةَ سنواتٍ، كي يكونوا، فــي حدود قدراتهم الضئيلة، ولكن بجدوى، مُنقِذين لأُسَرٍ لا مأْوى لها، ولم يبــقَ لهــا علــى الاحتمال طاقة...

"إنّ الفقرَ يدينُ الحُرِّيَّة، وإن لم تَجِد الحُرِّيَّةُ السَّبيلَ إلى القضاءِ على الفقر، فمن شأْن الفقر أَن يقضي، لا محالة، على الحُرِّيَّة.

"فوحدَها هزيمةُ الفقر تعني انتصارَ الحبّ، وعندما تعجزُ الحُرِّيَّةُ عن تحقيــق هــذه الهزيمة، فما هذه الحُرِّيَّة، في الواقع، سوى كذب، لأَنّها ليست حُرِّيَّةً خاضــعةً لاســتبداد الحُبِّ، والجوعِ، والعطش إلى العدل، ومن ثمّ فهي حرِّيَّــةُ القــويِّ فحَــسْب، واحتــضارُ الضَّعيف » (بيروت شباط ٥٩، في ذكرى نداء شباط ٥٤).

– "القريبُ الَّذي يأْتي فيقرعُ بابَنا ويقول: "هل من مكانٍ لي؟"، نحن لا نعلَمُ من هــو، ولا نعرف شيئًا عن آرائه، ولا ندري هل هو مؤمنٌ أَم لا... نحن نراه شــابًّا أَو شــيخًا، ولكنَّنا نجهلُ هل هو مثقَّف – فكثيرون، ما بيننا مثقَّفون، وقد تابعوا تعليمًا عاليًا، ولكــنّ الشّقاء حلَّ بهم. إنّنا لا نعلم سوى أَمرٍ واحد: إنّه كائنٌ مُتَأَلِّمٌ، وسيجد لدينا ما يفتقر إليه: الكرامةَ، إذ إنَّه، بعَملِه، سيكسَبُ الرَّغيفَ الَّذي سيَطْعَمُه، وصداقةَ الرِّفاق. لن يكون فــي فردَوْسٍ، ولن يُعاشر ملائكةً، ولكنَّه سيلقى صداقةً حقَّةً، هيَ، وإن بدَتْ تُثير الدَّهــشة، إلاّ أَنّها قائمةٌ، ودائمةٌ.

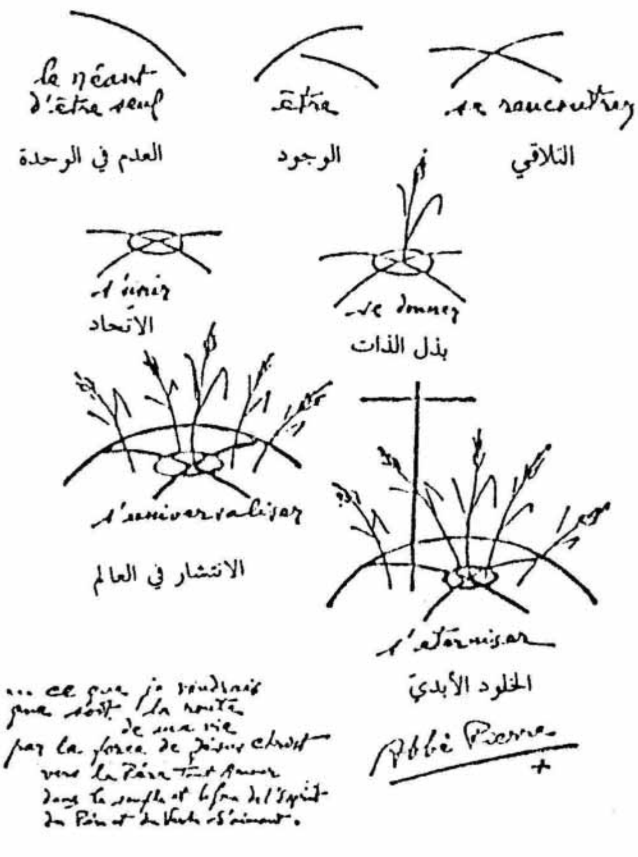

هذا ما أتمنّى أن تكون عليه مسيرة حياتي، بقوّة يسوع المسيح، صوب الآب الحبّ المطلق، في نسمة روح الآب والكلمة المتحابّين، وناره.

الأب پيير

مصادر

Edouard Le Joly: *Mère Teresa et les Missionnaires de la charité,* Le Seuil, Paris, 1979

Edouard Le Joly: *Mère Teresa, Messagère de l'amour de Dieu,* Le Seuil, Paris, 1983

Edouard Le Joly: *Mère Teresa, la pauvreté et la gloire,* Le Seuil, Paris, 1993

Jose Luis Gonzalez – Balado: *Le sourire des pauvres (Fioretti de Mère Teresa),* Mediaspaul et Paulines, 1982

Malcolm Muggeridge: *Mère Teresa de Calcutta,* Le Seuil, Paris, 1971

Navin Chawla: *Mère Teresa, une Vie pour l'amour,* L'Archipel – Paris 1992

Frederic Lenoir & Estelle Saint Martin: *Mère TERESA – Biographie,* Plon, Paris 1993

EILEEN EGAN: *:Such a Vision of the Street–Mother Teresa, the Spirit and the Work,* Sidgwich & Jackson, London, 1985

LUSH GJERGI: *Une Vie, Mère Teresa,* Le Cerf, Paris 1985

Mgr JEAN-MICHEL DI FALCO: *Mère Teresa – Les Miracles de la foi,* Edition 1, 1997

Monique De Huertas: *Mère Teresa,* Centurion 1993

Kathryn Spink: *Mère Teresa, Une Vie,* Robert Laffont – 1997

J.L. Gonzalez – Balado: *Le Sari et la Croix,* Mediaspaul & Paulines, 1987

Desmond Doig: *Mère Teresa et les siens,* P. Lethielleux – Paris 1980

Perle Scemla: *Thérèse Teresa, La Passion en Héritage,* Editions 1, 1997

Luc Balbont: *Mère Teresa, En Notre Ame et Conscience,* Nouvelle Cité, Paris, 1982

Dominique Lapierre: *:Plus grand que l'amour,* Robert Laffont – 1990

ظهر للمؤلف

- قدّيسة من بلادنا – الطوباويّة مريم يسوع المصلوب (سلسلة دراسات كرمليّة)، منــشورات المكتبة البولسيّة، جونية، ١٩٩٠.
- السياسيّ القدّيس – المهاتما غاندي – (سلسلة النوابغ)، منشورات المكتبة البولسيّة، جونية، ١٩٩٢.
- فرنسيس... أصلح كنيستي (سلسلة النوابغ)، منشورات المكتبة البولسيّة، جونية، ١٩٩٤.
- صوت من لا صوت لهم – الأب پــيير (سلسلة النوابغ)، منــشورات المكتبــة البولــسيّة، جونية، ١٩٩٧.

كتب مُعرَّبة

- على درب الحياة مع الكسي كاريل، منشورات المكتبة البولسيّة، جونية، ١٩٨٤.
- يد الله "سارقو الله"، (سلسلة الشهود)، منشورات المكتبة البولسيّة، جونية، ١٩٨٨.
- ثلاث عشرة قصّة (سلسلة الوداع)، منشورات المكتبة البولسيّة، جونية، ١٩٩٠.
- أيدٍ ملطّخةٌ بالدّم (سلسلة الوداع)، منشورات المكتبة البولسيّة، جونية، ١٩٩٥.
- أُذكروا الله – تأمّلات من وحي رسائل الصوفانيّة، منشورات المكتبــة البولــسيّة، جونيــة، ١٩٩٥.